شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٦٨ / ٦٩ تموز (يوليو)/آب (أغسطس) ١٩٧٧

شهريه فكريه لمعالجه احداث القضيه الفلسطينيه وشؤونها المختلفه .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بنايه الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ؛ راس بيروت ، بيروت ــ لبنان ؛ ص.ب ١٦٩١ . تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع : غازي دانيال

سعر هذا العدد : ٧ ل·ل· في لبنان، ٨ ل·س· في سوريا ، ٩٠٠ فلس في الكويت والعراق
١٦ درهما في دولة الامارات العربية ، ٩ ل·ل· في سائر الاقطار العربية
٧٠٠ درهم في ج·ع·ل·

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوى (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
منى السعودي

المحتويات

نختصر الصيف ، فنقدم عددين في عدد واحد ، لتوفير مساحة من التامل في مسيرة « شؤون فلسطينية » · ونقدم دعوة حارة الى الاصدقاء والقراء للمشاركة في ابداء الراي والملاحظة ، لكي يكون صدورنا في أول الخريف تلبية لمتطلبات التجديد ·

ننظر قليلا الى الوراء ، فنرى قدرة الكلمة على البزوغ في اشد الايام ظلمة ، وفي اكثر الظروف قسوة · نحمل الكلمات ونمشي بين القذائف والعرق بحثا عن مطبعة وعن ورق وعن حبر · ونصر نصر على الا نتاخر عن موعدنا مع القارىء·

إلى أيـــن ؟

الى اين ؟

بعدما قيل لواشنطن ما قيل ، وبعدما قال الرئيس الاميركي المؤمن ما قال، انتهت مرحلة من مراحل الانتظـــار العربي التقليدي · فالى اين ؟· ان كل شيء يحتاج الى اعادة نظر ، والى انقلاب في الرؤية ، والى مبادرة عربية حاسمة تجعل الموقف العربي موضوع انتظار الاخرين ·

ان ريحا ما قد توقفت فجاة · وكان ضربة من السراب قد اعادت الصحوة الى السائرين في العراء · ومن دون تغير جـــديد ، ومن دون مقدمـــات ضرورية ، ينقلب انتظار السلام المبطيء والحتمي الى مواجهة حرب سريعة وحتمية ، ابرز ما في دلائلها من مفارقات هو ان اليـــد التي تلوح بهـــا هي اليد الاسرائيلية ·

ويعرف العرب ، الآن ، ان الولايات المتحدة لا تملك ، ولا تريد ان تملك ، بناء متكاملا من شروط التسوية التي ترضي الحد الادنى من مفهوم العرب للسلام · وتدعي الادارة الاميركية الجديدة ، امام زائريها ، بانها ما زالت تقرا في كتاب البدايات ، وتنتظر قراءة الصفحة الاسرائيلية الجديدة · وقد تلاها زعيم « ليكود » منذ ايام ، ولا جديد ·· لا جديـــد الا دفع لحظـــة الصراع الى انفجار جديد ·

ويعرف الفلسطينيون ان لهم وطنا ، وان « وعد كارتر » لا يخدعهم · فهم ليسوا في حاجة الى وطن ، وانما هم في حاجة الى وطنهم · وان « وعد بلفور » الذي يوقظه هذا التداعي كان اعلان الحرب على الوطن الفلسطيني· ان العمل الفلسطيني لا يبحث عن وطن ما فوق ارض الآخرين ، بل يقاتل لبناء استقلال الوطن الفلسطيني على الارض الفلسطينية ·

ويعرف الاسرائيليون انهم يؤسسون حياتهم على الوطـــن الفلسطيني · انهم يعرفون تاريخهم · فلن يختاروا ، من تلقـــاء انفسهم ، ان يعترفوا بالوجود الفلسطيني ـ المنفي ، ولن يحلوا بايديهم هذه المؤسسة الحربيـــة

الا اذا ارغموا على الادراك ان لا مفر ٠٠ ومن يرغمهم علـــى ذلك ؟ ان الاجابة جالسة في بيوت العرب ، في ثورتهم وفي ثروتهم ، وفي مدى وعيهم لكنز الوقت ٠

وتعرف واشنطن ان العرب يعرفون ان احترامها الشكلي لاستقلاليـــة الارادة الاسرائيلية ، وضيق امكانيات الضغط على اسرائيل ، هو احتيال على الوقت وعلى العقل وعلى النفط ، فان عدم رفع خمسة بالمائة من سعر النفط يوفر لاميركا قوة اقتصادية تشتري بها ، او تبيع ، اسرائيل الكبرى٠

ولكن ، هل يعرف بعض المسؤولين العرب ان اندفاعه نحو الاستيلاء على الدور الاسرائيلي في بعض مناطق العالم لا يدفع اميركا الى الاستغناء عن خدمات اسرائيل ، ولا يدفعها الى المفاضلة ، بل يجعلها اكثر انصرافا الى امانها بسبب تعدد الاصدقاء ؟

ان تفريط هذا البعض بمصادر قوة الضغط على واشنطن يعفي واشنطن من الضغط على تل ابيب ٠ وان « بيع موسكو بواشنطن » هـــو شكل من اشكال الانتحار السياسي ، حتى بالنسبة الى عشاق واشنطن ، لانه يفقدهم حرص واشنطن على ضمان هذه العلاقة ٠

الى اين ٠٠ الى اين ؟ اننا مقبلون على فترة انفراج في التوتر السلفي !! الذي ساد زمن الصراع العربي ـ الاسرائيلي طيلة عام ٠ فالذين لا يرون مصالح التسوية الا في البيت الابيض ، يجب الا ينسوا ان مصالح اميركا في ايديهم ٠

ان كل شيء يحتاج الى اعادة نظر ، والى انقلاب في الرؤية ، والـــى مبادرة عربية حاسمة ٠

ومرة اخرى نصرخ : القدرة على خوض الحرب هي القدرة ذاتهـا على فرض السلام ٠

محمود درويش

الصّراع العربي الاسرائيلي .. من حول أميركا

لطفي الخولي

صحيح ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وهي الحرب الرابعة في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي ، كانت اول فعل هجومي من جانب العرب ضد اسرائيل واحتلالها للارض العربية ٠

صحيح ، ايضا ، ان حرب اكتوبر سجلت ،لاول مرة ، انتصارات عسكرية تكتيكية لصالح العرب ، كان لها آثارها السياسية والاقتصادية السلبية على اسرائيل ، داخليا وخارجيا ٠

صحيح ، كذلك ، ان حرب اكتوبر قد كشفت للعالم وللعرب انفسهم ، مدى ما اصبح هؤلاء الذين هزموا ثلاث مرات في اقل من ربع قرن ، يملكونه ـ في مواجهتهم لاسرائيل ـ من طاقات واسلحة ذات وزن استراتيجي ٠ تكتسب فاعليتها ـ اساسا ـ من تزاوج القدرة القتالية المتطورة للجندي العربي والثائر الفلسطيني مع ضغط البترول العربي بفوائضه المالية المؤثرة في السوق الدولية للطاقة والنقد معا ٠

كل هذا صحيح ٠٠ لكنه يظل محصورا بوجه واحد من وجهي « العملة السياسية الجديدة » المتداولة اليوم في المنطقة ٠ والتي صكتها نيران حرب اكتوبر وما تداعى عنها من احداث محلية ودولية ٠

□□

على الوجه الآخر من العملة ، ثمة مجموعة اخرى من السمات الواقعية التي يجب ان لا نغفل قراءتها، والا اصيبت حساباتنا وتحليلاتنا بنوع من «الحول السياسي »

بمعنى انه اذا كان صحيحا ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ . هي اول فعل هجومي عربي ، فان هذا الفعل لم يتمكن من ان يواصل تقدمه الى النقاط التي كان يستهدفها في خطته المحدودة في سيناء والجولان • وكان السبب الرئيسي في الشلل الذي مني به هذا الفعل ، هو تدخل الولايات المتحدة الامريكية بالنجدة العسكرية الكثيفة الى ميدان القتال في الايام الاخيرة من الحرب • وذلك على نحو اقرب الى المشاركة المباشرة منه الى مجرد الدعم التقليدي بالسلاح • الامر الذي اختار معه الرئيس المصري انور السادات ايقاف اطلاق النار ، وتجميد حركة الفعل الهجومي • وقد برر السادات موقفه حينذاك ، الذي يختلف عن موقف سابق له رفض فيه قبول نصيحة الاتحاد السوفييتي بعد النجاح في عبور قناة السويس واجتياح خط بارليف وقبيل ساعات من قيام الاسرائيليين بالتسلل الى غرب القناة خلال ما عرف باسم « ثغرة الدفرسوار » ، بأنه اذا كان في مقدوره ان يقاتل اسرائيل الا انه لا يستطيع ان يحارب امريكا بعد ان نزلت الى ميدان القتال •

وصحيح ، ايضا ، ان الانتصارات العربية التكتيكية في حرب اكتوبر قد افرخت آثارا سلبية على اسرائيل ، الا انها ـ في نفس الوقت ـ كشفت عن قصور القدرة العربية عن استيعاب هذه الانتصارات والتحكم في توجيه مسارها من ناحية ، وسرعة الاستفادة من آثارها السلبية على اسرائيل ، من ناحية اخرى ، بشكل جماعي ورشيد • الامر الذي زلزل الى حد بعيد أسس البناء الجنيني للتضامن العربي الذي قام خلال الحرب ، بدل ان يدعمه ويطوره • وفجر ، بالاضافة الى التواجد الامريكي الجديد في المنطقة ـ وهو موضوع بحثنا في هذا المقال ـ عديدا من التناقضات التي كانت تحتل مراتب فرعية او جانبية • وذلك على نحو حاد ، بلغ درجة الحرب الاهلية في موقع استراتيجي خاص من الجبهة العربية ، هو لبنان • ومع عمق واتساع حركة الاحداث ، اخذت هذه التناقضات تصعد ـ عمليا ـ لتحل محل التناقض الرئيسي « العربي ـ الاسرائيلي » ، في حين هبط هو بدوره الى الدرجة الثانية من الاهتمام الفعلي •

وكانت سياسة الخطوة خطوة الامريكية التي قادها « هنري كيسنجر » وزير خارجية امريكا السابق ، بعد اندحار بلاده في فيتنام وجنوب شرقي اسيا ، والتي عقد تحت لوائها اتفاقين للفصل بين القوات في سيناء وثالثة في الجولان ، هي شرارة تفجير الغام التناقضات العربية الثانوية على حساب

التناقض الرئيسي ٠

ذلك ان هذه السياسة ، تحت ضغط ظروف اول فعل هجومي عربي لم يكتمل بدت فيه « امريكا الوفاق الدولي » ـ لاول مرة ـ بوجه نصف عابس ونصف باسم ، يثير ـ لدى القوى الحاكمة والمسيطرة في المنطقة مشاعر متناقضة من الحيرة والخوف والامل ، طرحت نفسها كبديل موضوعي اسهل واكثر امنا من سياسة المواجهة العربية العسكرية البترولية ضد اسرائيل ٠ وبقدر ما كانت سياسة المواجهة العسكرية البترولية تجمع القوى العربية وتبني منها وحدة عمل على الرغم من كل الاختلافات والتناقضات . بقدر ما تباينت المواقف العربية وتصادمت من حول التعامل مع سياسة الخطوة خطوة وآثارها ، حتى في محيط من تفاعل معها ايجابيا ٠

بيد ان الشيء البارز هنا هو ان الولايات المتحدة تمكنت بهذه السياسة من ان تظهر على مسرح الصراع العربي الاسرائيلي في دور جديد مغاير لدورها التقليدي ٠٠ دور « **الوسيط** » لا دور « **المنحاز لاسرائيل** » ٠ واخذت تدعم قوة التصديق بهذا الدور لدى جانبي الصراع ، بقدر محسوب من التفهم للموقف العربي بعد حرب اكتوبر ، وبقدر محسوب من الاختلاف مع الموقف الاسرائيلي بعد زلزال اكتوبر ٠

وصحيح ، كذلك ، ان حرب اكتوبر ، قد جعلت العرب يكتشفون ما في حوزتهم من طاقات واسلحة ذات وزن استراتيجي ، اثبتت فاعليتها النسبية خلال ايام القتال ، الا ان هذا الوزن الاستراتيجي يتوقف ، وجودا وعدما ، على استمرار او عدم استمرار التزاوج بين هذه الطاقات والاسلحة في التخطيط والحركة ٠ وليس بمجرد التواجد المنعزل لاي منها بعيدا عن الاخرى سواء في حالة السكون ام في حالة الاستخدام المنفرد لكل منها ٠ كما انه يتوقف على مدى ما يتوافر لدى اسرائيل من قوة عسكرية متعاظمة ذات اسلحة حديثة للغاية ، تقدم تعويضا استراتيجيا مقابلا للطاقات والاسلحة العربية ، شرط ان تظل القوة العسكرية الاستراتيجية الجديدة رهن السيطرة شبه الكاملة من طرف الولايات المتحدة عن طريق التحكم في الامداد بقطع الغيار والخبراء بل وبعض نوعيات الاسلحة مثل القنابل الارتجاجية ٠



تحت ضغط ظروف واقع ما بعد حرب اكتوبر وعدم توافر خطط تكتيكية محسومة وجاهزة لدى امريكا للوصول الى اهدافها الاستراتيجية في الحفاظ على مصالحها البترولية حتى اواخر القرن على الاقل ، وتعويض فقدانها

لتواجدها المهيمن في آسيا بتواجد جديد ومكثـــف في منطقـــة التمـــاس الاستراتيجي بين افريقيا واوروبا وآسيا والمشحونة بمخاض الثروة والثـورة معا ، راحت امريكا تنتقل ، ارتجاليا ولكن بتقدم حثيث ، من دور الانحيـــاز السافر المطلق لاسرائيل الى دور الوسيط بين عرب ما بعد اكتوبر ١٩٧٣ وبين اسرائيل ٠

بيد ان دور الوسيط ، غير مريح وغير مأمون العواقب بالنسبة لصـــراع تشابكت فيه عوامل قومية ودولية متعددة واتخذ ابعادا جديدة تتصل بمستقبل الطاقة البترولية عصب الاقتصاد الامريكي والغربي عموما ٠ وذلك الى ان تكتشف طاقة بديلة مع نهاية القرن عند احسن الفروض ٠ وبالتالي فـــان انفجار الصراع مرة اخرى بجميع اهواله وكوارثه ، يظل امرا واردا باستمرار على الرغم من دور الوسيط ، طالما ظل اطراف الصراع يملكون التحكم فـــي الوقت والحرية في المبادرة خاصة وان امريكا تعاني ، داخليا وعالميا ، انهاكا من نوعية جديدة في تاريخها ٠ وذلك بسبب تراكم ازمات الطاقة والبطالـــة وآثار هزيمة فيتنام وفضيحة ووترجيت والقيود النسبية لحالة الوفاق الدولي المفروضة على الحركة الامريكية العنيفة المباشرة ٠

من هنا كان لا مفر امام امريكا ، بعد ان وصلت الى اقصى جهد لدورهـــا كوسيط بعقد اتفاقيات الفصل بين القوات في سيناء والجولان ، ان تنتقـــل ــ وايضا ارتجاليا وتحت ضغط الاحداث ــ الى دور « **الحكم** » بين اطـراف الصراع ٠

غير انه لا سبيل الى ذلك ، اذا ما ظل التحكم في الوقت والحرية في المبادرة بأيدي اطراف الصراع انفسهم ٠

واذن فان اضطلاعها بدور الحكم يتوقف على نجاحها في سرقة الوقـــت والمبادرة من كل اطراف الصراع في الشرق الاوسط ، لصالحها ٠

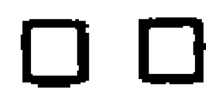
كيف ؟

انطلقت امريكا ، على نطاق واسع وبتكتيكات مختلفة واحيانـــا متناقضة ، تتناسب وتتكيف مع الخصائص المميزة لكل جهة في المنطقة تتعامل معها بمعزل عن الجهات الاخرى ، تمارس لعبة التمايزات والتوازنات بين اطراف الصراع بعضهم وبعض وداخل كل طرف على حدة ٠ وذلك **بهدف اول هو** ان يصبـح معه الشرق الاوسط ملعبها دون منازع قوي محلي او دولي ٠ ويغدو قانون اللعبة بين الاطراف هو قانونها ٠ **وبهدف ثان هو** اختيار اضمن القـــوى لتحالفاتها في الواقع الجديد ، واسلم الطرق لحركتها المؤمنة لمصالحها حتى نهاية القرن ٠

بلعبة التمايزات والتوازنات ، احدثت امريكا « انقلاب القصر » غير المتوقع في كتلة المعراخ الحاكمة في اسرائيل حين دفعت ، بعد حرب اكتوبر ، الى قمة حزب العمل والى رئاسة الحكومة « اسحاق رابين » سفير اسرائيل السابق في واشنطن · وكان يعتبر ـ وقتذاك ـ اقرب رجال المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الى البيت الابيض والبنتاجون ووزارة الخارجية ·

وهذا التمايز قابله في نفس الوقت ، اجراء مجموعة من عمليات التوازن بين كتلة المعراخ وبين كتلة الليكود المعارضة وذلك بتشجيع عدد له وزنه من جنرالات المؤسسة العسكرية للانضمام الى هذه الاخيرة ، او الانسلاخ عن حزب العمل وتكوين تنظيمات مستقلة كالحركة الديمقراطية من اجل التغيير (داش) التي تزعمها الجنرال يادين · وواكب هذا كله خلق توازن آخر ، داخل حزب العمل ، بين رابين وبين شمعون بيريز رفيق موشي دايان وخليفته في وزارة الدفاع · وهذا التوازن الاخير رافقه في نفس الوقت تمايز لصالح بيريز على حساب ديان · والاثنان رفيقا درب واحدة قاده استاذهما « بن جوريون » في رحلته الصهيونية الطويلة والمعقدة من حزب العمل الى حزب رافي الى حزب العمل من جديد · واذ انسحب ديان الى الظل راحت بعض القوى الامريكية الخاصة تنسج معه علاقات على اسس جديدة تجعل منه نوعا من الاحتياطي الكامن ، يستدعى عند اللزوم ·

بهذه اللعبة من التمايزات والتوازنات الدائبة والمتعددة الخطوات في جميع الاتجاهات داخل اسرائيل ، بعد حرب اكتوبر ، تمكنت الولايات المتحدة من ان تعصف بوحداتها السياسية وتفتت من تحالفاتها الذاتية والموضوعية التقليدية · وتفسح المجال بالتالي لاثارة حالة من **الصراعات الاسرائيلية ـ الاسرائيلية** ، تطغى خلالها ، فعليا ، التناقضات الثانوية في الواقع الاسرائيلي العنصري المتميز ، من اجتماعية وسياسية ، على التناقض الاساسي بين هذا الواقع وبين الواقع العربي · واتاح لها ، ما حصلت عليه من نتائج هذه اللعبة ، ان تسرق الوقت والمبادرة من ايدي الاسرائيليين لصالحها هي · وان تربط كل القوى المتصارعة في اسرائيل بخيوط امريكية تشدها او ترخيها حسب مقتضيات الامن الامريكي والمصلحة الامريكية اولا واخيرا ·



في الجانب العربي انطلقت امريكا ، ايضا ، تمارس لعبة التمايزات والتوازنات باصرار ودون كلل وركزت جهدها في الاساس ـ وبذكاء مكيافيللي ـ على اجراء تمايزات ذات صور مختلفة ، على المستوى

الموضوعي ، بين مصر وبين سوريا ، دولتي المواجهة الرئيسيتين ، وبين كل من دولتي المواجهة وبين الثورة الفلسطينية • وامتد التمايز ليحفر عميقا بين الدول العربية البترولية وبين الدول العربية اللابترولية او النصف بترولية • وواكب هذه التمايزات انواع جديدة متعددة من التوازنات داخل كل بلد عربي (السعودية من خلال مقتل الملك فيصل ، لبنان من خلال الحرب الاهلية الخ •) وعلى مستوى الوطن العربي كله •

وكان طبيعيا بالتالي ان تتعثر في الواقع الفعلي حركة وحدة العمل العربي التاريخية ، التي قامت لايام محدودة ، على اساس الدفاع عن المصالح القومية المشتركة لكل من جبهة قوى المواجهة القتالية وجبهة قوى المواجهة البترولية ازاء اسرائيل وامريكا ودول اوربا الغربية (الاستيطان العنصري والاستعمار القديم والاستعمار الجديد) •

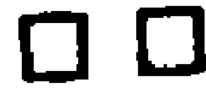
وتمكنت امريكا بذلك ان تسرق الوقت والمبادرة من ايدي العرب لصالحها هي • وان تربط القوى المتصارعة بخيوط امريكية تشدها او ترخيها حسب مقتضيات الامن الامريكي والمصلحة الامريكية اولا واخيرا •

واندفعت قوى المواجهة القتالية ، التي تقوم اساسا على نظم ذات طبيعة وسطية اجتماعيا وسياسيا ، وتحت ضغوط لعبة التمايزات والتوازنات ، الى انتهاج خط عدم جدوى استخدام القوة المسلحة لحل الصراع العربي الاسرائيلي • وبالتالي اصبح ما يسمى العمل على تحقيق حل سلمي ، بديلا للعمل العسكري القتالي وليس امتدادا له بوسائل اخرى •

والتزمت قوى المواجهة البترولية ، التي تقوم اساسا على نظم قلقة على مستقبل ومصير ثروتها ، بانتهاج خط عدم جدوى استخدام البترول سلاحا في المعركة القتالية او السياسية من اجل الوصول الى حل للصراع العربي الاسرائيلي • وانحسر الامر الى الاقتصار على رفع اسعار البترول ، وذلك الى الحد الذي يزيد من الوزن الاقتصادي والسياسي لدول البترول على اتجاه الحركة في الساحة العربية • ويحافظ في نفس الوقت على المصالح الامريكية البترولية بما يقوي من قبضة واشنطن من جديد على غرب اوروبا واليابان ، ويحد من نزوعها الى الاستقلال النسبي الذي بلغ اوجه في الستينات •

وتحول البترول العربي من سلاح في المعركة الى منبع لمساعدات مالية محدودة لدول المواجهة • وذلك بالقدر الذي يجعلها تملك الحد الادنى من القدرة على مواجهة اعبائها في مواجهة المشاكل والازمات الاقتصادية والاجتماعية الملتهبة • بعضها ـ من ناحية ـ ضد تيارات التغيير الثورية

التي تموج بها المنطقة على نحو متضارب وغير موحد الاتجاه · ويقدم ـ من ناحية اخرى ـ بديلا مقبولا من النظم العربية لمساعدات الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية ، حيث اخذت الابواب توصد في وجهها ·



هكذا بالدخول الجديد المزدوج للولايات المتحدة من النافذتين الاسرائيلية والعربية في وقت واحد ، وبلعبة التمايزات والتوازنات التي اجادتها ، صار لها وجود مؤثر كحكم شبه منفرد في منطقة من اهم المناطق الاستراتيجية في عالمنا المعاصر واخطرها على الاطلاق · ومع هذا الوضع الجديد والمتميز ، تحقق لها تراكم خاص من المصالح القائمة والمحتملة في المنطقة · يتخطى الفعل وردود الفعل التقليدية للصراع الاسرائيلي ذاته · ويؤرقها بالتالي المحافظة عليه وتامينه في مواجهة كل من اسرائيل والعرب معا من ناحية · وصراعها مع الاتحاد السوفيتي في اطار العلاقات الدولية الجديدة القائمة على سياسة الوفاق من ناحية اخرى · وضمان سيطرتها على دول غرب اوربا واليابان من ناحية ثالثة ·

وقد عبر الرئيس **جيمي كارتر** اخيرا ، عند عرض مشروعه للطاقة في مايو ١٩٧٧ ، وبعد ان تاكد من خلال الاتصالات التي اجراها مع زعماء المنطقة عن حجم ونوعية هذه المصالح القائمة والمحتملة لامريكا في المنطقة بدقة في اربع نقاط :

- **النقطة الاولى** ، تقرر ان موارد الطاقة اصبحت مسالة تدخل في صميم الامن القومي لشعب الولايات المتحدة ولشعوب العالم الغربي ·

- **النقطة الثانية** ، تعين ضرورة ايجاد مخزون يكفي احتياجات امريكا لستة اشهر حتى تستطيع مواجهة اي طارىء ·

- **النقطة الثالثة** ، تحدد ان على دول الاوبيك (غالبيتها واهمها انتاجا في منطقة الشرق الاوسط) ان تزيد انتاجها الى درجة تتراوح ما بين ٤٧ و ٥١ مليون برميل . مع العمل على ضبط حدود الاسعار ·

- **النقطة الرابعة** ، تكشف ان الولايات المتحدة تستورد في الوقت الراهن نصف احتياجاتها من البترول · وان ربع ما تستورده ، اليوم ، من البترول مصدره السعودية وحدها · وانه مع حلول عام ١٩٨٠ سوف تغدو السعودية ـ ايضا وحدها ـ المصدر لنصف جميع احتياجات الولايات المتحدة من البترول ·

وكان تقرير وكالة المخابرات الامريكية في الطاقة ، الذي قدم للرئيس كارتر قبل اعلانه لمشروعه ، اكثر صراحة في تعبيره عن خطورة المصالح الامريكية البترولية ، القائمة والمحتملة في المنطقة ٠ وذلك عندما اثبت ان ما دفعتـــه الولايات المتحدة ثمنا لمستورداتها من البترول قد ارتفع من ٧ر٢ بليون دولار عام ١٩٧٠ الى ٣٦ بليون دولار عام ١٩٧٦ ٠ وسوف يصل الى ٤٥ بليـــون دولار عام ١٩٧٧ ٠

وان المقدر لعام ١٩٨٥ ، بمعايير الوقت الراهن ، سوف يقفـــز الى ٥٥٠ بليون دولار ٠

ويعلق تقرير الوكالة على هذا « الرقم الاخير » بانه يشكل فاتورة حساب لا تملك الولايات المتحدة ، تحت اي ظرف من الظروف ، الوفاء بقيمتها ٠

والترجمة البسيطة لكل هذا يعني ان الوجود الامريكي الراسخ والمؤثـــر في المنطقة يجب ان يستمر تحت اي ثمن ، في الاستحواذ على هذه « **الدجاجة التي تبيض ذهبا اسود** » ٠ وان الضمان السياسي لهذا النوع من الاستحـــواذ في عصر الوفاق الدولي ، الذي يجمع بين التعايش وبيـــن الصراع ، هـــو التواجد « **كحكم** » مطلوب ومرغوب مـــن جميع اطـــراف النـــزاع العـــربي الاســـرائيلي ٠

بتعبير اخر ان يحل التنافس بين كل من الجانب الاسرائيلـــي والجانـــب العربي على الحصول على صداقة امريكا وتفهمها وتبنيها لموقفه وجانبه اكثر من الجانب الآخر ، وذلك محل قيام كل من الجانبين بادارته للصراع مستقـــلا في مواجهة الآخر وحلفائه ، لتحقيق ارادته ٠

وبهذا يتوفر المناخ المواتي لامريكا لحل مشاكلها التي تؤرقها وضمـــــان مصالحها في المنطقة دون ان يتهددها انفجار الصراع العربي الاسرائيلي ٠

بمعنى ان امريكا « **الحكم** » لا يعنيها اليوم في حقيقة الامر الوصول الـــى حل للصراع العربي الاسرائيلي ، او على الاقل حل سريع ، بدليل ان كارتـــر حدد لذلك مسافة زمنية لا تقل عن ثماني سنوات ، وانما ما يعنيها بالدرجـــة الاولى هو كسب الوقت اللازم لحماية مصالحها القائمة والمحتملة من خـــلال الاستمرار في لعبة التمايزات والتوازنات الى الحد الذي يصبح معه الوضع في المنطقة مأمونا الى اقصى درجة بالنسبة لها ، ويشل قدرة وحرية كل طرف من اطراف الصراع ، عربيا كان ام اسرائيليا ، على المبادرة المنفردة بعيـــدا عن امريكا او في تناقض معها ٠

□□

وبعد ٠٠ ان هذا المقال استهدف غايـة واحدة هي تحليل طبيعة التحـرك والتواجد الامريكي المعاصر في المنطقة ومن حول الصراع العربي الاسرائيلي ٠ اما ماذا يصطدم به من مشاكل اسرائيلية وعربية ودولية ؟ وما هو نصيبه من النجاح او الفشل ؟ وكيف يتسنى لنا كمركة تحرر عربية مقاومته والامساك بقوة واقتدار من جديد بدفة ادارة الصراع لصـالح شـعوبنا وثورتنـا الفلسطينية ؟٠ فهذه كلها اسئلة مجال مناقشتها ومحاولة الاجابة عليهـا فـي مقالات قادمة ٠

جـدل اتفـاق القـاهرة

بلال الحسن

يحتل اتفاق القاهرة حاليا ، حيزا كبيرا في الحياة السياسيـــة اللبنانية ، وتعلن مختلف القوى السياسية حياله مواقف شبه يومية · ويكـــاد يقفز الى السطح انطباع بأن الحل الامني في لبنان مؤجل كله الى ان يتم الاتفـاق حول تنفيذه · ويساعد على بروز انطباع كهذا أن اللجنة العربية الرباعية المكونة من مصر والسعودية والكويت وسوريا ، والتي أسندت اليها مهمة تنفيذ الاتفاق قد انهت عملها في ٢٦ ايار الماضي دون ان تصل الى نتيجة · وادى انتهـاء عمل اللجنة الرباعية بهذا الشكل الى احداث تغيير بارز في سياســـات الحكومـة اللبنانية ، فهي بعد أن كانت تضع لاشهر عديدة موضوع الامن في رأس جدول اعمالها ، عادت لتطرح موضوع الاصلاح السياسي قبـل الامـن ، والاصلاح السياسي كمدخل لتحقيق الامن المفقود ·

وهناك في الاوساط السياسية اللبنانية ، بل والعربية احيانـــا ، من يحمـل المقاومة الفلسطينية مسؤولية هذا الفشل · وبالنسبة للمواطن العـــادي ، فان ما أعلن من خلاف حول تنفيذ اتفاق القاهرة ، يتعلق بنقطة جاءت في التفسيـر اللبناني للاتفاق رفضتها المقاومة ، وهي النقطة التي تطالب بان يقتصر عدد رجال الميليشيا في المخيمات على ٧ بالالف من عدد السكان ·

ولكن موقف المقاومة الفلسطينية وملاحظاتها وتحفظاتها ، ليس سوى بند واحد من بنود البحث الدائر حول اتفاق القاهـــرة ، وتقف الى جانبه مواقف اخرى عديدة ، متباينة ومتناقضة ، بحيث لا يكون من الموضوعية على الاطـــلاق ان

تحمل المقاومة الفلسطينية مسؤولية التعثر القائم حول التنفيذ الكلي للاتفاق ·

وحتى تتضح هذه النقطة فسنقوم باستعراض سريع لمواقف القوى التي تتعامل مع اتفاق القاهرة سلبا او ايجابا ·

١ ـ المقاومة الفلسطينية :

صحيح ان المقاومة تتحفظ حول تنفيذ اتفاق القاهرة ، ولكنهـــا تتحفظ حول تنفيذ جزئي فقط ، وذلك بعد ان قامت بتنفيذ جزء كبير منه في مدى فترة زمنية وجيزة · فمنذ دخول قوات الردع الى لبنان قامت المقاومـــة بالانسحـــاب مـــن مواقع الجبل ، وبانهاء المظاهر المسلحة ، وبتسليم جزء من سلاحها الثقيل لقوات الردع ، وتسليم المرافق الحيوية التي كانت تسيطر عليها (البريد ـ البنك المركزي) الى السلطة ، وبتسفير كافة القوات النظامية الفلسطينية والعربية · وعلى ضوء هذه الجردة بقي أمام تنفيذ اتفاق القاهرة امران بارزان : الوضع في المخيمات الفلسطينية ، والوضع في الجنوب ·

بالنسبة للمخيمات الفلسطينية ، فان اتفـــاق القـــاهرة يعطي للمقاومة الفلسطينية ثلاث قضايا :

١ ـ تشكيل لجان محلية تشرف على المخيم (وتكون بمثابة بلديات) ·

٢ ـ تشكيل الكفاح المسلح الفلسطيني ليشرف على الامن (ويكون بمثابـــة شرطة) ·

٣ ـ يتولى الكفاح المسلح تنظيم تواجد السلاح داخل المخيم · والمقصود بذلك سلاح الميليشيا ·

وقد جاء التفسير اللبناني للاتفاق خاليا من أي اعتراض حول النقطة الاولى، وطلب بالنسبة للنقطة الثانية ان يكون تشكيل الكفاح المسلح بنسبة ٣ بالالف من عدد السكان ووافقت المقاومة على هذه النقطة ، وطلب بالنسبة للنقطة الثالثـــة ان يكون سلاح الميليشيا بنسبة ٤ بالالف من عدد السكـــــان ، وهو ما رفضته وما زالت ترفضه ، وذلك لان اتفاق القاهرة نفسه لا ينص على ذلـــــك ، ولان الاصرار على هذا الطلب ينطوي على اهداف قد تصل الى حد تجريد المقاومة من سلاحها ،وأخيرا ، وهذا هو الاهم ، فان هذه المطالبة بتقليص السلاح فـــي المخيم واقتصاره على أسلحة فردية خفيفة ومحدودة ، يترك المخيمـــــات عرضة للاعتداءات الاسرائيلية دون توفير ادنى حد من الحماية لهـــا ، خاصـــة وان الجيش اللبناني لم يتكون بعد بحيث يستطيع الحاكـم اللبنـــاني ان يقول بان الجيش سيتولى مهمة الحماية المطلوبة ، كجزء من عمليـــة الحماية للارض اللبنانية ككل ·

وتقف في خلفية هذه التحفظات الفلسطينية أربع معارك مع السلطة اللبنانية او مع قوى متحالفة معها : معركة نيسان ١٩٦٩ ، ومعركة تشرين من العام نفسه والتي انتهت بتوقيع اتفاق القاهرة ، ومعركة ايار ١٩٧٣ مع الجيش اللبناني ، ثم معركة نيسان ١٩٧٥ التي استمرت عاما ونصف العام ولا زالت ذيوله قائمة حتى الان ٠

اما بالنسبة لتطبيق الاتفاق في الجنوب ، فتسجل المقاومة الفلسطينية من حيث المبدأ انها مستعدة للتنفيذ فور ان يتم تشكيل الجيش اللبناني ، باعتبار ان التنفيذ هناك ، وبحسب اتفاق القاهرة ، مرتبط بوجود جيش يتم الاتفاق على التنفيذ معه ٠

وهكذا نلاحظ ان للمقاومة الفلسطينية تحفظاتها على تنفيذ الاتفاق ، ولكنها تحفظات جزئية من جهة ، ومستندة الى بنود اتفاق القاهرة من جهة اخرى ، بحيث يكون تحميلها مسؤولية تعطيل تنفيذ الاتفاق خروجا عن الموضوعية ٠ ومع ذلك فان صورة الموقف لا تتوضح بكل ابعادها الا بعد استعراض مواقف القوى الاخرى وتحديد موقعها من تنفيذ الاتفاق ٠

٢ ــ « الجبهة اللبنانية »

اعلنت الجبهة اللبنانية مؤخرا ، وفي بيان رسمي ، انها تعتبر اتفاق القاهرة لاغيا ، لان محاولات تطبيقه كلها قد فشلت ٠ وهذا الموقف للجبهة اللبنانية ليس موقفا سياسيا مفاجئا ، انه حصيلة لمواقف مبدئية وسياسية قديمة ومعلنة رسمية على لسان أركانها ، وهي مواقف تقول بصراحة انها ضد اتفاق القاهرة ، وضد الوجود الشعبي الفلسطيني الكثيف في لبنان ، وتحرض السلطة اللبنانية باستمرار على الغاء الاتفاق ، وعلى الاتفاق مع الحكومات العربية على اعادة توزيع الفلسطينيين في البلاد العربية ، بحيث لا يبقى منهم في لبنان الا ما يتناسب مع عدد سكانه ومع رقعته الجغرافية ، ومع امكانياته المالية ٠ بل ان « الجبهة اللبنانية » تنتقل في عرض حججها ضد الفلسطينيين الى موقع الاتهام للعرب ، فتقول أنهم يقبلون للبنان ما يرفضونه لانفسهم ، فهم يتركون لبنان يتحمل وحده عبء العمل الفدائي ضد اسرائيل ونتائجه ، ولا يعطون الفدائيين في بلدانهم الحقوق التي يوافقون على اعطائهم اياها في لبنان ٠

ومن المؤكد ان المقاومة الفلسطينية لا تستطيع ان تعزل نفسها ، وهي تحاور السلطة اللبنانية على تنفيذ الاتفاق ، عن هذا الموقف الذي تمثله « الجبهة اللبنانية » ، وذلك لان الجبهة جعلت من نفسها منذ توقف القتال في لبنان ورقة ضغط على السلطة اللبنانية ، وعامل ابتزاز لها من أجل دفعها للالتزام بمواقفها٠ ومع أن السلطة اللبنانية لم ترضخ لهذا الابتزاز الا انها لم تستطع ان تبقى بعيدة عن التأثر بها بحكم الوزن الذي تمثله « الجبهة اللبنانية » في الحياة

السياسية ·

وتعرف المقاومة الفلسطينية ان جزءا أساسيا من عملية الابتزاز الذي تمارسه الجبهة مع السلطة تحت عنوان اتفاق القاهرة . لا يتعلق باتفاق القاهرة نفسه. بل بالازمة اللبنانية نفسها ، وبأسلوب حلها · فالجبهة تريد من السلطة اللبنانية أن يكون برنامج الاصلاح الذي تسعى الى وضعه مطابقا لمواقفها ولتصوراتها . وهي تستغل موضوع الامن بشكل عام ، وموضوع اتفاق القاهرة بشكل خاص. من اجل الوصول الى غايتها هذه · وبديهي ان السلطة تعـرف هـــذا الهدف تماما ، وتعرف حقيقة النوايا من وراء مواقف الجبهة المعلنة . ولذلك بـادرت بعد تعثر الاتفاق على نسبة الـ ٧ بالالف ، الى فتح ملف الاصلاح . مشيعة ان الاتفاق على الاصلاح سيسهل حل المسألة الامنية ·

ويشكل موقف « الجبهة اللبنانية » في جنوب لبنان ، وجها اخر لعملية الابتزاز السياسي ، اكثر حدة وخطورة · فاذا كانت السلطة اللبنانية برئاسة الرئيس الياس سركيس ، تمثل المظهر الاول من مظاهر القوة التـــي ترفض التسليم بمطالب « الجبهة اللبنانية » كاملة ، فان قوات الردع العربية ، والقوات السورية منهـا بشكل خاص ، تمثل مظهر القوة الثاني · وكمـا تعرضت السلطـــة اللبنانية لمحاولات الابتزاز من خلال مواقف الجبهة السياسية المتطرفـــة ، فان قوات الردع تعرضت للابتزاز من خلال مواقف الجبهة في جنوب لبنان ، وذلك باصرارها على استمرار حالة القتال في الجنوب ، وباصرارها كـــذلك علـى التعاون والتنسيق مع اسرائيل لجهة الاسناد العسكري والمدفعي الذي يمكنها من الحركة ، مع ما يمثله ذلك من هيمنة عسكرية اسرائيلية على منطقة الجنوب ، وما يؤدي اليه من تهديد لامن سوريا وقواتها المسلحة ·

وقد وجهت ضربة لهذه السياسة في مطلع نيسان الماضي بالتنسيق بين المقاومة وسوريا ، ولكن المحاولات نفسها تتجدد الان حاملة في داخلها نفس المخـاوف واكثر ، ودافعة الصحافة السورية الى التحذير اليومي من مخاطر ما يجري في الجنوب ·

وفي كلا المحاولتين ، السياسية ضد السلطة اللبنانيـة ، والعســكرية ضـد المقاومة وسوريا في الجنوب ، تسعى « الجبهة اللبنانية » الـى ابقـاء الازمة اللبنانية مفتوحة وميدانا للمساومة · الهدوء الداخلي مقابل تسليـــم السلطة اللبنانية ببرنامج الاصلاح كما تراه « الجبهة اللبنانية » ، والهدوء في الجنوب مقابل تسليم سوريا بهذا البرنامج ، ومن ضمنه الغاء الوجود الفلسطيني المسلح في لبنـــان ·

وهذه الوقائع كافية لتبرز ان ما تمثله « الجبهة اللبنانية » من عقبة امـام

تنفيذ اتفاق القاهرة ، يفوق بكثير البنود الجزئية التي تعترض عليها المقاومة الفلسطينية · واذا كان اعتراض المقاومة يبقى مشكلة عالقة بينها وبين السلطة اللبنانية ، فان اعتراضات « الجبهة اللبنانية » ومطامحها تبقي الازمة اللبنانية كلها مفتوحة وعرضة للاحتمالات الخطرة ، وهو ما يهدد المصالح العربية اضافة الى المصالح اللبنانية · ولا يجوز في أي تقييم موضوعي ان نتذكر القليل وان ننسى الكثير ، خاصة حين تصل المواقف الى حد الاستعانة باسرائيل وتسهيل السبل أمامها لتهديد أمن المقاومة الفلسطينية وتهديد الامن العربي برمته ·

٣ ـ اللجنة الرباعية :

أتيحت الفرصة أمام اللجنة الرباعية ، بحكم طبيعة تكوينها ، ان تكون على صلة وثيقة بكافة اطراف الازمة اللبنانية ، وان تقول وان تسمع اكثر بكثير مما أتيح لغيرها · وهي بحكم تجربتها هذه ، استطاعت دون شك ، ان تعرف خلفيات المواقف بوضوح · ويبدو ان هذه المعرفة كانت سببا اساسيا من الاسباب التي أدت الى عدم تمكنها من تنفيذ مهمتها · فبما ان المطلوب منها كان التعامل مع « نصوص » اتفاق القاهرة ، والسعي للوصول الى صيغة تنفيذية لهذه النصوص دون الدخول في الجانب السياسي من الازمة الذي يتعدى صلاحياتها ، وبما انها ادركت اثر الجانب السياسي من الازمة في تعقيد الوصول الى حل متفق عليه لقضية « النصوص » ، فقد وجدت نفسها في النهاية عاجزة عن البت والانجاز ، وسرت شائعات كثيرة عن خلافات داخل اللجنة ، بعضها يؤيد ، كما قيل ، التفسير اللبناني للاتفاق ، وبعضها يرفضه · ولكن الامر في اعتقادنا أبعد من ذلك ، فأمام تضارب النوايا السياسية ، وعدم قدرة اللجنة على الخوض في الجانب السياسي ، ارتأى بعض اعضاء اللجنة (الكويت) ضرورة التقيد بحرفية مهمتها ، أي تنفيذ اتفاق القاهرة كما هو موضوع ودون أي تفسير له من قبلها أو من قبل سواها ، وعدم الموافقة الا على ما يتفق عليه الطرفان اللبناني والفلسطيني ·

وامام مخطط « الجبهة اللبنانية » الذي يسعى لابتزاز الحكم وابتزاز أمن سوريا بتوتير الوضع في الجنوب ، من اجل فرض برنامجها للاصلاح ، ارتأى اعضاء اخرون في اللجنة (سوريا) ان تنفيذ اتفاق القاهرة يجب ان يبدأ من الجنوب وليس من بيروت · وبهذا اصبحت قضية تنفيذ اتفاق القاهرة مسألة عربية اضافة الى انها مسألة لبنانية متنازع عليها ·

ومؤخرا ··· حاولت سوريا ان تتقدم خطوة اخرى في محاولة ايجاد حل للتنفيذ ، فاقترحت كحل وسط ، ان يجري رفع نسبة افراد الميليشيا في المخيمات

الى ٩ بالالف ، وان يوافق الطرفان على ان تتولى هي مسؤولية حماية المخيمات· ويبدو ان البت بهذا الاقتراح سيبقى مؤجلا الى ان يتم اللقاء المنتظر بين الرئيسين الياس سركيس وحافظ الاسد ، ولا بد ان يتطرق البت الى تساؤل المقاومة الفلسطينية ردا على الاقتراح ، وماذا بعد خروج قوات الردع من لبنان ؟

ولا بد هنا من الاشارة الى بعض التحليلات الخاطئة التي برزت في الصحف اللبنانية ، والتي مالت الى القول بأن المسؤولين العرب باتوا ميالين للطلب من الحكومة اللبنانية ان توقف الجدل الدائر حول تنفيذ اتفاق القاهرة انتظارا لما سيجد على صعيد حل ازمة الشرق الاوسط ، باعتبار ان هؤلاء المسؤولين لا يرغبون باضعاف الموقف الفلسطيني داخل المحادثات المنتظرة · ويخفي هذا التحليل في طياته الاعتقاد بأن تنفيذ اتفاق القاهرة يضعف الفلسطينيين في لبنان ، وان الفلسطينيين يرفضون تنفيذه تحاشيا لهذا الضعف · ولكن هذه التحليلات مغرضة الى اقصى حد · فالمقاومة الفلسطينية ثبتت مبدئيا وعلنيا التزامها واستعدادها لتطبيق الاتفاق ، ومارست ذلك عمليا على اكثر من صعيد ، وتوقفت فقط عند ما تعتقد انه خروج على الاتفاق ، او تفسيرات غير مضمونة بالنسبة للمستقبل · كذلك فان المقاومة الفلسطينية لا ترى في تطبيق اتفاق القاهرة اضعافا لها ، لانها لا تطلب من لبنان اكثر من اتفاق القاهرة ، واكثر من استمرار الاعتراف بشرعية وجودها ، وشرعية حقها في الانطلاق من الارض اللبنانية للعمل داخل اسرائيل ، وهي مطالب لا يمكن فصلها عن حقيقة مواقف القوى اللبنانية المتنازعة ، او عن العوامل الاسرائيلية والدولية الضاغطة ، والتي تسعى للوصول الى اهداف تتناقض مع مصالح المقاومة ومصالح لبنان والامن العربي ·

والان ··· ما الذي تكشف عنه خارطة المواقف هذه ؟

ببساطة نقول : ان كل تصوير للمشكلة على انها مشكلة نصوص ، وخلاف حول الصياغات ، هو تصوير جزئي وسطحي · ان المسألة في جوهرها مسألة سياسية متعددة المستويات ·

مسألة سياسية لبنانية : اذ لا زالت الازمة بالرغم من توقف القتال مفتوحة ولم يغلق ملفها بعد ، ويحاول كل طرف من الاطراف المتنازعة فيها ان يصل الى فرض تصوره للاصلاح وللبنان المستقبل ، وهو هنا يلح على الموضوع الفلسطيني ، من حيث النوع او من حيث الدرجة ، بحسب تصوره لهذا الاصلاح، وهل للفلسطينيين دور فيه ؟ بكلمات اخرى ، يدور الصراع في جانب من جوانبه حول لبنان المستقبل ودوره العربي وهل له مكان في الصراع العربي –

الاسرائيلي ؟ وتتفرع عن ذلك مسائل كثيرة ابرزها : كيف نبني جيش المستقبل ، وما هو مدى التزامنا بالفلسطينيين وبالفدائيين ؟

وهي ايضا مسألة سياسية عربية : اذ هذه الاسئلة المطروحة في لبنان ، تهم العرب من زاوية طبيعة الاجوبة المنتظرة ، ومن زاوية استمرار التوتر او امكان الوصول الى الهدوء ، باعتبار ان استمرار التوتر يعني ، بصورة او بأخرى ، تريث كثير من القوى الدولية في البت النهائي بموقفها من ازمة الشرق الاوسط، بانتظار موازين القوى التي ستسفر عنها الازمة اللبنانية ٠

وهي ايضا مسألة دولية : تحاول فيها الولايات المتحدة من جهة واسرائيل من جهة اخرى ان تصل الى صورة للتوازنات تسهل عليها انجاز التسوية السياسية لازمة الشرق الاوسط حسب المفهوم الذي ترتأيه ، اي بعيدا عن الفلسطينيين ووجودهم ، وبعيدا عن موضوع دولتهم ٠

وتتآلف هذه المواقف وتتصارع ، بحيث يكون من الاجحاف الشديد القول بأن ازمة اتفاق القاهرة في لبنان هي ازمة فلسطينية ، او ان الوصول الى حل نهائي بشأنها مرتبط فقط بموافقة فلسطينية على هذا البند او ذاك من التفسيرات المطروحة للاتفاق ٠

لقد بدأت الازمة اللبنانية كبيرة على ارض صغيرة ٠ وهي لا زالت كبيرة رغم ان النقاش الدائر يبدو صغيرا في تفاصيله ٠

اليمين الصهيوني

نشأة وسياسة وعقيدة

صبري جريس

مع فوز تكتل « ليكود » باكبر عدد من الاصوات في الانتخابات للكنيست التاسع ، التي جرت يوم ١٧ أيار (مايو) ١٩٧٧ ، مما يمكنه من تشكيل حكومة اسرائيلية ائتلافية برئاسة زعيمه ، الارهابي المعروف مناحيم بيغن ، يكون اليمين الصهيوني قد استلم مقاليد الحكم في اسرائيل لاول مرة منذ قيامها · ويمكن هذا النجاح في الانتخابات ليكود من المطالبة ايضا ، بان يكون رئيس الادارة الصهيونية (وهو أعلى منصب في المنظمة الصهيونية العالمية ، ومنذ ابعاد الدكتور ناحوم غولدمان عن منصب المنظمة الصهيونية العالمية ، سنة ١٩٦٨ ، ترك ذلك المنصب شاغرا) واحدا من اعضائه ، وذلك بناء على اتفاق واسبقيات خاصة بذلك تقرها المنظمات الصهيونية المختلفة · وأن تم ذلك ، وهو غير مستبعد ، يكون اليمين الصهيوني قد استطاع كذلك السيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية ، وذلك لاول مرة في تاريخها ايضا ·

يأتي انتصار اليمين الصهيوني هذا بعد معارك عديدة ، مريرة وقاسية ، للسيطرة على المنظمة الصهيونية واسرائيل ، خاضها خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمن ، وفشل فيها دائما ـ الا هذه المرة · والواضح ان وصول ليكود الى السلطة يضع الفلسطينيين والعرب ، وغيرهم ، في مواجهة مرحلة جديدة من السياسة الاسرائيلية لا عهد لهم بها في السابق · صحيح ان ليكود لا يختلف كثيرا ، في نهاية الامر ، في منطلقاته ومواقفه عن الجناح العمالي الصهيوني ، الذي حكم اسرائيل منذ اقامتها وحتى خسارته في الانتخابات الاخيرة ،

خصوصا فيما يتعلق بالسياسة الاسرائيلية الخارجية والمواقف الاستراتيجية الصهيونية ـ فمن هذه الناحية بالذات تكاد الخلافات بين المعسكرين تقتصر على الاسلوب او « اللهجة » ، دون المضمون · ولكن صحيح ايضا ، من ناحية ثانية ، ان هناك فروقا واضحة في الاسلوب والمنهج ، وخصوصا بالنسبة للقضايا الداخلية ، بين هذين التيارين الصهيونيين الرئيسيين ، تتبعها انعكاساتها على الصعيد الخارجي · وعلى كل حال ، ومهما يكن من امر هذه الفروق ، فمن الواضح ان صعود اليمين الصهيوني ، المتطرف والمتشدد قلبا وقالبا ، الى الحكم في اسرائيل ، يطرح اسئلة مهمة وعديدة · ولعل ابرزها هو مدى تأثير التغيير في نظام الحكم الاسرائيلي على السياسة الدولية للكيان الصهيوني ، ثم انعكاساته على مساعي التسوية السلمية لازمة الشرق الاوسط من ناحية ، ومستقبل الصراع العربي ـ الاسرائيلي من ناحية ثانية ، وكذلك مدى ارتباط هذا بالاوضاع الداخلية للمجتمع الصهيوني وتاثيرها عليه · وهذا كله يطرح ، بالطبع ، السؤال الاكبر والاهم : ما مدى تاثير ذلك على مستقبل اسرائيل ، سلبا او ايجابا ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة ، كما هو مفهوم ، ليست سهلة كطرحها ، وذلك لاسباب عدة ، لعل اهمها هو ان اليمين الصهيوني لم يجد نفسه يوما ما ، منذ نشوئه ، في وضع شبيه بوضعه الحالي ، اي على قمة الحكم ـ اذ كان ، دائما وابدا ، في المعارضة · والمواقف في المعارضة ، كما تدلنا التجارب ، شيء ، بينما الانتقال الى مرحلة صنع قرارات الحكم لا يعني بالضرورة الشيء نفسه· ومن هذه الناحية بالذات ، ليست لدينا « اسبقيات » لتصرف يميني صهيوني ، على صعيد اتخاذ قرارات بحكم موقع المسؤولية في الماضي ، تمكننا من العودة اليها ، في محاولة لاستشفاف مواقف المستقبل · كما ان اليمين الصهيوني ، بحكم انزوائه في عالم المعارضة لفترة طويلة ، قد اعفى نفسه من اتخاذ مواقف محددة ، في حالات عدة في السابق ، وهذا مما يصعب ايضا القيام بأية محاولة لاستطلاع اسس سياسته في المستقبل · غير ان اليمين على الرغم من ذلك ، قام من ناحية ثانية ، خلال نشاطه الطويل كمعارضة ، بتقديم اسس ومبادىء نظرية لكافة المشاكل التي جابهها الكيان الصهيوني في فلسطين ، او اسرائيل منذ اقامتها ـ وليس لنا ، اذن ، الا العودة الى تاريخه ، منذ نشوئه ، لمحاولة استطلاع اسس سياسته المستقبلية ·

الجد الاكبر : الدكتور ماكس نورداو

لم يظهر اليمين الصهيوني ، او يتبلور ، حديثا · فتاريخه قديم ويعود الى منتصف العشرينات على الاقل ، اي الى ما يزيد على نصف قرن من الزمن · أما جذوره الفكرية فانها اكثر قدما ، وتكاد تواكب المنظمة الصهيونية العالمية منذ تأسيسها سنة ١٨٩٧ · ولعل اول يميني صهيوني ، ان لم يكن كذلك من

حيث نشاطه الفعلي ، فعلى الاقل من حيث تأثيره على تفكير اليمينيين الصهيونيين ، فيما بعد ، هو الدكتور ماكس نورداو ٠

كان نورداو من اوائل المفكرين اليهود ، الذين تعرف اليهم الدكتور تيودور هرتسل ، مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية ، في بداية طريقه في العمل الصهيوني ، وذلك بعد نشر كتابه « دولة اليهود » ، سنة ١٨٩٦ ، وقبل عقد المؤتمر الصهيوني الاول ، الذي اعلن فيه عن تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية، سنة ١٨٩٧ ٠ وفي اول لقاء مع نورداو ، شعر هرتسل ان « كل واحد منهما يقتبس الكلام من فم الاخر » ، وذلك بعد ان اتفقا ان « اللاسامية فقط هي التي جعلت منهما يهودا » (١) ٠ وبعد هذا اللقاء ، كتب هرتسل في يومياته ان « نورداو سيسير معي في النار والماء » (٢) ــ ولم يخب امله ٠ ونورداو ، مثل هرتسل ، يهودي من اصل هنغاري ، وبصفته ابن حاخام يهودي ، « كان قد تعرف على اليهودية في صباه ، ولكنه نسيها مع كبره » (٣) ، عندما ترك بلده واتجه الى باريس ، حيث مارس مهنة الطب ٠ الا ان نورداو لم يكتف بهذه المهنة ، اذ اتجه ايضا الى الكتابة ٠ وعندما تعرف اليه هرتسل كان كاتبا مرموقا، ترجمت كتبه الى لغات اوروبية عدة ، ولهذا كان وقوفه الى جانب هرتسل ، في بداية طريقه ، مهما للغاية ، وساعد على نشر الفكرة الصهيونية ، وتجميلها في اعين الاجانب ، وكسب المؤيدين لها ٠ وقد ثابر نورداو على تأييده لهرتسل ، واصبح بمثابة ساعده الايمن ومن اكبر مناصريه ــ وكذلك من ابرز المنظرين الصهيونيين ، خلال عهد هرتسل وبعده ٠

لم تستطع الصهيونية تحقيق اية انجازات عملية تذكر ، خلال عهد هرتسل ، رغم الجهود المضنية التي بذلها في هذا الصدد ٠ الا ان اقامة المنظمة الصهيونية العالمية ، على الاقل ، من قبل هرتسل وصحبه لم تكن حدثا عابرا ، اذ اسفر ذلك عن توحيد « الحركة » الصهيونية ــ التي كانت حتى ذلك الوقت عبارة عن جمعيات او نواد او اشخاص ، منتشرين في هذا البلد او ذاك ، في معظم دول أوروبا الشرقية والغربية ــ في أطار محدد وواضح المعالم ٠ وما ان تم ذلك ، حتى اعاد الصهيونيون تنظيم انفسهم وشكلوا ، داخل المنظمة ،الاحزاب والتنظيمات السياسية على اختلاف انواعها ، بما يتلاءم مع وجهات النظر او الانتماءات الطبقية لكل مجموعة منهم ٠ ولم تكن رئاسة المنظمة الصهيونية تنظر بعين الرضى الى مثل هذه التطورات ، اذ كان من المفروض ، بحسب رأيها ، ان تبقى المنظمة وحدة متماسكة ، ذات طابع معتدل ، مقبول لدى حكام ذلك العصر بأجمعهم ، تسعى فقط الى حل المسألة اليهودية بواسطة اقامة دولة يهودية ، ولا وجود لاحزاب او تيارات سياسية داخلها ٠ وبعد تحقيق هذا الهدف فقط ، يمكن التصرف من خلال الاحساس « بالامن والرخاء »

واقامة الاحزاب السياسية او غيرها · غير انه على الرغم من هذا الموقف المبدئي ، سارعت رئاسة المنظمة الصهيونية الى ادخال التغييرات الضرورية على تركيب الاجهزة الصهيونية المختلفة ، لكي تفسح المجال لتلك الاحزاب للعمل ككتل مستقلة ، وفق مواقفها ، من ناحية ، والابقاء عليها ضمن اطار المنظمة من ناحية ثانية · ولم تكتف الاحزاب والكتل الصهيونية ، بالطبع ، بذلك وانما راحت تتصارع مع بعضها البعض من جهة ، وتنتقد هرتسل ورئاسة المنظمة من جهة اخرى · اما هرتسل نفسه فلم يكن ، بحكم منصبه كرئيس للمنظمة ، في وضع يسمح له بالانخراط في « المهاترات » الحزبية والرد عليها ، فتولى نورداو القيام بالمهمة · وفي غمرة نشاطه هذا ، راح يطلق النظريات الصهيونية المختلفة ، الواحدة تلو الاخرى ·

كان محور الخلاف الرئيسي داخل الحركة الصهيونية مرتكزا ، خلال عهد هرتسل ، على نظريتين رئيسيتين في النشاط الصهيوني ، عرفت اولاهما باسم « الصهيونية السياسية » والثانية باسم « الصهيونية العملية » · وخلاصة الخلاف بين وجهات نظر اصحاب هاتين النظريتين هو ان « السياسيين » كانوا ينادون بضرورة حصول الحركة الصهيونية ، اولا وقبل اي شيء اخر ، على ضمانات سياسية واعتراف علني ، من قبل دولة او مجموعة من الدول المعنية ، بسيادة المنظمة الصهيونية على فلسطين وجوارها (او ، بشكل ادق ، « ارض ـ اسرائيل ») وحقها في اقامة دولة لليهود فيها · وبعد ذلك فقط ، تبدأ عملية نقل اليهود من بلدانهم ، بأشراف وحماية تلك الدولة او مجموعة الدول ، وتوطينهم في « ارض ـ اسرائيل » · اما المعارضون ، « العمليون » ، فكانوا يطالبون بتشجيع الاستيطان الفعلي في فلسطين ، مهما كانت الظروف ، ثم السعي في الوقت نفسه للحصول على الضمانات والاعتراف الدولي · وكانت « الحرب » محتدمة بين الطرفين ، وزاد من اشتعالها ان الصهيونية لم تستطع آنذاك تحقيق اية انجازات سياسية فعلية تذكر ، بحيث لم تجد اية فئة صهيونية ما يشغلها الا الانهماك في ابتداع النظريات لتدعيم وجهة نظرها وتجميلها · وكانت حركة « هواة صهيون » او « احباء صهيون » (وهو الاسم الذي يطلق على المجموعات الصهيونية التي هاجرت من روسيا وبولونيا ورومانيا ، خلال السنوات ١٨٨١ ـ ١٩٠٤ ، الى فلسطين واقامت المستوطنات الصهيونية الاولى في البلد) هي التعبير الملموس عن التيار الصهيوني « العملي » · غير ان هذا النشاط « العملي » في مجال الاستيطان الصهيوني كان ، مع ظهور هرتسل ، قد وصل الى أقصى مايمكنه الوصول اليه · فقد نضبت رؤوس الاموال الخاصة التي اعتمد عليها اولئك المستوطنون ، في اولى مراحل نشاطهم ، بحيث اضطروا الى الاستنجاد بالبارون روتشيلد ، اليهودي الفرنسي ، لدعمهم من ناحية ، وازدادت حدة القيود التي فرضتها السلطات العثمانية على نشاطهم

الاستيطاني في فلسطين من ناحية اخرى · ولم يمر الا عقد على حركة الاستيطان هذه حتى بدا كأنها تقترب من نهاية طريق مسدود ·

لم يغب هذا الوضع عن بال هرتسل ، ولم يحظ باعجابه ، عندما انطلق لوضع نظرياته الصهيونية · ولذلك اعلن في كتابه « دولة اليهود » انه « لا يعتبر المسألة اليهودية قضية اجتماعية او دينية ، رغم انها تلبس هذا الطابع او ذاك ، من حين الى اخر · انها مسألة قومية ، ولكي نحلها ينبغي ان نجعلها قضية سياسية عالمية ، بحاجة الى حل في مجلس يمثل الشعوب المتمدنة » (٤) · وليس هناك من حل الا اقامة الدولة اليهودية ، « ولدينا بالطبع القوة لبناء دولة ــ ودولة مثالية ، ولدينا كل الادوات ··· الضرورية لذلك » (٥) · وتقام تلك الدولة بعد ان « تمنح لنا السيادة على منطقة ما على وجه الارض ، تكون كافية لمتطلبات شعبنا المشروعة · وسنقوم بتدبير ما تبقى بانفسنا » (٦) · وكان هرتسل ، خلال نشاطه في خدمة الصهيونية ، قد بذل فعلا جهودا كبيرة للحصول على « السيادة على منطقة ما على وجه الارض » ــ ولكن دون نتيجة ·

جوبهت اراء هرتسل الصهيونية « السياسية » هذه بمعارضة من قبل دوائر صهيونية عدة ، الا ان ذلك لم يثنه عن عزمه ولم يحمله على تغيير مواقفه ، النظرية او العملية · ففي خطاب الافتتاح امام المؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) ، اعلن هرتسل انه « لا يمكن ان نتبع الطرق السرية والوساطات الخفية غير المباشرة [كطريقة لاقامة الدولة اليهودية] ، بل المفاوضات الحرة الخاضعة للرقابة الدائمة والعاقلة من قبل الرأي العام ·· ولن تحقق الصهيونية اهدافها الا بالبحث العلني مع الدوائر السياسية المعنية ··· لقد وصل الاستيطان [اليهودي في فلسطين] ، حتى الان ، الى اقصى ما يمكن الوصول اليه ، وفقا لطبيعته ··· ولكن هذا ليس حلا للمسألة اليهودية ، ولا يمكن ان يكون حلا بشكله الحالي » (٧) · وفي مناسبة اخرى ، كتب هرتسل لنورداو : « انني اعارض التسلل [اليهودي الى فلسطين] ، لانه عديم الفائدة ، يخضع لرحمة او غضب اي باشا ، ويبقى دائما عرضة لفرض القيود عليه »(٨)· وفي خطابه الافتتاحي امام المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١) ايضا ، شن هرتسل هجوما عنيفا على « هواة صهيون » والصهيونيين « العمليين » ، معلنا « ان موقفنا من الصهيونيين القدامى يشبه موقف اولئك الذين يدخلون تعديلات حديثة على ماكينة قديمة ، غير قابلة للاستعمال · الاحترام كله للماكينة القديمة ، ولكن مكانها في المتحف · لقد فشل الاستيطان القائم على الصدقات ، أما الاستيطان القومي فسينجح » (٩) ·

اما نورداو فقد كان اعنف من هرتسل ، في هجومه على الصهيونيين « العمليين » وهواة صهيون : « انني احتج بعنف وبكل قوة ــ هكذا كتب في

احدى مقالاته ـ ضد اية محاولة لربط الصهيونية مع المستوطنات [اليهودية] القائمة في ارض ـ اسرائيل ، واعتبارهما شؤونا متعلقة ببعضها بعضا ... ان الصهيونية لا تتحمل اية مسؤولية تجاه المستوطنات في ارض ـ اسرائيل . فاذا كبرت هذه المستوطنات وازدهرت ـ لن يسجل هذا لصالحها ، واذا اندثرت ـ لن يكون خطاها ... ان مستوطنات معدودة في ارض ـ اسرائيل لن تنقذ الشعب اليهودي ، لن تحسن احواله ، وليس لها اي تاثير على مصيره » (١٠). ثم ان طريقة هواة صهيون والصهيونيين « العمليين » في حل المسالة اليهودية، بواسطة اقامة مستوطنات يهودية تدريجيا في فلسطين ، ليست الا كطريقة ذلك الذي يريد « ضخ ماء المحيط بواسطة سطل » (١١) ، وهؤلاء ، بحسب راي نورداو ، يسعون الى حل مشاكل اعداد صغيرة من اليهود في مستوطنات معدودة ، بينما تسعى الصهيونية الى حل المسالة اليهودية باسرها . وفي مرحلة متأخرة ، وصف نورداو حركة هواة صهيون « بانها لم تكن الا عنوانا لكتاب صفحاته بيضاء .وكانت الصهيونية السياسية هي التي كتبت الكتاب لهذا العنوان الفارغ » (١٢) .

ولم يتوقف نورداو في انتقاداته لمعارضي هرتسل عند هذا الحد ، اذ لم تسلم التيارات الصهيونية الاخرى ايضا من سهامه . فقد هاجم ، مثلا ، نظرية « الصهيونية الرومانية » التي اطلقها احاد هعام (وخلاصتها ان هدف الصهيونية ينبغي ان يكون اقامة « مركز روحاني » يهودي في فلسطين ، للحفاظ على « روح الامة اليهودية » وتراثها ، وان لم يؤد ذلك ، بالضرورة ، الى اقامة دولة يهودية) ، رغم انها حظيت بتاييد معين ، لان هذه الفكرة « التي لا طعم لها » ، حتى وان نجحت في اقامة « مركز روحاني » يهودي في فلسطين ، لن تحل مشاكل اليهود في المهاجر (١٣) . كذلك عارض نورداو الصهيونيين المتدينين ، موضحا « ان الصهيونية الجديدة ، المسمّاة صهيونية سياسية ، تختلف عن القديمة، المتدينة ... برفضها كل الغيبيات، وعدم تماثلها [معها] ... ولا تتوقع العودة الى صهيون بطريق الاعجوبة ، وانما تريد ان تعد لذلك بجهودها الخاصة » (١٤) . وانتقد نورداو « الصهيونيين الاشتراكيين » ايضا ، لان الاشتراكية « تحققت في الصهيونية نفسها ... واين يمكننا ان نجد ، لدى شعوب اخرى ، شيئا مشابها ـ ولو لماما ، لتلك العدالة الاجتماعية التي تنبعث من تعاليم موسى ؟ » (١٥) . كذلك حذر نورداو اليهود من خيبة الامل في الاشتراكية ، عندما تتحقق ، كما خاب املهم من حركات الاصلاح الدينية او حركات التحرر السياسية بين شعوب اوروبا (١٦) . اما « صهيونيو صهيون » ، الذين كانوا قد هددوا بالانشقاق عن المنظمة الصهيونية العالمية ، عندما اقر المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) دراسة مشروع اقامة دولة يهودية في أوغندا ، وليس فلسطين ، فلم يكونوا ، بالنسبة لنورداو ، الا «طبعة جديدة» ولكن

غير منقحة ، من هواة صهيون » (١٧) • كما سخر نورداو من الكتلة الديمقراطية ، وهي حركة اصلاحية نشأت خلال عهد هرتسل ، كنوع من رد الفعل على نشاطه ، وهاجم ابرز زعمائها ، الدكتور حاييم وايزمان ، الذي لم يكن ، بالنسبة لنورداو ، الا واحدا من اتباع حركة هواة صهيون في قرارة نفسه ، وهؤلاء ليسوا الا « صهيونيين هواة » •

وكان الدرس الاول الذي تلقنه اليمينيون الصهيونيون من تعاليم نورداو هذه، عندما قرروا تبنيها ، التشدد والتطرف ، ثم الاصرار على الحصول على كل شيء او لا شيء ، وانتقاد كل من يختلف معهم في الرأي ، دون هوادة ، حتى وان ادى ذلك الى خسارة كل الخلفاء المتوقعين •

العمال ••• ووايزمان ••• ونورداو

لم تحظ اراء نورداو التي اشرنا اليها ، على كل حال ، باعجاب الكثيرين من الصهيونيين ولا بانتشار واسع بين الفئات الصهيونية المتصارعة مع بعضها البعض ، رغم اختلاف وجها ت نظرها • وقد تم ذلك ، الى حد ما ، بفضل التغييرات التي طرأت على سياسة المنظمة الصهيونية انذاك • فبعد وفاة هرتسل، سنة ١٩٠٤ ، صعد الصهيونيون « العمليون » هجومهم على « السياسيين » ومحاصرتهم لهم ، ولم تمر الا اقل من عشر سنوات ، حتى استطاعوا ، في المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (١٩١٣) ، السيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية وكافة مؤسساتها (١٨) • وقد « انتقم » « العمليون » من نورداو بعد انتصارهم ، فوجد نفسه خارج دائرة النشاط الصهيوني الفعال •

غير ان هذا التغيير في قيادة المنظمة الصهيونية لم يكن بحد ذاته السبب الوحيد في ابعاد الصهيونيين « السياسيين » واحتوائهم ، اذ ساهمت في ذلك ايضا الظروف الموضوعية والتطورات التاريخية التي كان لها تاثيرها على النشاط الصهيوني العالمي انذاك • ففي السنة نفسها التي توفي فيها هرتسل (١٩٠٤) ، بدأت موجة جديدة من الهجرة الصهيونية ، عرفت فيما بعد باسم الهجرة الثانية ، من روسيا وبولونيا الى فلسطين ، إستمرت حتى نشوب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، ودخل خلالها الى البلد نحو ٤٠ الف مهاجر ، عادت اكثريتهم ونزحت عنه فيما بعد ، لاسباب مختلفة (١٩) • وكانت اكثرية اولئك المهاجرين من ابناء الطبقة العاملة اليهودية ، التي تكونت في روسيا ، منذ راحت تسير على طريق التطور الصناعي ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر • وقد اصر اولئك المهاجرون العمال على اعتبار انفسهم « صهيونيين اشتراكيين » ، وكانت اكثريتهم متاثرة فعلا ، بشكل او باخر ، بالمبادىء الاشتراكية التي كانت تنتشر تدريجيا في روسيا القيصرية انذاك (٢٠) • ولذلك

اتجهوا ، مع وصولهم الى فلسطين ، الى اقامة ما سموه « المجتمع الصهيوني العمالي » في البلد · وفي غمرة نشاطهم هذا ، اقام اولئك العمال فرعا لحزبهم « بوعالي تسيون » (عمال صهيون) ـ الذي كان قد نشأ في روسيا اصلا ـ في فلسطين (٢١) ، وانشأوا المؤسسات التنظيمية والتعاونية (٢٢) ، وحتى « العسكرية » (هاشومير) (٢٣) ، على اختلاف انواعها · كما رفع اولئك العمال ، في محاولة لتبرير وجودهم في فلسطين من جهة وللرد على صعوبات استيعابهم في البلد ومنافسة العمال العرب لهم من جهة ثانية ، شعار « العمل العبري » ، ودعوا الى « احتلال العمل » و « احتلال الارض » من ايدي العرب (٢٤) ، باعتبار ان ذلك ضروري لاقامة الكيان الصهيوني المستقل في فلسطين ، اذ ان الارض ستكون في النهاية « ملكا لمن يفلحها » · وكان ابناء الهجرة الثانية هم الذين ارسوا ايضا الاسس للمستوطنات الجماعية اليهودية في فلسطين ، من صنف الكيبوتس (٢٥) ، على اختلاف اشكاله ، الذي تحول فيما بعد الى رأس حربة الاستيطان الصهيوني في فلسطين خلال ايام الانتداب، ولا يزال يقوم بدوره هذا ، الى حد ما ، حتى اليوم · أما المؤسسات الاخرى ، التي اقامتها الهجرة الثانية ، فقد نمت وكبرت وتشعبت ، مع مرور الزمن ، واصبحت بمثابة ركائز للكيان الصهيوني في فلسطين ، وساهمت بشكل فعال في اقامة اسرائيل ·

وعلى كل حال ، ومهما كانت اهمية مؤسسات الهجرة الثانية ، فمن الواضح ان مجرد اقامتها ، في الظروف التي تم فيها ذلك ، قدمت للقادة والمنظرين الصهيونيين درسا سياسيا مهما ، لم يكن باستطاعتهم نسيانه · لقد اقيمت تلك المؤسسات في ظل الحكم العثماني لفلسطين ، الذى لم يكن معروفا بنزاهته او ديمقراطيته او حسن ادارته ـ بل لعل العكس هو الصحيح ـ وذلك بواسطة اتباع الطرق غير المباشرة واساليب الرشوة والتهديد والترغيب والضغوط الخفية دون المطالبة بضمانات سياسية علنية ، وفقا لتعاليم الصهيونيين « السياسيين »، او الاعلان عن المواقف والاهداف النهائية على رؤوس الاشهاد · وكانت العبرة التي استنتجتها الصهيونيون من ذلك هي ان الواقعية والمرونة من جهة والاعتماد على النفس من جهة اخرى ، ليست بالسبل التي يجوز التغاضي عنها لتحقيق اهداف الصهيونية · ولم يساعد ذلك ، بالطبع ، على انتشار الافكار « اليمينية » المتصلبة ، المتجانسة مع منطلقات التيار الصهيوني « السياسي » ، او ازدياد عدد المؤمنين بها ، اذ ثبت بالوقائع الملموسة ان نظرية الصهيونية « العملية » اكثر ملائمة للواقع ·

واذا كانت هذه هي العبر التي استنتجها الصهيونيون من نشاطهم في فلسطين ، خلال السنوات العشر التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، فقد جاءت

الحرب لتزيدها رسوخا ، وتدفع بانصار الخط الصهيوني البرغماتي الى قيادة المنظمة الصهيونية والنشاط الصهيوني باسره · فقد قدمت الحرب ، خصوصا بعد ان خاضتها تركيا الى جانب المانيا ، مناسبة فريدة من نوعها لدول الحلفاء لبسط نفوذها على المشرق العربي الخاضع انذاك للحكم العثماني · ولتحقيق هذه الاهداف ، وحيث ان التنافس على الفوز باكبر حصة من الغنائم كان قويا بين دول الحلفاء ، دخلت بريطانيا في حلف مع الصهيونيين ، تعهد اولئك بموجبه ببذل كل ما لديهم من نفوذ لدى دول الحلفاء وغيرها لتامين السيطرة البريطانية على فلسطين ، مع انتهاء الحرب ، لقاء تعهد بريطانيا بتسهيل اقامة « وطن قومي يهودي » في البلد · وهذا ما تم فعلا ، ووجد تعبيرا عنه في وعد بلفور لسنة ١٩١٧ ·

لعب الدكتور حاييم وايزمان دورا بارزا في استصدار وعد بلفور وبلورة مضمونه ، مما عزز بدوره من مكانته داخل الحركة الصهيونية وجعل منه زعيمها الاكبر · وقد جاء وعد بلفور ، الى حد ما ، بمثابة انتصار لنظرية الصهيونيين « السياسيين » وتجسيدا لها ، من حيث تبني دولة كبرى لمطالب الصهيونيين في فلسطين والتزامها بمساعدتهم على تحقيق اهدافهم · غير ان وايزمان لم يفهم نجاحه على هذا الشكل ، ولم يكن أساسا من مؤيدي هرتسل او اتباعه ، ولا من المؤمنين بأساليب « السياسيين » المتزمتين · وكان وايزمان قد تعرف على هرتسل في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) ، الا انه لم يعجب به ، لان « صهيونيته بدت كنوع من الصدقة » (٢٦) ، ولان « [كتاب] دولة اليهود لم يحتو على فكرة واحدة جديدة بالنسبة لنا » (٢٧) · ثم « ان الصهيونية بالنسبة لي [اي وايزمان] كانت شيئا عضويا ، ينبغي ان ينمو مثل شجرة ويجب مراقبتها وريها والاعتناء بها ، اذا اريد لها ان تثمر · ولم اكن اعتقد ان الامور يمكن ان تتم على عجل » (٢٨) · وكانت هذه النظرة اساس ما عرف باسم « الصهيونية المركبة » (٢٩) (من التيارات الصهيونية المختلفة : السياسي والعملي والروحاني والمتدين وغيرها) ، التي اطلقت على اسلوب وايزمان في العمل الصهيوني ، والتي اصبحت منذ ذلك الوقت شعار إكثرية الصهيونيين · وقد دفعت هذه النظرة وايزمان الى انتهاج سياسة براغماتية للغاية ، اساسها تجنب اتخاذ مواقف صدامية مع بريطانيا ، والاعتماد على « نبل » الساسة البريطانيين و « شهامتهم » (ومصلحة بلادهم في استمرار السيطرة على فلسطين ، واستعمال الصهيونيين وسيلة لذلك) · كما نجمت هذه السياسة ، من ناحية ثانية ،عن احساس وايزمان بضعف الحركة الصهيونية انذاك وضرورة اعتمادها على بريطانيا والتنسيق معها ، لتحقيق اهدافها · وانطلاقا من هذا الموقف ، تراجع وايزمان اكثر من مرة عن طلباته امام البريطانيين · فاثناء المفاوضات حول نص وعد بلفور ، مثلا ، طالب الصهيونيون بريطانيا بالتعهد

بتحويل فلسطين باكملها الى وطن قومي لليهود . ولكن البريطانيين اوضحوا انهم لا يقبلون ، لاسباب مختلفة ، الا باقامة وطن في فلسطين . فوافق وايزمان وصحبه · واثناء المرحلة الاخيرة من المفاوضات حول صياغة صك الانتداب على فلسطين ، وبعد ان رسمت سياسة بريطانية جديدة للمنطقة . اعلن البريطانيون انهم سيفصلون شرق الاردن عن المنطقة المخصصة لاقامة الوطن القومي اليهودي ، وحصرها في فلسطين غربي نهر الاردن فقط ـ فوافق الصهيونيون ووايزمان ايضا ، بعد « ان اوضح لنا ان اقرار صك الانتداب متعلق بذلك » · كذلك وافق الصهيونيون على التفسير البريطاني لمضمون صك الانتداب ، كما جاء في الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ الذي نص ، من بين ما نص عليه . على ضرورة اخضاع الهجرة اليهودية الى فلسطين لمقدرة البلد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين الجدد · وكانت المعارضة العربية واحدا من الاسباب الرئيسية التي دفعت البريطانيين يومئذ على ادخال تلك التغييرات على سياستهم · ولم تحظ « التنازلات » ، التي قدمتها المنظمة الصهيونية بزعامة وايزمان للبريطانيين ، برضى الصهيونيين « السياسيين » ، فعاد نورداو العجوز الى نشر انتقاداته واطلاق نظريات جديدة ، وركز هذه المرة على العرب ومقاومتهم للصهيونية · وكانت نظريات نورداو الجديدة هذه اوفر حظا في الانتشار ، بين دوائر صهيونية مختلفة ، من سابقاتها واصبحت احدى ركائز الفكر اليميني الصهيوني ، وتسللت مع مرور الوقت الى عقائد اكثر من فئة صهيونية ·

تطرق نورداو الى الحديث عن موقفه من العرب ، لاول مرة ، في المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) ، فاشار الى ان الحركة القومية العربية ، التي نشطت وقتئذ ، قد تلجأ الى وسائل تمس بسلطة تركيا على فلسطين وعلى البلدان المجاورة لها · وقد يدفع ذلك تركيا ، مع الدول الاوروبية ، الى التفتيش عن عامل معين ، يكفل لها الهدوء في المنطقة ، فتضطر بالتالي ، ربما بعد تنسيق مع الدول الاوروبية ، الى الاستنجاد بالحركة الصهيونية ، والسماح باستيطان يهود في فلسطين ، يعملون على المحافظة على سيطرة السلطان التركي على البلد · وحث نورداو زعماء الحركة الصهيونية على بذل كل ما في وسعهم للافادة من هذا الوضع ، حتى لا يقال في المستقبل « ان اللحظة الكبيرة وجدت جيلا صغيرا » (٣٠) · وبعد هذا الخطاب ، سكت نورداو عن « المسألة العربية » لمدة ١٣ سنة اخرى ، الى ان صدر وعد بلفور (١٩١٧) ، واحتلت بريطانيا فلسطين ، وفرض الانتداب البريطاني على البلد (١٩٢٠) ، وما رافق هذه التطورات من مقاومة عربية لها ، فراح يعرض اراءه حول انسب الطرق التي ينبغي على الصهيونية اتباعها لتامين مصالحها من جهة ، وينتقد الزعامة الصهيونية من جهة اخرى ·

شملت انتقادات نورداو للسياسة الصهيونية ، بقيادة وايزمـــان ، معظـــم خطوطها الرئيسية ، فدعا ـ عامة ـ الى اتباع سياسة متصلبة تجاه البريطانيين والعرب ، وان لم تكن المنظمة الصهيونية قادرة موضوعيا على اتباع مثل تلـك السياسة حينئذ · وخلافا للموقف الذي اتخذته القيادة الصهيونية ، مثلا ، عندما وافقت على « سلخ » « ارض ـ اسرائيل الشرقية » (اي شرق الاردن) عن المنطقة المخصصة لاقامة الوطن القومي اليهودي ، طالب نورداو « بالاعتراف بارضـ ـ اسرائيل كوحدة جغرافية ، غير قابلة للتقسيم ، في حدودها التاريخية · وينبغي معارضة كل محاولة لاقتطاع اجزاء منها ، من الشمال والجنوب ، بشدة »(٣١)· وينطبق الشيء نفسه على « ارض ـ اسرائيل الشرقية » ، لان « الاراضي الواقعة شرقي نهر الاردن اهم من الواقعة الى الغرب منه · انها غير ماهولة اليوم ، وهي تتسع لاستيعاب ملايين من اليهود ، يمكن ان نفترض انهم سيعودون الـى ارض ـ اسرائيل · وهذه الاراضي هي اليوم في يد الحكومة ، وعلينا ان نصر بشدة على طلب تسليمها لنا » (٣٢) · وطالب نورداو بتخصيص منطقة حوران في سوريا للاغراض نفسها ،اذ انها اليوم بلاد جرداء مقفرة ، تسكنها مجموعات صغيرة من البدو ، لم تحاول يوما القيام باي عمل حضاري ··· » (٣٣) · وفي مقال بعنوان « نحن والعرب » ، اعلن نورداو ايضا « ان الحاجة الاولية والاكثر الحاحا بالنسبة لنا الان ، هي نقل ملكية الاراضي [في فلسطين] لايدينا قدر الامكان · اننا لا نريد ان نعيش في ارض ـ اسرائيل تحت الظروف السكانيـــة التي فرضت علينا في المهجر ··· ينبغي ان لا يخاف العرب !··· لن نسبـــب ضررا لاي شخص · سندافع بايمان عن حقوق الملكية · ولكن من الواضح اننا سنشتري كل الاراضي العربية التي ستعرض للبيع في السوق الحـــــرة ··· وسنستولي فقط على اراضي الحكومة التركية ، التي زالت سيادتها عن ارض ـ اسرائيل ، اذ سنكون نحن ، من هذه الناحية ، ورثتها قانونيا » (٣٤) ·

وامتلاك الاراضي في فلسطين ، من قبل اليهود ـ بحسب رأي نورداو ـ ليس الا احد الاسس لضمان السيطرة الصهيونية على البلد ، اذ ان هناك ايضــا اساسا اخر ، ينبغي بموجبه تحويل اليهود الى اكثرية في فلسطين ، وباسـرع وقت ممكن · « فكما انه من الضروري ان تكون لدينا حقوق ملكية على مساحات واسعة من الاراضي ، كافية للاستجابة لطلباتنا ، فمن الضرورة المطلقة ان نكون ايضا اكثرية السكان في البلد ، لكي نحول ارض ـ اسرائيل الى وطن قومـــي لشعبنا » (٣٥) · « وما دمنا اقلية صغيرة ، دون امل ، في ارض ـ اسرائيل ، لن يكون البلد يهوديا ، بل عربيا » · وكل ما يتوقعه اليهود ، في مثل هـــذه الحالة ، هو ما يمن به عليهم الزعماء العرب ، « فيتحملوننا بادب في البلد ، ويسمحون لنا بالمحافظة على ديننا ، وافتتاح مدارس ، نستطيع تدريس التلمود فيها ، وحتى انهم سيسمحون لنا بالعمل ··· شرط ان نخضع لقوانين البلد ،

ونتحدث باللغة العربية ، ونكون مخلصين دون تردد لسادتنا العرب » (٣٦) ٠ وكان نورداو قد طالب ، باصرار ، بتقوية الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وهاجم بعنف الزعماء الصهيونيين الذين لم يستجيبوا لنداءاته : « منذ تسعة اشهر ـ هكذا كتب سنة ١٩٢٠ ـ اطلقت ، للمرة الاولى ، هذا الشعار « هجرة [يهودية] واسعة ، ودون اي تاخير لارض ـ اسرائيل ٠٠٠ ولكن [بسبب ذلك] اثيـــرت ضدي في اوروبا باسرها ، كمجموعة كلاب مسعورة ، عصابـــة الصحافـــة الصهيونية الرسمية ، التي نبحت علي وحاولت ان تنهشني في قدمي » (٣٧) ٠ وهذه الهجرة الواسعة هي « الطريق الوحيدة للقضاء على الخطر العربي ، بعد ان نتحول الى اكثرية في وطننا التاريخي ٠ اننا ملزمون بادخال نصف مليون مستوطن يهودي الى هناك ، بسرعة ٠٠ انني لا اخشى ان استعمل التعبير : لنرم الى البلد [فلسطين] نصف مليون يهودي » (٣٨) ٠ وعندما يتم ذلك ، « نكون قد تغلبنا بنجاح على الموانع المتوقعة ، مع بداية تجديد حياتنا القومية ٠ ولن يستطيع السكان العرب ان يشتكوا بأن اقليـــة يهوديـــة تضطهدهـــم » (٣٩) ٠ والواضح ان هذه الآراء كانت معارضة تماما للسياسة الصهيونية الرسمية ، التي وافقت على تحديد عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ، بالاتفاق مـــع السلطات البريطانية ٠

ولا يتوقع نورداو ، على كل حال ، ان يرحب العرب الفلسطينيون بدخـــول المهاجرين اليهود الى فلسطين ، ولذلك يدعو الى اتخاذ مواقف متصلبة منهم : « لا نستطيع ان نشتكي او ان نتذمر ، اذا لم يكن العرب راضين ، لاول وهلة ، عن استيطاننا في البلد ، الذي يعتبرونه بلدهم منذ اجيال ٠ هكذا يتصـــرف عديمو الثقافة والسذج ، الذين يخافون المجهول دائما ٠ وهذا سيكون ايضـــا موقف عرب ارض ـ اسرائيل تجاهنا » (٤٠) ٠ اما من الناحية الاقتصاديـــة « فاننا واثقون مسبقا ، باننا سنصل الى اتفاق ناجح مع جيراننا العرب ٠ واذا التزموا بحدود الحقوق القائمة ، ليس هناك ما نخشاه من اي خلاف معهم ٠ ولن نصل حتى الى سوء تفاهم ، الا اذا اتخذوا موقفا عدائيا محددا سلفا ، ووقعوا تحـــت تاثيـــر دس المحرضيـــن اللاســاميين ، بشـــكل يدفعنا الى الدفاع عـــن انفسنا » (٤١) «واذا حاولوا مقاومتنا بالقوة ، سيتضح لهم بسرعة ، ان قوتنا لا تقل عن قوتهم » (٤٢) ٠

ومع تصاعد مقاومة العرب الفلسطينيين ، سياسيا وعسكريا ، للمشاريـــع البريطانية الهادفة الى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، تصلبت مواقـــف نورداو ايضا ، فدعا الى مجابهة المقاومة العربية ـ والعرب بأسرهم ـ بالشدة : « ان الصعوبة الكبرى ، التي تواجهها الصهيونية ، هي في كون البلد الذي تريد استيطانه ، بعيدا جدا عن ان يكون خاليا من السكان ، الذين يبدو انهم غيـــر مشتاقين ابدا لمستوطنين جدد » (٤٣) ، بل يقاومونهم ٠ وعلى رأس هذه المقاومة

« تقف حفنة من المسيحيين السوريين ، التي استطاعت ان تشد الى جانبها بعض دعاة العروبة ، الذين اضفوا على انفسهم شيئا من المدنية الاوروبية . وبعض المسلمين من القوميين المتعصبين ، الذين يقومون بكل ما في وسعهم لاثارة شعور الكراهية تجاه الصهيونية والهجرة اليهودية الى ارض ـ اسرائيل » · ويثير اولئك ، لتحقيق هذا الهدف ، « مشاعر الفلاحين الجهلة والمساكين ، بحلم مسكر عن امبراطورية عربية كبيرة ، في اسيا وافريقيا الشمالية ، تضم سوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية ومصر ، وبدون شك ، ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ايضا » · وليس لدى الصهيونيين ، على كل حال ، سبب وجيه لمعارضة تحقيق هذه الاماني ، « ما دامت محصورة خارج فلسطين » · واما في فلسطين ، فينبغي معارضة هذه المشاريع · « وهناك فقط وسيلة واحدة ووحيدة وهي : اننا ملزمون بأن نصل بكل الطرق ، وباقصى سرعة ، الى مساواة عددية مع الفلاحين في ارض ـ اسرائيل ، وحتى ـ اذا امكن ـ زيادة عددنا على عددهم ، مهما كان الفارق صغيرا ، حتى نستطيع المباشرة في عملنا » · وعند ذلك فقط « نستطيع اقامة علاقات جيدة مع جيراننا العرب ، والمحافظة على الهدوء والنظام العام في [فلسطين] ، ومساعدة مهاجرينا للوصول الى الاستقلال الاقتصادي ، وتهيئة البلد لمصيره الجديد ، كوطن قومي لليهود ، ودولة يهودية مستقلة في المستقبل » (٤٤) ·

ويؤكد نورداو ايضا « ان الصعوبات التي تواجهنا في علاقاتنا مع السكان العرب في ارض ـ اسرائيل ، ليست اكبر الصعوبات ولا اسواها ، بالنسبة للمسالة العربية باسرها · ان اكبر اعدائنا هم القوميون دعاة العروبة ، خارج ارض ـ اسرائيل ، وخصوصا في سوريا ومصر ·· ان ادعاءهم هو انه لا يوجد عامة ، بلد يعرف باسم فلسطين ·· التي هي جزء لا يتجزأ من سوريا : وسيرى المستوطنون الصهيونيون ، على جلدهم ، الثمن الذي سيدفعونه ، يوما ما ، بسبب استهانتهم الوقحة بمشاعر الامة العربية العظيمة · ولكن ينبغي ان لا يخيفنا هذا التهديد المكشوف ··» (٤٥) · و « اعتقد انه من واجبنا ان نثبت للعرب ان مشاريع الوحدة العربية ليست الا وهما ··· والدول الاوروبية ··· ستضطر ان تدرس المسالة ، اذا كانت مصالح كل واحدة منها متطابقة مع تطلعات دعاة العروبة » (٤٦) ·

ويضيف نورداو ، في مقال كتبه سنة ١٩٢٠ ، موضحا موقفه من المعارضة العربية للصهيونية ، مستخفا بقوة العرب على التصدي بشكل فعال للمخططات الصهيونية ، ومشجعا الصهيونيين ، في الوقت نفسه ، على المضي قدما في تنفيذ مشاريعهم ـ وهو الموقف الذي تبنته دوائر صهيونية عدة ، وسيطر على تفكير القادة الصهيونيين لمدة طويلة ، استطاعوا خلالها تنفيذ جانب لا بأس به من

خططهم : « لحسن حظنا ، لا يزال تعبير « الامة العربية» ـ حتى الان ، على الاقل ـ كلمة فارغة · انه غير موجود ، الا في عقول الصحفيين السوريين ـ المسيحيين المتبجحين ، وعقول بعض تلامذتهم وشزكائهم من المسلمين · هناك حقا عرب ، ولكن لا توجد امة عربية ، بمفهوم المدنية الاوروبية لتعبير الامة · ولا وحدة بين جماهيرها · ان بدويا في شمال افريقيا بعيد كل البعد عن مواطن في بغداد ، كبعد الهندي الاحمر في ··· الولايات المتحدة عن رجل الاعمال في وول ستريت او السياسي في مجلس النواب الاميركي · ان القرابة بين فلاح من مصر او تاجر من مسقط او بدوي من العراق وبين بائع من اليمن او حرفي في بيروت ، اقل من القرابة بين مزارع ارز ايطالي في لومباردي ومربي ابقار فرنسي في نورماندي · وحتى الان لم تسيطر فكرة القومية والاستعمار على عقولهم · ويستطيع بعض المثقفين الافراد منهم فقط ، الذين اندمجوا في اوروبا ، استيعاب افكار سياسية · والعلاقة بين ملايين السكان محصورة في اللغة والدين ، وليس في التطلع نحو دولة مستقلة قوية ، تضم مساحات واسعة من اسيا وافريقيا ، ولا تستطيع تحمل تدخل اجنبي داخل حدودها · ان الخلافات الداخلية ، المستمرة منذ مئات السنين تمزقهم · والقبائل المختلفة تناصب بعضها بعضا العداء ، والمنافسة التقليدية القائمة بينها اقوى ، الى حد بعيد ، من شعورها بالتضامن » ·

واخيرا : « في المستوى الحالي من التطور القائم في مقدمة اسيا ، لا يزال من المبكر بالنسبة لنا ان نرتعد خوفا من خطر دولة عربية مجاورة معادية لنا · ان هذه الدولة غير قائمة حتى الان ، والى ان تقوم ـ هذا اذا قامت في يوم من الايام ـ سيكون لدينا متسع من الوقت لملائمة انفسنا مع الاوضاع الجديدة » (٤٧) ·

ولكن على الرغم من هذه المواقف المعارضة ، لم يقم نورداو باي نشاط تنظيمي لجمع المؤيدين من حوله ـ وان بقيت اصداء ارائه هذه تتردد من حين الى اخر، منذ ذلك الوقت ، بين فئات صهيونية مختلفة ، لم تكن كلها بالضرورة يمينية النظرة · كما ان السياسة الصهيونية الرسمية انتهجت ، على العموم ، اسلوبا معاكسا لنصائح نورداو · فبعد ان تبلورت السياسة البريطانية في فلسطين ، واقرت نصوص صك الانتداب البريطاني على البلد ، التي « فسرت » رسميا في الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ ، عمد وايزمان الى تشكيل ادارة صهيونية تستطيع العمل ضمن حدود تلك السياسة · وفي مساعيه هذه اقام تحالفا من العمال ومؤيديه بين دوائر الصهيونيين العموميين · ولم يكن وايزمان من المؤمنين بالاشتراكية ولكنه قدر ان الجناح العمالي الصهيوني هو القوة الوحيدة التي تستطيع بناء الوطن القومي في فلسطين ، ولذلك قرر عقد حلف معهم وتبني

مطالبهم (٤٨) مقابل تأييدهم لزعامته · اما الصهيونيون العموميون فكانوا عبارة عن « حزب » ذي اتجاهات ليبرالية ، او يمينية معتدلة (٤٩) ـ وكان وايزمان نفسه من المحسوبين عليهم ـ يضم اكثرية الصهيونيين في مطلع العشرينات ، وان كانت معظم قواهم مركزة خارج فلسطين · وفي مرحلة لاحقة . انضم الى ذلك التحالف المتدينون من اتباع المزراحي · وقد قاد هذا الائتلاف الثلاثي الحركة الصهيونية واشرف على نشاطها ، خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩١٨ ـ ١٩٤٨) ، داخل البلد وخارجه ، وحكم اسرائيل لفترة طويلة بعد قيامها ، وذلك على الرغم من الهزات التي كانت تصيبه من حين الى اخر من جهة ، وتغيير نسب القوى بين الفئات المتحالفة ، لصالح العمال تدريجيا ، من جهة اخرى · وكان الاسلوب السياسي الذي اتبعه هذا التحالف . لمعالجة الشؤون الصهيونية المختلفة ، الداخلية والخارجية ، براغماتيا واضحا ·

اما التغيير التدريجي في نسب القوى لصالح العمال ، داخل هذا التحالف الصهيوني ، فقد جاء نتيجة للسياسة التي انتهجها الجناح العمالي للحفاظ على مصالحه ورعايتها · فالعمال لم يكونوا راضين ، في قرارة نفسهم . عن تلك القيادة الصهيونية « البورجوازية » ورأوا ان من واجبهم العمل على استبدالها ، في نهاية المطاف ، بقيادة اخرى « عمالية » تسعى الى اقامة « مجتمع العمل العبري » في فلسطين · وعلى طريق السعي نحو تحقيق هدفهم هذا ، عاد العمال الى اتباع الاسلوب الذي اعتمدوه اساسا لنشاطهم في فلسطين ، قبل نشوب الحرب العالمية الاولى ، وذلك بتوسيع المؤسسات التابعة لهم وتدعيمها من ناحية ، واقامة المؤسسات الجديدة ، في ضوء ضرورات الاوضاع المستجدة من ناحية ثانية · ففي سنة ١٩١٩ ، اتحد حزب الهجرة الثانية الرئيسي ، بوعالي تسيون ، مع مجموعة من غير الحزبيين واقاموا حزبا جديدا ، سموه « احدوت هعفوداه » (وحدة العمل) (٥٠) ـ وهو غير الحزب الذي عرف فيما بعد بهذا الاسم · وقد اتحد احدوت هعفوداه ، سنة ١٩٣٠ ، مع حزب آخر من احزاب الهجرة الثانية ، « هابوعيل هاتسعير » (العامل الشاب) ، واقاما « حزب عمال ارض ـ اسرائيل » (مباي) الذي عاد واتحد بدوره ، سنة ١٩٦٨ ، مع مجموعتين كانتا قد انشقتا عنه سنتي ١٩٤٤ و١٩٦٥ (احدوت هعفوداه ورافي) ، فاقاموا حزب العمل الاسرائيلي · ومنذ تأسيس هذا الحزب بطبعته الاولى ، سنة ١٩٠٥ ، احتل مركز الحزب القائد داخل الكيان الصهيوني في فلسطين ايام الانتداب ، ثم الحزب الحاكم في اسرائيل بعد اقامتها ، اي انه بقي بمثابة الحزب الصهيوني الاول لمدة ٧٢ سنة متواصلة ـ الى ان هزم في الانتخابات الاخيرة ·

وبالاضافة الى حزب احدوت هعفوداه ، اسس الجناح العمالي ايضا ، سنة

١٩٢٠ ، الهستدروت ، النقابة العامة للعمال اليهود · ولم يعتبر العمال الهستدروت نقابة عمال فحسب ، بل رأوا فيها ايضا اداة لاقامة مجتمع العمل الذي كانوا يحلمون به ، ولهذا اوكلوا اليها ، بعد وقت قصير من تأسيسها ، مهاما اخرى شبيهة بتلك التي تفرضها الدولة على نفسها ، خصوصا في مجال النمو الاقتصادي · ولذلك تحولت الهستدروت ، بالاضافة الى كونها نقابة عمال، الى مؤسسة اقتصادية ضخمة للغاية ايضا ، تملك المزارع والمصانع ووسائل الانتاج المختلفة (٥١) · ومع مرور الوقت اصبحت الهستدروت بمثابة « قلعة » للجناح العمالي ، فجعل منها قاعدة لمهاجمة الصهيونيين « البورجوازيين » والاستيلاء على السلطة من ايديهم · وتجدر الاشارة هنا الى ان مهام الهستدروت ، بحسب مفهوم مؤسسيها ، كانت واسعة ومتشعبة لدرجة اوكلت اليها معها مسؤولية الاشراف على كتائب الدفاع ، الهاغاناه ، التي اسست في مطلع العشرينات (٥٢) ·

كذلك سعى العمال حثيثا الى تنظيم صفوفهم وزيادة عددهم ، وحملوا المنظمة الصهيونية وسلطات الانتداب على تفضيل المهاجرين العمال الى فلسطين على غيرهم · وسرعان ما اثمرت كل تلك الجهود ، واسفرت عن زيادة ملحوظة في قوة الجناح العمالي · فخلال العشرينات فقط ، ارتفعت نسبة ممثلي العمال ، مثلا ، من ٨٪ من عدد المندوبين في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) ، الى ٢٦٪ في المؤتمر السادس عشر (١٩٢٩) ، بينما انخفضت ، خلال الفترة نفسها ، نسبة مندوبي الصهيونيين العموميين من ٧٣٪ الى ٤٧٪ والمزراحي من ١٩٪ الى ١٦٪ (٥٣) ·

« المعلم » فلاديمير جابوتينسكي

لم تحظ سياسة المنظمة الصهيونية التي اشرنا اليها ، ولا نشاط الجناح العمالي الصهيوني ، باعجاب مجموعة من الزعماء الصهيونيين ومؤيديهم ، في فلسطين وخارجها ، نظرا « للتنازلات » التي قدمتها للبريطانيين من جهة وتفضيل العمال على غيرهم من جهة اخرى · وكان من ابرز افراد هذه المجموعة فلاديمير جابوتينسكي ، الذي شغل حتى ذلك الوقت مناصب صهيونية مختلفة · وكان جابوتينسكي قد انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية الصهيونية سنة ١٩٢١ ، الا انه استقال منها في مطلع سنة ١٩٢٣ ، احتجاجا على قرار موافقتها على الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ ، رغم انه اشترك في الجلسة نفسها التي اتخذ فيها ذلك القرار ، وكان من بين مؤيديه ، وذلك بعد ان شعر – على حد تعبير احدهم – ان من واجبه تحمل المسؤولية مع زملائه (٥٤) · ومع استقالته ، اعلن جابوتينسكي انه قرر « اعتزال » السياسة والانصراف الى الكتابة ، غير انه لم يتمكن من الابقاء على هذا الوضع طويلا ، اذ جذبت كتاباته

عددا من الصهيونيين الناقمين ، مثله ، على السياسة الصهيونية بزعامة وايزمان ، وسرعان ما وجد نفسه ـ والى حد ما رغما عنه ـ يتزعم دوائر المعارضة الصهيونية المتصلبة · وقد بقي جابوتينسكي في موقع زعيم المعارضة الصهيونية منذ ذلك الوقت وحتى وفاته سنة ١٩٤٠ ، اي ما يقارب من ١٧ سنة، وهي الفترة التي ارسى خلالها الاسس الفكرية والتنظيمية لليمين الصهيوني ـ واصبح زعيمه دون منازع · وكان جابوتينسكي من المعجبين بهرتسل ونورداو ، فتلقف نظريات الاخير وشذبها وهذبها ، بما يجعلها ملائمة للاوضاع التي سادت في فلسطين ايام الانتداب ، وجعل منها ركائز فكرية لنظريات اليمين الصهيوني، بعد ان اضاف اليها من جعبته ·

يختلف جابوتينسكي عن الزعماء الصهيونيين الذين عاصروه في دعوته ـ مثل نورداو (وهرتسل) ـ الى اتباع الاسلوب « السياسي » ، بدلا من « العملي » ، في النشاط الصهيوني كوسيلة لتحقيق اهداف الصهيونية · وانطلاقا من هذا الموقف ، عارض جابوتينسكي السياسة « العملية » التي اتبعها وايزمان وحلفاؤه ودعا ، بدلا من ذلك ، الى السير على خطى هرتسل ونورداو ، معتبرا نفسه بمثابة مكمل لهما · « من المناسب ان نميز بوضوح ـ هكذا كتب مرة ـ بين اسلوبي حركة البعث اليهودية : السياسي والعملي · ان الاسلوب السياسي هو الاكثر اهمية · انه الارث الازلي الذي تركه لنا هرتسل · وتنص تعاليمه على انه من اجل انشاء دولة يهودية في فلسطين ، علينا قبل كل شيء ان نحصل على المصادقة الرسمية على ذلك من قبل الدوائر الحاكمة [في فلسطين] ـ وعندئذ فقط يمكن ان يكون الاستيطان حقيقيا ، اي استيطان يؤدي الى اكثرية يهودية وحكومة يهودية » (٥٥) · ولذلك لا يعلق جابوتينسكي اهمية كبرى على نمو الكيان الصهيوني في فلسطين ، حتى اذا اسفر ذلك عن تأسيس عشرات المستوطنات ، واقامة المؤسسات الصهيونية على اختلاف انواعها ، الا ضمن المدى الذي يمكن أن يؤدي فيه ذلك النمو الى تحقيق الهدف السياسي ، اي اعتراف عالمي بضرورة تحويل فلسطين وشرق الاردن الى دولة يهودية ، تعمل على تهجير معظم يهود العالم اليها واستيعابهم فيها · والواضح ان هذا الموقف كان معارضا للسياسة الصهيونية الرسمية ، المتبعة آنذاك ·

كذلك كان جابوتينسكي على خلاف عميق مع الجناح العمالي الصهيوني ، فعارض الاعتماد على النظريات الصهيونية ذات الصبغة الاشتراكية كأساس لبناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين من الناحية الاجتماعية · ولم يكن الرجل من المؤمنين بالاشتراكية اساسا ، لاعتقاده انها غير ملائمة لتحقيق الهدف الصهيوني ، وهاجمها مع المؤمنين بها بعنف ـ واحيانا بسخرية ـ في اكثر من مناسبة : « يا عمال العالم ، اتحدوا ! ··· انني انظر باحتقار الى هذا الشعار

الداعي الى وحدة الجزء بدلا من وحدة المجموع ··· انني لا اؤمن بمحاسن النظام الاشتراكي ، اي بفكرة تاميم وسائل الانتاج · وانني متاكد ان هـذا النظام لو نشأ وتحكم في احدى الدول او في العالم كله ، فسينكشف كنظام سيء للغاية ، واسوأ حتى من النظام الاجتماعي الحالي » (٥٦) · اما السبب فهو انه « لا « تحرير » (الاقواس في الاصل) دون حرية الفكر والكلام والتنظيم ، والحرية لكل شخص لان يختار مهنته ومكان سكنه »(٥٧)، كما «ان البروليتاريا لم تسر ابدا ، ولا تستطيع ان تسير على راس التطور الفكري للمجتمع الانساني ، ولن تقوم بذلك لوقت طويل ··· وكانت اخر من انضم الى الاشتراكية » (٥٨)· والواضح ان اراء جابوتينسكي هذه ، التي عمل انصاره على ترويجها على اوسع نطاق ممكن ، اثارت حفيظة العمال الصهيونيين ، لما فيها من طعن باسس نظرياتهم ، وكانت واحدا من الاسباب الرئيسية التي عمقت الهوة بين اليمينيين والفئات العمالية ، على اختلاف وجهات نظرها ، وشطرت الكيان الصهيوني في فلسطين – عقائديا على الاقل – الى شطرين متخاصمين · وقد شن العمال حربا مضادة شعواء ضد جابوتينسكي ، فاتهموه تارة بانه «فاشي» و «عسكري» وطورا بانه «يميني» و « بورجوازي » · ولم يحفل جابوتينسكي بهذه الاوصاف، بل امعن في تحديه للعمال واستفزازه لهم ، فوصف نفسه مرة بانه « بورجوازي ابن بورجوازي · والدي كان بورجوازيا ، وانا بورجوازي بنعمة ربي ··· ولا ارى ضرورة للتنازل عن هذا الشرف » (٥٩) ·

ومعارضة جابوتينسكي لمنطلقات الجناح العمالي الصهيوني الطبقية لا تقتصر على الناحية العقائدية فقط ، بل تتعداها الى الناحية العمليـة ايضا · « ان النظرة الطبقية ليست الا دجلا في ظروف المشروع الصهيوني » (٦٠) · « ولا يمكن التوفيق بينها وبين الصهيونية · فمهمة الصهيونية هي العمل على توطين عدد كاف من اليهود ، خلال وقت معين وعلى مساحة معينة ، ليصبحوا اكثرية مقررة فيها ··· الاستيطان الصهيوني معناه استيطان يؤدي الى خلق اكثرية يهودية [في فلسطين وشرق الاردن] ولذلك فهو ، قبل كل شيء ، استيطان سريع : ليس استعمارا عاديا ، ولكنه استعمار فريد من نوعـه ، استعمار شاذ » (٦١) · ولاجل تثبيت دعائم هذا الاستعمار « الفريد من نوعه » ، فـان جابوتينسكي « يشجب بقوة ، خلال مرحلة بناء الدولة اليهودية ، وما دامت تلك المرحلة مستمرة ، النظرة القائلة انه بالنسبة للصهيونية هناك قيمة او اهمية لاية نظرة طبقية ، بروليتارية كانت ام برجوازية » (٦٢) · فخلال هذه المرحلـة « الراسمالي بالنسبة لنا ليس راسماليا والعامل ليس عاملا · كلاهمـا جزء من مواد البناء اللازمة لاقامة الدولة ··· وكلاهما يخضع لهذه الفكرة » (٦٣) ، ولذلك لا يجوز « السماح بالتناقضات الطبقيـة ، بـل ينبغي العمـل على تسويتها » (٦٤) · وانطلاقا من هذا الموقف ، دعا جابوتينسكي الى مقاومـة

الاضرابات التي يقوم بها العمال اليهود لتحسين ظروف عملهم ، لانها تضعف الاقتصاد اليهودي في فلسطين وتقلل من قدرته على استيعاب المهاجرين الجدد – كما طعن في ادعاء الهستدروت بتمثيل الطبقةالعاملة،وطالبهابقصر نشاطها على النواحي المهنية فقط ٠ وفي مرحلة لاحقة ، اعلن جابوتينسكي عن معارضته المبدئية لحق العمال في اللجوء الى الاضراب كوسيلة لتحسين ظروف عملهم او لحل خلافاتهم مع ارباب العمال ٠ وطالب ، بدلا من ذلك ، باللجوء الى التحكيم الالزامي ٠

وكان جابوتينسكي (واتباعه) على خلاف عميق – تكتيكيا على الاقل – مع الجناح العمالي والقيادة الصهيونية الرسمية ، بالنسبة للموقف من العرب ، نظرا لتشديده الدائم على ضرورة الاعلان عن اهداف الصهيونية النهائية التوسعية ، حتى وان ادى الى استفزاز العرب وتصلب مواقفهم ، في الوقت الذي كان الآخرون ينتهجون فيه الحيطة والحذر ، ويفضلون الامتناع عن افتعال المشاكل وخلق الصعوبات التي لا مبرر لها ، قبل اوانها على الاقل ٠ وكان جابوتينسكي واضحا للغاية في موقفه هذا – بل لعل هذا الموقف كان من اكثر مواقفه وضوحا – فاعلن عن معارضته لحصر النشاط الصهيوني ضمن سياسة اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، اذ لم تكن تلك السياسة الا بمثابة « صهيونية صغيرة » (٦٥) ، مصيرها الابقاء على اليهود اقلية في فلسطين ، وهذا « شكل جديد من المهجر » (٦٦) ٠ اما « الصهيونية الكبيرة » ، الحقيقية ، فتهدف الى اقامة دولة يهودية في « ارض – اسرائيل التاريخية » ، وعلى ضفتي الاردن ، فلسطين وشرق الاردن ، وذلك بعد ان يصبح اليهود اكثرية في تلك المناطق ٠ وقد درج الصهيونيون اليمينيون على التشديد كثيرا على « حقوق » اليهود في شرق الاردن ، وكتب جابوتينسكي في احد اشعاره بيتا يقول : « ضفتان للاردن : هذه لنا – وهذه ايضا » ، واصبح هذا البيت شعار اكثر من منظمة صهيونية يمينية ٠

اما كيفية اقامة تلك الدولة اليهودية ، فتتلخص في ترحيل مئات الالاف من من مختلف انحاء العالم ، واسكانهم في فلسطين وشرق الاردن ، بحيث يصبحون اكثرية سكانية هناك ، وعندها يعلن رسميا عن اقامة الدولة اليهودية ، التي تتولى نقل بقية اليهود في العالم اليها ٠ وخلال مرحلة الاستيلاء على فلسطين وشرق الاردن وخلق الاكثرية السكانية اليهودية فيهما ، يعارض جابوتينسكي احداث اي تغيير في حكم البلدين ، وخصوصا اقامة نظام ديموقراطي فيهما – رغم انه لم يكف يوما عن وصف نفسه بانه ليبرالي ومتحرر وديمقراطي ومعاد للدكتاتورية ٠ والسبب في ذلك هو « ان اسس الديموقراطية خلقت للدول التي تحتوي على كل سكانها ، وحتى يحدث هذا وتتحكم الاكثرية [اليهودية] في

ارض ـ اسرائيل وينتقل كل « سكانها » (الاقواس في الاصل ، ويقصد الكاتب بذلك يهود العالم الذين يعتبرهم « سكانا في ارض ـ اسرائيل » ، ورغم وجودهم في دول مختلفة) ليستوطنوا فيها ، لا يجوز اقامة اي برلمان يعيق الهجـرة اليهودية [الى فلسطين] » (٦٧) ٠

واساس موقف جابوتينسكي هذا هو اعتقاده الراسخ بانه لا يمكن حـل المسألة اليهودية دون اقامة دولة يهودية في فلسطين وشرق الاردن ، تستوعب معظم اليهود في العالم ، ان لم يكن كلهم ـ ومهما نجم عن ذلك من ضرر قد يلحق بالسكان العرب في هذين القطرين ، لانه لا يجوز « ان تترك المشكلة اليهودية دون حل بسبب مليون عربي [كانوا يقطنون يومئذ في فلسطين وشرق الاردن] » (٦٨) ٠ ثم ان العرب يستطيعون التنازل عن فلسطين وشرق الاردن، وتكفيهم الاراضي الاخرى الشاسعة التي يقطنونها ، خصوصا وان عدد سكانها قليل للغاية بالنسبة لمساحتها ٠ ولا يرى جابوتينسكي اية ضرورة لاخفاء اراءه هذه عن العرب ، بل يطالب « بأن تقال لهم الحقيقة ٠٠٠ ان ارض ـ اسرائيل لنا » ، ومساحتها كافية قطعا لاستيعاب « مليون من العرب ومليون آخر من ابنائهم ٠٠٠ وبضعة ملايين من اليهود » (٦٩) ٠ اما بالنسبة للعرب « فاذا لم يقرروا بأنفسهم ، انه من الافضل لهم ان يتركوا البلد بمحض ارادتهم ـ فلا ضرورة لان يهاجروا » ، ولكن « اذا اتضح انهم ٠٠٠ يفضلون الهجرة ، فمن المسموح البحث في امكانية كهذه دون اي شعور بالحزن » (٧٠) ٠ امـا بالنسبة لمن يقرر منهم البقاء ، فينبغي منحهم حقوق اقلية قومية في الدولـة اليهودية عند اقامتها ٠

والواضح ان مثل هذه المواقف لا تساعد على تخفيف المعارضة العربيـة للمشروع الصهيوني في فلسطين ، ولا تسهل الوصول الى اتفاق مع العرب ٠ ولكن جابوتينسكي لم يكن يهتم كثيرا بذلك لاقتناعه بعدم امكانية تحقيقه : « لا يمكننا ان نحلم باتفاق حر بيننا وبين عرب ارض ـ اسرائيل ، لا الان ولا في المستقبل القريب ٠٠٠ لا يوجد اي امل ـ مهما كان ضعيفا ـ للحصول على موافقة عرب ارض ـ اسرائيل لتحويل « فلسطين » (الاقواس في الاصل) لبلد ذي اكثرية يهودية » (٧١) ٠ كما انه « لا يوجد ولو مثل واحد ، على الاقل ، لاستيطان بلد بموافقة ابنائه الاصليين ٠٠٠ ان [هؤلاء] ـ ولا فرق في ذلك اذا كانوا متمدنين او همجيين ـ حاربوا دائما بعناد المستوطنين الجدد ٠٠٠ ما دام هناك بريق من الامل بالتخلص من الاستيطان الغريب ٠ هكذا تصرف عرب ارض ـ اسرائيل وهكذا سيتصرفون ، ما دام الامل يراودهم بمنـع تحويل « فلسطين » (الاقواس في الاصل) الى ارض ـ اسرائيل » (٧٢) ٠

وسخر جابوتينسكي ايضا من الآراء التي كانت تطرحهـا بعض الفئات

الصهيونية ، الداعية الى تجاهل عرب فلسطين والعمل ، بدلا من ذلك ، على الوصول الى اتفاق مع العرب في البلدان المجاورة ، فيعلن عن معارضته لهذه المواقف ، مقللا من اهميتها · « وحتى لو كان شيء كهذا ممكنا ، فانه لن يغير الحالة من اساسها : في ارض ــ اسرائيل ذاتها لن يحدث اي تغيير في نفسية العرب بالنسبة لنا ··· وحتى لو كان بالامكان (وأنا اشك جدا في هذا) اقناع العرب [خارج فلسطين] ، بأن ارض ــ اسرائيل بالنسبة لهم ليست الا منطقة حدود صغيرة وعديمة الاهمية ، فبالنسبة للعرب الفلسطينيين تبقى فلسطين ، لا كمنطقة حدود وانما وطنهم ، ومركز كيانهم القومي المستقل واساسه · لذلك كان من الضروري ، في هذه الحالة ايضا ، ادارة اعمال الاستيطان [اليهودي] بدون موافقة العرب الفلسطينيين ، اي تماما في نفس الظروف التي تتم بها حاليا »(٧٣) · ثم انه حتى لو كان الوصول الى اتفاق مع العرب غير الفلسطينيين ممكنا ، « فلكي يوافق اولئك على منحنا ثمنا غاليا كهذا (التنازل عن المحافظة على صبغة البلد العربية ، الموجودة تماما في مركز « اتحادهم » ــ الاقواس في الاصل ــ في المستقبل) ، علينا ان نقدم لهم ثمنا كبيرا ، يكون مساويا لتبرعهم· وهناك نوعان من هذا الثمن : اما المال أو التأييد السياسي ، او الاثنين معا · ونحن لا نستطيع ان نقدم لهم لا هذا ولا ذاك » (٧٤) ·

والنتيجة ؟ ــ « النتيجة : ليس باستطاعتنا ان نقدم اي « ثمن » ، لا للعرب في [فلسطين] او خارجها » · ولذلك يمكن بناء الكيان الصهيوني في فلسطين فقط « بحماية قوة غير متعلقة بالسكان المحليين ، وراء جدار حديدي لا قوة لهم على اقتحامه · وهذا هو جوهر سياستنا في المشكلة العربية · وليس هذا هو جوهرها فقط وانما هي مرتكزة عليه عمليا ··· ان معنى [وعد بلفور والانتداب] بالنسبة لنا هو ان قوة غير محلية القت على نفسها تعهدا بخلق ظروف ادارة وامن في البلد ، يمكن معها منع السكان المحليين من القيام بأية محاولة لعرقلة نشاطنا ، اذا راودتهم انفسهم بالقيام بمحاولة لازعاجنا · وكلنا ··· بدون استثناء ، نطالب هذه القوة الخارجية بتنفيذ التزامها بصرامة وشدة · ومن هذه الناحية ، لا يوجد اي فرق بين « العسكريين » [اي اتباع جابوتينسكي] منا وبين « النباتيين » [الذين يؤيدون الجناح العمالي الصهيوني والقيادة الصهيونية الرسمية] · الفرق ان الاوائل يريدون جدارا حديديا مكونا من حراب يهودية ، والآخرون يريدون حرابا بريطانية ···»(٧٥)·

وخلاصة القول « ان الجدار الحديدي هو الطريق الوحيد الذي سيؤدي الى اتفاق [مع العرب] ، وهذا يعني انشاء قوة [يهودية في فلسطين] لا يستطيع ضغط العرب التاثير عليها بأي صورة من الصور » · وبلغة اخرى ، نبذ كل محاولة للوصول الى اتفاق مع العرب حتى تقام الدولة اليهودية في

« ارض ـ اسرائيل التاريخية » باكملها ، حيث يحمل العرب عندئذ على الاعتراف بها على اساس الامر الواقع ٠

وباختتام هذا العرض لآراء جابوتينسكي (ونورداو) ، تختتم ايضا الاسس العقائدية للفكر الصهيوني اليميني ، اذ لم يحظ اليمين الصهيوني ، بعد وفاة جابوتينسكي ، بأي زعيم مرموق يستحق الذكر ، يضيف الى تلك الاسس او يغير فيها ٠ واقتصرت « التغييرات » الوحيدة التي ادخلت عليها منذ وضعها ، على اعادة صياغتها، من حين الى آخر ، من قبل مجموعات او شخصيات معينة، او « تلميعها » لتصبح ملائمة لروح المرحلة التي تستخدم فيها ٠

من الواضح ان اراء اليمين ، التي اشرنا اليهـا ، والمواقف المترتبة عليهـا لم تكن متجانسة ابدا مع السياسة التي انتهجها تحالف العمال والصهيونيين العموميين والمزراحي بقيادة وايزمان، سرعان ما عمقت الخلافات بين المعسكرين٠ وكانت نقطة الخلاف الاولى والرئيسية اتهام جابوتينسكي للقيادة الصهيونية . بزعامة وايزمان ، بسبب موافقتها على الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ ، بـ «تزييف» مفهوم الصهيونية و « الخنوع » لبريطانيا ، مما ساعدها على « التملص » من التزاماتها بموجب صك الانتداب ، فسلخت « ارض ـ اسرائيل الشرقية » عن منطقة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، لتقام فيها امارة شرق الاردن ٠ وقد اتسع هذا الخلاف وتشعب ، تدريجيا ، وشطر المستوطنين الصهيونيين في فلسطين ، خلال فترة الانتداب ، الى شطرين متخاصمين ، بعد ان سيطر على حياتهم السياسية وطبعها بطابعه (٧٦) ٠ اما النقطة الثانية فكانت اتهـام اليمينيين للقيادة الصهيونية بـ « اضطهادهم » خاصة ، والتمييز ضد الطبقة المتوسطة اليهودية عامة ، وذلك بعدم تشجيع هجرتها الى فلسطين او العمل على حل مشاكلها الاقتصادية ، وتخصيص معظم الموارد المالية الصهيونية لمصلحة العمال ومشاريعهم ٠

غير انه على الرغم من ذلك ، لا بد من الاشارة الى ان الخلاف في وجهات النظر بين جابوتينسكي ووايزمان ـ على صعيد السياسة الخارجية على الاقل ـ لم يكن جذريا ابدا ، اذ انه لم يتعد النواحي التكتيكية ٠ فقد كان كل من جابوتينسكي ووايزمان ، اولا ، على قناعة تامة بأن الحركة الصهيونية ، في مساعيها الهادفة الى اقامة دولة يهودية في فلسطين ، بحاجة الى دولة استعمارية كبرى تلتقي مصالحها بمصالح الصهيونية ، لتتبنى هذه المصالح وتساعد على تحقيقها ٠ كما كان الرجلان متفقين ، ثانيا ، على ان هذه الدولة هي بريطانيا بالذات وليس غيرها (وذلك على الرغم من ان جابوتينسكي لم يتردد ، خلال الثلاثينات ، في بذل محاولات عدة لاقامة علاقات مع دول اخرى ، فيما بدا كأنه اتجاه لايجاد « بديل » لبريطانيا) ٠

ولكن الخلاف نشب حول الطرق التي ينبغي اتباعها لتحقيق هذا الهدف · فقد كان وايزمان ، كما اشرنا ، من انصار الخط الدبلوماسي البرغماتي . فدعا الى الاعتماد على حسن نية بريطانيا وساستها لمساعدة الصهيونية على اقامة الوطن القومي في فلسطين (وكان عندما يخيب ظنه في بريطانيا ـ وقد حدث ذلك اكثر من مرة ـ يلجأ الى تقديم استقالته او يهدد بها) · اما جابوتينسكي فقد دعا الى توجيه الضغوط على بريطانيا في المجال الدولي ، وفي داخل فلسطين ايضا ـ « التحدث بلغة منطقية ، ولكن بصوت عال وباصبع غليظة » (٧٧) ـ لحملها على تبني كل طلبات الصهيونية ولم يكن لديه مانع ، عند الضرورة ، من الصدام مع البريطانيين · وبسبب مواقفه هذه ، حظي جابوتينسكي بعداء البريطانيين له ، الذين لم يستطيعوا « فهمه » ، فمنعوه سنة ١٩٣٠ من دخول فلسطين ، حيث اضطر الى قيادة اتباعه فيها من الخارج ، حتى وفاته سنة ١٩٤٠ ـ مما ساهم في تقوية العداء الذي كان مستحكما بين المعسكرين الصهيونيين · وبقي هذا العداء والخلاف في وجهات النظر ، قائما حتى بعد وفاة جابوتينسكي (ووايزمان) ، عندما تبنى مناحيم بيغن ، احد ابرز تلامذة جابوتينسكي ، نظريات معلمه ، بينما حل بن ـ غوريون ، تدريجيا ، مكان وايزمان · ولا تزال اصداء ذلك الخلاف في وجهات النظر بين الجناح العمالي واليمين الصهيوني ، حول انسب الطرق لتحقيق اهداف الصهيونية ، تسمع في اسرائيل ، نظريا وعمليا ، من حين الى آخر ، حتى اليوم ·

صعود اليمين ··· وسقوطه

في الوقت الذي كان جابوتينسكي يروج فيه للآراء التي اشرنا اليها ، نشط مؤيدوه ـ باشرافه ـ في تنظيم دوائر المعارضة الصهيونية المختلفة · ولم تمض الا نحو سنتين ونصف السنة على استقالة جابوتينسكي من عضوية اللجنة التنفيذية الصهيونية حتى عقد المعارضون ، سنة ١٩٢٥ ، مؤتمرا في باريس وقرروا اقامة تنظيم صهيوني جديد خاص بهم ، سمي « منظمة الصهيونيين الاصلاحيين » (Revisionists) (٧٨) · واختار « الاصلاحيون » هذا الإسم للتأكيد على موقفهم الداعي الى ضرورة مراجعة السياسة الصهيونية واصلاحها ، واعلنوا في « دستورهم » أن « هدف الصهيونية هو تحويل ارض ـ اسرائيل (بما في ذلك شرق الاردن) ـ التأكيد في الاصل ـ الى كومنولث يهودي ··· ذي حكم محلي ··· واكثرية [سكانية] يهودية ثابتة » (٧٩) ·

ومع مرور الوقت ، راحت ايضا حركات صهيونية اخرى تقترب من الصهيونيين الاصلاحيين وتتحالف معهم · وكانت اولى هذه الحركات « منظمة يوسف تروملبدور للشباب العبري » (بيتار) ، التي كانت قد اسست في نهاية سنة

١٩٢٣ (٨٠) ، في ريغا ، عاصمة لاتفيا الواقعة على بحر البلطيق · وكانت بيتار منظمة الشباب الصهيونية الوحيدة ، من بين منظمات عديدة من هذا الطراز، التي اتخذت مواقف مبدئية غير متجانسة مع المنطلقات الفكرية للمنظمات العمالية· وقد اقتربت تدريجيا من الاصلاحيين وتبنت معظم اهدافهم (٨١) ، وان اصرت على الاحتفاظ بـ « استقلالها » داخل معسكر اليمين ، واصبحت مع مرور الوقت التنظيم الرئيسي الذي يزود ذلك المعسكر بالكوادر التي يحتاج اليها ·

وفي سنة ١٩٢٥ وقع خلاف حول طريقة توزيع الاراضي في احدى المستوطنات الصهيونية ، ادى الى انشقاق العمال المعارضين لسيطرة « اليسار » على الهستدروت ، واقامة « منظمة » عمالية جديدة ، داخل الهستدروت ، سميت « منظمة الصهيونيين الكادحين » · وقد اعلن « الكادحون » عن معارضتهم لنظرية « صراع الطبقات [التي تبنتها الاكثرية في الهستدروت] باعتبارها اداة لتحقيق مهام الصهيونية القومية والاجتماعية ··· لان الصهيونية حركة فوق ـ طبقية ، تستطيع تنفيذ مهامها فقط بواسطة النضال والعمل المشترك لكل فئات شعبنا الاجتماعية » (٨٢) · وقد اتحد « الكادحون » ، سنة ١٩٢٨ ، مع مجموعة من العمال التابعين لبيتار ، عرفت باسم « منوراه » واقاموا ، داخل الهستدروت ، « كتلة العمل الاصلاحية » (٨٣) (التي انشقت عن الهستدروت ، في منتصف الثلاثينات واقامت « منظمة العمال القومية ») ·

وفي سنة ١٩٢٩ ، اسس الاصلاحيون مؤسسة مالية في لندن ، سموها « كيرن (صندوق) تل حاي » لتمويل نشاطهم ، وذلك بعد ان سيطر العمال على الكيرن كاييمت وكيرن هايسود ·

وكان قد وقع ، في مطلع الثلاثينات ، انشقاق في منظمة الهاغاناه العسكرية ، نتيجة لمحاولات اعادة بنائها ، اثر الفشل الذي منيت به خلال اضطرابات ١٩٢٩ وعجزها عن التصدي للعرب · وقد تطور هذا الخلاف تدريجيا وادى الى اقامة منظمة عسكرية جديدة ، سميت « الهاغاناه ب » ثم « الهاغاناه القومية » ، واقتربت تدريجيا من اليمينيين ، ثم غيرت اسمها الى « المنظمة العسكرية القومية » (اتسل ، وتعرف ايضا باسم الارغون) ، واعلنت عن تبعيتها لهم (٨٤) ·

شكل الصهيونيون اليمينيون ، رغم تعدد تنظيماتهم ، اقلية داخل المنظمة الصهيونية العالمية ، اذ بلغ معدل نسبة تمثيلهم في المؤتمرات الصهيونية الخمسة (الرابع عشر ، ١٩٢٥ ـ الثامن عشر ، ١٩٣٣) التي اشتركوا فيها ، نحو ٩٪ فقط من مجموع المندوبين في تلك المؤتمرات (٨٥) ، بينما كانت هذه النسبة اقل من ذلك بكثير في المؤسسات الصهيونية الاخرى · ولكن على الرغم من ذلك انتهجوا سياسة معارضة متصلبة ، متجانسة مع مبادئهم ، تجاه الجناح العمالي خاصة والقيادة الصهيونية (وبريطانيا) عامة · فقد انهمكوا ، على الصعيد الداخلي ،

في مقارعة العمال على كل صعيد وفي كل مجال · اما على الصعيد الخارجي ، فقد نشطوا ، حتى اواخر العشرينات ، في بث الدعاية المعادية للسياسة البريطانية في فلسطين ، في اي مكان استطاعوا الوصول اليه ·وفي الوقت نفسه ، حاولوا منع تشكيل الوكالة اليهودية ، سنة ١٩٢٩ ، بموجب الاسس التي عرضها وايزمان (اي بضم يهود غير صهيونيين الى مجلس ادارتها) ، ولكن دون جدوى ·

ومع مطلع الثلاثينات صعد الاصلاحيون معارضتهم ، محاولين فرض سياستهم على المنظمة الصهيونية · وكانت الانتخابات للمؤتمر الصهيوني السابع عشر (١٩٣١)قد اسفرت عن فوز الاصلاحيين بـ ٥٢ (من بين ٢٥٤) مقعدا ، اي نحو ٢١٪ من مجموع المقاعد ، وهي اعلى نسبة حصل اليمين عليها (٨٦) · واستنادا الى ذلك ، ومن خلال محاولة التعاون مع فئات اخرى ، حاول الاصلاحيون حمل المؤتمر على الاعلان ان هدف الصهيونية النهائي هو اقامة دولة يهودية في فلسطين ــ الا ان المحاولة فشلت ، مما دفعهم الى المزيد من التشدد ، فاعلنوا انهم سيسعون ، بعد زيادة اعداد مؤيديهم ، الى « احتلال » المؤتمر الصهيوني المقبل · اما على الصعيد الداخلي ، فقد انتقل الاصلاحيون من مرحلة مقارعة العمال الى استفزازهم ، مما دفع الجناح العمالي الى تصليب مواقفه وشن حملة مضادة شعواء على اليمين · وكانت احدى الوسائل المحببة الى قلوب اليمينيين ، « لمحاربة »الهستدروت والعمال ، السعي الى افشال الاضرابات التي كان اولئك يعلنون عنها عندما تشتد خلافاتهم مع ارباب العمل « البورجوازيين » ، وذلك بارسال مجموعات من العمال المؤيدين لليمين الى اماكن الاضرابات لعرض خدماتهم على اصحاب العمل ، الذين كثيرا ما كانوا يستعينون بهم ، مما يؤدي الى فشل الاضراب · وكثيرا ما كان ينجم عن ذلك نشوب الشجار والصدام ، ثم تدخل السلطات واعتقال العمال المضربين عن العمل ، لمحاولتهم منع منافسيهم اليمينيين من استئناف العمل بالقوة (٨٧) · ولم تستطع الهستدروت ، بالطبع ، السكوت على ممارسات اليمين هذه ، التي تمس باحدى اسلحتها المهمة ولا بد من اللجوء اليها ، من حين الى اخر ، لتحسين اوضاع العمال في صراعهم مع ارباب العمل ــ فوجهت لليمين ضربة مؤلمة ، تمثلت في اسقاط حمايتها ، كنقابة عمال ، عن العمال اليمينيين وتركهم لشأنهم ، عندما كانوا هم يواجهون مشكلة ، ثم امتنعت عن ايجاد العمل لهم وتوقفت مكاتب الاستخدام التابعة لها عن الاهتمام بشؤونهم · والواضح ان هذه الاجراءات كانت صارمة للغاية ، واثارت ردود فعل عنيفة من قبل اليمين ·

وخلال سنة ١٩٢٣ ، وصل الصراع بين معسكري اليمين والعمال الصهيونيين الى اشده ، خصوصا بعد ان كتب جابوتينسكي مقالا في اواخر سنة ١٩٣٢، اعلن فيه عن وجود « رغبة » لدى مؤيديه لـ « تحطيم » الهستدروت (٨٨) ، مما دق

ناقوس الخطر لدى العمال ودفعهم الى شن صراع لا هوادة فيه مع اليمينيين ، حتى وان ادى ذلك الى « القضاء » عليهم · وقد كان هـذا الصراع المتجـدد من ناحية ثانية ، عبارة عـن استئناف المنافسة بيـن المعسكرين للسيطـرة على المنظمة الصهيونية العالمية · ولم يتوانى العمال كثيرا في اتخاذ الاجراءات المضادة الفعالة ، اذ اوعزوا الى رئاسة الوكالة اليهودية بالامتناع عن اصدار شهادات هجرة لفلسطين لاعضاء منظمة بيتار في اوروبا ، فمنعوا بذلك اليمين من تعزيز قوته داخل فلسطين بواسطة استقدام المهاجرين الجدد · وقد كان هـذا الحظر مؤلما وفعالا لدرجة اضطر معها اليمين الى تنظيم عمليات هجرة غير شرعية الى فلسطين ، ولكن دون فائدة كبيرة (وبعد صدور الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ، الذي فرض قيودا على الهجرة اليهودية الى فلسطين ، لجأت القيـادة الصهيونية نفسها ، على كل حال ، الى اتباع هذه الوسيلة) ·

كذلك لاحظ العمال ان قوة الصهيونيين الاصلاحيين الرئيسية تتركز بين يهود بولونيا ، التي كانت تضم ، خلال فترة ما بين الحربين العالميتين ، الاولى والثانية، نحو ثلث عدد الصهيونيين المسجلين في العالم بأسره · وقد ارتـأى العمـال مهاجمة الاصلاحيين في عقر دارهم ، فأرسلوا سكرتير الهستدروت بن ـ غوريون، سنة ١٩٣٣ ، للقيام بحملة دعاية واسعة بين يهود بولونيا ، كان من نتيجتها انخفاض نسبة اليمين من ٢١٪ ، من مجموع المندوبين ، في المؤتمر الصهيوني السابع عشر (١٩٣١) الى ١٤٪ في المؤتمر الثامن عشر (١٩٣٣) بينما ارتفعت نسبة ممثلي العمال ، خلال الفترة نفسها ، من ٢٦٪ الى ٤٤٪ · وقد مكنهم ذلك من تعزيز قوتهم ، بشكل ملحوظ ، في الادارة الصهيونية التي شكلها المؤتمر الثامن عشر ·

وكان قد وقع ، قبيل انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر ، حادث اغتيـال في فلسطين ، اثار مشاعر الصهيونيين بشكل لا مثيل له وعمق الفجوة بين اليمين والعمال لدرجة اصبح من الصعب معها التوفيق بينهما · ففي حزيران (يونيو) ١٩٣٣ ، اطلق مجهولان النار على الدكتور حاييم ارلوزوروف ، رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ، بينما كان يتنزه ليلا على شاطىء تل ابيب مع زوجته ، فأردياه قتيلا · وعلى الاثر ، اعتقلت الشرطة يهوديان من تل ابيـب واتهمتهما بتنفيذ جريمة الاغتيال ، وكان واحدا منهما ، آبا احيمئير ، وجها يمينيا معروفا · واتضح ، بعد التحقيق مع المتهمين ، انهما ينتميان الى خلية شبه فاشية، سميت « عصبة الاشداء » ، كانت تعمل داخل صفوف اليمين الصهيوني فـي فلسطين · ومنذ القاء القبض على المتهمين وحتى قبل ان تبدأ محاكمتهما ، سارع العمال الى اتهام اليمين باغتيال ارلوزوروف (الذي كان عضوا في حزب مباي)، بينما راح جابوتينسكي يدافع عنهما علنا ، منكرا ان لهما علاقة بحادث الاغتيال ـ

وقد قضت المحاكم ، على كل حال ، ببراءة المتهمين لعدم توافر الادلة ، ولم يعرف ابدا من اغتال ارلوزوروف (٨٩) · ولكن ذلك لم يمنع العمال من القاء التهمة على اليمين ، موضحين ان الدافع لذلك كان عدم رضى الاصلاحيين عن المفاوضات التي اجراها ارلوزوروف مع المانيا النازية وعقد اتفاقية (هعفراه) معهم ، تعهدوا بموجبها بالسماح لليهود الالمان بالهجرة الى فلسطين وتحويل اموالهم ، على شكل بضائع المانية ، اليها · وكان النازيون معنيون بهذه الاتفاقية للتخلص من اليهود الالمان بهدوء من ناحية ، ولكسر طوق المقاطعة اليهودية لبضائعهم على الصعيد العالمي ، من ناحية ثانية · اما الصهيونيون فقد تمكنوا ، بواسطة تلك الاتفاقية ، من تهجير عشرات الالاف من اليهود الالمان ، المثقفين والمدربين جيدا على مختلف المهن الى فلسطين من جهة ، بينما شحنوا الى البلد ماكينات وبضائع ، قدرت قيمتها ببضعة ملايين من الليرات الاسترلينية ، وساعدتهم على ارساء اسس صناعتهم هناك ، من جهة ثانية (٩٠) ·

وعلى كلحال، ومهما يكنمن شأن تلك الاتفاقية واعتراضات اليمينعلىابرامها، فقد جعل العمالمن اغتيال ارلوزوروف قميص عثمان في صراعهم مع الاصلاحيين، فضيقوا الخناق عليهم في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر ، لدرجة اضطر معها جابوتينسكي الى تمزيق بطاقة عضويته علنا والانسحاب مع مؤيديه ، من المؤتمر· ويرى بعض مؤرخي الصهيونية ان مضاعفات اغتيال ارلوزوروف مهدت الطريق ، اكثر من اي حادث اخر امام العمال ، للسيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية ــ ولا تزال اصداء هذا الاغتيال تسمع ، من فترة الى اخرى ، بين الصهيونيين منذ ذلك الوقت ، بينما ساهم ذلك ، من ناحية ثانية ، في منع وقوع احداث مماثلة في المستقبل ، اذ لم تسجل منذ ذلك الوقت حادثة اغتيال سياسي تذكر داخل الكيان الصهيوني ·

وخلال سنة ١٩٣٤ ، حاول بعضهم العمل على اصلاح ذات البين بين اليمين والعمال ، فجرت مفاوضات بين جابوتينسكي وبن ــ غوريون ، توصل الاثنان في نهايتها الى اتفاق يقضي بانهاء الصراع الدائر بين المعسكرين الصهيونيين (٩١)· وقد نصت احدى بنود الاتفاق على ضرورة اجراء استفتاء عام بين اعضاء الهستدروت ، للمصادقة عليه ، الا ان اغلبية الذين اشتركوا في الاستفتاء رفضت ذلك ــ فعادت الحال الى سابق عهدها ·

ومع انعقاد المؤتمر الصهيوني التاسع عشر ، في اواخر آب (اغسطس) واوائل ايلول (سبتمبر) ١٩٣٥ ، اعلن الاصلاحيون انشقاقهم عن المنظمة الصهيونية العالمية وامتنعوا عن حضور المؤتمر ــ فانتخب بن ــ غوريون رئيسا للوكالة اليهودية ، وجاء ذلك ايذانا ببدء السيطرة الفعلية للجناح العمالي الصهيوني على الحركة الصهيونية ·

اما الاصلاحيون فقد عقدوا في الشهر نفسه الذي اختتمت فيه اعمال المؤتمر الصهيوني التاسع عشر ـ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣ ـ مؤتمرا لهم ، في فينا ، اعلنوا فيه اقامة منظمة خاصة بهم ، سموها « المنظمة الصهيونية الجديدة » . واعلنت هذه المنظمة في برنامجها « ان هدف الصهيونية هو انقاذ اليهود من المهجر بواسطة تحويل ارض ـ اسرائيل ، على ضفتي الاردن ، الى دولة يهودية ذات اكثرية يهودية ، وارجاع كل اليهود الذين يفتشون عن ملجأ امين اليها » (٩٢) . وقد جاء هذا الانشقاق ، عمليا ، بمثابة تعبير عن سقوط اليمين الصهيوني . اذ ان المنظمة الصهيونية الجديدة عادت ـ بخفي حنين ـ وانضمت في نهاية الامر الى المنظمة الام ، سنة ١٩٤٦ ، عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرون . ولكن حتى ذلك الوقت ، كان العمال ـ من خلال وقوفهم على رأس المنظمة الصهيونية ومواكبتهم للاحداث المهمة التي وقعت خلال الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ثم الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ـ قد وسعوا نفوذهم وسيطرتهم على الحركة الصهيونية ، في مختلف انحاء العالم ، لدرجة لم يستطع اليمين معها من تحطيم تلك السيطرة ، ولو جزئيا ، ، الا بعد مرور ٣١ سنة على رجوعه الى المعسكر الصهيوني ، وان جاء ذلك تعبيرا عن « غباء » قيادة العمال ، لا نتيجة لـ « شطارة » الزعماء اليمينيين .

الدروس الاولى في الارهاب

لم تمر الا بضعة اشهر على انشقاق اليمين الصهيوني عن المنظمة الصهيونية العالمية واقامة تنظيمه الخاص به ، « المنظمة الصهيونية الجديدة » ، في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٥ ، حتى نشبت الثورة العربية الكبرى في فلسطين . في نيسان (ابريل) ١٩٣٦ . وقد استمرت هذه الثورة ، وان كانت حدة نشاطها تخف تارة وتقوى طورا ، لمدة تزيد على ٣ سنوات ، وانتهت رسميا على الاقل ، خلال النصف الثاني من سنة ١٩٣٩ ، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية .

خلقت ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ في فلسطين ، منذ نشوبها ، مشاكل عديدة للصهيونيين ، لم تكن في حسبانهم . فقد كان واضحا ، اولا ، منذ بدايتها انها تختلف عن الاضطرابات التي عهدتها فلسطين حتى ذلك الوقت ، كتلك التي وقعت خلال السنوات ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ و ١٩٣٣ ـ ان كان ذلك من حيث الطلبات والشعارات التي رفعتها ، او من حيث اساليب المقاومة التي اتبعتها . فمنذ انطلاقة الثورة ، اعلن الزعماء الفلسطينيون ان هدفها هو اقامة نظام حكم ديموقراطي في فلسطين يستجيب لرغبات الاكثرية العربية ، ثم ايقاف

الهجرة اليهودية الى البلد ومنع بيع الاراضي العربية لليهود • اما على صعيد التكتيك ، ثانيا ، فلم يقصر الثوار الفلسطينيون هجماتهم على اليهود فقط ، كما كان يحدث عادة خلال الاضطرابات السابقة ، وانما وسعوها لتشمل البريطانيين ومنشآتهم ، المدنية والعسكرية ، في كافة انحاء فلسطين ايضا • كما ان الثورة نشبت ، ثالثا ، في ظل ظروف دولية حرجة ، لم تكن مشجعة لاستمرار التحالف الصهيوني ـ البريطاني ضد العرب ، خصوصا في ضوء تصاعد قوة المانيا النازية واتجاهها الى كسب الحلفاء لها ، في اوروبا وخارجها ، مما اضطر بريطانيا الى ابداء تفهم اكبر ، على الاقل ، لطلبات العرب في فلسطين وجوارها ، لمنعهم من السقوط في احضان المانيا النازية وحليفاتها ، في نهاية الامر •

اثارت الثورة العربية الكبرى في فلسطين « غضب » الصهيونيين اليمينيين ، بعد ان اثبتت « صحة منطلقاتهم » ودفعتهم الى شن حملة دعاية شعواء ، في فلسطين وخارجها ، ضد البريطانيين والقيادة الصهيونية الرسمية (الخاضعة لسيطرة الجناح العمالي) باعتبارهم « المسؤولين » عن نشوب الثورة ، نظرا لسياسة « المهادنة » و « التنازلات » التي اتبعتها القيادة الصهيونية تجاه البريطانيين من ناحية ، واصرار اولئك على اتخاذ مواقف « متلونة » تهدف الى الحفاظ على « التوازن » بين العرب واليهود من ناحية ثانية • ولذلك دعا اليمينيون الى اتخاذ مواقف « صلبة » ، حتى وان ادى ذلك الى صدام مع العرب والبريطانيين سوية ـ الا ان احدا لم يأبه لهم ، خصوصا بعد ان وضعوا انفسهم خارج المعسكر الصهيوني « المنظم » ، بانشقاقهم عن المنظمة الصهيونية العالمية من جهة ، ونظرا لضعف امكاناتهم وصغر حجمهم ، ماديا وبشريا ، من جهة ثانية •

غير انه ، بالاضافة الى ذلك ، كانت هناك ايضا اسباب اخرى دفعت القيادة الصهيونية الى رفض « نصائح » اليمينيين • فقد كان واضحا لتلك القيادة ان اتساع نطاق الثورة الفلسطينية وشموليتها من جهة ، والظروف الدولية التي ساءت آنذاك من جهة ثانية ، لا تسمح للصهيونيين باتباع سياسة صدام شاملة مع البريطانيين ، ولا حتى مع العرب الفلسطينيين باسرهم ، خشية ان يجدوا انفسهم ، في نهاية الامر ، لوحدهم ، مما قد يجر عليهم عواقب وخيمة • كذلك لاحظ المسؤولون الصهيونيون ان الثورة ، بمجرد نشوبها ، سببت لهم اضرارا بالغة ، تمثلت في عرقلة نمو الكيان الصهيوني في فلسطين • فخلال السنوات الخمس التي سبقت نشوب الثورة (١٩٣١ ـ ١٩٣٥) ، ونتيجة لصمود النازية في المانيا اساسا واشتداد ضغوطها على اليهود ، ازدادت الهجرة اليهودية الى فلسطين بشكل لم يسبق له مثيل ،

واسفرت عن مضاعفة عدد السكان اليهود في البلد فوصل الى نحو ٤٠٠ الف نسمة في منتصف الثلاثينات · كذلك احضر اولئك المهاجرون معهم الـى فلسطين خبرة ورؤوس اموال (نتيجة لاتفاقية الـ « هعفراه » بين النازيين والصهيونيين) لا بأس بها ، وراحوا يرسـون في البلـد اسس « صناعة » حديثة ، بعد ان كانت القاعدة الاقتصادية الصهيونية في فلسطين مقتصرة آنذاك على القطاع الزراعي (٩٣) · لذلك لم تكن القيادة الصهيونية معنية بـ « سحق » الثورة في فلسطين – ولم تكن لديها ايضا القدرة عـلى ذلك – والتسبب في اضرار اقتصادية بالغة ، قد يعم ضررها الجميع ، بقدر ما كانت مهتمة بانهاء « الاضطرابات » والحفاظ على « الامن والاستقرار » ، لتتمكن من السير قدما في بناء الوطن القومي اليهودي ·

انطلاقا من هذه الاوضاع والاعتبارات ، انتهجت القيادة الصهيونية فـي فلسطين – كعادتها – سياسة براغماتية واضحة ، هدفها الابقاء علـى التحالف الصهيوني مع البريطانيين والتمتع بحمايتهم من جهة ، ومعارضتهم ، قـدر الامكان واذا لم يكن بد من ذلك ، عندما يتجهون الى اتباع سياسة تمـس بالمصالح الصهيونية الحيوية من جهة ثانية · فعلى الصعيد الامني ، مثلا ، دعت منظمة الهاغاناه ، الخاضعة للقيادة العمالية ، اتباعها الى الالتزام بما سمته سياسة « ضبط النفس » (٩٤) ، اي الامتناع عن اللجوء الى الاستفزاز في تعاملهم مع العرب ، وعدم شن هجمات عليهم في كل مكان او محاولة ايقاع الاذى بهم في كل مناسبة ، ردا على هجوماتهم على اليهود ومنشآتهم ، بل الاتجاه الى « معاقبة » المسؤولين العرب عن تلك الهجمات وقصر « العمليات الانتقامية » على الحالات او الاماكن الحساسة ، من خـلال محاولة التنسيق ، قدر الامكان ، مع السلطة البريطانية المسؤولة اولا واخيرا عن حفظ الامـن ، والتي لا ينبغي ان يسمح لها بالتملص من تحمل هذه المسؤولية · وقد احرزت القيادة الصهيونية ، من خلال التزامها بسياسة « ضبط النفس » هذه ، مكاسب لا بأس بها على المدى الطويل · فمع اتساع نطاق الثورة العربية وتصاعـد نشاطها ، ليشمل اليهود والبريطانيين معا ، وجد اولئك انفسهم مضطرين الى التنسيق ، ثم الى التعـاون فيما بينهم ، خصوصـا في المجالين الامنـي والعسكري · فقد اضطرت السلطات البريطانية ، خلال مراحل الثورة الاولى ، الى تجنيد اعداد من اليهود ، ليعملوا كقوى اضافية للشرطة او غفـراء (نوطريم) لحراسة المنشآت المختلفة في فلسطين ، التـي كـانت تتعـرض لهجمات الثوار · ثم اتسع نطاق التجنيد هذا ، عندما اقامت السلطات قـوة جديدة سمتها « شرطة المستوطنات اليهودية » للدفاع عن المستوطنات النائية · وقد شكلت هذه القوة من اليهود وزودت بمختلف الاسلحة الخفيفة · ولم تكن اعداد اولئك المجندين اليهود ، على كل حال ، كبيرة للغاية ، كما سـرح

بعضهم مع نهاية الاضطرابات ، واعيد تنظيمهم ، من حين الى آخر · ولكنهم ، من ناحية ثانية ، كانوا الجهة اليهودية الوحيدة التي سمح لها بحمل الاسلحة شرعيا ، واستعمالها بحرية نسبيا في مختلف انحاء فلسطين ، وبصفتهم هذه قدموا للهاغاناه خدمات لا بأس بها ، فقد استغلت المنظمة وجود تلك الاسلحة في ايدي اليهود لتدريب اعضائها على استعمال السلاح ، وتوسيع نطـــاق عمليات التدريب، دون صعوبات كبيرة (٩٥) ·

ولم يتوقف التنسيق العسكري بين الصهيونيين والبريطانيين خلال ثـــورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، على كل حال ، عند هذا الحد ، ولم يكن تجنيد اليهـــود وتدريبهم على استعمال الاسلحة ، فى اطار المحافظة على المنشآت الحيوية ، المكسب الوحيد الذي جناه الصهيونيون مـــــن وراء ذلك فمع تصاعـد نشاط الثوار الفلسطينيين وقيامهم بعمليات هجوم ليلية عـــلى المنشآت الحيوية ، وخصوصا محاولات تفجير خط النفط ، الذي كان يمر في شمال فلسطين وينقل النفط من العراق الى ميناء حيفا ، ليشحن من هناك الى بريطانيـــا ، رأى البريطانيون انه لا بد من ايقاف تلك الهجمات الليلية · وفي محاولاتهم القيام بذلك ، اتبعوا الاسلوب نفسه الذي اعتمده الثوار الفلسطينيون ، فقامـــوا بتشكيل مجموعات يهودية مسلحة ، اطلق عليها اسم « كتائب الليل الخاصة »، وتولى ضابط بريطاني يدعى اورد وينغييت قيادتها · وقد درجت هذه الكتائب على شن الهجمات الليلية على اماكن تجمع الثوار الفلسطينيين او نصـــب الكمائن لهم ومحاولة الاشتباك معهم في الاماكن النائية القريبة من قواعدهم الخلفية وارياكهم · ولم تنشط هذه الكتائب ، على كل حال ، الا خلال فتـرة قصيرة نسبيا ، ولكن تجربتها كانت كبيرة الفائدة بالنسبة للفكر والتكتيـــك العسكري الصهيوني ، من حيث تشجيعها للصهيونيين في فلسطين عـــــلى « الخروج الى ما وراء السور » واتباع الهجوم كوسيلة للدفاع ، وذلـــــك بتحصين مستوطناتهم من ناحية ونقل الحرب الى البحر العربي الواسع الذي يحيط بهم ، حيث تكون المبادرة عامة لهم ، من ناحية ثانية (٩٦) · ولم ينس الصهيونيون ، منذ ذلك الوقت ، هذا الدرس ابدا ، اذ نقلت هذه التجربة ، بعد حل كتائب الليل الخاصة ، الى كتائب البلمـاح ـ ومنهـــا الـــى الجيش الاســـرائيلي ·

اما في المجالات الاخرى ، فان سياسة « ضبط النفس » التي اتبعتهـــا القيادة الصهيونية لم تسفر عن مكاسب ملموسة ، كتلك التي كانت من نصيبها على الصعيد الامني ، بل ادت احيانا الى الفشل او الى صدام مع البريطانيين · فقد فشل الصهيونيون ، مثلا ، في اقناع البريطانيين بتحويل مسؤولية تشغيل بعض المرافق الحيوية ، كالموانيء ، اليهم اثر تصعيد العرب لاضرابهم عـــن العمل · كذلك فشل الصهيونيون في محاولاتهم الى الاستغناء عن المنتجـات

الزراعية العربية · كما دخل الصهيونيون في صراع سياسي واسع مع البريطانيين ، عندما اتجه اولئك الى تقديم المشاريع لتقسيم فلسطين واقامة دولتين ، عربية ويهودية ، فيها وبذلوا كل ما في وسعهم لافشالها · وقد فشلت تلك المشاريع ، في نهاية الامر ، لاسباب مختلفة ، ولكن ذلك لم يتم ، على كل حال ، الا بعد ان استغل الصهيونيون الاوضاع التي طرحت فيها تلك المشاريع وحققوا بعض المكاسب · فقد لاحظت القيادة الصهيونية،مثلا،ان حدود مشاريع التقسيم ، التي قدمها البريطانيون ، رسمت بشكل تضم معه اكبر عدد من المستوطنات اليهودية القائمة في فلسطين انذاك ، ولذلك سارعت الى اقامة مستوطنات جديدة عدة في اماكن مختلفة من البلد ، لم تطأها قدم الاستيطاني الصهيوني حتى ذلك الوقت ، كالجليل الغربي ومنطقة بيسان ، في محاولة لافشال مشاريع التقسيم تلك من ناحية او تحسين وضع اليهود وزيادة مساحة الحصة ، التي قد تمنح لهم ان نفذت تلك المشاريع ، من ناحية ثانية · وقد اقيمت خلال السنوات ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ ، ضمن ما سمي مستوطنات « السور والبرج » نحو ٥٠ مستوطنة جديدة (٩٧) · ولعبت هذه المستوطنات ، خلال حرب ١٩٤٨ ، دورا لا باس به في خدمة المخططات الصهيونية التوسعية ، اذ اصبحت بمثابة قواعد انطلاق للسيطرة على المناطق العربية الصرفة المجاورة لها ·

من الواضح ان النشاط الصهيوني في فلسطين ، خلال ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، كان خاضعا للقيادة العمالية وحلفائها ، وهي التي كانت ، اساسا ، تشرف على القوى الصهيونية المختلفة التي تستطيع تنفيذ سياسة ما ، في حال اقرارها ، ولهذا بدا دور اليمين الصهيوني في التأثير على تلك الاحداث ، او انتهاج سياسة خاصة به ، ضعيفا وشاحبا للغاية · غير ان اليمين لم يعدم وسيلة لاثبات وجوده على الاقل فاختار ، من بين كل مجالات النشاط المهمة والحيوية ، مجال « الدفاع » فقط وقرر « ازالة عار » سياسة « ضبط النفس » التي اتبعتها الهاغاناه ، فلم يجد لديه الا اللجوء الى الارهاب السافر العشوائي ضد العرب ، بصفتهم عربا · وفي اطار تنفيذ هذه السياسة ، راحت منظمة اتسل تشن الهجومات على العرب ، في اي مكان تستطيع الوصول اليه ، واضعة نصب عينيها هدفا واحدا فقط : ايقاع اكبر عدد من الخسائر البشرية بالعرب ، مهما كانت صفتهم او مواقعهم او انتماءاتهم · كذلك لجأت المنظمة ، لتنفيذ سياستها هذه ، الى اتباع وسائل لم تعهدها فلسطين حتى ذلك الوقت ، رغم الاضطرابات الكثيرة التي كانت تنشب من حين الى اخر بين العرب واليهود ، مثل تفجير السيارات الملغومة في الاسواق العمومية العربية ، والقاء القنابل على تجمعات العرب او مهاجمة نواديهم ومقاهيهم بالرشاشات او قتل عابري السبيل العرب هنا وهناك « على

الهوية » (٩٨) ٠ صحيح ان عدد القتلى العرب او حجم الخسائر المادية التي لحقت بهم ، من جراء نشاط اتسل ، لم تكن ضخمة للغاية . بالمقارنة مع ما اصابهم نتيجة لسياسة القمع التي انتهجها البريطانيون ، بالاشتراك مع الهاغاناه ، ولكن « الاسلوب » الارهابي السافر الذي اتبعته اتسل كان متميزا للغاية ٠ وقد اتضح فيما بعد ان هذا الاسلوب لم يكن ، في نهاية الامر ، الا بمثابة « بروفة » اولية ـ اذ عادت اتسل الى انتهاج سياسة اكثر ارهابا ، خلال صراعها المتجدد مع البريطانيين ، عند نهاية الحرب العالمية الثانية ، وسرعان ما اصابت العدوى الهاغاناه ، التي استعملت هذه الاساليب على نطاق واسع ، خلال حرب ١٩٤٨ ٠

انشقاق اليمين وظهور مناحيم بيغن

انتهت الثورة العربية الكبرى في فلسطين سنة ١٩٣٩ ، بعد ان كانت السلطات البريطانية قد اصدرت ، في ١٧ ايار (مايو) من السنة نفسها « كتابا ابيض » ، اوضحت فيه اسس سياستها الفلسطينية في المستقبل ٠ وقد تعهدت بريطانيا ، بموجب ذلك الكتاب ، من بين ما تعهدت به ، بانشاء دولة فلسطينية مستقلة خلال ١٠ سنوات ، يشترك العرب واليهود في حكمها ، معتبرة انها نفذت الالتزام الذي فرضته على نفسها باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، مع وصول عدد هؤلاء في البلد الى نحو ٤٥٠ الف نسمة ، اي ما يساوي ثلث السكان تقريبا ٠ كذلك حدد الكتاب الابيض عدد المهاجرين اليهود الذين سيسمح لهم بالدخول الى فلسطين ، وفرض القيود على بيع الاراضي العربية لليهود ٠

جاء الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ، التي كانت الحكومة البريطانية قد اصدرته ، اساسا ، في محاولة لانهاء الثورة العربية وكسب هدوء العرب وعطفهم . في فلسطين وجوارها ، في ظل التهديد النازي الداهم ، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، بمثابة ناقوس الخطر ، الذي ايقظ الصهيونية ، ودفعها الى شد الاحزمة والاعتماد على النفس واعادة النظر في موقفها من بريطانيا (٩٩) ٠ فقد اعتبرت الزعامة الصهيونية التعليمات التي احتوى عليها الكتاب الابيض ضربة مؤلمة للاسس الرئيسية التي تقوم عليها الصهيونية ، ونهاية للتحالف الصهيوني ـ البريطاني الذي بدأ ، على الاقل ، مع صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، نتيجتها القضاء على الخطط الصهيونية لاقامة دولة يهودية في فلسطين ـ ولذلك ينبغي مقاومتها والعمل على تغييرها ، او التحايل عليها والاستمرار في بناء الكيان الصهيوني ٠ وكان ايضا من بين النتائج الرئيسية التي ترتبت على صدور الكتاب الابيض ، على الصعيد

السياسي ، تقوية الاتجاه الصهيوني المؤيد لقيام دولة يهودية في فلسطين ، دون الاعتماد بشكل رئيسي على بريطانيا او حتى ، ان كانت هناك حاجة لذلك ، من خلال الصراع معها · كما ادى ذلك الى ازدياد نفوذ الفئة المؤيدة لهذا الاتجاه ، بزعامة بن ـ غوريون · وقد ظهرت هذه السياسة الصهيونية بوضوح في مقررات مؤتمر بلتيمور (١٩٤٢) ـ الذي كان ، من ناحية ثانية ، بمثابة اشارة واضحة الى انتقال النشاط الصهيوني الى اميركا واتجاهه الى استغلال نفوذ اليهود فيها ، بعد ان ضاع معظم يهود اوروبا في الدوامة النازية ـ ومقررات المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين (١٩٤٦) ·

اما على الصعيد العملي ، فقد كانت الخطوة الاولى التي ترتبت على صدور الكتاب الابيض ، اتخاذ ادارة الوكالة اليهودية قرارا ، في حزيران (يونيو) ١٩٣٩ ـ اي بعد مرور اقل من شهر على صدور ذلك الكتاب ـ يقضي باعداد الهاغاناه«ليس لاغراض الدفاع فقط،وانما كنواة للجيش اليهودي»(١٠٠)، وكلف بن ـ غوريون باعادة تنظيمها · وكانت هذه الخطوة بمثابة تدشين فترة استمرت ٢٥ سنة ، اشرف بن ـ غوريون خلالها على كافة الشؤون العسكرية الصهيونية · ففي سنة ١٩٤٦ ، كلف برئاسة « دائرة الدفاع » التابعة للوكالة اليهودية ، ومع اقامة اسرائيل اصبح اول وزير دفاع (ورئيس حكومة) فيها ، واحتفظ بمنصبيه هذين ، عدا فترة قصيرة ، حتى استقالته سنة ١٩٦٣ · وقد كان لتعيين بن ـ غوريون في هذه المناصب ، كما سنرى ، تاثيره السلبي على اليمين الصهيوني ونشاطه عامة ، اذ لم يكن الرجل من « المعجبين » بالصهيونيين الاصلاحيين ولا بأساليبهم ، ابدا ـ وظهر موقفه هذا بوضوح في اكثر من مناسبة ·

ومع اتخاذ قرار تحويل الهاغاناه الى « نواة للجيش اليهودي » ، اتجهت القيادة الصهيونية الى توسيع قاعدة المنظمة الشعبية واقامة « رئاسة اركان » لها ، تشكلت من ممثلين عن حزب مباي ، زعيم الجناح العمالي الصهيوني من جهة ، و « المدنيين » (الفئات اليمينية المعتدلة ـ فيما بعد حزب « التقدميين » ثم « الاحرار المستقلين ») ومنظمة مزراحي المتدينة (فيما بعد « الحزب الديني القومي ») من جهة اخرى · وقد تم الاتفاق على ان تشكل « رئاسة الاركان » على اساس التساوي ، عدديا ، بين الطرفين ، وذلك على الرغم من ان قوة الجناح العمالي ، عدة وعددا ، كانت تفوق باضعاف قوة الطرف الآخر · اما السبب الذي دفع العمال الى الموافقة على ذلك ، فقد كان كامنا في نية الجناح العمالي عزل المنظمة العسكرية الاخرى ، اتسل ، ومؤيديها اليمينيين ـ وقد نجح في ذلك · فقد بقي ذلك الاتفاق ، الذي اسفر عن اقامة هاغاناه متماسكة ، والتعاون بموجبه قائمين حتى سنة ١٩٤٨ ، رغم

التعديلات التي ادخلت عليه من حين الى آخر (١٠١) ٠ بل ان الاتفاق بقي ساري المفعول ، وان تم ذلك على شكل آخر ، حتى بعد اقامة اسرائيل ، اذ ان معظم حكوماتها شكلت من قبل تلك القوى التي ساهمت في تقوية الهاغاناه واعادة تنظيمها ، بطبعتها الاخيرة ٠

- بعد تشكيل « رئاسة اركان » الهاغاناه ، دار البحث في المنظمة حول « الاجراءات » التي ينبغي اتخاذها ضد السلطات البريطانية في فلسطين ، ردا على سياسة الكتاب الابيض ٠ غير انه قبل الانتهاء من تلك المداولات ، نشبت الحرب العالمية الثانية ، في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ ، مما دفع الصهيونيين الى تعديل سياستهم ، فأطلق بن - غوريون واحدا من شعاراته المعروفة : « سنحارب الكتاب الابيض كأنه لا يوجد **هتلر** ، وسنحارب هتلر كأنه لا يوجد كتاب ابيض » ٠ غير انه سرعان ما اتضح ان هذا الشعار لم يكن الا نوعا من الديماغوغية ، التي لا اساس لها ، اذ ان الصهيونيين لم يحاربوا ، في نهاية الامر ، لا هتلر ولا الكتاب الابيض ، بل حصروا نشاطهم عمليا في التفتيش عن انسب الطرق الملائمة لدعم « المجهود الحربي » البريطاني ، وبالشكل الذي يخدم مصالحهم ويدعم قوتهم اولا ٠ ولذلك امتازت سنوات الحرب العالمية الثانية بمحاولات دائمة ، تبذل من قبل الطرفين ، البريطاني والصهيوني ، لتعزيز التعاون فيما بينهما ٠ وكان هذا التعاون يشتد ويسفر عن نتائج ملموسة ، عادة ، عندما يسوء وضع بريطانيا او حلفائها خلال الحرب ، او عندما ينشأ وضع خاص يحتم الاستناد على خدمات الصهيونيين ، ثم ينجو بعد ذلك عندما يميل الميزان العسكري لصالح الحلفاء ٠ وبواسطة اتباع هذه السياسة ، احرز الصهيونيون ، خلال سني الحرب العالمية الثانية ، مكاسب لا بأس بها ، في مجالين على الاقل : العسكري والاقتصادي ٠

فعلى الصعيد العسكري ، دعا الصهيونيون - حال نشوب الحرب - الى اقامة جيش يهودي ، من بين اليهود في فلسطين ، للقتال الى جانب بريطانيا ضد النازية ، وهو مطلب مماثل لذلك الذي تقدمت به الصهيونية خلال الحرب العالمية الاولى ٠ ولم يتحقق ذلك ، لاسباب مختلفة ، الا خلال المرحلة الاخيرة من الحرب ، عندما اقيمت في اواخر سنة ١٩٤٤ « الفرقة اليهودية » (والتي سرحت ، على كل حال ، بعد نحو سنتين من انشائها) ٠ غير ان التعاون العسكري بين الصهيونيين وبريطانيا كان قد بدأ قبل ذلك بأربع سنوات ، في منتصف سنة ١٩٤٠ ، بعد ان دخلت ايطاليا الحرب الى جانب المانيا وشعرت بريطانيا بالخطر على وجودها في البحر المتوسط والمشرق العربي ، فعرضت على الصهيونيين حث اليهود على التطوع في الجيش البريطاني ٠ واعتبرت القيادة الصهيونية ذلك العرض بمثابة « مناسبة لتدريب الآلاف من شبابنا على نفقة

الامبراطورية البريطانية » (١٠٢) ، فلجأت الى تنظيم عمليات التطوع ، موعزة للكثيرين من اعضاء الهاغاناه بالقيام بذلك · وقد ثبت فيما بعد ان هذا الاتجاه كان واحدا من الخطوات المهمة للغاية ، التي اقدمت عليها الصهيونية خلال الحرب ، اذ اتضح بعد انتهاء القتال وتسريح الجيوش أن نحو ٢٦٫٦٠٠ يهودي في فلسطين ، كانوا قد خدموا في الجيش البريطاني ، بمختلف اسلحته ، خلال الحرب · يضاف الى ذلك نحو ٨٠٠ شخص تجندوا للفرقة اليهودية رأسا و ٦٫٠٠٠ من الغفراء (نوطريم) كانوا يعملون في فلسطين (١٠٣) · وبعبارة اخرى ، تم خلال الحرب تدريب ما يقارب من ٣٠ الف يهودي في فلسطين على استعمال السلاح ، بكافة انواعه ، بفضل تعاون الصهيونيين مع بريطانيا · وكانت تلك القوى البشرية خير نواة للجيش الاسرائيلي·، الذي اقيم بعد نحو السنتين من تسريح الدفعات الاخيرة من اولئك المجندين ·

ولم يكن تدريب ذلك العدد من الجنود والضباط المكسب الوحيد ، على الصعيد العسكري ، الذي حققته الهاغاناه والقيادة العمالية خلال الحرب ، اذ ان البريطانيين كانوا ايضا القوة الرئيسية التي ساعدت على تشكيل كتائب البلماح،قوى الهاغاناه الضاربة،بعد ان ساهموا في تمويل اقامتها (١٠٤) لتعمل ضد الالمان ، اذا احتلوا فلسطين · ولم يستمر التمويل البريطاني للبلماح طويلا ، على كل حال ، ولكن مع ايقافه وجدت حركات الكيبوتسات طريقة ناجعة لتقديم الاموال اللازمة لذلك (خصوصا بعد ان رفض جناح « المدنيين » في قيادة الهاغاناه تمويل اقامة قوى ضاربة) ، فأعلنت عن تبنيها لوحدات البلماح (١٠٥) ، ودعتها لاقامة معسكراتها في المستوطنات الزراعية المختلفة ، حيث يخصص نصف وقت المجندين لمساعدة ابناء المستوطنة في الاعمال الزراعية ، والنصف الاخر للتدريب – وكان هذا الترتيب اساسا لوحدات الناحال التي اقامها الجيش الاسرائيلي فيما بعد · وبسبب قلة الموارد المالية ، اتبع البلماح ايضا طريقة العمل من خلال الاحتفاظ بقوات احتياط ، وذلك بتسريح المجندين الذين يتم تدريبهم والاحتفاظ بهم كاحتياط ، لايجاد مكان لتدريب المجندين الجدد – وهذه الطريقة ايضا اصبحت من الاسس التي اتبعها الجيش الاسرائيلي عند انشائه · وتجدر الاشارة الى ان البلماح لعب ادوارا مهمة للغاية ، خلال الاربعينات ، في خدمة القيادة العمالية ، داخليا وخارجيا ·

اما على الصعيد الاقتصادي ، فقد لجأ الصهيونيون الى دعم « المجهود الحربي » البريطاني ، بواسطة تزويد القوات البريطانية في فلسطين بمعظم حاجاتها من الغذاء والخدمات (بما في ذلك بعض الخدمات التقنية) ، ثم

بعض المنتجات الصناعية والحربية ٠ وقد ساهم ذلك ، في نهاية الامر ، في تقوية الاقتصاد الصهيوني في فلسطين بشكل ملحوظ (١٠٦) ٠

في الوقت الذي اختارت القيادة الصهيونية العمالية فيه المسار الذي أشرنا اليه ، واحرزت المكاسب التي ذكرناها ، كانت اوضاع اليمين الصهيوني اصعب ـ واسوأ ٠ ففي اواخر شباط (فبراير) ١٩٣٩ ، نجحت الشرطة البريطانية في فلسطين في اعتقال قائد اتسل ، دافيد رازيئيل واودعته السجن ، وشددت في الوقت نفسه مطاردتها لباقي اعضاء القيادة ٠ وفي آخر (اغسطس) من السنة نفسها ، وفيما كان اولئك مجتمعين للبحث في شؤون منظمتهم ، تمكنت الشرطة من اعتقالهم جميعا ـ وذلك قبل ساعات من نشوب الحرب العالمية الثانية (١٠٧) ٠

ولم يمر وقت طويل على نشوب الحرب ، حتى تمكنت السلطات البريطانية من « اقناع » اعضاء قيادة اتسل المعتقلين بتغيير سياسة منظمتهم ، فاعلنت المنظمة عن « هدنة » في نشاطها الارهابي ، وذلك « لكي لا تعيق النشاط الحربي ضد المانيا ٠٠٠ فتساعد بذلك بشكل ما اكبر اعداء الشعب اليهودي في العالم ـ النازية الالمانية » (١٠٨) ٠ واستمرارا لذلك اطلقت السلطات البريطانية سراح بعض المعتقلين من اعضاء القيادة ، رغم انها استمرت في شن حملة اعتقالات واسعة ضد اعضاء المنظمة ، على اختلاف درجاتهم ، فتمكنت من اعتقال العشرات منهم ، واضعفت اتسل بشكل ملحوظ ٠ ولم تحظ هذه المواقف ، وخصوصا اعلان « الهدنة » مع بريطانيا برضى بعض المسؤولين في اتسل واتباعهم ، فراحوا يستعدون للانشقاق عن المنظمة ٠ غير ان قيادة اتسل لم تبد اهتماما كبيرا ببوادر الانشقاق تلك ، واستمرت في محاولاتها للتعاون مع البريطانيين ، فعقد قائد المنظمة ، رازيئيل ، اتفاقا معهم تعهد بموجبه بالسفر الى العراق ، مع بعض اتباعه ، للقيام بمهام تخريبية لصالحهم ـ وذلك بعد نشوب ثورة رشيد عالي الكيلاني هناك ـ كان من اهمها نسف خزانات النفط المكرر في مشارف بغداد ، التي كانت تزود الطائرات الالمانية بالوقود ٠ كذلك تم التفاهم بين الطرفين على ان يسمح لاعضاء اتسل بالعمل ضد الحاج امين الحسيني ، الذي كان موجودا آنذاك في العراق ، وذلك بخطفه او ، اذا تعذر ذلك ، قتله (١٠٩) ٠ الا ان اعضاء اتسل لم يتمكنوا ، بعد وصولهم الى العراق ، من تنفيذ اي من المهام التي اوكلت إليهم ، اذ قتل رازيئيل خلال احدى غارات الطائرات الالمانية ، واضطر الآخرون الى العودة لفلسطين ، حيث عين يعقوب مريدور قائدا لاتسل ٠ ولم يتمكن القائد الجديد من السيطرة على المنظمة بشكل فعال ، بينما ثابرت السلطات البريطانية على مطاردة اعضائها ـ وفي اثناء ذلك توفي ايضا جابوتينسكي ، في آب (اغسطس) ١٩٤٠ ـ فأدى ذلك الى تفكك اتسل وانسحاب العديدين منها ،

وضعف شأنها بشكل ملحوظ ٠

اما المعارضون للمواقف التي اتخذتها اتسل ـ وللسياسة الدوغماتية التي اتبعها اليمينيون وجابوتنسكي عامة ـ فقد اعلنوا انشقاقهم عن المنظمة ، في حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، واسسوا منظمة جديدة خاصة بهم ، سموها « المحاربون من اجل حرية اسرائيل » (ليحي) ـ وتعرف ايضا باسم « جماعة شتيرن » ، بسبب اسم قائدها ، دافيد شتيرن ٠ ومع تأسيسها ، اعلنت ليحي عن مبادئها على شكل « اسس لبعث » اليهود ٠ وجاء في تلك « الاسس » ان « اليهود هم شعب مختار » ووطنهم هو « ارض ـ اسرائيل بحدودها المنصوص عنها في التوراة ٠٠٠ من نهر مصر حتى النهر الكبير نهر الفرات ٠٠٠ » ، وحقوقهم في ذلك الوطن « مطلقة ، اذ انها لم تنته ولا يمكن ان تنتهي الى الابد » ٠ اما اهداف المنظمة فهي « تجديد السيادة اليهودية على الوطن المحرر ، واقامة مملكة اسرائيل الثالثة وجمع شتات اليهود بأسرهم فيها ، وذلك بعد ان يتم « حل مشكلة [السكان] الاجانب بواسطة تبادل السكان » (١١٠) (وقد انتخب مؤخرا يتسحاق شامير ، وهو واحد من الثلاثي الذي قاد ليحي بعد مقتل مؤسسها ، رئيسا للكنيست) ٠

اتبعت ليحي ، منذ تأسيسها ، سياسة ارهابية معلنة تجاه البريطانيين في فلسطين ـ ويقال ان بعض قادتها حاولوا ايضا اقامة علاقات مع دول المحور ، خصوصا ايطاليا ـ فحصرت نشاطها ، عامة ، في نسف مكاتبهم ومنشآتهم من ناحية ، وقتل جنودهم باطلاق النار عليهم ، في الشوارع من ناحية ثانية ٠ ولم يستطع البريطانيون السكوت طويلا على هذا النشاط ، خصوصا وانه اشتد في احلك الازمات التي مروا فيها خلال الحرب العالمية الثانية ، فشددوا مطاردتهم لها ٠ ولم تمر الا بضعة اشهر على الاعلان عن قيام المنظمة ، حتى استطاع البريطانيون اعتقال معظم نشيطيها ، ثم تمكنوا ، سنة ١٩٤٢ ، من قتل قائدها ، دافيد شتيرن ٠ ومع حلول سنة ١٩٤٣ ، كانت المنظمة قد تفككت وخف نشاطها بشكل ملحوظ ، فوجدت نفسها في وضع لم يكن احسن كثيرا من وضع زميلتها ـ منافستها ، منظمة اتسل ٠

وفي هذه الظروف الحرجة بالنسبة لليمينيين في فلسطين ـ اي بعد ان خف نشاطهم وكادت منظماتهم تضمحل ـ ظهر مناحيم بيغن ٠ وكان بيغن ، الذي ولد سنة ١٩١٣ وتخرج من كلية الحقوق في جامعة وارسو، قد قضى معظم وقته ـ قبل قدومه الى فلسطين ـ في خدمة منظمة الشبيبة بيتار ، التابعة للصهيونيين الاصلاحيين ، في بولونيا ودول اوروبية اخرى ٠ وبسبب نشاطه هذا ، اعتقلته السلطات البولونية عشية نشوب الحرب العالمية الثانية ، ثم نفاه الروس ، بعد ان دخلوا بولونيا ، الى سيبيريا ـ ولم ينس بيغن هذه التجربة ، منذ ذلك

الوقت ، ووضعها في كتاب بعنوان « ليال بيضاء » · غير انه لم يبق في المنفى السيبيري طويلا ، ففي سنة ١٩٤٢ ، عندما اقيم جيش بولوني بقيادة الجنرال اندروز ، للقتال الى جانب الحلفاء ، التحق به ووصل الى فلسطين · وفي السنة التالية سرح من الجيش وعين ، في اول كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٣ ، قائدا عاما لاتسل ·

لا تبدو على مناحيم بيغن ، من حيث نشاطه ومواقفه ، حتى تعيينه قائدا لاتسل ، اية بوادر تشير الى ان شخصا مثله « يستحق » مثل هذا المنصب ، اذ لم يكن الرجل من كبار زعماء الصهيونيين الاصلاحيين ولا مفكريهم ، ويبدو ان اختياره كان باعتباره « احسن » المرشحين المتوافرين · وعلى كل حال ، ومهما كانت الاعتبارات التي حدت بزعماء اتسل الى تعيين بيغن قائدا لمنظمتهم ، لم يكن الاختيار سيئا ، اذ لم تمض الا فترة قصيرة على تعيينه حتى استطاع اعادة تنظيم القوات اليمينية ، وتخليصها من الخمول والانفلاش اللذين سيطرا عليها ·

لم يمض الا نحو شهرين على تعيين بيغن قائدا لاتسل ، حتى اعلنت المنظمة في اول شباط (فبراير) ١٩٤٤ ، « الثورة » ضد البريطانيين ، وطالبت « بأن تسلم السلطة في ارض ـ اسرائيل حالا الى حكومة يهودية مؤقتة » ، تعمل على اقامة « جيش عبري قومي » ، وتسعى لتهجير يهود اوروبا الى فلسطين ، وتقترح عقد حلف « على اساس ميثاق الاطلنطي ومن خلال الاعتراف بالمصالح المتبادلة مع ··· بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميركية وفرنسا » وغيرها من الدول التي تعترف بالسيادة اليهودية على فلسطين(١١١)· كذلك طالبت اتسل الحكومة اليهودية المؤقتة بمنح الاماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين ، في فلسطين ، وضعا اقليمية خاصا Extra - Terri - torial Status والسكان العرب « مساواة كاملة في الحقوق » · وبالاضافة الى ذلك طالبت المنظمة اليهود بالامتناع عن دفع الضرائب للسلطات البريطانية والقيام بالمظاهرات ضدهم وعدم الانصياع لاوامرهم (١١٢) ·

وعلى سبيل المقارنة ، تجدر الاشارة هنا الى ان ممثلي التيار الصهيوني الرئيسي ، العامل تحت لواء الصهيونية الرسمية ، كانوا قد اتخذوا في مؤتمر بلتيمور ، المنعقد في نيويورك خلال ايار (مايو) ١٩٤٢ ، قرارات دعوا فيها الى اقامة كومنولث يهودي في فلسطين ، بعد انتهاء الحرب العالمية ، وتحويل صلاحيات الحكم الى الوكالة اليهودية (١١٣) ·

وبعد مرور نحو اسبوعين على اعلان « الثورة » ، استأنفت اتسل نشاطها العسكري ضد البريطانيين في فلسطين ، وركزت عملياتها ضد منشآت السلطة على اختلاف انواعها ، ابتداء من محطات الشرطة ومراكز المخابرات

البريطانية ، مرورا بمكاتب الهجرة وضرائب الدخل . وانتهاء بنسف سكك الحديد وقطع خطوط التليفون (١١٤) ٠ ولم يمر وقت طويل . حتى تنعتها ليحي ، محاولة مجاراتها ٠

ظل بن ـ غوريون ٠٠٠

في الوقت الذي قررت فيه منظمتا اتسل وليحي انتهاج سياسة عدائية تجاه البريطانيين في فلسطين ، ودخلتا في نزاع مسلح معهم . لم ينته الا مع خروج البريطانيين من فلسطين سنة ١٩٤٨ ، كانت الهاغاناه (ومعها البلماح) ، الجناح الصهيوني العسكري « الرسمي » ، الخاضع لاشراف الوكالة اليهودية ، تستعد ايضا للسير على الطريق نفسها ، ولكن من خلال اعتباراتها الخاصة بها ٠ فمع دخول الحرب العالمية الثانية مرحلتها الاخيرة الحاسمة ، سنة ١٩٤٤ ، وبعد ان اتضح ان انتصار الحلفاء على المانيا النازية ليس الا مسألة وقت ، وصل الصهيونيون بكافة فئاتهم الى قناعة مفادها ان عملية اعادة « تنظيم » العالم ورسم خرائطه الجديدة ، بعد الحرب ، يجب ان تسفر عن اقامة دولة يهودية في فلسطين ، واذا لم يتم ذلك خلال تلك المرحلة ، فان مثل هذه الدولة قد لا تقوم ابدا ٠ ولذلك راح كل جناح منهم يسعى الى تحقيق ذلك الهدف ، بطرقه الخاصة ، ويلائم نفسه للمتغيرات الجديدة المتوقعة ٠

ومع بداية هذه المرحلة ، بدأت ايضا حقبة جديدة من العلاقات بين المنظمات الصهيونية المختلفة ، خصوصا بين العمال وحلفائهم من جهة واليمين الصهيوني من جهة اخرى ، لم تنته الا مع اقامة اسرائيل سنة ١٩٤٨ ثم اجراء الانتخابات للكنيست (البرلمان) الاول سنة ١٩٤٩ ٠ واسفرت تلك الحقبة عن وضع صيغ جديدة ، معقدة ، للتعامل بين تلك الفئات المختلفة ، نظرا للاعتبارات التي وضعتها كل واحدة منها نصب عينيها ٠ فقد اعتبرت ، مثلا ، القيادة الصهيونية ، الممثلة في ادارة المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ، نفسها ـ منذ بداية تلك المرحلة ـ الجهة الرئيسية « المسؤولة » عن اقامة الدولة اليهودية ، والمهيئة لحكمها بعد انشائها ، وذلك بفضل سيطرتها على معظم الاجهزة الصهيونية في فلسطين ، وتمتعها بتأييد اكثرية الصهيونيين، داخل البلد وخارجه ٠ ولكن بعض الفئات اليمينية ، على الاقل ، كانت ايضا تعتبر نفسها مؤهلة لانشاء تلك الدولة وحكمها ، فشكل ذلك بالطبع واحدا من الاسباب الرئيسية للاحتكاك والتناحر بين المعسكرين الصهيونيين ٠ غير انه ، من ناحية ثانية ، كان الجميع على قناعة ان اقامة تلك الدولة لن تتم باتباع الطرق السلمية البحتة فقط في التعامل مع بريطانيا ، وانه لا بد احيانا من

اللجوء الى استعمال القوة ، مما شكل عاملا لتشجيع التعاون بين الطرفين . ولكن حتى في هذا المجال ، لم يكن الاتفاق كاملا ، اذ ان الهاغاناه والمشرفين عليها ، باعتبارهم « مسؤولين » عن الكيان الصهيوني في فلسطين ، لم يكونوا على استعداد ، في نزاعهم مع بريطانيا ، للوصول الى مرحلة حرق الجسور معها ، او لاتخاذ اجراءات لا عودة عنها ، خشية من ان يؤدي ذلك الى عواقب وخيمة ، بينما لم يكن هذا بالضبط موقف اتسل وليحي . كما ان رئيس الوكالة اليهودية والمشرف على نشاط الهاغاناه العسكري ، بن ـ غوريون ، كان يسعى ، من ناحية ، الى منع اليمين من الوصول الى السلطة ، او تقوية نفوذه ، بقدر ما كان يعمل ، من ناحية اخرى ، الى اخراج بريطانيا من فلسطين واقامة الدولة اليهودية . ولذلك كانت احدى عينيه تراقب بريطانيا ، بينما الثانية مفتوحة على اليمين ومنظمتيه ، اتسل وليحي ، فيعلن من حين الى آخر عن ضرورة تحطيم ما سماه « ارهابهم » والقضاء على « فاشيتهم » . ولهذه الاعتبارات مجتمعة ، بدا الصراع بين الاطراف الثلاثة ، البريطانيين والهاغاناه واليمين ، خلال الفترة التي سبقت قيام اسرائيل ، اشبه ما يكون بلعبة شد الحبل ـ ومرة اخرى خسر اليمين السباق .

بدأت « اللعبة » بين الاطراف الثلاثة ـ وكان الطرف العربي يغط آنذاك في نوم عميق ـ في ربيع سنة ١٩٤٤ ، عندما استأنفت اتسل وليحي نشاطهما العسكري ضد البريطانيين ، ثم صعدتا هذا النشاط ، خلال فترة قصيرة ، بشكل ملحوظ . وردا على ذلك ، شدد البريطانيون مطاردتهم لاعضاء المنظمتين والمقربين منهما ، واعتقلوا العشرات منهم ، ثم قاموا بنفي نحو ٢٥٠ شخصا من اولئك المعتقلين الى ارتيريا (١١٥) ، حيث بقوا هناك ـ واضيف اليهم منفيون آخرون فيما بعد ـ الى ما بعد اقامة اسرائيل . وقد كانت عمليات النفي تلك ضربة مؤلمة لليمين ، اذ اسفرت عن اخراج العديدين من قادتهم ونشيطيهم من الميدان ، في وقت كان التنظيم فيه بحاجة ماسة اليهم ، مما ادى ، من ناحية ثانية ، الى تعزيز قوة الهاغاناه وانصارها . ويدعي البعض ان بن ـ غوريون وبعض زعماء الهاغاناه الآخرين لم يكونوا غير راضين عن عمليات النفي تلك ، بل قد يكون بعضهم قد « اوحى » للبريطانيين بالقيام بتنفيذها ، وذلك ليتخلصوا من اكبر عدد ممكن من اليمينيين المعارضين ، فيخلوا لهم المجال لتنفيذ مخططاتهم ، خلال تلك المرحلة الحرجة التي سبقت انشاء الدولة اليهودية .

ومهما تكن صحة تلك الادعاءات ، فمن الواضح ان العلاقات بين الهاغاناه واتسل وليحي لم تقف عند هذا الحد ، وانما ازدادت سوءا . ففي اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ ، اغتال عضوين من ليحي اللورد موين ،

المفوض البريطاني السياسي في القاهرة ، مما اثار غضب البريطانيين وحكومتهم بشكل لا سابق له ، فارتفعت اصوات عديدة تطالب « بالقضاء على الارهابيين » في فلسطين · وعلى الاثر ، اتصلت السلطات البريطانية بالدكتور وايزمان ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية وزعماء الوكالة اليهودية ، ووضعتهم امام « مسؤوليتهم » مطالبة اياهم بالحد من نشاط المنظمات اليمينية · واوضحت تلك السلطات ، في الوقت نفسه ، ان التقاعس في القيام بذلك قد يؤثر على « اتجاه » الحكومة البريطانية للسعي نحو اقامة دولة يهودية في فلسطين ، بعد انتهاء الحرب ، من ناحية ، وقد يدفع السلطات العسكرية في البلد الى اتخاذ « اجراءات حاسمة » تجاه المستوطنين اليهود بأسرهم من ناحية ثانية · وعلى الاثر اوعزت القيادة الصهيونية الى الهاغاناه « بالضغط » على « المنشقين » اليمينيين ومحاولة « ضبطهم » . فعقدت اجتماعات عدة بين قادة المنظمات العسكرية الثلاث ، الهاغاناه واتسل وليحي ، طالبت فيها الهاغاناه المنظمتين الاخريين بالحد من نشاطهما المستقل ، والتنسيق عسكريا معها ، وسياسيا مع الزعامة الصهيونية المعترف بها · وقد استجابت ليحي للطلب ، اما اتسل فقد رفضت ، مما دفع الهاغاناه الى تشكيل وحدات خاصة من البلماح ، قامت باعتقال اعضاء اتسل وسهلت تسليم العديدين منهم الى المخابرات البريطانية ، التي نفتهم بدورها الى افريقيا · وكان نشاط الهاغاناه هذا ، الذي عرف باسم « السيزون » ، واستمر لبضعة اشهر خلال سنة ١٩٤٥ (١١٦) ، يؤدي الى نشوب حرب اهلية بينها وبين اتسل ، خصوصا بعد ان راحت بعض الفئات اليمينية تطالب بالقيام بعمليات انتقامية ضد الهاغاناه وزعمائها ، الا ان بيغن رفض الموافقة على تلك الطلبات معلنا انه « لن تقع حرب بين الاخوة » ·

غير أنه لم تمر غير فترة قصيرة ، حتى عادت المواقف وتغيرت ثانية · ففي صيف ١٩٤٥ جرت انتخابات عامة في بريطانيا واسفرت عن تسلم حزب العمال السلطة · وقد علق الصهيونيون آمالا كبيرة على فوز ذلك الحزب ، في ضوء مواقفه المعلنة ـ قبل وصوله الى الحكم ـ المؤيدة لطلبات الصهيونيين بشأن اقامة دولة يهودية في فلسطين · ولكن سرعان ما اتضح ان تلك الآمال كانت في غير محلها ، اذ اوضح العمال بعد وصولهم الى الحكم بفترة قصيرة ان السياسة البريطانية في فلسطين لن تتبدل كثيرا · وادى ذلك الى ردود فعل معاكسة قوية لدى الصهيونيين ، الذين قرروا توحيد منظماتهم العسكرية الثلاث ، ضمن اطار ما سموه « حركة العصيان العبري » (١١٧) ، وراحوا يشنون الهجمات على البريطانيين ومرافقهم الحيوية في فلسطين على نطاق واسع ، بهدف حمل بريطانيا عنوة على تغيير سياستها تجاه المستوطنين اليهود في فلسطين والاستجابة لطلبات الحركة الصهيونية · وخلال تلك الفترة ، صعد الصهيونيون هجماتهم تدريجيا ضد البريطانيين ، الى ان

وصلوا الى حد لم يعد باستطاعة اولئك السكوت عليه ، فقاموا باتخـــاذ اجراءات رادعة من قبلهم ، ادت في نهاية الامر الى تفكيك التعاون العسكري بين المنظمات الثلاث وحل « حركة العصيان العبري » · وجاء ذلك نتيجـــة لسلسلة من العمليات والعمليات المضادة ، التي نفذت من قبل الطرفين · فخلال ليلة ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ ، قامت قوات البلماح بنسف كل الجســور الرئيسية ، التي كانت تصل بين فلسطين والدول المجاورة لها ، في محاولـــة للاثبات للبريطانيين ان تخطيطهم الهادف لتحويل فلسطين الى قاعدة لقواتهـم في الشرق الاوسط ، استنادا الى استراتيجية جديدة ربما كان بعض ساستهـم يفكر باتباعها ، يخضع لرحمة الهاغاناه · وقد اثارت هذه العملية حنـــق السلطات البريطانية ودفعتها الى اتخاذ اجراءات مضادة ، فقامت يوم التاسع والعشرين من الشهر نفسه (الذي اطلق الصهيونيون عليه فيما بعد اســـم « السبت الاسود ») بمهاجمة مكاتب الوكالة اليهودية ومصادرة مستنداتهـا ، واعتقال العديدين من زعمائها مع بعض زعماء اليهود الاخرين ، وزجت بهم في السجن ، بينما تمكن بن ـ غوريون والدكتور موشي سنيه ، قائـد الهاغاناه آنذاك ، من الهرب الى اوروبا · وردا على هذه الاجراءات قامت اتسل ، يوم ٢٢ تموز (يوليو) من السنة نفسها ، بمعرفة الهاغاناه وبموافقتها الضمنيـة على الاقل ، بنسف فندق الملك داوود في القدس ، حيث كانت المكاتب الرئيسية للحكومة البريطانية ، مما اسفر عن مقتل نحو ٨٠ شخصا مـــن كبـــار الموظفين (١١٨) ·

اثارت عملية فندق الملك داوود ، نظرا للخسائر الكبيرة التي نجمت عنهـا ، الهلع في قلوب زعماء الوكالة اليهودية ، الذين لم يكونوا عـــلى استعداد لمجابهة البريطانيين الى هذا المدى ، ولذلك سارعت الهاغاناه الى التنصل من المسؤولية عن العملية ، ثم انسحبت من « حركة العصيان العبري » ـ فعادت العلاقات المتأزمة بين المنظمات الثلاث الى سابق عهدها ، واتبعت كل منهـــا سياستها الخاصة بها · ومنذ تلك الفترة وحتى صدور قرار الامم المتحـــدة بتقسيم فلسطين ، في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، ركزت الوكالـــة اليهودية اهتمامها بالشؤون السياسية ، على الصعيد العالمي ، اساسا بينمـــا راحت الهاغاناه ، تستعد لامكانية خوض معركة مع العرب ، وان لم تتوقـف عن شن الهجمات ضد المنشات البريطانية ، وخصوصا تلك منها التي كانـت تستعمل لمنع المهاجرين اليهود غير الشرعيين من دخول فلسطين · اما اتســل وليحي فقد عادتا الى اسلوبهما السابق ، ووسعتا نشاطهما ليشمل معسكرات البريطانيين وبعض قواعدهم العسكرية · وادى تصاعد عمليات اليمين هذا الى ردود فعل حادة من قبل البريطانيين ، فراحوا ينفذون احكام الاعدام بحـــق اعضاء تلك المنظمات ، الذين يقعون في قبضة الشرطة ، مما دفع اتسل الـــى

القاء القبض على جنود من القوات البريطانية ، لردع البريطانيين وحملهم على ايقاف تنفيذ تلك الاحكام ــ وقد تم لها ما ارادت ·

ومع صدور قرار تقسيم فلسطين ، من قبل الامم المتحدة ، سنة ١٩٤٧ ، اعلنت اتسل عن رفضها له (١١٩) ، ولكنها اوضحت في الوقت نفسه انها ستلتزم بأية أوامر قد تصدرها أية حكومة يهودية يعلن عن تشكيلها في فلسطين، بعد خروج البريطانيين من البلد · كذلك عدلت المنظمة خططها ، بعد اعلان البريطانيين عن نيتهم في الخروج من فلسطين ، فخففت من هجماتها ضدهم وركزت ، بدلا من ذلك ، على العرب واتبعت اسلوبا ارهابيا صرفا ، هدفه حمل اكبر عدد منهم على النزوح عن ديارهم · وفي اطار هذه السياسة نفذت وحدات من اتسل وليحي ، يوم ٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ، مجزرة دير ياسين ، التي ذهب ضحيتها نحو ٢٥٠ عربيا ، والتي وصفها كتاب التاريخ « الرسمي » الاسرائيلي لحرب ١٩٤٨ بانها ساهمت اكثر من اي حادث اخر في حمل الكثيرين من العرب الفلسطينيين على الهرب ، خوفا من ان يقعوا ضحية مذابح مماثلة (١٢٠) ·

غير انه على الرغم من السياسة الجديدة التي اتبعتها اتسل ، واتجاهها الى شد أحزمتها استعدادا للقيام بـ « اعمال كبيرة » ــ وهي الاستعدادات التي دفعت البلماح والهاغاناه الى اتخاذ اجراءات مماثلة مضادة ــ كان من الواضح أن عهد الانفلاش والتصرف العشوائي الكيفي ، بالنسبة للصهيونيين عامة ولمنظماتهم العسكرية خاصة ، يقترب من نهايته · فمنذ صدور قرار التقسيم ، راح بن غوريون يستعد لساعته الكبيرة : اعلان اقامة دولة اسرائيل · وفي غمرة استعداداته تلك ، ركز اهتمامه بالقضيتين الرئيسيتين ، اللتين قدر انهما ستواجهان الدولة اليهودية مع اقامتها : الحرب مع العرب من ناحية ، وانشاء أجهزة الدولة « الرسمية » من ناحية ثانية ·

ففيما يتعلق بالموقف من العرب ، لم يكن بن غوريون اقل حماسا من اتسل للتخلص من اكبر عدد منهم من جهة ، والسيطرة على اكبر مساحة ممكنة من فلسطين ، لاقامة اسرائيل عليها ، من جهة ثانية · الا انه ، على عكس اتسل، ارتأى ان يتم ذلك بواسطة طرد اولئك العرب ، باتباع مختلف الاساليب وليس القتل بالذات ، الى الدول العربية المجاورة ، وعلى ان يتم ذلك وفق خطة واضحة · وتحقيقا لذلك الهدف ، وضعت الهاغاناه ، الخاضعة لاشراف بن ــ غوريون ، موضع التنفيذ ما سمته « الخطة د » (١٢١) ــ وهي الخطة العسكرية الصهيونية الرئيسية التي اعتمدت لاقامة اسرائيل ــ وذلك خلال شهر اذار (مارس) ١٩٤٨ ، اي قبل نحو شهر من ارتكاب اتسل وليحي لمجزرة دير ياسين . وجاء في مقدمة تلك الخطة ان الهدف من تنفيذها هو « السيطرة على مساحة الدولة اليهودية والدفاع عن حدودها [وفقا لقرار تقسيم فلسطين] ،

وكذلك عن مناطق الاستيطان [اليهودي] والسكان اليهود خارج تلك الحدود، ضد عدو نظامي او شبه نظامي او غيره ، يعمل من قواعد واقعة خارج مساحة الدولة [اليهودية] او داخلها » · وبعد ان تعلن الخطة عن تبنيها للتعليمات المنصوص عليها في الخطط السابقة ، التي كانت الهاغاناه قد وضعتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتأمر باتخاذ الاجراءات المناسبة ، العسكرية وغيرها ، لتأمين سلامة المستوطنين اليهود وممتلكاتهم ، تضيف انه « لاجل تأمين عمل جهاز الدفاع [اليهودي] الثابت بشكل ناجح وحماية مؤخرته »، ينبغي القيام بنشاط ضد « قرى العدو » العربية · ويتلخص هذا النشاط في « ابادة [« هشمداه »] **القرى** [العربية] (حرق وتفجير ولغم الخرائب) ـ خصوصا بالنسبة للقرى التي ليس بامكاننا السطيرة عليها بشكل دائم » · ويتم ذلك بواسطة « تطويق القرية واجراء تفتيش داخلها · وفي حالة المقاومة ـ تباد القرى المسلحة ويطرد السكان الى ما وراء حدود الدولة · اما بالنسبة للقرى التي لا تبدي مقاومة ، فتسيطر القوات اليهودية عليها وتقوم ، من بين ما تقوم به ، « باعتقال كل الاشخاص المشتبه بامرهم من الناحية السياسية » (وكثيرا ما قتل اولئك المعتقلين رميا بالرصاص فيما بعد) · كذلك ينبغي السيطرة ، بموجب الخطة ، على الاحياء العربية المعزولة في المدن الكبيرة وطرد السكان العرب منها الى مكان التجمع الرئيسي للعرب في تلك المدن ، وتتم هذه الاعمال « وفقا للاسس نفسها التي شرحت بالنسبة لمحو [« بيعور »] القرى » · والواضح الان ان الهاغاناه والجيش الاسرائيلي نفذا « الخطة د » بحذافيرها ، مما مكنهما من « تنظيف » تلك المساحة من فلسطين ، التي احتلت سنة ١٩٤٨ ، من اكثرية القرى العربية وسكانها · والواضح ايضا ان النشاط العسكري للمنظمتين اليمينيتين ، اتسل وليحي ، خلال حرب ١٩٤٨ بدا كأنه من صنع عسكريين هواة ، بالمقارنة مع « الانجازات » التي حققتها القيادة العمالية الصهيونية ، بزعامة بن ـ غوريون · ولم يساهم ذلك ، بالطبع، في الاعلاء من شان اليمين عامة ·

اما بالنسبة للقضية الرئيسية الثانية ، التي جابهت بن ـ غوريون قبيل الاعلان عن اقامة اسرائيل ، والمتمثلة في ضرورة اقامة الاجهزة الرسمية لتلك الدولة ، فان الامر لم يكن صعبا للغاية ، اذ تحولت دوائر الوكالة اليهودية تدريجيا ، الى وزارات حكومية مختلفة · غير انه بقيت هناك مشكلة صعبة للغاية ، تتعلق باقامة جيش منظم ومنضبط للدولة الجديدة · وكان لا بد لبن ـ غوريون من ان يقوم بحل تلك المشكلة ، بحكم منصبه على الاقل ، اذ كان قد احتفظ لنفسه في الحكومة الاسرائيلية المؤقتة ، التي شكلت اثر الاعلان عن اقامة اسرائيل ، بمنصبي رئيس الحكومة ووزير الدفاع · ولم يكن الحل سهلا للغاية ، بسبب العوامل المختلفة التي لم يكن بد من اخذها بالاعتبار ·

فقد كان من الصعب ، من ناحية ، تشكيل أي جيش اسرائيلي من خلال تجاهل المنظمات العسكرية الصهيونية الثلاث ، الهاغاناه وإتسل وليحي ، التي كانت قائمة انذاك · ولكن بن ـ غوريون . من ناحية ثانية ، لم يكن معجبا باي من تلك المنظمات ، بما في ذلك منظمته ، الهاغاناه ، او ـ بشكل أدق ـ القوى الضاربة التابعة لها ، كتائب البلماح · واساس موقف بن ـ غوريون هذا ، بالنسبة لاتسل وليحي ، واضح ولا حاجة للتعليق عليه · اما بالنسبة للبلماح فالسبب يكمن في وقوع تلك الكتائب ، الى حد كبير ، تحت تأثير « الكتلة ب » بزعامة الكيبوتس الموحد ، التي كانت قد انشقت عن مباي ، حزب بن ـ غوريون، سنة ١٩٤٤ ، واتحدت في مطلع سنة ١٩٤٨ مع حركة هاشومير هاتسعير وأقامت حزب العمل الموحد (مبام) ، الذي انتهج بدوره سياسة « يسارية » متشددة ، وحاول حمل البلماح على تنفيذها · غير ان بن ـ غوريون لم يعدم وسيلة لحل تلك المشاكل ، فقد اعلن ، بعد نحو اسبوعين من اقامة اسرائيل ، عن تأسيس « جيش الدفاع الاسرائيلي » ، وجند كل تلك المنظمات واعضائها فيه ، ثم امر بتنفيذ التجنيد الالزامي للسكان اليهود بأسرهم · وعندما تم ذلك ، اوعز الى تلك المنظمات بحل نفسها ، ولما تلكأ بعضها في تنفيذ ما طلب منه ، حل بواسطة أجهزة الدولة المختلفة ، ودمجت الكتائب المختلفة ببعضها البعض (١٢٢) · وقبل ان تنتهي سنة ١٩٤٨ ، كان واضحا بالنسبة للصهيونيين ، على اختلاف فئاتهم ، ان اللعب بالسياسة بواسطة العسكر ، خلال عهد بن ـ غوريون وفي ظله ، قد وصل الى نهايته ، وأن من يريد تعاطي السياسة عليه اختيار النشاط الحزبي وسيلة لذلك ·

اما أتسل ، التي كان قد صدر أمر بحلها في حزيران (يونيو) ١٩٤٨ ، فقد اعلنت في الشهر نفسه عن تأسيس تنظيم سياسي. سمته حركة حيروت (الحرية) · واعلنت حيروت في مبادئها الاساسية ـ جريا وراء تقليد اليمينيين الصهيونيين ـ « ان الوطن اليهودي ، الذي يمتد على كلتا ضفتي الاردن ، هو وحدة تاريخية وجغرافية لا تتجزأ · وتقسيم الوطن هو عمل غير قانوني ، والموافقة على التقسيم هي ايضا غير قانونية ولا تلزم شعب اسرائيل · ومهمة الجيل هي ارجاع اجزاء الوطن التي اقتطعت منه ، وسلمت الى حكم أجنبي ، الى السيادة اليهودية » (١٢٣) ·

« بدون حيروت والحزب الشيوعي »

لم يتوقف بن ـ غوريون ، في مساعيه الهادفة الى اقامة دولة يهودية عصرية واضفاء طابع الاستقرار على اوضاعها الداخلية عند هذا الحد ، اذ سعى حثيثا ايضا الى اجراء انتخابات عامة في اسرائيل ، في اول فرصة ممكنة ·

ومنعا لاي نقاش او خلاف قد يثور حول طريقة الانتخابات فيــؤدي الــى تأجيلها، أقرت ـ بسرعة ـ طريقة أمنت لاية مجموعة تحصل على ١٪ فقط من مجموع الاصوات تمثيلا في الكنيست ، بعد ان اعتبرت اسرائيل بأسرها منطقة انتخابية واحدة ٠ وقد كانت طريقة الانتخابات هذه ، التي لم تتغير منذ ذلـك الوقت ، رغم المحاولات المتعددة التي بذلت في هذا الصدد ، سببا رئيسيا في تشجيع الفئات المختلفة ، مهما صغر حجمها ، على خوض معركة الانتخابـات، وأدت الى بروز احزاب وقوائم انتخابية عدة ، لم يتمكن أي منها ، منذ قيـام اسرائيل ، من الحصول على اكثرية المقاعد في الكنيســت ٠ ولذلك كانــت الحكومات الاسرائيلية دائما ائتلافية ، ويشترك فيها اكثر من حزب ، مما كان له تأثيره على الحكم في اسرائيل ٠

عقدت الانتخابات العامة الاولى في اسرائيل يوم ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ ، اي قبل انتهاء الحرب مع العرب وتوقيع اتفاقيات الهدنة مع الـدول العربية ٠ وأسفرت تلك الانتخابات عن فوز العمال باكبر عدد من المقاعد ، ثم تبعه اليمين بشطريه ، المتشدد والمعتدل ، واخيرا المتدينون ، على اختـلاف فئاتهم ٠ وقد حصلت انذاك هذه الكتل الثلاث الرئيسية ، رغــم الانشقاقات داخلها ، على نحو ٩٠٪ من المقاعد في الكنيست ، بينمــا كانت الـ ١٠٪ الباقية من نصيب احزاب وكتل صغيرة ، ذات اتجاهات مختلفة ٠ فقد فــاز العمال في تلك الانتخابات ، الاولى ، بـ ٦٥ مقعدا (من مجموع ١٢٠) ، كان ٤٦ منها لحزب مباي و١٩ لحزب مبام ، الذي ضم انذاك احدوت هعفوداه ـ وانفصل الحزبان سنة ١٩٥٤ ٠ اما اليمين فقد حصل على ٢٧ مقعدا (حيروت ـ ١٤ ، الصهيونيون العموميون ـ ٧ ، التقدميون ـ ٥ ، قائمـة المحاربيـن ، وهم انصار ليحي ـ ١) ، بينما كانت حصة المتدينيــن ، الذيــن خاضوا الانتخابات بقائمة توحدهم جميعا (المزراحي وهابوعيل همزراحي ـ ومنذ سنة ١٩٥٦ ، الحزب الديني القومــي ـ واغودات يسرائيل وبوعــالي اغودات يسرائيل) ١٦ مقعدا ٠ اما المقاعد الاثني عشر الباقية ، فقد كان ٤ منها من نصيب الحزب الشيوعي الاسرائيلي (ماكي) و٢ للقوائم العربية المرتبطــة بمباي ، والباقي لقوائم طائفية صغيرة من اليهود الشرقيين ٠ واستنادا الــى نتائج الانتخابات تلك ، قام بن ـ غوريون ، بصفته زعيم الحزب الذي حصل على اكبر عدد من المقاعد بتشكيل الحكومة ٠

بقيت نسب القوى التي افرزتها الانتخابات العامة الاولى ، داخل الكنيست ، على ما هي عليه عامة ، وان طرأت تغييرات طفيفة عليها من حين الى آخــر ، منذ اقامة اسرائيل وحتى منتصف الستينات ٠ ونتيجة لذلك كان مباي وزعيمه بن ـ غوريون الذين شكلوا كل الحكومات الاسرائيلية (وعندما استقــال بن ـ

غوريون من الحكومة لفترة قصيرة في منتصف الخمسينات ، حل مكانه مبائي اخر – موشي شاريت) وحكموا اسرائيل عمليا خلال تلك الفترة · ولم يستطع بن – غوريون ، وهو في قمة قوته ، ان ينسى احقاده وخلافاته مع اليمين الاصلاحي وكرهه له ، فدرج على الاعلان ، قبيل كل انتخابات اسرائيلية وبعدها، او عند نشوب اية أزمة حكومية ، انه على استعداد لتشكيل ائتلاف حكومي مع اية مجموعة حزبية في اسرائيل ، مهما كان لونها ، « ما عدا حيروت والحزب الشيوعي » – واصبحت هذه العبارة بمثابة « شعار » دائم له – مؤكدا انه ليس على استعداد حتى للجلوس معهما · وقد غير بن – غوريون رأيه هذا تجاه الحزب الشيوعي تدريجيا ، فراح يتبادل الكلام مع النواب الشيوعيين في الكنيست ، منذ اواخر الخمسينات ، ثم دعي النائب الشيوعي العربي توفيق طوبي الى زيارته في بيته مرة · ولكنه ، في مقابل ذلك ، بقي متشبثا بموقفه تجاه حيروت ، بشكل غريب ، حتى اواخر أيام حكمه ، بل ان كرهه لذلك الحزب ازداد مع مرور الوقت · وقد درج بن – غوريون عند الحديث عن بيغن ، مثلا ، على وصفه بانه « ذلك الشخص الذي اعتاد ان يجلس في الكنيست ، ويسمي نفسه باجا » · كذلك كان يرد ، عادة ، على الانتقادات او الاستفسارات التي يوجهها له نواب حيروت ، بتوجيه كلامه الى النواب الاخرين في الكنيست ، متجاهلا حضور نواب حيروت ، وذلك امعانا في الاستخفاف بهم واحتقارهم · والواضح ازاء هذه المواقف ، ان حيروت لم يحلم يوما بالاشتراك في الحكم ، ما دام بن – غوريون هو المشرف على تشكيل الحكومات الاسرائيلية ·

الا ان اشتراك حيروت في حكم اسرائيل ، باعتباره ممثل اليمين المتصلب ، لم يكن متعلقا بموقف بن – غوريون منه فقط ، بقدر ما نجم ذلك عن قوة حيروت الذاتية المحدودة ايضا · فخلال عهد بن – غوريون ، وصل اكبر عدد من المقاعد ، التي حصل عليها حيروت لوحده ، في أي من الانتخابات العامة الاربع التي تلت الانتخابات الاولى ، الى ١٧ مقعدا ، وهو عدد كان بالامكان الاستغناء عنه لدى تشكيل اية حكومة – وهذا ما حدث فعلا · ولم ينجم ضعف حيروت النسبي ذلك عن مواقف بن – غوريون العاطفية المتشنجة تجاهه ، بل جاء نتيجة للسياسة العملية التي اتبعها ، والتي لم تمكن احدا من المزاودة عليه ، وبالتالي كسب نسبة اكبر من أصوات الناخبين · فبن – غوريون هو الذي أعلن قيام اسرائيل وتصدى لكافة المشاكل التي واجهتها ، خلال الخمسة عشر سنة الاولى لقيامها ، ووجد حلولا لها – وهذا هو المهم – من خلال الاغراق في انتهاج الاسلوب البرغماتي اياه ، الذي برع الجناح العمالي الصهيوني في تطبيقه · صحيح ان تلك الحلول لم تكن دائما ناجحة تماما ، وبعضها مني بالفشل الذريع على المدى الطويل ، الا أن اجمالي الانجازات التي حققتها اسرائيل ، خلال عهد

بن ـ غوريون ، كان مقبولا ، بشكل او باخر ، بالنسبة لاكثرية الاسرائيليين ٠ وجاءت الترجمة العملية لذلك استقرار نسبي في ميزان القوى السياسية ، داخل الكنيست ، حتى نهاية عهد بن ـ غوريون ، ولم يستطع اليمين الصهيوني ، او غيره ، القيام بما قد يخل بذلك الاستقرار ، او تحويل كفة الميزان لصالحهم٠

ولكن اذا كانت سياسة بن ـ غوريون هي العامل الرئيسي الذي ساهم في الحفاظ على الاستقرار السياسي داخل اسرائيل ، خلال عهده ، فان نشاط الرجل نفسه ، في اواخر مراحل عمله السياسي ، هو الذي اخل بذلك الاستقرار ومهد الطريق ، تنظيميا على الاقل ، لصعود اليمين ، رغم ما في الامر من غرابة ٠ ففي سنة ١٩٦٣ ، استقال بن ـ غوريون من منصبيه ، كرئيس لحكومة اسرائيل ووزير دفاعها ، فعين ـ بناء على توصيته ـ وزير المالية ليفي اشكول خلفا له ٠ غير انه لم يمر الا وقت قصير على تلك الاستقالة ، حتى راح بن ـ غوريون يشن حملة ضارية ضد اشكول وحكومته ، لم يكن وراءها اي سبب منطقي ، اذهلت الكثيرين من الاسرائيليين بسبب شراستها وقسوتها ، بحيث دفعت العديدين الى الاعتقاد انه لربما شعر الرجل بالندم لتنازله عن السلطة ، او ان عامل الجيل (وكان بن ـ غوريون قد بلغ آنذاك السابعة والسبعين من عمره) بدأ يفعل فعله ٠ ولم يتوقف بن ـ غوريون عند هذا الحد، وانما وسع هجماته لتشمل العديد من الزعماء الاسرائيليين الموالين لاشكول او المحايدين ، بينما تكتل مؤيدوه حوله وهم يهددون بالانشقاق عن الحزب الام ٠ وأزاء هذا التهديد بالانشقاق من ناحية ، وانخفاض غير كبير في عدد الاصوات التي حصل عليها العمال في الانتخابات للهستدروت من ناحية ثانية ، رأى « كرادلة » المعسكر العمالي (وعلى رأسهم يتسحاق بن ـ اهرون، سكرتير الهستدروت فيما بعد) انه من المناسب العمل على توحيد صفوفهم للحفاظ على ما يحلو لهم تسميته « السيطرة العمالية » على الحركة الصهيونية، ولكنهم على الرغم من الجهود المضنية التي بذلوها في سبيل ذلك ، لم يحظوا الا بنجاح جزئي ٠ فقبيل انتخابات ١٩٦٥ ، اعلن حزبا مباي واحدوت هعفوداه عن اقامة « تجمع » (معراخ) فيما بينهما خاض تلك الانتخابات متحدا وحصل على ٤٥ مقعدا (مقابل ٥٠ للحزبين في الانتخابات السابقة) ٠ وأدت اقامة هذا التجمع الى انشقاق بن ـ غوريون واتباعه عن مباي ، فأقاموا قائمة انتخابية خاصة بهم (رافي) ، خاضت الانتخابات مستقلة وحصلت على ١٠ مقاعد ٠ اما حزب مبام فقد رفض الانضمام الى التجمع العمالي ، واشترك في الانتخابات لوحده ، فحصل على ٨ مقاعد ٠

واثارت اقامة التجمع العمالي ردود الفعل المتوقعة لدى اليمين ، فقرر ايضا توحيد صفوفه ، واقيمت كتلة حيروت ـ الاحرار (غاحال) ، التي اشتركت في الانتخابات نفسها بقائمة موحدة ، فحصلت على ٢٦ مقعدا (مقابل ٣٤

للحزبين في الانتخابات السابقة) • ولم يسلم اليمين من انشقاقات ايضا . اذ مع اقامة غاحال ، اعلن اعضاء حزب التقدميين (سابقا) ، الذي كان قد اتحد سنة ١٩٦١ مع الصهيونيين في اطار حزب الاحرار ، عن انشقاقهم . واقاموا حزب الاحرار المستقلين ، الذي حصل على ٥ مقاعد في تلك الانتخابات •

وقبيل انتخابات ١٩٦٥ ، انشق ايضا الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، لاسباب خاصة به ، الى شطرين : ماكي « اليهودية » ، التي اضمحلت مع مرور الوقت. وراكاح « العربية» •

ولقد جاءت التحالفات والانشقاقات الحزبية ، التي حدثت خلال سنة ١٩٦٥، بمثابة مقدمة لاعادة تنظيم الاوضاع الحزبية داخل اسرائيل بصورة شبه شاملة • ففي سنة ١٩٦٨ اتحد مباي واحدوت هعفوداه وجزء من رافي واقاموا حزب العمل الاسرائيلي ، الذي اقام بدوره « تجمعا » جديدا مع مبام • اما باقي اعضاء رافي فقد حافظوا على استقلالهم ، وأخيرا تحالفوا وبعض الفئات التوسعية مع غاحال واقاموا ، قبيل انتخابات ١٩٧٣ ، تكتل ليكود • وخلال هذه الفترة لم تتوقف التحالفات او الانشقاقات داخل الكتل الحزبية المختلفة ، وان تم ذلك على نطاق ضيق • وأسفرت هذه المتغيرات عن نشوء وضع حزبي جديد في اسرائيل ، تمثل قبيل انتخابات ١٩٧٧ ، في نشوء معسكرين حزبيين كبيرين : ليكود اليميني من ناحية والعمال من ناحية ثانية ، والقائمة الديمقراطية من اجل التغيير (داش) في الوسط •

حرب ١٩٦٧ ومضاعفاتها

اذا كانت أسس اليمين الصهيوني التنظيمية ، بتركيبه الحالي ، تعود الى منتصف الستينات ، فان عوامل نجاحه وازدياد قوته تعود ايضا الى الفترة نفسها • ولعل الحدث البارز والمهم ، الذي يمكن الاشارة اليه اكثر من اي حدث آخر باعتباره البداية لصعود اليمين في اسرائيل او ، على الاقل ، التمهيد لذلك ، هي حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بالذات •

لم تكن حرب ١٩٦٧ حدثا عابرا في تاريخ اسرائيل ــ ولا في تاريخ المنطقة• وأهميتها لا تكمن فقط في الانتصار العسكري الساحق الذي كان من نصيب اسرائيل فيها ، بل تنبع أيضا من كونها تجسيدا لآخر طبعات نظريات الامن الاسرائيلية ، التي كان آباء الصهيونية ومعلموها وزعماؤها قد قضوا وقتا كثيرا في ابتداعها ومناقشتها وتطويرها • وقد اكتسبت هذه الحرب أهمية خاصة في نظر الاسرائيليين ، خصوصا في ضوء فشل كل نظريات الامن السابقة ، ابتداء من تلك الداعية الى ضرورة الحصول على ضمانات دولية لاقامة دولة يهودية في فلسطين ، مرورا بالدعوة الى تحويل اليهود في فلسطين

الى اكثرية ، لكي يوافق العرب على الاعتراف بوجودهم ، وانتهـــاء بالرأي القائل انه ينبغي العمل على اقامة الدولة اليهودية اولا ، ثم الاتجاه للحصول على اعتراف بها • ولما فشلت كل تلك النظريات ، وضعت الطبعة الاخيرة التي نصت على انه لا بد ، في نهاية الامر ، من فرض السلام بالقوة على العـرب وحملهم على الاعتراف باسرائيل • ولذلك علق الاسرائيليون آمالا كبرى على انتصارهم في تلك الحرب ، باعتبار ان ذلك فقط كاف لاحلال السلام مع العرب ، بحسب شروطهم ، وضمان وجودهم في المنطقة ، وبالتالي تخفيف الاعبـــاء المختلفة الملقاة على عاتقهم ، وذلك دون ان يبذلوا جهدا كبيرا في سبيل ذلك• ولعل احسن دليل على هذا التفكير هو رد موشي دايــــان ، وزير الدفـــاع آنذاك ، على سؤال وجه اليه بشأن ما ينبغي على اسرائيل عمله بعد انتصارها في الحرب ، بقوله : « لا شيء • انني انتظر تليفونا من العرب » •

ولم يرن التليفون في مكتب دايان ، بل على العكس من ذلك اتخذت الامور مسارا آخر • ولم يمر الا وقت قصير حتى عادت الاوضاع الى سابق عهدها، وراحت المشاكل المختلفة تظهر واحدة بعد الاخرى ، ابتداء من ظهور المقاومـة الفلسطينية المسلحة ثم بروز العامل الفلسطيني وتبلوره ، مرورا باعادة بناء القوى العربية المسلحة وحرب الاستنزاف ، وانتهاء بحرب تشرين ومضاعفاتها، بالنسبة لاسرائيل ، على الصعيدين الداخلي والعالمي • ولم تجد حكومات حزب العمل ، ان كانت تلك التي رئسها اشكول او مئير او رابين ، طريقة لمواجهة هذه التطورات الا العودة الى سياسة القوة والعنف والقمع ، وبمدى يشك معه فيما اذا كان حتى بيغن ، لو وجد نفسه في اوضاع مماثلة ، قادرا على فعل اكثـر مما فعلته تلك الحكومات • والواضح أزاء هذه التطورات ان الآمال العريضة التي عقدها الاسرائيليون على نتائج حرب ١٩٦٧ ، باعتبارها السحـر الـذي سيخلصهم من الحصار المضروب حولهم ومن معظم مشاكلهم ويفتح أمامهم عهدا جديدا ، قد ذهبت كلها أدراج الرياح • ومع تبخر تلك الآمال ، وصل ايضـا الخط البرغماتي التقليدي ، خط هرتسل ووايزمان وبن ـ غوريون والجنـاح العمالي بأسره ، الى طريق مسدود ، وعجز عن ايجاد حلول ، ولو مرحلية ، للمشاكل التي برزت في وجه اسرائيل • ثم جاءت حرب تشرين ، فهزت ثقـة الاسرائيليين بانفسهم وحرجت « كبرياءهم » ، ولكنها مع ما تبعها من تطورات سياسية لم تكن كافية لتحطيم الغرور الذي رضعوه جيلا عن آخـر ، ودفعهـم نحو الواقعية والعقلانية ، بل على العكس اثارت « غضبهم » ودفعتهم الى مزيد من التطرف ، خصوصا بعد أن عرضت أسباب الفشل الاسرائيلي فيها كأنـه « تقصير » كان بالامكان تلافيه • وازاء هذه الاوضاع والمشاكل وخيبة الامل، يبدو الاتجاه نحو اليمين واضحا ، باعتباره آخر السبل لمواجهة المأزق التاريخي الذي تواجهه الصهيونية • كما ساهمت في تغذية هذا الاتجاه عوامل اخرى

عديدة ، لعل من أهمها سيطرة اليمين عموما على أجهزة الاعلام الصهيونية ، تدريجيا ، ثم امتداد نفوذه الى جهاز التعليم الاسرائيلي ·

وعلى كل حال ، ومهما كانت الاسباب التي ساعدت على صعود اليمين في اسرائيل ، من الواضح اننا أمام مرحلة جديدة من السياسة الاسرائيلية ، على الصعيدين الداخلي والخارجي · ومن المبكر ، وبالطبع ، الخوض في محاولات لاكتشاف ابعاد هذه السياسة والمضاعفات التي قد تترتب عليها ، وان كانت بعض ملامحها الرئيسية واضحة بشكل او بأخر · الا ان هناك حقيقة واحدة على الاقل ، تنبغي ملاحظتها : ان اليمين الصهيوني يدعو الى انتهاج سياسة كانت هي السبب نفسه في سقوط العمال ·

المصـــادر

(١)
Herzl , Theodor , *The Complete Diaries of Theodor Herzl* , (Ed. by Raphael Patai) , New York and London : The Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960, Vol. 1 , p. 148.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ ·

(٣) كلاوزنر ، «**منيحي هايسود شـــل مدينـــات يسرائيـــل**» (« مؤسسو دولة اسرائيل») ، القدس ، احيآساف، ١٩٥٥، ص ١٩٢ ·

(٤)
Herzl , Theodor , *The Jewish State , An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question,* (Translated by Sylvie D'Avigdor) London : Central Office of the Zionist Organization, 1934, p. 15.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧ ·

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨ ·

(٧) «**هابروتوكول شـــل هاكونغرس هاتسيوني هاريشون**» ، («محاضر المؤتمر الصهيوني الاول») ، القدس : رؤوفيـــن ماس ، ١٩٤٦ ، ص ١٢ ــ ١٣ ·

(٨)
Herzl , *Diaries* , Vol. 2, p. 629

(٩) «**كتفي هرتســـل**» ، («مؤلفات هرتسل») ــ **يفنيْ عامفيعولام** » ، («امام الشعب والعالم») ، القدس : المكتبـــة الصهيونيـــة ، ١٩٦٠ ــ ١٩٦١ ، الجـزء الثامن ، ص ١١٥ ·

(١٠) « **كتفـي نورداو** » ، («مؤلفات نورداو») ، القدس : المكتبة الصهيونية ، ١٩٥٤ ، الجزء الاول ، ص ١٦٧ ــ ١٦٨ ·

(١١) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص ١٤٨ ·

(١٢) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص ١٦٦ ·

(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ ــ ١٧٠ ·

(١٤) المصدر نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٩٢ ·

(١٥) المصدر نفسه ، الجـــزء الاول ، ص ١٤٣ ·

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ·

(١٧) المصدر نفسه ، الجـزء الرابع ، ص ١٧٨ ·

(١٨) انظر ، للتفاصيل، يتسحاق ميئور، «**هاتنوعـــاه هاتسيونيـــت بروسيا**» ، («الحركة الصهيونيـــة في روسيا») ، القدس : المكتبة الصهيونية ، ١٩٧٤ ، ص ٣٥١ ــ ٣٦٣ ·

(١٩) انظر مقـــالة يوسف غورني ،

«التغييرات في التركيـــب الاجتمـاعي والسياسي للهجرة الثانية، ١٩٠٤ـ١٩٤٠» في «**هاتسيونوت**» ، («الصهيونيـة») ، (رئيس التحرير : دانييل كاربي) ، تل ابيب : جامعـة تـل ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ . وانظر أيضا يهوشواع اوفيـر ، «**سيفـر هاعوفيد هليئومي**» ، («كتـاب العامـل القومي») ، تل ابيب : اللجنة التنفيذيـة لنقابة العمال القوميين، ١٩٥٩ ، ص ١٤.

(٢٠) التفاصيل في يهودا سلوتسكي ، «**مفـوا لتولـدوت تنوعـات هعؤداه هايسرائيليت**» ، («مقدمة لتاريخ حركـة العمل الاسرائيلية») ، تل ابيب : عـام عوفيد ، ١٩٧٣ ، ص ٨٥ ـ ١٠٣ و ١١١ ـ ١٢٠ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ ـ ١٩٣

(٢٢) انظر ، للتفاصيل ، تسفي ابن ـ شوشان ، «**تولدوت تنوعـات هابوعاليم بأيرتس ـ يسرائيل**» ، («تاريخ حركـة العمـال في ارض ـ اسرائيل») ، تل ابيب : عام عوفيد ، ١٩٦٢ ، الجزء الاول، ص ٢٢٤ ـ ٢٣٤ .

(٢٣) **سيفر هاشومير** ، («كتـاب هاشومير») ، تل ابيب : دفير ، ١٩٥٧ ، ص ٢٠ـ٢١ ، ٤٥١ .

(٢٤) انظر ، مثـلا دستور حـزب هابوعيل هاتسعيـر في ج٠ مرحفياه ، «**عام فيموليدت**» ، («شعب ووطن») ، القدس: هليفي ، ١٩٤٧ ، ص ٥٢٥ـ٥٢٦ .

(٢٥) ارثور روبيـن ، «**بركي حياي**» ، («فصول حياتي») ، تل ابيب : عـام عوفيد ، ١٩٦٨ ، *الجزء الثاني* ، ص ٧٨ـ ٧٩ .

(٢٦) Weizmann , Chaim ; *Trial and Error* , London : East and West Library . 1950 , p. 62 .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .

(٣٠) «مؤلفات نورداو» ، الجزء الثالث، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣١) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٦٧ .

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٩٨ و ١١١ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ١١١ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٤١) المصدر نفسه .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ١١١ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .

(٤٤) المصدرذ فسه ، ص ٩٥ ـ ٩٨ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٤٨) Weizmann , p. 448.

(٤٩) انظر نصوص البيانات السياسية الاساسية للصهيونييـن العمومييـن في مرحفياه ، ص ٤٦٢ ـ ٤٧٠ .

(٥٠) انظر للتفاصيـل ، موشـي براسلافسكي ، «**تنوعـات هابوعاليـم هأيرتس يسرائيليت**» ، («حركة العمال في ارض ـ اسرائيـل») ، تل ابيـب : هاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٦٦ ، الجـزء الاول ، ص ١٥٣ ـ ١٦٠ . وانظر ايضا يوسف غورني ، «**احدوت هعفوداه ، ١٩١٩ ـ ١٩٣٠**» ، («[حـزب] احـدوت هعفوداه ، ١٩١٩ ـ ١٩٣٠ ») ، تل ابيب: جامعة تل ابيب وهاكيبوتس هاميئوحاد ، ١٩٧٣ ، ص ١٧ ـ ٢٣ .

(٥١) انظـر نص دستور الهستدروت

وأهدافها في مرحفياه ، ص ٢٧٢ ـ ٢٩٢.

(٥٢) التفاصيل في « **سيفر تولدوت هاغاناه** » ، (« كتاب تاريخ الهاغاناه ») (رئيس التحرير : بن ـ تسيون دينور ـ دينبورغ) ، تل ابيب : معرخوت ، ١٩٥٦، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، ص ٦٣٩ ـ ٦٧٠ والكتاب الثاني ، الجزء الاول ، ص ٦٥ ـ ٧٦ .

(٥٣) انظر الجداول في «**هاكونغرس هاتسيوني هاكاف ـ الف**» (« [محاضر] المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرون »)، القدس : المنظمة الصهيونية العالمية ، ص ك هـ (٢٥) ، و«محاضر المؤتمر الثاني والعشرون» ، ص ك و (٢٦) .

(٥٤)
Schechtman , Joseph B. ; *Rebel and Stateman , The Vladimir Jabotinsky Story* , London and New York : Thomas Yoseloff, 1961 , p. 422 .

(٥٥) موشي بيلع ، «**عولامو شل جابوتينسكي**» ، («عالم جابوتينسكي») ، تل ابيب : دفوسيم ، ١٩٧٢ ، ص ٢٩٩ ـ ٤٠٠ .

(٥٦) «**كتفي جابوتينسكي**» ، («مؤلفات جابوتينسكي ») ، تل ابيب : عاري جابوتينسكي (دار نشر) م. ض. ١٩٥٣ ، الجزء التاسع ، ص ٢٤٠ و٢٤٩ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤١ .

(٥٨) المصدر نفسه ، الجزء الثامن ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(٥٩) بيلع ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

(٦٠) مؤلفات جابوتينسكي ، الجزء التاسع ، ص ٢٤٩ .

(٦١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٦٢) بيلع ، ص ٢٣٢ .

(٦٣) مؤلفات جابوتينسكي ، الجزء الحادي عشر ، ص ١٧٥ .

(٦٤) المصدر نفسه ، الجزء الخامس ، ص ٥٤ .

(٦٥) المصدر نفسه ، الجزء الحادي عشر ، ص ٢٣٥ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٨ .

(٦٧) المصدر نفسه ، الجزء الثاني عشر ، ص ٤٧ .

(٦٨) بيلع ، ص ٣٨٥ .

(٦٩) المصدر نفسه .

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٣٨٤ .

(٧١) مؤلفات جابوتينسكي ، الجزء الحادي عشر ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٧٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ـ٢٥٩

(٧٦) انظر ، للتفاصيل ، يغئال عيلام ، **مقدا لهيستوريا تسيونيت آحيرت** » ، («مقدمة لتاريخ صهيوني اخر» ، تل ابيب: ليفين ـ ابشتاين ، ص ٤٠ ـ ٥١ .

(٧٧) انظر ايضا بيلع ، ص ٤٩ ـ ٦٠ ، ٨٢ ـ ٨٣ .

(٧٨)
Schechtman , Joseph B. ; Benari, Yehuda ; *History of the Revisionist Movement* , Tel - Aviv : Hadar , 1970 , Vol. 1 (1925 - 1930) , p. 27.

(٧٩) مرحفياه ، ص ٤٣٨ .

(٨٠) «**سيفر بيتار**» ، («كتاب بيتار»)، (رئيس التحرير : ح. بن ـ يروحام) ، القدس وتل ابيب : لجنة اصدار كتاب بيتار ، ١٩٦٩ ، الجزء الاول ، ص ٣٠، ٣٣، ٤٧ .

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

(٨٢) اوفير ، ص ٣٦ .

(٨٣) المصدر نفسه ، ص ٤٣ ـ ٥٢ .

(٨٤) التفاصيل في دافيد نيف ، « **معرخوت هارغون هتسفائي هليئومي**» ، («تاريخ المنظمة العسكرية القومية») تل ابيب : مؤسسة كلاوزنر ، الجزء الاول، ص ١٥٦ ـ ١٧٨ .

(٨٥) انظر الملاحظة (٥٣) اعلاه ٠

(٨٦) المصدر نفسه ٠

(٨٧) انظر ، للتفاصيل ، براسلافسكي ، الجزء الثاني ، ص ٢٤١ ــ ٢٦٩ ٠ وانظر ايضا اوفير ، ص ١٠٧ ــ ١١٠ ٠

(٨٨) النص في «مؤلفات جابوتينسكي» ، الجزء الثاني عشر ، ص ٤٥ ــ ٥٣ ٠

(٨٩) انظر ايضا براسلافسكي ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٦ ــ ٢٥٢ ٠

(٩٠) لمزيد من التفاصيل ، انظر دافيد يسرائيلي ، «**هارايخ هاشيلشي فيايرتس ــ يسرائيل**» ، («الرايخ الثالث وارض ــ اسرائيل») ، رامات غان : جامعة بار ــ ايلان ، ١٩٧٤ ، ص ١٢٢ــ١٥١ ٠

(٩١)

Schechtman , Joseph B. ; *Fighter and Prophet. The Vladimir Jabotinsky Story* , New York and London : Thomas Yoseloff , 1961, pp. 245 - 255 .

(٩٢) مرحفياه ، ص ٤٤٣ ٠

(٩٣) انظر ايضا براسلافسكي ، الجزء الثاني ، ص ١٧١ ــ ١٧٣ ٠

(٩٤) « كتاب تاريـــخ الهاغاناه » ، الكتاب الثاني ، الجزء الثاني ، ص ٧٢٢ ــ ٧٢٤ ، ٨٣٣ ــ ٨٥٠ ٠

(٩٥) انظر ، للتفاصيـــل ، غرشون ريفلين (محـــرر) ، « **لايش ولاماغين ، تولدوت هانوتروت هاعفريت** » ، (« للنار والدفاع ، تاريخ الحراسة اليهودية ») ، تل ابيب : معرخوت ، ١٩٦٢ ، ص ١٥ ــ ٧١ ٠

(٩٦) **انظر** ايضا ابراهام عكفيـــا (محرر) ، « **هايديد ــ اورد وينغييت** » ، (« الصديـــق ــ اورد وينغييـــت ») تل ابيب : معرخوت ، ١٩٦٨ ، ص٧٩ ــ ١٠٨ ٠

(٩٧) الكس بايـــــن ، « **تولـــدوت هاهتيشفوت هاتسيونيت** » ، (« ..ريـــخ الاستيطان الصهيوني ») . رامات غان: ساده ، ١٩٧٠ ، ص ٣٦٩ ــ ٣٨٠ ٠

(٩٨) انظر التفاصيل في نيف . الجزء الثاني ، ص ٧٤ ــ ٩٤ ، ٢٢٧ ــ ٢٣٠ ، ٢٣٨ ــ ٢٥٢ ، ٢٥٤ ــ ٢٥٧ ٠

(٩٩) « كتاب تاريخ الهاغانـــــاه » . الكتاب الثالث ، الجزء الاول ، ص ١٨٩ ٠

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص ٤٢ ٠

(١٠١) المصدر نفسه ، ص ٥٣ ــ ٥٥ . ٢١٥ ــ ٢٢٥ ٠

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ ٠

(١٠٣) المصدر نفسه ، ص ٦٩٩ ، ٧٠٠

(١٠٤) المصدر نفسه ، ص ٣٨٤ ٠

(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩٧ ٠

(١٠٦) انظر، للتفاصيل، المصدر نفسه، ص ٢٠٣ ــ ٢١٠ ٠

(١٠٧) نيف ، الجزء الثاني ، ص ٢٨١ ــ ٢٨٢ ٠

(١٠٨) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص ١٩ ٠

(١٠٩) المصدر نفسه ، ص ٧٢ ــ ٧٤٠

(١١٠) « **لوحمي حيروت يسرائيل** » ــ ليحي ، « **كتافيم** » ، (« المؤلفـــات ») . تل ابيب : لجنة اصدار مؤلفات ليحـي ، ١٩٥٩ ، الجزء الاول ، ص ٢٧ ــ ٢٨ ٠

(١١١) النص في مناحيـــــم بيغن « **بمحتيريت** » ، (« في الحركة السرية ») تل ابيب : هدار ، ١٩٥٩ ، الجزء الاول ، ص ٢١ ــ ٢٥ ٠ وانظر ايضا نيـــف ، الجزء الثالث ، ص ٢٧٧ ــ ٢٨١ ٠

(١١٢) المصدر نفسه ٠

(١١٣) مرحفياه ، ص ٤٠٢ ٠

(١١٤) انظر بيغن ، الجـــزء الاول ، ص ٧٢ ٠

(١١٦) المصدر نفسه، ص ١٠٠ ـ ١٠٢

(١١٧) انظر ايضا « كتـــاب تاريخ الهاغاناه » ، الكتاب الثالث ، الجـــزء الثاني، ص ٨٠٩ ـ ٨١١ ، ٨١٦ ـ ٨١٨٠

(١١٨) المصدر نفسه، ص ٨٨٠ـ ٨٨١ و٨٨٩ ـ ٨٩٣ ، و٨٩٨ ـ ٩٠١ ٠

(١١٩) بيغن ، الجزء الرابع ، ص ٨٠

(١٢٠) « **تولـــدوت ملحيميـــــت هاكومميوت**» ، (« تاريـــــخ حـــرب الاستقلال ») ، اصدار قسم التاريخ في الاركان العامـــــة للجيش الاسرائيلي ، معرخوت ، ١٩٦٨ ، الطبعـــة السادسة عشرة ، ص ١١٧ ـ ١١٨ ٠

(١٢١) انظر نص مقدمة الخطة فـــي « كتاب تاريخ الهاغاناه » ، الكتـــاب الثالث ، الجزء الثالـــث ، ص ١٩٥٥ ـ ١٩٦٠ ٠

(١٢٢) انظر أيضا دافيد بن ـ غوريون، « **مدينـــات يسرائيـــل هاميكوديشت** (.« دولة اسرائيل المجددة ») ، تل ابيب: عام عوفيد ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ، ١٧٥ ـ ١٩١ ، ٢٦٣ ـ ٢٨١ ٠

(١٢٣) مرحفياه ، ص ٧٢٠ ٠

حوار مع محمود عباس (أبو مازن)

حلول كثيرة للمسألة اليهودية ولا حل للمشكلة الصهيونية

الاخ محمود عباس [ابو مازن] ، عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» ٠ هو احد المسؤولين الفلسطينيين القلائل المختصين بدراسة التجمع الاسرائيلي على ارض فلسطين المحتلة ٠ وقد اصدر كتابا بعنوان « الصهيونية بداية ونهاية » ٠

في هذا الحوار مع « شؤون فلسطينية » يقدم الاخ ابو مازن منهجا فلسطينيا شاملا لتركيب التجمع الاسرائيلي ومأزقه التاريخي وآفاق الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠

□ كيف نفهم ونقيم نتائج الانتخابات الاسرائيلية التي جاءت بالليكود الى القيادة في اسرائيل ؟ هل تعبر هذه الانتخابات عن تحول جذري في التجمع الصهيوني ، ام تعبر عن مأزقه ؟ وبالتالي ، ما هي الخيارات التي تطرحها هذه النتائج ، علينا كثورة فلسطينية ، وكأمة عربية في مواجهة العدو الصهيوني ؟

● الانتخابات الاخيرة ، هي اول انتخابات اسرائيلية تحظى بالاهتمام في الوطن العربي ٠ اذكر ، ان انتخابات الكنيست السابقة ، كانت تمر ، دون اي اهتمام حقيقي في الصحافة او في اجهزة الاعلام العربية المختلفة ٠ لقد جاء الاهتمام بنتائج الانتخابات الحالية لان المنطقة تعيش جو التسوية ٠ اعتقد ان الانتخابات الاسرائيلية تعكس الوضع الداخلي الاسرائيلي ، اكثر مما تعكس النظرة السياسية الاسرائيلية ٠ ونستطيع ان نقول ، ان نتائج الانتخابات ، جاءت سقوطا للعمل ، وليس نجاحا لليكود ٠ لقد فقد الناخب الاسرائيلي ثقته بحزب

العمل ، الذي قاد الحركة الصهيونية واسرائيل تاريخيا ، نتيجة الفضائح الاخلاقية والمالية ، ولاسباب تتعلق مباشرة بالازمة الاقتصادية التي تمر بها اسرائيل · لم يكن هناك اذن ، مفاجآت في نتائج الانتخابات · لقد كان سقوط العمل متوقعا ، كما كان متوقعا ايضا ، ان يحافظ الليكود على وزنه السابق داخل الكنيست ، كما ان بروز كتلة يادين ـ داش ـ لم يكن مفاجئا · لان يادين طرح نفسه ، كمنقذ للتجمع الاسرائيلي ، من الفساد المستشري · نلاحظ ايضا ، ان البرامج السياسية للاحزاب الاسرائيلية الكبيرة لم تكن واضحة · الليكود ، كان قريبا جدا من صقور العمل ، بدليل العرض الذي قدمه بيغن لدايان بتولي وزارة الخارجية ·

ان الذي يقول ان الشعب في اسرائيل ، قد صوت ضد السلام ، هو مخطيء · ونتائج الانتخابات ، تعبر اذن ، عن قضايا داخلية واجتماعية ·

تبقى ، نتائج نجاح الليكود على الوضع السياسي في المنطقة · نحن نملك القناعة ، بأن القرارات السياسية ، تؤخذ في اميركا اساسا · اي ان التوجه السياسي في اسرائيل ، يقرر في اميركا · هناك تجارب سابقة ، تؤكد صحة قناعتنا · نذكر ، ان بن غوريون ، وهو اكثر تصلبا وعنفا من مناحيم بيجن ، حين جاءته الاوامر بالانسحاب من سيناء وغزة ، بعد حملة السويس ، انسحب · كما ان بيجن ، غير موقفه مرتين خلال اسبوع واحد · في المرة الاولى ، قال انه يعتبر الضفة الغربية « ارضا محررة » ، ثم قال ، انه لا يمكن ضمها الى اسرائيل ، طالما هناك مفاوضات ، ثم اعلن التزامه بالقرار ٢٤٢ ، الذي التزمت به الحكومة السابقة · لذلك اعتقد، انه على المستوى السياسي، لن يكون هناك تغييرات جذرية · الموقف الاسرائيلي ، هو في يد اميركا ، فهي التي تقرر سياستها ، وهي التي تنفذ هذه السياسة · لقد صرح كارتر بأنه واثق من ان بيجن سيأتي ، ويخرج من عنده معتدلا · هذا يعني ، انه سيصبح معتدلا ، باختياره ، او رغم انفه ·

باختصار ، لقد كانت الانتخابات الاسرائيلية ، انتخابات داخلية · تعبر عن مأزق اسرائيلي يتعلق بجملة من القضايا ·

□ هناك مسألتان · المسألة الاولى : هي ان البرامج السياسية للاحزاب الاسرائيلية الكبيرة كانت غير واضحة عشية الانتخابات ، والمسألة الثانية : ان نتائج الانتخابات ، تعبر عن ازمة داخلية فلنحاول ربط هاتين المسألتين ، كي نفهم طبيعة الازمة الداخلية ·

● في العادة ، تتشدد الاحزاب في برامجها الانتخابية · عندما خاض كارتر، انتخابات الرئاسة الاميركية ، لم يأت على ذكر القضية الفلسطينية · وبعد انتخابه

بدأ يتكلم عن وطن للاجئين ، ثم عن وطن للفلسطينيين ، ثم عن القرار ٢٤٢ وصولا الى قرارات ١٩٤٧ ، والتعويض عن اللاجئين ، او بحث قضيتهم • الاحزاب الاسرائيلية كذلك ، لم تطرح برامج واضحة ، تتعلق بمسألة التسوية السياسية • نلاحظ مثلا ، ان الليكود ، غير صيغة اراضي ١٩٦٧ ، بشكل يوحي للناخب بأنها لا تزال قيد البحث • اما حزب العمل ، فتعرفون ازمته في مؤتمره الاخير ، وكيف انه اضطر لتغيير النقطة الخاصة بالارض المحتلة • المسألة السياسية ، لم تكن حاسمة في الانتخابات • فالناخب ، كان اكثر اهتماما بالازمة الداخلية •

نشأت الازمة في اسرائيل بعد حرب تشرين • لقد ادت حرب تشرين الى ايجاد ازمة ثقة في الادارة الاسرائيلية ، وفي الجيش الاسرائيلي • وهذا ما عبرت عنه كلمات مثل « الزلزال » ، و « التقصير » ، والنكبة ، والمصيبة وغيرها • بعد حرب ١٩٧٣ ، برزت اهم مسألة اسرائيلية ، وهي قضية الهجرة • فالهجرة هي الشريان الحيوي لمشروع الصهيوني ، عليها تتوقف الحياة الاسرائيلية بأسرها • المعادلة الاسرائيلية هي اشعال حرب سهلة ، يأتي المهاجرون بعدها • ومع المهاجرين ، تأتي الاموال من الولايات المتحدة والوكالة اليهودية، وتزدهر الحالة الاقتصادية• حدث هذا بعد عام ١٩٤٨ ، حين بدأت الهجرة اليهودية من البلاد العربية • قبل حرب ١٩٥٦ ، كان هناك ازمة هجرة ، وقبل حرب ١٩٦٧ ، كان هناك ازمة هجرة وازمة بطالة ، فالبطالة هي نتيجة لازمة الهجرة • لكن حرب ١٩٧٣ لم تكن سهلة • لقد دفعت اسرائيل خسائر بشرية واقتصادية • لقد ادى هذا الوضع ، الى توقف الهجرة • كما تزعزعت الثقة بين الشعب والحكومة • وبين السلطتين السياسية والعسكرية • **ان توقف الهجرة يؤدي الى توقف قطاعات هامة في الحياة الاقتصادية • وابرزها قطاع البناء الذي يسمى القطاع القائد** • فاذا توقف البناء ، توقفت اغلبية القطاعات ، وبدأت البطالة والاضرابات • وبدأت الهجرة المعاكسة • **هذا هو السبب الحقيقي للازمة الاقتصادية** • لذلك ، نلاحظ ، ان اكثرية القطاعات الاقتصادية شهدت اضرابات متعددة • هكذا ، تبدأ ما يسمونه الحرب اليهودية • وهي على غرار الحرب اليهودية التي حدثت بين الجنرالات والسياسيين بعد حرب تشرين • الحرب اليهودية تجري الان بين الوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب وبين المنظمات اليهودية ، حول مسألة الهجرة • جميع مصادر الهجرة نضبت،ولم يعد هناكمهاجرون الى اسرائيل،غير اليهود السوفيات ،الذين لا يذهب عدد كبير منهم الى اسرائيل•عندما تسلم بنحاس سابير الوكالةاليهودية، وعد بجلب مئة الف مهاجر • لكنه مات ، ولم يتمكن من جلب عشرين الف مهاجر • خلفه يوسف الموجي ، لكنه فشل هو الاخر • **المشكلة ليست مشكلة هجرة فقط • انها ايضا مشكلة نزوح** • هذه هي الازمة في اسرائيل • ويضاف اليها طبعا

الضرائب التي وصلت حدا غير معتدل ، اذ انها اعلى نسبة في العالم · وهبوط العملة ، الذي يسمونه الهبوط الزاحف المستمر · والحصار الدولي المضروب حول اسرائيل ، وغلاء المعيشة · وخسارتها للكثير من اسواقها الافريقية ·

□ **هل تستطيع اسرائيل ، حل مشكلة الهجرة ؟**

● لا اعتقد ان اسرائيل قادرة على حل مشكلة الهجرة · والسبب ، يتضح حين ندرس التجمعات اليهودية في العالم · نحن نعلم ، ان عدد اليهود في العالم هو حوالي ١٤ مليون نسمة · يتوزعون على النحو التالي : ثلاثة ملايين في اسرائيل ، حوالي ستة ملايين في اميركا ، حوالي مليونين في الاتحاد السوفياتي، والباقي في اوروبا الغربية وكندا واوستراليا · اما في الوطن العربي ، فلا يزيد عدد اليهود عن خمسين الفا · من اين سيأتي المهاجر اليهودي · لا احد يهاجر من اميركا · بل على العكس ، يوجد في اميركا الان حوالي ثلاثمائة الف اسرائيلي · فاميركا هي مصدر جذب ، وليست مصدر هجرة · اما فرنسا واوروبا الغربية ، فان وضعها يشبه الوضع الاميركي · بدليل ان يهود فرنسا الذين كانوا حوالي مئة الف ، اصبحوا اليوم اكثر من ستمئة الف · البلاد العربية : لم يعد يسكنها جاليات هجرة · لم يبق سوى يهود الاتحاد السوفياتي · نلاحظ ان عدد المهاجرين اليهود السوفيات ، كان عام ١٩٧٢ ، ٤٠ الف مهاجر ، وكانت نسبة « الارتداد » ٢٪ · اما عام ٧٦ فان عدد المهاجرين هو حوالي ١٤ الف مهاجر ، اما نسبة « الارتداد » فهي ٦٠٪ · وهذا يعني ، **ان اليهودي اذا وجد خيارا اخر، فانه لن يذهب الى اسرائيل · ان مستقبل الهجرة الى اسرائيل هو مستقبل مظلم·** هذا اذا بذلنا جهودنا · فلو وافق الاتحاد السوفياتي على ايقاف الهجرة ، وعلى عودة بعض المهاجرين اليهود السوفيات ، الراغبين في ذلك فلن يبقى يهودي سوفياتي يتسكع في اوروبا ، ويتعرض لملاحقة عملاء الوكالة اليهودية · وربما ، لن يبقى يهودي سوفياتي في اسرائيل · الكثيرون منهم يتمنون العودة الى الاتحاد السوفياتي · حتى ان احدهم قال : « لو فرشت الارض بين تل ابيب وموسكو بالزجاج . لمشيت عليها حافيا ». · كما عقد ٧٠٠ يهودي سوفياتي ، مؤتمرا صحفيا في فيينا . واعلنوا فيه ندمهم واسفهم وطلبهم للغفران من الاتحاد السوفياتي · هناك معلومات حول بعض اليهود الجيورجيين ، في اسرائيل ، الذين اضطروا الى التنصر على يد جمعيات تبشيرية ، من اجل ان تساعدهم على الرحيل الى الخارج · **لقد اخرجت اسرائيل اليهودي عن دينه ·**

ان المأزق الصهيوني الاساسي . هو مأزق الهجرة · **فالهجرة هي التعبير الحقيقي عن معنى الصهيونية** · قال بن غوريون ، ان الصهيونية هي الهجرة ، وليست مظاهرات التأييد او الدعم المالي · **فاليهودي الذي لا يأتي الى فلسطين** ، هو خارج على الدين · كما يقول بن غوريون ·

نضوب في الهجرة ، وازدياد في الهجرة المعاكسة ، التي لا تزال تنحصر تقريبا ، في اليهود الغربيين ، الاشكناز ، الذين يجدون امكانية اندماج في المجتمعات الغربية ، نتيجة كفاءاتهم العلمية ، ووضعهم الاقتصادي ·

ليس هناك ، الان من مصدر للهجرة سوى الاتحاد السوفياتي · ان علاقتنا مع الاتحاد السوفياتي هي علاقة صداقة · ومن منطلق الصداقة هذه ، يجب ان نجري

حوارا مع السوفيات حول موضوع الهجرة · يجب ان يقتنع السوفيات ان هذا يضر بالشعب الفلسطيني · لانه يرسل انسانا ليقيم في بيتي ، ويضيف جنديا يحمل سلاحه ليحارب شعبي · العلاج المناسب ، الذي نقترحه على الاصدقاء السوفيات هو حول اعطاء اليهود خيار الخروج · يخرج اليهودي السوفياتي ، ثم تقفل في وجهه جميع ابواب الهجرة الى اوروبا الغربية واميركا ، فما معنى هذا ؟ هناك حرية واحدة ، هي الذهاب الى حيث لا يريد ، الى اسرائيل · الموقف الاوروبي الغربي هذا ، لا انساني ولا سامي ، وكأن اللاسامية عادت مرة اخرى الى العقل الاوروبي · لذلك فعلى الاصدقاء السوفيات ان لا يقعوا في الفخ الذي تنصبه لهم الاجهزة الامبريالية ، بحيث تتم الاساءة البالغة الى اليهود السوفيات المغرر بهم ، في الوقت نفسه الذي يتضرر فيه شعبنا من هجرتهم الى بلادنا ·

☐ لقد وجد قسم من اليهود الغربيين ، خيار العودة الى اوطانهم · وتحمل كلمة « العودة » في مفهومنا معنى معاكسا للتعبير الصهيوني ، الذي يعتبر « العودة » ، عودة الى ارض فلسطين · نحن نقصد بالعودة ، العودة الى اوطانهم الاصلية · هل يستطيع العرب ، ان يقدموا خيارا لليهود الشرقيين ، الراغبين في العودة الى اوطانهم العربية ؟

● لم تعرف الصهيونية طريقها الى اليهود العرب · فلم يكن هناك لا سامية في الوطن العربي · والدليل على ذلك ، هو ان اليهود العرب ، لم يهاجروا الى فلسطين ، الا بعد انشاء دولة اسرائيل فليس لهم علاقة بتأسيس الدولة · ولم يتركوا اوطانهم ، رغم انهم ، على بعد بضعة مئات من الامتار من « ارض الميعاد »· فاليهود العرب ، كانوا يعيشون حياة كريمة ، ويشتركون في الحياة المدنية العربية · ونحن نعرف ، ان يهود العراق ، كانوا هم من حارب اول بؤرة صهيونية في بغداد ٢١ ــ١٩٢٢ · يهود العراق ، هم الذين دمروا مقر الحركة الصهيونية · لكن ، بعد قيام اسرائيل ، بدأت المؤامرة · كانت المؤامرة عربية رسمية ، وصهيونية وبريطانية · فبعد ٣٠ سنة على وعد بلفور ، وبعد ٥٠ سنة من المؤتمر الصهيوني الاول ، لم تتمكن الحركة الصهيونية من جلب اكثر من ستمائة الف يهودي من كافة انحاء العالم · لذلك اضطر الصهاينة والاستعمار البريطاني ، الى ترحيل اليهود العرب عن طريق عقد صفقات مع الانظمة الرجعية

كنظام نوري السعيد ، ونظام الامام احمد في اليمن · فاسرائيل . بحاجة الى عنصر بشري منتج ، كي تستطيع الحياة · ولم تجد انسانا منتجا . غير اليهودي العربي · وكما قال اسحق بارموشيه . [صاحب كتاب الخروج من العراق] . لقد ارادتنا الحكومة الاسرائيلية ، ان ناتي هكذا . دون شيء · لقد احضروهم خاليي الوفاض من كل شيء ، كي يكونوا في اسفل الهرم الاجتماعي ، من اجل القيام بالعمل المنتج ، وخدمة الطائفة الرومانية او البولونية ، التي لا تزال الى الان تحكم اسرائيل · لقد اتى اليهود العرب الى اسرائيل ، وبداوا يعانون من التمييز العنصري · وهذا يفسر ، قرار ادانة الصهيونية بالعنصرية · **فالصهيونية لا تمارس عنصريتها ضد العرب فقط، بل تمارسها ايضا، ضد اليهود العرب** · يقول احد اليهود الغربيين : لو جئنا بثلاثة ، يهودي شرقي ، يهودي غربي وعربي ، فالذي يشعر انه غريب بينهم هو اليهودي الغربي · **وهناك قول للشاعر الصهيوني بياليك ، بأنه يكره العرب لانهم يذكرونه باليهود الشرقيين** ·

يمارس الاضطهاد العنصري ضد اليهود الشرقيين في جميع مجالات الحياة· ابتداء من العمل والسكن والزواج ، والتعليم والوظائف العالية ، وانتهاء بالكنيست وادارات الدولة · لقد حولهم هذا الاضطهاد الى اناس مقهورين · لذلك يلاحظ اخواننا في الداخل شراستهم ضد العرب ·لا يستطيع اليهود الشرقيون الهجرة · فثقافتهم ومؤهلاتهم العلمية وامكاناتهم المادية ،لا تساعدهم على الهجرة الى الغرب ، حيث يهاجر اليهود الغربيون · **لا مخرج لهم ، سوى العودة الى البلاد العربية** · لكن البلاد العربية ، كانت تقفل ابوابها في وجوههم · هناك سببان يدفعاننا الى المطالبة بالسماح لليهود العرب بالعودة الى بلادهم الاصلية · ١ ــ من اجل مساعدتهم على التخلص من الظلم والتمييز العنصري · ٢ ــ **من اجل تصحيح خطأ تاريخي ارتكبته بعض الانظمة العربية** ·

لقد عاش اليهود في بلادنا منذ قرون ، ولم يمارس ضدهم اي اذلال او اضطهاد · ومن اجل الوصول الى تحقيق هذا الهدف ، كان يجب ان نزيل من اذهان الناس ، الفكرة الخاطئة ، بان كل يهودي هو صهيوني · **لان موقف الكثير من اليهود ، هو مواجهة الحركة الصهيونية ، باعتبارها تخلق مشكلة يهودية ، ولا تحلها ، كما يشيع الصهاينة** · ونحن نعادي من يقاتلنا فقط · كذلك ليس كل يهودي صهيونيا · **هناك الكثير من الصهاينة غير اليهود ، امثال تشرشل** وجميع من ساعد على اقامة الدولة الصهيونية ، او الذي يساعدها على الاستمرار · لقد استجابت بعض الدول العربية ، لطلبنا بالسماح لليهود العرب بالعودة ، رغم ان بعضها لا يملك الامكانيات الفعلية لتنفيذ ذلك · لقد بادرت اليمن ، واعلنت استعدادها لاعادة اليهود · ان اوضاع اليهود اليمنيين ، بقيت كما كانت في اليمن · انهم في اسفل السلم الاجتماعي · **تنتشر الامية والفقر في صفوفهم** · كذلك وافقت الحكومة السودانية على عودة

اليهود · رغم قلة عدد اليهود السودانيين ، فقد عـاد بعضهم الـى السـودان . واقاموا مشاريع واستثمارات · كما ان العراق اعلن حق اليهود في العودة · لكن هذا الاعلان ، يحتاج الى خطوات فعلية ·

كيف يستطيع اليهودي ان يعود ، اذا لم يتصل به ، وتؤمن له الترتيبـــات اللازمة · هناك مشاكل كثيرة منها اجراءات السفر والديون الكثيرة ، التي لا يمكن التخلص منها ، وبالتالي تجعل الهجرة امرا صعبا · الدولة الاخيرة التي وافقت هي الحكومة المغربية · لقد خرج عدد من اليهود المغاربة الى فرنسا ، ومنها عادوا الى المغرب ، لقد سهلت الحكومة المغربية المسألة ، حين اعلنـت استعدادها لاعادة الجنسية المغربية ، لجميع اليهود المغاربة سواء عادوا الى المغرب ، او لم يعودوا اليه ·

من المؤكد ، ان هذه الاجراءات مفيدة ، ولكنها غير كافية · اذ لا بد من موافقة دول الطوق : سوريا ولبنان والاردن ومصر · بالنسبة للاردن ، فعلى الرغـم من عدم وجود يهود اردنيين اصلا ، الا ان اهميته تكمن في كونه يستقبل العديد من اليهود الهاربين من اسرائيل · وهؤلاء يهربون ، لانهم غير قادرين علـى الخروج بالطرق الشرعية · اي انهم لا يملكون امكانات ماديـة للخـروج · فيتجهون الى عمان سيرا على الاقدام ، من اجل طلب تسفيرهم الى البلاد التي يرغبون في الذهاب اليها · **مع الاسف ، فان الحكومة الاردنية تعيد اليهـودي الهارب الى اسرائيل** · وهذا لا يزال يحصل حتى الان · وهو امر بالغ الخطورة · لان الاردن ، اذا وافق على رحيل اسرائيلي واحد ، فسيسلك العشرات طريـق الاردن · في الحقيقة لا نعلم السبب · **هل هذا جزء من اتفاقية الهدنة ؟** ام انـه اتفاق خاص جاء بعد اتفاق الهدنة باسترداد الهاربين ·

اما بالنسبة لسوريا ومصر ، فان اهميتها في هذا الشأن هي في كونها دولا محاربة · ولقد انجزت سوريا خطوة هامة ، وهي رفعها للقيود التي كانـت مفروضة على اليهود السوريين · لذلك اضطرت جميع الجمعيات التي تدعـي الدفاع عن اليهود السوريين الى حل نفسها · القاضي الاسرائيلي ، حاييـم كوهين . حل اللجنة التي يرئسها ، والتي تنادي بالدفاع عن اليهود السوريين · والان . رفعت القيود التي تتعلق بالاقامة والسفر والتعامل مع المجتمع · امـا الخطوة الثانية التي نترقبها ، هي اعـلان الاستعداد ، للقبول بعودة اليهـود السوريين · وبين الخطوتين ، تمت خطوة اجرائية هامة ، اذ اعطيت التعليمـات باستقبال اي يهودي يعبر الحدود ، والسماح له بالسفر الى اي بلد يشـاء · وهذه خطوة ايجابية · لكن ، تثار بعض الاسئلة والاعتراضات ، في وجه هذا المشروع · **الاعتراض الاول ان هؤلاء قد يكونون جواسيس** · وجوابنا بالـغ البساطة · ان ٩ر٩٩ / من جواسيس اسرائيل في البلاد العربية ، لم يكونوا من

اليهود · ثم ان اسرائيل ، لا ترسل الجواسيس بهذه الطريقة ، لانها تخشى ان يكونوا مراقبين · **الاعتراض الثاني** هو ان اليهود سوف يسيطرون على الاقتصاد العربي مرة اخرى · اعتقد ان هذا مستحيل · فالوضع العربي ، تغير كثيرا خلال الثلاثين سنة الماضية · واصبح العرب احدى اكبر القوى الاقتصادية في العالم ·

□ من الواضح ان المشروع الصهيوني هو مشروع استعماري ، يرتبط بالاستعمار العالمي ، ويهدف الى تمزيق الوطن العربي واذلاله واخضاعه · وجوهر هذا المشروع ، هو انشاء دولة غريبة ، اي ان تكون اسرائيل دولة غريبة وسط العالم العربي · لكننا نلاحظ ان نسبة اليهود الشرقيين الى مجموع اليهود في اسرائيل هي حوالي ٦٥ ٪ · على ضوء هذا الواقع، كيف يمكن تقييم المشروع الصهيوني ؟ ما هي علاقته بالاستعمار والامبريالية ؟ لماذا فشل في استقطاب اليهود الغربيين ، الذي يدعي بانهم اصحاب مصلحة في القدوم الى فلسطين ؟

● المشروع الصهيوني ، هو مشروع استعماري غربي · واليهود الشرقيون، هم اول ضحايا هذا المشروع · تاريخيا ، كان قورش هو اول من فكر في اقامة دولة يهودية ، لخدمة اغراضه التوسعية · فلقد اراد اعادة سبايا بابل الى فلسطين عام٥٣٩ ق·م· من اجل ان يبني حاجزا بينه وبين المصريين · فادعى أنه رأى في منامه ملاكا ، قال له بضرورة اعادة سبايا بابل الى فلسطين · لكن عمليا، لم يعد احد سوى بعض الفقراء ، الذين ارادوا البكاء على حائط المبكى · ثم طرح نابليون المسالة بعد فشله في بلادنا · معتبرا ان وجود دولة يهودية في فلسطين ، تؤمن له طريق الهند · لكن مشروع نابليون لم ير النور · وقد ظلت الفكرة قائمة ، وانتقلت من الدوائر الفرنسية ، الى الدوائر البريطانية والاميركية في آن واحد · فالاستعمار البريطاني ، بعد انتصاره على محمد علي وطرده له من سوريا ، تبنى مشروع اقامة دولة يهودية ، لمواجهة احتمالات قيام دولة قوية موحدة في الشرق العربي · عرض المشروع اولا على مونتيفيوري* ، الذي رفضه لان ـ اليهود يعيشون في اوروبا ، فهل من المعقول مغادرة اوروبا

---

* مونتيفيوري : يهودي بريطاني ثري · ابدى اهتماما ملحوظا باوضاع اليهود في فلسطين ، وزارها سبع مرات · ساعد يهود القدس على بناء مساكن لهم ، وتحسين اوضاعهم الاقتصادية · وكان اول من ارسى حجر الاساس للقدس اليهودية ، خارج اسوار البلدة القديمة ·

** احد المبشرين الانجليز في فلسطين · كان ملحقا في كنيسة المسيح في القدس ، وراعيا للكنيسة الانكليكانية في القدس ، لـه عدة مؤلفات اهمها : فلسطين المعاد اعمارها Palestine Repeopled لندن ١٨٨٧ وفلسطين المكتشفة Palestine Explored

والذهاب الى الصحراء ، خاصة وان هذه الدولة سوف تكون تحت السيطرة العثمانية - · بقيت الامور كذلك ، حتى مجيء هرتزل ، وتاليفه كتابه « الدولة اليهودية » · ومن الملفت للنظر ، ان هرتزل ، كان يكتب قبل عامين من تأليف هذا الكتاب ، عن نجاح حركة اندماج اليهود في المجتمعات الغربية ·

جيمس نيل ** ، قال عام ١٨٧٥ ، اي قبل ان يفكر هرتزل بمشروعه الصهيوني، باننا ، اي الانجليز لا نستطيع ان نستعمر سوريا وفلسطين ، كما استعمرنا اميركا ، لاسباب عديدة · كالمناخ وعدم توفر الحماية الخ ·· ، انما يستحسن ان نأتي باليهود ·

هكذا يتضح لنا ، ان مشروع اقامة دولة يهودية في فلسطين ، هو مشروع استعماري في اساسه ·

اما الدور الاميركي ، فقد بدأ عام ١٨٤٠ ، حين بدأت اميركا ، ترسل البعثات التبشيرية من طوائف محددة : السبتية ، المعمدانية ، شهود يهوه ، وكلها تبشر بالعهد القديم ، وببعث دولة اسرائيل · وقد وصل الامر بقنصل اميركا في القدس ، الى اعتناق اليهودية عام ١٨٤٠ ، وبدأ يساهم في اقامة المستعمرات من « ماله الخاص » · ومن المساعدات المالية التي كانت تأتيه من الخارج · وبعد الحرب العالمية الثانية ، اصبحت اسرائيل تعتمد اساسا على دعم وتبني الولايات المتحدة لها · فكما يصرح اكثرية الزعماء الاميركيين، فان وجود اسرائيل قوية، هو مصلحة حيوية اميركية · وعندما صدر قرار ادانة الصهيونية بالعنصرية ، اعلن غولدبرغ ، بان هذا القرار ، يضر بالمصالح الاميركية · وعلى كل زعيم اميركي غير يهودي ، ان يعلن بانه صهيوني · لقد رسم المشروع الصهيوني كمشروع اوروبي وغربي · لكنه فشل في جذب اليهود الغربيين · فجاء باليهود العرب ، كي يشكلوا الشريحة الاجتماعية الدنيا ، التي تنهض باعباء الانتاج والحراسة · معظم المستعمرات الحدودية ، يسكنها يهود شرقيون ، يمنيون ، عراقيون ومغاربة · **فاليهود العرب هم الحاجز الامني الغربي في المنطقة** · بينما يعيش معظم اليهود الغربيين في المدن ، حيفا ، تل ابيب ، القدس الخ ·· ، تخشى السلطة الاسرائيلية من تنامي قوة وعدد اليهود الشرقيين ، **لانها تخشى من تحول اسرائيل الى دولة « شرق اوسطية »** · فلغة وتراث اليهود الشرقيين، هي جزء من تراث المنطقة العربية · وهذا ما كان بن جوريون يشير اليه دائما ، عندما كان يهاجم في الخمسينات ، اليهود الاميركيين ، لانهم لا يهاجرون الى اسرائيل · فالذي يخشاه بن غوريون ، هو تحول الدولة ، من دولة غربية الى مجرد دولة « شرق اوسطية » ·

□ من الواضح تاريخيا ، ان بؤر اللاسامية كانت في اوروبا · روسيا القيصرية او المانيا النازية الخ· ، واذا كانت اسرائيل تشكل حلا لمسألة اضطهاد اليهود في العالم ، فالاولى ان تستقطب اليهود الغربيين الذين اضطهدوا · لماذا فشلت

الصهيونية ، في استقطاب اليهود · وفشلت في بناء مجتمع متماسك ، حتى اصبح الكثير من اليهود ، يشعرون انهم لاجئون في اسرائيل ؟

● في القرن التاسع عشر ، والنصف الاول من القرن العشرين ، كان هناك فعلا ، اضطهاد لليهود في الدول الغربية · لكن نتيجة الحركات الثورية ، والتحولات الديمقراطية ، فان موجة اضطهاد اليهود ، والعداء للاسامية بدأت تتراجع او تختفي · **الصهيونية ، جاءت من اجل تحريك الاضطهاد ، ولم تأت لحماية اليهود ·**

يقول هرتزل ، سيتكفل اللاساميون بتدعيم الهجرة · من اجل ان يهاجر اليهودي الى فلسطين يجب ان يكون مضطهدا · واذا لم يكن مضطهدا نضطهده · لقد عملت الصهيونية على اضطهاد اليهود ، لان المشروع الصهيوني لا يستطيع ان يستقطب انسانا مندمجا · تذكر المصادر الصهيونية ، انه في ليلة واحدة ، بدأت عملية اضطهاد اليهود في جميع انحاء روسيا القيصرية · الصهيونية ، لم تأت كي تحل مشكلة اليهود ، بل خلقت لهم مشكلة · الان ، لا وجود للاسامية في اوروبا او اميركا او الاتحاد السوفياتي ، لذلك لا وجود لهجرة يهودية الى اسرائيل · اما هجرة اليهود السوفيات فلها اسباب اخرى اقتصادية في جوهرها · **فاليهودي لا يهاجر الى فلسطين شوقا الى صهيون ، والدليل ان اكثر من ٦٠ ٪ من اليهود السوفيات ، لا يكملون الطريق من فيينا الى مطار اللد ، رغم ضغط وملاحقة عملاء الوكالة اليهودية · بل يرغبون في السفر الى اوروبا ، حيث تأتي (هياس*) وتساعدهم على ذلك · اليهودي السوفياتي المهاجر ، قد يكون فنانا ، او مهووسا ، او صرافا يتاجر بالعملة الصعبة · وعندما يصل الى اسرائيل ، يتمنى العودة الى الاتحاد السوفياتي ، لان الحياة في اسرائيل بالغة السوء · ومن هنا ، يأتي شعوره بأنه لاجىء في فلسطين ·من هو اللاجيء:**

---

* جمعية مساعدة المهاجرين اليهود · وهي جمعية يهودية غير صهيونية تهتم اولا بالمحافظة على اليهودي كيهودي · وتسعى الى توطين اليهود في اي مكان من العالم ، وليس بالضرورة في اسرائيل ·

** اختارت الحكومة السوفياتية ، منطقة استيطان ، واسعة المساحة ، قليلة السكان وذلك عام ١٩٢٨ · وهي منطقة بيربيدجان على ضفاف نهر آمور بالقرب من الحدود الصينية · وفي ٧ ايار ١٩٣٤ ، اعلنت مقاطعة بيربيدجان كمنطقة يهودية ، تغطي مساحة ٣٦ الف كيلومتر مربع ، على ان تكون اللغة الرسمية في تلك المنطقة هي لغة اليديش · وفي اب ١٩٣٦ جمدت السلطة اليهودية التي كانت تمسك بزمام الامور في تلك المقاطعة · وكان من نتيجة ذلك ان بدأ الطابع اليهودي المسيطر على تلك المنطقة بالانهيار · تبلغ الان نسبة السكان اليهود فيها ٨ر٨ ٪ وهم يشكلون ٦٦ر٠ ٪ من يهود الاتحاد السوفياتي·

اللاجىء هو الانسان الذي لا يشعر بأنه مواطن في البلد الذي يقيم فيه · بل تشده الروابط العاطفية والمادية والتاريخية الى بلده الاصلي الذي عاش فيه مئات السنين · يأتي المهاجر الى اسرائيل ، فيجد شعوبا تتكلم تسعين لغة ، لها مئة لون ، جاءت من مئة دولة · فكيف يستطيع التفاهم معها · لا يوجد اي رابط سوى الدين · وحتى الدين ليس رابطا حقيقيا · يقول احد اليهود المهاجرين من اسرائيل : « انا هارب من اسرائيل ، لان الحياة اليهودية متوفرة في اميركا، اكثر مما هي متوفرة في اسرائيل » ·

حتى هذه الرابطة الواهية ، الدين ، التي احضر اليهود على اساسها ليست متوفرة بشكل حقيقي · فكيف لا يشعر اليهودي بانه لاجىء ، وانه انتقل من غيتو الى غيتو جديد ، اشد اغلاقا ، واكثر جلبا للكراهية والعداء ·

□ هل فشلت الصهيونية ، في اقامة علاقة بين اليهودي والارض ؟

● اود اولا ، ان اعود الى تجربة الاتحاد السوفياتي ، في اقامة دولة قومية يهودية في بيربيدجان ** ، لقد كتب الصحفي الاسرائيلي دان بن عاموس، يقول ، « كان لنا تجربة قبل الفي سنة ، ولكنها فشلت ، وهي تجربة المملكة الاولى · ثم اقام لنا الاتحاد السوفياتي دولة في بيربيدجان ولكنها فشلت ايضا لاننا لا نستطيع ان نكون الا من اصحاب الياقات البيضاء » · ثم يدعو الى اندماج اليهود في المجتمعات المختلفة ، ويقول ، « لو كنت صغير السن لسافرت الى نيوزيلنده ، واندمجت هناك · ولكن يبدو انه كتب علي ان اعيش المسادا اليهودية » ·

يقول غوردون* ، ان الشعوب الطبيعية ، هي التي يكون العمل اليدوي بالنسبة لها طبيعة ثانية · فالحياة اليهودية ، اذا استمرت في فلسطين ، كما كانت عليه في الغيتوات ، فستكون النهاية سيئة · لا بد من العمل في الارض من اجل خلق اليهودي الفلاح ، واليهودي العامل · لان من يملك العمل يملك الارض · طبق بن غوريون ، في اوائل القرن ، هذه النظرية بشكل كامل · كان يصر على العمل العبري الكامل في المستوطنات · وقد نجحت الصهيونية في البداية ، في تطبيق العمل العبري · والذي ساعدها على ذلك ، هو الهجرة اليهودية الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) ، التي كانت تتألف عناصرها من شباب اعمارهم بين ١٥ ـ ٢٠ سنة ، وكانوا منفردين غير متزوجين ، وبدون اقارب · ولكن كما قال غوردون ، فاننا نبدأ بالعمل اليدوي تمهيدا للانتقال الى عمل اخر· يلاحظ مثلا ، ان الهجرة الرابعة ، لم تكن كالثانية · كانت تتألف من عائلات هاربة من الاضطهاد النازي ، ولم تكن مهيئة للعمل في المستوطنات ، فاقامت

---

* غوردون ، احد زعماء ومفكري الجناح العمالي الصهيوني ·

في المدن · لقد ساعد العدد الكبير من الاطفال حوالي ١٤٠ الف طفل ، الذين جيء بهم في الهجرات الصهيونية الى فلسطين ، على تثبيت مبدأ العمل العبري · وهذا يذكرنا بالجيش الانكشاري الذي اقامه سلاطين بني عثمان · عام ١٩٤٨ ، لم يكن عدد سكان اسرائيل يتجاوز ٦٠٠ ـ ٦٥٠ الف نسمة ، وهذا العـدد لا يكفي لاقامة دولة · فجاءت صفقة اليهود العرب وحلت المشكلة · هناك ازمـــة دورية كل عشر سنوات ، وهي تنجم عن نضوب الهجرة · فقبل عام ١٩٥٦ كان هناك ازمة اقتصادية خانقة · وقبل حرب ١٩٦٧ كانت اسرائيل تعاني ازمـــة اقتصادية نتيجة نضوب الهجرة · وبعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غـــزة ، استطاعت اسرائيل ان تحل ازمة نقص اليد العاملة ، عبر استخدام العمـــال العرب · لا وجود للهجرة ، والواقع الاسرائيلي يدفع القوى المنتجة الى مواقع الخدمات ، لذلك وصل عدد العمال العرب الى حوالي ١٢٠ الف عامل · وهنا اصيبت نظرية العمل العبري بشرخ كبير · هناك ضجيج في اسرائيل وتساؤلات، حول اراضي الكيبوتسات والمستوطنات التي تؤجر للفلاحين العرب عن طريق المحاصصة · فعلى المدى البعيد ، سوف يشعر العامل العربي ان هذه الارضـ له · وبالتالي يتوقف مالك الارض ، الذي يكتفي بتسلم الانتاج ، عن التعامـل مع الارض · اي ان الصلة بين المهاجر اليهودي والارض سوف تزول · من اجل ايقاف هذا الاتجاه ، اصدر الكنيست قانونا ، بمنع تأجير الارض للعرب · تذكر الاحصائيات ، ان ٧٠ ٪ من مزارع عسقلان وما حولها ، يعمل بها عمـــال عرب· بالاضافة الى مناطق المثلث والشمال والجنوب · وبالاضافة ايضا الى عمـــال المصانع ، ما عدا صناعة الاسلحة ، حيث يتزايد عدد العمال العرب باستمرار · الدوائر الاسرائيلية في حيرة حقيقية · فقد كتب احد الصحفيين ، تعليقا علـى قرار الكنيست بمنع تأجير الارض للعرب يقول ، ماذا كان باستطاعتنا ان نفعل ، لولا الهبة الالهية التي ارسلت لنا ، من خلال العمال العرب ، بعد انحســـار الهجرة · ومن هنا نلاحظ ان الصهيونية فشلت في اقامة علاقـــة بين اليهودي والارض ، وهذا ماتنبأ به غوردون نفسه حين قال : عندنا ميل لاحتقـــار العمل اليدوي لدرجة أن اولئك الذين يقومون بمثل هذا العمل يقبلون ذلك مضطرين على أمل ان يهربوا منه الى حياة افضل ·

المهم ، بالنسبة لنا كثورة فلسطينية ،هو ان نعي الحقيقة الاسرائيلية الجديدة، التي تتمثل في انحسار العمل العبري ، والحاجة المتزايدة الى العمل العربي ·

☐ لاحظنا ، ان اسرائيل ، كانت تلجأ الى الحل الكلاسيكي : الحرب ، من اجل التخلص من ازماتها : الازمة الاقتصادية ونضوب الهجرة · تعيش اسرائيل الان ، اسوأ ازماتها على جميع المستويات · فهل تتوقع ان تلجأ اسرائيل الى خيار الحرب ؟

● انني اعتقد ، ان اسرائيل لا تستطيع التحرك دون موافقة اميركية · هناك

نموذج اخر ، غير نموذج الانسحاب من غزة وسيناء بعد حرب ٥٦ الذي اشرنا اليه · يذكر دايان ، في كتاباته ، انه نتيجة الضغوط الاوروبية الشديدة ، اقتنع بضرورة تنفيذ اقتراح الرئيس السادات بفتح قناة السويس عام ١٩٧١ · وقبل ابلاغ المصريين بالموافقة ، جاءت تعليمات واشنطن بعدم الانسحاب · ويعقب دايان قائلا ، لو وافقت اميركا على قرار الانسحاب لتجنبت اسرائيل حرب تشرين · كما يذكر وزير المالية الاسرائيلي ، بانه لو خفضت الولايات المتحدة ، مساعداتها السنوية لاسرائيل وهي حوالي ٥٠٠ مليون دولار فقط ، لافلست · تقدم الولايات المتحدة كل شيء لاسرائيل ، من الدعم السياسي في المحافل الدولية الى السلاح المتطور ·

اذا عدنا الى الاتفاقية الاقتصادية الاميركية ـ الاسرائيلية ، التي عقدت عام ١٩٥٥ ، لوجدنا ان الولايات المتحدة تزود اسرائيل بالمصانع الحربية والخبراء، ثم تشتري السلاح الاسرائيلي · وهذا ، ليس لان اميركا ، التي تبيع السلاح الى ثلاثة ارباع دول العالم ، بحاجة الى السلاح الاسرائيلي ، ولكن حتى يشعر الاسرائيليون ، انهم ينتجون ، وليسوا فقط ، مجرد حراس مسلحين للمصالح الاميركية في المنطقة · كتب الصحفي الاسرائيلي حاجاي ايشد : « نحن كلب حراسة حاد الاسنان ، مربوط بسلسلة طرفها بيد الولايات المتحدة · تطلقه متى تشاء وعلى من تشاء » ·

تقدم الولايات المتحدة جميع اصناف المساعدات للكيان الصهيوني · لكنها لا تستطيع ان تقدم له الحياة البشرية · لقد استغلوا كل شيء ، النازية · الضغط على الاتحاد السوفياتي ، الضغط على رومانيا ، **لكنهم لا يستطيعون في النهاية** خلق اليهودي الراغب في الهجرة الى اسرائيل ·

لقد فقدت اسرائيل ، الكثير من دورها في المنطقة · **فقدت دورها الافريقي بشكل نهائي** · فبعد ان كانت الدولة التي تقدم المساعدات التقنية للدول الافريقية، في الوقت الذي كان يصور فيه العرب على انهم متخلفون و « تجار عبيد » ، انقلبت الآية الان راسا على عقب ·

اما احتمال لجوء اسرائيل الى خيار الحرب · فانني اقول ، **انه اذا كانت عقدة مسادا ، لا تزال تتحكم في اليهود** ، فانا لا استبعد اللجوء الى الحرب · **لكن هذه الحرب ستعجل في نهاية اسرائيل** · ماذا تستطيع اسرائيل ان تفعل · هل ستكرر حرب ٦٧ ؟ فالعرب قادرون على استعادة قوتهم بعد سنوات قليلة · هل تحتل اراضي جديدة ؟ هذا يعني انها بلعت منجلا جديدا · انني اعتقد ، ان الولايات المتحدة ـ اذا كانت جادة في التوصل الى تسوية ـ فانها تستطيع فرض ذلك على اسرائيل ·

□ **دعنا نتصور شكل اسرائيل بعد التسوية · او الشكل الذي ستاخذه اسرائيل في حال التوصل الى السلام ·**

● هناك كتاب فرنسي اسمه « اسرائيل تنتهي بالسلام » · اذا حدث السلام ، فان فكرة التوسع الاسرائيلية تنتهي ، وتنتهي معها الهجرة · كما ينتهي العطف على اسرائيل في الخارج · لقد ارسلت الجالية اليهودية الاميركية ، الحاخام شندلر ، ليقول ان الجالية اليهودية الاميركية ، معرضة للانقسام ، في حال رفض اسرائيل للتسوية ·

انني اعتقد ، ان اسرائيل ترفض التسوية اساسا · وهي في مازق · القبول بالتسوية مازق ، ورفضها مازق اخر · لذلك ، **فعلينا نحن العرب ان نتصلب ، لان الازمة هي في الطرف الاسرائيلي اما نحن فنستطيع ان ننتظر ·**

□ **ولكن الا تعتقد ان هذا الشعور ، لا يعمق ازمة اسرائيل ، ولكنه يسهل التنازل العربي ؟**

● لا اقصد ذلك · ولكن نحن العرب لسنا مستعجلين الى درجة تقديم التنازلات · نستطيع الانتظار بالنسبة لسيناء والجولان · اما نحن الفلسطينيين، فقد انتظرنا ثلاثين سنة ، ونستطيع انتظار خمس سنوات اخرى · المأزق هو في

الطرف الاميركي · وهذا يعني ، ان تصلبنا ، سوف يعطينا شروطا افضل · لقد اصبح الشعب الفلسطيني مشكلة اسرائيلية داخلية · الازمة ليست ازمتنا · انها ازمتهم · اذا صبرنا ، وتصلبنا اكثر ، فاننا سوف نشهد الانهيار الاسرائيلي ، الذي يجبر اميركا على تقديم تنازلات اكثر ·

ليس لدي قناعة ، بان اسرائيل قادرة على التصرف خارج الارادة الاميركية ·

□ **حول موضوع الحرب · يبدو ان القرار الاسرائيلي في يد اميركا · وموقف اميركا يحدده مدى صلابة الموقف العربي وفاعليته ·**

● انني اؤيد هذا المعادلة · الموقف الاسرائيلي هو بيد اميركا ، وملامح الموقف الاميركي تحددها الصلابة العربية · يقول الاميركيون مثلا ، ان الدولة الفلسطينية هي قضية عربية · يجب ان يتبلور الموقف العربي لكي تسحب هذه الذريعة من يد اميركا · وكذلك مسالة مؤتمر جنيف ·

□ **الموقف الاميركي ، يؤثر على الحرب والسلم في المنطقة · الا تعتقد ان نمو القوى العربية الذاتية ، وبالذات العسكرية ، سوف يضيق خيارات الحرب على اسرائيل والولايات المتحدة ·**

● المشكلة هي في عدم توازن السياسات العربية · اذا كان بعض الانظمة

صديقا للولايات المتحدة فان ذلك يعني العداء المطلق للاتحــاد السوفياتـــي ، والعكس ايضا · لقد اخطأ المصريون بخسارة السوفيات ، مقابل العلاقة الجيدة مع الولايات المتحدة بعد حرب تشرين · اذ خسروا مصدرا اساسيا من مصــادر قوتهم العسكرية والسياسية ·

□ اذا اردنا ان نقيم خلاصة الموقف الاسرائيلي الحالي ، نلاحظ انه موقف يائس · وهنـــاك حالة مسادا ـ ما مدى خطورة هــذا الياس · هل يمكن توقع اللجوء الـــى حل انتحاري ، كاستخدام السلاح النووي ؛

● ما هي نتيجة استخدام السلاح النووي · انها الانتحار · يستطيعـــون تدمير مدينة عربية ، لكن اسرائيل تنتهي ·

لقد خلقت الصهيونية مشكلة لليهود · ومن واجبنا العمل على حلها · بمعنى ان يسمح للانسان اليهودي بوصفه انسانا ، ان يختار مكان اقامته وشـــروط حياته بشكل حر · الذي يفضل الحياة في أوروبا يسمح له بذلك · الذي يريـد العودة الى البلاد العربية نساعده على ذلك · اما افضل حل ، فهو القبـــول بالعيش في دولة فلسطين الديمقراطية · هذا هو الحل الامثل ، الذي يحقـــق الاندماج · ويزيل البؤر العنصرية من منطقتنا ·

لا حل للمشكلة الصهيونية · وهناك اكثر من حل للمسالة اليهودية ·

[شهادات]

وداعاً... إسرائيل

مهاجر يهودي سوفياتي حقق حلمه الصهيوني وصار « مواطنا اسرائيليا » ، وعلى ارض الواقع ادرك ان الحلم الصهيوني خيانة ، فحمل الخيبة واليأس ورحل الى باريس ليشهد على ان اسرائيل هي اناء مهشم لا يمكن ترميمه ، وهي الى زوال قريب ٠

اسم الكاتب افرايم سيفيلا ٠ ولد في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٨ في مدينة بوب رويسك ٠ درس الادب في جامعة مينسك ، وعمل صحفيا في جريدة فيلا ـ ليتوانيا مدة سبع سنوات ٠ ثم اقام في موسكو وعمل في الاخراج السينمائي ٠ في عام ١٩٧١ هاجر الى اسرائيل ٠

سجل تجربته السوداء عن الحياة في فلسطين المحتلة في كتاب بعنوان « وداعا يا اسرائيل » [صدر في باريس في نيسان ـ ابريل الماضي] ٠ الفصل الذي ننشره هنا هو الفصل الخامس من الكتاب ، وهو يتناول التركيب الداخلي للتجمع اليهودي وعلاقات الطوائف اليهودية المتناحرة ٠

« لا يمكن اعادة ترميم اناء مهشم » ، مثل رددته الحكمة الشعبية باصرار طوال قرون ، ويبدو ان جميع المحاولات التي اقيمت لبرهنة عكس ذلك بقيت دون جدوى ٠

وجود اسرائيل بحد ذاته هو محاولة يائسة لمكافحة هذه الحقيقة المقررة ٠ ان الدولة اليهودية في فلسطين اناء مهشم ، يتشكل من ثمانين جزء من مختلف الاحجام ، هي عبارة عن البلدان التي رأت اولاد اسرائيل تهاجر منها نحو صهيون ٠ وهي اناء مبرقش يحمل حروفا ظاهرة تجف بسرعة ، وتخلق تشققات خطيرة ٠

من الصعب احيانا فهم ما يجمع بين هؤلاء البشر المختلفين هذا الاختلاف والمتأثرين خارجيا وداخليا ، في لحمهم ودمهم بالخاصيات القومية والعنصرية والعرقية للشعوب التي عاشوا وسطها خلال قرون ·

من النموذج الكلاسيكي القادم من الثورات الى الرجل المتأصل في اليمن الصحراوية ، حيث البشرة الكامدة اللون والانعكاسات البرونزية ، والعينان السوداوان كحجر اليمان ، الى اليهودي الليتواني ذي العينين الزرقاوين والانف الخانس والشعر الاحمر · من المستحيل التمييز بين يهودي من جورجيا وجيورجي حقيقي · وانا الذي امضيت كل حياتي في الاتحاد السوفياتي لا ازال استغرب حين يعترف لي احد سكان تبليسي او كوتايسي في عارض من الصدق ، بانه هو ايضا يهودي · لا ازال اجهل ما هو الفرق الخارجي بين يهودي من بوخارا واي مواطن آخر من آسيا الصغرى ، من تادجيك او من اوزبكيستان مثلا · اليهود الالمان الذين هربوا من هتلر في الثلاثينات ، واسسوا مدينة نهاريه شمالي فلسطين يعيشون حتى الآن في بيئة اجتماعية مغلقة ، معظمهم لا يتقن العبرية بعد ، بل يستخدمون اللغة الالمانية ويقدسونها اكثر من الالمان انفسهم · في ديمونا ، جنوبي اسرائيل ، نرى الحسناوات الشرقيات السمراوات البشرة ، يلبسن الساري ذا الالوان الفاقعة ، وقد رسم على جبهتهن نقطة حمراء ، ووضع على ارنبة الانف ـ وليس في شحمة الاذن ـ ماسة صغيرة جدا · انهن ايضا يهوديات اصلهن من الهند او من باكستان · اما اليهود المغاربة ، فيشبهون العرب ·

فما هي اذا العلاقة بين بشر على هذا الحد من التباين ؟ لماذا يعتبرون انفسهم يهود طيبين ؟ ويجب الا ننسى ان خمس عدد سكان اسرائيل فقط هو مؤمن · لذلك لا يمكن ان يكون الدين هو القاسم المشترك ·

يؤكد الفيلسوف الفرنسي الوجودي ، جان بول سارتر في كتابه « تأملات حول المسألة اليهودية » ان اليهود لايشكلون مجتمعا حتى الان الا بفضل الضغوط الخارجية : « ان الرابط الوحيد الذي يحافظ على وحدتهم هو الازدراء العدواني الذي يكنه لهم باقي الشعوب»· عدد كبير من الباحثين في اسرائيل وبين يهود الدياسبورا (المنفى) لايشاركون الفيلسوف الفرنسي رأيه ابدا · يفسرون على طريقتهم الخاصة بقاء هذا الشعب الذي لم يبد خلال الوف السنين ، بينما لم يبق من الشعوب المزامنة المجاورة الا رماد تاريخي ، واشارات عابرة في المخطوطات · ليس موضوعي التدخل في هذا النقاش بل اريد فقط ان اقدم لكم نتيجة تجربتي وملاحظاتي الشخصية · واعترف بان جان بول سارتر هو على حق بكل اسف ·

نحن مرتبطون ، مضغوطون بعضنا على البعض الاخر ، بفعل احتقار وكره من حولنا · جمعنا الخطر المشترك الذي يهددنا ، وأقلعنا عن ارادتنا في الاندماج لنشكل كتلة واحدة مدموغة بخاتم كاهين وكراهية الذين حولنا · اكتشفنا اننا يهود وحملنا هذا الصليب ، لان كل موقف آخر ، كان مستحيلا ·

ان الواقع الاسرائيلي ، هذا الخليط المخيف من اللغات ، ومن الناس ، الذين غالبا ما كانوا في تعارض تام : ما يسمى بالشعب اليهودي ، الذي جمع في وطنه القديم انطلاقا من أجزاء مشتتة ، يشهد ايضا على حقيقة نظرية الفيلسوف الفرنسي الاكيدة ·

اذا توقفت الدول العربية عن تهديداتها ، وعقدت صلحا مع اسرائيل ، فانني مقتنع

ان هذا البلد لن يتحمل الاستقرار وسينهار تحت تأثير الانفعالات الداخلية المتصارعة والمدمرة · يتشظى الى اجزاء صغيرة كثيرة · تلك التي اعتمد عليها عندمانشيء بشكل غير متقن ·

لا فائدة من محاولة اعادة ترميم اناء مهشم · فالشظايا التي يعاد ترميمها لا تشتبك ، والنتوءات تتصادم · في اسرائيل ، من الصعب منذ الآن اخفاء العدوانية الكامنة والكراهية ، والتنافر الموجود بين مجموعات اليهود العنصرية المختلفة · فاليهود القادمون من بلدان عديدة ، والذين هم اليوم فيديارهم ، على ارضهم ، في بلدهم ، هؤلاء الذين اضطهدوا خلال قرون بسبب اصلهم اليهودي ، يتجابهون بكراهية ، مستخدمين في حربهم الاهلية ، الحجج والبراهين نفسها التي استعملها مضطهدوهم من قبل ·

« البذرة الانسانية ، مهما كانت سليمة ، وايا كانت درجة الصهيونية التي تحملها ، محكوم عليها بالتلف ، اذا زرعت في هذه الارض المسممة بالكراهية التي يحملها كل يهودي تجاه اليهودي الاخر » · هكذا اعلن المهاجر السوفياتي اي· يودين عن اكتشافه المدهش في جريدة « تريبون » ★ · ويسجل مواطنه السابق ليونيد جلفند في الجريدة نفسها : «في اسرائيل ، يتعايش اليهود بشكل سيء جدا · وهم على استعداد دائم للاساءة الى بعضهم البعض ··· في اسرائيل ، لا تستعمل كلمة « يهودي » دون ان تردف بـ « يهودي روماني ، يهودي مغربي ، يهودي روسي ، يهودي جيورجي الخ » · او حتى ، يستغني عن استخدام كلمة « يهودي » فيقال : « لص روماني » « سكير روسي » ، اما اليهود الاتراك فلا اتجرأ على كتابة ما يقال عنهم في اية جريدة ·· احيانا اسمع هذه الصفة : « وجه الاكول الاسود » · وهذا اللقب العنصري المعيب يستخدم لوصف يهود آسيا وافريقيا ·

« ذات يوم ، تشاجر ابني مع احد اولاد الجيران · وعندما رأتني امه على الدرج · بصقت في وجهي وقالت لي : انتظر قليلا ، سنخنقكم جميعا قريبا » ·

هكذا ، وبشكل مؤذ ، يتشقق الوعاء الذي الصق بلعاب الصهيونية · والتوتر يسود مختلف المجموعات العنصرية بين سكان اسرائيل اليهود ، رغم ان الرسميين بحوا حناجرهم وهم ينكرون وجوده · وردة الفعل الرسمية الاولى بعد جريمة مغدال ــ هعيمك السيئة الصيت كانت مواصلة نفي اي طابع عنصري لهذا العمل ·

هذا ما حصل : في بلدة صغيرة من الجليل حيث يعيش اساسا مهاجرون من المغرب ، اقام خلال السنوات الاخيرة اليهود الروس وكانت العلاقات بين الطائفتين حرجة للغاية · وفي مساء ذات يوم بينما كان الشباب الروس مجتمعين بمناسبة عيد ، هجم بعض « المغاربة » · قتل اثناء المشاجرة شاب من ريغا : كان قد وصل حديثا الى اسرائيل وهو في الخدمة العسكرية ، جاء بمأذونية ليرى والدته · اثارت هذه الجريمة موجة شغب ادت الى نزول مئات المهاجرين فياليوم التالي الى الشوارع ، مغاربة وروس ، وقد حملوا ما

★ جريدة « تريبون » (المنبر) هي احدى الجريدتين الصادرتين باللغة الروسية في اسرائيل ــ الثانية هي جريدة « نوتر بيي » (بلدنا) وكانت تكشف عن بعض الاستقلالية في الرأي ولذلك عطل نشرها · (المؤلف ، الفصل الثالث : دروس في الديموقراطية · صفحة ٨٩) ·

توفر لهم من أسلحة . وشابهت هذه الظاهرة المذابح القيصرية الى حد اضطرت فيه السلطات الى ارسال قوات جديدة من الشرطة لتفصل بين العصبتين اللتين تملكتهما الكراهية .

هذا الحادث ليس فريدا من نوعه بل كثير الوقوع واذا اندهش له القادمون الجدد ، فقد اعتاد عليه ساكنو البلاد القدامى . المهاجر الروسي ليون كاغان بعث بهذه الرسالة المرة اللهجة الى جريدة « تريبون » . كان الجميع يقضي وقتا طيبا في اسرائيل ليلة عيد « الاستقلال » . واجتمع عدد كبير من المهاجرين في نادي حوشي لتمضية يوم العيد الخامس والعشرين بابتهاج . ذهب ابني . كان الجميع مرحا ولم يتوقع احد امكانية حصول اي حادث . غير ان هذا ما حصل .

جاء ازعر مغربي وتحدى ابني فبصق في وجهه . ضربه ابني جوابا على ذلك . لكن اصدقاء المغربي كانوا في انتظار رد الفعل هذا . فهجموا عليه وضربوه بهمجية . ضربوه بالزجاجات ، ركلوه على وجهه وهو ملقى على الارض . وفر جميع الزعران المغاربة بعد الاعتداء .

كيف يمكن تفسير موقف الناس الذين اكتفوا بمراقبة انسان بريء يضرب بشدة ؟ لم يسع احد ولو الى الفصل بين المتقاتلين . رجع ابني داميا ، ثيابه ممزقة . انف مكسور وعينان متورمتان ، واثار الضرب بالزجاجات والركلات تغطي جسده . الجسد يشفى ولكن هل تشفى روحه وروحنا ؟ هل كان في وسعنا ان نتخيل ونحن في الاتحاد السوفياتي انه سيتم استقبالنا بمثل هذا البغض ؟

في اليوم التالي ، اتى بعض الجيران مهنئين ابنى بنجاته من الموت . « انه سعيد الحظ لانه بقي على قيد الحياة . اذ كان بامكان المغاربة قتله . ولن يلقى القبض عليهم ».

هبات الكراهية العنصرية تهز اسرائيل . فما ان هدئت النفوس في ميغدال ــ هعيمك حتى كادت الدماء تسيل بغزارة في آشود . السبب هو تسريح مهين ، دون اي مبرر ، لعشرات الحمالين الجيورجيين في المرفا . ترك هؤلاء الرجال وعائلاتهم دون اية وسيلة للعيش . وحين طرقوا ابواب المؤسسات المختلفة ، سعيا وراء المساعدة ، وهم الذين يجهلون لغة البلاد وعاداتها ، لم يستمع احد اليهم . عندها ، اعلن اليهود الجيورجيون الاضراب امام مركز بلدية اشود . انضم اليه ، النساء والاطفال . هكذا ، وامام عيون الجميع . وتحت شمس محرقة ، بقي هؤلاء البشر اياما واياما دون تناول الطعام . فهل اثارت معاناتهم شفقة اليهود ؟ على العكس . اخذ سكان المدينة ، وهم يهود ايضا ، لكنهم اتوا من بلدان اخرى : المغرب ، العراق ، بولونيا ، هنغاريا ، اتوا الى اسرائيل من أجل اهداف تختلف عن اهداف مواطنيهم الجيورجيين ومنذ مدة بعيدة ، اخذوا يستهزئون بهم ويسخرون بصوت عال من الامهم دون التردد في استخدام نعوت جارحة وشائنة لا يتجرأ اي معاد للسامية ان يتلفظ بها .

عندئذ حصل الانفجار ، فطبع الجيورجيين المتحمس وشعورهم كطائفة منكمشة على نفسها ، دفعت بجميع اليهود الجيورجيين دون استثناء الى الشوارع : اقيمت المتاريس ، حطمت واجهات المتاجر وساد المدينة جو من المذابح التي تضع اليهود في مواجهة اليهود هذه المرة . ساد الرعب سكان المدينة القدامى ، فطالبوا بانزال القوات المسلحة لتهدئة هؤلاء « القوقازيين القذرين » بالقوة .

انضمت الصحف نفسها الى الجوقة العنصرية مطالبة بالدم اليهودي الجيورجي ، ولولا شخصية وزير النقل هـ · بيريز اللبقة لحصلت مجزرة مخزية · وقد بقيت الصحف وقتـا طويلا دون ان تغفر له حرمانها من هذه اللذة ، مواصلة تحريض قرائها معلنة دون هلع ان الجيورجيين سيذبحون اسرائيل بكاملها ، لشعورهم بقدرتهم على الافلات من العقاب ·

هذه الدولة الصغيرة التي تختنق في جوار عدائي ، منقسمة الى عشرات الطوائف المتأثرة جغرافيا ببلدانها الاصلية · والعلاقات فيما بينها بعيدة كل البعد عن الودية · لا يزال يهود إسرائيل ، يعيشون في مدن واحياء حسب هـذا الاساس الطائفي · يعيش « البلغاريون » في يافا خاصة ، و « الالمان » في نهاريا و « الرومانيون » في مداره ، ويهود بوخارا في بات شيمش ، و « الجيورجيون » مجمعون في اللد والرملة ·

ولكن هناك تيارا اكثر اهمية وربما اكثر خطورة يقسم المجتمع الاسرائيلي الى فريقين معاديين بشكل فعال تبعا لمبدأ عنصري هو لون البشرة · هناك اليهود البيض واليهود السود ، يهود اوروبا واميركا من ناحية ، والاسيويون والافريقيون من ناحيـة اخرى · اشكنازيم وسفارديم ، حتى الدين اليهودي الاوحد ، لم يتمكـن من مد الجسور بين الفريقين · نحن اليوم في اسرائيل امام ظاهرة مذهلة : ظاهرة وجـود حاخام اكبر للاشكنازيم الى جانب حاخام اكبر للسفارديم ·

وكأن الظاهرة طبيعية ، بينما تثبت رسميا الانفصال العنصري · ها هو الشعب الذي خلق الوحدانية يرسم الان حدا شائنا امام اله واحد ، يفرق بين مواطنيه ، بين اخوانه في الدين وذلك تبعا لمعايير اعداء اليهود التاريخيين انفسهم : المعايير العنصرية ·

يشكل السفارديم الآن اكثر من نصف سكان اسرائيل ، وبما انهم ينجبون اكثر مـن الاشكنازيم ، لا بد ان يشكلوا عما قريب الاكثرية الساحقة · هذه الظاهرة تبرز خاصـة في الجيش حيث ، منذ الآن ، ثلاثة ارباع الجنود الاسرائيليين هم من عائلات السفارديم · وفي مستقبل قريب جدا ، لن يبقى اشكنازيم الا في مراكز القيادة وفي الطيران وكلاهما

يتطلب مستوى عال من الدراسات ·

يفصل العامل الاقتصادي ، الى جانب لون البشـرة ، فصـلا عميقا بين الطائفتين الاشكنازية والسفاردية ويواجههما بشكل متناقض · فالاكثرية الساحقة من الرجال الاثرياء ومعظم الطبقة الوسطى هم من الاشكنازيم · بينما لا يعيش في الضواحي الفقيرة مثـل هاتكفاه في تل ابيب او القطمون في القدس ، الا السفارديم · ان الـ ١٣٢ الف عائلـة التي تعيش ـ حسب الاحصاءات الرسمية ـ حياة معدمة ، معيبة للكرامة الانسانية هـي اساسا سفارديـة ·

ما هو سبب هذا التباين الاجتماعي الفظيع في بلد جديد لا تزال ذكرى انشائه ، حية في ذاكرة جيلنا ؟ من هو المسؤول ؟

ان ٣ر٥١٪ من المهاجرين الذين اتوا الى اسرائيل بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٧٢ هم مـن اصل افريقي وآسيوي والباقي من اوروبا واميركا · يعيش في الوقت الحالي في اسرائيل ٢٠٪ من الشعب اليهودي بينما لم يكن في اسرائيل ، سوى ٦٪ من يهود العالم ، خـلال السنوات الاولى من انشاء الدولة · هناك ٦٠٪ من القوى العاملـة و٣٠٪ من اطفال لا تزيد اعمارهم عن ١٤ سنة بين الذين دخلوا في فترة ١٩٤٨ ـ ١٩٧٢ · والجديـر

بالذكر ان القوى العاملة ، تشكل نسبة ٥٧٪ من القادمين من آسيا وافريقيا · بينما تشكل القوى العاملة بين يهود اوروبا واميركا نسبة ٧٢٪ · لايزيد متوسط عمر المهاجرين الى اسرائيل عن ٢٥ سنة ·

ان اصول التباين الاجتماعي في صفوف الاسرائيليين متعددة · بعضها يرجع الى احداث خارجية · والبعض الآخر، تقع مسؤوليتها كليا على ذمة الاشتراكيين الاسرائيليين·

ان رواد الاستيطان اليهودي في فلسطين هم الاشكنازيم المنحدرون من « خط السكن الحر لليهود » ★ ، ومن غيتوات اوروبا الوسطى · كان هناك ، اذن طائفة وحيدة ومتينة من الاشكنازيم قبل ١٩٤٨ ، قبل اعلان دولة اسرائيل ، خصصت لنفسها جميع مراكز القيادة واسست عبر اجيال قليلة اقتصادا قويا بما فيه الكفاية لتأمين وسائل محتملة للعيش ، واحيانا مزدهرة ·

ثم تدفقت الى فلسطين موجة اليهود الذين نجوا من الكارثة النازية · كانوا ايضا من الاشكنازيم لكنهم فقراء وبؤساء · رغم ذلك لم يشكل هؤلاء المئات الالوف من اليهود البولونيين والتشيكيين والهنغاريين والرومانيين والبلغاريين ، الطبقات الفقيرة من المجتمع الاسرائيلي · وقد يسر نموهم الاقتصادي ، الى جانب المهارة الطبيعية ، والتأهيل المهني والمستوى الثقافي المرتفع ، تعويضات الحرب المهمة التي واظبت على سدادها حكومة الرايخ الثالث الالمانية ، الى جانب منحها المعاشات مدى الحياة والمبالغ المخصصة للتعويض عن الاملاك التي نهبها او دمرها الفاشيون · كل ذلك اتاح لهذه الفئة من اليهود الاشكنازيم ان تتمكن من الوقوف على اقدامها بسرعة ، ان تفتتح متاجر ومشاغل وحتى مصانع ، مشكلة البرجوازية الصغيرة والمتوسطة · فتملكوا شققا جميلة وحتى فيلات ، وسيارات وكان ذلك علامة الازدهار الاقتصادي في الخمسينات ·

بعد فترة قصيرة من انشاء دولة اسرائيل ، هاجر الفرع السفاردي للشعب اليهودي بكثافة ، هذا الفرع الذي عاش منذ قرون في البلاد الاسلامية في الشرق الاوسط وشمال افريقيا وآسيا ، ١٢٥٠٠٠ توافدوا من العراق ، ٣٥٠٠٠ من تركيا ، ٣٢٠٠٠ من ليبيا (من اصل ٣٥٠٠٠ كانوا يعيشون فيها) و ٣٥٠٠٠ ★ آخرون من شمال افريقيا · اما الصحراء في اليمن القاحلة ، فقد امنت في عملية ذائعة الصيت اطلق عليها اسم « عملية بساط الريح » · اكثر من ٤٠ ٠٠٠ يهودي لا يعلمون شيئا عن الثقافة الاوروبية ولا يزالون يعيشون على طريقة الحياة ، ما قبل انهيار هيكل سليمان ·

اصبح اليهود السفارديم ، « السود » ، متوسلين بائسين منذ اول خطوة خطوها على ارض فلسطين· اتى السفارديم من اقطار شبه اقطاعية ، متخلفة، مستعمرات قديمة، حاملين جميع السمات الطبيعية للتأخر الرهيب لبلدهم الاصل · كانت اغلبيتهم امية ، ونسبة المواليد مرتفعة في صفوفهم ، دون تدريب مهني ، معتادين على الجهد الجسدي ،والامراض

★ كان عدد اليهود محددا في المدن الاوروبية ، ولكن خارج حدود معينة ، لم يعد هذا العدد محدودا · (ملاحظة من المترجم الفرنسي) ·

★ يفوق عدد اليهود القادمين من شمال افريقيا ، هذا الرقم بكثير ·· اذ يكاد يصل الى حوالي ٣٠٠ر٠٠٠ مهاجر ·

المزمنة والحكم الاستبدادي · مما ادى الى انعدام اكيد في المبادرة وفي القدرة على توجيه حياتهم الجديدة ·

كانت هذه الموجة من المهاجرين تجربة كبيرة لدولة اسرائيل وللصهاينة الاشتراكيين في الحكم · سجل هذا الامتحان التاريخي فشلهم المريع ووضح الدلالات الخطيرة الاولى لتقصيرهم في المجالين الاجتماعي والسياسي ·

حشرت العائلات الكبيرة السفاردية في مساكن مؤقتة ـ اصبحت دائمة فيما بعد ـ ضمن مخيمات انشئت بسرعة : « المعبروت » ، التي تشكل حتى اليوم ، احياء البؤس الصارخ ومناجم الاوبئة ، وجزر المخدرات والجريمة والبغاء · كبرت العائلة · نرى اليوم في غرف صغيرة كانت تؤوي شخصين في الماضي ، ثلاثة اضعاف هذا العدد · يطوف ٢٥٠٠٠ مراهق ، عاطلين عن العمل ، منقطعين عن الدراسة ، الاحياء الغنية التي يسكنها الاشكنازيم ، مكونين عصابات من الزعران وقطاع الطرق و « تزين » حيطان المدن الاسرائيلية ٣٠٠٠٠ صبية تنحدر من نفس هذه الاحياء: مومسات عديمات الجاذبية بوجوههن المطلية بالمساحيق · لو القيتم نظرة الى السجون المكتظة التي ورثناها من البريطانيين ، لادركتم ان اكثرية اليهود الذين يتأملون العالم عبر القضبان الحديدية ، هم هؤلاء السفارديم انفسهم ·

ان الحكومة الاسرائيلية التي حكمت على هذه الفئة من اليهود بالفقر والحياة البائسة ، بلا ترو ولا رحمة ، هي نفسها التى رفضت بشكل قاطع آنذاك ، باسم « مبادئها الاشتراكية » قبول استثمارات مهمة قدمها رجال اعمال يهود في العالم اجمع : كان لا بد ان تساهم هذه الرساميل في التطور الاقتصادي السريع وفي استحداث عدد واف من الوظائف ، كما تساعد في التدريب المهني للاخوان اليهود الاقل بياضا · حشروا اليهود الافرو ـ آسيويين في غيتوات جديدة ، حكموا عليهم بالبطالة التامة التي تفقد العزيمة ، وافسدوهم نهائيا بهبات هزيلة ومهينة ادت الى اذلالهم وجعلت منهم متسولين ، في ادنى مستوى السلم الاجتماعي ·

ترسل اسرة الاشكنازيم اولادها الى افضل المدارس والجامعات دون ان تخشى النفقات

الكبيرة ، فهي تنعم ببحبوحة مادية ولها عدد قليل من الاطفال ، هكذا يأتي الاطباء والمحامون والمهندسون والمربون من هذه العائلات ، يرث الاولاد المتاجر والمصانع والوظائف « الجاهزة » ذات الاجور المرتفعة في المؤسسات الحكومية ، ويرث اولاد العائلات الاقل ازدهارا استعدادا للنشاط ·

اما الجيل الجديد في عائلات السفارديم ، فهو يترعرع في شروط مختلفة تماما ويحصل على ارث من نوع آخر ، فالاولاد في سن الدراسة يكفون عن التوجه الى المدرسة بعد ان قضوا فيها وقتا قصيرا مفضلين عليها الشارع بما فيه من اغراءات متعددة ومريبة ، يشجعهم على ذلك ، مواقف عائلاتهم الامية ، المتخلفة اللامبالية ـ دون الاشارة الى عدم اكتراث المجتمع ـ فلا يصل الى الجامعات الا عدد قليل من هؤلاء الاولاد ونخبة نادرة تشق طريقها في طبقات المجتمع العليا التي تستقبل « الملونين » بكراهية ·

فلنتذكر الانتخابات الفاضحة التي جرت عام ١٩٧٣ · ان مهمات رئيس الجمهورية في اسرائيل هى شرفية فقط ، تلعب هذه الشخصية دورا « تزيينيا » وليس لها اي تأثير

على حياة الدولة · بل ان تاثيرها هو دون تاثير الملكة في انكلترا · وحتى هذه الرئاسة الشكلية لم تترك للسفارديم · حكمت البلاد ومازالت تحكمهـا حـتى اليوم طائفــة الاشكنازيم ، مستخدمين اصوات الاكثرية السفاردية المتزايدة ، في الانتخابات بالطـرق الشرعية ، وشبه الشرعية · رغم أن التخلي عن عرش الرئاسة الشرفي هذا للسفارديم كان امرا سهلا للغاية ، ولو من اجل تهدئة الانفعالات · بدا ذلك ممكنا لاول وهلة · قدم اليمين مرشحين : « الابيض » افراييم كاتزير ، و« الاسود » اسحـــق نافون · ايد السفارديم المتملقون مرشحهم باقامة تظاهرات عديدة وفرحوا لانتخابه قبل الاوان · كما ان عددا كبيرا من الاشكنازيم قدر ان هذا امر عادل · لكن المنافسة الشديدة ، والكراهيــة المترسخة لدى النخبة الحاكمة جعلت « الحكماء » الاشتراكيين في السلطة يقرعون ناقوس الخطر · وهكذا ، مرة اخرى ، تم انتخاب رئيس « ابيض » افراييم كاتزير ، وتلقـت الطائفة السفاردية صدمة قوية ، وخجل الاسرائيليون الاخرون ·

ان جسم اسرائيل الهش منقسم الى قسمين متفاوتين متواجهين عبر خندق عفن ومرعب· ويزداد هذا الخندق عمقا يوما بعد يوم ·

لاقت حركة « الفهود السود » وهي على غرار حركة السود الاميركيين ، تاييدا حارا في صفوف الشباب السفارديم · وادت الى وقوع تظاهرات بعيدة كل البعد عن العمل البناء ، بل ذكرت بفضائح الزعران وافرزت حقدا عميقا وغير منطقي تجاه « الاخوة » الاشكنازيم ·

اذكر ، ان ثلاثة شبان سمر ، اتوا لزيارتنا في «اولبان» (معهد لتعليم اللغة العبرية) من قرية ميسافيريت صهيون ، قرب القدس حيث كنا نسكن ، عند وصولنا مـن روسيا · قالوا انهم جاءوا من قبل « الفهود السود » ، واقترحوا تنظيم سهرة مـــع المهاجرين في النادي · كنا جميعا مهاجرين اشكنازيم : يهود روس ، اميركيون واوروبيون ، واتجهنـا تلك الليلة الى النادي باهتمام كبير · فرحين سلفا ، بهذا اللقاء مع اسرائيليين قدامى · وقد اصبحنا اخيرا وبكل اجلال من مواطنيهم ·

كانت هذه السهرة اول مناسبة لي ولمعظم اصدقائي الروس الذين وطأوا حديثا « ارض الميعاد » اسرائيل ، كي نرى الصراعات الداخلية المقرفة · اعلن لنا الشبـان الثلاثة من « الفهود السود » انهم سيغتالون جميع اطفالنا اذا أقمنا في الشقق التـــي عرضتهـا علينا الوكالة اليهودية مقابل اموالنا ، ومن اجل اعادة الامور الى نصابهـــا ، يجب ان نتخلى عنها للسفارديم · لو لم احضر شخصيا هذا « النقاش » في نادي « اوبلان » (معهد) ميسافيريت صهيون ، لما كنت صدقت روايته من اقرب صديق الي · تركنا « الفهود السود » مع افكارنا المعتمة ، بعد تهديدات كثيرة ·

حدث آخر كنت شاهدا عليه ، يمكنه ان يتمم هذا الوصف · خلال حرب « يوم الغفران »، كان السفارديم يؤلفون ثلاثة ارباع سريتنا في الجيش · وكنا حوالي عشرة مهاجرين من الاتحاد السوفياتي ، انهى معظمنا دراسته العليا · نادانا قائد السرية يوما ، واعلمنا ان هناك « مغربيا » ، اي يهودي من المغرب ، « محشوا » بالمخدرات ويشكل بالتالي خطـــرا اكيدا على من حوله · وكان يحمل سكينا يجب توقيفه بعد انتزاع سلاحه ·

لم نتساءل عندها لماذا اختار القائد الجنود « الروس » لتنفيذ هذه « المهمة » ، علمـــا ان السفارديم يشكلون معظم السرية ، في الواقع ، وبكل بساطة ، لن ينفذ السفارديـــم اوامر ضابط اشكنازي موجهة ضد احد رفاقهم من السفارديم ، حتى لو كان مجرمـــا

يستحق حكما قاسيا تبعا للقانون العرفي · قام ثلاثة منا بتنفيذ الاوامر ، فانتزعنا سلاح المخدر واستعملنا ، بالطبع ، بعض القوة للتغلب على مقاومته · عندئذ طوقنا عدد من « المغاربة » · وقف اليهود « البيض » الى جانبنا · فانقسمت السرية الى قسمين غير متساويين في العدد · وكادت تنشب معركة دامية ·

لقد رمانا قائدنا في صميم الصراع العنصري الموجود بين اليهود والذي لم يهدأ حتى تحت خطر الموت المشترك الذي كان يواجهه الجميع خلال حرب « يوم الغفران » ·

يتخذ الصراع العنصري اشكالا متعددة· هذه مثلا، احد بلاغات الصحف الاسرائيلية :

« جرى منذ فترة قريبة ، اعتداء على زعيمين لحركة « الفهود السود » ، جاكوب ابرجيلا وسعدي مارسيانو وهما يتجولان في القدس في شارع شفتو يسرائيل · ظهر مجهول فجأة واطلق عليهما النار مرارا قبل ان يختفي في الزحام » ·

هناك أمر اخر من الصعب تصديقه ، لكن الاحصاءات تؤكده : ان الزيجات «المختلطة» بين يهود الطائفتين نادرة جدا في اسرائيل وتشكل فقط ١٢٪ من مجموع الزيجات · بينما تصل في المقابل نسبة الزيجات بين اليهود والمسيحيين في الولايات المتحدة الاميركية الى ٤٠٪ ·

ننهي اخيرا عرض هذه المشكلة العجيبة بعرض قضية «الفلاحين» وهم من اليهود السود، أصلهم من الحبشة · كانوا حتى فترة قريبة جدا ، مثل باقي سكان افريقيا الاستوائية ، يرتدون المئزر عوضا عن الملابس ويعيشون قبائل منغلقة على نفسها · لايفرق بينهم وبين جيرانهم السود الا يهودية عنيفة تدفعهم الى انهاء كل صلاة في صلواتهم ، مثلهم مثل جميع يهود العالم ، بالجملة التقليدية : «الى اللقاء في اسرائيل» · تحققت اليوم امنيتهم ووقعوا في قدر تغلي فيه البغضاء العنصرية · ولون بشرتهم السوداء وشكلهم الزنجي يصب زيتا على النار · اثارت أول مجموعة من اليهود السود التي وصلت من الولايات المتحدة وهي تنتسب الى ملة دينية يهودية ولكنها غير معتبرة يهودية ، سخطا عاما ·

اقام «الاخوة السود» جنوبي البلاد ، في ديمونا ، بوصفهم يهودا مهاجرين واعلنوا انهم هم اليهود الحقيقيون بينما باقي السكان هم خلفاء مزيفون لابراهيم ، وانهم سيباشرون باعادة تشكيل دولة اسرائيل حسب رأيهم ، وانذروا ايضا أن سود اميركا سمعوا «صوتا من السماء» يمنحهم هذه الارض المروية بالحليب والعسل وانهم يتجهزون للمجيء للاستيطان فيها ·

نتخيل الاثر الرهيب الذي تركه هذا الاعلان اذا قرأنا الرسالة الجماعية المبعوثة لصحيفة «تريبون» تحت العنوان المعبر هذا : «من زرع الريح ··» ، والتي وقعها كل من ل· فريدمان ، س· فينسيل ، ن· فريدمان، ت· فيشر وكثيرون غيرهم : «··· لقد جئنا من دولة يؤكدون لنا فيها عدم وجود الشعب اليهودي، استنادا الى الماركسية ــ اللينينية الكلاسيكية · هل كان حقا من الضروري أن نتغلب على جميع العقبات لنلتحق بوطننا حتى نسمع من يقول لنا نفس الكلام بواسطة «نبي ــ يهودي» اسود ··» «نحن امام واقع هجرة ضخمة قريبة ، بما ان قائدهم بن عامي كارتر ، انذرنا ان اكثرية السود في الولايات المتحدة الاميركية هي من اليهود · لقد فتحنا المجال اليوم لمئات العائلات السود ، ولكن بماذا نتذرع غدا لمنع عشرة أو خمسة عشر مليون اسود من دخول بلادنا؟··· لماذا يقلق وزيرنا ، بنحاس سابير ، اذا وصل عدد العرب الى ٤٥ مقابل ٥٥ يهودي بعد ٢٥ سنة ،

ويغفل الواقع الذي سنواجهه غدا حيث سيكون لدينا مقابل كل مليــون يهودي ، ستة او سبعة ملايين من «خلفاء يهود» او بتعبير ابسط ، من العبيد ؟ وستتمكن غولدا مائيــر ان تقول لنفسها كل صباح : ولد هذه الليلة طفل يهودي والف طفل اسود ٠

«ترك اليوم ديمونا خمسون اسرة من المهاجرين الفرنسيين ٠ وغدا لن تاتي الى هنا اية اسرة من «العالية الغربية» عندما تعلم من هو «الجار الحبيب» الذي ينتظرها ٠٠٠

«سيتدفق قريبا الى اسرائيل ، وراء العبيد «اليهود» و«فلاحي» الحبشة الذين وضعوا بسرعة على لائحة «الاهل الاقربين» ، قبائل افريقية واسكمويين «ليفيين وهيبيين «كوغان»٠

« نتخيل بسهولة مشهد اسرة من اكلة لحوم البشر شبه عارية ، وهي في اللد ، تكتب طلبات الهجرة ٠ على اعتبار أن الاب افترس يهوديا في الاسبوع الفائت ، فبالتالي هناك دم يهودي يجري في شرايينه» ٠

وتصف صحيفة «تريبون» العلامات التي تبشر بالصراع العنصري في مقــال عنوانــه «متفجرة ديمونا» : «يستقبل «آباء المدينة» جميع الذين ياتون الى ديمونا لسبب او لاخــر ، فيحدثونهم عن العبيد «اليهود» مؤكدين على النقطة التالية : «هذه مادة متفجرة ستنفجر عاجلا او آجلا» ; ويخلص رئيس بلدية ديمونا اسحق بريتز ومعاونه اسرائيل نافون الى القول : «مشكلتنا الاساسية هي تقدم المدينة والمشاكل الاجتماعية» ٠

«تلقت رئيسة الوزراء ، السيدة غولدا مائير ، دعوة الى ديمونا ولقبت مواطنة شرف للمدينة ٠ وتعتقد هي ايضا ان «هذه هي المشكلة الاكثرة حدة ، ويجب العمل على حلها٠»

منذ أسابيع قليلة ، كان رئيس بلدية ديمونا بربــاني لوبوفيتش في نيويــورك ٠ واول سؤال وجه اليه : «كيف تعيشون هناك على هذا البرميل من البارود» ٠ تعتبر اجهــزة الامن ان «العبيد اليهود» يمثلون تهديدا خطيرا للسلام ٠ فمراسلاتهم مع الصين الشعبية والنشرات السياسية والاعانات المالية التي يتسلمونها من الخارج تقلــق اجهزة الامن ٠ يقول دان انفاري ، رئيس الشرطة المحلية أنه يمكن ، في حالات الطوارىء القصوى ، تعبئة ٢٠ الى ٣٠ شرطيا الى جانب معظم افراد السكان الذكور لمجابهة مجموعــة من ٢٥٠ «يهوديا اسود» ، لان لا احد يعلم مايدور في اذهانهم ٠ ياتي الكثيرون من سكان مدينة ديمونا الى رئيس البلدية ، يقدمون الشكاوى ، يهددون ، يطرحون الحلول ، ويطــالبون بالحاح بالتخلص من هذا «الاجتياح» ٠ حتى أن بعضهم ترك المدينة ٠ في الاسبوع الماضي، قتل «اليهود السود» احد «اخوانهم» في ديمونا ، كانوا يلاحقونه في وسط المدينة والعصي فى أيديهم ٠ قال احد السكان لرئيس البلدية انه وزوجته مصابان بمرض في الاعصاب لانهما مجبران على العيش في حالة ضغط وخوف دائمين ٠

في الاسبوع الماضي ايضا ، اعيدت اسرتان مؤلفتان من تسعة اشخاص الى اميركــا ٠ ويقال هنا بصوت خافت انها بداية ابعاد العبيد ٠ يتمتع رئيس طائفة « العبيد اليهود » ، بن عامي كارتر ، بسلطة واسعة على اتباعه ٠ كان ينظم مؤتمرات صحفية أمام المراسلين الاجانب ، يعلن فيها ان اسرائيل دولة عنصرية تفرق بين اليهود البيض واليهود السود٠ ومنذ فترة ليست ببعيدة ، دعا عددا كبيرا نسبيا من الاشخاص لمقابلته ٠ واثناء المقابلة التي اجريت في شقة احد «اليهود السود» ، حاول تحديد موقفه ٠ كان قد خلــع ثيابه العادية ولبس ثياب العيد : مئزر ومنديل أسود وقلنسوة خضراء صوفية : «نحــن يهود سود» ٠ نؤمن بالخير وقلبنا مليء بالمحبة تجاه كل انســان ٠ ان معظــم السود في

الولايات المتحدة هم من اليهود · جئنا الى هنا ، لم نتبع الا قلوبنـــــا ، لبناء مملكـة العدالة · هذا البلد هو وطننا ويجب ان تسوده العدالة · نحن نعيش تحت نير العبودية في الولايات المتحدة الاميركية منذ اكثر من ٤٠٠ عام ، اخذوا اجدادنا بالقوة من على شطآن افريقيا الذهبية ، ومنذ ذلك الحين ومستعبدونا يعملون على دفعنـــــا الى نسيان ثقافتنا · لكن ماضينا ينتقل من جد الى أب ؛ ومن أب الى ابن ، ومن فم الى اذن ، وكنا نعلم أننا يهود· نحن هنا لنكنس سويا جميع الاقذار · رجعنا الى وطننا لنشرح للبشـــر كيف يجب أن يعيش المرء ·

«هذا البلد ليس بلدا كسائر البلدان · فهو ارض مقدسة · منحنا الله هذه الارض وعليكم أن تفهموا ذلك · كثيرون هنا لايؤمنون بالله · يلوث نهر الاردن المقدس · سوف نتخلص من جميع المناطق الصناعية · جئت الى هنا كي افتتح لكم عهدا جـــديدا ، كي ارشدكم الى طريق جديد · نحن لسنا فقط يهودا ، نحن يهود اسرائيليون ★ · ليس اليهود الا خلفاء يهوذا الاسخريوطي · اليهود ليسوا شعبا · الله فقط في الحسبان وابراهيـم واسحق واسرائيل·»

لا احد يعتبر اليوم ، أن عبيد ديمونا يهود · حين وصلوا ، بعث لهم جوزف جيفا ـ مدير عام وزارة الاستيعاب في ذلك الوقت ـ الحاخام دارايي ليقوم هـــــذا الاخير بمراسيم «الجيبور» (التهويد) · رفضوا رفضا باتا · واضافة الى ذلك ، صرحوا بان على جوزف جيفا الخضوع لمراسيم التهويد ، عندما جاء هذا الاخير شخصيا ليقابلهم ويعلمهم انهم لن يستفيدوا من الحقوق الخاصة بالمهاجرين ولن يتمكنوا من ايجاد عمـــل اذا مارفضوا التهويد · قالوا أنهم مواطنو الارض المقدسة الشرعيون ، وانهـــم هم الذين سيجعلون خلفاء يهوذا الاسخريوطي يعتنقون الدين · و«اليهود السود» يسخرون من أهالي ديمونا الذين يحترمون التقاليد · يروي بعض الشهود انه لايوجد اسرة عندهم ، بل ان الرجال والنساء يبدلون شركاءهم في كل وقت واذا ولد طفل ، لايعلم أحد من هو والده ·

ينتظر الناس «تحرير ديمونا من العبيد» · كان جواب اسرائيل نافون ، معاون رئيس البلدية ، على ذلك ، مثلا مغربيا يقول :«تذهب روح الفقيد الى جهنم اذا عرج حفـــــار القبور وحمل النعش اعمى» ·

هناك خندق اخر يقسم المجتمع الاسرائيلي انقساما عميقا ويسبب تصدعـــات جديدة في هذا الوعاء الذي أعيد ترميمه بسرعة ، والذي يدعى بالدولة اليهودية ، ليس مسألـة لون البشرة ولا المشكلة العنصرية ، علما ان هاتين المشكلتين تكفيان لانهيار الولد المشوه الذي انجبه آباء الصهيونية · اتكلم هنا عن العداء والمجابهة بين الاقلية المتدينة والاكثرية الملحدة ، وعن معارضتهما العنيفة التي تحدث ازمات حكومية طويلة وصدمات نفسيـة مستعصية احيانا ، لافراد آمنوا بصدق باسرائيل ، وارادوا أن يصبحوا مواطنين في هذا البلد ·

تملك الاقليات المتدينة ، رغم عددها المحدود ، سلطة هائلة علـــى الجزء الاكبـــر من الهبات المالية الخارجية · لذلك يتساهل معها حكام اسرائيل الاشتراكيون الملحدون ، مما يزيد من توتر الجو في البلاد ويجعله أكثر استعدادا للانفجار ·

★ نسبة الى الملة الدينية التي ينتسب اليها بن عامي كارتر واتباعه ·

ان المواطن الاسرائيلي ، مهما كان موقفه من الدين، محروم من وسائل النقل العام يوم السبت ، وهو يوم الفرصة الوحيد · فعلى الذين لايملكون سياراتهم الخاصة ، احترام التوصية الدينية وامضاء هذا اليوم في منازلهم رغم ارادتهم ·

لايستطيع الملحد أن يتزوج زواجا مدنيا ، عليه ان يحصل مكرها على بركة الحاخام · كذلك لايمكن ان يوارى الثرى دون تدخل رجل الدين ·

تتساهل الحكومة مع المتدينين وتمنحهم امتيازات الى حد التسامح بوجود ملة دينية متعصبة : الـ «نيتورايي كارتا» في حي «ميئاه شعاريم» القديم في القدس · وهذه الطائفة ترفض علنا الاعتراف بالحكومة وترفض بالتالي الخضوع للقانون · لايدفع هؤلاء اليهود الارثوذكسيون الضرائب ، ولايؤدون الخدمة العسكرية ، ويرتكبون من حين الى اخر فضائح تخل بالنظام ، والقوانين المدنية الاولية ·

فالمتعصبون اجمالا ، وليس فقط هذه الطائفة بالذات ، يغتنمون فرصة حصانتهم للقيام باعمال جريئة اكثر فاكثر · كل شيء محلل لهم ، حتى اللصوصية الفاضحة · نحن نعلم ان المتدينين هم ضد الخلاعة · واكثرية الملحدين أيضا ليست متحمسة لهذه الموجة من القذارة التي تملأ واجهات متاجر الجنس ، فتستنكر هذه الظاهرة وتكافحها كظاهرة من ظواهر جنون هذا العصر · انما للنضال ايضا قواعد وقوانين · لكن تلميذين من مؤسسة دينية ذهبا ليلا الى متجر «ايروس» بصفائح البنزين ، أشعلا فيه النار · كاد الحريق أن يدمر أحياء كاملة من تل ابيب لولا وفاء رجال اطفاء ملحدين تمكنوا من انقاذ بيوت يسكنها مئات البشر ·

وقع التلميذان في ايدي الشرطة ، واحتجزا في السجن كما يستحقان · لكن القضية لم تكن بهذه البساطة! فقد علا صوت الاباء الروحيين للدفاع عنهما بدلا من شجب تصرفات اتباعهم الشريرة · وخافت السلطة · كنا عشية عيد ديني ، اذ أقدم رئيس البلاد، زلمان شازار على عمل لم يسبقه أحد اليه ، فمن أجل تهدئة غيظ الاباء الروحيين ، قام بتمضية العيد مع السجينين ·

يمتد النقاش المستمر حول مسألة «من هو يهودي» منذ سنوات ، مثيرا ذهول من بقي لديه عقل سليم · وكاننا أمام مرض مزمن ، «قضية «من هو يهودي» سببت لنا مجموعة أزمات حكومية يضاهي عددها جميع الازمات التي احدثتها مشاكلنا الاخرى » ·

«لم يحظ الجميع بأم يهودية ، ولذلك لا «يقترب» الجميع من المعبد اليهودي من ناحية الشريعة ، والغضب لايفيد ، على العكس ، فهو يزيد من حدة الصراع بين الفريقين ، هذا الصراع الذي كان يخشاه بن غوريون اكثر من خوفه من العرب والروس والانهيار الاقتصادي معا ·»

يكتب ٠١ كلاينر ، المهاجر من الاتحاد السوفياتي ، في جريدة «نوتر بيي » : « يرسخون في ذهني منذ الصغر انه يوجد يهود حيث يوجد عمل ثقافي · ظننت حتى وصولي الى اسرائيل ، ان الشعب اليهودي هو الشعب الاقل رجعية في العالم ، وانه دائما على حافة التقدم ، ينمي قيمه الروحية والثقافية ونظامه الاجتماعي ، ويؤثر تاثيرا عميقا على الانسانية جمعاء» ·

«عندما كنت أحلم بحياتي في اسرائيل ، كنت اقول لنفسي : «هناك ساتمكن من رؤية

مركز احتشاد المفكرين اليهود واكبر تجمع لحكمتهم النشيطة لوحدة اليهود العاملين على انشاء دولة يهودية جبارة ، شعلة امل تدافع عن يهود العالم أجمع٠»

«عندما كتبت الصحف السوفياتية ان اسرائيل اعتمدت القانون العنصري «من هو يهودي» ، ظننت مثل معظم اليهود السوفيات أن هذا الخبر هو ضمن حملة الافتراءات الموجهة ضد اسرائيل ٠ واتضح لي عندما أتيت ، أن هذا القانون موجود حقا ٠ ماذا تفعلون ؟ ألا تعلمون أن الطوائف اليهودية الكبرى في العالم ، في الولايات المتحدة وفي الاتحاد السوفياتي ، فيها مئات الالوف من العائلات المختلطة التي تحكمون عليها بالاستيعاب ؟ أليس من واجبنا أن ننقذ هذه العائلات من الاستيعاب ونعيدها الى الشعب اليهودي ؟ » ٠

أما مقال ج ـ تزبليكوفا ، تحت عنوان «ماشاء الله» ، فهو مليء بالدعاية السوداء ، يقول : «اذا رجع المخلص فجأة اليوم ٠ واذا تحققت أعجوبة احياء الموتى ، فجزء كبير من الذين هلكوا في معسكرات الاعتقال وفي الغيتوات اليهودية ، سيكونون قد احيوا بشكل يخالف القانون ، اذ لاتحق لهم أوراق الهجرة الاسرائيلية ٠ ويرافق رجوعهم الى العالم الحي معاناة جديدة : فلا يجوز قبرهم في مقبرة يهودية ، ولاقراءة صلاة الميت على الجثة ٠ أما حول وجوب الغاء القداديس التذكارية التي اقيمت على نفوسهم ، فلا بد ان يستغرق درس هذه القضية وقتا طويلا لدى ربانية اسرائيل الرئيسية٠»

يشعر الكثير من الاولاد المولودين من أم روسية وأب يهودي ، ان اسرائيل هي وطنهم٠ تصل المرأة الى اسرائيل فخورة باطفالها ٠ ولكنها تكتشف أنهم لايعتبرون يهودا ٠

الحيلة وحدها تنقذ الوضع ٠ فيجب ألا تبوح هذه النساء بالحقيقة ٠ تبدأ اذا بالاكاذيب، فتقول ، لقد قمت بتحليل الدين اليهودي ، واستنتجت أنه أفضل دين في العالم ، لذلك أنبذ ديني الذي لا وجود له! وأريد أن استبدله ـ استبدل ماذا؟ ـ بأفضل دين موجود ٠ هذه المقايضة مربحة من الناحية التجارية الصرفة ٠

لايوجد حل اخر ٠ اذ تنص الشريعة على ان اليهودي هو الذي ينحدر من أم يهودية ، ولا علاقة للاب بالموضوع ٠

لنرجع بشكل عابر الى التاريخ ٠ من أين تأتي هذه الحقيقة ؟ تعلمنا التوراة ان المحتد يرجع الى سلالة الاب في الوظائف الدينية ، وفي الارث ٠ والمخلص يجب أن ينحدر من آل (بيت) داوود ، أي من سلالة الاب وليس من سلالة الام ٠ ولكن عندما هاجمنا الرومان منذ ألفي سنة ، اتضح للحكماء أن النساء أخذت تعاشر الجنود الرومان وتحمل منهم عن طريق الاغتصاب ، او بملء ارادتهن ، لا أهمية للامر هنا ، فخافوا،ان يتبرأ شعبنا ، نتيجة قانون التوراة ٠ وحفاظا عليه، تبنوا هذا التحكيم الذي يبرهن عن قداستهم : أقروا أن الطفل الذي يلد من أم يهودية هو يهودي ٠ لكنهم لم يقولوا أبدا أن الطفل الذي ولد من أب يهودي ليس يهوديا ٠

هناك شرط اخر يسمح للاحزاب الدينية بالتدخل في التشكيلات الحكومية ، وهو اعفاء تلاميذ المدارس الدينية والفتيات المتدينات من الخدمة العسكرية ٠ مرة أخرى يبادرنا السؤال ، ماذا سيحدث لو جاء المخلص ، وأخذ جميع الرجال يدرسون التوراة وارتدت فتياتنا جميعا الفساتين الطويلة ٠ من يدافع عن دولتنا ضد أعدائها حينئذ ؟ فشبيبتنا اليوم ـ طلابا وعمالا ـ هي التي تحفظ أمن وهدوء طلاب المدارس الدينية ، وتحرس

الفتيات اللواتي يلبسن التنانير القصيرة ، رفيقاتهن المتدينات · ماذا يحصل حينــذاك ؟ كيف تحل احزابنا الدينية هذه المشكلة ؟ ربما تنوي تشكيل جيش من المرتزقة العرب ·

لكن ، كانت أيام تصرف فيها رجال الدين بشكل مختلف · كانوا يفعلون كل مافي وسعهم لتسهيل حياة الشعب ، فأتت تأويلاتهم وتفسيراتهـــم متماشية مع التطور العــام · لم يخافوا من تلطيف قانون التوراة : هانحن ننعم بالاضاءة مساء يوم السبت ولا نطبـــق حرفيا «عين بعين وسن بسن» · أريد الا تفسر ملاحظاتي كأنها حملة على الدين · اريد أن أدافع عن كل شيء مقدس لدينا · اريد ان ننقطع عن خداع الله ، الذي هو الهي أنا ايضا · ولا اريد ان يستعمل الهي في مبارزات سياسية ولا ان يصبح اله حزب واحد · سلطان الدين في بلد أكثرية سكانه الساحقة من الملحدين يشوه الجو ويحطـــم حياة الكثيرين ويؤدي الى عواقب مأساوية · كتب ن· غوتين في جريدة «تريبون» بعد أن ســرد قصة حب حزينة بين شابة اسرائيلية وشاب سويسري مسيحي · اراد اعتنـــاق الدين اليهودي والحصول على المواطنية الاسرائيلية محبة بخطيبته ، دفعه رجال الدين الــى الانتحار ، وأنهى مقاله بهذا الاكتشاف غير المشجع : «اننا نعيش في بلد تستطيع قوانينه ان تفقد اي رجل متحضر عقله · فالرجل الطبيعي لايمكنه أن يفهـــم منطق تصرفــات موظفينا · كما أن بنية المؤسسات والدوائر عندنا ، هي تحد للمنطـــق البسيط الاولي · وهذا يعني أننا نحن الذين خلقنا هذا الوضع وتحملناه ، لسنا طبيعيين ولا متمدنين···»

الكس ي· ينهي رسالة موجهة الى جريدة «نوتر بيي» (بلدنا) ، بالكلمات التالية : «اسمح لنفسي أن أطرح سؤالا على الحكام الاسرائيليين : أيها السادة الحكام ، ماذا تتركون لليهود بعد رحيلكم ؟ كل ماتبقى لهم من أجدادهم ؟ لغة التوراة والاهانـــات ؟ لايكفي ان يكون لدينا جيش جبار وشرطة ، وزعران ومومسات ، يجب أن تكون افكارنا واضحة · فالدول الحديثة المزدهرة ، لن تساهم في تقوية دولة كدولة اسرائيل لاتـــزال تعيش في العصور الوسطى ، بل سيفعلون كل مافي امكانهم لتبقى «معسكر اعتقال» ، دولة أثرية ، تصلح للسياحة·» ·

الوعاء الذي حوله اباؤنا الصهاينـــة الى امـــة واحدة انطلاقا من عشرات المجموعـات الاثنية اليهودية . يغلي ويفور · يتكاثر البخار تحت الغطاء المحكم الاغلاق ، ويتزايـــد الضغط . فيهدد الجدران الهشة ، المؤلفة من قطع وعاء كسرته الافواج الرومانية قبــل الفــي سنـــة ·

ترجمته عن الفرنسية : جاكلين فرهود

حملة المطالبة بالبوليس الدولي

المـراحـل والمـواقف

د. محمّد المجذوب

عادت نغمة البوليس الدولي من جديد الى الظهور · وهي ، كنغمة الكانتونات السويسرية ، وموال اللامركزية الادارية والسياسية ، ومعزوفة تدويل الازمة اللبنانية ، من تلحين اليمين اللبناني وتوزيعه · ففي جعبة اليمين مشروعات ومقترحات يتحين الفرص لطرحها ، اعتقادا منه انها قادرة على الهاء الشعب ، وصرف المسؤولين عن مهمة اعادة البناء والتعمير ، والحفاظ على امتيازاته التي كانت السبب في الدمار الذي أصاب البلاد والعباد ·

وفكرة البوليس الدولي ترتبط بوجود هيئة الامم المتحدة التي قامت ، كما نص ميثاقها ، لانقاذ الاجيال المقبلة من ويلات الحروب ، وحماية الحقوق الاساسية للانسان ، والمحافظة على السلام والامن الدوليين ، وحل المنازعات الدولية بالوسائل السلمية · وقد خول الميثاق الامي مجلس الامن (كما خول قرار **الاتحاد من اجل السلام** الجمعية العامة ، فيما بعد) حق ارسال قوات دولية الى بعض الدول او المناطق المعرضة لخطر العدوان او الانفجار ·

والقوات الدولية يمكن ، بصورة عامة ، ان تقوم بنوعين من المهام :

ـ مهمة الردع أو القمع ، أو **مهمة فرض السلام بالقوة** ·

ـ **ومهمة الحفاظ على السلام** ، بالتمركز على الحدود الفاصلة بين الدول المتنازعة ·

فمن حق الامم المتحدة ان تتخذ ، في بعض الحالات ، اجراءات عسكرية ضد

دولة أو دول وارسال قوات دولية اليها لفرض السلام باسم المنظمة العالمية · ولم تلجأ هذه المنظمة الى تدبير من هذا النوع الا مرة واحدة منذ انشائها · وكان ذلك في العام ١٩٥٠ ، وضدكوريا الشمالية التي اتهمت بالاعتداء على كوريا الجنوبية ، وفي غياب المندوب السوفياتي عن اجتماعات مجلس الامن احتجاجا على عدم قبول الوفد الممثل للصين الشعبية · وارسال هذه القوات الى الدولة المذنبة او المعاقبة ، او سحبها منها فيما بعد ، لا يحتاج الى موافقة تلك الدولة·

والمطالبون بالقوات الدولية للبنان لا يقصدون هذا النوع من القوات · انهم يقصدون بها القوات التي تقوم بمهمة حفظ السلام على الحدود وتقف حاجزا عازلا بين لبنان والكيان الاسرائيلي وفي هذه الحالة يطلق على القوات الدولية اسم **البوليس الدولي** ، أو الشرطة الدولية ، او **قـــوة الطوارىء الدولية** · واصطلاح البوليس الدولي هو الشائع والمتداول ·

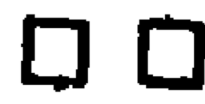
والمرة الاولى التي تعرف العالم المعاصر فيها الى قوة الطوارىء الدولية كانت في خريف العام ١٩٥٦ ، اي بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر وقبول حكومة القاهرة بتمركز هذه القوات على حدودها المتاخمة للكيان الاسرائيلي · والسيد ليستر بيرسون L. Pearson وزير خارجية كندا السابق ، هو صاحب الفكرة · ومع ان قرار الجمعية العامة ، الصادر في ٧ـ١١ـ١٩٥٦ ، قد نص على وضع قوة الطوارىء على جانبي خط الهدنة ، فـــان اسرائيـل رفضت استقبالها على حدودها (١) ·

وقوة الطوارىء ، بعكس القوات الدولية لفرض السلام ، يمكن ان ترسل الى الحدود المشتركة لدولتين بطلب منهما او برضاهما · ويمكن ان ترسل الى حدود الدولتين لتتمركز على جانب واحد من الحدود · وفي هذه الحالة تحتاج الـــى موافقة الدولة التي ستنزل في ارضها · وفي الحالتين يبقى وجود هذه القوة في اراضي الدولة او الدولتين مرهونا باستمرار الموافقة السابقة ·

ونحن في لبنان لم نحظ بعد بمعرفة اصحاب « الخوذ الزرقاء » او « القبعات الزرق » (وهي التسمية التي تطلق على جنود قوة الطوارىء) · لقد أتيح لنا ان نتعرف فقط الى **المراقبين الدوليين** الذين يقيمون على حدودنـــا الجنوبية ،· باعداد قليلة ، منذ العام ١٩٤٩ · ففي ٢٣ آذار (مارس) من هذا العام ، وقعت اتفاقية الهدنة بين لبنان واسرائيل ونصت في مادتها السابعة على ان « تكـون للجنة الهدنة المشتركة سلطة استخدام المراقبين من بين المنظمات العسكريـــة التابعة للفريقين ، او من بين عسكريي هيئة مراقبة الهدنة التابعة للامم المتحدة، أو من كلتا الجهتين ، بالعدد الذي يعتبر ضروريا للقيام بمهمتها · وفي حـــال استخدام مراقبي الامم المتحدة لهذه الغاية فانهم يظلون تحت قيادة رئيس اركان هيئة مراقبة الهدنة التابعة للامم المتحدة ···» ·

وتم اختيار المراقبين آنذاك من العسكريين التابعين للهيئة الدولية لمراقبة الهدنة ·ومارسوا مهمتهم على جانبي الحدود الدولية الفاصلة بين لبنان وفلسطين حتى بداية آب (اغسطس) ١٩٦٧ · فابتداء من هذا التاريخ وحتى اليوم ، لم يعد لهم وجود على الجانب الاسرائيلي · وجرت محاولات عدة لاعادة الامور الى ما كانت عليه ، لم تكلل بالنجاح ·

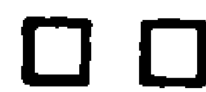
والفرق الاساسي بين المراقبين وقوة الطوارىء ان مهمة المراقبين تقتصر على مراقبة الحوادث والاشتباكات ، وما شابه ذلك من الاعمال والتصرفات التي تعتبر خرقا للهدنة ، وابلاغ الامر الى الامين العام للامم المتحدة · اما مهمة قوة الطوارىء فتتجاوز ذلك الى الوقوف بشكل حاجز مسلح على جانبي الحدود ، او على جانب واحد منها ، يحق لافراده ان يطلقوا النار على كل مخترق للحدود بلا اذن ·



وكل حديث عن البوليس الدولي في لبنان يقترن (او يجب ان يقترن) باسم العميد ريمون اده ،رئيس حزب الكتلة الوطنية · فهو اول من طرح هذه الفكرة على الرأي العام اللبناني في بداية العام ١٩٦٥ ، فعقد عشرات الندوات والمؤتمرات والمناظرات من اجل الدفاع عنها واقناع المسؤولين بها ، والقى الخطب العديدة ،والتصريحات التي لا تحصى من اجل اظهار محاسنها واثبات فوائدها للوطن ، ووجه الى الحكومات السؤال تلو السؤال لاحراجها او حثها على اتخاذ موقف ايجابي من هذا الموضوع · لقد اثبت انه ، في الحقيقة ، بطل الفكرة ورائدها الذي لا يعرف الكلل او الملل ·

وحتى نقف على مختلف جوانب الفكرة المطروحة ، ونطلع على حجج المنادين بها وردود الناهضين لها ، ونحلل موقف اسرائيل منها ، لا بد لنا ، في البداية ، من استعراض تاريخي للمراحل والتطورات والملابسات التي مرت بها الفكرة في لبنان · وبذلك نقسم بحثنا الى اربعة اقسام :

- المراحل التي قطعتها فكرة المطالبة بالبوليس الدولي ·
- حجج المنادين بها ·
- حجج المعارضين لها ·
- موقف اسرائيل منها ·



القسم الاول : مراحل فكرة البوليس الدولي

تاثرت الفكرة ، في كل المراحل التي قطعتها ، بالظروف والاوضاع السياسية والعسكرية للبنان والمنطقة العربية ، فكان الاقبال عليها ، او الاحجام عنها ، او اللغط حولها ، يشتد تارة ويفتر طورا ، تبعا للاحداث والظروف والتطـــورات التي كانت تتوالى على البلاد ٠ وبامكاننا توزيع هذه المراحل على خمس فترات زمنيـــة :

ـ **مرحلة الانطلاق** التي تبدأ مع تباشير العام ١٩٦٥ وتمتد حتى نهاية العام ١٩٦٨ ٠

ـ **ومرحلة الانتشار والجدل** ، التي تشمل فترة العام ١٩٦٩ كلها ٠

ـ **ومرحلة التبلور ووضوح المواقف** ، التي تستوعب الفترة الممتدة من العام ١٩٧٠ حتى نهاية العام ١٩٧٤ ٠

ـ **ومرحلة الركود النسبي** ، التي دمغت عامي الحرب الاهليـة (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) ٠

ـ واخيرا ، **مرحلة الانتكاس والتراجع عن الفكرة والتشكيك في فعاليتها** ، التي أخذت معالمها تتضح في الاونة الاخيرة ٠

اولا ـ مرحلة الانطلاق (١٩٦٥ ـ ١٩٦٨)

تميزت هذه الفترة بثلاثة احداث مهمة : التفكير في تحويل روافد نهر الاردن، وقبول الحكومة اللبنانية بقراري وقف اطلاق النار بعد نكسة حزيران (يونيو)، وحدوث الغارة المشؤومة على مطار بيروت ٠ وتخلل هذه الاحداث جدل كبيـر حول ضرورة استدعاء البوليس الدولي ، اعقبه انقسام في الرأي العام وتبايـن في مواقف المسؤولين ٠ ولم يكتف العميد اده بطرح الفكرة والدعوة اليها ، بـل وجه اسئلة نيابية الى الحكومة هدد بتحويلها الى استجوابات ٠ وعندما بـــدأ البعض بمهاجمته ، تسلح بالسابقة المصرية وراح يصطاد تصريحات المسؤولين المصريين ويجابه بها المناوئين للفكرة ٠

١ ـ في ١٢ـ١ـ١٩٦٥ ، بحثت لجنة الشؤون الخارجية في المجلس النيابي موضوع تحويل روافد الاردن ،فتقدم العميد اده ، لاول مرة ، باقتراح استدعاء القوات الدولية لتوفير الحماية لعملية تحويل مجرى الوزاني والحاصباني ٠ واشار الى ان موافقة الامم المتحدة على ارسال هذه القوات ستعني موافقتهـا على التحويـــل ٠

٢ ـ وبعد انتهاء حرب حزيران (يونيو) واعلان وقف اطلاق النار ، تسرعت الحكومة اللبنانية فبعثت الى الامين العام للامم المتحدة (يوثانت) برسالة ابلغته فيها قرارها بقبول قراري وقف اطلاق النار (رقم ٢٣٣ و ٢٣٤) ، وطلبت منه توزيع قرارها كوثيقة صادرة عن الامم المتحدة · ولبى الامين العام طلبها في ٣١ـ٧ـ١٩٦٧ ، فسارعت اسرائيل ، في اليوم التالي ، واعلنت ، للمرة الاولى ، ان اتفاق الهدنة بينها وبين لبنان اصبح لاغيا · واخذت ، منذ ذلك التاريخ ، تتصرف على هذا الاساس وتمتنع عن حضور اجتماعات اللجنة اللبنانية الاسرائيلية المشتركة للهدنة ، وترفض وجود مراقبين دوليين داخل حدودها ·

٣ ـ في ٢٥ـ٦ـ١٩٦٨ ، وبعد قيام اسرائيل بغاراتها على الجنوب ، وخلال جلسة للجنة الشؤون الخارجية النيابية ، كرر العميد اده اقتراحه باستدعاء بوليس دولي لحماية منطقة الحدود الجنوبية (٢) ، فأثار اقتراحه عاصفة من اللغط والجدل على الصعيدين الرسمي والشعبي ·

٤ـ واعلن معظم السياسيين البارزين (وفي طليعتهم : عبد الله اليافي ، وصائب سلام ،وكمال جنبلاط ، وكامل الاسعد) معارضتهم لاي اتجاه يرمي الى وضع بوليس دولي على الحدود اللبنانية (٣) · وشن بعضهم حملة على العميد اده · واشترط آخرون (بيار الجميل ونسيم مجدلاني) ، للموافقة على الاستعانة بهذا البوليس « ان يوافق عليه جميع اللبنانيين بمختلف اتجاهاتهم وميولهم وطوائفهم ، وان يحظى بموافقة جامعة الدول العربية » (٤) ·

٥ ـ واستغرب العميد اده الحملة عليه واعتبر ان اقتراحه « ينبع من حرصه على مصلحة لبنان وسلامة حدوده »· واستشهد بما فعلته مصر التي « وافقت على ان ترابط القوات الدولية على حدودها مع اسرائيل طول سنوات للدفاع عن حدودها ولضمان امنها » · وقال : « لو رأت مصر في وجود القوات الدولية اي انتقاص من سيادتها لما وافقت على ذلك » (٥) · ثم وجه سؤالا الى الحكومة استوضحها فيه السبب الذي يمنعها من مباشرة بناء خزان ميفدون ، « فاذا كان السبب هو خطر التعدي الاسرائيلي ، فلماذا لم تطلب الحكومة من هيئة الامم المتحدة ارسال البوليس الدولي ، ولماذا لم نحاول اقناعها ان لبنان بحاجة الى استثمار مياه الحاصباني واننا لا نتمكن من البدء بالعمل الا اذا امنت البوليس الدولي على الحدود لمنع اي اعتداء ؟» (٦) ·

وفي اليوم التالي ، اعلن انه سيحول سؤاله الى استجواب اذا لم تجب الحكومة ضمن المهلة القانونية ، وانه سيقترح عقد جلسة سرية لمجلس النواب لمناقشة موضوع البوليس الدولي « على مستوى المسؤولية وليس كما يناقش الان على مستوى الدعاية والاستهلاك المحلي بقصد تملق الجماهير » (٧) ·

٦ ـ وكتب الشهيد كمال جنبلاط بهذه المناسبة مقالا بعنوان : **البوليس الدولي أو أوحال الحلف** (اي الحلف الثلاثي الذي كان يضم شمعون والجميل واده) استنكر فيه هذه «المعزوفة المستهجنة العجيبة» ، ولاحظ ان هذه النغمة «تأتي بعد حادثين صغيرين يقعان على الحدود اللبنانية، وكأن هنالك اتفاقا مسبقا بين الحلفيين وحكام اسرائيل لكي يخرجوا ·· بنغمة البوليس الدولي ··» · ونصح العميد بأن يعمد الى المطالبة باحداث الخدمة العسكرية الالزامية ، وتسليح قرى الحدود ، وفتح المعسكرات لتدريب اللبنانيين على الوان الدفاع (٨) ·

٧ ـ وانبرى بعض الصحافيين للدفاع عن السابقة المصرية والرد على المقارنة التي يحاول العميد اده اجراءها بين قبول مصر بالبوليس الدولي في العام ١٩٥٦ ، وبين مطالبته بالبوليس الدولي للحدود اللبنانية ، فأكدوا « ان القاهرة قبلت البوليس الدولي كتكتيك لاسترداد سيناء وغزة ، بينما يطالب العميد بالبوليس الدولي كاستراتيجية حماية ·· فنحن في لبنان لانزال نتهرب من الاستعداد لمواجهة الخطر الاسرائيلي بدون بوليس دولي ، فماذا لو كان عندنا بوليس دولي ؟» (٩) ·

واعتبر اخرون اقتراح العميد اده احدى الخطوات الفعلية لتنفيذ مشروع «تحييد لبنان» واقامة نوع من التعايش السلمي بينه وبين اسرائيل · وهذا ما دعا أحد الصحافيين الى رفض اقتراح العميد اده باستدعاء البوليس الدولي ، ورفض حديث قداسة البابا عن التعايش السلمي بين الطوائف اللبنانية وعن «لبنان المسالم حيال المأساة الفلسطينية» ، والتعليق بمرارة على هذين الموقفين والتساؤل عما اذا كنا «أبرشية أو ضيعة تعيش من تربية البقر ، وكل مطلبها حراس يؤمنون لها الاستمرار في حلب البقر ·· نطلب البوليس الدولي ليحمينا ممن ؟ من العرب ام من اسرائيل ؟ ام من نصف اللبنانيين ؟ ام لتوفير زبائن لفنادق البلد ؟» (١٠) ·

٨ ـ وصدف ان اوردت وكالات الانباء العالمية ، في بداية تموز (يوليو) ١٩٦٨ ، تصريحا للدكتور محمد حسن الزيات ، الناطق الرسمي بلسان حكومة القاهرة ، قال فيه انه « اذا اقتضى تنفيذ القرار الذي اتخذه مجلس الامن الدولي في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي وجود قوات سلام دولية ، فاننا لن نعترض عليه» · فسارع العميد اده الى اصطياد هذا التصريح ووجه الى الحكومة سؤالا طلب منها فيه الاجابة عما يلي :

١ ـ هل ان قرار ١٩٦٧/١١/٢٢ ·· يتضمن عند تنفيذه وجود قوات دولية على الحدود التي ستفصل بين الاراضي العربية وتلك التي يحتلها العدو ؟

ب ـ هل ترى الحكومة رأي القائلين بان وجود قوات دولية على حدود لبنان الجنوبية يمس سيادة الوطن واستقلاله ؟

جـ ـ هل ترى الحكومة ان من الافضل للبنان ان يطلب ارسال قوات دولية الى حدوده الجنوبية قبل وقوع هجوم من الجيش الاسرائيلي ، أو بعد وقوع مثل هذا الهجوم ؟

د ـ مادام وزير الخارجية قد اعترف امام لجنة الشؤون الخارجية اللبنانية بان «لاسرائيل مطامع في اراضي لبنان ومياهه» ··· اذن هل تنوي الحكومة اثارة طلب قوات دولية لوضعها على حدود لبنان الجنوبية في جامعة الدول العربية ؟

هـ ـ هل وجود القوات الدولية يمنع الحكومة من اتخاذ جميع التدابير التي تؤدي الى تعزيز قوة لبنان الدفاعية ؟

و ـ ألا ترى الحكومة ان وجود قوات دولية يحول دون هجوم اسرائيلي محتمل ؟

ز ـ هل سبق لدولة ان هاجمت دولة اخرى مع وجود قوات دولية بينهما؟ (١١) ·

٩ ـ وفي هذه الاثناء ، نقل عن لسان رئيس الجمهورية (شارل حلو) انه يرفض مناقشة اقتراح العميد اده ويقول : «ان اقتراح المطالبة باقامة بوليس دولي على الحدود الجنوبية لايمكن ان ينفذ مادام هو على رأس الدولة» (١٢)·

ومع أفول شمس العام ١٩٦٨ ، كاد المحاربون على جبهة البوليس الدولي أن يخلدوا الى الراحة لولا الغارة المشؤومة التي شنتها اسرائيل على مطار بيروت وما اعقبها من خسائر مادية ومشاحنات سياسية أدت الى استقالة الحكومة وتأزم الوضع الداخلي ·

ثانيا ـ مرحلة الانتشار والجدل (١٩٦٩)

تعتبر هذه المرحلة العهد الذهبي لفكرة البوليس الدولي ، ففيها قامت سلسلة من الاضرابات والمظاهرات احتجاجا على ظاهرة اللامقاومة التي اتسم بها موقف السلطة بعد الغارة على المطار · وفيها اتهمت واشنطن بالتمهيد للحماية الاجنبية · وفيها انضم حزب الكتائب الى العميد اده في اصطياد التصريحات الصادرة عن المسؤولين المصريين حول القوات الدولية · وفيها اشتد الجدل واحتدمت المعارك الكلامية بين الزعماء السياسيين والمنظمات الحزبية · وفيها

اتخذ كل من رئيس الدولة ورئيس الحكومة موقفا واضحا من الفكرة . وفيها اخيرا قدم اقتراح ، لم يحالفه التوفيق ، بزيادة عدد المراقبين الدوليين واعادة توزيعهم على جانبي الحدود .

١ ـ في بداية العام ١٩٦٩ ، اعلن رئيس مجلس النواب (صبري حماده) معارضته الشديدة لاقتراح العميد اده ، ورفضه لبحثه رسميا في المجلس ، وخاصة في لجنة الشؤون الخارجية ، وقال : «ان على لبنان أن يستعد في هذه المرحلة ويعمل لاقامة حماية ذاتية ضد الاعتداءات الاسرائيلية» (١٣) .

٢ ـ وكانت البلاد تشهد ، في هذه الفترة ، سلسلة اضرابات احتجاجا على سياسة «الاستسلام واللامقاومة» التي اتبعها النظام الحاكم تجاه الغارة على المطار . ومما زاد في تأجيج النفوس ، ان الحاكمين ارتكبوا غلطة فاحشة حينما حاولوا تبرير سلوكهم هذا «بانه يكسبنا عطف العالم» (على حد تعبير المرحوم حسين العويني ، وزير الخارجية والدفاع) ، او بأن « قوة لبنان في ضعفه » (حسب تعبير الشيخ بيار الجميل ، وزير الداخلية) .

٣ ـ ولاحظت بعض الصحف أن سياسة الحماية الاجنبية التي لم تستطع في السابق ، أمام الضغوط الشعبية ، أن تحقق أحلامها في استقدام قوات أجنبية الى لبنان ، أو في وضع قوات دولية على حدوده الجنوبية ، او في اقرار تحييد لبنان أو تدويله ، عادت اليوم ، بعد حادث المطار والتهديد الاسرائيلي بالاحتلال ، الى طرح هذه المشاريع المشبوهة .

وعندما استنكرت الولايات المتحدة الغارة الاسرائيلية وتظاهرت بتأييد لبنان، ادركت الاوساط الوطنية حقيقة الموقف الاميركي وخلفياته السياسية ، واعتبرت أن حكومة واشنطن تدعم في الواقع الهجوم الاسرائيلي لانه يحقق قوة للتيار الذي ينادي بالحماية الاجنبية ، ويجعل النظام اللبناني كله يطالب بها ، بعد اظهار عجزه عن الرد والمقاومة . «وهكذا فان اميركا اكتفت باستنكار تصرف اسرائيل لفظيا ، بينما كانت في حقيقة الامر تؤيده ، كي تخلق الظرف المناسب لمشاريع الحماية الاجنبية» (١٤) .

٤ ـ وعندما طالب العميد اده بالبوليس الدولي واقترح (كيلا يظن ان وراء اقتراحه مخططا استعماريا) بان تكون القوات تابعة لدول اسلامية ، كباكستان وتركيا واندونيسيا ، لاحظت بعض الاوساط ان هذه الدول الاسلامية تابعة لاحلاف عسكرية غربية (١٥) .

٥ ـ وفي ١٩٦٩/١/١٤ ، أوردت احدى وكالات الانباء العالمية تصريحا للسيد محمود رياض ، وزير الخارجية المصرية ، قال فيه : «ان الحكومة المصرية مستعدة لقبول وجود قوات تابعة للامم المتحدة على الحدود المصرية ـ

الاسرائيلية ، بعد جلاء القوات الاسرائيلية ٠٠ ويمكننا أن نقبل أيضا قيام جنود القبعات الزرق بين قواتنا المسلحة وقوات اسرائيل في أثناء فترة انسحاب هذه الاخيرة ٠٠» (١٦) ٠ فتلقفت صحيفة **العمل** الكتائبية هذه الفرصة الغالية لتعلق على هذا الخبر في موضعين :

أ ـ في زاوية «من حصاد الايام» ، حيث قالت : «كل مافي الامر ان مصر التقدمية الاشتراكية والعربية المناضلة لم تجد حرجا في موضوع القوات الدولية ، ولا كان رأيها هذا منقصا من قدر نضالها او من اخلاصها » ٠

ب ـ وفي الافتتاحية حيث سألت «أساطين نضال الصالونات والاراكيل» عن رأيهم في الموضوع وتساءلت : «كيف يكون وجود البوليس الدولي على الحدود المصرية ـ الاسرائيلية عزة وشهامة ووطنية وحنكة ودهاء وتحررا وتقدما واشتراكية وكرامة ورخاء ، بينما يكون ذلك الوجود نفسه على الحدود اللبنانية الاسرائيلية ذلا واستسلاما وخيانة وعمالة ورجعية واستعمارا وصهيونية ٠٠» (١٧) ٠

٦ ـ وتحولت مسألة البوليس الدولي الى موضوع يومي تتداوله الصحف والالسن ، وتعالجه المنظمات والاحزاب ، وتختلف حوله الشخصيات السياسية البارزة ٠ واتسمت الفترة التي أعقبت تشكيل الحكومة الجديدة (برئاسة رشيد كرامي) باندفاع العميد اده في حملته ، والتبشير باقتراحه ، ومهاجمة المناوئين له ٠ لقد دافع مرة عن اقتراحه الرامي الى حماية لبنان من مطامع اسرائيل ، واتهم كمال جنبلاط بانه يريد أن يجعل من لبنان دولة اشتراكية لاضعافه وافقاره كي يصبح لقمة سائغة في فم اسرائيل (١٨) ٠ ووجه من جديد سؤالا الى الحكومة كرر فيه مطلبه «لان خطر تعدي اسرائيل على لبنان بهجوم عسكري جديد خطر حقيقي وممكن الحدوث في أي وقت» (١٩) ٠

وشارك ، في الجامعة اليسوعية ، الى جانب الرئيس صائب سلام ، والوزير جوزف ابوخاطر ، والنائب نصري المعلوف ، في مناظرة حول «الخطر الصهيوني ومفاهيم الدفاع عن لبنان» ، كرر فيها أفكاره المعروفة ، فتصدى له الرئيس سلام ووصف فكرة البوليس الدولي بانها أصبحت عقدة نفسية لدى فئة من اللبنانيين ، وعدد الاسباب التي تدفعه الى معارضة الفكرة ، ومنها عدم اجماع راي اللبنانيين وعدم فعالية القوات الدولية (٢٠) ٠

وسئل العميد اده ، اكثر من مرة ، عما اذا كان سيطالب ببوليس دولي فيما لو اصبح رئيسا للجمهورية ، فاجاب بالايجاب ورد على التهمتين اللتين تثاران عند الحديث عن هذا البوليس : تهمة العمل لتدويل لبنان أو تحييده ، وتهمة اقامة حاجز يمنع الفدائيين من التسلل الى اسرائيل (٢١) ٠

وابتداء من نهاية ايار (مايو) طرأ تغير على موقف العميد من العمل الفدائي فأخذ يدلي بتصريحات يعلن فيها رفضه لوجود هذا العمل في لبنان ٠ وفي ١٣/٦/١٩٦٩ ، اجتمع حزب الكتلة الوطنية بجميع هيئاته وقرر بالاجماع تاييد البيان الذي أدلى به العميد حول القضايا السياسية ، وطالب فيه المسؤولين بوجوب «الاسراع في تقديم طلب الى الامين العام للامم المتحدة أو الى مجلس الامن ، لارسال قوات دولية الى لبنان قبل وقوع هجوم اسرائيلي عليه» (٢٢)٠

وفي حزيران (يونيو) ، وعندما كانت الازمة الوزارية في أوجها ، قابل العميد اده رئيس الجمهورية وصرح قائلا : « طلبت من الرئيس حلو استدعاء قوات دولية فرفض ، ثم طلبت منه اخراج الفدائيين فاجاب انه لايمكنه اخراجهم وحده » ٠ واوضح ان القوات الدولية لن تأتي الى لبنان تنفيذا لقرار مجلس الامن الصادر في ٢٢/١١/١٩٦٧ ، وقال : «لذلك اكرر ماقلته مرارا أن على السلطات اللبنانية طلب قوات دولية استنادا الى قرار ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ، وليس تنفيذا له ٠ وعندئذ تتمركز القوات الدولية على أرض لبنان وتبقى الى أن يطلب لبنان سحبها ٠٠» (٢٣) ٠

وفي أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ، أكد العميد للاذاعة الفرنسية رفضه للحماية الغربية ، وطالب بحماية الامم المتحدة لتفادي الانتقام الاسرائيلي ، وتعهد بسحب اقتراحه هذا «ان قدر الفدائيون أو أحد من الجيوش العربية على حمايتنا» (٢٤) ٠

٧ ــ واحب رئيس الحكومة الجديدة التي تشكلت في منتصف الشهر الاول من العام ١٩٦٩ ، أن يدلي بدلوه في موضوع البوليس الدولي ، فصرّح في ندوة صحافية بان الفكرة قديمة وأنها ليست «موضع اتفاق في الرأي بين اللبنانيين»، وألمح الى أنه سيعمل بالمبدأ القائل بانه «يجب ان نطرح جانبا كل مانختلف عليه» (٢٥) ٠ وبعد أيام أدلى بتصريح واضح حسم به الموقف الرسمي ٠ قال :«ان وضع قوات دولية على الحدود اللبنانية لايمكن ان يحمي لبنان ، ذلك ان القوات الدولية التي وضعت على حدود بلدان اخرى لم تمنع اسرائيل من تنفيذ سياستها العدوانية» (٢٦) ٠

٨ ــ وكان الحلف الثلاثي ، بزعامة شمعون والجميل واده ، يعيش انذاك أسعد ايامه ، فعقد ، باسم النواب من اعضائه ، مؤتمرا في مصيف برمانا ، مابين ٧ و٩ اذار (مارس) ، أذاع على أثره بيانا اعلن في احد بنوده المتعلقة بالسياسة الخارجية ، وجوب « الافادة من كل حق يولينا اياه انتسابنا الى منظمة الامم المتحدة ، ولاسيما حق الاستعانة بقوات الطوارىء الدولية لضمان سلامة اراضينا» (٢٧) ٠

وقابل فرسان الحلف الثلاثة رئيس الجمهورية ورفعوا اليه مذكرة مستوحاة من البيان الصادر عن المؤتمر (٢٨) · وخلال المناقشة قـال الرئيس حلو ان قضية البوليس الدولي يقوم خلاف أساسي عليها بين اللبنانيين ولايمكن الموافقة عليها في ظل هذا الخلاف · وتولى العميد اده مهمة الدفاع عن وجهة نظـر الحلف مؤكدا أن قوة الطوارىء الدولية تقف في وجه مطامع اسرائيل التوسعية، ولايشكل دخولها اي افتئات على سيادة البلاد (٢٩) ·

وفي نفس اليوم أذاع الرئيسان عبد الله اليافي وحسين العويني نص المذكرة التي سلماها الى الرئيس حلو ، ردا على بيان الحلف · وقد جاء فيها مايلي :

«ان الحلف يطالب باستقدام قوات أجنبية ، وسواء سميـت قوات طوارىء دولية او غير ذلك ، ففي هذا الطلب نقض صريح لاسس الميثاق الوطني ومس في الصميم لسيادة لبنان واستقلاله ، فضلا عن أنه يعطي انطباعا في الخارج بان لبنان قد انفصل عن المجموعة العربية وعزل نفسه عنها ، وانـه يساهم ، مباشرة أو غير مباشرة ، بالمخططات التي ترسم لتدعيم كيان اسرائيل واثارة الشكوك والخلافات بين الدول العربية ·

«ان الميثاق الوطني الذي اتفق عليه اللبنانيون سنـة ١٩٤٣ ، ومازالوا يتمسكون به شرعة وطنية استقلالية يقضي برفض مبدأ الحمـاية الخارجية ورفض وجود قوات أجنبية على أراضيه · ولذلك فان مطالبة الحلف بحماية دولية أجنبية هو نقض صريح لهذا الميثاق كما قلنا ، وتهـديد مباشر للوحـدة الوطنية المرتكزة عليه ، ناهيك بان مبدأ الاعتماد على الاجنبي لحماية الوطـن والدفاع عن اراضيه خطر وغير مجد ومن شأنه ان يزرع بذور الاتكاليـة والانهزامية في نفوس المواطنين ولاسيما الشباب منهم ، وبالتـالي فانه يضعف معنوياتهم ويعطل منابع الشعور الوطني في نفوسهم» (٣٠) ·

ورد كميل شمعون على هذه المذكرة ، وأكد ان الاستعانة بالبوليس الدولـي ليست لحماية المناطق المسيحية ، بل للذود عن الحدود الجنوبية ، وهي ليست حدودا مسيحية (٣١) ·

٩ ـ وفي النصف الثاني من اذار (مارس) ، دار حوار سيـاسي بين حزبي الكتائب والهيئة الوطنية تركزت المناقشة فيه حول المواضيع السياسيـة التي تسبب الانقسام الداخلي ، وفي مقدمتها مطالبـة الحلف الثـلاثي بالبوليس الدولي · وأعلن ممثل الهيئة الوطنية رأي حزبه بالبوليس الدولي فأكد «انه لن يرضى به لانه دون فائدة ، فغولدا مايير قالت منذ عدة ايام ان البوليس الدولي هو حائط بسيط ويمكن اجتيازه بسهولة ولايشكل اي ضمان لاي بلد» (٣٢) ·

١٠ ـ وفي نهاية اذار (مارس) نشرت صحيفة «الاوريان» ردا على تصريحات اركان الحلف الثلاثي نسبته الى شخصية مقربة من رئيس الجمهورية · ولكن الاسلوب الذي كتب به قد ذكر ، بغمزاته وتورياته واستطراداته ، قراء الفرنسية في لبنان بتلك المقالات التي كان الصحافي شارل حلو يكتبها في افتتاحية صحيفة «لوجور» · وقد جاء في الرد انه «اذا كانت غاية دعوة البوليس الدولي للاقامة على الحدود هي جلب الرساميل والسواح . فان أي سائح أو رأسمال سوف يتحول عن لبنان لمجرد علمه بان لبنان في خطر وأنه يستنجد بالبوليس الدولي» (٣٣) ·

١١ ـ وفي ١١ اب (اغسطس) ، قام الاسطول الجوي الاسرائيلي بهجوم على بعض قرى الجنوب ، فرفع لبنان شكوى الى مجلس الامن · واقترح الامين العام للامم المتحدة ، على كل من لبنان واسرائيل ، الموافقة على زيادة عدد المراقبين الدوليين ووضعهم على جانبي حدودهما المشتركة · وجاء ذلك في رسالة رسمية وجهها الى كل من الحكومتين في ١٩٦٩/٨/١٦ · ولم يحدد الامين العام عدد المراقبين الذي يرتئيه ، ولكنه اكتفى باقتراح « عدد يكفي لاجراء مراقبة فعالة» · ولكن الحكومتين رفضتا ، لاسباب متباينة ، هذا الاقتراح ، فبقي وضع المراقبة الدولية على ما كان عليه ·

١٢ ـ وفي ايلول (سبتمبر) ، عقد في لبنان مؤتمر للاساتذة والطلاب المنتمين الى عدة حركات مسيحية في المشرق العربي ، ضم المطران غريغوار حداد ، والاب جورج خضر ، والاب دوبريه لاتور ، واتخذ عدة قرارات ، منها «ان الحل الوحيد لقضية فلسطين هو بيد الكفاح المسلح الذي يخوضه شعبنا والذي لايمكن ان يتوقف قبل ازالة الدولة الصهيونية كدولة عدوانية وكواقع استعماري ···» ، ومنها كذلك «ان حرية العمل الفدائي ضمن جميع اجزاء الارض العربية أصبح امرا لايمكن التنازل عنه في أي ظرف ، لاننا لايمكن ان نقبل بان تصبح حدود اي بلد عربي حدود أمن وحماية لاسرائيل· ان العمل الفدائي في نظرنا يشكل على المدى الطويل أحد العوامل الرئيسية لحماية الارض العربية من الهمجية الصهيونية التي تتهددها بأسرها» (٣٤) ·

ثالثا ـ مرحلة التبلور ووضوح المواقف (١٩٧٠ـ١٩٧٤)

شهدت هذه الفترة الزمنية عدة احداث سياسية مهمة ، في المجالين الداخلي والخارجي ، ابرزها :

ـ انتخاب سليمان فرنجيه رئيسا للجمهورية بفارق صوت واحد في صيف العام ١٩٧٠ ·

– اجراء اخر انتخابات نيابية في لبنان ، في ربيع العام ١٩٧٢ ، في ظل اجواء ملبدة بغيوم الصراع السياسي ٠

– حدوث الاصطدام المسلح بين السلطة والمقاومة الفلسطينية في ايار (مايو) ١٩٧٣ ، بعد تمكن الاسرائيليين وعملائهم من التسلل الى بيروت ليلا واغتيال بعض قادة المقاومة ٠

– تحقيق العرب لبعض الانتصار في معركة اكتوبر ١٩٧٣ ٠

وعلى صعيد حملة المطالبة بالبوليس الدولي برزت عدة ملامح جديدة ، أهمها :

– التزام احزاب اليمين وأحزاب الحركة الوطنية بموقف معين وواضح تجاه هذه المسألة التي ترددت اصداؤها في المعركة الانتخابية ٠

– تغيير بعض السياسيين لمواقفهم من المسألة ٠

– انضمام بيار الجميل وحزبه الى قافلة المبشرين بالبوليس الدولي ٠

– بداية التحرك رسميا باتجاه البوليس الدولي ٠

– استمرار العميد اده ، الذي ساءت علاقته بالسلطة وانفصل عن الحلف الثلاثي ، في دعوته التي راح يقرنها بالحملة على اتفاق القاهرة ، والتشكيك في تسليح الجيش ، والمطالبة بتقليد السلوك السوري ٠

١ – في بداية العام ١٩٧٠ ، انضم رئيس حزب الكتائب (وكان وزيرا للداخلية) الى العميد اده في حملته ، ودعا الى فتح حوار بناء بهذا الشأن ، وتساءل عن أسباب عدم طلبنا الحماية من الامم المتحدة «بدل ان ندفع كل ثروتنا لشراء السلاح من أجل معركة خاسرة؟» (٣٥) ٠

وزار رئيس الجمهورية وصارحه بان بقاءه في الحكم مرهون بتنفيذ اتفاق القاهرة ، وكرر أمام الصحافيين دعوته لفئة المعارضين لفكرة البوليس الدولي كي يدخلوا ، مع المؤيدين لها ، «في حوار ايجابي ٠٠ للوصول الى مايحفظ سيادة لبنان وسلامة اراضيه» (٣٦) ٠

وزار جمعية المراسلين الاجانب وعقد ندوة كرر فيها رأيه بوجوب استقدام قوات الطوارىء الدولية التي تقوم بمهمة «الدفاع عن الضعيف ضد القوي وتكون مع العدالة ضد الظلم» ٠ ولكنه أكد ، مرة اخرى ، أن أمر دعوة هذه القوات مرهون بموافقة جميع اللبنانيين عليه (٣٧) ٠

وفي نهاية شباط (فبراير) ١٩٧٢ ، كان موعد الانتخابات النيابية يقترب ، وكانت الغارات الاسرائيلية تتكرر على قرى الجنوب ، وكان حزبا الكتائب

والوطنيين الاحرار (بعد انسحاب حزب الكتلة الوطنيـة من الحلف الثلاثي) يعقدان الاجتماعات الدورية للتنسيق بينهما ، وكان رئيس الكتائب ينتهز كل فرصة ليدعو الى « السعي للمطالبة بالبوليس الدولي لحماية الحدود الجنوبية » (٣٨) ٠

٢ ــ واستمر العميد اده في حمل مشعل البوليس الدولي ، ولكنه لاحظ ، بعد توقيع اتفاق القاهرة ، انه «اصبح من الصعب ان تأتي القوات الدوليـة اليوم بعدما وافقت الحكومة اللبنانية على اتفاق القاهرة الذي ٠٠ ينقض اتفاق الهدنة مع اسرائيل واتفاق وقف اطلاق النار ٠٠» (٣٩) ٠ وكان قد قـال في مجلس النواب ان اقتراح طلب قوات الطوارىء الدولية تجاوزته الظروف ولم يعـد واردا ٠ واذا طلبنا اليوم هذه القوات فان الامم المتحدة لن تلبي طلبنا (٤٠) ٠

الا ان العميد كان يحن الى الشعار الذي أطلقه فيعود اليـه بعد كل غـارة اسرائيلية ٠ ففي بداية العام ١٩٧١ ، تعرضت منطقة الصرفند للهجوم فسارع الى المطالبة من جديد بالبوليس الدولي (٤١) ٠

وعندما كانت تقدم مشروعات لتسليح الجيش كان ينبري لمعارضتها والتشكيك في نتائجها ، مؤكدا أن تعزيز قوتنا العسكرية ، في الظروف الراهنة ، لن يغير من واقعنا المر شيئا ٠ ونذكر على سبيل المثال ماقاله في اللجنة النيابية للمال والموازنة ، في ١٩٧١/٢/١٥ ، لدى مناقشة مشروع المئتي مليون ليرة لتسليح الجيش ٠ لقد طرح السؤال التالي :

«اذا اشترى لبنان اسلحة حديثة وزود بها الجيش ، فهل يصبح في الامكان الموافقة على اعطاء أمر للجيش للرد على اسرائيل واسقـاط طائرة هليكوبتر للعدو ، مثلا ، من دون التخوف من ردود الفعل الاسرائيلية والتذرع بالتغطية الجوية التي يملكها العدو ؟ فاذا كان الوضع برغـم تسليح الجيش وانفـاق الملايين لن يتبدل وسيظل الخوف من ردود الفعل الاسرائيلية قائما ، فلمـاذا نخصص اذن كل هذه الملايين ونحرم المناطق اللبنانية من المشاريع الحيوية ومن المدارس والطرق ؟ ألا يكون من الافضل ، والحالة هذه ، أن نظل على مانحن ، لان قوتنا هي في ضعفنا ؟» (٤٢) ٠

وفي مستهل العام ١٩٧٢ ، تكرست القطيعة بينه وبين قطبي الحلف الثلاثي السابق (شمعون والجميل) ، وبدأت علاقاته بعهد فرنجية تتدهور ٠ ورغم ذلك فان ايمانه بالبوليس الدولي لم يتزعزع (٤٣) ٠

وفي صيف العام ١٩٧٤ ، كرر زياراته للجنوب ، محرضا الاهالي على التكتل والتقدم باستدعاء القوات الدولية «لانها الوسيلة الوحيدة التي في امكانهـا أن تضع حدا للهجوم الاسرائيلي على لبنان » (٤٤) ٠ وسئل عن رأيه في استمرار

قصف قرى الجنوب ، فقال : «ان على الحكومة أن تختار بين ثلاثة مواقف :

وضع الجيش اللبناني على الحدود · او الاستمرار في سياسة اللامبالاة ، مع استمرار وجود «الجزمة» الاسرائيلية على ارض الوطن · أو طلب قوات دولية تمنع اسرائيل من الخرق الدائم لاتفاق الهدنة ··» (٤٥) ·

وعندما جرت ، في شباط (فبراير) ١٩٧٤ ، مفاوضات لايقاف اطلاق النار في الجولان وايفاد قوات دولية للفصل بين الطرفين المتحاربين ، انتهز العميد هذه الفرصة ليقول :«اذا وافقت سوريا غدا على وجود قوات دولية على أرضها تتمركز بين الجيش السوري والجيش الاسرائيلي ، فاني سأطلب من الحكومة أن تطلب أيضا قوات دولية تتمركز على الحدود اللبنانية والاسرائيلية، لكي تمنع اعتداءات الجيش الاسرائيلي على قرانا ··» (٤٦) · وكرر هذه الفكرة بعد ذلك في لجنة الشؤون الخارجية النيابية (٤٧) ، وفي الندوة الصحافية التي عقدها بعد عودته من باريس (٤٨) ·

ولعل من أعظم المكاسب التي استطاع العميد اده تحقيقها على صعيد دعوته، في هذه الفترة، أنه تمكن من كسب تأييد رئيس مجلس النواب ، وجعل وزير الداخلية (كمال جنبلاط) يعود الى طرح فكرة الاستعانة بقوات عربية · فالرئيس كامل الاسعد ، بعد معارضته العنيفة لفكرة البوليس الدولي وتصريحه بانه « ضد مناداة لبنان بطلب البوليس الدولي في هذه الظروف ·· لان طلب السلطات اللبنانية للبوليس الدولي اليوم ·· يعني عزل لبنان عن المجموعة العربية وتخليه عن دوره في المعركة المصيرية» (٤٩) ، عاد وتخلى عن هذا الموقف وأعلن تبنيه لاقتراح العميد اده (٥٠) ·

وبعد تدهور الوضع في الجنوب وتوجيه اسرائيل لتهديداتها الى لبنان ، طرح الشهيد جنبلاط اقتراحا قديما له يدعو الى الاستعانة بقوات من دول المغرب العربي ، باعتبار ان هذه الدول لا مطامع لها في لبنان (٥١) ·

٣ ــ وحاولت بعض وكالات الانباء العالمية ، المرتبطة بالامبريالية والصهيونية ، ان تذيع اخبارا ملفقة من شانها اشاعة الفرقة والبلبلة في صفوف الفئات المعارضة لفكرة البوليس الدولي ، فادعت يوما (كما نشرت وكالة رويتر في نبأ لها من باريس) « ان الزعيم الروحي للمسلمين الشيعة في أوروبة دعا الى وضع قوات دولية لحفظ السلام لحماية الشيعة في جنوب لبنان» ، وانه بعث برسالة الى البابا والامين العام للامم المتحدة ورؤساء الدول الاربع الكبرى تحدث فيها «عن المصير المفجع للمسلمين الشيعة المقيمين بالقرب من الحدود الاسرائيلية» ، واقترح ارسال قوات دولية الى جنوب لبنان «كيلا تبقى الاقلية الشيعية المقيمة هناك ضحية العسكرية الصهيونية» ·

وسارع الامام موسى الصدر انذاك الى تكذيب الخبر مؤكدا أن ليس للشيعة زعيم روحي في أوروبة ، وليس لهم اية علاقة بالاقتراح المقدم (٥٢) ·

٤ ـ وفي بداية العام ١٩٧٢ ، وفي أثنـاء الزيارات التي كـان المبعوث الصامت للامم المتحدة (السفير يارينغ) يقوم بها لدول المنطقة ، سرت اشاعـات مفادها أن اتصالات دبلوماسية سرية تجري لاحياء فكرة البوليس الدولي بيـن لبنان واسرائيل ، وذلك من ضمن مشروع التسوية السياسية الذي يعمـل لـه مبعوث الامم المتحدة · وقيل أن بعض الشخصيات السياسية اللبنانية كـانت تشارك في هذه الاتصالات الرامية الى حل مسألة الوجود الفدائي في لبنـان بصورة تجعل انطلاق عمليات المقاومة ضد العدو من الاراضي اللبنانية أمـرا غير ممكن · وذكرت بعض المصادر المطلعة أن لبنان أبلغ الجهات الدولية التي يجري اتصالات صامتة معها أنه يبحث جديا في دعـوة مجلس الامن لارسال قوات دولية الى منطقة الحدود الجنوبية ، على ان يتخذ في ذات الوقت قرارا بالغاء اتفاق القاهرة الذي يعتبره متناقضا مع طلب ارسال القوات الدولية · غير ان السلطات اللبنانية تفضل انتظار بدء الجولة الجديدة للمبعوث يارينغ في المنطقة ، التي تهدف الى تحقيق حل جزئي عن طريق اعادة فتح قناة السويس على اساس القبول بمرابطة بوليس دولي على جانبيها · والدوائر اللبنانيـة تعلق أهمية كبرى على نتائج المساعي الدولية التي يقوم بها المبعوث يارينـغ ، فاذا اسفرت عن اتفاق ، حتى ولو كان جزئيا ، فان الامر يصبح في نظرها اقل تعقيدا ، ويمكن عندئذ الاقدام على خطوة استدعاء البوليس الدولي (٥٣) ·

٥ ـ واضطرت الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية أن تعبر عن وجهة نظرها وتحدد موقفها من اقتراح البوليس الدولي الذي لايختلف في شيء عن مشاريع الضمانات الاجنبية والدولية ، فعقدت في ١٩٧٢/٢/٢٨ ، اجتماعـا أصدرت على اثره بيانا عن الوضع في الجنوب جاء فيه ما يلي :

«··· ومرة اخرى عاد الحديث عن الضمانات الدولية يتجدد · وهو حديث لايرمي في الحقيقة الا الى عزل لبنان عن مجابهة اسرائيل ·· لم يعد للمطالبين بالضمانات الدولية من مخرج سوى المطالبة باستقدام بوليس دولي تكون مهمته حماية اسرائيل وحدودها واقفالها في وجه الشعب الفلسطيني نهائيـا ·· لا لخرافة الضمانات الدولية · لا للبوليس الدولي · جماهير لبنان بتلاحمهـا مع المقاومة هي التي تحمي أرض لبنان» (٥٤) ·

٦ ـ وفي نهاية العام ١٩٧٤ ، ذكرت الصحف أن بعض الوزراء (المنتمين، ولاشك ، الى التيارات اليمينية) طالبوا ، في جلسة مجلس الوزراء ، بوضـع قوات دولية على الحدود اللبنانية مع اسرائيل كحل مؤقت لقضية حماية حدود لبنان ، وان هذا الاقتراح قوبل بمعارضة شديدة من الوزراء الاخرين الذيـن

اعتبروا أن هذه القوات لن تستطيع تشكيل رادع يمنـــع اسرائيل من القيـام بهجماتها (٥٥) ٠

رابعا ـ مرحلة الركود النسبي (١٩٧٥ـ١٩٧٦)

في هذه الفترة ، وبسبب الاحداث الاليمة التي اصابت لبنان ، تضاءل الاهتمام كثيرا بفكرة البوليس الدولي ٠ والصوت الوحيد الذي بقي يذكر الناس بهـا هو صوت العميد اده ٠ لقد ذكر بها في بداية الاحداث ، وخلالها ، وعنـد نهايتهـا ٠

١ ـ في بداية العام ١٩٧٥ ، كرر العميد اده طرح اقتراحه في مناسبـات متعددة ٠ ولعل الشيء الوحيد الذي تميزت به دعوته ، هذه المرة ، هو مطالبته الحكومة اللبنانية ، لدى موافقتها على استقدام القوات الدولية ، بوضع شرط: وجوب انسحاب هذه القوات عندما تطلب الحكومة السورية انسحاب القوات الدولية الموجودة في الجولان (٥٦) ٠

٢ ـ وخلال الاحداث ، تبنت **اللجنة التنفيذية لحزب الكتلـة الوطنية** آراء العميد اده ، وأصدرت ، في ١٩٧٥/٨/٦ ، بيانا استعرضت فيه الاوضـاع الراهنة والهجمات الاسرائيلية المتكررة على قرى الجنوب وختمته بالفقـرة التالية :

«٠٠٠ فعلى ضوء هذا الواقع يرى الحزب أنه بات من الملح ان تبادر الدولة الى مطالبة مجلس الامن الدولي باتخاذ التدابير الفورية التي من شأنهـا ان تضع حدا نهائيا لاعتداءات اسرائيل المتكررة على مدن وقرى لبنان الجنوبي ، وفي طليعتها وضع قوات الطوارىء الدولية على الحدود اللبنانية ، على أن يصار الى سحبها فور سحب القوات الدولية التي تمركزت على الحدود السورية ـ الاسرائيلية أثر حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣» (٥٧) ٠

وعندما تكونت **هيئة الحوار الوطني** كان العميد اده من اعضائها، فاغتنم هذه السانحة ليعرض اقتراحه على « النخبة » السياسية في البلاد ٠ ففي احدى الجلسات تساءل عن طريقة حماية لبنان من الاعتداءات الاسرائيلية ، فقـال : «اني ادعو الى اقتراح قديم ، بل الى الطريقة التي استعملها الرئيس عبدالناصر، وهي استحضار قوات دولية لحماية الحدود الجنوبية ٠٠» ٠ وتساءل ايضـا : « لماذا نعارض القوات الدولية ؟ أليست موجودة في سوريا ؟ لماذا لا تمـدد وجودها من الجولان الى الناقورة لتحمي لبنـان واهـل الجنوب بالدرجـة الاولى ؟ » (٥٨) ٠

٣ ـ ومر ، بعد ذلك ، عام كامل لم يات احد فيه على ذكر البوليس الدولي · لقد كان المواطنون يعيشون تحت وطاة كابوس رهيب · لقد كاد المواطنون ان ينسوا ان لهم حدودا في الجنوب ، متاخمة للكيان الاسرائيلي ، تعيش تحت رحمة الاقدار · ولم تكد الاوضاع الامنية ، في نهاية العام ١٩٧٦ ، تتحسن قليلا حتى خرج العميد اده عن صمته ، وعاد ليثير موضوع القوات الدولية ويطالب الحكومة باستقدامها لانقاذ الجنوب من الضياع (٥٩) ·

خامسا ـ مرحلة الانتكاس والتشكيك (١٩٧٧)

على الرغم من حدوث انقلاب في موقف الرئيس صائب سلام لصالح فكرة البوليس الدولي ، فان هذه الفكرة ، أصيبت ، في الربع الاول من العام الحالي، بانتكاسة ، وتعرضت لحملة تشكيك كان لموقف سوريا أثر فعال في حدوثها ·

ففي نهاية شباط (فبراير) ، ذكرت الصحف ان رئيس الجمهورية أجرى مع عدد من النواب مقابلات استمع خلالها الى ارائهم ومقترحاتهم ، ومن بينها طلب قوات طوارىء دولية للحدود الجنوبية (٦٠) ·

وفي نفس اليوم ، أعلن الرئيس سلام : «ان العدوان الاسرائيلي المسلح الذي توصل الى احتلال اراض عربية واسعة في الجولان وسيناء والضفة الغربية جاء اليوم بتخطيط خبيث يحقق احتلالا مشابها في لبنان باساليب متنوعة لم يعد في الامكان ارجاعه عنها سوى بقوة ردع دولية تحفظ حدود لبنان وتمنع عن الجنوب مايصيبه» (٦١) · ولم يخف رئيس الكتائب سروره بهذا الانقلاب المفاجىء ، فصرح قائلا : «هانحن نرى الان ان الاصوات التي ارتفعت من قبل تعارض استقدام قوات دولية الى الجنوب ترتفع اليوم مطالبة بهذه القوات ، او تبدي الموافقة على وجودها» (٦٢) ·

ومع بداية اذار (مارس) ، بدأت تظهر معالم الانتكاسة التي حلت بالفكرة ، وتلوح في الافق السياسي تباشير التراجع عن الفكرة والتشكيك في فعالية البوليس الدولي · وقد تجلى ذلك في الدلائل والمؤشرات التالية :

١ ـ **تصريحات وزير الخارجية اللبنانية** · فقد سئل الوزير فؤاد بطرس ، بعد جلسة مجلس الوزراء في ١٩٧٧/٢/٢٨ ، عما اذا كان مجلس الوزراء قد قرر طلب قوات دولية للمرابطة في جنوب لبنان ، فأجاب : «لم يتخذ اي قرار في هذا الموضوع ولابحث فيه» (٦٣) · وكان الوزير بطرس قد اجتمع ، في نفس اليوم ، بالسفير الاميركي في بيروت ، فسئل بعد الاجتماع عما اذا كان قد طلب استقدام قوة امن دولية الى الحدود ، فأجاب : «انا لم أطلب شيئا» (٦٤) ·

٢ ـ **موقف السياسيين الشيعة** · فقد عقد تجمع السياسيين الشيعة اجتماعا

برئاسة الامام الصدر ، في اول اذار (مارس) ٠ وسئل الامام ، اثر الاجتماع ، عما اذا كان التجمع قد بحث مسألة استقدام قوات طوارىء دولية الى الجنوب، وعما اذا كانت ورقة العمل التي سيضعها المجتمعون ستوافق على هذه الفكرة، فنفى ان تكون ورقة العمل التي صدرت عن المجلس الاسلامي الشيعي ، أو برامج تجمع السياسيين الشيعة ، قد تضمنت هذا الموضوع ، واشار الى وجود شكوك حول مدى فاعلية القوات الدولية (٦٥) ٠

٣ ـ **تصريح الامين العام للامم المتحدة** ٠ فقد صرح انه لم يتلق حتى الان اي طلب من لبنان لارسال قوات دولية الى حدوده الجنوبية ، وان هذا الموضوع لم يثر خلال زيارته الاخيرة للبنان (٦٦) ٠

٤ ـ **تصريح المندوب الدائم للبنان لدى الامم المتحدة** (ادوار غرة) ، بعد مقابلته للامين العام للامم المتحدة ٠ فقد قال بان «لامعلومات لديه عن الانباء التي تحدثت عن مطالبة لبنان الامم المتحدة بالمشاركة في حفظ الامن فوق اراضيه» (٦٧) ٠

٥ ـ **الموقف الظاهري الجديد لقطبي «الجبهة اللبنانية» (شمعون والجميل)** ٠ فقد بدأت تتراءى في تصريحات الاول ملامح الشك في قدرة القوات الدولية على حماية الجنوب ، وفي تصريحات الاثنين بوادر المطالبة بوجوب الاعتماد على القوات النظامية اللبنانية لوضع حد لمأساة الجنوب ٠

صرح رئيس «الاحرار» بعد اجتماع «الجبهة» قائلا : «لا أجد سببا لعدم استعمال القوات اللبنانية النظامية من جيش وقوى أمن للمحافظة على الشرعية في الجنوب ٠٠ انا لست ضد اقتراح استقدام قوات دولية الى الجنوب ، ولكن هذا الامر ـ ولنكن واقعيين ـ ليس في يدنا» ٠ وتساءل: «هل أكيد ان القوات الدولية تستطيع منع التخريب والحوادث التي تقع في الجنوب ؟» (٦٨) ٠

وأدلى رئيس الكتائب بتصريح جاء فيه مايلي : «٠٠٠ وعلينا الا ندع لاسرائيل الحجج ازاء الجنوب لنعود الى مواجهتها على الصعيد الدبلوماسي والرأي العام العالمي ٠ وليس مايمنع ، الى جانب ذلك ، ان تكون في الجنوب قوة نظامية لبنانية ، أو قوة دولية خارجية يتفق على هويتها ، بغية وضع حد نهائي لمأساة الجنوبيين» (٦٩) ٠

٦ ـ **موقف الحكومة السورية** من فكرة البوليس الدولي ٠ ويبدو انه كان لهذا الموقف الاثر الفعال في كل مظاهر التغير ، أو التبدل ، أو التراجع ، او الاعتدال ، التي طرأت على مواقف البعض من الفكرة٠ فقد نددت صحيفة «الثورة» السورية ، وشبه الرسمية ، في تعليق لها بفكرة ارسال قوات دولية الى الجنوب ، وقالت : «ان القضية هي عبارة عن مسألة عربية محضة ، وان

قوات الردع العربية هي التي يحق لها أن تتواجد في لبنـــان ، وليس قوات دولية كما تطالب بذلك اسرائيل» (٧٠) ٠

٧ ـ **موقف الانظمة العربية** ، المهتمة حاليا بمسألة التسويـــة الشاملة ، من فكرة البوليس الدولي ٠ انها تعتقد ان قطار التسوية السياسية قد تحرك ولابـد له من بلوغ الهدف قريبا ٠ وهي تريد أن تتسلح بمشكلة الحدود الجنوبية للبنان لتناور وتضغط في مفاوضاتها المقبلة ، لانها تخشى ، في حـال التوصل الـى حل لتلك المشكلة بمعزل عن اطار الحل السياسي الشامل الذي تسعى اليـه ، ان يزداد الموقف الاسرائيلي تعنتا وتصلبا ٠

القسم الثاني : حجج المنادين بالبوليس الدولي

يمكننا تلخيص منطق المؤيدين للفكرة على النحو التالي :

ان الجيش اللبناني ، بوضعه الحاضر ، عاجز عن حماية حدودنا الجنوبية٠ وهو يحتاج الى بعض الوقت ليجهز نفسه بالمعدات الحربية الحديثة ويصبـــح بالتالي قادرا على رد الهجمات والغارات الاسرائيلية ٠ ومن الافضل لنـــا ، خلال فترة تجهيزه وتدريبه ، أن نعتمد على مساعدة قوة عسكريـــة خارجية ٠ والمصلحة تقضي باللجوء الى قوات الامم المتحدة حيث تتمثل الدول الكبرى ٠ وضمانات المنظمة العالمية ، في الظروف الراهنة ، هي أحسن الضمانات ٠ وليس من العار ان يجأ لبنان الى هذه الوسيلة للدفاع المؤقت عن حدوده ، فقد سبقته اليها دول عربية أخرى لايشك أحد في تمسكها بسيادتها واخلاصها للقضيـــة العربية والفلسطينية ٠

من هذا المنطق تنطلق معظم المبررات والحجج التي يسوقها العميـــد اده وصحبه من أنصار البوليس الدولي ٠ وللوقوف على أهـــم التفاصيل نوجـز اراءهم حول الموضوع بالنقاط التـــالية (دون تكرار الاستشهـــاد بأقوالهم وتصريحاتهم التي وردت في الصحف السابقة) :

١ ـ ان لبنان بلد صغير لايستطيع أن يحارب وينتصر بامكاناته العسكرية٠ وهو مضطر الى مواجهة أحد أمرين : اما الحرب وأما السلم ٠ وبما أنه عاجز عن خوض غمار الحرب ، **وراغب في المحافظة على جيشه وأرضه وسيادته** ، فلا بد له من طلب قوة طوارىء دولية (٧١) ٠

٢ ـ ان هذه القوة «تفسح في المجال امامنـــا **لتعزيز وسائل دفاعنا** ، وفقـا للاساليب الحديثة والعصرية» (٧٢) ٠

٣ ـ «اذا كان لبنان يريد المحافظة على سيادته وسلامة اراضيه ، **بانتظـــار ان تستعيد الجيوش العربية ، بما فيها الجيش اللبناني ، القوة التي تمكنها من**

محاربة اسرائيل من جديد ، فليس امامه سوى طريقة واحدة هي استدعاء قوة الطوارىء الدولية» (٧٣) ٠

٤ ـ ان هذه القوة هي«**الضمان الوحيد لمنع اسرائيل من الاعتداء على لبنان**»٠ والحصول على هذه القوة سيتم بقرار من مجلس الامن الدولي ، أي بموافقة الدول الكبرى ٠ «وعندئذ لن تتجرأ اسرائيل على ضرب لبنان ٠ وعلى افتراض أنه برغم وجود القوات الدولية أغارت واعتدت على لبنان ، تكون الحكومة قامت بما يمليه عليها ضميرها وواجبها الوطني ، وتكون ، تجاه الشعب ، قد قامت بكل مايمكن القيام به لحمايته» (٧٤) ٠

٥ ـ ان الدول الاربع الكبرى التي صوتت على قرار مجلس الامن ، رقم ٢٤٢، متفقة ضمنا على تنفيذ مضمون هذا القرار بواسطة قوات الامم المتحدة ٠ وقد وافق الاردن ومصر ، ضمنا ، بقبولهما قرار مجلس الامن ، على مبدأ استقدام القوات الدولية لمراقبة الحدود المشتركة بينهما وبين اسرائيل بعد انسحاب هذه الاخيرة من الاراضي المحتلة ٠ ومجلس الامن ، بقبوله ارسال هذه القوات ، سيكون منسجما مع قراره ٠ **ومن الافضل لنا ان نطلب الحماية منه اليوم لئلا نضطر الى التوسل اليه يوما بالبكاء ، طالبين منه رد الاراضي التي تكون اسرائيل قد استولت عليها** ٠ وان وجود القوات الدولية على حدود لبنان الجنوبية سيمنع اسرائيل من وضع يدها على منطقة الجنوب ، أو على قسم منها ، **ويمنع اي اعتداء عسكري اسرائيلي على لبنان ، لانه من غير المعقول ان تتجرأ اسرائيل على مهاجمة دولة.تحميها قوات الامم المتحدة** (٧٥) ٠

٦ ـ ان **القوات الدولية هي « الحل الوحيد لمشكلة لبنان»** ٠ ووجودها على حدودنا يمنع الجيش الاسرائيلي من الاعتداء علينا ، لانه ان فعل خرق حرمة هذه القوات ومس المجتمع الدولي الذي تمثله (٧٦) ٠

٧ ـ ان « **البوليس الدولي ليس عارا على لبنان** ، فدول اخرى عديدة طلبته٠ انه **حل مؤقت سريع كي نؤمن تسليح انفسنا** » ٠ ولا يجوز انتظار هجوم العدو واستيلائه على ارضنا حتى نسارع الى طلب النجدة من القوات الدولية (٧٧) ٠

٨ ـ ان البوليس الدولي الذي قبلت به مصر في العام ١٩٥٦ هو « **الذي امن تراجع الجيش الاسرائيلي عن اراضي سيناء المحتلة** وعودته الى ما وراء حدود هدنة ١٩٤٩ ، والذي حال دون وقوع اي اعتداء اسرائيلي طول احدى عشرة سنة **لم تر فيه مصر افتئاتا على كرامتها ونيلا من سيادتها** ، وهي لم تتعرض لنكسة ٥ حزيران (يونيو) الا عندما قررت الاستغناء عنه » (٧٨) ٠

٩ ـ ان المطالبة بالقوات الدولية **لا تشكل خطوة اولى نحو تدويل لبنان وتحييده** . فلبنان « لا يمكن ان ينادي بالحياد والتدويل ما دام في حالة حرب

مع اسرائيل ، وما دامت تشكل خطرا عليه » · **وليس الهدف من وضع القـوات الدولية على الحدود منع تسلل الفدائيين الى داخل اسرائيـــل** عبر الاراضي اللبنانية ، « فالسوابق لا تتحدث عن سابقة من هذا النوع ، وليسهناك مـــا يثبت ان قوات دولية تمكنت من منع تسلل فدائيين من ارض الى ارض ثانية ··· **واذا كان التسلل ممكنا بوجود قوات دولية فـــان الهجوم العسكري غيــر ممكن** » (٧٩) ·

١٠ ـ ان الغرض من طلب القوات الدولية هـــو **توفيـر الظروف للشعب اللبناني كي « يطمئن وينصرف الى الاعمال البناءة وتنفيذ المشاريع التي يتردد الآن في الاقدام عليها** ··· فلبنان هو الدولة العربية الوحيدة بين الدول المجاورة لاسرائيل ، التي بامكانها ان تطلب قوات دوليـة لوضعهـا عـلى الحدود لان حدودها لم تتعرض لاحتلال خلال حرب حزيران (يونيو) » (٨٠) ·

١١ ـ ان اسرائيل « ليس من مصلحتها وجود مثل هـــذه القوة الدوليـة **لانها تمنعها من تنفيذ خطة التوسع ومن وضع يدها على مياه لبنان الجنوبي واعادة مملكة داوود بجعـل حـــدود اسرائيـــل تمتد حتى نهـــر الاولي** · لذلك فان كل شخص يعارض قوة الطوارىء الدولية يخدم مصلحة اسرائيـــل ومطامعهـــا » (٨١) ·



تلك هي أهم المبررات التي يدلي بها انصار البوليس الدولي · ولا بـد لنا ، قبل الانتقال الى استعراض وجهة نظر المعارضين ، من ابداء الملاحظات المهمـة التاليـــة :

الملاحظة الاولى هي ان العميد اده ما زال حتى اليوم زعيم الحملة المطالبـة بالبوليس الدولي · ولهذا اعتمدنا في معظم الاستشهادات والامثلة التي اوردناها على اقواله وتصريحاته · غير ان اقطاب « الجبهـــة اللبنانية » ، وبعـض السياسيين التقليديين ، اخذوا اليوم ، في غياب العميد عن لبنان ، يرددون، دون تغيير او تحوير يذكر ، نفس الحجج والمبررات التي ما فتىء يدلي بهـا منـذ العـــام ١٩٦٥ ·

والملاحظة الثانية هي ان الرئيس صائب سلام قد تخلى مؤخرا عن موقفـه السابق المعارض لاستقدام قوات دولية ، واتى بحجة جديدة تنسجم ، الى حـد بعيد ، مع فكرة التدويل التي يرفعها اركان «الجبهة اللبنانية» · فاللبنانيون ، في رايه ، قد بداوا يشعرون بالامن والاستقرار بعد دخول قوة الـــردع العربية ، « ولكن الظروف الدولية حالت دون قيام هذه القوة بتوطيد هذا الامن والاستقرار

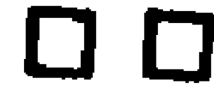
في الجنوب وحماية ابنائه ، فأصبح الواقع الخطير المرير يتطلب قيام قوة ردع دولية بهذا الواجب الملح في المحافظة على حدود لبنان ٠ وليس من مصلحة احد ان يتوانى في المطالبة به ٠٠٠ فالقوات الدولية اصبحت محيطة باسرائيل في كافة حدودها مع سوريا ومصر والاردن ، واصبحت الحاجة ملحة بحيث يمتد هذا الحزام الامني الدولي في الارض العربية فيشمل حدود لبنان » (٨٢) ٠

والملاحظة الثالثة هي ان السابقة المصرية ، اي قبول مصر بالقوات الدولية بعد العدوان الثلاثي ،بقيت حتى معركة اكتوبر ١٩٧٣ ، المثال المفضل الذي يستند اليه معظم المنادين بفكرة البوليس الدولي في لبنان ٠ وبعد المعركة المذكورة اقلع الجميع تقريبا عن الاتيان على ذكرها وراحوا ، من وقت الى اخر، وبشيء من الخجل ، يطالبون بالتشبه بسوريا التي رضيت بتمركز القوات الدولية في الجولان ٠ ولعل السبب في اغفال كل حديث عن السابقة المصرية يكمن في ان القوات الدولية لم تتمكن ، خلال عامي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، من منع الصدام بين الطرفين المتنازعين ٠

الملاحظة الرابعة هي ان انصار القوات الدولية كانوا ، في البداية ، يعتبرون ان وجود هذه القوات على الحدود لا يتناقض مع العمل الفدائي والتسلل الى الارض المحتلة ٠ ولكنهم غيروا موقفهم مؤخرا وراحوا يؤكدون على ان وجود الفدائيين على الارض اللبنانية يتنافى مع نصوص الهدنة ويعطي اسرائيل ذريعة لمهاجمة لبنان ويجرد القوات الدولية من كل فعاليتها ٠

والملاحظة الاخيرة هي ان العميد اده لم يتخل حتى اليوم عن موقفه من القوات الدولية ، الا ان حماسته لهذا الامر قد عرفت حالات من الارتفاع والهبوط ولعل السبب في ذلك يعود الى التغيرات والتقلبات والتطورات التي كانت تعتري مواقفه من العهود والحكومات المتعاقبة ٠ ثم ان الدوافع والمبررات التي كانت تدعوه الى المطالبة بهذه القوات كانت تختلف باختلاف الظروف والاحداث ٠ ففي ١٢ـ١ـ١٩٦٥ ، بحثت لجنة الشؤون الخارجية النيابية موضوع روافد نهر الاردن ، فتقدم العميد باقتراح استدعاء بوليس دولي وقال : « قبل ان نحول مجرى الوزاني والحاصباني علينا ان نطلب قوات دولية تتمركز على الحدود ، فاذا حصلنا عليها تكون هيئة الامم قد وافقت على التحويل » ٠ وعلى اثر انهيار الجيوش العربية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، رأى العميد « انه اصبح من السهل على اسرائيل ان تستولي على قسم من لبنان الجنوبي وعلى المياه التي تجري هنالك، خصوصا بعدما اعطيناها العذر للقيام بعمل عسكري عندما وافقنا رسميا على النشاط الفدائي عبر الاراضي اللبنانية » (٨٣) ٠ وعندها ، وللمرة الثانية ، طالب بالقوات الدولية ٠ وطالب بها ، للمرة الثالثة ، بعد الغارة على المطار ٠ اما اليوم فمبرراته تتلخص في الاوضاع المتردية التي تعيشها البلاد بعد

عامين من الحرب الاهلية ، وفي انقسام الجيش على نفسه وصعوبة الاعتماد عليه لحماية الحدود ، وفي احتمال التوصل الى تسوية سلمية للقضية الفلسطينية ٠



القسم الثالث : حجج المعارضين للبوليس الدولي

وللمعارضين حججهم ومبرراتهم كذلك ٠ وهي ترتكز على عدة اسس ، اهمها :

أ ـ الاعتقاد بان القوات الدولية لن تستطيع منع اسرائيل من مهاجمة لبنان ٠

ب ـ الشك في قدرة هذه القوات على حماية حدودنا ٠

جـ ـ وجوب التشبه باسرائيل التي لم تلجأ حتى الان الى الحماية الدولية ٠

د ـ اعتبار القوات الدولية حماية اجنبية مقنعة ٠

هـ ـ التأكيد على ان الغرض من هذه القوات حماية اسرائيل من العمل الفدائي ، واجهاض هذا العمل ،وعزل لبنان عن المحيط العربي ، وعرقلة اي مشروع للخدمة العسكرية الالزامية ٠

و ـ التركيز على وجوب استعداد لبنان عسكريا للقيام بواجب الدفاع عن النفس وحماية الحدود ٠

وسنستعرض بشيء من التفصيل وجهة نظر المناهضين للفكرة ، دون ترداد ما سبق لنا ان استشهدنا به من اقوالهم ٠

١ ـ اكد المعارضون ، في مناسبات عدة ، على ان **اسرائيل لن تتورع عن غزو الجنوب واجتياح اية بقعة في لبنان عندما تصمم على ذلك** ٠ ان اسرائيل لا تحترم العهود ، ولا تقيم وزنا للمواثيق ، ولا تحجم عن ارتكاب المحرمات في سبيل الوصول الى غاياتها ٠ واقوال التلمود ، وكتابات زعماء الصهيونية ، وتصرفات الساسة والعسكريين فيها ، خير شاهد على ذلك ٠ ولهذا فان اسرائيل ستجتاح ، عندما تجد الفرصة مؤاتية ، القوات الدولية ، اذا وضعت على حدودنا ، وتبطش بها دون ان تخشى في ذلك لومة لائم ٠ وهذا ما حصل لقوات الطوارىء الدولية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، عندما اجتازت القوات الاسرائيلية حدود الهدنة وقتلت العشرات من جنود القوات الدولية التي تأخر انسحابها في ذلك الوقت (٨٤) ٠

وفي العام ١٩٦٨ ، رد الرئيس عبدالله اليافي على اقتراح العميد اده، فقال : « ان اسرائيل عندما تريد ان تعتدي ، لا يهمها البوليس الدولي ولا هيئة الامم المتحدة · والشواهد على ذلك اكثر من ان تحصى » (٨٥) ·

وتحدث المرحوم الشيخ موريس الجميل (وكان من اركان المكتب السياسي لحزب الكتائب) عن موضوع البوليس الدولي في لجنة التصميم النيابية فقال : « ان اسرائيل عندما ترى نفسها قادرة على الاستيلاء على منابع المياه ومضطرة الى ذلك بحكم نفاد الاحتياطي من مياهها الجوفية ، وذلك ما سيحصل فعلا في مدة اصبحت وجيزة ، لن تعدم الحجة والمبررات للاستيلاء على الجنوب ومنابعه » (٨٦) ·

٢ ـ واكد المعارضون على ان لبنان عضو مؤسس في الامم المتحدة التي قامت للمحافظة على السلام والامن الدوليين ، وحماية اعضائها من خطر العدوان او التهديد بالعدوان · فاذا كانت هذه المنظمة قادرة ومصممة على رد غائلة العدوان عنا ، فوجود البوليس او عدم وجوده سيان · ولكن المؤسف ان هذه المنظمة العالمية ما زالت تخضع للمساومات بين الكبار ، وتتردد في تنفيذ قراراتها ، وتحجم عن انزال اية عقوبة باسرائيل التي ادينت عشرات المرات منذ قبولها المشروط في العضوية الامية (٨٧) ·

ولاحظ المعارضون ان العميد اده ، وهو عميد المطالبين بالقوات الدولية ، يكرر دائما القول بان لبنان ، بسبب ضعف امكاناته ، عاجز عن تأمين الدفاع عن نفسه ، ويعبر عن ايمانه بقدرة القوات الدولية على حماية لبنان من اي هجوم اسرائيلي (٨٨) · غير ان العميد اده قد ناقض نفسه بنفسه عندما اجتمع بالملك حسين ، في ١٣ـ٩ـ١٩٦٩ ، واقترح عليه ان تتفق الدول العربية على الانسحاب من هيئة الامم المتحدة لانها « تحولت الى حائط مبكى دون ان تكون لها القدرة على تنفيذ قراراتها » (٨٩) ·

وتساءل المعارضون بدهشة : اذا كانت الامم المتحدة ، كما يؤكد العميد ، عاجزة حقا عن تنفيذ قراراتها ، فكيف يريد منا ان نطمئن الى ان القوات الدولية التي سترسلها الينا ستكون قادرة على حمايتنا ؟

وانتهز العقيد نجيب الخوري ، نائب جبيل ، صدور هذه الهفوة عن العميد فابرز التناقض في موقفه واتهامه بالازدواجية ، وقال : « ان الازدواجية في شخص النائب ريمون اده بدات تناقض نفسها ، فهو يطالب باستدعاء البوليس الدولي لحماية الحدود الجنوبية ، ومن جهة ثانية يطالب بانسحاب الدول العربية من الامم المتحدة ، لان هذه المنظمة ، حسب تعبيره ، عجزت عن تنفيذ مقرراتها بالنسبة لاسرائيل » (٩٠) ·

٣ ـ وشبه احد المعارضين مشروع البوليس الدولي « بثري عنده بستان ولا يريد ان يسهر عليه ويحميه ، فيستأجر ناطورا ثم ينام هو ويرتاح ٠٠٠ » وتساءل : « هل الوطن اللبناني بلاد بلا شعب ، او شعب بلا رجال ، او رجال بلا رجولة ، حتى يبحثوا له عمن يحميه ؟٠٠٠ **اسرائيل المطوقة بالقوى العربية تتجنب طلب الحماية الدولية ، شكليا** ، فيجب ان نرفض اي وجود دولي في المنطقة قبل ان نثبت وجودنا » (٩١) ٠

ووجد معارض اخر ان « اقتراح الاستعانة بالبوليس الدولي اشبه بمن يحاول صيانة زهرة نادرة من اعاصير الرياح وخطر الجراثيم والسموم ،فيعمد الى وضعها في بيت من زجاج تجنبا لها من الهلاك ٠٠٠ ثم تثبت له الايام ان الازهار بحاجة الى الرياح ، وان مواجهة الجراثيم والسموم تكسبها مناعة وقوة ، وان الحياة لا تؤخذ الا في ظل خطر الموت ٠ **ولو قدر لاقتراح العميد اده** ان يوضع موضع التنفيذ ، فسوف تكون النتيجة **ان الحس الوطني سوف يزول ، وان لبنان اللا وطن سوف يتدعم** ٠٠٠ وبذلك يكون الخوف على حدود لبنان قد اودى بمعنى الوجود اللبناني ٠٠٠ **كنا نفهم لهفة العميد على المطالبة ببوليس دولي لحماية حدود لبنان لو اننا استنفدنا كافة امكانياتنا الذاتية ووجدناها غير كافية للوقوف امام العدو** » (٩٢) ٠

٤ ـ وبعد الغارة على مطار بيروت ، واشتداد الحملة من جديد للمطالبة بالبوليس الدولي ، وجدت الاوساط الوطنية ان تصميم المسؤولين على عدم مقاومة الهجمات الاسرائيلية ينسجم مع سياسة الحماية الاجنبية التي تبنتها العهودالسابقة ، وان هذه السياسة تحقق بالفعل الاهداف التي يسعى اليها كل من الاستعمار واسرائيل :

ا ـ فالحماية الاجنبية هي الوجه الاخر لسياسة اللامقاومة ، اي رفض الاستعداد لمجابهة خطر اسرائيل الدائم ٠ وهذا يعني ضرب الحركة الشعبية التي تريد المقاومة والاستعداد ٠

ب ـ والحماية الاجنبية ، سواء اكانت بوجود قوات اجنبية ام بوجود قوات دولية على الحدود ، **تعني ضرب العمل الفدائي ووضع حاجز منيع ضده** ٠

ج ـ والحماية الاجنبية **تعني التمهيد لمشاريع تصفية القضية الفلسطينية** ، التي تعد الان تحت اسم : الحل السلمي والسياسي (٩٣) ٠

٥ ـ وتحدث الشهيد جنبلاط عن شعار استقدام البوليس الدولي (الذي اطلقه العميد اده) ، وعن شعار تدويل لبنان (الذي اطلقه بيار الجميل بعد نكسة حزيران / يونيو ، مباشرة) ، فوجد « ان الشعارين متلازمان يكمل

احدهما الآخر ، ويستهدفان سلخ لبنان عن الكيان العربي وانتمائه الطبيعي لهذا المصير » ، واعتبر « ان استقدام البوليس الدولي يعني في الحقيقة والواقع اول مرحلة من مراحل المخطط الذي وضعته الانعزالية اللبنانية ، في شكلها المتآمر الحلفي ، مع اسرائيل لاجل تمكين الحلف من القيام بدوره الفعال في هذا الاتجاه » · واكد انه يكاد يرى مراحل هذا التخطيط تتوالى على الشكل التالي :

ـ اولا ، استقدام البوليس الدولي لحماية الحدود بين لبنان واسرائيل ، وكذلك للفصل بين لبنان وسوريا ·

ـ ثانيا ، قيام ارباب الحلف الثلاثي ، بعد استقدام هذا البوليس ، باستنفار شامل لطاقاتهم ورجالهم من اجل القيام بفتنة شعبية يفتعلونها بقصد استقطاب معظم الجماهير المسيحية حولهم ·

ـ ثالثا ، مطالبة ارباب الحلف ، في ظل وجود هذا البوليس ، بتدويل لبنان ، اي بجعله محكوما مباشرة من الامم المتحدة ، او بالحصول على كفالة دولية من بعض الدول الكبرى لحدوده ، او (وهو الامر الاكثر احتمالا وخطورة) قيام ارباب الحلف بالمطالبة بانشاء وطن قومي طائفي ··· (٩٤) ·

وبعد اسبوع ، كتب الشهيد جنبلاط مقالا كشف فيه خطورة الدعوة الى البوليس الدولي · وجاء فيه :

« ··· ان استقدام البوليس الدولي ، في هذا الظرف ، يعني عمليا استغناء لبنان عن القيام باي واجب دفاعي لتقوية جيشه ، وانسحابه من المعركة العربية المشتركة · ان استقدامه ليس لاجل صيانة حدود لبنان ضد اي عدوان مرتقب من اسرائيل بقدر ما هو توكيد الطابع الدولي للبنان ، والاستعانة بهذا البوليس فيما بعد لمراقبة الحدود العربية بيننا وبين سوريا ، وللقضاء على اي نشاط فدائي · واذا توغلنا اكثر في استكشاف بواطن الامور رأينا ارباب الحلف جادين متحفزين للقيام ببعض اعمال التخريب ، او لاطلاق لهيب الفتنة الداخلية والطائفية في البلاد فور ما يستقر بالبوليس الدولي المقام ، لكي يستطيع هذا البوليس الدولي حماية هذه الفتنة ، ولكي يستطيع ارباب هذه الفتنة من التقدم من الامم المتحدة ومن العالم للمطالبة بما هم يكونون قد صمموا عليه من تجزئة الكيان اللبناني ، وتحقيق جزء من المشاريع الصهيونية » (٩٥) ·

٦ ـ وكشف المعارضون عن هاوية التناقض التي يقع فيها انصار البوليس الدولي عندما يدعون (واحيانا يفاخرون) بان قوة لبنان في ضعفه ، او في براعة ديلوماسيته ، او في عمق صداقاته الدولية ، ثم لا يتورعون عن ابداء

تخوفهم من الهجمات الاسرائيلية والمطالبة بحماية البوليس الدولي · لقد تحدث رئيس الكتائب ، بعد احدى الغارات الاسرائيلية على الجنوب ، فقال : « اذا استطاع لبنان ان يحافظ على حدوده حتى الان ··· فذلك بفضل دبلوماسيته لا بفضل القوة العسكرية · واذا كان الاسرائيليون قد انسحبوا من اراضينا فان ذلك يعود الى دبلوماسية لبنان وصداقته الدولية، لا الى قوته العسكرية» (٩٦)·

والمعارضون يتساءلون عن مبررات استدعاء البوليس الدولي ما دامت الدبلوماسية او الصداقة الدولية اقوى من القوة العسكرية ، وما دام لبنان يستطيع الاعتماد على احداهما او كليهما ليضمن عدم الاعتداء عليه ·

٧ ـ واثار المعارضون موضوع التجهيز العسكري للقوات الدولية ، فاكدوا ان هذه القوات تكون عادة مزودة بمعدات حربية بسيطة لا تسمح لها بالتصدي لاية قوة نظامية · ومعنى ذلك ان اسرائيل ، اذا قررت غزونا او ارتكاب عمل انتقامي ضدنا ، فستجد القوات الدولية نفسها عاجزة كل العجز عن صدها او تجميد تحركها · هذا بالاضافة الى ان هذه القوات لا تلجأ الى استخدام سلاحها الا عند الضرورة القصوى ، اي في حال الدفاع المشروع عن النفس ·

قال الامام الصدر ، بعد اجتماع للسياسيين الشيعة ، « ان هناك شكوكا واضحة في مدى فاعلية هذه القوة ، باعتبار ان اسرائيل تستغل الخلاف القائم ، ثم انها تشجع على هذا الخلاف وتقصف الجانبين بصورة مباشرة او غير مباشرة وتجعل الصراع الداخلي متفجرا باستمرار · اذن ما هو المطلوب من القوة الدولية للسلام · اين تقف وماذا تفعل ؟ » (٩٧) ·

٨ـ وأوضح المعارضون ان المنادين بالبوليس الدولي يحاولون دائما ايهام الرأي العام بان الخطر الاسرائيلي لا يطل الا من الحدود الجنوبية · والحقيقة ان القوات الاسرائيلية ليست بحاجة الى عبور حدودنا عند تصميمها على غزونا ، او الاغارة على مطارنا ومرافئنا ، او تخريب مؤسساتنا ومنشآتنا · ان بامكانها استخدام الجو او البحر · واذا لجأت الى هذا الاسلوب ، كما فعلت عند ضرب المطار واغتيال القادة الفلسطينيين في وسط بيروت ، افقدت البوليس الدولي كل فعاليته ·

وحول هذه النقطة كتب زميلنا الدكتور جورج ديب يقول :

« من يمكنه ان يؤكد ان اسرائيل ستهاجم لبنان برا من الجنوب ؟ هل نقع في نفس الغلطة مرة ثالثة ؟ في المرة الاولى انتظر العرب الضربة الاسرائيلية من الشرق فجاءت من الغرب ، وفي المرة الثانية انتظر لبنان ان تضرب اسرائيل جنوب لبنان ، فاذا بها تضرب مطار بيروت · هل نقع في نفس الغلطة فننتظر

الهجوم على لبنان برا من الجنوب فنضع قوات دولية هناك ، فاذا باسرائيل تاتينا جوا وبحرا ؟··· وهذا يعني ان البوليس الدولي لا يمكن ان يمنع اعتداء اسرائيليا » (٩٨) ·

٩ ـ وبعد كل ما تقدم طرح المعارضون على انفسهم السؤال المهم التالي :

هل تمركز البوليس الدولي ضمن الاراضي اللبنانية كفيل بحمايتنا ومنع اسرائيل من الاغارة علينا ، او احتلال جزء من ارضنا ؟

ووجدوا ان كل السوابق تجيب بالنفي (مقتل العشرات من القوات الدولية المرابطة في غزة من قبل الاسرائيليين ، عند بداية معركة ١٩٦٧ · وبعضهم قتل عمدا) ·

ووجدوا كذلك ان تاريخ اسرائيل الحافل بالارهاب والاجرام لا يوحي بالثقة (اغتيال الكونت برنادوت · وطرد المراقبين الدوليين من منطقة العوجة في العام ١٩٥٥ · وتهديد الجنرال فون هورن ، كبير المراقبين ، ومعاونيه بالقتل · ارتكاب مجازر دير ياسين وكفر قاسم ···)

ووجدوا ايضا ان اسرائيل تتعامل مع الامم المتحدة وفروعها باستهتار واحتقار · الم تهن اسرائيل المنظمة العالمية وتحقر مجلس الامن عندما اعتبرت القرار الصادر عنه في ٢٦ـ٨ـ١٩٦٩ ، والمتعلق بالهجوم على جنوب لبنان ،انه « كالاجراءات التي سبقته حادث دبلوماسي مصيره تنكة الزبالة » ؟ (٩٩) ·

وتساءل المعارضون اخيرا عن دوافع المندفعين وراء سراب البوليس الدولي واغراضهم فوجدوها في الرغبة في عزل لبنان وابعاده عن مسيرة المصير العربي المشترك ، وايقنوا ان المطالبة بالبوليس الدولي تنطوي (ادرك الانصار ذلك ام لم يدركوا) على :

ـ محاولة لوأد كل مشروع يرمي الى اقرار خدمة العلم ·

ـ تسليم او اقتناع ساذج بان اسرائيل لا تطمع في لبنان ، وبان الدول والمنظمات العالمية قادرة على حمايتنا وراغبة فيها ·

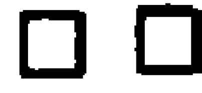
ـ خطوة تمهيدية ، قد تعقبها خطوات اخرى ، لاقامة تعايش سلمي بيننا وبين اسرائيل ·

ـ تنازل فاضح عن حق اللبنانيين في اعداد انفسهم للدفاع عن وطنهم بانفسهم ·

ـ اجهاض العمل الفدائي وحماية اسرائيل منه ، لا حماية لبنان من اسرائيل ·

ـ تشجيع الدول العربية المتاخمة للكيان الاسرائيلي على المطالبة ، فيما بعد، بالبوليس الدولي ، مما يسفر عن حماية اسرائيل وتخلي الاجيال العربية نهائيا عن فكـرة التحرير ٠

ـ مرحلة اولية لتعميم فكرة الحماية الدولية على النطاق العربي ، فقد تعمد بعض الانظمة العربية الى افتعال الازمات مع جيرانها العرب لتطالب ببوليس دولي على حدودها ، فتعزل نفسها عن بقية الاقطار العربية، وتقضي بذلك على عملية التفاعل والتقارب بين الجماهير العربية (١٠٠) ٠



القسم الرابع : موقف اسرائيل من البوليس الدولي

تميز موقف اسرائيل ، منذ انشاء هذا الكيان ، بالرفض المطلق لفكرة القوات الدولية على حدودها الشمالية ، بل بالرفض المطلق لاي وجود دولي يمت بصلة الى منظمة الامم المتحدة ٠ ان اتفاقية الهدنة بينها وبين لبنان تنص على وجود مراقبين دوليين على جانبي خط الهدنة ٠ ومع ان عدد هؤلاء المراقبين كان ضئيلا ، فانها انتهزت فرصة انتصارها في العام ١٩٦٧ ، وارتكاب الحكومة اللبنانية لخطأ الموافقة على قراري وقف اطلاق النار ، لكي تستغني نهائيا عن خدمات المراقبين المرابطين على حدودها ٠

وعندما كانت مسألة القوات الدولية تثار على الصعيد اللبناني او العالمي ، كان المسؤولون في اسرائيل يسارعون الى حسم الامر واعلان الرفض ٠ ففي حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، القت غولدا مايير (رئيسة الحكومة) خطابا في فيينا تطرقت فيه الى هذه المسألة واعلنت رفضها لاي اقتراح بارسال قوات دولية تعمل على احلال السلام في المنطقة (١٠١) ٠ وفي شباط (فبراير)١٩٧٤، اكد ناطق بلسان وزارة الخارجية الاسرائيلية ان الوزارة لم تطلب من الامم المتحدة ، بشكل رسمي او غير رسمي ، ارسال قوات دولية الى الحدود اللبنانية الاسرائيلية (١٠٢) ٠ وفي حزيران (يونيو) من نفس العام ، اعلن شمعون بيريز (وزير الدفاع) رفضه للقوات الدولية وقال ان على لبنان ان يتحمل مسؤولية تسلل الفدائيين لا الامم المتحدة (١٠٣) ٠

ورفض اسرائيل للقوات الدولية كان رفضا مزدوجا يشمل امكان تمركز هذه القوات على اي من جانبي خط الهدنة ٠ وبقيت اسرائيل متمسكة بهذا الموقف المتصلب حتى نهاية العام ١٩٧٦ ٠

فكيف نفسر هذا الرفض ؟ او ما هي العوامل او الخلفيات الكامنة وراء

معارضة اسرائيل لارسال قوات دولية الى الطرف الشمالي من حدودها ، او الى الطرف الجنوبي من حدود لبنان ؟ لعل التفسير يكمن في احد الاسباب ، او كل الاسباب التالية :

١ ـ ان لاسرائيل مطامع في جنوب لبنان ٠ وهي تريد ان تبقى حدودهـــا المشتركة مع لبنان بلا قوات دولية لئلا تحول هذه القوات دون تحقيق هـــذه المطامـــع ٠

ولهذا كان العميد اده يطالب دائما بوجوب تمركز القوات الدولية على الحدود اللبنانية فقط ، لان اسرائيل لا تقبل مطلقا بوجود مثل هذه القوات على حدودها بسبب اطماعها التي ترجع الى سنة ١٩١٩ (١٠٤) ٠ وتحدث ، في احـــدى المناسبات ، عن هذا الموضوع فقال ان « موقف اسرائيل بالنسبة الى لبنـــان واضح ٠ فاسرائيل تريد تنفيذ الخطة المرسومة منذ العام ١٩١٩ ، عندما كانت تطالب بمرتفعات جبل الشيخ وبان تكون حدودها الشمالية مع لبنان نهـــر الليطاني ، كي تتمكن من استثمار قسم من مياهه وان تستثمر مياه الحاصباني٠ وهذا الموقف واضح في رسالة وايزمان الى لويد جورج ، سنة ١٩١٩ ٠٠٠ لذلك رفضت اسرائيل في الماضي وترفض اليوم وسترفض غدا تمركز القوات الدولية على حدود لبنان » (١٠٥) ٠

٢ ـ ان اسرائيل تحتل بعض المواقع والمراكز المهمة في الاراضي اللبنانية ٠ وهي تخشى ان تكتشف القوات الدولية ذلك وتجبرها على الانسحاب منها ،فهذه القوات ، ان قدر لها المجيء ، ستتمركز على الحدود الدولية التقليدية ، وقـــد تختار نفس المراكز المحتلة او بعض المراكز الملاصقة او المتاخمة لها ٠

٣ ـ ان اسرائيل ترغب (وان كان الكثيرون لا يصدقـــون ذلك) في عقـــد معاهدات صلح مع الاقطار العربية ٠ وهي تعتقد ان وجود القوات الدولية على الحدود قد يؤدي ، في حال نجاحها ، الى تمنع او تلكؤ لبنان وبقيـة الاقطار العربية في عقد هذه المعاهدات ٠

٤ ـ ان اسرائيل تعتقد ان ثمة فرقا بين القوات الدولية المرابطة في سينـــاء والجولان وبين القوات التي يمكن ان ترابط على حدودها مع لبنان ٠ ان الاولى تتمركز في مناطق تتميز بقلة سكانها ، وضعف اهميتها الاقتصادية ، وبعدها عن مراكز الثقل في اسرائيل ٠ اما الثانية فستكون على مقربة من مراكز النشـــاط والحركة والانتاج فيها ، وستعرقل مشاريعها التوسعية في جنوب لبنان ٠

٥ ـ ان اسرائيل قد بذلت حتى الان كل الجهود واستخدمت كل الوسائـل للقضاء على العمل الفدائي ، فعجزت ورفضت الاعتراف بهذا العجز وادعـــت ان النشاط الفدائي لا ينبع من الداخل وانما ياتي من الخارج ، وخصوصـــا

من لبنان · ومع ان الايام والاحداث قد برهنت على ان السنابل الفدائية اصبحت تنبت في ارض فلسطين ، فان هدوء الاوضاع على جبهات دول الحدود العربية، باستثناء الحدود اللبنانية،قد سمح لاسرائيل **بتحميل لبنان مسؤولية كل عملية فدائية تجري على حدودها او في داخل الارض المحتلة** · واسرائيل تخشى وجود قوات دولية على الحدود لان هذا الوجود كفيل بالكشف عن تحرك الفدائيين ، واثبات صحة العمل الفدائي الداخلي ، وتبرئة الساحة اللبنانية مما ينسب اليها زورا في معظم الاحيان ·

والحقيقة ان موقف اسرائيل من مسالة القوات الدولية على الحدود اللبنانية كان دائما موضع استغراب وتعجب · وكان الكثيرون يبحثون عـــن تفسير او تعليل لموقفها المتناقض من هذه القوات : فهي ترضى بها في سيناء والجولان، وترفضها على حدود لبنان ، على الرغم من شكواها الدائمة من تسلل الفدائيين عبر هذه الحدود ، وعلى الرغم من كون هذه القوات اشد فاعلية من السلطات اللبنانية في منع التسلل الفدائي ·

ولاحظ العميد اده هذا التناقض ، في صيف العام ١٩٧٤ ، عندما جمـــدت جميع العمليات الفدائية التي كانت تنطلق من الاراضي اللبنانية دون ان يؤدي ذلك الى توقف العمليات التي كانت تنطلق من داخل الاراضي المحتلة · وعثـــر العميد على التفسير عندما اكد ان « اسرائيل تريد ان تقول العكس ، لكي تجـــد ذريعة لضرب لبنان والمدنيين الامنين في لبنان » (١٠٦) ·

٦ ــ ان اسرائيل تعرف حق المعرفة ان الحرب بينها وبين العرب قادمه يوما، وان عدوها الذي تخشاه في الشمال هو سوريا وليس لبنان· ولكن الاستراتيجية العسكرية تحتم على اسرائيل ، عند اندلاع الحرب ، **مهاجمة سوريا من الاراضي اللبنانية** · وقد تعرقل وجود القوات الدولية على الحدود اللبنانية مخططاتهـــا الهجومية (١٠٧) ·

٧ ــ ان الولايات المتحدة لا ترغب في ارسال قوات دولية الى المنطقـــة · ان مصلحتها تقضي بأن تبقى المنطقة على فوهة بركان · ان اهتمامها بالمنطقـــة يرتبط بمدى توافر النفط فيها · وتأمين السيطرة على النفط لا يتم الا بحرمـــان المنطقة من الراحة والاستقرار ·

وقد وعى العميد اده هذه الحقيقة عندما اتهم الولايات المتحدة بان « ليـــس لها مصلحة في ان تقف هذه الغارات وهذا الهجوم الاسرائيلي العسكري ضـــد لبنان » · وشرح ذلك بقوله : « مصلحة اميركا هي مصلحة اسرائيل ، ومصلحة اسرائيل هي مصلحة اميركا· ويمكن ان تكون اسرائيل اليوم هي النجمة الـــ ٥٢ او الـــ ٥٣ في العلم الاميركي · واميركا عندها اسطـــول سادس في البحر ،

واسطول سادس بري هو اسرائيل ، واسرائيل موجودة لتدافع عن مصالح اميركا · وانا اعتقد انه في اليوم الذي تفرغ فيه ابار البترول في المنطقة ستترك اميركا اسرائيل تتدبر امرها بنفسها » (١٠٨) ·

وبقيت اسرائيل متمسكة بموقفها الرافض من مسالة القوات الدولية حتى نهاية العام ١٩٧٦ · ففي هذه الفترة التي تدفقت فيها قوات الامن العربية على لبنان ، زعم اسحق رابين (رئيس الحكومة) « ان ليس لدى اسرائيل مطامع في شبر واحد من الارض اللبنانية » (١٠٩) ·



وابتداء من نهاية شباط (فبراير) ١٩٧٧ ، بدأت التصريحات الاسرائيلية تسجل تراجعا ملموسا في هذا المضمار · وهذا التراجع يتميز بأمرين بارزين :
الامر الاول هو اكتفاء اسرائيل بمعارضتها لارسال قوات دولية الى حدودها واعلان عدم اعتراضها على ارسالها الى لبنان · ففي نهاية شباط (فبراير) ، ذكرت مصادر قريبة من وزارة الخارجية الاسرائيلية ان اسرائيل لم تتلق رسميا اقتراحا للرئيس سركيس بشأن مرابطة قوة دولية في جنوب لبنان · وذكرت مصادر اخرى ان ييغال الون (وزير الخارجية) اعلن في مجلس الوزراء « ان لبنان دولة ذات سيادة ، واسرائيل لن تتدخل في اختيارها المحتمل دعوة قوات من الامم المتحدة للمرابطة على اي جزء من اراضيها ، بما في ذلك جنوب لبنان· ولكن الموقف قد يتغير كليا اذا تضمن اقتراح سركيس رغبة لبنان في ان يرى على الجانب الآخر قوات لمنظمة الامم المتحدة في الجليل ، فمثل هذا الاقتراح سيكون مرفوضا رفضا قاطعا في هذه الحال » (١١٠) ·

والامر الثاني هو اشتراطها عدم التخلي عن حقها في ملاحقة الفدائيين داخل لبنان · فقبل زيارة رابين لواشنطن واجتماعه بالرئيس الاميركي كارتر ، اذاعت الاوساط السياسية الاسرائيلية ان مسألة تمركز قوات دولية في جنوب لبنان ستكون من بين المواضيع التي ستبحث في الاجتماع · وقالت صحيفة « هاآرتس » ان اسرائيل ترغب ، في حال ارسال قوات دولية الى جنوب لبنان، في الافادة من « ترتيبات خاصة » تسمح لها بملاحقة الفدائيين داخل الاراضي اللبنانية في حال شنهم هجمات جديدة رغم وجود القوات الدولية (١١١) · وحاول شمعون بيريز ، في اليوم التالي ، ان يحرض السلطات اللبنانية ، كالعادة على اتخاذ « التدابير المناسبة » في الجنوب لتصبح القوات الدولية ذات فائدة، فهذه القوات ، في رأيه « يمكن ان تكون ذات فائدة في المناطق التي يسودها الهدوء اذ انها ليست قوة تهدئة بل قوة مراقبة ··· والوضع في جنوب لبنان

لا يشكو من عدم وجود مراقبة بل من عدم تدابير مناسبة » (١١٢) ٠

ما هو التعليل الصحيح لهذا التغير الطارىء او الانقلاب المفاجىء في موقف اسرائيل ؟ وهل هو تغير صادق وثابت يأتي ليصحح سياسة خاطئة ، ام انـــه تكتيك ظاهري يتخذ ليخدم اغراضا مرسومة في مرحلة معينة ؟ ان كل تعليل ، في رأينا يجب ان ينطلق من الوقائع والحقائق والخلفيات التالية :

اولا – ان السياسة الخارجية لدولة ما ليست ، في الغالب ، سوى انعكـاس لسياستها الداخلية ٠ ويبلغ الترابط احيانا بين السياستين درجة من التلاحـم والتشابك تصبح فيه السياسة الخارجية صورة اخـــرى للسياسة الداخلية ٠ وتتجلى هذه الظاهرة في اسرائيل اكثر من اية دولة اخرى ٠ واسرائيل تمـر الان بازمات داخلية خانقة ٠ واوضاعها السياسية والاقتصادية تجتاز مرحلة عصبية ٠ واسرائيل ، عندما تتعرض لازمة ، تعمـد الى تنظيـــم شؤون البيت واعداد الخطط لمفاجأة الجميع بعمل تظن انه قادر على طمس معالم الواقـــع واحداث تغيير جذري في العقليات والمفاهيم والاوضاع ٠ ان استراتيجيتها فــي هذا الصدد اصبحت معروفة ٠ انها الان في ازمة وفي فترة انتخابات نيابية ٠ وهي تود اعادة ترتيب بيتها ٠ ومصلحتها تقضي بعدم استثارة الغير واثـارة المتاعب لنفسهـــا ٠

ثانيا – ان وجود قوات الردع العربية بكثافة في لبنان وامكان تحولها ، في الملمات المصيرية ، الى قوة امن رادعة تتعاون مـع الجيش اللبناني (كله او بعضه) للذود عن حياض لبنان ، امر يدعو الى التبصر والتروي ٠ ومصلحة اسرائيل تقضي باتباع الحكمة وانتظار رحيل هذه القوات او انخفاض عددهـــا قبل الاقدامعلى اي عمل عسكري ٠ كما تقضي مصلحتها بايهام العرب والعالم بانها غيرت موقفها السابق من مسألة تمركز القوات الدولية على الحـــــدود اللبنانية ، مما قد يدخل الطمأنينة على قلوب اللبنانيين والعرب : قلوباللبنانيين ليصرفوا النظر عن تحصين الجنوب وتعزيز قوتهم العسكرية ، وقلوب العـرب ليتسابقوا الى سحب قواتهم واختصار نفقاتهم ٠

ثالثا – ان فكرة استقدام قوات دولية الى الحدود اللبنانية تطرح الان ، من جديد ، وبالحاح ، من جانب بعض الاطراف المتنازعة في لبنان ٠ والراي العام اللبناني والعربي حائر ومنقسم على نفسه حول هذه المسألة ٠ ومن مصلحـــة اسرائيل ان تتظاهر بالمرونة والاعتدال لتزيد النار اشتعالا ، وتحكم في الاذهان ربط فكرة القوات الدولية بالوجود اللفسطيني في الجنوب ، وتوغر الصـــدور ضد الفلسطينيين وضد المناهضين للبوليس الدولي ، وتطرح امام اللبنانيين في النهاية اختيارات حرجة ، احلاها مر ٠ وهي ، في كل ذلك ، الرابحـــة ، لان المنازعات الداخلية في اي قطر عربي ، وخصوصا اذا كان هذا القطر لبنان المتاخم

لها والحافل بكل ما يقلقها وينغص عيشها ، تخفف من مشاغلها وهمومهـــا وتساعدها على الانصراف الى اعداد الخطط التوسعية للغد القريب ·

رابعا ـ ان كل الدلائل تشير الى ارتفاع اسهم المتطرفين في اسرائيل، واحتمال تسلمهم قريبا مقاليد الحكم فيها · واذا حدث ذلك واصبحت اسرائيل تحـــت رحمتهم ، فان موجة من التغيير ستصيب مخططاتها ومؤسساتها وتصرفاتها · وليس من المستبعد ان يصبح التطرف المقرون بالعنف شعارها · والحكمة تقضي بان تسلك اسرائيل الان الطريق الذي اتبعته المنظمات اليهودية الارهابية تجاه عرب فلسطين ،في فترات من عهد الانتداب ، فتتظاهر بمهادنة جيرانها ، ومنهم لبنان ، الى ان ينجلي الموقف ، وتهدأ الازمات ، وتنجز الخطط ، ويصبح بالامكان توجيه الضربات الحاسمة الى الخصوم ·

خامسا ـ ان الولايات المتحدة تعاني كغيرها من ازمة الوقود والطاقة · وقد شعر الرئيس كارتر بوطأة هذه الازمة فوضع برنامجا لمعالجتها · وحاجة الدول الصناعية ، والولايات المتحدة في طليعتها ، الى النفط تزداد شهرا بعد شهر · والانظار تتجه حاليا الى الدول النفطية في الوطن العربي ، فهي تعوم فـــوق بحيرات من النفط تختزن في جوفها اكثر من ٧٠٪ مـن الاحتياطي العالمي · ويبدو ان حكومة واشنطن ، في عهد الرئيس الجديد ، باشرت بتنفيذ سياســة جديدة تستهدف التوفيق بين الحاجات والاطماع ، وبين التكتيك والاستراتيجية، كما تستهدف كسب ود العرب وابتزاز اموالهم باسلوب منمق مستحدث ودون التضحية بالعلاقة العضوية التي تربطها باسرائيل · ولهذا تعددت اللقاءات بين المسؤولين العرب والاميركيين ، وكثرت التصريحات والوعود المعسولة بتسوية ما يسمى بازمة الشرق الاوسط وانشاء ما يسمى بالوطن القومـي الفلسطيني ، فانعكس ذلك على سلوك المسؤولين الاسرائيليين (المشتركين خفية في اعـداد السياسة الاميركية الجديدة) فاخذوا يبدون استعدادهم للتفاهم مع جيرانهم · وما تظاهرهم بالتساهل في قبول القوات الدولية على الجانب اللبناني من الحدود الا تكيف ذكي وانسجام مراوغ مع الخط السياسي المرسوم للمرحلة الراهنة ·



الحواشي :

١ ـ لمزيد من المعلومات راجع كتاب: قوة الطوارىء الدولية ، للاستاذ مصطفى مؤمن ، القاهرة ١٩٦٠ ·

٢ ـ النهار ، ٢٦ـ٦ـ١٩٦٨ ·

٣ ـ اليوم ، ٢٦ـ٦ـ١٩٦٨ ·

٤ ـ النهار ، ٢٧ـ٦ـ١٩٦٨ ·

٥ ـ نفس المرجع السابق ·

٦ ـ النهار ، ٢٨ـ٦ـ١٩٦٨ ٠

٧ ـ النهار ، ٢٩ـ٦ـ١٩٦٨ ٠

٨ ـ الانباء ، ٢٩ـ٦ـ١٩٦٨ ٠

٩ ـ الحوادث ، ٥ـ٧ـ١٩٦٨ ، ص ٠٧

١٠ ـ راجع ما كتبه انسي الحاج في ملحق النهار ، ٧ـ٧ـ١٩٦٨ ، ص ٠١٩ غير ان مارك رياشي كتب في « زاويته » بعد اشهر مطالبا باستقدام قوات دولية « تكون في الوقت نفسه جحافل سياسية تفيد بلدنا على الصعيد الاقتصادي ،فضلا عن حمايته على الصعيد الكياني ٠٠٠» النهار ، ١٤ـ١ـ١٩٦٩ ٠

١١ ـ النهار ، ١٠ـ٧ـ١٩٦٨ ٠

١٢ ـ الحوادث ، ٥ـ٧ـ١٩٦٨، ص ٠٦

١٣ ـ النداء ، ٨ـ١ـ١٩٦٩ ٠

١٤ ـ الحرية ، ١٣ـ١ـ١٩٦٩ ، ص ٠٥

١٥ ـ نفس المرجع السابق ٠

١٦ ـ وكالة الصحافة الفرنسية ، ١٤ـ١ـ١٩٦٩ ٠

١٧ ـ العمل ، ١٦ـ١ـ١٩٦٩ ٠

١٨ ـنفس المرجع السابق ٠

١٩ ـ المحرر ، ١١ـ٢ـ١٩٦٩ ٠

٢٠ ـ النهار ، ١٥ـ٢ـ١٩٦٩ ٠

٢١ ـ النهار ، ٣١ـ٣ـ١٩٦٩ ٠ وقد كرر العميد تصميمه على الاستعانة بالبوليس الدولي فيما لواصبح رئيسا للجمهورية، ورده على التهمتين المذكورتين في مقابلة صحافية اخرى ٠ النهار ، ٢٩ـ٤ـ١٩٦٨ ٠

٢٢ ـ النهار ، ١٣ و ١٤ـ٦ـ١٩٦٩ ٠

٢٣ ـ النهار ، ١٨ـ٦ـ١٩٦٩ ٠

٢٤ ـ النهار ، ٣٠ـ١١ـ١٩٦٩ ٠

٢٥ ـ النهار ، ١٧ـ١ـ١٩٦٩ ٠

٢٦ ـ النهار ، ٢٦ـ١ـ١٩٦٩ ٠

٤٦ ـ النهار ، ٨ـ٢ـ١٩٧٤ ٠

٤٧ ـ قال في اللجنة : « اذا (واشدد على اذا) وافق السوريون على وجود قوات دولية بينهم وبين اسرائيل ، فهل هناك مانع ان نطلب نحن قوات دولية تقف حتى (واشدد على كلمة حتى) على ارض لبنان وحده ، لان اسرائيل ربما رفضت وجود قوات دولية على ارضها ٠ وانا من الان اقول ان اسرائيلستعارض حتى وجود قوات دولية على ارض لبنان لان لها مطامع وتنوي وضع يدها على المياه اللبنانية ٠٠٠» ٠ النهار ، ١٢ـ٣ـ١٩٧٤ ٠

٤٨ ـ راجع ما دار فيها في النهار ، ٢٦ـ٤ـ١٩٧٤ ٠

٤٩ ـ النهار ، ٢٤ـ٣ـ١٩٧٠ ٠

٥٠ ـ اقرأ كلمته خلال المأدبة التي اقامها في فندق « هوليداي ان » ٠ الاوريان ، ١٦ـ٢ـ١٩٧٤ ٠

٥١ ـ النهار ، ٧ـ٣ـ١٩٧٠ ٠

٥٢ ـ النهار ، ٢ـ٦ـ١٩٧٠ ٠

٥٣ ـ مجلة البلاغ ، ٣١ـ١ـ١٩٧٢ ٠

٥٤ ـ راجع نص البيان في النهار ، ٢٩ـ٢ـ١٩٧٢ ٠

٥٥ ـ النهار ، ٢٠ـ١٢ـ١٩٧٤ ٠

٥٦ ـ النهار ، ٢٤ـ٢ـ١٩٧٥ ٠

٥٧ ـ السفير ، ٧ـ٨ـ١٩٧٥ ٠

٥٨ ـ النهار ، ٤ـ١١ـ١٩٧٥ ٠

٥٩ ـ النهار ، ٢٥ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٦٠ ـ النهار ، ٢٨ـ٢ـ١٩٧٧ ٠

٦١ ـ السفير ، ٢٨ـ٢ـ١٩٧٧ ٠

٢٦ ـ النهار ، ١ـ٣ـ١٩٧٧ ·
٢٧ ـ العمل ، ١١ـ٣ـ١٩٦٩ ·

٢٨ ـ العمل ، ١٨ـ٣ـ١٩٦٩ ·

٢٩ ـ النهار ، ١٨ـ٣ـ١٩٦٩ ·

٣٠ ـ المحرر ، ١٨ـ٣ـ١٩٦٩ ·

٣١ ـ النهار ، ٢٣ـ٣ـ١٩٦٩ ·

٣٢ ـ الانوار ، ٢٢ـ٣ـ١٩٦٩ ·

٣٣ ـ الحوادث ، ٤ـ٤ـ١٩٦٩ ·

٣٤ ـ الانباء ، ٤ـ١٠ـ١٩٦٩ ·

٣٥ ـ النهار ، ١ـ٢ـ١٩٧٠ · وعلق العميد اده على هذا الموقف بقوله ان على الوزير بيار الجميل ، ان كان مقتنعا بمقدرة القوات الدولية على حمايتنا من الغزو الاسرائيلي ، « ان يحمل مجلس الوزراء على اقرار ذلك ، والا استقال من الحكومة » · النهار ، ٢ـ٢ـ١٩٧٠ ·

٣٦ ـ النهار ، ٤ـ٢ـ١٩٧٠ ·

٣٧ ـ النهار ، ٢٢ـ٢ـ١٩٧٠ ·

٣٨ ـ النهار ، ٢٩ـ٢ـ١٩٧٠ ·

٣٩ ـ النهار ، ٢ـ٢ـ١٩٧٠ ·

٤٠ ـ راجع محضر جلسة مجلس النواب في ٦ـ١٢ـ١٩٦٩ ·

٤١ ـ راجع محضر جلسة مجلس النواب في ١٩ـ١ـ١٩٧١ · وراجع ما ورد في الكلمة التي القاها العميد في « نادي النسور الاجتماعي » · النهار ، ٢٦ـ١ـ١٩٧١ ·

٤٢ ـ النهار ، ١٦ـ٢ـ١٩٧١ ·

٤٣ ـ اعلن في ندوة متلفزة ان « البوليس الدولي هو الحل الوحيد » · الانوار ، ١٨ـ١ـ١٩٧٢ ·

٤٤ ـ النهار ، ١٧ـ٩ـ١٩٧٤ ·

٤٥ ـ النهار ، ٥ـ١١ـ١٩٧٤ ·
٦٣ ـ نفس المرجع السابق ·

٦٤ ـ نفس المرجع السابق ·

٦٥ ـ السفير ، ٢ـ٣ـ١٩٧٧ ·

٦٦ ـ النهار ، ٣ـ٣ـ١٩٧٧ ·

٦٧ ـ النهار ، ٥ـ٣ـ١٩٧٧ ·

٦٨ ـ النهار ، ٣ـ٣ـ١٩٧٧ · ويبدو ان نائب رئيس « الاحرار » (النائب كاظم الخليل) لم يتنبه الى التغير الذي طرأ على سياسة الحزب و « الجبهة » ، او انه لا يحسن التنسيق مع رئيسه ، فصرح في ١٢ آذار (مارس) قائلا : « ليس من جيش لبناني قابل للوجود في الجنوب ، وقد طالبنا ونطالب بايجادقوة ردع دولية تضع حدا للمأساة، لان اسرائيل تزعم ان قوة الردع العربية تشكل خطرا على امنها » · النهار ، ١٣ـ٣ـ١٩٧ ·

٦٩ ـ النهار ، ٩ـ٣ـ١٩٧٧ ·

٧٠ ـ الثورة (السورية) ، ٢ـ٣ـ١٩٧٧ ·

٧١ ـ من تصريح للعميد اده · النهار ، ٢٩ـ٤ـ١٩٦٩ · وقال في تصريح آخر انه بعد ضرب مطار بيروت وجد ان الجيش اللبناني قد سيسته العهود السابقة ، فتخوف واقتنع بان ليس عندنا جيش بالمعنى الصحيح · ولذلك طالب بالبوليس الدولي · النهار ، ٢١ـ١٢ـ١٩٧٢ ·

٧٢ ـ من تصريح للعميد اده · النهار ، ١ـ٥ـ١٩٦٩ ·

٧٣ ـ من تصريح للعميد اده · النهار، ٦ـ٥ـ١٩٦٩ ·

٧٤ ـ من تصريح للعميد اده· النهار، ١٩ـ٥ـ١٩٦٩ ·

٧٥ ـ من تصريح للعميـد اده ·

النهار ، ٢٧ـ٥ـ١٩٦٩ ٠

٧٦ ـ من تصريح للعميد اده ٠ النهار ، ٧ـ٢ـ١٩٧٥ ٠

٧٧ ـ من اقوال العميد اده ، في مناظرة الجامعة اليسوعية ٠ **العمل** ، ١٦ـ٢ـ١٩٦٩ ٠

٧٨ ـ من تصريح للرئيس شمعون ٠ **النهار** ، ٢٣ـ٣ـ١٩٦٩ ٠

٧٩ ـ من تصريح للعميد اده ، **النهار**، ٢١ـ٣ـ١٩٦٩ ٠ وكان قد قال في تصريح سابق : « اما الذين يقولون ان استدعاء قوات طوارىء دولية من شأنه ان يمنع تسلل الفدائيين ، فهو قول مردود وغير صحيح لانه من الصعب على اية قوة تقف على الحدود الطويلة ان تمنع هذا التسلل ، الا اذا كان عدد قوات الطوارىء ضخما للغاية » ٠ **النهار** ، ١٣ـ٣ـ١٩٦٩ ٠

٨٠ ـ من تصريح للعميد اده ٠ **النهار** ، ٣١ـ٣ـ١٩٦٩ ٠

٨١ ـ من تصريح للعميد اده ٠ **النهار** ، ١٣ـ٣ـ١٩٦٩ ٠

٨٢ ـ **السفير** ، ٢٨ـ٢ـ١٩٧٧ ٠

٨٣ ـ **النهار** ، ٢ـ٢ـ١٩٧٠ ٠

٨٤ ـ راجع مقالنا عن : **التدويل والتحييد والبوليس الدولي** ، في مجلة **الطريق** عدد شباط (فبراير) ١٩٦٩ ، ص ٥٩ ٠

٨٥ ـ **الانوار** ، ٢٨ـ٦ـ١٩٦٨ ٠

٨٦ ـ **العمل** ، ١١ـ٥ـ١٩٦٩ ٠

٨٧ ـ اسرائيل هي ، من بين جميع الدول التي انضمت الى الامم المتحدة العضو الوحيد الذي ارتبط قبوله في العضوية الامية بتعهده بتنفيذ بعض القرارات الصادرة عن الجمعية العامة٠ راجع دراستنا عن : **فلسطين واسرائيل في الامم المتحدة** ، في مجلة **دراسات عربية** ، عدد ايار (مايو) ١٩٧٥ ، ص ٣١ ٠

٨٨ ـ **النهار** ، ٤ـ٩ـ١٩٦٩ ٠

٨٩ ـ **النهار** ، ١٥ـ٩ـ١٩٦٩ ٠

٩٠ ـ **الانوار** ، ٢٤ـ٩ـ١٩٦٩ ٠

٩١ ـ راجع مقال عزت صافي٠ **الانوار**، ٢٨ـ٦ـ١٩٦٨ ٠

٩٢ ـ **الحوادث** ، ٥ـ٧ـ١٩٦٨ ،ص٧٠

٩٣ ـ **الحرية** ، ١٣ـ١ـ١٩٦٩ ، ص٥٠

٩٤ ـ راجع افتتاحية **المحرر** ، ١٦ـ١ـ١٩٦٩، التي كتبها جنبلاط بعنوان : **البوليس الدولي ومخطط الحلف** ٠

٩٥ ـ **المحرر** ، ٢٣ـ١ـ١٩٦٩٠

٩٦ ـ **النهار** ، ١ـ٣ـ١٩٧٢ ٠

٩٧ ـ **السفير** ، ٢ـ٣ـ١٩٧٧ ٠

٩٨ ـ راجع ما قاله في ندوة **النادي الثقافي العربي** حول : قضايا الدفاع عن الوطن ٠ مجلة **الثقافة العربية** ، عدد شباط (فبراير) ١٩٦٩ ، ص ٨٠ ٠

٩٩ ـ راجع كتابنا : **اعمال اسرائيل الانتقامية ضد الدول العربية** ٠ مركز الابحاث ٠ سلسلة دراسات فلسطينية ، رقم ٧٠ ، ص ١٨٢ ٠

١٠٠ ـ راجع مقالنا ، المذكور ، عن **التدويل** ٠٠٠ ، ص ٦٠ ٠

١٠١ ـ وكالة **رويتر** ، ٢٥ـ٦ـ١٩٧٢ ٠

١٠٢ ـ **الاوريان** ، ١٦ـ٢ـ١٩٧٤ ٠

١٠٣ ـ **النهار** ، ٩ـ٦ـ١٩٧٤ ٠

١٠٤ ـ **الانوار** ، ١٣ـ٨ـ١٩٧٢ ٠

١٠٥ ـ **النهار** ، ٨ـ٨ـ١٩٧٤ ٠ وراجع

مقالا عن : المشاريع الصهيونية وجنوب لبنان . في مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، في جامعة بغداد ، عدد اكتوبر ١٩٧٦ ، ص ٨٣ .

١٠٦ ـ النهار ، ٨ـ٨ـ١٩٧٤ .

١٠٧ ـ النهار ، ٩ـ٦ـ١٩٧٤ .

١٠٨ ـ من حديث له لاذاعة مونت كارلو . نقلا عن السفير . ٧ـ١٢ـ١٩٧٥ .

١٠٩ ـ النهار . ٤ـ١٢ـ١٩٧٦ .

١١٠ ـ النهار . ٢٨ـ٢ـ١٩٧٧ .

١١١ ـ النهار . ٣ـ٢ـ١٩٧٧ .

١١٢ ـ النهار . ٥ـ٢ـ١٩٧٧ .

الإحتمال الأخير
[قصة]

الياس خوري

« ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة »
الشهيد : محمد شبارو

انا هو الاحتمال الاخير ، قلت لها ونحن نمشي على شاطىء طويل · الرمل بين اقدامنا ، وهي ، بجسدها الاسمر وشعرها القصير كشعر فتى زنجي لا يمل من الضحك ، تهزأ مني · انت رومنطيقي تقول · تصمت وتتركني اتكلم الى ما لا نهاية · وانا اتكلم · اتدلى داخل الكلمات · التقط الحصى ، اضعه في فمي واستمر · ثم حين امسك بها تهرب الى الرمل ، تضع الرمل على رأسها وتلوح به في الفضاء · ثم تصرخ : توقف · اتوقف ، فأنا لا استطيع · اعود كل مساء الى المنزل منكسرا ، واقرر ان اصمت · يجب ان امشي الى جانب الفتى الزنجي النحيل دون ان افتح فمي · عندها ، سوف تسقط في اللغة وتتكلم الى ما لا نهاية، مثل جميع النساء · اهز رأسي ، ابتسم قليلا ، ارفع حاجبي من حين الى آخر ، ثم اقول حكمتي : انت رومنطيقية · ولكن عندما التقيها يسقط قراري ، وابقى انا الرومنطيقي الوحيد · عنقها يعلو · لا افهم ، وجه نحيل وشعر قصير يختلط بالريح وعنق يمتد الى ما لا نهاية · وعندما احاول الامساك بالعنق واعلو اليه اسقط على الرمل · عليك ان تفهم كانت تقول ·وامي تفهم كنت اقول · تنتظرني حين اعود منهكا · وهي تعتقد انني لا اتكلم · لذلك لا تسأل · فقط تعطيني قليلا من الطعام ، لكني طبعا لا آكل · تحزن امي ، انا احزن ، والعنق الطويل الذي اتسلقه لا يتوقف عن الامتداد · اتوقف عن طرح الاسئلة ، امشي الى جانبها ،

راسي الى الارض ، ما هذا الحذاء تقول · هذا حذاء الفدائيين اجيبها ، ثم نصمت · اسمها مريم · طبعا لا استطيع الركض اكثر · اتبعها ، تركض ، ثم تنحني · تضع الرمل على راسها كما تفعل دائما · اذهب ، لماذا حذاء الفدائيين ؟ وترن ضحكتها · وانا اسقط في حذائي · انزلق داخله كانه سفينة صغيرة على شاطىء طويل ·

ـ انا فدائي ·

ـ ولماذا انت فدائي ؟

ـ لانني اصبحت فدائيا ·

ـ ولماذا اصبحت فدائيا ؟

ـ لانني ، لا اعرف · لانني احبك ·

ـ انت رومنطيقي ·

ـ انا امير ·

ـ انت كلب ·

ـ انا بطل ·

ـ انت فدائي ·

ـ ·· ·· ··

ضحكت · رنت كالقوس · امسك الرجل قوسه ورماه · لم يدخـل السهم · سقط السهم في البحر ، وبدا السهم يغرق ·

ـ لماذا انت خارج الرمل ؟

قالت انها لا تحب ان تجيب على اي سؤال من اسئلتي ·

ـ هل تعرف ابي ؟

ـ لا اعرفه ·

ـ هل تحب أبي ؟

ـ كيف احب رجلا لا أعرفه ·

ـ يجب أن تحبه لانه ابي ·

ـ لا احبه ، ولا احب جميع الآباء ·

ـ لكن ابي مات ٠

ـ جميع الآباء يموتون ٠

ـ لكنه احترق ٠

ـ جميع الآباء يحترقون ٠

امسكت الكاميرا الى كتفي وقفت ٠ اريد أن أصورك ٠ اخذت الكاميرا ورسمت الفتى الزنجي النحيل على الحائط ، ثم رسمت دائرة ٠ قفي داخـــل الدائرة ٠ تقف داخل الدائرة ٠ أدور بها وهي تدور ٠ تمد ذراعيها الى الامام ، ثم تنحني ، تصبح دائرة ٠ ـ لماذا تلبسين البنطلون ؟٠ تضحك ٠ تدور داخل نفسهـــا ثم تسقط وسط الدائرة ٠ تمد يديها الى اقصاهما ، وجهها يرتجف قليلا ٠ اتركها على الارض وأرفعها الى سقف الغرفة ٠ السقف يمتلىء بالرمل ، ثم ينحـــدر الوجه ٠ أجلب قشا وأضعه على رأسها ٠ انت دجاجة اقول ٠ لماذا هذه الحرب تسأل ٠ امسك الكاميرا واعطي الاوامر ٠ انا المخرج ، ممثلـــة واحدة وبحر ورمـــال ٠

ـ وكيف احترق والدك الذي لا احبه ؟

تنهض ، تزيل القش عن رأسها ، تخرج من الدائرة ، انا لا احب دائرتك ولا السينمـــا ٠

ـ ولكن كيف احترق والدك ؟

ـ اريد أن اذهب الى البيت ٠ وانا على اي حال لا اقرأ الصحف ولا احـــب قراءتها ٠

ـ اين مات والدك ؟

ـ انا في بيروت منذ مدة طويلة ٠ وامس قالت امي انها تريد ان نذهب الـــى عمان ٠ لكني لا أريد الذهاب الى عمان ٠ انا لا احب عمان ٠ هل تحب عمان ؟

كانت عمان مدينة عندما تعرفت اليها ٠ لا لم تكن مدينة ٠ كانت مجموعـــة تلال ٠ ذهبت ، كان الجيش يستعد ونحن نستعد ٠ لذلك لم اتجول في المدينة ٠ كنت اقف في كمين والى جانبي رجال سمر جباههم لكني لم اعد اذكر اسماءهم٠ وكانت الطلقات تنفجر في الفضاء فوق رؤوسنا ٠ لكن لم يحصل الصـــــدام ٠ الشروط الموضوعية لم تكن ناضجة ٠ هكذا قالوا لي ٠ طبعا اقتنعت ٠ عندمـــا تاتي الشروط الموضوعية لا تستطيع سوى ان تقتنع ٠ والشروط المقنعة يجب ان تكون موضوعية ٠ كنت اسير وحيدا في شوارع عمان ٠ فأنا لا اعرف احدا ٠ والدورة العسكرية انتهت ، وعلي ان اعود الى بيروت ٠ ولم تكن عمان تعني شيئا سوى انها مليئة باحذية الفدائيين وصور الشهداء والبنادق والذكريات عن

الوطن وهزيمة ٦٧ · لذلك لا اعرف عمان · اذكر انها كانت بيضاء ، وفي مجزرة ايلول ، حتى الدماء كنت اراها بيضاء · طبعا لا احب هذه المدينة · جميع اصدقائي لا يحبونها · انها لا تشبه شيئا · ربما تشبه الليل · مات اصدقائي في عمان ، لكن هذا لا يغير شيئا ·

ترقص في السقف ، ثم تنحدر الى الحائط · المدينة الاولى هي مجموعة حجارة ورمال وركام · الفتى النحيل في السقف · ينحني ، يدور حول نفسه ، ينكسر · يسقط من السقف الى الحائط · تحمله الكاميرا الى يدي · اضيء الكهرباء · هل اعجبك الفيلم ؟ في المرة المقبلة سوف احمل الرمل والملح داخل ايقاع لم اكتشفه بعد · حين تنحني المرأة داخل الدائرة ، تصبح الدائرة اكثر جمالا · تصبح مثل الرغيف او مثل الليمونة ·

ـ ولكنك لا تعرف عمان ·

ـ الاسم ·

ـ طلال · طلال صالح ·

ـ المهنة ·

ـ طالب في كلية الهندسة ·

ـ لماذا تتظاهر ؟

ـ جميع الطلاب يتظاهرون ، وانا اتظاهر مثلهم ·

البوليس ، احمر الوجه ، يحمل عصا بيضاء وترسا ابيض وقنابل مسيلة للدموع · نبكي ونهجم عليهم · بعضهم بأقنعة وبعضهم يبكي بدون اقنعة · لكنهم يرتجفون · ونحن نركض وسط الشوارع ، نقتلع اسلاك الكهرباء وعواميد السير، نهجم على تمثال بشارة الخوري نربطه بالحديد · نرقص · العصا بيضاء والترس ابيض ورجال الشرطة يبكون ونحن نبكي : يقف الضابط · انت ويشير الي · انت هو المسؤول · تغرق يدي في جيبي ، ثم يسقط قميصي يتهدل فوق بنطلوني · لا اجيب · اصيب العشرات من رجال الشرطة يصرخ الضابط · انت مسؤول · انحدر الى الزاوية · الملك هو المسؤول · ثم اذهب الى البيت كالعادة·

« ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة » ·

ابي يعرف عمان · وامي تصر على الذهاب الى هناك · تخاف من القذائف· انا كذلك اكره الحروب · اعرف ماذا ستقول · اشارت باصبعها الى شفتيها كي اسكت · لكنني اكره الحروب وخاصة الحروب العادلة · انا احب ابي · وهو حين ذهب في المرة الاخيرة لم يعد ابدا · حتى حذاؤه لم يعد · طلبت من المسؤول،

وكان صديقا لابي، ان يعطيني ثيابه او حذاءه او اي شيء٠ لم يبق شيء٠وعندما ذهبنا الى المقبرة كان داخل النعش ٠ وانزل الى التراب في النعش ٠ احترق ٠ لم افهم شيئا ٠ دائما لا نفهم الاشياء الاساسية ، لذلك نتوقف عند التفاصيل ٠ يوميا اكتشفت عمان ٠ انها مجموعة جبال ، هكذا يقولون دائما ٠ لكنهـــا مجموعة دوائر لا تخترق ٠ تخترقها الشوارع العريضة والشعارات التافهة ، لكنها تبقى مجموعة دوائر ٠ والدم الذي ينتشر حولها يصبح بقعا مدورة ٠ لا تستطيع المدينة ان تتحول الى ليمونة ٠ جاءت الدبابات وكنا هناك ٠ ولم يكن ابي ، لانه مات قبل ذلك ٠ مات بالقصف ، حين كانت الطائرات تفعل ما تريد ٠ انتشر الجميع ٠ انتشر ابي ٠ رفع راسه وكانت البندقية في يده تطلق طلقـات غير مسموعة ، لان صوت الطائرات كان وحده مسموعا ٠ ثم جاءت القذيفة ٠ الدبابات هي التي قسمت المدينة الى دوائر ٠ وبقينا نحن ٠ العطش ، وامي التـي تشتم الجميع ، وصورة ابي المعلقة الى الحائط ٠

الفتى الزنجي النحيل يمد عنقه ٠ يضحك ٠ هذه ذكريات قديمة ٠ لكنه مات ٠ الموت بعيد قالت ٠ لذلك صنعوا العادات ٠ البكاء والندب والرقص والوقـــوف طويلا امام القبر ٠ يقترب الموت بصلعته ويده ٠ المدينة التي نسميها بيضـــاء تمتلىء بالصور والجثث والملصقات ٠ يقفز وجه سرحان بشارة سرحان امـام السائحة الثورية الاميركية ٠

ـ ما هذا ؟

ـ هذا ملصق ٠ نحن نعامل سرحان كبطل ٠ قتلت من اجل بلدي ٠

ـ لكنه ارهابي ومعاد للديمقراطية ٠

وانا ارهابي قلت للسائحة الاميركية ٠ لكنني استطيع ان اضمك الى صدري واقبلك واضحك ٠ ضحكت ضحكة بيضاء ٠ انحنى الفتى على الرمل ، غرس يده في بقعة رطبة وجلس ٠ انت تتكلم كثيرا يقول ٠ وامي تقول انني لا اتكلم ٠ وتتساءل لماذا تعيش الى هذه الايام السوداء ٠ ثم تخبرني القصة للمرة الالف ، وانا اسمعها للمرة الالف ٠ وتنسى دائما قصة المجنون ٠ اسكت انت مجنون ٠ لا وجود لقصة المجنون ، كل ما هنالك انك ولد ذكي ٠ جميع الذين رأوك كانوا يقولون يجب ان تبخريه يا ام احمد وتأخذيه عند الحاجة فاطمة ٠ كنت ابخـرك واطعمك اللوز والسكر واعطيك الدراهم ٠ لكنك ولد ذكي ٠ عوض ان تشتـري البالونات والملل ، كنت تذهب الى الدكان وتشتري من جميع الاصناف ، ثـم تقف امام البيت وتفتح دكانا ٠ويأتي اولاد الحي الى دكانك ويشترون،والله يبارك٠ النصف ليرة تصبح ثلاث ليرات ٠ طبعا كنت اساهم انـــا في رواج تجارتـك ، لاني كنت اعطي اولاد اختي الدراهم كي يشتروا من دكانك ٠ لكنك كنت تربح ٠ قلت يا ام احمد هذا الولد سيصبح تاجرا ، وسيفتح الدكاكين ويبني العمارات ٠

لكن ماذا تفعل بنفسك الان · تتبع الحزوبات والفدائيين ولن تصبح تاجرا ·

لكن امي لا تخبرني قصة المجنون · وانا نسيت القصة ·

لم افهم ، واعتقد ان سالم الطويل لا يفهم الموضوع · طلقات واصوات انفجارات في كل مكان · الارض تشتعل · نركض ، نجلس جانبا ونحن نلهث · يمسك قاذف الـ ب ٧ جيدا على كتفه · عليك ان تغطيني ، يقول · اتقدم · اطلق النار · ويطلق هو قذيفته · اصوات رائحة ، لهب · وابواب الدكاكين تتحطم · فليحترق كل شيء · غدا سوف تأتي النساء بالعباءات الطويلة ، يفصلن رائحة البارود عن الاشياء ، ويذهبن ·

يجب احراق الدكاكين ·

الفتى الزنجي الاسمر · ينحني · كانت عمان دوائر بيضاء · امسك بها وارميها الى السقف · انظري ، تنظر الى جسدها وهو يتمدد صاعدا ·

ـ لماذا تفعل بي هكذا ؟

السينما هي السينما اقول لها · الحياة خدعة · ترن ضحكتها بين كاحليها العاريين · انظر الى الوان البحر ، تقول · البحر ليس ازرق ، السماء ليست زرقاء · هذه هي الخدعة · الحقيقية · هل ترى ؟ ارى السماء زرقاء والبحر ازرق · هكذا ارى قلت لها ·

ـ هل ترى الاخضر ؟ هل ترى الازرق الفاتح ؟ طبعا لا ترى الابيض · انت رمل · كلنا نمشي على الرمل ثم نصبح رملا · اريد ان اغوص هناك بين الاخضر والبنفسجي · في اللحظة الفاصلة · هناك أريد ان ابني بيتا او خيمة او مجموعة حصى او اغرق · هذا هو الغرق · استسلام كامل · الاشياء هي التي تنحني · هل رأيت الاشياء عندما تنحني ؟ · لكنني لا استطيع · جميع الناس لا يستطيعون · لا يستطيع احد أن يفصل الالوان ، نستطيع فقط ان نمزجها · وعندما تتداخل الالوان لا تتوقف · حتى المزج مستحيل · فللالوان مزاجها الخاص وتاريخها · يدخل اللون في اللون ، ثم يصبح اللون احتمالا ويدخل في الاشياء · تنحل الالوان في الالوان · الابيض غير موجود قالت · اخذ الفتى الزنجي تفاحة ، قضمها ، وضعها على رأسه وبدأ يركض · سقطت التفاحة · اين هي التفاحة قالت · التفاحة تمتزج بالرمل والرمل يمتزج بالماء · وحل · هذا تبن قالت · لون التفاحة يتغير · لكنها لا تزال على رأسي · انها على الارض قلت لها وانحنيت من اجل ان التقطها · اتركها صرخت · التفاحة على رأسي · انت لا ترى شيئا قالت · لا احد يرى · لكنها على رأسي · ويجب ان اسافر غدا · لا يمكن ان اترك امي وحدها · هل تستطيع ان تترك امك

وحدها ؟

ـ لا اعرف ، لكنني اتركها دائما ٠

ـ انا لا اترك امي وحدها ٠ تريد أن تذهب الى عمان ، سوف اذهب معها ٠

ـ وانا ؟

ـ انت ! ٠ ماذا تريد مني ٠

ـ نتزوج كما يفعل جميع الناس ٠

ضحك الفتى الزنجي النحيل ٠ لن اتزوج ٠ واذا تزوجت فلن اتزوجك ٠ لن اتزوج رجلا سوف يموت ٠

ـ جميع الرجال يموتون ٠

ـ لكنك فدائي ٠ انا احب الفدائيين ، لكنني لن اتزوجهم لانهم يموتون بسرعة ٠

ـ جميع الفدائيين يتزوجون ٠

كانت الالوان تقترب ٠ جلس طلال وحيدا على الرمل ٠ خلع نظارتيه ، مسحهما بعناية ثم اعادهما ٠ كان الشاطىء يستقبل الامواج الخفيفة ، ثم يرسلها من جديد ٠ وفي المساحة الرطبة التي تقع على حافة البحر كانت الدوائر تتزايد ٠ هذا هو الفرق ٠ تقدم من الشاطىء ٠ هذه هي الالوان ٠ لا تأخذ الالوان لونها الا لحظة الغرق ٠ البحر يصبح دوائر لا تنتهي ٠ امسك الرمل ورماه الى البحر ٠ كل شيء يغرق في الماء ٠ انحنى طلال ٠ اين انت ايها الفتى الزنجي النحيل ؟ ٠

« ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة » ٠

صوتي يغرق في الدائرة الاولى التي الى يساري ٠ خلعت حذائي امسكته بيدي ومشيت ٠ ركبت السيارة ٠ ادرت المحرك ٠ احدث المحرك خشخشة ثم انينا وشهقات متواصلة قبل أن تتحرك السيارة الى الامام ٠ اين انت ايها الفتى الزنجي النحيل ؟ اوقفت السيارة امام الفرن ٠ اشتريت رغيفا ساخنا وبدأت امضغه متمهلا ، والاشجار المزروعة على جانبي الطريق تعانق الاعمدة الكهربائية ٠ وانا انتشق رائحة الخبز ٠



كل شيء جاهز يقول نبيل ٠ لكننا تأخرنا والشباب ينتظرون ، ينظر طلال الى ساعته ، علينا أن نذهب فورا ٠ نبيل يقفز في الهواء ٠ ماذا تفعل اسأله ٠

استعد · ولكننا لن نذهب الى مباراة كرة قدم · هكذا استعد يقول نبيل · ما هي اخبار المسلخ والكرنتينا يسأل سالم · لا اخبار حتى الان ، لكن الوضع بالغ الصعوبة · انا لا احب هذا الطعام · خبز وزعتر ، هذا ليس طعام المقاتلين يقول طلال · آمر الفصيل يتكلم · هذا هو الفطور وعلينا ان نأكل بسرعة · يضحك نبيل ضحكة استاذ حقيقي · لا تضحك يا استاذ ، انا لا احب الخبز والزعتر · ماذا تفعل بنفسك يا طلال · لماذا تعقد الامور يا ولد · هذا عجين وهذا عجين · هنا نضع الزعتر داخل الخبز وهناك يضعون الزعتر داخل الكعكة ·

ـ اريد ان اشتري كعكة ·

المسألة ليست في الثمن يا ابو احمد· ثمن الكعكة عشرة قروش، الله لا يكسر احد · ولكن يجب ان يعتاد الولد على الطاعة · تتكلم امي وتتكلم · وانا انظر الى ابي · يغمزني الرجل الكهل ، الضعيف البنية المهلهل الثياب ·

ـ امش امامي الى المدرسة ·

اذهب الى جانبه ، يشتري لي كعكة ، اضعها على رأسي واركض · يركض ورائي : لا تخبر امك ، يلهث ثم يسقط على الارض ·

ـ عندما اصبح رجلا ، سوف اشتغل بائع كعك ·

والرجل الكهل يمسك بيدي ، يوصلني الى المدرسة ، ثم يذهب الى عمله · انتبه على نفسك · اركض في البيت ، لكن الرجل الكهل لا يركض ورائي · لا اله الا الله · بسام يغني داخل اللاندروفر والمطر الكثيف يتساقط · انا لا اخاف منهم ، اخاف من البرد · والله يا اخي سالم ، عندما تنتهي الحرب ، سوف آخذك في رحلة بحرية حول العالم · المطر يسقط ، والسماء تلتمع بالانفجارات · الاصوات تأخذ شكل الهمهمة · لكن ينقصنا الرمل · علينا ان نقطع الشارع بالرمل · بسام لا يحلم سوى بالرمل · لماذا لا ننقل البحر بأسره الى المتراس ؟ نجلب الشاطىء ، ثم نجلب الامواج · قفزت الى البحر · اتبعني صرخت ·دخلت الامواج في عنقها وصدرها · ولم اعد ارى سوى ذراعها الاسمر يلتمع تحت اشعة شمس يخترقها المطر ·

ـ انت جبان ·

ـ انتظريني ، سوف اخلع ملابسي ·

ـ لا · تعال كما انت ·

تقدمت ، ارتفعت الامواج الى الاعلى · لن اتزوجك هتفت · خرجت من

الماء . وضعت الرمل على ثيابها وبدأت تركض ٠

ـ انت شجرة ٠

ـ انا مريم ٠ انت لا تعرف مريم ٠ غدا عندما اذهب الى عمان سوف تتعرف الي ٠

تركض وسط الرصاص ٠ الرصاص يقترب ، يجب ان نذهب ، قلت لها ٠ الرصاص يقترب ، يجب ان اذهب ، قالت ٠ الرصاص يقترب ، وقفت الى جانب طلال ٠ توغل سالم ونبيل في الشارع الطويل وذهب الجميع الى المواقع ٠ ظلام وماء ٠ لا ينقصنا سوى وجه الله بلحيته الطويلة ٠ المطر يتساقط ، والشارع يغرق ٠ يقف الى جانبي ولا يجيب ٠ الماء يرتفع الى خاصرتي ٠ اسمع خشخشة ٠ هذا صوت المطر والرعد ٠ لن يحدث شيء هذه الليلة ٠ نحن لا نستطيع التقدم وسط المطر والظلام ٠ علينا ان ننتظر بسام ، ربما يستطيع ان يجلب الموج والبحر الى الموقع ٠

الظلام يمتد الى ما لا نهاية ٠ ونحن نقف ٠ اشعل سيجارة ، انفخ الدخان في الهواء ٠ لا اسمع سوى نقر المطر على الاكواخ المحيطة بنا ، وصوت شجار يأتي من احد البيوت التي تقع خلفنا ٠ وفجاة اشتعلت الدنيا ، رائحة حرائق واصوات قذائف ٠ السماء تلتمع والقذائف تسقط في كل مكان ٠ الحرائق تشتعل وثيابي ينخرها المطر ٠ اخذت نفسا عميقا من سيجارتي التي ترتجف في يدي ٠ البرد شديد ، وخلفي ترتفع الاصوات والجلبة ٠ نيران على سطح احد البيوت تنطفيء فجاة ٠ وثلاث نساء يلتمعن في الظلام ، بعباءاتهن الطويلة . ومناديلهن ، وايديهن التي تخشخش ٠

ـ ما هذا ؟٠

الحزن الكردي يخرج الى الشارع ٠ لا نسمع سوى صيحات تشبه صيحات الاستغاثة ، ثم يبتعد الصوت ٠ ثلاث نساء يركضن في الماء ، ثم يصعدن التلة الخلفية ٠ اركض باتجاههن ٠

ـ الى اين ؟٠

ـ الى جهنم ٠ القصف لا يصيب الا بيوت الفقراء ٠

ـ ارجعي يا خالتي الى البيت ٠

ـ كيف ارجع ٠ اذهب يا ابني واتركنا ٠ الله ييسر ٠

عاد طلال الى موقعه ٠ ثلاث نساء ، اطفال على الكتف ، والماء يخرج من

الماء لا نلمح النسوة الا بصعوبة · يشبهن ظلال قنديل عتيق تمسكه احداهن ·

قائد الفصيل يأتي مسرعا · يبدو ان هناك محاولة اقتحام للشارع · استعدوا · تبعته · وقفت في آخر شارع يوصل الى الطريق العام · وهي طريق كنا نستمع الى حركة الآليات التي تتحرك فيها · اخذ طلال الى شارع آخر · طلال وحده · عليك ان تنبطح يقول قائد الموقع · ينبطح على الماء · تتسرب المياه الى جسده ·يرتجف قليلا · القصف يتصاعد · يجب ان نصمد · الماء يختلط بالدم · هذا شرف الثورة · انتم شرف الثورة · وشرف الثورة سوف يصمد · امسكت البندقية جيدا واطلقت الرصاص · كانت الطلقات ترن في اذني ولا اراها · امسك القنبلة اليدوية وارميها · الماء يرتفع والشظايا تتناثر · الماء يشهق عاليا ، هذا شرف الثورة · انا منبطح · لكنهم لا يتقدمون · لا شيء سوى الرائحة · رائحة المطر والماء الآسن ، والبارود الذي يحترق · اصوات قذائف · لا ارى شيئا امامي · لكن طلال يبقى على الارض ، يطلق النار ، يتقدم الى الشارع الرئيسي · لا شيء سوى القصف · يتوقف المطر ، وتبدأ الحجارة تتفتت · انظر الى الخلف : ثلاث نساء ، بعباءاتهن الطويلة ، يركضن على التلة المرتفعة · تجلس المرأة الاولى على حجر ، وتبدأ نواحا خافتا · يتقدم الرجل من المرأة ، يمسك يدها ويرفعها تقف ثم تسقط · يسقط الرجل الى جانبها ·

ـ هذه هي المرة الثانية · في المرة الاولى بدأنا نركض · قالوا انهم اقتحموا الحي · هربنا · وفي اليوم الثاني عدنا · واليوم انفتح علينا غضب الله · كيف سنأكل ؟

كان الرغيف الساخن على وجهي ·

ـ من اين اتيت بالخبز ؟

ـ اشتريته ·

وامامي يقف وهو يحمل فنجان قهوة يشتعل باللهب ·

ـ يعطيكم العافية · ليلة متعبة ·

طلال يصرخ بفرح · انظر الى الشمس · لقد اشتريت الخبز والجبن ويجب ان نوزعه · يجب ان يتوقف القصف · كان ثوب المرأة طويلا ، يلامس الارض ثم يزحف خلفها · وعلى الثوب ارتمى ثلاثة اطفال يضعون ايديهم على رؤوسهم وينتحبون ·

ـ ما هذا يا خالتي ؟

ـ لا شيء · ابحث عن زوجي · خرج امس في الليل وقال انه ذاهب ليشتري ـ بزا ، ولم يعد · هل رأيت الخبز ؟

طلال يحمل خبزا ويجلس بين النساء · اجتمعت النساء حوله · صوته يرتفع ، يحتد : هناك ازمة تموينية · هل رأيت زوجي · خرج الى الشارع وقال انه سيشتري الخبز · لكن الخبز لم يأت · وضعت الرغيف في فمي وبدأت امـ ـغ · هل رأيت الخبز يا ابني ؟ تخرج المرأة مسرعة من الكوخ · الحق على امـ · قلت لها يا امي لا اريد ان اتزوج · امي ماتت منذ ثلاث سنوات · ماتت بد ، حرب · كيف يموت الناس بدون حرب · مستحيل · لا يوجد موت الا داخل الـ ـرب · وضعت بندقيتي جانبا · قال طلال انه تعب ، ثم سالني عن خسائرنا · لا شيء قلت له · فقط سمير اصيب بشظية صغيرة ·

كان الشارع الطويل الذي يشرف على الكنيسة يمتد الى ما لا نهاية · حوانيت على الجانبين · والمرأة تضع الملابس في خرجها · اقتربت منها ، كانت تبكي : هل رأيت الخبز يا ابني ؟

سقطت القذيفة وسط برك الماء المنتشرة في كل مكان · ركضت المرأة · كان ثوبها يركض وشعرها يتدحرج على وجهها · اقتربت من الدبابة ثم توقفت امامها · كان ثوب المرأة يتهدل على الدبابة · دبابة تخرج من امرأة · امرأة تخرـ من دبابة · تنحنح الرجل · انا من قرية سخنين · هل تعرفون سخنين · المسألة اننا بعد ان هاجمنا كوبانية اليهود عدة مرات ، اضطررنا الى التراجع · جاء جيش الانقاذ · طبعا تعرفون جيش الانقاذ · اما نحن فلم نكن نعرفه · اسمي صقر ، لكنهم يلقبونني في التنظيم بصقر قريش · يا عمي هذه الثورة جميلة · انها افضل من الثورات السابقة · انها تهتم بالشهداء · اما في الماضي ، فلم تكن الحكومات العربية تهتم لا بالشهداء ولا بالاحياء · المهم تعرفنا على جيش الانقاذ · قالوا ان جيش الانقاذ سوف يأتي · انتظرناه · النساء ينتظرن · الاولاد ينتظرون ، ونحن تعبنا · وفجأة سمعنا اطلاق نار في الهواء · يا هلا بالعرب · ورأينا الدبابة عن قرب · في الحقيقة هذه اول مرة امسك فيها دبابة بيدي · تقدمت من قائد الدبابة · وبعد التحيات الرسمية التي لا بد منها في مثل هذه المناسبات كما تعلمون ، وضعت يدي على حديد الدبابة · ما الذ الحديد · دبابة ترفع الرأس · انها تختلف عن دبابات الانكليز · اصغر قليلا ، لكنها اجمل · والله دبابة ترفع الرأس واكثر · نزل العساكر في بيوتنا · استضفناهم · مضت ثلاثة ايام وهم لا يزالون ، اكل وشرب وطلبات · طلبات الجيش على الرأس · الجيوش دائما على الرأس ، لانها تحمي الاوطان · يجب بناء الجيوش القوية ، بدون جيش لا حرمة لوطن · وبعد ثلاثة ايام جاءني ابو سعيد · ولكن يا صقر جيش الانقاذ لا ينقذ الا بطون

افراده · ما هذا الجيش · يجب ان تكلم قائد الدبابة · ذبحنا الدجاج كله ، ولم يعد هناك شيء في القرية · متى يحارب هذا الجيش ؟ يا صقر ، يجب ان نحتل الكوبانية قبل ان يحتل اليهود البلد · بعد التنحنح والسلام والكلام ، فاتحنا قائد الدبابة بالموضوع · ننتظر الاوامر قال · قلت له اهجم على مسؤوليتي · لا استطيع ، انا متطوع مثلكم اجابني ، واحب ان ننتهي من قصة الكوبانية قبلكم جميعا · بعد الحديث والنقاش وافق الضابط على الهجوم · للحقيقة كان ضابطا مندفعا · جمعنا في ساحة القرية · الدبابة سوف تتحرك الى التلة وتقصف الكوبانية · عليكم الثبات في مواقعكم · وعند اعطاء اشارة الهجوم تتحركون · لا اريد حربا فوضوية · النظام هو اساس الحرب · وافقنا جميعا ، رجل مقنع · تحركت الدبابة من الساحة وبدأت تمشي ببطء وسط شوارع القرية الضيقة · ثم غابت عن انظارنا · بدأنا نتوزع مجموعات في المواقع التي حددت لنا · ثم سمعنا صياح الضابط · ركضنا ، فوجدنا الدبابة متوقفة وسط شارع ضيق ولا تستطيع الحراك · بدأ الضابط يشتم · يلعن ابو الحرب ، كيف نحارب بدون طرقات · جلبنا المعاول والرفوش وبدأنا نحفر التلال كي نوسع الطريق · وبعد جهد مضن استغرق ثلاثة ايام ، استطاعت الدبابة ان تتحرك وسط تهليلنا وتكبيرنا · المهم ان الدبابة لم تقصف سوى قذيفتين ، ثم تعطل المدفع · لماذا لا نهجم يا حضرة الضابط ؟ عليك ان تسأل ربنا ، يجيبني بتبرم وعصبية · المهم ، بدأ اليهود هجومهم من الكوبانية قبل ان نهجم نحن · ذهبنا الى الضابط · ماذا نفعل ؟ لا استطيع ان افعل شيئا · سوف انسحب · المدفع معطل ، ودبابة بدون مدفع لا تساوي شيئا · وعلى اي حال فالمعركة خاسرة · وغدا تاتي الجيوش العربية وتحرر فلسطين · انسحبوا معي الان · ثم نعود بدون تعب · وافقنا · لا · بعضنا وافق · انا والله لم اوافق ، وابو سعيد لم يوافق · قاتلنا · ثم ماذا نفعل · هجموا في حوالي عشرين دبابة · ماذا افعل · انسحبنا وتوكلنا على الله ، بعد ان مات منا الكثيرون · الحقيقة اننا دفنا القتلى قبل ان ناتي الى لبنان ·

ابتعدت عن الدبابة · وضعت منديلها على رأسها واشارت الى اشارة الوداع · طبعا لم اسأل الى اين ؟ فالقذائف المتفرقة كانت تتساقط ، ولا بد من الثبات في الموقع · لكن المرأة ذهبت دون ان اعرف ماذا جرى لزوجها ·

ـ استولينا على دبابة ·

ـ ما هذا ؟

دبابة حقيقية يقودها نبيل · الجنود استسلموا قالوا انهم لا يريدون قتال

اخوتهم · طلبت اليهم ان يبقوا معنا · لكنهم ذهبوا · قالوا انهم سوف يرجعون · مشت الدبابة ومشينا خلفها · اريد دبابة من كل الالوان · هل تعرف الالوان يقول الفتى الزنجي · انا لا اعرفها · لا افهم معنى الالوان · كل شيء ملون الى اقصى الحدود · وطلال يريد دبابة ملونة · جاء الشباب بجميع الالوان وبدأوا يطلون الدبابة · الدبابة ترفض التقدم · ونحن نطلي جسدها بجميع الالوان الممكنة · اريد دبابة حمراء ، لان الثورة بدأت · رائحة البارود في كل مكان · اصبح لبيروت رائحتها · في الماضي ، لم اكن استطيع تمييز رائحة بيروت · ولم يكن احد يعرف ان لها رائحة · الجميع يشم رائحته هو ، او رائحة الغرسون التي تختلط بالخمور والكولونيا الرديئة · اما الآن ، فبيروت لها رائحة محددة · البارود في كل مكان ، والشوارع الفارغة يسكنها الضباب ، واصوات القذائف تختلط بأصوات الصواريخ الكورية التي تعوي في الفضاء · عواء ورائحة ·

– وماذا جرى للمرأة بعد ذلك ؟

– لا اعرف ·

اخذنا الدبابة · لوناها · اخذنا رشاش الـ ٥٠٠ وثبتناه في الكنيسة · اجتمع صبية الحي عليها · اقتادوا الدبابة ، ثم توقفت · ربطنا حبلا من الشباك الى سبطانة المدفع · وكانت الثياب المنشورة من كل الالوان ·

امسك طلال الرغيف ، لا اعلم ماذا يجب ان نفعل · يجب ان تبدأ الثورة · لكنها بدأت يقول سالم · انتم لا تفهمون ما هي الثورة · هذه هي الثورة · هكذا تكون الثورات · هل تعلم لماذا الرغيف مدور · لانه رغيف · لا يمكن ان يكون الرغيف الا هكذا ، مثل المقبرة · المقبرة مدورة ، لكننا لا نراها من الداخل · جميع الاشياء هكذا · لا نرى سوى سطح الاشياء · رائحة البارود تنتشر ، ونحن نقف تحت شمس شتائية ، نحمل بنادقنا ، نسترخي ، طلقات متفرقة ، رجل يقترب · انتم لا تعرفون عميق · تأكلون العنب وتشربون العرق لكنكم لا تعرفون عميق · هناك العنب · وابي رأسه يابس · لا تعرفون الطريق ، تعالوا ، انا خدمت في بيروت واعرف جميع شوارعها · لكن الجبل اجمل · ومنظر العنب وهو يتدلى يفتح شهيتي على العرق · انتم لا تشربون العرق · هذا خطأ · العرق شيء مهم · نار · يدخل العرق الى جوفي وتدخل النار · يجب ان يشتعل الانسان · العرق وحده يشعل · اضع العرق في جوفي واسرق · هل تعلمون ماذا فعلت · بعد كل الذي جرى ، علمت ان الدولة تفرط · اخذت الملالة التي اقودها وهربت بها · حدث هذا قبل ان ينهار كل شيء · هربت بالملالة وحدي من حوش الامراء الى عميق · خرج ابي ، لم

يكن مندهشا • اخذ الملالة وربطها امام البيت • نهضت في الصباح فلم اجـد الملالة • يجب ان اذهب بالملالة والتحق بالثورة • سالت امي ، قالت ان ابـي اخذ الملالة وذهب الى الكرم • ركضت الى الكرم • رايته يحاول ان يربـط الى الملالة ادوات حديدية • اريد ان افلح • والله الملالة افضل من التراكتور • اصبحت الملالة حديث القرية • جاء المختار مهنئا واقترح انشاء تعاونيـة زراعية • ولكن يا مختار ، منذ زمن طويل وانتم تفلحون ارضكم بالتراكتورات ، ولم نقترح عليكم انشاء تعاونيات • التراكتور ملكية خاصة اما الملالة فهـي ملكية عامة • هكذا يقول المختار الذي يفهم • تناقشنا • تصايحنا ، بدا وكأن الامور لن تحسم بشكل سلمي • يا مختار لم يعد هناك ملكية خاصة • كل شيء مباح • هبطت السماء على الارض • لكن المختار يريد اخذ الملالة وابي يريـد الاحتفاظ بها • ومن اجل تلافي المشاكل سرقت الملالة من امام البيت وعدت بها الى الثكنة • وكان كل شيء قد انتهى • ولم يعد هناك احد يركب على ظهـر احد • هكذا قالوا لنا • لكن القتال في المدن صعب • لا تستطيع ان تقتـل عدوك الا بعد جهد غير عادي • هذه ليست حربا • لا اعلم • ربما كنتم على حق • لكن كل شيء فرط •

المرأة الكردية تسأل عن زوجها ، وزوجها يتمدد باردا وسط الشارع •

ـ سوف يتعفن في الشارع •

ـ ننتظر الليل ونسحبه • تكرمي •

انحنت • كانت تحمل رغيفا مستديرا • قضمت لقمة • الله يكرمك • ولكن لا تنسوني •

ـ لن ننساك •

وكان هو ، يتمدد على بطنه • رجله ترتفع قليلا عن الارض ، والارض المبللة بالوحل والتراب والغبار تحيط به •



« ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة ؟»

كان الجبل مثقوبا لكنه يتقدم • وكانت النساء تقف في صفيـن طويليـن بانتظار الحرب • لكن الحرب لم تأت • منذ ثلاثمائة عام ونحن ننتظر الحرب • لكن الحرب تأتي دائما وهي تحمـل ثقبين كبيرين : ثقب الى الاعلى حيث يرتفع عنق المرأة فتختنق ، وثقب في الوسط قبل ان نولد • الجبل الذي يتقدم ، كان مثقوبا ، مثل الحرب • الجبل يشبه الحرب • قلت له • وتدحرج صوتي

بين اقدامنا التي تتدحرج في القرية ، حيث الليل ، وسكون غريب ، ورياح باردة · وصلنا الغابة · بيت عتيق مهجور ، واشجار صنوبر · ونحن نضع النار داخل كوم الحجارة ، حتى لا يراها احد ·

ـ هل ترى الاشجار · لقد بدأت حرب الشعب · تحتاج حرب الشعب الى الاشجار · من اجل فيتنام على الاقل ·

ادغال ومستنقعات · اشجار ورماد نار بدأت تنطفيء · منذ خمسين سنة ونحن نعيش الحروب · انحنت البندقية قليلا قبل ان يضعها على الارض ·

ـ ألحرب ضمير مستتر تقديره نحن · الآن انكشف الضمير المستتر ·

ليس هذا مهما يقول طلال · انظروا الى الجبل · هذه هي المرة الاولى التي نصعد فيها الى الجبل · نبيل يحلم بالرمل · انا لا احب الجبال ·

ـ لماذا اتيت اذن ؟

ـ واجب وطني · ثم يبتسم · الحرب في بيروت اجمل ·

ـ مستنقعات وبعوض · انت تحب المستنقعات ·

ـ انا احب المدينة ·

انا احب النساء يقول طلال · الليلة ، سوف ننتقل من شرف الثورة الى شرف الموت · الموت حالة هادئة · وسط الرصاص والقنابل والدوي ، تقفز وتقفز · ثم تسقط في الهدوء ، الهدوء الكامل ·

لكن الجبل مثقوب · تقف امرأة بيدها طعام كثير وحولها نساء ورجال · رأينا النار فأتيناكم بالطعام · وضعت المرأة الطعام وذهبت · اكلنا · الطعام يتجمد في حلقي · يجب ان اثقب عنقي ، عندها اصبح جبلا ·

الجبل هو الملك · صنين هو الملك · لكن من يستطيع ان يتسلق هذا الجبل العاري · لا يمكن نقل هذه الاعتدة دون بغال · البغل هو الملك الحقيقي · نصعد، نحمل الذخائر على ظهر البغل ، نمشي وراءه ويقودنا الى القمة · الثلج والضباب والطلقات الحمراء التي تخترق الليل · ينحني طلال · يضع نظارتيه · منذ ثلاثمائة عام كان الفتى النحيل ورقة مرمية على الشاطيء · التقطها عابر سبيل ووضعها في جيبه · وكان العراف الصيني القديم ينتظر · ولم يكن الرجل يعلم ان الاشياء تنتظر · اخذ العراف الصيني الورقة وتكلم · لم يفهم الرجل · وعندما رجع ليسال وجد ان العراف قد مات · وان الارز الذي كان ينمو في الشارع صار خمرا محرقة · لكن الفتى الزنجي يتسلق عنقي ·

لا يتكلم ، لا يسال • يحلم بان لا يسافر لكنه سيسافر • والى جانبي ينام رجل طويل القامة ، كث اللحية • يضع يديه خلف راسه وينام بين قطرات الماء التي ترشح من سقف الخيمة ، وبين الثلج الذي يغطي الثلج •

– تعالوا نشعل نارا على القمة • يجب ان تشتعل قمة الجبل • مـــاذا سيحصل • بضعة قذائف •• بسيطة •

اشعل نارا • رفع يديه الى اعلى • خلع قميصه الكاكي ولوح به في الفضاء •

هنا ينام الحجل • هنا يموت الحجل ، قال احد المقاتلين بلهجته القروية التي لا تخطىء • يترصدون الحجل ثم يقتلونه • البغل ينزف • اصيب بشظية فـي خاصرته • ينظر الى الارض ، لا يئن ، يترك الدم يسيل على بطنـه دون ان يتحرك • البغل هو الملك • وكان صنين رماديا • ثلج وبقع رمادية ومساحات لا تحصى • نحن اعلى من الغيوم قال الرجل الكث اللحية وهو يمسك قطعـة اللحم المعلب بين يديه ويمضغها كأنه يأكل الشوكولاتة • لا بد من الاكل • غدا سوف تأكلون مثلي • انا رجل متزوج • يعني عملي • أفهم • اعرف ان المرأة لا ترضى • اذا ضاجعتها تتبرم من كثرة المضاجعة • واذا لم تضاجعها تتساءل عن معنى الزواج • وزوجتي التي تركتها منذ الف سنة لا تفهم • تعتقد انني لست جديا • لكن انتهى الموضوع • انا اقف على أعلى قمة في أعلى جبل ، واقرر نهائيا ، ان هذه الزوجة التي تشبه جميع الزوجات لا تصلح للزواج • لا تنظروا الي هكذا • لا بد من الاكل • لا يمكن احتمال البرد دون ان نأكـل الهورمونات والفيتامين • ولا يوجد خبز • لقد فسد الخبز • ابتل بالثلـج واصبح قطعة من طين • لا يمكن ان نأكل الطين ، ولا يمكن ان نمزج اللحـم بالثلج •

على القمة ، حيث كل شيء يشبه كل شيء • كانوا ثلاثين رجلا ، ينامون بين الثلوج • يضعون بنادقهم في اعناقهم وينظرون الى وجـوه بعضهـم • يطرحون الاسئلة • نبيل يقفز • لاعب الفوتبول يقفز هربا من البرد • والقذائف التي تتطاير تشعل الثلج • والطائرات تخترق الضباب من حين الى آخر ، لكنها تبقى بعيدة • لان الجبل اصبح بعيدا •

اتكأ الرجل الكث اللحية الذي اسمه نزيه على كوعه الايسر ، تمدد فـوق حرام صوفي موضوع فوق بقع الثلج والارض الرمادية ، انا تعبان قال • الحرب متعبة ، لكنها لا تشبه النساء • لماذا يمزجون عادة بين الحرب والنســاء • السينما سخيفة • دائما في الافلام • يجب ان تكون هناك حروب والى جانبها نساء • حتى تشي غيفارا وضعوا الى جانبه امرأة • ودائما يموت البطـل

وتبقى المراة كي تبكيه · طبعا ، زوجتي سوف تبكي · انها مثل جميع الزوجات لذلك يجب ان تبكي · لكن حتى الموت الذي هو مسالة المسائل ليس مشكلة · انه مشكلة تافهة داخل الامراض · عندما يكون الرجل مريضا يمتلىء راسه بالمشاكل ويبدأ بطرح الاسئلة · اما عندما تكون صحته جيدة كصحة البغل فانه يتصرف ببساطة البغل ·

وقف طلال الى جانبي وهو يمضغ حبات الفول البادرة المعلبة ، في محاولة لايقاف جوعه ·

ـ لماذا تتكلم عن الموت والنساء ، يجب ان نتكلم عن النصر ·

النصر ثوب مثقوب يقول نزيه · هل ترى الغيوم القريبة ، تستطيع ان تلمسها بيدك ، لكنك لا تستطيع الامساك بها · هكذا نحن · نستطيع ملامسة النصر ، لكننا لا نستطيع الامساك به ·

التمعت الطلقات فوق رؤوسنا ، ثم بدأت القذائف ترسل انينا خافتا يسحقه صوت ارتطامها بالارض · كانت الحجارة تتطاير فوق رؤوسنا ، وسمير بلحيته وحنانه ، يقفز مرحا ، يطلق الرصاص ، يتدحرج بين الصخور · لا ارى شيئا · الضباب كثيف يصرخ · لكن نبيل لا يجيب · يجثو ، يطلق مشدودا ، شتائمه تسبق طلقاته · اما نزيه ،فكان منبطحا على الثلج ، مسترخيا ، يطلق بهدوء · يلتفت الى يمينه حيث يرى طلال باعصابه المشدودة ، وهو يقاتل كمن يصلي داخل كنيسة · يتوقف اطلاق النار فجأة · يأتي سعيد راكضا · لقد هربوا وتركوا هذا · يمسك مخزن الرشاش بيده · هذا الشكل من الحرب لا يكفي يقول سمير ··

ـ ماذا تقترح ·

ـ يجب ان نرميهم بالحجارة · البندقية بندقية ، اما الحجر فهو جزء من يدي · يجب ان اشعر ان يدي هي التي تقاتل ، وليس هذا المعدن البارد الذي لا يلبي الحاجة ·

يبتسم طلال · لقد جعلك هذا الجبل بدائيا ·

ثلاثون رجلا يقفون على رأس الجبل · يشعلون النار ويرقصون · يأكلون اللحم المعلب ، ينزحون الى ذكرياتهم · يجب ان نتوقف عن حكاية ذكرياتنا يقول سالم · نحن نصنع المستقبل ، الذكريات لا تصنع المستقبل ، لكن الذكريات تمتزج بالاغاني والاهازيج · صوت احمد يرتفع ، يشق الصخور ، يتواصل مع الرياح الباردة · انا ملك الجبل يقول احمد ·

ـ نحن حشرات مرمية في هذا الفضاء الواسع · جبال ، نصغر ونحن

نتسلقهـا ٠

ـ هذا كذب نحن نكبر والجبال تصغر ٠ دائما يقولون هذا ٠ الانسان داخـل الطبيعة يصبح حشرة صغيرة ٠ ولكن هذا ليس حقيقيا ٠

انا اصبحت اكثر طولا يقول سالم ٠ انا اطول رجل في العالم يقول سمير ٠ نحن هم الملوك الحقيقيون يقول طلال ٠ ولكن هذين البغلين يشاركاننا على العـرش ٠

كان الفتى الزنجي النحيل يركض ٠ توقفي قليلا قلت لها ٠ لكنها تركض ، والرمال تتطاير من قدميها العاريتين ٠ سقطت على الارض ٠ سوف اضعك في علبة صغيرة واضع العلبة الصغيرة في جيبي ٠ وتصبحين اسيرة في جيبي ٠ لانك لا تستحقين اكثر ٠ ضحكت ٠ انا لا احب الاسرى ٠

ـ وانا لا احب الاسرى ، لكنني مجبر ٠

ـ مجبر ٠ جميع الطغاة يقولون ذلك ، عندما تحرجهم الحقيقة ، يبـداون في رواية مأساتهم التي تتلخص في كونهم مجبرين على ممارسة الطغيـان ٠ انت مثلهم ٠

رجلي تكبر ٠ الثلج يتمدد داخل حذائي ٠ انظروا يقول طلال ٠ ألوان أقواس القزح تختلط ببعضها ٠ جميع الالوان التي رأيتها والتي لم ارها ٠ الجبل يفتح فمه والشمس تتدحرج ٠ جبل يتدحرج بين الغيوم ٠ الوان تشبه البحر ، لكـن البحر مسطح ٠ والالوان تتشكل فجوات مستديرة ٠ تمتد يدي ، لا تلتقط شيئا ٠ الجبل المثقوب يتحرك ٠ نحن نركض باتجاه الوادي ، والوادي يضم جسدي ، يقطعه الى نصفين ، والبحر البعيد يدخل بين الغيوم ٠ امد يدي الى وجهي ٠ وجهي تفاحة كبيرة تهرم ٠ ويدي تمتد الى الشمس التي تسقط في عيوننا ، وهي تتدحرج بين اللهب وفم الحوت الذي يتأهب لابتلاعها ٠

حمل المقاتل القروي حذاءه ومشى حافيا ٠ امس كانت الشمس تحرقنـا ، واليوم اتى الضباب والشتاء واخذوا الشمس الى كعب الوادي ٠ لكن المشكلة هي في هذا الحذاء اللعين ٠ يبقى مبتلا ٠ امشي وكأني احمل الجبل فـي رجلي ٠ اصابع قدمي اصبحت متورمة ، ولم اعد قادرا على لمسها ٠ الثلـج ضد الحروب ٠ حمل حذاءه ودخل الى شيء يشبه الخيمة ٠ الماء في كـل مكان ٠ رائحة الصوف المبتل تشبه رائحة الغنم قبل ذبحه ٠ والله الجـزار ملك ٠ ماذا يهمه ٠ يفعل ما يشاء ٠ يذبح ويبيع ويستطيع ان يأكل الى ما شاء الله ٠

ما هذا التموين ؟

كان لساني ناشفا وجوفي يحترق · دخلت الى الخيمة فوجدت المقاتـــل القروي يتناقش مع نزيه في السياسة · كان نزيه متكئا علـى يده اليسرى ، يرتجف قليلا من البرد · وجهه احمر بالشمس والضباب · يرفع يده اليمنى ، ويتكلم الى ما لا نهاية ·

ــ يجب حل المسالة الشرقية بشكل نهائي · منذ ثلاثمائة عام والغرب يغرس سكينه في خاصرتنا باسم المسالة الشرقية وحقوق الاقليات · يجب ان ننتهي من المسالة الى الابد ·

جلست الى جانبهما واستمعت · ثم بدأ النقاش يحتد · وارتفع صوت المقاتل القروي · نظرت اليه ، كان يحمل في يده ليمونة تتوهج في الخيمة المعتمة · كانت الليمونة تشارك في النقاش على طريقتها الخاصة · تنتقل من اليد اليسرى الى اليد اليمنى في حركة بطيئة · ثم حين يحتد النقاش ويصمت ، تاتي الليمونة لتشق الصمت في حركة متسارعة بين اليدين ، وكأنه اصبح احد الحواة ، الذي يستطيع ادخال الليمونة في اذنه فتخرج شجرة من فمه · يضع الليمونة فـوق البطانيات المبتلة التي تكدست فوق بعضها · ينحني نزيه ، يمد يده ، لكن يـد القروي اكثر سرعة · يمسكها ، ترقص بين يديه ، ثم يتركها تتدحرج قليلا ·

ــ ولكن من اين جاءت الليمونة ؟

يتجاهل السؤال · ثم يأخذ صوته نبرة خاصة ·

ــ يجب الاعتناء بالسلاح في هذا المناخ · فالماء يتسرب الى داخله · المهم ، يجب ان نتابع القتال · هكذا تريدون · انا اوافق · شرط ان لا نبقى هنا على رأس الجبل ، وسط هذا البرد الذي لا يطاق ·

تدحرجت الليمونة · امسكها طلال · قفز المقاتل القروي ·

ــ اريد الليمونة · هذه ليمونتي الخاصة ·

ــ لا توجد املاك خاصة في الثورة ·

قفز · امسك الليمونة وسحبها من يدي · جلس في زاوية الخيمة وحيـــدا هو وليمونته · تقدمنا منه · وضع الليمونة خلف ظهره ·

ــ يجب ان نذهب الى بسكنتا · هناك نجد بيوتا واشياء نأكلها ·

التمعت السماء بأصوات الرشاشات البعيدة · وقف نزيه · بدأت المعركة · يجب ان نأكل هذه الليمونة قبل المعركة ، نتقاسمها نحن الثلاثة · وقف طلال ، امسك بندقيته · وضع المقاتل القروي الليمونة في جيبه ، وبدأ يحاول انتعـال

حذائه · كلنا جاهزون · لكن الليمونة هربت · اختفى ثم عاد ورائحتـــــه ليمون · من رأسه الى حذائه كانت رائحة الليمون تنتشر ·

ـ ماذا جرى لليمونة ؟

ـ تحولت الليمونة الى شجرة · هذا الرجل اصبح شجرة ·

كانوا امامنا ، لكنهم ليسوا كالبشر · طبعا رجل عادي · لكن لا · نطلق النار ، يسقطون في حركة تشبه الحركة المسرحية · لم اكن ارى جيدا · لكنهم كانوا يسقطون · انا متأكد من ذلك · يركضون بسرعة ، ثم حيـــن يسقطون تصبح الحركة بطيئة · يسقط الرجل وكأنه يمثل · لست متأكدا من انه رجل · في الواقع لا اعلم · لقد قمنا بعمل ممتاز · لا يمكن اختراق هذا الجبل · نحن حراس الثلج والبرد · لكن لا اعلم ، ربما كان ذلك غير واضح او مفهوم · انـا متأكد · القتل مسألة اخرى · هنا ، كأني اطلق على حجر · في الواقع ، كنت اطلق على اهداف ، مجرد اهداف · وكانت الاهداف تتصرف بوصفها اهدافا · هذا كل ما في الامر · ·

يخلع طلال نظارتيه ، يمسح الوحل الممتزج بحبات العرق · جاء نزيه · لقد ماتت الشجرة · المقاتل القروي ، بحذائه الكبير ، ووجهه المحروق بالثلـــج والضباب ، يتقدم ، محمولا على البغل · ينام وحوله ثلاثة رجال يقودون البغـل الابيض ، ويمسكون بالقروي ·

توقف البغل امامي · انحنى طلال · رائحة الموت تشبه رائحة الليمـــون · الموت شجرة ليمون · عندما اموت اريد ان تكون رائحتي مثل رائحة شـــجرة الليمون ·

عدنا الى الخيمة · تقدم طلال من حقيبة المقاتل القروي · فتح الحقيبة ·

ـ انظر ، ليمونة اخرى كانت تنتظر نهاية المعركة ·

امسك نزيه الليمونة ، قسمها الى نصفين ، اخذ نصفها ، اعتصره ، فتساقطت قطرات الليمون في فمه وعلى لحيته ·

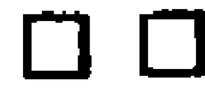
ـ نشرب نخب الشهداء · لماذا لا تأكل ·

ـ لا استطيع ·

ـ انت رومنطيقي · الا تريد ان تصبح رائحتك مثل الشجرة ؟·

وضعت الليمونة في فمي · كان طعمها حادا · اكلتها دون ان اقشـــرها · اكلتها كلها · واصبحت رائحة الخيمة تشبه رائحة حقل الليمون الواسع ، الذي

يمتد من صيدا الى آخر العالم ·



انا هو الاحتمال الاخير ، قلت لها · وكانت خطواتنا تسقط على طرقات المدينة المعتمة · اصوات خشخشة الثياب · كلمات ، نقولها دون ان نقول شيئا · امامنا تمشي سيارة اللاندروفر المحملة بالذخائر والطعام · ونحن نمشي ، نتهامس ونستمع الى تهامس القرويين وهم ينظرون الينا باعجاب · نعجب بأنفسنا · نفتخر ، كما كنا نحلم بأن نفتخر عندما كنا صغارا · نحن صغار ، ولكننا نفتخر كما يجب ان نفتخر ·

خط طويل من القاتلين الذين جاءوا من كل مكان الى العرس الذي لم يبدأ · دخلنا سراي المدينة · قالوا ان هذا المكان يستطيع وحده استيعاب مئات الفدائيين الذين جاءوا من كل مكان · اضواء شموع · دهاليز طويلة · ندخل وندخل ولا نفهم اين نحن · وجدنا انفسنا في غرفة مستطيلة وكبيرة جدا · النوافذ عالية ومحاطة بالاسلاك ·

– نحن في السجن · جئنا لنحارب فوجدنا انفسنا في السجن · مبدئيا ، انا لا اوافق · لا يمكن ان ننام في السجن حتى ولو كان السجن فارغا · وحتى اذا الغينا السجون ، لا يمكن · الفدائي لا يمكن ان ينام في السجن · هذا موقف مبدئي · لست مستعدا ان اوافق ·

سالم ، وقاذف الـ ب ٧ في يده ، ووجهه الذي يرتجف على حائط السجن · يرتفع صوته · لن انام في السجن · انا جئت لاحارب ولن انام هنا ·

يتقدم طلال من الدائرة التي تتحلق حول سالم · يقف كالخطيب ويتكلم متمهلا · المسألة ليست مبدئية ، المسألة عملية · لا يوجد مكان يتسع لنا سوى هذا السجن · ثم ، هذا جميل · تخيلوا معي · نخرج من السجن لندمر السجون · الثورة تبدأ من السجن · اعتقد ان المسألة غير مدروسة · لكنها تاتي كانها مدروسة · كانها تريد ان تقول ان السجن هو الذي يدمر السجون ·

انت رومنطيقي اقول له ·

انا رومنطيقي يجيبني ·

والجبال التي تمتد كانت تمتد · يجب ان نتعرف على المنطقة بدقة يقول نبيل ·

النقاش يتسع · حلقات صغيرة تتوزع في الزوايا والممرات · والضــوء الشاحب يصبح اكثر شحوبا · والقذائف تختلط بالنعاس · ثم ، وفي حوالـي التاسعة مساء ، كانت القاعة باسرها نائمة · الشموع نائمة ، وانا نائم ، وطلال ينام الى جانبي · حتى القذائف بدت وكأنها تريد النوم · يوقظنـي طـلال ·

ـ هل تعرف لماذا ننام بهذه السرعة ؟·

التعب قلت له · وكان صوتي يختلط بالتثاؤب والنعاس ·

ـ لا ، ليس التعب · انه السجن · السجن يعني النوم · مجموعة مشاكـل صغيرة ، ثم يهرب الرجل الى النوم · عندما تنام تستطيع ان تتجـاوز الممنوعات · تهرب الى شيء هو لك وحدك · النوم هو لي وحدي · لا يشاركني فيه احد · انام كما اشاء · احلم · اتقلب · لاجل هذا السبب ننام نحـن ، وينام السجناء ·

ـ ولكنني لست سجينا ·

ـ طبعا سوف نحطم السجون · ولكن من اجل تحطيم السجون ، كان لا بد من دخول السجن ·

ـ اريد ان انام · وبعد ذلك ، انت تناقض نفسك ·

ـ الحياة هكذا · التناقض لا يعني انني اناقض نفسي · التناقض يعنـي التناقض ·

ـ النوم يعني النوم ·

ادرت ظهري وحاولت ان انام · لكن طلال لا ينام · وابي يقول ان السمك في البحر لا ينام · لكني لم اسأله اين ينام السمك اذن · ابي يصر عـلى ان السمك لا ينام · وطلال لا ينام · ويدي لا تطال سقف السجن العالي · نهضت ، كانت الشهب الحمراء تلتمع من النوافذ الصغيرة العالية · خطواتي تزحـف على البلاط المغطى ببطانيات الصوف الناشفة · وفي الغرفة الجانبية ، اصوات وهمهمة · تقدمت ، شاهدتهم من خلف القضبان · اربعة رجال · كل واحـد يجلس بمفرده في زاوية معتمة · شمعة وحيدة ترتجف · تقدمت من القضبان · تقدم احدهم باتجاهي ، ثم تحرك الآخرون · فتح الاول فمه ، ثم تبعه الآخرون · خرج صوت واحد بتدرجات متفاوتة ، كأننا في مسرح يوناني · لم افهم قلت لهم · انا سجين قال احدهم ·

ـ وانا سجين مثلكم ·

ـ ولكنك تحمل رشاشا ٠

ـ غدا ، اعطيكم رشاشا ٠

تراجع احدهم وقد بدت الخيبة على وجهه ٠

ـ انت تسخر منا ٠

ـ انا لا اسخر منكم ٠ هذا رايي ٠ غدا اعطيكم سلاحا ٠ ولكن لماذا انتم هنا ؟٠

ـ المسالة معقدة ٠ قالوا انهم يخافون علي ٠ انا من قرية بعيدة ، وانت تعرف الاجواء ٠

جاء طلال ونبيل واشخاص اخرون ٠ بدا طلال مهتما بالموضوع ٠

ـ غدا ، سوف اوصلك الى قريتك ٠ لا يوجد سجناء هنا ٠ لقد الغينا السجون نهائيا ٠

ـ غدا ، سوف اعطيك بندقية وتاتي لتحارب معنا ٠ هل تقبل ؟٠
ـ لكني لا اعرف القتال ٠

ـ تتعلم القتال وانت تقاتل ٠ هل تخاف ؟٠

ـ طبعا يخاف ٠ انا اخاف ٠ كلنا نخاف ٠ الشجاعة خدعة ٠ لا وجود للشجاعة ٠ الخوف قبل او بعد ٠ قبل او بعد دائما نخاف ٠ نخاف من السجن قبل ان ندخله ٠ نخاف من الموت قبل ان نموت ٠ نخاف من الحرب بعد ان تنتهي المعركة ٠ نخاف من المراة قبل ان نتزوج ٠

ـ لا ٠ نخاف من المراة بعد ان نتزوج ٠

تكوم السجناء حول السجين الذي يخاف ٠ وتكومنا نحن حول نبيل الذي لا يخاف ٠ وفي النهاية يجب ان ننام ٠ ارتفعت اصوات القذائف حول السجن ، وكان حزني يرتفع ٠ حزن طلال ، غطى حزنه ايام السجن الثلاثة التي قضيناها ونحن ننتظر اخراج السجناء ٠ طلال في الزاوية ، يعد القذائف وينتظر دوره ٠ ثم جاء آمر الفصيل ، اخبرنا اننا سوف نعود ، لان العملية الغيت ٠ ولكن ماذا سنفعل بالسجناء سال طلال ٠ قال آمر الفصيل ان المسالة معقدة ، تحتاج الى وقت واتصالات ٠ نحن لا نستطيع التصرف ٠ نتركهم مؤقتا ٠ لا بد من ان يخرجوا في النهاية ٠

كل شيء مؤقت قالت ، وهي تحمل في يدها صورتها ٠ انظر الى صورتي ٠

انت اجمل من الصورة · رفع طلال الكاميرا الى كتفه . ارتفع الفتى الزنجي النحيل ، اختلط بالرمل وقطرات المطر ·

اتكلم ، لاني حزين · نموت مثل الذباب · منذ ايام المغول او قبلهم او بعدهم ، ونحن نموت مثل الذباب · نموت دون ان نفكر · نموت من الامراض ، من البلهارسيا ، من الطاعون ، من الولادة ، من عدم الولادة · نموت مثل الذباب · بدون وعي ، بدون كرامة ، بدون شيء ·

ـ لكنك تدعو للحرب · والحرب تعني موت مزيد من الناس ·

ـ الثورة تعني الحياة ·

ـ لكنهم يموتون ·

ـ يموتون بوعي · الوعي ضد الموت · لا نستطيع الغاء الموت الا بالوعي · ننتهي من موت الذباب ، وندخل في الموت الحقيقي ·

ـ الموت يلغي الوعي · الموت يلغي الوعي ، هل تسمع ؟·

ركضت · وضعت الرمل على شعرها ، وبدأت تحرك راسها ·

ـ انت بورجوازية وانا لا احبك ·

ركضت ولم اركض وراءها · حملت حذائي في يدي ، ومشيت بطيئا الى السيارة · الى اين صرخت · الن تأخذني اسيرة وتضعني في العلبة ؟ فتحت باب السيارة ، ادرت محركها ، وذهبت ·

★★★

الثلج يتدحرج فوق رؤوسنا · الضباب ، والجبل الكبير ينحني امام اقدامنا · العدو يتقدم ، يحاول التقدم ، لكننا نقف على القمة مثل الآلهة · لا نتزحزح · نتقدم ببطء ، والبغال البيضاء تتقدم ببطء الى جانبنا ، واصوات الطلقات اختلطت باصواتنا · الاقدام ، تورمت واصبحت جزءا من الثلج والبقع الرمادية · ونحن لا نزال · نعود الى الذكريات · نروي حكاية السجن · نتذكر السجناء الاربعة · كل واحد يروي القصة كما يشاء ، او كما يتذكرها ، او كما هي فعلا · والطلقات ترن في الفضاء الواسع ، حيث الشمس التي تتدحرج ، والثلج الذي يتساقط ، والالوان التي لا تشبه الالوان · كان حلقي جافا · يدي تتخشب حول البندقية · نستمع الى اصواتهم · يشتمون ونشتم ونطلق النار · نحتاج الى حجارة سمير يصرخ نزيه · وبعد لحظات انسحبوا · كنا نجلس بهدوء حول بنادقنا ، حين قفز سالم · صرخ بصوت كالجبل : من هناك · ركض

باتجاه رجل ، اعتقدته لاول وهلة احد رفاقنا ٠

ـ من انت ؟

ركض طلال ، ركض نزيه ٠ اخذوا بندقيته ٠

ـ من انت ؟

صوته يرتجف ٠ تكلم دون ان يقول كلمة واحدة ٠

ـ من انت ؟

ـ انا راعي ٠

ـ والبندقية ؟

ـ انا ضائع ٠

صرخ نزيه ، اسير ٠ امسكوه جيدا ٠ اربطوه بالحبال ٠ تقدم نزيه وضربه على وجهه ٠ اهلا مسيو فاشستي ، وصلت الرسالة ٠ لا تضربوه صرخ سالم ٠ ركض طلال ، امسكه من ذراعه ، تعال ٠

انا طالب قال ٠ نحن مجموعة التبديل ٠ تركوني في الجبل ٠ لا تقتلوني ٠

كان يرتجف مثل الاسرى ، ونزيه يرتجف مثل الفاتحين ، وطلال يرتجف ٠ امسكته من ذراعه اليمنى ، امسكه طلال ، واخذناه الى الخيمة ٠ سقيناه كوب شاي ساخن ٠ ماذا جرى للسجناء الاربعة سالني طلال ٠ جاء نبيل ، يجب ان نقتله فورا ٠ اولاد الكلب ، الفاشست ٠

الاسير يرتجف ، لن نقتله يقول طلال ، انه فقير مثلنا ٠

ـ لماذا يقاتل معهم ؟

ـ متى يصنع الفقراء حربهم الخاصة ٠

ـ لا توجد حرب خاصة بالفقراء ٠ يجب ان تدمر البنايات البنايات ، والاكواخ البنايات ، والمدن المدن ٠ ومن الدمار ، تخرج حرب الفقراء الخاصة ٠

جلس طلال الى جانب الاسير ، وبدأ يتكلم ٠ اخبره عن الجنوب ، وعن فقراء النبعة ، وعن تل الزعتر ٠ اخبره ان عمان كانت تحترق ، وان الليمونة لم تمت ٠ اخبره قصة السجن ، وقصة حبنا للسجناء الاربعة ٠ كان الاسير مقتنعا ٠ دائما يقتنع الاسرى بسهولة ٠

ـ ولكن لماذا تقاتل معهم ؟

لا تقتلوني ، ارجوكم ، يقول الاسير · بن نقتلك يقول طلال · لكن تكلم · انا مقتنع يقول الاسير · دائما ، يقتنع الاسـرى بسهولة · ويمـوت الاسـرى بسـهولة ·



انا هو الاحتمال الاخير ، قلت لها · الموت هو الاحتمال الاخير يقول نزيه ، وهو يمشي خلف البغل الابيض ، الذي يتعثر في مسيرته بين التلال الوعرة ·

وطلال ، ينام هادئا ، يتهادى على صهوة البغل · طلقة في الراس ، وقطرات دم تتساقط ، وتسيل على بطن البغل الابيض · الموت هو الاحتمال الاخير ، قال لها · والسجناء الاربعة ، لا يزالون يحلمون بالبندقية · والجبل يرتجف تحـت الاقدام · الموت هو الاحتمال الاخير ، اقول لها · والرغيف يجف في يدي · وطلال ينام مستسلما كملك حقيقي · وصنين لا يجاوب ·

أسـبوع قصـائـد

محمود درويش

الرمـل

انَّهُ الرملُ
مساحاتٌ من الافكارِ والمرامِ ،
فلنذهبْ مع الايقاعِ حتى حتفنا ٠
في البدء كان الشجرُ العالي نساءً
كان ماءً صاعدا ، كان لغهْ ٠
هل تموتُ الارضُ كالانسانِ
هل يحملها الطائرُ شكلا للفراغْ ؟

البداياتُ انا
والنهاياتُ انا

والرملُ شكلٌ واحتمالٌ٠ برتقالٌ يتناسى شهوتي الاولى٠

ارى فيما ارى النسيانَ ، قد يفترسُ الازهارَ والدهشةَ ٠
والرملُ هو الرملُ ٠ ارى عصرا من الرمـــلِ يغطينا ،
ويرمينا من الايامِ ٠
ضاعتْ فكرتي وامرأتي ضاعتْ
وضاعَ الرملُ في الرملِ ٠٠

البداياتُ انا
والنهاياتُ انا

والرملُ جسمُ الشجرِ الآتي ،
غيومٌ تشبهُ البلدانَ ٠
لونٌ واحدٌ للبحرِ والنومِ ،
وللعشاقِ وجهٌ واحدٌ ،
٠٠ وسنعتادُ على القرآنِ في تفسيرِ ما يجري ،
سنرمي الفَ نهرٍ في مجاري الماءِ ٠
والماضي هو الماضي ، سيأتي في انتخاباتِ المرايا سيّدُ
الايامِ ٠
والنخلةُ امُّ اللغةِ الفصحى ٠
ارى ، فيما ارى ، مملكةَ الرملِ على الرملِ
ولن يبتسمَ القتلى لاعيادِ الطبولِ
ووداعا ٠٠ للمسافاتِ
وداعا ٠٠ للمساحاتِ
وداعا للمغنينَ الذينَ استبدلوا « القانونَ » بالقانونِ كي
يلتحموا بالرملِ ٠٠
مرحى للمصابين برؤيايَ ، ومرحى للسيولِ ٠

البداياتُ انا
والنهاياتُ انا

امشي الى حائط اعدامي كعصفورٍ غبيٍّ ،
واظنُّ السهمَ ضلعي ،
ودمي اغنيةَ الرمّانِ . امشي .
واغيبُ الآن في عاصفةِ الرملِ ،
سيأتي الرملُ رمليّاً
وتأتينَ الى الشاعر في الليل ، فلا
تجدين البابَ والازرقَ ؛
يا ايتها المرأةُ – يا ايتها اللفظةُ
ضاعت لفظتي وامرأتي ضاعتْ ..

سيأتي .. سوف يأتي عاشقانْ
يأخذانِ الزنبقَ الهاربَ من ايامنا
ويقولانِ امامَ النهرِ :
كم كان قصيرا زمنُ الرملِ
ولا يفترقانْ

والبداياتُ انا
والنهاياتُ انا

الصهيل الاخير

واصبُّ الاغنيهْ
مثلما ينتحرُ النهرُ على ركبتها ٠
هذه كلُّ خلاياىَ
وهذا عَسَلي ٠
وتنامُ الامنيهْ ٠

في دروبي الضيّقهْ
ساحةٌ خاليةٌ ،
نسرٌ مريضٌ ،
وردةٌ محترقهْ
حُلُمي كان بسيطاً
واضحا كالمشنقهْ :
ان اقولَ الاغنيهْ ٠

اين انتِ الآنَ ؟
من ايِّ جبلْ
تأخذين القمرَ الفضيَّ

من ايِّ انتظارْ ؟
سيدي الحبَّ ! خطانا ابتعدتْ
عن بداياتِ الجبلْ
وجمالِ الانتحارْ
وعرفنا الاوديهْ ٠

اسبقُ الموتَ الى قلبي
قليلا

فتكونين السَّفرْ
وتكونين الهواءْ ٠
أين انتِ الآنَ
من ايِّ مطرْ
تستردينَ السماءْ ؟
وانا اذهبُ نحو الساحةِ المنزويهْ

هذه كلُّ خلايايَ ،
حروبي ،
سُبُلي ٠
هذه شهوتيَ الكبرى
وهذا عَسَلي ،
هذه اغنيتي الاولى ،
اغني دائماً
اغنيةً اولى ،
ولكنْ
لن اقولَ الاغنيهْ ٠

لمساء آخر

كلُّ خوخِ الارضِ ينمو في جَسَدْ
وتكونُ الكلمَهْ
وتكونُ الرغبةُ المحتدمَهْ
سقطَ الظلُّ عليها
لا احدْ
لا احدْ ..

وتغني وحدها
في طريقِ العرباتِ المهملَهْ
كلُّ شيءٍ عندها
لَقَبٌ للسنبلهْ
وتغني وحدها .

ألبحيراتُ كثيرهْ
وهيَ النهرُ الوحيدْ .
قصتي كانتْ قصيرهْ
وهيَ النهرُ الوحيدْ .

سأراها في الشتاءْ
عندما تقتلني
وستبكي
وستضحكْ
عندما تقتلني
واراها ني الشتاءْ ..

انني اذكرُ
او لا اذكرُ
اَلعمرَ تبخَّرْ
في محطاتِ القطاراتِ
وفي خطوتها .
كانَ شيئا يشبهُ الحبَّ
هواءً يتكسَّرْ
بين وجهينِ غريبينِ ،
وموجاً يتحجَّرْ
بين صدرينِ قريبينِ ،
ولا اذكرها ...

وتغني وحدها
لمساءٍ آخرِ هذا المساءْ
وانادي وردَها
تذهبُ الارضُ هباءْ
حين تبكي وحدها .

كلماتٌ كلماتْ
للشبابيكِ سماءٌ
للعصافيرِ فضاءٌ
للخطى دربٌ وللنهرِ مصبٌّ
وانا للذكرياتْ .

كلماتي كلماتْ
وهيَ الاولى . انا الاولُ

كنا . لم نكنْ
جاء الشتاءْ
دون ان تقتلني .

حالة واحدة لبحار كثيرة

إلتقينا قبلَ هذا الوقتِ في هذا المكانِ
ورمينا حجرا في الماءِ ،
مَرَّ السمكُ الازرقُ
عادتْ موجتانِ
وتموَّجْنا .
يديْ تحبو على العطرِ الخريفيِّ ،
ستمشينَ قليلا
وسترمين يدي للسنديانِ .
قلتُ : لا يشبهكِ الموجُ
ولا عمري .
تمدَّدْتُ على كيسٍ من الغيمِ ،
وشقَّ السمكُ الازرقُ صدري
ونفاني في جهات الشَّعْرِ ، والموتُ دعاني
لأموتَ الان بين الماءِ والنارِ
وكانت لا تراني
انَّ عينيها تنامانِ تنامانِ ...

سأرمي عُرَقي للعشبِ ،
لن انسى قميصي في خلاياكِ ،

ولن انسى الثواني ،
وسأعطيكِ انطباعاً عاطفياً ..

لم تقلْ شيئاً .
سترميني الى الاسماكِ والاشواكِ ،
عيناها تنامانِ تنامان ..
سَبَقنا حُلْمَنا الآتي ،
سنمشي في اتجاهِ الرملِ صيادَيْنِ مقهورَيْنِ
يا سيدتي !
هل نستطيع الان ان نرمي بجسميْنا الى القطّةِ
يا سيدتي ! نحن صديقانِ .

ونامَ السمكُ الازرقُ في الموجِ
واعطتنا الاغاني
سِرَّها ،
فاتَّضَحَ الليلُ ،
انا شاهدتُ هذا السرَّ من قبلُ
ولا ارغبُ في العودةِ ،
لا ارغبُ في العودةِ ،
لا اطلبُ من قلبكِ غيرَ الخفقانِ .

كيف يبقى الحُلْمُ حُلْماً
كيفَ
يبقى
الحُلْمُ
حُلْماً

وقديماً ، شردتني نظرتانِ
والتقينا قبل هذا اليوم في هذا المكانِ !

قطار الساعة الواحدة

رَجلٌ وامرأةٌ يفترقانْ
ينفضانِ الوردَ عن قلبيْهما ،
ينكسرانْ :
يخرجُ الظلُّ من الظلِّ
يصيرانِ ثلاثةْ :
رجلاً
وامرأةً
والوقتَ ...

لا يأتي القطارْ
فيعودانِ الى المقهى
يقولان كلاما آخراً ،
ينسجمانْ
ويُحبان بزوغَ الفجرِ من اوتارِ جيتارٍ
ولا يفترقانْ ...

.. وتلفَّتُّ أُجيلُ الطَّرفَ في ساحاتِ هذا القلبِ . ناداني زقاقٌ ورفاقٌ يدخلونَ القبوَ والنسيانَ في مدريدَ . لا انسى من المرأةِ الاّ وجهَهَا او فرحي ..
أنساكِ انساكِ وانساكِ كثيراً

لو تأخرنا قليلاً
عن قطارِ الواحدهْ ·
لو جلسنا ساعةً في المطعمِ الصينيِّ ،
لو مرَّتْ طيورٌ عائدهْ ·
لو قرأنا صحفَ الليلِ
لكُنَّا
رجلاً وامرأةً يلتقيانْ · · ·

يومُ أحدٍ · · ازرق

تجلسُ المرأةُ في اغنيتي
تغزلُ الصوفَ ،
تصبُّ الشايَ ،
والشُّبّاكُ مفتوحٌ على الايامِ
والبحرُ بعيدْ · ·
ترتدي الازرقَ في يوم الاحدْ ،
تتسلى بالمجلاتِ وعاداتِ الشعوبِ ،
تقرأ الشِّعرَ الرومنتيكيَّ ،
تستلقي على الكرسيِّ ،
والشباكُ مفتوحٌ على الايامِ ،
والبحرُ بعيدْ ·

تسمعُ الصوتَ الذي لا تنتظرْ ·
تفتحُ البابَ ،
ترى خطوةَ انسانٍ يسافرْ ·

تغلقُ البابَ ،
ترى صورتهُ . تسألها : هل أَنْتَحِرْ ؟
تنتقي موزارتَ ،
ترتاحُ مع الارضِ السماويَّةِ ،
والشباكُ مفتوحٌ على الايامِ
والبحرُ بعيدْ .

.. والتقينا ،
ووضعتُ البحرَ في صحنِ خَزَفْ ،
واختفتْ اغنيتي .

انتِ ، لا اغنيتي
والقلبُ مفتوحٌ على الايامِ ،
والبحرُ سعيدْ ..

الحديقة النائمة

سَرقْتُ يديْ حين عانقها النومُ ،
غطيتُ احلامَها .
نظرتُ الى عسلٍ يختفي خلفَ جفنيْنِ ،
صليتُ من اجل ساقينِ معجزتينِ ،
أنحنيتُ على نبضها المتواصلِ ،
شاهدتُ قمحاً على مرمرٍ ونعاسٍ ،
بكتْ قطرةٌ من دمي
فارتجفتُ ..

آلحديقةُ نائمةٌ في سريري ·

ذهبتُ الى البابِ،
لم التفتْ نحو روحي التي واصلتْ نومها
سمعتُ رنينَ خطاها القديمَ واجراسَ قلبي ·
ذهبتُ الى البابِ
ـ مفتاحُها في حقيبتها
وهيَ نائمةٌ كالملاكِ الذي مارسَ الحبَّ ـ
ليلٌ على مطرٍ في الطريقِ ، ولا صوتَ يأتي
سوى نبضِها والمطرْ ·

ذهبتُ الى البابِ ،
ينفتحُ البابُ ،
اخرجُ ·
ينغلقُ البابُ ،
يخرجُ ظلّي ورائي ·
لماذا اقولُ وداعاً ؟
مِنَ الآنَ صرتُ غريباً عن الذكرياتِ وبيتي ·
هبطتُ السلالمَ ،
لا صوتَ يأتي
سوى نبضِها والمطرْ
وخطوي على دَرَجٍ نازلٍ
من يديها الى رغبةٍ في السَّفرْ ·

وصلتُ الى الشَّجرهْ
هنا قَبَّلَتْني

هنا ضربتني صواعقُ من فضَّةٍ وقرنفلْ ٠
هنا كان عالمها يبتدىءْ
هنا كان عالمها ينتهي ٠
وقفتُ ثوانيَ من زئبقٍ وشتاءٍ ،
مشيتُ ،
ترددتُ ،
ثم مشيتُ ،
اخذتُ خطايَ وذاكرتي !االحهْ
مشيتُ معي ٠

لا وداعٌ ولا شجرهْ
فقد نامتِ الشهواتُ وراءَ الشبابيكِ ،
نامتْ جميعُ العلاقاتِ ،
نامتْ جميعُ الخياناتِ خلفَ الشبابيكِ ،
نامَ رجالُ المباحثِ ايضاً ٠٠

وريتا تنامُ ٠٠ تنامُ وتوقظُ احلامَها ٠
في الصباح ستأخذُ قُبْلَتها ،
وايامَها ،
ثُمَّ تحضر لي قهوتي العربيَّهْ
وقهوتَها بالحليبْ ٠
وتسألُ للمرةِ الالفِ عن حُبِّنا
واجيبْ
بأني شهيدُ اليديْنِ اللتينِ
تُعدّانِ لي قهوتي في الصباحْ ٠

وريتا تنامُ ٠٠ تنامُ وتوقظُ احلامَها

ـ نتزوّجْ

نعم

ـ متى ؟

حين ينمو البنفسجْ

على قُبّعاتِ الجنودْ ٠

طويتُ الازقّةَ ، مبنى البريدِ ، مقاهي الرصيفِ ، نوادي الغناءِ ، واكشاكَ بيعِ التذاكرْ ٠

أُحبكِ ريتا ٠ احبكِ ٠ نامي وأَرحلْ :

بلا سببٍ كالطيورِ العنيفةِ أَرحلْ

بلا سببٍ كالرياحِ الضعيفةِ ارحلْ

احبكِ ريتا ٠ احبكِ ٠ نامي

سأسألُ بعدَ ثلاثةَ عشر شتاءً

سأسألْ :

اما زلتِ نائمةً

أَمْ صحوتِ من النومِ ٠٠

ريتا ! احبكِ ريتا

احبكِ ٠٠

الفلسطينيون في الضفة الشرقية
مؤشرات عدديّة

عصام سخنيني

مقدمة في المنهج

هذه الدراسة يقصد بها حصرا ، دون اي تفسير آخر ، المساهمة في معرفة عدد الفلسطينيين في العالم · واذا كانت قد بذلت من قبل ، جهود مختلفة للتعرف على عدد الفلسطينيين في الداخل والمهجر ، فان اهمية هذا التعرف بالنسبة للاردن ذات قيمة خاصة نظرا للحجم الكبير الذي يمثله الفلسطينيون هناك بالنسبة لعددهم الكلي ·

ولان الدراسة محصورة في هذا الجانب فقط ، فان الجهد فيها متجه لمعرفة عدد الفلسطينيين دون دراسة الجوانب الديموغرافية الاخرى للسكان هناك الا بما يخدم الغرض الاساسي الذي ترمي اليه الدراسة فلسنا معنيين هنا بمواضيع مثل الهجرة والتركيب العمري للسكان والزيادة الطبيعية لهم وتقسيمهم حسب الجنس الخ ، الا بمقدار ما تفيد هذه المواضيع في معرفة عدد السكان · وبذلك فان هذه المواضيع سوف تجري الاشارة اليها وتمس مسا دون الغوص في تفصيلاتها ·

من جانب ثان ، ولاسباب سنوضحها بعد قليل وكما سيظهر من خلال الدراسة نفسها ، فان هذه الدراسة ، على الرغم من انها تطمح لان تكون دقيقة في نتائجها الا ان الباحث الحالي لا يستطيع الادعاء بانه حقق ذلك الهدف ، وانما هي محاولة للارتقاء الى ذلك · ان نقص المعلومات الجأ الباحث الحالي

الى اسلوب الافتراض في احيان كثيرة · وكان هذا الاسلوب في المعالجة ، على الرغم من كل ما يعتوره من اخطاء ، الوسيلة الوحيدة حيث تشح المعلومات · وقد حاول الباحث الحالي ان يخفف قدر الامكان ـ وربما الى الحد الاقصى ـ من شوائب الافتراض بوسيلتين : الاولى بناء الافتراض على اكبر كمية ممكنة من المعلومات المتناثرة ـ واحيانا المتعارضة فيما بينها ـ والمقارنة بينها، ومن ثم صياغة مقدمات الافتراض في ضوء مؤشرات ترجح احداها على الاخرى ، او تعزز نتائج الافتراض نفسه · والوسيلة الثانية اللجوء الى طريقة الفحص المتقاطع للمعلومات وللنتائج التي تمخضت عنها · ونحسب ان هذه الطريقة الاخيرة كانت توصل الباحث الى تقديرات يمكن الركون باطمئنان الى صحتها النسبية لجهة حيثياتها ونتائجها ·

من جهة ثالثة فقد لجأنا في هذه الدراسة الى عرض الطرائق التي اوصلتنا الى النتائج بتفصيل يكاد يوحي بالتعقيد · غير ان تعمدنا ذلك كان بهدف واحد هو تمكين باحثين آخرين قد يمتلكون مزيدا من المعلومات ، من اكتشاف الاخطاء ان وجدت والتعرف على مواطنها الحقيقية من خلال التفصيلات الموجودة في هذه الدراسة · فكما اشرت في اسطر مرت ، فان هذه الدراسة تطمح لان تكون دقيقة في نتائجها ، ولكنها تبقى محاولة اولى في موضوع لم يطرق من قبل ، وبذلك فان جهد القادمين سيستفيد حتما من نتائج هذه الدراسة وسيتجنب نواقصها التي تظهر بالتأكيد من التفصيلات الكثيرة ، اكثر مما لو كانت الدراسة تلجأ الى اسلوب التعميم ·

وقبل الدخول في صلب الدراسة ، لا بد من ايضاح بعض الحقائق التمهيدية التي تشير الى صعوبة البحث :

اولا : ان الاحصاءات في الاردن ، منذ كان ضم الضفة الغربية الى المملكة دستوريا في العام ١٩٥٠ ، لا تميز بين فلسطيني وشرق اردني · فالفلسطينيون، بحكم المواطنية هناك ، هم اردنيون · وبذلك فان فرزهم حسب هويتهم الفلسطينية يبدو ـ للوهلة الاولى ـ متعذرا ان لم يكن مستحيلا ، ما لم نلجأ الى طريقة الفحص المتقاطع للمعلومات المتوفرة ، والتي يمكن بواسطتها استنتاج النسبة العددية للفلسطينيين استنتاجا تقديريا ·

ثانيا : ان الارقام التي تعطيها وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) لا تحل المشكلة · فهي على افتراض صحتها (ونشك في ذلك لاسباب متنوعة) فانها تشمل اللاجئين فقط · واللاجىء ، حسب تعريف الوكالة له ، هو « الشخص الذي كانت فلسطين مكان اقامته العادية لمدة سنتين على الاقل قبل النزاع العربي ـ الاسرائيلي في ١٩٤٨ ، والذي ، كنتيجة لذلك النزاع ، فقد بيته ووسيلة معيشته كليهما ، واللاجىء ، واطفاله ، كي يكون مستحقا مساعدة

الاونروا ، يجب ان يكون ١ ــ مسجلا لدى الاونروا · ب ــ يعيش في منطقة عمليات الاونروا · ج ــ في حاجة ، (١) ·

وحسب هذا التعريف فان ١ ــ الفلسطينيين الذين لجأوا الى الاردن في ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ ولم يسجلوا لدى الوكالة ، لسبب او لاخـــر ، لا يعتبرون لاجئين · ٢ ــ سكان الضفة الغربية الاصليين لا تشملهم احصاءات الوكالة · وبذلك فان من انتقل من هؤلاء بسكنه الى الضفة الشرقية في فترات مختلفة بعد العام ١٩٤٨ لا يدخل في التعداد ·

ثالثا : لا توجد ارقام معتمدة عن عدد السكان في الاردن قبل العام ١٩٥٢ ، وهو العام الذي جرى فيه اول تعداد للسكان والمساكن في الاردن · اما قبل ذلك العام فهناك تقديرات مختلفة ، تخمينية على الاغلب · وعلى الرغم من النواقص والاخطاء الاحصائية التي تميز بها ذلك التعداد ، فهو على الاقل التعداد المعتمد رسميا ·

رابعا : بالاضافة الى تعداد ١٩٥٢ جرى تعداد آخر في العام ١٩٦١ تميز بدقة اكثر من سابقه · ومنذ ذاك لم يجر اي تعداد آخر · اما تقديرات السكان للاعوام التي تقع بين التعدادين وللاعوام التي تلي تعداد ١٩٦١ فهي جميعا تقريبية تأخذ بالاعتبار الزيادة الطبيعية للسكان ·

خامسا : قامت السلطات العسكرية الاسرائيلية في ايلول ١٩٦٧ باجراء تعداد للسكان في الضفة الغربية المحتلة ، ويمكن الاستعانة بنتائج هـــذا التعداد لمعرفة عدد السكان هناك ، بالاضافة الى خصائصهم الديموغرافية ·

سادسا : لا توجد ارقام مستندة الى احصائيات عن عدد نازحي ١٩٦٧ الى الضفة الشرقية ، وجميع الارقام المعطاة هي تقديرية في الاساس · ويجب ان تعامل بحيطة وتأن نظرا الى ان هذه التقديرات كانت تخضع احيانا لعوامل دعائية ·

الوضع في شرق الاردن عشية الضم

كما اشرنا ليست هناك ارقام دقيقة عن عدد السكان في شرق الاردن عشية ضم الضفة الغربية اليها · وسنستعرض فيما يلي التقديرات المختلفة كمـا وردت في مصادر متعددة :

١ ــ جرت العادة لدى بعض الكتاب على جعل سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٨ ٤٠٠٠٠٠ نسمة (٢) · وهناك تقدير آخر يجعل عدد السكان ٤٥٠٠٠٠ نسمة (٣) ·

٢ ــ قدرت بعثة للبنك الدولي للتنمية عدد سكان شرق الاردن في العام

١٩٤٧ بـ ٣٧٥٠٠٠ نسمة (٤) ، وبذلك فان متوقع عدد السكان في العام ١٩٤٨ نحو ٣٨٤٠٠٠ نسمة ٠

٣ ـ يذكر سليمان موسى (احد مؤرخي الاردن) انه وقع بين يديه تقرير مؤرخ في ٢٣ آب ١٩٢٢ قدمه كاتب نيابة العشائر الى الشريف شاكر بن زيد ، يتألف من جدولين : الاول يتضمن اسماء المدن والقرى مع عدد سكانها واسماء شيوخها ، والثاني يتضمن اسماء العشائر واسماء شيوخها وعدد مضاربها ونفوسها ٠ ويذكر التقرير ان مجموع عدد سكان القرى والبلدان ١٢٢٤٣٠ نسمة ، وعدد العشائر ١٠٢٩٥٠ اي ان مجموع سكان شرق الاردن في العام ١٩٢٢ بلغ ، حسب هذا التقرير ، ٢٢٥٣٨٠ نسمة (٥) ٠

وفقا لهذا الرقم فان عدد سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٨ كان نحو ٣٧١٩٠٠ على اساس ان النمو العام في شرق الاردن في الاعوام من ١٩٢٢ الى ١٩٤٨ ، لم يكن ليزيد عن ٥ر٢ بالمئة ، استنادا الى ما يلي :

١ ـ ان الفترة من العام ١٩٥٢ الى العام ١٩٦١ شهدت نموا عاما اقل من ٣ بالمئة (٦) ٠ وبما ان الاوضاع الصحية في الاردن (التي تؤثر على انخفاض نسبة الوفيات وبالتالي على ازدياد نسبة الزيادة الطبيعية للسكان) قد تحسنت، بسبب تطور الخدمات الطبية ، في الفترة من ١٩٥٢ الى ١٩٦١ عنها في الفترة التي سبقتها ، فاننا نفترض افتراضا اوليا ان الفترة التي سبقت العام ١٩٤٨ شهدت نموا عاما نسبته أقل من ٣ بالمئة ٠

ب ـ ان الزيادة الطبيعية للسكان في جنوب شرق آسيا كانت ٢٥ بالالف للاعوام ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ (٧) ٠

ج ـ كانت الزيادة الطبيعية الفعلية في اواخر الاربعينات في فلسطين ٤ر٢٧ بالالف للمسلمين و١٨ بالالف للمسيحيين (٨) ٠

وبمقارنة هذه الارقام نذهب الى ان معدل النمو العام للسكان في الاردن كان نحو ٥ر٢ بالمئة وهو ما سنعتمده هنا ٠

٤ ـ تشير مصادر الانتداب البريطاني الى أن دوائر الصحة في شرق الاردن تقدر عدد السكان هناك في العام ١٩٣٦ بـ ٣٠٠٠٠٠ نسمة (بما في ذلك السكان الرحل وشبه الرحل) (٢٩) ٠ وفي العام ١٩٣٨ لم يطرأ اي تعديل على هذا التقدير ، فالمصادر الرسمية البريطانية تقدر عدد السكان انذاك بـ ٣٠٠ر٠٠٠ (١٠) ٠ ويذكر المؤرخان الاردنيان سليمان موسى ومنيب الماضي ان عدد السكان في ١٩٣٨ كان ٣٠٠٢١٤ ، استنادا الى احصاء السكان الذي قام به متصرفو الالوية في ذلك العام (١١) ٠ ولو اعتمدنا هذا الرقم الاخير (المقارب لتقديرات سلطات الانتداب) لصح الاستنتاج بأن عدد السكان في

١٩٤٨ (بمعدل نمو سنوي مقداره ٥ر٢ بالمئة) كان نحو ٢٧٥٢٠٠ ٠

٥ ـ نختلف مع المؤرخين المذكورين اللذين ذهبا الى ان عدد سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٦ بلغ ٤٢٣٦٥٩ ، وفقا لاحصاء السكان بالاستناد الى بطاقات توزيع المؤن (١٢) ٠ اي ان عدد السكان في ١٩٤٨ كان يجب ان يكون نحو ٤٥٥٣٠٠ ٠ ومرد الاختلاف الى ما يلي :

أ ـ ان الاحصاء تم بهدف توزيع المؤن ، فالمصلحة لدى السكان المعدودين في زيادة ارقام المستفيدين تبدو هنا واضحة ٠

ب ـ ان نسبة النمو العام التي اعتمدنا والتي نراها مقبولة ستجعل من عدد السكان الشرق اردنيين في العام ١٩٥٢ نحو ٤٩٨٧٠٠ من جملة عدد السكان في الضفة الشرقية الذي بلغ حسب التعداد الذي جرى ذلك العام ٥٨٦٨٨٥ (١٣) ٠ بمعنى ان عدد الفلسطينيين في ذلك العام هو ٨٨١٨٥ وهو رقم نرفضه وينقص كثيرا عن عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية ذلك العام كما سنبين في حينه ٠

٦ ـ تشير بعض المصادر الاخرى الى ان عدد سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٣ بلغ ٣٤٠٠٠٠ نسمة (١٥) ، اي ان متوقع عدد السكان في ١٩٤٨ كان ٣٨٢٥٠٠ ٠

ان التقديرات من مختلف المحاور تجعل سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٨ كما يلي : ٢٧١٩٠٠ ، ٢٧٥٢٠٠ ، ٢٨٢٥٠٠ ، ٣٨٤٠٠٠ ، ٤٠٠٠٠٠ ، ٤٥٠٠٠٠ ، ٤٥٥٣٠٠ ٠ وقد اسقطنا من الحساب الرقم الاخير لاسباب اوضحناها ، وللاسباب نفسها نسقط الرقم قبل الاخير ٠ وبذلك فان اعلى تقدير لعدد السكان كان ٤٠٠٠٠ نسمة ، غير ان لدينا من الاسباب التي نوضحها في فقرة لاحقة ما يجعلنا نعتقد ان عدد السكان في شرق الاردن في العام ١٩٤٨ لم يكن يتجاوز ٢٧٥٠٠٠ نسمة في احسن تقدير نبين حيثياته فيما بعد ٠

المتغيرات حتى ١٩٥٢

اخترنا العام ١٩٥٢ محطة بسبب وجود احصاء رسمي معتمد في الاردن ٠ غير ان ما نريد التذكير به ثانية هنا هو ان الاحصاء لا يميز بين فلسطيني وشرق اردني فالجميع سكان اردنيون ، وهذا الامر يجعل معرفة عدد السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية يحتاج الى جهد تحليلي خاص ٠

في العام ١٩٤٨ لجأ الى الضفة الشرقية من الاردن نحو ١٠٠٠٠٠ لاجىء مسجلة اسماؤهم لدى الاونروا (١٦) ٠ غير انه بالاضافة الى هؤلاء فقد شهدت

الاعوام التي تلت هجرة مكثفة من الضفة الغربية الى الشرقية لم تشتمل فقط على اللاجئين من السكان وانما امتدت ايضا الى المواطنين المقيمين اصلاً في الضفة الغربية . وليس ثمة من احصاء او ارقام معتمدة تبين عدد هؤلاء خاصة السكان الاصليين منهم . وقد وردت اشارة في تقرير البنك الدولي للتنمية نستخدمها هنا للدلالة على وجود هجرة سكانية من الضفة الغربية الى الشرقية ــ تذكر ان نحو ٩٠٠٠٠ شخص انتقلوا من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية بين العامين ١٩٤٨ و١٩٥٢ (١٧) . الا ان هذه الاشارة لا توضح طبيعة هؤلاء المنتقلين : هل هم لاجئون ام مواطنون اصليون ؟ غير اننـــا نفترض استنادا الى معطيات الفترة من ١٩٥٢ ــ ١٩٦١ حيث نشطت حركة الهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية (كما سنبين في حينه) ان بذور هذه الهجرة ومقدماتها كانت سابقة للعام ١٩٥٢ ، ويؤكد هذا الافتراض حقيقتان :

الحقيقة الاولى ان مستوى المعيشة في الضفة الغربية حتى العام ١٩٥٢ كان ادنى منه في الضفة الشرقية ويبدو هذا الوضع بينا بنفسه من خـلال فهم الاطار العام للنكبة التي تعرضت لها فلسطين وتاثيرات ذلك في الضفة الغربية ، خاصة ، من خلال زيادة عدد اللاجئين زيادة ضاعفت تقريبا عدد السكان ، ومن حيث فقدان الاراضي مورد الرزق الوحيد لسكان القرى الامامية المتاخمة لخطوط الهدنـة . وتؤكـد هذه الحقيقة مؤشرات دخول العمال في الاردن وتمايزها بين الضفتين . ففي الوقت الذي كان معدل اجور العمال البالغين في الصناعة في مدن القدس والخليل ونابلس في العـام ١٩٥٢ هـــو ٢٠٢ فلس يوميا ، كان في عمان ٢٥٢ فلسا . وفي الوقت الذى كانت فيه اجور العمال الاحداث في الصناعات في مدن الضفة الغربية ٦٠ فلسا يوميا ، كان في عمان ٨٥ فلسا (١٨) .

ان تفاوت الاجور بين الضفتين كان يقود الى هجرة ملحوظة من الضفــة الغربية الى الشرقية بهدف السعي وراء الرزق .

الحقيقة الثانية مؤشر حركة البناء المرتبطة بشكل وثيق ، في احد اوجهها ، بحركة السكان . وقد شهد العامان ١٩٥١ و١٩٥٢ توسعا ملحوظا في حركة البناء في الضفة الشرقية بالمقارنة مع الضفة الغربية . ففي خلال العام ١٩٥١ اقيم في مراكز بلديات الضفة الغربية ابنية بلغـت مساحتهـا ٢٤١٣٩ متـــرا مربعا بينما كانت مساحـة البناء في الضفة الشرقية في العـام نفسه ١٢٠٢٦٧ مترا مربعا (١٩) . اي ان مساحة الابنية المنشأة في الضفة الشرقية بلغت ذاك العام ثلاثة اضعاف ونصف ضعف الابنية المنشأة في الضفة الغربية . وقد اتسعت الفجوة في البناء ما بين الضفتين في العام التالي . فبينما بلغ عدد

الغرف المنشأة فعلا في العام ١٩٥٢ في الضفة الشرقية ٤٠٢٥ غرفة ، كان ما انشيء في الضفة الغربية ٧٧٠ غرفة (٢٠) · اي ان الانشاءات في الضفة الشرقية بلغت ، في هذا المجال ، اكثر من خمسة اضعاف الانشاءات في الضفة الغربية ·

ان هذه النسب مع تصاعد الخط البياني للفروقات بين الضفتين خلال سنتين فقط (١٩٥١ و١٩٥٢) تجعلنا نتأكد من صحة الاستنتاجات عن نشاط حركة الهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية خاصة وان مرحلة « اللجوء » في السنتين اللتين ذكرنا كانت قد انتهت ·

نجمل اذن ، فنقول ان التغييرات السكانية بعد العام ١٩٤٨ كانت نتيجة عاملين : الاول قدوم افواج من اللاجئين الفلسطينيين من مختلف انحاء فلسطين ، والثاني حركة هجرة من الضفة الغربية الى الشرقية · فما هو حجم هذه التغييرات ؟

بلغ عدد سكان الضفة الشرقية في العام ١٩٥٢ حسب احصاءات ذلك العام ٥٨٦٨٨٥ كما ذكرنا سابقا ، مقابل ٧٤٢٢٨٩ نسمة في الضفة الغربية (٢١) · وسنعالج هنا السكان في الضفة الشرقية مرجئين الضفة الغربية الى فقرة لاحقة · فما هو عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية ؟

كان عدد الفلسطينيين الذين يتناولون اعاشة من الاونروا في العام ١٩٥١ في الضفة الشرقية ١٤٩٦٨٣ شخصا (٢٢) · ولو حسبنا ان السكان زادوا زيادة طبيعية قدرها ٢٦ بالالف وهي الزيادة الطبيعية التي شهدها العام ١٩٥١ (٢٣) ، فنستطيع ان نقدر ان هؤلاء بلغوا نحو ١٥٤٠٠٠ شخص في العام ١٩٥٢ · ويقع هؤلاء ضمن فئتين :

الاولى فئة اللاجئين الذين قدموا مباشرة الى شرق الاردن في اثناء حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، ونقدر ان عددهم بلغ في العام ١٩٥٢ ١١٣٠٠٠ شخص باعتبار ان عدد الذين لجاوا في اثناء الحرب هو نحو ١٠٠٠٠٠ ·

الثانية فئة اللاجئين الذين نقلوا تسجيلهم من الضفة الغربية الى الشرقية بعد تسجيلهم في الاولى (هم لاجئون ـ مهاجرون) ويبلغ عدد هذه الفئة نحو ٤١٠٠٠ شخص (اي : ١٥٤٠٠٠ ـ ١١٣٠٠٠) ·

نبقي هذه الارقام جانبا ونذكر ان هناك استنتاجا (نذكر حيثياته في فقرة لاحقة) يجعل المتوسط السنوي لعدد المهاجرين من الضفة الغربية الى الشرقية في السنوات من ١٩٥٢ الى ١٩٦١ نحو ١٦٢٠٠ شخص · واذا طبقنا هذا الرقم على الفترة من ١٩٤٩ الى ١٩٥٢ مع اننا نجد ان تلك الفترة شهدت هجرة

اكثر نشاطا من فترة ١٩٥٢ ـ ١٩٦١ فأننا نرى ان عدد الذين انتقلوا بسكناهم من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية في الاعوام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢ ما كان ليقل عن ٦٤٨٠٠ شخص ٠ من هؤلاء كان نحو ٤١٠٠٠ شخص من اللاجئين كما بينا في الاسطر الماضية والباقي ٢٣٨٠٠ من المواطنين الاصليين من سكان الضفة الغربية ٠

وبذلك فان مصادر السكان الفلسطينيين في الضفة الشرقية في العام ١٩٥٢ كانت حسب الجدول التالي :

مصادر السكان الفلسطينيين في الضفة الشرقية في العام ١٩٥٢

لاجئون مباشرة منذ العام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ مع الزيادة الطبيعية	١١٣٠٠٠
لاجئون انتقلوا بسكناهم من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية	٤١٠٠٠
مهاجرون من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية (اصليون من الضفة الغربية)	٢٣٨٠٠
المجموع	١٧٧٨٠٠

اي ان نسبة الفلسطينيين الى مجموع السكان في الضفة الشرقية كانت نحو ٣٠ بالمئة في العام ١٩٥٢ (٢٤) ٠ اما عدد السكان الشرق اردنيين فكان نحو ٤٠٩٠٨٥ نسمة (اي ٥٨٦٨٨٥ مجموع السكان ناقصا ١٧٧٨٠٠ مجمـــوع الفلسطينيين) ٠

عودا على بدء ، فان عدد السكان الاردنيين في العام ١٩٤٨ كان ٣٧١٨٩٥ نسمة اذا اعتبرنا ان الزيادة الطبيعية بين ١٩٤٨ و١٩٥٢ كانت ٢٥ بالالف ٠

ومهما كانت الاخطاء الحسابية الناتجة عن طريقة التقديرات فان عدد سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٨ ما كان له ان يتجاوز ٣٧٥٠٠٠ شخص ، وهو الرقم الذي نعتمده لبناء التقديرات القادمة والذي ذكرناه في صفحات سابقة ووعدنا بذكر حيثياته وقد بيناها الان ٠

المتغيرات بين ١٩٥٢ و١٩٦١

استمر تدفق الهجرة من الضفة الغربية الى الشرقية خلال هـــذه الفترة بالاسباب نفسها التي تحدثنا عنها في الفترة السابقة بالاضافة الى سبب آخر متعلق بتركز المشاريع الصناعية في الضفة الشرقية والحرمان النسبي الذي عانت منه الضفة الغربية في هذا الخصوص وقد نتج عن ذلك ان الضفة الغربية، باجمال ، مثلت منطقة طرد سكاني تمثل ذلك في المؤشرات التالية :

اولا ـ لقد استقطبت الضفة الغربية العدد الاكبر من المهاجرين الى خارج الاردن ، ويوضح الجدول التالي نسبة توزع الاردنيين خارج الاردن (حسب الالوية) والذين كانوا ٦٢٨٦٣ شخصا في العام ١٩٦١ ٠

نسبة توزع الاردنيين خارج الاردن ١٩٦١ (٢٥)

لواء عمان	٤ر١٣٪
لواء البلقاء	٧ر٠٪
لواء عجلون	٤ر٥ ٪
لواء الكرك	٣ر٠ ٪
لواء معان	٣ر٠ ٪
لواء الخليل	٥ر٢ ٪
لواء القدس	٥ر٢٨٪
لواء نابلس	٩ر٤٨٪
المجموع (الاردن)	١٠٠

ويتضح من الجدول ان ٩ر٧٩ بالمئة من الاردنيين الموجودين خارج الاردن هم من الضفة الغربية ٠

ثانيا ـ كانت هناك مدن جذب رئيسية للهجرة في الضفة الشرقية هي اساسا عمان (بصفتها عاصمة) والزرقاء (بحكم وجود مناجم الفوسفات فيها ومعسكرات الجيش حولها) والعقبة (بسبب تطور مينائها وهو الميناء الوحيد للاردن) ٠ وبالاضافة الى تضخم عدد السكان في هذه المدن الثلاث ، فان هناك مؤشرا ذا اهمية خاصة يشير الى اتجاهات الهجرة نجده في ارتفاع نسبة الذكور الى الاناث في مدن الجذب (في الضفة الشرقية) عن النسبة نفسها في مدن الطرد (في الضفة الغربية) ٠ فالهجرة الناتجة عن البحث عن فرص العمل وبسبب البطالة ، تؤثر على اختلال نسبة الذكور الى الاناث في فئات العمر من ١٥ ـ ٥٩ وهي الفئات العمرية التي تقع فيها قوة العمل الرئيسية ٠ والجدول التالي يبين هذه الحقيقة :

نسبة الذكور الى كل ١٠٠ من الاناث في فئات العمر ١٥ ـ ٥٩ في العام ١٩٦١ (٢٦)

الاردن (الضفتان)	٩ر٩٥
عمان	٨ر١١٥
الزرقاء	٦ر١٤١
العقبة	٥ر٢٢٨
بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور	٨ر٨٦
رام الله والبيرة	٨ر٨٧

يتضح من الجدول ارتفاع نسبة الذكور الى الاناث في مدن الجنوب في الضفة الشرقية ، وهي جميعا اعلى من المعدل العام للاردن بدرجة كبيرة ، مقابل انخفاض هذه النسبة في مدن الطرد في الضفة الغربية التي هي ايضا ادنى من المعدل العام للاردن بدرجة كبيرة كذلك · والدلالة هذه واضحة في هجرة الرجال القادرين على العمل والباحثين عنه من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ·

ثالثا ـ النمو السكاني في الضفتين ونسبة التوزيع السكاني اللوائية الى المجموع العام في الاردن · ونثبت فيما يلي جدولا يوضح ذلك ونعقبه بتحليل ·

نسبة الزيادة في السكان حسب الالوية
ونسبة التوزيع في الالوية الى عدد السكان (٢٧)

	نسبة التوزيع٪ ١٩٥٢	نسبة التوزيع ٪ ١٩٦١	في السكان ٪ الزيادة او النقص
الاردن	١٠٠	١٠٠	٢٨ر٤ +
لواء عمان	١٧ر٥	٢٥ر٤	٩٥ر٥ +
لواء البلقاء	٤ر٩	٤ر٦	٢١ر٨ +
لواء عجلون	١٦ر١	١٦ر١	٢٨ر١ +
لوائي الكرك ومعان	٦ر٨	٦ر٧	٢٧ر٣ +
لواء الخليل	٩ر٥	٧	٤ر٩ −
لواء القدس	٢٢ر٧	٢٠ر٢	١٤ر٢ +
لواء نابلس	٢٣ر٨	٢٠	٨ر٤ +

من هذا الجدول يتضح ما يلي :

١ ـ حافظت الوية الضفة الشرقية ـ باستثناء لواء عمان ـ بين السنتين ١٩٥٢ و١٩٦١ على نسبة توزيعها للسكان ·

٢ ـ اختلت نسبة التوزيع لالوية الضفة الغربية اختلالا بينا بين العامين المذكورين · فبينما كان في لواء الخليل ٩ر٥٪ من السكان اصبح فيه ٧٪ ، ولواء القدس كان فيه ٢٢ر٧٪ فأصبح ٢٠ر٢٪ ، وفي لواء نابلس انخفضت النسبة من ٢٣ر٨٪ الى ٢٠٪ ·

٣ ـ تنخفض نسبة الزيادة العامة في الوية الضفة الغربية عنها في الوية الضفة الشرقية انخفاضا واضحا وملموسا · فبينما الزيادة في السكان في الوية عمان والبلقاء وعجلون والكرك ومعان (معا) هي : ٩٥ر٥٪ و٢١ر٨٪ و٢٨ر١٪ و٢٧ر٣٪ على التوالي ، فهي في القدس ١٤ر٢٪ وفي نابلس ٨ر٤٪ · واكثر

من ذلك فان لواء الخليل (في الضفة الغربية) شهد خلال الفترة من ٥٢ ـ ٦١ انخفاضا في السكان قدره ٩ر٤٪ ٠

٤ ـ استأثر لواء عمان بنصيب الاسد في الزيادة السكانية اذ بلغت هذه الزيادة خلال تسع سنوات ٥ر٩٥٪ ٠ وقد نتج عن ذلك ان لواء عمان استأثر بـ ٤ر٢٥٪ ٠ من مجموع سكان الاردن في ١٩٦١ بينما كان في العام ١٩٥٢ يضم ٥ر١٧٪ من مجموع السكان ٠

وبعد ، فان هذه الدلائل جميعا تشير الى نشاط الهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية في السنوات التي تقع بين التعدادين ، وسنحاول فيما يلي ان نتلمس حجم هذه الهجرة ٠

كتمهيد لذلك نذكر اننا اعتمدنا نسبة قدرها ٣٠ بالالف لتمثـــل الزيادة الطبيعية للسكان للفترة ١٩٥٢ ـ ١٩٦١ ، وقد اتخذنا هذه النسبة اساســا لمعرفة متوقع عدد السكان ولاجراء التقديرات اللازمة لذلك ٠ وقد جاء اعتمادنا هذه النسبة مبنيا على الاسس التالية :

١ ـ كانت نسبة الزيادة الطبيعية للسكان في الاردن في العام ١٩٥٧ هي ٣١ بالالف (٢٨) ٠

٢ ـ بلغت الزيادة السنوية للسكان في المملكة (تأثير الزيادة الطبيعيــة والهجرة) اقل من ٣ بالمئة وقد استند في تقديرها الى تعداد العام ١٩٥٢ وتعداد العام ١٩٦١ (٦٩) ، وبما ان الاردن ليس قطرا جاذبا للهجرة بل على العكس من ذلك هو قطر نابذ فاننا نستنتج ان الزيادة الطبيعية كانت اعلى من معدل النمو العام ٠

٣ ـ كانت الزيادة الطبيعية للسكان العرب في اسرائيل في ١٩٦١ نحــو ٤٠ بالالف (٣٠) ٠ واذا وحدنا نسبة الولادات عند الفلسطينيين في اسرائيــل والسكان في الاردن فان نسبة الزيادة الطبيعية لدى السكان في الاردن ستكون اقل من ٤٠ بالالف بسبب ارتفاع نسبة الوفيات عند هؤلاء عنها عند العرب في اسرائيل بسبب اختلاف ظروف الرعاية الصحية لدى كل من الطرفين ٠ وبذلك فاننا نستطيع ان نعتمد باطمئنان نسبة ٣٠ بالالف نسبة مقبولة للزيادة الطبيعية في الاردن ٠

بعد هذا نعود الى السياق العام ومحاولة معرفة عددالفلسطينيين في الضفة الشرقية في العام ١٩٦١ ٠

واذا اعتبرنا العام ١٩٥٢ سنة اساس لمعرفة متوقع عدد السكان في العام ١٩٦١ فاننا نحصل على الارقام التالية :

١ ــ الضفة الشرقية : كان عدد السكان في الضفة الشرقية في العام ١٩٥٢ : ٥٨٦٨٨٥ شخصا ، وبذلك فان متوقع عدد السكان في العام ١٩٦١ هو ٧٤٥٣٤٣ شخصا (بزيادة طبيعية قدرها ٣٠ بالالف) ، غير ان عدد السكان الاردنيين (فلسطينيين وشرق اردنيين) حسب تعداد ذلك العام كان ٨٩٦٧٥١ (٣١) اي ان هناك زيادة في السكان قدرها ١٥١٤٠٨ ليست ناتجة عن الزيادة الطبيعية وانما بتأثير الهجرة الى الضفة الشرقية ٠

٢ ــ الضفة الغربية : كان عدد السكان في الضفة الغربية في ١٩٥٢ هو ٧٤٢٢٨٩ ، وبذلك فان متوقع عدد السكان في ١٩٦١ هو ٩٤٢٧٠٧ (بزيادة طبيعية قدرها ٣٠ بالالف) ٠ غير ان عدد السكان الاردنيين (فلسطينيين وشرق اردنيين) كان حسب تعداد ١٩٦١ هو ٨٠١٣٥٦ (٣٢) ٠ وبذلك فان هناك فرقا بين متوقع عدد السكان وما هو قائم فعلا قدره ١٤١٣٥١ شخصا ٠ ولا نجد تفسيرا آخر لهذا العدد الاخير سوى انه يشير الى حجم الهجرة من الضفة الغربية في السنوات ١٩٥٢ ــ ١٩٦١ ٠

وبمقارنة هذا الرقم الاخير مع الرقم الذي يدل على الهجرة الى الضفة الشرقية نجد الرقمين متقاربين بفرق ٦ر٦ بالمئة وهي نسبة يكونها خطأ التقديرات من جهة والاخطاء الاحصائية والنواقص التي تميز بها احصاء العام ١٩٥٢ من جهة ثانية ٠ ولكنها في كل حال ، تعطينا رقما تقريبيا نسبة الصحة فيه مرتفعة جدا ، عن عدد المهاجرين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، وهو يقع في رقم بين ١٤١٠٠٠ (لاقرب الف) و ١٥١٠٠٠ (لاقرب الف) ، وبوسط حسابي قدره ١٤٦٠٠٠ شخص ، وهو الرقم الذي نعتمده هنا للاسباب التي ذكرت (اي ان المعدل السنوي للهجرة من الضفة الغربية الى الشرقية كان ١٦٢٠٠ شخص ، وهو الرقم الذي اعتمدنا في فقرة سابقة ووعدنا بذكر حيثياته) ٠

وهكذا يشير الجدول التالي الى مصادر السكان الفلسطينيين في العام ١٩٦١ ٠

مصادر السكان الفلسطينيين في الضفة الشرقية في العام ١٩٦١

الفلسطينيون الموجودين منذ العام ١٩٥٢ (بعضهم منذ العام ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ ، مع زيادتهم الطبيعية حتى ١٩٦١)	٢٢٥٨٠٦
المهاجرون من الضفة الغربية الى الشرقية من تعداد ١٩٦١	١٤٦٠٠٠
المجموع	٣٧١٨٠٦

وبذلك ، فقد كان في الضفة السرقية في العام ١٩٦١ نحو ٣٧٢٠٠٠ (لاقرب الف) فلسطيني ٠ وسنفحص هذا الرقم بطريقة متقاطعة مع تطور عدد الاردنيين

بين ١٩٤٨ و١٩٦١ للتأكد من صحته· ان تقديرنا لعدد السكان الشرق اردنيين في العام ١٩٤٨ هو ٢٧٥٠٠٠ نسمة (وقد بينا اسباب هذا التقدير في فقرة سابقة)· وبزيادة طبيعية قدرها ٣٠ بالالف (وهي الزيادة التي بينا اسباب اعتمادها) فان عدد الشرق اردنيين في العام ١٩٦١ كان ٥٢١٢٥٠ نسمة · واذا جمعنا الى هؤلاء عدد الفلسطينيين (٣٧٢٠٠٠) فاننا نتوصل الى ان عدد سكان الضفة الشرقية (حسب تقديراتنا) هو ٨٩٣٢٥٠ نسمة وهو لا يختلف الا اختلافا جزئيا طفيفا لا يعتد به عن عدد السكان الرسمي في تعداد ١٩٦١ والذي بلغ ٨٩٦٧٥١ ·

من هنا نستطيع الاطمئنان الى صحة استنتاجاتنا بما يتعلق بعدد السكان الفلسطينيين في العام ١٩٦١ ، ونعتبر الرقم مقبولا بشكل مطلق ·
وبحديث النسب فقد بلغ الفلسطينيون ٤١ر٤ بالمئة من مجموع السكان (الفلسطينيين والشرق اردنيين) في الضفة الشرقية في العام ١٩٦١· اما نسبتهم الى مجموع السكان في الضفتين فقد بلغت ٦٩ بالمئة · (مجموع الضفتين ١٦٩٨١٠٧ ، منهم ٣٧٢٠٠٠ فلسطيني في الضفة الشرقية و٨٠١٣٥٦ في الضفة الغربية) ·

السكان ١٩٦٢ حتى حرب ١٩٦٧

منذ العام ١٩٦١ لم يجر في الاردن اي تعداد للسكان ، وجميع الارقام المعطاة عن السكان بعد ذلك العام انما هي تقديرية استنادا الى تعداد ١٩٦١ كسنة اساس وتطور السكان وفقا لحركتهم ·
كانت تقديرات دائرة الاحصاءات العامة الاردنية للسكان في الضفة الشرقية للعام ١٩٦٧ (قبيل الاحتلال الاسرائيلي) ١٠٩٤٠٠٠ نسمة ، وللضفة الغربية ٩٧٧٠٠٠ نسمة (٣٣) وفي تقدير آخر للامم المتحدة ذكر ان عدد سكان الضفة الغربية عشية حرب حزيران ١٩٦٧ كان بين مليون ومليون ومئة الف نسمة منهم ٦٠٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠٠ سكان اصليون ونحو ٤٢٠٠٠٠ لاجئون مسجلون في الاونروا (٣٤) · والان ما هي صحة هذه الارقام ودقتها ؟

ان الارقام الرسمية المعطاة (تقديرات دائرة الاحصاءات العامة) تلحظ الزيادة الطبيعية للسكان دون ان تدخل في حسابها الهجرة التي حدثت من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية · ونتيجة تحليل الارقام التي تقترحها الدائرة لعدد السكان فاننا نستنتج انها اتبعت المعطيات التالية لتقدير عدد السكان :

١ ـ اعتمدت معدلا للنمو يبلغ ٤ بالمئة (٣٥) ·

٢ ـ حسبت مدة النمو خمس سنوات ونصف السنة من بداية ١٩٦٢ حتى منتصف ١٩٦٧ (باعتبار ان تعداد ١٩٦١ جرى في تشرين الثاني من العام نفسه ، اي اواخر العام) ٠

٣ ـ اعتمدت ارقام تعداد ١٩٦١ ارقام اساس ٠

٤ ـ اخذت من ارقام تعداد ١٩٦١ تلك التي تبين عدد الاردنيين (الفلسطينين والشرق اردنيين) دون الاجانب ٠

واذا سلمنا بكل ذلك فان الرقم الذي توصلت اليه الدائرة المذكورة لعدد السكان في منتصف العام ١٩٦٧ انما هو **متوقع** عدد السكان الاردنيين وليس العدد **الفعلي** للسكان هؤلاء ٠ ذلك اننا نعيد التذكير بحجم الهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية حتى العام ١٩٦١ (تحدثنا عن ذلك في فقرة سابقة) وهي هجرة لم تلغ اسبابها في الاعوام التي تلت ١٩٦١ ٠ يضاف الى ذلك ان الستينات شهدت نموا ملحوظا في هجرة الفلسطينيين الى دول النفط الغنية ، واذا كانت ارقام هذه الهجرة جميعا غير متوفرة ، فيكفي للاشارة اليها ابراز حجم الهجرة الفلسطينية الى الكويت التي كانت حتى ذاك تمثل القطر الاكثر جذبا للهجرة ٠ ففي العام ١٩٦١ كان عدد الفلسطينيين في الكويت ٣٧٣٢٧ نسمة ، ارتفع عددهم في العام ١٩٦٥ الى ٧٧٧١٢ نسمة ، وبذلك تكون نسبة زيادتهم في اربع سنوات فقط ١٠٨ بالمئة (٣٦) ٠ ومن الملاحظ ان القسم الاكبر من المهاجرين الفلسطينيين الى الكويت هو من فلسطينيي الاردن ، ومن هـذا القسم الاكبر فان ٩٤ر٤١ بالمئة من المهاجرين الى الكويت من الاردن (في العام ١٩٦١) هم من الضفة الغربية (٣٧) ٠

استمرت الهجرة ، اذن ، من الضفة الغربية في السنوات من ١٩٦١ الى ١٩٦٧ ، وقد توجه قسم من هذه الهجرة الى الضفة الشرقية مؤثرا علـى التركيب السكاني هناك من حيث الاصول السكانية ورافعا عدد الفلسطينيين ٠ ويذكر تقرير رسمي لوزارة الانشاء والتعمير الاردنيـة (الوزارة المختصة بشؤون اللاجئين) انه في ٥ـ٦ـ١٩٦٧ كان نحو ٤٥٠٠٠ لاجيء فلسطيني مسجلين في الضفة الغربية ، بينما يقطنون في الضفة الشرقية (٣٨) ٠ غير ان التقرير لا يشير الى سنوات انتقالهم ، وبذلك فاننا سنلجأ الى اساليب اخرى لمعرفة : ١ ـ عدد السكان في الضفة الغربية ، ٢ ـ حجم الهجرة منها الى الضفة الشرقية ، ٣ ـ تاثير ذلك على عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية ٠

ان مثل هذه المحاولة نراها تمر عبر محورين : الاول التعداد الذي اجرته السلطات الاسرائيلية في الضفة الغربية بعد احتلالها ، والثاني عدد النازحين من الضفة الغربية بتاثيرات حرب ١٩٦٧ ٠

اجرت السلطات الاسرائيلية تعدادا للسكان في الضفة الغربية في الفترة

من ١٧ ـ ١٥ ايلول ١٩٦٧ ، وكان عددهم حسب ذلك ٦٦٣٦٠٧ نسمة (منهم ٥٩٨٦٣٧ في الضفة الغربية · باستثناء القدس و ٦٤٨٠٤ في القدس) (٣٩) · غير ان هذا العدد ينبغي ان يضاف اليه عدد النازحين من الضفة الغربية بتأثير حرب ١٩٦٧ وقد قدروا حتى ١٥ ايلول ١٩٦٧ (اي قبيل الاحصاء الاسرائيلي بيومين) بـ ٢٠٠٠٠٠ شخص (٤٠) · ويبدو لنا هذا الرقم الاخير اعلى تقدير لعدد النازحين حتى ذلك التاريخ · ذلك انه حتى ٣ تموز ١٩٦٧ كانت التقديرات تشير الى ان عدد النازحين من الضفة الغربية بلغ ١٥٠٠٠٠ شخص (٤١) وحتى آب من العام نفسه كانت تقديرات اللجنة الوزارية الاردنية لشؤون النازحين تجعل عدد النازحين ١٧٧١٦٥ شخص (٤٢) ·

وهكذا فان عدد سكان الضفة الغربية عشية حرب ١٩٦٧ كان نحو ٦٨٣٦٠٠ شخص (٦٦٣٦٠٧ بقوا في الضفة الغربية بعد الحرب + ٢٠٠٠٠٠ نزحوا بتأثير الحرب) · وهذا العدد يقل بـ ١١٣٤٠٠ شخص (١١٣٠٠٠ لاقرب الف) عن متوقع عدد السكان في ١٩٦٧ والذي قدرته دائرة الاحصاءات العامة الاردنية ، كما بينا ، بـ ٩٧٧٠٠٠ شخص · ان هذا الفرق سببه عاملان : الاول الهجرة الى الضفة الشرقية ، والثاني الهجرة خارج الاردن · ولكن هل يمكن معرفة نسبة كل منهما الى الاخرى ؟ نحاول هنا هذه المحاولة :

كان عدد الاردنيين (الفلسطينيين والشرق اردنيين) الموجودين خارج الاردن في العام ١٩٦١ : ٦٢٨٦٣ شخصا منهم ٥٠٢٦٢ من الضفة الغربية وحدها (٤٤) · وقد تبين في صفحات سابقة ان عدد الفلسطينيين في الكويت زاد بنسبة ١٠٨٪ بين العامين ١٩٦١ و١٩٦٥ ، وكذلك زادت هذه النسبة بين ١٩٦٥ و١٩٧٠ بمقدار ٩٠٪ (٤٣) · وبذلك نستطيع ان نفترض ان عدد الفلسطينيين زاد في الكويت بنسبة ١٠٠٪ بين ١٩٦١ ومنتصف ١٩٦٧ ·

اذا اعتمدنا هذه النسبة وعممناها على اقطار الجذب ، فاننا في المقابل نتوصل الى نتيجة مماثلة بالنسبة لمنطقة الطرد السكاني والمعنية بها هنا الضفة الغربية · وبذلك نستطيع ان نفترض ، باطمئنان ان عدد المهاجرين من الضفة الغربية الى خارج الاردن زاد في العام ١٩٦٧ بنسبة ١٠٠٪ ، عنه في العام ١٩٦١ · وهكذا نتوصل الى ان عدد المهاجرين من الضفة الغربية وصل في العام ١٩٦٧ الى نحو ١٠٠٥٠٠ شخص (باعتبار عددهم في ١٩٦١ كان ٥٠٢٦٢ شخصا) ·

وهكذا نتوصل الى رقم قريب من ١٢٥٠٠ هو عدد الاشخاص المهاجرين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية خلال السنوات موضوع البحث (١١٣٠٠٠

عدد المهاجرين الكلي من الضفة الغربية ناقصا ١٠٠٥٠٠ عدد المهاجرين من الضفة الغربية الى خارج الاردن) ٠

يلاحظ ان المعدل السنوي للهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية في الاعوام التي اعقبت ١٩٦١ انخفض عنه في الاعوام التي سبقت ذلك العام حسب تقديراتنا التي ذكرناها ٠ ومرد ذلك الى اتساع نطـاق الهجـرة الى خارج الاردن ٠ ونحن نرى ان ذلك حدث تدريجيا منذ اواسط الخمسينات حيث بدأت افواج المهاجرين تبحث عن مستوى معيشي افضل ٠ ويتضح ذلك من البينة التالية : كان عدد الموظفين الاردنيين والفلسطينيين الذين دخلوا الخدمة في الكويت في الاعوام ١٩٥١ الى ١٩٥٥ (خمس سنوات) ٩٥٥ موظفا ٠ وقد تضاعف هذا الرقم تقريبا في الاعوام الخمسة التالية اذ دخل الخدمة في الاعوام ١٩٥٦ ــ ١٩٦٠ ، ١٧٨٨ موظفا ، وتصاعد العدد في السنوات الخمس التالية (١٩٦١ ــ ١٩٦٥) فبلغ ٢٥٠٥ موظفين (٤٠) ٠ اي ان نسبة الموظفين الذين دخلوا الخدمة في الاعوام ١٩٥٦ ــ ١٩٦٠ الى الموظفين الذين دخلوا الخدمة في الاعوام ١٩٥١ ــ ١٩٥٥ كانت ١٨٧ : ١٠٠ ، ونسبة هؤلاء فـي الاعوام ١٩٦١ ــ ١٩٦٥ الى اولئك في سنوات الاساس (١٩٥١ ــ ١٩٥٥) كانت ٢٦٢ : ١٠٠ ٠ وتشير هذه النسب ، اذا اعتمدناها عينة وعممنا نتائجها على مجمل حركة الهجرة ، الى ما ذهبنا اليه عن اتساع حركة الهجرة من الاردن الى الخارج وتصاعدها التدريجي منذ اواسط الخمسينات ، والتي كانت على حساب الهجرة الداخلية (من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية)٠

ونعيد الان ترتيب الحقائق لمعرفة عدد السكان الفلسطينيين فـــي الضفة الشرقية عشية حرب ١٩٦٧ ٠

ان متوقع عدد السكان في الضفة الشرقية (حسب زيادة طبيعية قدرها ٤٠ بالالف عن سنة الاساس ١٩٦١ ، ولمدة خمس سنوات ونصف السنة ، اي لمنتصف العام ١٩٦٧) هو ١٠٩٤٠٠٠ نسمة ، وهو تقدير دائرة الاحصاءات الاردنية كما ذكرنا ٠ من هؤلاء ٤٥٣٨٤٠ شخصا فلسطينيا (باعتبار ان عددهم كما استنتجنا سابقا كان ٣٧٢٠٠٠ نسمة في العام ١٩٦١) ٠ ويضاف الى هؤلاء ١٢٥٠٠ شخص هم عدد المهاجرين من الضفة الغربية الى الضفـــة الشرقية ٠ وبذلك فان عدد الفلسطينيين يبلغ ٤٦٦٣٤٠ نسمة ٠ وهكذا تكون نسبتهم من مجموع السكان في الضفة الشرقية (١٠٩٤٠٠٠ متوقع عـــدد السكان + ١٢٥٠٠ مهاجر من الضفة الغربية) هي ٤٢٫١ بالمئة ٠

تأثيرات نزوح ١٩٦٧

ارتفعت نسبة الفلسطينيين في الضفة الشرقية ارتفاعا بينا بعد حـــرب

حزيران ١٩٦٧ ٠ فحركة النزوح الى الضفة الشرقية لم يكن مصدرها الضفة الغربية فقط ، وانما شملت ـ وللمرة الاولى بهذا الشكل الجماعي ـ قطاع غزة ايضا ٠

اولا : الضفة الغربية : ذكرنا سابقا ان عدد النازحين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية منذ حزيران حتى منتصف ايلول ١٩٦٧ بلغ نحو ٢٠٠٠٠٠ شخص ٠ غير ان هناك من الدلائل ما يشير الى استمرار حركة النزوح بعد ذلك التاريخ وان بوتيرة ادنى ٠ ذلك ان المصادر الاردنية تشير الى انه خلال الفترة من كانون الثاني ١٩٦٨ الى ايار ١٩٦٨ ترك ٥٩٣٦ شخصا الضفة الغربية (٤٦) ٠ كذلك يشير الى هذه الحقيقة تناقص عدد سكان الضفة الغربية (حسب الاحصاءات الاسرائيلية) حتى نهاية العام ١٩٦٧ وخلال العام ١٩٦٨ ٠ فبينما كان عدد سكان الضفة الغربية في ايلول ١٩٦٧ ـ باستثناء القدس ـ ٥٩٨٦٣٧ ، اصبحوا في نهاية السنة نفسها ٥٨٥٥٠٠ ، وتناقص عددهم في العام ١٩٦٨ فبلغوا في نهايته ٥٨٤١٠٠ ٠ ويبدو ان حركة النزوح الجماعي قد توقفت في العام ١٩٦٩ ، اذ ارتفع عدد السكان في نهايته الى ٥٩٩٧٠٠ نسمة (٤٧) ٠

ارتفع عدد النازحين اذن عما كان عليه في الاشهر الثلاثة الاولى التي اعقبت الحرب ٠ وتقدر مصادر الامم المتحدة عدد النازحين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية كما كان في الاول من نيسان ١٩٦٨ بـ ٢٤٣٠٠٠ نسمة ٠ وقد عاد عدد من هؤلاء الى منازلهم في الضفة الغربية ٠ فحتى ٣١ آب ١٩٦٧ كان عدد النازحين الذين اعادوا عبور النهر من الشرق الى الغرب ١٤١٥٠ شخصا حسب الارقام الاردنية او ١٤٠٥٦ شخصا حسب الارقام الاسرائيلية) (٤٩) ٠ ومن ايلول ١٩٦٧ حتى حزيران ١٩٦٨ تمكن ٢٠٠٠ شخص اخرين (حسب الارقام الاردنية او ٣٠٠٠ شخص حسب الارقام الاسرائيلية) من العودة الى الضفة الغربية (٥٠) ٠

على اي حال ، ففي تقرير لوزارة الانشاء والتعمير الاردنية ورد ان عدد النازحين من الضفة الغربية كما هو في ١ـ١ـ١٩٧٢ بلغ ٢٢٠٢٧٢ شخصا (٥١) ٠

ثانيا ـ قطاع غزة : كان عدد النازحين من قطاع غزة الى الضفة الشرقية من حزيران ١٩٦٧ حتى ١ نيسان ١٩٦٨ نحو ٣٠٠٠٠ شخص (٥٢) ٠ وحتى حزيران ١٩٧١ قامت كالة الغوث بنقل بطاقات ٣٢٠٠٠ شخص من سجلات قطاع غزة الى سجلاتها في الاردن (٥٣) ٠ وتشير الارقام الاردنية الى ان عدد النازحين من قطاع غزة الى الضفة الشرقية حتى ١ـ١ـ١٩٧٢ بلغ ٣٥٠٠٠ شخص (٥٤) ٠

سنتوقف الان عند نهاية العام ١٩٧١ حيث توفرت المعلومات عن عدد النازحين ، الذين بلغوا عند ذاك ــ حسب مجموع الارقام التي سلفت ــ ٢٥٥٢٧٢ شخصا ، وقد رفع هؤلاء نسبة الفلسطينيين الى مجموع السكان في الضفة الشرقية ارتفاعا كبيرا · وسنعالج فيما يلي هذه النسبة مختارين محطة نهاية العام ١٩٧١ حيث توفرت معلومات رسمية عن عدد النازحين ·

وفي البداية نشير الى اننا سنعتمد هنا معدل زيادة طبيعية للسكان بين منتصف العام ١٩٦٧ ونهاية ١٩٧١ مقدارها ٣٠ بالالف (٥٥) ·

وبهذه النسبة ولمدة اربع سنوات ونصف السنة (منذ حزيران ١٩٦٧) . فان متوقع عدد السكان في الضفة الشرقية في نهاية ١٩٧١ هو ١٢٥٥٨٧٧ نسمة (الاساس ١١٠٦٥٠٠ في منتصف ١٩٦٧ ، منهم ١٠٩٤٠٠٠ تقدير دائرة الاحصاءات الاردنية و١٢٥٠٠ مهاجر من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، كما مر في صفحات سابقة) · ويضاف الى هؤلاء ٢٥٥٢٧٢ نازحا بتاثير حرب حزيران من الضفة الغربية وقطاع غزة · وبذلك فان مجموع عدد السكان المتوقع في نهاية ١٩٧١ هو ١٥١١١٤٩ نسمة ·

اما مصادر السكان الفلسطينيين في هذا المجموع فهي كما يلي :

١ ــ الفلسطينيون المقيمون في الضفة الشرقية قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، والذين كان عددهم آنذاك ــ كما ورد في الصفحات السابقة ــ ٤٦٦٣٤٠ نسمة · وبذلك فان متوقع عددهم في نهاية ١٩٧١ هو ٥٢٩٢٩٥ نسمة ·

٢ ــ النازحون بعد حرب ١٩٦٧ ويبلغ عددهم ٢٥٥٢٧٢ نسمة · وبذلك فان عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية في نهاية العام ١٩٧١ بلغ نحو ٧٨٤٥٦٧ نسمة اي ان نسبتهم الى مجموع السكان هي ٥١٫٩ بالمئة ·

سنفحص هذا الرقم بطريقة متقاطعة مع عدد السكان الشرق اردنيين ·

كان تقديرنا للسكان الشرق اردنيين في العام ١٩٤٨ هو ٢٧٥٠٠٠ نسمة · وبحساب التكاثر الطبيعي للسكان بالنسب نفسها التي اعتمدت للسكان الفلسطينيين (٥٦) فان متوقع عدد السكان الشرق اردنيين في نهاية ١٩٧١ هو ٧٢٥٣٣٩ نسمة · وبذلك فان عدد الفلسطينيين ــ حسب هذا التقدير ــ يجب ان يكون ٧٨٥٨١٢ (باعتبار ان مجموع السكان ١٥١١١٤٩) ، وهو رقم لا يختلف الا اختلافا طفيفا لا يعتد به عن تقدير عدد السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية الذي جرى استنتاجه (٧٨٤٥٦٧) ، مما يجعل الاستنتاج مقبولا ·

ان هذه الارقام تقودنا الى تقدير متوقع عدد السكان في نهاية ١٩٧٦ ·

فبادخال معدل الزيادة الطبيعية للسكان يكون متوقع عدد السكان جميعا في الضفة الشرقية نحو ١٧٢٨٠٠٠ (لاقرب الف) ، منهم ٩٠٢٠٠٠ (لاقرب الف) فلسطيني · غير ان هذا الرقم يجب ان يؤخذ بتحفظ للاسباب التالية :

١ ـ لم تدخل فيه ارقام الهجرة الى خارج الاردن · كذلك لم يدخل فيه عدد الفلسطينيين الذين غادروا الاردن في اثناء احداث ايلول ١٩٧٠ ـ تموز ١٩٧١، وفي اعقابها · واذا اخذت هذه الحقيقة بعين الاعتبار فان هذا الرقم (عدد الفلسطينيين) يمكن ان يعامل على انه يمثل عدد السكان القانوني De jure Population اذ يشمل هذا المصطلح جميع المواطنين المنتمين الى القطر في فترة معينة سواء أكانوا فيه ام في الخارج ·

٢ ـ مع ذلك ، فان الرقم المذكور لا يأخذ في الاعتبار ـ من جهة اخرى ـ عدد الفلسطينيين الذين عادوا من الخارج خلال المدة موضوع الدرس · فمن المعروف ان الغالبية العظمى من « المهاجرين » خاصة اولئك المتجهون منهم الى دول النفط ، انما يستمرون في « هجرتهم » مدة محدودة يعودون بعدها الى الوطن ليستثمروا فيه مدخراتهم التي جنوها في مواطن هجرتهم · ومن هنا فان الهجرة هنا هي « هجرة مجازية » غير دائمة ومحدودة زمنا · ولما كانت الكثرة الغالبة من هؤلاء المهاجرين من الضفة الغربية (وهم يحملون الجنسية الاردنية) فانه من المتوقع والمنطقي ان يعود هؤلاء الى الضفة الشرقية والاستقرار فيها بعد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية · وفي الحقيقة ليس هناك معلومات ، حتى ولو تقديرية ، عن حركة هؤلاء واعدادهم ·

وفي اي حال ، الى ان يجري تعداد شامل للفلسطينيين ، فاننا نظن ان ما قدمناه هنا يظل مؤشرات فقط الى عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية ، وهو ما اردناه حصرا في هذه الدراسة ·

الحواشي

(١) Public Iformantion office , UNRWA Headquarters , *Palestine Refugees and Displaced Persons : Definitions and Statistics* , Beirut , 1961 , p. 1.

(٢) انظر Naseer Hasan Aururi , *Jordan : A Study in : Political Development , 1921 - 1945* , Ph.D. thesis , University of Massachusttes , 1967 , p. 49.

كذلك P.J. Vatikiotis , Politics and the *Military in Jordan,* London: Frank Cass & Co. , 1967 , p. 9.

(٣) Walter Z. Laquer , *Communism and Nationalism in the Middle East* , London : Routledge and Kegan Paul , 1961 (Third edition) , p. 124.

(٤) *The Economic Development of Jordan ;* Report of a Mission organized

by the International Bank for Reconstruction and Development at the request of the Government of Jordan, Published by the Johns Hopkins Press, Baltimore, 1961, (Second printing), p. 41.

(٥) سليمـــان موسى ، **تاسيس الامارة ١٩٢١ ـ ١٩٢٥ : دراســـــة وثائقيـــة** ، عمان ١٩٧١ ، ص ص ١٧٧ ، ١٧٨ ٠

(٦) المملكة الاردنية الهاشمية ، دائرة الاحصاءات العامة ، **التعداد العام الاول للسكان والمساكن ١٨ تشرين الثاني ١٩٦١** [**هنا فيما بعد : تعداد ١٩٦١**] ، المجلد الاول (الخصائص العامة للسكـــان) ، صفحة ت ٠

(٧) محمد السيد غلاب ومحمد صبحي عبد الحكيم ، **السكـــــان ديموغرافيـــا وجغرافيا** ، ص ٣٠ ٠

(٨) محمد السيد غلاب ، « تطور سكان فلسطين من سنـــــة ١٩١٨ الى ١٩٦٥» ، **مجلة معهد البحوث والدراسات العربية** ، العدد الرابع ، حزيران ١٩٧٣ ، ص ٣٢٣٠

(٩) *Report by the British Government To the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans Jordan*, His Majestey's Stationary Office, 1936, p. 365.

(١٠) *The Same, 1939* p. 370

(١١) منيب الماضي وسليمان موسى ، **تاريخ الاردن في القـــرن العشريــــــن** ، ص ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ ٠

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٤٤٩ ٠

(١٣) المملكة الاردنيـــــــة الهاشمية ، دائرة الاحصاءات العامة ، **احصـــــاءات المساكن لعام ١٩٥٢** [**هنا فيما بعـــد : احصاءات ١٩٥٢**] ، بيان ١ صفحـــــة ١ من قسم أ ، بيان ١ صفحة ١ من قسم ب ، بيان ١ صفحة ١ من قسم ج ، بيـــان ١ صفحة ١ من قسم هـ (ارقام متفرقة)٠

(١٥) A. Konikoff, *Transjordan : An Economic Survey*, Jerusalem, 1946, p. 22.

مذكورة في : جميل هـــــلال ، **الضفة الغربية : التركيب الاجتماعي والاقتصادي ١٩٤٨ ـ ١٩٧٤** ، بيروت : مركز الابحاث ١٩٧٥ ، ص ٢٠ ٠

(١٦) حسن صبري الخولي ، **سياســـة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطيــــن في النصف الاول من القـــرن العشرين** ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٢ (المجلـــد الاول) ، ص ٧٨٧ ٠

(١٧) The Economic Development of Jordan, op. cit., p. 332.

(١٨) ارقام مشتقة من :
G. L. Harris, *Jordan : its People, its Society, its Culture*, New Haven, 1958, p. 332.

(١٩) ارقام مشتقة من :
Hashemite Kingdom of Jordan, Department of Statistics, *Statistical Abstract 1951*, Table 2.

(٢٠) ارقام مشتقة من : المملكة الاردنية الهاشمية ، دائرة الاحصاءات العـــامة ، **النشرة الاحصائية ١٩٥٢** ، ص ٢ ٠

(٢١) ارقام مشتقـــة من : **احصاءات ١٩٥٢** ، **المصدر المذكور** ، بيـــــان رقم ١ صفحة ١ من قسم و ، بيان رقم ١ صفحة ١ من قسم ز ، بيان رقم ١ صفحة ١ من قسم ح ٠

(٢٢)
UNRWA Statistical Bulletin, May 1950 - June 1951, p. 7.

مذكورة في : الياس خوري (معد) .

احصاءات فلسطينية ، بيروت : مركـــز الابحاث ، ١٩٧٤ ، جدول ٣٦ ، ص ٣١٢٠

(١٣) النسبـــــة مستخلصــــة من : *Statistical Abstrart of Jordan 1951* , op. cit., Table 5.

(٢٤) يستنتج جميل هلال ، **المصـــــدر المذكور**، ص ٢٠ ، انه كان في الضفـــة الشقية ١٦٩٠٠٠ شخص في العام ١٩٥٢، وهذا يعادل ٢٨٫٨٪ من مجموع سكـــان الضفة الشرقية ٠ ونعتقد ان الرقـم الذي توصلنا اليه اكثر دقة لاننا اخذنـــا في الاعتبار عدد المهاجرين من المواطنيـــن الاصليين من سكان الضفة الغربية ٠

٠ **(٢٥) تعداد ١٩٦١ ، المصدر المذكور** ، المجلد الاول ٠ البيان ١/٥ صفحة ٣١ ٠

(٢٦) المصدر نفسه ، البيـــان ٢/٩ ص ٥٥ ٠ (نسب مشتقة)

(٢٧) المصدر نفسه ، البيـــان ١/١٠ ، ص ٢٩ ٠

(٢٨) النسبة مستخلصة من : المملكـة الاردنية الهاشمية ، دائرة الاحصـــاءات العامة ، **النشرة الاحصائية السنويـــــة للعـــام ١٩٥٧** ، البيانات : أـ٣ ص ٣ ، أـ٥ ص ٧ ، أـ١٧ ص ١٩ ٠

(٢٩) تعداد ١٩٦١ ، المصدر المذكور المجلد الاول ، صفحة ت ٠

(٣٠)
Israel , Central Bureau *of Statistics , Statistical Abstract of Israel 1968* , Table B/2 , p. 18, and Table C/3 p. 55.

(٣١) تعداد ١٩٦١ ، المصدر المذكور ، المجلد رقم ١ بيان ١/٥ ٠ ص ٢١٧ (ارقام مشتقة) ٠

٣٢ ــ **المصدر نفسه** ، الموقـع نفسه ٠

(٣٣) المملكة الاردنيـــــة الهاشمية **الكتاب السنوي ١٩٦٩** ، ص ٢٣ (ارقام مشتقة) ٠

(٣٤) *Report of Secretary - General , Thant , under General Assembly Resolution 2252 (ES - V) and Security Concil Resolution 237 (1967) on the Gussing Mission to the Occupied Territories , UN Document A/6797, 15 September 1967.*
in : The Institute for Palestine Studies , *The Palestine Refugees: A Collection of United Nations Documents* [Hereafter : *The Palestinian Refugees*] . Beirut 1970 , p. 545.

(٣٥) كان معدل النمو للسكـــــان في الاردن في العام ١٩٦٥ حسب ارقام دائرة الاحصاءات الاردنية ١٫٤٪ ، فقد كان عدد السكان المقدر في العام ١٩٦٤: ١٩٣٥٤٤٠ وفي العام ١٩٦٥ : ٢٠١٦٦١٨ ٠ انظـــــر للرقمين على التوالي :

دائرة الاحصاءات العامة ، **النشـــــرة الاحصائية لعام ١٩٦٤**، دائرة الاحصاءات العامة ، **كتاب الاحصاء السنوي ١٩٦٥**، ص ص ٢ ، ٣ ٠ وهناك تقدير اخر يجعل الزيادة السنوية نحو ٥ بالمئة للسنوات ١٩٦١ ــ ١٩٦٣ ٠ النسبة مستخلصة من Aruri , op. cit., p. 67.

(٣٦) بلال الحسن ٠ **الفلسطينيون في الكويت : بحث احصائي** ، بيروت : مركـز الابحاث ، ١٩٧٤ ، ص ص ١١ ، ١٢ ٠

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ص ١٤ــ١٧ ٠

(٣٨) المملكة الاردنية الهاشمية ، وزارة الانشاء والتعمير ، **عدد اهـــالي عــرب فلسطين اللاجئين والنازحين في الـــدول العربية وبقية انحاء العـــالم حتــــى** ١٩٦٨/٦/١٥ (تقرير) ٠

(٣٩)
Statistical Abstract of Israel Israel 1968 , Table 13 , p. 36 and Appendix , Table 1 , p. 593.

(٤٠)
Selected UN Documents on the Arab Refugee Problem in the Middle East [Hereafter : *Selected U N Documents*] , Public Information Office , UNRWA Headquarters , Beirut , 1961, p. 1.

انظر كذلك :

Report of UNRWA Commissioner - General for the Period of 1 July 1966 - 30 June 1967 . in : *The Palestinian Refugees* . op. cit., p. 173.

(٤١)
Selected U N Documents op. cit., p. 1.

(٤٢) **التقرير الرسمي للجنة الوزارية لشؤون اللاجئيـــن** ، عمان ١٩٦٧ · في : اميرة حبيبي ، **النزوح الثاني : دراســـة ميدانية تحليلية لنزوح ١٩٦٧** ، بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧٠ ، ص ٣٢ ·

(٤٣) **تعداد ١٩٦١** ، **المصدر المذكور** ، المجلد رقم ١ ،بيـــــان ١/٥ ، ص ٢١٥ (ارقام مشتقة) ·

(٤٤) بلال الحسن ، المصدر المذكور ، ص ١٢ ·

(٤٥) الياس خوري ، **المصدر المذكور** ، الجدول ٢٤ ص ٢٥٥ نقـــــلا عن نتائج احصاء الموظفين في الكويـــــــت ١٩٦٦ (ارقام مشتقة) ·

(٤٦) اللجنـــــــة الوزارية العليـــا [الاردنية] لاغاثة المشردين والنازحين، **تقرير اوضاع الاشخـــــــاص المشردين** ، ايار ١٩٦٨ ، في : اميرة حبيبي ، **المصدر المذكور** ، ص ٣٤ ·

(٤٧)
Statistical Abstract of Israel 1974, Table XXVI/1 ,p.682.

(٤٨)
Selected U N Documents, op. cit., p. -.

(٤٩)
Report of the Commissioner General of the UNRWA , 1 July 1966 - 30 June 1967 , General Assembly - official Records , Twenty - Second Session - Supplement No 13 (A/6713), paragraph 36.

(٥٠) **تقرير المفوض العام للاونروا تموز ١٩٦٧ ـ ٣٠ حزيران ١٩٦٨** ، في : اميرة حبيبي ، المصدر المذكور ، ص ٣٤ ·

(٥١) كامل الداوودي ، رئيس ديـوان وزارة الانشاء والتعمير ، **عرب فلسطيـن بما فيهم اللاجئون والنازحون في الدول المضيفة وفلسطين المحتلة حتـــى تاريخ ١/١/١٩٧٢** [تقرير احصائي] ·

(٥٢)
Selected U N Documents, op. cit., p. 1.

(٥٣) تصريح باسل عنـــــاب ، ضابط الارتباط والعلاقـــــات العامة في وكالـة الغوث ، صحيفـــــة « الرأي » الاردنية ٧/٦/١٩٧١ ·

(٥٤) كامل الداوودي ، **المصدر المذكور**·

(٥٥) استندنا في تقدير ذلك ـ بالاضافة الى الحيثيات التي قدمنا لمعدل الزيــادة الطبيعيـــــة للاعوام ١٩٥٢ ـ ١٩٦١ ، الى المعطيات التالية :

أ ـ كان معدل الزيادة الطبيعية للسكان في الضفة الغربيــــة في الاعوام ١٩٧٠ و ١٩٧١ و ١٩٧٢ ٢٩ بالالف · وكان في قطاع غزه وشمال سيناء للاعوام نفسهـا ٣٠ بالالف ·

النسب مستخلصة من :

Statistical Abstract of Israel 1974 , Table XXVI/1 , p. 682.

ب ـ تشير التحليـــــلات السكانية الصادرة عن القســـم الديموغرافي في دائرة الاحصاءات الاردنية الى ان معدل الزيادة الطبيعيــــة في مدن عمـــان والزرقاء والرصيفة والعقبة وجرش (في الضفة الشرقية) كان ٣١ بالالف [ارقام مشتقة] · انظر « الرأي » ٢١/١٠/١٩٧١·

(٥٦) النســب الــــتي اعتمدناها هي ما يلي :

١٩٤٨ ـ ١٩٥٢ : ٢٥ بالالف ·

١٩٥٢ ـ ١٩٦١ : ٣٠ بالالف

١٩٦٢ ـ منتصف ٦٧ : ٤٠ بالالـــف (حسب الاحصاءات الاردنية)

منتصف ٦٧ ـ اخر ١٩٧١ : ٣٠ بالالف·

التركيب الإقتصادي لشرق الأردن

مقدمات التطور المشوه (٢١/١٩٥٠)
القطاعات الاقتصادية الحديثة
(الصناعة ، التجارة ، الإدارة العامة والدفاع)

[القسم الرابع]

هاني حوراني

ثالثا : القطاع الاقتصادي الحديث

أ ـ القطاعات المنتجة للسلع

١ ـ الحرف والصناعات ·

لم يرافق التوسع المديني والنمو في القطاعات الخدمية نهوضا موازيا في الصناعة · وقد خلت البلاد بشكل شبه كلي من اية صناعة آلية حتى نهاية الثلاثينات (١) ولولا انشاء عدد من المؤسسات الصناعية الحديثة بعد ذلك ، لكان من الصعب الحديث عن وجود صناعة حتى مطلع الخمسينات ·

باستثناء النمو الذي شهدته عمان وبعض المدن الاخرى القليلة ، ظل شرقي الاردن محتفظا بسمته الزراعية وشبه البدوية ، وظلت هذه السمة غالبة عليه · ولقد نمت الحرف المستقلة من احشاء النظام المعيشي للسكان ، اي من الصناعات المنزلية ومن النشاط الحرفي المرتبط بالانتاج المعيشي وكجزء متمم له · وهي حرف ظلت تتسم بمحدودية احتياجات السكان الزراعيين والبدو وانصاف البدو · من هذه الحرف والصناعات مطاحن الحبوب اليدوية ومعاصر الزيتون الخشبية والبدائية جدا · وكانت هذه المطاحن والمعاصر منتشرة في

---

(١) راجع هرشلاغ ، مصدر سابق ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ·

معظم القرى وتلبي حاجات الاستهلاك المباشر للفلاحين · وعن طريقها كان ينتج معظم الزيت المحلي والطحين (٢) · وشملت الصناعات الحرفية ، التي كانت تقوم في ورش صغيرة او داخل المنازل صناعة النسيج اليدوية التي تعتمد على انوال بدائية للغاية · والتي تنتج الملابس والعباءات والبسط والعقل وغيرها من المنسوجات المحلية · بالاضافة الى معامل تقطير الخمور ذات الطابع المنزلي والبدائي جدا ·

الى جانب هذه الحرف القديمة ، ظهرت في المدن والقرى الكبيرة حوانيت الحرفيين الاكثر حداثة ولكن الصغيرة والمحدودة الانتاج ، مثل المخابز والافران ومحلات الحلويات والمواد الغذائية الاخرى ، وورش النجارة والحدادة والصناعات المعدنية البسيطة ، وورش التصليح والصيانة · وقد نمى عدد من هذه الورش على هامش مشاريع الدولة والانشاءات الخاصة بالقوات البريطانية والمحلية ، كورش الصيانة والتصليح المعدنية والآلية (الميكانيك) والكراجات وورش النجارة ، ومعامل الطوب ومواد البناء الاخرى (٣) ·

والواقع ان بعض النشاطات الصناعية الحرفية قد شهدت تطورا آليا محدودا، مثل ظهور معاصر الزيتون الآلية في الاربعينات ، وكذلك نشوء مطحنة آلية حديثة في عمان ، في حين شهدت صناعة النسيج تطورا مع انشاء بعض المشاغل الآلية في سنتي ١٩٣٥ و١٩٣٦ ، وفي عام ١٩٤٥ بدأ مصنع آلي صغير ينتج المنسوجات المحلية في عمان (٤) ·

كان انتاج الخمور من ابرز الصناعات المنزلية في البلاد ، واتخذ فيما بعد شكلا صناعيا اوليا مع انشاء ثلاثة معامل بين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣١ ، كان اثنان منهما في السلط والثالث في الفحيص ، وقد ظلت هذه حتى عام ١٩٤٨ تنتج غالبية الخمور المصنوعة في البلاد رغم صغرها واستخدامها ادوات بدائية· وكان يعمل في هذه المعامل بين اربعة و١٨ عاملا (٥) · وفي عام ١٩٤٨ انشىء معمل رابع للخمور ، استخدم ثلاثة عمال فقط ، ولكنه تمتع بتجهيز آلي

---

(٢) راجع كونيكوف ، مصدر سابق ، ص ٦١ ·

(٣) راجع المحافظة · علي في «الحياة الاقتصادية في عهد الامارة» (١٩٢٦/١٩٤٦) ، المقال المنشور في مجلة «التنمية» الاردنية ، العدد الاول ، كانون الثاني – شباط ١٩٧٣ ، ص ١٩/٢٠ ·

(٤) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٦١ ·

(٥) المصدر السابق ، ص ٦١ ، كذلك راجع : Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948 , (Local Manufactures)

حديث (٦) ، اما منتجات هذه المعامل فقد كانت النبيذ والعرق والكونياك من الكروم المحلية · ويظهر الجدول رقم (١) تطور انتاج الخمور في السنوات ١٩٤٤/٣٧ ·

جدول رقم « ١ »

انتاج الخمور (١٩٤٤/١٩٣٧) بالليترات (٧)

السنة	النبيذ	العرق	الكونياك
١٩٣٧	٥ر٦٢٤	٢٦ر٢٦٤	١٠ر٧٠٨
١٩٣٨	٥ر٩٩٧	٣٠ر٠٤٨	١١ر٤٨٦
١٩٣٩	٨ر٢٦٥	٣٩ر٤٢٦	١٧ر٥٢٨
١٩٤٠	٦ر٨٤٠	٣٩ر٨١٨	٢٤ر٢٢١
١٩٤١	٩ر٥٥١	٣٨ر١١٨	٣٣ر٢١٧
١٩٤٢	٧ر٢٧٣	٢٣ر٩٢١	٣٢ر٣٠١
١٩٤٣	٦ر٦١٧	٥٠ر١٤٢	٣١ر٠٦٠
١٩٤٤	٥ر٣٢٧	٥٤ر١٤١	٢٣ر٦٨١

كانت الصناعة الوحيدة ذات المظهر الحديث في البلاد هي صناعة التبغ وقد تقاسم انتاج التبغ مصنعان في عمان ملكيتهما بريطانية ، وقد بدءا عامي ٢٧ و١٩٢٨ في انتاج السجائر والتبغ الفرط (٨) ·

تزودت صناعة التبغ موادها من الزراعة المحلية ، مع استيراد كميات اخرى من الخارج ، وكانت تجهيزات المصنعين حديثة والكفاءة العمالية فيهما عالية · كما كانا يتمتعان بعمالة عالية جدا بالمقاييس المحلية ، ففي بداية الاربعينات كانت صناعة التبغ توظف ٢٥٠ عاملا (٩) ، وفي عام ١٩٤٨ كانت شركة الدخان

---

(٦) المصدر الاخير ، الصفحة نفسها · وفي عام ١٩٤٨ كانت معامل الخمور الاربعة (نصراوي ونصراوي الجديد في السلط ، وسماوي ، ومشربش وبوجي في الفحيص) تنتج مجتمعة ٥٩٧٩ ليترا من النبيذ و٢٤٤٣٢ ليترا من العرق و٧٧٧٨ ليترا من الكونياك ·

(٧) راجع كونيكوف ، ص ٦٢ ·

(٨) راجع هرشلاغ ، المصدر نفسه ص ٣٢٧ ، وكونيكوف ص ٦٢ ·

(٩) كونيكوف ، ص ٦٢ ·

الوطنية توظف ٣٢٧ عاملا ، فيما وظفت شركة التبغ الاردنية ٥٠ عاملا في نفس العام (١٠) ٠

وكما يظهر الجدول التالي رقم (٢) فقد تضاعف حجم الانتاج من السجائر حوالي ست مرات بين عامي ٣٧ و١٩٤٤ ، في حين انخفض انتاج التبغ الفرط بقوة في نفس الفترة ٠

جدول رقم « ٢ »

انتاج التبغ بالكيلوغرام (١٩٣٧/١٩٤٤) (١١)

السنة	السجائر	التبغ الفرط
١٩٣٧	٢٠ر٣٠٦	٤٧ر٤٦٨
١٩٣٨	٢٣ر٦٢٩	٤٢ر٦٦٧
١٩٣٩	٣٢ر٤٣٩	٣٩ر٥٥٦
١٩٤٠	٣٦ر٣٦٨	٢٥ر٨٣٩
١٩٤١	٤٨ر٦٢٣	١٩ر١٥٨
١٩٤٢	٧٤ر١٠٨	٩ر٥٧٦
١٩٤٣	١١٣ر٦٦١	٤ر١١١
١٩٤٤	١٢٩ر٦٤٠	٩ر٠٨٦

ولقد ارتفع انتاج المصنعين من السجائر في السنوات ٤٦ ، ٤٧ ، ١٩٤٨ بالترتيب الى ١٧٨ر٤٨١ ، ١٦٥ر٧٨٣ ، ١٥٩ر٨٦٥ كيلوغراما (١٢) ٠ وكان انتاج التبغ يغطي الاحتياجات المحلية في فترة ما قبل الحرب الثانية ، وكان التوسع في الانتاج يلاحق تزايد الطلب باستمرار (١٣) ٠

---

(١٠) راجع Commercial Conditions ... p. 5.

(١١) كونيكوف ، ص ٦٢ ٠

(١٢) راجع Commercial Conditions ... p. 5.

(١٣) يلاحظ بعد الحرب الثانية تزايد حصة التبغ الاجنبي المخلوط مع التبغ المحلي ، وتراجع مساحة الاراضي المزروعة بالتبغ ، كما ان المستوردات من السجائر الاجنبية قد زادت ، ويذكر احد منشورات وزارة الاعلام الاردنية (القطاع الصناعي في الاردن / عمان ١٩٦٧ ، ص ٢٥) ان صناعة السجائر المحلية لم تكن تغطي الا جزءا من الحاجات المحلية قبل عام ١٩٥٠ ٠

الى جانب هذه الصناعات ، ظهرت مؤسسات اخرى تعمل في صناعة البسكوت والحلويات ، المشروبات الخفيفة ، الطوب الاسمنتي والرخام والمطابع في عمان ، والخزف في صويلح وفي عام ١٩٤٥ تاسس معمل لدباغة الجلود في العاصمة ، وكان بعض انتاج هذه الصناعة يصدر الى سورية وفلسطين (١٤) ٠

اما المعلومات عن العاملين في الحرف والصناعات وارقام الانتاجية الاجمالية، وسلم الاجور ، ومستوى دخول العاملين فهي غير متوفرة ، شانها شان الاحصاءات الحيوية الاخرى ٠

وبشكل عام تظهر قيود وزارة المالية انه من بين ١٩ شركة سجلت لديها في الاعوام ١٩٣٠/١٩٣٥ برؤوس اموال قدرها ١٢٫١٥٨٫٠٩٨ دينارا لم يكن اي منها يتعاطى الاعمال الصناعية ٠ اما في الاعوام ٣٥/١٩٤٠ فمن بين ٤٢ شركة مسجلة برؤوس اموال قدرها ٢٤٣٫٨٦٠ دينارا ، كانت ست شركات منها تعمل في الصناعة والتنقيب ، كانت رؤوس اموالها توازي ١١٦٫٨٠٠ دينار ، اي ان حصتها من رؤوس اموال الشركات كانت ٣٤٪ ٠ وكانت اكبرها تعمل في التنقيب برأسمال ١٠٠ الف دينار ، وثلاث شركات للكهرباء والانارة والميكانيك برؤوس اموال مجموعها ١١٫٠٠٠ دينار وواحدة لصنع المرطبات برأسمال قدره ٤٫٨٠٠ دينار ، والشركة الاخيرة كانت تعمل في انتاج الصابون والزيت برأسمال لم يتجاوز الف دينار (١٥) ٠

وفي الاعوام ٤٠/١٩٤٥ لم يزد عدد الشركات الصناعية المسجلة في هذه الفترة عن ثلاث من بين ٨٣ شركة برؤوس اموال بلغت ٧٨١٫١١٠ دينار ٠ ولم تزد حصة رؤوس اموال الشركات الصناعية الثلاث عن ٣٢٫٠٠٠ دينار ، اي ٤٫٨٪ من رؤوس اموال الشركات المسجلة في هذه الفترة ٠ وكانت اثنتان منها تعملان في التنقيب برؤوس اموال قدرها ٢٧٫٠٠٠ دينار ، وثالثة تعمل في صناعة الكحول برأسمال يوازي ٦ الاف دينار فقط (١٦) ٠

---

(١٤) راجع كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ ٠

(١٥) راجع النشرة الاحصائية السنوية الاردنية ، العدد الاول ، ١٩٥٠ ٠ دائرة الاحصاءات العامة (عمان ، ١٩٥١) بيان رقم ٨٤ ، ص ١٥٧ ٠

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ ٠

اما فترة ١٩٥٠/٤٥ فقد شهدت اكبر توسع في تاسيس الشركات في البلاد ، اذ بلغت ٣٤١ شركة ، كان بينها ٢٤ شركة صناعية · ولم تزد حصة الشركات الصناعية من رؤوس اموال الشركات المسجلة عن ٨ر٤٪ ، بالارقام المطلقة ١٠٠ر٤١٠ر٢ دينار من اصل ٤٢٥ر٦٢٥ر٢٨ دينار ، هي مجموع رؤوس اموال الشركات المسجلة في هذه الفترة · ولقد توزعت الشركات المسجلة التي تتعاطى الاعمال الصناعية في هذه الفترة على النحو التالي :

جدول رقم « ٣ »

الشركات الصناعية المسجلة في الاعوام ١٩٥٠/٤٥ (١٧)

نوع النشاط الصناعي	العدد	رؤوس اموالها بالدنانير
شركات المطاحن وصنع الاغذية	٥	٠٠٠ر٢٢٠
شركات التنقيب	٣	٠٠٠ر٨١٣ر١
شركات الصابون والزيوت	٢	٠٠٠ر٢٦
شركات الكهرباء والانارة والميكانيك	٨	١٠٠ر٣١٣
شركات صنع المرطبات	٢	٥٠٠ر٦
شركات صنع الكحول	٤	٥٠٠ر٣١
المجموع	٢٤	١٠٠ر٤١٠ر٢

اما في نهاية المرحلة التي ندرسها ، اي عام ١٩٥٠ ، فقد كان عدد الشركات التي تتعاطى الاعمال الصناعية في شرقي الاردن لا يتجاوز ١٦٨ شركة ، من مجموع الشركات المسجلة لدى وزارة العدلية ، والبالغة ٨٧٧ر١ شركة ، اي ان نصيب الصناعة منها لم يتجاوز ٩٪ تقريبا · كما لم تتجاوز رؤوس اموالها ٩٠٠ر٥٥٩ر٢ دينار من مجموع رؤوس اموال الشركات المسجلة والبالغة ٣٤٣ر٨٥٥ر٥٢ دينارا (١٨) ·

ومن الجدول رقم «٤» ، الخاص بالمؤسسات والمحلات الحرفية والصناعية في البلاد العام ١٩٥٠ ، نلاحظ ان عدد المحلات والمؤسسات الحرفية والصناعية الآلية لم يتجاوز ٢٤٤ مؤسسة من بين ٨١٣ر٥ مؤسسة ، اي ٢ر٤٪ منها · في حين شكلت المحلات والمؤسسات العاملة في تجارة المؤن ٢٤٪ من مجموع

(١٧) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ·

(١٨) المصدر نفسه · بيان رقم ٨٥ ، ص ١٥٨ ·

المؤسسات ، وشكلت محلات البقالة ٣٩٫٥٪ . كما كانت نسبة المحلات التي تتعاطى تجارة الجملة ٤٫٨٪ ، وبلغت نسبة المحلات الحرفية اليدوية ٢٢٫٦٥٪ من المجموع ، اما المؤسسات الباقية ، والتي تتعاطى حرفا ومهنا متنوعة وغير محددة ، فقد بلغت نسبتها ٤٫٩٪ من مجموع المؤسسات . يتبين لنا ضآلة حصة المؤسسات الصناعية والحرفية وغلبة المؤسسات الخدمية والتي تتعاطى اعمال التجارة في البلاد .

كما يظهر الجدول المذكور ، ان القسم الاعظم من هذه المؤسسات (٥٥٫٥٪) كان يتركز في قضاء عمان ، ثم في قضاء اربد (٣٣٫١٪) ، ويليهمـــا في عـــدد المؤسسات والمحلات الحرفية والصناعية والمهنية والخدمية كل من قضائي الكرك ٤٫٧٪ ، ثم معان ٣٫٩٪ . وفي الواقع كانت مدينة عمان تحظى بنحو نصف عدد المؤسسات المذكورة لوحدها ، اي ٢٥٣٧ او ٤٣٫٦٪ . ثم مدينة اربد وحصتها ٢٦٪ ثم السلط ٨٫٥٪ ، ثم الكرك ٥٫٦٪ ، ثم جرش ٤٪ ، واخيرا معان ومادبا وعجلون والطفيلة (١٩) .

ما من شك ان تخلف علاقات الانتاج وتدني مستوى تطور القوى المنتجة ، قد اضعف من فرص تطور الحرف والصناعة في البلاد ، ولا سيما في بداية فترة تطور شرقي الاردن المنفصل عن سورية . كما كانت نشأة البرجوازيـــة مترافقة مع بداية السيطرة الكولونيالية ، وهي في اصولها كانت برجوازية وافدة تكونت من تجار غير محليين ، وتطورت مستفيدة من مشاريع الدولة ومن تسهيلاتها التي فتحت لها باب الاستيراد وتحويل العملة بحرية مطلقة ، واتسمت لذلك بطابع كومبرادوري في الغالب . وقد اتاح لها ذلك فرص الربح السهل بدون ادنى مخاطرة ، فلعبت دور الوكيل المحلي للرأسمال الاجنبي ، دور المروج والمسوق للبضائع المستوردة . وارتبطت اوساط كبار التجار بالسلطة وبالسلطات الكولونيالية بعلاقات وشيجة ومصالح متبادلة . لقد فضلت هـــذه الفئات البرجوازية لعب دور الوسيط بدلا من النهوض بمهمة اقامة مشاريع انتاجية غير مأمونة العواقب ، وبذلك فانها لم تختلف عن الفئات الكومبرادورية والبرجوازية الطفيلية في البلدان التابعة الاخرى .

على ان الامبريالية البريطانية تتحمل مسؤولية رئيسية في هذا المجال ، اذ بسبب اهدافها ذات الطابع الاستراتيجي ـ السياسي والامني ، لم تعن بتطوير القاعدة المادية الاساسية لاي انتاج حديث . ولم توفر الخدمات الضرورية لهذا الانتاج ولتطور القوى المنتجة . فالبلاد كانت تفتقد الى محطات توليد وتوزيع الطاقة الكهربائية مع توفر مصادر مناسبة لتوليد الطاقة ، في حين منحت شركة

---

(١٩) المصدر نفسه ، بيان رقم ٨٦ ، ص ١٥٩ .

يهودية في فلسطين امتياز توليد الطاقة منذ عام ١٩٢٦ · وهكذا اضطرت الصناعات المحلية القليلة لاستخدام مولدات صغيرة خاصة بها في توليد الطاقة الكهربائية · ولم تقدم الدولة اية تسهيلات او حوافز للانماء الصناعي فكانت خدمات المواصلات والتعليم والصحة وغيرها ضعيفة جدا ، كما كان المستوى التقني للعمال المحليين منخفضا ، وقد خلت البلاد من المدارس الصناعية والمهنية، اللهم الا من مدرسة مهنية حكومية واحدة كانت تستوعب سنويا بين ٥٠ و٦٠ طالبا (٢٠) · ففي هذه المدرسة المقسمة الى اربع سنوات دراسية ، كان يجري تعليم مهنتي الحدادة والنجارة فقط ، ولم يتجاوز عدد معلمي المهن عن ٤ معلمين وكان مجموع الطلبة الدارسين في المدرسة للعام ٤٩/٥٠ لا يتجاوز ١٠٢ طالب ، ٦٩ طالبا منهم يدرسون الحدادة و٣٣ طالبا يدرسون النجارة (٢١) ·

وما من شك في ان تطور الحرف الصناعية قد عانى من ظروف غير مناسبة ، مثل ضيق السوق المحلي وقلة عدد السكان ، وتقليدية الانتاج والاستهلاك وطابعه المعيشي للسكان حتى فترة قريبة ، وقد اضعف هذا من القوة الشرائية للسكان وحكم على السوق والتبادل البضاعي بالمحدودية والضيق · كما ان ضعف الخدمات الرأسية ساهم في اضعاف السوق الداخلي وبالتالي التطور الحرفي والصناعي ·

لقد عملت الامبريالية البريطانية على ابقاء البلاد ذات طابع زراعي غالب ، وفي نفس الوقت شجعت بكافة السبل ، ومنذ البداية ، الصلات التجارية مع فلسطين ، ولما كانت الصناعة الفلسطينية تنهض بشكل رئيسي على ايدي المستوطنين اليهود وعبر المشاريع الصهيونية ، فقد اسهم هذا في ترسيخ « تقسيم عمل » داخلي بين البلدين ، وقد حالت سهولة انتقال البضائع والاموال دون نشوء استثمار صناعي في شرقي الاردن رغم وجود مقومات وخامات قابلة للاستثمار الصناعي · ولقد تمتعت السلع الفلسطينية والاردنية باعفاءات متبادلة وكان « هذا يعني تشجيع السلع الاستهلاكية ذات المنشأ الفلسطيني او المستوردة لفلسطين ، والمعاد تصديرها للاردن ، واعطاءها افضلية في السوق الاردني اذا ما تنافست مع السلع المشابهة لها والمستوردة من بلدان اخرى ، كما تم الاتفاق على اعفاء السلع الزراعية المصدرة من الاردن عن طريق ميناء حيفا من رسوم الترانزيت ، وكان لهذه الاتفاقية اثرها المباشر على اقتصاد شرق الاردن ، اذ نمت وتطورت الصناعات الاستهلاكية في فلسطين ولم يقم في الاردن صناعة تذكر لاعتمادها على السلع الفلسطينية المصنوعة ، وهكذا توسع الاردن في

(٢٠) راجع هرشلاغ ، المصدر المذكور انفا ص ٣٣٧ ، كذلك كونيكوف ص ٦٢ ·

(٢١) راجع النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥٢ ، المصدر المذكور انفا ، بيان رقم ٢٠ ب · ص ٤٣ ·

الانتاج الزراعي عن طريق زيادة المساحات المزروعـــة ، توسعت الصناعات الاستهلاكية في فلسطين ، وكان التبادل التجاري يتم على هذا الاساس ، وشجع ذلك وحدة النقد بين البلدين » (٢٢) ٠

٢ ـ استثمار الثروات الطبيعية والخامات والتعدين :

على الرغم من وعي الكولونيالية البريطانية المبكر لوجود الخامات والمعادن في شرقي الاردن ، فان هذه الخامات والمعادن لم تتجه نحوها رؤوس الاموال البريطانية لاستثمارها ، وظل العامل الرئيسي في اهتمام بريطانيا بالاردن هو العامل الاستراتيجي والسياسي ـ الامني وليس عامل النهب الاقتصادي ٠ اذ لفتت جمعية صانعي الاسمدة المحدودة البريطانية وزارة الزراعة الى وجود خامة الفوسفات ، وقامت الاخيرة بالاتصال مع وزارة الخارجية للفت نظرها بضرورة شمول منطقة السلط التي تتوفر فيها هذه الخامة ضمن حدود فلسطين٠ وذلك « لاهمية [المنطقة] من منظور الزراعة البريطانية » وطلبت وزارة الزراعة البريطانية ان تبقى أهمية الترسبات الفوسفاتية بالنسبة لبريطانيا « ماثلـــة في الذهن لدى تصميم حدود فلسطين » (٢٣) ٠ ومع ذلك لم يبـــدو ، ان السياسة البريطانية تجاه الاردن قد تاثرت كثيرا بسبب الفوسفات او غيره من الخامات٠

لقد منحت بريطانيا بموجب صك الانتداب على شرقي الاردن وبموجب المعاهدة الاردنية البريطانية لعام ١٩٢٨ حق الاشراف على استثمار ثروات البـــلاد الطبيعية (٢٤) وكان ان منحت السلطات البريطانية ، بموافقة الحكومة الاردنية عدة امتيازات لشركات بريطانية وغربية ومختلطة (بريطانية ـ يهودية) ، كانت في كاملها متعارضة مع مصالح البلاد الحيوية ٠ ولم تسهم هذه في تطوير القوة المنتجة المحلية والاقتصاد الوطني

منحت شركة البوتاس الفلسطينية (البريطانية ـ اليهودية) بموجب الامتياز المعطى لها حق استثمار البحـــر الميت لمدة ٧٥ سنة تبـــدأ في كانون الثاني

---

(٢٢) راجع ، شرايحة ، وديع ، «التنمية الاقتصادية في الاردن» ، معهـــــد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨/٩ ٠

(٢٣) راجع دياب ، هنري ، تاسيس شرق الاردن في العام ١٩٢١ ، شؤون فلسطينية ، العدد ٥٠/٥١ ، تشرين الاول / تشرين الثاني ، ١٩٧٥ ، ص ٢٧٠ ٠

(٢٤) راجع صك الانتداب البريطاني على فلسطين وشرقي الاردن ، والمعاهدة الاردنية البريطانية لعام ١٩٢٨ لدى المحافظة ، علي ، تاريخ الاردن المعاصر (عمان ، ١٩٧٣) ، الصفحات ١٦٧/١٨١ ، لاسيما المادة ١٧ من المعاهدة ، ص ١٨٠ ٠

١٩٣٠ (٢٥) ٠ ان موافقة حكومة شرقي الاردن على هذا الامتياز بوصفها شريكا لفلسطين في البحر الميت ، لم تعد عليها بفوائد تذكر ٠ فالامتياز حدد حصة الحكومتين الفلسطينية والاردنية من ارباح الشركة بما يعادل ٥٪ من الانتاج المباع ٠ على ان تكون حصة شرقي الاردن نصف حصة حكومة فلسطين ، لكون اعمال الشركة تقوم في الاراضي الفلسطينية ٠ وبموجـــب الامتياز المذكور لم يسمح للمواطنين الاردنيين والفلسطينيين بامتلاك حصة تتجاوز خمس (١/٥) الاسهم المطروحة للبيع العلني (٢٦) ٠ وبذلكيمكن ملاحظة تفاهة العوائد المالية على البلدين من هذا الامتياز ٠

وكان انتاج شركة البوتاس قد ارتفع من ٤٨٫٠٠٠ طن عام ١٩٣٨ الـــى ١٠٠٫٠٠٠ طن في الاعوام ١٩٤٣/٤١ بقيمة تتراوح بين ثلاث ارباع المليون والمليون جنيه فلسطيني ، وقد ظلت قيمة الانتاج عند نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين تقارب المليون جنيه (٢٧) ٠

منحت سلطات الانتداب في اذار ١٩٢٦ امتيازا لتوليد الطاقة الكهربائية في فلسطين وشرقي الاردن الى شركة الكهرباء الفلسطينية المحدودة ٠ وهي شركة بريطانية كانت الوكالة اليهودية من كبار المساهمين في راسمالها ٠ بموجب هذا الامتياز اصبح لها الحق في توليد وتوزيع الطاقة الكهربائية في كل انحـــاء فلسطين وشرقي الاردن ، باستثناء القدس ٠ كذلك حق استغلال القوى المائية لنهري الاردن واليرموك (٢٨) ٠ وقد اعطت الحكومة الاردنية موافقتها في كانون الثاني عام ١٩٤٨ على ان يشمل الامتياز الاراضي الاردنية ، كما بيعت اراض خصبة في وادي الاردن للشركة ، بلغت ٦٫٠٠٠ دونم مربع ، مما بعث مشاعر القلق والغضب في اوساط الجماهير والحركة الوطنية ، وحرك معارضة شعبية واسعة في البلاد (٢٩) ٠

اقتصر استثمار الثروات الطبيعية في البلاد على بعض الخامات مثل الملح والفوسفات ، والتراب الجص وحجارة البناء والرخام ٠ فقد استخرج الملح

---

(٢٥) راجع الدجاني ، علي «محاضرات في اقتصاديات الاردن» ، معهـــد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٦٤ ٠

(٢٦) المحافظة ، علي ، الحياة الاقتصادية في عهد الامارة ، مصدر مذكور انفا ص ٢٠ ٠

(٢٧) راجع كونيكوف ، المصدرنفسه ص ٥٥ ، والمحافظة ٠ المصدر المذكور انفا ، ص ٢٠ كذلك الدجاني ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ ٠

(٢٨) راجع المحافظة ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ ٠

(٢٩) بيع الدونم بثلاث جنيهات ٠ واتهم بعض اركان الحكومة بقبض رشوة من الشركة راجع القسوس ، عودة ، مذكراته المخطوطة ٠

في منطقة الازرق على يد مواطنين من السوريين الدروز منذ عام ١٩٢٩ · ولم توجد ارقام رسمية عن الانتاج ، لكن ذكر ان الانتاج كان كافيا لتغطية الحاجات المحلية ، ولتصدير كمية محدودة منه الى سورية (٣٠) ·

بدأ استخراج الفوسفات متأخرا ، رغم اكتشاف خامات كبيرة منه في مناطق عديدة من البلاد منذ بداية القرن الحالي · ودللت الدراسات منذ ذلك الحين على جودة هذه الخامات مقارنة مع الفوسفات المستخرج في شمال افريقيا ، كما ثبتت الجدوى الاقتصادية لاستثماره ، ان لجهة جودته او لوجود كميات كبيرة متوفرة منه (٣١) ·

تأسست شركة اهلية « شركة الفوسفات الاردنية » مع اكتشاف مـــادة الفوسفات في الرصيفة القريبة من عمان عام ١٩٣٢ · وبدأت برأسمال ضئيـل وانتاجية صغيرة · كانت فلسطين المستورد الرئيسي ، ان لم يكن الوحيد ، للفوسفات الاردني · حيث جرى تصنيع وانتاج السوبر فوسفات منذ عـــام ١٩٤١ · وكان الانتاج يغطي حاجة الزراعة المحلية في فلسطين (٣٢) ·

بقي الانتاج من خامات الفوسفات ضئيلا ابان الحرب الثانية ، ففي عام ١٩٤٢ كان الانتاج يوازي ٢٠٠ر٣ طن · وارتفع قليلا الى نحو ٠٠٠ر٥ طن في عامي ٤٣ و١٩٤٤ · اما عدد عمال الشركة فقد تراوح بين ٨٠ و١٠٠ عامل منتظم (٣٣) · بعد عام ١٩٤٥ ــ وكانت الشركة قد تحولت الى شركة مساهمة ــ وضعت اسس جديدة للانتاج والتصدير ، لكن الانتاج ظل ضئيلا في النصف الثاني من الاربعينات ، فكانت صادرات الفوسفات الى فلسطين في الاعوام ٤٥/١٩٤٧ على الترتيب التالي : ٥٦٨ر٤٠، ١٠٤ر١ ، ٤٨٨ر٣ طنا (٣٤) ·

ويبدو ان أية كميات لم تصدر الى فلسطين خلال عـــام ١٩٤٨ · وثم توقف تصدير الفوسفات نهائيا بعد الحرب العربية الاولى ، ولم تلبث ان صدرت اول شحنة من الفوسفات الاردني عام ١٩٥١ ، بعد فقدان الموانىء الفلسطينية ، واثر ذلك (١٩٥٣) ساهمت الحكومة الاردنية بـــ ٣٠٪ من رأسمال الشركة (٣٥) ·

---

(٣٠) راجع كونيكوف ، ص ٥٥

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٥٧ ·

(٣٢) راجع القطاع الصناعي في الاردن ، وزارة الاعلام الاردنية ، عمان ، ١٩٦٧ ، ص ١٥ ، كذلك كونيكوف ص ٥٧ ·

(٣٣) كونيكوف ، ص ٥٧ ·

(٣٤) راجع Commercial Conditions ... p. 7.

(٣٥) راجع القطاع الصناعي في الاردن ، المصدر السابق ، ص ١٥ ·

استثمرت بضعة خامات غير معدنية اخرى على نطاق ضيق جدا ٠ كما هو الحال مع التراب الجصي والسليكات والطوب وخامات الخزف ٠ وكان في شرقي الاردن معمل واحد بدأ متأخرا في انتاج الخزف المحلي في ضويلح ٠ كما كان هناك فرن لشوي الطوب وصناعته في الشونة يوظف بين ٦٠ و٧٠ عاملا ٠ وكان قسم من الانتاج (لم يزد عن ٣ الاف طن) يصدر الى فلسطين عام ١٩٤٣ ٠ واستثمرت على نطاق ضيق ايضا حجارة البناء والرخام ٠ اما خامة السليكات التي كانت متوفرة بكميات كبيرة في جنوب الاردن وماحص ، والمفيدة في صناعة الخزف والزجاج فلم تستثمر رغم انها اعتبرت احـــدى الخامات الطبيعية القابلة للاستثمار على نطاق تجاري (٣٦) ٠

جدول رقم « ٤ »

الحرف والصناعات في اقضية شرق الاردن (١٩٥٠)

القضاء	مجموع المحلات والمؤسسات الحرفية والصناعية	المؤسسات الحرفية والصناعية (الالية)	المهن والحرف اليدوية					مجموع المهن والحرف اليدوية
			تجارة المفرق	تجارة الجملة	محلات البقالة	حرف يدوية	حرف ومهن اخرى	
عمان	٢ر٢٣٠	١٢٧	٧٥٨	٢٠٢	١ر١٣٦	٨٦١	١٣٥	٣ر٠٩٣
اربد	١ر٩٢٨	٧٢	٥٢٤	٧١	٧٧٥	٣٦٥	١٢١	١ر٨٥٦
الكرك	٤٣٠	٢٣	٥٦	٣	٢٧٠	٦٧	١١	٤٠٧
معان	٢٢٥	١٢	٥٣	—	١١٦	٢٤	٢٠	٢١٣
المجموع	٥ر٨١٣	٢٤٤	١ر٣٩١	٢٧٧	٢ر٢٩٧	١ر٣١٧	٢٨٧	٥ر٥٦٩

المصدر : النشرة الاحصائية الاردنية ، العدد الاول ١٩٥٠،دآئرة الاحصاءات العامة (عمان ، ١٩٥١) بيان رقم ٨٦، ص ١٥٩ ٠

ب ـ القطاعات الخدمية (الانتاج غير المادي)

١ ـ التجارة والتجارة الخارجية

كانت مبادلات شرقي الاردن مع الخارج ، قبل نشوء الادارة فيها ، تتســم بمحدوديتها وتوازنها ٠ فهي من جهة محكومة بحجم التبادل البضاعي المتـــاح لمجتمع زراعي ـ رعوي مكتف بذاته ـ معيشي في تكوينه ، تقتصر مستورداته على الضروريات ٠ وهي من جهة ثانية كانت مبادلات متساوية في الغالب ، اي ان البلاد لم تعان من مديونية تجاه الخارج ، حيث كان الانتاج ومن ثم الفائض هو الذي يقرر حجم التبادل ٠ اما النقد المتداول ، فهو فضلا عن محدوديته كان

(٣٦) راجع كونيكوف ، ص ٥٩ ٠

قيمة بذاته (موضوعا للاكتناز) ، وليس فقط اداة للمبادلة ·

بعد تأسيس الامارة ، واتجاه الانفاق الامبريالي الى تمويل الادارة والجيش . دخل عامل جديد مؤثر في حجم المبادلة مع الخارج وفي اتخاذهـا صفـة اللاتوازن · بعد ذلك باتت المبادلات مع الخارج تخضع شيئا فشيئا ، لا لوجـود فائض قابل للمبادلة فقط ، وانما لوجود دخول خارجية غير متأتيـة عـن الانتاج المحلي · وكانت هذه تستثير استهلاكا جديدا لم يتمتع بضرورة ملحـة من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية المحلية · اذ كان نمو الادارة والجيش في خدمة الكولونيالية البريطانية ومصالحها يترك اثره على التجارة مع الخارج من خلال تطلب هذا النمو لسلع واحتياجات لم تكن متوفرة في البلاد ·

واذا كان من الصعب تعيين حدود المبادلات مع الخارج في وقت مبكر ، اي منذ مطلع العشرينات ، فذلك ليس فقط لعدم وجود حسابات دقيقة للتجـارة الخارجية ، وانما ايضا لان الانفاق والمبادلة لم يخضعا لسيطـرة مركزيـة صارمة · ولان الدولة لم تكن قادرة على مراقبة التجارة وعكس معطياتها بدقة في حسابات التجارة الخارجية ، وكذلك فان من الصعوبة بمكان قياس تأثيـر نشاط الدولة والجيش على التطور التجاري وعلى بنية الاقتصاد المحلي ·

في عام ١٩٢٧ ، كانت ارقام الصادرات والواردات تشير الى المظاهر الاولية للخلل الذي نشأ نتيجة الانتقال غير الممهد له نحو الانفتاح على السـوق العالمية · ففي هذا العام بلغ العجز في الميزان التجـاري ٥٥٢ر٩٢٨ جنيـه فلسطيني ، وذلك حين كانت المستوردات توازي ضعف الصادرات · لقد بـدأ هذا الخلل يظهر ، رغم ان السكان ما زالوا يعيشون ضمن نظام انتاج تقليدي مكتف بنفسه الى حد كبير ، مما يشير الى ان مسؤولية الخلل كانت تقع بشكل رئيسي على الاقتصاد المديني وعلى القطاعات المرتبطة بالادارة والجيش · وكان هذا الخلل يفصح عن بداية معاناة الاقتصادين الريفي والرعوي من ازمـات احتجاز تطورهما ومعاناتهما من بدايات الانتقال الى العلاقات البضـاعية ، بدون تطوير وسائل الانتاج وهيكل الانتاج بشكل عام · مما وسع اعتمـاد الزراعيين والرعويين على السلع المستوردة ·

لكن هذه لم تكن سوى بداية ، فقد كانت مظاهر التطور المشوه وغير المتوازن للاقتصاد المحلي تعكس نفسها في السنوات العشر التالية على التجارة الخارجية في شكل عجز متفاقم في الميزان التجاري ، وصل عام ١٩٤٩ الى ٠٠٠ر١٨٦ر٧ جنيه فلسطيني ، حين اخذت الواردات للبلاد توازي عشرة اضعاف الصادرات

منها للخارج ' (راجع الجدول رقم « ٢ ») ·

وكي نتمكن من ملاحقة سمات التجارة الخارجية الاردنية واسباب العجز في الميزان التجاري ، نلقي بعض الاضواء على تركيب وحجم الصادرات والواردات وطبيعتها ، وعلى العلاقات التجارية مع البلدان العربية والاجنبية ·

١ ـ الصادرات

اتسمت صادرات شرقي الاردن بالسمات العامة لصادرات البلدان المتخلفة والخاضعة للسيطرة الامبريالية ، فهي مكونة من سلع وخامات زراعية وحيوانية ، ابرزها الماشية والقمح والشعير والعدس . الخضار الطازجة والجلود والصوف ، وحصة هزيلة من الفوسفات الخام في سنوات الاربعينات الاخيرة · على ان صادرات الاردن اتسمت فضلا عن ذلك بضآلتها بالنسبة للانتاج المحلي ، وبالنسبة لتجارة الاردن الخارجية على حد سواء ·

كان القمح والشعير على رأس الصادرات الزراعية لشرقى الاردن . وكانت قيمتهما تشهد تقلبا دراماتيكيا بين سنة واخرى نظرا لاعتمادها على المطر · وكما يشير الجدول رقم « ١ » فقد تراوحت قيمة صادرات الاردن من القمح بين حد ادنى يوازي ٤٠ الف جنيه ، وحد اعلى يوازي مليون و ٨٥ الف جنيه في الاعوام ١٩٤٩/٣٨ · وينطبق الشيء نفسه على قيمة صادرات الشعير التي تراوحت بين الف جنيه و ٢٣٢ الف جنيه لنفس الفترة · اما صادرات العدس فقد شهدت وتيرة ارتفاع عالية من ٩ آلاف جنيه عام ١٩٤٨ الى ٢٦٧ الف جنيه عام ١٩٤٥ ، ثم عادت ، بعد صعود متواتر . الى الهبوط الى ٦٤ الف جنيه عام ١٩٤٦ ثم الى ٣٩ الف جنيه عام ١٩٤٩ ·

حافظت قيمة صادرات الخضار على وتيرة ترتفع على الدوام . من ١١ الف جنيه عام ١٩٣٨ الى ٨٢ الف جنيه عام ١٩٤٨ . مع هبوط الى ٦٣ الف جنيه عام ١٩٤٩ · وكانت صادرات هذه الزراعة بعيدة عن التقلب العشوائي نتيجة اعتمادها على الري ، ولكن في الوقت نفسه بقيت حدود زيادة صادرات الخضار ضيقة بسبب ضيق مساحة الاراضي الزراعية المروية ·

وشهدت قيمة صادرات الحيوانات الحية « الماشية » تقلبا طفيفا مع اتجاه صاعد للزيادة من ٣٧ الف جنيه عام ١٩٣٨ الى ١٨٧ الف جنيه عام ١٩٤٥ · وبعد ذلك هبطت قيمة صادرات الماشية الى ٤٢ الف جنيه عام ١٩٤٦ . والى ٢١ الف جنيه عام ١٩٤٩ ·

جـدول رقم « ١ »

صادرات شرقي الاردن الرئيسية (بالاف الجنيهات الفلسطينية للسـنوات ١٩٤٩/٣٨) (١)

	١٩٣٨	١٩٤٠	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤	١٩٤٥	١٩٤٦	١٩٤٨	١٩٤٩
الحيوانات الحية (الماشية)	٣٧	٦٤	١٠٦	٩٥	١٧٦	١٨٧	٤٢	—	٣١
القمح	٣٢٤	٤٨٨	٢٣١	٩٨٩	٢٩٣	٧٠٣	١٠٨٥	٤٠	٢٠٣
الشعير	٢٠	٤٤	٥٦	٢٣٢	٤٦	٩٨	١٥٩	١	١٣١
العـدس	٩	٣١	٧٠	٦٠	٩١	٢٦٧	٦٤	٥١	٣٩
الخضار الطازجة	١١	١٠	٣٦	٥٨	٥٩	٥٦	٦٤	٨٢	٦٣
الجلود	٣	٦	٤	٨	١٣	١٢	١٣	٤٣	٣١
الصوف	١	٢	٢	٣	٧	٨	٧	١٩	٤
الفوسفات الخام	—	..	..	١٧	١٩	٢٣	٣٣	—	—
كل الصادرات الاردنية	٤٧٢	٧٧٠	٧٤٤	١٩٨٨	١٤٥٧	٢٠٤٩	٢٠٤٤	٧٢٨	١٠٥٣

اما باقي الصادرات من جلود وصوف وفوسفات فقد احتلت حصة ضئيلـة من قيمة الصادرات المحلية · وفيما يتعلق بالفوسفات فقد كان يصدر اساسا الى فلسطين ، حيث يصنع هناك للزراعة المحلية ، وقد ارتفعت قيمة صـادرات الفوسفات من ١٧ الف جنيه عام ١٩٤٣ الى ٣٣ الف جنيه عام ١٩٤٦ ثـم انخفض بعد عام الى ٦ الاف جنيه ، وتوقف التصدير الى فلسطين بعد الحرب ·

يظهر الجدول نفسه « ١ » ان قيمة الصادرات الاردنية بالقيمة المطلقة قـد تاثرت بالعوامل المناخية والامطار ، لكونها في غالبها مكونة من مواد زراعية وحيوانية · وقد ازدادت قيمة الصادرات الاردنية ، مع صعود وهبوط ، مـن ٤٧٢ الف جنيه عام ١٩٣٨ الى ١٫٩٨٨٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٣ · ثم هبطت عام ١٩٤٤ الى ١٫٤٥٧٫٠٠٠ جنيه ، وتلاها آرتفاع قوي الى ٢٫٠٤٩٫٠٠٠ جنيـه عام ١٩٤٦ ، والى ٢٫٠٤٤٫٠٠٠ عام ١٩٤٧ · وعادت قيمة الصادرات الاردنية لتنخفض عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ انخفاضا سحيقا الى ٧٢٨ الف جنيـه والـى ١٫٠٥٣٫٠٠٠ جنيه ·

٢ ـ الصادرات حسب البلدان المستقبلة

يظهر توزيع صادرات شرقي الاردن حسب البلدان المستقبلة لها ، ان فلسطين كانت البلد الاول والرئيسي المستورد من الاردن · ففي عام ١٩٣٨ اسـتوردت

(١) راجع : Quarterly Bulletin of Economic development U.N. Relief and Works Agency for Palestine Refugees . No. 8. August 1953. p. 48.

ما قيمته ٤٤٥ الف جنيه من مجموع صادرات الاردن البالغة ٤٧٢ الف جنيه ، اي انها استقبلت ٩٤٫٢٪ من صادرات الاردن · في حين لم تتجاوز الصادرات الى سورية ما قيمته ٢٨ الف جنيه في نفس العام (٢) ·

ازدادت قيمة الصادرات الاردنية الى فلسطين فبلغت ١٫٩٧٥٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٣ ، وحافظت الصادرات الى فلسطين على متوسط قيمته مليون ونصف مليون جنيه في السنوات التالية ٤٤ ، ٤٥ ، ١٩٤٦ · ثم بدأت بالانخفاض الى ٤٥٩ الف جنيه عام ١٩٤٧ و ٥٦٢ الف جنيه عام ١٩٤٨ واخيرا ٧٢٨ الف جنيه عام ١٩٤٩ (٣) ·

اما الصادرات الاردنية الى سورية فقد ظلت قيمتها ضئيلة ، ففي عام ١٩٤٤ بلغت ١٤٫٠٠٠ جنيه فقط ، لكنها قفزت بعد ذلك الى ٤٤٠٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٥ والى ٥٠٢٫٠٠٠ عام ١٩٤٦ ، ثم عاودت انخفاضها الى ٤٢٫٠٠٠ عام ١٩٤٧ و ١٥٠٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٨ واخيرا ٢٩٠٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٩ (٤)·

وكانت صادرات شرقي الاردن الى البلدان العربية الاخرى محصورة اساسا في العراق والسعودية (نجد) ومصر ، الا ان قيمتها ظلت ضئيلة جدا وغير مستقرة ·

٣ ـ المستوردات

تضاعفت قيمة مستوردات شرقي الاردن خلال سنوات الحرب الثانية من متوسط ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه في الاعوام ١٩٣٩/٣٧ الى متوسط ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه في الاعوام ١٩٤٤/٤١ · ان الارتفاع العالمي لاسعار السلع اثناء الحرب ، وازدياد المستوردات الخاصة بالمتطلبات العسكرية والمشاريع البريطانية في البلاد قد اسهمتا في تحقيق هذا الارتفاع · لكن ازدياد المستوردات لم يتوقف بعد الحرب ، بل تنامى بسرعة اكبر وكان هذا يعكس ازدياد الاعتماد على الخارج · هكذا ارتفعت المستوردات من قيمة ٢٫٩٨٦٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٤ الى ٤٫٥٦٨٫٠٠٠ عام ١٩٤٥ ، ثم الى ٦٫١١٧٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٦ · ومع عام ١٩٤٨ الذي شهد اندلاع الحرب الفلسطينية ، وازدياد الدعم البريطاني المالي للجيش الاردني ، كانت وتيرة ارتفاع المستوردات أقوى واشد ، فوصلت

---

(2) Ibid. Table XIII. p. 49.

(3) Ibid. Table XIII. p. 49.

(4) Ibid. Table XIII. p. 49.

قيمة المستوردات الى ٠٠٠ر٢٨٤ر١٠ جنيه عام ١٩٤٨ . ثم الى ٠٠٠ر٧٤٤ر١٢ عام ١٩٤٩ (انظر الجدول رقم « ٢ ») ٠

هكذا يمكن القول ان المستوردات كانت قد تضاعفت بعد الحرب العالمية الثانية مرة واحدة عن السنوات التي قبلها ٠ ثم اخذت تتضاعف كل سنتين او ثلاث سنوات بعد ذلك ٠ ففي عام ١٩٤٩ كانت المستوردات توازي عشرة اضعاف مستوردات عام ١٩٣٨ من حيث القيمة ٠

تشير ارقام ١٩٤٤/٣٨ الى ان السلع المصنوعة كانت تشكل ثلثي قيمة مستوردات الاردن الاجمالية ، ومن بينها كانت الملابس والمنسوجات تحتل المرتبة الاولى ٠ فيما احتلت المواد الغذائية ما نسبته ٢٠ و ٢٥٪ ٠ وتوزعت الحصة الباقية من المستوردات بين عدد من المواد الاخرى (٥) ٠

اما ارقام السنوات ٤٦ ، ٤٧ ، ١٩٤٨ فهي تشير الى ان المنسوجات والملابس (القطنية خاصة والحريرية والصوفية) تحتل المرتبة الاولى بين المستوردات وقد بلغت نسبتها الى اجمالي المستوردات ٢٨٪ و ٨ر٢٠٪ و ١٧٪ على التوالي ٠

بعد المنسوجات تاتي مستوردات البلاد من الحيوانات لغايات العمل وكانت لعام ١٩٤٥ (وهي الاعلى بين بقية السنوات) توازي ٠٠٠ر١٢٧ر١ جنيه او ما نسبته ٧ر٢٤٪ من قيمة اجمالي المستوردات ٠ وكانت حصتها في السنوات التالية : ١ر١٢٪ لعام ١٩٤٦ و ٦ر٢٪ لعام ١٩٤٨ ٠ وقد انخفضت قيمة مستوردات حيوانات العمل لعام ١٩٤٩ الى ما يوازي ٣٠ الف جنيه فقط (٦)٠

ارتفعت قيمة مستوردات السكر بالارقام المطلقة الى اجمالي المستوردات بوتيرة عالية جدا اثناء الحرب الثانية وبعدها ٠ اذ كانت مستوردات السكر توازي ٤٧ الف جنيه لعام ١٩٣٨ فباتت توازي لعام ١٩٤٣ ، ٢٢٧ الف جنيه ٠ وبعد انخفاض قيمتها في السنوات ١٩٤٦/٤٤ عادت ترتفع بقوة من ١٣٦ الف جنيه عام ١٩٤٦ الى ٥٦٦ الف جنيه عام ١٩٤٧ ، ثم الى مليون و ١٥٦ الف جنيه لعام ١٩٤٨ ٠ وقد شكلت مستوردات السكر ما نسبته ٢ر٢٢٪ و ٢ر١١٪

---

(5) Konikoff , op. cit, p. 65 .

(6) Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948. Table A. p. 32.

و٤ر٨٪ من اجمالي قيمة المستوردات للسنوات ٤٦ و٤٨ و١٩٤٩ ، بالترتيب (٧) ٠

نشطت مستوردات السيارات بقوة بعد الحرب الثانية ، ففي عام ١٩٤٤ كانت قيمة المستورد منها ٢٨ الف جنيه فقط ، ثم قفزت الى ٢٦٢ الف جنيه عام ١٩٤٦ والى ٣٤٤ الف جنيه و ٣١٠ الاف جنيه عامي ٤٨ و ١٩٤٩ بالترتيب (٨) ٠

ومع ازدياد استيراد السيارات ، كانت قيمة البنزين المستورد ترتفع ايضا من ٧٦٠ر٧١ جنيه لعام ١٩٤٦ الى ٠٤٨ر١١٣ جنيها والى ٩٦٣ر٩٥ جنيها عامي ٤٧ و ١٩٤٨ ٠ وبالمثل زادت قيمة مستوردات اطارات السيارات من ٧٦٨ر٨٤ جنيها لعام ١٩٤٦ الى ٠٩٢ر١٠٤ جنيها في عام ١٩٤٧ (٩) ٠

اما ترتيب المستوردات الاخرى من حيث اهمية قيمتها بالنسبة الى اجمالي المستوردات فقد كانت على النحو التالي : التمور ، الارز ، الشاي ، الاسمنت ، الخشب ، لباس الرأس ، الكيروسين ، الفولاذ ، الاحذية ، ورق السجائر ، الصابون ، الادوات الفولاذية ، الورق ، الحلويات ، الثقاب ، السولار ٠٠ الخ (١٠) ٠ ، من ذلك يتبين ان المواد الغذائية والمنسوجات والملابس ومواد البناء والسلع الاستهلاكية المباشرة كانت تشكل غالبية المستوردات الاردنية ٠

ويظهر الجدول رقم « ٢ » تطور المستوردات الرئيسية من حيث قيمتها (بالاف الجنيهات الفلسطينية) ، وكذلك القيمة الاجمالية للمستوردات في السنوات ١٩٤٩/٣٨ ٠

جدول رقم « ٢ »

المستوردات الرئيسية لشرق الاردن (بالاف الجنيهات الفلسطينية) لسنوات ١٩٤٩/٣٨ (١١)

	١٩٣٨	١٩٤٠	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤	١٩٤٥	١٩٤٦	١٩٤٨	١٩٤٩
انسجة قطنية	١٣٠	١٣٨	١٦٥	١٢٧	١٨١	٣٣٤	٩١١	٨٦٥	١٣١٨
حيوانات	...	...	...	...	٢٢٠	١١٢٧	٧٤١	٢٦٧	٣٠
سكر	٤٧	١٢٦	٢٠٧	٢٢٧	١٤١	١٣٩	١٣٦	١١٥٦	١٠٧٦
سيارات	...	...	...	...	٢٨	٥٠	٢٦٣	٣٤٤	٣١٠
قهوة	١٨	٤٢	٧٦	١٤١	٢٢٠	١٠١	٣٣٣	٥٠٨	٢٨٥
اسمنت	...	...	...	...	٢٧	٥١	١٠٧	٢١٣	٤٦٦
بنزين	٣٩	٧٢	٤٣	٥٤	٣٨	٥١	٧٢	٢٩٦	٤٣٩
قيمة كل المستوردات	١٢٢٩	١٦٧٢	٢٠٨٣	٢٢٩٢	٢٩٨٦	٤٥٦٨	٦١١٧	١٠٢٨٤	١٢٧٤٤

(7) Ibid. p. 32. (8) Ibid. p. 32. (9) Ibid. p. 32.

(10) Ibid. p. 32.

(11) U.N. Relief & Works , Agency for Palestine Refugees, Quarterly Bulletin of Economic Development No. 8. August 1953. p. 48.

٤ ـ المستوردات حسب بلدان المصدر

اما توزيع المستوردات حسب بلدان المصدر ، فنجد ان الدول الرئيسية المصدرة للاردن كانت قبيل الحرب الثانية (١٩٣٨) على الترتيب التالي : سورية ، اليابان ، العراق ، فلسطين ، بريطانيا ، الهند ، ثم الولايات المتحدة الامريكية وبلدان اوروبية اخرى (١٢) ، وبعد الحرب الثانية طرأ تحول على ترتيب اهمية البلدان المصدرة للاردن · فقد توقفت المستوردات من اليابان في السنوات ١٩٤٧/٤٤ ، ثم تفاوتت قيمة صادراتها بعد ذلك مع ميلها الى الانخفاض الشديد ، بعد ان كانت تحتل المرتبة الثانية من حيث القيمة المطلقة والنسبية للمستوردات الاردنية (١٣) · ولقد سبب انتعاش التجارة مع اليابان التسهيلات المتاحة امام الاستيراد في العراق وقلة الرقابة انذاك · كما كانت صلات العراق مع الهند سببا في انتعاش تجارتها مع الاردن (١٤)·

حافظت مستوردات الاردن من سورية على مركزها الرئيسي بين سائر البلدان الاخرى حتى نهاية الاربعينات · رغم تعديل الاتفاقيات التجارية بين البلدين · اما الاستيراد من فلسطين فقد شهد ارتفاعا ملموسا ومتواصلا من عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٤٥ ، ثم تارجح مع ميل الى الانخفاض في السنوات ١٩٤٩/٤٦ · وبسبب التسهيلات الجمركية بين الاردن وفلسطين وللاسباب التاريخية والجوار ، ظلت التجارة مع فلسطين تتمتع بمكانة رئيسية ان على صعيد الصادرات او المستوردات (١٥) ·

كما شهدت التجارة مع اوروبا في السنوات ١٩٤٩/٤٦ طفرة قوية وتضاعفت المستوردات منها خلال السنوات المذكورة ثلاث مرات · فيما استمرت المستوردات من البلدان الاسيوية على ارتفاعها نظرا لازدياد حاجة الاردن للشاي والارز والنسيج (١٦) ·

كانت حصص بريطانيا والولايات المتحدة من المستوردات الأردنية ضئيلة جدا قبل الحرب الثانية ، لكنها قفزت منذ بداية الاربعينات وبلغت ذروتها عام

---

(12) Ibid. p. 49.

(13) Ibid. p. 49.

(14) Konikoff , op. cit., p. 66.

(15) Quarterly Bulletin of Economic Development , op. cit. p. 49.

(16) Ibid. p. 49.

١٩٤٨ . فباتت بريطانيا المصدر الاول للاردن ، فـي حيـن زادت صـادرات الولايات المتحدة الى الاردن عن صادرات فلسطين للاردن في نفس العـام . وهكذا بات توزيع البلدان المصدرة للاردن من حيث اهميتها الى مجمـــوع المستوردات لعام ١٩٤٨ على النحو التالي وبالترتيب :

١ ـ المستوردات البريطانية	٢٫٢٣٤٫٠٠٠	جنيه	او ٢١٫٧٪
٢ ـ المستوردات السورية	١٫٩٦٧٫٠٠٠	جنيه	١٩٫١٪
٣ ـ المستوردات الاوروبية	١٫١٧٣٫٠٠٠	جنيه	١١٫٤٪
٤ ـ المستوردات العراقية	١٫٠٦٩٫٠٠٠	جنيه	١٠٫٤٪
٥ ـ المستوردات الامريكيـــــة (الولايات المتحدة)	٧٧٨٫٠٠٠	جنيه	٧٫٥ ٪
٦ ـ المستوردات المصرية	٧٧٤٫٠٠٠	جنيه	٧٫٥ ٪
٧ ـ المستوردات الفلسطينية	٧٢٩٫٠٠٠	جنيه	٧٫٢ ٪
٨ ـ المستوردات الهندية	١٣٣٫٠٠٠	جنيه	١٫٣ ٪
٩ ـ المستوردات اليابانية	٢٨٫٠٠٠	جنيه	٠٫٢٧ ٪
١٠ ـ المستوردات من باقي البلدان	١٫٣٨٩٫٠٠٠	جنيه	١٣٫٥٪

وذلك من مجموع المستوردات لعام ١٩٤٨ البالغة ١٠٫٢٨٤٫٠٠٠ جنيـــه فلسطيني (١٧) .

٥ ـ العجز في الميزان التجاري

مما مر يمكن ان نلاحظ ان اهم سمات التجارة الخارجية الاردنية ، انهـــا كانت تجارة استيراد ، وانها كانت ابعد ما تكون عـن التوازن مـع مـــرور السنوات . ففي عام ١٩٣٧ حين كانت المستوردات توازي ١٫٠٥٠٫٠٠٠ جنيه ، كان العجز التجاري يفوق قيمة نصف المستوردات . وآنذاك كان حجم الاعتماد على السلع المستوردة ضئيلا بالاجمال . فالبنية الاقتصادية للسكان كانت مـا تزال تتسم بطابع الكفاف والاكتفاء الذاتي الى حد كبير ، ولذا كان نمــوذج استهلاكها محدود وبسيط . ولم تكن التجارة قد نقلت السكان اكثر فاكثـــر نحو الاقتصاد السوقي ، هذا الامر الذي حدث ابان الحرب الثانية وبعدها ، حين اتجهت وتيرة الاعتماد على الاستيراد والسوق الخارجي تجنح بسرعة كبيـرة جدا قياسا بنمو الانتاج المحلي والصادرات المحلية معا . وهكذا باتت قيمـة

---

(17) Ibid. p. 49.

Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948 , Table (A. 1), p. 33.

المستوردات في عام ١٩٤٩ توازي اثنتي عشر ضعفا من قيمة الصادرات . بعد ان كانت توازي عام ١٩٣٧ ضعفا واحدا من الصادرات ٠

كانت مسؤولية العجز المتزايد في الميزان التجاري الاردني نتيجة تفاقـــم الفروق بين وتيرتي تطور الانتاج والصادرات المحلية البالغة البطء . وتطـور نمو المستوردات الخارجية (لحساب القطاع المديني والادارة العـامة والجيش والخدمات) السريعة جدا ٠ الامر الذي جعل التجارة الخارجية صورة عـــن التطور المشوه والضعف المزدوج في الاقتصاد المحلي ، وكمظهر لانفصـــــال قطاعات الاقتصاد عن بعضها البعض ، ولنموها المتفاوت وغير المنسجم ٠

لقد تراوح العجز في الميزان التجاري الاردني في السنوات ٣٧/١٩٤٩ بين نسبة ٣٨٪ و٨٥٫٦٪ عن حجم التجارة الخارجية ٠ وكانت تسوية هذا العجز تتم بواسطة المساعدات المالية الخارجية ، ومن الدخول غير المنظورة مثل تجارة التهريب ٠ ان الجدول رقم « ٣ » يظهر ارقام التجارة الخارجية الاجماليـــة والعجز في الميزان التجاري في السنوات ٣٧/١٩٤٩ ٠

جـدول رقـم « ٣ »

قيمة صادرات وواردات شرق الاردن وقيمة العجز التجاري (٣٧/١٩٤٩) (١٨) (بآلاف الجنيهات الفلسطينية)

السنة	الواردات	الصادرات الوطنية	بضائع معاد تصديرها	الميزان التجاري
١٩٣٧	١٠٥٠	٥١١	١٥	٠٥٢٤ -
١٩٣٨	١٢٢٩	٤٧٢	٩٣	٦٦٤ -
١٩٣٩	١٢٩٥	٥١٧	٦٣	٦١٥ -
١٩٤٠	١٦٧٢	٧٧٠	٧٥	٨٢٧ -
١٩٤١	٢٣٧٣	٥٩٠	٣٥٩	١٤٢٤ -
١٩٤٢	٢٠٨٣	٧٤٤	٢٩٥	١٠٤٤ -
١٩٤٣	٢٢٩٢	١٩٨٨	٣٠٥	٤٦ +
١٩٤٤	٢٩٨٦	١٤٥٧	٣٣٦	١١٩٤ -
١٩٤٥	٤٥٦٨	٢٠٤٩	٧٨٤	١٧٣٥ -
١٩٤٦	٦١١٧	٢٠٤٤	٣٣٦	٣٧٣٧ -
١٩٤٧	٦١٢٤	٥٠٦	٣٦٥	٥٢٥٣ -
١٩٤٨	١٠٢٨٤	٧٢٨	١٧٨٤	٧٧٧٢ -
١٩٤٩	١٢٧٤٤	١٠٥٣	٢٣٥٢	٧١٨٦ -

(18) Qurterly Bulletin of Economic Development, op. cit, p. 48.

٦ ـ المؤسسات التجارية والمالية ، ودورها الاقتصادي الداخلي :

كانت التجارة في مطلع العشرينات مقتصرة على بعض المدن الرئيسية ، وكانت في الغالب في ايدي مواطنين سوريين وفلسطينيين متوطنين في البلاد منذ العهد العثماني · وقد اقتصرت على استيراد المواد الضرورية لمجتمع معيشي محدود الحاجات ، وذلك من سورية وفلسطين والعراق ، واحيانا من مصر واوروبا · كما كانت الحاصلات الزراعية ، ولا سيما الحبوب بالاضافة الى الحيوانات الحية هي الصادرات الرئيسية للاردن · لم تكن هناك تجارة كبرى ولا شركات تجارية آنذاك (١٩) ·

لكن توسع بضعة مدن ولا سيما عمان ، وازدياد اهمية ودور الدولة ، وقيام المشاريع الكولونيالية ، والانفتاح على السوق العالمي ، هذه العمليات التي ترافقت مع اجراءات اخرى ساعدت على ازدياد الطابع البضاعي للاقتصاد وعلى قيام سوق محلية ، وعلى نشوء وتطور المؤسسات القائمة على التبادل البضاعي والسوقي · ولقد اتخذت هذه العملية طابعا متسارعا في السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية وابانها ثم واصلت تطورها بوتائر متعاظمة في سنوات الحرب الفلسطينية · فباتت عمان « قبلة انظار التجار ، من البلاد العربية المجاورة ، وذلك لعدم وجود قيود صارمة على الاستيراد وتحويل العملات الاجنبية » (٢٠) · كما ساعد على تنامي التجارة ، ازدياد ترابط شرق الاردن بالبلدان المجاورة ، وشق طريق حيفا ـ بغداد ، وازدياد اهمية البلاد كعقدة للمواصلات البرية وكممر لتجارة الترانزيت ومع ازدياد الانفاق العسكري والمدني ابان الحرب ·

وكما ذكرنا فان الصفة الاكثر جوهرية للتجارة الاردنية هو كونها تجارة استيراد ، ويفسر هذا الواقع المستوى المنخفض للانتاج المحلي من جهة ، وتنامي احتياجات قطاع الدولة والجيش والمرافق الكولونيالية ، ونمو المدن في شكل طفرات ليس لها علاقة بالاقتصاد التقليدي للسكان ، ولا بالاحتياجات المحلية البحتة لهم · ولقد اتسع نطاق انتشار المؤسسات العاملة في التجارة ، بفضل تنامي وتيرة اعتماد الدولة والجيش والمشاريع الكولونيالية على السلع المستوردة · ثم لم تلبث تجارة الاستيراد نفسها ان امتدت لتصل الى المدن

---

(١٩) راجع المحافظة ، علي ، تاريخ الاردن المعاصر ، عهد الامارة (عمان ، ١٩٧٣) ص ١٢٧ ·

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ ، كذلك راجع الدجاني ، علي ، محاضرات ، في اقتصاديات الاردن (القاهرة ، ١٩٥٤) ص ٢٠/٢١ ·

الصغيرة والارياف ، ومع تنامي الاعتماد على السلع المستوردة نشات المؤسسات التجارية الصغيرة ومحال البيع في المفرق ، وتنامى عددها مرات عديدة خلال الحرب الثانية وبعدها ٠

ومن بين ١١ شركة مسجلة في البلاد قبل عام ١٩٣٠ ، كانت ٩ شركات منها تتعاطى اعمال التجارة ويفوق رأس مال كل واحدة عن مليون دينار ٠ وكما يظهر الجدول رقم «٤» فان مجموع رؤوس اموال الشركات التجارية التسع قد بلغ ٨٥٠ر٩٣٩ر١٠ دينار ٠ في حين كانت الشركتان الباقيتان ، وهما تتعاطيان اعمال التعهدات ، ذات رؤوس اموال تافهة لا تتجاوز ٠٠٠ر٧ دينار ٠

كما نجد ان ١٥ شركة من مجموع الشركات المسجلة في الاردن بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٥ والبالغة ١٩ شركة ، كانت تتعاطى اعمال التجارة براسمال قدره ٤٢٣ر٥٢٧ر١ دينار ٠ واذا ما وضعنا جانبا الشركة الوحيدة للتعهدات التي قامت برأسمال ضخم بلغ ٠٥٠ر٦٢٥ر١٠ دينار ، فان الشركات التجارية ظلت تحتل الحصة الاعظم من عدد الشركات المسجلة ، كما كانت تحوز على القسم الاعظم من رؤوس اموالها ٠

وفي السنوات التي سبقت الحرب الثانية (٣٥/١٩٤٠) سجلت في البلاد ٣٠ شركة صغيرة ومتوسطة تتعاطى اعمال التجارة ، شكلت بدورها القسم الاعظم من الشركات المسجلة في البلاد ، وكانت برؤوس اموال لم تتجاوز ٦٢٠ر٥٨ دينار ٠ والى جانبها قامت شركة لاعمال التأمين برأسمال كبير بلغ ١٠٠ الف دينار ، وشركة اخرى للتعهدات برأسمال قدره ١٠٠ر٥٠ دينار ، كما شهدت هذه الفترة نشوء ست شركات صناعية برؤوس اموال بلغت ٨٠٠ر١١٦ دينار ٠ وما من شك في أن هذه الفترة كانت تظهر ركودا تجاريا وضآلة مكانة الشركات المسجلة في الاعمال التجارية مقارنة بالمؤسسات الصناعية التي بلغت نسبة رؤوس اموالها ٣٤٪ من مجموع رؤوس اموال الشركات المؤسسة في هذه الفترة ٠ لكن ظلت الشركات التجارية تشكل من حيث العدد الحصة الغالبة بالنسبة الى مجموع الشركات ، اي ٥ر٧١٪ ٠

كانت سنوات الحرب الثانية وما بعدها فترة ازدهار التجارة والنشاط التجاري في الاردن ٠ فقد بلغ عدد الشركات التجارية المسجلة في الاعوام ١٩٤٠/١٩٤٥ ، ٦٦ شركة من مجموع ٨٣ شركة مسجلة في هذه الفترة ، اي انها شكلت ٥ر٧٩٪ منها ٠ وبلغت حصتها من رؤوس اموال الشركات المسجلة ٩ر٧٥٪ ٠

جـدول رقـم « ٤ »

الشركات المسجلة في الاردن حسب اعمالها وتاريخ تاسيسها كما هي فـي ١٦/١٢/١٩٥٠ (٢١)

نوع الشركة	تاسست قبل سنة ١٩٣٠		تاسست قبل بين سنة ١٩٣٠/١٩٣٥		تاسست بين سنة ١٩٣٥/١٩٤٠		تاسست بين سنة ١٩٤٠/١٩٤٥		تاسست بين سنة ١٩٤٥/١٩٥٠	
	العدد	مجموع رؤوس اموالها بالدينار	العدد	مجموع رؤوس اموالها بالدينار	العدد	مجموع رؤوس اموالها بالدينار	العدد	مجموع رؤوس اموالها بالدينار	العدد	مجموع رؤوس اموالها بالدينار
شركات اعمال تجارية	٩	١٠ر٩٣٩ر٨٥٠	١٥	١ر٥٢٧ر٤٢٣	٣٠	٥٨ر٦٢٠	٦٦	٥٩٣ر٦١٠	٢٣٤	١٢ر٧٧٣ر٣٥٥
شركات سينما	–	–	١	٤ر٥٠٠	–	–	٢	١٩ر٠٠٠	٢	١١٠ر٠٠٠
شركات تامين	–	–	–	–	١	١٠٠ر٠٠٠	–	–	٦	١٢ر٣٩٨ر١٦٥
شركات سياحة وسفر	–	–	٢	١ر١٢٥	٣	١٨ر١٠٠	١٠	١١٥ر٠٠٠	٥٣	٦٢٦ر٣٠٥
شركات تعهدات	٢	٧ر٠٠٠	١	١٠ر٦٢٥ر٠٥٠	١	٥٠ر١٠٠	١	٢٠ر٠٠٠	١٥	٣٤٩ر٤٠٠
شركات طباعة ونشر	–	–	–	–	١	٢٤٠	–	–	٢	١ر٨٠٠
شركات فنادق	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	١١ر٨٠٠
شركات فحص حسابات	–	–	–	–	–	–	١	٥٠٠	٣	٤ر٥٠٠
شركات صناعية	–	–	–	–	٦	١١٦ر٨٠٠	٣	٣٣ر٠٠٠	٢٤	٢ر٤١٠ر١٠٠
المجموع	١١	١٠ر٩٤٦ر٨٥٠	١٩	١٢ر١٥٨ر٠٩٨	٤٢	٣٤٣ر٨٦٠	٨٣	٧٨١ر١١٠	٣٤١	٢٨ر٦٢٥ر٤٢٥

---

(٢١) راجع : النشرة الاحصائية الاردنية لعام ١٩٥٠ ، العدد الاول (عمان ، ١٩٥١) بيان ٨٤ ، ص ١٥٧ .

وفي الاعوام ١٩٤٥/١٩٥٠ التي شهدت نهاية الحرب الثانية واندلاع الحرب الفلسطينية بنتائجها الوخيمة وما سببته من هجرة ونزوح ، فقد افسحت المجال امام انتعاش التجارة واعمال التعهدات والتأمين وشركات النقل والى حد ما الصناعة · فمن مجموع الشركات المسجلة في هذه الفترة وعددها ٣٤١ شركة كانت ٢٣٤ شركة منها تعمل في التجارة ، اي بنسبة ٦ر٦٨٪ منها · وقد بلغت رؤوس اموالها ٣٥٥ر٧١٣ر١٢ دينار ، اي ما نسبته ٤ر٤٤٪ · اما الشركات التي تتعاطى اعمال التأمين وعددها ست شركات ، فقد كانت ذات رؤوس اموال ضخمة تفوق المليوني دينار لكل منها وكانت حصتها من مجموع رؤوس اموال الشركات المسجلة لهذه الفترة توازي ٣ر٤٣٪ · في حين لم تتجاوز حصة رؤوس اموال الشركات الصناعية (وعددها ٢٤ شركة) عن ٣ر٨٪ ·

وفي نهاية المرحلة التي ندرسها ، اي في عام ١٩٥٠ ، نجد انه من بين ٤٩٦ شركة مسجلة في البلاد كانت ٣٥٤ شركة منها تعمل في التجارة ، اي ما نسبته ٣ر٧١٪ منها · وكانت رؤوس اموالها توازي ٨٥٨ر٨٣٢ر٢٥ دينار ، اي نحو ٤٩٪ من مجموع رؤوس اموال الشركات المسجلة في نهاية عام ١٩٥٠ · والى جانب الشركات التجارية كانت شركات التأمين وعددها ٧ شركات تحظى بالحصة الثانية من مجموع رؤوس امول الشركات المسجلة ، فقد بلغت ١٦٥ر٤٩٨ر١٢ دينار او ٦ر٢٣٪ منها · ثم بعد ذلك تأتي الشركات العاملة في اعمال التعهدات وعددها عشرون شركة برؤوس اموال ٥٥٠ر٠٥١ر١١ دينار · بلغت نسبتها ٢١٪ من مجموع رؤوس اموال الشركات في نفس العام · اما الشركات الصناعية وعددها ٣٣ شركة فلم تتجاوز رؤوس اموالها عن ٩٠٠ر٥٥٩ر٢ دينار او ما نسبته ٦ر٦٪ من مجموع رؤوس اموال الشركات في الاردن ·

اما بالنسبة لتوزيع الشركات حسب حجوم رؤوس اموالها · فنجد انه من بين ٥١ شركة يزيد حجم رأس مالها عن ٥٠ الف دينار كانت ٢٩ شركة منها تعمل في التجارة ، اي ٥٧٪ منها ، وكانت ست شركات من بين سبع شركات تعمل في التأمين ، يزيد رأسمالها عن ٥٠ الف دينار ومن بين ١٩٩ شركة كانت تتراوح رؤوس اموالها بين ١٠ الاف و٥٠ الف دينار كانت ١٥٣ شركة منها تعمل في التجارة اى بنسبة ٨ر٧٦٪ منها · (راجع الجدول رقم « ٥ ») ·

جـدول رقـم « ٥ »

الشركات المسجلة في الاردن حسب اعمالها ورؤوس اموالها كما هي فـي ١٦/١٢/١٩٥٠ (٢٢)

نوع الشركة	مجموع الشركات المشتغلة بالصنف	مجموع رؤوس الاموال بالدينار	مجموع عدد الشركاء	عدد الشركات بحسب رؤوس الاموال (بالدينار)				
				اقل من ١ر٠٠٠	من ١ر٠٠٠ الى ٥ر٠٠٠	من ٥ر٠٠٠ الى ١٠ر٠٠٠	من ١٠ر٠٠٠ الى ٥٠ر٠٠٠	من ٥٠ر٠٠٠ فاكثـر
شركات اعمال تجارية	٣٥٤	٢٥ر٨٣٢ر٨٥٨	١٢٢١	٣٠	٨٧	٥٥	١٥٣	٢٩
شركات نقل وسفر	٦٨	٧٦٠ر٥٣	٢٨٢	٢	٢١	١٦	٢٥	٤
شركات تعهدات	٢٠	١١ر٠٥١ر٥٥٠	٦٧	–	٤	٥	٧	٤
شركات طباعة ونشر	٣	٢ر٠٤٠	٦	٢	١	–	–	–
شركات فنادق	٢	١١ر٨٠٠	٦	–	١	–	١	–
شركات سينما	٥	١٢٣ر٥٠٠	٢٩	–	٢	–	٢	١
شركات تامين	٧	١٢ر٤٩٨ر١٦٥	٧٧	–	–	–	١	٦
شركات فحص حسابات	٤	٥ر٠٠٠	١١	٢	٢	–	–	–
شركات صناعية	٣٣	٢ر٥٥٩ر٩٠٠	١٦٨	١	٨	٧	١٠	٧
المجموع	٤٩٦	٥٢ر٨٥٥ر٣٤٢	١٨٧٧	٣٧	١٢٦	٨٣	١٩٩	٥١

كان اهم البنوك العاملة في البلاد بلا منازع هو البنك العثماني وهو بنك بريطاني ، قام بدور البنك الحكومي المركزي والبنك التجاري معا ولم يكن في البلاد بنك سواه قبل عام ١٩٢٥ ، والى جانبه فتحت فروع للبنوك الوطنية في فلسطين وهي البنك العربي وبنك الامة العربية في كل من عمان واربد (٢٣) وكان المصرف الزراعي برأسماله الصغير قد تأسس عام ١٩٢٢ ، يقدم القروض للفلاحين ، وخصصت له منذ عام ١٩٣٢ مبالغ سنوية (٣ر٥٠٠ جنيه فلسطيني) تدفع من خزانة المالية ، وكان يدير المصرف مجلس ضم وكلاء وزارات المالية والزراعة والداخلية وممثلين عن دائرة الاراضي وغرفة التجارة والمزارعين (٢٤) لكن دوره وتأثيره في حماية الفلاحين من المرابين والتجار كان محدودا (٢٥) ٠

وقد عمل في قطاع التجارة كما في قطاع المال والتأمين عدد من الشركات الاجنبية او فروعها ٠

---

(٢٢) راجع : النشرة الاحصائية الاردنية ، المصدر نفسه ، بيان ٨٥ ، ص ١٥٨ ٠

(٢٣) راجع الدجاني ، علي ، المصدر نفسه ، ص ٢٢ ٠ راجع أيضا كونيكوف ، المصدر نفسه ص ٦٣ ٠

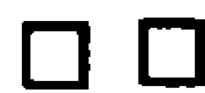
(٢٤) راجع ، المحافظة ، علي ، المصدر نفسه ، ص ١٢٥ ٠

(٢٥) راجع ، القسم الثالث من هذه الدراسة والمتعلقة بالاقتصاد التقليدي (الزراعة والرعي) ٠

٧ ـ المؤسسات التجارية الصغيرة

تحت تأثير التجارة الخارجية ، وبفضل الانفاق الداخلي المتزايد للدولة والجيش والمشاريع المرتبطة بالمصالح البريطانية الاستراتيجية والعسكرية ، ومع اتساع نطاق الفئات الاجتماعية المعتمدة على دخول نقدية ، تزايدت فرص نمو التبادل البضاعي الداخلي وازداد عدد مؤسسات التجارة المتوسطة والصغيرة ٠ وفي الواقع كانت المؤسسات التجارية الصغيرة ومحلات تجارة الجملة والمفرق وحوانيت البقالة هي اداة تجارة الاستيراد في غزو الريف والمدن الصغيرة ، وبفضلها اتسع نطاق السوق المحلي وزادت وتيرة ربط الاقتصاد التقليدي به ، وبالتبادل البضاعي النقدي ٠ وقد جذبت فرص نمو التجارة الداخلية والتبادل البضاعي الصغير مواطنين عربا جددا من فلسطين وسورية ، كما انخرط في هذا العمل ابناء الاقليات القومية والدينية ولا سيما ابان الحرب الثانية وبعدها ٠ وقد ساعدت نتائج الحرب الفلسطينية على اتساع نطاق التجارة الصغيرة في المدن ، حيث لم يكن هذا النمط من المؤسسات التجارية يحتاج الى رؤوس اموال او تجهيزات كبيرة ٠ ان الجدول رقم « ٤ » (في القسم الخاص بالصناعة والحرف) يظهر انه من بين ٥٦٩ر٥ مؤسسة ذات عمل يدوي (غير آلي) في البلاد (عام ١٩٥٠) كان ١٣٩١ مؤسسة منها تعمل في تجارة المفرق ، اي ٢٥٪ منها تقريبا ٠ بالاضافة الى ٢٧٧ مؤسسة تعمل في تجارة الجملة ، اي ٥٪ منها ، اما محلات البقالة فقد شكلت النسبة الاعظم من المؤسسات اليدوية ، اذ بلغ عدد البقاليات ٢٢٩٧ مؤسسة ، اي ٢ر٤١٪ منها ٠ ان الجدول المذكور يظهر نموا سافرا لاعتماد غالبية المؤسسات البضاعية الصغيرة والمتوسطة على التجارة الخارجية ، او الاستيراد بشكل رئيسي ٠ كما يظهر ان القسم الاعظم من الاقتصاد البضاعي في المدن هو اقتصاد غير منتج ، فهو قطاع التجارة الصغيرة اولا وقطاع خدماتي ثانيا ٠

ونظرا لان عمان كانت مركز النشاط التجاري والخدمات والدوائر الحكومية ، فقد حظيت بحصة الاسد من هذه المؤسسات والمحلات ٠ ففي قضاء العاصمة عمان كان ٥ر٤٥٪ من محلات تجارة المفرق و ٢ر٧٢٪ من مجموع مؤسسات تجارة الجملة و ٦ر٣٣٪ من البقاليات ٠



ويتضح اثر التجارة الخارجية على الاقتصاد المحلي للسكان ، من واقع ان الاردن كان اكثر بلدان المنطقة اعتمادا على السلع المستوردة ٠ وحتى في سنوات ما قبل الحرب ، اي ١٩٣٩/٢٧ حين كان المتوسط السنوي للمستوردات

هو ٠٠٠ر٢٠٠ر١ جنيه فلسطيني ، كان معدل الفرد الاردني من المستوردات يوازي حوالي ٤ جنيهات مقابل ٢ر٢ جنيه للفرد في مصر و ٨ر٢ دينار عراقي للفرد في العراق و ٣ ـ ٥ر٣ جنيه استرليني للفرد في لبنان وسورية و ١ر٤ جنيه للفرد العربي في فلسطين (٢٦) ، اي ان حصة الفرد في الاردن من المستوردات كانت اعلى مما هي حصة الفرد في غالبية اقطار المشرق العربي ٠ وقد ارتفعت هذه الحصة الى معدل يتراوح بين ٥ و ٥ر٦ جنيه فلسطيني للفرد الاردني في مطلع الاربعينات (٢٧) ٠

على انه ينبغي الاخذ بالاعتبار ان هذه الارقام تعتبر مضللة اذا لم يؤخذ الى جانبها واقع ضآلة حصة الفرد الواحد من العملة المتداولة وكانت توازي ٣ر١ جنيه فلسطيني لعام ١٩٣٩/٣٨ ، (٢٨) وكذلك انخفاض مستوى دخل الفرد الاردني حيث كان يوازي ٢ر١ جنيه لعام ١٩٣٥/٣٤ مقابل ٨ر٢ جنيه مصري للفرد في مصر و ٩ر٤ جنيه فلسطيني للفرد في فلسطين (٢٩) ٠ فمن هذه المعايير يتضح ان ارتفاع معدل حصة المستوردات عند الفرد الاردني يعود اساسا الى ارتفاع اعتماد قطاع الدولة والجيش والمشاريع الكولونيالية على الاستيراد ، كذلك القطاع المنتفع من العمل فيها او حولها في المدن ٠ كما يتضح انه حتى القطاع التقليدي من السكان ولا سيما الفلاحون قد اخذ يعتمد على الاستيراد في تأمين حاجاته بما يفوق دخله الحقيقي ، اي اعتمادا على الدين ، مما كان يضطر الفلاحين الى رهن اراضيهم ومن ثم فقدانها لصالح المرابين والتجار ٠

٢ ـ الادارة العامة والدفاع

١ ـ المساعدات المالية البريطانية ووجهتها

منذ شرع الامير عبد الله في تأسيس اول حكومة مركزية في شرق الاردن ، كانت المساعدة المالية البريطانية المصدر الاول لدخل الادارة ٠ وقد قررت هذه المساعدة المالية الخارجية ، باهدافها وبالشروط التي ارتبطت بها ، علنا وضمنا ، بوجوه صرفها ، ان انفاق الدولة سيتجاوز قدرات دخلها المحلي ٠ واعطت هذه المساعدة المالية الخارجية دورا مضخما للدولة يتجاوز

(٢٦) راجع هرشلاغ ، مصدر مذكور انفا ، ص ٣٤٤ ٠

(٢٧) راجع كونيكوف ، المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥ ٠

(٢٨) راجع هرشلاغ ، المصدر نفسه ، ص ٣٢٢ ٠

(٢٩) راجع المحافظة ، علي ، المصدر نفسه ، ص ١٣٧ ٠

الاحتياجات المتواضعة لبلد له شروط وظروف شرقي الاردن . ويتسم بدرجة متدنية من التطور الانتاجي · وهكذا اتسم دور الدولة في الاردن بتورم مرضي ، فهو قد اكتسب نموا متعاظما على الصعيد المحلي بفضل المهمة التي اضطلعت بها الدولة في المنطقة ، كاحدى ادوات حماية التقسيم الامبريالي . وتامين الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وكان دور الدولة الامني الداخلي ينطلق من اعتبار هذا الامن شرطا لحماية الامن الامبريالي للمنطقة ·

بات من المحتم ان تحدث المساعدة المالية الخارجية للدولة والجيش اختلالا متزايدا في التركيب الاقتصادي المحلي ، وان تترك بالتالي آثارا اجتماعية ضارة جدا ، فالمساعدة المالية البريطانية ، وهي تكتسب دورا مقررا اكثر فاكثر . اعطت الدولة والجيش مكانة اقتصادية متنامية . اذ جعلت منهما قطاعا موظفا للقوة العاملة ، واهم من ذلك ، جعلت من الدولة مركزا للنشاط والفعالية الاقتصادية ، فالتمويل الخارجي الذي صب في جهاز الادارة والجيش ، اعطاه القدرة الكافية على خلق قطاع خدمات محيط به ، وعلى تنشيط المشاريع والخدمات المرتبطة بمشاريع الدولة والمصالح الكولونيالية في البلاد · وكانت موارد الدولة الخارجية هي العامل الحاسم في تنمية الاقتصاد وفي خلق نواة اقتصاد سوقي مرتبط بالسوق العالمي ، وفي زيادة الطابع البضاعي للاقتصاد . وفي تنشيط العلاقات البضاعية والرأسمالية في البلاد . بالمقارنة مع نتائج التطور الفعلي للانتاج المحلي وانتقال الاقتصاديات المحلية من طابعها المعيشي ـ الطبيعي الى اقتصاد بضاعي ·

وفي ظل المصاعب التي عانى منها مختلف قطاعات الانتاج المادي في البلاد . فقد اكتسب قطاع الادارة العامة والدفاع (الجيش) دورا متعاظم الاهمية من الوجهة الاقتصادية المحلية ، ولم يلبث ان لعب هذا القطاع الدور المقرر والموجه لتطور الاقتصاد المحلي برمته ·

ازداد حجم الاعتماد على المساعدة المالية البريطانية ، اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ، اذ ازدادت حاجة السلطات الكولونيالية لرفع عدد القوات المحلية ولاقامة عدد من المشاريع الضرورية ، حتى ارتفعت حصة الانفاق العسكري في البلاد بالنسبة الى مجموع نفقات الدولة ، والى مجموع المعونة المالية البريطانية · فالانفاق على القوات العسكرية الذي كان يوازي ٢٨٪ من نفقات الدولة لعام ١٩٢٤ ، ارتفع ليصل الى ٣٦٪ عام ١٩٣٧/٣٦ ، ثم تضاعف ليصبح ٧٤٪ من نفقات الدولة العامة لعام ١٩٤٦/٤٥ (١) ·

---

(١) راجع المحافظة ، علي ، «العلاقات الاردنية ـ البريطانية» دار النهار (بيروت ، ١٩٧٣) ص ٩٨ ·

ورغم تحفظنا على مثل هذه المقارنات بالنظر الى ان الانفاق البريطاني على الجيش المحلي لم يكن يدخل ضمن النفقات العامـــة للدولـــــة حتى سنوات متاخرة ، الا انه لا يراودنا الشك في ان الجيش والاغراض العسكرية كانـت تحظى بحصة متزايدة ورئيسية من الموازنة ومن المساعدة المالية البريطانيـة سنة بعد اخرى (٢) ٠

اكثر من ذلك ، فان هناك اعتقادا سطحيا يرى ان الاردن كان بلدا ممولا من الكولونيالية البريطانية اكثر مما هو بلد مستنزف ، اي انه كان « يستفيد » من الدور الموكول الى الدولة من قبل الكولونيالية البريطانية ، غير ان هذا الاعتقاد ليس صحيحا ، اذا ما جرى التدقيق في اوجه الانفاق بالمقارنة مع المـــوارد المحلية والخارجية ، والواقع ان الوطنيين الاردنيين قد لاحظوا مبكرا ان الانفاق على الجيش وعلى الاغراض الكولونيالية كان يستنزف ليس فقط الحصــة العظمى من المعونة البريطانية ومن النفقات العامة للدولة ، بل ايضا حصـة تزيد او تقل من سنة الى اخرى من الواردات المحلية للدولة الممولة اساسا مـن التحصيلات الضريبية المباشرة وغير المباشرة ٠ اي ان المواطنين الاردنييـن كانوا يمولون جزءا من اعباء الجيش والنشاط الكولونيالي المعادي لهم والموظف في خدمة الامبريالية البريطانية ٠ وقد تركزت الاحتجاجات الحادة في وقـت من الاوقات على هذا الجانب في مراسلات زعماء الحركة الوطنية والمعتمـد البريطاني في عمان ، كما اشارت لها بيانات المؤتمرات الوطنية (٣) لدرجـة

(٢) راجع هرشلاغ ، مصدر مذكور انفا ، ص ٣٢١/٣٢٢ ٠

(٣) قال « بيان المؤتمر الاردني الاول » المنعقد في عمان ، في ٢٥ تموز ١٩٢٨ : «٠٠٠ وقد ضاعف النكبة نهج دار الاعتماد في السياسة المالية منهج تضخيم الميزانية بارهاق المكلف الاردني بالضرائب الفادحة لاعالة ضباط قوة الحدود والموظفين البريطانيين ودار الاعتماد وتشكيلات المراقبة المالية برواتب ومخصصات باهظة مع السعي بشتى الوسائل للاستغناء عن المساعدة المالية الانجليزية عن عاتق المكلف البريطاني على حســاب المكلف الاردني الفقير ، في الوقت الذي اصبحت فيه هذه الاعانة تنفق مع اضعاف اضعافها من خزانة البلاد على موظفين بريطانيين ومصالح بريطانية محضة ، بحيث قد اصبح بذلك على شرقي الاردن الضعيفة الغرم ولبريطانيا العظمى الغنم ، مما لم يسمع به قبلــــه في تاريـــخ الاستعمار الحديث ٠٠ »

كما اعلن الميثاق الوطني الذي اقره المؤتمر الاردني الاول عن رفض « شرق الاردن تحمل نفقات اي قوة احتلالية اجنبية وتعتبر كل مال يفرض عليها من هذا القبيل مالا مغتصبــا من عرق عاملها المسكين وفلاحها البائس » واضاف « ترى شرق الاردن مواردهـــا ، اذا منحت حق الخيار بتنظيم حكومتها المدنية ، كافية لقيام ادارة دستورية صالحة فيها ٠ اما الاعانة المالية التي تدفعها الحكومة البريطانية فان بلاد شرق الاردن تعتبرها نفقـات

←

القول ان حجم الانفاق على الجيش ونفقات المعتمد البريطاني كانت تزيد على قيمة المعونات المالية البريطانية المقدمة للحكومة الاردنية (٤) ٠ وكان هذا الى جانب اسباب اخرى ، موضوع سخط المواطنين واحد حوافز نقمتهم ودافعا من دوافع النضال ضد السيطرة البريطانية ٠

ومن نافل القول الاشارة الى ان تزايد الاعتماد على الدعم المالي البريطاني ، كان يترافق مع تزايد الخضوع للاشراف الكولونيالي البريطاني ، ماليا واداريا وعسكريا على الدولة والجيش ، من قبل رجال الكولونيالية البريطانية ومن عملائها وموظفيها المحترفين (٥) ٠

ان الجدول رقم «١» يظهر ارتفاع نسبة مساهمة المساعدة البريطانية المالية الى مجموع موارد الموازنة العامة من ٧ر٢٧٪ للعام ١٩٢٥/٢٤ الى ٣ر٧٥٪ عام ١٩٤٤/٤٣ ٠

اما عام ١٩٤٥/٤٤ ، حين بلغت مجموع الواردات الحكومية ٣٥٥ر١١٧ر٣ جنيها ، فقد كانت المساعدة البريطانية المالية ٣٩٠ر٤٠٣ر٢ جنيه ، اي ثلث ١ر٧٧٪ من الواردات الحكومية وكذلك هو الحال في العام التالي ١٩٤٦/٤٥ ، حيث كانت توازي ٣٢٠ر١١٨ر٢ جنيها منها ٠٤٣ر٢٨٥ر٢ مساعدة مالية بريطانية ، او ما نسبته ٣ر٧٣٪ من واردات الموازنة الاردنية (٦) ٠



ضرورية لخطوط المواصلات الامبراطورية وللقوى العسكرية المعدة لخدمه مصالح البريطانية ليس الا ، لذلك فان هذه الاعانة التي تضاف اليها اليوم قسم من واردات البلاد تحقيق غايات لا مصلحة لشرقي الاردن فيها ، كما هو الواقع ، لا تخول بريطانيا العظمى حق الاشراف على مالية شرق الاردن ، هذا الاشراف المركزي الضار الواقع اليوم ، ولهذا فاننا نعتبر الوضع المالي الحاضر المبني على سياسة تخفيف الاعانة المالية على عاتق المكلف البريطاني على حساب المكلف الاردني عبارة عن وضع ضار غير مشروع لاتتحمله موارد البلاد ، ومن الواجب ابطاله واستبداله بنظام يؤيد استقلال حكومة شرقي الاردن المالي ، مقررين ان التصرف المالي الحاضر لايجوز صدوره عن حليفة غنية كبريطانيا بالنسبة لبلد فقير كشرقي الاردن ٠٠٠ »

راجع : « ماذا ترك الامير للاساطير » (١٩٣٨) صادر عن مكتب الدعاية والنشر للقضية الاردنية » ص ٥٥/٥٦ ، وص ١٢٩/١٣٠ ٠ راجع ايضا الماضي وموسى ، تاريخ الاردن في القرن العشرين » مصدر مذكور انفا ، رسالة رئيس المؤتمر الوطني للمعتمد البريطاني في عمان ، ص ٢٩٧/٢٩٩ ٠

(٤) راجع المحافظة ، علي ، العلاقات الاردنية البريطانية ، ص ٩٢ ٠

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥١/٥٣ ، كذلك الماضي وموسى ، ص ٢٦٣/٢٦٦ ٠

(٦) المحافظة ، المصدر السابق ، ص ٩٤ ٠

جدول رقم (١)

ملخص واردات ونفقات الحكومة الاردنية بالدنانير الفلسطينية (١٩٢٤ـ١٩٤٤)

	الواردات			النفقات		
السنة	الواردات المحلية	الدعم المالي الخارجي	المجموع	الانفاق العادي	غير العادي	المجموع
٢٤/٢٥ الى ١٩٣٤/٣٣	٢٣٢ر٢٥٠	٨٩ر٠٧٩	٣٢١ر٣٢٩	٣٠٠ر٢٨٦	٢٠ر٨٣٤	٣٢١ر١٢٠
١٩٣٥/٣٤	٢٧٦ر٢٥٨	١٠١ر٢٥٩	٣٧٧ر٥١٧	٣٢٨ر٤٢٥	٤٠ر٩٧٠	٣٦٩ر٣٩٥
١٩٣٦/٣٥	٣١٣ر٨٤٧	٨١ر٧٨٣	٣٩٥ر٦٣٠	٣٤٣ر٨٠٩	٣٧ر٤٩١	٣٨١ر٣٠٠
١٩٣٧/٣٦	٢٨٨ر١٤٠	١٣٠ر٥١٠	٤١٨ر٦٥٠	٣٥٧ر٤٣٠	٧٧ر٦١٠	٤٣٥ر٠٤٠
١٩٣٨/٣٧	٣٥٨ر١٦٠	١٠٠ر٩٩٠	٤٥٩ر١٥٠	٣٦٥ر٢٨٤	٩٧ر٤٢٦	٤٦٢ر٧١٠
١٩٣٩/٣٨	٣٣٩ر٣٣٢	٤٠٤ر٠٠٥	٧٤٣ر٣٣٧	٤٤١ر١٣٨	٣٣٤ر٢٩٦	٧٧٥ر٤٣٤
١٩٤٠/٣٩	٣٧٨ر٨٤٠	٤٦٥ر٢٠١	٨٤٤ر٠٤١	٥١٨ر٦٨٩	٣٤٧ر٦٣٦	٨٦٦ر٣٢٥
١٩٤١/٤٠	٣٨٩ر٤٥٥	٨٠٩ر٢١٤	١ر١٩٨ر٦٦٩	٥٨١ر٥١٧	٦٤٥ر٧٦٠	١ر٢٢٧ر٢٧٧
١٩٤٢/٤١	٤٣٣ر٤٤٧	٨٥٠ر٣٣٣	١ر٢٨٣ر٧٨٠	٨٦٣ر١١٣	٦٨٣ر٢٠١	١ر٣٤٦ر٣١٤
١٩٤٣/٤٢	٤٤٧ر٧١٩	١ر٢٤٥ر٠١٣	١ر٦٩٢ر٧٣٢	١ر٢٤٣ر٥٤٨	٤٩١ر٩٩٠	١ر٧٣٥ر٥٣٨
١٩٤٤/٤٣	٦٤٥ر٦٣٣	١ر٩٦٧ر٣٢٤	١ر٦١٢ر٩٥٧	٢ر٢٢١ر٠٧٩	٣٩٨ر٦٧٨	٢ر٦١٩ر٧٥٧

٢ ـ الواردات المحلية ومصادرها

اعتمدت موارد الحكومة المحلية على الضرائب والجمارك والمكوس والرسوم وعائدات البريد والبرق ، وعلى مدخولات متنوعة اخرى · وكانت عائدات الرخص والضرائب المباشرة (ضريبة الارض والمواشي ، الابنية والاراضي وضريبة الدخل) المصدر الاول والرئيسي لدخل الحكومة المحلي في العشرينات والنصف الاول من الثلاثينات · وبالارقام كانت هذه توازي متوسطا سنويا مقداره ١٢٠ر٠٢٤ جنيه فلسطيني من مجموع الواردات المحلية البالغة في متوسطها السنوي ٢٣٢ر٢٥٠ جنيها بين الاعوام ٢٤/١٩٢٥ و ٣٣/١٩٣٤ ، اي ما نسبته ٥١ر٦٪ (٧) ·

بعد ذلك ظهر تطور حثيث في حصة مساهمة الضرائب غير المباشرة ، اي الجمارك والمكوس من متوسط قدره ٦٧ر٩٢٢ جنيه فلسطيني في سنوات ٢٤/١٩٢٥ و ٣٣/١٩٣٤ الى ٢١٧ر٢١٣ جنيه لعام ٤٣/١٩٤٤ (٨) ، اي انها زادت بنسبة ٣١٩٪ · ويلاحظ ان مساهمة الضرائب غير المباشرة زادت عن

(7) Konikoff , op. cit., p. 95.
(6) Konikoff , op. cit., p. 95 .
(8) Ibid, p. 95.

مجموع واردات الضرائب المباشرة وعائدات رخص المهن والصناعات ٠

ان الزيادة المرتفعة لحصة الواردات من الضرائب غير المباشرة قد عكست واقعتين ملموستين في التطور الاقتصادي للبلاد ، اولهما ازدياد حجم التجارة وخاصة المستوردات من السوق العربي والعالمي وازدياد الاعتماد على الخارج ، وثانيتهما ، الاتجاه المتزايد في النظام الضريبي لتحميل المواطنين اصحاب الدخول الدنيا والمتوسطة قسما اكبر فاكبر من اعباء الادارة ٠ لقد ارتفعت واردات الجمارك والمكوس في نهاية الاربعينات على النحو التالي : ٣٤٥ر١٠٠١ر١ جنيه عام ١٩٤٦ ، ٦٠١ر٩١٩ر٠ جنيه عام ١٩٤٧ و ٢٧٦ر٤٩٢ر١ عام ١٩٤٨ (٩) ٠

ان الرسم البياني التالي يعبر بوضوح عن تطور واردات الدولة من الجمارك والمكوس بوتيرة عالية خلال الاعوام ١٩٣١/١٩٤٨ ٠

وفي المكانة الثالثة ، بعد الجمارك والمكوس ، وبعد الضرائب المباشرة وعائدات الرخص ، كان دخل الدولة من رسوم الادارة وذلك بالنسبة لواردات الدولة المحلية ٠ وقد ازدادت واردات رسوم الادارة من ١١٧ر٢٣ جنيه كمتوسط سنوي بين ٢٤/١٩٢٥ و ٣٣/١٩٣٤ الى ٧٧١ر٩٦ عام ٤٣/١٩٤٤ ، ثم تلتها واردات المدخولات المتنوعة ، ثم اخيرا واردات البريد والتلغراف (انظر الجدول رقم (٢) ٠

جدول رقم (٢)

توزيع الواردات المحلية حسب مصادرها الرئيسية بالجنيهات الفلسطينية

السنة	الجمارك والمكوس	الرخص والضرائب	الرسوم	البريد والتلغراف	تحصيلات متنوعة	المجموع
من ١٩٢٥/٢٤ من ١٩٣٤/٣٣	٦٧ر٩٢٢	١٢٠ر٠٢	٢٣ر١١٧	١٠ر٢٢٢	١٠ر٩٦٥	٢٣٢ر٢٥٠
١٩٣٥/٣٤	٩٨ر٦٢٧	١١٣ر٠٥٧	٣٢ر٨١٢	١٢ر٩٨٢	١٨ر٧٨٠	٢٧٦ر٢٥٨
١٩٤٠/٣٩	١٤١ر٥٠٠	١٤٨ر٨٠٠	٤٩ر٨٠٠	١٩ر٤٣٠	١٩ر٣١٠	٣٧٨ر٨٤٠
١٩٤٤/٤٣	٢٢١٧ر٨٥٨	٢١٣ر١١٠	٩٦ر٧٧١	٣٠ر١١٩	٨٧ر٧٧٥	٦٤٥ر٦٣٣

Konikoff , op. cit., p. 96.

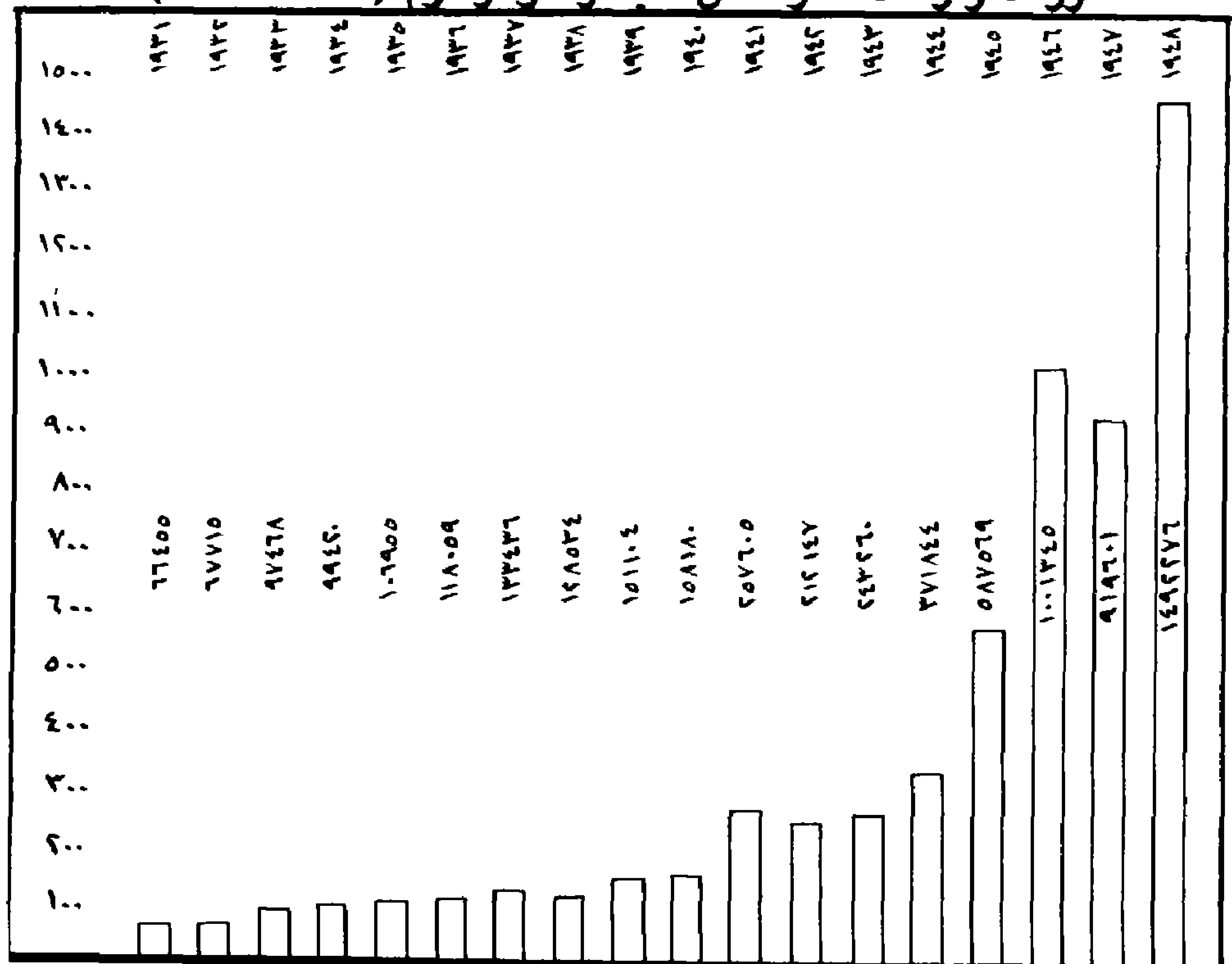
لقد تضاعفت الموارد المحلية لموازنة الحكومة منذ منتصف العشرينات وحتى منتصف الاربعينات حوالي ثلاث مرات ، وكانت الضرائب غير المباشرة هي المساهم الاساسي في ارتفاع الواردات المحلية للموازنة ٠ وكانت عائدات

---

(9) Commercial Conditions in Trans Jordan , op. cit , p. 42.

الرخص وبضعة مدخولات مالية اخرى ، بالاضافة الى الجمارك والمكوس تلقي بالعبء الضريبي على عاتق اصحاب الدخول المتواضعة والمتوسطة اساسا ، سواء في المدن او الريف • فيما كانت الاعباء الضريبية على الفئات العليا من المجتمع ضئيلة جدا • وعلى سبيل المثال لم تكن هناك اية ضريبة على الدخل حتى عام ١٩٣٣ ، وعندما وضعت هذه الضريبة حلت محل ضريبة التمتع العثمانية ، وكانت مقتصرة على الموظفين الحكوميين بنسبة تتراوح بين ٥ر١٪ و ٣٪ مع اعفاء ٦٠ جنيها من الدخل السنوي من الضريبة (١٠) • ولم تزد موارد ضريبة الدخل لعام ١٩٣٨/٣٧ عن خمسة آلاف جنيه فلسطيني فقط ! (١١)• كما لم تزد مساهمة هذه الضريبة عن ١٪ من ايرادات الدولة المحلية في نهاية الثلاثينات (١٢) ، وظلت مساهمة هذه الضريبة تافهة حتى عام ١٩٤٤ ، كما سنبين •

تطورات واردات الدولة من الجمارك والرسوم (١٩٣١ـ١٩٤٨)



Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948 , Graph k, p. 42.

---

(١٠) المحافظة ، علي ، « الحياة الاقتصادية في عهود الامارة » مجلة التنمية ، مصدر مذكور انفا ص ٢٢ او راجع « تاريخ الاردن المعاصر » لنفس المؤلف ، ص ١٣٥ •

(١١) المصدر الاخير نفسه،ص ١٣٥.راجع ايضا،الدجاني،علي،مصدر مذكور انفا ، ص ١٦.

(١٢) راجع هرشلاغ • المصدر نفسه • ص ٣٢٢ •

النظام الضريبي في الاردن

بقي النظام الضريبي متخلفا جدا في الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى ، ويقول علي الدجاني ان جل ما يمكن تسجيله عن هذه الفترة ان الضرائب حولت من القروش التركية الى النقد المصري ثم الى النقد السوري ، وقد اضطرت الحكومة الاردنية الى قبول التراث المالي العقيم ، وكان اول ما فعلته هو الغاء طريقة تلزيم الاعشار بالمزاد العلني (١٣) · وعموما ظلت الجباية تعتمد على القوانين العثمانية حتى عام ١٩٣٢ (١٤) لكن تاثيرها بقي قويا في التشريعات الضريبية الجديدة بعد ذلك ، وغالبا ما جاءت لصالح ملاكي الاراضي والاغنياء والزعامات العشيرية وكبار موظفي الدولة وكبار التجار · وحتى في الحالات التي يفترض فيها بهذه الفئات ان تتحمل بعض الاعباء الضريبية ، كانت تملك كل الامكانات والوسائل للتهرب منها ، وقلما كانت الحكومة جادة في تحصيل الضرائب من الفئات الاجتماعية العليا او تصدر اعفاءات من الضرائب كوسيلة لرشوة زعماء العشائر وكبار الملاك (١٥) ·

وكانت الضرائب المباشرة تتألف من الضرائب التالية :

١ ـ ضريبة الاراضي ·

وقد فرضت هذه الضريبة عام ١٩٣٣ ، وحلت محل ضرائب الويركو والعشر وضريبة الطرق · وتحسب على اساس الدخل الزراعي · وقد تراوح مردود هذه الضريبة تبعا للمحصول او الناتج الزراعي الذي كان يتأثر بالمناخ والامطار ، حيث كانت الحكومة تضطر لتأجيل تحصيلها او تخفيضها او شطبها بقرار من مجلس الوزراء (١٦) ·

٢ ـ ضريبة الابنية والاراضي ضمن مناطق البلديات ·

وقد حلت محل ضريبة المسقفات ، بموجب قانون صدر عام ١٩٢٥ ، وعدل بعد ذلك عدة مرات · وكانت الضريبة تتقاضى ٨٪ من الريع المقدر للابنية

---

(١٣) راجع الدجاني ، علي ، المصدر نفسه ، ص ٧ ·

(١٤) المحافظة ، علي ، « تاريخ الاردن المعاصر » ، ص ١٣٤ ·

(١٥) بينا ذلك في نهاية القسم الثالث من هذه الدراسة ، ولا سيما في القسم المتعلق بالمسالة الزراعية ·

(١٦) راجع الدجاني ، علي ، المصدر نفسه ، ص ١٥ ·

والاراضي المعدة للايجار ، و ٦٪ من الريع المقدر للبناء اذا ما اتخذ جزء منه مسكنا لصاحبه والآخر اعد للايجار ، و ٤٪ من الريع المقدر اذا كان البناء معدا لسكن صاحبه · وقد استثنيت من الضريبة المعامل والمصانع المشتملة على الات انتاجية لمدة ثلاث سنوات والابنية التي تقام لسكن افراد القبائل الرحل لمدة ست سنوات (١٧)

٣ ـ ضريبة المواشي ·

وتجبى هذه الضريبة من اصحاب المواشي بحسب عدد رؤوسها اثر كل تعداد سنوي (١٨) ·

٤ ـ ضريبة الدخل ·

وقد فرضت عام ١٩٣٣ ، كما اشرنا سابقا ، على اصحاب الرواتب من موظفين ومستخدمين، وذلك حتى عام ١٩٤٤ حين بدء فرضها على جميع المكلفين · ويشير شكري شعشاعة رئيس ديوان المحاسبة الى « ان الحكومة لاحظت ما يعترض تقدير الارباح من المشاكل والصعوبات وما يتطلبه هذا الاجراء من مصاعب جمة ، خصوصا وان حسابات التجار لا تجري الا في النادر على وجه يصح الاعتماد عليه في تقدير الدخل ولذلك عدل عن فرض الضريبة على اساس الدخل ، وقسم التجار وارباب الحرف والمهن الى صنوف ثم حدد لكل صنف منها مبلغ مقطوع جرى تقديره بعد الاستقصاء والدرس » (١٩) ·

وفي حين بلغت حصيلة ضريبة الدخل عام ١٩٣٨/٣٧ ٥٫٠٠٠ جنيه حين كانت تقتصر على الموظفين ، باتت توازي عام ١٩٤٨/٤٧ ١٩٦٫٠٠٠ جنيه ·

٥ ـ ضريبة رخص الصناعات والمهن ·

وقد فرضت على التجار واصحاب المهن والحرف وسائر الصناعات عام ١٩٤٣ ، وقد بلغت حصيلتها عام ١٩٣٨/٣٧ حوالي ٤٫٦٠٠ جنيه ، ارتفعت الى ١٧٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٨/٤٧ (٢٠) ·

---

(١٧) المصدر نفسه ، ص ١٥ ، اشارة الى مذكرة شكري شعشاعة رئيس ديوان المحاسبة الاردني ·

(١٨) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ·

(١٩) المصدر نفسه ، ص ١٦ ·

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٦ ·

اما الضرائب غير المباشرة فقد كانت تشمل الجمارك والمكوس ورسوم الطوابع ٠

ويصنف علي الدجاني الدور الذي لعبته رسوم الجمارك والمكوس بالدور الخطير في حياة الاردن المالية ، اذ دأبت الحكومة على زيادتها كلما شعرت بحاجتها للمال ، فهي ايسر السبل منالا ، واقربها وصولا ، ولم تكن تسير وفق اي منهج اقتصادي ، ولكنها كانت ذات اثر كبير في حياة السكان الاقتصادية في فترة من الزمن ، مما سبب تشجيع اعادة التصدير والصادرات غير المسجلة » (التهريب) (٢١) ٠

وقد بلغت رسوم الجمارك والمكوس في السنة المالية ١٩٣٨/٣٧ ـ ١٢٧ الف جنيه ، وكانت تشكل ١٥٪ من مجموع الواردات العامة ٠ وبلغت عام ١٩٤٨/٤٧ ٩٢٩ الف دينار ، اي ١٩٪ من مجموع الواردات و ٣٣٪ من الواردات العادية (المحلية) (٢٢) في حين ارتفعت حصيلة الضرائب المباشرة من ٢٠٠ الف دينار عام ١٩٣٨/٣٧ الى ٦٩٢ الف دينار عام ١٩٤٨/٤٧ وفي العام الاخير كانت الضرائب المباشرة تؤلف ٢٥٪ من الواردات العادية (المحلية) و ١٥٪ من مجموع الواردات (٢٣) ٠

وقد فرضت الحكومة عام ١٩٤٤ ضريبة الزكاة على جميع المسلمين اعتبارا من اول نيسان ١٩٤٥ (٢٤) الى جانب غيرها من الضرائب والرسوم العشوائية ٠

٣ ـ الانفاق الحكومي ووجهته

تظهر دراسة الانفاق الحكومي ووجهته ، الى اي مدى كانت السيطرة البريطانية وهيمنتها على السلطة بالاشتراك مع القوى الرجعية ضارة ليس فقط على مستوى التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي في البلاد فحسب ، وانما على مستوى الخدمات الضرورية جدا في ميادين الزراعة والتعليم والصحة العامة وغيرها ٠ فقد كانت حصة هذه من نفقات الدولة ضئيلة جدا ، بالنسبة للحصة التي استأثر بها الجيش والامن العام والادارة المركزية من النفقات ٠

---

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٧ ٠

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٧ ٠

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٧

(٢٤) راجع المحافظة ، علي ، تاريخ الاردن المعاصر ، ص ١٣٦ ٠

في الفترة بين الحربين العالميتين ، كان حوالي ٦٠ ـ ٦٥٪ من ايرادات الدولة تنفق على شؤون الجيش والدفاع ٠ وكان ٢٠٪ من الايرادات العامة تنفق على الادارة ٠ فيما كان الانفاق على الزراعة والري والتعليم والصحة وغيرها تتراوح بين ١٥ و٢٠٪ من واردات الدولة فقط ٠ ويعلق هرشلاغ على توزيع النفقات على النحو السالف بقوله : « لم يكن اكثر من عشر انفاق الميزانية يوجه الى نشاطات بناءة في الزراعة والتعليم والصحة ، فيما يبتلع الدفاع والادارة البقية ٠٠ » ويضيف بصدد غياب الدولة الاقتصادي البناء : « لم تبذل مطلقا أي محاولة للتصنيع او لتحديث الزراعة وتكثيفها ٠٠» (٢٥) ٠

بعد الحرب العالمية الثانية لم يحدث اي تحول في توزيع النفقات وفي وجهتها، فعلى الرغم من ان اجمالي الانفاق العام قد تضاعف عدة مرات عن فترة ما قبل الحرب ، فقد ظل الدفاع والامن يستأثران بالحصة الابرز في النفقات ٠ ارتفع الانفاق العسكري والامني من ١٤١ر٦٤٥ جنيه لعام ٣٤/١٩٣٥ الى ١ر٨٦٩ر٦٤٨ عام ٤٣/١٩٤٤ اي بزيادة تبلغ ١٣٢٠٪ خلال عقد واحد من السنوات (انظر الجدول رقم « ٣ ») ٠

اما نفقات الادارة المركزية والمالية فقد شهدت ارتفاعا من ٨٤ر٠٦٤ جنيه لعام ٣٤/١٩٣٥ الى ١٥٧ر٢٥٢ جنيه لعام ٤٣/١٩٤٤ اي مقدار ١٨٧٪ ٠ وزاد الانفاق على البريد والتلغراف والاشغال العامة من ٥٠ر٤٠٤ جنيه الى ١١٤ر٢٥٩ في الفترة نفسها ٠ نظرا لازدياد احتياج السلطات والقوات البريطانية لتسهيلات جديدة وبخاصة شق الطرق كطريق حيفا ـ بغداد ، وازدياد الانفاق على الانشاءات العسكرية التي كانت تمول بعض اوجهها من الموازنة العامة الاردنية ، وخاصة اثناء الحرب ٠

مقابل كل هذا ، ظل تطور نفقات الزراعة والري في الفترة نفسها بالغ الضعف، من ٢٠ر٩٤٩ عام ٣٤/١٩٣٥ الى ٥٧ر٧٥٥ جنيه عام ٤٣/١٩٤٤ ، وكذلك الحال مع التعليم والصحة العامة التي كانت حصتهما لعام ٣٤/١٩٣٥ من الانفاق العام توازي ٣٦ر٢٣٨ جنيه وزادت الى ٩٤ر٣٥٨ جنيه بعد عشر سنوات (٤٣/١٩٤٤) ٠ ان مقارنة تطور حصص هذه القطاعات الى مجموع النفقات العامة بين فترة ما قبل الحرب وما بعدها تظهر تراجعا ملموسا في حصص قطاعات الزراعة والري والتعليم والصحة خلال فترة الحرب وبعدها ٠

ان توزيع النفقات العامة على النحو السالف ، حرم المواطنين من ابسط اشكال الخدمة العامة ، واثر على تطور قطاعات الانتاج الاساسية ، وعلى

---

(٢٥) هرشلاغ ، المصدر السالف الذكر ، ص ٣١٠ ٠

مستوى المعيشة وعلى مستوى الخدمات الصحية والتعليمية ، في الوقت الذي كان الثقل الاساسي للواردات المحلية ملقى على عاتق غالبية المواطنين من ذوي الدخل المحدود والمتوسط · وكانت وجهات الانفاق غير الانمائية تعكس الوجه الاخر لانعدام التوازن والعدالة التي ميزت السياسة الضريبية واعباء تمويل موارد الموازنة الحكومية في البلاد ·

جدول رقم (٣)

توزيع النفقات الحكومية حسب بنودها الرئيسية بالجنيهات الفلسطينية

السنة	الامارة والمالية	البوليس والدفاع	البريد ـ التلغراف والاشغال العامة	الزراعة والري	التعليم والصحة العامة	نفقات متنوعة
من ١٩٢٥/٢٤ وحتى ١٩٣٤/٣٣	٨١٫٦٧٢	١٢٨٫٥٥٥	٣٩٫٢٣٦	١٣٫٠٤٠	١٩٫٧٤٧	٢٨٫٧٨٠
١٩٣٥/٣٤	٨٣٫٠٦٤	١٤١٫٦١٥	٥٠٫٤٠٤	٢٠٫٠٤٥	٣٦٫٣٣٨	٣٦٫٠٢٥
١٩٤٠/٣٩	١١٩٫٧٩٠	٢٧٤٫٤٧٧	٣٠٥٫٧٩٣	٥٢٫٧٩١	٤٨٫٦١٩	٦٤٫٨٥٠
١٩٤٤/٤٣	١٥٧٫٢٥٢	١٫٨٦٩٫٦٤٨	١١٤٫٢٥٩	٥٧٫٧٥٥	٩٤٫٣٥٨	٣٢٦٫٤٨٥

Konikoff , p. 97.

الخدمات (الاساس الاجتماعي والاساس الاقتصادي)

ان العرض السريع التالي لمساهمة الدولة في الخدمات الاساسية (الاجتماعية والاقتصادية) ، تظهر تدنيها الفادح ، كما يبين ان نموها كان مرهونا بدرجة رئيسية ، بمدى ما تقدمه هذه الخدمات من تسهيلات للمصالح الكولونيالية ، ولا سيما فيما يتعلق بالمواصلات والبناء التحتي الاساسي ·

اولا : التعليم :

نظرا لضعف الانفاق العام على التعليم ، فقـــد كانت الخدمات التعليمية الخاصة اكبر اتساعا من التعليم الحكومي · ففي عام ١٩٣٥/٣٤ كان في البلاد ١١٦ مدرسة غير حكومية مقابل ٦٥ مدرسة حكومية ، وكانت هذه تستوعب ٢٠٠ معلم من مجموع ٣٥٢ معلما في البلاد . ورغم ذلك فقد كان طلبة المدارس الخاصة يشكلون حوالي نصف الطلبة . اي ٥٫٣٠٩ طالبـــا وطالبة من مجموع ١١٫٢٢٦ طالبا . وطالبة في نفس العام (انظر الجدول رقم «٤») ·

ضعف الخدمات التعليمية الحكومية هذا ، اعطى التعليم في البلاد طابعا فئويا ، شمل ابناء القلة من الفئات الاجتماعية العليا في المدن والبلدات الرئيسية ۰ فيما غالبية السكان محرومة من فرص تعليم ابنائها ۰ وقد لعبت المدارس الخاصة الارسالية والدينية والاهلية دورا رئيسيا مبكرا في تقديم الخدمات التعليمية مع غياب الدولة او قصورها ۰

مع ازدياد عدد طلبة المدارس الحكومية خلال سنوات الحرب وبعدها ، فان المدارس لم تزد بالوتيرة نفسها ، بل عادت في منتصف الاربعينات الى نفس عددها تقريبا في اول سنوات الحرب الثانية ۰ اما عدد المعلمين فقد ازداد ببطء شديد ۰ وهكذا كان عدد المدارس الحكومية لعام ١٩٤٤/٤٣ ٦٩ مدرسة ، وعدد المعلمين ١٨٨ ، فيما كان عدد الطلبة الحكوميين ٩٫٦٠٧ طالبا وطالبة لنفس العام ۰

اما في المدارس الخاصة فقد ظل عدد طلابها يراوح مكانه تقريبا ، مع شيء من الصعود في السنوات ١٩٣٥/٣٤ و١٩٤١/٤٠ ثم هبوط في السنوات ١٩٤١/٤٠ ، وبقي عدد المدارس يراوح في مكانه حتى ١٩٤١/٤٠ ، ثم هبط بقوة فيما بعد ۰ ويمكن قول الشيء نفسه عن عدد المعلمين ۰

جدول رقم « ٤ »

تطور التعليم في سنوات مختلفة بين ١٩٣٤ و١٩٤٤

السنة الدراسية	المدارس الحكومية			المدارس غير الحكومية			مجموع الطلبة
	المدارس	المعلمون	الطلبة	المدارس	المعلمون	الطلبة	
١٩٣٥/٣٤	٦٥	١٥٣	٥٫٩١٧	١١٦	٢٠٠	٥٫٣٠٩	١١٫٢٢٦
١٩٣٩/٣٨	٧٤	١٨١	٨٫٥١٢	١١٧	٢١٩	٥٫٣٤٢	١٣٫٨٥٤
١٩٤١/٤٠	٧٤	١٨٤	١٠٫١٥٠	١١٦	٢١٨	٦٫٦٠٥	١٦٫٧٥٥
١٩٤٤/٤٣	٦٩	١٨٨	٩٫٦٠٧	٨٦	١٧٣	٥٫٥٩٤	١٥٫٢٠١

Konikoff , p. 119.

بالارقام ، كان عدد المدارس الخاصة (غير الحكومية) لعام ١٩٤٤/٤٣ : ٨٦ مدرسة ، وعدد المعلمين ١٤٣ معلما يقدمون خدماتهم لـ ٥٫٥٩٤ طالبا وطالبة ۰

بالاضافة الى طابعه الفئوي الاجتماعي الذي يحرم عددا كبيرا من السكان الذين هم في سن الدراسة ، وتمركز الخدمات التعليمية في المدن الرئيسية ، فقد اتسم التعليم باتساعه النسبي لدى المسيحيين العرب لوجود مدارس ارسالية

واهلية دينية ، ولدى الفئات القومية بشكل اضيق مثل الشيشـــــان والشركس والبهائيين والارمن والدروز (٢٦) · فيما اتسم التعليم لدى المسلمين بمحدوديته لضعف الخدمات الحكومية في هذا المجال ، فعلى الرغم من ازدياد الاقبال على التعليم الحكومي الذي اقتصر على التعليـــــم الابتدائي ، فان نسبة القبول في المدارس الحكومية في منتصف الاربعينات لم تزد عن ٥٠٪ من عدد المتقدمين للتعليم العام · اما فيما بين صفوف البدو ، فقد كان التعليم ضعيفا للغاية ، ففي عام ١٩٣٥ كان عدد الطلاب من ابناء البدو يتراوح بين ٤٠ و٦٠ طالبا ، كان معظمهم من ابناء الشيوخ (٢٧) ·

كان تعليم الاناث ضعيفا بوجه عام في البلاد ، الا انه افضل حالا عنــد المسيحيين وفي المدارس غير الحكوميـــة · ففي المدارس الحكومية كان عدد الطالبات الى الطلاب : ١ر٢٩٧ طالبة مقابل ٥ر٣٠١ طالبا اي حوالي ١ر١٩٪ من المجموع العام · في حين انه لدى المسيحيين في المدارس الحكومية كان يوازي ٢٥٠ طالبة مقابل ٥٦٠ طالبا · وذلك لعام ١٩٣٨/٣٧ ، اي ان الطالبات كن يشكلن ٢ر٣٥٪ من مجموع الطلبة المسيحيين في المدارس الحكومية (انظر الجدول رقم « ٥ ») ·

اما في المدارس غير الحكومية ، فقد كان عدد الطالبات المسلمات الى الطلاب المسلمين يوازي ٢٠٠ طالبة مقابل ١ر٩٧٩ طالبا · اي ٢ر٩٪ من مجموع الطلبة المسلمين في المدارس الخاصة لعام ١٩٣٨/٣٧ · في حين كان عدد الطالبات المسيحيات الى الطلاب المسيحيين يوازي ١ر٥٠٠ طالبة مقابل ١ر٨٤١ طالبا او ما نسبته ٨ر٤٤٪ من مجموع الطلاب والطالبات المسيحيين لعام ١٩٣٨/٣٧ ·

جدول رقم « ٥ »
تطور عدد الطلبة وفقا للجنس والدين (١٩٤٤/٣٧)

السنة الدراسية	المدارس الحكومية				المدارس غير الحكومية			
	المسلمون		· المسيحيون		المسلمون		المسيحيون	
	ذكور	اناث	ذكور	انـاث	ذكور	اناث	ذكور	انـاث
١٩٣٨/٣٧	٥ر٣٠١	١ر٢٩٧	٥٦٠	٢٥٠	١ر٩٧٩	٢٠٠	١ر٨٤٧	١ر٥٠٠
١٩٤١/٤٠	٧ر٤٥١	١ر٥٩٢	٨٠٤	٣٠٣	١ر٧٧٢	٣١٤	٢ر٣٨٣	٢ر١٣٦
١٩٤٤/٤٣	٦ر٨١١	١ر٦١٧	٨٣٩	٢٤٠	١ر٤٩٢	٢٦٨	٢ر١٠١	١ر٧٣٣

Konikoff , p. 119.

---

(26) Konikoff , op. cit, p. 25.

(27) Ibid. p. 26.

بشكل عام كان عدد الطالبات في جميع مدارس البلاد يوازي ٣٫٨٥٨ طالبة مقابل ١١٫٣٤٣ طالبا اي مانسبته ٢٥٫٤٪ من مجموع الطلبة في شرقي الاردن وذلك لعام ١٩٤٤/٤٣ في حين ان نسبة الطالبات الى مجموع الطلبة لعـــام ١٩٣٨/٣٧ كانت لا تزيد عن ٢٥٫١٪ ٠

وكما سبق ان اشرنا ، كانت اغلب المدارس الحكومية مدارس ابتدائية ، واقتصرت الدراسة الثانوية على مدرسة السلط ومدرسة اربد التجهيزية ، ولم تدم الاخيرة طويلا اذ الغي منها الصفان الثانويان الاخيران عام ١٩٣٢ (٢٨) بقيت مدرسة متوسطة ٠ كما بدأ اول امتحان للثانوية العامة Matriculation عام ١٩٣٥ وذلك في عمان ٠ اما المعلمون فقد كان اغلبهم من مواطني الاقطار العربية المجاورة (فلسطين ، سورية) (٢٩) ٠

وعموما ازداد عدد المدارس الحكومية خلال ربع قرن بأقل من ضعف واحد ، فقد كان عددها عام١٩٢٣/٢٢ ٤٤ مدرسة فأصبحت ٧٧ مدرسة عام ١٩٤٧/٤٦، ازداد عدد معلميها من ٨١ معلما الى ٢١٤ معلما ، كما تضاعف عدد الطلبة عام ١٩٤٧/٤٦ بنحو ثلاثة اضعاف ما كان عليه عــــام ١٩٢٣/٢٢ ٠ اي من ٣٣١٦ طالبا وطالبة الى ١٠٧٢٩ طالبا وطالبة وذلك في المدارس الحكومية (٣٠)٠

ويتضح ضعف العناية الرسمية بالتعليم من ضآلة الانفاق عليه ٠ اذ كان معدل الانفاق على تعليم الشخص الواحد في شرق الاردن عام ١٩٣٥/٣٤ ، ٧٥ مليما فلسطينيا مقابل ١٨٥ مليما في فلسطين و١١٤ مليما في العراق ٠ اما نسبة نفقات التعليم الى مجموع النفقات العامة للموازنة فقد تراوحت بيـــن ٤٫٤٪ عام ١٩٢٥/٢٤ ثم ارتفعت الى اقصى نسبة لها عام ١٩٢٩/٢٨ حيث بلغت ٧٫٣٪ من النفقات العامة ٠ وظلت تتراوح بين ٥٫١٪ و٦٫٧٪ الى عام ١٩٣٨/٣٧ ٠ ومع الحرب العالمية الثانية ظلت نسبة الانفاق على التعليم تنخفض بقوة حتى بلغت ١٫٠٦٪عام ١٩٤٥/٤٤ (٣١) ٠

ثانيا : الصحة والخدمات الصحية :

نظرا للمستوى المعيشي والاقتصادي المنخفض ، كانت الصحة العامة تتأثر بغياب الخدمات الصحية والحكومية « العامة » في البلاد او من قلتها ٠ كانت

---

(٢٨) راجع المحافظة ، علي ، « تاريخ الاردن المعاصر » ، ص ١٥٤ ٠

(٢٩) راجع كونيكوف ، ص ٢٧ ٠

(٣٠) المحافظة ، علي ، المصدر نفسه ، ص ١٥٥/١٥٤ ٠

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ ٠

الاوبئة والامراض مستفحلة ، فيما شمل سوء التغذية غالبية السكان في الريف والبادية : فمتوسط الاستهلاك اليومي من السعرات الحرارية للفرد الواحد في شرقي الاردن لم يزد عن ١٩٠٩ وحدة ، مقابل ١٩٦٢ وحدة للفرد في العراق ، ٢١٩٩ وحدة في مصر ، ٢٣٩٤ وحدة في سورية ولبنان ، ٢٥٧٠ وحدة في فلسطين · وذلك لعام ١٩٣٩/٣٨ (٣٢) اي كان متوسط الفرد من استهلاك السعرات الحرارية في شرق الاردن دون باقي المشرق العربي ·

كانت نتائج سوء التغذية تستفحل في بعض السنوات ، بسبب من الجفاف والقحل وموت اعداد كبيرة من المواشي ، واذ ذاك كانت المجاعة تنتشر في البداية وفي الريف · ومن الامراض المنتشرة في البلاد ، خاصة لدى البدو : Xerophtalmia Scurvy وقد تسبب ذلك بارتفاع نسبة الوفيات (٣٣) · وقد هددت الملاريا السكان بجدية ، وانتشرت في وادي الاردن ومنطقة الازرق · كما كانت امراض العين منتشرة ، وبينت الفحوصات ان ربع الطلبة في المدارس يعانون من التراخوما ، وفي بعض الحالات كان نصف السكان قد اصيبوا بالتراخوما (٣٤) ·

كانت معدلات الوفاة عالية جدا بين السكان · وكانت هذه تحد من الزيادة الطبيعية ، ففي عام ١٩٣٠ كان معدل الوفاة يوازي ٢٥ر٤ بالالف مقابل معدل ولادة يوازي ٣٩ر٤ بالالف وبالارقام المطلقة كان عدد الوفيات ٦٦١ر٦ شخصا مقابل ٢٤٠ر١٠ ولادة · (انظر الجدول رقم « ١ » في اول الدراسة)·

لقد حدث تحسن بطيء في الخدمات الطبية خلال الثلاثينات والاربعينات · فقد انخفضت بعض الشيء معدلات الوفيات – مع بعض الارتفاع في بضعة سنوات (١٩٣٤/٣٣) – فوصلت الى ١٨ر٧ وفاة بالالف مقابل زيادة في المواليد وصلت الى ٤٢ر٤ ولادة للالف لعام ١٩٣٨ · ثم انخفضت ايضا الى ١٦ر١ وفاة للالف مقابل ٣٩ر٤ ولادة لعام ١٩٤٣ · وتظهر الارقام ان هذا المعدل في الوفيات ظل عاليا بالمعايير المتعارف عليها دوليا ·

تظهر الاحصاءات الحيوية ان معدلات الوفاة بين الاطفال بعد الولادة تمثل حيزا هاما من الوفيات في البلاد: في عام ١٩٣٠ كان معدل الوفيات يوازي ٢٢٢ وفاة لكل الف ولادة ، وظل المعدل فوق مئتي وفاة للالف ولادة حتى عام ١٩٢٧ حين واصل انخفاضه التدريجي سنة بعد اخرى ، لكن بقي معدلا

(٣٢) راجع هرشلاغ ، المصدر السالف الذكر ، ص ٢٥٤

(33) Konikoff , op. cit, p. 23.

(34) Ibid. p. 23.

مرتفعا رغم ذلك ، ففي عام ١٩٤٣ كان معدل وفيات الاطفال يوازي ١٥١ وفاة لكل الف ولادة !

ان المعطيات والارقام السابقة لا تعود مستغربة اذا لمسنا انخفاض مستوى الخدمات الصحية وضآلة مؤسساتها ومرافقها • ففي عام ١٩٤٣ لم يزد عدد المستشفيات الحكومية عن اربعة ، كانت اثنتان منها مستشفيين عامين ، والثالثة للامراض المعدية ، والاخيرة لـ ophthalmic بالاضافة الى خمسة مراكز للاوبئة ، ووحدة لعلاج المساجين (٣٥) • مقابل هذه كانت هناك خمس مستشفيات غير حكومية كانت فعاليتها قد استوعبت اكثر مـن نصف عـدد الداخلين للمستشفيات في البلاد (اي ٢ر٩٧٦ حالة من ٧٤٥ر٤) ، كما كان متوسط استعمال اسرتها شهريا يوازي ٦ر٨٨ وحدة من ١٣٧ وحدة من كل المستشفيات • وكان عدد اسرتها يوازي ١٥٥ سريرا من اصل ٢٧٤ في عموم مستشفيات البلاد (٣٦) •

رغم ضآلة عدد المستشفيات الحكومية ، غير الكافية لاستقبال المرضى في البلاد ، فقد سجلت لعام ١٩٤٣ ، ٧٢٨ر١٦٧ مراجعة لعياداتها ، ودخلها ١٨٦٩ شخصا ، مقابل ٠٣١ر٣٥ مراجعة لعيادات المستشفيات الخاصة التي دخلها ٢٨٧٦ شخصا في نفس العام (٣٧) •

كان عدد الاطباء البشريين المرخصين ، واطباء الاسنان والصيادلة والمقابلات ضئيلا كما هو متوقع • ولا يقارن بالاحتياجات الواقعية لسكان يعانون مـن الامراض المتوطنة وسوء التغذية • ففي عام ١٩٣٥ ، لم يزد عـدد الاطباء البشريين عن ١٨ طبيبا ، بالاضافة الى ٦ اطباء اسنان ، ٤ صيادلة ، ٤ قابلات• اما في عام ١٩٤٣ فقد بات عددهم : ٣٠ طبيبا بشريا ، ١٠ اطباء اسنان ، ٩ صيادلة ، و١٤ قابلة (٣٨) • ولا داعي للقول ان هؤلاء كانوا مستقرين فـي المدن الرئيسية ، مثلما هو الحال ايضا مع المستشفيات الحكومية والخاصة •

ثالثا : المواصلات :

ا ـ الطرق البرية

على الرغم من الاهمية البالغة للبلاد كمعبر قديم للتجارة ، ورغم انها كانت عقدة مواصلات قديمة ، فان البلاد كانت في مطلع القرن ، وحتى بعد الحرب

(35) Ibid. p. 24.

(36) Ibid. p. 24.

(37) Ibid. Table XXIX. p. 120.

(38) Ibid. Table XXVIII. p. 120

الاولى ، مفتقدة الى شبكة مواصلات حديثة وفعالة · وفيما عدا الخط الحديدي الحجازي الذي قطع البلاد ووصلها بالجزيرة وسورية في مطلع القرن ، فان الطرق المعبدة كانت قليلة · وظلت الطرق القديمة جدا مستخدمة في بعض المناطق ، فيما ردمتها الرمال في مناطق اخرى ·

مع انشاء الادارة في البلاد ، كانت بريطانيا ترى في شرقي الاردن ، نقطة صلة هامة لمصالحها ولسيطرتها بين كل من العراق وفلسطين · وكانت ترى ان ربط البلدين عبر الاردن ، مسألة بالغة الاهمية · هذه هي احدى النقاط البارزة في اتفاق عبدالله ــ تشرشل عند بحثهما اقامة ادارة عربية برعاية هاشمية ــ بريطانية · وهكذا ــ ومنذ وقت مبكر ــ بدأت السلطات البريطانية باجراء كشف جوي (في ايار ١٩٢١) على الطريق بين شرقي الاردن وتحديد معالمها · ثم تألفت حملة عسكرية من مئة جندي وسيارات مصفحة وطائرات اخذت تحدد نقاط امتداد الطريق وتقيم فيها مخافر ، زودت باللاسلكي · وفي حزيران من نفس العام كانت هذه الحملة قد بلغت بغداد ، وبذلك بدأت تتأمن المواصلات البرية والجوية بين البلدين عبر الصحراء السورية (٣٩) ·

اما الطرق الداخلية المرصوفة فلم تزد على ٣٠ كيلومترا تربط جرش ــ السلط ــ عمان ، فيما كانت ٢٨٠ كيلومترا قابلة لاستعمال العربات الالية في الفصول الجافة (٤٠) · وبشكل عام ، وحيث شقت طرق ترابية ، فقد كانت هذه تتعرض للانهيارات والردم ، وتعيق صلة الريف بالمدن الرئيسية · على ان شق الطرق شهد تقدما لاسباب متصلة باحتياجات السيطرة البريطانية او باحتياجات تأمين الامن الداخلي · وهكذا كان هناك (العام ١٩٢٥) ١٫٤٣٨ كيلومترا من الاراضي الصالحة لمرور السيارات كانت ٩٤٪ منها غير معبدة (٤١) ·

منذ ١٩٢٦ ، شقت السلطات البريطانية وبتمويل خاص من عدد من المؤسسات الكولونيالية (٤٢) طرقا تصل بين فلسطين والمدن الاردنية عبر طريق جسر اللنبي ــ عمان · واخر بين الحدود السورية والمدن الاردنية الاخرى · مثل طريق درعا ــ الرمثا ــ المفرق ــ عمان ثم العقبة ·

مع الحرب الثانية ، شرعت بريطانيا بشق طريق حيفا ــ بغداد ، الذي كان

---

(٣٩) الماضي وموسى ، المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٢ ·

(40) Konikoff. op. cit., p. 76.

(41) Ibid. 76.

(٤٢) كانت المؤسسات البريطانية الممولة هي حكومة فلسطين ، صندوق تنمية المستعمرات و British Treasury المصدر السابق ، ص ٧٦ ·

(43) Konikoff . op. cit., p. 76.

اكبر خط مواصلات للكولونيالية البريطانية في المنطقة . بلغت مسافة الطريق في الاراضي الاردنية ٣٤٠ كيلومترا من مجموع ١٫٠٨٠ كيلومترا وبلغت كلفته مليون جنيه انجليزي وقد تكلفت السلطات البريطانية بنفقاته (٤٣) . وكانت مبالغ من المساعدات البريطانية لشرق الاردن تغطي تكاليف هذا الطريق · وانهمك في تنفيذه مئات العمال الذين جرى تشغيلهم ·

في عام ١٩٤٤ ، كان ثمة ٢٠٠٠ كيلومتر من الطرق الصالحة لمرور السيارات ، كان بينها نحو ٦٠٠ كيلومتر من الطرق المعبدة الصالحة للمرور في كافة الفصول · وكانت الاخيرة تشمل طريق جسر اللنبي ــ السلط ــ عمان . طريق عمان ــ الزرقاء ــ المفرق ، وطريق جسر المجامع ــ اربد ــ المفرق ، طريق جسر الملك حسين ــ اربد ، وطريق درعا ــ الرمثا ، طريق راس النقب ــ العقبة ، اما اطولها فكانت طريق المفرق ــ الحدود العراقية ٢٦٣ كيلومتر (٤٤)·

ادى تطور شق الطرق بين شرقي الاردن ، والاقطار العربية المجاورة ، الى تنشيط التجارة مع هذه البلدان ومع السوق العالمي · كما ادى كجزء من هذا التطور في المواصلات والتجارة الى ازدياد عدد سيارات النقل الصغيرة والكبيرة وسيارات الشحن · فقد كان عدد العربات الالية عام ١٩٢٦ لايتجاوز ١٣٠ عربة ، ثم وصلت عام ١٩٣٨ الى ٥٨٩ عربة ، اي كان هناك سيارة واحدة لكل ٥٠٠ شخص وكان هذا هو المعدل بالنسبة لمصر والعراق في تلك السنة (فيما عدا السيارات العسكرية) (٤٥) ·

ورغم عدم توفر ارقام احدث ، الا انه من المؤكد ان عدد السيارات قد ارتفع بقوة خلال الحرب الثانية وبعدها · فارقام التجارة الخارجية تشير الى تزايد قيمة استيراد السيارات بالجنيهات ، غير انها لا تذكر عدد العربات وحجمها ·

ب ــ السكك الحديدية :

بعد التخريب الذي لحق بالخط الحديدي الحجازي اثناء الحرب العالمية الاولى في اراضي الجزيرة ، اقتصرت اتصالات السكة الحديدية على معان في جنوب البلاد ، ونصيبين في الحدود السورية · وقد شغلت السكة منذ ١٩٢٤ تشغيلا كاملا ، ولم يرمم الجزء الموصل بين معان والمدينة حتى الان · اي ان ما يستخدم من الخط في الاراضي الاردنية هو ٣٢٣ كيلومترا فقط · وظل الامر على هذا النحو حتى عام ١٩٤٢ حين مدت السلطات العسكرية البريطانية وصلة طولها ٤١ كيلومترا بين معان والنقب (٤٦) ·

(44) Ibid. p. 77.

(٤٥) راجع هرشلاغ ، المصدر السابق ، ص ٣٥٢ ، راجع كونيكوف ايضا ، ص ٧٧ ·

(46) Ibid. p. 77.

ولا داعي للاستطراد والاشارة الى مباحثات تسيير الخط او ادارته التي كانت موضع خلاف منذ نهاية الحرب الاولى ، كما ان الخط في الاراضي الاردنية كان موضع خلاف بين الامارة البريطانية في شرق الاردن وحكومة فلسطين (ادارة الانتداب) ، وقد حسم لصالح الاخيرة عمليا (٤٧) ٠

لم يلعب الخط الحديدي في الحياة الاقتصادية وفي النقل الدور الذي مثله قبل الحرب الاولى ، فقد اقتصرت رحلات القطار من نصيب (سورية) الى عمان على ثلاث رحلات اسبوعية بالاضافة الى رحلة واحدة اسبوعية من عمان الى معان ٠ الا ان هذا لم يلغ اهميته ، خاصة بالنسبة للسفر ، فقد ارتفع عدد المسافرين على الخط من ٢٤٫٨٧٠ شخصا عام ١٩٣٦/٣٥ الى ٥١٫١٦٤ شخصا عام ١٩٤٠/٣٩ ، ثم الى ٩٤٫٨٤٤ عام ١٩٤٢/٤١ ٠ كما زاد النقل التجاري عبر الخط ، وخاصة في التصدير من ١٤٫٤٣١ طنا لعام ١٩٣٦/٣٥ الى ٣٧٫١٠٣ عام ١٩٤٤/٤٣ ٠ فيما زاد النقل التجاري الداخلي من ٢٧٫٢٧١ طنا لعام ١٩٣٦/٣٥ الى ٤٦٫٦٥٣ طنا عام ١٩٤٤/٤٣ ٠ واستخدم الخط لنقل المواشي والحيوانات (٤٨) ٠

د ـ ميناء العقبة

ضم ميناء العقبة الى الاردن رسميا بعد سنوات قليلة من انشاء الادارة الهاشمية في البلاد ٠ ورغم انه المنفذ البحري الوحيد لشرق الاردن ، ورغم دوره التاريخي ، وموقفه الممتاز الا انه لم يطور ليكون منفذا للتجارة مع الشرق ٠ فقد ظلت التجارة الخارجية مؤمنة عبر البلدان المجاورة ، وخاصة عبر فلسطين وسورية والعراق ٠

اقتصر نشاط الميناء وحياته الاقتصادية على الصيد ، الذي بدونه لم يلعب دورا متناميا في تنمية موارد البلاد وفي تأمين معيشة السكان المحليين ٠ في عام ١٩٢٨ اقيم في الميناء معمل صغير لتثليج السمك وحفظه بغية التصدير الى فلسطين ، الا ان صعوبات عدة حالت بين المشروع والنجاح ٠ وقد تكررت المحاولات دون فائدة ٠

في عام ١٩٣٥ ، كان الصيد عبر الميناء ضئيلا جدا ٠ وقد ذكر جيمس هورنيل عند زيارته للعقبة ، اجابة مختار القرية : « هناك سمك كثير ولكن ليس هناك من يشتري » ٠ وقد ترك اكثر العاملين في الصيد (حوالي ٣٠٠ رجل) البلدة

---

(٤٧) راجع موسى ، سليمان ، « غربيون في بلاد العرب » ، الفصل المترجم عن سانت جون فيلبي ، ص ١٤٠/١٣٨ ، كذلك كونيكوف ص ٨٠/٧٨ ٠

(48) Konikoff. op. cit., p. 79. Table XIX. p. 114. Table XX , XXI. p. 115

بحثا عن العمل . وقد اثر عدم وجود وسائل مناسبة للتصدير وللحفظ . دون انتعاش الصيد السمكي في العقبة ، وبقي الصيد البدائي حيث ٩٠٪ من عمليات الصيد تتم بالشباك اليدوية . وفشلت عام ١٩٣٦ محاولة للصيد بسفينة صيد حديثة ، فقد تحطمت في طلعتها الاولى ولم تعد صالحة للاستعمال (٤٩) .

في اثناء الحرب الثانية ومع النقص في اللحوم في فلسطين بذلت محاولات بريطانية في العقبة ومع البلدان المطلة على خليج العقبة لاستثمار صيد الاسماك . واقيمت ثلاجات ومخازن مبردة كبيرة وسفن صيد متوسطة كلفت ٨٠ الف جنيه فلسطيني .

لقد اصطدمت هذه المحاولات بمشكلة اليد العاملة والصيادين المهرة الحديثين . ان ارقام الصيد من الميناء المتوفرة تشير الى انها لم تتجاوز ٧ر٤ طنا لعام ١٩٤٨ (٥٠) .

د ـ المواصلات الجوية وخدماتها .

لم يكن في البلاد مطارات مدنية ، لذا كانت الطائرات التجارية تستخدم مطارات سلاح الجو البريطاني . وكان مهبط الاتش فور H - 4 التابع لشركة نفط العراق يستخدم لتأمين خدمات الطائرات العابرة في الاجواء الاردنية وللتزود بالوقود . وفي عام ١٩٤٦ اسست شركة طيران محلية لتامين المواصلات مع البلدان العربية المجاورة ، وكانت تمتلك خمس طائرات يقودها طيارون بريطانيون . وكانت خدماتها لعام ١٩٤٨ قد شملت نقل ٤١٠٨ مسافرين قاطعة مسافة ٨٩٠٨٧٠ ميلا (٥١) .

هـ ـ الخدمات البريدية والهاتفية واللاسلكية .

كانت الخدمات البريدية داخل البلاد تتامن باستعمال العربات ،وبما ان الكثير من الطرق يتعذر استعمالها شتاء فقد كان هذا يؤثر على مستوى هذه الخدمات . اما الخدمات البريدية الخارجية فقد كانت تتامن عن طريق ارسالها بالقطار الى حيفا ومن هناك الى العالم . عام ١٩٢٦ اقيم تبادل بريدي مباشر مع سورية ، تلاه تبادل اخر مع العراق عام ١٩٣٢ ، بعد ١٩٣٩ كانت الخدمات

---

(49) Ibid. p. 52 , 53.
(50) Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948. p. 8.
(51) Ibid. p. 8. Konikoff . op. cit., p.82

البريدية تتأمن بين القدس وعمان بالسيارات · اما الرسائل الجوية فقد كانت منذ ١٩٣٨ تتم عبر خدمات البريد الجوي البريطاني ·

اما خدمات التلفون والتلغراف فقد كانت تصل بين المدن والبلدات الرئيسية في البلاد مباشرة مع فلسطين ، سورية ، العراق ومصر وكما هو متوقع فان تقدم الاتصالات كان يتم اساسا لصالح الحكومة ، الامن العام ، فيما كانت الاتصالات العامة في هذا النطاق قليلة · وجزئيا كانت تتم لاغراض تجارية او تخدم اتصالات المواطنين الاجانب مع الخارج (٥٢) ·

و ـ انابيب نقل النفط ·

كان الامتياز الممنوح من الحكومة الاردنية الى شركة نفط العراق في مطلع عام ١٩٣١ ، قد اعطى الاخيرة حق انشاء انبوب لنقل البترول الخام من منابعه في كركوك الى مدينة حيفا عبر الاراضي الاردنية ، وهو الامتياز الذي وفر للشركة احد الخطين الرئيسيين اللذين ينقلان النفط العراقي عبر البحر الابيض المتوسط ·

بموجب هذا الاتفاق اعفيت الشركة من جميع انواع الضرائب والرسوم المفروضة على الزيوت المعدنية التي تدخل الاراضي الاردنية ، كما اعفيت جميع لوازم ومهمات واجهزة الشركة اللازمة لتنفيذ المشروع من جميع الضرائب والرسوم الجمركية ، ووضعت كافة الطرق والسكك الحديدية والخطوط الهاتفية والبرقية الموجودة في البلاد تحت تصرفها ، دون ان تدفع الضرائب للمساهمة في صيانتها او تصليحها · ومنحت الشركة حق استخدام الخطوط الحديدية في شرقي الاردن لخدمة اغراضها · وحددت مدة الاتفاق بخمسة وسبعين عاما (٥٣) ·

لقد انهت الشركة مد الانابيب عام ١٩٣١ ، كما شقت في العام نفسه طريقا موازيا لامتداد الانابيب لتأمين حمايتها · وكان طول المسافة التي تمر فيها الانابيب في الاراضي الاردنية ٢٠٠ ميلا · وكان للخط ١٢ محطة ضخ ، اثنتان منهما في الاراضي الاردنية وهما المعروفتان باسم H. 4 ، H. 5 · وكانتا تضخان آنذاك ٤٢٫٥٠٠ برميل في اليوم · عوضا عن كل هذه التسهيلات والاعفاءات المفرطة في كرمها ، كانت القوات المحلية مكلفة بحماية الخطوط هذه، حيث كان يتواجد ٥٠ ــ ٦٠ جنديا في محطتي الضخ لاغراض امنية (٥٤) ·

---

(52) Konikoff. op. cit., p. 82.

(٥٣) انظر تفاصيل مسهبة عن الاتفاقية المجحفة بالحقوق الوطنية ، المعقودة مع شركة نفط العراق لدى المحافظة ، على العلاقات الاردنية البريطانية ، ص ١٠٢/١٠٤ ·

(54) Konikoff. op. cit., p. 84.

ومقابل كل ذلك ، فان الاتفاق نص على اعفاء الشركة من اية رسوم او ضرائب على مرور النفط بالترانزيت عبر الاراضي الاردنية ·

اقتصرت « المنافع الاقتصادية » للبلاد من اعمال الشركة ـ وفقا للمصادر الامبريالية (٥٥) ـ على ما وفره من تشغيل وانفاق عام واجور في البلاد اثناء مد الخطوط · فقد بلغ انفاق الشركة في الاردن ، كرواتب او اجور ، ومبادلات نحو ٤٧٫٠٠٠ جنيه فلسطيني لعام ١٩٣٢ · وخلال اعمال الانشاءات الرئيسية في عامي ٣٣ و ١٩٣٤ كان ما معدله ٢٠٠٠ من العمال قد وظفوا في اعمال الشركة · تضمنوا اعدادا من العمال المهرة مثل عمال الحفر والسائقين والـ Fitters وغيرها·كما اكتسبت بعض المهارات في الميكانيكية، وحفرت آبار المياه · غير انه من الملاحظ انه بعد انتهاء مد الخطوط فقد انحسر عدد العاملين المحليين في منشآت الخط ومحطاته ، كما انحسرت انفاقات الشركة ، فيما كانت الطرق والآبار الارتوازية قد وضعت في خدمة اعمال الشركة فحسب · وقد وقع هذه الاتفاقية بشروطها المجحفة رئيس الوزراء انذاك حسن باشا ابو الهدى الذي كان يفتخر بعمالته للبريطانيين وبعدائه للجماهير والحركة الوطنية·

وفي عام ١٩٢٣ وقعت الحكومة الاردنية اتفاقا مشابها مع شركة النفط الانجلو ـ ايرانية لنقل النفط الايراني الخام عبر الاردن الى فلسطين ، غير ان المشروع لم يتحقق (٥٦) ·

وتكررت مثل هذه الاتفاقيات المجحفة ، عندما عقدت الحكومة الاردنية وشركة التابلاين اتفاقا في آب ١٩٤٦ لمدة سبعين عاما تضمن تسهيلات عديدة ، دون ان تدفع الشركة اية رسوم او ضرائب من اي نوع · ولم تتضمن الاتفاقية سوى مادة واحدة حفظت بعض الحقوق الوطنية عرضا ، حيث نصت على ان اي اتفاق مماثل مع سورية ولبنان يحوي شرطا ملائما اكثر مما هو في اتفاق آب ١٩٤٦ ، فان هذا الشرط يعتبر نافذ المفعول من تاريخ الاتفاق المعقود بين الشركة وحكومتي سورية ولبنان · ووفقا لمضمون هذه المادة يكتسب الاردن عائداته من التابلاين (٥٧) ·

استنتاجات ختامية ·

مما مر يمكن القول ان الدولة في الاردن كانت تعمل في خدمة الكولونيالية البريطانية بشكل رئيسي · يتضح هذا من جملة اوجه : ـ

---

(55) Ibid. p. 84.

(٥٦) راجع المحافظة ، المصدر السابق ، ص ١٠٤ ·

(٥٧) الماضي وموسى ، المصدر المذكور انفا ، ص ٤١١/٤١٢

١ ـ من كونها كانت ممولة بشكل رئيسي من الكولونيالية البريطانية ومعتمدة على المعونة المالية البريطانية ٠ كان اعتمادها على هذا العون يتزايد ولا سيما في سنوات الحرب الثانية بعد ان تطلبت المصالح البريطانية زيادة اعتمادها على القوات المحلية وعلى تطوير هذه القوات عددا وعدة ٠ هكذا هبطت حصة الواردات المحلية الى مجموع الواردات العامة للدولة من نسبة ٢ر٧٢ ٪ في الاعوام ٤٢/١٩٣٤ الى ٨ر٤٤٪ عام ٣٩/١٩٤٠ والى ٧ر٢٤٪ عام ٤٣/١٩٤٤ ، كنتيجة لتنامي حصة المعونة البريطانية لموازنة الدولة في الاردن ٠ وهذا بدوره كان يزيد من حجم الاشراف والادارة المباشرة للسلطات البريطانية وممثليها وعملائها مع الدولة والقوات المسلحة ٠

٢ ـ كانت حصة الدفاع والامن من الموازنة العامة تتنامى بالتالي للسبب المار اعلاه ويتناسب نموها مع زيادة المعونة المالية البريطانية للموازنة ٠ هكذا ارتفعت حصة الدفاع والامن من متوسط ٤٠ ٪ من النفقات العامة للدولة في الاعوام ٢٤/١٩٣٤ الى ٣ر٧١٪ عام ٤٣/١٩٤٤ والى ٨ر٧٣٪ عام ٤٥/١٩٤٦ ٠
١٩٤٦ ٠

وبالمقابل يمكن القول ان الجماهير الاردنية كانت متضررة ومستنزفة من قبل السلطات البريطانية ٠ ومن الانفاق على خدمات لم تكن تقتضيها المصلحة الوطنية ، بل بالعكس كانت الجماهير الاردنية مضطرة لتمويل جوانب هامة من نفقات القوات الموظفة في خدمة الاستعمار البريطاني وادارتها العامة والمشاريع المرتبطة بها كالاشغال العامة والطرق والمواصلات والبريد والتلغراف ٠ اما المؤشرات المباشرة على تضرر مصالح الجماهير من الدولة وطبيعتها الكولونيالية فهي التالية :

١ ـ كانت حصة الانفاق على كل من الزراعة والري ، والتعليم والصحة العامة ، وهي القطاعات الخدمية التي تستفيد منها الجماهير الاردنية ، لا تزيد في المتوسط للاعوام ٢٤/١٩٣٤ عن ٣ر١٣٪ من النفقات العامة للدولة وانخفضت هذه الحصة الى ٨ر٥٪ من النفقات العامة للدولة عام ٤٣/١٩٤٤ ٠

٢ ـ واذا ما قارنا الانفاق على الزراعة والري والتعليم والصحة العامة بالواردات المحلية للدولة ، لوجدنا انها لم تزد عن ٤ر١٨٪ في الاعوام ٢٤/١٩٣٤ وعن نسبة ٥ر٢٣ ٪ لعام ٤٣/١٩٤٤ ٠ اي ان المواطنين الاردنيين لم يتلقوا خدمات مقابل الحصة الاعظم من الضرائب المباشرة وغير المباشرة التي يقدمونها للدولة ٠ وبكلام اخر كان المواطنون الاردنيون يمولون القطاعات غير المفيدة لهم ، وبعضها معاد لهم ولمصالحهم (كالدفاع والامن) بما نسبته

٦ر٨١٪ من الواردات المحلية في الاعوام ١٩٣٤/٢٤ وبنسبة ٥ر٧٦٪ عام ١٩٤٤/٤٣ · وحتى لو اضفنا الى قطاعات الخدمات المفيدة للجماهير الاردنية ، نفقات اخرى كالبريد والتلغراف وغيرها ، مع انها تعمل لمصلحته في خدمة المصالح البريطانية في اكثرها ، فان اكثر من نصف واردات الضرائب المقدمة منهم تذهب لتمويل اغراض ليس لهم ولا للبلاد أي مصلحة فيها · بل هي في الغالب موظفة ضد مصالحهم وطموحاتهم · ان هذا ما يبرهن على ان احتجاج الحركة الفلسطينية ومن نضالها ومن اجل الاستقلال المالي كان له اساسه الموضوعي والمشروع ، كما يبرهن هذا علي تهافت الادعاء ان البلاد كانت « مستفيدة » من الكولونيالية البريطانية اكثر مما هي مستنزفة ·

٣ ـ اما الوجه غير المباشر للاستنزاف الامبريالي لشرق الاردن وجماهيرها، فيتجلى في مضمون وجوهر نمط التطور الاقتصادي الرث الذي حملته معها السيطرة الكولونيالية · فنمو جهاز الدولة والجيش وقطاع التجارة بافراط في خدمة المصالح الكولونيالية او بسببها وضعف تطور قطاعات الانتاج الاساسية وتحولها الى مواقع هامشية ، هو جوهر الاستنزاف الامبريالي · اذ أدت هذه العملية التاريخية الى اضعاف مقومات التحرر الوطني بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي ، واعاقت تطور القوى المنتجة ، واعطت الفئات الطفيلية فرصا واسعة للعب دور مقرر في حياة البلاد · وبالمقابل اعاقت تشكل الطبقات وتطور البلاد الاجتماعي وتكون قاعدة اجتماعية واسعة ، منسجمة وفعالة في النضال ضد الامبريالية ·

واخيرا كانت الدولة ،فضلا عن كونها تعمل في خدمة الكولونيالية البريطانية، تخدم اساسا مصالح الفئات الطفيلية التي تشكلت كطبقة حاكمة غير متجانسة في نهاية الامر وكانت ، اي الدولة ، تستنزف الجماهير الكادحة من اصحاب الدخول الدنيا والمتوسطة · هذا ما تظهره المؤشرات التالية :

١ ـ كانت حصيلة ضريبة الدخل والرخص (اي الضرائب المباشرة) تشكل ما نسبته ٦ر٥١٪ من الواردات المحلية في سنوات ١٩٣٤/١٩٢٤ · ولم تلبث ان هبطت مساهمتها سنة بعد اخرى فقد كانت نسبتها الى الواردات المحلية في السنوات اللاحقة كما يلي : ٢٣٪ لعام ١٩٤٤/٤٣ و١ر٢١٪ لعام ٤٧/ ١٩٤٨ · اي ان الاعباء الضريبية التي يتحملها اصحاب الدخول الكبيرة قد ارتفعت في سنوات الحرب وبعدها بوتائر عالية جدا · بل وخيالية ·

٢ـ اما الجمارك والرسوم (اي الضرائب غير المباشرة) فقد اخذت شيئا فشيئا تحمل العبء الضريبي الاكبر على الجماهير الفقيرة واصحاب الدخول المحدودة · وهكذا ارتفعت حصيلتها من ٢ر٢٩ ٪ من الواردات المحلية في الاعوام ١٩٣٤/٢٤ الى ٧ر٢٣٪ عام ١٩٤٤/٤٣ ، ثم الى ٤٧٪ عام ١٩٤٨/٤٧ ·

وهذا يبرهن على ان الجماهير الكادحة والمحدودة الدخل كانت تمول الدولة بشكل رئيسي ، وليس اصحاب الدخول العليا ٠

ولو قارنا حصيلة الضرائب غير المباشرة من جمارك ورسوم ، مع نفقات القطاعات الخدمية الضرورية للجماهير مثل الزراعة والري والتعليم والصحة العامة ، لتبين لنا ايضا وبالملموس ان الانفاق على الاخيرة لم يتجاوز ٩ر٦٢ ٪ من الضرائب غير المباشرة في الاعوام ٢٤/١٩٣٤ و٨ر٦٩٪ عام ٤٣/١٩٤٤ و٥ر١٤٪ عام ٤٧/١٩٤٨ ٠ اي ان الجماهير الفقيرة كانت تمول الخدمات والمصالح غير الضرورية لها ، والموظفة في خدمة الكولونيالية البريطانية ٠

٣ ــ كانت خدمات من مثل الاشغال العامة والبريد والتغلراف تنتزع ما نسبته ٢ر١٢٪ من النفقات العامة في الاعوام ٢٤/١٩٣٤ و٢ر٣٥٪ لعام ٣٩/١٩٤٠ ٠ اي نسب توازي تقريبا الانفاق على الزراعة والتعليم والصحة او تفوقها كثيرا ، مع ان الجماهير لم تكن قادرة على الاستفادة من هذه الخدمات، وكانت بالاكثر موظفة في خدمة الوجود الكولونيالي ، او فئة محدودة من السكان ٠ وكان الانفاق عليها يتم ايضا من الواردات المحلية الى هذا الحد او ذاك ٠ اذ ان دخل هذه المرافق الخدمية لم يزد عن ٢٦٪ من نفقاتها في ٢٤/١٩٣٤ وعن ٣ر٦٪ عم ٣٩/١٩٤٠ ٠

كل ذلك يبرر وصف الدولة كجهاز كولونيالي معاد للجماهير ، موظف في خدمة المصالح البريطانية ، وان الجماهير كانت متضررة بالمعنى المباشر من هذا الجهاز ، وليس فقط ، بالمعنى السياسي والاقتصادي الاشمل ٠ كما كانت الجماهير مستنزفة ، مضطهدة بالمعنى المباشر ، من قبل الفئات الطفيلية المستفيدة من الدولة ، والتي اخذت تشكل طبقة اجتماعية متعايشة ومنتفعة من الارتباط بالامبريالية ومن نمط التطور الرث الذي صاحب سيطرتها على البلاد خلال هذه الفترة ٠

افريقيا ٧٧

معادلات الصراع .. ومفارقاته

سمير كرم

اكثر من اي منطقة جغرافية متكاملة في العالم تحتل افريقيا مكانا اول في احتياطي وفي انتاج عديد من انواع المواد الخام التي تمس حاجة العالم الغربي اليها باستمرار ، ليس لاغراض الانتاج السلمي فحسب ، بل ولاغراض الانتاج العسكري ـ بما فيه الذري ـ كذلك ٠

والمدخل الطبيعي الى فهم الصراعات الكبرى على افريقيا هو ارقام ثرواتها الطبيعية ٠ فالقارة السوداء تملك وحدها ٩٠ بالمائة من احتياطي العالم من الماس (٥٧٥ مليون قيراط) و ٩٠ بالمائة من احتياطي العالم من البالاديوم والبلاتين (٧٠٠ر١٢ طن) و ٩٠ بالمائة من احتياطي العالم من الكروم (١٦٠٠ مليون طن) ، وتملك ربع احتياطي العالم من البوكسيت (٤٠٠٠ مليون طن) ، ١٥٪ من النحاس الخام (٤٤ مليون طن) ، ١٤٪ من الغاز الطبيعي (٠٠٠ر٣٠٠ر٥ مليون متر مكعب) ، ١٣٪ من الحديد الخام (٣٠ مليار طن) ، ١٢٪ من النفط (٩٢٠٠ مليون طن) ، فضلا عن كميات هائلة من معادن الرصاص والزنك والقصدير والليثيوم والغرافيت ٠٠٠

★ انظر « شؤون فلسطينية » ، ايار (مايو) ١٩٧٧ : افريقيا ٧٧ ـ الحتميات والاحتمالات ٠

وتوزيع بعض هذه الثروات الطبيعية في البلدان الافريقية له طابع فريد يبعث على الدهشة • فنجد مثلا ان زائير تملك وحدها ٨٧ بالمائة من كل احتياطي القارة من الماس ، وان معظم ثروات افريقيا من الذهب والبلاتين يتركز في جنوب افريقيا ، والبوكسيت في غينيا والكاميرون • ثم هناك « حزام النحاس » العريض في زامبيا وزائير ، اللتين تملكان ٩٣ بالمائة من احتياطي افريقيا منه • وفي شمال افريقيا يكمن اضخم احواض الفوسفات في العالم ، حيث تملك المغرب اكثر من ٩٠٪ من احتياطي العالم منه • وتملك الجزائر وليبيا ونيجيريا ثروات هائلة من النفط والغاز الطبيعي •

ونتيجة لهذا الاحتياطي الهائل فان بلدان افريقيا تعتبر من اكبر المنتجين والمصدرين للثروات المعدنية • فنجد ان افريقيا انتجت في عام ١٩٧٥ نسبة ٩٨٪ من كل الماس المنتج في العالم ، وكذلك ٨١٪ من البلاتين والبالاديوم والذهب ، وحوالي ٥٠٪ من المنجنيز والكروم ، ٣٠٪ من الفوسفات ، ١٢ ٪ من النفط والحديد الخام ، ٦٪ من البوكسيت والقصدير المركز ، و ٤٪ من الزنك • والاختلال في توزيع هذه الثروات المعدنية في باطن اراضي البلدان الافريقية له انعكاسه في اختلال مماثل في توزيع انتاج هذه البلدان لتلك الثروات •

ولكن الظاهرة الاشد خطورة من اختلال التوزيع والانتاج ، هي ظاهرة النهب الذي تمارسه الشركات الراسمالية الكبيرة في عمليتي الانتاج والتسويق في افريقيا ، حيث تسيطر هذه الشركات سيطرة شبة تامة على انتاج وتصدير ثروات افريقيا المعدنية • وهناك شركة واحدة ضخمة – هي المؤسسة الانجلو – اميركية لجنوب افريقيا — Anglo - American Corporation for South Africa تسيطر وحدها على انتاج انواع عديدة من المواد الخام المعدنية (الذهب ، الماس ومشتقاته ، اليورانيوم ، الكوبالت ، والبلاتين) في جنوب افريقيا ، ناميبيا ، ليسوتو ، بوتسوانا ، زامبيا ، وزائير • وتبلغ قيمة عمليات هذه الشركة في زامبيا وحدها اكثر من ٥٠٠ مليون دولار •

واضخم مجال للاستثمار الاجنبي في افريقيا هو صناعة النفط والغاز الطبيعي • وقد بلغت قيمة استثمارات الشركات الغربية (الاميركية والبريطانية والفرنسية اساسا) خلال ربع القرن الثالث من هذا القرن (١٩٥٠ – ١٩٧٥) ١١٫٧٠٠ مليون دولار •

واذا خرجنا من اطار الثروات المعدنية وجدنا افريقيا تملك ١٧٪ من الثروة الخشبية في العالم ، اذ تملك وحدها مساحة ٧٠٠ مليون هكتار من الغابات الاستوائية • كما تضيف افريقيا الى مقدار الطاقة الكهربائية المستخرجة من المصادر المائية في العالم ١٫٦٢٩٫٠٠٠ مليون كيلو وات ساعة سنويا ، وهو ما يعادل ٣٠٪ من الطاقة العالمية • وفي الزراعة تنتج افريقيا ٧٠٪ من انتاج

العالم من الكاكاو (حوالي مليون طن) ، ٦٥٪ من الالياف النباتية ، ٥٥٪ من زيوت النخيل (٠٠٠ر٣٥٠ر١ طن) ، و ٥٥٪ من السمسم (٣٥٠ الف طن) ، فضلا عن كميات ضخمة من البن وجوز الهند والموز والفواكه والمطاط والتبغ والقطن (★) ٠

قد تبدو هذه مقدمة طويلة مشحونة بالارقام والنسب المئوية لموضوع يتعلق بالصراعات الكبرى على افريقيا ، ولكنها في النهاية مقدمة ضرورية كي لا تبقى كلمة افريقيا او عبارة « القارة العذراء » التي كثيرا ما سمعناها وقراناها في كتب الغرب ، كلمة او عبارة مجردة من محتواها الذي تعنيه بالنسبة للغرب خاصة ٠ فربما حينما تقال كلمة افريقيا قفزت الى الذهن العربي صورة الخريطة التي يحتل منها الشمال الافريقي العربي (من مصر شرقا الى المغرب غربا) كل القطاع الشمالي ، وربما قفزت صورة الغابات التي يحتمي في احراشها المقاتلون من اجل الحرية ، وربما صورة القبائل التي تجيد انواع الرقص الايقاعي الذي الهم الموسيقى الاوروبية الحديثة ٠٠٠ ربما قفزت الى الذهن العربي اي صورة الا تلك التي تقفز الى الذهن الغربي ـ خاصة الاوروبي ـ عندما تذكر افريقيا ٠٠ وتلك تتألف ملامحها العاملة والتفصيلية من الارقام والنسب المئوية التي حشرناها في المقدمة ٠٠٠



صراعان ٠٠ ونتيجتان

في غضون عشرين شهرا فقط من منتصف عام ١٩٧٥ الى اوائل عام ١٩٧٧ كانت افريقيا مسرحا لصراعين كبيرين ـ بكل المقاييس التي يمكن استخدامها لوصف صراع بانه كبير ـ : صراع في انغولا في ١٩٧٥ ، وصراع في زائير في عام ١٩٧٧ ٠ وكان واضحا لكل عين ترى ان الصراعين وجهان لصورة واحدة ٠٠ وان القوى المشتركة في الصراعين مباشرة اما لها اطراف دولية ٠٠ او انها هي نفسها اطراف لاجسام دولية ٠

□ هذان الصراعان دارا على ارض اثنتين من اكبر الدول الافريقية واغناها بالثروات ٠ انغولا وزائير ٠

★ الارقام مستقاة من مصدرين :

Africa Yearbook 1976
U.N. Economic Commission for Africa

□ كذلك فقد دارا على ارض بلدين افريقيين هما الاقرب جغرافيا واستراتيجيا الى جبهات الصراع الكامن بين افريقيا السوداء ونظم الحكم البيضاء • فانغولا وزائير تشكلان - مع تانزانيا وموزمبيق على الجانب الاخر من القارة ، خط الهجوم الاول من افريقيا السوداء على نظم الحكم البيضاء •

□ احد الصراعين - صراع انغولا - انتهى بما يعد - من زاوية نظر عالمية، انتصارا للاتحاد السوفياتي بقيام سلطة الجبهة الشعبية لتحرير انغولا ، التي نالت التأييد السوفياتي الصريح والواضح والكامل منذ عام ١٩٥٦ ، وهزيمة للولايات المتحدة (والى جانبها اوروبا الغربية ، ووراءهما الصين) التي وقفت ، بعد طول ابتعاد عن دور فعال في صف نضال انغولا ضد الاستعمار البرتغالي ، الى جانب الجبهتين الاخريين لاسباب ربما لا تعني في التحليل النهائي شيئا الا كونهما اتخذتا موقفا مناهضا للجبهة التي ايدها السوفيات •

□ الصراع الاخر - صراع زائير - انتهى بما يعد انتصارا للغرب الاميركي والاوروبي (وللخط السياسي الخارجي للصين) بالحيلولة دون سقوط نظام موبوتو اليميني والفاسد • وهو - كما يتضح انتصار بالسلب ، وليس انتصارا ايجابيا ، كما الحال في قيام سلطة الجبهة الشعبية في انغولا • وقد استطاع الغرب ان يعوض هذا المعنى السلبي لانتصاره عندما ركز قدراته الاعلامية على تصوير الحركة في اقليم « شابا » (كاتانغا) الزائيري ، بانها حركة انغولية - سوفياتية - كوبية • وقد دفع فريقا من القادة الافريقيين الموالين للغرب - الذين يمرون بظروف مماثلة لموبوتو ولا يريدون لسقوطه ان يكون نموذجا - لان يتولوا اطلاق المعلومات غير الصحيحة عن اشتراك فعلي كوبي او انغولي او شحنات تسليح سوفياتية كبيرة في اقليم « شابا » • ولم يستطع الغرب - لاسباب واضحة - ان يطلق هو هذا النوع من الانباء • وساعد الاتحاد السوفياتي الغرب في هذا عندما بدا شبه مستدرج الى تأييد بالتعاطف مع ما يجري في اقليم « شابا » • فيما بدا الغرب مصمما هذه المرة على الا يدع « انغولا » تتكرر في « زائير » ، وعزز الموقف الصيني المضاد من الروح المعنوية للغرب وتصميمه على الحاق هزيمة بالاتحاد السوفياتي ، حتى وان كان يعلم ان الاتحاد السوفياتي لم يشترك في هذه المعركة •

□ في هذين الصراعين تجلت بوضوح حقيقة ان الولايات المتحدة - في نظرتها الاستراتيجية العامة الى افريقيا السوداء - تقسم القارة الى فئتين من الدول : دول افريقية « اشتراكية » ، تعتبرها معادية لها وتشكل خطرا على مصالح الغرب كله في افريقيا، وهذه تشمل اساسا تانزانيا وزامبيا والكونغو (برازافيل) وكانت تريد في الصراع الاول ان تمنع انضمام انغولا الى هذه المجموعة • وفشلت ، ودول افريقية « راسمالية » ، تعتبرها حليفة لها وتشكل حماية مساعدة

لمصالح الغرب في افريقيا ، فيما الحماية الرئيسية تتمثل في نظم الحكم البيضاء ، وهذه تشمل اساسا زائير ومالاوي وجابون وكينيا ، وكانت الولايات المتحدة تريد في الصراع الثاني ان تمنع خروج زائير من هذه المجموعة ٠

□ في هذين الصراعين تجلت بوضوح حقيقة ان الاتحاد السوفياتي كان ذا نظرة استراتيجية ـ ايديولوجية معا ، وان اهتمامه بافريقيا قد سجل تصاعدا كبيرا في السلوك الدولي السوفياتي الذي توجهه مؤشرات مشتركة من «المصالح» و «المبادىء» ٠ في الصراع الاول تحرك الاتحاد السوفياتي عقائديا ومصلحيا معا في توازن دقيق ومدروس فيما اعتبره المراقبون الغربيون « اكبر تدخل عسكري للاتحاد السوفياتي على الاطلاق في منطقة غير متاخمة لحدوده » ٠ (قدرت قيمة الامدادات العسكرية السوفياتية الى انغولا باكثر من نصف مليون دولار) ، وكان تأييده للجبهة الشعبية لتحرير انغولا استمرارا لموقف ايديولوجي صاحب هذه الجبهة من بداياتها الضعيفة الى اللحظات الحاسمة ، في صراعها ضد الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية ، ثم ضد الانشقاقات التي خلقها الغرب ، وشارك في خلقها الخط الصيني ٠ وفي الصراع الثاني تحرك الاتحاد السوفياتي بغير توازن بين خطه الايديولوجي ومصالحه الاستراتيجية ٠ ولهذا شاب حضوره في هذا الصراع التردد ـ حتى الاعلامي ـ فلم تكن القوة الرئيسية المتصدية لنظام موبوتو ذات قيمة ثورية ايديولوجية حقيقية ٠ ولم يكن ثمة ارتباط عضوي بينها وبين تطلعات شعب زائير ، كما كان حال الجبهة الشعبية في انغولا ٠

[وينعكس الاختلال نفسه بين «المبادىء» و «المصالح» في سياسات موسكو الاخيرة ازاء التناقضات الاقليمية بين الصومال واثيوبيا ، بما تنطوي عليه من مشكلات ارتيريا ، والحدود الصومالية ـ الاثيوبية ، ومصير جيبوتي بعد الاستقلال] ٠

□ اظهر هذان الصراعان ان المقولة الذاهبة الى ان « اميركا ما بعد فيتنام» مقيدة الحركة اكثر من الاتحاد السوفياتي هي مقولة صحيحة ، وذلك حيث اتضح حرص الولايات المتحدة على الا تلعب دورا مباشرا في صراع بعيد عن حدودها ، ولكنهما اظهرا ايضا أن هذا القيد الذي فرضته تجربة فيتنام المريرة على اميركا لا ينفي حقيقة ان الغرب الامبريالي لا يزال ـ رغم تناقضاته الاستراتيجية والاقتصادية ـ متماسكا سياسيا الى حد يمكنه من تنسيق ادواره الاستراتيجية باتقان في بعض الاحيان ٠ بينما المعسكر الاشتراكي لا يزال يتحمل الاعباء الجسيمة الخطيرة المترتبة على بلوغ الصراع الصيني ـ السوفياتي المدى الذي وصل اليه ٠ في الصراع الاول كانت الغلبة في مسلك اميركا تجاه انغولا لعقدة فيتنام ٠ وفي الصراع الثاني كانت الغلبة في مسلك اميركا هي

عامل التماسك والتنسيق بين دول الغرب الامبريالي · وهكذا فان اوروبا الغربية التي ربما بدت سطحيا على الهامش في الصراع الاول ، تقدمت الى الخـــط الامامي للصراع في الصراع الثاني ، وان بقيت هامشية من حيث صنع القرار، ومن حيث غنائم الصراع · وفي الوقت نفسه فان الصين ـ التي ربما بدت في الصراع الاول « ضد » الاتحاد السوفياتي اكثر مما هي « مع » طرف ما ـ ظهرت في الصراع الثاني اكثر استعدادا لان تكون « مع » الغرب والقوى الداخليـــة العاملة له بقدر ما هي « ضد » الاتحاد السوفياتي والقوى التي يؤيدها ·

هكذا فان موقف الاتحاد السوفياتي ـ من جانب ـ وموقف اوروبا الغربية ـ من الجانب المعاكس ـ يبدوان معبرين عن استمرارية لدوافع ومنطق واهداف توطدت منذ وقت طويل سابق على نشوء جذور اي مـــن هذين الصراعيـن ، النموذجين ـ الاول بايديولوجيته ·

اما موقف الولايات المتحدة وموقف الصين فانهما يبدوان معبرين عن تغيــر وجدة في الدوافع والمنطق والاهداف · وبهذا المنطق فان هذه الدراسة ـ التـي لا تهدف الى مسح شامل لسياسات الدول الكبرى المتصارعة في افريقيا ـ تتجه نحو بحث هذا الجانب : الولايات المتحدة والصين ، بدرجة اكبر من التفصيل ، على خلفية من السمات والعوامل التي شرحناها عن افريقيـــا السبعينات ، والسمات والعوامل الاخص لافريقيا ٧٧ · ولكي نواصل السير مع خيط الحتميات والاحتمالات ، فان التركيز على الولايات المتحدة والصين بالذات يفيد في كشف التمايز بين هذه المتغيرات : الحتمية والاحتمالية ·

اميركا ·· « الوثيقة ٣٩ » ·

يعرف المتخصصون في الشئون الافريقية في الولايات المتحدة بوجود وثيقـــة سرية خاصة بالسياسة الاميركية في افريقيا يشار اليها باسم « مذكرة الدراسة رقم ٣٩ للامن القومي » National Security Study Memorandum 39 (N.S.S.M. 39)

وهي آخر واهم وثيقة تحدد الخطوط العامة والاهداف الرئيسية لسياسة الولايات المتحدة في « الجنوب الافريقي » · وقد شارك في وضعها خبراء وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية .C.I.A ، وساعد في وضعها في صيغتها النهائية خبراء من وزارة الخزانة ووزارة التجارة ، وكذلك من وكالة ابحـــاث الطيران والفضاء .N.A.S.A

واذا كانت هذه المذكرة لم تجد سبيلها الى النشر في افريقيا ـ والوطن العربي ايضا ـ لاسباب مفهومة لا تقتصر على سريتها ، وانما تمتـــد الى التقاعس

وفقدان الاهتمام ــ فان ذلك يوجد كل مبرر لمناقشتها ، على ضوء التطـــورات الاخيرة للسياسة الاميركية في افريقيا ٠

وضعت هذه الدراسة ــ الوثيقة ــ في عام ١٩٧٠ باشراف هنري كيسنجــر ، وكان وقتها مساعدا للرئيس الاميركي نيكسون لشئون الامن القومي ٠ وتتالف من « خمسة اختيارات » مفتوحة امام الولايات المتحدة في افريقيا ، وتتراوح هذه الاختيارات الخمسة بين « التعاون الوثيق » مع نظم الاقليات البيضـــاء الحاكمة ، و « عدم التدخل كلية » في شؤون القارة بأسرها ٠

ويهمنا هنا ــ من اجل فهم موضوعي لما استجد ويستجد في سياسة الولايات المتحدة تجاه افريقيا خلال الفترة الاخيرة ــ مناقشة « الاختيار الثاني » الذي تطرحه « الوثيقة ٣٩ » ٠ مع ملاحظات سريعة عن مضمون كل من الاختيارات الخمســة ٠

● الاختيار الاول : يدعو الحكومة الاميركية الى « تعاون اوثق وصريح مع نظم الحكم البيضاء من اجل الحفاظ على ــ وتوسيع ــ المصالـــح الاميركية ، الاقتصادية والاستراتيجية والعلمية » ٠ (وعلينا ان نلاحظ هنا ان كلمة «علمية» تعني في سياغها البحوث المتعلقة باستغلال مصادر الثروة الطبيعية ، واستغلال المواقع الجغرافية الملائمة في قارة افريقيا لانشاء محطات متابعة الاقمـــــار الصناعية ، التي بدورها تتولى دراسة مواقع الثروات الطبيعية الكامنة تحـت الارض ٠٠ الخ فكلمة علمية هنا لا تعني المعنى الاكاديمي المجرد للكلمة بما لها من قيمة فكرية وانسانية ٠

● الاختيار الثاني : يدعو الحكومة الاميركية الى « ارتباط اوسع مع الدول السوداء والبيضاء على السواء ، بهدف التأثير على الدول البيضاء لتتجه نحو الاعتدال ، وتثبيط الاتجاه الى العنف الذي تؤيده الدول السوداء» ٠ وقد قدمت هذا الاختيار ودافعت عنه مجموعة خبراء لمجلس الامن القومي الاميركـي ، اي مجموعة مساعدي هنري كيسنجر ٠

● الاختيار الثالث : يدعو الحكومة الاميركية الى مواصلة سياستها الافريقية التي مارستها طوال الستينات ، وهي سياسة « الروابط المحدودة » مع نظـــم الاقلية البيضاء ، والاستمرار في علاقات التجارة والاستثمار والمساعدة مـــع الحكومات السوداء المعتدلة ٠ وقد استماتت في الدفاع عن هذا الاختيار المسئولون في ادارة شئون افريقيا بوزارة الخارجية ٠

● الاختيار الرابع : يدعو الحكومة الاميركية الى التنديد بحكم الاقليـــات البيضاء على نحو اكثر وضوحا ، يضمن كسب تأييد الحكومات السوداءللمصالح الاميركية في افريقيـــا ٠

● الاختيار الخامس : يدعو الحكومة الاميركية الى فصم كل ارتباط ممكن لها مع الحكومات السوداء والبيضاء معا في الجنوب الافريقي (الذي تسمية الوثيقة « شبه القارة الافريقية الجنوبية ») ٠

اما لماذا نرى تركيز الاهتمام على « الاختيار الثاني » ، فهذا امر يكشفه محتوى هذا الاختيار نفسه ، اعني المحتوى سياسيا وما ينطوي عليه من منهجية في تناول مسائل العلاقات الدولية من زاوية المنظر الاميركية ، فضلا عن ان هذا الاختيار قد لقي تأييد هنري كيسنجر منذ ذلك الوقت ، وتبناه ودفع به الى قنوات التنفيذ العملي في وزارة الخارجية الاميركية وفي البيت الابيض ٠ ولا يزال هذا الاختيار قائما يؤدي دوره ووظيفته في السياسة الخارجية الاميركية بعد رحيل كيسنجر عن منصبيه ، اللذين من خلالهما اسهم في صياغة « الوثيقة ٣٩ » ووضعها موضع التنفيذ ، وهما منصب وزير الخارجية ومنصب رئيس مجلس الامن القومي (مساعد الرئيس الاميركي لشئون الامن القومي) ٠

وقد بدات مناقشة « الاختيار الثاني » في الوثيقة بمقدمة مفادها « ان البيض في افريقيا وجدوا ليبقوا ، وان الطريقة الوحيدة التي يمكن بها احداث تغيير هي من خلالهم»٠ واوصى الاختيار باتباع استراتيجية ذات شقين : «تحقيق استرخاء انتقائي في موقفنا ازاء نظم الحكم البيضاء » من اجل تشجيع الاعتدال ، و « مزيد من المساعدة الاقتصادية الكبيرة للدول السوداء ، من اجل المساعدة على الجمع بين المجموعتين وممارسة قدر من النفوذ في سبيل تغيير سلمي » ٠

يرمي هذا الاختيار بصورة محددة الى انتهاج سياسة اميركية « اكثر ليونة» تجاه حكم ايان سميث العنصري في روديسيا ٠ وكان يرمي – في الوقت الذي وضعت فيه هذه الدراسة الى قبول السياسات البرتغالية (السابقة على حركة القوات المسلحة – في نيسان ١٩٧٤) باعتبارها توحي بمزيد من التغيير في مستعمرات البرتغال الافريقية] ٠ ويتعهد الاختيار ببذل جهد اكبر لاقناع الدول السوداء بان العنف ياتي بنتائج مضادة ٠ وتصور واضعو « الاختيار الثاني » انه لا بد من مرور فترة خمس سنوات تقريبا (تبدا من منتصف عام ١٩٧٤) قبل ان يصبح في الامكان الحصول على استجابة من البيض ، وقبل ان يصبح في امكان السود ان ينصتوا الى صوت السياسة الاميركية ، وعلى هذا الاساس فانهم اقترحوا تسريع التغيير في مواقف البيض عن طريق اشارة الى استعداد لدى الولايات المتحدة « لقبول اجراءات سياسية تضمن تقدما نحو مشاركة سياسية واسعة باشكال معينة من جانب كل السكان، بما يكون اقل مباشرة من حكم الاغلبية » ٠

كذلك دعا « الاختيار الثاني » الى استمرار فرض حظر تصدير الاسلحة مباشرة الى جنوب افريقيا والى المستعمرات البرتغالية ،ولكنه ادخل تعديلا هاما

يقضي باتباع « معاملة متحررة بالنسبة للمعدات التي يمكن ان تخدم اغراضا عسكرية ومدنية معا » · وبعد اشهر قليلة من وضع هذا الاختيار موضع التنفيذ قال مساعد وزير الخارجية الاميركي للشؤون الافريقية « دونالد نيوسوم » ان هذا التعديل قد « بدل سياسة الحظر » · وشرح ما يعنيه قائلا « اننا لا نصرح ـ مثلا ـ طبقا لمباديء الحظر ـ باصدار اذون بتصدير طائرات عسكرية ، او طائرات نقل ضخمة للاستخدام العسكري ، ولكننا يمكن ان ننظر في الاذن باعداد صغيرة من الطائرات غير المسلحة ذات الطابع المدني » ·

وبالنسبة لاهمية هذا التعديل للبرتغال ، فانها تتمثل في بيع عدد من الطائرات النفاثة الضخمة الى البرتغال ، وهي طائرات استخدمت طوال السنوات الثلاث الاولى من السبعينات في نقل القوات والمعدات البرتغالية على أوسع نطاق الى المستعمرات البرتغالية آنذاك ·

وبالنسبة لجنوب افريقيا فان التعديل قد انعكس مباشرة في ارتفاع قيمة مبيعات الطائرات الاميركية للحكومة العنصرية البيضاء من ٣١ مليون دولار في العام ١٩٧٠ الى ٨٠ مليون دولار في العام ١٩٧٢ · وقد استخدمت الطائرات الاميركية بوجه خاص في تسيير دوريات مراقبة جوية على الحدود الشمالية لجنوب افريقيا ·

وفي الوقت نفسه فان البرتغال وجنوب افريقيا تمكنتا بذلك من شراء انواع من مبيدات النبات والغازات الفتاكة من الولايات المتحدة، من انواع كانت تستخدمها الاخيرة في فيتنام في السنوات نفسها من اوائل السبعينات ·

كذلك فقد دعا «الاختيار الثاني» الى تكثيف الدعاية الاميركية في بلدان افريقيا، وتكثيف برامج تبادل الزيارات مع الدول السوداء والبيضاء على السواء · واوصى بالتبادل العسكري كجزء من « برامج تبادلية انتقائية مع جنوب افريقيا » · وبالفعل فان تدفق الزوار من دول الجنوب الافريقي على الولايات المتحدة قد زاد بشكل هائل في السنوات التي تلت وضع هذا الاختيار موضع التنفيذ · وبصفة خاصة فان عددا كبيرا من زعماء جنوب افريقيا القبليين (المتعاونين مع حكومة بريتوريا العنصرية وليس الزعماء الوطنيون) وكذلك زعماء نقابات العمال ورجال الاعمال من جنوب افريقيا ، قاموا بزيارات جابوا خلالها انحاء الولايات المتحدة كضيوف على وزارة الخارجية الاميركية ·

وعلى الرغم ان السياسة المعلنة للحكومة الاميركية ـ هي تحريم تبادل زيارات العسكريين مع جنوب افريقيا ، فان هذه الزيارات يتم تبادلها فعلا تحت غطاء كونها « زيارات خاصة » او «ذات طابع شخصي» · وبهذه الصفة قام «الادميرال بيرمان» رئيس اركان حرب قوات دفاع جنوب افريقيا بزيارة للولايات المتحدة

في شهر آيار (مايو) ١٩٧٤ ، واجرى محادثات مع اثنين من اكبر المسئولين في « البنتاغون » (وزارة الدفاع الاميركية) هما « توماس مورر » رئيس هيئة اركان الحرب الاميركية المشتركة (وهو اعلى منصب عسكري اميركي) ووزير البحرية الاميركي آنذاك وليام ميدندورف · وقد تمت زيارة الادميرال وقتئذ على الرغم من ان ادارة افريقيا في وزارة الخارجية الاميركية رفضت التوصية بمنحه تأشيرة دخول للولايات المتحدة ، عى اساس ان ذلك مناقض لروح الحظر العسكري المفروض على جنوب افريقيا · الا ان عددا من اعضاء مجلس الشيوخ الاميركي ذوي النفوذ القوي بحثوا الامر مع مساعدي كيسنجر (الذي كان قد اصبح وزيرا للخارجية في عام ١٩٧٣ ، فاعطيت التأشيرة للادميرال العنصري ·

من ناحية اخرى دعا الاختيار الثاني في « الوثيقة ٣٩ » الى تشجيع الاستثمارات والتجارة مع جنوب افريقيا ، ورفع الحظر على تقديم قروض او تسهيلات ائتمانية بضمان الحكومة الاميركية لحكومة جنوب افريقيا · وكان الموقف الرسمي المعلن قبل ذلك هو الامتناع عن التشجيع او التثبيط الرسمي للاستثمارات الاميركية في جنوب افريقيا · ومع ذلك فقد استمرت القنصليات الاميركية في مدن جنوب افريقيا المختلفة تقدم التسهيلات الرسمية للمؤسسات الاميركية العاملة هناك · وخلال السنوات الخمس الاولى من السبعينات زادت استثمارات رأس المال الاميركي في جنوب افريقيا بنسبة تربو على ٣٥ في المائة·

يلاحظ في هذا الصدد ان اثنين من توصيات « الاختيار الثاني » في « الوثيقة » لم يوضعا برسم التنفيذ · احداهما توصية بالغاء الحظر الذي فرض على زيارة البحرية الاميركية (رجالها وسفنها) لجنوب افريقيا — وهو حظر كان قد فرض ردا على تعرض البحارة الاميركيين الزنوج للتمييز العنصري اثناء زيارة لكيب تاون في العام ١٩٦٧ ، والثانية توصية بالاحتفاظ بمحطة متابعة الاقمار الصناعية الاميركية في جنوب افريقيا · فقد اغلقت المحطة في اواخر عام ١٩٧٥· وفي الحالتين فان الجرح الذي كان يمكن ان ينشأ عن تنفيذ التوصيتين بالنسبة للحكومة الاميركية كان في تقديرها اكبر من الفائدة التي يمكن ان تعود من تنفيذهما ·

وفيما يتعلق بروديسيا فان الاختيار الثاني اوصى بالاحتفاظ بالقنصلية الاميركية في سولزبوري ، وتخفيف العقوبات الاقتصادية تدريجيا ضد حكومة ايان سميث ، والعمل على الاعتراف في النهاية بهذه الحكومة اعترافا كاملا · وقد جاءت التوصية بالاحتفاظ بالقنصلية الاميركية نتيجة ضغوط من وكالة المخابرات المركزية ، التي كانت تريد حماية عملياتها في المنطقة بغطاء رسمي · ولكن الحكومة البريطانية مارست ضغطا على حكومة نيكسون لاغلاق هذه القنصلية واغلقت القنصلية فعلا في عام ١٩٧٠ · وفي الوقت نفسه بدأ تخفيف

العقوبات واصدرت حكومة نيكسون قرارها بالسماح باستيراد ١٥٠ الف طن من « الكروم » الخام · وبعد هذا القرار نشطت العناصر المؤيدة لدعم العلاقـات بين الولايات المتحدة وحكومتي بريتوريـا وسولزبوري تنشط في المساومـات البرلمانية الخلفية في الكونغرس واوساط الحكومة · ولم يكن مفاجئا بعد ذلك ان يقوم « كلارك ماكريغور » مدير حملة اعادة انتخاب نيكسون في العـام ١٩٧٢ بزيارة لروديسيا ، حيث ابلغ ايان سميث انه يتوقع اعتراف الحكومة الاميركية بحكومته خلال وقت قصير · ويعتقد مراقبون اميركيون ان « فضيحة ووترغيت» حالت دون تنفيذ هذا الوعد ، وحالت بالتالي دون وضع هذه التوصية مـن توصيات « الاختيار الثاني » موضع التنفيذ ·

وفيما يتعلق بمسالة ناميبيا فان « الاختيار الثاني » لم يدع لتغيير في الموقف الاميركي القائم الذي يعتبر ان احتلال جنوب افريقيا للاقليم « غير مشروع » ، الا انه اوصى بالتقليل من الاهتمام الذي تحاط به قضية ناميبيا ، وتشجيع اعادة التقارب بين حكومة جنوب افريقيا والامم المتحدة · وتحقيقا لهذه التوصيـة رفضت الولايات المتحدة الانضمام الى عضوية مجلس الامم المتحدة الخـاص بناميبيا ، وقاومت الجهود لتقوية سلطة هذا المجلس ، الذي يرمي الى التمهيد لاستقلال ناميبيا عن جنوب افريقيا باشراف المنظمة الدولية · وكان المنـدوب الاميركي من اشد المندوبين حماسا لاقتراح ساقط بتاييد حوار بين جنوب افريقيا والامم المتحدة بشان ناميبيا ·

وفي ذلك الوقت حاول « نيوسوم »مساعد وزير الخارجية الاميركي لشئـون افريقيا تبرير سياسة الولايات المتحد ةازاء ناميبيا ، بوصفها بانهـا تحبـذ « الاتصال » مع جنوب افريقيا ، « والاتصال لا يعني القبول ، انما هو يعني ـ بمعنى ما ـ تحديا اكبر من العزل · ويمكن ان يعني املا اكبر يمكن ان يعطي للسود والبيض على السواء ممن يبحثون عن سبيل اخر (غير سبيل العنف)»· ولكن كان من الواضح ان « الاتصال » الذي تحدث عنـه المسئول الاميركي لم يكن يشمل اي اتصال مع حركات التحرير · ولهذا فان نتيجته الطبيعية كانت تقوية مركز العناصر اليمينية المتطرفة في جنوب افريقيا ، وخاصة « الحـزب الوطني » وزعيمه « كوني مولدر »(Connie Mulder) الـذي اعتبر اكبـر المستفيدين من سياسة « الاتصال » الاميركية مع جنوب افريقيا · ففي الوقـت نفسه رفض كيسنجر ومساعدوه اقتراحا ـ من داخل الاوساط الاميركية ـ بتنظيم اجتماع سري مع الزعيم الغيني الراحل « اميلكار كابرال » اثنـاء زيارتـه للولايات المتحدة (١٩٧٢) · واحتفظت الولايات المتحدة بهذا الموقف ، حتى بعد ان اصبحت « حركة تحرير غينيا ـ بيساو »الرأس الاخضر » حكومـة غينيا ـ بيساو المعترف بها من عشرات من دول العالم · وكانت الولايات المتحدة الصوت

الوحيد الذي ارتفع معترضا على ضم غينيا ـ بيساو الى عضوية منظمة الصحة العالمية التابعة للامم المتحدة في مايو (ايار) ١٩٧٤ ، وكانت ـ في النهاية ـ آخر دولة اعترفت بهذه الحكومة الوطنية ٠

وجاء بعد ذلك اكثر مواقف الولايات المتحدة تعبيرا عن تاييدها لسياسة دعم حكومات الاقليات البيضاء عندما استخدمت حق الفيتـو (الاعتراض) في عام ١٩٧٤ في مجلس الامن ضد طرد جنوب افريقيا من الامم المتحدة ٠ وعلى الرغم من ان هذا الموقف اثار موجات نقد حادة ضد الولايات المتحدة من جانب الدول الافريقية ، فان الحكومة الاميركية اشاحت عن ذلك النقد كله معتبرة ان « الفيتو » سيرفع اسهمها في « بريتوريا » ٠ ومع ذلك فلم يبد على مدى السنوات التـي مضت منذ استخدام الفيتو الاميركي لمصلحة حكومة بريتوريا ان اسهم اميركا هناك اسهمت فيدعم اتجاه اصلاحي ومعتدل في جنوب افريقيا ، وهي الحجة التي استندت اليها الولايات المتحدة عندما اعترضت على طرد جنوب افريقيا من الامم المتحـدة ٠

(يشبه هذا الموقف كثيرا الحجة التي تتذرع بها الولايات المتحدة كلما قدمت لاسرائيل شحنات جديدة من الاسلحة او المساعدات الاقتصادية ٠ والقائلة بان هذا الدعم الاميركي يتجه باسرائيل نحو الاعتدال) ٠ ولكن يبدو ان كل ما كان يطمح اليه المسئولون الاميركيون من اعتدال من جانب حكومة بريتوريا ، هو «ان تكف عن اجراءاتها العنصرية القصيرة النظر مثل رفضها منح تاشيرات دخول للسود الاميركيين » !

يمكننا ان نخرج من هذه الوثيقة ـ وبالتحديد من « الاختيار الثاني» فيها ـ الذي نذهب الى انه موضع التنفيذ منذ اوائل السبعينات الى الان ـ بالملاحظات التاليـة :

● **ان الولايات المتحدة ترمي الى فرض الامر الواقع ٠ ولكن بعد تمويهه بمتغيرات خارجية شكلية** ٠ والاساسية في هذا الامر الواقع هو وجود حكومات الاقليات العنصرية البيضاء واستمرار وجودها ، واستمرار الولايات المتحدة في الاعتماد على هذا الوجود ٠ (ولعلنا لا نبتعد عن الواقع اذا قلنا ان الملمح من ملامح السياسة الاميركية موجود في الشرق بالنهجية ذاتها) ٠ والنتيجة العملية لهذه السياسة هي استمرار وجود حكومة بريتوريا عضوا في الامم المتحدة بصوت اميركا وحدها ٠

● **ان السياسة الخارجية للولايات المتحدة لا تزال سياسة كيسنجرية ، وان تكن بدون كيسنجر نفسه ٠ فان « الاختيار الثاني » هو اختيار كيسنجر بكل ملامحه ، تتمثل فيه طريقة مواجهة المشكلات بتعميدها واقعا جوهريا ، ثم اغفالها**

او الالتفاف من حولها ، او معالجتها بالمسكنات التي تقلل الشعور بالالم ، ولكنها لا تقضي على الاغراض ، ولا تمنع تفاقمها ·

● ان محور سياسة الولايات المتحدة في افريقيا يتمركز على « شبه القارة الجنوبية الافريقية » · الامر الذي يوحي في كثير من الجوانب بغياب سياسة اميركية خاصة بافريقيا خارج هذا الحزام الجنوبي ، الذي يتكون من جنوب افريقيا وروديسيا وناميبيا وليسوتو وبرتسوانا (والبلدان الثلاثة الاخيرة لا تخرج عن كونها محميات جنوب افريقية وان كانت الاخيرتان دولتين مستقلتين من الناحية النظرية) ومالاوي وزامبيا وزائير · وقد كانت المستعمرات البرتغالية (انغولا وموزمبيق اساسا) تدخل في هذا الحزام الجنوبي قبل استقلالها · ويكشف هذا « الغياب » بدوره حقيقة ان اميركا لا تنظر ابدا الى افريقيا كوحدة متكاملة · (وهنا ايضا يمكننا القول ان اميركا تطبق في هذا نفس ما تطبقه بالنسبة للوطن العربي فهي لا تنظر ابدا اليه كوحدة متكاملة وتريد دائما التعامل معه كمناطق منفصلة ان لم يكن كاقطار منعزلة) ·

● ان الولايات المتحدة لا تعتزم ان يكون لها دور مباشر ضد « العنف » (اي ضد الثورة) في افريقيا ، ولكنها ستبذل كل ما بوسعها لاحباط « العنف » ، وفي الوقت نفسه تقوية دور « البيض » في القارة ما دامت هي لا تريد التورط مباشرة في القارة ، بمعنى ان تكون الحكومات البيضاء هي « قبضة » الولايات المتحدة في القارة ·

● ان الولايات المتحدة لا تلغي كلية دور النظم الافريقية السوداء في سياستها الافريقية ، فان الحكومات « المعتدلة » تشكل ايضا ــ وفي الترتيب بعد النظم « البيضاء » ــ ركائز للسياسة الاميركية في القارة ·

● ان الولايات المتحدة مستمرة في تجاهل النظم الثورية وحركات التحرر الوطني في افريقيا ، بشكل يسمح للمرء بان يستنتج ان واشنطن ليست بصدد اي تحول ــ او تظاهر بتحول ــ نحو تاييد القوى الوطنية في افريقيا ، وان حدود تحولها لا تتجاوز تقديم النصح للنظم البيضاء بأن تبدي قدرا اكبر من الاعتدال يمكنها من الاستمرار في اداء دورها ·

الى ان هناك رايا له مبرراته الموضوعية يذهب الى ان الاهتمام الاميركي بالشئون الافريقية ضعيف اصلا ، ويبقى ضعيفا حتى بعد وضع الاختيار الثاني من « الوثيقة ٣٩ » موضع التنفيذ · ويدلل اصحاب هذا الراي على وجهة نظرهم بطرح اسئلة بشأن افريقيا يؤكدون انه لا توجد لها لدى المسؤولين الاميركيين اجابات واضحة او كافية كما هو الحال لو طرحت الاسئلة نفسها عن السوق الاوروبية المشتركة ، او حلف الاطلسي ، او الشرق الاوسط · فما هي العوامل

الرئيسية المؤثرة في سياسة الولايات المتحدة تجاه افريقيا؟ هل توجد استراتيجية اميركية عامة بشأن افريقيا؟ ماذا عن انعكاسات ذلك على مسائل افريقية محددة مثل روديسيا ونزاعات الحدود المتعددة والتنمية الاقتصادية ·· الخ ·

ويتفق معظم مراقبي الشئون الافريقية ـ بما فيهم الاميركيـــون ـ على ان هنري كيسنجر ، الذي لا يزال يعد اكثر وزراء الخارجية الاميركيين تاثيرا ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ـ على الاقل ـ في مسار السياسة الخارجية للولايات المتحدة ، لم يبد اهتماما كبيرا بعلاقات الولايات المتحدة مع افريقيا ، ولم يكن يعتبرها ذات اهمية استراتيجية للمصالح الاميركية ، حتى ان اسم افريقيا نادرا ما يرد ذكره في الكتب والمقالات الكثيرة التي نشرت عن كيسنجر على مـــدى السنوات العشر الاخيرة · وقبيل قيام كيسنجر برحلة الى دول افريقيا في اواخر النصف الاول من عام ١٩٧٦ ، قال صحفي اميركي مـــن المعنيين بالشئـون الافريقية : « اذا اصبحت لدينا سياسة افريقية ، فلا بد ان توجد في فراغ ، دون قيادة عارفة سواء من الرئيس او من وزير الخارجية » (ستيفن لويد ـ مجلـة Africa البريطانية ، العدد ٥٣) · وهو يشير الى مقدار عدم الفهم المتوفر لدى الحكومة الاميركية بالقرار الذي اتخذته في عام ١٩٧٥ بتعيين (ناثانيل ديفيز » مساعدا لوزير الخارجية للشئون الافريقية بعد ان كانت دول افريقية كثيرة قـد نددت به بسبب دوره السيء السمعة في انقلاب تشيلي ضد حكومـــة الرئيس سلفادور الليندي عام ١٩٧٣ ، فضلا عن انعدام خبرته بالشئون الافريقية · وكان تعيين ديفيز في هذا المنصب قرارا شخصيا من كيسنجر الذي كان يريـده أن يكون كبير مستشاريه لشئون افريقيا ·

وقد كان بعض الدبلوماسيين يتصورون ان تستعين الحكومة الاميركية ، مـن اجل بناء سياسة افريقية قوية لها ـ بمجموعة اعضاء الكونغرس السود (١٧ عضوا) الذين يمكن ان تخرج منهم قيادة قوية لسياسة اميركية تجاه افريقيا · الا ان نفوذ هذه المجموعة التي تسمى Caucus ضئيل في دوائر الكونغرس الاميركي ، وضئيل جدا لدى السلطة التنفيذية (البيت الابيض) · ويرجع ذلك الى ان ايا من اعضائها لا يتولى منصبا مؤثرا في اي من لجان الكونغرس الهامة (كلجنة العلاقات الخارجية ، ولجنة القوات المسلحة ·· الخ) ومجموعة اعضاء الكونغرس السود مشغولة ـ بطبيعة الحال ـ بالمسائل الداخلية الخاصة بالسود الاميركيين ، وليس بمسائل السود الافريقيين ، ولم يتغير هذا الحال رغم ان كيسنجر عقد اجتماعا مع هذه المجموعة في آب (اغسطس) ١٩٧٥ ، وابـــدى لها تشجيعا على الاهتمام بالمسائل الافريقية ، فالحقيقة ان كيسنجر كان ضد اي دور هام للكونغرس في امور السياسة الخارجية ·

وخارج اطار مجموعة اعضاء الكونغرس السود ، فان الاهتمام في الكونغرس

بشكل عام بالمسائل الافريقية محدود للغاية ، وان كان بعض اعضاء مجلس الشيوخ ـ مثل ادوارد كينيدي وهيوبرت همفري ـ يبدون قدرا من الاهتمام الشخصي الذي يكاد يتخذ طابعا « انسانيا » اكثر منه سياسيا ·

قد تكون هذه المعلومات ـ في جزئياتها ـ صحيحة ، ولكن من قبيل التبسيط المخل الخروج منها ـ في كلتيها ـ باستنتاج بانه ليست للولايات المتحدة استراتيجية افريقية او سياسة افريقية · انما يمكن فقط القول بان الاستراتيجية الافريقية للولايات المتحدة بقيت لسنوات طويلة في حالة خمول او سكون ، ولكنها ظهرت بوضوح وبقوة بمجرد ان ايقظتها احداث جديدة في القارة · ولا يعني الخمول السابق الا ان الولايات المتحدة كانت تحس بأن هناك تناسبا حسابيا بين مقدار الاستقرار في القارة ومقدار ما لها من مصالح ـ استراتيجية واقتصادية ـ فيها · ولا يعني زوال حالة الخمول ، والمعودة الى سياسة نشطة الا ادراك واشنطن باختلال هذا التناسب نتيجة تغير في معادلتي الاستقرار = المصالح · فالاستقرار (من وجهة النظر الاميركية) اختل منذ انهيار الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية في افريقيا وما جره من نتائج : ايجابية بالنسبة لحركة التحرر الوطني ضد النظم البيضاء الباقية ، وسلبية بالنسبة لتلك النظم التي تعتبرها الولايات المتحدة ركيزة الاستقرار · واما المصالح فقد ازدادت حجما واهمية ، اذ ازداد حجم الاستثمارات الاميركية في القارة ، واتسع نطاق التحرك الاستراتيجي الاميركي (عسكريا وبتروليا معا نتيجة ازمة الطاقة · ولنلاحظ ان افريقيا تمثل في قطاعات كاملة منها «مناطق بترولية ») ·

وفيما قبل انهيار الامبراطورية البرتغالية في افريقيا ـ الذي عجلت به او وقتت له حركة القوات المسلحة البرتغالية في نيسان ١٩٧٤ ، فان الولايات المتحدة كانت تضع افريقيا في الترتيب الاخير من سلم اولويات العلاقات الدولية · بعد اوروبا الغربية واسيا واميركا اللاتينيةوالشرق الاوسط · وكان هذا ينعكس على مقدار « المساعدات » الاقتصادية والعسكرية المخصصة لنظم افريقية تعتبرها الولايات المتحدة صديقة لها · لقد نالت افريقيا ـ في مجموعها ـ من برنامج المساعدات الخارجية الاميركي في العام ١٩٧٥ ـ الذي كان بداية تحسين مستوى الاهتمام الاميركي بالقارة ـ ١٦٩مليون دولار ، اي حوالي جزء من عشرين من المساعدات التي حصل عليها بلد واحد ـ هو اسرائيل ـ من اميركا في العام نفسه !

وفي الوقت نفسه فان الولايات المتحدة ـ حتى الانهيار الاستعماري البرتغالي ـ لم تكن تعتبر افريقيا منطقة مواجهة سوفياتية ـ اميركية او منطقة تدخل اميركي مباشر · وعندما حدث هذا الانهيار كانت الولايات المتحدة قد ارغمت على ان تنتهج استراتيجية مضادة لاستراتيجية التدخل المباشر ـ على المستوى العالمي ـ

بعد الهزيمة الكاملة في فيتنام · وكان هذا هو العامل المباشر وراء شحوب الحضور الاميركي ابان الصراع الانغولي ·

وبالاضافة الى هذه العوامل الاميركية في ضعف سياسة الولايات المتحدة ودورها في افريقيا · كان هناك العامل الافريقي ·· فان تحالف الولايات المتحدة مع النظم البيضاء ضد حركات التحرر الوطني ، واتخاذها موقفا سلبيا حتى من النضال ضد التمييز العنصري قد اضعف ديناميكية اي تحرك اميركي تجاه افريقيا · وزاد من سوء سمعة اميركا ، تسرب بعض جوانب من وثيقة دراسة الامن القومي الاميركية (رقم ٣٩) الى بعض الدول الافريقية في صيف عام ١٩٧٤ · فقد كانت الوثيقة تكشف ـ من وجهة نظر افريقية ـ انعدام التعاطف ، مجرد التعاطف ، من جانب الولايات المتحدة مع حركات التحرر ، وتعكس بالقدر نفسه اخفاق اميركا في فهم اتجاهات الحركة السياسية في افريقيا طوال الاعوام العشرين السابقة · ولم تكن سمعة الولايات المتحدة في حاجة الى لطمة جديدة في افريقيا عندما اقر الكونغرس الاميركي مشروع القانون الذي عرف باسم «تعديل بيرد » Byrd Amendment وهو التشريع الذي سمح بكسر قيود العقوبات الاقتصادية على نظام سميث في روديسيا لاستيراد الكروم منها · وكانت الولايات المتحدة الدولة الوحيدة في العالم التي اصدرت قانونا صريحا بانتهاك قرارات الامم المتحدة في هذا الشأن · وقد ادى هذا القانون وباعتراف ناثانيال ديفيز مساعد وزير الخارجية الاميركية آنذاك الى « مد حكومة سميث غير الشرعية بعملات اجنبية كانت في امس الحاجة اليها وبدعم سيكولوجي ··· وادى الى جعل علاقاتنا مع الاغلبية الساحقة من الافريقيين اقل ودا مما كان يمكن ان تكون» ·

وفي ظل تلك الظروف فان الصراع الانغولي فاجأ الولايات المتحدة بتحرك ديناميكي قوي من جانب الاتحاد السوفياتي في صف احدى القوى الداخلية المتصارعة داخل انغولا · وهو دور شاركت فيه كوبا بفعالية قوية · ووجدت الولايات المتحدة نفسها امام هذه المفاجأة مضطرة للاقتصار على « التحذير »من آثار الدور السوفياتي ـ الكوبي على « الانفراج الدولي » وعلى العلاقات الثنائية بين الدولتين الاكبر · فقد قال كيسنجر مرة (أمام النادي الاقتصادي في ديترويت في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٥) «ان الولايات المتحدة لا تستطيع ان تبقى غير مبالية ازاء التدخل السوفياتي والكوبي في انغولا ، وهذا ما يمكن ان تكون له عواقبه بالنسبة لمستقبل الانفراج · نحن لا نستطيع مثلا ان نتجاهل الحشد الكبير من الاسلحة السوفياتية في انغولا ، الذي ادخل تنافس الدول الكبرى الى افريقيا لاول مرة منذ ١٥ عاما » ·

ولكن كيسنجر ـ على الرغم من هذا التحذير ـ استبعد اي محاولة كبيرة من

جانب الولايات المتحدة لاحباط «التدخل السوفياتي في انغـولا » · كل مـــا استطاعته وقتها انها نقلت كميات من الاسلحة الاميركية ـ وصفتها مصـــادر افريقية وغربية بانها « متواضعة » ـ الى حركة « يونيتا » و « الجبهة الوطنية لتحرير انغولا » عن طريق زائير · ووصف كيسنجر في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ الموقف كما كانت تراه واشنطن بقوله انه منـــذ منتصف تموز (يوليو) والموقف يتحول عسكريا بصورة جذرية لصالح الجبهة الشعبية لتحرير انغولا · وقد اصبحت زائير وزامبيا اكثر قلقا بشأن تأثيرات ذلك على امنهما ، واتجهتـا الى الولايات المتحدة لطلب المساعدة في منع الاتحاد السوفياتي وكوبا من فرض حل في انغولا » ·وبالاضافة الى هذا كان هناك قلـــــق اميركي خاص علـى استثماراتها في زائير (٨٠٠ مليون دولار) الذي جاء الموقف في انغولا يضيف اليه عاملا خطيرا ، علاوة على عوامل عدم الاستقرار الداخلي في زائير واهتزاز نظام موبوتو ، وانهيار اسعار النحاس العالمية ·

الذي حدث في ذلك الوقت انه على الرغم من تغير الظروف وتحول اتجـــاه الاحداث نحو اختلال المعادلة الاميركية الاستقرار = المصالـح ، فان الولايات المتحدة بقيت على تمسكها باطروحات « الاختيار الثاني » التي شرحناها ،واتخذ تحالفها الضمني مع النظام العنصري في جنوب افريقيا صورة اكثر سفـــورا يدفعها هذا النظام الى التدخل في الصراع الدائر في انغولا ، مغفلة اثار ذلـك على الدول الافريقية وموقفها من الولايات المتحدة ، بلمغفلة ظروف جنـــوب افريقيا الداخلية ـ آلسياسية والاقتصادية ـ التي لم تكن تهيئها ! لا للخروج خاسرة من هذا التدخل · لقد اساءت الولايات المتحدة تقدير قوة قواعدها في القارة (جنوب افريقيا ـ روديسيا ـ زائير ···) واساءت تقدير ردود الفعـــل الافريقية ازاء استخدامها مخالب النظم العنصرية ضد جسم افريقي هو انغولا، واساءت ، في الوقت نفسه ، تقدير قوة القـوى المتصارعـة داخـل انغولا ·· واعتمدت فقط مقولة التصدي للتدخل السوفياتي ـ الكوبي ، وكانها كافية وحدها لتبرير سلسلة الاخطاء الاميركية · وهكذا وقعت الاستراتيجية الاميركية في فخ احادية النظرة ، التي جعلتها اسيرة تحديد مصالحها في افريقيا بمقياس واحد هو وجود او غياب تدخل سوفياتي ، ولم يكن ذلك سوى استمرار لموقف عدم التعاطف مع حركات التحرير الوطني ، التي كان نضالها هو الصانع الاساسي لاتجاه حركة افريقيا السياسية لاكثر من عشرين عاما ·

ان حجم الاستثمارات الاميركية في « افريقيا جنوب الصحراء » يقدر بنحـو ١٦٠٠ مليون دولار (في نهاية عام ١٩٧٥) بينما تقدر الاستثمارات الاميركية في افريقيا كلها بنحو ٢٥٠٠ مليون دولار وتبلغ قيمة تجارة اميركا مع افريقيـا عامة حوالي ١٥٠٠ مليون دولار · وتمتلك الشركات الاميركية ٥٦ بالمائة مـن راسمال الصناعة والتجارة في جنوب افريقيا وروديسيا ، ويبلغ عدد الشركات

الاميركية التي تعمل في هاتين الدولتين ٣٠٠ شركة · وبطبيعة الحال يهـم الولايات المتحدة ان تحصل ، وان تستمر في الحصول من افريقيا على اليورانيوم والبلاتين والكروم والمنجنيز ·· ولهذا فانها لا تستطيع ان تقوم بعملية فك ارتباط مع افريقيا ، ولا تستطيع في الوقت نفسه ان تتنصل من مشكلاتها في القارة · هذا ما لا تستطيعه ·· فما الذي تستطيعه الولايات المتحدة ؟·

لقد وصفت صحيفة « وول ستريت جورنال » الاميركية ــ الناطقة بلسان دوائر الاعمال والتجارة م ٧ ل في نيويورك ــ السياسة الاميركية في افريقيا ، في نيسان ١٩٧٦ ، وكانت اللطمة التي تلقتها في انغولا لا تزال مطبوعة ساخنة على وجه هنري كيسنجر ··· وصفتها بأنها « تاهت نهائيا في السنوات الاخيرة بيـن المواربة والاسفاف » ·

ومن قبيل المواربة فان الولايات المتحدة ابتلعت غصتها من انتصار الجبهـة الشعبية لتحرير انغولا ، والاخفاق الاميركي في تزويد الحرب الاهلية في انغولا بوقود الاستمرار ، وفي تخويف كوبا او ثني الاتحاد السوفياتي عن مساعـدة الجبهة الشعبية ·ولكنها في الوقت نفسه ارادت ان تغير صورتها في عيـون الافريقيين · ومن قبيل المواربة ايضا ذهب هنري كيسنجر الى جولته الافريقيـة التي صاحبها طنين كثير في ايار ١٩٧٦ · وبقدر ما اعتبر القيام بهذه الجولة جزءا من محاولة كسب اصوات الزنوج الاميركيين للرئيس الاميركي فورد ، حيث كانت مهلة انتخابات الرئاسة في اوجها ، فان فشل الرحلة لا بد ان يعد من اسبـاب فشل فورد · فمن قبيل المواربة كانت الرحلة كلها · ومن قبيل المواربة وقـف كيسنجر يقول : « على الافريقيين ان يبرهنوا على ان باستطاعتهم حكم انفسهم، حتى نسارع ونساعدهم على تغيير الاوضاع السياسية في بلادهم » · وربمـا اعتقد كيسنجر ان ساسة افريقيا يعانون من ضعف الذاكرة · ولم يكن ذلـك صحيحا · فقد خرجت الصحف الافريقية اثناء جولته تذكره بتصريح له في عام ١٩٧٠ قال فيه بالحرف الواحد : « ان الحركات الافريقية التحررية والتي تناضل ضد الاستعمار البرتغالي وضد حكومات الاقلية البيضاء في روديسيا وجنوب افريقيا هي حركات غير مرغوب فيها ، ولا تستطيع اميركا التعامل معها ، لانها لا تستطيع الضغط على المستعمرين البيض » ·

ومن قبيل الاسفاف كان رد كيسنجر على الزعماء الوطنيين الافريقيين الذين طالبوه بان تقدم اميركا السلاح من اجل نضال الافريقيين ضد العنصريـين البيض : « السلاح لا ·· اننا لا نرغب في تدخل اجنبي في افريقيا · ولكـن اعطونا مهلة ثلاثة اشهر فقط حتى نفكر بحلول سياسة ترضي الجميع · نحن نحبذ حكم الاكثرية السوداء في روديسيا ·» ! ويومها كان تعليق مجلة « جون افريك » على تصريحات كيسنجر : « ان كيسنجر وامثاله لا يهمهـم الشعب

الافريقي ، حتى ولا الانسان في اي مكان · هؤلاء يهمهم مصالح بلادهم المالية والاقتصادية فقط · لذلك نقول : لا مفاوضات دون قتال · قاتلوا وفاوضوا في وقت واحد · ولكم في اسرائيل ربيبة اميركا افضل مثال ـ ان اليهود الاميركيين البالغين ستة ملايين فقط يسيطرون على اميركا سيطرة كاملة ، يامرونها فتأتمر دون ان تتجاسر حتى على التردد ··»

ومن قبيل الاسفاف كان كيسنجر يريد ان يظهر كما لو ان سياسة اميركا تجاه افريقيا قد تغير اتجاهها بزاوية ١٨٠ درجة ·· بينما كان كل هم كيسنجر البحث عن طبقة بورجوازية افريقية تقبل تنفيذ رغبات اميركا كما ينفذها البيض في جنوب افريقيا وروديسيا ، وهي تنحصر في : (١) وقف الزحف السوفياتي ـ الكوبي ؟ (٢) المحافظة على استغلال الموارد الطبيعية في افريقيا ؟ (٣) تأمين طريق البترول الى الغرب الاوروبي والاميركي ·

ومن قبيل الاسفاف كان موقف كيسنجر الذي عبر عنه ازاء قضية استقلال ناميبيا لقد اعلن كيسنجر ان الولايات المتحدة لا تعارض فيمنح الاستقلال لناميبيا ، ولكن بشروط ·· وهذه هي الشروط الاميركية :

١ ـ القضاء على جبهة تحرير ناميبيا ·

٢ ـ ابقاء رأس المال التابع لجنوب افريقيا على ما هو عليه ·

٣ ـ قبول ادخال رأس المال الغربي والاميركي اليها بلا قيود ·

٤ ـ اشراف اميركي على جميع موارد الانتاج في ناميبيا حتى يستطيع الافريقيون استخدام الالات التي سيعملون عليها ·

وباختصار فان اميركا تريد ان تفرض مسبقا استعمارها الاقتصادي الجديد على ناميبيا عن طريق نظام يقبل هذه الشروط ويرفع علم استقلال اسمي · وهذا يفسر مقدار الفزع الذي انتاب اميركا على نظام موبوتو في زائير بعد ذلك بعام واحد · فقد كانت تسعى في ايار ١٩٧٦ للعثور على بورجوازية افريقية على غرار موبوتو ، فاذا بها توشك ان تفقد موبوتو نفسه في اوائل ١٩٧٧ · وعندما ارادت انقاذه كان لا بد ان تلجأ الى قوى « مقبولة » في افريقيا · فقد كانت الولايات المتحدة ـ في الاجتماع الطارىء الذي عقده خبراء حلف الاطلسي في مقر قيادة الحلف في بروكسل في اليوم التالي لنشوب احداث « شابا » ـ امام اختيارين : استخدام قوات جنوب افريقيا وروديسيا واسرائيل لاخماد حركة « شابا » ضد موبوتو ، او الاستعانة بقوات « افرو ـ عربية » كي يبقى حلف الاطلسي بعيدا ، وكذلك اسرائيل والنظامين العنصريين الاخرين · اختارت اميركا الطريق الثاني · وكسبت به · ولكنها كشفت حلفاءها الجدد·

الصين ·· التحالفات الجديدة ··

لدور الصين في افريقيا ابعاد رئيسية ترسم الخطوط العامة الخارجية له ·· وان كان بعض هذه الخطوط غير مستقيم وبعضها غير محدد المعالم ·

● دور الصين في افريقيا تحدده في الفترة الاخيرة الاعتبارات نفسها التي تحيط بسياسة الصين الخارجية ككل · وهي اعتبارات تعطي مؤشرات الى دخول هذه السياسة في عملية اعادة تشكيل لتحالفات الصين العملية مع القوى العالمية الخارجية · فاذا كانت الصين قد وقفت عمليا ـ وسياسيا ـ مع القوى اليمينية والموالية للغرب ، الاوروبي والاميركي ، ابان الصراع الحاسم الذي جرى في انغولا ·· فان ذلك لم يكن غريبا عن مواقف مماثلة اتخذتها السياسة الخارجية الصينية في اوروبا واسيا واميركا اللاتينية · ولكن هذه المواقف بطبيعة الحال تبدو غريبة و « نشازا » على خلفية من الايديولوجية ، وحتى على خلفية من الاهداف السياسية العامة المعلنة للصين ·

● ودور الصين في افريقيا تحدده مقولات صينية رئيسية مؤداها ان افريقيا اصبحت « مركز الصراع بين الشرق والغرب » ، وان للبنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمع الافريقي طبيعة خاصة بحكم غلبة العنصر الفلاحي فيها مما يجعل طبقة الفلاحين هي القوة المحركة الرئيسية للثورة في ذلك المجتمع ، وان هناك اوجه شبه كبيرة ، بين التجربة الصينية في الصراع والتجربة الافريقية، ابرز ملامحها التمييز العنصري الذي عاناه كل من الشعبين الصيني والافريقي على ايدي « البيض » ·

● دور الصين في افريقيا كذلك تحدده طبيعة وحدود قدرات الصين الاقتصادية والتكنولوجية على تلبية احتياجات افريقيا ، سواء المتعلق منها بتحديات الاستقلال ، او تحديات التنمية بعد الاستقلال · بالاضافة الى واقع البعد الجغرافي بين الصين واجزاء كبيرة من افريقيا في غياب اسطول جوي واسطول بحري للصين يستطيع ان يضغط مسافات هذا البعد الجغرافي·

● دور الصين في افريقيا يحدده ـ ايضا ـ فهم الصين نفسها لدورها على النطاق العالمي · وبتعبير اكثر تحديدا ، يحدده الشعار الذي تلح الصين منذ سنوات عليه ، وهو انها دولة نامية فقيرة من دول العالم الثالث · وهو شعار يفرض على الصين ان تقدم نفسها لافريقيا بهذه الصفة ، بما ينطوي عليه ذلك من شجب لكل ما دون العالم الثالث ايديولوجيا ، وما فوق العالم الثالث اقتصاديا وتكنولوجيا ·

● دور الصين في افريقيا يحدده « ايديولوجيا » الفكر السياسي والاجتماعي

الصيني ، فيما يتعلق بمفهوم الثورة واساليبها في مرحلة التحرر الوطني ، وفي المراحل التالية • ونعني بهذه الايديولوجية المبادىء العامة التي لا تتغير مع تغيرات المواقف السياسية • وقد يرى بعض المتخصصين في الشؤون الصينية ، انه لا يبقى بعد المواقف السياسية القابلة للتغيير شيء اسمه ايديولوجيا او مبادىء فكرية عامة ، الا مبدأ « البراغماتية » (الذرائعية) الذي يجعل « المردود العملي » المقياس الرئيسي – ان لم يكن الوحيد – لصواب او خطأ سياسة ما •

● **دور الصين في افريقيا يحدده – اخيرا – حجم مصالح الصين في القارة • وربما كان اجدر بنا ان نضع حجم المصالح بين اوائل العوامل المحددة لدور الصين – كما لادوار غيرها – ولكن النتيجة ان مصالح الصين ، اكثر من غيرها من الدول المشتركة في الصراعات الكبرى في افريقيا ، تحددها العوامل السابقة كلها مجتمعة • فضلا عن ان حجم هذه المصالح ليس كبيرا ••** لا بالقياس الى حجم ووزن الصين ، ولا بالقياس الى حجم ووزن افريقيا ، ونعني هنا المصالح المحسوسة الاقتصادية والتجارية والاستراتيجية • كما لا يتناسب حجم المصالح الصينية في افريقيا مع « حجم » المقولات الايديولوجية والسياسية التي تطرحها الصين كشعارات لها ، وبصفة خاصة منها مقولة « افريقيا مركز الصراع بين الشرق والغرب »•

ومع ذلك فانه يجوز لنا ان نبدأ من نقطة تحديد حجم مصالح الصين الاقتصادية في افريقيا • فأول ما يمكن ملاحظته ان افريقيا لا تحتل ايا من المراكز الستة الاولى في تجارة الصين الخارجية(تصديرا واستيرادا على السواء) ، بل ان افريقيا لم ترد في ترتيب قبل الثاني عشر في تجارة الصين الخارجية لعام ١٩٧٤ (آخر الاحصاءات المتاحة) فقد بلغ حجم الصادرات والواردات بين الصين وافريقيا في عام ١٩٧٤ ما قيمته ٦١٠ ملايين دولار اميركي (ويميل الميزان التجاري بينهما لمصلحة الصين بفائض في الصادرات على الواردات قيمته ٢٣٠ مليون دولار) ، بينما نجد ان حجم تجارة الصين مع الولايات المتحدة في عام ١٩٧٤ نفسه ١٫٠٧٠ مليون دولار (ويميل الميزان التجاري بينهما لمصلحة الولايات المتحدة بما قيمته ٨٤٠ مليون دولار) • واذا اردنا مثلا آخر غير الولايات المتحدة نجد ان قيمة تجارة الصين مع ماليزيا في العام نفسه تبلغ ٥٥٠ مليون دولار • على الرغم من ان ماليزيا بلد واحد صغير في آسيا ، وافريقيا قارة باكملها • فضلا عن ان ترتيب ماليزيا في ذلك العام (١٩٧٤) على جدول تجارة الصين الخارجية هو في المحل السادس بعد اليابان والولايات المتحدة وهونغ كونغ والمانيا الغربية وكندا •

وبالاضافة الى هذه الحقائق – الارقام فان اتجاه تجارة الصين مع افريقيا هو نحو النقصان لا الزيادة • فقد كان ترتيب افريقيا على جدول التجارة

الخارجية الصينية السابع في عام ١٩٧٣ · وفي ذلك الوقت كانت نسبة تجارة الصين مع افريقيا بالنسبة لحجم تجارتها العالمية ٥٪ ، وكانت هذه النسبة ٦٪ في عام ١٩٧٢ وكانت ٧٪ في عام ١٩٧١ ·

ولعل من المهم ــ لفهم الوجه السياسي لهذه الارقام الاقتصادية ــ ان نستند الى معلومات اوسع عن اتجاه تجارة الصين الخارجية بشكل عام · اذ يلاحظ ان تجارة الصين مع العالم غير الاشتراكي بلغت في العام ١٩٧٤ ما قيمته ٤٠٠ر١١ مليون دولار (بعجز في الميزان الصيني قدره ٥٣٥ر١ مليون دولار) ، بينما بلغت تجارة الصين مع العالم الاشتراكي في العام نفسه ٣٠٠ر٢ مليون دولار (بفائض لمصلحة الميزان التجاري الصيني قيمته ٤٤٠ مليون دولار) · وفي العام ١٩٧٣ كانت نسبة تجارة الصين مع العالم الاشتراكي ١٧٪ من اجمالي تجارتها الخارجية ، ومع العالم غير الاشتراكي ٨٣٪ · واذا مضينا خطوة ابعد من هذا وجدنا ان نسبة تجارة الصين مع الدول الراسمالية المتقدمة تمثل ٥٣٪ ، بينما نسبة تجارتها مع الدول النامية (بما فيها افريقيا طبعا) ٢١٪ ·

يبقى أن نضيف الى هذه الصورة الرقمية حقيقة اقتصادية لها دلالتها السياسية هي ان ارقام تجارة الصين مع افريقيا التي ذكرناها (وهي مستقاة من المصادر الرسمية الصينية التي تصدر تقريرا اقتصاديا سنويا متاخرا سنتين عادة) تشمل تجارة متبادلة بين الصين وجنوب افريقيا · جزء منها مباشر ، وجزء منها تجارة تتخذ شكل « اعادة تصدير » لسلع صينية من هونغ كونغ ، او لسلع جنوب افريقية تذهب الى الصين من نيوزيلاندا (*) · وتشتري الصين ذهبا من جنوب افريقيا بما قيمته ٧٠ مليون دولار سنويا ·

فهل تختلف اتجاهات رياح السياسة عن اتجاهات رياح التجارة في سياسة الصين الافريقية ؟·

اذا كانت اتجاهات رياح التجارة تحكمها ضوابط موضوعية دقيقة ، فان الرياح السياسية هي اقل موضوعية بكثير ، ويظهر تتبع المواقف الاساسية (المحطات الرئيسية) في تاريخ سياسة الصين في افريقيا في السنوات الخمس عشرة الماضية ان هذه الرياح تعرضت لتقلبات عديدة قبل ان تتجمع في تيار واحد صوب تشجيع القوى اليمينية واستعداد العالم الغربي ــ وفي مقدمته الامبريالية الاميركية ــ على القوى التقدمية التي تخشى الصين ان يكون في انتصارها في افريقيا تدعيما للنفوذ السوفياتي ، حتى ولو كان ذلك يعني تفتيتا

---

* U.S - China Business Review , 1975 , by the National Council for U.S. - China Trade.

للنفوذ الغربي الامبريالي · وقد بلغ الامر في هذا الاتجاه الاحادي لرياح السياسة الصينية الخارجية ان اصبح بعض مراقبي الشئون الصينية (China Watchers) يطرحون تفسيرا احاديا له ، هو ان الصين اصبحت محكومة بالخوف المرضي (Phohia) من الاتحاد السوفياتي بصورة تنعكس على جميع مظاهر سلوكها الداخلي والخارجي · وينطوي هذا التفسير على تبسيط لظاهرة هي بطبيعتها معقدة ومتعددة الاسباب ، وان كان هذا لا يمنع كون هذا التفسير السيكولوجي تفسيرا صحيحا جزئيا ، يؤكد صحته رصد المواقف التي تبدو فيها الصين وكأن سياستها كلها غير مبنية على افعال وانما على ردود افعال · فاذا ايد الاتحاد السوفياتي الطرف « س » في القضية « ١ » (أيا كان الطرف وأيا كانت القضية وموقع هذا الطرف فيها) ، فان الصين تسارع الى تأييد الطرف «لا» «س» ان وجد ، او الى محاولة تدمير الطرف «س» نفسه اذا لم يتوفر نقيضه ، او الى محاولة نفي القضية برمتها · مع ذلك تبقى محاولة تفسير سلوك الصين بمعطيات علم النفس المرضي محاولة وصفية فقط ، وليست علمية · فالصين ـ دولة وحزبا ـ ظاهرة دولية اعقد بكثير من ان تبسط الى درجة فرد ·

وفيما يتعلق بافريقيا فان القول بوجود حالة « فوبيا » لدى الصين ازاء الاتحاد السوفياتي هو اقل دقة من القول به بالنسبة لمناطق العالم الاخرى · فان الاتحاد السوفياتي لا يشكل في افريقيا خطرا على مصالح صينية مباشرة ، كما هو الحال في آسيا ، وجنوب شرق آسيا بالذات ، مثلا ، حيث احتمالات « الاحتكاك » او « الصدام » قائمة ، او حيث توجد درجة اكبر من المصداقية لنظرية « احتواء الصين » من جانب الاتحاد السوفياتي ·

كذلك فان افريقيا ـ ربما اكثر من آسيا واميركا اللاتينية ـ هي نموذج العالم الثالث ، بمستويات النمو ، وبمستويات التطور التاريخي · الامر الذي يجعلها ـ اكثر من غيرها ـ هدفا لسياسة العالم الثالث بالمفهوم الصيني · وهو مفهوم متعدد الجوانب فهو في جانب منه يتمثل في نظرية محاصرة ريف العالم لمدنه ، اي محاصرة المناطق النامية والاقل نموا والمتخلفة (اي العالم الثالث) لمناطق العالم الصناعية المتقدمة (رأسماليها واشتراكيها على السواء) · وهو في جانب آخر يتمثل في نظرية مقاومة « هيمنة الدولتين العظميين » او « الصراع ضد الامبريالية الاشتراكية السوفياتية » بالدرجة الاولى · وهو في جانب ثالث يتمثل في التماثل بين الواقع الصيني وواقع العالم الثالث ككل · وهي كلها جوانب تدفع الصين الى تقمص العالم الثالث واصدار البيانات الرسمية التي تشبه المراسيم بان الصين لن تصبح ابدا دولة كبرى ، وانها ستظل دولة نامية متحدة المصالح بالدول النامية الاخرى ·

ومما يؤكد ادراك الصين لحقيقة وزن افريقيا في العالم الثالث ان المساعدات الاقتصادية الخارجية التي تقدمها الصين للدول النامية ـ بشروط معقولة للغاية وفي بعض الاحيان بدون فائدة مطلقا ـ تصب كلها ـ تقريبا ـ في افريقيا ، على الرغم مما لاحظناه من صغر حجم التبادل التجاري بينهما · ومنذ عام ١٩٧٣ تحصل افريقيا على نسبة ٩٠٪ من مساعدات الصين الاقتصادية الخارجية والوعود بالمساعدات · وتعكس هذه الحقيقة ايضا تقديرا لدى الصين في السنوات الماضية ـ قبل احداث ١٩٧٧ ـ بان افريقيا تكاد تكون مجالا خاليا من نفوذ الدولتين الاكبر ، وتقديرا بأن هذا الوضع يتطلب منها ان تسبق النفوذ السوفياتي الى افريقيا · هذا بالاضافة الى تصور الصين بان الواقع الافريقي الاقتصادي والاجتماعي يمثل تربة خصبة لتطبيق « النموذج الصيني » في التنمية وفي الثورة على السواء · ولهذا فان الحالة الصحية للعلاقات بين الصين وافريقيا كانت باستمرار عرضة للتقلبات تبعا لتاثيرات الاحداث الداخلية في الصين · وصحيح ان القاعدة العامة تـ ـل بالتاثير المتبادل بين الاوضاع الداخلية والعلاقات الخارجية بالنسبة لكافة البلدان ، ولكن تاثير احداث الصين الداخلية ـ وخاصة في ذروات تقلباتها ـ كان اوضح من اي تاثير لاحداث افريقية داخلية على سياسات الصين ازاء افريقيا ·

وعلى سبيل المثال فان الصين فاجأت افريقيا بتأييد حركة بيافرا الانفصالية في نيجيريا ، في ذروة احداث الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى (١٩٦٦ ـ ١٩٦٩) التي كانت تجتاح الصين في ذلك الوقت ، وكان من ابرز ملامحها اشتداد حدة الهجوم على الاتحاد السوفياتي · وكان وقوف الاتحاد السوفياتي مع وحدة نيجيريا ضد الحركة الانفصالية في « بيافرا » بمثابة « فرصة » لاتهام موسكو والبلدان الاشتراكية الاخرى بخيانة « حركة التحرر الوطني لشعوب افريقيا » · ولقد كان من نتيجة ذلك ان صوتت ٢٠ دولة افريقية في الامم المتحدة عام ١٩٦٨ ضد انضمام الصين للمنظمة الدولية ، مقابل تسع دول فقط صوتت ضدها في عام ١٩٦٥ · كذلك فان الفترة نفسها ـ فترة « الثورة الثقافية » ـ شهدت تكثيف النشاط الايديولوجي الصيني في افريقيا الى حد ان دبلوماسيا صينيا (كان قائما بالاعمال في تنزانيا) وجه في عام ١٩٦٧ تحذيرا بانه « اذا لم يجد الزعماء الافريقيون في انفسهم الشجاعة لقيادة ثورة ثقافية ، فان الشعب سيجد زعماء جددا »· وكانت النتيجة ان القوى الامبريالية سبقت الى تنفيذ انقلابات عديدة في افريقيا قام معظمها بحجة منع « التهديد الصيني » ، وانعكس ذلك في عدد من الدول الافريقية التي تقيم علاقات دبلوماسية كاملة مع الصين · اذ هبط من ١٧ في عام ١٩٦٥ الى ١٣ في عام ١٩٦٨ ، وكان المفروض ان يزيد ·

وعندما عاد الهدوء الى الصين نفسها ، والى سياستها الخارجية ، وعادت

الى الاهتمام باستعادة عضويتها في الامم المتحدة . بذلت جهودا كبيرة في افريقيا في عام ١٩٧١ ، على اساس ان افريقيا تملك وحدها عددا مرجحا من اصوات الدول في الامم المتحدة • وكان اكبر نشاط صيني للخروج من العزلة الدولية التي فرضتها بكين على نفسها ابان « الثورة الثقافية » ، وفرضتها عليها نزاعاتها الحادة مع العالم الاشتراكي والامبريالية الاميركية في وقت واحد . كان معظم هذا النشاط موجها لافريقيا • وعادت الصين الى صيغة « التعايش السلمي » و « مبادىء باندونغ » ، وتراجعت شعارات « حرب الشعب الطويلة الامد »•

وعندما انضمت الصين الى الامم المتحدة في اواخر ١٩٧١ ، وقامت بينها وبين الولايات المتحدة علاقات افضل واتصالات على مستوى عال (رحلات كيسنجر السرية في عام ١٩٧١ ثم زيارة الرئيس الاميركي نيكسون لبكين في ١٩٧٢ وما تلاها من زيارات وعلاقات) دخلت سياسة الصين في افريقيا مرحلة جديدة تركز فيها على ان التناقض الرئيسي في العالم اليوم هو بين الدول النامية والدول الامبريالية ، ومن بينها الاتحاد السوفياتي • الاشتراكية) •

ولقد اتبعت الصين باستمرار في سياستها الافريقية اسلوبا انتقائيا ،يتناسب مع محدودية امكانياتها ، ومع محدودية مصالحها المباشرة في القارة • بمعنى انها اختارت عددا محدودا من الدول الافريقية لتركيز اهتمامها على العلاقات معها ، باعتبارات سياسية واقتصادية واستراتيجية ، كما اختارت التركيز على عدد محدود من المشروعات ذات الاهمية الكبيرة والرنين الاعلامي العالي • وعلى سبيل المثال فان من الواضح ان الصين تعلق منذ نحو ١٥ عاما اهمية كبرى على صلاتها بكل من تنزانيا-وزامبيا — وكذلك الكونغو (برازافيل) حتى سنوات قليلة مضت — من بين عشرات الدول الافريقية • كما تعلق اهمية كبرى على صلتها مع عدد محدود ايضا من حركات التحرر الوطني « المنافسة » : « يونيتا » (التي انشقت عن الحركة الشعبية لتحرير انغولا في عام ١٩٦٦ لاسباب تتعلق بالصين) ، وحركة « كوريمو » (اللجنة الثورية لموزمبيق ، التي تكونت بانشقاق عدة جماعات ماوية عن جبهة « فريليمو ») ، و « حزب مؤتمر عموم جنوب افريقيا » (المنافس لحزب المؤتمر الوطني الافريقي الذي يقود الصراع المسلح في جنوب افريقيا ضد نظام الحكم العنصري) •

كذلك تظهر هذه السياسة الانتقائية في ابرز صورها في مشروع خط « تانزام » الحديدي الذي اقيم بمساعدة مالية وفنية وبشرية من الصين ليربط تانزانيا وزامبيا • ان الصين لم تضع في مشروع واحد خارج اراضيها مثل ما وضعت من امكانيات في هذا المشروع الذي بدات تنفيذه في عام ١٩٦٦ وانتهى العمل

فيه في عام ١٩٧٦ · ويمتد هذا الخط (غير المزدوج) مسافة ١١٦٠ ميلا بين دار السلام (عاصمة تانزانيا) ومدينة كابري امبوشي في شمال وسط زامبيا ، حيث يرتبط خط « تانزام » بشبكة السكك الحديدية لزامبيا · ويشتمل الخط على ١٤٧ محطة ، و ٣٠٠ جسر و ٢١ نفقا · وقد بنيت عند مشارف « دار السلام » باحة تحتوي على ١٠ خطوط لتكون بمثابة باحة لتجمع القطارات ، فضلا عن ٣ « ورش » رئيسية للاصلاح · وقد امدت الصين خط « تانزام » بكل القطارات العاملة عليه وكذلك بكل ما استخدم في بنائه من القضبان الحديدية · وبلغ عدد الصينيين الذين عملوا في المشروع في ذروة العمل فيه حوالي ١٥ الف عامل وفني معظمهم من سلاحي المهندسين والاشارة في الجيش الصيني ·

ولقد كان الهدف من هذا المشروع ـ من زاوية الاهتمام الصينية ـ تأكيد المقدرة الصينية على تنفيذ هذا النوع من المشروعات الكبرى (وان كان من المشكوك فيه كثيرا ان تستطيع الصين القيام بعدد من هذه المشروعات في وقت واحد) ، وبالتالي رسم صورة للصين لدى الشعوب الافريقية مكملة لصورة « الدولة النامية » ·· بحيث تصبح « الدولة النامية القادرة بالاعتماد على النفس ان تقدم مساعدات قيمة للدول النامية الصديقة لها » ، وكذلك عرض صورة عملية من الايديولوجية الصينية بما يشمله ذلك من اخلاقيات حزبية وانسانية · فقد كان من الواضح ان الصين مهتمة للغاية بأن يترك آلاف الصينيين الذين عملوا في ذلك المشروع افضل الانطباعات لدى الافريقيين ، فيما يتعلق بقدرتهم على العمل الشاق والصبر وتحمل المصاعب والعيش في المستوى نفسه الذي يعيش فيه عمال البلد الذي يتلقى المساعدة ·· الخ · (هذا على الرغم من انه لم تقم علاقات اجتماعية متبادلة بين الصينيين والافريقيين في تانزانيا او زامبيا على مدى السنوات التي استغرقها تنفيذ المشروع · فقد كان الصينيون يريدون ان يتركوا انطباعا بأنهم لا يتدخلون ، وانهم غير معنيين بنقل ايديولوجيتهم ، كما اسهم حاجز اللغة في الابقاء على مسافة بين الجانبين) · وكان من الواضح ان الصين تقدم تضحية المخاطرة الاقتصادية مقابل اهداف ايديولوجية وسياسية تتعلق اساسا بصورتها في افريقيا خاصة والعالم الثالث عموما · فقد قضى اتفاق مشروع « تانزام » بأن تدفع الصين نفقاته (التي بلغت نحو ٤٥٠ مليون دولار) في صورة قرض بدون فوائد لمدة ٣٠ عاما ، ويبدأ تسديده بالتساوي من جانب تانزانيا وزامبيا في عام ١٩٨٣ · وكل ما حصلت عليه الصين من فائدة اقتصادية هو شراء الدولتين سلعا صينية ـ معظمها سلع استهلاكية رخيصة ـ واعادة بيعها في اسواق اخرى بأسعار اعلى ، واستخدام الارباح في تسديد جزء من نفقات المشروع المحلية · وعلى مدى ابعد من السنوات الى وقت بداية تسديد القرض ، فان الصين تتوقع ان تكون حصتها من نحاس زامبيا حصة كبيرة ومتزايدة ·

ولكن من المؤكد ان « الحضور الصيني » ـ السياسي والايديولوجي ـ قــد ازداد كثافة ووزنا بفعل دور الصين في هذا المشروع ، وبصفة خاصة بفعل كيفية ادائها لهذا الدور · وهو « مردود » عملي لا يقل اهمية للصين عن اي مردود اقتصادي قريب او بعيد الاجل ·

ولقد كان التصور الاستراتيجي للمشروع قبل ان يبدا تنفيذه انه سيلعـب دورا كبيرا في رفع قدرة زامبيا بالذات على مساعدة حركات التحرر فـــي المستعمرات البرتغالية عسكريا ، ولكن هذه المستعمرات حققت استقلالها في عام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ قبل وقت قليل من اتمام المشروع · الا ان هذا لا يمنع المشروع من الاحتفاظ باهميته بالنسبة لحركات التحرير الوطني الافريقي فـي جنوب القارة ككل (وخاصة جنوب افريقيا ، وناميبيا وروديسيا) ، وبالنسبة لتقليص اعتماد زامبيا وتانزانيا اقتصاديا على جنوب افريقيا ، والاتجاه بهـا اكثر نحو جاراتها الشمالية المتحررة ·

وبعد التطورات الاخيرة التي وجدت فيها افريقيا ـ ٧٧ الصين في صـف اليمين في انغولا ، وفي صف نظام موبوتو ، الممثل لاحتكارات الامبرياليـــة الغربية ، الاميركية والاوروبية ، وفي صف النظم المماثلة التي سارعت الـى نجدته تلبية لاشارات غربية ، وفي صف التجارة ـ علنـا وخفية ـ مـع نظامي جنوب افريقيا وروديسيا العنصريين ··· بعد هذه التطورات الاخيرة ـ التي لا تعدم لها سوابق في احداث الستينات وما مضى من السبعينات ـ تثـــار اسئلة افريقية بشأن الصين :

● هل تحتفظ بالمردود الايديولوجي والسياسي الذي حصلت عليه مـــن مشروع « تانزام » بعد ان عكست سياستها الخارجية الصورة التـي رسمتها الصين لنفسها خلال هذا المشروع ؟·

● هل تبقى لشعارات الصين مصداقية تكفي لمواجهة دور الاتحاد السوفياتي والتصدي له في اي اتجاه ؟·

● الى اين يمكن ان تؤدي ـ بالنسبة لافريقيا ـ نقاط الالتقاء المثيرة للدهشة والتساؤل بين سياسة الصين الخارجية وسياسة الغرب الامبريالي وبين المواقف العملية لهما ؟·

● الى اين يمكن ان يؤدي ـ بالنسبة لافريقيا ـ تصاعد « الصراع » بيـن الصين والاتحاد السوفياتي ، اكثر مما ادى اليه حتى الآن منذ منتصـــف الخمسينات من انقسامات ونزاعات افريقية ، وصلت الى قلب حركات التحرر واضرت بها بافدح مما اضرت باي من الاتحاد السوفياتي او الصين ؟·

وهذه كلها من نوع الاسئلة التي تحمل في طياتها اجوبتها الضمنية ·· وهي

اجوبة لا يكفي ان تستمد من منطق السؤال نفسه او انها لا بد ان تستمد ايضا ـ وفي الاساس ـ من تجارب السنوات الماضية ، ومن محطات الاحداث الرئيسية الافريقية التي كان للصين فيها حضور ايجابي او سلبي ، او غياب ايجابي او سلبي · ولعله لم يكن من قبيل المصادفة ان « الغياب السلبي » للصين في احداث الكونغو ـ كينشاسا (زائير فيما بعد) في اوائل الستينات ، وهو الغياب الذي تمثل في عدم تقديم اي عون لباتريس لومومبا وحركته ورجاله (خشية ان ينطوي ذلك على دعم للاتحاد السوفياتي في افريقيا) قد تحول الى « حضور سلبي » للصين في زائير ـ ٧٧ ، بكثافة سياسية واضحة ، وكثافة عسكرية مبهمة ، الى جانب القوى نفسها التي قضت على لومومبا وحركته وتريد ان تقضي على تياره ··

والان لا يستطيع باحث في الصراعات الكبرى على افريقيا ان يفلت من مواجهة معادلات تبدو فيها مفارقات غريبة ولكنها حقيقية ·

دور البحرية العربية في البحر الأحمر [٢]

محمود عزمي

عرضنا في الحلقة الاولى من هذه الدراسة للاطار الاستراتيجي الذي يجب ان تستخدم ضمنه القوة البحرية العربية ، ثم انتقلنا الى عرض ميزان القوى البحري في البحر الاحمر ، حيث تعرفنا على اجمالي القوة البحرية المصرية ومتطلبات تطويرها ٠

ونستكمل في الحلقة الثانية ، والاخيرة ، من هذه الدراسة ، بقية ميزان القوى البحري في البحر الاحمر ، وكذلك في البحر الابيض المتوسط بين دول المواجهة العربية المباشرة (مصر وسوريا) والمحتملة (ليبيا) واسرائيل ، بحكم ان الصراع البحري المسلح حال نشوبه بين العرب واسرائيل ، لن يقتصر على مسرح البحر الاحمر وانما سيمتد الى مسرح البحر الابيض المتوسط ، بحكم ضرورة تحول المواجهة المحدودة الى مواجهة شاملة ، كما اثبت واقع الصراع العربي - الاسرائيلي من قبل ٠ ومتطلبات استخدام القوة البحرية العربية ٠

القوة البحرية السودانية

تضم البحرية السودانية نحو ٦٠٠ ضابط وبحار (في عام ١٩٧٦) ، وقد تشكلت اعتبارا من عام ١٩٦٢ ، على اساس العمل في البحر الاحمر ونهر النيل . ولها قاعدة بحرية وحيدة في البحر الاحمر هي « بورسودان » وتتالف من ٧ زوارق دورية كبيرة اميركية الصنع ، وكانت مخصصة لايران ، ثم حولت

الاخيرة ٤ منها الى السودان في عام ١٩٧٥ ، وحولت الثلاثة الاخرى المبنية اصلا لحساب ايران الى السودان في العام نفسه ٠ والاربعة زوارق التي حولتها ايران هي من فئة « كاب » ، ودخلت الخدمة العملية ما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٧ ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق ٨٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ١٠٧ اطنان ، وطوله ٢٩ مترا ، وعرضه ١ر٤ امتار ، وغاطسه ١ر٢ متر ٠ وهو مسلح بمدفع عيار ٤٠ مم م / ط وقاذف قنابل عيار ٢ر٧ بوصة ، ومزود باربع محركات ديزل قوتها ٢٢٠٠ حصان ، وسرعته القصوى ٢٠ عقدة ، ويتألف طاقمه من ١٥ رجلا ٠

اما الثلاث زوارق الاخرى فقد دخلت الخدمة العملية بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٩ ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق منها ١٠٥ اطنان ، وعند احمولة الكاملة ١٤٦ طنا، وطوله ٣١ مترا، وعرضه ٩ر٤ امتار ، وغاطسه ٣ امتار ٠ وهو مسلح بمدفع عيار ٤٠ مم ومدفعين عيار ٢٠ مم ومدفعين رشاشين ٠ وتبلغ قوة محركاته الديزل ٢٠٠٠ حصان ، وسرعته ٢٠ عقدة ، ويتاف طاقمه من ١٥ رجلا ٠

وبالاضافة الى هذه الزوارق السبعة الايرانية الاصل ، هناك ستة زوارق دورية كبيرة يوغسلافية الصنع (والخبراء اليوغسلافيون البحريون هم الذين اشرفوا اصلا على تدريب رجال البحرية السودانية) ، اثنان منهما وزنهما القياسي ١٩٠ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ٢٤٥ طنا ٠ وطول الزورق ٤١ مترا ، وعرضه ٣ر٦ امتار ، وغاطسه ٢ر٢ متر ٠ وهو مسلح بمدفعين عيار ٤٠ مم ومدفعين عيار ٢٠ مم ، وتبلغ قوة محركاته الديزل ٣٣٠٠ حصان ، وسرعته ٢٠ عقدة ، ومدى عمله ١٥٠ ميل بسرعة ١٢ عقدة ، وقد سلمتهما يوغسلافيا للسودان عام ١٩٦٩ ٠ والاربع زوارق الدورية اليوغسلافية الاخرى ذات حجم اصغر ، اذ يبلغ وزنها القياسي ١٠٠ طن ، وطول الزورق ٣٥ مترا ، وعرضه ٥ امتار ، وغاطسه ٧ر١ متر ، ومسلح بمدفع ٤٠ مم واخر ٢٠ مم ورشاشين ٧ر٦ مم ، وقوة محركاتها الديزل ١٨٠٠ حصان ، وسرعته ٢٠ عقدة ، ومداه ١٤٠٠ ميل بسرعة ١٢ عقدة ، وكانت هذه الزوارق هي اول سفن البحرية السودانية عام ١٩٦٢ ٠

ولدى البحرية المذكورة ٦ زوارق هجومية سريعة ، يوغسلافية الصنع ايضا ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق منها ٥٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ٦٠ طنا ٠ وطوله ٨ر٢٣ ، وعرضه ٥ر٦ امتار ، وغاطسه ٤ر٢ متر ٠ وهو مسلح بمدفعين ٤٠ مم ومدفعين منفردين ٢٠ مم ، وتبلغ قوة محركاتها الثلاثة ٥٠٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ٣٦ عقدة ، ويتألف طاقمها من ١٤ رجلا ٠

وبالاضافة الى ذلك يوجد لدى البحرية السودانية سفينتا انزال دبابات ،

يوغسلافية الصنع ، وزن الواحدة القياسي ٤١٠ اطنان وطولها ٤٤ متـــرا ، وعرضها ٦ امتار ، وغاطسها ١ر٢ متر ، ومسلحة بمدفع عيار ٢٠ مم ومدفعين رشاشين عيار ٧ر١٢ مم ، وسرعتها ١٠ عقد ، ويتالف طاقمها من ١٥ رجلا ٠ فضلا عن ٣ زوارق انزال حمولة ٤٠ طنا (١) ٠

ومن الواضح ان القوة البحرية السودانية ، على وضعها الراهن ، ليست اكثر من قوة حراسة سواحل في واقع الحال ، وانه يلزم تطوير الزوارق الكبيرة فيها عنطريق تسليحها بالصواريخ سطح ـ سطح وقنابل الاعمـاق واسلحـة اكثر فاعلية م / ط ، وتجهيزها بمعدات الكترونية متطورة ، وبطائرات هليكوبتر مضادة للغواصات والزوارق ، حتى يمكن اعتبارها ضمن القوة البحريـــة العربية الفعالة في البحر الاحمر ، خاصة وان شواطىء السودان تسيطر علـــى منتصف البحر المذكور ، ويمكن ان تكون قواعدها البحرية والجوية ومحطـات الرادار الجوي والبحـري الموجـــودة بهـــا ، ذات دور بالـــغ الاهميـة في التصـــدي للـزوارق الاسرائيليــــة وطائـرات الدوريـــــة بعيدة المـــدى والمقاتلات الاسرائيلية ، التي ستحاول ان تشكل مظلة جوية للزوارق وقوة ضاربة للقوى البحرية العربية في جنوب البحر الاحمر ٠

« القوة البحرية السعودية »

تضم القوة البحرية السعودية ١٥٠٠ ضابط وبحار ، ولها قاعدتان رئيسيتان، احداهما في « جدة » على البحر الاحمر والثانية في « الظهران » على الخليـج العربي ٠ وتتألف قوتها الرئيسية من ثلاثة زوارق طوربيد سريعة من فئــــة « جاجوار » الالمانية الصنع ، دخلت الخدمة العملية عام ١٩٦٩ ٠ ويبلغ الوزن القياسي للزورق ١٦٠ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ١٩٠ طنا ٠ وطوله ٥ر٤٢ مترا ، وعرضه ٧ امتار ، وغاطسه ٤ر٢ متر ٠ وهو مسلح بمدفعين منفرديـــن من عيار ٤٠ مم ، واربعة انابيب لاطلاق الطوربيدات عيار ٥٣٣ مم (٢١ بوصة)، ومزود باربعة محركات ديزل قوتها ١٢ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٤٢ عقدة ، ويتالف طاقمها من ٣٣ رجلا (٣ ضباط و٣٠ رتب اخرى) ٠ بالاضافة لزورق دورية كبير اميركي الصنع ، هيكله من الصلب ، اشترته السعودية عام ١٩٦٠ ، يبلغ وزنه القياسي ١٠٠ طن ٠ وطوله ٢٩ مترا ، وعرضه ٥ر٨ امتار ، وغاطسه ٩ر١ متر ، ومسلح بمدفع عيار ٤٠ مم ، وقوة محركاته الديزل الاربعـة ٢٢٠٠ حصان ، وسرعته ٢١ عقدة ، ويتالف طاقمه من ١٥ رجلا ٠

---

(١) Jane's Fighting ships , 1976 - 77. p. 420.

وهناك ٧٣ لنش دورية ساحلية من ثلاثة انواع مسلحة برشاش واحـــد . فضلا عن زوارق « هوفر كرافت » بريطانية الصنع، يبلغ وزن الزورق منها ١٠ اطنان وطوله ٨ر١٤ مترا ، وعرضه ٧ر٧ امتار ، وغاطسه ٨ر٤ امتار . وسرعته القصوى ٥٨ عقدة ٠

وهناك صفقة موقعة بين المملكة السعودية والولايات المتحدة الاميركية فـي بداية عام ١٩٧٢ ، تعرف ببرنامج العشر سنوات لتطوير القـــوة البحريـــة السعودية ، تتضمن شراء ٤ كاسحات الغام ساحلية فئة « ٣٢٢ » . و٤ سفـــن انزال دبابات ، و ٣ سفن تدريب ، وسفينتي قطر ، و ٦ « كورفيت » حديثة و ٦ زوارق دورية كبيرة حديثة ٠والسفن الاخيرة هي التي ستشكل ، عند تسلـــم البحرية السعودية لها ، عماد قوة هذه البحرية الفعال ٠ اذ ان « الكورفيت » ستكون سفينة يبلغ وزنها عند الحمولة الكاملة ٧٥٠ طنا ، وطولها ٤٠ر٧١ مترا، وعرضها ٤٠ر٨ امتار ، وغاطسها ٦٥ر٢ متر ، وسرعتها نحو ٣٠ عقدة ، وسوف تسلح بثمانية صواريخ سطح ـ سطح من طراز « هاربون » التي يصل مداها الى ١١٠ كلم ، وبمدفع طراز « اوتوميلارا » ، الآلي التلقيم والرمي ، من عيار ٧٦ مم المزدوج المهمة (ضد السفن والطائرات) ، ومدفعان م / ط عيـــار ٢٠ مم ، و ٢ هاون مضاد للغواصات ٠ اما زوارق الدورية الكبيرة الحديثة فيبلـــغ وزن الزورق عند الحمولة الكاملة ٣٢٠ طنا ، وطوله ٥٦ مترا وعرضه ٦٠ر٧ مترا ، وغاطسه ٧٥ر١ متر ، وسرعته القصوى ٣٨ عقدة ، وهو مسلح باربعة صواريخ « هاربون » وبمدفع ٧٦ مم ، من النوع المذكور انفـــا ، و ٢ هاون ضـــد الغواصات (٢) ٠

« القوة البحرية لليمن الديمقراطية الشعبية »

تتألف البحرية اليمنية الشعبية من ٣٠٠ ضابط وبحار تقريبا ، ولها قاعدة واحدة هي « عدن ، وتضم زورقي صواريخ « اوسا » ، و ٢ « كورفيت » مضادة للغواصات من طراز « سو ـ ١ » سوفيتية الصنع ، وزورقي طوربيد طـــراز « ب٦ » السوفييتي ، و ٣ كاسحات الغام ساحلية (بريطانية الصنع) ، و ١٥ زورق دورية ساحلية صغير (بريطانية الصنع) ، وسفينتي انزال دبابات من طراز « بولنوكني » (سوفييتية الصنع) ويمكن الرجوع الى مواصفات الزوارق الصاروخية وزوارق الطوربيد والسفن المضادة للغواصات المماثلة لها فـــي البحرية المصرية (بالقسم الاول من الدراسة) ٠ وهي قوة بحرية لا بأس بها

---

(٢) Aviation and Mavine , May - 1977, 37, p. 21.

بالنسبة لحجم اليمن الجنوبي وقواه البشرية ، كما ونوعا ، وكذلك لمسرح العمليات في باب المندب وخليج عدن ، وان كانت في حاجة الى بعض الاضافة المحدودة نسبيا في في عدد زوارق الصواريخ وطائرات الهليكوبتر المضادة للغواصات ·

« القوة البحرية للجمهورية اليمنية العربية »

تتألف القوة البحرية لليمن الشمالي من ٥٠٠ ضابط وبحار ، ولها قاعدة واحدة في « الحديدة » ، وتضم ٤ زوارق طوربيد سوفييتية الصنع من فئة « ب ٤ » ، تسلمتها عام ١٩٦٠ ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق ٢٥ طنا ، وطوله ٢٥ مترا ، وعرضه ٣ر٧ امتار ، وغاطسه ٨ر١ متر · وهو مسلح برشاشين ، وانبوبين لاطلاق الطوربيدات عيار ١٨ بوصة ، ومحركيه الديزل قوتهما ٢٢٠٠ حصان ، وسرعته القصوى ٥٠ عقدة ·

بالاضافة الى اربعة زوارق دورية كبيرة سوفييتية الصنع من فئة « بولوشات»، تسلمتها عام ١٩٧٠ ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق ١٠٠ طن ، وطوله ٣٠ مترا ، وعرضه ٨ر٥ امتار ، وغاطسه ٨ر١ متر · وهو مسلح بمدفعين عيار ٢٥ مم · (٣)

ومن الواضح ان هذه القوة البحرية ضعيفة ، ولا تستطيع ان تلعب دورا فعالا في التصدي للزوارق او الغواصات الاسرائيلية العاملة في البحر الاحمر ، وهي في حاجة الى تطوير كبير في التسليح كما ونوعا · هذا بالنسبة للقوى البحرية العربية الموجودة في البحر الاحمر بكامل قواها تقريبا (باستثناء السعودية التي قد يكون جزء من قواتها البحرية في الخليج العربي) · اما البحرية المصرية ، فقواتها موزعة بين البحرين الابيض المتوسط والاحمر ، وقد اتاح لها اعادة الملاحة في قناة السويس قدرة كبيرة على سرعة تغيير ثقل حشود قوتها بين البحرين بمرونة وسهولة نسبية ، نظرا لعدم اضطرارها الى الدوران حول افريقيا كلها عبر رأس الرجاء الصالح للوصول الى البحر الاحمر من قاعدتها الرئيسية في « الاسكندرية » الواقعة على البحر الابيض المتوسط · على خلاف الحال بالنسبة للبحرية الاسرائيلية ، التي لا تستطيع نقل اي قطعة بحرية رئيسية (زوارق صواريخ او غواصات) الا عبر رحلة طويلة حول القارة الافريقية باكملها ، وحين تمر في « باب المندب » لا بد أن ترصدها اجهزة ووسائل الرصد العربية ، وبالاضافة الى ذلك فأن ضيق مساحة البحر الاحمر نسبيا ، ووجود

---

(٣) Jane's Fighting ships , 1976 - 77 , p. 765.

القواعد البحرية الاسرائيلية في البحر الاحمر داخل خليج العقبة وعند مدخلـه (ايلات وشرم الشيخ) ، يجعل من السهل نسبيا على وسائل الاستطلاع المصرية رصد القطع البحرية الاسرائيلية بدقة ، ومن ثم حشد الوسائط المتفوقة عليهـا كميا ونوعيا ٠

وحتى نستطيع ان نتوصل الى ميزان قوى تقريبي بين العرب واسرائيل فـي البحر الاحمر ، سنفترض ان البحرية المصرية ستركز ثلث قوتها الرئيسية فـي البحر المذكور والثلثين في البحر الابيض المتوسط ، وان البحريـــة السعودية ستركز قواها هي الاخرى في البحر الاحمر دون الخليج العربي ٠

وعلى الاساس المذكور آنفا تصبح القوة البحرية العربية الممكن حشدها فـي البحر الاحمر تتالف من الوحدات التالية :

مدمرتان من فئة (سكوري) واربع غواصات من فئة « ر » (وكلهـا قطع مصرية) ونحو ٨ زوارق صواريخ « اوسا » و « كومار » (٦ منهـا مصريـة و ٢ من اليمن الجنوبي) ، و ٦ قناصات غواصات « سو ١ » (٤ مصرية و ٢ من اليمن الجنوبي) ونحو ٢١ زورق طوربيد (١٢ مصرية و ٣ سعودية و ٤ من اليمن الشمالي و ٢ من اليمن الجنوبي) ، بخلاف عدد من كاسحات الالغام المصرية ، اما زوارق الدورية المختلفة الاحجام والموجودة في بحريات الـــدول العربية المطلة على البحر الاحمر ، فليست صالحة للدخول في اشتباكات بحريـة مع زوارق الصواريخ او الغواصات او زوارق الطوربيد الاسرائيلية والطائرات المتعاونة معها بمختلف انواعها ، نظرا لضعف تسليحها المضاد للسفـــن او للطائرات ، وانعدام اسلحتها المضادة للغواصات ، ومن ثم فان مهامها ستقتصر على حراسة السواحل والتصدي لعمليات تسلل عناصر التخريب والاغارة مـن « الكوماندوس » البحري الاسرائيلي ، والذي يقدر عدده بنحو ٣٠٠ رجـــل ، معظمهم من الضفادع البشرية ٠

القوة البحرية الاسرائيلية :

وتمتلك البحرية الاسرائيلية قوة اجمالية ، موزعة على كلا البحرين ، الابيض المتوسط والاحمر ، تضم نحو ١٨ زورقا للصواريخ وربمـــا ٢٠ (نظـــرا لان احواض حيفا تنتج زورقين من فئة رشاف سنويا على الاقل) ، منها ٦ زوارق كبيرة من فئة « رشاف » على الاقل ، وربما ارتفع عددها الى ١٠ زوارق خلال هذا العام ٠ والباقي من فئة « ساعر » الاصغر حجما والاقل مدى (يمكن الرجوع لتفاصيل القوة البحرية الاسرائيلية ، من حيث عدد القطع ونوعيتها وقدراتهـا ، الى دراستنا الخاصة بهذا الموضوع في العدد ٦٥ من شؤون فلسطينيـــــة) ،

بالاضافة لنحو ٩ زوارق طوربيد ، و ٢٥ زورق دورية ساحلية صغير من فئة « دبور » ، البالغ وزنها عند الحمولة الكاملة ٣٥ طنا ، وسرعتها ٢٥ عقدة ، وبعضها مسلح بانبوبين لاطلاق الطوربيدات فيمقدمتها ، وبعضها الاخر مسلح بصاروخين سطح ـ سطح من طراز « غابرئيل » ، والبعض مسلح بالتسليح التقليدي الاصلي فحسب والذي يتألف من مدفعين ٢٠ مم ورشاشين ٥ر٠ بوصة · كما تضم هذه البحرية زورقي دورية كبيرين و ٤ زوارق دورية ساحلية صغيرة ، بالاضافة للغواصة « دولفين » ، توأم الغواصة « داكار » التي غرقت في ٢٥ ـ ١ ـ ١٩٦٨ في شرقي البحر الابيض المتوسط في ظروف غامضة ولم ينج أحد من طاقمها · وهناك ثلاث غواصات حديثة من حجم صغير ، يقدر وزنه على سطح الماء بنحو ٤٢٠ طنا ونحو ٦٠٠ طن تحت سطح الماء ، وهي من طراز « فيكرز ٢٠٦ » بريطانية الصنع ، وقد بدأ في بناء الغواصة الاولى في ٢ ـ ١٢ ـ ١٩٧٥ ، ويقوم البحارة الاسرائيليين بالتدريب على هذا النوع من الغواصات في بريطانيا حاليا ، وهي مسلحة بثمانية انابيب لاطلاق الطوربيدات عيار ٥٣٣ مم (٢١ بوصة) في مقدمتها ، وتبلغ قوة محركاتها الديزل ٢٠٠٠ حصان ، ومحركاتها الكهربائية ١٨٠٠ حصان ، وسرعتها ١١ عقدة فوق سطح الماء و ١٧ عقدة تحت سطح الماء ، ويتألف طاقمها من ٢٢ رجلا · (٤) وهي تعد بذلك اقوى في التسليح من الغواصة « دولفين » الاكبر حجما منها (١٥٣٥ طنا فوق سطح الماء ، وزن الاخيرة ، مقابل ٤٢٠ طنا للفيكرز) ، واقل منها في طاقمها بكثير (اذ ان طاقم دولفين يضم ٦٥ رجلا) · ونعتقد ان غواصة « فيكرز » على الاقل ستعمل فيالبحرالاحمر ، خاصة وان حجمها الصغير يتيح لها فرصا افضل في الملاحة عبر مضائقه الضيقة عند مدخل خليج العقبة (مضائق تيران) او عند « باب المندب » · كما انه يوجد منذ نيسان (ابريل) ١٩٧٤ زورقا صواريخ فئة « رشاف » في القواعد البحرية الاسرائيلية في خليج « العقبة » ، وصلا هناك عبر « باب المندب » اثر رحلة بحرية طويلة بدأت من « حيفا » في البحر الابيض المتوسط نحو جبل « طارق » ، ثم المحيط الاطلسي فالمحيط الهندي مرورا برأس « الرجاء الصالح » · ويحمل الزورقين المذكورين اسمي « رشاف » و « كيشيت » ، وقد جهزا باجهزة « سونار » الخاصة باكتشاف الغواصات ·

ويقول « اريك سيلفر » ، مراسل صحيفة « الغارديان » ، في عددها الاسبوعي الصادر في ٥ ـ ٦ ـ ١٩٧٧ ، ضمن تحقيق صحفي بعنوان « توازن الابتزاز » كتبه اثر زيارة قام بها لمنطقة « شرم الشيخ » والمناطق القريبة منها مثل « رأس

---

(٤) المرجع السابق صفحة ٢٤٩ ·

نصراني » و « رأس محمد » ، ان « شرم الشيخ لم تفقد شيئا من اهميتها الاستراتيجية بالنسبة لاسرائيل · ويؤكد المخططون العسكريون انها لا غنى لاسرائيل عنها لردع العرب عن اغلاق مضيق « باب المندب » · وان القواعد البحرية والجوية الاسرائيلية الكبيرة الموجودة في « شرم الشيخ » تخلق توازنا في الابتزاز بين الطرفين · وان « شرم الشيخ » ، وبالذات لسان الارض القريبة منها جنوبا والممتدة داخل البحر المعروفة باسم « راس محمد » يحرسان كلا من خليج « العقبة » و « السويس » ···

وتستطيع زوارق « رشاف » ، بدعم جوي ولوجيستيكي (اداري) ، ان تمنع الملاحة العربية والدولية نحو ميناء « العقبة » ، وبصورة اكثر فاعلية في الرد الانتقامي بالنسبة لقناة السويس » · (٥) وهذا يؤكد الاهمية الكبيرة التي توليها قيادة البحرية الاسرائيلية لمسرح عمليات البحر الاحمر ، ونقلها اليه زوارق « رشاف » الصاروخية بعيدة المدى ، فضلا عن عدد من زوارق الطوربيد القديمة وزوارق « دبور » ، وتخصيص قوة جوية لمساندة عملياتها ، تتخذ من «شرم الشيخ» قاعدة لها ، وان « شرم الشيخ » بقاعدتيها البحرية والجوية ستلعب بدورا حيويا للغاية في العمليات البحرية والجوية الاسرائيلية ضد القوى البحرية وحركة الملاحة العربية في قناة وخليج السويس ، وعند مضيق « باب المندب » ، لرفع « ثمن » اي عملية «خنق استراتيجي» قد يقدم عليها العرب مرة اخرى عند « باب المندب » ، ومن ثم فان قواعد « شرم الشيخ » تعتبر احدى الوسائل الفعالة في تنفيذ استراتيجية « الردع » الاسرائيلية او في عمليات « الرد الجسيم » المضاد لممارسة « الخنق الاستراتيجي » العربي · وهذا يؤكد ما سبق ان اوضحناه ، في القسم الاول من دراستنا هذه ، من ان الممارسة الناجحة للخنق الاستراتيجي العربي تفترض ضرورة استعادة سيطرة مصر على « شرم الشيخ » والشاطىء الشرقي لخليج السويس ، للحيلولة دون التعرض البحري الاسرائيلي للملاحة في خليج السويس ، ولاضعاف فاعلية الدعم الجوي الاسرائيلي للعمليات في الخليج المذكور وعند « باب المندب » ·

واستطرد « اريك سيلفر » في تحقيقه الصحفي المشار اليه آنفا ، موضحا ان زوارق « رشاف » تستطيع الوصول الى « باب المندب » من « شرم الشيخ » (وذلك نظرا لان مداها يبلغ نحو ٢٤٠٠ كلم بسرعة ٣٠ عقدة ، ويمكن ان يزيد بعض الشيء عند السير بسرعة اقل مـ ن ذلك) ، ولكن هذه المسافة تجعل المدى القتالي لطائرات « الفانتوم » و « الكفير » الاسرائيلية يصل الى حده الاقصى ، ولذلك قال احد الضباط الاسرائيليين للكاتب » ان باب المندب تقع خارج المدى

---

(٥) The Guardian , June 5, 1977, p. 8.

القتالي طويل الامد لطائراتنا ، ولكنها ليست خارج المدى الذي نستطيع ان نفعل فيه شيئا ما » ٠ (٦)

ويعلق الكاتب على ذلك فيقول « ولكن ، الطائرة الاميركية « ايغل » ف ــ ١٥ ، التي بدأت اسرائيل تتسلمها في كانون الاول (ديسمبر) الماضي ، ستحـــدث تغييرا له مغزاه الكبير في الموقف » ٠ (٧) والمعروف ان الطائرة « ف ــ ١٥ » ، التي تعد احدث واقوى الجيل الحديث للمقاتلات الاميركية ، والتي صممـــت خصيصا للتفوق نظريا على « الميغ ٢٥ » ، يبلغ مداها القتالي في حالة الطيران « عالي ــ منخفض ــ عالي » نحو ١٨٠٠ كلم ، وان مداها الاقصى يبلغ نحو ٤٨٠٠ كلم ٠ وعموما فان الطائرات الاسرائيلية ، بانواعها الثلاث ، يمكن ان تزود بالوقود في الجو اثناء رحلتها الطويلة من « شرم الشيخ » حتى « بـــاب المندب » وجزيرة « بريم » في اقصى جنوب البحر الاحمر ، وذلك بواسطـــــة طائرات النقل المزودة بصهاريج الوقود الخاصة بمثل هذه العمليات من طـــراز « ستراتوكروزر » ، التي يملك منها الطيران الاسرائيلي ١٢ طائرة ، منها طائرتين على الاقل مزودة بصهاريج الوقود ٠

ونعتقد ان البحرية الاسرائيلية ستزيد حتما من عدد زوارقها الصاروخيـــة « رشاف » في البحر الاحمر ، من زورقين الى اربعة زوارق على الاقل ، ليكون لها دورية مشكلة من زورقين بصفة دائمة في البحر ٠ كما انها ستستخدم عددا من زوارق « دبور » المسلحة بصواريخ « غبرائيل » ، ربما بلغ ٨ او ١٠ زوارق، في العمليات التعرضية قصيرة المدى في خليج «السويس» وضد القواعد البحرية المصرية في « الغردقة » و « سفاجه » ٠ وهذه الزوارق يمكن نقلها الى « ايلات » فوق شاحنات كبيرة نظرا لصغر حجمها وخفة وزنها الناتج عن ان هيكلهـــا مصنوع من الالومنيوم في مصانع الطائرات الاسرائيلية ٠ ومعنى هذا ان اجمالي القوة النارية الصاروخية الاسرائيلية في البحر الاحمر ، والتي تشكل الجـــزء الرئيسي للقوة البحرية الاسرائيلية ، يمكن ان تصل الى ٤٨ صاروخا فـــي الصلية الواحدة (اذ ان الاربع زوارق « رشاف » المفترض وجودها يسلح كـل منها بسبع صواريخ ، والعشر زوارق « دبور » يسلح كل منها بصاروخين) ٠ وهذا يفترض ان يكون لدى البحرية العربية في البحر الاحمر قوة لا تقل عـــن ١٢ زورقا من نوع « اوسا » ، حتى تكون متعادلة مع القـــوة الاسرائيليـــة المفترضة ، او حتى تحقق تفوقا كميا في حالة عدم وصول حجم القوة الصاروخية الاسرائيلية الى تقديرنا المفترض ٠ وقد نشر مؤخرا ، في احدى المجلات العالمية

---

٦ ــ المرجع السابــق ٠

٧ ــ المرجع السابــق ٠

المتخصصة في الاسلحة البحرية والجوية ، ان احواض السفن في اسرائيل تبني حاليا زورقا جديدا اطلقت عليه اسم « كيو ٩ » ، يعتبر تطويرا للزورق « رشاف » ، يبلغ وزنه نحو ٨٥٠ طنا ، وطوله ٧٧ مترا ، ويصل مدى عمله الى ٨٠٠٠ كلم ، وهو مزود بسطح خاص في مؤخرته مخصص لطائرة هليكوبتر مقاتلة ، فضلا عن مدافعه وصواريخه واسلحته الاخرى (التي لم ينشر شيء محدد عنها) ، ويبلغ عدد طاقمه ٤٥ رجلا ، وتكلفته تقدر بنحو ٧٥ مليون دولار ٠ (٨) وسوف تكون هذه الزوارق ، او على الاصح هذه الفرقاطات الصغيرة السريعة في واقع الامر ، عماد القوة البحرية الاسرائيلية في الثمانينات ٠ ويتشابه هذا الزورق الجديد مع سفن حراسة السواحل الاميركية المعروفة بفئة « ريلاينس ٢١ » ، التي يبلغ وزنها القياسي ٩٥٠ طنا ، وطولها ٦٤ مترا ، ولها سطح لطائرة هليكوبتر ، ويصل مدى عملها الى نحو ٩٧٦٠ كلم بسرعة ١٤ عقدة ٠ ومعنى هذا التطوير ، الذي يجب ان تضعه البحرية العربية في اعتبارها منذ الآن ، هو أن البحرية الاسرائيلية ستكون لها سفن سريعة وقوية التسليح ضد السفن والغواصات والطائرات ، قادرة على الوصول الى أي هدف ساحلي او بحري في العمق العربي ، سواء في البحر الاحمر او البحر الابيض المتوسط ، في اوائل الثمانينات ، لضمان تأمين حرية الملاحة الاسرائيلية في كلا البحرين على المدى الاستراتيجي ، ومن ثم يصعب على العرب ممارسة « الخنق الاستراتيجي » ضدها ، بل يشكل ذلك عنصرا هاما في « الردع » الاسرائيلي المضاد للخنق الاستراتيجي ٠

القوة البحرية السورية

ولما كانت اي مواجهة عربية ـ اسرائيلية فعالة في البحر الاحمر ، ستتحول الى مواجهة شاملة في كلا البحرين الاحمر والابيض المتوسط ، ان لم تكن ايضا في مسارح العمليات البرية ، فانه يجب علينا استكمال صورة ميزان القوى البحري العربي ـ الاسرائيلي بالنسبة لمسرح عمليات البحر الابيض المتوسط ، ومن ثم سنتعرض للقوى البحرية لكل من سوريا وليبيا ، والاجزاء المتوقع تقريبا استخدامها في البحر المذكور من قبل مصر واسرائيل ٠

تتألف البحرية السورية (وفقا لآخر تقديرات موسوعة جينز البحرية) من نحو ٢٥٠٠ ضابط وبحار ، ولديها قاعدتان رئيسيتان في كل من ميناءي « اللاذقية » و « بانياس » ٠ وتضم فرقاطتين من فئة « بتيا ١ » السوفييتية

---

٨ ـ الدفاع والامن ، العدد ٢٨ اذار (مارس) ١٩٧٧ ، ص ٢٩ ٠

الصنع تسلمتهما عام ١٩٧٥ · ويبلغ الوزن القياسي للفرقاطة ٩٥٠ طنا . وعند الحمولة الكاملة يصبح وزنها ١١٥٠ طنا · وطولها الاجمالي ٨٢ر٣ مترا . واقصى عرض لها ٩ر١ امتار ، وغاطسها ٣ر٢ امتار · وهي مسلحة باربعة مدافع مزدوجة المهمة (ضد السفن والطائرات) من عيار ٧٦ مم موزعة على برجين ثنائي السبطانة ، احدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة . بالاضافة لاربع مجموعات اطلاق قذائف صاروخية مضادة للغواصات بكل منها ١٦ سبطانة ، وخمسة انابيب لاطلاق الطوربيدات من عيار ٤٠٦ مم (١٦ بوصة) · وهي مزودة بمحركي ديزل ومحركي توربين – غازي ، اجمالي قوتها ٣٠ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٣٠ عقدة ، ويتألف طاقمها من ١٠٠ ضابط وبحار . ومزودة بجهاز رادار للانذار المبكر وجهاز رادار آخر لادارة النيران · وهي اساسا سفينة صغيرة مضادة للغواصات ، ذات قدرة على الاشتباك مع زوارق الطوربيد والفرقاطات الصغيرة غير المسلحة بصواريخ سطح – سطح ·وبالاضافة لهاتين الفرقاطتين ، تضم البحرية السورية ٦ زوارق صواريخ فئة « اوسا » و ٦ زوارق صواريخ من فئة « كومار » (سبق ان اوضحنا قدراتها عند عرض القوة البحرية المصرية) ، كما يوجد لديها ٨ زوارق طوربيد عاملة من فئة « بي – ٤ » ، التي يبلغ وزنها القياسي ٢٥ طنا ، ومسلحة بانبوبي اطلاق طوربيدات عيار ١٨ بوصة ورشاشين مزدوجين م/ط ، وتبلغ قوة محركيها الديزل ٢٢٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ٥٠ عقدة · وهناك ٣ زوارق دورية كبيرة فرنسية الصنع ، يبلغ الوزن القياسي لكل زورق ١٠٧ اطنان ، وعند الحمولة الكاملة يصبح وزنه ١٣١ طنا · وطوله ٢ر٣٨ مترا ، وعرضه ٧ر٥ ، وغاطسه ١ر٢ ، وهو مسلح بمدفع ٧٦ مم ومدفعين ٢٠ مم وبقواذف قنابل اعماق، وتبلغ قوة محركاته الديزل ١١٣٠ حصانا ،وسرعته القصوى ١٦ عقدة ، ومدى عمله ٦٨٠ ميلا بسرعة ١٣ عقدة ، ويتألف طاقمه من ٢٨ رجلا · وقد بنيت هذه الزوارق عام ١٩٤٠ ، ثم اعيد تجهيزها بصورة احدث بمحركات ديزل عام ١٩٥٥ ، وبيعت الى سوريا عام ١٩٦٢ ، ولهذا فانها قاربت نهاية قدرتها العملية ، والمعتقد ان زورقا واحدا منها فقط هو العامل حاليا ، وهو يصلح للحراسة الساحلية الخفيفة · وبالاضافة الى ذلك ، تملك البحرية المذكورة كاسحة الغام للعمل فى اعالي البحار من فئة « ت ٤٣ » السوفييتية الصنع (مواصفاتها مماثلة لتلك الموجودة لدى البحرية المصرية) ، وكاسحتي الغام ساحليتين من فئة « فانيا » السوفييتية الصنع ، ويبلغ وزنها القياسي ٢٢٥ طنا، وعند الحمولة الكاملة ٢٥٠ طنا ، وطولها ٩ر٣٩ مترا ، وعرضها ٣ر٧ امتار ، وغاطسها ١ر٢ متر ، ومسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم ، وتبلغ قوة محركيها الديزل ٢٢٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ١٨ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٣٠ رجلا ·

وتدعم القوة البحرية السورية في عملياتها المضادة للغواصات والزوارق والسفن الخفيفة ، تسع طائرات هليكوبتر من طراز « كاموف ــ ٢٥ » السوفييتية الصنع ، التي يبلغ مدى عملها ٣٥٠ ميلا بحريا ومسلحة بطوربيدات مضادة للغواصات ، ومشاعل للعمل ليلا ٠ وبطبيعة الحال تشكل زوارق الصواريخ ، القوة الضاربة الرئيسية للبحرية السورية ، ويبلغ اجمالي قوتها النارية ٣٦ صاروخا في الصلية الواحدة ٠ كما انها تمتلك قدرة لا بأس بها من الاسلحة المضادة للغواصات تتركز في الفرقاطتين فئة « بتيا ١ » وطائرات الهليكوبتر التسع المذكورة ٠ ولكنها تحتاج لدعم قوتها الضاربة بغواصتين او ثلاث ، وبثلاث او اربع قناصات مضادة للغواصات ٠

« القوة البحرية الليبية »

تضم البحرية الليبية نحو ٢٧٠٠ ضابط وبحار ، وقاعدتها الرئيسية في ميناء « طرابلس » ، فضلا عن قواعد عمليات في « بنغازي » و « درنة » و « طبرق » ٠ وتتألف حاليا من فرقاطة « ماركة ٧ » بريطانية الصنع ، بدأ في بنائها في ٢٧ ــ ٩ ــ ١٩٦٨ ، وانزلت الى البحر في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ ، ووصلت الى طرابلس في خريف ١٩٧٣ ٠ ويبلغ وزنها القياسي ١٣٢٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة يصبح وزنها ١٦٢٥ طنا ٠ وطولها الاجمالي ٦ر١٠٠ امتار ، واقصى عرض لهيكلها ١١ مترا ، وغاطسها ٤ر٣ امتار ٠ وهي مسلحة بمدفع عيار ١١٥ مم (٥ر٤ بوصة) في برج امامي ، مزدوج المهمة (ضد السفن والطائرات) ، ومدفعين عيار ٤٠ مم م / ط منفردين ، ومدفع ثنائي السبطانة عيار ٣٥ مم م / ط ، و ٦ قواذف صواريخ سطح ــ جو من طراز « سي كات »، موزعة على مجموعتي اطلاق ثلاثية (ويبلغ مداها نحو ٥ر٣ كلم وتوجه بصريا او بالرادار او بالتليفزيون) ، فضلا عن هاون مضاد للغواصات « ماركة ١٠ »٠ وتبلغ قوة محركيها التوربينيين الغازيين ٢٣٢٠٠ حصان ، ومحركيها الديزل ٣٥٠٠ حصان ٠ وسرعتها القصوى ٥ر٣٧ عقدة ، والاقتصادية ١٧ عقدة ، وفي الحالة الاخيرة يصل مدى عملها الى ٥٧٠٠ ميل ٠ وهي مزودة بثلاثة اجهزة رادار، احدها للمراقبة الجوية، والثاني لادارة النيران،والثالث لتحديد الاتجاه٠ كما تمتلك « كورفيت » تسمى « طبرق » ، بريطانية الصنع ، انزلت الى البحر في ٢٩ ــ ٧ ــ ١٩٦٥ ، ووصلت الى « طرابلس » في ١٥ ــ ٦ ــ ١٩٦٦ ٠ ويبلغ وزنها القياسي ٤٤٠ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ٥٠٠ طن ، وطولها الاجمالي ٥٤ مترا ، واقصى عرض لها ٧ر٨ امتار ، وغاطسها ٤ امتار ٠ وهي مسلحة بمدفع عيار ١٠٢ مم (٤ بوصة) في برج امامي ، و ٤ مدافع فردية م / ط عيار ٤٠ مم ، وتبلغ قوة محركيها الديزل ٣٨٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ١٨

عقدة ، ومدى عملها ٢٩٠٠ ميل بسرعة ١٤ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٦٣ رجلا (٥ ضباط و ٥٨ رتبيا اخرين) وبالاضافة الى هاتين السفينتين ، يوجد لدى البحرية الليبية ٣ زوارق صواريخ سريعة من فئة « سوسه » البريطانية الصنع، وقد بنيت جميعا في عامي ٦٧ و ٦٨ ٠ ويبلغ الوزن القياسي للزورق ٩٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ١١٤ طنا ، وطوله الاجمالي ٥ر٣٠ مترا ، وعرضه ٨ر٧ امتار ، وغاطسه ١ر٢ متر ٠ وهو مسلح بثمانية صواريخ سطح ـ سطح من طراز « س س ١٢ » ،التي يبلغ مداها نحو ٨ كلم ، وبمدفعين منفردين م / ط عيار ٤٠ مم ، وهو مزود بثلاث محركات توربينية غازية قوتها ١٢٧٥٠ حصانا ، واقصى سرعة لها ٥٤ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٢٠ رجلا ٠

كما أن لديها ١١ زورق دورية كبيرا يتفاوت وزنها بين ١٠٠ و ١٢٠ طنا ،كل منها مسلح بمدفع عيار ٢٠ مم ، وتتراوح سرعتها بين ١٤ و ١٨ عقدة ، ويتفاوت مدى عملها بالسرعة الاقتصادية بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ ميل ٠ وهي لا تصلح الا في اعمال حراسة السواحل الخفيفة ، ولا تدخل بطبيعة الحال ضمن القوى البحرية الصالحة للقتال البحري ٠ كما ان لديها سفينة دعم لوجستيكي (اداري) ، تسمى «زلتين» ، بريطانية الصنع ، بدأ بناؤها عام ٦٧ ، ودخلت الخدمة العملية في بداية عام ١٩٦٩ ٠ ويبلغ وزنها القياسي ٢٢٠٠ طن ، وعند الحمولة الكاملة ٢٤٧٠ طنا ، وطولها الاجمالي ٨ر٩٨ مترا ، وعرضها ٦ر١٤ مترا ، وغاطسها ٨ر٥ امتار ٠ وبها حوض جاف طوله ٤١ مترا ، وعرضه ٢ر١٢ مترا٠ ومسلحة بمدفعين م / ط عيار ٤٠ مم ٠ وتبلغ قوة محركيها الديزل ٣٥٠٠ حصان ، وسرعتها ١٥ عقدة ، ومدى عملها ٣٠٠ ميل بسرعة ١٤ عقدة ، ويتألف طاقمها من ١٠١ رجل (١٥ ضابطا و ٨٦ رتبيا اخرين) ٠ وهي توفر كافة الخدمات اللوجستيكية المطلوبة للسفن الليبية ، بما في ذلك الحوض الجاف المتحرك ، الذي يمكن ان تجرى اصلاحات لسفن يبلغ طولها ٣٦ مترا ، وهي في عرض البحر ٠ اي ان زوارق الصواريخ « سوسه » مثلا يمكن اصلاحها فيه ، وكذلك زوارق الدورية الساحلية الكبيرة ، وكذلك زوارق من فئة « كومار » مثلا ٠ وهناك تقارير صحفية تشير بأن الاتحاد السوفييتي سيسلم البحرية الليبية خلال عامي ٧٦ و ٧٧ نحو ٢٤ زورق صواريخ من فئة « اوسا » ، ولكن لم يتأكد بعد ما اذا كان ذلك قد تم فعلا ٠ وفضلا عن ذلك تعاقدت ليبيا مع ايطاليا في عام ١٩٧٤ على شراء ٤«كورفيت » زنة ٥٥٠ طنا (عند الحمولة الكاملة) ، من المفروض ان تسلم اليها في عامي ٧٧ و ٧٨ ، وسوف تسلح كل سفينة باربعة صواريخ سطح ـ سطح فرنسية من طراز « اوتومات » ، التي يصل مداها الى نحو ٥٩ كلم ، وبمدفعين اثنين مزدوجي المهمة (ضد السفن والطائرات) من نوع « اوتوميلار ١ » عيار ٧٦ مم ، وبمعدات اعاقة الكترونية ، واجهزة « سونار » لاكتشاف الغواصات ٠

كما تعاقدت ليبيا مع فرنسا عام ١٩٧٥ على شراء ١٠ زوارق صواريخ سريعة من طراز « بي ر ٧٢ » ، ولا يعرف موعد البدء في تسليمها بعد ٠ ويبلغ وزن الزورق القياسي ٥٣٦ طنا ،وطوله ٦٣ر٢ مترا ، وعرضه ٩ امتار ، وغاطسه ٢ر٤ امتار ٠ وهو مسلح باربعة صواريخ سطح ـ سطح من طراز « اكسوست مم ٣٨» ، التي يبلغ مداها ٣٧ كلم تقريبا ، وبمدفع «اوتوميلار ١» عيار ٧٦ مم. وبمدفعين ٤٠ مم ومدفعين ٢٠ مم (ويمكن استبدال المدفعين ٤٠ مم بمدفع واحد ٧٦ مم نظرا لانهما على برج واحد مزدوج السبطانة في المؤخرة) ٠ وتبلغ قوة محركاته الاربعة الديزل ٢٠ الف حصان ، وسرعته القصوى ٥ر٣٢ عقدة . ومدى عمله ٢٠٠٠ ميل بسرعة ١٦ عقدة ، و ٧٠٠ ميل بسرعة ٢٠ عقدة ، ويتألف طاقمه من ٤٤ رجلا ٠ كما انه يمكن تسليحه بطوربيدين موجهين سلكيا او بقاذفي طوربيدات مضادة للغواصات ٠ وهو مزود برادار للملاحة واخر للانذار المبكر الجوي والبحري ، ورادار لتوجيه الصواريخ ٠ فضلا عن جهاز « سونـار » لكشف الغواصات يمكن تركيبه في الزورق ٠ وهناك تقارير تفيد بتعاقد ليبيا على شراء ٣ ـ ٤ غواصة فرنسية الطراز من فئة « اغوستا » المصنوعة في اسبانيا او من فئة « دافني » الفرنسية ، ولكن لم تتأكد بعد اي مواعيد لتسليمها ٠ وكذلك هناك معلومات غير مؤكدة عن غواصات سوفييتية الصنع ستسلم للبحرية الليبية ، بعد أن يتم تدريب طواقمها في الاتحاد السوفياتي ٠ ولذلك لا نستطيع ان ندخل الغواصات ضمن القوة البحرية حاليا ، وتوضح لنا هذه المعلومات ان ليبيا سيكون لديها خلال العام القادم ، على الارجح ، قوة بحرية كبيـرة وفعالة ، تتميز بحداثة وتطور قطعها من حيث القدرة الملاحية والتسليح ٠ وانها في حالة حصولها فعلا على الاربعة وعشرين زورقا من طراز « اوسا » ، وكذلك العشرة زوارق الفرنسية « بي ر ٧٢ » ، والاربعة « كورفيت » الايطالية ، ستكون لديها قوة نارية صاروخية قادرة على مواجهة الصواريخ الاسرائيلية « غبرائيل » في زوارق « رشاف » و « ساعر » ، تضم ١٥٢ صاروخا في الصلية الواحدة (مع استبعاد الصواريخ س س ١٢ الموجودة حاليا في الزوارق الثلاثة من فئة « سوسه » ، والتي لا تستطيع مواجهة صواريخ غبرائيل بكلا نوعيها بسبب قصر مداها)٠ فاذا ما اضفنا اليها القوة النارية لزوارق الصواريخ السورية ، البالغ قدرها ٣٦ صاروخا ، والقوة النارية لزوارق الصواريخ المصرية فـي البحر الابيض المتوسط (على اساس افتراض انها تضم ١٠ زوارق كومار) ، البالغ عددها نحو ٢٠ صاروخا ، يصبح اجمالي القوة الصاروخية البحرية العربية في البحر الابيض المتوسط نحو ٢٠٨ صاروخا ٠ على حين ان اسرائيل تمتلك حاليا نحو ١٠ زوارق « رشاف » (في تقديرنا الخاص ، اما وفقا لآخـر تقارير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني فتمتلك ٦ زوارق فقط ، ولكـن ذلك كان حتى بداية عام ١٩٧٥ فقط ، علما بان احواض حيفا تنتج زورقين كل

سنة) ، و ١٢ زورق « ساعر » ٠ واذا افترضنا انها ستضع ٤ زوارق «رشاف» في البحر الاحمر ، فستكون قوتها الصاروخية في البحر الابيض المتوسط تقدر بنحو ١٢٦ صاروخا (موزعة على ٦ زوارق « رشاف » و ١٢ زورق « ساعر »)، أو بنحو ١٤٠ صاروخا في اوائل عام ١٩٧٨ ، على اساس زيادة عدد زوارق « رشاف » الى ٨ زوارق في البحر الابيض المتوسط ٠

ولكن ذلك الميزان محسوب ، كما قلنا ، على اساس افتراض تسلم البحرية الليبية لقطعها المتعاقد عليها بالكامل عام ١٩٧٨ ٠ ولذلك فان الميزان الحالي ، الذي يتسم بالواقعية المباشرة ، يختلف كثيرا عن الارقام المذكورة ، وهو يميل لصالح اسرائيل ٠ اذ ان القوة العربية الصاروخية (المصرية والسورية على فرض حشد الست زوارق « اوسا » المصرية في البحر الاحمر) تقدر بنحو ٥٦ صاروخا فقط ، مقابل ١٢٦ صاروخا للبحرية الاسرائيلية ، وفقا للفرض المشار اليه آنفا ٠ وحتى اذا افترضنا ان البحرية المصرية ركزت كافة زوارقها الصاروخية في البحر الابيض المتوسط ، وان البحرية الاسرائيلية لا تمتلك في البحر المذكور الا ٤ زوارق « رشاف » و١٢ زورق « ساعر » (اخذا بتقرير المعهد البريطاني عن عام ٧٦ ـ ٧٧)، فان الميزان يكون ايضا لصالح البحرية الاسرائيلية ، اذ انها سيكون لديها ١١٢ صاروخا مقابل ٨٠ صاروخا للبحريتين المصرية والسورية ٠ ولا نستطيع ان ندخل في الميزان الصواريخ الليبية الحالية « س س ١٢ » ٠

« آفاق استخدام البحرية العربية »

وعلى ضوء العرض المفصل لميزان القوى البحري العربي ـ الاسرائيلي ، في كل من البحرين الاحمر والابيض المتوسط ، يتضح لنا ان الوضع الراهن للقوة البحرية العربية ، وكذلك في المستقبل القريب الاكثر واقعية ، يوفر افضلية الاخذ باستراتيجية هجومية في البحر الاحمر ، واخذ استراتيجية دفاعية ، في الاساس ، في البحر الابيض المتوسط ، خاصة ضمن ميزان القوى الجوية القائم حاليا ٠ وذلك لان البحرية العربية ، وخاصة المصرية ، تتمتع بقدرة حشد ومناورة اسرع في البحر الاحمر عن البحرية الاسرائيلية ، اذ انها تعمل على خطوط داخلية قصيرة نسبيا ، بسبب تمتعها بميزة استخدام قناة السويس ٠ وفي الوقت نفسه فان ضيق وعمق البعد الجغرافي للبحر الاحمر ، يتيح للاسلحة الجوية العربية فرصة العمل من قواعد برية قريبة ، وممتدة على طول شاطىء البحر المذكور ، الامر الذي يتيح لها مدى قصيرا للعمليات الجوية المساندة للعمليات البحرية ، وقدرة افضل على تنظيم مظلات جوية قوية وفعالة ، دون

الحاجة لطائرات بعيدة المدى او ترتيبات معقدة للامداد بالوقود في الجو ٠ وفي الوقت نفسه يتيح لها حشدا كبيرا في الطلعات الجوية ، خاصة فوق خليج السويس والمناطق الاكثر جنوبا حتى « باب المندب » ، الامر الذي قد يحقق تفوقا ، او تعادلا على الاقل ، على الطيران الاسرائيلي فوق مسرح العمليات المذكور ، شرط توفر ادارة عمليات جوية كفؤة والحد المعقول من حشد الطائرات المناسبة نوعيا ٠ واذا ما نجح الطيران والبحرية العربية في تعاونهما المشترك في البحر الاحمر ، وحيدت القدرات الرئيسية للطيران الاسرائيلي ، فانه يمكن تحرير منطقة مضائق « تيران » ، اي « رأس محمد » و « شرم الشيخ » و « رأس نصراني » وجزيرتي «تيران»و« صنافير » ، بواسطة عملية برمائية جوية مشتركة ، خاصة وان ضيق عرض مدخل خليج السويس نسبيا ، قد يساعد على استخدام وسائل الدفاع الجوي الصاروخية بفاعلية تغطي معظم الخليج والشاطىء الغربي منه ، وبذلك تحصر البحرية الاسرائيلية داخل خليج «العقبة» وميناء « ايلات » اثر نجاح العملية البرمائية المنشودة ضد « شرم الشيخ » ، والتي لن تكون بطبيعة الحال عملية معزولة عن العمليات الاخرى في الجبهة كلها ٠ ولكن الشرط الرئيسي لنجاح الاستراتيجية العربية البحرية ، مثلها مثل الاستراتيجية البرية والجوية ، يكمن في توفر قيادة موحدة للعمليات المشتركة البحرية والجوية تخضع لها كافة الوسائط العسكرية العربية لدول المنطقة ٠

وبطبيعة الحال فان التطبيق الامثل ، او الاكثر نجاحا ، لاستراتيجية هجومية عربية في البحر الاحمر ، يتطلب دعم القدرات البحرية العربية في البحر الابيض المتوسط دعما قويا وفعالا ، من خلال تعزيزها بمزيد من الوسائل القتالية البحرية والجوية (بالنسبة لمصر وسوريا) ، وبالسعي من اجل ادخال القوة البحرية الليبية المتنامية ضمن القوى البحرية العربية العاملة فعليا ضد العدو الاسرائيلي المشترك ، وايجاد قيادة موحدة للعمليات المشتركة الجوية والبحرية المصرية ـ السورية ـ الليبية ٠ وذلك لضمان دفاع ايجابي فعال ضد عمليات الردع والرد الجسيم للبحرية الاسرائيلية ، التي ستلجأ الى تنفيذها حال تطبيق الخنق الاستراتيجي في البحر الاحمر ، وكذلك لوضع الاسس المادية العملية لبدء ممارسة الخنق الاستراتيجي في البحر الابيض المتوسط ، الذي سيكون اكثر خطرا وحسما للصراع لصالح العرب ، اذا ما استطاعوا تطبيقه فعليا ٠

تقارير

النازحون

« النزوح عن اسرائيل · من ؟ وكم ؟ ولماذا ينزح الاسرائيليون ؟ »

هذا هو موضوع المقال ـ التقرير الذي نشره تسيون رابي ، مدير شعبة الديموغرافيا في مديرية الاحصاء المركزية في اسرائيل ، في صحيفتي هآرتس ٣ ـ ٥/١٢/٦٦ ودافار ٢٠ ـ ٢٢/٤/٧٧ ، والذي يشكل محاولة اولى من نوعها ، للبحث في ظاهرة النـزوح التي تجتاح اسرائيل ·

وقد توصل تسيون رابي في بحثه هذا ، الى ان عدد النازحين اليهود من اسرائيل ، منذ قيام الدولة الاسرائيلية في عام ١٩٤٨ وحتى نهاية عام ١٩٧٦ ، قد بلغ في مجملـه ٢٣٠ الف نازح فقط من مجموع السكان · « وان ظاهرة النزوح هذه في اسرائيل لا تختلف عنها في بلدان العالم الاخرى ، والتي تشكل فيها الهجرة من بلد الى آخر ظاهرة مألوفـة » ·

اما من حيث عدد النازحين من مجموع القادمين الجدد الى اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ وحتى نهاية عام ١٩٧٦ فقد بلغ ١٤٥ الف نازح من مجموع مليون ونصف قادم جديد ، اي بنسبة ١٠٪ فقط ، وان هذه النسبة هي ضئيلة جدا ، بالمقارنة مع نسبة النازحيـــن عن البلاد الاخرى المستوعبة للهجرة ، كالارجنتين والولايات المتحدة واستراليا ، والتي بلغت نسبة النازحين فيها ، كالارجنتين مثلا في الاعوام ١٨٨٧ ـ ١٩٢٤ حوالي ٤٧٪ من مجموع المهاجرين الذين وصلوا اليها في تلك الفترة ، وفي الولايات المتحدة ٣٤٪ فـي الاعوام ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ ، وفي استراليا ٧٠٪ في الاعوام ١٩٠٦ ـ ١٩٢٤ ·

اما بالنسبة لمبررات النزوح واسبابه ، فانه يتوصل الى انه قد يكون السبب الاقتصادي ولكن ليس كوضع اقتصادي موضوعي ، وانما لما تشيعه الاوساط المرتبطة في الاقتصاد الاسرائيلي عن الوضع الاقتصادي الخطير المختلق في اسرائيل ، وخاصة في الاحـــوال

التي يرافق فيها هذا الوضع تخفيض لليرة الاسرائيلية ·

ويغض النظر عن مدى مصداقية الارقام الواردة في التقرير ، او المعطيات المقدمة لنا عن الحركة السكانية في اسرائيل ، او عدم مصداقيتها لا نملك الا ان نناقشها كما قدمها المقال ـ التقرير لنا ، وما دمنا لا نملك الوسائل والوثائق لاجراء البحث الاحصائي الموثوق بأنفسنا ، والوصول بالتالي الى معطيات وارقام دقيقة حول هذا الموضوع ·

وفي الواقع ، انه لا توجد اية طريقة موثوقة ، بصفة عامة ، من شأنها ان تحدد عدد النازحين بشكل موثوق في كل سنة · ولذلك فان الكثير من بلدان العالم ، يتخلون عن حصر كهذا · وكانت الامم المتحدة التي اعتمدت هذه الطريقة ، هي الاخرى ، في الاحصاء ، قد توقفت ومنذ عام ١٩٧٠ ، عن نشر معطيات الهجرة في كتابها الديموغرافي السنوي ، بسبب الاخطاء في هذه المعطيات المقدمة اليها من بلدان مختلفة في العالم ·

والتعريف المعتمد لكلمة نازح (اميجرانت) هنا ، وفي البلدان التي ليست حساسة كاسرائيل في موضوع النزوح ، هو كل من يعلن عن نيته البقاء خارج بلده اكثر من سنة ، وهذا هو التعريف المقترح من جانب الامم المتحدة ، كما ورد في النموذج الصادر عن مديرية الاحصاء المركزية في الامم المتحدة ، والذي وزع على جميع الدول الاعضاء ، لجمع المعطيات الاحصائية عن حركات الهجرة العالمية ·

والمشكلة في هذا التعريف بالنسبة لاسرائيل ، ان كلمة « نازح » هنا تعني كل من يترك البلاد نهائيا ، الا ان الامر يختلف في اسرائيل عنه في باقي الدول الاخرى بسبب قانون الهجرة والجنسية الذي وضع اصلا لليهود فقط ، لاستقطاب يهود العالم من اجل الاستيطان في فلسطين المحتلة ، ولترك الباب مفتوحا امام النازحين عن اسرائيل. للعودة كمواطنين عائدين ، وهم في هذه الحالة يعاملون معاملة القادمين الجدد تقريبا من حيث الامتيازات والتسهيلات المعطاة لهم زيادة على ما يتمتعون به من حقوق مواطنيتهم التي لم يفقدوها · ولذلك فاننا نرى الكثيرين ممن اعلنوا عن نيتهم النزوح من اسرائيل ، ثم عادوا اليها ، كمواطنين « عائدين » دون ان يدرجوا في سجل النازحين · ومن هنا تأتي الصعوبة الكبيرة في تحديد عدد النازحين بشكل موثوق ·

ولهذا فقد عمد تسيون رابي الى انتهاج طريقة مغايرة ، بحيث اعتمد الدورة السنوية في حركة السكان عبر حدود اسرائيل ، اي العدد الاجمالي للخارجين من اسرائيل خلال السنة الواحدة ، ومن ثم حسم العدد الاجمالي للعائدين اليها ، كما هو مبين في البيان رقم ١ الذي اورده التقرير ·· وهذه هي الطريقة المتبعة لحصر عدد السكان الآني (ديفاكتو)·

· ويوضح تسيون رابي ان عدد النازحين وفقا لهذه الطريقة ، يكون اكثر مما هو في الواقع ، اذ انه في كل فترة زمنية معينة ، يكون ثمة عدد من المواطنين الاسرائيليين في الخارج ، بشكل زمني ، سواء كان ذلك لاهداف سياحية او اهداف اخرى · وانه كلما زاد عدد المواطنين الاسرائيليين الخارجين ـ كما هو حاصل ـ كبر عدد المواطنين الاسرائيليين الماكثين في الخارج بشكل مؤقت ، ولفترات زمنية قصيرة ، قد يحدث انحراف عفوي في هذه الطريقة ، اذ ان عدد العائدين يتأثر بعدد الخارجين في الاشهر السابقة لذلك · ويضيف ، انه لكي نقارن بين الفترات المركبة من عدة سنوات ، تعكس لنا هذه الطريقة التغيرات التي تطرأ على مجرى النزوح ·

بيان ١ ــ حركة السكان عبر الحدود

١٩٤٨ ــ ١٩٧٦

(لليهود فقط)

العــام	خارجون	عائدون	مكثوا في الخارج
١٩٤٨ ــ نيسان	٣٩٠٠	٥٤٠٠	+ ١٥٠٠
١٩٤٩	١٧٠٠٠	٩٥٠٠	ــ ٧٥٠٠
١٩٥٠ ــ ١٩٥٤	٢٩٥٠٠	١٨٦٠٠	ــ ١٠٩٠٠
١٩٥٥ ــ ١٩٥٩	٤٥٦٠٠	٣٤٣٠٠	ــ ١١٣٠٠
١٩٦٠ ــ ١٩٦٤	٨٢٨٠٠	٧٢٢٠٠	ــ ١٠٦٠٠
١٩٦٥ ــ ١٩٦٩	١١٦٢٠٠	١٠٧٠٠٠	ــ ٩٢٠٠
١٩٧٠ ــ ١٩٧٤	١٨٣٤٠٠	١٧٣٨٠٠	ــ ٩٦٠٠
١٩٧٠	١٣٩٧٠٠	١٣٤٨٠٠	ــ ٤٩٠٠
١٩٧١	١٦٧٥٠٠	١٦٠٢٠٠	ــ ٧٣٠٠
١٩٧٢	١٨١٨٠٠	١٧٦٥٠٠	ــ ٥٣٠٠
١٩٧٣	٢٠٠٥٠٠	١٩٣٣٠٠	ــ ٧٢٠٠
١٩٧٤	٢٢٧٧٠٠	٢٠٤٢٠٠	ــ ٢٣٦٠٠
١٩٧٥	٢٤١٦٠٠	٢٢٧٦٠٠	ــ ١٤٠٠٠
١٩٧٦	٢٢٤٨٠٠	٢٣٧٨٠٠	ــ ١٦٩٠٠

نسبة النزوح لم تتغير

واذا ما اعتمدنا بيان حركة السكان ، والذي يشكل في هذه الحالة ، الحد الاقصى لعدد النازحين ، كما يقول تسيون رابي ، كمقياس للنزوح في فترات مركبة من عدد من السنين ،نجد ان العدد الاكيد للنازحين اليهود من اسرائيل في كل عام ، لم يتغير منــذ قيام دولة اسرائيل ، وكنسبة لمجموع السكان ، المتزايد دائما بفعل الهجــرة والولادة الطبيعية ، نرى انه قد انخفض كثيرا .

ففي بيان الحركة السكانية ، للسنوات ١٩٧٠ ــ ١٩٧٤ ، كان المعدل السنوي حوالي ١٠ر٠٠٠ نازح في السنة ، مقابل ١١ر٠٠٠ نازح في السنوات ١٩٥٠ ــ ١٩٥٤ .

واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان عدد السكان اليهود قد تضاعف ، في الســـنوات العشرين الاولى لقيام دولة اسرائيل ، مرتين ، يكون من الواضح اذن ، ان نسبة النزوح من المجموع الكلي للسكان قد تضاءلت ، فمعدل حركة السكان في الســـنوات ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ ، وصل الى ١٦ر٥٠٠ في السنة ، ولكننا اذا ما نظرنا اليه كنسبة سكانية اجمالية ، نرى انه لا يزال اقل من المعدل السنوي لسنوات الخمسين .

ولكن تسيون رابي يتجاهل هنا بالطبع ان سنوات الخمسين كانت اكثر السنوات حفولا بالقدوم الى اسرائيل ، بينما تكاد الهجرة تنعدم في سنوات السبعين ، وانه وفقا لما قاله

الناطق بلسان مديرية الاحصاء المركزية في اسرائيل ، في مؤتمره الصحافي في القدس يوم ٧٦/١٢/٣١ ان « عدد القادمين الجدد الى اسرائيل بلغ في عام ١٩٧٦ ٢٠٠٠٠ قادم جديد بينما بلغ عدد النازحين عن اسرائيل ١٥٠٠٠ نازح » (دافار ٧٧/١/٢) اي بفارق ٥٠٠٠فقط ، وانه في السنوات التي تلت حرب تشرين ١٩٧٣ مباشرة ، كادت تكـون الهجرة الى اسرائيل معدومة تماما بينما وصل عدد النازحين وفقـا لبيـان رقم (٤) الى ٢٠٠٠٠ نازح ٠

ولم يكتف تسيون رابي بهذه الطريقة التي انتهجها في مقاله ـ التقرير بالنسبـة لحصر النازحين ، وانما اعتمد طريقة اخرى ، وهي « الطريقة الانجع من غيرها ضمـن المعطيات والامكانات القائمة لديه الآن » على حد تعبيره ، وهي « الاعتماد على عـدد الاسرائيليين الذين خرجوا في سنة معينة ، ولم يعودوا خلال ٤ سنوات » ، اي مكثوا في خارج اسرائيل بشكل متواصل اكثر من ٤ سنوات ٠

ووفقا لهذه الطريقة ،فانه كان ينبغي على تسيون رابي الانتظار ٤ سنوات في كل مرة ، كي يستطيع تحديد عدد النازحين في سنة معينة ، وبالنسبة للذين غادروا اسرائيل فـي السنوات الاخيرة ، ولم يكملوا الـ ٤ سنوات بعد على مغادرتهم ، ولهذا فقد اعتمـد وضع فرضية تخمينية ترتكز على انماط العودة لمغادري السنوات السابقة ، وفي هذه الحالة، كانت الفرضية المعتمدة بالنسبة لهذه السنوات ، هي معدل العائدين من الاسرائيليين الذين كانوا في الخارج ، كما كان عليه في السنوات السابقة ٠

وهذه فرضية متبعة في كل اساليب الفرضيات التخمينية بالنسبة للظواهر الاجتماعية ، وخاصة في مجال الحركة الطبيعية كالولادة والموت ، حيث تدل التجارب في هذا المجال على عدم توقع تغييرات كبيرة في هذا الاتجاه في السنة الواحدة ، ولهذا فقد اعتمـد البروفيسور تسيون رابي فرضية التوازن بمعدل المتغيرات ، في تقريره ، كما هو مبين في البيان رقم ٢

الا ان الامر يختلف بالنسبة لحركة الهجرة بشكل عام عنه بالنسبة للحركة الطبيعية، التي بنيت عليها الفرضية الثابتة في المعدل ، حيث تؤثر في حركة الهجرة والنزوح ، عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وغير ذلك من العوامل الطارئة ، والتي هي في طبيعتها غير متوازنة ، مما يجعل اي تخمين لانماط التصرف المتعلقة بالهجرة غير دقيق وغيـر مبلور ، وبالتالي غير موثوق ٠

وبالنسبة لاسرائيل ، فان هذه الطريقة ، التي تعتمد شرط البقاء ٤ سنوات فـي الخارج ، فهي علاوة على انها مبنية على تخمين غير دقيق كما بينا ، فانها لا تستوفي كل شروط المعطيات التي تحدد عدد النازحين بشكل دقيق ،٠اذ ان فترة الـ ٤-سنوات ، هي فترة زمنية طويلة نسبيا ٠ حيث ان الحساب بالنسبة لهذه الفترة ، يبدأ في كل مرة من جديد ، ابتداء من تاريخ الخروج الاخير للمواطن الاسرائيلي من اسرائيل ٠ اذ ان نموذج الخروج المعتمد في هذه الحالة ، لا يوضح ما اذا كان مقر سكناه الثابت هـو في الخارج ، وانه جاء لمجرد زيارة لاسرائيل فقط ، ام ان مقر سكناه الثابت فـي اسرائيل ، ويخرج في كل مرة لسبب من الاسباب للخارج ٠

بيان ٢ ـ مواطنون مكثوا في الخارج اكثر من ٤ سنوات متواصلة

سنة الخروج	عدد المواطنين
١٩٦١	٩٠٠٠
١٩٦٢	١١٠٠٠
١٩٦٣	١٠٧٠٠
١٩٦٤	٩٢٠٠
١٩٦٥	٨٧٠٠
١٩٦٦	١٠٩٠٠
١٩٦٧	١٠٧٠٠
١٩٦٨	٧٠٠٠
١٩٦٩	٦٢٠٠
١٩٧٠	٧١٠٠
١٩٧١	٩٠٠٠
١٩٧٢	٨٠٠٠
١٩٧٣	(١٥٠٠٠) تخمين
١٩٧٤	(١٦٠٠٠) تخمين
١٩٧٥	(١٣٠٠٠) تخمين
١٩٧٦	(١٥٠٠٠) تخمين

وكثيرا ما يقوم النازح عن اسرائيل بزيارة لها ، مـــرة كل ٤ سنوات او مـــرة كل سنة حتى بعد مكوث ٤ سنوات في الخارج ، ما دام يحتفظ بجوازه الاسرائيلي ، وما دام قد ترك خلفه ارتباطاته العائلية والمادية ، او للمحافظة على مواطنيته الاسرائيلية ، او للتمتع بالامتيازات والتسهيلات المعطاة للنازحين العائدين ، ثم يعود ويخرج مـــرة اخرى ، وفي هذه الحالة ووفقا لهذه الطريقة لا يعد نازحا ٠

وكانت اسرائيل قد اصدرت في بداية عام ١٩٦٨ ، عدة انظمة تمنح المواطنيـــن العائدين ، والذين غادروا البلاد قبل ١٩٦٤ ، اي قبل ٤ سنوات ، نفس الحقوق المعطاة للقادمين الجدد ، بالنسبة للاسكان ، والزراعة والجمارك ، وغير ذلك من الامتيازات ٠ وكانت هذه الامتيازات والتسهيلات قد اعطيت في البداية لمدة محددة ، الا ان هذه المدة جددت مرة اخرى ٠

وكانت مديرية الاحصاء تتوقع عددا كبيرا من العائدين في العامين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ ، من بين الاسرائيليين الذين غادروا اسرائيل قبل نيسان ١٩٦٤ ، الا ان عدد العائديـن لم يتغير بنسبة ملموسة في فترة التسهيلات كما يتوضح من البيان رقم ٣ التالي ، الذي اورده التقرير ٠

بيان ٣ ـ مواطنون عادوا الى اسرائيل بعد مرور ٤ سنوات واكثر

(لاحظ انه يستعمل كلمة مواطنين بدلا من كلمة نازحين)

عام العودة	عدد العائدين
١٩٦٤	١٩٠٠
١٩٦٥	٢٦٠٠
١٩٦٦	٢٦٠٠
١٩٦٧	٢٧٠٠
١٩٦٨	٣٧٠٠
١٩٦٩	٣٨٠٠
١٩٧٠	٤٢٠٠
١٩٧١	٤٥٠٠
١٩٧٢	٤٥٠٠
١٩٧٣	٤٢٠٠
١٩٧٤	٢٨٠٠
١٩٧٥	٢٧٠٠
١٩٧٦	٣١٠٠

وبعد ان قدم لنا تسيون رابي في تقريره هذا حصرا للنازحين وفقا لطريقة الـ ٤ سنوات ، نراه يقدم لنا حصرا آخر ، معتمدا هذه المرة طريقة ثالثة ، يصفها بأنها « الطريقة الافضل من غيرها من بين الامكانيات القائمة اليوم » ، وهي الطريقة الاولى المقترحة من الامم المتحدة ، اي البقاء في الخارج اكثر من سنة ، ولكن بتعديل ادخله من عنده على هذا التعريف وهو : « ان يؤخذ بعين الاعتبار عدد المواطنين العائدين الى اسرائيل بعد غياب اكثر من سنة في الخارج » ، ووفقا لهذا التعريف لكلمة « نازح »، يكون البيان الصافي لعدد النازحين ، هو عدد المواطنين الاسرائيليين الذين مكثوا في الخارج اكثر من سنة ، اي عدد المواطنين الاسرائيليين الذين خرجوا ولم يعودوا خلال سنة ، مطروحا منه عدد المواطنين الاسرائيليين الذين عادوا الى اسرائيل بعد مكوث سنة او اكثر ٠

ووفقا لهذه الطريقة ، والتي تحتوي ايضا على تخمين للاسرائيليين الذين خرجوا خلال عام ١٩٧٦ (التخمين مبني على اساس غياب ٣ اشهر) ، ولم يكملوا السنة بعد ، توصل البروفيسور تسيون رابي الى حصر شامل للنازحين اليهود من اسرائيل يبلغ ٢٤٠٠٠٠ نازح منذ قيام الدولة في ١٩٤٨ وحتى نهاية عام ١٩٧٦ ، مسقطا من حسابه الاحصائي ٩٠٠٠٠ نازح ، ممن اسماهم بالقادمين قسرا في الفترة ما بين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٦ ، ثم نزحوا ، ولهذا لم يدمجوا في مجموع النازحين ٠

واذا ما اضفنا نحن هؤلاء القادمين النازحين ، الى النتيجة التي خرج بها تسيون رابي ، باعتبارهم نازحين فعلا ، يكون عدد النازحين عن اسرائيل خلال الـ ٢٩ سنة على قيامها ٣٣٠٠٠٠ نازح وليس ٢٤٠٠٠٠ نازح ٠

نسبة النازحين من القادمين الجدد

ومن خلال المعطيات عن النازحين المعلنين في الفترة ما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٥ ، وعلى مواطنين مكثوا في الخارج من ١ ـ ٤ سنوات ، في الفترة التالية لذلك ، نصل الـــى نتيجة ، ان قرابة ٦٠٪ من النازحين اي ١٤٥٠٠٠ نازح ، كانوا من القادمين الجدد فـــي الاعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٧٦ ٠

وكان قد وصل الى فلسطين المحتلة ، ما بين قيام دولة اسرائيل وحتى نهاية ١٩٧٦ . وفقا للاحصائيات الواردة في التقرير ١٫٦٠٠٫٠٠٠ قادم جديد (مليون وستمائة الف) ، الا ان التقرير يسقط من حساب النازحين ٩٠٠٠٠ قادم نازح كما ذكرنا ، ولهذا لــــم يدمجوا في مجموع النازحين ، وبناء عليه ، يكون عدد القادمين منذ قيام الدولة وحتى عام ١٩٧٦ ، لغرض حصر النازحين من القادمين ١٫٥٠٠٫٠٠٠ قادم جديد فقط ، اي ان عدد النازحين لهذه الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٧٦ ١٤٥٠٠٠ نازح اي ما يساوي ١٠٪ من مجموع القادمين الجدد ٠

كما وان المعطيات الواردة في التقرير ، تدل على ان نسبة النزوح عند القادميـــــن الجدد ، الجدد اعلى منها عند القادمين الجدد ، القدامى ، فمن بين القدامى اي من عام ١٩٤٨ ـ ١٩٦٤ ، كانت نسبة النزوح ٢٫٥٪ فقط ، بينما كانت عند القادمين الجدد مــن عام ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ١٢٫٦٪ ٠

نسبة النزوح وفقا للتركيبة السكانية ، مسقط الراس والجيل ٠

اما فيما يتعلق بالنازحين الذين خرجوا عام ١٩٧٠ ولم يعودوا حتى نهاية عام ١٩٧٣ ، اي انهم غابوا اكثر من ٣ سنوات فقد كانت نسبة النازحين من مواليد اسرائيل ، وفقا لما جاء في التقرير الاحصائي المذكور ، ٣٢٫٦٪ ، ومن مواليد آسيا وافريقيا ٢٢٫٤٪ ، والبقية من مواليد اوروبا وامريكا ٤٥٪ ٠

وهذه النسب لا تأخذ بالحسبان حجم مجموعات السكان النسبي في اسرائيل ، ولذلك فاننا اذا ما اعتمدنا الفروق القائمة وفقا لبلد الولادة في التركيبة السكانية الاجماليـة ، وبنسبة ١٪ من تلك المجموعة من السكان ، اي ، عدد النازحين عام ١٩٧٠ والذين مكثوا في الخارج اكثر من ٣ سنوات مقسوما على كل ١٠٠ اسرائيلي من نفس المجموعة من عدد السكان الاجمالي في اسرائيل ، نصل الى نسب مختلفة ، فمواليد اسرائيل مثـــــلا ، يشكلون قرابة ٥٠٪ من مجموع السكان الاجمالي في اسرائيل ، وبناء على ذلك تكون نسبة النازحين في السنوات ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ هي ٢١٪ ، ومن بين مواليد آسيا ١٩٪ وافريقيا ٢٩٪ اما بين مواليد اوروبا وامريكا فهي ٤٧٪ ٠

اما اذا اخذنا تركيبة الاجيال ، فهذه النسب تختلف ايضا ، فنسبة النازحين للجيـل ١٥ ـ ٢٩ سنة عند مواليد اسرائيل هي ٣٢٪ وعند مواليد آسيا ٢٩٪ وعنـــد مواليـد افريقيا ٣٨٪ اما عند مواليد اوروبا وامريكا فهي ٨٨٪ ٠ .

اما للجيل ٣٠ ـ ٤٤ سنة ، وكما ورد في التقرير ايضا ، فتقترب نسبة النزوح لمواليد اسرائيل ، من نفس النسبة عند مواليد اوروبا وامريكا ، وعند مواليد آسيا فانها اقل في هذا الجيل ، اما عند مواليد افريقيا فهي متوسطة ٠

ما هي اسباب النزوح

ليس عدد النازحين الدقيق بالذات ، هو ما يهمنا في هذه الحال ، وان كان له الاهمية الكبرى على المدى البعيد ، بل ما يهمنا بشكل اكثر ، هي الاسبـــــاب والنزعات التـي تحدد مسار حركة النزوح من اسرائيل ، والمتغيرات التي تطرأ عليه ، وارتباطـــــه بالظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠

والرأي السائد بين الباحثين لاسباب حركات النزوح في العالم ، بأن السبب الرئيسي للنزوح هو العامل الاقتصادي ٠ ويقول مدير شعبة الديموغرافيا في مديرية الاحصـاء المركزية في اسرائيل تسيون رابي انه « قد يكون الوضع في اسرائيل لا يختلف عن ذلك من هذه الناحية » ، الا انه يعود لينفي ذلك بقوله « وفي اعتقادي ان ليس الوضـــــع الاقتصادي الموضوعي هو السبب في النزوح ، بل الجو المختلق الذي تشيعه الاوســـاط المرتبطة بالاقتصاد ، وكأن الاقتصاد الاسرائيلي خطير ومقبل على كارثـــة » (هآرتس ١٢/١/٧٦ ، دافار ٢٢/٥/٧٧) ٠

ولكي يثبت لنا ذلك ، يسوق لنا ذلك مثلا ، ان مصروفات العائلـــة الاسرائيليـــة في ٧ سنوات من ١٩٦٨ ــ ١٩٧٥ ، تدل على ان « مستوى المعيشة قد ارتفع فـــي اسرائيل بنسبة ٤٠٪ ، » ولذلك « لا يمكن ان يكون الوضع الاقتصادي خطيرا » ٠ ويضيف بأن « ليس اولئك الذين اضيروا مباشرة من الوضع الاقتصادي ، كالبطالة مثلا هم الذين ينزحون ، وانما هم في الاساس اناس راسخون اقتصاديا ، ويخشون على مستقبلهـــم الاقتصادي ، ولديهم الامكانات الكافية للبدء في بناء مستقبلهم في بلاد اخرى » ٠ (المصدر نفسه)

ولذلك فانه يخرج بنتيجة غريبة للاسباب التي تؤدي الى النزوح ، وهي « تخفيـــض سعر الليرة الاسرائيلية ، وما يتقدمها ويعقبها من تهويل عن خطورة الوضـــــــع الاقتصادي » وليس كسبب اقتصادي موضوعي ، معتمدا في ذلك على انه في السنوات « ١٩٦٢ و١٩٦٧ و١٩٧٤ وهي السنوات التي كان فيهـــا تخفيض لليرة الاسرائيلية ، كان ثمة ازدياد ملموس في حجم النزوح ، بالمقارنة مع السنوات المتاخمة » (المصدر نفسه) ، كما يظهر في البيان رقم ٤

ويعود هذا الازدياد في حجم النزوح ، اثر اي تخفيض لليـرة الاســـرائيلية الى امرين اثنين ــ كما ورد في التقرير

« ١ ــ انه في كل فترة زمنية يوجد خارج البلاد مرشحون للنزوح ، وانه بيـــــن مجموعة العوامل المؤثـرة على حسابات المرشح للنزوح ، ما اذا كان سيبقى في الخارج او يعود الى اسرائيل ، تؤثر على ما يبدو حقيقة التخفيض الذي كان في نفس السنة في اسرائيل ٠ »

« ٢ ــ انه قبل عدة شهور من تنفيذ خطة التخفيض ، تبدأ وسائل الاعلام بالحديـــث عن الحالة الاقتصادية القاسية ، كجزء من حملة التوعية ، لاقناع الرأي العام باضطرارية التخفيض ، فتتبعها على الفور جميع الاوساط المرتبطة بالاقتصاد ، وبشكـــل تنافسي ، ابتداء من الجامعة والمالية وبنك اسرائيل ، وانتهاء برؤساء التنظيمات الشـــعبية والمؤسسات الخاصة ، بنشر نبوءات قاتمة عن المستقبل الاقتصادي في اسرائيل ، وكأن

بيان ٤ ـ مركبات حصر النازحين

السنة	اسرائيليون خرجوا ولم يعودوا	اسرائيليون عادوا بعد اكثر من سنة	معدل النازحين
١٩٦١	١٦٠٠٠	٦٩٠٠	٩١٠٠
١٩٦٢	٢٠٣٠٠	٨٢٠٠	١٢١٠٠
١٩٦٣	١٩٧٠٠	٨٩٠٠	١٠٨٠٠
١٩٦٤	١٩٨٠٠	١٠١٠٠	٩٧٠٠
١٩٦٥	٢٠٢٠٠	١١٧٠٠	٨٥٠٠
١٩٦٦	٢٤٣٠٠	١٢٧٠٠	١١٦٠٠
١٩٦٧	٢٦٣٠٠	١٤٣٠٠	١٢٠٠٠
١٩٦٨	٢٢٨٠٠	١٧١٠٠	٥٧٠٠
١٩٦٩	٢٢٥٠٠	١٧٥٠٠	٥٠٠٠
١٩٧٠	٢٤٠٠٠	١٩٩٠٠	٤١٠٠
١٩٧١	٢٦٤٠٠	٢١٨٠٠	٤٦٠٠
١٩٧٢	٢٥٦٠٠	٢١٧٠٠	٣٩٠٠
١٩٧٣	٣٤٣٠٠	٢٣٨٠٠	١٠٥٠٠
١٩٧٤	٣٩٠٠٠	١٨٤٠٠	٢٠٦٠٠
١٩٧٥	٣٦٢٠٠	٢٢١٠٠	١٤١٠٠
١٩٧٦	٤٠٠٠٠	٢٤٩٠٠	١٥٠٠٠

الدولة مقبلة على كارثة اقتصادية والحكومة عاجزة امام مجرى التدهور التضخمي ، وما على الاسرائيليين الا ان يشدوا احزمتهم ويخفضوا من مستواهم المعيشي · ممـــا يحطم اي حس لدى المواطن الاسرائيلي ، بالامن الاقتصادي في المستقبل ، مما يجعله يتوصل الى النتيجة الحتمية ، وهي ان يقفز من السفينة الغارقة قبل فوات الاوان · »

وفي هذا الاستنتاج الغريب ، ينهي تسيون رابي مدير قسم الديموغرافيا في مديرية الاحصاء المركزية في اسرائيل ، تقريره الاول من نوعه عن النزوح في اسرائيل واسبابه ، ودون ان يتطرق الى الاسباب الموضوعية الحقيقية للنزوح من اسرائيل ، وهي الاسبـاب السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتشابكة ، والتي لا يمكن حتى لتخفيض الليـــرة الاسرائيلية ، وهو السبب الذي ساقه ، ان يكون بمعزل عنها ، على الاقل الاقتصادية منهـــا ·

ولكنه ينفي حتى هذا السبب ، فلو انه أقر على الاقل بان السبب الاقتصادي هو العامل الاساسي للنزوح ، لما كان خرج عما توصل اليه الكثير من الباحثين في شؤون النزوح والهجرة ، ولكنا على الاقل حاولنا الاخذ بمصداقية علمانيته المجردة ، مـــع انني أميل فعلا الى الاخذ بوجهة نظره ، ان ليس الوضع « الاقتصادي الموضوعي » هو الحـــافز على النزوح من اسرائيل ، وانما هو الوضع السياسي ـ الامني ، المترتب على السياسة الاسرائيلية الصهيونية التوسعية الاستيطانية ، والمرتبطة بالمصالح الرأسمالية فـــي

المنطقة ، مما يجعلها في حالة حرب دائمة منذ قيامها وحتى الان ، وانه العنصر الاساسي بين سائر العناصر التي تؤثر بمجملها على النزوح ، سواء كانت تلك العناصر اقتصادية او اجتماعية ٠

ومن خلال المعطيات في البيانين ١ و٤ عن مركبات حصر النازحين نـرى انـــه في السنوات ١٩٥٥ ــ ١٩٥٩ ، ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ ، ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ ، كان ثمة ازدياد في حجم النزوح بالمقارنة مع السنوات المتاخمة ٠ وصحيح ان هذه السنوات التي ازداد فيها حجم النزوح ، كانت هي السنوات التي جرت فيها التخفيضات في سعر الليرة ــ باستثناء ١٩٥٥ ــ ١٩٥٩ ــ ولكن هذا التخفيض لم يأت عفوا وبمعزل عـــن المسببات المحيطة به ، بل كان مرتبطا بوضع اقتصادي موضوعي ترتب على الوضـــع السياسي ــ الامني الذي كان سائدا في تلك السنوات ٠

ففي السنوات ١٩٥٥ ــ ١٩٥٩ مثلا ، لم يكن اي تخفيض في سعر الليرة ، ومع ذلك كان ازدياد في حجم النزوح عن السنوات المتاخمة لها ٠ ولكنه كان العدوان الثلاثي على مصر ، ومساهمة اسرائيل في هذا العدوان ، ومن ثم انسحابها من شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة ، دون ان تحقق اي هدف ، رغم كل ما دفعت به من امكاناتها العسكريـــة والاقتصادية ، التي ادت بالتالي الى تدهور اقتصادي ، بالاضافة الى الازمة الاقتصادية التي كانت قائمة قبل العدوان ، اثر الحركة المتزايدة للقادمين الجدد في تلـــك السنوات ٠

اما في السنوات ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ ، فصحيح انه جرى في هذه السنة التخفيض الكبير في سعر الليرة الاسرائيلية نتيجة للازمة الاقتصادية الخانقة التـــي كـانت تعيشهـا اسرائيل ، وما يترتب عليها من تضخم مالي وبطالة متفشية ، ولكنه صحيح ايضا ان اسرائيل كانت تشهد في تلك السنوات اكبر موجة من المتغيرات السياسية في المنطقـــة وعلى الخارطة العربية ، كما كانت تشهد استيراد اكبر كمية من صفقات الاسلحة ، لعملية تطوير جيشها وتقويته لمواجهة المد القومي العربي ، وانهماكها بمشروع المياه القطري الذي كلفها عشرات الملايين من الليرات ، كما كانت تشهد في هذه المرحلة ، اول هزة سياسية واجتماعية واخلاقية حادة ، اثر استقالة بن غوريون وحكومته ومن ثـــم فضيحة نافون ٠

وكذلك في العامين ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ ، وهي السنة التي شهـــدت فيها اسرائيل اكبـر الاستعدادات المتواصلة للحرب التي شنتها عام ١٩٦٧ على الدول العربية المجاورة ، وما سبقها من التوتر السياسي في صراعها مع الدول العربية المجاورة حول تحويـــل مجرى الاردن الذي اقره مؤتمر القمة الاول في القاهرة عام ١٩٦٤ الذي جاء ردا على مشروع المياه القطري الاسرائيلي والاعتداءات الاسرائيلية المتواصلة على سوريا ٠ ممـا ادى الى اعلان اسرائيل حالة التقشف عام ١٩٦٦ وكل ما ترتب عليه من بطالة وغلاء في المعيشة ، وهيمنة لاجواء الحرب في نهاية عام ١٩٦٦ وبداية عام ١٩٦٧ ، بين اسرائيل والدول العربية ٠

ومن هنا نرى ان حركة النزوح بعد عام ١٩٦٧ ، قد انخفضت بشكل حاد ، نظـرا للتفاؤل الذي ساد المجتمع الاسرائيلي اثر انتصار اسرائيل الساحق عام ١٩٦٧ ، وما اعقبه من الشعور بالامن السياسي والاقتصادي لدى الجمهور الاسرائيلي ، اذ ان عدد النازحين في الاعوام ١٩٦٨ ــ ١٩٧٢ قد بلغ في مجموعه ٢٣٠٠٠ نازح ، بينما بلغ مجموع

النازحين خلال العامين السابقين لها ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ ، ٢٣٦٠٠ نازح ، اي اكثـــر من عدد النازحين خلال الخمس سنوات التالية ٠

بينما نرى في المقابل النسبة العالية جدا في ازدياد حجم النازحين المطرد عـن اسرائيل ، بعد هزيمة حرب رمضان عام ١٩٧٣ ، حيث قفز حجم النازحين عام ١٩٧٣ اي بعد الحرب مباشرة ما يزيد على ٣ اضعاف عنه في عام ١٩٧٢ ، فبينما بلغ عـدد النازحين عام ١٩٧٢ ٢٩٠٠ نازح كان عدد النازحين عام ١٩٧٣ ١٠٥٠٠ نازح ٠ وفـي عام ١٩٧٤ ارتفع الى ٦ اضعاف ، وفي عام ١٩٧٥ ٥ اضعاف ، وفي عـام ١٩٧٦ ٥ اضعاف ايضا (انظر بيان رقم ٤) ٠ ولم يكن هـذا الازدياد الكبيـر في حجم النزوح الا نتيجة للهزيمة العسكرية التي منيت بها اسرائيل ، والتي افقدتها توازنها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، زيادة على ترتب على هذه الهزيمة من تصدع في تكويـن اسرائيل العقائدي الصهيوني ، مما افقدها بريقها كدولة كل اليهود في داخل اسرائيل وخارجها ، وانها اصبحت في اعين يهود العالم « دولة ككل الدول » (دافـــار ٧٦/١٢/١٧) ٠

وان كان تسيون رابي قد حاول التخفيف في تقريره من حدة ما تتركه حركة النزوح على المجتمع الاسرائيلي من سلبيات ، وبالتالي اخفاء الاسباب الحقيقية لهذا النزوح المتنامي ، فان الصحافي الاسرائيلي المعروف يهودا جوتهلف ، يقر في معرض هجومه القاسي على النازحين وعلى من يسميهم بـ « محامي الدفاع عن النازحين » ان « ثمـة اسبابا حقيقية للنزوح ، وعلينا ان نراها كما هي ، فجزء كبير جدا من النازحين هـم من الشباب ، الذين غادروا اسرائيل خوفا من الحرب ، او من وطاة الخدمة العسكرية الاحتياطية المرهقة ، كما ان معظم النازحين ليسوا من الاوساط المعوزة او العاطليـن عن العمل ، وانما العكس هو الصحيح ، كما وان هناك الكثير من الشباب ممن ينهون الخدمة العسكرية يسارعون الى مغادرة اسرائيل ، حيث ينبهرون بما يرونه من رخاء في العيش خارج اسرائيل ، وما يحيطهم من مدى واسع يفتقدونه ، مما يجعلهم يبتعدون عن اسرائيل ٠٠٠ اما الذين يخرجون للدراسة فانهم ما ان يتقدموا في تحصيلهـم وبناء مستقبلهم العلمي ، حتى يديرون ظهورهم لاسرائيل » (دافار ٧٧/٥/٢٢) ٠

اما يهود امريكا ، كما يقول يحييئيل لاقط ، المسؤول عن مندوبي الهجرة في الولايات المتحدة ، فانهم « يردون اسباب هذه الحركة المتزايدة من النزوح الى الولايات المتحدة ، الى فضائح الانحطاط والانحلال في المجتمع الاسرائيلي ، والتي تتمتع بنشر واسـع في نيويورك لا يقل عنه في اسرائيل ، والى الاضطرابات الدامية في الضفة الغربية ، والتي تحظى بعناوين اضخم من تلك العناوين عن الحرب اللبنانية » (٧٦/١٢/١٧)

وبالتالي فان هذه الضربة من النزوح التي تجتاح الكيان الصهيوني ، ما هي الا « اللاخصة لكل فشل الدولة الاسرائيلية ، وهي توحيـد لكل خيبات الامـل ، وهي ردة الفعل الحتمية على كل الآمال التي لم تتحقق ٠٠٠ اذ ليس النزوح عن اسرائيل مجرد ظاهرة شاذة لحالة سياسية واقتصادية واجتماعية او اخلاقية فقط وانما هو نتيجة حتمية لتصدع المفهوم القومي » (دافار ٧٧/٥/٢٢) وما هو الا « عرض من اعراض الوباء المتفشي في دولة اسرائيل ومجتمعها بأسره » (المصدر نفسه)

النزوح وتاثيره المعنوي والمادي على الهجرة الى اسرائيل

واجهزة الحكم في اسرائيل تعرف اكثر من غيرها مدى خطورة هذه الضربة من النزوح التي تمنى بها الآن ، على المدى القريب والبعيد ، سواء كان ذلك من الناحيتين المعنوية والمادية على حد سواء ، اذ ان هذه الضربة تشكل خطرا كبيرا على قدراتها العسكرية والصناعية والاقتصادية نظرا لنوعية النازحين الذين هم في غالبيتهم من الشباب الذين يشكلون العمود الفقري للجيش الاسرائيلي ، زيادة على انهم من اصحاب المهن الحرة والفنيين وخريجي المعاهد العليا ٠

كما وتشكل احد العوامل الفاعلة على تقليص هجرة يهود العالم الى اسرائيل ، بل واكثر من ذلك يشكل النزوح «احد الاسباب المباشرة الى الازدياد في حجم « تساقط » المهاجرين من الاتحاد السوفييتي ، اذ وصلت نسبة المهاجرين « المتساقطين » هؤلاء الى ٥٠٪ واحيانا الى ٦٠٪من مجموع الواصلين الى مراكز الهجرة في فيينا » (يديعوت احرونوت ٧٧/١/٣٠) ٠ وكان قد « وصل الى فيينا خلال عام ١٩٧٦ فقط ١٤ر٢٦٣ قادم جديد يحملون تأشيرات دخول الى اسرائيل اي بمعدل ١٠٠٠ ــ ١٢٠٠ في كل شهر ، لم يصل منهم الى اسرائيل سوى النصف فقط » (المصدر نفسه)

والاخطر من ذلك فان « نسبة الـ ٥٠٪ من هؤلاء « المتساقطين » هم من النوعية الجيدة ، اذ ان ٧٠٪ من يهود موسكو و ٩٠٪ من يهود اوديسا يفضلون الهجرة الى بلاد اخرى ، واكثر هؤلاء هم من الاكاديميين والشباب والفنيين ، اما الذين يفضلون الهجرة الى اسرائيل ، فاما هم من سكان الجبال او العجائز والاطفال » (المصدر نفسه)٠

اما مراسل معاريف في نيويورك جادنحشون ، فقد كتب في عددها الصادر في ٧٧/١/٢١ يقول انه « بينما تكاد تكون الهجرة معدومة من الولايات المتحدة الى اسرائيل ، فان النزوح من اسرائيل الى هذا الجزء من العالم يزداد يوما بعد يوم » ويضيف : « ان عالم النزوح حالة عامة لامة كاملة ، حالة نفسية ووباء قومي » وان حقيقة النزوح في بلاد غير اسرائيل « لا تقلل من خطورة المشكلة التي يتحتم على اسرائيل مواجهتها » ، اذ انها «تمنع اي هجرة من الولايات المتحدة » واكثر من ذلك « فانها تلحق ضررا بالغا بقدرة اسرائيل الاقتصادية ٠٠٠ اذ ان كل من له خبرة ولو قليلة في عالم التبرعات والاعتمادات المالية التي كانت تنهال على اسرائيل ، يعرف ان المتبرعين قد بدأوا ومنذ الآن يتذمرون ، ويعلنون لنهم غير مستعدين للتبرع لدولة ، يعيش جزء كبير من ابنائها في جوار بيوت المتبرعين انفسهم » (المصدر نفسه)

ويضيف جادنحشون قائلا بان « النضال ضد حركة النزوح ، معناه ، بعث الصهيونية في اسرائيل نفسها ، انه نضال ضد التخلف والتردي الاجتماعي ، وتساو في الامكانيات »٠ ثم يتساءل « كيف يمكن لنا ان نصدر مبادىء ــ صهيونية اسرائيل ــ ليهود امريكا مثلا ، في الوقت الذي لا نملكها نحن ؟٠٠٠ وكيف نستطيع اقناع عائلة من نيوجيرسي بالهجرة الى اسرائيل ٠، وزجها في الحياة الاسرائيلية القاسية المتوترة ، في نفس الوقت الذي توجد فيه عائلة اسرائيلية هاربة من اسرائيل ، في دهاليز نفس الكنيس القائم في حي من نطلب اليهم الهجرة الى اسرائيل » (المصدر نفسه) ٠

توفيق فياض

الجامعة الفلسطينية الشعبية

في الرابع من كانون الثاني - يناير ١٩٢٥ احتفلت الحركة الصهيونية بافتتاح الجامعة العبرية على جبل الزيتون في مدينة القدس . وقد حضر تلك المناسبة كبار زعماء الصهيونية في العالم ومؤيدوهم ، ومنهم اللورد بلفور . وتحدث حاييم بياليك شاعر الصهيونية فقال : « ان جلال وعظمة هذه اللحظة يمكن ان يسيء اليهما اي نوع من انواع المبالغة . لذلك فمن الواجب علينا ان نعلن بكل صراحة وامانة وفي حضور هذا الجمع بان البيت الذي يفتتحه الان على قمة جبل سكوبس ضيفنا الكريم اللورد بلفور ، ليس سوى معهد جنين لا يكاد يكون له شيء اكثر من مجرد الاسم . وهو بالنسبة للوقت الحاضر ليس اكثر من وعاء يمكن ان يملأ وان مستقبله غير معروف ، اذ انه في يد القدر . وعلى اي حال ، فانني اشعر بكل تأكيد ان الالاف المحتشدة هنا ، وعشرات الالاف من الاسرائيليين في جميع زوايا العالم ، يشعرون بقلوب تخفق فرحا بان الاحتفال الذي نقيمه اليوم على هذه البقعة ليس من الطقوس المصطنعة التي اخترعها احد الناس ولكنه يوم مقدس لالهنا وشعبنا ! »

انشاء الجامعة العبرية، في رأي بياليك لم يكن عملا عاديا بالنسبة للعديد من اليهود ، بل كان « عملا مقدسا بالنسبة لاله وشعب اسرائيل » . وكان جزءا لا يتجزأ من انشاء الدولة اذا لم يكن قاعدة واساسا لها . ولا نظن لحظة واحدة ان انشاء الجامعة العبرية كان ناتجا عن نقص عدد المقاعدالتي يمكن ان يحصل عليها ابناء الطائفة اليهودية في جامعات العالم ، او عن الحاجة لتوفير التعليم العالي لليهود في فلسطين ، وهم الذين يمتلكون عددا من الجامعات في اميركا وبامكانهم ان يسدوا الحاجة الى التعليم العالي بوسائل كثيرة ومختلفة . انما جامعة عبرية وفي مدينة القدس بالذات فكانت ذات هدف ومغزى محددلم يكن ليخفى على العرب الفلسطينيين ، حتى في ذلك الوقت المبكر من الوعي النضالي الفلسطيني .

فالجامعة هي البؤرة الثقافية والمختبر المصغر الذي يسعى الى اخراج اللغة العبرية من بين دفات الكتب الصفراء ، وغبار القرون وجعلها لغة سهلة متداولة تصلح لمعالجة مسائل الكيمياء والفيزياء النظرية ، كما تصلح للتعامل بين ابناء المزرعة وابناء السوق . والجامعة العبرية ، من بعد احياء اللغة والفكر العبرانيين هي التي تعالج جميع مناحي حياة الشعب الذي يتكون والدولة التي ستنشأ . فهي بلغة التصوير ، بؤرة تركيزية Focus على شيء معين . . ولا يضيرها ان يكون فيها بعد ذلك من يخالفون الصهيونية في ارائها ومعتقداتها، او وسائل تطبيقها لان ذلك من مستلزمات التفاعل الفكري في الجامعة . ولكن مجرد كونهم في جامعة من هذا القبيل هو عمل في الاطار الصهيوني .

لقد وعى العرب الفلسطينيون منذ البداية اهمية نشوء جامعة في القدس تكون نقيضا للجامعة العبرية . والجامعة النقيضة تكون نقيضا في المغزى والهدف .

فهي ليست « لشعب مختار » ، وانما لكل ابناء الشعوب . وكان لولب هذا الفهم الفلسطيني وحركته زعيم فلسطين انذاك المغفور له الحاج محمد امين الحسيني الذي دعا الى مؤتمر اسلامي في القدس، فانعقد بذلك المؤتمر الاسلامي الاول عام ١٩٣٠ واتخذ من بين ما اتخذ من قرارات للحفاظ على عروبة فلسطين انشاء جامعة عربية في القدس . ولكنه ليس من المستغرب انذاك ان تمر السنون حتى خروج البريطانيين عام ١٩٤٨ دون تحقيق فكرة تلك الجامعة . فالبريطانيون الذين تعهدوا بانشاء « وطن قومي لليهود في فلسطين » قد تعهدوا ايضا بخلق الظروف والمناخ المناسب لانشاء ذلك الوطن .

وهكذا ، فان محاولات انشاء جامعة عربية في فلسطين قد احبطت بنفس القدر من العزيمة التي يسرت لليهود الصهيونيين انشاء جامعة لهم . ومن المؤسف ان محاولات احباط مشروع الجامعة الفلسطينية في القدس قد امتدت الى ما بعد زوال الانتداب البريطاني عن فلسطين . ومما يذكر ، ان الحاج امين الحسيني ، طلب اجراء دراسة واستملاك ارض للعمل على انشاء جامعة فيها تحقيقا للفكرة التي حملها منذ عام ١٩٣٠ . وذلك بعد السماح له بالعودة لزيارة القدس عام ١٩١٧ .

اما الكلية العربية للمعلمين التي انشأتها سلطات الانتداب البريطاني على جبل المكبر في القدس فقد كانت تخدم غرضين في ان معا . فمن ناحية اولى كانت المقابل الشكلي للجامعة العبرية على جبل سكوبس ، لسد الطريق على المطالبة بالجامعة العربية فتظهر كانها نواة للجامعة مع انها لم تكن اكثر من كلية ذات صفين جامعيين للتربية، اي ما يسمى بالجونيور كولج . والهدف الثاني كان تخريج المعلمين لنظام التعليم الفلسطيني الذي انشأته سلطات الانتداب والذي لم يكن يهدف الى اكثر من تدريب الموظفين اللازمين للادارة البريطانية في فلسطين.

وبالتالي فقد كان نظام التعليم الفلسطيني لا يؤدي الى تكوين طبقة مثقفة من القيادات الفلسطينية اللازمة ، وانما يخلق طبقة من الموظفين الذين يربطون مصيرهم بالسلطة المنتدبة التي ستدفع لهم رواتب التقاعد حينما يؤدون خدمات لها على الوجه الاكمل !

لقد كان نظام التعليم الفلسطيني في ظل سلطة الانتداب البريطاني مشوها للشخصية الفلسطينية ومحرفا لها عن الغايات الطبيعية للتعليم والثقافة . وفي هذه الشروط كان هم الطلبة هو الحصول على شهادة « المترك » ،ومنها الى شهادة الكلية العربية ليرفدوا جهاز الادارة وجهاز المعارف . ثم تختار سلطة الانتداب كل عام عددا من هؤلاء لارسالهم في بعثات دراسية الى بريطانيا ليكونوا الكوادر العليا لجهاز الادارة ، شأنهم في ذلك شأن الوافدين من بقية المستعمرات البريطانية . ولذلك فان تيار التعليم بحوافزه وقيمه قد ابتعد عن التناغم مع حاجات الشعب الحقيقية وطموحاته الوطنية ، كما اسهمت هذه الطرق في هجرة الشباب عن الارض الى المدن والوظائف ،مكونة بذلك تيارا اشتد مع النكبة عام ١٩٤٨ فتحول الى هجرة الى بلدان النفط والعالم الخارجي . فقد شهد عام النكبة هجرة فئة كاملة من الشعب الى الوظائف الادارية والتعليمية في الخارج .

وكانت هذه الفئة نتاج التعليم الفلسطيني في ظل الانتداب ، فوجدتها شركات النفط واجهزة الادارة الحكومية المكونة حديثا في الخليج مدربة وجاهزة فوظفتها واستفادت منها .

ومن سخرية التناقض ، انه بينما كانت مئات الالاف من الشعب الفلسطيني تلجأ من النكبة الى المخيمات ، كانت الالاف من فئة الموظفين والاداريين والمدرسين تلجأ الى الوظائف في الدول العربية المحتاجة الى خبراتهم مكونين بذلك فئة اخرى من الفلسطينيين او شريحه من المجتمع التي تكونت في المنفى . وفي الوقت الذي ضاعت فيه بعد عام النكبة اية ملامح لنظام تعليمي فلسطيني يمكن ان يحافظ على الشخصية الفلسطينية او تكون له علاقة بالاحتياجات التعليمية والثقافية لشعب يناضل من اجل استعادة وطنه ،في هذا الوقت ازداد انحراف المهمة التعليمية عن طريق مدارس وكالة غوث اللاجئين التي صارت توفر لابناء الفلسطينيين في المخيمات تعليما مهنيا يتناسب وحاجات الشركات العاملة في اقطار النفط .

بغض النظر عن الدوافع الحقيقية وراء نظام وكالة الغوث التعليمي ، سياسية كانت او انسانية، وبغض النظر عنالفوائد الفردية العائدة على الافراد واسرهم المستفيدين من هذه الفرص التعليمية والتشغيلية ، فلا مناص من اعتبار مجمل التعليم الذي اقبل عليه الفلسطينيون بعد النكبة ، او الذي اتيح لهم ، انما يشكل اقنية جديدة للتشتت . ولقد كان كل ذلك ناتجا عن الوضع السياسي الذي وجد الفلسطينيون انفسهم فيه بعد النكبة عام ١٩٤٨ . فمثلما كان من المستحيل عليهم اعادة تجميع انفسهم في ظل نظام سياسي خاص بهم يقررون فيه مصيرهم ، كان من المستحيل عليهم ايضا تطوير نظام تعليمي جديد يتناسب والطموحات الوطنية والفردية في آن معا . فكانوا يخضعون لانظمة تعليمية مختلفة في اماكن وجودهم ، يسعى من خلالها كل منهم الى ان يشق طريقه بنفسه .

ان ما نسعى الى تبيانه هو عدم امكان فصل النظام التعليمي عن الوضعالسياسي كما ان احدهما يؤثر في الاخر . فالوضع السياسي للفلسطينيين في عهد الانتداب البريطاني قد خلق نظاما تعليميا لا يساعد على تحقيق الطموحات الوطنية ، بل يساعد على تكوين ديناميكية التفريغ والشتات . كما ان وضعهم السياسي بعد النكبة قد اصبح اكثر سوءا فانعكس ذلك على الوضع التعليمي والثقافي .

صحيح ان عدد خريجي الجامعات من الفلسطينيين قد تجاوز الثمانين الفا، وان معدل الخريجين الجامعيين قد وصل الان الى خمسة الاف في العام . ولكن الصحيح ايضا هو ان الهلال الاحمر الفلسطيني لم يستطع في اوج ازمات الشعب ونضاله الدامي ان يستحوذ على خدمات اكثر من خمسين طبيبا ، معظمهم من الخريجين الجدد بينما يعمل مئات المتخصصين من الاطباء الفلسطينيين في اقطار عديدة عربية واجنبية .

هنالك الان حوالي اربعة وعشرين الف فلسطيني يتخرجون من المدارس الثانوية كل عام . ولا يستطيع الالتحاق منهم بالجامعات على اختلافها اكثر من خمسة الاف طالب وطالبة . وبينما يتزايد عدد المتخرجين من المدارس الثانوية كل عام ويزداد عدد المتخرجين من الجامعات ، الا ان نسبة المقبولين في الجامعات الى عدد خريجي المدارس الثانوية تتناقص بسبب الضغط على المقاعد الجامعية .

هذه مشكلة . ولكن المطروح ليساهمية التعليم عموما ، واهمية التعليم الجامعي على الاخص ، وانما المطروح هو : اينوع من التعليم ؟ ولاي غرض ؟

بالامكان الخوض بصورة اكثر توسعا في مشكلات التعليم الفلسطيني في وضعه

الراهن • فالطالب الفلسطيني الذي يسعى لتلقي العلم في احدى الجامعات العربية او الاجنبية يواجه صعوبات لا حصر لها، في معادلة الشهادات والقبول ،والتكيف مع المحيط ، والاعداد لدخول جامعة لا يعرف مسبقا اين هي ، ولا ما اذا كان سيجد فيها مقعدا ، وفي الغالب لا يعرف ان يوفق بين رغباته وميوله الطبيعية ، وما يجده متوافرا له في الدراسة ، وبين مكان العمل الذي يتناسب مع دراسته بعد التخرج •

مرة اخرى ، لو كان المطروح هو اهمية تعليمابناء الشعب الفلسطيني وزيادة عدد الخريجين الجامعيين منهم ، لامكن اخذ كل هذه المصاعب الوارد ذكرها انفا ومعالجتها وتسهيل ما يمكن تسهيله منها، بل ان العديد من الجهات في الواقع قد تصدت للتغلب على الصعوبات المالية في اكثر الاحيان فوفرت المساعدات والمنح الدراسية والقروض للطلبة الفلسطينيين •ونستطيع ان نرى ان هذه العملية هي ذات وجهين ، احدهما مشرق وانساني ، والثاني لا يخلو من التحفظات، ولا شك ان المرء سيبدو متطرفا لو طالب بمنع هذه المساعدات عن الطلبة الفلسطينيين• اذ ان المطروح ليس حرمانهم من التعليم ، وانما توفيره لهم •• ولكن اي نوع من التعليم ؟•

في عام ١٩٧١ تقدمت بمذكرة الى مركز التخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية حول انشاء جامعة فلسطينية للتغلب على معظم المشاكل التي تواجه الطلبة الفلسطينيين : مشاكل عدم وجود اماكن كافية لهم في الجامعات ، ومشاكل التكيف معالمحيطات الاجنبية ، والمشاكل المالية وغير ذلك، وقد اقترحت ديمقراطية التعليم في الجامعة المقترحة لموجبات نظرية وعملية في الوقت ذاته للتغلب على مثل هذه المشاكل• فالجامعة المقترحة يجب ان تكون نظرية وتطبيقية وانتاجية في الوقت ذاته، بحيث تتيح المجال امام الطالب لكسب نفقات تعليمه من خلال عمله وانتاجه •• وبذلك تستطيع الجامعة المقترحة ان تحل عقدا كثيرة : منها اعتماد الابناء على الاباء في نفقات تعليمهم ، ومنها ايضا عقدة اغتراب الابناء عن مجتمعهم والفصل ما بين الدراسة والتطبيق •

ومما قيل في المذكرة في حينه ان حياة كل اسرة فلسطينية اصبحت تتركز حول طلب الرزق من اجل تامين تعليم الابناء حتى يستطيع كل منهم القيام بشؤون نفسه ، في اي مكان يجد فيه الرزق ، ومساعدة ذويه • وهذا الامر الناتج عن الضرورة ، على ما فيه من حسنات ، لا يخلو من معايب كثيرة عملت في المدى القريب وتعمل في المدى الابعد على التشتت الثقافي والسكاني ،وخلق تباين في المفاهيم والاهداف ، ووسائل المعيشة ،ومستوياتها، وابتعاد الاجيال الصاعدة عن الشعب والوطن • وما ذلك الا لان هذه الدراسات الجامعية متفرقة ومشتتة بين مختلف دول الارض • فالتنويع الثقافي شيء ،

والتشتيت هو شيء اخر • فحينما لا تزيد نسبة الجامعيين الذين يدرسون فيالخارج عند شعب من الشعوب عن خمسة بالمائة ، فان ذلك يمكن ان يعتبر نسبة عالية من التنويع الثقافي ، ولكن عندما تزيد هذه النسبة عن خمسين بالمائة كما هو حادث بالنسبة للشعب الفلسطيني ،

باعتبار ان الذين يدرسون في البلاد العربية لا يعدون مغتربين ، فان ذلك يعتبر تشتيتا • كذلك فان اي نسبة عالية من الدراسات في الخارج يمكن ابتلاعها واستيعابها في الجهاز الهضمي للشعب المستقر على ارضه ، ولكنها يمكن انتشكل اخطارا كبيرة على حياة شعب مثل شعبنا يجاهد لاعادة بناء حياته الوطنية على ارضه •

كانت فكرة جامعة فلسطينية في حينها تعتبر ضربا من الخيال او الحلم · ولم يكن من الغريبان تنشا الاسئلة فورا حولها : اين تقام ، ومن الذي يتولى انشاءها ، وكيف يمكن تمويلها ، واي نظام تعليمي تتبع ، وكيف يمكن تامين الاعتراف بشهاداتها ، وما هو وضعها القانوني في اي بلد تقوم فيه ، وهل يمكن لاي بلد ان يسمح بقيامها فيه ؟· السؤال الاكبر كان هو : اين وفي اي بلد يمكن ان تقوم مثل هذه الجامعة ؟

في ذلك العام ، اي عام ١٩٧١، صارت فكرة الجامعة حلما واردا في اذهان الكثيرين ، وليس مجرد حلم يداعب خيال واحد من الناس · ففي نفس الفترة تقريبا تقدم عدد من المهتمين بدراسات واقتراحات الى مركز التخطيط الفلسطيني حول الجامعة الفلسطينية المقترحة ·فمنهم من اقترح انشاء جامعة تكنولوجية على اساس حاجة الدول العربية الى خريجيها واستعداد ابناء الشعبالفلسطيني للاقبال عليها، بالاضافة الى انخفاض نسبة تخوف الانظمة العربية من مثل هذه الجامعة نظرا لبعدها عن السياسة وتخصصاتها التكنولوجية ! واخرون اقترحوا انشاء جامعة تربوية لنفس المبررات · ومننفس المنطلقات تقريبا نشا اقتراح انشاء جامعة للدراسات العليا المتخصصة لما بعد شهادات الليسانس والبكالوريوس ·

اهم ما في الامر ان فكرة الجامعة الفلسطينية قد اصبحت مطروحة ، فتعدد بحثها وتنوع في مختلف اماكن التجمع الفلسطيني الى ان بات يصعب حصر انواع الجامعات المقترحة ، كما تبين من مقررات وتوصيات المجلس الوطني الفلسطيني في اجتماعه الاخير ، حيث ورد ذكر ما يسمى بالجامعة العائمة، والجامعة المفتوحة ، وجامعة قبرص ، والجامعة الشعبية ، وجامعة الارض المحتلة ·

ومن ذكر هذه الاسماء يتبين ان سؤال « اين تكون الجامعة » يتغلب على سؤال كيف تكون وما هيئتها · فان جماعة « جامعة قبرص » المقترحة يتصورونانشاء جامعة فلسطينية في قبرص لتلافي مشاكل الاعتراض العربي · وفي ذلك ما فيه من تعليق على الوضع العربي · ولست ادري ما هي الجامعة العائمة اللهم الا ان تكون جامعة في سفينة او عوامة خارج المياه الاقليمية ، او ربما هي الجامعة المتحركة التي ليس لها مكان محدد · واما الجامعة المفتوحة فربما تكون تلك التي تقوم دروسها بالمراسلة ، وعن طريق الاذاعة والتلفزيون والاشرطة المسجلة والافلام ·

وبالنسبة لجامعة الارض المحتلة فالمكان معروف ، ولكن الصعوبات ايضا معروفة فيما يتعلق بما يمكن ان تكون عليهالجامعة في ظل الاحتلال ·

ثمة اختلاط في الاسماء ما بين الجامعة المفتوحة التي شاء الداعون اليها ان يترجموا اسمها بالانجليزية من The Open الى الجامعة الشعبية بالعربية ، وبين الجامعة الشعبية التي اشرنا اليها انفا والتي تختلف في مفهومها عن مفاهيم كل الجامعاتالمطروحة على بساط البحث ·

ولا بد من الوقوف قليلا هنا عند الجامعة المفتوحة نظرا للخطوة التيخطاها الداعون اليها بانجاز دراسة اولية لها، اشترك فيها الصندوق القومي الفلسطيني. والصندوق العربي للتنمية في الكويت ، ومنظمة اليونيسكو · ويعالج واضعو هذه الدراسة مشكلة المكان ، مكان الجامعة ، باعتماد نظام التعليم المفتوح ، اي ذلك النظام الذي يصل الى الطالب وينفتح على الجميع بدلا من «مركزيته وانغلاقه»· اي بمعنى ان تذهب الجامعة الى الناس

كل الناس عن طريق المراسلة والوسائل الاعلامية بدلا من ان يذهبوا هم اليها ، والمبررات الاقتصادية لهذا العمل متوافرة، فبدلا من توظيف المال في الابنية والاساتذة، فانه ، يوظف في الوسائل التعليمية من افلام واشرطة ويوفر كثيرا ·

وفي هذا الحل لمشكلة المكان ، ما فيه من ثغرات لا تعد ولا تحصى · فهو بالدرجة الاولى يفترض بقاء حالة الشتات هذه ويحاول ايجاد حلول لهذا الوضع كما هو عليه دون اهتمام بتغييره · ثم ان هذا الحل هو تقليد يكاد يكون اعمى للجامعة المفتوحة فيبريطانيا ، والتي يتخرج فيها كل عام حوالي ثمانين الف متخرج · فهناك يستخدم التلفزيون البريطاني لبث الدروس · فاي تلفزيون سيستخدمه الفلسطينيون لبث دروس جامعتهم ؟ واذا كانت الدول العربية تسمح بوضع اوقات محطات تلفزيوناتها تحت تصرف الجامعة الفلسطينية المفتوحة فان من الاسهل عليها والاكثر امنا ان تسمح لهم بانشاء جامعة يدرسون بين جدرانها ولا « تفيض » دروسهم على الاخرين · فلا بد لكل دولة من ان تسيطر على الدروس المبثوثة من محطاتهاالاذاعية والتلفزيونية · وقد يصلح هذا النظام التعليمي لاية دولة عربية تريد ان تتوسع في ايصال التعليم الى ابنائها ، ولكنه غير عملي وغير ممكن بالنسبة للفلسطينيين ·

دراسة اليونيسكو على اي حال تشخص مشكلة الفلسطينيين التعليمية تشخيصا لا بأس به ، ولكنها تتوصل الى الحلول المترفة والخاطئة وغير العملية في الوقت ذاته · فهي تقول : « كان من نتائج نكبة الشعب الفلسطيني الذي اصبح خاضعا لنظم حكم مختلفة ذات انظمة تربوية متباينة ، ان اصبحت امكانية اقامة نظام تربوي منسق وموحد لجميع الفلسطينيين امرا شبه مستحيل » · ومع الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل وحيد للشعب العربي الفلسطيني ، اضحى من المفروض « وضع هذا الاعتراف موضع التنفيذ على شكل واقعي عملي يتطلب بالضرورة وسائل عدة ، من ضمنها انشاء مؤسسة فلسطينية للتعليم العالي ، وذلك لان اكتساب المعرفة والاستفادة منها امران اساسيان لدعم الرغبة الملحة للشعب الفلسطيني في الهوية الوطنية والسيادة وتقرير المصير » ·

هذا قول حق ، واذا اثبت شيئا فانما هو يثبت ان ظرفا سياسيا جديدا للشعب الفلسطيني قد نشأ ، وان هذا الظرف لا بد وان يؤثر في النظام التعليمي وان يتأثر به · ان هذا يضع على كاهل منظمة التحرير الفلسطينية كممثلة وحيدة للشعب العربي الفلسطيني ان تضع النظام التعليمي للفلسطينيين الذي يتناسب مع طموحاتهم الوطنية والفردية · وتقول الدراسة : « انها لحقيقة تاريخية انه لم يكن باستطاعة الشعب الفلسطيني ان يقوم بأي شكل من اشكال التخطيط الاجتماعي والاقتصادي لمدة ثلاثين عاما ·· وكانت نتيجة ذلك ان المؤسسات القليلة التي كانت موجودة قبل عام ١٩٤٨ اصابها الضعف في نفس الوقت الذي استمرت فيه الهجرة الفلسطينية الجماعية الى الخارج · لذلك فان احد اهداف منظمة التحرير الفلسطينية من اقتراحها انشاء الجامعة الشعبية الفلسطينية ان تضع حدا لهذه الفوضى وهذا الضياع · ولكي يتم ذلك فان على المؤسسة المقترحة ان تلعب دورا قياديا في تنمية القوى العاملة والمعلومات وادوات التحليل والتسهيلات اللازمة لاعداد التخطيط الواقعي الفعال»·

« لذلك فان من الاهتمامات الرئيسية

لمنظمة التحرير تركيز المناهج والبرامج التي ستقدمها الجامعة المقترحة على مشاكل الفلسطينيين ، من اجل اعداد الشبيبة للعمل ضمن المجتمع الفلسطيني·

ومعلوم جيدا ان اغلبية القوى العاملة الفلسطينية ذات الكفاءة مستخدمة حاليا خارج المجتمع الفلسطيني ، لذلك من الاهمية القصوى ان تقوم التربية التي ستقدمها المؤسسة المقترحة على ربط التدريب والتربية والمهارة المكتسبة بنظام من القيم والمثل العليا يشجع المتعلم ويحثه على العمل في نطاق المجتمع الفلسطيني وللصالح العام » ·

كل هذا كلام جميل ··· ووارد· ولكن ما هو الحل ؟ الحل كما ترى دراسة اليونيسكو الاولية هو الجامعة المفتوحة التي لا نعتقد انها تستطيع القيام بمثل هذه المهمة وبالطريقة التي تريدها الدراسة الاولية · فان هده الدراسه الاوليه تقترح اجراء دراسة جدوى يستغرق القيام بها ثلاث سنوات ، ومبلغ نصف مليون دولار تقريبا · ويعول دعاة المشروع على الدراسات السكانية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والنفسية ووضع خطة مفصلة لكل من « الضفة الغربية وقطاع غزة » الخ ···

وهكذا نجد انفسنا امام مشروع دراسي لاوضاع الفلسطينين طويل الامد، مع خيارات في النهاية للمشروع في الضفة الغربية وقطاع غزة ·· وما الذي يحوجنا حينذاك الى جامعة على الاثير ؟ ان هذه الجامعة المعلبة والمستوردة فكرا واسلوبا لا تختلف عن مشاريع النقطة الرابعة ·ولا ندري ما في معلباتها من مواد ·

نعتقد ان الجامعة الشعبية الفلسطينية،في ظروفنا الراهنة يجب ان تكون شيئا مختلفا عن جامعة كانت ستنشا في القدس قبل خمسين عاما ، ومختلفا ايضا عن جامعة في بريطانيا لاختلاف الظروف · ثمة مقاييس تقاس بها الجامعات الحقيقية في جميع انحاء العالم ، ومقاييس اخرى يجب ان تقاس بها جامعتنا الفلسطينية المقترحة ، وما لم تنطبق عليها كل هذه المقاييس فانها لن تكون جامعة ولن تكون فلسطينية ·

القياس الاول هو ان الجامعة ،اي جامعة ، ليست في الجوهر مباني او شهادات مزوقة ، وانما هي مكان للتفاعل الحر بين عقول الجيل الطالع والجيل العالم من الاساتذة ، وتفاعل عقول هؤلاء وهؤلاء مع بيئتهم ومجتمعهم · وما لم تتحقق هذه الشروط الاساسية في الجامعة، ايجامعة، فانها تصبح دكانا لبيع الشهادات مثل العديد من الجامعات التي لا تستحق هذا اللقب · ان التوجه نحو الدراسات الهندسية والعلوم التطبيقية والطب سيكون صعب المنال في الجامعة المفتوحة · اضف الى ذلك ان عملية وجود التلميذ في الجو الجامعي واحتكاكه الشخصي بالاساتذة والاخذ عنهم لا يقل اهمية عن وجود الجامعة ذاتها في بيئتها ، وان وجود كلية من كليات الجامعة في مخيم فلسطيني لهو افضل الف مرة من وجودها في قبرص او في المياه الاقليمية او على الهواء !

هذا شرط اول وهو يحدد مكان وجود الجامعة الفلسطينية الشعبية المقترحة في ظروفنا الراهنة · فيجب ان تكون كلياتها موجودة في اماكن وجود التجمعات الفلسطينية · وان تجربة الهلال الاحمر الفلسطيني الذي اضطرته الحاجة الى افتتاح مدرستين للتمريض يمكن ان تدفعه الى افتتاح كلية للطب سيما وانه يملك

في لبنان اكثر من سبع مستشفيات · ولا نعتقد انه من الصعب ان تتحول جامعة بيروت العربية بما فيها من كلية للهندسة وكلية للاداب والتجارة الى نظام التعليم الجامعي الفلسطيني الجديد سيما وان الغالبية العظمى من طلابها هم من الفلسطينيين · ثم ما الذي يمنع من افتتاح كلية زراعية فلسطينية في بعض البلدان العربية الزراعية حيث توجد اعداد من الفلاحين الفلسطينيين وابنائهم المبعدين عن الارض ·· وهكذا دواليك

المقياس الثاني هو ان اية جامعة فلسطينية يجب ان لا تكون فلسطينية الانتماء فحسب ، والا سقطت في المحاذير الاقليمية · فالجامعة ليست « غيتو » ، ويجب ان لا تقع في فخ عقلية « الغيتو » المنصوب لوقوعنا فيه · الجامعة يجب ان تكون فلسطينية الانتماء وفلسطينية الالتزام وفلسطينية الطموح · وهذا يجعل من كلياتها في اي مكان في الوطن العربي منائر للعلم والطموح القومي الذي لا يقتصر على الفلسطينيين كما ينسجم مع شعار الثورة الفلسطينية بانها فلسطينية الوجه عربية القلب ·

من قضايا الانتماء والالتزام والطموح تتفرع مسائل كثيرة تكون في مجموعها الطريق الى فلسطين ، وتكون في حقيقتها جوهر الجامعة وما تهدف اليه · فليست المسألة كما ذكرنا هي زيادة عدد الخريجين

الجامعيين فحسب ، او تسهيل حصولهم على الشهادات الجامعية · ان معنى « فلسطيني » يكتسب من كل ما هو نقيض لمعنى الصهيونية · وهذا يجعلها بالضرورة تنزع الى معرفة الحقيقة واكتشافها لا الى اخفائها وكبتها ·والحرية الاكاديمية ليست الا طعما من مذاق الحرية

التي يتوق اليها الشعب العربي الفلسطيني والتي اصبحت جزءا لا يتجزأ من هويته ودوافع ثورته · فهذا الشعب الذي عانى كل انواع الكبت والاضطهاد لا تعني الهوية الفلسطينية اليه شيئا ما لم تكن موصولة بالسعي للخلاص من جميع ما عاناه ، وما لم تكن الحرية معنى من معاني الهوية · وان الديمقراطية بكل معانيها السياسية والاقتصاديةوالاجتماعية هي مكملة لمسألة الهوية والحرية ·

المقياس الثالث لجامعة فلسطينية الالتزام والطموح هي الابداع التربوي · والغاية من الابداع التربوي هي اطلاق طاقات الانسان التي تجعله متناغما مع نفسه ومع حياته وما يختار · فلقد واجهت الاساليب التربوية التقليدية في السنوات الاخيرة امتحانات راح فيها الجيل الطالع في العديد من البلدان يرفض اساليب التلقين التي اثبتت عقمها · فقد انحرف التعليم في الكثير من الجامعات عن غاياته واصبح سلسلة متصلة الحلقات من الامتحانات والكتب المقررة والشهادات والعذابات بدلا من ان تكون الغاية هي الاكتشاف وتمكين الفرد من مهارات وخبرات ومعرفة يمارس بها حياة اكثر متعة ومعنى ·

المقياس الرابع للجامعة الفلسطينية ان تكون جامعة لكل الشعب · وبهذا فانها لن تحتاج الى دراسة جدوى تحدد لها المسار الذي يؤثر بدوره على اتجاه القضية ، بل انها كجامعة للشعب ، ستفتح كل الخيارات ، وتحول دون ان تسوق فئة من الناس القضية كلها الى خيار واحد ·

وغني عن القول ان المهمات الملقاة على عاتق جامعة فلسطينية في الوقت

الراهن هي اصعب بكثير من المهمـــات التي كانت ستلقى على جامعة لو انشئت في القدس قبل خمسين عاما · وفي رايي ان جامعة من النوع الذي نريد لا ياتي بانشاء لجنة خبراء ، او اصدار مرسوم ، او تخصيص ميزانية · وانما هو ياتـــي نتيجة حركة ثقافية واعية ، وستغتني هذه الحركة بالمناقشة والحوار ·

ابراهيم ابو ناب

الدفاع الجوّي الاسرائيلي بعد حرب تشرين

ياتي الاهتمام الاسرائيلي المتزايــــد بتطوير وتقوية الدفاعات الجوية ، ورفع مستوى فعاليتها كما ونوعا ، كظاهـــرة مثيرة للانتباه ، خاصة وان هذا الاهتمام « المستجد » ، اذا صـح التعبيــر ، لـم يبرز على واجهة التخطيط العسكــــري الاسرائيلي الا في الفترة التي تلت حرب تشرين ١٩٧٣ ، كاستيعاب مباشر من قبل العدو ، لنتائج تلك الحرب ودروسهـــا ، بالاضافة الى شعور اكيد منه بمتغيرات اساسية طرات على خارطة الميزان العسكري في المنطقة ، الامر الذي استدعى بطبيعـة الحال ، اعادة النظر بمجمل سياساتـــه الدفاعيـة ·

ولقد اصبح من الواضـح الان ، ان العدو الاسرائيلي قد بات مقتنعا ، بـان استراتيجية « الهجوم » كافضل وسيلـــة للدفاع ، التي درج على اتباعها فـــي خوض عملياته العسكرية ، قد لا تكون هي الافضل عندما تتوفر لدى الطرف الاخر · القدرات الكافية لشن سياسة عسكريـــة « هجومية » مماثلة ، قد توقع في صفوفه خسائر موازية لتلك التي يوقعها هو فـي صفوف ذلك الطرف · اضف الى ذلك مدى تحمل اسرائيل لتلك الخسائر وخاصة على المستوى البشري · وقد اقتنع العدو وهذا يبدو ظاهرا على طريقة تعامله مع مسالـة بناء قواته بعد الحرب الاخيرة ، بـــان الهجوم لا يكفي ان لم يكن مدعوما بنظام دفاعي متكامل ، يضمن تامين الخلفيـــة الصلبة ، الضرورية لتدعيم ومسانـــدة هكذا هجوم ، ويمنع بالتالي اي هجوم مضاد (او مسبق) محتمل من تحقيـــق اهدافـه ·

ولعل المسالة الاساسية في اعادة ترتيب الاوضاع الدفاعية تتناول الدفاعـــات المضادة للهجمات الجوية ، استراتيجيـة كانت ، ام عملياتية · ومن يتابع عن كثب المراحل التي مر بها التركيـز الاسرائيلي على اعادة تنظيم ، وتزويد ، القطاعـات

المضادة للطائرات لدى كل من القوات البرية والجوية ، وحتى البحرية ، يجد ان الدافع تألف اساسا من سببين : فمن ناحية نجد ان النتائج المباشرة لحرب تشرين التي اظهرت ارتفاع مستوى الاسلحة المضادة (للدروع والطائرات على حد سواء) ، والفعالية التي اثبتتها تلك الاسلحة لدى الجانب العربي ، استدعت ، وهذا طبيعي ، لفت نظر العدو الى ذلك القطاع من القدرة العسكرية ودفعته الى التفكير بالحصول على اسلحة مماثلة ، ومتفوقة ، اذا أمكن ، من اجل الحفاظ على التوازن العسكري العام ٠ اما الناحية الاخرى ، والتي تشكل ، بنظرنا ، السبب الاكثر اهمية ، فتتلخص بالشعور لدى الدوائر العسكرية الاسرائيلية بازدياد القدرة العسكرية العربية الهجومية ، خاصة على الصعيد الجوي ، وتفكير العدو ، وربما للمرة الاولى ، بالخطر الجدي الكامن في هجوم جوي عربي يستهدف عمق الاراضي الاسرائيلية على المستوى الاستراتيجي من ناحية ، ودعم القوات البرية في ساحة المعركة ، على المستوى العملياتي من ناحية اخرى ٠

وفي هذا المجال ، لا بد من اعادة التذكير ببعض الوقائع التي كان العدو الصهيوني يخوض نزاعاته العسكرية على اساسها والتي يبدو انها قد تخلخلت في المدة الاخيرة واثبتت فشلها ٠

لقد كانت اسرائيل دوما متأكدة من ايمانها بالثنائي « طائرة ـ دبابة » وقدرته على تحقيق ما يطلب منه ٠ وفي الوقت نفسه ٠ فقد كانت اسرائيل مقتنعة

بعدم قدرة الثنائي « الطائرة ـ دبابة » لدى الجانب العربي المقابل من القيام بذلك ، وخاصة الجانب المتعلق « بالطائرة » منه ٠ فالاسلحة الجوية العربية ، بالنسبة لاسرائيل ، كانت حتما غير قادرة على شن هجمات جوية على الاهداف الاسرائيلية سواء كانت تلك الاهداف استراتيجية ام عملياتية ،وبالتالي لم يكن من الضروري ، في نظر الاسرائيليين ، الحفاظ على قوة دفاع جوي محترمة ، ماعدا الحد الادنى الكفيل باحباط « المفاجآت » ٠

وخلال حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كان السلاح الجوي الاسرائيلي لا يملك سوى سربا مطاردا واحدا : ونقصد هنا ان ايا من الاسراب الجوية الاسرائيلية لم يكن مخصصا لاعمال الاعتراض والمطاردة، بل ان العدو حول حتى الطرازات المعترضة اساسا في ترسانته الجوية ، كطائرات « ميراج ـ ٣ سي » الى طائرات هجوم ارضي مع احتفاظها بقدرة ثانوية على الاعتراض والقتال الجوي تؤمنها مدافعها الرشاشة من عيار ٣٠ ملم ، التي كانت تشكل ، على كل حال ، سلاحا فعالا للهجوم الارضي ٠ اما صاروخ « ماترا ـ ٥٣٠ » جو ـ جو الذي كانت الطائرة معدة لكي تحمله في عمليات الاعتراض الجوي فقد الغي من تسليح معظم الطائرات (ما عدا تشكيل واحد مؤلف من ١٢ طائرة) وتم استبداله بصواريخ جو ـ ارض من طراز « اس ـ ٣٠ ، AS - 30 » او بقنابل موجهة من نوع ماترا « خارقة الاسمنت » Concrete Dibber ٠ كما صار من الثابت الآن ان اسرائيل لم تبق خلال الحرب ، الا على تشكيل واحد (نصف سرب مؤلف من ١٢ طائرة) من طراز « سوبر ميستير ب ـ ٢ » ليؤمن حماية الاجواء الاسرائيلية من هجوم جوي عربي مضاد ٠ في الوقت الذي كانت باقي الطائرات (حوالي ٢٥٠ طائرة) تتجه الى اهدافها في مهمات هجوم ارضي وقصف تكتيكي ٠

وهذا « التقصير » اذا صحت تسميته كذلك ،لم يكن مقتصرا على الطائرات فقط بل تعداه الى وسائل الدفاع الارضية

التي كانت مؤلفة انذاك من بضع بطاريات من طراز « هوك » ، قدرتها المصادر الغربية انذاك بسبع ، تحتوي كل منها على ٦ قواعد اطلاق · وكانت مهمة هذه البطاريات تتالف بشكل خاص من حماية المنشآت الاستراتيجية كالمطارات والمرافىء بالاضافة الى مركز الابحاث النووية الاسرائيلي في صحراء النقب ، حيث اسقطت احداها عن طريق الخطا طائرة اسرائيلية من طراز « ميستير ـ ٤ آ » ! اما الدفاع عن الوحدات البرية فقد كان ملقى على عاتق عدد من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات التي كانت مؤلفة من مدافع من طراز « بوفورز ل ـ ٧٠/٤٠ » عيار ٤٠ ملم بريطانية الصنع ، و «اورليكون» عيار ٣٠ ملم و «هيسبانو ـ سويزا » عيار ٢٠ ملم ، سويسرية · وهي جميعا طرازات بدائية نسبيا ، يتم توجيهها نظريا (ما عدا عدد من مدافع «بوفورز» التي كان قد جرى تزويدها بجهاز تعقب وتوجيه راداري صغير) ·

وعلى ضوء النتائج التي آلت اليها حرب حزيران والتي كانت بالنسبة للقيادة الاسرائيلية اثباتا لصحة نظرياتها ، استمر وضع الدفاعات الجوية على ما كان عليه ، بل وازداد « سوءا » · وطيلة الفترة التي تلت حرب حزيران وخلال حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية عامي ٦٩ و ٧٠ · كان التركيز الاسرائيلي على تطوير القدرات الاسرائيلية الهجومية ، يتضح بشكل هائل · فانصبت جهود الاسرائيليين على الحصول على طائرات هجومية لمهام الدعم الارضي والمساندة التكتيكية القريبة (سكاي هوك أ ـ ٤) واخرى من أجل تنفيذ عمليات القصف التكتيكي والاقتحام الجوي في العمق INTERDICTION الذي يأخذ في هذه الحالة سمات استراتيجية ، (فانتوم ف ـ ٤) · وعلى الرغم من ان هذه الاخيرة كانت في الوقت نفسه طائرة مطاردة ممتازة (بل ان هذه المهمة كانت هي الاساس عندما صممت الطائرة خلال الخمسينات واوائل الستينات لحساب البحرية الاميركية) ، الا ان الدور الاسرائيلي الرئيسي الذي اوكل اليها كان اعمال القصف الهجومية ، لا اعمال الدفاع والقتال الجوي ·

ومن الجدير بالذكر هنا ، ان قوات العدو الاسرائيلي لم تحصل خلال الفترة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ على سلاح واحد معد في الاساس لاستخدامه في اغراض دفاعية، اكان ذلك على شكل طائرات معترضة ، ام على صعيد الدفاعات الارضية ، باستثناء ثلاث بطاريات هوك اضافية ، حصلت اسرائيل عليها من الولايات المتحدة ، وعدد محدود من المدافع الرشاشة من عيار ٢٠ ملم التي تم تفكيكها في اسرائيل عن طائرات « الاوراغان » القديمة وتحويلها الى مدفعية مضادة للطائرات على منصات رباعية مركبة على آليات نصف مجنزرة ، ترافق القوات البرية اثناء تقدمها ·

ولقد كان الاجراء الوقائي الوحيد الذي اتخذته اسرائيل خلال فترة استيلائها بعد حرب ١٩٦٧ على اراض عربية واسعة ، ان وضعت عليها نقاط مراقبة استراتيجية على جبل الشيخ ومرتفعات سيناء والضفة الغربية ووضعت مراكز رادار واجهزة رصد وانذار مبكر ، كانت تضمن حسب الاقتناع الاسرائيلي ، مراقبة اي تحرك جوي عربي يهدف الى مهاجمة مواقعها · وبالتالي كشفه واحباطه ، عن طريق هجوم جوي استباقي قبل ان تتمكن الطائرات العربية من الوصول الى اهدافها ·

ووسط كل تلك المعطيات ، دخلت اسرائيل حرب تشرين (اوكتوبر) ١٩٧٣· فماذا كانت النتيجة ؟

لقد فوجىء الطيران الاسرائيلي ، الذي كان يعد القوة النارية الرئيسية للجيش

الاسرائيلي بفاعلية الاسلحة الارضية المضادة للطائرات لدى الجيشين المصري والسوري ، وخاصة فاعلية صواريخ « سام ـ ٦ » والمدافع الرشاشة الرباعية من طراز « زس يو ـ ٢٣ (٤) » عيار ٢٣ ملم والموجهة بالرادار ٠

وقد كان سوء تقدير القيادة الاسرائيلية لقدرات الدفاع الجوي العربي تقنيا وبشريا سببا رئيسيا في انزال الخسائر التي لحقت بالسلاح الجوي الاسرائيلي خلال تلك الحرب ٠

واذا كانت المصادر الاسرائيلية (والغربية) قد اشارت بصورة مستمرة الى هذا الجانب من المفاجاة الاسرائيلية لكونه لا يشكل نقطة حرج مباشرة لاسرائيل ، الا ان هناك جانبا آخر اغفلت تلك المصادر الاشارة اليه وهو تمكن الطيران العربي لاول مرة من شن غارات ناجحة نسبيا على الاهداف الاسرائيلية (باستثناء العمق) وخاصة في اليوم الاول للقتال حين قامت ما يزيد عن مائتي طائرة مصرية من طراز ميغ ـ ٢١ وميغ ـ ١٧ وسوخوي ـ ٧ ومائة طائرة سورية من نفس الانواع بغارات على العديد من المواقع الاسرائيلية في سيناء والجولان ، ولقد اثبتت تلك الغارات ان بوسع الطيران العربي الاغارة على القوات البرية الاسرائيلية حين تتوفر النية لذلك كما كشفت بشكل فاضح هزال الدفاعات الارضية المتوفرة للقوات البرية وعدم قدرتها على مواجهة تلك الهجمات الجوية بشكل كاف ٠ والنقطة الاخرى في الموضوع ، والتي دأبت اسرائيل على طمسها ، كانت قدرة الطيران العربي على مواجهة الطائرات الاسرائيلية والدخول معها في معارك متكافئة ، اطاحت بنظرية « الطيار الاسرائيلي الذي لا يقهر » رأسا على عقب ، واثبتت حاجة اسرائيل هذه المرة ، لا الى طائرات هجومية مزودة بقدرة دفاعية ثانوية ، بل الى طائرات مطاردة ومعترضة متخصصة لمواجهة الطائرات العربية المهاجمة في الجو ٠

□ المحاولات الاسرائيلية لسد الثغرة (١٩٧٣ ـ ١٩٧٧) ٠

وهكذا خرجت اسرائيل من حرب تشرين وفي مقدمة الدروس العسكريه التي استخلصتها منتلك الحرب الضرورة القصوى لاعادة تنظيم دفاعاتها الجوية وتقويتها ٠ وقد زاد من تلك الضرورة بالنسبة للقيادة العسكرية الاسرائيلية ، تزايد القوة الجوية العربية . نوعيا هذه المرة ٠ ونقصد هنا ، ان الاسلحة الجوية العربية التي طالما كانت متفوقة » كما » على الطيران الاسرائيلي ، استطاعت خلال الفترة التي تلت حرب تشرين تحقيق تفوق نوعي تميز بحصول تلك الاسلحة على طرازات جديدة من الطائرات السوفياتية ، المخصصة هذه المرة لاعمال القصف التكتيكي والاقتحام الجوي بعيد المدى ، وهو الجانب الذي لم يكن متوفرا لها ، نسبيا على الاقل ، من قبل ٠فحصلت كل من مصر وسوريا والعراق وليبيا على طائرات من طراز ميغ ـ ٢٧ (فلوغر ـ د) وهو آخر ما انتجته الصناعة الجوية السوفياتية ، وكان يعرف باسم « ميغ ـ ٢٣ ب » لتمييزه عن طائرة ميغ ـ ٢٣ الاساسية المطاردة المعترضة التي حصلت عليها الاسلحة الجوية العربية ايضا ٠ وتقدر الحمولة التي تحملها هذه الطائرات بـ ٤ ـ ٥ اطنان من القنابل ، والصواريخ جو ـ ارض ، كما ان مداها القتالي العملي على ارتفاعات منخفضة يصل الى ١١٢٥ كلم ، حسب تقديرات المصادر الغربية ، مما يجعلها نموذجية للاحتياجات العربية٠ وكذلك حصلت كل من مصر وسوريا على طائرات « سوخوي ـ ٢٠ » (وهو الطراز المعد للتصدير من الطائرة سوخوي ـ ١٧)

وهذه الطائرة تطوير للقاذفة التكتيكية « سوخوي ـ ٧ » وتتميز عنها بزيادة كبيرة في حمولتها الهجومية (٤ اطنان) وزيادة مداها القتالي ، بحيث تتمكن من قطع مسافة ١٤١٥ كلم بحمولة طنين من القنابل . كما حصلت كل من ليبيا والعراق على قاذفات بعيدة المدى اسرع من الصوت من طراز « تيو ـ ٢٢ » القادرة على حمل اكثر من ٨ اطنان من القنابل والصواريخ لمسافة ١٤٠٠ كلم وبسرعة تفوق سرعة الصوت .

هذه الطرازات التي بات وجودها في الترسانة العربية ، يضع الاهداف الاسرائيلية الاستراتيجية تحت سيطرة اسلحة الطيران العربية دون عائق (تتفوق الطائرة ميغ ـ ٢٣/٢٧ من حيث السرعة والقدرة على المناورة في القتال الجوي ، التي تؤمنها لها قدرتها على تحريك جناحيها ، على أي طائرة موجودة لدى اسرائيل بما فيها الفانتوم فـ٤ ، وذلك باعتراف المصادر الغربية والاسرائيلية نفسها) ، جعلت من التصميم الاسرائيلي على بناء نظام دفاع جوي متكامل ، هدفا لايحتمل تحقيقه اي تأجيل .

وقد تركزت الجهود الاسرائيلية على مختلف نواحي الدفاع الجوي التي سنقسمها هنا ، على الرغم من ارتباطها العضوي ببعضها، الى جوانب ثلاثة ، وذلك بهدف مقارنة الامور وتبسيطها، وهذه الجوانب هي :

ـ الطائرات المقاتلة المطاردة والمعترضة .

ـ الدفاعات الارضية المضادة للطائرات .

ـ أجهزة الرصد والانذار والتعقب المبكر، بما فيها الطائرات .

وسنطرح ماطرا على كل جانب منهذه الجوانب على حدة :

□ الطائرات المطاردة الاعتراضية :
لم يعد هناك من حاجة لتكرار القول بان سلاح الطيران ، كان (ومازال) العصب الرئيسي في التركيبة العسكريةالاسرائيلية والذراع «الاطول» التي تحرص اسرائيل دائما على الحفاظ على تفوقها وتميزها، حتى على الفروع الاخرى من القوات المسلحة .

وبعد حرب تشرين . ورغم الخسائر التي مني بها سلاح الطيران الاسرائيلي ، ووقوفه مشلولا في الايام الثلاثة الاولى، أمام الدفاعات الارضية العربية ، خرجت القيادة العسكرية الاسرائيلية بقناعة ثابتة تلخصت في أن سلاح الطيران هو بالنهاية ، القادر على قلب الموازين وحسم المعركة في صالح اسرائيل .

ان هذه المقولة لم تتغير في اسرائيل منذ انشائها في العام ١٩٤٨ ، الا ان ماتغير كان متعلقا «بشكل» سلاح الطيران لمرحلة مابعد تشرين ، وتحويله من قوة «هجومية» صافية ، الى قوة «دفاعية» متكاملة ، تحتفظ بقدرتها الفائقة على تنفيذ المهام «الهجومية» بمختلف اشكالها .*

---

* ملحوظة : لانريد أن ندخل هنا منجديد في الجدل حول ماهية «الهجومي» من ناحية ، و«الدفاعي» من ناحية اخرى . فالمقصود هنا ببساطة ، «الهجوم» هو التنفيذ «الايجابي» لمخططات طرف ما ومن ثم العمل على نقل المعركة الى مرمى عدوه . في حين نعني «بالدفاع» منع ذلك العدو من تنفيذ مخططاته عبر التصدي لوسائله «الهجومية» والعمل على تدميرها أو الحد من فاعليتها .

من اعمال قصف تكتيكي واستراتيجي (في العمق ضد المنشآت الحيوية) ، واقتحام جوي ، وهجوم ارضي وتقديم المساندة للقوات البرية عن قرب ، واستطلاع عملياتي واستراتيجي · وفي الوقت نفسه يجب على هذه القوة الوصول بمستواها الدفاعي الى درجة لم يسبق ان وصلت اليها من قبل بهدف التصدي بفعالية لاي هجمات جوية معادية واعتراض ومطاردة وبالتالي تدمير أي طائرة عربية تتمكن من خرق المجال الجوي الاسرائيلي والافلات من الدفاعات الارضية ·

وعلى هذا الاساس لم تكتف القيادة الاسرائيلية في الفترة التي تلت الحرب الاخيرة بالعمل على رفع مستوى الاداة الهجومية لسلاح الطيران ، (كما جرت العادة بعد كل حرب عربية ــ اسرائيلية) بل تعدتها هذه المرة الى الاهتمام الزائد بتزويد ذلك السلاح بالقوة الكافية من المطاردات المعترضة ، هذه المرة بهدف رفع مستواه الدفاعي في وجه الهجمات المعادية · ولاول مرة في تاريخه ، يحصل سلاح الطيران الاسرائيلي بعيد حرب تشرين على طائرة مصممة في الاساس للقيام باعمال المطاردة والاعتراض والقتال الجوي القريب Dog Fight ،وهذه الطائرة كانت المقاتلة «كفير» التي سرقت اسرائيل تصاميمها عن طائرة «ميراج ــ ٥» الفرنسية وادخلت عليها تعديلات أساسية بهدف تحويلها منطائرة هجوم أرضي ، الى طائرة اعتراضية (هذه المرة أصبحت المهمة الهجومية ثانوية!) ·

وكان التركيز الاساسي في صنع الطائرة منصبا على المرونة والقدرة على المناورة خلال عمليات القتال الجوي ، وقد زودت اسرائيل طائرتها هذه بأجنحة صغيرة وراء حجرة الطيار ونظام جديد من الزعانف الذيلية ورفرافات الجناحين، بهدف تحسين قدرتها على المناورة اثناء التحليق ، كما سلحتها بصواريخ جو ــ جو اسرائيلية الصنع من طراز «شافرير» مخصصة لعمليات القتال الجوي الالتحامية ، كما حافظت على تسليح الميراج المؤلف من مدفعين رشاشين من طراز «ديفا» عيار ٣٠ ملم ·

وقد بدأت الطائرة «كفير» خدمتها الفعلية في صفوف اسراب الدفاع الجوي التابعة لسلاح الطيران الاسرائيلي في العام ١٩٧٥ · وتختلف التقديرات حول عدد الطائرات من هذا الطراز في الخدمة الا أنها تتراوح بين ٥٠ــ٦٠ طائرة ، مع العلم أن حاجة سلاح الطيران الاسرائيلي النهائية قد لاتقل عن ١٠٠ــ١٥٠ طائرة ·

والى جانب الطائرة «كفير» التي ادعت اسرائيل أنها تفوقت على «الفانتوم» في المعارك الجوية الاختبارية التي أجريت بين الاثنتين ، حصلت القوات الجوية الاسرائيلية من الولايات المتحدة الاميركية على أحدث طائرة تنتج هناك حاليا وهي طائرة «ف ــ ١٥ ايغل» ·

وبما يتعلق بهذه الطائرة ، فالهدف الاساسي من وراء انتاجها كان رغبة السلاح الجوي الاميركي في الحصول على طائرة مقاتلة معترضة لمنافسة الطائرة السوفياتية من طراز «ميغ ــ ٢٥» التي تتفوق على أية طائرة اميركية في الخدمة حاليا · وعلى الرغم من تصنيف هذه الطائرة «كمقاتلة متعددة المهمات» ، الا ان دورها الاساسي هو الاعتراض والمطاردة · ومن اجل ذلك فقد حرص المصممون الاميركيون على التركيز على قدرة الطائرة على المناورة خلال المعارك الجوية، ولو كان ذلك على حساب السرعة (٢٤٣٥ كلم/ساعة على ارتفاع ١٢٢٠٠ مترا و١٤٣٥ كلم/ساعة على مستوىسطح

البحر) كما أن تسليحها الرئيسي يتألف من مدفع رشاش سداسي الفوهات منطراز «م ـ ٦١ فولكان» عيار ٢٠ ملم بالاضافة الى ٤ـ٦ صواريخ جو ـ جو موجهة راداريا او بالاشعة دون الحمراء من نوع «سبارو» و«سايدويندر» (من المرجح أن تستبدل هذه الاخيرة بصواريخ «شافرير» في الطائرات الاسرائيلية) ٠

وقد أوصت اسرائيل على ٢٥ طائرة من هذا الطراز كدفعة أولى ، بدأت بتسلمها مؤخرا ٠

وبالاضافة الى هذين الطرازين الجديدين ، حصلت اسرائيل على المزيد من طائرات «فانتوم ف ـ ٤» حيث يقدر عدد الطائرات من هذا النوع فيالترسانة الجوية الاسرائيلية بحوالي ٢٤٥ طائرة (٢٣٣ «ف ـ ٤اي» + ١٢ «رف ـ ٤ اي» بالمقارنة مع ١٢٠ طائرة كانت تملكها ابان حرب تشرين ٠ وقد عمدت اسرائيل بعد عام ١٩٧٣ على اعادة تزويد طائراتها من طراز فانتوم بنظام جديد لرفرافات الاجنحة والذيل مشابه للنظام الذي ركبته المانيا الغربية على طائراتها من طراز «ف ـ ٤ ف» المعدة لعمليات المطاردة والاعتراض ٠ وهذا النظام كفيل بزيادة قدرة الطائرة على المناورة ورفع مستواها القتالي خلال مهمات الاعتراض الجوي ٠

□ الدفاعات الارضية المضادة للطائرات :

اذا كان الدور الهام الذي تلعبه الصواريخ «ارض ـ جو» في أية مواجهة تقليدية قد أصبح من الامور المسلم بها عسكريا ، لدى غالبية الجيوش ، فان من الثابت أيضا ان اسرائيل لم تعط هذا الموضوع الاهتمام الكافي قبل حرب تشرين ٠ ويعود ذلك كما سبق وذكرنا الى أنها كانت تعتمد قبل كل شيء على قدرات سلاحها الجوية الهجومية وبالتالي قدرة ذلك السلاح على حماية الاجواء الاسرائيلية ومنع أية طائرة عربية من اختراقها . بالاضافة الى قدرته على تغطية وحماية ودعم عمليات القوات البرية والبحرية ٠

الا ان هذه النظرة التي اهتزت بشكل كبير خلال حرب تشرين ، حيث استطاعت القوى الجوية العربية القيام بمهمات فعالة ضد المواقع الاسرائيلية البرية ، في الوقت الذي أثبتت الدفاعات الجوية العربية التي كانت تعتمد اساسا على ثنائي «الطائرة الاعتراضية ـ الصاروخ» على قدرتها في حماية الطائرات العربية فوق مسرح المعركة ٠

وقد شعرت القيادة الاسرائيلية عندئذ بان الدفاع الجويالمتكامل لايمكن انيتحقق الا اذا تم دعم الطائرات الاعتراضية التابعة لسلاح الجو ، بدفاعات أرضية ، ثابتة ومتحركة ، تؤمن حماية المطارات والمواقع الحيوية من ناحية ، ومرافقة القوات البرية لحمايتها من الهجمات الجوية المعاكسة من ناحية اخرى، ٠

فالقوات البرية الاسرائيلية اشتكت كثيرا خلال الحرب من ضعف قوتها النارية المضادة للطائرات ، كما ان السلاح الجوي ، الذي كان مشغولا بتنفيذ المهمات الهجومية ضد الاهداف العربية ، وجد في حماية قواته البرية عبئا اضافيا ، قد لايمكن ان يتحمله في المستقبل ، ان لم تعاونه فيه ، دفاعات أرضية جيدة ، ترفع عن كاهله جزءا من مهمات الحماية تلك ٠

وعلى صعيد الصواريخ ، فقد تركز الجهد الاسرائيلي على ناحيتين : الاولى كانت تقضي برفع مستوى الدفاعات الصاروخية حول المنشآت الحيوية والمدن

والمطارات وذلك عبر زيادة البطاريات من طراز «هوك» التي تضاعف عددهـــا من ٧ بطاريات الى ١٥ بطارية (تحتوي كـل منها على ٦ منصات اطلاق) • كما طلبت المـزيـــد (بقـــدر بـ ٧ بطاريـــات اخرى) مـــن صواريخ « هوك المعدلة » Advenced Hawk التي ادخلت عليها تعديلات تتعلق بدقة الاصابة وزيـــادة مدى عملها •

وهذه الصواريخ تكفل لاسرائيل حماية معقولة ضد الطائرات المحلقـــة علـــى ارتفاعات متوسطة وبسرعة تفوق سرعـة الصوت •

ومن ناحية أخرى شددت اسرائيل على تزويد قواتها البرية ، المدرعـــة والمشاة الميكانيكية ، بغطاء دفـــاع جوي مرتفع المستوى • فحصلت على اعداد كبيرة من صواريخ «رد آي» (العين الحمراء) التي يحملها المشاة وتطلق من علـــى الكتف •

وهذه الصواريخ المشابهة من حيث الدور والمواصفـــات لصواريـــخ «سام ـ ٧» السوفياتية تؤمن للمشاة حمايـــة ضـد الهجمات الجوية التي تشنهـــا طائرات الهليكوبتر المسلحة ، او الطائرات المقاتلة المحلقة على ارتفاعات منخفضة وبسرعة اقل من سرعة الصوت • وهي توجه بصريا عند الاطلاق ، ثم تتجه الـــى اهدافهـا بواسطة جهاز لاحـق للاشعـــة مادون الحمراء المنبعثة من الغازات المحترقة من مؤخرة محركات الطائرات النفاثة •ويبلغ مدى عمل هذا الصاروخ حوالي ٣ـ٥ كلم ويصل بارتفاعه الى ٣ الاف متر •

والتطوير الثالث الذي طرأ علـــى الدفاعات الصاروخية المضادة للطائرات، كان حصول اسرائيل علـــى صواريـخ «تشابارال» المحمولة على عربات مدرعة برمائية من طـــراز «م ـ ٧٣٠» • وهـذه الصواريـــخ هي تطويـــر لصاروخ «سايدويندر» جو ـ جو ، بعد أن اضيفت اليه التجهيزات اللازمـــة لاطـــلاقه من الارض • وهو معد لمرافقة القوات المدرعة وتامين حماية جوية قريبة لهـــا ضـــد الطائرات المحلقة على ارتفاعات منخفضة وبسرعة تفوق سرعة الصوت • ويتكون «تشابارال» من جهاز الاطلاق والتحكـم ، والعربة الحاملة ، والصاروخ نفســـه • وتنطلق الصواريخ من برج مركب علـــى العربة يحمل ٤ قذائف ويتـــم توجيه الصاروخ بدائيا بواسطة المطلـــق ، ثم يسير الى هدفه بشكل مستقل وذلكبواسطة رأسه الباحث عن الحرارة ، الذي يوجهه الى مصدر الاشعة مادون الحمراء المنطلقة من الهدف • ولايزيد مدى «تشابارال» عن ٨ـ١٠ كيلومترات وهو صالـــح لمطاردة الطائرات على ارتفاعات منخفضة ، لكنه يمتاز بقدرته على المناورة على المسافـات القريبة •

وقد أجرت اسرائيل تجارب على هـــذا الصاروخ بهدف تحسين وسائل توجيهـــه وذلك عن طريق اضافة مقدر مدى من نوع «لايزر» صالح للعمـــل في الليل وفي الاحوال الجوية السيئة • واصبح هـــذا الصاروخ قيد الخدمة الفعلية في الجيش الاسرائيلي منذ العـــام ١٩٧٥ تقريبـا ولايعرف العدد الذي طلبته اسرائيل منه•

وبالاضافة الى الصواريخ ، قـــررت القيادة الاسرائيلية تزويد قواتها البريـة بمدافع مضادة للطائرات ذاتية الحركـــة من نوع «فولكان» سداسيّ الفوهات عيار ٢٠ ملم • وهذه المدافع نسخة برية عـن المدفع «م ـ ٦١ فولكان» المحمول علـى طائرات «فانتوم» و«ايغل»• وهو مركب على عربة مدرعة برمائية من نوع «م ـ ١١٢»، ويوجه راداريا • ويمتاز بشكـــل خاص بقدرته الغزيرة على الرمي (٦٠٠٠ طلقـة بالدقيقة) • ومن المفترض ان يعمـل هـذا

المدفع بالتنسيق مع الصاروخ «تشابارال» لتشكيل نظام دفاع جوي متكامل لمرافقة القوات المدرعة والمشاة الاسرائيلية خلال عملياتها العسكرية · وهو شبيه الى حد ما بالنظام الدفاعي السوفياتي المؤلف من مدافع ذاتية الحركة من عيار ٢٣ ملم «ز س يو ــ ٢٣ رباعي» وصواريخ سام ــ ٩ (وهي نسخة مطورة عن «سام ــ ٧» تحمل على عربات مدرعة برمائية بشكل رباعي) · وذلك لتامين حماية فعالة ضد الهجمات الجوية القريبة والمنخفضة الارتفاع ·

كذلك لم تهمل اسرائيل موضوع زيادة المدفعية المضادة للطائرات التقليدية ، فزودت قواتها البرية باعداد اضافية من المدافع عيار ٢٠ ملم من نوع «هسبانو سويزا» المفككة عن طائرات «اوراغان» والمركبة على عربات نصف مجنزرة من طراز «م ــ ٣» ، كما وردت تقارير تفيد الى اتباع الاسلوب نفسه مع مدافع طائرات «ميستير ــ ٤ أ» من نوع «ديفا» عيار ٣٠ ملم · التي يعتقد انها ركبت بشكل ثنائي على عربات من الطراز المذكور سابقا ·

☐ اجهزة الرصد والانذار المبكر :

يعتبر سلاح الطيران الاسرائيلي من اوائل الاسلحة الجوية في العالم (باستثناء الدولتين العظميين وعدد قليل من الدول الاوروبية وكندا) الذي يحصل على طائرات انذار جوي مبكر · وقد استطاعت اسرائيل «نيل موافقة» الولايات المتحدة الاميركية على تزويدها باربع طائرات من نوع «هوك اي اي ــ ٢ سي» EA -2C التي تنتجها شركة غرومان وذلك بمبلغ ٢١٠ ملايين دولار على ان يتم تسليمها في اواخر هذا العام ، وقد كان الطلب الاساسي منصبا على الحصول على طائرات من نوع « براولر اي اي ــ ٦ ب» EA-6B التي تصنعها الشركة نفسها · الا ان اسرائيل عادت وقنعت بالحصول على «هوك اي» (عين الصقر) · وهذه الطائرات مزودة بجهاز رادار بعيد المدى من نوع «أن ــ اب س ــ ١١١» AN - APS - 111 مركب على شكل صحن فوق هيكل الطائرة وحاسب الكتروني متطور من نوع «ليتون ل ــ ٣٠٤» متعدد الاغراض · ويطلق على عمل الطائرة الاسم الرمزي «ات د س» ATDS ، التي يمكن ترجمتها بـ «النظام الجوي التكتيكي لتجميع المعلومات» · وهي تعمل على اساس البقاء في الجو على شكل دورية دائمة تتعقب خلالها اي تحركات جوية معادية ، ثم تبلغ عنها بشكل مبكر ، بحيث يتم تجهيز الوسائل المضادة من طائرات وصواريخ ومدافع بأقل قدر ممكن من الوقت · وتستطيع «عين الصقر» هذه ، البقاء في الجو لمدة ٥ ساعات متتالية ، كما يمكن تزويدها بالوقود جوا من اجل اطالة هذه المدة ·

كما ستحصل اسرائيل على جهاز رادار بعيد المدى ، يغطي كافة الحدود الاسرائيلية وشواطئها ، عبر سلسلة من المحطات المتقدمة · وسيعمل هذا الجهاز الاميركي الصنع ، بالتنسيق مع طائرات « هوك آي » من جهة ، ومع قيادة المقاتلات التابعة لسلاح الجو من جهة اخرى ·

ولايمكن في هذا المجال ، الا التذكير بمحطة الانذار المبكر الاميركية التي اسفرت عنها اتفاقية سيناء والتي «بنظرنا» ستفيد منها اسرائيل اضعاف ماستفيد مصر ، والاسباب لذلك واضحة !

☐ الدفاع الجوي الاسرائيلي في المرحلة المقبلة :

نستطيع القول ، في معرض تقدير قوة الدفاعات الجوية الاسرائيلية اليوم ، ان اسرائيل ماضية ، بلا شك في استكمال

بناء قدرتها الدفاعية الجوية على مختلف الاصعدة ، وبشكل يشير الى انهـا لن تسمح لاي ثغرة بالتواجد ، في قواتهـا المسلحة · وفي الوقت نفسه فالعـدو لن يهمل بالطبع الاستمرار في تأكيد قدراتـه الهجومية ·

وكتقدير لما يمكن ان يكون عليه مجموع قوى الدفاع الجوي الذي بحوزة العـدو نستطيع ايراد التالي ، وذلك اعتمادا على المصادر الغربية :

● الطائرات المعترضة :

ـ ٢٥ طائرة متعـددة الاغراض مع تشديد على اعمال القتال والمطاردة من طراز «ف ـ ١٥ ايغل» ، مزودة بصواريخ جو ـ جو من نوع «سبـارو» المعـدل و«سايدويندر» او «شافرير» الاسرائيلي الصنع + مدفع «فولكان» عيار ٢٠ ملم·

ـ ٢٤٠ ـ ٢٤٥ طائرة « ف ٤/ رف ـ ٤ فانتوم» لاعمال القصف التكتيكـي مع تحسين وسائل الطائرة القتالية ، مزودة بصواريخ جو ـ جو من نوع «سبارو» + مدفع «فولكان» ·

ـ ٥٠ـ٦٠ طائرة «كفير» و«كفير سي ـ ٢» المعدلة والمعدة لاعمـال الاعتراض والمطاردة (مع قدرة ثانوية على تنفيـذ اعمال الهجوم الارضي)، مزودة بصواريخ جو ـ جو من طراز «شافرير» + مدفعين عيار ٣٠ ملم ·

ـ ٣٠ـ٤٠ طائرة «ميـراج ـ ٣ سي» وهي ماتبقى من الطائـرات الفرنسيـة الاصلية في حوزة اسرائيل · وتستعمـل حاليا لاعمال الاعتراض والمطاردة ،مزودة بصواريخ من طراز «شافرير» + مدفعين عيار ٣٠ ملم ·

هذا طبعا بالاضافة الى القوة الجويـة الهجومية المؤلفة من ٢٦٠ طائرة تقريبـا من نوع «أ ـ ٤ سكاي هوك » · بالاضافة الى طائرات الفانتوم التيمكن استخدامها في هذا المجال وعدد غير محـدد من الطائرات بدون طيار من طراز «تشوكار» المعدة أصلا للاستطلاع والتـي تجري اسرائيل تجارب عليها حاليا بهـدف استخدامها كطائرات هجوم ارضـي تدار راداريا من الارض ·

● الوسائل الارضية :

ـ حوالي ٢٠ـ٢٥ بطارية صواريخ من طراز «هوك» و«هوك المتقـدم او المعدل» تحتوي كل منها على ٦ منصات ثلاثيـة لاطلاق الصواريخ · وتؤمن مهمات الدفاع المتوسط عن المنطقة Area Defense ضد الطائرات المنخفضة والمتوسطـة الارتفاع · (مجموع قوة نارية ٢٥ × ٦ × ٣ = ٤٥٠ صاروخا) ·

ـ عدد غير محـدد من بطاريـات صواريخ «تشابارال» ، يرجح ان تحتوي كل منها ايضا على ٦ منصات ثلاثيـة ، تؤمن الحماية للقوات المدرعة والمشـاة الميكانيكية ضد الطائـرات المنخفضـة الارتفاع ·

ـ عدد غير محدد من صواريخ «رد آي» المحمولة على الكتف والمزودة بهـا قوات المشاة ·

ـ عدد غير محدد من المدافع السداسية من عيار ٢٠ ملم «فولكان» تؤمن الـدور نفسه الذي تلعبه صواريـخ «تشابارال» وتعمل بالتنسيق معها ·

ـ اكثر من ٩٠٠ مدفع مضاد للطائرات من طرازات متعددة تشتمل على مدافـع «بوفورز» عيار ٤٠ ملم و«اورليكون» عيار ٣٠ ملم متطورة ، و«ديفا» عيار ٣٠ ملـم و«هيسبانو سويزا» عيار ٢٠ ملم ، محمولة عـلى عربات نصف مجنـزرة ثنائيـة ورباعية ·

● **الوسائل الالكترونية :**

ـ ٤ طائرات انذار جوي مبكر من نوع «هوك اي» ·

ـ نظام رادار بعيد المدى يعمل بالتنسيق مع الطائرات ·

ـ وسائل الكترونية وحرارية متنوعـة لمهمات التشويش الالكتروني على اجهـزة التوجيه والرادار للاسلحـــة العربية ، تشتمل على معدات تركب في الطائرات ، ومحطات أرضية خاصة وطائـــرات بدون طيار ترافق الطائرات المعترضة والقاذفة في مهماتهـا ·

والخلاصة، فاننا اذ نورد هذه الحقائق، فهو للتدليل على ان العدو قد عمد منـــذ اللحظة الاولى لاحساسه بتزايد الخطـــر العربي الجوي ضده ، الى رفـــع مستوى قواته واسلحته ، ليس فقط بهدف اعـــادة التوازن ، كما يتبادر الى الذهــــن لاول وهلة ، بل لتحقيق التفوق الذي لايجازف بخسارتــــه في اي مرحلة من مراحــل الصراع · والرد على ذلك ، عند الجانب العربي ، لايجدر ان يكون سوى الاستمرار في العمل على رفــــع مستوى القدرة العسكرية العربية ، لان لاشيء غير ذلـك على الاطلاق ، ينفع في منع العدو من تحقيق اهدافه · وهذا «الهدف» العربي يجب ان يتحقق سريعا ، قبل ان يغـــدو التنامي في القوة العسكرية الاسرائيليـة خطيرا وقد تنعكس آثاره السلبية علـى اي مجابهة اسرائيلية ـ عربية مستقبلية·

محمد علي قاسم



المراجـع :

Issues) .

— Flight International (Various Issues) .

— Jane's all the World's Aircraft 1976-1977

— Jane's weapons Systems 1973 - 1974 , 1975 - 1976 .

(Jane's Yearbooks , St. Gile's House , London) .

— The Military Balance 1973-74
1974-75
1975-76
1976-77

(The Institute of Strategic Studies , London) .

— Aviation & Marine (Various Issues) .

— Air International (Various

الطائرة الأميركية (ف - ١٦)

تردد اسم طائرة (ف ـ ١٦) لاول مرة في الاذاعات والصحف والمجلات العالمية والمحلية في العام ١٩٧٤ ، عندما قررت اربع دول من الدول الاوروبية الغربية الاعضاء في حلف شمال الاطلسي وهي بلجيكا وهولندا والنرويج والدنمارك التوصل الى قرار موحد نهائي في مجال تقويمها للطائرات الاربع المعروضة عليها وبالتالي انتقاء الطائرة الفائزة في هذا التقويم التنافسي الذي قررت المشاركة فيه كل من شركتي **(جنرال دايناميكس)** بطائرة **(واي ف ـ ١٦)** و **(نورثروب)** بطائرة **(واي ف ـ ١٧) الاميركيتين** ممثلتين للولايات المتحدة وشركة **(ساب سكانيا)** بطائرة **(ساب ـ ٣٧ ـ فيجين)** ممثلة لدولة السويد وشركة **(داسو)** بطائرة **(ميراج ف ـ ١)** ممثلة لفرنسا · كانت الغاية من هذا التقويم التنافسي انتقاء طائرة معترضة مقاتلة حديثة تحل مكان طائرة (لوكهيد ستار فايتر ف١٠٤) القديمة المستخدمة في اسراب الدول الاربع التي مضى على خدمتها في اسراب الخط الاول للحلف قرابة الخمسة عشر عاما بعد ان تقرر اعادة تقويم قدرة الحلف الجوية القتالية · وقد جاءت نتائج المنافسة لصالح طائرة (واي ـ ف ١٦) الاميركية حيث قررت الدول الاوروبية المعنية التعاقد على شراء (٣٤٨) طائرة منها في صفقة واحدة مشتركة عرفت في الاوساط العالمية **(بصفقة القرن)** ، نظرا لكونها صفقة الطائرات الضخمة الاخيرة التي ستعقدها هذه الدول الاوروبية في السنوات المتبقية من هذا القرن · وتقرر بصورة اولية ان تكون حصة كل دولة من هذه الدول الاربع من هذه الطائرات على النحو التالي :

١ ـ **هولندا** (٨٤) طائرة + (١٨) طائرة تحت الطلب · ٢ ـ **بلجيكا** (١٠٢) طائرة + (١٤) تحت الطلب · ٣ ـ **الدنمارك** (٤٨) طائرة + (١٠) تحت الطلب ٤ ـ **النرويج** ٧٢ طائرة· وفي بداية عام ١٩٧٥ حذا سلاح الجو الاميركي حذو هذه الدول الاطلسية فقرر التعاقد مع الشركة المذكورة لتزويده بـ (٦٥٠) طائرة من النوع نفسه على ان يتسلم الدفعة الاولى منها في بداية العام ١٩٧٨ · ثم توالت الدول للتعاقد على شراء هذه الطائرة وكان من بينها اسرائيل التي أبدت استعدادها للحصول على (٢٥٠) طائرة من نوع (ف ـ ١٦) المتطورة يتم صنع (٥٠) منها في الولايات المتحدة ، على حين تتولى الصناعة الجوية الاسرائيلية (بيدك)(BEDEK) تجميع الـ ٢٠٠ طائرة الباقية في اسرائيل · وكانت الادارة الاميركية قد وافقت من حيث المبدأ في المحادثات التي تمت في اواسط شهر ايلول ١٩٧٥ بين (بيريز) وزير الدفاع الاسرائيلي وكبار المسؤولين الاميركيين في وزارتي الدفاع والخارجية في واشنطن على بيع اسرائيل عددا من طائرات (ف ـ ١٦) الاميركية المتطورة · وكانت بعض الاوساط الصحفية في الولايات المتحدة قد قدرت هذه الصفقة بـ ٤٠٠ طائرة الا ان مصادر اميركية واسرائيلية عادت وقدرتها بـ ٢٥٠ طائرة · وظلت هذه مجرد تكهنات صحفية الى ان اعلن (رابين) في ٦ـ١٢ـ١٩٧٦ ، ان اسرائيل ستحصل

بشكل اكيد على احدث طائرة مقاتلة من طراز (ف ــ ١٦) » واضاف « ان عـدد الطائرات وكيفية تسديد ثمنها مسالـــة لاتزال بحاجة الـى تحديـــد » • وفي ٧ـ١٢ـ١٩٧٦ اعلن مصـــدر مسؤول في واشنطن « ان الولايات المتحدة اعطـــت موافقتها المبدئية على تسليـــم اسرائيل طائـــرات مقاتلـــة من طـــراز (ف ــ ١٦) » غير أنه اضاف قائلا « انه لـــم يتخذ اي قرار محدد بشأن عدد الطائرات التي سيتم تسليمها لاسرائيل » •

لكن بعض الاوساط الاسرائيلية ذكـرت ان اسرائيل ربما تقلص عدد الطائـــرات في الصفقة المذكورة الى ٢٠٠ طائرة نظرا للزيادة التي طرأت على سعر كل طائرة • على اي حال ان التحدث عن الصفقة هو موضوع سابق لاوانه ومن المؤكد انمسألة البت نهائيا بأمرها يخضع لاعتبـــارات سياسية وفنية ، اذا اخذنا بعين الاعتبـــار

(١) السياسة الاميركية الجديدة التـــي درجت بعد حرب تشريـن اول (١٩٧٣) على اخضاع مبيعات الســـلاح لاسرائيل الى دراسة وتقويم دقيقين بالنظر لما لهذه الصفقات من تأثير على التطورات الجارية في المنطقة وعلى موازين القوى فيها •

(٢) التصريحات التي صدرت مؤخرا عن وزير الدفاع الاميركي والتي كشف فيهـا النقاب عن وجود متاعب فنيـــة في بعض اجهزة الطائرة (ف ــ ١٦) وتأثيرات ذلك السلبية على قدرتها القتالية حيث سيؤخر ذلك موعد تسليم الطائرة الى الدول التي تعاقدت على شرائها • والى حيـــن ورود تفصيلات اخرى تظل عملية بيع الطائرات (ف ــ ١٦) لاسرائيل رهنا بالتطورات المستقبلية •

اما بالنسبة للتطور الفني فهذا يعتمد بالدرجة الاولى علـــــى تطور المراحـل الفنية للمشروع • فهناك شواهد كثيرة في تاريخ صناعة الطائرات الحربية والمدنيـــة في العالم • ومن ذلك ان اية طائرة يتم انتاجها ويتم تحليقها في الجو لاتعتبر من الناحية الفنية جاهـــــزة للعمل الا بعد اجراء سلسلة طويلة من التجارب عليهـا لادخال التعديلات المناسبة والضروريـــة التي تتطلبها مراحل تطوير النموذج الاول منها • وقد يستغرق ذلك سنوات عديدة• فمثلا حلـــــق النموذج الاول لطائـرة (نورثروب ــ ف ــ ٥ أ) 'NORTHROP F-5 A' الاميركية لاول مرة في الجو في العـــام ١٩٥٩ • ومنذ ذلك العام والشركة تدخل التعديل وراء التعديل على النموذج وتذلل العقبات التي كانت تبرز امامها من وقت لاخر ، ولم تدخل الطائرة في خدمـــة اسراب القتال العاملة في كل من تايوان وايران والحبشة والمملكة المغربية وكوريا الجنوبيه وكندا وغيرها من الدول الحليفة لاميركا في العالم الا في بداية العـــام ١٩٦٤ • وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف شركة (نورثروب) عن اجراء التجارب على الطائرة • وفي العام ١٩٧٢ اعلنت الشركة عن انتاجها نموذجا جـــديدا من طائرة (ف ــ ٥ أ) اكثـــر تطورا هو النموذج (ف ــ ٥ اي) (F - 5 E)

وهكذا نرى ان انتاج طائرة (ف ــ ٥) وتطويرها استغرق قرابة ١٨ عاما حتـى تمكنت الشركة من وضعهـــا للعمـل بالمواصفات والشـــروط القتاليـــة التي تتطلبها المواجهات الحديثة • وهذا ينطبق على كافة الطائرات الحربية والمدنيـــة والشواهد كثيرة على ذلك • لذلك ليس مستبعدا على الاطلاق ان تضطر شركـــة (جنرال داينامكس) الى اجراء العديـد من التجارب على طائـــرة (ف ــ ١٦) (وهذا اصبح في حكـــم المؤكد) وقد يضطرها ذلك الى ادخال تعديلات اساسية على النموذج الحالي •

تجمع هذه الطائرة معظم المزايا الفنية والتكتيكية الموجودة في طـــائرة التفوق

الجوي الـ (ف ــ ١٥) لكنهـــا تختلف عنها في بعض النواحي التي لاتاثيـــــر لها اطلاقا على قدرة الطائرة القتالية · ان الاختلافات تشمل النواحي التالية :

ــ وزنها فارغة
ــ وزنها بحمولة قصوى
ــ السرعة على مستوى سطح البحر
ــ السرعة القصوى على ارتفاع ٣٦،٠٠٠ قدم
ــ قوة الدفع
ــ التسليح
ــ المدى التكتيكي (نصف دائرة)
ــ ثمن كل طائرة

طائرة (ف ــ ١٥)

(١٤٧ر٢٦) رطل (٨٦٠ر١١) كغ
(١٢٣ر٥٤) رطل (٥٥٠ر٢٤) كغ

(٩١٥) ميل / الساعة (٢ر١) ماك
(١٦٥٠) ميل / الساعة (٥ر٢) ماك

محرك واحد (٠٠٠ر٢٥) رطـــل مع حارق اضافي

هجوم ارضي ــ حمولة خارجية
(١٥٠٠٠) رطل (٦٨٠٤) كغ
الاعتراض ــ (٩) صواريخ موجهة
(١٢٠ر١) ميلا (١٨٠٠) كم
حوالي ١٨ مليون دولار

طائرة (ف ــ ١٦)

(١٠٠ر١٤) رطل (٦٣٩٥) كلغ
(٠٠٠١ر٣٣) رطل (٩٦٩ر١٤) كغ
(٩١٥) ميل / الساعة (٢ر١) ماك (متشابهة)

(١٣٢٥) ميل / الساعة (٢) ماك
محركين قوة كل واحد (٢٥٠٠٠) رطل مع حارق اضافي لكل منهما ·

هجوم ارضي ــ حمولة خارجية
(٠٠٠ر١١) رطلباوضاع طبيعية(٢٠٠ر١٥) رطل بعد تخفيف حمولتها من الوقـــود الداخلي ·

(٤) صواريخ موجهة (يمكن زيادتها في المستقبل بعد ادخال التعديلات)

(٧٢٠) ميلا (١٢٩٥) كم
حوالي ٦ ــ ٧ ملايين دولار ·

ان الاختلافات في السرعة تظل مع ذلك غير ذات قيمة في الاشتباكـــات الجوية التقليدية · اذا اخذنا بعيـن الاعتبار ان الاشتباكات الجوية التقليدية عادة تنحصر بين سرعة (٨ر٠) ماك و(٤ر١) ماك ولا تحتاج الى اكثر من ذلك · كما ان مهـام الاعتراض لا تتطلب اكثر من سرعة (٨ر١) ماك ذلك لانه لكل طائرة مقاتلـــة قيودا تحدد سرعتها من وضع الى اخر · لهذا ان ماتفقده طائرة (ف ــ ١٦) في مجال تعوضه في مجال اخر ، وكما نرى فـــان تسليحها من الصواريخ هو اقل من تسليح (ف ــ ١٥) وقد يبدو لاول وهلة انه عامل سلبي يحد من قدرتها كطائرة معترضـــة ومقاتلة · لكن الحقيقة ان قدرة طائـــرة (ف ــ ١٦) على المناورة في الجو كبيرة جدا واكبر من غيرها بكثير نتيجة لبعض التصحيحـــــات في بعض اجزاء هيكلها واجهزتها · وهذا مايمكنهـــا من التفوق على غيرها من الطائرات في الجو بسهولة ومثال على ذلك ·· تزويدها بقلابـــــات هوائية امامية (Leading Edge Flaps) تعمل بصورة اتوماتيكيةوتلقائية تبلغسرعة حركتها ٢٥ درجة / الثانية وهذه تمكنها من المناورة بشكل احسن في الاوضـــاع التي يضطر فيها الطيار في القتال الجوي اللجوء الى المناورات المتقدمــــة · ان التقنية الاميركية هي الوحيدة تقريبا التي لجأت الى استخدام القلابات الامامية في طائراتها المقاتلة كعامل مساعد للطيار في مناوراته القتالية وهذه توجد في اكثر من طائرة مقاتلة اميركية ومنها (فــ٥ اي) · وان وجدت في بعض الطائرات الاخـرى الاوروبية او السوفياتية فانها لا تستخدم على نطاق واسع ، على عكس الاميركيين الذين يعتبرون هذا التصميم اساسيا في

اكثر طائراتهم المقاتلة المتقدمة . ان طائرة (ف ـ ١٦) هي طائرة تفوق جوي خفيفة محدودة المدى ، على حين تعتبر الـ (ف ـ ١٥) طائرة تفوق جوي ثقيلة بعيدة المدى . وبالاضافة الى ذلك فان طائرة (ف ـ ١٦) هي طائرة محدودة المدى ايضا في عمليات الدعم الارضي التكتيكي ، على عكس طائرة (ف ـ ١٥) التي تعتبر طائرة معترضة مقاتلة بعيدة المدى في الدرجة الاساسية والتي يمكن في بعض الحالات قيامها ببعض المهام التكتيكية خارج نطاق جبهات القتال المعروفة . من جهة اخرى فان تكاليف تشغيل طائرة (ف ـ ١٦) هي اقل بكثير من تكاليف تشغيل طائرة (ف ـ ١٥) يضاف الى ذلك ان مدة اعداد وتجهيز الاولى هي اقل ايضا منها في الثانية .

لقد لجأت الى المقارنة بين الطائرتين المذكورتين لسببين رئيسيين الاول لان العدو حصل فعلا على طائرة (ف ـ ١٥) وباشر في تشكيل اسرابها ومن المتوقع ان يحصل على طائرة (ف ـ ١٦) ايضا ولكن ذلك لن يتم قبل عام ١٩٨٠ على الارجح . والثاني ان هاتين الطائرتين تعتبران من اكثر الطائرات تقدما بين الطائرات المقاتلة المستخدمة في العالم من ناحية التصميم والتجهيز والقدرة على العمل والمناورة .

المزايا الفنية والتقنية المستحدثة

لقد استحدثت في طائرة (ف ـ ١٦) تصاميم عديدة حديثة متقدمة شملت بعض اجزاء هيكلها واجهزة القيادة والرادار المختلفة والاجهزة المساعدة الملاحية والاخرى ، التي تساعد الطيار في بعض مهامه الهجومية ضد الاهداف الارضية .

جهزت الطائرة بجهاز لقيادتها في الجو يعمل كهربائيا لتوجيه اسطح القيادةالتي تعمل بواسطة زيت الهيدروليك ، وهذا غير متوفر في الطائرات الاخرى التي تعمل اجهزة قيادتها بواسطة اسلاك معدنية وزيت الهيدروليك . كما انه لا يوجد للطائرة عامل مساعد يعمل في حالات الطوارىء بواسطة الاسلاك المعدنية ،انما اوجدت (٤) قنوات كهربائية كتدبير احترازي تعمل بصورة اوتوماتيكيةوتلقائية حال تعطل القناة الكهربائية الرئيسية .

اما بالنسبة لمقصورة الطيار فقد جهزت بمقعد مائل ٣٠ درجة الى الخلف وهذا يعطي الطيار قدرة اكبر للعمل في المناورات التي تكون فيها قوة الجاذبية الارضية Force (- G)في اعلى الدرجات التي بامكان الطيار تحملها ، كما ان هذه الوضعية للمقعد تعطي الطيار مجالااوسع للرؤية الخلفية وهذه تمكنه في مناورات القتال الجوي من مراقبة الاهداف المعادية القادمة من الخلف .

اما بالنسبة لمحرك الطائرة نوع (برات اندوتيني ـ ف ١٠٠ ـ بي دبليو ـ ١٠٠) (Pratt and Whitney - F 100 - PW - 100) فقد تم انتقاؤه لاعطاء طائرة (ف ـ١٦) نسبة دفع الى وزن (٥ر١ الى ١) وهي نسبة جيدة جدا تبين قدرة الطائرة على زيادة سرعتها (تسارعها) . اذا علمنا ان النسبة المثالية في الطائرات المقاتلة يجب ان تكون (١ ـ ١) على ان لا تزيد فيها نسبة الوزن على الدفع .اما اذا زادت نسبة الدفع على الوزن فهذا مؤشر ايجابي يبرز قدرة الطائرة على العمل الجيد .

وعلى الرغم من الاجهزة المتقدمة المصممة في الطائرة الا انه روعي ان تكون في حدود المعقول حتى لا يزيد ذلك من وزن الطائرة ورفع تكاليف صنعها وبالتالي زيادة سعر مبيعها .

النظرة الاسرائيلية للطائرات المتقدمة الحديثة

ان طائرة (الفانتوم) تشكل اليوم العامود الفقري في اسراب القتال التي

تشكل خط القتال الاول في سلاح الجو الاسرائيلي ، تعاونها في مهام الدعم الارضي القريب طائرة (سكايهوك) وطائرات (كفير) التي تنتجها محليا الصناعة الجوية الاسرائيلية · ونظرا للتحسينات المتقدمة والمتطورة التي ادخلت على صناعة الطائرات الحربية في العالم والتي شملت الاجهزة المستحدثة في الطائرة والهيكل والمحرك والسرعة والحمولة الخارجية ، فقد ادركت قيادة سلاح الجو الاسرائيلي – خاصة بعد التحسن الكبير الذي طرأ على اوضاع القوات المسلحة العربية · ان هذه الاوضاع المستجدة تفرض عليها الحصول على طائرات متفوقة في كافة النواحي على مثيلاتها المستخدمة في الاسلحة الجوية العربية حتى تتمكن من التصدي للطائرات المعادية بفاعلية كبيرة بحيث يعطيها ذلك قدرة اكبر على العمل في الجو وبالتالي يعطيها قدرة للتأثير على المعارك الارضية والبحرية في المجالين الهجومي والدفاعي· وكان ذلك يعني من الوجهتين القتالية والفنية الحصول على طائرات التفوق الجوي الحديثة المجهزة بمعدات الكترونية متقدمة ومتطورة جدا ، وهي عوامل هامة تعطي الطائرة قدرة اكبر للاسهام بالمهام القتالية الصعبة ، وعلى الاخص تلك التي توجه ضد الاهداف الارضية والبحرية والجوية المعقدة ·

لقد بدأت قيادة سلاح الجو الاسرائيلي تواجه تحديات جديدة بعد حرب تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٣ على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي لم نألفها في السابق · فلقد ضمت الى الترسانة الجوية الحربية العربية طائرات حديثة لا تقل مقدرة ونوعية عن تلك التي حصلت عليها اسرائيل مؤخرا · كما ان قيادات شابة برزت على المسرح العربي · يضاف الى ذلك ان نوعية الطيارين والفنيين قد تحسنت كثيرا واصبح على الطيار الاسرائيلي ان يواجه ولاول مرة منذ المعارك الجويةالتي دارت في فلسطين في المراحل الاولى لحرب عام ١٩٤٨ خصما مدربا ومثقفا قادرا على قيادة طائرته والسيطرة عليها في اصعب المناورات الجوية ، ومستعدا لمهاجمة اية اهداف ارضية او بحرية تحددها له قيادته مهما بلغت تعقيدا ·

لذلك لجأت القيادة الجوية الاسرائيلية نظرا لهذه المعطيات ومعطيات جديدة اخرى دخلت على الموقف ، الى تبني نظريات متقدمة في محاولة منها لمعالجة هذه الاوضاع الجديدة · ومن ضمنها استخدام طائرات التفوق الجوي مثل (ف – ١٥) و (ف – ١٦) على امل ان تتمكن بواسطتها من المحافظة على الهوة الكبيرة التي ظلت قائمة طيلة سنوات الصراع التي سبقت حرب تشرين (تقلصت بعض الشيء بعد هذه الحرب) ، كحاجز يفصل بين قدرة سلاح الجو الاسرائيلي المتفوقة في العمل وقدرة الاسلحة الجوية العربية المقصرة في العمل · فمثلا ان قدرة طائرتي (الفانتوم) و (كفير) الاسرائيلية على اعتراض الطائرات الحديثة المتقدمة التي ضمت الى الترسانة الجوية العربية مثل (ميراج – ف ١) و (ف – ٥ اي) و (ميغ – ٢٣) و (ميراج – ٥) وغيرها هي محدودة في ظل المستجدات التي طرأت وتطرأ على الموقف العسكري من وقت الى اخر وفي ظل تعدد جبهات القتال دخول الحدود ومساحة الارض الكبيرة التي يطلب من سلاح الجو الاسرائيلي العمل فيها ،خاصة وانه يواجه عدوا يتفوق عليه في عدد الطائرات بنسبة تقارب ٢ الى ١ · واذا كان نشاط سلاح الجو الاسرائيلي في الماضي قد اقتصر على اسقاط الطائرات العربية في الجو وتقديم الدعم للقطعات البرية الاسرائيلية من جهة ومهاجمة القطعات البرية العربية من جهة ثانية ، وفي الغالب كانت نتائج ذلك باستمرار

مضمونة وايجابية ، فانه اليوم يحتاج الى مضاعفة جهوده الى حد كبير ليتمكن من الحصول على مثل هذه النتائج التي اصبحت الى حد كبير غير مضمونة ومؤكدة · لذلك رات اسرائيل ان توسع مفاهيمها في مجال استخدام الطائرات المقاتلة وان توزع الادوار بين طائرة واخرى · فطائرة (فانتوم) لم تعد اليوم الطائرة السحرية التي بامكانها القيام بشتى المهام ، ان قدرتها اليوم تقتصر فقط على مهام الدعم الجوي للقوات البرية مضافا الى ذلك اسناد بعض المهام الاخرى اليها اذا ما سمحت الاوضاع العسكرية بذلك ·

لهذا وجدت قيادة سلاح الجو الاسرائيلي نفسها مضطرة للحصول على طائرات حديثة قادرة على التفوق في القتال الجوي على الطائرات العربية في المعارك الجوية التي من المتوقع حدوثها فوق جبهات القتال ، وحتى تتمكن بواسطتها من تحقيق التفوق الجوي وبالتالي – ان امكنها ذلك – السيطرة الجوية المطلقة فوق سماء المنطقة كما تم لها ذلك بعد حرب عام ١٩٦٧ · فكان لا بد من الحصول على طائرتي (ف – ١٥) و (ف – ١٦) حيث تأمل هذه القيادة ان تتمكن بواسطتهما من المحافظة على ميزان القوى الجوي وابقائه على حاله ، الى ان تتمكن من ادخال اسلحة جديدة الى ساحة الصراع – كما اعلن ذلك وزير دفاعها الحالي (شمعون بيريز) بقوله : «اننا نقترب بسرعة من عصر سيقلل فيه توازن الرعب بين اسرائيل وجيرانها من البغضاء التي تسود بينهم ويعطي بعض التوازن للمنطقة » ويمضي ليقول : «اننا لسنا بعيدين عن عصر يمتلك فيه الجانبان صواريخ غير تقليدية متعددة الرؤوس وعندها سيتم تحقيق توازن الرعب هذا في خلال التسعينات او في نهاية هذا القرن » ·

لذلك نستطيع ان نحدد المزايا المطلوب توفرها في اية طائرة مقاتلة تسعى اسرائيل للحصول عليها مستقبلا ويمكن تلخيصها في المعادلة التالية :

(سرعة عالية في حدود (٢ – ٥ر٢) ماك + مدى تكتيكي كبير في حدود دائرة نصف قطرها (٧٠٠ – ١٠٠٠) ميل + مدة طويلة للتحليق في الجو (٤ – ٦) ساعات + تسليح متطور في مجال الرشاشات والصواريخ الموجهة جو – جو وجو – ارض + حمولة خارجية كبيرة تقع في حدود (٠٠٠ر١١ – ٠٠٠ر١٥ – رطل + اجهزة تقنية متطورة هجومية وملاحية) · وقد وجدت اسرائيل توفر اكثرها الى حد ما في طائرة (فانتوم) والى حد كبير في طائرة (ف–١٥) و (ف – ١٦) ·

الرائد الطيار حسين عويضة

مراجعات

(موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية)

دار الاهرام ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية القاهرة ـ ١٩٧٥

بعد جهد متواصل محموم شبه فردي زاد عن ثلاثة اعوام صدرت هذه الموسوعة الرائدة · وكان التصور ان هذا العمل سيثير شيئا من الجدل ان لم ينجح في اثارة الكثير من الاهتمام · ولكن ها قد مر اكثر من عامين واقتنته معظم المكتبات ولم يعلق عليه احد بخير او بشر سوى بعض المجلات الاسرائيلية ·

وهكذا تحقق توجس المؤلف من ان تكون الموسوعة «قد ولدت ميتة» على حد تعبيره· وربما يرجع ذلك الى ان الناس عادة لا « يقراون » الموسوعات وانما « يرجعون » اليها بين الحين والاخر ·

ولكن هذا التبرير وحده لا يكفي · فهذه موسوعة عن قضية متفجرة مصيرية في الصراع العربي الاسرائيلي ، ثم انها رؤية جديدة لهامغامراتها الفكرية المثيرة· وحتى لو افترضنا انها خلت من هذين العنصرين فانها تثير من الاسئلة بقدر ما تجيب عليها ·

مثال ذلك : هل يجوز لمؤلف بمفرده ان يكتب موسوعة في موضوع ما ـ خاصة اذا كان بالغ التعقيد ؟ وماذا عن المقدمة التي يحاول فيها المؤلف اعادة صياغة المنهج البنيوي بما يتفق مع الرؤية الماركسية للتاريخ ، ناهيك ان يكمل هذه الرؤية بالمنهج البنيوي ؟

واهم من ذلك كله ان الموسوعة في علاجها للمفاهيم والمصطلحات الصهيونية الاسرائيلية حاولت ان تكون تعبيرا عن كل المحاولات العربية العلمية السابقة لمعالجة الظاهرة الصهيونية فهل نجحت في ان تصل الى القانون الذي يحكم بناء الصهيونية كفكرة او نظام سياسي ؟

ولكن لنؤجل الحديث عن كل هذا الى حينه ·

تقع الموسوعة في حوالي ٥٠٠ صفحة مطبوعة بالبنط الصغير ، حاوية اكثر من ٦٠٠ مدخل (مصطلح) تغطي كافة المصطلحات والاعلام الصهيونية والاسرائيلية ، وكذلك المصطلحات اليهودية التي قد تكون لها علاقة مباشرة بالصراع العربي الاسرائيلي ، وبالادب الذي كتب عن الموضوع سواء بالعربية او باللغات الاخرى . والمداخل تتفاوت طولا وقصرا حسب علاقتها بموضوع الصراع . فالمدخل عن « الطاليت » قصير اذا ما قورن بمدخل « الشعب المختار » لان الاخير له علاقة مباشرةبالفهم الصهيوني للواقع والتاريخ . والموسوعة علاوة على ذلك تحوي صورا كثيرة تسهم في تقريب الموضوع لذهن القارىء العربي .

وتضم الموسوعة ملحقا يسميه المؤلف « التاريخ المتزامن » وهو عبارة عن جدول بأهم الاحداث التاريخية في العالم وما يقابلها زمنيا من احداث خاصة بالاقليات والتجمعات اليهودية . ويبدو ان مهمة هذا الملحق هو ان يبين عدم انفصال الوجود اليهودي عن الوجود الانساني عامة بعكس ما يزعمه المفكرون الصهاينة .

ولقد لاحظت في نهاية الامر ـ بشيء من الدهشة ـ ان لهذا التاريخ المتزامن فضلا في اعطاء الاحداث حجمها الطبيعي والنسبي . فمثلا مذبحة « كيشينيف » الشهيرة في روسيا التي تتحدث عنها التواريخ الصهيونية ليسحدثا فرديا موجها ضد اليهود وحدهم وانما هو جزءمن القمع العنصري القيصري لكل الاقليات غير الروسية (وكل التجمعات الثورية ايضا !) بغض النظر عن انتمائها الديني او العرقي .

فاذا كان عدد القتلى في حادثة كيشينيف (١٩٠٣) قد بلغ ٤٨ فان عددهم في موكب الاب جابون (عام ١٩٠٥) بلغ ٧٠ قتيلا . ثم ان الملحق يوضح حقائق تثير التساؤل، منها ان الاحتلال البريطاني لمصر وقع في نفس العام الذي بدأت فيه الهجرة الصهيونية الى فلسطين .

يبقى بعد هذا ملحقان آخران الاول اسمه « الفهرس الموضوعي » الذي رتب المصطلحات ترتيبا منطقيا موضوعيا وليس هجائيا . (بالمناسبة اكتشفت مع الاسف ان ترتيبنا الابجدي ـ ابجد هوز ... الخ ـ هو نفس ترتيب الحروف العبرية وليس العربية) . وقد رتب المؤلف الموضوعات ككل بدورها ترتيبا منطقيا بحيث يمكن قراءة الموسوعة ككتاب . (بهذا ربما يكون هذا الفهرس الموضوعي هو الاول من نوعه . فكل الموسوعات ترتب المواد ترتيبا موضوعيا ولكنها في الوقت نفسه ترتب رؤوس الموضوعات ذاتها ترتيبا هجائيا . اما هنا فالترتيب منطقي موضوعي) . وفي نهاية الموسوعة يوجد فهرس انجليزي ـ عربي بكل المصطلحات التي وردت فيها ليتمكن القارىء من استخدام الموسوعة كقاموس يسترشد به اثناء قراءته اي كتاب بالانجليزية كما يمكنه ايضا استخدامها كموسوعة في نفس الوقت .

وقد استهل الدكتور المسيري الموسوعة بمقدمة طويلة على طريقة ابن خلدون تتجاوز الخمسين صفحة حاول فيها ان يضعها في مكانها من الموسوعات التي سبقتها باللغات الاخرى . وقد بين حقيقة غريبة وهي ان هذه هي اول موسوعة يكتبها مؤلف غير يهودي (بأية لغة) عن موضوع اليهودية والصهيونية واسرائيل . ثم ينتقل المؤلف بعد هذا الى موضوع المصطلح الصهيوني وترجمته محاولا ايضاح الاطار اللغوي الايديولوجي الذي اتبعه في ترجمة المصطلحات . ذلك ان المصطلح الصهيوني ليس مجرد مصطلح وصفي وانما هو مشحون ايضا بالدلالات والافتراضات . فمصطلح «الشعب اليهودي»

يفترض للوهلة الاولى ان اليهود يكونون شعبا وبالتالي يصبح البرنامج الصهيوني شيئا طبيعيا بل وتقدميا · لهذا السبب ذاته لم يذكر المؤلف هذا المصطلح الا في مجال محاولة تفنيده مستخدما بدلا منه اصطلاح « الاقليات اليهودية في العالم» · كما يفترض اصطلاح « اليسار الصهيوني» او «الصهيونية الاشتراكية» امكانية التقاء الصهيونية والثورة ولذلك استخدم المؤلف اصطلاح « الصهيونية العمالية » ليبتعد بالمصطلح عن عالم التقييم ويقترب به من ارضية الحقائق الصلبة · بل ان المؤلف استحدث بعض المفردات العربية للتمييز بين الظواهر المختلفة التي يحاول المصطلح الصهيوني ان يؤكد وحدتها باستخدام كلمة واحدة للاشارة اليها · وهكذا فانه يتحدث عن دولة اسرائيل الحديثة وعن مملكة يسرائيل القديمة · وبالتالي يتحدث عن الاسرائيليين واليسرائيليين للتمييز بين بنائين تاريخيين لا يربطهما سوى المصطلح الصهيوني · ولكن هذا لم يمنعه من ان يقع في المحظور، فقد استخدم كلمة «الفلستيون» بالتاء بدلا من الطاء في معرض اشارته الى سكان فلسطين القدامى ، وبذلك افقد هؤلاء — بحرف واحد — صلتهم بالبلاد التي استمدت فلسطين اسمها منهم رغم انهم وفدوا من جزر اليونان اي انه كان اولى ان يسميهم « الفلسطيون » من قبيل الانصاف الموضوعي التاريخي (لا القومي الانساني) · ولا يشفع للمؤلف هنا انه حاول استخدام التاء بدلا من الطاء في ترجمة مصطلح Philistines لابعاد الفلسطينيين عن شبهة دلالة هذه الكلمة التي « اصبحت مرادفة للشخص محدود الافق والثقافة والمنهمك في الاهتمام بالامور المادية » (صفحة ٢٨٤) · ثم انه اختصر هذا المصطلح الى حد انه اغفل حقيقة هامة وهي ان « الفلستيين » حكموا كل ارض فلسطين بما في ذلك المملكة العبرانية اربعين عاما على الاقل (انظر الاصحاح ١٣ في سفر القضاة بالتوراة) واكتفى المؤلف بالقول انهم استقروا في جنوب الشاطىء الفلسطيني « وتمكن الملك داود من التغلب عليهم ، الا انهم سرعان ما استعادوا استقلالهم » · واذا لاحظنا ان المؤلف افرد لهم في الموسوعة عمودا واحدا (مثلما افرد لشركة « العال » — ص ٨٢ نفس المساحة تماما) لحق لنا القول انه لا عذر له في هذا الاختصار ·

اما الجزء الاخير من المقدمة فيعالج قضية المنهج · ولعل هذا الجزء من المقدمة هو الاضافة الحقيقية · ومناقشة المنهج تستحق مقالا مستقلا·والحق انها استأثرت بمعظم وقت الندوة التي اقامها البرنامج الثاني (الثقافي) باذاعة القاهرة في فبراير (شباط) ١٩٧٥ فور صدور الموسوعة وشارك فيها عدد من كبار خبراء الفكر السياسي · وحسبنا ان نشير هنا الى انه منهج يحاول دراسة العلاقة الجدلية بين « الشكل اليهودي » المحدد للظاهرة الصهيونية « ومضمونها الامبريالي » العام·

ويختتم المؤلف المقدمة بجزء عنوانه « مقدمة لدراسة اية ظاهرة صهيونية (اسرائيلية) » وهي محاولة لتحديد القوانين الاساسية التي تتحكم في الظاهرة الصهيونية ككل · ولعل اهم ما في هذا الجزء هو نظرية المحاور الثلاثةالتي تدور حولها الظاهرة الصهيونية وهي : جيتو شرق اوروبا ، والمصالح الامبريالية في الشرق الاوسط،والبناء الاقتصادي السياسي الاسرائيلي · ثم يختم المقدمة بقوله : «اذا ما حللنا اسرائيل الى عناصرها الاولية لوجدنا معظمها مشتركا مع ظواهر اخرى وبعضها مقصور على اسرائيل · وكل هذه العناصر بتكوينها للبيئة الاسرائيلية هي مصدر خصوصية هذه الظاهرة · والدارس لا بد ان يرى الظاهرة في خصوصيتها

وفي تفاعل هذه العناصر كلها ، وهو تفاعل جديد كل الجدة لانه لن يقدر لكل هـــذه العناصر المشتركة وغير المشتركة ان تتواجد داخل بيئة اخرى » ٠

بعد ذلك قسم المؤلف الداخل الى اربعة اقسام : اليهودية ، الصهيونية ، واسرائيل ثم الحركات المعادية للصهيونية ٠

ولعل اهم ما في الجزء الخاص باليهودية هو المدخل بمصطلح « التاريخ » فهنا يحاول المؤلف ان يميز بين ثلاثة مستويات مـن التاريخ : التاريخ المقدس ـ وهو القصص التوراتية المختلفة ، ثم تاريخ العبرانييـن او اليسرائيليين القدامى ، واخيرا تواريخ الاقليات اليهودية وهو الواقـــع التاريخي الحالي للوجود اليهودي ٠ بعد هذا يحاول المؤلف ان يفسر اسباب ظهور الصهيونية كايديولوجية معادية للتاريخ، ترفض الواقع التاريخي في فلسطين وواقـــع الاقليات اليهودية في المنفى٠ ويتضح منهجه الجدلي في هذا التفسير فهو يتعرض للتصويـــر التوراتي التاريخي وخاصة فكرة «الماشيح» او المسيح المخلص Messiah والعودة الى صهيون ، وهي فكرة يصفها بأنها دينية قومية زاد الشتات اليهودي حدتها ، ولكن الفكرة تظل مجرد فكرة الى ان تكتسب بناء تحتيا ، وهذا البناء التحتي هـو اشتغال الاقليات اليهودية في اوروبا بالاعمـــال التجارية والمالية ـ وهي اعمال تتســـم بالهامشية في المجتمع الزراعي ٠

اما الجزء الخاص بالصهيونية فقـــدم تصنيفا للمدارس الصهيونية المختلفـــة والنظام التصنيفي السائد الذيهو بالمناسبة نظام مثالي قررته الدراسات الصهيونيـة التي تحاول تعمية الواقع اكثرمن تنويره٠ اما النظام التصنيفي الذي اقترحه الدكتور المسيري فيمتاز بأنه يحاول الوصول الى اساس واقعي لكل المقولات حتى يمكن فهم اصولها وتطورها وعـــلاقتها بالقـــوى المتصارعة ٠

ويعالج الجزء الخاص بالحركة التعاونية اصولهـــا البرجوازية الصغيرة (وليس العمالية) وكيف ان الهدف الاساسي منها هو الاستيطان الاحلالي ٠ وقد طبق المؤلف منهجه البنيوي فيالمدخل الخاص بالاحزاب الاسرائيلية وتوصل في النهاية الى انهـــا ليست سوى مؤسسات استيطانية احلالية تقوم ايضا بدور الاحزاب ولكنها ليست احزابا بالمعنى المتعارف عليه ٠

ولعل من اهم اسهامات هذا العمل انه يحطم شيئا من الرهبـــة التـــي تحيط بالصهيونية واسرائيل في العقل العربـي وهي رهبة مصدرها الدعاية الاسرائيليـــة وبعض الدراسات الادبية « الموضوعية » التي تكاد تحمل شعار « اخف نفسك » بحجة شعار « اعرف عدوك » !

ومن هذا القبيل الكتب التـــي تتعرض للمخابرات الاسرائيلية والتي اثبت كاتب الموسوعة ان رصيد هذه المخابرات مـــن الفشل اكثر كثيرا من رصيدها في النجاح وان نجاحها اساسا يكمن فـي الاعمـال الفردية اكثر منها في العمليات المركبة (لعل هذا يفسر تحول المخابرات الاسرائيلية بعد حرب ٧٣ من نظام خلايا التجسس الى نظام تجنيد العميل الواحد بعد ان انهارت معظم الخلايا الجماعية) ٠

ومن هذا القبيل ايضا المادة الخاصـة بمسادا التي تبين ان التفسير الصهيوني الشائع لهذه الواقعة لا اساس له في الواقع وانها اسطورة يعتقد المؤلف ان الصهيونية تستخدمها لارهاب الاخرين باتجاهاتهـــم الشمشونية الانتحارية ٠

ربما كان التهديد باستخدام هذا السلاح الارهابي الانتحاري صحيحا ولكن السؤال: هل هذا السلاح موجود اصلا ؟

اي هل هناك فعلا ما يسمى عقـــدة مسادا ؟

يقول المؤلف ان اليهود كانوا اساتذة في « فن البقاء » بينما يقول المفكر الفرنسي

اليساري اليهـــودي ماكسيـم رودنسون المعادي للصهيونية ان التاريخ اليهـودي ·فل بنزعات الانتحار الجماعي · وهذا :دنتحار بالجملة كان لازما لبقاء النوع مثلما تفعل الفئران عندما تتكاثر الى حد يهددها بالموت جوعا فلا يكون إمامهـــا سوى ان تغرق الاغلبية نفسها كي تعيش الاقلية وتحول بذلك دون انقراض النوع · ويؤكد ذلك ان « الوعي الزائف » الغيبي الذي يتصف به الفكر الصهيوني لا يتعارض مع سمته « النخبوية » التشوية لانــــه يستهدف « البقاء للاصلح » · وليس كثيرا على اولئك اليهود الذين يجمدون التاريـخ لحساب الجغرافيا والتوسع ان يحثهـــم تفكيرهم الغيبي ووعيهم الزائف على قياس الامور قياسا خاطئا بمعيارين · وازدواج المعيار سمة معروفة بين الصهيونيين عامة لانه يستمد جذوره من السمة النفسيـــة المشتركة بين اليهود جميعا وهي تقسيـم البشرية الى نوعين : يهـــود واغيار · وهكذا ينتهي احساسهم دائما بالتميز الـى رفض مبدأ احتمال الهزيمة ، ومن هنـــا تأتي كارثة الانتحار دون وعي او ارادة · يوصلنا هذا الى مسادا وهي تقع في الجزء الاول من الموســـوعة الخاصة باليهود واليهودية ، فسأستكمل الحديـث عمـا يستحق النقد فيها على سبيل المثال :

١) في صفحة ١٤١ تقول الموسوعـة ان تدوين التلمود بدأ مع بداية العصـر المسيحي ولكنها في الصفحة التالية مباشرة تقول ان كتابة المشناه (وهي احد جزءي التلمود) قد بدأت عام ٢٠٠ قبل الميلاد ·

٢) رغم ان الفهرس الموضوعي اشار الى « عيد الفصح او الفســـح » الا ان الاكتفاء باستخدام كلمة « الفصح » فقط داخل الموسوعة (ص ٢٤٠) ليس له تفسير فاليهود العرب يشيرون الى هذا العيـــد باسم « الفسح » للتمييز بينه وبين عيـــد الفصح المسيحي · فالاول هو الاحتفـال بذكرى خروج اليهود من مصر ، بينمـا الثاني هو ذكرى صعود المسيح الى السماء والتوقيت بين الاثنين مختلف ·

٣) في الحديث عن طائفة السامريين (٢١١) اغفل المؤلف ذكر اسم كتابهـــم المقدس وهو « الترجوم » كما انه ذكر ان السامريين « بحكم دينهم ليسوا صهاينة » مع ان هذه الطائفة التي ظلت تعيش فترة طويلة مع العرب في نابلس وبعد انشـاء اسرائيل قد تحولت بعد احتـــلال ١٩٦٧ للضفة الغربية واصبحت تشجع استيطان اليهود في هـــذه المنطقة · والاستيطان الاحلالي التوسعي هو من ابرز مقومـات الدعوة الصهيونية · ثم انه اغفل الاشارة الى اختلافهم الواضح في شروط الزواج والمحرمات وموعد نهاية العالم وظهـــور الماشيح خصوصا وانهم الطائفة الوحيـدة التي يمكن اعتبارها استمرارا للعبرانيين القدامى في مملكة يسرائيل · وهذه الميزة كانت تستحق افراد اكثر من نصف عمود لهم ـ رغم ضآلة عددهم ·

ننتقل الى الجزء الثاني من الموسوعة وهو الخاص بالصهيونية · ولعل اهـم ملاحظة تستحق الاشارة هنــــا هو ان الموسوعة قـــد اشـارت الى « الاندماج » Assimilation على انها مرادفة في نظر الصهيونية لمصطلح « الانصهار » Dissolution رغم الفارق بينهما من حيث ان الاندماج « هو ان يصبـــح الانسان جزءا مـــن كل دون ان يفقد بالضرورة صفاتـــه الخاصة ·· امـــا الانصهار والذوبان فهما يفترضان فقدان الجزء لسماته الخاصة · » ولكن لماذا لم يكن هناك اي ذكر للبديـــل الصهيوني المشهور في هذا الصدد وهـــو مصطلـح Intergration not assimilation اي (التكامل وليس الاندماج) الذي ينصح به الصهيونيون اليهود خارج اسرائيل ؟؟ بل لماذا لم يشر الى مصطلح هام آخر في هذا

الصدد وهو «الاستيعاب» Absorption رغم ان الرؤية النقدية التي هي سمة الموسوعة كانت تقضي بالاشارة الى فشل هذا الاستيعاب في داخل اسرائيل نفسها حتى لدى الصابرا بدليل ان الاغلبية الساحقة من النازحين عنها هم من مواليد اسرائيل نفسها · فكيف يكون اذن حال اليهود الشرقيين بل السوفيات ايضا ؟

كذلك لم يشر المؤلف في القسم الخاص « بمعاداة السامية » الى القهيلا وانما اشار الى (القهال) في قسم اخر ومع ان الكلمتين تحملان نفس معنى (جماعة او جمعية) في الاصل الا ان كلمة القهيلا بعد قيام اسرائيل اصبحت منظمة سرية قوية داخل المؤتمر اليهودي العالمي · اما عن الجزء الثالث الخاص باسرائيل فأسوق على سبيل المثال كلمة « اسرائيل » نفسها· صحيح ان الموسوعة رؤية نقدية ولكن من الخطأ الجسيم ان نفرد لمصطلح «اسرائيل» نصف عمود فقط ثم نقع في المزالق التالية:

١) القول ان كلمة اسرائيل « استخدمت للاشارة الى مملكة يسرائيل القديمة » مع انها كانت اشارة الى اليسرائيليين في ارض كنعان (سفر التثنية ١١ ـ ١٢) بدليل ان « مملكة » اسرائيل القديمة لم تستمر الا من عهد ملكهم الاول شاؤل حتى وفاة الملك سليمان (اي من عام ١٠٢٥ حتى ٩٣٣ ق·م) اي لمدة ٩٢ عاما فقط · وبعد ذلك انقسمت الى مملكتين : يسرائيل ويهودا · فما المقصود هنا « بمملكة يسرائيل القديمة » اذن ؟ ؟

٢) عدم ذكر ان حدود اسرائيل الحالية ليست حدود مملكتي يسرائيل او يهودا القديمتين (فكلتاهما تقعان في الضفة الغربية) · وهو ما لم يذكره المؤلف في هذا الموضوع بالذات (وربما ذكره عرضا في موضع اخر) · ثم ليست هناك اشارة الى الحقائق الاساسية عن اسرائيل مثل المساحة التي اصبحت عليها بعد ان تجاوزت حدود التقسيم لعام ١٩٤٧ . ومثل عدد السكان وحتى تاريخ انشاء الدولة ·

٣) المستوطنات الجديدة التي اقيمت في الارض المحتلة بعد ٦٧ بحجة ضمها لاسرائيل وهي تتجاوز المائة لم تذكر في باب الاستيطان ·

٤) لم تكن هناك اشارة الى لوائح الدفاع او قانون الطوارىء Defence Regulations صحيح انها صدرت في عهد الانتداب البريطاني ضد الارهاب الصهيوني بالذات ، ولكنها اصبحت بعد قيام اسرائيل الركيزة الرئيسية للسياسة العنصرية للدولة ضد العرب · وهذه اللوائح لعبت دورا كبيرا في ادانة الجمعية العامة للامم المتحدة للصهيونية بأنها حركة عنصرية في ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٧٥ ·

٥) ذكرت الموسوعة ان معدل الهجرة ٦ر١ مع انه بلغ عام ٧٤ حوالي ٣ر١ (صدرت الموسوعة في فبراير ٧٥) وهذه النسبة هي نسبة المهاجرين في ذلك العام · وما دمنا نتحدث عن الهجرة فقد ذكر الكتاب ان معظم النازحين من اسرائيل (ص ٤١٥) « من الطبقات الدنيا » ولكنه لم يذكر ا ن الجزء الاكبر منهم من الاكاديميين والمهنيين المتعلمين ·

يبقى امامنا الجزء الرابع والاخير وهو حركات الرفض اليهودي الاسرائيلي للصهيونية · واعترف انه كان من الصعب تتبعها بعد تكاثرها في اعقاب حرب اكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ ، ولكن جميع الحركات التي ذكرها هذا الجزء ترجع الى ما قبل الحرب الاخيرة (حركة الكنعانيين ـ سياح (اليسار الجديد) ـ الفهود السود الماتسبين ـ راكاح ·· الخ) لكنه اغفل اسماء عدة منظمات ظهرت قبل الحرب مثل

الجماعة الاسرائيلية المناهضة للاضطهاد (في اسرائيل) ولجنة تأييد تحرير الشرق الاوسط (في الولايات المتحدة) ٠

وهناك منظمات اخرى لم ترد في الموسوعة وربما بدأ ظهورها قبل حرب تشرين وان كانت قد برزت بوضوح بعدها ومنها مجموعة « البحث عن العدالة والمساواة في فلسطين » « وتسمى (سيرتش) اختصارا ، ولجنة « تقديم بدائل جديدة في الشرق الاوسط » وكلتاهما من المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة ٠ هذا عدا الكثير من المنظمات اليهودية المناهضة للصهيونية في امريكا ذات الحجم الصغير والتأثير الكبير مثل جمعية « التحالف الراديكالي العربي – اليهودي » في سياتل غرب امريكا ٠٠ الخ ٠ واعتقد ان الدكتور المسيري الذي يقيم حاليا في امريكا قادر الان على معرفة المزيد منها داخل اسرائيل وخارجها ٠

نقطة اخيرة طيبة وهي ان الموسوعة تتميز بقلة الاخطاء المطبعية وحبذا لو تنبه المؤلف الى اخطاء في الترجمة او في الارقام مثل (كاركاو) وصحتها (كراكوف) بالبولندية ٠ ومثل اسم ابن سليمان «جربعام» (ص ٤٦٢) وصحته «يربعام» ومثل القول ان مصر من بين البلدان التي يتراوح عدد اليهود فيها حسب احصاء ١٩٧٣ بين الف وخمسة الاف مع ان الرقم الصحيح هو دون ٣٥٠ فردا ٠ من هنا فان مشكلة التحديد في الحقائق والارقام كانت من بين المشاكل الكبرى التي واجهت مؤلف الموسوعة ٠ والحقيقة ان المؤلف اثناء قيامه بانجازها قد قابل مشاكل ادارية كثيرة اخرى غير ذلك٠ وكان من اهمها انتقاده للسكرتارية ولجهاز الباحثين ولهذا كثيرا ما كان يلجأ لمن يتطوعون بالعمل دون اجر خصوصا من الفلسطينيين مثل الدكتور الياس شوفاني من مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٠ كما قام احد طلبته وهو السيد ناجي عبد المنعم بملازمته عشر ساعات يوميا لمدة عشرة شهور تقريبا وكان له الفضل الاكبر في تنفيذ تبويب مواد الموسوعة ٠

ومع ذلك كله لم يسلم المؤلف من اتهام بعض الباحثين في اليهودية والصهيونية له باللاسامية مع انه افرد بابا خاصا بعنوان « معاداة السامية » وعدد فيه بعض مظاهر عداوة اليهود وانكر صحة بروتوكولات حكماء صهيون ٠ ثم انه زيادة في الحرص لم يدخل بعض المصطلحات مثل مجمع « القهيلا » ومجلس « السانهدرين » في هذا الباب وانما تحدثعنها باعتدال وموضوعية بالغة في الوقت الذي يصر فيه المؤمنون بفكرة « المؤامرة اليهودية العالمية » على ان هاتين المنظمتين تسعيان للسيطرة على العالم لتنصيب ملك عليها من نسل داود ٠

خلاصة القول انه بسبب شمول هذا العمل الذي يتخطى قدرات اي فرد واحد كان لا بد ان يقع المؤلف في عدة اخطاء لعل من اهمها المواد التي تقع خارج تخصص المؤلف (رغم ثقافته الموسوعية العميقة) بحيث لم يوفها حقها ٠ والمواد عن العسكرية الصهيونية والجوانب الاقتصادية مختصرة للغاية بالقياس للمواد التي تعالج مواضع تاريخية او فلسفية ، كما انه كان من المفضل كثيرا لو اضاف ارقام الصفحات امام كل مصطلح في الفهرس الانجليزي – العربي في نهاية الكتاب لتسهيل الرجوع اليه ٠ ولا يمكن تفسير هذا الوضع الا على اساس انه جهد فردي يعكس اهتمامات وقدرات المؤلف ككاتب ملتزم كان يبحث عن قضية يتبناها٠

وقد عثر عليها بعد فترة شك طويلة خلال دراسته في امريكا واثناء ذلك كانت مناقشاته المحايدة مع الصهيونيين تكشف له شيئا فشيئا عن زيف الوعي الصهيوني بالتاريخ والثغرات الفكرية القائمة في الفكر الصهيوني عامة ٠٠ وهكذا كان لزملائه في الجامعة من الصهاينة الفضل الاول في ابراز طبقة الثلج الهشة التي يقفون عليها دون احساس بتيار التاريخ الجوفي الذي لا ينقطع تدفقه من تحتها ٠ ومنذ ذلك الحين عثر على نفسه واصدر عدة كتب في اقل من عامين كان اولها « نهاية التاريخ ــ مقدمة في دراسة بنية الفكر الصهيوني » ٠

اما عن المسائل الفلسطينية فان الدكتور المسيري كان يعترف ايضا بشجاعة انه لا يعرف عنها الكفاية لان اهتمامه الاول كان تجريد الخصم من اسلحته الفكرية والعقائدية وبهذا يفقد مبرر وجوده ٠ ومع ذلك لا بد ان يهتز القارىء حين يرى اول ما في الموسوعة عنوانا كبيرا هو « امام الله والامة والتاريخ » ٠ وهذه كلمة كونية « باسكالية » وردت في قرارات المؤتمر العربي الفلسطيني في اغسطس (آب) ١٩٢٢ ٠ ومع ذلك فالكثير من الفلسطينيين انفسهم لم يسمعوا حتى عن هذا المؤتمر او على الاقل قراراته ٠

وربما يسعد المؤلف لو علم ان اجتماع مجلس منظمة اليونيسكو العربية الاخير في بغداد في اواخر ابريل (نيسان ١٩٧٦) قد انصب على موضوع واحد فقط هو اخراج موسوعة فلسطينية في غضون ثلاث سنوات ورصد المبلغ اللازم لها بعد تأجيل عدة مرات، وبهذا تحققت امنية المؤلف بطريقة اخرى غير متوقعة ٠ فقد كان في الاصل يتمنى مولد موسوعة عربية شاملة (وقد بدأ ذلك ايضا يتحقق) ٠ واذكر انه قال لي قبل سفره الى الولايات المتحدة حيث يعمل مستشارا ثقافيا لمكتب الجامعة العربية في مقر الامم المتحدة بنيويورك ــ انه حاول جذب اهتمام هيئة عربية لتؤلف لجنة باحثين تستخدم الموسوعة الحالية كنقطة بدء وكاطار للبحث يمكن طرحهما ــ بالمناسبة ــ بعد تخطي المراحل الاولية ٠ وقد سافر الى امريكا متألما لانه لم يجد اهتماما كافيا بهذا المشروع فقد كان يريد توظيف بعض الخبرات التي تراكمت لديه ، كما كانت لديه بعض الاسئلة التي تتطلب الاجابة عليها لجان من الباحثين ٠ ومن هنا قرر في غمرة احساسه بالاحباط ان يقول كل ما عنده في موضوع الصهيونية وان يكف عن الكتابة عنها ويتفرغ لاصدار كتاب « عن موقف العرب من فكرة التقدم »٠

ولكن الدكتور المسيري سرعان ما استيقظ من سباته الشتوي بعد الحملة الضارية للصهيونية عقب ادانة الامم المتحدة لها بالعنصرية ، بحيث وجد نفسه غارقا في القضية حتى اذنيه من جديد فأرسل مقالا الى جريدة نيويورك تايمز وفوجىء بأنه لم ينشر فيها وحدها وانما في جريدتين اخريين ٠ وبعد ذلك انهالت عليه الدعوات من الجامعات ومحطات التليفزيون المحلية الاوروبية لالقاء محاضراته او الاشتراك في مناظرات سياسية ٠ وهكذا طاف الولايات المتحدة وبالطبع ساعده على ذلك انه اصلا استاذ في الادب الانجليزي وبالذات في الشعر (وهو ميدان تخصصه) وكان اول منشوراته هو ترجمة مختارات من اشعار المقاومة الفلسطينية في الستينات ٠

واخيرا فان المؤلف ــ وهو بالمناسبة يعد الان كتابا بالانجليزية عن الصهيونية والعنصرية ــ كان قد نبه في مقدمة موسوعته الى ان «هذه الموسوعة رغم قصورها كان لا بد ان تكتب وتنشر بسبب الضرورة التاريخية الملحة ٠٠ والمعرفة

في نهاية الامر حوار مع الذات وجدل مع الواقع .. ولتكن هذه الموسوعة هي الاطروحة البسيطة والحد الادنى المعرفي المبوب . » (ص ١٧)

والحق انه رغم اعتراف المؤلف بشعوره بحدود قدراته الفردية فان وحدة العمل والبناء التصنيفي الفكري في عمله هذا وحدهما يشفعان له . ونقط القصور التي اشرنا اليها لا تقلل بحال من قيمة هذا الانجاز التاريخي العظيم الذي قام به عالم شاب لم يكن فلسطينيا بالولد وانما بالاختيار بعد رحلة طويلة مضنية من الشك والحوار والنقد الذاتي .

« محمد احمد رمضان »

للغبار ، للشعرين ، لأدوار الفريسة ، وادوار الممالك

منشورات فلسطين الثورة . بيروت ١٩٧٧ .

هناك ضرورة للتأكيد باستمرار على احدى المهام الرئيسية التي تقع على عاتق العمل الفني (النثري والشعري) ، وهي العمل الحثيث والدقيق والمواظب على تكسير البنية الداخلية للغة ، وذلك من حيث كونها اداة لاستمرارية قيم الاضطهاد والقهر والخنوع التي تغطي حقبة طويلة من تاريخ بلادنا .

نلاحظ في تجارب البرجوازيين المغتربين في هذا الشأن ، سواء كان اغترابا باتجاه الغرب البرجوازي ، او باتجاه الثقافة التراثية التي تختلط بها عناصر السلفية والتجديد والخنوع للطبقات الحاكمة والخنوع للقوى الاستعمارية . ورغم اننا لا نتخذ موقفا مضادا كليا لمثل هذه التجارب . ورغم اننا لا ننكر تأثيراتها الايجابية في رجرجة هذه الكتلة المتكلسة من الوعي ، الا ان ما يجب ملاحظته هو النتيجة الهوائية التي وصلت اليها عبر افتعالها لمعارك جزئية غير مجدية في الواقع .

اما لماذا حدث ذلك ؟ فليس من الصعب الاستدلال على السبب الرئيسي المتعلق بالمضمون السياسي ـ الاجتماعي لمثل هذه التجارب . لقد استمرت هذه التجارب في القتال لكي تصب في صالح برجوازية تابعة غير مستقلة ، وغير مستقلة ثقافتها ، وعاجزة بالضرورة عن خلق هذه الثقافة المستقلة ، وبالتالي توظيف هذه التجارب في اطار استقلالها الثقافي .

والآن . وقد انتهى هذا كله . فالى اين نتجه في هذه المهمة ذاتها ؟

كما واننا لابد ان ننطلق بالضرورة من التراث النضالي الذي شكلته البرجوازية في بلادنا ، لصياغة ادواتنا الجديدة وتعبيراتنا السياسية وبرامجنا الجديدة ، من أجل حسم المعركة ضد القوى المضادة لصالح الطبقة العاملة العربية . كذلك ،

وفي نفس الاتجاه ، لابد من الانطلاق من تجارب الثقافة البرجوازية العربيـــة المعادية للامبريالية في تدمير البنية السلفية للغة العربية ، وخلق اسس جديدة للثقافة العربية عامة · وذلك لبنـــاء الاساس الثقافي والوجداني لسلطه ديكتاتوريـــة الطبقة العاملة العربية ، من خلال ، وفي، حمأة الصراع الطبقي ـ القومي الــذي تزداد حدته كل يوم ·

وهكذا تجيء مهمة المساهمة في تدمير البنية الداخلية للغتنا العربية هي الخطوة الاولى فى طريق بناء هذا الاساس ·

وفي هذا الاطار يقع سليم بركـــات ولغته · وما الرهان عليه في هذا المجال الا بسبب التنامي الذي يمكن ان يـرى ـ ولابد ان يتم التأكيد عليه دائما ، وتثبيته ودفعه ـ فيالاتجاه السياسي ـ الاجتماعي الذي يعبر عنه هذا الشاعر ··

ان تكسيـــر دلالات الحرف ومخـرج الصوت فيه ، ونمط التأثير الذي يفعله ، وتكسير القنوات التـــي تم استخدامها وبليت ، وتهيئة قنوات جديدة لاستقبـــال لغة الصراع التاريخي القادم ، هي المهمة التاريخية ـ دون مغالاة ـ التي يحملهـا شعر سليم بركات في خصوصيته ·

ولانريد ان نقول أنها مهمـــة متفردة يحملها هذا الشعر وحده ، بل ان اسماء أخرى قائمة ، ولابد ان تقوم وتتأسس ، سوف تحمل هذه المهمة لتحققها ·

وهناك ضرورة فعلية للبـــدء باقامة العلاقة واستيعابها بين هذه اللغة وبيـن اللذة الناتجة من الصرير اليومي لحركة الواقع · بين هذه اللغة وبيـن **زرافـات الغبار المنتظرة اناثها · بينهـــا** وبين **الفحل الحاذق بجس اناثه ·** بينها وبين الجوع العام والشائع والمنتشر والمتعدد الوجوه ·

ان هذه العلاقة بين هذه اللغة وبيـن النتوءات اليومية لحيـــاة الجماهير ، جزئياتهم الدقيقة المغمورة باللهاث وراء السرابات المتعـــددة (الخبز احدها واهمها) ، هي ملمح محدد وواضح وبارز في خريطة لغة هذا الشاعر . اي خريطـة هذه القصيدة تقريبا ·

وفي هذه اللغة· وفي هذا الشعر تتحقق نتيجتان :

١ ـ المساهمة في تحطيم سلطة الماضي القريب والبعيد وتأثيراتها ·

٢ ـ رسم المؤشرات الى طريق المستقبل (ليس الادبــــي فقط ، بل السياسي ـ الاجتماعي ـ الثقافي) ·

شمدين ·· رمز الانفجار التاريخي :

في شمدين يكون هذا الشاعــر · في صبواته الواضحة ، في اندفاعة افرزتهـا عوامل وعناصر متعددة ، يأخـــذ بحرق بلوراته · يضطرم جوفه بحريق الحلــم الشاسع، ويضع نقطة على الحرف :

«هذا اشتعالي في غد ليس انهداما ، بل غد متجانس ، وترى لحداديه صرخة مترف اذ ينحنون على معادنهم ، ويحتفلون بين شرارة وشرارة بنظام خلق مترف ·· هذا اشتعالي ·

حين اجعل جذر كل مقاتل كبدا يجـر على الرمال

امة ، واهيء الاشياء في احزانها ،
واصيح مرتجفا : تعالي » ص ٣٢

ويحدد موقفه السياسـي ـ الاجتماعـي بكل الوضوح الممكن (كي لا يتفاجأ الذين يضعون الصحراء بين الشعـــر وبيـــن الموقف السياسي) :

«واعلن : «لامجـــالس ، والحكومات انفصام ضمن منظوماتها ، ونقابة العمال غير نقابة العمال ، والاحزاب تستوفـي شروط حضورها في جــدول الطبقات ، والمتوسطون لدى المدينة يحملون نساءهـم كدريئة ، والبرلمان دعابة ، والحكم اخـر لعبة في الترهات الخاسرة » ص ٣٣ ·

اين يصب هذا الموقف ؟ هذا ليس مهما

كثيرا ، لانه من السذاجة ربط الشاعر بحزمة شروحات الموقف السياسي · هذا ليس مهما · ان المهم هو ان يظل الشاعر يدفع بالسهول «نحو ميعاد الجنون ، ووردة الفتح البديل» ٣٥ فهو يتحدث «باسم الحلبات الكبرى» · ان المهم هو ان يصب الشاعر في عمق الرحابة ·

ان الاهم من هذا كله هو حدس الاستباق الذي يشغل هذا الشعر ، بما يعني اساسا من انعتاق من مشاغل الالتزام بصيغ الحاضر ومكتسباته واجحافاته · وبما يعني من التحام بافق الحلم عبر الحضور الخلاق والمكلف في ومضاته المتناثرة · وبما يعني ذلك كله من القبض على المسؤولية التاريخية في الدائرة العامة ·

ان هذا الشاعر يبدأ الان « مستبقا مايومض او يتوالد من اقدار يحلجها الحلاجون» انه يشهد «مايشهده الحوذي على مركبة خلف الذنبيات او ان تميل الارض ، ويجتاح مدارجها المحظوظون باقنعة الفوقس ، او تجتاح مدارجها القديسات حبالى ينثرن كواكبهن على النعمة مترا مترا ، وينادين الحي المرئي «تعال الى ترف لا تملكه» ، وتعال الى الاقنعة الكبرى لحروب لا تملكها » ٤٥

التوحش · الجسارة · الاباحية ، انها اقانيم شمدين الثلاثة ، وهي وسائله وأدواته للوصول الى الشعر والى التكامل · بغير هذه الاقانيم لايكون اطلاقا غير البهوت والبلادة والتخثر والانسجامات الضيقة الحلق ، المختنقة في زوايا المصالح الراهنة ·

انها الضرورة البالغة ، لان المدن والقرى لا تبدو الا « كحزمة قش في عربات الاكراد» · انها الضرورة البالغة كي يمكن دفع شمدين الذي «يجاهر في نفر ضد الامر في الثكنات ، وضد الدولة والميراث المزحوم بروث الحيوان » ونحو « الابعد في الانشاد الوحشي » ·

ويرى شمدين على بغلته الشعراء يغني اغنية الكردي محاطا بنساء «بريفا» ونساء «بريفا» يحزمن لشمدين جسارتهن مع البرسيم الاخضر ، او يحزمن العصر ويتمتمن : «لعصرك ياشمدين سيبتدىء العصر» ·

ويرى شمدين خلف قوائم بغلته الشعراء متاريسا وبنادق تعلو ، ولفات مستعجلة كصغار البط ، وحلما يتدحرج من ابواب الثكنات ، وفلاحين يجرون سلالا مثقلة بنجوم وباحذية ·

ويراهن ان نشيدا كنشيده يعلو خلف قوائم بغلة شمدين ·

ويراهن ان بوبيها سيقامر بالانسان على مائدة الطبقات ·

لكنه سيكون المجزرة الاكثر جذرا في الحلبات ·

هو الوحشي وقد اشعله الوحشي ·

وليس هناك اكثر وضوحا في كل ماهو قائم في معرفة ماسيجري · ان هذا الشعر يسبق كل الوسائل الاخرى في اكتناه حركة المستقبل · انه يتجاوز نفسه حتى ليرسم خطوطا اقل عمومية في خريطة المستقبل · انه يعرف الافق ويعرف الوان الافق ايضا ·

ومركز الثقل في هذا كله هو اتساع الدائرة التي تشكل لشمدين انتماءه الايديولوجي والسياسي والحضاري · ان اقانيمه لاتطيق هذه الفسيفساء الراهنة ، انه في قلب الدائرة كلها، في قلب الامة كلها ·

تتوحد الامة ، وتتجاسر ، وتبيح كل الدم ، وتنسج الفعل الباهر ، وشمدين رمزها المتأله المتوحش الجسور الاباحي ، «حلوا كدم ، وجرينا كالانقاض» وسيعدو ، وهو الوحشي العارم مثل خلاف الاضداد، جرينا في رغد الفاجعة ··

فانتظروه ·

«هذا شمدين ،

وهذا انشاد الصلصال الحي لشمدين»

سميح سماره

أولاد إسرائيل

Schifra Strizower : The Children of Israel ; The Bene Israel of Bombey , Oxford Basil Blackwell , 1971

لقد بقي تاريخ تلك المجموعة القليلة من يهود الهند مجهولا · ولم تحظ اوضاعهم في السابق باهتمام اية جهة، ولولا تلك الضجة التي اثيرت حولهم مؤخرا في اسرائيل لامكن الافتراض ان دراسة اوضاع تلك المجموعة ستظل خارج دائرة الضوء والاهتمام سنوات اخرى طويلة · ففي بداية الستينات ومع هجرة بعض المجموعات من يهود الهند الى اسرائيل علت أصوات داخل اسرائيل تشكك في يهودية هؤلاء الوافدين الجدد وتطالب بالتحقيق في مدى نقاوة يهوديتهم، وأصدر رئيس الحاخاميين لليهود الشرقيين (السفارديم) قرارا في فبراير ١٩٦٢ بضرورة اعادة النظر والتدقيق في عقود الزواج الخاصة بافراد تلك المجموعة ·

تعيش في الهند مجموعة من اليهود قدرت في الاربعينات بحوالي ٢٦ الفا ، هاجر منهم قرابة عشرة الاف الى الخارج ، بصورة خاصة الى اسرائيل وانجلترا ويقدر عددهم الان بـ ١٦ الفا · تعرف المجموعة الرئيسية منهم باسم «بني اسرائيل» وعددهم ١٣ الفا يتمركزون في مدينة بومباي وضواحيها وهذه المجموعة هي موضوع البحث في هذه الدراسة ·

الدراسة في الاساس اطروحة للدكتوراه تقدمت بها الكاتبة الى جامعة لندن ، ولعل ندرة الدراسات حول الموضوع يعط الكتاب هنا اهمية خاصة ، وقد دفع هذا السبب الباحثة الى محاولة استيفاء المعلومات من المنبع مباشرة وذلك بالسفر والاقامة بين تلك المجموعة فترة من الوقت وتقديم دراسة انتروبولوجية سوسيولوجية هامة وفريدة من نوعها ·

الكتاب يقع في ١٧٦ صفحة ويحتوي على ثلاثة فصول رئيسية : فبينما تحاول الدارسة في القسم الاول التعريف بتلك المجموعات المختلفة من يهود الهند ، تركز في القسم الثاني على محاولة دراسة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لـ « بني اسرائيل » والفروق الاجتماعية بينهم وبين المجموعات الاخرى من يهود الهند وعلاقاتهم مع باقي يهود العالم ، ومع المجتمع الهندي · اما في القسم الثالث والاخير فتلقي الدراسة الضوء على الجوانب الدينية والثقافية والعادات الاجتماعية داخل المجموعة نفسها ·

في محاولتها لتتبع الاصول التاريخية لـ « بني اسرائيل » تذكر الدارسة انهم ينحدرون من مجموعة كانت قد وصلت الى شواطىء الهند الغربية منذ عدة قرون، الا أن الدراسة لم تتبن نظرية واحدة حول تاريخ وصولهم أو حول مكان وجودهم الاصلي أو الكيفية التي يمكن ان يكونوا قد وصلوا بها الى شواطىء الهند · فتورد مثلا تلك الرواية الاسطورية التي يرويها « بني اسرائيل » انفسهم عن انحدارهم من احدى «القبائل العشرة» التي تشتتت خارج فلسطين بعد سقوط مملكة ساماريا على

يد الاشوريين ، وان سفينة اجدادهم «السبعة» قد تحطمت على ساحل الهند الغربي · هذا بينما تورد رواية اخرى عن احتمال قدوم « بني اسرائيل » من الجزيرة العربية · و« بني اسرائيل » ينقسمون الى فئتين : الجورا (Gora) بني اسرائيل البيض ، والكالا (Kala) بني اسرائيل السود ، وهذا التقسيم بين البيض والسود لايعكس اختلافا في لون البشرة بقدر مايعكس اختلافا في المكانة الاجتماعية المستندة بالاساس الى علاقات اجتماعية شبه عشائرية · وكما لاحظت الباحثة (Strizower) فلون البشرة الابيض كان يعتبر بحد ذاته امتيازا اجتماعيا خلال فترة السيطرة الكولونيالية على الهند (ص ٤٧) · وضمن هذا السياق أيضا يمكن فهم ادعاء الجورا بان الكالا ليسوا سوى سلالة عبيد اجدادهم الذين وفدوا بالاساس مع قوافل التجارة وحافظوا على نقاوة يهوديتهم (ص ٦٥٥)! يوجد كذلك في الهند يهود الكوهن (Cohin Jewry)ــ ٢٫٥٠٠ ــ هاجر معظمهم وبقي منهم في الهند ــ٢٥٠· وهم بدورهم ينقسمون الى فئتين :«بيض وسود» وان كان معظمهم من «السود»· ويلحق بهم ضمن هذا التصنيف مجموعة اخرى تدعى الماشراريم (Mashuararim) ويلتف بعضهم حول البيض من الكوهن والقسم الاخر حول السود من الكوهن · بالاضافة الى المجموعات السالفة فانه يوجد في الهند حوالي الفين من « اليهود البغداديين » (Baghdadis) الذين وفدوا مؤخرا الى الهند في اواخر القرن الثامن عشر · يقيم ٩٠٠ منهم في بومباي بينما يتوزع الباقون في بونا وكالكوتا ويحظون بمكانة اجتماعية متميزة وبثراء ملحوظ ، بالمقارنة مع باقي يهود الهند · يضاف اليهم بالعادة بضع مئات من اليهود الاوروبيين ، الذين مازالوا يقيمون في الهند ، جاء معظمهم من المانيا والنمسا ، وهم قريبون اجتماعيا من اليهود البغداديين ويشاركونهم النشاطات الدينية والاجتماعية ·

لقد اندمج « بني اسرائيل » وعبر تاريخ طويل في المجتمع الهندي ولم يكن اختلاف الدين مع الفئات الدينية المحيطة بهم كالهندوسية والاسلام والمسيحية عائقا امام ذلك · لم يكونوا حملا للاضطهاد ولم يعرفوا حياة «الجيتوات» او المشاكل التي تواجهها بالعادة الاقليات الطائفية كما حدث بالنسبة لليهود في شرق اوروبا في القرن الماضي وبداية هذا القرن · ان قلة عددهم التي لم تصل الى حد اعتبارهم اقلية طائفية ، قد سهلت عملية اندماجهم· وهم لم يشغلوا مواقع اجتماعية متميزةوسط مجتمعهم وكما قال (Taya, Zihkin) في مقالته عنهم « انهم اليهود الاكثر فقرا في العالم » ، معظمهم من صغار الكسبة من موظفين حكوميين : كتبة ومعلمين وجنود ، واختلاف الدين بالنسبة اليهم لايحمل اية مدلول اجتماعي وطبقي تميزهم عن باقي فئات المجتمع ·

ان « المارتي » (Marthi) ــ اللغة الرئيسية في غرب الهند هي اللغة الام لبني اسرائيل وبعضهم يتكلم الانجليزية أيضا · وقد تبنوا الكثير من المفاهيم الليبرالية في الدين التي تميزهم عن يهود الغرب وتخلصوا من بعض الخصائص الكهنوتية في الدين التي يعرفها ارثوذكس الغرب من اليهود منهم مثلا لايعرفوننظام الحاخامية او النخبة الدينية المتميزة عن باقي افراد المجموعة بسبب معرفتها وتفرغها لامور الدين ، فالمعلم الديني يقوم بوظيفة اجتماعية انسانية ، والمعابد اقرب الى مراكز النشاطات الاجتماعية من أن تكون عرضة مخصصة فقط لممارسة الطقوس الدينية (ص ١٤٤) ·

من جهة اخرى ، فانه على الرغم من قلة عدد اليهود في الهند الا ان الفوارق بينهم ، من جهة ، وكذلك بينهم وبين باقي المجموعات اليهودية في العالم، عميقة·

لقد استخدم الدين بصورة صارخة في حالة يهود الهند كسلاح في الصراع الاجتماعي لفئات دينية واحدة ولكنها مختلفة اثنيا واجتماعيا . والدراسة تورد الكثير من اوجه التناقض اولا بين البيض والسود من « بني اسرائيل » من جهة ، وبين « بني اسرائيل » ككل وبين « البغداديين » من جهة اخرى . وكان موطن الخلاف في الظاهر يدور حول نقاوة يهودية كل مجموعة فالبيض من « بني اسرائيل » يدعون أنهم العنصر الاكثر نقاء من السود ، و « البغداديون » يلقون بالشك على مدى جدية ونقاوة يهودية « بني اسرائيل » ، ويأخذون عليهم اختلاطهم واندماجهم الكامل في مجتمعهم. ويترك هذا الخلاف بصماته على الحياة الاجتماعية والدينية لكل مجوعة متخذا مظاهر منها : استقلال في المؤسسات الدينية والاجتماعية والتعليمية لكل مجموعة ، اختلاف في العادات الاجتماعية وندرة حالات الزواج المختلط .. الى غير ذلك . وقد انتقل هذا الخلاف مع هجرة المجموعات الاولى القليلة من « بني اسرائيل » الى اسرائيل التي هاجرت اما لاسباب دينية او اقتصادية ، حيث ان التأثيرات الصهيونية بينهم ضعيفة كما تذكر الدراسة - (ص ١٦٧) . وادرك الوافدون الجدد الى اسرائيل انهم ضيوف يصعب قبولهم ، وقرر العديد منهم العودة (ص ٥٦) .

ان هذه الفوارق تفسر لنا عدم نجاح تلك المحاولات التي جاءت في معظمها بدفع من مؤسسات خارجية الى تجميع تلك المجموعات المختلفة في الهند من اليهود في اطار مجموعة واحدة متجانسة على مستوى عموم الهند ، فتذكر الدراسة أنه عندما تشكلت « رابطة ومؤتمر عموم الهند الاسرائيلية » لبعض الوقت عام ١٩١٧ كان « بنو اسرائيل » يرون حصر دورها في القضايا الاجتماعية للطائفة وعارضوا اعطاءها اي مدلول سياسي .

ورفضوا على الدوام كل مامن شأنه ان يوجد نوعا من ازدواجية الولاء عندهم.. فهم هنود وهنود فقط (ص ٥٣ ، ١٤٤)

ان تلك الحجة التي تطرح للتشكيك في يهودية « بني اسرائيل » بسبب ماقيل أنه «انقطاع او عزلة عن تعاليم اليهودية» لا يغير من حقيقة وجوهر الصراع الذي هو بالتالي صراع اجتماعي . هذا عدا ان الانسياق وراء تلك الحجة يبدو انه ليس صحيحا على اطلاقه ، فالدراسة تذكر على سبيل المثال في اكثر من موقع في الكتاب ما ينفي او يضعف من تلك الحجة، فهي تذكر انه في القرن الثالث عشر كان لدى « بني اسرائيل » قضاة ومجالس دينية (Sanads) خاصة بهم (ص ٣٦) . وانه خلال فترة السيطرة الكولونيالية في القرنين الثامن والتاسع عشر وصل بعض المبشرين الدينيين من خلال الشركات الاستعمارية العاملة في الهند .

ان مقس « بني اسرائيل » يعكس بصورة حادة ، تهافت ووهن تلك الحجج والتبريرات الساعية الى محاولة اضفاء صفة التجانس القومي بين مجموعات اثنية وسوسيولوجية مختلفة من يهود العالم . وتظلل باشارات استفهام كبيرة - كما تتوصل الباحثة في نهاية دراستها - مسألة تعريف من هو اليهودي وبالتالي تطرح بالحاح ضرورة فك ذلك «اللغز المستعصي» .

ان تلك الملاحظة الهامة التي أبداها أحد افراد « بني اسرائيل » للباحثة (ص ٤٧) ؛ تلخص المسألة بوضوح كاف عندما يقول : «هل تظنين حقا ان البغداديين ينطلقون حقا في اتهامنا من أننا لسنا يهودا انقياء من دوافع حرصهم على اليهودية ؟ انها محاولة منهم فقط لاثبات ان كل اليهود الانقياء هم اغنياء بالضرورة .. وهذا غير صحيح » .

عباس مراد

شهريات

المقاومة الفلسطينية

شهدت الفترة الممتدة من منتصف ايار الى منتصف حزيران ، انحسار التركيز اللبناني على تنفيذ ما تبقى من اتفاق القاهرة ، وبروز مسألة الوفاق اللبناني الى المقدمة ، واعتبار ان النجاح فيها يسهل الوصول الى التطبيق المنشود · وقد تم الوصول الى هذه النتيجة في جو من التأزم الذي بلغ ذروته باعلان الجبهة اللبنانية ، اعتبارها لاتفاق القاهرة لاغيا ، فيما تمسكت السلطة اللبنانية به ، وعبر هذا التأزم عن نفسه ايضا بانتهاء مدة عمل اللجنة الرباعية دون ان يطلب الرئيس سركيس منها متابعة مهمتها، وانيطت بذلك عملية الاستمرار بمتابعة قضية التنفيذ بسوريا وحدها ، فيما استغلت اسرائيل الفرصة لدفع الوضع من جديد نحو التأزم ، مستعينة بالاستعداد الانعزالي لاستمرار التعاون معها ، الامر الذي يبرز خارطة سياسية معقدة ، فيما يلي تفاصيلها :

اللجنة الرباعية واتفاق القاهرة

الاجتماع الاخير للجنة الرباعية، الذي عقد في ٢١ ايار بعد انقطاع في اجتماعات اللجنة دام شهرا ونصف الشهر ، كان منتظرا منه ان يصل الى اتفاق نهائي حول تنفيذ اتفاق القاهرة ، خاصة بعد الاتصالات المكثفة التي سبقته بين المقاومة وسوريا ، وبين سوريا والسلطة اللبنانية ، ولكن الذي حصل عمليا كان عكس ذلك تماما ، اذ راوحت مواقف الاطراف في مكانها دون تغير ذلك ·

عقدة الموقف كانت ولا زالت ، قضية حماية المخيمات ، والسلاح الذي يلزمها ، ودور الميليشيا الفلسطينية فيها · الرئيس سركيس عرض حماية المخيمات من قبل قوات الردع العربية ، الى حين تشكيل الجيش اللبناني ، على ان يجري نزع السلاح من المخيمات · والمقاومة قبلت مبدأ تولي قوات الردع المهمة دون نزع السلاح · وبقيت المواقف عند هذا الحد ، وانتهى اجتماع اللجنة الرباعية مع سؤال جديد : هل تستمر في مهمتها ام لا ؟ باعتبار ان مدة الشهرين اللذين مددت الجامعة العربية عمل اللجنة

خلالهما ، تنتهي في ٢٦ ايار ٠ وبالرغم من بروز هذا السؤال ، فان الجهود استمرت في محاولة لايجاد حل قبل الموعد المحدد لانتهاء عمل اللجنة ، وعلى امل ان تعقد اللجنة اجتماعا اخيرا لها يكرس هذا الحل ٠

العقيد محمد الخولي حمل رسالة من الرئيس حافظ الاسد الى الرئيس سركيس تتضمن مساعي سوريا لتطبيق ما تبقى من بنود اتفاق القاهرة ٠ (٥/٢١)

عبد الحليم خدام وزير الخارجية السوري استقبل وفدا من قيادة المقاومة يضم محمود عباس (ابو مازن) وصلاح خلف (ابو اياد) وابو صالح بحضور اللواءين ناجي جميل وحكمت الشهابي (٥/٢١) ٠ وعند انتهاء هذه المباحثات بدمشق اعلن ابو اياد (٥/٢٣) ان الحل حول اتفاق القاهرة سيكون خلال ٤٨ ساعة ٠ وقيل ان سوريا ستنقل للرئيس سركيس نتائج المباحثات مع المقاومة ، فيما قيل ايضا ان الرئيس سركيس سيجري مشاورات مع الفرقاء اللبنانيين للغرض نفسه ، وان اللجنة الرباعية ستجري من قبلها مشاورات مماثلة مع الاطراف المعنية ٠

في هذه الاثناء كان وفد من حركة الناصريين المستقلين (المرابطون) يقابل الرئيس سركيس (٥/٢٣) ويعلن في الاجتماع ان العقدة الاساسية القائمة هي اتفاق القاهرة ، وهي عقدة لا حل لها حاليا ، لان الظروف العربية والدولية تغيرت ، ولان الحركة الوطنية اللبنانية لا تنظر لتطبيق الاتفاق من الزاوية الضيقة ، بل من زاوية الحل العام لازمة الشرق الاوسط ٠ وفي اليوم التالي (٥/٢٤) كان سفير الكويت عبد الحميد البعيجان يلتقي مع التجمع الاسلامي ويعلن ان الاشكال هو في الاتفاق على حماية المخيمات ، وان التمديد للجنة الرباعية يعود الى رغبة الرئيس سركيس ٠ ومن جهته كان الامام الصدر يعلن بعد عودته من القاهرة ، ان اتصالات ستجري قريبا بين دول اللجنة الرباعية لحل جذور الازمة ، واعلن انه يشعر بقلق على مصير لبنان ووحدته وعلى وضع الجنوب بالذات ، وطالب العرب باتخاذ موقف مشترك يتضمن حلا واضحا للعلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية ٠

وباتساع نطاق المشاورات حول تطبيق اتفاق القاهرة ، فلسطينيا ولبنانيا وعربيا ، كانت المفاجأة ، ان يوم ٢٦ ايار مر دون ان يدعو الرئيس سركيس اللجنة الرباعية للاجتماع ، وبقي بذلك موضوع تنفيذ ما تبقى من اتفاق القاهرة معلقا ٠

« الجبهة اللبنانية » كانت كما يبدو ، تنتظر ذلك على احر من الجمر فأعلنت في اليوم التالي مباشرة ، وفي بيان رسمي ، انها تعتبر اتفاق القاهرة لاغيا ، والوجود الفلسطيني في لبنان غير شرعي ، وكان لهذا الموقف اصداء محلية وعربية ٠ فعلى الفور (٥/٢٨) اعلنت ثلاثة اطراف رفضها لموقف الجبهة : رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص اعلن تمسك لبنان باتفاق القاهرة ،وقال ان التفسير اللبناني له عادل وصالح للتنفيذ ٠ ومنظمة التحرير قالت ان الرئيس سركيس هو الجهة الوحيدة المخولة بالحديث عن تنفيذ الاتفاق ٠ وعبد العزيز حسين اعلن باسم حكومة الكويت « نحن نتعاون مع سركيس فقط ، وهو ما زال يعتبر اتفاق القاهرة قائما »٠

وتوالت بعد ذلك ردود فعل مختلفة ، فأعلن الرئيس انور السادات (٥/٢٩) ردا على بيان الجبهة ان « مصر لا تقبل

المساس بالفلسطينيين ، ونحن مع سيادة لبنان ، ومع ان لا يتدخل الفلسطينيون في اي امور تخصه » · والرئيس رشيد كرامي قال ان اتفاق القاهرة يجب ان لا يعيق الحوار اللبناني ، والمسألة ليست الـ ٧ بالالف ، بل الثقة ، والثقة لا تفرض بل يجري تمتينها بالتعاون ·

وبدورها صعدت « الجبهة اللبنانية » حملتها ، فصدر عن « الرابطة المارونية » بيان آخر (٥/٢٩) يطالب بطرح مشكلة الوجود الفلسطيني برمته على ارض لبنان · وصدر على اثر ذلك ردان من المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية ، كانا خاتمة الجدل حول هذه القضية · قالت المقاومة الفلسطينية بعد اجتماع رسمي لقيادتها (٥/٣٠) :

– ان بيانات « الجبهة اللبنانية » لا تغير من التزامنا بتنفيذ اتفاق القاهرة بالتعاون مع السلطة الشرعية ·

– هناك اقتراح معروض الآن للبحث يوافق على نسبة الـ ٣ بالالف بالنسبة لرجال الكفاح المسلح ، ويطلب تجميد البحث بنسبة الـ ٤ بالالف بالنسبة لرجال الميليشيا ·

– تم البحث بالاقتراح مع المسؤولين السوريين ومع اعضاء اللجنة الرباعية ، واتفق على القيام بمحاولة مشتركة للوصول الى نقطة لقاء ، ونحن بانتظار الرد ·

وقالت الحركة الوطنية اللبنانية في بيان رسمي :

– ان المقاومة الفلسطينية التزمت بتنفيذ اتفاق القاهرة والخطة الامنية ·

– الخلل القائم بالتنفيذ ليس مصدره المقاومة ، اذ على ضوء الحل اللبناني – اللبناني يمكن تنظيم العلاقات اللبنانية – الفلسطينية ·

– معركة « الجبهة اللبنانية » ليست تنفيذ الاتفاق . بل معركة الغاء الاتفاق ·

واقد انتهت حركة الجدل هذه بتجميد البحث باتفاق القاهرة ،وبروز موضوع الوفاق اللبناني واعطائه الاولوية في العمل ، واعتبار الوفاق مدخلا يسهل العودة لبحث قضية اتفاق القاهرة وتنفيذه حسب قول فؤاد بطرس وزير الخارجية اللبنانية (٦/٢) بعد اجتماع مع الرئيس سركيس · اما مصير اللجنة الرباعية فقد حدده السفير الكويتي (٦/٩) بقوله : انه لا اجتماع جديد للجنة الرباعية ، وانه بقيت نقطة وحيدة في اتفاق القاهرة ، وبعد ان عجزت اللجنة الرباعية عن حلها احيلت الى سوريا ، وسوريا تسعى ، ونأمل ان تكون قد وصلت الى حل يزيل هذه النقطة البسيطة ·

ولم يبرز نشاط سوري خاص بصدد هذه المسألة ، الا حين زار كميل شمعون دمشق واجتمع مع الاسد وخدام (٦/١) ، وعرض عند عودته نتائج الزيارة على « الجبهة اللبنانية » ، وقال مصدر باسمها بعد الاجتماع : ان الاسد طلب من شمعون ان تساعد الجبهة سوريا بعدم وضع العراقيل بالنسبة لتطبيق اتفاق القاهرة ، لافساح المجال امامها بالتحرك · واوضح ان هناك مساع مبذولة بين سوريا والدول العربية لتذليل بعض التحفظات التي ابديت حول تطبيق اتفاق القاهرة ·

وبرز النشاط السوري مرة ثانية حين زار عبد الحليم خدام الرئيس سركيس (٦/٨) واعلن ان سوريا ملتزمة بتطبيق اتفاق القاهرة » ونبذل جهدنا للوصول الى ذلك وفق تفسير اللجنة الرباعية »· واضاف « لسنا لدى اشقائنا الفلسطينيين الاستعداد والرغبة بتنفيذ الاتفاق » ·

وحين زار شمعون الرئيس سركيس

(٦/٩) مع وفد من « الجبهة اللبنانية » لمعرفة نتائج زيارة خدام قال ان « الالتزام مبدئي بالاستمرار في تنفيذ اتفاق القاهرة ، والافضل ان يتم التنفيذ تلقائيا من قبل المنظمات » .

وفي (٦/١٠) اعلن شمعون اثناء مأدبة اقامها كاظم الخليل ان « سوريا تحاول اقناع المنظمات دون ممانعة ، والا فان قوات الردع ستقوم بواجبها » .

وكانت قد سرت شائعات بان الاتفاق قد تم بين سوريا والمقاومة على ان تدخل قوات الردع الى المخيمات ، ولكن مصدرا بعثيا في بيروت نفى ذلك (٦/٨) ، وقبله كان عاصم قانصوه الامين العام لمنظمة البعث في لبنان قد انتقد الذين يدعون سوريا لسحق المخيمات (٦/٥) ، وذكر ان سوريا لن تعترف بأي تفسير لاتفاق القاهرة ، وهي تتمسك بالنص الاصلي .

الجنـــوب :

مع نجاح مناحيم بيغن في اسرائيل ، وبعد اعلان موقف « الجبهة اللبنانية » من اتفاق القاهرة ، تجددت اجواء التوتر في جنوب لبنان ، على صعيد القصف الاسرائيلي المتواصل للمناطق الآهلة ، وكذلك على صعيد تجديد الانعزاليين للاشتباكات مع المقاومة الفلسطينية ، ورافق ذلك موجة جديدة من هجرة السكان للمناطق الداخلية . وبدات الصحافة السورية بشكل خاص ، تركز على خطر الوضع في الجنوب وعلى خطر التهديد الاسرائيلي له . وفي (٦/١) ، اي بعد اربعة ايام فقط من انتهاء فترة عمل اللجنة الرباعية ، التقت صحف دمشق مع تصريحات للملك حسين على التحذير من حرب اسرائيلية جديدة تشن من جنوب لبنان . وقد استقبلت هذه المواقف الرئيس كميل شمعون الذي زار دمشق واجتمع مع الرئيس الاسد ، وتباحثا في القضايا الامنية اللبنانية ومنها قضية الجنوب . وفي بيروت عقدت القيادة الفلسطينية (٦/٢) اجتماعا برئاسة ياسر عرفات ، بحثت فيه تهديدات اسرائيل العسكرية ، وعلم انه تجري اتصالات بهذا الخصوص مع سوريا وقوات الردع العربية والكتائب اللبنانية . وفي اليوم نفسه التقى هاني الحسن مع السفير الكويتي للتداول بالوضع .

وكانت الاوساط اللبنانية بدورها معنية بالخطر الذي يتهدد الجنوب ، فأعلن مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد بعد زيارة للرئيس سركيس « ان اهتمامنا منصب على عدة نقاط ، الجنوب ، وما يدور حول اتفاق القاهرة » . واعلن كامل الاسعد رئيس البرلمان اللبناني ان « الاهتمام يجب ان يتركز على الحؤول دون استغلال اسرائيل لواقع الجنوب اليوم ، وعلى وجوب ايقاف الاقتتال العسكري ، وهذا الموضوع يزداد خطورة بعد نجاح ليكود . ويجب ان يتوقف اي خلاف لمعالجة هذا الموضوع » ، ثم اجتمع الاسعد مع الشيخ بيار الجميل (٦/١٠) وكان البحث الرئيسي بينهما هو قضية الجنوب .

وفي ظل الاهتمام برز موقف مفاجيء على لسان الرئيس صائب سلام حين دعا (٦/١٢) الى المطالبة بوضع قوات دولية على حدود لبنان الجنوبية . وهذه هي المرة الاولى التي يدعو فيها زعيم لبناني مسلم الى طلب هذه القوات . وعلى اثر ذلك دعا الرئيس كامل الاسعد لجنتي الخارجية والدفاع في البرلمان اللبناني (٦/١٥) الى الاجتماع ، وقالت الاوساط النيابية ان البحث سيتركز حول اتفاق القاهرة ، وطلب قوات دولية لتتمركز على الحدود . وفي خلال ذلك كله كانت الصحف السورية تواصل

الاعلان يوميا عن خطر « احداث الجنوب التي تتطور بشكل يدعو للقلق » مع ما يحيط بها من تحركات اسرائيلية · وقد تابعت السلطة اللبنانية احداث الجنوب بمحادثات سياسية مع السفير الامريكي الذي زار القصر الجمهوري للبحث في الموضوع (٦/١٣) ، واعلن فؤاد بطرس على اثر ذلك (٦/١٤) ان « وضع الجنوب يستدعي الانتباه ، الا ان الضمانات الامريكية باقية »·

نشاط عرفات :

الاحداث اللبنانية وتعقيداتها ، لم تمنع ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير من القيام بنشاط سياسي مكثف شمل عدة بلدان عربية واجنبية في جولتين متواليتين · زار في الجولة الاولى : ابو ظبي ودبي والبحرين ومصر ، وزار في الجولة الثانية : ليبيا والجزائر والسنغال وغينيا بيساو والسعودية والكويت · واعلن عرفات في هذه الجولات جملة من المواقف السياسية الهامة ·

في ابو ظبي قال : ان الثورة ماضية في القتال حتى تحرير الارض العربية كاملة ، والمعركة مع العدو معركة اجيال · وعن مؤتمر جنيف قال : لن نذهب على اساس القرار ٢٤٢ ، وانما على اساس التوصل الى حل للقضية الفلسطينية والدولة الفلسطينية · وعن الانتخابات الاسرائيلية قال : لا فرق بين رابين او بيغن او بيريز · (٥/٢٢) ·

وفي دبي اعلن ان منظمة التحرير ترغب في فتح حوار مع السلطات الاميركية ، واعتبر تصريحات كارتر عن الوطن الفلسطيني « ايجابية تصدر لاول مرة عن مسؤول اميركي » · واشار الى العلاقات مع سوريا ومصر ووصفها بانها « استراتيجية وتشكل جبهة المواجهة الاولى » ، ونوه بدور دول النفط في دعم الثورة ودول المواجهة · (٥/٢٣) ·

وفي البحرين سجل « انني عضو رئيسي في معادلة الشرق الاوسط » واعلن ان اسرائيل قد تحاول القيام بمغامرة عسكرية تستهدف جنوب لبنان ، واوضح انه ينتظر جوابا من الملك حسين من اجل استئناف الحوار الفلسطيني الاردني (٥/٢٥) ·

وفي مصر التقى مع الرئيس السادات ، وتم الاتفاق على انشاء لجنة مصرية فلسطينية للتنسيق العسكري والسياسي (٥/٢٦) تضم عن الجانب الفلسطيني : فاروق القدومي وعبد المحسن ابو ميزر واحمد صدقي الدجاني وجمال الصوراني وسعيد كمال ·

اما جولته الثانية ، فقد اخذت طابع الزيارات الرسمية ، وصدرت عنها بيانات مشتركة تؤكد التعاون والتساند بين منظمة التحرير والدول الافريقية التي زارها · وفي ختام هذه الجولة في السعودية اعلن عرفات (٦/١٠) ، انه اطلع على نتائج مباحثات الامير فهد مع الرئيس الاميركي ، ونفى انباء تحدثت عن احتمال اجتماعه مع سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي في زيارته المنتظرة للمنطقة · واعلن في الكويت (٦/١١) ، ان المقاومة عازمة على تنفيذ اتفاق القاهرة في لبنان ، واعرب عن اسفه للغط الدائر حول الاتفاق ·

ب · ح

المناطق المحتلة

سنركز الحديث حول الاحداث الاخيرة التي جرت في المناطق المحتلة حتى بداية نهاية حكم حزب العمل الاسرائيلي في السابع عشر من ايار ٠

في هذه الفترة شهدت المناطق المحتلة جملة احداث تمثلت في تصاعد موجة الاضطرابات والتظاهرات في الضفة الغربية ، واضراب المعتقلين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية بعد انطلاق شرارة الاضراب في سجن عسقلان ، وتصاعد وتيرة الاستيطان في المناطق المحتلة بشكل عام وفي الضفة الغربية بشكل خاص ٠

موجة الاضرابات والتظاهرات :

تعتبر موجة الاضرابات والتظاهرات الاخيرة ، امتدادا طبيعيا لحالة النهوض الوطني التي اشتد ساعدها في العام ١٩٧٦ والتي اثبتت نفسها في التصدي المتواصل للاجراءات الاسرائيلية وعلى رأسها ضريبة القيمة المضافة التي كانت سلطات الاحتلال قد فرضتها على المناطق المحتلة ٠ ولعل واقع فرض الضريبة على الشريحة البرجوازية وخاصة التجار واصحاب الحوانيت ، وما ترتب عليه من دفع هذه الشريحة الى الاضرابات والتظاهرات التي توجهها وتقودها الجبهة الوطنية الفلسطينية بواسطة الشرائح الاجتماعية العريضة ، يعتبر من بين العوامل الاساسية التي عززت من قدرة الحركة الوطنية على مواجهة الاحتلال باشكال وقوالب نضالية مختلفة ٠

الا ان ما يميز الفترة الاخيرة مدار البحث عن الفترات السابقه ، يتمثل في حدة تفاعل الحركة الوطنية مع الحدث ، سواء كان الحدث مناسبة وطنية او اجراء يستهدف تكريس الاحتلال ٠ ولعل القاء نظرة سريعة على مسلسل الاضرابات والتظاهرات خير دليل على مدى ما وصلت اليه الحركة الوطنية من تفاعل مع الحدث ، ومحاولة توجيهه في مجرى رفض الاحتلال ٠

١ ــ انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني : كان لانعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الاخير في القاهرة صداه في مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية على شكل تظاهرات تأييد ، اصطدم المتظاهرون خلالها مع قوات الاحتلال ٠ فقد اشارت يديعوت احرونوت (٧٧/٣/١٣) الى ان الطلبة في رام الله وفي مخيم اللاجئين الاموي تظاهروا واقاموا الحواجز ، ورجموا قوات الامن اثناء تفريقها لهم بالحجارة ، وذكرت ان رؤساء بلديات ومجالس محلية في الضفة الغربية بعثوا برسالة الى المجلس الوطني الفلسطيني تضمنت « نداء لمقاومة كل تسوية في المنطقة لا تأخذ بعين الاعتبار الرغبة في اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، ومنح م٠ت٠ف حق الظهور في جنيف ، والتصدي لكل تغيير في الميثاق الفلسطيني »٠

٢ ــ اغتيال كمال جنبلاط : ادت عملية الاغتيال الى حدوث تظاهرات ومسيرات جنائزية في الضفة الغربية ، واشارت عل همشمار (٧٧/٣/١٨) الى ذلك بقولها ان سكان الضفة واجهوا عملية

الاغتيال » بالحداد والاسى العميق » كما واشارت الى انه قد » جرت فى عدد من مدن الضفة مسيرات جنائزية انتهى قسم منها بأعمال نسف »٠

٣ ـ يوم الارض : شارك السكان في الضفة الغربية السكان العرب في فلسطين المحتلة سابقا ، في احياء الذكرى الاولى ليوم الارض ، على شكل تظاهرات واضرابات ، واشار مراسل هآرتس (٧٧/٣/٣١) الى ذلك بقوله انه قد « جرى في جميع المدن الكبيرة في الضفة الغربية باستثناء اريحا وجنين ، اضراب تجاري شامل تعاطفا مع الذكرى السنوية ليوم الارض الخاص بعرب اسرائيل ٠٠٠ » وقال ان قوات الامن الاسرائيلية استخدمت الغاز المسيل للدموع في تفريقها للمتظاهرين في المدن المختلفة ، والقت القبض على البعض منهم٠

التعاطف مع المعتقلين الفلسطينيين : منذ اعلان المعتقلين السياسيين في سجن عسقلان الاضراب عن الطعام ، وانتشار ظاهرة الاضراب وتعميمها في بقية السجون ، ولغاية انتهاء الاضراب بعد اكثر من شهر ، والضفة الغربية تشهد تظاهرات طلابية ونسائية هنا وهناك ، تدعم وتؤيد مطالب المضربين ٠ ومن الجدير بالذكر ان التظاهرات التي كانت تحدث في تلك الفترة لاسباب مختلفة ، كانت ترفع شعارات مطالبة بتحقيق مطالب المعتقلين المضربين ٠

الرد على الاعتداء بالتظاهر والاضراب: كثيرا ما تحدث اضرابات ومسيرات كرد فعل على اعتداء تقوم به قوات الاحتلال ضد شخصيات وزج اعداد كبيرة في السجون ، فقد حدث مثلا ان اضربت مدينتا البيرة ورام الله اضرابا شاملا في اعقاب ما اسمته يديعوت احرونوت (٧٧/٣/٩) » ادعاء رئيس بلدية البيرة واحد اعضاء المجلس البلدي انهما ضربا يوم الاثنين على يد ضابط اثناء تظاهرة طلابية حدثت هناك » والقت الاتحاد (٧٧/٣/١١) الضوء على تفاصيل الحادث ، فذكرت بان طلبة مدرسة الهاشمية قاموا بتظاهرة امام مدرستهم تأييدا لمطالب السجناء السياسيين العرب في سجن عسقلان واشتبك الطلبة المتظاهرون مع قوات اسرائيلية معززة قامت باقتحام المدرسة والقت بقنابل الغاز على الطلاب والمعلمين ،.واعتقلت ٧٠ طالبا » واعتدت عليهم بالضرب الوحشي وكسرت اعضاء غالبيتهم » وذكرت ان السيد عزمي الشعبي عضو بلدية البيرة حضر الى ساحة الاشتباك في المدرسة واعرب عن احتجاجه لقائد القوة الاسرائيلية » فما كان منه الا ان صفع عضو البلدية وامر باخراجه من المدرسة ، واخرج بالقوة ٠ وحينما حضر رئيس البلدية نفسه اعتدي عليه ايضا »٠

الخامس عشر من ايار : وبمناسبة الخامس عشر من ايار ، اليوم الذي اعلن فيه عن قيام » دولة اسرائيل »، جرت اضرابات وتظاهرات في معظم مدن وقرى الضفة الغربية ، ففي مدينة نابلس (هآرتس ١٦ـ٥ـ٧٧) جرت تظاهرات طلابية ، واشتبك الطلبة مع القوات الاسرائيلية » وقذفوا الحجارة ، واحرقوا الدواليب ، واستخدموا المقاليع ضد رجال الامن » وفرض حظر التجول على المدينة٠ كما وحدثت اضرابات وتظاهرات مشابهة في جنين ورام الله ومخيمات اللاجئين ٠

الحملات الاستيطانية : لا شك في ان الاجراءات الاسرائيلية في المناطق المحتلة وخصوصا الاستيطانية منها تعتبر من اهم العوامل وراء التظاهرات والاضرابات ولعل الحملات الاستيطانية التي يقوم بها غلاة المستوطنين المنضوين تحت لواء جوش ايمونيم في المناطق المحتلة بفرض خلق وقائع جديدة هناك دون انتظار

موافقة سلطات الاحتلال قد دفعت السكان للتصدي بمسيرات وتظاهرات مضادة وعنيفة · ففي اعقاب المسيرة الضخمة لجوش ايمونيم والتي اشترك بها الالاف من المستوطنين في المنطقة الواقعة بين قلقيلية ونابلس ، والاعلان عن تدشين مستوطنة شرقي قلقيلية تحمل اسم « قوني شومرون » ، وفي اعقاب المسيرة الاستيطانية لمنطقة مسحه شرقي كفر قاسم، جرت مظاهرات في عدد من مدن الضفة الغربية وخصوصا في نابلس استمرت اكثر من اسبوع وصفتها الصحافة الاسرائيلية « بالعنيفة » حدثت خلالها اصطدامات واعتقالات وحظر تجول ·

وعادت المظاهرات واتسع نطاقها في الجزء الثاني من شهر نيسان نتيجة استفزازات الحاخام كهانا الذي ارسل مذكرة الى وجهاء منطقتي نابلس والخليل يدعوهم فيها الى حضور حفل اقامة مستوطنة في مدينة نابلس وجاء في رسالته « من المعروف لكم أن شعب اسرائيل الذي حصل على ارض اسرائيل من الله طرد من هذه البلاد على ايدي المحتلين الرومان · وكانت نابلس احدى المدن التي دمرها الرومان · وانه لفخر كبير لنا وفرصة عظيمة ان نعلن ، بمساعدة الله ، ان شعب اسرائيل يعيد الان بناء مستوطنة يهودية في شخيم »· (الاتحاد ٢٩/٤/٧٧) وفي ١٧/٤/٧٧ توجه الحاخام كهانا مع مجموعة من رجاله ، بعضهم يحمل مدافع رشاشة الى نابلس ، وهناك توجه الى مقر البلدية « للاجتماع » برئيسها ، وعندما وصل الى المبنى ، تصدى له الموظفون هناك كما ذكرت معاريف (١٨/٤/٧٧) وحدث تلاسن بين جماعة كهانا والموظفين العرب وسط اجواء مشحونة بالتوتر ، ارتفعت حدتها عندما رفع خمسة من جماعة كهانا مدافع العوزي مهددين المواطنين العرب وعند ذاك ، اخذ العرب يهتفون « نابلس عربية ، فلسطين عربية » ، وصاح احد الموظفين العرب باتجاه كهانا « لقد اخذت بلادنا ، الا يكفيكم » ورد عليه كهانا « ٠٠٠ نابلس ستصبح مدينة يهودية · شعب اسرائيل حي » · ولم يتمكن كهانا من دخول البلدية ، وتوجه الى شوارع نابلس وسط حراسة قوات الامن الاسرائيلية، ومن ثم توجه الى جبل جرزيم ، وهناك حدد مكان المستوطنة التي يريد بناءها بواسطة نواة استيطانية تحمل اسم « ولاشبر» · واجتمع بعد ذلك بالحاكم العسكري للمدينة ·

ومن الجدير بالذكر ان مدن الضفة الغربية كانت مضربة في ذلك اليوم بمناسبة « يوم السجين الفلسطيني » وكان من نتيجة « زيارة » كهانا لنابلس ان تفجرت تظاهرة ضخمة في المدينة حتى خروج كهانا منها ، رفعت خلالها الاعلام الفلسطينية ، وكالعادة تصدت القوات الاسرائيلية للمتظاهرين بالقنابل المسيلة للدموع واعتقلت عددا منهم ·

ضريبة الدم في قباطيا :

في الثالث من ايار سقط في بلدة قباطيا الواقعة بين جنين ونابلس شهيدان وعدد من الجرحى ، سقط الشهيد بلال ابو الرب البالغ ١٩ عاما اثناء تظاهرة جرت في الصباح ، وسقطت الشهيدة فاطمة حمامدة البالغة من العمر ٥٥ عاما بعد ظهر اليوم نفسه اثناء مراسيم تشييع الشهيد بلال !

وقصة سقوطهما تكمن في قصة التصدي للاجراءات الاستيطانية « الرسمية » الحكومية بشكل عام « وغير الرسمية » التي يقودها جوش ايمونيم بشكل خاص ·

ففي اواخر شهر نيسان نشر جوش ايمونيم في الصحف الاسرائيلية بيانا يدعو فيه انصاره ومؤيديه ان ينظموا انفسهم استعدادا لاقامة واقع جديد في

سهل دوثان التابع لمجموعة قرى عربية ومن بينها بلدة قباطيا ٠

وقد زامن نشر البيان الحملات الاستيطانية التي قام بها جوش ايمونيم في انحاء مختلفة من الضفة الغربية ، الامر الذي دفع سكان بلدة قباطيا للدفاع عن السهل قبل غرس الامر الواقع ٠

وبالفعل تنظم السكان في الثالث من ايار في تظاهرات واضرابات عمت البلدة ، واغلق المتظاهرون الطريق الرئيسي ، وعند مرور سيارة عسكرية اشتبكوا معها بالحجارة ، ورد الجنود بالرصاص ، ووصفت عل همشمار (٧٧/٣/٤) سقوط بلال بقولها « وخلال اطلاق النار اصيب احد الشبان برصاصة في رأسه ، وسقط وسط سواعد رفاقه الذين قاموا بنقله بسرعة داخل البلدة ، وفي مستشفى جنين الذي نقل اليه تقرر موته » ٠

لم ينته الامر عند هذا الحد ، فقد اراد الحاكم العسكري لمنطقة جنين اجراء مراسيم التشريع وسط تظاهرة كبيرة،فاجأ خشية حدوث تظاهرات اشد ، الا ان سكان البلدة وذوي الشهيد رفضوا رغبة الحاكم العسكري واصروا على تشييع الجثمان بعد ظهر نفس اليوم ، واثناء مراسيم التشييع وسط تظاهرة كبيرة ، فاجأ الحاكم العسكري سكان البلدة بقدومه على رأس قوة من احدى جهات القرية ، مدعوما بقوة مساندة من جهتها الاخرى ٠

واصطدم الاهالي مع قوة المساندة ، وأحرقوا سيارة جيب عسكرية ، واطلق قائد المجموعة النار على الاهالي وسقطت حينذاك الشهيدة فاطمة حمامدة ، كما وسقط عدد من الجرحى بين الطرفين ٠ وقد تم تشييع جثمانها تحت ستار الظلام، اثناء حظر التجول ٠

وكان من نتيجة ذلك ، حدوث اضرابات وتظاهرات في عدد من مدن الضفة ، ففي نابلس اضربت الاسواق وتظاهر الطلبة واصطدموا مع قوات الامن التي قامت بدورها بفرض حظر التجول على حي القصبة تسع ساعات ٠ وفي جنين اضربت المدينة استنكارا لمصرع الشهيدين ٠ وفي رام الله تظاهرت طالبات معهد المعلمات. كما وتظاهر شبان مخيم اللاجئين في قلندية ٠ واعتقلت القوات الاسرائيلية قرابة ٧٠ شخصا من انحاء مختلفة في الضفة ٠

ولم ينفذ جوش ايمونيم وعده «بزيارة» السهل ٠

الاضراب في سجن عسقلان :

في الثاني والعشرين من شباط لهذا العام اعلن المعتقلون الفلسطينيون في سجن عسقلان الاضراب عن الطعام احتجاجا على أوضاعهم الصعبة في المعتقل ٠ واستمر هذا الاضراب اكثر من شهر ، وقد حاولت سلطات الاحتلال وضع حد للاضراب الا انها لم تفلح في ذلك ، ذ انتشرت ظاهرة الاضراب وشملت سائر المعتقلات ٠ وكان لها صدى كبير سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي ٠

لا شك بان الاضراب امتداد لحالة النهوض الوطني ومكمل لها ، كما وانه ليس الاول من نوعه ، ففي الشهر الاخير من العام الماضي حدث اضراب عن الطعام في سجن عسقلان استمر اكثر من اسبوعين ، طوقته وسائل الاعلام الاسرائيلية بالتعتيم ٠ الا ان الهيئات النسائية في الضفة الغربية وقطاع غزة وامهات المعتقلين ، حاولن كسر طوق التعتيم ، باستصراخ الرأي العام العالمي بواسطة المذكرات التي ارسلت الى الامم

المتحدة وجامعة الدول العربية والصليب الاحمر الدولي ولجنة حقوق الانسان ، اعربن فيها عن احتجاجهن على «الاوضاع اللا انسانية السائدة في السجون الاسرائيلية » كما واشفعن المذكرات بتظاهرات في القدس وغزة تأييدا لمطالب المعتقلين المضربين ·

وخلال الاضراب الثاني تمكن المعتقلون بفضل تنظيمهم القوي وارادتهم الصلبة من اسماع مطالبهم ، ونقل قضيتهم الى الفئات اليسارية الاسرائيلية المتعاطفة معهم ، والى الجمهور العربي في فلسطين المحتلة سابقا ، والمناطق المحتلة ، وبالتالي ايصال قضيتهم الى الرأي العام العالمي ·

يوجد في سجن عسقلان ، حسب المصادر الاسرائيلية ، ٤٣٠ معتقلا «امنياء صدرت بحقهم احكام بالسجن المؤبد ، وبعض هؤلاء صدرت بحقه احكام بالسجن مدى الحياة مرات عدة ، و٦٧ محكوم عليهم بالسجن لفترات تزيد على العشرين عاما ، كما ويخضع حوالي نصف المعتقلين للاشغال الشاقة · ويعاني هؤلاء من اوضاع صعبة · وقد افصح مراسل يديعوت (٧٧/٣/١١) عن ذلك بعد زيارته للسجن بقوله : « ان انطباع اولئك الذين زاروا في الاسابيع الاخيرة سجن عسقلان يفصح عن سلبيات اكثر مما يفصح عن ايجابيات : ان حالة الاكتظاظ في السجن لفظيعة ، ففي غرفة الاعتقال يحشر بضعة عشرات من السجناء ، يعيشون بداخلها ، وياكلون فيها ويقضون حاجاتهم فيها ايضا · كما ان مستوى النظافة في السجن سيء للغاية ، ووجبات الطعام قليلة وغير متنوعة » ·

ويمكن استشفاف ما يعانيه المعتقلون من خلال القاء نظرة على المطالب التي قدمها زعيم المعتقلين محمد بسيسو وهي :

١ ـ الغاء حالة الاكتظاظ في السجن ، حيث يتم حشر عشرين معتقلا في غرفة ضيقة ·

٢ ـ توفير فراش عادي واسرة للنوم بدل فراش المطاط الذي يبلغ سمكه سنتمترا واحدا ·

٣ ـ توفير ملابس تتلاءم وفصول السنة ·

٤ ـ الحصول على طعام كالمقدم للسجناء اليهود ·

٥ ـ السماح بالزيارة مرة كل اسبوعين دون تحديد عدد الزائرين كما هو الحال بالنسبة للسجناء اليهود ·

٦ ـ السماح بادخال الكتب التي يريد المعتقلون قراءتها (انظر الاتحاد ٢٥ـ٢ـ٧٧)

الا ان مصلحة السجون رفضت هذه المطالب ، وحاولت كسر الاضراب مستخدمة ضغوطات عدة ، ولكنها اصطدمت هذه المرة بتنظيم قوي لدى المضربين ، فقد اشارت الصحف الى وجود لجنة للاضراب تتشكل من اربعة اشخاص يمثلون التنظيمات الفلسطينية المختلفة ، وهم : محمد بسيسو ، وجبر عماد ، ومحمد القاق وعبد الله العجيري · كما وذكرت ان لديهم « محكمة » تصدر احكامها بحق اولئك الذين يثبت تعاونهم مع سلطات الاحتلال ·

وعندما فشلت السلطات في انهاء الاضراب ، قامت في الثامن والعشرين من شباط بتوزيع عدد كبير من المضربين على السجون المختلفة ، كما وزجت بلجنة

الاضراب في سجون اخرى ، ووضعتهم وفق شهادة المحامية فليتسيا لانغر (الاتحاد ٧٧/٣/٨) « في زنازين منفردة حيث ينامون على الارض بدون اي فراش او غطاء ٠٠٠ » ولم يبق في سجن عسقلان حسب شهادة مراسل التلفزيون الاسرائيلي (يديعوت احرونوت ١٠-٣-٧٧) بعد عملية توزيع المعتقلين الا « ٣٥ مضربا عن الطعام يعيشون في غرفة واحدة ويخضعون لمراقبة طبية » .

الا ان الطريقة التي توخت منها السلطات الاسرائيلية وضع حد للاضراب، حملت بين ثناياها تعميم الاضراب على سائر المعتقلات ، فقد اخذ المعتقلون الفلسطينيون في السجون الاخرى يستقبلون معتقلي عسقلان باعلان الاضراب في حال وصولهم ، واخذت ظاهرة الاضراب تتسع ، ففي سجن جنين اعلن المعتقلون الفلسطينيون الاضراب عن الطعام وطالبوا بتحسين اوضاعهم ، وفي سجن كفار يونا اعلن المعتقلون الاضراب عن الطعام بعد وصول ٧٠ معتقلا من سجن عسقلان ، وفي سجن رام الله اعلن مئتا معتقل الاضراب عن الطعام تضامنا مع رفاقهم في عسقلان ، وكذلك في الخليل اعلن حسب قول عل همشمار (٢١/٣/٧٧) « عشرات السجناء الامنيين في سجن الخليل الاضراب عن الطعام تأييدا للمخربين السجناء الذين اعلنوا الاضراب عن الطعام في سجون مختلفة في البلاد »، وافادت ان سلطات الحكم العسكري تعتزم « توسيع السجون في الخليل وجنين » وامتد الاضراب الى سجن الدامون ، حين اضرب المعتقلون الفلسطينيون ٣٦ ساعة كما ذكرت الاتحاد (٧٧/٣/٢٢) « احتجاجا على تنكيل سلطات السجن بهم وسوء المعاملة » .

ومن الجدير بالذكر ان اضراب معتقلي عسقلان واتساعه وشموله سائر المعتقلات قد حظي هذه المرة بتعاطف ودعم فئات اسرائيلية تقدمية ، مثل حركة النساء الديمقراطيات في اسرائيل التي بعثت بمذكرة الى المسؤولين الاسرائيليين جاء فيها « لا زال مطالب المضربين كما كانت في المرة الاولى : مساواة شروط سجنهم مع الشروط التي تمنح للسجناء اليهود ٠٠٠ » وقالت المذكرة ان « الاضراب المتجدد يعرض حياة المعتقلين للخطر وخاصة اولئك الذين لا يزالون يعانون من نتائج الاضراب السابق ٠ اذ ان بعضهم انخفض وزنه عشرات الكيلوغرامات ، وان حالتهم الصحية تتطلب المعالجة السريعة » (انظر الاتحاد ٧٧/٣/١) ٠

ونشط عرب المنطقة المحتلة سابقا في اعلان تعاطفهم مع المعتقلين المضربين ، فقد اضرب عن الطعام عند اواخر شهر شباط قرابة خمسين طالبا عربيا في الجامعة العبرية ، ووزعوا منشورا بهذا الخصوص ٠ (انظر عل همشمار ٧٧/٢/٢٨) وجرت بعد ذلك تظاهرة تأييد في تل ابيب شارك فيها عرب ويساريون يهود ، وجرت تظاهرة مماثلة في معهد الهندسة التطبيقية في حيفا ٠

وتوجهت مجموعة تضم عربا وعناصر يهودية نحو سجن عسقلان ، وهناك اخذ هؤلاء ، كما ذكرت يديعوت احرونوت (٧٧/٣/١٤) يهتفون من اجل « فلسطين علمانية ديمقراطية » ويرددون الاناشيد الوطنية الفلسطينية ٠

واثناء الاحتفالات بيوم الارض ، على مدار النصف الثاني من شهر آذار عبر عرب الارض المحتلة سابقا ، عن تعاطفهم مع المعتقلين الفلسطينيين ٠ اما في المناطق المحتلة ، وخصوصا في الضفة الغربية ، فقد نشطت الهيئات النسائية وامهات

المعتقلين في التظاهر ، وتقديم مذكرات الى الصليب الاحمر الدولي ، كما ووجه رؤساء البلديات مذكرات مماثلة الى المسؤولين الاسرائيليين · وحدثت تظاهرات شعبية متعددة وفي اوقات متفاوتة في الضفة الغربية تاييدا لمطالب المضربين ·

ونجح المعتقلون في ايصال صوتهم الى الرأي العام العالمي ، فقد تعاطف مع الاحزاب اتحاد النقابات الفرنسية ، كما وان رئيس مجلس السلم العالمي ارسل برقية الى رئيس حكومة اسرائيل ، احتج فيها ، كما تقول الاتحاد (٧٧/٣/١١) على « سوء المعاملة التي يلقاها السجناء السياسيون » ·

حركة الاستيطان : في السابع عشر من ايار ترك حزب العمل الحكم بعد مضي قرابة عشر سنوات على احتلال المناطق العربية ، بعد ان غرس في ارجاء مختلفة منها قرابة سبعين مستوطنة · وليس هنالك شك بان هذا التاريخ هو بمثابة محطة جديدة في تاريخ الاستيطان يمكن ان تتفرع منها خطوط تختلف كثيرا عن الخطوط السابقة اذا ما اخلص قائد القطار الجديد للخطوط العامة لمبادئه !!

لقد اتسمت الفترة الاخيرة من حكم حزب العمل ، على الصعيد الاستيطاني ، بتسابق الاستيطان « الرسمي » الذي توجهه الحكومة ، و « غير الرسمي » الذي يقوده جوش ايمونيم ، وظهور مشاريع مستقبلية ، ومصادرة الاراضي ، وابتداع اسلوب جديد غريب للحصول على الاراضي كالذي جرى في قرية دير ابو مشعل في الضفة الغربية ·

وبخصوص المستوطنات التي برزت على الارض والتابعة «للاستيطان الرسمي» فقد تركزت بمعظمها في الضفة الغربية وقطاع غزة · ففي الخامس والعشرين من كانون الثاني من هذا العام جرى احتفال باقامة مستوطنة تحمل اسم « الموج » بالقرب من شاطىء البحر الميت ومن مغارة قمران بحضور وزير الدفاع شمعون بيرس ، وقائد سلاح الناحال ومدير قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية (انظر دافار ٧٧/١/٢٦) · وفي اوائل شهر شباط اقيمت مستوطنة ناحال تحمل اسم « ريمونيم » على الطريق ما بين رام الله واريحا ، بالقرب من مستوطنتي كوخاف هشاحر ، ومغوشيلا اللتين تعتمدان على الصناعة · (انظر معاريف ٨ـ٢ـ٧٧) ·

وفي قطاع غزة تم الاحتفال بتحويل مستوطنة « نيشر حزاني » الواقعة في جنوب قطاع غزة الى مستوطنة دائمة بحضور عدد كبيرمن المسؤولين وعلى رأسهم رئيس الحكومة يتسحاق رابين الذي نقلت عنه هتسوفيه (٧٧/٢/١١) قوله « انه ليوم عظيم للدولة وللاستيطان، يوم يرمز الى دعم تمركزنا في المنطقة التي اصبحت منذ حرب الايام الستة جزءا لا يتجزأ من الدولة وأمنها »·

وتم تعزيز مستوطنة اوفيرا في شرم الشيخ بتدشين خط مياه على امتداد مئة كيلومتر من الطور الى المستوطنة · وقال حسب ما ذكرت دافار (٧٧/٤/١٣) في هذه المناسبة : « انني أؤمن بتواجدنا هنا لمدة طويلة لمتطلبات امن اسرائيل · انني أؤمن بان كل من يعيشون هنا سيستمرون في كونهم مواطني اسرائيل مدى الاجيال » ·

وفيما يتعلق بالمشاريع الاستيطانية المستقبلية فانها تشمل جميع المناطق العربية المحتلة ، فبالنسبة لهضبة

الجولان السورية ، صادقت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان برئاسة الوزير يسرائيل جليلي على اقامة ثلاث مستوطنات في منطقة واسط . وافادت معاريف (٧٧/٢/١) انه قد تم تحديد اماكن المستوطنات الثلاث التي ستبنى اثنتان منها وفق الاسلوب التعاوني والثالثة كيبوتس .

وبالنسبة للاراضي المصرية ذكرت معاريف (٧٧/٣/١١) انه من المقرر اقامة مستوطنتين جديدتين على شاطىء البحر الاحمر ، الاول الى الجنوب من مستوطنة نفيعوت والثانية في نابق بين مستوطنة دي زهاف واوفيرا .

كما واعلن ان وزير الزراعة اهارون اوزن يحمل في جعبته مشروعا لاقامة عشر مستوطنات جديدة هذا العام في مشارف رفح شمالي سيناء . وبمقتضى هذا الاقتراح كما ذكرت معاريف (٧٧/٤/٤) « ستخصص ثلاث للمهاجرين الجدد وثلاث لابناء المستوطنات والباقي لمستوطنين آخرين » .

وفيما يتعلق بالاراضي الفلسطينية ، فقد أعلن عن اعتزام حركة الموشافيم اقامة مستوطنة جديدة في منطقة فصال في غور الاردن . وافادت معاريف (٧٧/٥/٣) ان عملية اقامة المباني ستتم خلال السنة المالية الحالية ، وان النواة الاستيطانية التي ستشغل المستوطنة تتشكل من مهاجرين يهود من اميركا تتراوح اعمارهم بين ٢٠ـ٣٠ سنة .

ويبدو ان المستوطنات الجديدة التي برزت على الارض ، وتلك التي لا تزال تنتظر دورها ، لم تشبع النهم الاستيطاني لدى جوش ايمونيم الذي ينضوي تحت لوائه غلاة المستوطنين المدعومين من الليكود والمفدال . فقد نشط جوش ايمونيم في القيام بمسيرات وحملات استيطانية في مناطق مختلفة في الضفة . ففي السابع والعشرين من شباط حاول قرابة ٣٠ شخصا من نواة استيطانية تابعة لجوش ايمونيم تحمل اسم « غرب السامرة » خلق واقع جديد في مسحة الواقعة على بعد ٨ كلم شرقي قرية كفر قاسم . واحتل هؤلاء مركز الشرطة القديم ، الا انهم ارغموا على ترك المكان في نفس اليوم كما ذكرت هآرتس (٧٧/٢/٢٨) على يد قوات من الجيش الاسرائيلي هبطت هناك بواسطة طائرات هليكوبتر .

ومن الجدير بالذكر ان اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان كانت قبل شهر من ذلك، قد صادقت على استيطان مسحة ، الا انها اجلت البدء في اقامة الامر الواقع حتى تنتهي من صفقة بيع الاراضي هناك .

وتلقف حزبا ليكود والمفدال قضية الاستيطان في مسحة وهاجما في الكنيست الحكومة « لعدم تمكينها حتى الان نواة جوش ايمونيم من الاستيطان في غرب السامرة » وذكرت معاريف (٧٧/٣/٣) ان يسرائيل جليلي رد على المنتقدين بقوله ان الحكومة ستعمل كل شيء من اجل تنفيذ الاستيطان في مسحة ، وان الشروع بالاستيطان هناك مرتبط بـ « التغلب على شروط استيطانية عملية ... »

وعاد جوش ايمونيم عند اواخر شهر اذار واخذ يمهد ارضا بواسطة جرافة في منطقة قلقيلية بغرض خلق واقع جديد هناك ، وافادت دافار (٧٧/٣/٢٩) ان الحاكم العسكري لطولكرم امر بوقف نشاط جوش ايمونيم في تلك المنطقة ، واشارت الى ان المجموعة تركت المكان .

وفي الخامس من نيسان رد جوش ايمونيم بحملة استيطانية ضخمة اشترك

فيها قرابة ٢٥ الف شخص ، توجهت الى المنطقة الواقعة بين قلقيلية ونابلس . ووضعت حجر الاساس لمستوطنة مبنية تحمل اسم « قرني شومرون » في النقطة الواقعة على بعد حوالي ٩٢ كم شرقي قلقيلية ، الا ان هآرتس (٦/٤/٧٧) نقلت عن مصادر حكومية نفيها لخلق واقع جديد .

استملاك الاراضي ومصادرتها : الى جانب النشاط في اقامة المستوطنات يجري العمل بشكل دؤوب للحصول على اراض عربية ولا سيما في الضفة الغربية .

ومن الجدير بالذكر ان صفقات بيع الاراضي واستملاكها لا تتم بشكل مباشر بين اصحاب الاراضي وادارة اراضي اسرائيل ، بل بين اصحاب الاراضي وافراد يهود وشركة « هيمنوتا » التابعة للصندوق القومي لاسرائيل ، وبعد ذلك تقوم ادارة اسرائيل باستملاكها من الافراد اليهود او الشركة المذكورة ، ومن ثم تعد الارض لمشروع استيطاني .

وفي مقال له (هآرتس ١٨ـ٢ـ٧٧) ذكر يهودا ليطاني ان عملية صفقات بيع الاراضي قد انتعشت مؤخرا في مناطق غور الاردن الشمالي ، في البقيقة وقرية عقربة ، وكذلك في مناطق جوش عتسيون والقدس ، وجنوب رام الله ، والنبي صموئيل والجيب وبيت عورا التحتا ، وكذلك في منطقة مسحة الواقعة الى الشرق من كفر قاسم . وبخصوص منطقة مسحة قال : « ان صفقات الاراضي المعرفة بانها حساسة لا تزال غير منتهية في منطقة مسحة ، ولذا لم يصدر الضوء الاخضر حتى الان لنواة غرب السامرة ، ويبدو انه اذا لم تستكمل الصفقات حتى الاشهر الاخيرة ، فان الحكم العسكري سيصادر جزءا من الاراضي التي تسعى الادارة لاستملاكها من خلال وسطاء » .

واشار الى ان السلطات تعتزم شق « طريق امني » بين كفر قاسم وبين غور الاردن ، وستجري محاولات لشراء اراض من اجل اقامة الطريق . ولكن يبدو انه ستكون هنالك ضرورة بمصادرات واسعة للاراضي بغرض استكمال الطريق » .

الاشباح تتحرك وسط الظلام في دير ابو مشعل : واذا كانت ادارة اراضي اسرائيل تسعى في وضح النهار لامتلاك الاراضي العربية بشكل « رسمي » ، فان هنالك من يسعى الى ذلك تحت جناح الظلام وبوسائل خاصة ! فقد تعرضت قرية دير ابو مشعل الواقعة الى الشمال الغربي من رام الله ، بالقرب من « الخط الاخضر » ، ولا تبعد كثيرا عن مسحة ، تعرضت طوال شهر نيسان وحتى العاشر من ايار الى « زيارات » ليلية تقوم بها جماعة « مجهولة » ترتدي الزي العسكري واللباس المدني ، تستهدف تخويف سكان القرية وطردهم من قريتهم بغرض اقامة مستوطنة فوق اراضيهم ، وتعتبر هذه المحاولات فريدة من نوعها ، اذ لم تشهد الحركة الاستيطانية خلال العشر سنوات الماضية ، محاولات من هذا النوع ، كما وان استيطان « سور وبرج » في اواخر الثلاثينيات ، والذي يعيد الى الاذهان الاستيطان الابيض في الغرب الاميركي . يخلو هو الاخر من هذا الاسلوب . وروى ابو ماهر المتحدث باسم سكان قرية دير ابو مشعل قصة « الزيارات » الليلية في مؤتمر صحفي عقده في رام الله على اثر تظاهرة قام بها سكان القرية بعد ان عيل صبرهم ، ولم تسفر الشكاوى التي قدموها للحاكم العسكري عن شيء ، روى قصة القرية مع الاشباح ، ونقلتها عنه هآرتس (١٣/٥/٧٧) . فقال « منذ اربعين يوما يأتي الى تخوم قريتنا

مجهولون ··· يطرقون ابواب المنـــازل ويطلبون من السكان قطعتين كبيرتين من الارض ، وفي الواقع كل اراضي القرية·· ··· وهؤلاء الرجال ، معظمهم يرتـدون ألبسة مدنية ، ويحملون اجهـزة اتصال ، واسلحة ومكبرات صوت ، يأتون كـل ليلة ببضع سيارات · في البداية كانوا يكتفون بالطرق فقط على الابواب ، وباسمـــاع تهديدات ومسبات ومطـــالب شفهيـــة بخصوص الاراضي ، وفي الايام الاخيـرة بدأوا يتصرفون بمزيـــــد من الشـــدة والعنف فقد بدأوا برشق نوافذ البيـوت بالحجارة وكسروا ابوابا ··· وامس··· قررنا جميعا في القرية تنظيم انفسنــا ، لنكيل الصاع صاعين ، حتى لو قتلونا·· وخلال الليل عاد وظهر افراد المجموعـة الاسرائيلية كما هو منتظر ، وبدأت معركة حقيقية بيننا وبينهم · رشقناهم بالحجارة، ورشقونا هم ايضا ، وعـــادوا وكسروا مماسك الابواب، وقطعوا خطوط الكهرباء، الا انهم اضطروا في النهاية للانصراف··»·

ومن الجدير بالذكر ان مراسل هآرتس توجه الى القرية ، بعد تظاهرة السكان في رام الله ومؤتمرهم الصحفي هناك ، واكد ما ذكر عن الاضرار التي لحقت بنوافـذ المنازل وابوابها المهشمة ، وتخريب الخط الكهربائي ، وذكر انه عندما وصل الـى القرية ، صاح به الاطفال هناك ،لاعتقادهم انه ينتمي الى الاشباح الليلية ، هاتفيـن « فلسطين عربية » ·

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

الاسباب الرئيسية لسقوط حزب العمل

يعتبر سقوط حزب العمل في الانتخابات الاخيرة للكنيست التي جرت في ١٧ ايار الماضي ، وفوز الاحزاب اليمينية المعروفة بكتلة « ليكود » نقطة تحول هامة في حياة اسرائيل ، ليس من الناحية السياسية فقط ، وانما من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ايضا ، نظرا للتطورات المتوقعة على هذه الاصعدة خلال الفترة المقبلة · فعلى الصعيد السياسي ، يعتبر فوز اليمين تصعيدا للتطرف السياسي كما عبرت عنه مواقف الحكومات السابقة بقيادة المعراخ ، خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ومصير المناطق المحتلة · وافضل دليل على ذلك البرنامج المتصلب لحكومة بيغن فيما يتعلق بالمفاوضات المباشرة مع العرب دون شرط او « طرف ثالث » ، وبالاستيطان في المناطق المحتلة وفق الاهداف الصهيونية وليس الامنية فقط · وهنا يمكن التساؤل : هل قدس الاسرائيليون الاحتلال ، خلال الانتخابات الاخيرة ، وهل ان سياسة « ليكود » هي تعبير حقيقي عن رغبات اغلبية الاسرائيليين ؟· ان الرد على هذا السؤال يكمن في النتائج النهائية للانتخابات ، ومعرفة القطاعات التي صوتت لكتلة « ليكود » ، وهل ان هؤلاء صوتوا لدوافع سياسية مصدرها التعامل مع مواقف اليمين في هذا المجال ، ام لدوافع اخرى اجتماعية واقتصادية ، ضايقت مؤيدي « الليكود » اثناء حكم « المعراخ » ، وادت الى سقوطه ؟·

يظهر من النتائج النهائية للانتخابات الاخيرة ، ان « الليكود » حصل على اصواته من ثلاث فئات داخل المجتمع الاسرائيلي : الطوائف الشرقية ، الفئات ذات الدخل المنخفض والشباب (بما في ذلك الجيش) · « فمنذ عشر سنين تشير استفتاءات الراي العام باستمرار الى تزايد الاتجاه اليميني بين هذه الفئات الثلاث ·· التي يزداد اتساع رقعتها الجماهيرية تدريجيا بالمقارنة مع الفئات الاخرى ، بحيث يمكن القول ان مستقبل الانتخابات في اسرائيل متعلق بها ·

فأصوات « الليكود » داخل الجيش ارتفعت الى ضعف عدد اصوات المعراخ (انظر الجدول الاول) · وينطبق الامر نفسه على المستوطنات التي معظم سكانها من

(الجدول الاول)

جدول بعدد المقترعين ونسبتهم للقوائم الفائزة في الانتخابات للكنيست التاسع ، ونسبة المقترعين في الجيش وعدد المقاعد لكل قائمة

القائمة	عدد الاصوات	نسبة المقترعين	نسبة المقترعين في الجيش	عدد المقاعد
ليكود	٥٨٣٠٧٥	٣٣ر٣٦٪	٤٥ر٥٪	٤٣
معراخ	٤٣٠٠٢٣	٢٤ر٦٪	٢٢ر٢٪	٣٢
داش	٢٠٢٢٦٥	١١ر٥٧٪	١٦٪	١٥
المفدال	١٦٠٧٨٧	٩ر٢٠ ٪	٥ر٢ ٪	١٢
راكح	٧٩٧٣٣	٤ر٥٦ ٪	٠ر١ ٪	٥
اغودات يسرائيل	٥٨٦٥٢	٣ر٣٦ ٪	٠ر٤ ٪	٤
شلوم تسيون	٢٧٢٨١	١ر٥٦ ٪	٢ر٨ ٪	٢
شلي	٣٢٩٤٧	١ر٩٤ ٪	٢ر٢ ٪	٢
بوعلي اغودات يسرائيل	٢٣٩٥٦	١ر٣٧ ٪	٠ر٤ ٪	١
القائمة العربية	٢٤١٨٥	١ر٣٨ ٪	٠ر٢٥ ٪	١
احرار مشفلين	٢١٢٧٧	١ر٢٢ ٪	٠ر٤ ٪	١
بلاتوت رون	٣٥٠٤٩	٢ ٪	١ر٨ ٪	١
حركة حقوق المواطن	٢٠٦٢١	١ر١٨ ٪	١ ٪	١

عدد المقترعين اصحاب حق الانتخاب ٢٢٣٦٢٩٢

الذين صوتوا بالفعل ١٧٧١٧٢٦

الاصوات الصالحة ١٧٤٧٨٢٠

المصدر : معاريف ، ١٩٧٧/٥/٢٥
هآرتس ، ١٩٧٧/٥/٢٢

(الجدول الثاني)

نسبة فوز الليكود في المدن الكبيـــرة ومدن التطوير

	١٩٧٧	١٩٧٣
المدن الكبيرة	٣٦ر٥	٣٥ر٣
المدن الصغيرة والقرى الكبيرة	٣٦ر٠	٣٠ر٢
المستوطنات القديمة	٣٥ر٠	٣٠ر٦
مدن وقرى المهاجرين	٤١ر٦	٣٣ر٢
قرى التطوير	٤٠ر٤	٢٩ر٢

ملاحظات

١ ـ معظم سكان قرى التطويـــــروالمهاجرين من اصل شرقي ، صوتوا في الماضي بشكل بارز لباي ، ولحزب العملوللمعراخ ٠

٢ ـ بلغ مجموع الاصوات التي حصل عليها الليكود نحو ٥٨٥ الف صوت مقابل ٤٧٣ الفا في الانتخابات السابقة ٠

المصدر : (دوف عشمون ـ يديعـوت احرونوت ، ٣/٦/٧٧) ٠

الطوائف الشرقية (الجدول الثـــاني) بينما ارتفعت نسبة التصويت « لليكود » في الاحياء الفقيرة في المدن الكبيرة الى نحو ثلاثة اضعاف نسبة التصويـــــت للمعراخ (دافيد شاحام ـ دافار ، ٢٩/٥/٧٧) ٠ ففي تل ابيب بلغت نسبـــــة التصويت « لليكود » في الاحياء الفقيرة في المدينة ٥٣٪ وللمعراخ ١٧٪ فقط ٠ وفي حيفا بلغت نسبة التصويــت في الاحياء الفقيرة ٤١٪ لليكود و ١٩٪ للمعراخ ٠

ويمكن من خلال مراجعة نتائـــــج الانتخابات الاشارة الى الاستنتاجـــات الآتية :

١ ـ ان المعراخ خسر مؤيدين في جميع القطاعات باستثناء الكيبوتسات ٠

٢ ـ ان نسبة التأييد « لليكود » بين الطوائف الشرقية وابناء الاحياء الفقيرة كانت مرتفعة جدا ، بحيث يمكن القول ان فوز « ليكود » يعود في الاساس الـــى تأييد هذه الفئات ٠

٣ ـ ان الناخبين من الطوائـــــف الغربية ، الذين ايدوا حزب العمل فـي الماضي ، منحوا اصواتهم هذه المـرة لحركة « داش » خاصة بين اصحـــاب المهن الحرة والاكاديميين ٠

٤ ـ التأييد « لليكود » بين الشـباب وفي الجيش (انظر الجدول الاول) ٠

٥ ـ الانتخابات للكنيست التاســـع اكسبت معسكر اليمين ثمانية مقاعـــد جديدة (٤ « لليكود » ، ٢ شلوم تسيون ، ٢ للحزب الديني القومي) ٠

الاسباب الاساسية لسقوط المعراخ

ان قوة المعراخ اليوم اقل من نصف القوة التي كانت للاحزاب المكونة منها ليس فقط في الانتخابات الاولى عشـــي

اسرائيل في سنة ١٩٤٩ ، قبل بداية الهجرة الجماهيرية ، وانما حتى ، في خوضها الانتخابات منفصلة في انتخابات ١٩٦٥ . » وخلال الاثنتي عشر سنة هذه حدث الانجراف ، ولم تنجح جميع الائتلافات — اقامة حزب العمل وبعد ذلك اقامة المعراخ — فالقوة المتحدة انخفضت خلال هذه الفترة حتى النصف » (دافيد شاحام — دافار ، ٧٧/٥/٢٩) .

ويحلل رئيس « مركز الانتخابات » في المعراخ حاييم بارليف ، الاسباب التي ادت الى سقوط قوة المعراخ على هذا النحو بقوله :« انني ارى ان هناك اسبابا رئيسية ، بعضها ناتج عن الوضع الموضوعي ، وبعضها ذاتي » .

«فمنذ حرب يوم الغفران اصبح الوضع الموضوعي صعبا جدا على جميع الاصعدة : السياسية ، الامنية ، الاقتصادية والاجتماعية . والاسرائيلي العادي يكتشف كل صباح وضعا مختلفا عن رغبته . فبعد ٢٩ سنة من الاستقلال ، وبعد خمسة حروب ، كنا نرغب في ان يتركونا ، في النهاية ، نبني الدولة بهدوء » .

« ولكن الواقع مختلف : فالدول العربية لا تتصرف كما كنا نرغب . والولايات المتحدة كذلك لا تتصرف حسب رغبتنا . كذلك فالاقتصاد العالمي لا يُدار حسب مشيئتنا. والهجرة تقلصت والنزوح ازداد . والجمهور اصبح اكثر نقدا . فالسلطة لم تعد سلطة ، ولا يمكن الاعتماد على المؤتمنين على القطاعات المختلفة . اما الانضباط الداخلي فقد ضعف ، وطبيعي ان يوجه اللوم الى القيادة ».

« والسبب الاخر ، الذاتي ، متعلق بالحكم — او بالمؤسسة — التي لم تستطع التغلب على الخلافات بين اعضائها . ان الخصومات والعلاقات الشخصية السيئة داخل الحكومة اصبحت حديث الجمهور ، ومركز اهتمامه . واقصد ، مثلا ، العلاقات بين رئيس الحكومة ووزير الدفاع ، وبين سكرتير عام الهستدروت ووزير المالية » (في حديث له مع معاريف ، ٧٧/٦/٣) .

تختلف آراء المعلقين والخبراء في الشؤون السياسية الداخلية في اسرائيل ، حول الفترة التي بدأ بها تفكك حركة العمل ، فمنهم من ينسبها الى حرب ١٩٧٣ ، حيث اتهم زعماء « المعراخ » بالتقصير في الحرب ، وبدأت شعبيتهم بالتقلص ، خاصة بعد ظهور حركات الاحتجاج التي طالبت علنية باستقالتهم جميعا من قيادة الدولة . وهناك من يعزو بدء التفكك الى حرب ١٩٦٧ حيث لم تستطع حكومة اسرائيل استغلال النجاح ، « فالنصر في حرب الايام الستة كان كبيرا ، وفرصة ترجمته الى عبارات سياسية ضاعت تماما » (زئيف شتيرنهيل — هآرتس ، ٧٧/٥/٢٩) . ويضيف الكاتب وهو رئيس قسم العلوم السياسية في الجامعة العبرية ، قائلا ، ان حزب العمل كان الضحية الاساسية في مرحلة شد الاحزمة ، التي وصلت الى نهايتها في ايار ١٩٧٧ مع نهاية تكامل مجرى اجتماعي وسياسي يتمثل في اساسه في نقل مركز الثقل السياسي نحو اليمين . ويقول الكاتب ان هذا المجرى لم يتجاوز احدا من القوى السياسية الهامة ، وله طابع مزدوج : حدث تحرك عام في النظام السياسي نحو اليمين . ومن جهة اخرى برزت راديكالية داخلية لدى كل من الكتل السياسية الرئيسية . وفي هذا المجرى فقد حزب العمل مضمونه وايديولوجيته ومؤيديه ، والاهم من ذلك المفهوم القومي التقليدي الذي كان تبناه : « فعلى اساس هذا المفهوم ، الذي تمثل في تجسيد سياسة صهيونية

براغماتية ، تعرف الحدود بين المعقول واللامعقول ، بين المسموح به والمحظور ، بين الامور المرغوب بها والمدمرة · لقد كان مفهوم « قيام دولة اسرائيل » اساس الايديولوجية الصهيونية كما تبلورت منذ مشروع التقسيم الاول للجنة بيل ، وحتى حرب الايام الستة · فخلال ثلاثين سنة كاملة ، حكمت صهيونية التقسيم ، الصهيونية « العاقلة » في الحياة السياسية في الييشوف وفي اسرائيل » وقد تهدمت بقوة الهزة التي حدثت في حزيران ١٩٦٧ · وخلال هذه السنين كانت تمتلك القوة الكافية لانشاء دولة ، واستيعاب هجرة ، وتثبيت نظام حكم ، وبناء انظمته ، كانت تملك قوة كافية للصمود في وجه الفقر والبطالة امام ضغوط داخلية كبيرة — ولكنها لم تملك القوة للتغلب على النجاح : فالنصر في حرب الايام الستة كان كبيرا جدا وفرصة ترجمته الى عبارات سياسية ضاعت تماما » · اما كيف حدث ذلك ، فبسبب « المواقف المتصلبة لحكومة غولدا مائير ، والخندقة التعيسة في خطوط وقف اطلاق النار ، واثناء حرب الاستنزاف ، واخيرا اثناء حرب يوم الغفران · ان هذه الامور جميعها سهلت المهمة على بيغن ورفاقه ، بينما ازدادت الهوة الايديولوجية بين اليسار واليمين تقلصا ، حتى اصيبت بالتآكل الطبيعي والانهاك ، وبفقدان الثقة ، وبجميع الظواهر الجانبية لنظام حكم طويل · ولقد ظهرت علامات هذا التفكك بصورة كبيرة في العجز الايديولوجي ، والتنكر للشبيبة ، والطبقة المثقفة ، وفي النهاية في ازمة النخبة السياسية ، اذ كلما مر الوقت اظهرت هذه النخبة عزلتهاوتجاهلها لمطالب المجتمع » (المصدر السابق) ·

ان التفكك الايديولوجي وفقدان الواقعية السياسية التي كانت سر قوة حركة العمل في الماضي ، هما السببان الاساسيان لسقوط العمال في نظر العديد من الخبراء السياسيين في اسرائيل · « ان حركة العمل لم تخطىء ابدا في الغوص في الرومانتيكية السياسية : فالاحلام لم تكن لديها اساسا لسياسة عملية ، وانما ترجمت للغة الواقع حسب الامكانيات في الظروف الحقيقية · وفي سنوات حكم غولدا مائير ، بدأت حركة العمل تفقد لاول مرة صفة الواقعية السياسية لديها · فقد اصيبت الدولة بحالة من الوهم الذاتي وفقدان الشعور بالواقع — الامر الذي انتهى بصدمة يوم الغفران » (بروفيسور يرمياهو يوفيل — يديعوت احرونوت ، ٧٧/٥/٢٠) ·

ويذكر دافيد شاحام ، احد الاعضاء البارزين في حزب العمل سابقا ، ان « اللاايديولوجية قد احتلت مكان الايديولوجية في حزب العمل — هذا يعني انه يجب التعامل مع كل مشكلة بأسلوب متحرر من الصبغة الايديولوجية وايجاد حل لها قدر الامكان بدون اساس مبدئي ··· ان حزب الاكثرية — مباي ومتفرعاته — قد تخلى عن الحفاظ على المضمون الاشتراكي وطور بدلا منه ، مبادىء اخرى لا ينظر بجدية الى تطبيقها ··· » (دافار ، ٧٧/٥/٣٠) · وحسب رأي الكاتب فقد وصلت الامور الى حد انه في فترات معينة ، كان نضال الاحزاب العمالية موجها ضد رغبة العمال في تحسين وضعهم · « ان معظم الاضرابات كانت اضرابات عنيفة قام بها العمال ضد الدولة ، التي تحكمها حركة العمال ، وضد النقابة المهنية ، التي تعتبر احد اجهزة الحكم في الدولة »·

« كل هذا كان لا يزال غير خطير ، لولا ازدياد عمق الهوة الاجتماعية — الاقتصادية في المجتمع الاسرائيلي · فقد ارتفع مستوى معيشة جميع الطبقات ، وبقي لجمهور العمال غير المهنيين فئات

من الثراء الكبير الذي كان من نصيب الاغنياء الجدد ، واحيانا من خلال تجاهل الحكم ، واحيانا بسبب الاهمال ، واحيانا اخرى – عن قصد ، كهدية مجانية » . ويضيف الكاتب قائلا ان ايديولوجية حزب العمل كانت تروى على لسان اولئك الذين « يملكون الاشياء » ، بينما وجد غيرهم عزاء له في مكان آخر . « فقد تساقطوا كثمار ناضجة الى صفوف ذوي العنف الديماغوجيين بين صفوف الليكود . وهناك ، من خلال رغبتهم في الثورة ضد « اليسار » وجدوا البشرى : اسقاط الحكم الذي يظلمهم ويرفض اشراكهم في حفلة الاثراء السهل . ان اضفاء الشعور القومي المتطرف العنيف ، الذي يطلق سراح الغرائز المكبوتة ، وينشر احلام التفوق التي تبهر كل من اعتاد على العيش بخيبة امل واذلال – لم يكن غريبا هنا . فقد حدثت امور مشابهة في اماكن اخرى في العالم » (المصدر نفسه) .

ان مجتمع الثراء الذي اكتسب الشرعية في عهد حكم حزب العمل ، كان عاملا اساسيا في تنكر الطبقات الفقيرة له ، وتاييدها لكتلة ليكود في الانتخابات . « ففي نظام حكم حزب العمل اصبح مستوى المعيشة (وبصورة ادق : مستوى الاستهلاك) من اعلى القيم في المجتمع ، واصبحت القدرة الاستهلاكية الدليل الاساسي ، الذي يحدد مركز ومكانة الفرد بين الجمهور ؟ » (بروفيسور يرمياهو يوفيل – يديعوت احرونوت ، ٧٧/٥/٢٠) .

لقد حدث هذا كله في آن واحد مع تجاهل الطبقات الدنيا . وهذا يعني ، الطوائف الشرقية بالمفهوم الاجتماعي الحقيقي للكلمة .. فرغم ان سياسة الانعاش التي اتبعتها الحكومة قد ادت الى تحسين وضع الطبقات الفقيرة ، فقد حدث في نهاية الامر تنكر بين حزب العمل وبين هذه الطبقات والاحياء الفقيرة والطوائف الشرقية .. « ان الهزيمة التي اصيب بها حزب العمل هي نتيجة مباشرة لرفض قرى التطوير الكبيرة والاحياء الفقيرة ، تبني سياسة معتدلة ، براغماتية ، تطمح الى تنظيم علاقاتنا مع جيراننا على اساس التنازلات » . (زئيف شتيرنهيل– هآرتس ، ٧٧/٥/٢٩) . اما السبب الرئيسي لهذا الرفض فيعود اساسا الى عوامل داخلية ادت الى التنكر بين حزب العمل وبين هذه الطبقات داخل اسرائيل .

وبين هذه العوامل الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه هذه الطبقات منذ قيام اسرائيل . وهناك عامل آخر تحدث عنه دافيد شاحام (دافار ، ٣١/ ٧٧/٥) ويتعلق بالتعليم الذي يتلقاه ابناء هذه الطوائف في اطار المدارس الدينية التي تخضع لسيطرة الاحزاب الدينية في اسرائيل . ويقول الكاتب ان توجه هذه الطبقات نحو اليمين ناتج عن توجهها الى نظام التعليم هذا ، ويدعى في اسرائيل « التعليم الديني – الرسمي » .

ويقول الكاتب ان « التعليم الديني الذي تقوم به المدارس الرسمية – الدينية (وبمدى كبير في المدارس العامة ايضا) هو تعليم بروح المفدال . اي بشكل لا يشدد على القيم الاخلاقية الانسانية ، وانما على قيم الدين والتقاليد ، اي ليس على القيم الروحية المتعلقة بمحبة الانسان لكونه انسانا ، ووفقا لقيم العدل والفضيلة ، وانما على قيم قومية متطرفة تتمثل بالانعزالية وبالشعور المزيف بالتفوق على ابناء الشعوب الاخرى ، هذا بالاضافة الى تربية الطلاب على كراهية الغرباء ، وحب الاحتلال والسلب . ان عبارة « الشعب المختار » تفسر لدى خريجي هذه المؤسسات ليس كتعبير عن رغبة الانسان في ان يفعل كل خير من اجل ان يكسب محبة الرب ، وانما تفسر

بالحقوق الكثيرة التي يجب ان تعطى لابناء هذا الشعب بحكم الوعد الالهي • ان الاسس الدينية ـ القبلية في الديانة اليهودية تمثل في مؤسسات هذا التعليم مكانا اكبر واهم من الاسس العلمانية ـ الروحية » •

ويضيف الكاتب قائلا : ان الخطأ التاريخي كان في ترك ابناء الطوائف الشرقية تحت رحمة شبكة التعليم الديني• « ان هذا التعليم الذي دام طوال عشرات السنين لا يمكن محوه بسرعة • وحركة العمل لا تستطيع احداث تحول في الجيل الحالي • ولكنها اذا كانت ترغب في عدم فقدان الجيل القادم ، فعليها ان تعطي رأيها في مسألة التعليم ايضا » (المصدر نفسه) •

لقد ادت هذه الاسباب مجتمعة الى هزيمة حزب العمل في انتخابات ١٩٧٧ • وقد كانت هذه الهزيمة نهاية حتمية للتفكك الداخلي في الحزب ، ايديولوجيا وتنظيميا وممارسة • اضف الى ذلك ، الفساد الذي انتشر بين المؤتمنين على تنفيذ مشاريع مختلفة ، وعلى مؤسسات كبرى ، الامر الذي تمثل بالفضائح المالية الكبرى والرشاوى والمخالفات التي ظهرت داخل الادارة ، حيث وصلت الى بيت رئيس الوزراء نفسه ، وادت الى استقالته قبل وقت قصير فقط من الانتخابات ، في وقت كانت قضايا اخرى مثل قضية يدلين وانتحار الوزير عوفر لا زالت تتفاعل •

اعادة تنظيم حزب العمل

بعد تلقي الهزيمة ، وبعد الاتهامات المتبادلة داخل حزب العمل بين الكتل المختلفة خاصة بين اعضاء « احدوت هعفوداه » و « الكيوبتس الوحد » من جهة، وبين مؤيدي بيريس من رافي ومباي سابقا ، ادرك زعماء الحزب وعلى رأسهم بيريس والون حقيقة الامر ، خاصة وان انتخابات الهستدروت على الابواب • فاتفقوا على تلافي الخلافات ورص الصفوف من اجل خوض معركة انتخابات الهستدروت التي تعتبر اهم معقل بالنسبة لحزب العمل • وفي هذه الاثناء قام مركز حزب العمل بانتخاب بيريس رئيسا للحزب ، بموافقة جماعة الون ورابين ، وينتظر ان يتم التصويت على هذا الانتخاب في مؤتمر الحزب القادم •

ويستعد حزب العمل خلال الفترة المقبلة للقيام بمهمات صعبة في مجال اعادة تنظيم نفسه ، وبناء مؤسساته من جديد • وهناك من يقول ان ترميم مؤسسات الحزب امر غير مجد ، وانما المطلوب هو ولادة الحزب من جديد : ايديولوجيا وتنظيميا • وهناك ثلاث احتمالات مطروحة للتطورات داخل الحزب خلال الفترة المقبلة : الامكانية الاولى انقسام المعراخ وحزب العمل خلال الفترة المقبلة ، عاجلا ام آجلا • « وفي نهاية الامر يقوم حزبان ، او كتلتان ، في الكتلة الاولى مبام ، احدوت هعفوداه ، شلي وجزء من مباي ، وفي الكتلة الثانية معسكر بيريس ، « داش » ، الاحرار المستقلون وقائمة حقوق الانسان • ومن ناحية الخريطة السياسية فان هذا الوضع يعتبر عودة الى الوضع الذي كان قائما في مطلع قيام الدولة : مباي التاريخية ومبام التاريخي مقابل اليمين والمتدينين » (دانيئيل بلوخ ـ ملحق دافار ، ٧٧/٦/٣) •

والامكانية الثانية التي يذكرها الكاتب في احتمال تحالف بين الاحزاب العمالية على حسب فكرة يعكوف حزان ، اي قيام تحالف بين اجسام سياسية واحزاب مستقلة على اساس برنامج حد ادنى مشترك ، تلتزم بموجبه سلفا بالتعاون بعد الانتخابات في حال خوضها الانتخابات بصورة مستقلة •

والامكانية الثالثة هيَ قيام حـــــزب ..ال جديد ، موحد ، يشمل حزب العمل ، مبام ، الاحرار المستقلين وقائمة حقـوق الانسان ، وربما حركة الياف (شلي) ، « بحيث يرتكز على قرار الاكثريـــــة والانتخاب الحر · فمؤسسات الحـــزب وادارته تنتخب بصورة مباشرة من قبل جميع اعضاء الحزب ، بطريقة اقليميـة ـ نسبية · وينتخب مركز الحزب حسب هذا الاسلوب من قبل اعضاء الحـزب ، كذلك ينتخب بصورة مباشرة ، من قبـــل جميع الاعضاء ، المرشح لرئاســـــة الحكومة والمرشح لسكرتارية الهستدروت· ويكون مؤتمر الحزب مكونا من اعضـاء المركز والمجالس الاقليمية ، وينتخب مـرة كل اربع سنوات ، ولكنه يجتمع كـــل سنة ، فيبحث في المواضيع الاساسـية : السياسية والاجتماعية والاقتصاديـــة ، والقضايا الصهيونية وشؤون الحـزب ، ويحدد برنامج الحزب في هذا الموضوع » (المصدر نفسه) ·

على ايّ حال فان حزب العمل يستعـد الآن لان يكون معارضة قوية داخـــــل الكنيست ، وسيضطر الحكم الجديد الى الاخذ برايه ، في الكثير من المواضيـع والقضايا ، خاصة في المجال الداخلي ، لان هناك قطاعات ومؤسسات كثيـــرة لا زالت على ولاء له ، نظرا لتاثيـــره الكبير داخلها · وقد اعلن يسرائيـــل جليلي احد الاشخاص البارزين داخـــل حزب العمل ان حزبه يستعد للقيـــام بواجباته البرلمانية بكل جدية « وباسلوب يناسب معارضة مسؤولة ومناضلـــة ، تتطلع الى خدمة الشعب ، من اجل اعادة كسب ثقته من جديد ، والعودة الى تسلم قيـــادة الدولة » (يديعـوت احرونوت، ٧٧/٦/٦) · ويضيف جليلي قائلا : ان حركة العمل ستضطر مع انتقالها الـــى صفوف المعارضة ، « الى التكيف مـــع اساليب عمل وتعبير ونضال ، يفرضهـا وضعها الجديد ، وان تعبر امام الجمهور عن ميزات طريقها ، وتحاول التاثير على الحكومة لمنع اتخاذ اجراءات سلبية فـي المجال الاجتماعي والاقتصادي ، ومنـــع اجراءات سياسية خطيـرة بالنســـــبة للدولة » (المصدر نفسه) ·

على كل حال فان نجاح حزب العمـل في مهامه هذه يتوقف الى حد كبير على ابراز الفرق بينه وبين خصومه ، وتنقية صفوفه من العناصر غير المسؤولة التـي كانت تستفيد اساسا من وجوده فـــي السلطة ، « ففترة الجلوس على الجواد قد انتهت · وهذا هو الثمن الذي ينبغي دفعه من اجل ايقاف الانحراف نحـــو اليمين ، وبناء حزب اشتراكي ديمقراطي يمكن ان يقود اسرائيل في المستقبل نحو السلام في المنطقة » (زئيف شتيرنهيل ـ هآرتس ٧٧/٥/٢٩) · واول عمل يجبُ ان يقوم به الحزب ، في رأي الكاتب ، هو تقديم انذار « لرجال ارض اســـــرائيل الكاملة » داخله ، وهو يرحب بانسحـاب دايان اخيرا « الذي اهان حزبه بشكـل لم يفعله احد من قبله ، وسبب له اضرارا جسيمة · ان حزبا يحترم نفسه كان عليه التخلص منذ زمن من شخص يشـــــير علنية الى ان مكانه محفوظ لدى الطـرف الآخر · وليس غريبا ان مصداقية حـزب العمل قد تضررت كثيرا بسبب استسلامها الدائم والمتكرر لمناورات دايان » (المصدر نفسه) ·

حنة شاهين

انزلاق في الموقف الأميركي تجاه التسوية

اثارت التصريحات الاخيرة التي ادلى بها الرئيس الاميركي ، جيمي كارتـــر ، وخاصة فيما يتعلـــق بانشـــاء وطـــن للفلسطينيين ، وتنفيذ قرارات الامــــم المتحدة ، المخاوف لدى مختلف الاوساط الاسرائيلية · وقد اعتبرت هذه الاوسـاط، سواء الحكومية منها او الصحافية ، هذه التصريحات بداية « انزلاق » خطير فـــي السياسة الاميركية ، وان ذلك يعنـــي ان هناك خطة اميركية لفرض تسوية فـــي المنطقة ، الامر الذي دفـــع المسؤوليـــن الاسرائيليين واجهزة الاعلام الاسرائيلية الى شن حملة عنيفة ضد سياسة الرئيس كارتر ، والمطالبة بتعبئة الرأي العــــام الاميركي واليهودي هناك ، لوقف تدهـور الموقف · وكان هناك من اعتبـــر فـــي اسرائيل ، ان تصريحات كارتر المتطرفة هذه ، قد جاءت كرد فعل على التصريحات المتشددة والمتصلبة التي اطلقها زعيم حزب « ليكود » مناحيم بيغن ، الذي فاز حزبه في الانتخابات الاخيرة ، ولكن هذا الرأي رفض من غالبية المعلقين والمسؤوليـــن الاسرائيليين ، على اعتبار ان تصريحـات كارتر قد بدأت قبل اكثر من ثلاثة اشهـر من اجراء الانتخابات الاسرائيلية · وفيمـا يلي اهم ردود الفعل الاسرائيلية ، علـى تصريحات الرئيس كارتر ، كما تناقلتها وسائل الاعلام الاسرائيلية ·

قال رئيس الحكومة ، يتسحاق رابيـن امام الوزراء ، ان السفير دينتس قـــد أعرب امام الادارة الاميركية عن قلـــق حكومة اسرائيل ازاء تصريحات اميركيـة معينة ومفاجئة · تلك التصريحات التـــي هي بمثابة اعلان مواقف محددة فـــي المواضيع المختلف عليها بين اسرائيـــل والدول العربية · واكد رئيس الحكومـــة على ان هذه التصريحات ، وقبل بدايـــة المفاوضات بين الاطراف (لا سيمـــا وان اسرائيل لا تقبلها) تخلق صورة تشيـــر الى وجود مشروع اميركي محدد لحـــل قضايا المنطقة · وهذا الامر يمكن ان يعرقل مسار الاعتدال لدى الدول العربيـــــة ، ويثقل على احتمالات مد جسر بين اسرائيل والدول العربيـــة (ر ١١ ٠٣٠ـ٥ـ٧٧) · وتحدث يغال آلون عن نفس الموضوع فقال: ان جميع التصريحات المختلفة التي تصدر في هذه الايام عن المراتب المختلفة فـــي الادارة الاميركية يمكن ان تخلق صـــورة تشير الى وجود مشروع متكامل ، الامر الذي يتناقض مع الالتزام الاميركي المعلن· واعرب آلون عن قلقه من احتمال قيـــام الجانب العربي بتصليب موقفه في اعقاب البيانات الاميركية المختلفة التي يمكن ان تفسر انها قريبة من وجهة النظر العربية· (المصدر نفسه) ·

واشار شمعون بيريز ، الى ان اسرائيل غير مستعدة للقبول بالتفسير الاميركـــي لقراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ ، الذي يلزم اسرائيل بالانسحاب الى حدود ١٩٦٧ مع تعديلات طفيفة عليها · واضاف « ان هناك جدلا ونقاشا حادين بيننا وبيـــن الولايات المتحدة ، وليس من المفيد ابـــدا اخفاء ذلك · وان هذا الجـــدل يتجـــاوز كل الاحزاب » (المصدر نفسه ١ـ٦ـ٧٧)

وكان آلون ، قد اجتمع الى السفير الاميركي الجديد في اسرائيل ، حيث عبر له عن قلق حكومة اسرائيل حول الضرر الذي تسببه التصريحات الاميركية الاخيرة لتقدم المفاوضات في الشرق الاوسط (دافار ١ـ٦ـ٧٧) . وكذلك اجتمع السفير الاسرائيلي في واشنطن مع نائب الرئيس الاميركي ، ونقل اليه الاستياء المتزايد في اسرائيل من تصريحات الرئيس الاخيرة حول شؤون الشرق الاوسط .

الخوف من وجود مشروع اميركي

يلاحظ من كافة التصريحات والتعليقات الاسرائيلية ، ان هناك خوفا متزايدا من وجود خطة اميركية جاهزةلحل ازمةالشرق الاوسط ، وان هذه الخطة سيتم تنفيذها عن طريق الفرض على كافة اطراف النزاع، وهذا اشد ما تخشاه السياسة الاسرائيلية.

كان يغال آلون ، وزير الخارجية من بين الذين عبروا عن قلقهم ومخاوفهم من ان تؤدي التصريحات الاخيرة على اعلى المستويات الاميركية . الى وجود مشروع شامل لحل أزمة الشرق الاوسط ، وهذا ما يعتبره الون مناقضا للتعهد الاميركي المعلن بهذا الشأن . وكذلك عبر رابين ، عن قلقه ازاء هذا الموضوع فقال : ان التصريحات الاميركية المفاجئة تنطوي على اعلان مواقف محددة بالنسبة لقضايا مختلف عليها بين اسرائيل والدول العربية . وان هذه التصريحات ، التي لا تقبلها اسرائيل ، قبل بدء المفاوضات بين الاطراف تشكل صورة لوجود مشروع اميركي محدد لحل مشاكل المنطقة » (دافار ٣٠ـ٥ـ٧٧) .

وهنا يضع الاسرائيليون اللوم على واشنطن ويحملونها تجميد الوضع في الشرق الاوسط ، وذلك بسبب الموقف الاحادي الجانب ، الذي تنتهجه الان لاحلال التسوية في المنطقة . حيث ان الرئيس نفسه قد اعلن اكثر من مرة ، ان الولايات المتحدة ستترك الاطراف تجري المفاوضات فيما بينها . ولكن التصريحات الاخيرة نسفت هذه الوعود .

ويقول وزير الخارجية الاسرائيلي ، انه تلقى معلومات من « مصدر موثوق » في واشنطن ، تقول ان التصريحات التي اطلقت في واشنطن قد جاءت ردا على التصريحات التي اطلقت في تل ابيب (معاريف ٣٠ـ٥ـ٧٧) .

وكان السفير الاميركي الجديد في اسرائيل ، قد نفى وجود مشروع اميركي. لحل النزاع في المنطقة . فلدى لقائه مع رئيس الحكومة رابين قال لويس : هناك اوراق عمل مختلفة لدى وزارة الخارجية الاميركية ، ولكنه لا يوجد مشروع متفق عليه ولا توجد اية نية اميركية لفرض حل على الاطراف في الشرق الاوسط . ولكن السفير الاميركي ، اشار الى ان روح « مشروع بروكينكز » الذي يتحدث عن تحديد الهدف النهائي والتنفيذ على مراحل. مقبول لدى الادارة الاميركية . ولكنها لم تعد اي مشروع مفصل بهذا الشأن (دافار ٢٦ـ٥ـ١٩٧٧) .

ولكن بالرغم من النفي الاميركي لوجود مشروع او خطة اميركية ، فلدى رئاسة الحكومة ووزارتي الدفاع والخارجية الاسرائيلية ، تقرير مفصل حول اسس التسوية الشاملة في الشرق الاوسط والتي تم اعدادها لدى وزارة الخارجية الاميركية . وعلم ان الاسس التي اعلمت بها اسرائيل ، قد تم العمل عليها من قبل المستويات العليا في وزارة الخارجية الاميركية ، ويبدو حسب كافة الدلائل انها حظيت بالموافقة من اعلى المستويات قبل ان تسلم الى اسرائيل . ويقول المحرر السياسي لصحيفة « هآرتس » ، ان

الحقيقة الكامنة وراء عدم رد الفعل الاسرائيلي الملائم حول هذه الاسس يكمن في ان الانتخابات ونتائجها قد تسببت في شل عمل الحكومة · وقال مصدر كبير لصحيفة « هآرتس » انه في الاوقات العادية ، كانت مثل هذه الوثيقة تثير رد فعل فوريا وعنيفا من قبل اسرائيل ·

ويشير بعض كبار المسؤولين الاسرائيليين الذين اطلعوا على هذه الاسس ، انها تعتمد على الانسحاب الاسرائيلي شبه الكامل وذلك على مرحلتين · ولكن هؤلاء المسؤولين عبروا عن دهشتهم وقلقهم نتيجة للتفصيلات الكثيرة التي وردت ضمن هذا التقرير · فقد صرح احدهم ،انه لم يكن لدى اسرائيل اي فكرة عن ان الادارة الاميركية ، ستهتم ليس فقط بالاسس وانما ايضا بالتفاصيل الفنية الصغيرة · كما يعتقد هؤلاء المسؤولون الذين اطلعوا على التقرير ، انه نتيجة للتفصيلات الكثيرة والدقيقة التي ينطوي عليها التقرير ، فانه يتضح وبدون ادنى شك ، ان واشنطن تنوي العمل من اجل تجديد مؤتمر جنيف باسرع وقت · كما يفهم من العمل الجدي الذي استمر في رسم الاسس الى ان الولايات المتحدة تعد نفسها لتقديم الاقتراحات ليس فقط بالنسبة للاسس وانما تقريبا لكل مجال يصل فيه الاطراف الى طريق مسدود · (هآرتس ٢٦ـ٥ـ٧٧) ·

وهناك بعض المعلقين الاسرائيليين ، من وجه انتقادا للحكومة وللمسؤولين الاسرائيليين ، نظرا لوقوفهم وقفة المتفرج ازاء التصريحات الاميركية ، وازاء شلل الحكومة في هذا المجال · فقد اعتبر احد المعلقين الرئيسيين في صحيفة معاريف ، شموئيل سيغف ، ان مقابلة يغال آلون ، مع سفير الولايات المتحدة في اسرائيل ، والتعبير امامه عن قلق اسرائيل ازاء التصريحات الاخيرة للرئيس كارتر ، قد جاءت متأخرة جدا · وانه على الرغم من اقوال التهدئة التي ادلى بها وزير الخارجية الاميركي ، للسفير الاسرائيلي ، فلا تزال هناك نقاط كثيرة غير واضحة ، وعدم وجود رد رسمي عليها ، من قبل الحكومة يمكن ان يفسر على انه « موافقة» اسرائيلية (شموئيل سيغف ـ معاريف ١ـ٦ـ٧٧) ·

وانتقد سيغف الحكومة الاسرائيلية ، على تصرفاتها منذ الانتخابات الاخيرة للكنيست التاسعة ، وخاصة للشلل الذي اصابها في المجال السياسي · فبالرغم من ان رابين قد قطع اجازته ، فان حكومته لم ترد على مسألة « الانزلاق » الذي طرأ على الموقف الاميركي في مسألتي الحدود والقضية الفلسطينية · ويرى سيغف ان هذا الانزلاق هو حقيقي ، وانه يمكن ان يثقل بصعوبة كبيرة على الحكومة القادمة· وهناك دلائل مقلقة وصلت الى القدس في الايام الاخيرة تشير الى ان الولايات المتحدة قد اقتربت كثيرا من الحسم في الموضوع الفلسطيني · ويضيف الكاتب ، الى ان اسرائيل قد حصلت في هذه الايام على تقييم فعلي فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني ، من قبل وفد من كبار الموظفين الاميركيين الذين يزورون اسرائيل ، وقد قوى هذا التقييم الانطباع بان واشنطن على حافة الحسم فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني · فقد قال اعضاء الوفد ، ان لدى ادارة الرئيس كارتر معلومات موثوقة « تشير الى الاستعداد الفلسطيني للعيش بسلام مع اسرائيل ـ وليس على انقاضها » · وهذه الاقوال تتماثل مع التصريح العلني الذي ادلى به ياسر عرفات ، والذي اعلن فيه أنه مستعد لان « يضمن » لاسرائيل عشرين سنة من الامن والسلام (المصدر نفسه) ·

حدود آمنة وتعويضات للفلسطينيين

كان للتصريح الذي ادلى به الرئيس كارتر ، حول انشاء وطن للفلسطينيين ، ومن ثم ايجاد حدود آمنة لهذا الوطن وكذلك دفع التعويضات لهم ، اثرا سيئا كبيرا لدى مختلف الاوساط الاسرائيلية · وقد اصيبت كافة تلك الاوساط بالذهول والدهشة ، لان الرئيس كارتر ، اخذ يطلق هذه التصريحات خطوة خطوة ، كان اولها انشاء وطن للفلسطينيين ، ومن ثم حدود آمنة لهم ، وبعدها دفع التعويضات · وقد هلع الاسرائيليون مؤخرا عندما اعلن كارتر عن تطبيق قراري الجمعية العمومية ١٨١ ، ١٩٤ (قرار التقسيم) · فقد ناقشت الحكومة الاسرائيلية تلك التصريحات ، وخاصة عندما قال ـ انه يحق للفلسطينيين وطن ـ بناء على قرارات الامم المتحدة ·واشارت الاوساط السياسية في القدس ، الى ان كارتر قد استعمل في الماضي مصطلح « وطن للفلسطينيين » ولكنه فسر هذا المصطلح « كوطن للفلسطينيين ـ في اطار الشعب الاردني او بطريقة اخرى»، ولكنه منغير الواضح، اذا كان يقصد ذلك في بيانه الاخير · واشارت تلك المصادر في القدس الى ان هذه هي المرة الاولى التي يتحدث فيها الرئيس كارتر عن حق الفلسطينيين بالحصول على تعويضات من دولة اسرائيل ·وبهذا الصدد قالت تلك المصادر، انه اذا طرحت بالفعل مسألة التعويضات للفلسطينيين ، فان اسرائيل ستطالب بالتعويضات للاجئين اليهود من الدول العربية · وتم تسليم مذكرة بهذا الصدد الى وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس ، اثناء زيارته لاسرائيل (معاريف ٢٩ـ٥ـ٧٧) ·

وقد علقت صحيفة معاريف (٢٥ـ٥ـ٧٧) · على تصريحات كارتر الاخيرة بقولها : لقد خطا الرئيس كارتر خطوة الى الامام في « مفهومه الفلسطيني»، ليس فقط بادخال مصطلح « الوطن القومي الفلسطيني » الى وثيقة اميركية رسمية ، وانما اضيف لذلك امر له دلالات كثيرة : فللمرة الاولى يستعمل المتحدث باسم البيت الابيض فيما يتعلق « بالوطن الفلسطيني » ايضا التعريف « حدود آمنة معترف بها » · وقد حاول الناطق باسم الرئيس ان يتحايل على التفسير ، ولكن الصحيفة ترى ، ان من تعقب الدبلوماسية الاميركية خلال الاشهر الاخيرة يعرف ان « زلة اللسان » من قبل الرئيس ليست عفوية وليست بالصدفة · وترى الصحيفة ان التصريح حول «الحدود الآمنة والمعترف بها للوطن الفلسطيني »، « لا يمكن ان يكون معناه الا واحدا ، وهو ان الادارة الاميركية تتقدم بخطى كبيرة نحو حل اقليمي للمشكلة الفلسطينية ينطوي على ٣ مخاطر كبيرة جدا لدولة اسرائيل » !

تغيير قرار ٢٤٢

يستفاد من التعليقات الاسرائيلية ، ان هناك مشروعا اميركيا لتغيير قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، الذي ينظر الى الفلسطينيين على انهم «لاجئون»، وهذا القرار لا ينسجم بعد مع الموقف الاميركي الجديد من الفلسطينيين ، ولهذا لا بد من اجراء بعض التعديل عليه · فقد ذكرت بعض الاوساط الاسرائيلية الرسمية انه يجري في واشنطن الان دراسة اقتراح يقضي باتخاذ قرار جديد في مجلس الامن لكي « يتخطى » الثغرات القائمة في قرار مجلس الامن ٢٤٢ وقرار الجمعية العمومية ٣٢٥٦ بشأن وضع الفلسطينيين· وانه من اجل حل مسألة التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف ، فانه

تجري في واشنطن دراسة امكانية اتخاذ قرار جديد في مجلس الامن ، ياخذ في الحسبان التغييرات التي طرأت على الموقف السياسي للفلسطينيين خلال السنوات العشرة الاخيرة (معاريف ٢٧_٥_١٩٧٧) ٠

زيارة الامير فهد تبرز التحول في السياسة الاميركية

تعتبر الزيارة التي قام بها مؤخرا ولي العهد السعودي ، الامير فهد لواشنطن ، اهم الزيارات التي قام بها الرؤساء العرب الى هناك ٠ وقد لخص بعض كبار المسؤولين الاسرائيليين نتائج زيارة الامير فهد بالنقاط التالية ، اولا ، ان الولايات المتحدة بقيت مخلصة لمبدا التسوية الشاملة، وانها لا تزال تسعى لعقد مؤتمر جنيف خلال اشهر الخريف ٠ ومن هذه الناحية فان انضمام موشيه دايان الى الحكومة الاسرائيلية الجديدة ، لا يؤثر على الموقف الاميركي ٠ ثانيا ، انه سيترتب على اسرائيل ، في اطار التسوية الشاملة الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، مع اجراء تعديلات طفيفة ٠ وللمرة الاولى ، اعطت واشنطن تفسيرا جديدا لقرار ٢٤٢ وهو ان هذا القرار يلزم بالفعل اسرائيل الانسحاب الشامل ٠ وبهذا تكون واشنطن، حسب رأي الاسرائيليين ، قد انضمت الى حليفاتها في اوروبا واليابان ، التي ايدت الموقف العربي منذ حرب يوم الغفران ٠ كما ان الامير فهد هو الذي اقنع الرئيس كارتر بفكرة الترتيبات الدفاعية وراء خطوط الحدود السياسية ٠ ثالثا ، الموضوع الفلسطيني ٠ فقد اعطى الرئيس كارتر ٠ وللمرة الاولى ، مفهوما اقليميا لمصطلح « الوطن للفلسطينيين » ، كما انه طالب بحدود امنة لهذا الوطن ٠ ويعتقد الخبراء الاسرائيليون ، ان كارتر قد نسي فكرة الاطار الاردني وانه يتحدث الان عن اطارات مستقلة ٠ ويخلص التقرير الاسرائيلي الى « انه طرأ انزلاق فعلي على الموقف الاميركي بالنسبة لموضوع الحدود والمسالة الفلسطينية ، وانه سيتطلب من مناحيم بيغن وموشيه دايان جهد كبير ، من اجل ايقاف هذا الانزلاق ، او من اجل احداث تغير على الموقف الاميركي بالنسبة لما صرح به الرئيس كارتر علنا حتى الان » (معاريف ٢٩_٥_١٩٧٧) ٠

ويرى بعض المعلقين الاسرائيليين ، التصريحات الاخيرة للرئيس كارتر بانها « قنابل سياسية » ، وانها لو اطلقت في ايام الادارة السابقة ، لخلقت ازمة في العلاقات الاسرائيلية ـ الاميركية ٠ ويشير دان مرغليت، الى انه خلال فترات الرؤساء السابقين لم يحدد اي شيء ، بل تركت الامور مفتوحة الى ان جاء تفسير قرار ٢٤٢ من قبل ادارة الرئيس كارتر بانه يعني « العودة الى حدود ١٩٦٧ » ٠ ولقد شدد الاميركيون والاسرائيليون ، على ان قرار مجلس الامن يتحدث عن « اللاجئين » وليس عن الفلسطينيين ٠ وجاءت الادارة الجديدة وقالت انه يجب اقامة وطن للفلسطينيين ٠ واشار المعلق الى طرح كارتر لقرار الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ فقال : من جهة يعود الى صيغ ، لا يجرؤ اي زعيم عربي معتدل على ذكرها ، ومن جهة اخرى يتحدث امام الامير فهد ، ليؤكد التزام الولايات المتحدة لسلامة وامن اسرائيل ٠ ووجه المعلق انتقادا للماطلة في تشكيل الحكومة ، وقال : « ان اميركا يمكن ان تفرض علينا فيتلك الاثناء حدود التقسيم لعام ١٩٤٧ » (هآرتس ٢٠_٥_٧٧) ٠

كارتر يبدا تهديده لرابين

يعتقد البعض من الاسرائيليين ، ان المفتاح لكل ما حدث في العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية والتصريحات الاميركية الاخيرة يكمن في الحادثات الاخيرة التي اجراها كارتر مع رابين في بداية شهر آذار الماضي في واشنطن · فقد ذكر انه في بعض اللحظات ، « لم يتحدث كارتر فقط بحدة ، وانما بلغة التهديد » · فعندما تم الحديث حول مؤتمر جنيف واشراك م · ت · ف فيه قال كارتر لرابين ، انه يريد منه ان يفهم ، ان الولايات المتحدة لن تسمح ان تمنع « مشاكل اجرائية » اسرائيل من الذهاب الى جنيف خلال هذه السنة · وقد حذر كارتر من ان « الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل مثل هذا الامر » · وقال كارتر لرابين ، « انك قلت لفانس لدى زيارته لاسرائيل ، انكم لا تقبلون بمفاوضة م · ت · ف طالما انها لم تغير ميثاقها الوطني ، معنى ذلك انكم ستتفاوضون معها اذا غيرت الميثاق» · ولدى نهاية الحادثة الصعبة قال كارتر لرابين : لقد حان الوقت الذي يجب فيه ان تتحدث اسرائيل بالتفصيل وليس بالتعميم كما فعلت حتى الان ، لانه لا مفر من ذلك · (يوسف حاريف ، معاريف ٣ـ٦ـ١٩٧٧) ·

وكان كارتر ، قد حذر في خطابه الذي القاه في جامعة نوتردام في ولاية انديانا ، زعماء « الليكود » من الكوارث التي تنتظر الشرق الاوسط والعالم بأسره اذا لم يتم ايجاد طريقة للتقدم نحو السلام في المنطقة · وقد فسر بعض المعلقين الاسرائيليين هذا الكلام ، بأنه القاء للمسؤولية على عاتق اسرائيل بالنسبة لعدم وجود السلام في المنطقة (دافار ٣٠ـ٥ـ٧٧) ·

كما ترى بعض الاوساط الاسرائيلية ، ان كارتر لا يزال يتمسك بمشروع روجرز وانه يريد ان يفرضه على اسرائيل . وهي التي رفضته في حينه · وقد جاءت صحيفة « معاريف » (٢٩ـ٥ـ٧٧) على ذكر اهم الامور السلبية التي حدثت في عهد كارتر وكان اهمها ، ان الولايات المتحدة قد تبنت مفهوم « الوطن للفلسطينيين » · كما ظهرة للمرة الاولى تحت حكم كارتر ذكر قرارات الجمعية العمومية من عام ١٩٤٧ · كما يلوح في عهد الرئيس كارتر مبدأ خطير للغاية ، وهو انه ليس هناك نية واضحة لفرض دولة فلسطينية على اسرائيل فقط ، وانما يفهم ايضا ، انه سيطلب الى اسرائيل ان تدفع لها مبالغ ضخمة لتمويل تسليحها واعدادها من اجل تنفيذ الحلم العربي ، لابادة دولة اليهود ·

الصدام مع الولايات المتحدة

يرى الكثير من الاسرائيليين انه اذا استمرت السياسة الاميركية على هذا المنوال ، فلا محالة من وقوع الصدام مع الولايات المتحدة · ولهذا يطالبون بوجوب القيام بحملة واسعة لدى الرأي العام الاميركي ، وخاصة لدى اليهود هناك ، ليعبئوا رجال الكونغرس لمنع مزيد من التدهور والانزلاق ·

ويرى البعض انه في اعقاب التصريح المعروف الذي ادلى به مناحيم بيغن ، في قرية قدوم ، بشأن استمرار عمليات الاستيطان في الضفة الغربية ، قام الرئيس كارتر بشرح وجهة نظره في كيفية حل النزاع الشرق اوسطي · وكان هدفه واضحا ، هو تحذير رئيس الحكومة الاسرائيلية المقبل ، « من الاوهام الزائدة من انه يستطيع تغيير مواقف الادارة

الاميركية » ، ويرى المعلق ارييل غيناي ، ان موقف الرئيس الاميركي هذا يمكن ان يكون تكتيكيا ، كرد فعل على التجاهل التام من قبل بيغن لسياسة الولايات المتحدة بالنسبة للاستيطان في الضفة الغربية ، كما هو الحال بالنسبة لقضايا اخرى في النزاع الاسرائيلي – العربي · وتحدث المعلق نفسه حول الانزلاق في السياسة الاميركية فقال : لا يوجد انزلاق حقيقي في موضوع الحدود ، لان الموقف الاميركي كان دائما وابدا ، يتلخص في وجوب اجراء تعديلات طفيفة فقط على حدود ١٩٦٧ ، في اطار اتفاقية سلام · ولكن الانزلاق الملاحظ هو في موضوع « الترتيبات الامنية » لان ذلك حسب رأي كارتر ، لا يتطلب تواجد قوات اسرائيلية وراء الخط الاخضر · اما الانزلاق الكبير ، حسب رأي المعلق فيكمن في موضوع «الوطن للفلسطينيين »· وخلص المعلق الى القول : ان هناك امرا واضحا ، وهو ان الاتجاه الذي تسير فيه الولايات المتحدة في سياستها ، سيؤدي بصورة متزايدة الى الصدام مع سياسة اسرائيل ، وبصورة خاصة عندما يحاول الرئيس كارتر ان يجند لصالح سياسته الشرق اوسطية جزءا كبيرا من الجالية اليهودية في الولايات المتحدة واصدقاء اسرائيل في الكونغرس · وان انتصار « الليكود » وسمعة بيغن ،كسياسي متطرف ، ستسهل على كارتر تجنيد هذا التأييد كما كان في الماضي (يديعوت احرونوت ٣٠–٥–٧٧) ·

وعلقت صحيفة « دافار » في افتتاحيتها يوم ١–٦–٧٧ ، على هذا الموضوع بقولها : ان اسرائيل لا تستطيع الموافقة على التفسير الاميركي ، الذي يقول بان قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ يعنيان انسحاب اسرائيل الكامل من كافة المناطق ، ما عدا تعديلات طفيفة على الحدود · كما ان التحدث عن الوطن الفلسطيني والحدود الآمنة ودفع التعويضات والتحدث عن قرارات منهية، يمكن ان تؤدي الى تطرف لدى الاوساط المعتدلة لدى الجمهور الاسرائيلي ، التي يمكن ان تيأس من الامل في تحقيق حل وسط واقعي ، من خلال التنازلات الاقليمية على كافة الجبهات ومن خلال الاخذ بالحسبان المصالح الحيوية لحماية اسرائيل · وترى الصحيفة ، انه نظرا للوضع الحالي ، فان الجمهور الاسرائيلي يمكن ان يجزم ، انه لا يوجد مناص من المجابهة الضيقة مع الولايات المتحدة ، والاخطر من ذلك هو تأثير هذه الامور على الزعماء العرب ، والدليل على ذلك – المطالبة بالتعويضات بمليارات الدولارات من قبل الرئيس السادات ·

وهناك شعور في القدس ، ان الرئيس الاميركي يعد الارضية لاحتمال المجابهة الجدية مع اسرائيل · فقد ذكر ، انه في اعقاب تصريحات الرئيس الاخيرة حول الوطن للفلسطينيين والانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، والتعويضات للاجئين وحول تعنت اسرائيل واعتدال العرب ، فان هناك تصريحات مماثلة كذلك في بعض عواصم الدول الغربية · فقد لوحظ مؤخرا ان هناك تصلبا كبيرا في موقف دول اوروبا الغربية تجاه مواقف اسرائيل ، وهناك تحذيرات من ان مثل هذا التصلب يقود الشرق الاوسط الى الحرب ·

ويقول الرأي السائد في القدس ، ان التصريحات غير المريحة لاسرائيل ، من الرئيس كارتر ورجال ادارته ، سوف تستمر ولن تتوقف ، كما تتوقع بعض المصادر · بالرغم من تحذير الولايات المتحدة من خطورة مثل هذه التصريحات · « وهناك انطباع ان الرئيس كارتر معني بالاكثار من هذا النوع من التصريحات .

وذلك من اجل الحصول على تفهم لمواقفه لدى الجمهور الاميركي ، وكذلك من اجل تمهيد الارضية استعدادا لاحتمال انتهاج خط متصلب اكثر تجاه اسرائيل في المستقبل ، من خلال المجابهة الجدية مع حكومة برئاسة « الليكود » (اريه تسيموكي – يديعوت احرونوت ٢–٦–١٩٧٧) .

وتناول معلق اخر ، موضوع المجابهة مع اميركا والانزلاق في الموقف الاميركي، وكذلك تعرض الى مراحل التبدل في المواقف الاميركية ، فذكر المعلق يهوشوع تدمور ، انه لا يتحدث كارتر بعد عن ماهية اسلام مطلقا ، وانما يتحدث هو والمتحدث باسمه عن « الحدود الآمنة » للدولة الفلسطينية وكذلك نسمع عن « الناحية الجغرافية » لهذا الوطن · ولم يمر سوى يوم واحد وقد جاء كارتر ببشرى جديدة ، وهي ان قرارات الامم المتحدة هي « بمثابة سياسة ملزمة للولايات المتحدة » · واضاف المعلق ، لقد اعادتنا وزارة الخارجية الاميركية ٣٠ سنة الى الوراء ، عندما اظهرت من عالم النسيان قرارات الجمعية العمومية بشأن التقسيم ، ويعتقد ، ان هذه التصريحات هي « اسس موجه في السياسة الاميركية » · ويعتقد الكاتب ايضا ، ان الرئيس كارتر قد قرر الامر الرئيسي . حيث انه ايد القرار العربي لتفسير قرار ٢٤٢ · وانه في الموضوع الاقليمي وخاصة في كل ما يتعلق بالحدود القابلة للدفاع ، تبنى عمليا ، بصورة كاملة التفسير العربي لمصطلح الانسحاب الشامل ، ما عدا تعديلات طفيفة · وخلص الى القول : « انه لا شك ان هذه هي بداية المعركة ··· لن يكون بعيدا اليوم الذي نشعر فيه بقوة الضغوط الفعلية والنفسانية على حد سواء » (يهوشوع تدمور – دافار ٣٠–٥–١٩٧٧) ·

وقد اطلع يغال آلون ، الحكومة الاسرائيلية ، لدى عودته من لندن على نتائج مقابلته مع وزير الخارجية الاميركي هناك ، فذكر انه قال لوزير الخارجية الاميركي : اود ان اوضح لوزير الخارجية وللرئيس معارضتنا الجدية لاقامة دولة ثالثة في قلب ارض اسرائيل ولن نوافق على وجود م · ت · ف في ضواحي القدس · ان هذا لن يكون خطيرا فقط من ناحية اسرائيل ، فهذه ستكون دولة راديكالية ، وموالية للسوفييت في قلب الشرق الاوسط · انها ستكون كوبا في قلب ارض اسرائيل · وحذر آلون : « اريد ان تفهموا انه بالرغم من كل جهودنا وخلافا لارادتنا ، يمكن ان ينجم وضع ، نجد فيه انفسنا ، دون ان نكون متفقين مع بعضنا البعض وحتى في حالة مجابهة ··· » (يوسف حاريف – معاريف ٣–٦–٧٧) ·

ودعا المعلق دان مرغليت ، الى انتهاج موقف المرونة من قبل الحكومة الاسرائيلية ازاء التصريحات الاخيرة ، وحذر من انتهاج خط متصلب · وطالب اسرائيل بان توافق بصمت على ما تعده الولايات المتحدة من مقترحات للتسوية · لان اي مراقب في واشنطن يعرف انه سواء كان رئيس الحكومة بيغن او بيرس او آلون او رابين ، فان الولايات المتحدة تعد مشروعا مفصلا · وهي « تفعل ذلك بالرغم من صراخنا » · ويخلص مرغليت الى القول : انه طالما تمسكت الاحزاب الكبيرة بمواقفها ، فانه من غير الممكن الربط بين مشروع كارتر وبين افكار بيغن ، او خريطة يغال آلون · ولكن الفرق يكمن فقط ، في انه اذا وافق بيغن على مثل هذه التقنية للمفاوضات ، فاننا لن نخسر المعسكر الكبير من اصدقائنا في الولايات المتحدة بوقت قصير قبل ان نحتاج

اليها في المجابهة الكبيرة مع واشنطن · هذه المجابهة التي لا تستطيع كما يبدو لا الليكود ولا المعراخ الحيلولة دون وقوعها ، على اساس سياسة كل منهما المعلنة (دان مرغليت ، هآرتس ٢٧_٥_٧٧) ·

واشار احد المعلقين ، الى الحملة الهستيرية في وسائل الاعلام الاميركية ضد مناحيم بيغن ، وان اية حملات مضادة لن تجدي ولن تفيد ·وان تصريحاته السياسية عقب نجاحه قد صبت الزيت على النار ، حيث سببت ضررا كبيرا لمكانة اسرائيل السياسية لدى الرأي العام الاميركي · ولكن يهوشوع تدمور يعتقد انه لا يمكن تفسير ردود الفعل العدائية هذه ، فقط بمواقف بيغن السياسية هذه ، وانما بمجمل الخلاف في الرأي بين اسرائيل والولايات المتحدة على التسوية الشاملة · ويرى المعلق « انه في المواضيع الرئيسية بالنسبة لحل النزاع هناك قاعدة واسعة للمناورة بين القدس وواشنطن · ولكن وزراء المعراخ يعرفون ايضا ، انه كلما اقترب موعد رسم الخرائط والمطالبة بالانسحاب ، كلما تأزم الموقف · وربما لن يكون هناك مفر من المجابهة···» (يهوشوع تدمور _ دافار ٢٥_٥_١٩٧٧)·

تصريحات بيغن تقرب الازمة مع الولايات المتحدة

يسود لدى واشنطن الرأي القائل ، انه في اعقاب نجاح الليكود ، لا يوجد في اسرائيل من يمكن التحدث اليه ، وان بيغن ليس الشريك في المفاوضات الفعلية للتسوية · وان التصريحات التي ادلى بها بيغن حول الاستيطان في الضفة الغربية قد دعمت هذا الموقف · ومن جهة اخرى ادت تصريحات بيغن تلك الى قيام مجموعة صغيرة من اصدقاء اسرائيل في الكونغرس بالتوجه الى الحركة الديمقراطية للتغيير، والطلب اليها الانضمام الى الحكومة بهدف جعل سياسة بيغن معتدلة (دافار ٢٢_٥_٧٧) · ولكن بعض الاوساط السياسية الاسرائيلية ، تبدي تحفظها ازاء ذلك ، وتعتبر ان التصريحات الاميركية المتطرفة الاخيرة ، ليس مردها تصريحات بيغن حول الاستيطان ،ولكن تعتقد هذه الاوساط، ان بعض الجهات في واشنطن تستغل تصريحات زعيم « الليكود » من اجل اعداد الرأي العام في الولايات المتحدة نحو سياسة متصلبة اكثر تجاه اسرائيل· لان العديد من التصريحات الاميركية المقلقة قد اطلقت قبل الانتخابات (دافار ٢_٦_٧٧) ·

ومن جهة ثانية رد المعلق يوسف حاريف، على تحميل آلون ، مسؤولية التصريحات الاميركية الاخيرة لبيغن ، وادعائه بانه تلقى معلومات من « مصدر موثوق » بان التصريحات جاءت ردا على تصريحات بيغن فيقول : عندما تحدث كارتر للمرة الاولى عن « وطن للفلسطينيين » لم يكن هناك اي تحد من قبل مناحيم بيغن · واتهم حاريف ، الحكومة الحالية (حكومة رابين) بالتقصير والتهرب وانها جعلت من بيغن « كبش فداء » ، لان هذه التصريحات تهدف فقط الى التملص من مسؤولية التقصير والاخطاء ، التي تميزت بها الحكومة خلال الاشهر الاخيرة · (معاريف ٢١ _ ٥ _ ٧٧) ·

يهود الولايات المتحدة قلقون

تجتاح الجالية اليهودية في الولايات المتحدة موجة من الترقب والخوف ، نتيجة للتصريحات الاخيرة التي ادلى بها ، زعيم الليكود ، مناحيم بيغن ، وما تسببت

فيه هذه التصريحات من ردود فعل عنيفة في الاوساط الاميركية · ولم تكن هذه التصريحات هي المصدر الوحيد لقلق زعماء الجالية اليهودية ، وانما مجرد نجاح « الليكود » في الانتخابات الاسرائيلية ، وما يمكن ان يسفر عنه من مجابهة بين اسرائيل والولايات المتحدة ، قد طرح من جديد مسالة الولاء المزدوج لليهود هناك ، وكذلك مسالة التغلب على المجابهة في حال نشوبها ·

وكان اول رد فعل من قبل الجالية اليهودية ، هو قيام رئيس مؤتمر الرؤساء اليهود في الولايات المتحدة الكسندر شيندلر وكذلك السكرتير السياسي لمؤتمر الرؤساء يهودا هلمان ، بزيارة اسرائيل بعد اسبوع واحد من الانتخابات الاسرائيلية ، مع العلم بان مناحيم بيغن كان مريضا للغاية · وتتركز مهمة المبعوثين في نقل الاتجاهات في الولايات المتحدة لكل من الحكومة الاسرائيلية الحالية والقادمة · وسيترتب عليهما تقديم تقرير للرؤساء اليهود الاثنين والثلاثين حول دلالة الانقلاب السياسي الذي حدث في اسرائيل · ويعلق دان مرغليت ،على هدف الزيارة بقوله : لقد كان هدفها ابعد بكثير مما اعلن عنه بصورة رسمية ، فقد جاء شيندلر ليعطي تحذيرا واضحا · حيث ان التيار اليهودي الاميركي الرئيسي خائف للغاية · وهو يتمنى على اسرائيل ان تبذل جهودا لكي تخلص يهود اميركا من كماشة تاييد اسرائيل والولاء لكارتر · (دان مرغليت . هارتس ٢٥ـ٦ـ١٩٧٧) ·

ومن جهة ثانية . فان نجاح « الليكود » قد اثار الشكوك للمرة الاولى بالنسبة لمستقبل الضفة الغربية وبالنسبة لقدرة يهود اميركا على تبرير الجمود في الجهود من اجل حل النزاع الاسرائيلي ـ العربي . وخاصة اذا كان مصدر هذا الجمود الرفض الاسرائيلي للانسحاب من الضفة الغربية ·وان تصريحات مناحيم بيغن ، في قدوم قد اوضحت للمؤسسة اليهودية الاميركية ، الخطر المنتظر في المجابهة مع الادارة الاميركية ، دون ان يكون تأييد الكونغرس مضمونا · وان الخوف من المجابهة الاسرائيلية مع الادارة الاميركية ، والخوف من الخلاف الحاد بين اسرائيل والجالية اليهودية ، هو الذي اسرع بقدوم الكسندر شيندلر ، رئيس مؤتمر الرؤساء اليهود في اميركا · ويقول شموئيل سيغف ، انه يفهم من زيارة شيندلر ولقائه مع مختلف الاوساط الاسرائيلية ، انه قد اطلعهم على اللقاءات الثلاث التي تمت بين رؤساء الجالية اليهودية وبين كارتر ومستشاره للامن القومي ، برجنسكي ، حيث قال لهم كارتر، انه يجب على اسرائيل ان تبدي «مرونة» في الجهود لحل النزاع في الشرق الاوسط، ولمح الى انه اذا لم تشكل حكومة قوية في اسرائيل ، فانه لن يكون هناك مفر من فرض حل على الاطراف · ولهذا حث شيندلر الحركة الديمقراطية للتغيير للاشتراك في الحكومة ، وبارك ايضا خطوة ضم دايان الى الحكومة · (معاريف ٣ـ٦ـ٧٧) ·

ان احدى المشاكل الرئيسية التي تجابه الجالية اليهودية الاميركية ، هي انها قد امنت الدعم لاسرائيل في الكونغرس ، على اساس تقديم تنازلات اقليمية على كافة الجبهات ، ولهذا فلن تكون مسالة الحصول على تأييد الكونغرس سهلة ، اذا ما تمسكت حكومة الليكود بمواقفها المتطرفة · وحيث ان مصدر قوة اليهود في اميركا يكمن في الكونغرس ، فانه في حال غياب مثل هذا التأييد من قبل الكونغرس فان ذلك (وهذا ما يخشاه اليهود) سيتركهم لوحدهم ويعرض وضعهم

العام في الولايات المتحدة للضعف · ولهذا دعا سيفف ،الى عدم المجابهة مع الجالية اليهودية ، واعتبرها بمثابة « عمـــــل انتحاري » ، ومن الافضل منذ الان خلـق الظروف التي تؤمن استمرارية الاتصالات مع الجالية في الولايات المتحدة واستمرار التفاهم التقليدي ، الذي ميز علاقــــات اسرائيل ــ الولايات المتحدة خلال السنوات الثلاثين الاخيرة (المصدر نفسه) ·

وذكـــر الحاخـام يوسف شترنشتاين، رئيس المنظمة الصهيونية في الولايـــات المتحدة ، انه جرت مؤخرا اتصالات مــع الرئيس كارتر ، « لاننا كنا قلقين جدا مـن تصريحه الاخير » وهو اول رئيس اميركي يطلب من الجالية اليهودية ان تتدخل في السياسة الخارجية لدولـة اسرائيـــل (المصدر نفسه ١ـ٦ـ١٩٧٧) · كما ذكر المعلق ناحوم برناع ، انه يجـــري لدى الادارة الاميركية الحديث بصورة جدية ، عن امكانية الاستعانة برؤساء المنظمـات اليهودية ، وللمرة الاولى ، للضغط علـى اسرائيل وليس العكس · والافتراض هـــو ان يبقى التأييد اليهودي مستمرا لاسرائيل، ولكن في حالات معينة يتصرف بها بيغـــن بصورة متطرفة ، سيبحث الزعماء اليهـود عن مخرج هادىء لتحفظاتهم · » واذا ما تأزمت الامور فانهم سيهددون بالوقوف على الحياد عندما تكون المجابهة مع الادارة » (دافار ٢٢ـ٥ـ٧٧) ·

حمدان بدر



رسالة واشنطن :
حول مباحثات الأمير فهد والرئيس كارتر

ركزت مباحثات الرئيس كارتر والامير فهد على قضية فلسطين وامكانية ايجاد حل سلمي وعادل لها ، وفور وصول الامير فهد الى واشنطن بتاريخ ٢٣ـ٥ـ٧٧ صرح بان « لاميركا القوة العملية والخلفية » لتحقيق حل مشكلة الشرق الاوسط وقضية فلسطين ، وناشد الرئيس كارتر العمل من اجل تحقيق وطن للفلسطينيين٠ وذكرت مصادر البيت الابيض بان مباحثات كارتر وفهد ركزت على موضوع اقامة وطن للفلسطينيين « بحدود معترف بها » ولكن هذه المصادر اشارت الى ان الوضع السياسي في اسرائيل بعد الانتخابات الاخيرة جعل الرئيس كارتر والامير فهد يتمهلان في التوصل بنتائج وقناعات لحين تكوين حكومة اسرائيلية جديدة ٠

واكد الرئيسان على ضرورة الاستمرار في العمل نحو حل لمشكلة الشرق الاوسط ، وحذرا من « حرب مفجعة » في المنطقة اذا تعذر ايجاد حل سلمي ٠

وذكر المتحدث باسم البيت الابيض بان العمل يجب ان يستمر في سبيل عقد مؤتمر جنيف في النصف الثاني من سنة ١٩٧٧ ٠ واشار المراقبون الى ان الامير فهد شدد على ضرورة انشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، وان الرئيس كارتر من جهة اخرى اكد التزام امريكا العميق بأمن وبقاء اسرائيل ٠

وعقد الرئيس كارتر مؤتمرا صحفيا بتاريخ ٢٦ـ٥ـ١٩٧٧ تحدث فيه باسهاب عن الشرق الاوسط وقضية فلسطين لاول مرة ، وذكر فيه بان امريكا تتوقع انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة مع تعديلات بسيطة ، كما دعى كارتر الى تعويض اللاجئين الفلسطينيين « بسبب الخسائر التي الحقت بهم » ، وأوضح متحدث باسم البيت الابيض فيما بعد بان هذه التصريحات مبنية على التزام امريكا بقرار ١٨١ عام ١٩٤٧ في الامم المتحدة والذي يقضي بانشاء دولة عربية (ويهودية) وقرار ١٩٤ (ديسمبر ١٩٤٨)

الذي يقضي بتعويض الفلسطينيين وهذه قرارات صوتت امريكا معها انذاك ·

ومن جهة اخرى صرح الامير فهد (٢٧ـ٥ـ٧٧ واشنطن بوست) بانه متفائل بشأن عقد مؤتمر السلام في جنيف هذا العام بالرغم من عدم وضوح الوضع داخل اسرائيل بسبب الانتخابات الاخيرة ·

واشار الى انه من اجل انجاح المؤتمر يجب « في النهاية دعوة منظمة التحرير » بصفتها المستقلة ولكنه لم يقفل الباب في وجه امكانية تمثيل اخر للفلسطينيين · وذكر بانه اخبر الرئيس كارتر « بانه في حالة قيام اسرائيل بتحقيق المطلوب منها يمكن للعرب الاعتراف بها » ·

وفي لقائه مع السفراء في واشنطن، ذكر الامير فهد « بتاريخ ٢٦ـ٥ـ٧٧ » بان هناك ضغوطا صهيونية كبيرة على الرئيس كارتر واشار الى انه متشائم من ناحية الحل ولا يزال هناك عمل كثير قبل الوصول الى جنيف · ولمح الى خطر قيام اسرائيل بحرب خاطفة جديدة ودعا العرب الى الاعتماد على انفسهم والتضامن لمواجهة خطر العدوان الاسرائيلي وذكر بان السعودية ستستخدم البترول في المعركة الى اقصى درجة · كما لمح الى امكانية عقد مؤتمر للرؤساء العرب لبحث التطورات الجديدة واتخاذ موقف موحد·

كما اشار الامير فهد الى ان الاخبار الصحفية حول تصريحه باستعداد منظمة التحرير للاعتراف باسرائيل قد شوه وبانه لم يصرح بهذا ·

ومن ناحية اخرى ذكرت جريدة كريستيان ساينس (٢٦ـ٥ـ٧٧) بان الحكومة الامريكية قدمت للحكومة الاسرائيلية مذكرة تتضمن مقترحات بشأن الحل تشمل انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة · (الضفة الغربية وجزء من غزة) كما تشمل اقامة مناطق منزوعة السلاح على الجبهتين وتقام عليها محطات انذار يديرها خبراء اسرائيليون في المناطق العربية وخبراء عرب في المناطق الاسرائيلية · وذكرت الجريدة بان عودة الضفة الى الاردن ترضي اسرائيل وبان تصريحات كارتر بشأن وطن قومي للفلسطينيين ازعجت المسؤولين الاسرائيليين وخلقت مشكلة جديدة بينهم وبين المسؤولين الامريكيين ·

ولقد اشتدت حدة الازمة بين اسرائيل وامريكا بسبب تصريحات مناحيم بيغن الاخيرة بان الضفة وغزة جزء من اسرائيل وبانها ارض محررة (على برنامج تلفزيون اي بي سي بتاريخ ٢٢ـ٥ـ٧٧) وبأنه لا يمكن ان يسمح بقيام دولة فلسطينية لانها ستكون قاعدة سوفيتية جديدة تهدد امن اسرائيل وانه لا يمكن له لاي زعيم اسرائيلي الموافقة على اشتراك المنظمة في المفاوضات وانه حتى لو اعترفت المنظمة باسرائيل فلن تتعامل معها الحكومة الاسرائيلية ·

وبسبب هذه التصريحات اضطر الرئيس كارتر الى اضافة فقرة الى خطابه بتاريخ ٢٢ـ٥ـ٧٧ اشار فيها الى ضرورة التزام اسرائيل بقرار ٢٤٢ وقرار ٣٣٨ الذي يقضي بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة · كما انتقد عدد من الصحف الرئيسية بما فيها واشنطن بوست ونيويورك تايمز تصريحات بيغن واشارت الى ان مواقفه المتصلبة تعرقل المحاولات لايجاد حل للمشكلة ·

من الواضح ان الامير فهد ضغط على الحكومة الامريكية لاتخاذ موقف محدد وايجابي من قضية انشاء دولة فلسطينية، ونجح الى حد ما في اقناع الرئيس كارتر بوجهة نظره من ناحية المبدأ · ولكن

كارتر لا يزال حذرا بسبب الضغوط الصهيونية · ولكن القضية التي لم يتم الاتفاق والتفاهم عليها هي موضوع منظمة التحرير وحقها في تمثيل الشعب الفلسطيني اذ لا يزال الامريكيون يأملون ويحاولون ادخال الملك حسين في الصورة وتوسيع التمثيل الفلسطيني واضافة قيادات جديدة توافق عليها اسرائيل والاردن ·

ومن جهة اخرى تضغط المنظمات الصهيونية والحكومة الاسرائيلية على الرئيس كارتر وادارته ضغطا شديدا لكي يتراجع عن تصريحاته ومواقفه بشأن الوطن الفلسطيني ، وحقوق الفلسطينيين · وتحاول المنظمات الصهيونية وبعض الوفود الاسرائيلية الجديدة اظهار مناحيم بيغن بصورة الزعيم المعتدل وذلك تمهيدا لزيارته المقبلة لواشنطن ومحاولاته لاقناع كارتر بوجهة نظره ·

نبيل حاتم

رسالة باريس :

حقوق الانسان وحقوق الشعوب

اللجنة الدولية لحقوق الشعوب ، التي تأسست في تموز عام ١٩٧٦ برئاسة السناتور الايطالي والمحامي المعروف ليليو باسو ، احد مؤسسي محكمة راسل للسلام ، والتي اصدرت وثيقة عالمية جديدة لحقوق الشعوب عام ١٩٧٦ في الجزائر العاصمة، عرفت بوثيقة الجزائر، افتتحت لها فرعا في فرنسا ، برئاسة السيد كلود بورديه ، عضو الحزب الاشتراكي الموحد ، والمعروف بمناصرته للقضية الفلسطينية ·

وقد عقد الفرع الفرنسي ندوته التأسيسية ، في مدينة اميان الفرنسية في ٢٣_٢٤/٤/١٩٧٧ ، كرسها لقضيتي فلسطين وجنوب افريقيا وشعبيهما ، كمثال على حقوق الشعوب ، وشارك فيها عدد من الاخصائيين في العلاقات الدولية ، كالاستاذ ادمون جوف ، من معهد الدراسات السياسية والقضائية للعالم الثالث في جامعة السوربون ، والان فونيه، استاذ القانون في معهد العلاقات الدولية في جامعة اميان · والاستاذ جيرار سولبيه مدير معهد العلاقات الدولية اميان، المعروفة بمدرستها الحديثة في مفهوم العلاقات الدولية ، وحقوق الشعوب في العالم الثالث · كما وحضرها القاضي لويس جوانيه ، مؤسس ، ورئيس نقابة القضاة في فرنسا ، والمعروف بمواقفه

الدفاعية عن المعتقين السياسيين في امريكا اللاتينية ، وعدد اخر من ممثلي حركات التحرر العالمية ، وقد رئس الندوة المحامي المعروف ليو متاراسو ، وبتمثيل كل من الاخ عزالدين قلق عن الشعب الفلسطيني ، والاستاذ غارسيا عن شعب جنوب افريقيا ·

وكان اول المتحدثين في الجلسة الاولى ، التي كرست لمبدأ حقوق الشعوب في العلاقات الدولية ، الاستاذ ادمون جوف ، الذي تحدث عن ظهور حقوق الشعوب في العلاقات الدولية ، متطرقا الى المؤتمر الاول لدول عدم الانحياز الذي عقد في باندونغ عام ١٩٥٥ ، والذي اتخذ ، ولاول مرة ، موقفا واضحا وصريحا لدعم حقوق الشعب العربي الفلسطيني المشروعة ، وكيف ان هذا المفهوم قد تطور فيما بعد ، حتى شمل دول عدم الانحياز بأسرها والتحالف القاري الثلاثي ·

ووضح الاستاذ جوف ، ان حقوق الشعوب تشمل فيما تشمل ، حق تقرير مصيرها السياسي والاقتصادي والثقافي والقانوني ، وكيف ان الجمعية العمومية للامم المتحدة ، قد لعبت دورا مهما بالنسبة للقضية الفلسطينية ، باعترافها ، ولاول مرة ، عام ١٩٦٩ ، بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، والغير قابل للتصرف ·

اما بالنسبة لحق الشعوب المناضلة في تقرير مصيرها بنفسها ، فقد اشار الاستاذ جوف ، الى ان القانون الدولي ، ينص على هذا الحق بطريقة متحفظة ، اذ انه لا يمنح الشعوب المناضلة ، امكانية الدخول الى عالم الامم المتحدة ، الا كدول فقط · ولهذا ، فقد نشأت ثمة تناقضات عديدة في القانون الدولي نفسه ، فيما يتعلق بحقوق الشعوب ، كالكفاح المسلح ، وحقوق المناضلين السياسيين في ان يعاملوا كأسرى حرب ، طبقا لاتفاقية جنيف · لذلك ، فانه يعتقد ان القرارات التي تضمنتها وثيقة الجزائر لعام ١٩٧٦ ، حول حقوق الشعوب ، جاءت مكملة للقانون الدولي ، اذ انها تمنح المجموعة الدولية حق التدخل ، في حال انتهاك الحقوق المشروعة لشعب ما، وانها قد ساهمت في اضافة حق الاقليات في الدول الحديثة والقديمة ، في ممارسة بعض حقوقها ، اذا لم يتعارض ذلك مع سيادة الدولة التي تنتمي اليها هذه الاقلية او تلك ·

وفي النقاش الذي اثارته مداخلة الاستاذ جوف ، تركز الحديث حول السؤال ، ما اذا كان نضال شعب ما ، هو الذي يفرض حقه كشعب في قضيته التي يناضل من اجلها ، ام ان هذا الحق هو حقيقة قائمة بذاتها ؟ وبغض النظر عن الشكل النضالي الذي يتبناه هذا الشعب · حيث توصل المشاركون في النقاش ، الى ان نضال شعب ما ، يكشف النقاب عن حقه الموجود اصلا، ولا يخلقه ·

ثم دار النقاش حول الحقوق التي يمنحها القانون الدولي للشعوب ، والتي لا تنص على حق تقرير المصير لشعب ما الا من خلال الدولة ·· وكيف ان بعض دول العالم الثالث التي حازت على استقلالها في الفترة الاخيرة ، قد آلت الى ايدي طبقة مسيطرة ، واخذت بدورها تستغل الطبقات المحرومة ، ودون ان تحقق ايا من استثمار ثرواتها الوطنية من اجل شعوبها المناضلة ·

وقد اتفق المشاركون في هذا النقاش الختامي للجلسة الاولى · على اهمية سيادة الشعوب وحقوقها في تقرير مصيرها سياسيا واقتصاديا وثقافيا وقانونيا ، وخاصة في بلدان العالم الثالث التي نالت استقلالها حديثا ·

وفي الجلسة الثانية مساء اليوم الاول لانعقاد الندوة ، قدم ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس ، الاخ عز الدين قلق ، تقريرا وافيا عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، التي تشكل مثلا رائعا لحقوق الشعوب الاخرى ، مشيرا الى ان وثيقة الجزائر تنطبق بمجمل بنودها على الشعب الفلسطيني ، ولا سيما البند الاول فيها الذي ينص على ان « لكل شعب حقه في الوجود » ، ولهذا فان الشعب الفلسطيني الذي لم يعترف بوجوده لعدة سنوات في كل الميادين ، السياسية والاقتصادية والثقافية ، حمل السلاح لكي يبرهن على وجوده ، الامر الذي لم تضطر اليه الكثير من حركات التحرر العالمية ، اذ كان مسلما بوجودها كشعوب من قبل ٠

كما واشار الاخ عز الدين قلق الى ان ميزان القوى في المنطقة قد تغير بعد عام ١٩٧٣ ، اذ اعترفت اكثر من مئة دولة بوجود منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي للشعب الفلسطيني ، ودعتها الامم المتحدة،حيث القى الاخ ياسر عرفات خطابه الشهير الذي كون سابقة مهمة جدا ، لكل حركة تحرر وطني في العالم ، اذ كانت هذه هي المرة الاولى التي يتكلم فيها رئيس حركة تحرر في الامم المتحدة ، امام المجموعة الدولية ٠

واضاف الاخ عز الدين قلق الى ان هذا الحق قد كلف الشعب الفلسطيني نضالا سياسيا وعسكريا ودبلوماسيا طويلا ، لانتزاع هذا الاعتراف ، ليس للشعب الفلسطيني وحسب ، وانما لكل الشعوب المضطهدة التي تطمح للحصول على حقوقها الوطنية الشرعية ٠

وقد اثار احد الحاضرين ، موضوع الاعتراف بحق الشعب اليهودي في تقرير مصيره ، وموقف منظمة التحرير الفلسطينية من هذا الحق ، فأجابه الاخ عز الدين قلق بأن مسالة تعريف الشعب اليهودي ، ليست مشكلة الشعب الفلسطيني ، «اما بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، فأنها قدمت لليهود في العالم، وليهود العالم العربي بالذات ، حلا ديمقراطيا يحميهم من العنصرية والاضطهاد »٠ واشار الاخ عز الدين قلق، الى تطور الرأي العام اليهودي نفسه ، بالنسبة لهذه المشكلة ، وبالنسبة للمفهوم الصهيوني نفسه ، اذ شهدت اسرائيل ، في الثلاثين سنة الماضية ، تطورا ملحوظا نحو هذا الحل الديموقراطي ٠

أما كلود بورديه، رئيس الفرع الفرنسي للجنة ، والذي شارك في هذا النقاش ٠فقد أشار الى تفوق الشعب الفلسطيني ، في طرحه المشكلة الصهيونية ، وقارن مشكلة الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، بالاحتلال الالماني لفرنسا وسأل ، ما اذا كان يمكن للفرنسيين الاعتراف بالوجود الالماني في فرنسا ، لو ان هذا الاحتلال دام اكثر من ست سنوات ؟٠

وفي تدخله في النقاش ، اشاد جيرار سوليبه ، مدير معهد الحقوق في جامعة اميان ، باستمرارية الموقف الفلسطيني ، الذي فتح امام يهود العالم ، امكانية حل ديموقراطي ، يحفظ حقوق الجميع ، كما ونوه بروح التسامح التي يتميز بها الشعب الفلسطيني ، بقبوله فكرة التعايش مع الذين اغتصبوا وطنه ، وادان جيرار سوليبه موقف الرأي العام العالمي ، الذي يدافع عن حقوق الانسان ، ولكنه عندما يتطرق الى اسرائيل ، يصبح هذا الموقف غير عقلاني البتة ٠

اما المحامي الجزائري بن طوبي ، فقد اوضح ان المفهوم الاسرائيلي للقومية ، يرتكز على «حق العودة» ، وان هذا المفهوم العنصري ، يشكل تناقضا واضحا مع وثيقة حقوق الشعوب ، اذ انه لا يعترف بحق الفلسطيني حتى اذا ولد

في فلسطين ، الا كاقلية · وندد المحامي بن طوبي ، بالدول ، التي تقف مع اسرائيل ، وقال : ان ليس ثمة من حل ممكن في الشرق الاوسط دون موافقة الشعب الفلسطيني ·

ثم تلاه القاضي لويس جوانيه ، رئيس نقابة القضاة في فرنسا ، مشيرا الى اهمية وثيقة الجزائر ، واللجنة الدولية لحقوق الشعوب بشكل عام، والى اهمية هذه الوثيقة في عمله الشخصي في بلد كالبرازيل ، مؤكدا على ان هذه الوثيقة تنطبق على وضع الشعب البرازيلي، اكثر مما تنطبق عليه وثيقة حقوق الانسان ، داعيا جميع القضاة في العالم الى مزيد من الدعم لحركات التحرر في العالم ، ولقضايا الشعوب ·

اما الاستاذ غارسيا من جامعة اميان، فقد تحدث عن سياسة التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا ، والتي ترتكز على ثلاثة اسس وهي التمييز الجغرافي للسكان والتمييز العنصري ، والقمع البوليسي · وحيث يستعمل الشعب الافريقي كمخزن لليد العاملة ، مما يسمح للمستوطنين احتكار الثروات الوطنية للبلاد ، مشيرا الى دور الشركات الرأسمالية العالمية في هذا الاحتكار · مما اثار النقاش حول مكانة الاوروبيين المقيمين في جنوب افريقيا ، ممن يقفون مع الحركة الوطنية، ضد النظام العنصري ، حيث سأل كلود بورديه ، ما اذا كان لهؤلاء الاوروبيين مكان ما في الدولة الافريقية المستقبلية المحررة · مطالبا حركة التحرر الوطني في افريقيا ، ان توضح موقفها لهؤلاء المناضلين مثلما وضح ياسر عرفات موقفه من المناضلين اليهود في الدولة المحررة·

وجاء تدخل ارماندو اوريبي سفير التشيلي في الصين في عهد اللندي، ليدعم موقف كلود بورديه ، حيث اشار الى عدم امكانية بعض المستوطنين الذين مر عليهم اكثر من جيل في افريقيا العودة الى اوروبا ، ولذلك فان مشكلة التعايش بينهم وبين الافريقيين يجب ان تدرس بعمق ·

وقد اختتم الاخ عز الدين قلق هذا النقاش ، بالاشارة الى الضغط الذي يمارس على منظمة التحرير الفلسطينية لتغيير ميثاقها سائلا : « ماذا يكون موقف الفرنسيين لو طلب اليها ان يغيروا دستوردهم »·واشار الى الحملةالمتواترةفي الصحافة الغربية ، التي سبقت انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني ، تطالبه بتغيير ميثاقه ، بل وذهب البعض الى حد المطالبة بتغيير قيادة منظمة التحرير الفلسطينية · الا ان المجلس الوطني ، قد برهن على النضوج السياسي للشعب الفلسطيني ، بخروجه بموقف موحد ازاء الاحداث ، اذ حازت مقرراته على اغلبية ١٩٤ صوتا ضد ١٣ صوتا ، اي باغلبية ساحقة ، وكان ذلك انتصارا كبيرا للشعب الفلسطيني ·

وفي الجلسة الثالثة قدم الاستاذ الان فونيه، الذي قدم نقدا حول مفهوم الاقليات القومية في وثيقة الجزائر المنبثقة عن اللجنة الدولية لحقوق الشعوب ، مشيرا الى ان مشكلة الاقليات القومية هي مشكلة كلاسيكية في العلاقات الدولية، منذ ظهور الدول القومية في اوروبا ، وانها لم تحل حتى الآن · ولذلك فانه لا يستغرب ان تكرس وثيقة الجزائر ثلاثة من بنودها لموضوع الاقليات ، واشار الى ان هذه الوثيقة متقدمة تقدما ملحوظا في موقفها من الاقليات على موقف الامم المتحدة ، اذ ان هذه الاخيرة ترفض ان تصبغ على الاقليات صفة الشعوب ، وبغض النظر عن اعدادها · وان مفهوم الجمعية العمومية لكلمة « شعب » ، هي مفهوم الشعب في اطار دولة مكونة ، او شعب تحت سيطرة ، اما استيطانية او عنصرية او اجنبية ، ولذلك فان هذه الاقليات لا تتمتع بحقوق الشعوب وفقا لمفهوم

الامم المتحدة هذا ، بينما تنص على انـه عندما يكون شعب اقلية في اطار دولـــة مكونة يحق له التمتع بكل حقوق الشعوب في تقرير مصيرها ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا وقانونيا ٠

ولكن الاستاذ فونيه تحفظ على هــذه البنود في الوثيقة ، لانها لا تتطرق الــى الاقليات التي لا تكون شعبا في اطار دولة ما ، لذلك فان الوثيقة بموقفهـــا هذا ، صحيح انها تدخل مفهوما جديـــدا في قاموس القانون الدولي ، وهـو مفهـوم الشعب الاقلية ، الذي يتمتع بكرامة مماثلة لكل الشعوب ، ولكن بحقوق غير متكافئة، وبالتالي لا يحق له تكوين دولة ٠ ولذلك فقد انتقد الاستاذ فونيه وثيقـة الجزائر لانها تعترف للاقليات بحقها في هويتهـا ، وتقاليدها ولغتها وتراثها فقط ، ولا تنص على كيفية تطبيق هذا الحـق ٠ وطالـب واضعي الوثيقة بان يحددوا مفهومهـم لحق الاقلية بهويتها ٠

وان تدرج الوثيقة « الدين » ، كواحد من حقوق الشعوب ، اذ ان هنالك عدة شعوب تعرف نفسها بدينها ٠

وينبري الاستاذ فونيه هنا، الى الدفاع عن حقوق الاقليات التي تنتمي الى دول ترفض الاعتراف بها، كالباسك في اسبانيا والكويبيكيين في كندا ، والاســـلام في الفلبين ، و ٠٠٠ ، محذرا من استعمال هذه الدول ، لوثيقة الجزائر ضد مطامح هذه الاقليات ٠ كما وانتقد فــي نهايـة حديثه ، مفهوم السيادة التي تتكلم عنها الوثيقة عندما تنص على « ان ممارسـة حقوق هذه الاقليات ، يجب ان تحتــرم المصالح المشروعة ،للمجموعة التي ينتمون اليها ، ويتوجب عليها ان لا تشكل خرقاً لسيادة الدولة ووحدتهـا الجغرافيـــة والسياسية » ٠

وقد اثارت مداخلة الاستاذ فونيـه ، مناقشة حادة ، خاصـــة وان مفهـــوم الاقليات ، يختلف في اوروبـا بوضعهـا المعاصر ، عنه في دول العالم الثالث ٠

وكان اول المعترضين على مداخلـــة فونيه ، المحامي ليو متاراسو احد واضعي وثيقة الجزائر ، مؤكدا على ان الوثيقة واضحة جدا ، بالنسبة لحق الشعـــوب فـي تقرير مصيرها ، وحذر من تدخـل الامبريالية العالمية ، واستعمالها الاقليات في العالم الثالث كأداة لشـق الحركـات الوطنية ، كما حصل في جنوب فيتنـام مثلا ، ولذلك فان الوثيقة لا تمنـــح كل الاقليات حق الاستقلال والانفصال ، ولكنها تمنحها في نفس الوقت ، حق التصـرف بتراثها ، ولغاتها ، وثقافاتها ٠

واضاف ليو متاراسو ، ان مـــــن الانتقادات الموجهة للوثيقة ، انها لم تحدد مفهوم « الشعب» بشكل واضح ، مشيرا الى البند التاسع عشر من الوثيقة والذي ينص على انه « اذا كان الشعب جزء لا يتجزأ من دولة ما او من شعب آخر، يحق له ممارسة بعض الحقوق ، ولكنه لا يحق له ممارسة حق تقرير المصير » ، واضاف ان اللجنة قد حرصت في هذا البند ، على ان تؤمن للاقليات حقوقها في نظــــام ديموقراطي ، وتمثيلها من خلال دولها ، في المجالات الدولية ، والهدف مــن كـل ذلك هو حماية الاقليات نفسها ، وقــد اورد مثلا على ذلك ، وضع الزنوج فـي الولايات المتحدة ، الذين يتمتعون بحقوقهم ضمن سيادة الولايات المتحدة ، امـــا بالنسبة للباسكيين والكتالانيين ، فمـن الواضح انهم يتمتعون ايضا بحق تقرير مصيرهم ٠

ووضح المحامي متاراسو ، ان هــذه الوثيقة ، هي ليست برنامجا سياسيا ، وانما هي نص ، خاضع للنقاش وللانتقاد، ويعرض قائمة من مبادىء القانون المعترف بهـــا دوليـــا ٠

وفي تعرضه لاتهام فونيه ، انها تنطلق

من المفاهيم الهيجلية للدولة ، قال: «ونحن لا نؤمن بمفهوم الهيجلية للدولة · نحن نؤمن ان الدولة هي ظاهرة تاريخية ،اننا ماركسيون ، ونؤمن بالتحليل الماركسي ، ولا نستبعد ان تلغى الدولة في يوم ما ، ولكنها ، حتى الآن ، ضرورة لكل الشعوب » ، واضاف ان واضعي الوثيقة لم يكتبوا وثيقة عن فلسفة الدولة، ولكنهم وضعوا وثيقة عن حقوق الشعوب ، وعن المبادىء التي تناضل شعوب العالم من اجلها · ولذلك ، فانه في الوقت الحاضر، لا يمكن لاية حركة تحرر في العالم ، ان تطمح للتخلي عن مرحلة الدولة في تطور نضالها ، وان الموقف المعادي للدولة ، الذي يشهده العالم اليوم ، ما هو الا « صرعة جديدة» تدخل في باب المثاليات·

وفي مجرى النقاش ، تدخل احد ممثلي منظمة التحرير ، ممن شاركوا في الندوة معترضا على اعتراف الاستاذ فونيه ،بحق الشعوب بتعريف نفسها على اساس الدين، مشيرا الى ان التاريخ الحديث برهن على خطورة ادعاء شعب ما ، حقه القومي بتكوين حركة قومية على اساس ديني ، كالحركة الصهيونية ، التي تشكل افضل مثل على ذلك ، والتي ادت ، ليس الى اغتصاب الحقوق الكاملة للشعب الفلسطيني وحسب ، بل ومهدت الطريق الى نشوء حركة عنصرية ، تضطهد اليهود انفسهم ، وخاصة اليهود الشرقيين منهم·

واشار عضو منظمة التحرير في سياق رده على فونيه ، انه « اذا ما اعترفنا بهذا الحق مبدئيا ، لشعب ما ، فلا بد وان نعترف به لكل الشعوب ، وعندئذ نكون قد بررنا مثلا ، حق المسيحيين الموارنة في لبنان ، في انشاء حركة قومية على اسس دينية ، بل وطائفية ، وبالتالي تقرير مصيرهم على هذا الاساس، وتقسيم لبنان وانشاء دولة مستقله » ، واضاف عضو منظمة التحرير ان ذلك يشكل منتهى الخطورة ، ليس فقط ، في لبنان وانما في سائر العالم الثالث ، اذ يفتح المجال لجميع الطوائف ، بادعاء حقها في الانفصال ، وتقرير المصير ، وبالتالي انشاء كيان مستقل ·

واخيرا ، اختتم السيناتور والمحامي الايطالي ليليو باسو ، رئيس اللجنة العالمية لحقوق الشعوب الندوة قائلا ، انه كان يود الحديث عن آفاق العمل بالنسبة للجنة ، الا ان مداخلة الاستاذ فونيه ، وتهجمه على واضعي وثيقة الجزائر ، يجبره على الاجابة · اذ جاء انتقاده مجرد تعليق على الناحية القانونية من الوثيقة ، رافضا موقف واضعيها ، المبدئي والسياسي ، ومتهما اياهم بالمفهوم الهيجلي للدولة · وقال : « اما انا فاعتبر هذا اهانة ، لانني كماركسي اناضل ضد هذا المفهوم الهيجلي » واضاف ان واضعي هذه الوثيقة يعتبرون الدولة بناء قانونيا ، يمثل الشعب، ولكن الدولة ليست هي الشعب، وانهم عندما يتكلمون في الوثيقة ، عن الهيمنة غير المباشرة في البند السادس ، فانهم يضعون الدولة والشعب في تناقض ، وهذا ليس مفهوما هيجليا للدولة مطلقا · وانهم عندما قرروا وضع هذه الوثيقة في اخر جلسة لمحكمة راسل للسلام في روما ، لم يطمحوا الى وضع وثيقة مثالية ، وانما هم يوضحون ما هو موجود ومعترف به في القانون الدولي ، بالنسبة لحقوق الشعوب ولكنه ليس معروفا لدى حركات التحرر في العالم · ولذلك فان التناقض الموجود في الوثيقة ، ورثته اللجنة الدولية عن التناقض الموجود في القانون الدولي ·

واضاف ليليو باسو قائلا : « كنا نود ان نوعي شعوب العالم ، بحقوقها التي تتمتع بها ، ولكنها لا تعرف شرعيتها ·· ولقد وضعت ، انا شخصيا ، الدستور الايطالي عام ١٩٤٦ ، ولكنني لا اضع

الآن دستور العالم » ٠

واتهم السيناتور ليليو باسو كل من انتقد وثيقة الجزائر في هذه الندوة ، دفاعا عن الاقليات ، بأنه تميز بالتعصب الاوروبي ، اذ لو ان العالم كان يعترف لكل اقليات افريقيا بحق تقرير مصيرها داخل دولها المستقلة مثلا ، لكانت قارة افريقيا قد تفجرت باسرها ؟ اذ لكل مجموعة في افريقيا لغة، واذا ما اعتبرت اللغة ، كافية لتعريف اقلية ما كشعب ، لكان هناك اكثر من مئة شعب في كل دولة افريقية ، ولهذا فانه « يتوجب علينا ان نناضل من اجل حقوق الاقليات ، ولكن يتوجب علينا ايضا ، ان نناضل ضد بلقنة العالم الثالث » ٠ والبرهان على ذلك ، هو ما جاء في الوثيقة نفسها ، من نص لانشاء فروع اللجنة العالمية لحقوق الشعوب ، في عدة حركات تحررية، وخاصة في حركات اقليات مثل الكيوبيك والكتلان واسكتلندا والباسك ٠

وانتهى السيناتور باسو الى انه ، في كل انسان عنصر فردي وعنصر جماعي، واذا لم يتحد هذان العنصران لدى الانسان لما وجد ٠ واتهم باسو اوروبا الغربية، بانها قد فقدت عنصرهاالجماعي، اذ ان الاضطهاد الذي يعيشه كل انسان فيها ، يعيشه بمفرده وباغتراب ٠ ولذلك فاننا نرى اليوم صعود حركات تبحث عن هوية في اوروبا مثل صقلية في ايطاليا، وبريتاني في فرنسا ، وهذا هو رد الشعب الاوروبي على الراسمالية ٠

واكد ليليو باسو على ان اي دفاع عن الانسان كفرد ، ما هو الا تسويف ، لان هذه الشعوب تدافع عن مجموعيتها وان خبرة اللجنة التي اكتسبتها من خلال محكمة راسل للسلام ، علمتها ان ليس هنالك حقوق للانسان ، بعزلة عن حقوق الشعوب ، وان حقوق الانسان تنتهك اولا ، اذا ما انتكهت حقوقه كشعب ٠وانها في بحثها عن اضطهاد الشعوب من طرف الامبريالية ، انما هو اساس الدفاع عن حقوق الانسان ٠

وانتهى السيناتور والمحامي ليليو باسو الى دعوة الحاضرين ، للمشاركة في اعمال اللجنة العالمية لحقوق الشعوب ، للتنديد بجميع الانتهاكات التي تمارس ضد حقوق الشعوب ، اذ ان خبرة الفيتنام، وامريكا اللاتينية ، برهنت على ان تعبئة ضمير شعوب العالم ، اضحت اليوم قوى سياسية يجب ان توضع في خدمة شعوب العالم المناضلة ٠

ليلى شهيد

رسالة صوفيا :

كلمة فلسطين إلى أدباء العالم

شهدت العاصمة البلغارية ، صوفيا ، واحدا من أكبر المؤتمرات الادبية العالمية التي عقدت في السنــوات الاخيــرة ، شترك فيه حوالي مائة وخمسين اديبا من وروبا واميركا وكنــدا لمناقشة موضوع « الاديب والسلام » . وقد استمر المؤتمر من السابع من حزيران « يونيو » الماضي حتى العاشر منه ، قدم فيه كبار أدبــاء العالم مفاهيمهم المختلفــة للســلام ، مستلهمين روح هيلسنكــي ، دون ان يصدروا قرارات او بيانــا ختاميا ، مكتفين بالحوار والمناقشــة وتبــادل الاراء .

وقد دعــي للاشتراك في مناقشات المؤتمر ، بصفة مراقبيــن ، ممثلون عن الارجنتين، وكوبا، وتشيلي ، وفلسطين ، والبيرو ، وجنوب افريقيا ، والباكستان، وأورجواي ، و فنزويــلا ، وفيتنــام ، واليابان ، والهنــد ، وكولومبيــا ، والمكسيك .

وكان ممثل فلسطين في المؤتمر الشاعر محمود درويش الذي دعي لالقاء كلمــة في الجلسة الختامية للمؤتمــر ، كرس قسما كبيرا منها لمناقشــة القضايــا الادبية العامة وقدرة الادب علــى بلورة المشترك في الانسان في كل زمان ومكان، ثم طرح على المؤتمــر المفهوم الفلسطيني للسلام .

وفيما يلي اهم الفقرات التي وردت في كلمتــه :

« ان السلام في نهاية الامر هو الحالة التي تمكن الانسان من تكريس طاقاتــه وحواسه لتأسيس عملية الجمال الشامل، ومن امكانية ابداع نفسه وعالمه بحرية ، فتكون العلاقة بالفن أحد معايير المنافســة على اكتساب الجدارة بالوجود . ولكــن هذه العملية التي تتحقــق في الــذات ، بانجاز السلام مع النفس ، تحتاج الى شروط خارجية ، تحتاج الى صراع اكثر تعددا ليصبح السلام سيــد الكــرة الارضية .

« لقد حقق الادب والفن مقدمات جذرية في اقامة هذا البناء الانسانــي الرحب ، جعل الاحساس بالاخر جــزء أساسيا من مقومات الشخصية . ان الادب يعلمنــي أن ألف سكنى الآخر في ، ويعلمنــي ان أرى نفسي متحولا في الآخر . انه يعلمني أن اشترط وجودي بقدرتي على استيعاب الآخر في هذا الوجود . انه يوسعنــي ويحررني . وان قصيدة جميلة من قصائد بأبلو نيرودا ، مثلا ، تجعلني ـ وانا في السجن ـ اقضي الصيف مع صيــادي تشيلي على شاطىء الباسفيك .

« ولكن الادباء لا يحكمون العالم ، ولم يتحول الادب ، حتى الان ، الى ضــرورة الخبز . ان حواجز كثيرة تصد فاعليــة الادب عن مجراها ، فلا يكــون الادبــاء قادرين على التحكم بزمام اللحظــة التي تدفع العالم الــى الجنون ، ولا قادرين على اختراق جدران الكراهية ،

والعنصرية وغسيل الدماغ اليومي الذي تمارسه الان ، اكثر من اي وقت مضى، وسائل الاعلام الحديثة في بلدان تتحول فيها النقود الى دبابير تلاحق الاطفال۔ كما كان يقول غارسيا لوركا ٠٠ الامـر الذي يجعل المبادرة الادبية تتقهقر الى حد ما ، لانه من المستحيل ان تتحقق حرية الاديب ، كفرد ، في شروط تحجب الحرية عن شعوب · وهكذا يبحث الاديب عن دور خارج الكتابة ، ليلبي حاجات سريعة ، وليعطي فاعليته دورا يوميا ، ولينخرط في عملية التغيير الشامل ، في صــــراع يتحول الالتحام فيه الى شرط من شروط حدود الادب»·

وعن اعمال المؤتمر ، قال محمـــود درويش :

« على الرغم من ان قضية السلام ، كما يطرحها هذا المؤتمر ، تتناول الجهود المبذولة غرب البحر الابيض المتوسط ، الا اننا ـ سكان شرق المتوسط ـ نعتقد انه من الصعب تجزئة قضية السلام وحصرهـا في الامن الاوربي بامتداده عبر المحيط الاطلسي · ومن هنا ، فاننا نطمح الـى مساهمة اكبر في عملية النضال مـــن اجـــل ان ينتشر السلام على الارض · ونطمح الى ان يشمل مفهومكم للســـلام مناطق اوسع من العالم وعناصر اكبرمن مكونات السلام الحقيقي تتعلق بالمسألتين الاجتماعية والقومية · ونطمـح الى ان تولى حركات التحرر في افريقيا وآسيـا واميركا اللاتينية عناية خاصة فـــي البحث عن شروط احلال السلام علـــى الارض ، فان نضال هذه الشعوب يبني قاعدة واقعية للعلاقة الحقيقية بين السلام والحرية والعدل · ان بؤرة الحــــرب تأخذ ، شرق المتوسط ، احد اشــــد الاشكال خطورة لا يستطيع الامن الاوربي، مثلا ، ان يتحصن من آثارها ·

« انني انتمي الى ارض الحضـارات العريقة ، الى ارض كانت تسمى الارض المقدسة ، وارض السلام · لقد رحـــل عنها السلام منذ رحل عنها شعبهـــا · وتعرضت رسائل انبيائهـــا ومحاريـث فلاحيها الى المصادرة · وحلت محلهـا، بالعنف والعدوان ، ايديولوجية القهـر والاغتصاب في اخطر اشكال تطبيقهـــا وحشية · وشارك الادب المعبر عن هـذه الايديولوجية ، مع السلاح ، في عمليـة الابادة الجماعية التي تعرضت لهـــا الارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني وثقافته الوطنية · لقد جعلت الصهيونية الكراهية ناموس العلاقات في منطقـــة الشرق الاوسط · اربع حروب في ربـع قرن · وما زالت اسباب الاعتـــــداء الصهيوني ونتائجه تعد لسلسلة مـــن الحروب لا تبدو لها نهاية · وما زالــت قرارات هيئة الامم المتحدة المتتاليــــة والمعبرة عن اعتراف المجتمـــع الدولي بأسره بحقوق الفلسطينيين حبرا علـــى ورق امام المسؤولين الاسرائيليين · لقد اجمع المجتمع الدولي على ادانــــــة الصهيونية باعتبارها شكلا من اشكـــال العنصرية · ومن المؤسف ان يستمـــر خضوع الكثير من الادب الغربي الحديث الى ابتزاز الصهيونية تحت غطاء عقدة الذنب ، فيساهم بوعي او بشكل غيـــر مباشر في ترويج القيم العنصرية التـي تشكل ضغطا سلبيا على وجدان الناس في اوروبا الغربية واميركا ، فينحـرف مفهوم السلام على مساره السليـــــم ويتحول ، حين يقترب من حدود فلسطين، الى دعوة ظالمة لعقد المصالحة بيـــــن السجين وقيوده · ومن هنا ، لا نستطيع الامتناع عن التمييز بين ادبيـن · ولا نستطيع ايضا ان نتردد في اعتبار ادب الكفاح من اجل الحرية ٠٠ حريةالانسان وحرية العلاقة البشرية ، ادبا يساهم ، بجدارة وامتياز ، في معركـــة السلام العاليـة ·

« هنالك اجماع على القــــول ان لا مستقبل للانسان بدون سلام · هــــذا صحيح ، وصحيح ايضا ان لا مستقبـل للانسان بدون حرية · ولا حرية للانسان بدون وطن · ويعرف شعبي من تجربته المرة في مخيمات البؤس والمذابح والمنافي والسجون ان قضية السلام هي قضيـــة الصراع والنضال من اجل الحريــــة والوطن · ان السلام يتحقق ، ولا يتناقض مع الكفاح من اجل الحرية ، لان السلام ليس تنازل الشعوب عن حقوقهــا ، بـل هو القتال من اجل تحقيق هذه الحقوق · هذا هو مفهومنا للسلام : ان نتحرر نحن والوطن ·

« ان الشعب الفلسطيني هو من اشـد الشعوب حاجة الى السلام · ولكنـه لا يستطيع بناء السلام الا على ارضــه · والا ، فأين يضع الفلسطيني سلامه ؟ هل في مخيمات الصفيح ؟ أم في السجـون الاسرائيلية ؟ ام في الانقاض ؟· ان مثل هذا السلام مضطر الى حمل السـلاح ليبقى حيا ·· ليبقى واقعيــا ·· لان السلام ، كالانسان ، يحتاج الى وطـن ·· الى بيت ليعيش · ويطمح الفلسطيني الى كتابة شعار « نحن نريـد السلام » على جدران بيته المستقل ، ولكن طالما لم يبلغ هذا البيت فانه مضطر الى كتابـة الشعار على بندقيته الثورية · لذلك ، استطاع الرأي العام العالمي ان يفهـم صرخة قائد الشعب الفلسطيني والثـورة الفلسطينية ياسر عرفات في هيئة الامـم المتحدة : « جئتكم بغصن الزيتون في يد، وبالبندقية في اليــد الاخرى ، فـلا تسقطوا الغصن الاخضر من يدي » ·

جَدول بالعمليّات العَسكرية لقوات الثورة الفلسطينية في ٢٤/٤ - ٢٨/٥/١٩٧٧

الرقم	تاريخ العملية		موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية		خسائر العدو الماديـة	خسائر المقاومة			المصدر ـ البلاغ العسكري	
	اليوم	الساعة				قتيل	جريح		شهيد	جريح	مفقود	رقم	تاريخ
١	٢٤ـ٤ـ٧٧	٢٠ر٧ صباحا	احد الباصات التابعة لشركة ايجد ما بين كريات جات وبئر السبع	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	١ ـ تدمير الباص تدميرا تاما وتدهوره في الوادي المحاذي للطريق · ٢ ـ اصابة وقتل جميع الركاب الصهاينة	—	—	—	٤٥ـ٧٧	٢٥ـ٤
٢	٤ـ٥ـ٧٧	١٥ر١٧	الطريق الرئيسي ما بين اريحا والقدس	كمين	اسلحة رشاشة	٢	—	١ ـ مقتل العميد الصهيوني دوف كورتس ٢ ـ مقتل سائقه ليفي كوف	—	—	—	٤٦ـ٧٧	٥ـ٥
٣	٤ـ٥ـ٧٧	٥٥ر٢٠	احد المباني السكنية الصهيونية الجديدة ـ اللد	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	غير محدد	غير محدد	١ ـ اندلاع النيران في الطابق الثاني من المبنى ٢ ـ امتدادها الى الطابقين الثالث والرابع ٣ ـ عشرات الالاف من الليرات ٤ ـ اصابة عدد كبير من المستوطنين الصهاينة	—	—	—	٤٧ـ٧٧	٥ـ٥
٤	٦ـ٥ـ٧٧	١٥ر٨ صباحا	الطريق ما بين قلقيلية وكفار سابا احد الباصات التابعة لشركة ايجد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة			١ ـ الحق الانفجار خسائر فادحة بالباص	—	—	—	٤٨ـ٧٧	٦ـ٥
٥	١٦ـ٥ـ٧٧	٠٠ر٤ صباحا	وادي التفاح غربي مدينة نابلس	هجوم	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	٤	٢	الاستيلاء على رشاشين من نوع عوزي	—	—	—	٤٩ـ٧٧	١٧ـ٥
٦	١٦ـ٥ـ٧٧	٠٠ر٢٢	يافا ـ مركز الشبيبة الصهيوني	تفجير	عبوات ناسفة مشركة موقوتة			١ ـ اصابة عدد من افراد الشبيبة الصهيونية المتواجدين داخل المركز · ٢ ـ اصابة المركز باضرار بالغة وتحطم معظم محتوياته وتساقط معظم زجاجه ٣ ـ تحطم واجهة المدخل واصابة عـــدد من السيارات	—	—	—	٥٠ـ٧٧	١٨ـ٥
٧	١٧ـ٥ـ٧٧	٣٠ر٩ صباحا	نابلس حاجز تفتيش للجيش الصهيوني	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	—	٢	١ ـ اصابة السيارة باضرار بالغة	—	—	—	٥١ـ٧٧	١٨ـ٥
٨	١٧ـ٥ـ٧٧	١٥ر٨ صباحا	مفرق قرية قوصين طريق نابلس ـ طولكرم	تفجير	عبوات ناسفة مشركة		١	١ ـ تدمير كشك التفتيش تدميرا تاما ٢ ـ اصابة جندي صهيوني بجراح خطيرة	—	—	—	٥٢ـ٧٧	١٩ـ٥
٩	٢٤ـ٥ـ٧٧	٠٠ر١٩	بتاح تكفا ـ مستودعات البلدية وخزانات الوقود التابعة لها	تفجير	عبوات حارقة موقوتةشديدةالانفجار	غير محدد	غير محدد	١ ـ احراق مستودعات البلدية بالكامل ٢ ـ احراق وتدمير خزانات الوقود ٣ ـ اصابة عدد من المحلات والمباني المجاورة باضرار بالغة ·	—	—	—	٥٣ـ٧٧	٢٦ـ٥
١٠	٢٤ـ٥ـ٧٧	٠٠ر١٦	القدس احد الباصات الصهيونية التابعـــة لشركة ايجد والعامل على رقم ١٢ ·	تفجير	عبوات ناسفة مشركة	—	—	١ ـ احداث اضرار بالغة بداخل الباص	—	—	—	٥٤ـ٧٧	٢٦ـ٥
١١	٢٨ـ٥ـ٧٧	٠٥ر١٣	القدس شارع دافيد ـ احد المحلات التجارية الواقعة فيه ·	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	١ ـ تدمير المحل التجاري واتلاف معظـــم محتوياته ٢ ـ تحطم زجاج معظم المحلات المجاورة	—	—	—	٥٥ـ٧٧	٢٨ـ٥

مروان حميد .

خــاص بالمشــتركين

Palestine Affairs

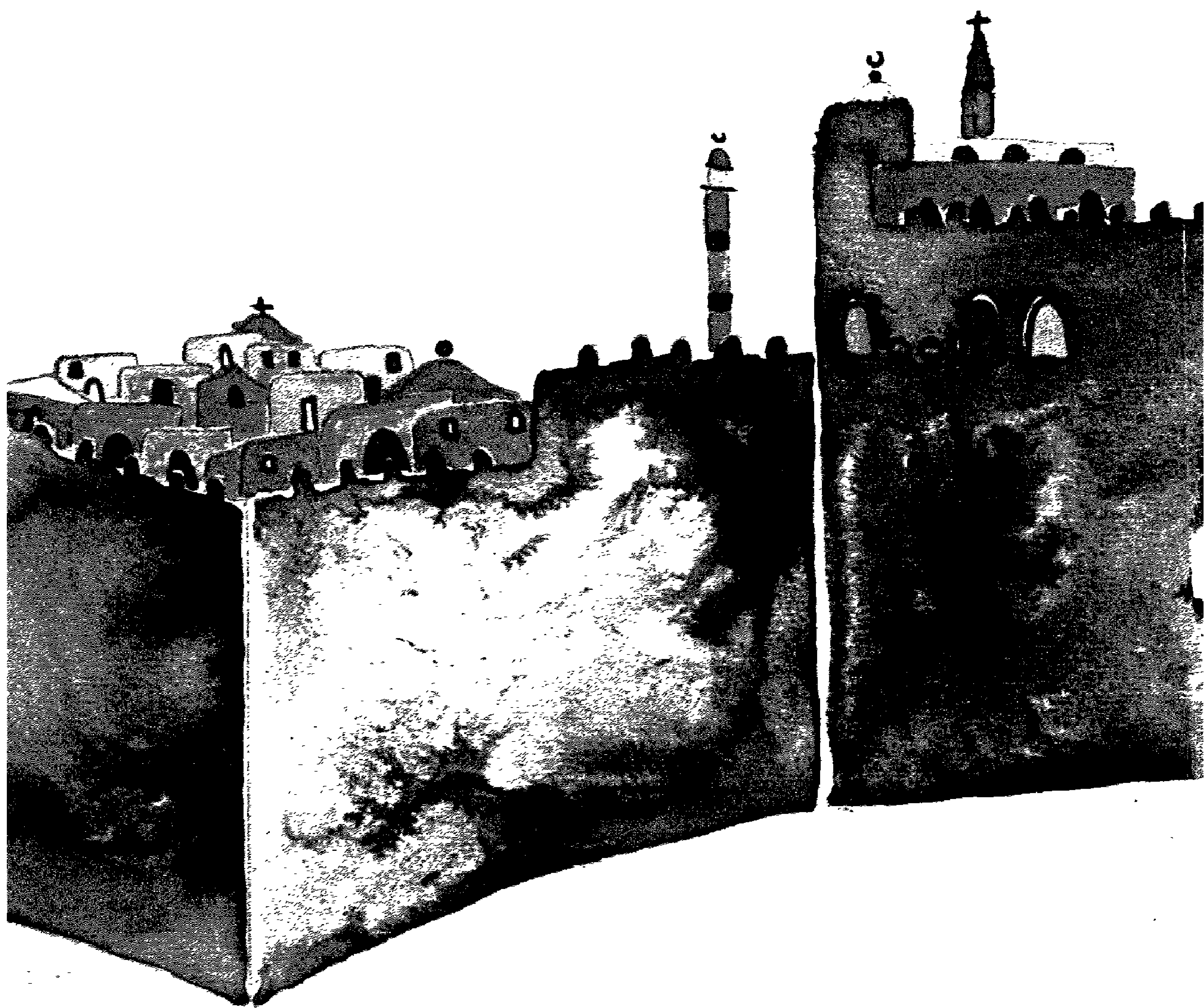
Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Mahmoud Darwish ; *Annual Subscription* (airmail) : Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261; Cables: MARABHATH.

سعر هذا العدد : ٧ ل٠ل٠ في لبنان
٨ ل٠س٠ في سوريا
٩٠٠ فلس في الكويت والعراق
١٦ درهما في دولة الامارات العربية
٩ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية
٧٠٠ درهم في ج٠ع٠ل٠

شؤون فلسطينية

٧٠

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش
سكرتير التحرير : الياس خوري

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧ — ٧٠

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ؛ رأس بيروت ، بيروت — لبنان ؛ ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ؛ التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل.ل. في سائر الاقطار العربية، ١٠٠ ل.ل. في اوروبا ، ١٢٥ ل.ل. في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
جمانه الحسيني

☐ ارتفعت تكاليف الطباعة والكتابة والحبر والورق والبريد ، الى درجة لم تعد معها « شؤون فلسطينية » قادرة على الاستمرار في تلافي التعامل مع موجة الغلاء الكاسحة ·

☐ واشتدت وتنوعت اشكال الحصار على الكتابة الفلسطينية ، فصار حرص « شؤون فلسطينية » على مواجهة القضايا الفكرية والسياسية مواجهة ثورية سببا لمنعها من الوصول الى القراء في بعض البلدان ، فكان الحجب وتعريض امكانياتها المادية الضئيلة الى مزيد من الضعف ··

☐ وازدادت متطلبات تطوير « شؤون فلسطينية » ، وتوسيع اطار اهتماماتها لتشمل

المحتويات

كل جوانب الحياة الفلسطينية ، ومنها الحياة الادبية ·

لذلك ، قررت ادارة مركز الابحاث وهيئة تحرير شؤون فلسطينية ، بالتعاون مع الكثيرين من الادباء الفلسطينيين والعرب ، اصدار ملحق ادبي بعنوان « شؤون ادبية » ابتداء من شهر اكتوبر (تشرين اول) القادم · ونحن نطمح الى ان يشكل هذا الملحق اطارا واسعا للكتابة الفلسطينية العربية ، وامكانية لبلورتها في مسار طليعي ثوري · اننا ننادي اجمل الاقلام الثورية للمساهمة في تحقيق هذه الامكانية ·

□ ومن الطبيعي ان يجبرنا تطوير « شؤون فلسطينية » في مناخ الغلاء الكاسح ، على رفع سعر المجلة الى خمس ليرات لبنانية ، ابتداء من هذا العدد ·

سيحرق هذا المسرح

لا زرقاء اليمامة ولا الانبياء الغاضبون هم الـــذين ينذرون بالانهيارات القادمة · ان ما ينهار ينهار · المسرح يعـــج بالممثلين العاجزين عن مواصلة النص ، والنص دموي ، والجمهور المقيد بالمقاعد يحاول ان يحرر ايديه ليحرق المسرح ، ويستولي على دوره التاريخي · البديل يتكون تحت الرمل والقهر · والرؤيا ملك الجميع ، لان الانهيارات ساطعة ·

عرق كثير ، وخيبات · دم غزير وانفجارات · أرض تصغر وجراح تكبر · اوطان ذات قابلية لاعادة النظر · واميركا تدخن الغليون ورئيسها يبتسم · الشاي في موعده المحدد ولا وقت للوطن · العبيد يتظاهرون بالانحناء · وكان للرغيف شكل فلسطين ووجه الفلاح · ذكريات وانهيـــارات · صمت يخبيء براكين · ويفاجا الممثلون العاجزون بأن المسرحية تقترب من النهاية ، والغزاة يجلســون على حافة المسرح · تنتشر الفضيحة · تعجز البلاغة عن التبرير · يقتـرب الممثلون قليلا من الامة : في هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ عجزنا عن تحرير الارض ، ونجحنا في حماية الحكم · لا احد يصفق · يقال وعد آخر : ما زال الحل في يد اميركا ، ولكن اميركا مشغولة بانتخابات الرئاسة الجديدة ·

وحزيران يتجدد ويتمدد ، يثأر من تشرين السريع · تبنى سجون جديدة · تخاض حروب اخرى بعيدا عن الاوطان المحتلة · فيواصل الغزاة السباحة فـي مياه جلودنا · يزداد انتشار الكوكاكولا والادب المنحط · تبتكر وسائل جديدة للتعذيب العربي · يمنع الطلبة من تقاليد الهتاف للخبز والحرية · يرتفع الحجاب على وجوه النساء · فيعلق بعض الادباء : ان الحجاب اكثر اشـارة · يـزداد الاقبال على قارئات الفناجين · وتعقد الوزارات جلسات طارئة لتحضير الارواح· يعاد الايمان الى الامة بقرار جمهوري · وتعم الخرافة ·

ولكن ما ينهار سينهار ·

ماذا لم يقدم عرب اميركا الى اميركا ؟ حتى التصوف قدموه مقابل مديح زائل · تصير شعارات الجيل نكتة ممجوجة · التضامن ، الوحدة ، الاشتراكية ، العروبة ، العدالة الاجتماعية ، فلسطين ، الثورة ، ذكريـات ·· ذكريــات ·

الاسرائيليون او العبرانيون او سكان فلسطين الجدد ، ولا يقال الصهيونيون ، يعتنون ببيوتهم الجديدة في المستعمرات الجديدة على أرض عربية جديدة · يأتون الى الاسواق العربية ليشتروا الديكور والتحف والهدايا : السيوف العربيـة المرصعة بماء الذهب او بماء الفضة او بماء الوجه · ويتعلم الباعة كلمات عبرية تنفعهم في وقت الانفراج · اليس هذا هو السلام ؟ وفي الارض متسع للجميع · يستولون على منابع المياه والاحتمالات ، ويقتربون من منابع النفط · وفي وسع الحجاج العرب ان يزوروا القدس · اليس هذا هو السلام ؟· فالذين يستطيعون ان يفرضوا الحرب التي يريدون ، يستطيعون ان يفرضوا السلام الذي يريدون ·

ولكن ما ينهار سينهار ·

يخرج سكان الارض المحتلة الى الشوارع · يبحثون عن سلاحهم الوحيد : حجارة وفخـار واغصـان زنزلخت · يشتبكون مع الدبابات وينشدون لاعيـاد قديمة · تعلن حالة الطوارىء في الاذاعات العربية · الصمود الصمود · يتدخل الشعراء ليحسموا المسألة لمصلحة القصيدة · وتشن حرب اخـرى عـلى مواقـع الثورة · النشاز الفلسطيني يتصاعد ، فيتصاعد الحرص العربي الرسمي علـى تامين شروط التسوية ، بضرب الشروط الفلسطينية والاجساد الفلسطينية · يتدخل الرئيس الاميركي مرة اخرى ليترجم ايمانه بالله الى عدل · يطلب تعميق قبول قرار ٢٤٢ · نقول : عدل · يعدل تصريحاته ، ويعدل عن ايمانه · نلتمس قرارات جديدة · نذهب الى مجلس الامن · نأخذ فيتو اميركيا جديدا · نذهب الى الجمعية العامة · نحصل على قرار جديد · يكبر ملف العدالة والاعتراف بالحقوق · نأتي الى ساحة الصراع الاصلية · ميزان القوى مختل · العدالة من دون قوة · والقرارات في سلة المهملات ·

ولكن ما ينهار سينهار ·

ميدان المعركة لا يستطيع ان يظل بعيدا عـن مناخ البيت · التفكك ، التمزق الطائفية ، الاقليمية ، الفساد ، الرشوة ، انبعاث القديم ، الردة ، الاستهلاك · تخلى المثلون عـن سلاحهم وذهبوا الـى العـراء · ولكنهـم يحتفظون بسـلاح

استراتيجي ثقيل : وعد جميل قد يقدمه رئيس اميركي مؤمن · الامل محاصر من الوريد الى الوريد · الثروة ضد الثورة · الفقراء يزدادون فقرا · الانعزالية القادمة من جنوب المعركة الجنوبية تترسخ في جنوب لبنان · لم تعد الصهيونية نموذجا يحارب ، بل مثالا يحتذى · ندخل في الحروب والمذابح · يتقزز المثقفون من تخلف الامة · الشر من طبيعة الانسان · وماذا يستطيع النظام ان يفعل ؟ الكاس والمراة هما الحقيقتان الوحيدتان والباقي باطل الاباطيل · لا احد يسمي الازمة · لا احد يقول ان الطبقة اياهاتوغلت في طبيعتها التاريخية ·· خانت · يدرك المثلون ان اميركا لا تنقذ الاوطان · ولكنها لن تتخلى عن الاخوان · تخذلهم مرة اخرى · يتقدم ضابط وسيم من الاذاعة · يتسلق حـائط المبكـى والانقـلابات ـ فلسطين · فتلـك مقدمـة حتميـة للبـلاغ رقـم ١ · يعيـد العـلاقة العربيـة ـ السوفياتية الى خطها التاكتيكي · يستبـدل السجناء · ينذر اميركا ويعطيها مهلة للضغط على اسرائيل · ينتظر معركة انتخابات الرئاسة الاميركية ثم انتخابات الكنيست الاسرائيلـي · لا شيء ، لا شيء · يغضب · يسحب سفيره من واشنطن ويبقى الملحق التجاري لتصريف الاعمال · لا يضحك الجمهور ولا يبكي · يختلف وزيران اسرائيليان على سيدة او رشوة · يكتشف الباحثون مصادر ضعف الكيان الصهيوني من الداخل · يعلن عمال مطار اللد الاضراب ساعتين عن العمل · يتحمس الباحثون في الشؤون الاسرائيلية ويضعون خطة لتعميق الانهيار الصهيوني · تاتي انتخابات جديدة · ينتصر المتطرفون : لا انسحاب ، ولا ارض ، ولا سلام ، ولا حقوق · لا نغضب كثيرا ، فتلك مسالة عابرة · ننتظر · ننتظر · ولا تتمكن المحامية الاسرائيلية التقدمية مـن تقديم البـديل ·

المسرح يعج بالمثلين العاجزين عن مواصلة النـص ، والنص دموي · والجمهور المقيد بالمقاعد يحرر ايديه · يحـرق المســرح · يستولي على دوره التاريخي · ويجد البديل · لان ما ينهار ينهار ·

محمود درويش

محمود درويش

ايها النسيان ، إنك تليق بكل الاسماء ، ولكنك لن تكون تل الزعتر

يفلت منا تل الزعتر · وهذه اللغة للتفاصيل · كيف نحمي النص من الانفجار . واسئلة اخرى · ويتكرر سوء التفاهم الذي لا ينتهي بين البطولة وعناصرها · البطل هو آخر من يعرف انه بطل · وتل الزعتر لا يعرف تل الزعتر · ولا نعرف، في هذا الخضم ، كيف نسمي · سنجتهد كالمعتاد ، واسئلة اخرى · ولكن الذي اتيح له ان يحدث الحدث لا يستطيع ان يشهد حدود دمه · والـذين ساروا في الحنين الى ما هو آخر لن يروا في صفوف الكلمات المنهالة عليهم الا مجموعات غريبة من الحشرات · بعضهم ذهب الى الصمت الاخير ، وبعضهم يذهب الى الحياة بشروط محكمة · ويفلت منا تل الزعتر · وليس كل من جاء من هناك كان هناك · وسنقول الان : تل الزعتر تراكمات بساطة ، وثقافة علاقة بالمعجزة في اشد مقوماتها الفة · تل الزعتر معجزة الماء · اختيار الذين يختارون والذين لا يختارون · استدراج البشر الى سر التاريخ ، وترويض الدهشة . فيصير كل شيء عظيم في متناول اليد · تل الزعتر شمول لا يكبر حبة العدس، وقارة من الفوارق بين الانفجار والانتحار · تل الزعتر اسماء كثيرة لا اسم لها · حالة ترهق حاملها وقاتلها · من يضبط هذه الصيغة بعد الان ، واسئلة اخرى · وهو لذلك يفلت منا ومن ذاته · تل الزعتر اكبر من تل الزعتر ·

·· وسنقول كلاما كثيرا · سيقال كل شيء ولا شيء · وستمر الايام الاخرى

★ مقدمة كتاب « طريق تل الزعتر » الذي سيصدر هذا الشهر عن مركز الابحاث ·

على هذه المدينة ـ بيروت ـ التي لا يقيم فيها الا الذين ماتوا والذين سيموتون بشظية طائشة او باقتحام ، ويعقبهم فرح · ومع ذلك ، يظل حزنها من الخارج اكبر · لا ادري الى اين تقودني هذه الملاحظة ، ولكنني ركبـــت كيس طحيـن ومشيت على الماء الليلي من قبرص الى صيدا ، لاقترب من انفجارات اللحظـة التي حبلت بها مئات السنين من تاريخ امة · على سطح السفينة شباب غادروا الكتب والسفر في طريقهم الى بيروت ليدافعوا عن الحلم · كنت في اسبانيا قبل ايام ، ولكن اسبانيا لم تكن اسبانيا الا على ظهر هذه السفينة · ان الــذين يحلمون يشبهون بعضهم البعض ولهم وطن واحد ، وفي بيروت ايام مشابهـــة : بالامس تركيب المولدات والمحركات الكهربائية ، واقامة الخطوط الحديدية في الصحراء / بالامس المحاضرة العلمية عن اصل الانسان / اما اليوم فالصـــراع / بالامس الايمان بالقيمة المطلقة ، للاغريقية / وانسدال الستار على موت البطل / بالامس الصلاة للشمس في الغروب / اما اليوم فالصراع · / غدا اعادة كشف الحب الرومانسي / وتصوير الغربان وكل البهجة / في ظل «الحرية» السائد / غدا ساعة قائد العرض ولاعب الموسيقى / غدا للفتية الشعراء يتفجرون كالقنابل / والتمشي على حافة البحيرة / غدا سباق الدراجـــات / اما اليوم فالصراع · (اودن) ·

اليوم تل الزعتر · وتل الزعتر يستجمع بؤسه ويقف على قمة تفاصيله التي يخفيها ، فيحفظه الذين يعرفون والذين لا يعرفون والذين لا يريدون ان يعرفوا · اليوم يسمون شرق المتوسط تل الزعتر · في نيويورك ولندن وباريس وروما : سقط · لم يسقط · سيسقط · لن يسقط · اجتهادات صحافة ، واعداء ، واحلام جيل آخر · لم يعد ذلك مهما · العالم كله تحول الى انعكاس لوهج الزعتر · تل الزعتر يفلت من الاحتمالات · ينزلق من الصواب والخطـــأ · انه يحــول الكرة الارضية الى مخيم · تل الزعتر يستولي على الوقت ·

لا رحمة · لا رحمة · قال لي صديق مشغول بملاحظة الظلـــم الاوروبي : تعبت منهم هؤلاء الذين لا يكفون عن سؤالي كيف تهجي اسمـــك · وتفاخر : هؤلاء لا يسألونك كيف تهجي تل الزعتر ! اخرس ! فليس ذلك دليلا على علاقة المتناقضات التي تجمل ، فليس لوحدَ شأن في الالم الذي يصيب انسانا تشـد ساقه اليمنى سيارة في اتجاه ، وتشد ساقه اليسرى سيارة في اتجاه آخـر · لا · ذلك عادي ·· عادي لانه من تل الزعتر · لا · لا · هـــل فكـــرت هذه الضحية بان ما يرفعها الى هذا الوجع يرفعها الى الشهرة ؟ هل تعيدها الـى الحياة او الى فلسطين شفقة جنتلمان انجليزي ؟ ايها العالم ، اني ارفضك · وماذا نستطيعون ان تقدموا لنا ! سؤال يواجهه الفلسطينـــي على شاطـــىء الباسفيك من غاضب على القهر الاجتماعي · وانت تجيب وتحاول ان تلم في صدرك اشلاء طفلة من تل الزعتر · وفي مجلس الامن يرفع المندوب الاميركي

يده ليقول في ادب : لا ـ لحق الفلسطينيين في عودة او وطن ·· او في اي شيء خارج الموت · ولكن تل الزعتر يقاوم · وفي كندا يتلذذ رجـــال الامن والجمارك بتفتيش مسام جلودنا ، لانهم يخافون على دورة الاولمبيك · وتنهمر الاخبار : سقط · لم يسقط · سيسقط · لن يسقط · تل الزعتـــر يقاوم · وفي فانكوفر تقول الصحافة ان الفيلم الفلسطيني هو اجمل افلام العالم في هـــذا المؤتمر · وفي اليوم التالي كانت سيدة فلسطينية تسأل رجل الامن الكندي : هل تفتشون الجميع كما تفعلون بنا ؟ قال في حسم : لا · فلماذا تخبره اذن انهم ذبحوا اباها وامها واختها دفعة واحدة ؟· ان الذين يرفضون حقنا في ان نكون عاديين هم الذين يستدرجون نومهم باقراص تحولهم الـــى حراس · ان مبتكرات كثيرة قد انجزت من اجل مراقبة الطريقـــة التي يتنفس بهـــا الطفل الفلسطيني · ان علما باكمله قد جند لترويض هذا الدم · كانت ادوات الحجب اكبر من ان تحجب · وفي خمس دقائق زعتريـــة توقف العـــالم عن الرقص والاهمال · وتحولت انظاره الى هذه المباراة ·· في خمس دقائق · قادم من هناك · ذاهب الى هناك · نحب او نمشي · سيموتون · لن يموتوا · لا يريدون لهذه الدورة ان تنتهي لان الضحية تلعب باتقان · وما زالت الافلام الاميركية تجيد صناعة الابادة السهلة · وفي جنوب شرق آسيا ، وحين صار دمهم شريكا في اللعبة ، ارادوا لها ان تتوقف . وارادوا للكاميرا ان تلجم ذكاءها · اما في تل الزعتر ، فقد طالت اكثر مما وعدوهم ، والدم ليس دمهم · فلتستمر رياضة الموت · تصفيق تصفيق ·· وكتابة ·

كل السفن بطيئة · ولكن هذه السفينة السائرة على الماء الليلي من قبرص لا تجد صيدا · ولا ترى الا اضواء القراصنة القادمين من ميناء حيفا · يحتلون البحر ايضا · حوالي مائة طالب غادروا سنواتهم الجامعية الاخيـرة لينتموا الى الحلم · منذ فترة طويلة لم نسمع هذه الاغاني · والسفينة لا تصـل · يدفعونها بالهتاف والاناشيد · ولم يتدربوا على حمل السلاح · وعلى طريق تل الزعتر تقف المرأة اباها ذات السواد · تختار اجمل الاطفـــال وتذبح تذبح وتنتشي · تنتشي وتعود الى البيت لتنام · وعلى طريق آخر يقف العملاق العاجز ويختار العذراء · يضاجعها بسكين المطبخ الكبيـرة . في هـــدوء في هدوء · المشاهدون لا يتحركون · الصليب الاحمر · التضامن العربي · الله· الوطن · العائلة · النساء الانيقات · ثم يمسح السكين بالبنطلون الابيض · يزدان بعلامات فحولة السكين · العذراء ترشح دما · العملاق العاجز يرتاح·

كل السفن بطيئة · ولكن هذه السفينة ابطأ · كانوا مائة · سيعود منهم عشرون ·

تل الزعتر · اسماء كثيرة لا اسم لها · لا احد يحب كالاخر · لا احد يموت

كالاخر . ثلاثة الاف قتيل ليسوا رقما . سيرة البشرية تقتحم طريقة الفهم الشائعة ، تنقض على التاريخ : انك تكذب . لايسمعهم التاريخ . يعطيهم رقما ولا يجمع الاشلاء .. لا يرى كيف التقطوا دماءهم ، قطرة قطرة ، من بين عشرات السنين ومساحات الرمل . يضعهم في جملة واحدة : ثلاثة الاف قتيل ماتوا في معركة . ولكن .. لا احد يموت كالاخر . والكتابة ، كالتاريخ ، تكذب . نحن هنا نرتكب اكثر من مخالفة . نروي عنهم ونخفي بعض ما قالوا وما يقولون لننقذ اللحظة السياسية العابرة من الحرج . لا وصية لهم ولا قبر . رسونا على دمهم وكان الارض . وفي اوج الكتابة كانوا يموتون بدلا منا . كانوا هم الذين يكتبون . وظلت الكتابة تكذب . وفي ساعات الدم الكبرى .. في ساعاتهم نتساءل عن جدوى الكتابة ، ونمضي في السؤال لنسال عن جدوى الحياة ذاتها . نعم ، سنشك في كل شيء ، سنشك في الحياة من فرط ما ماتوا . وسنسال : الى متى نرسم المواعيد ونسقط ؟ وسيعيدون اسئلتنا الى التوازن . سيعيدون لنا الحياة ذاتها . سنؤمن ونتابعهم . هؤلاء الذين لا جدران تكفي لصورهم ، ولا اسم لاسمائهم ، ولا حبر لا حبر يكفي لتقليد دمهم . انهم مرميون على الارصفة والساحات والبذور ، مرميون على الشمس وفي انظلال ، مرميون في الحنان والظهيرة ، مرميون في الذاكرة والنسيان . وما علينا الا ان نشهر الاقلام ونغمسها في الايقاع الدموي الجاهز وفي الصور المجانية ، فيصير الكذاب فينا مخلصا والركيك متينا ويزدهر الادب الفلسطيني على دماء تل الزعتر . وتنهال باقات الورد ويمنع النقد ، لاننا نكتب عن تل الزعتر . ان بطولتهم شيء ، والكلام عن هذه البطولة شيء آخر . فلينصرف الذين يقيمون من اشلائهم متاريس الى هواياتهم الحقيقية . وليتحدث تل الزعتر عن تل الزعتر . لهم ، وحدهم، حق الكلام . هذا الكلام لهم . وسنجد في كلامهم كتابة تنفي الكتابة . سنرى في هذه الصفحات العفوية الخارجة من المذبحة والبطولة سقوط الكتابة وازدهار لكتابة . لنتعلم ابجدية الصدق والفن من هذه البساطة . ان لغتهم هي التي تغير . اشعر وانا خارج من هذا النص انني قادم لتوي الى الحياة. اي كاتب يستطيع العودة الى تقاليده بعد قراءة هذا النص الدموي ، ولا يكون كاذبا او قاتلا . سأتوقف عن الكتابة . سأتوقف عن الكتابة الى ان يهدأ دمي واجد كتابة اخرى .

ان تل الزعتر اخطر حادث بطولة في تاريخ العرب . واسأل نفسي كثيرا: هل يكون الوطن وحشيا الى هذا الحد ؟ نعم ، وقبيح ايضا ومقدس حين يكون رئة الحياة . لم يقتل وطن ابناءه كما يفعل الوطن الفلسطيني ، ولم يبدع شغيلة وطنا كهذا الحلم الذي يغير عصرا . وحين يكون الحصار هو الحصار الاخير ، وحين يكون الخندق هو الخندق الاخير تصبح مساحة الصفيح الصغيرة هي الكون ، ويكون سقوط هذه البقعة سقوط الكرة الارضية في

فراغ لا ينتهي · من علمهم ذلك ؟ القيد والثورة · ومن ايضا ؟ وجدوا انفسهم يموتون فماتوا تماما كما يجد المرء نفسه حيا فيحيا · وكانوا اكثر حرية من الحرية ذاتها حين انصهروا في الموت وهم يعرفون ان موتهم ليس شعرا كما لم تكن الحياة شعرا · لا جمال لهذا الموت ·· لا جمال لا جمال الا هم · كانوا يدافعون عن كوب الماء وعن قابلية الجرح للشفاء ، ولا يهمنا ان نعرف ان كانوا يعرفون انهم كانوا يدافعون عن القارة العربية المهددة بالتخلي عن احلامها · لا شروط للبطولة الا شروطها ذاتها حين ترمينا الحياة الى لحظة لا نستطيع فيها الا ان نبدع البطولة دون ان ندري · كانوا يحولون الملايين المنتشرة على ارض خائفة الى قبضة يد تتحفز لتغيير مسار المرحلة · كانوا يعطون للفعل الفلسطيني معناه العلني المتكامل الممتد الى كل الحدود وميزان المدفوعات والنفط والطبقات والشعر والامية والكبت الجنسي والخيانة · كانوا يفضحون السر الفلسطيني ويزيلون عن البيان الفلسطيني غشاء المجاملة · وكانوا يقولون للامة انها ليست هي المهزومة ، وان كل موقع فيها يحمل شروط تل الزعتر · ولذلك ، قاتلوا حتى جرعة الماء الاخيرة وبرزت وجوه اعدائهم الكثيرة · خرجوا من اللحظة الرائجة الى زمن آخر · واخرجوا الوطن الفلسطيني من حواجز البحر الابيض والبحر الاحمر والبحر الميت ونهر الاردن والصحراء ·

وحين خرجوا الينا من بوابات جراحهم الواسعة لم ندخل معهم في عناق متكافيء · كان المستقبل مرميا على الطرقات · وكنا نغطي وجوهنا بافراح سرية · كان السكون يغطي المدينة ، وكانت السفينة البطيئة تفرغ اكياس الطحين وتحمل الجرحى وبقايا الطلبة والاعراس · وكانت اسبانيا تمر تحت قوس الظلال · ندخل مرة اخرى في وعي البدايات · سنواصل الرحلة ونصدق احلامنا · تل الزعتر · سقط · لم يسقط · لن يسقط · كانت قوافل الجراح تصب في المدينة الرياضية وتصفيقنا وتلون فلسطين والمدن العربية الخائفة · وكانت ظواهر الاشياء تعود الى سياقها الطبيعي : فصل اخر ينتهي وتنزل البطولة الى تفاصيل اخرى ·

لا ، لن يسدل الستار على نهاية بطل ، لانه يزرع الارض الان بدايات ، واسئلة اخرى · يرحل تل الزعتر عن الارض ليدخل المحيط الكبير في دورة التدريب · ويعرف الثائر انه لن يستطيع ان يكون الا ثائرا · ولان فلسطين ليست زانية ، ولانها لا تقيم في حجرة ، فلن تكون حبيبة الجميع · انها صراع الجميع · ويصير اسم صغير مثل تل الزعتر مفترق طرق لكل الجهات · ومن طريق تل الزعتر ، من طريق الثورة نصل الى فلسطين واخواتها · والطريق الاخر يؤدي الى طريق اخر ·· الى سيطرة الكاز على الدم ·

ايها النسيان ! انك تليق بكل الاسماء ، ولكنك لن تكون ·· تل الزعتر ·

محمود سويد

الجنوب : الانفصالية الجديدة

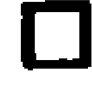
ما ابعد بيروت عن الجنوب !

ما أبعد العالم العربي كله عن الجنوب ! ذلك انه كلما تجسدت القضايا القومية في مهمات نضالية محددة . كلما ابتعد العالم العربي عنها ٠ فالوحدة القياسية العربية الآن هي الكلفة ٠ والكلفة ، في زمن النفط العربي ، اسمها بالعربي الفصيح : البترو ـ دولار ٠ الكل يزكي عن نفسه وماله : البعض يدفع راضيا ـ فتسمى زكاة ، والبعض الاخر يدفع الزكاة كرها وخوفا ، فهي في الحقيقة جزية ٠

وفي كل الاحوال ، تلف عباءة البترو ـ دولار ، الشعب العربي ، من المحيط الى الخليج ، تشد على عنقه من فوق ، ثم تسترسل وتسترخي وتترهل في الوسط ، لتضيق وتضيق عند القدمين ٠

من هنا تبدو مسألة الجنوب بعيدة كل البعد عن العالم العربي ، وان كانت بالفعل اقرب اليه ، واكثر التصاقا به مما يبدو في الاسم ، فاطلاق اسم المسألة على الجنوب ، فقط لانها تدور على ارضه ، ولان سكانه اول ضحاياها ، أمر فيه الكثير من الافتراء وعدم الدقة ٠ ولا بد ان تحمل هذه المسألة يوما اسمها الحقيقي ، فيقال مثلا : مسألة نشوء اسرائيل ثانية ، أو الصلة الجغرافية ـ البشرية بين اسرائيل والكيان العنصري الطائفي الجديد ، او غير ذلك من الاسماء التي يبدو ان المواطن العربي لن يتحسس خطورتها ، الا بعد ان تمتد نارها الى دياره ، بيتا بيتا ، وتشعل فيها الحرائق ٠

ولكن ، ما هي المسألة الجنوبية التي يتجاوز حجمها اسمها ؟



قبل اسرائيل ، كانت فلسطين تحتضن الجنوب ، حتى ليكاد يصعب عليك ان تميز بين الارض والناس ٠

وبعد اسرائيل بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، تحولت الصلة الجغرافية والسكانية بين لبنان وفلسطين ، الى عازل بين اسرائيل ولبنان ، كغيرها من خطوط وقف النار الاخرى مع العدو ٠

وبين ١٩٦٨ و ١٩٧٥ ، تحول الجنوب الى مزيج من الادوار ، اختلطت فيها الوقائع بالمطامح ، والحقائق بالاحلام ٠

عاد الجنوب من جديد ، واكثر من اي وقت سابق ، الصلة التي تربط لبنان بفلسطين ، ارضا واناسا وقضية ومصيرا ٠ تحول الى ارض تحبل بالثورة، وتعد بها ٠٠٠ ثورة يمتد طموحها ليشمل كل الحالمين بالثورة في دنيا العرب ٠ بل تطلعت ارض الجنوب الى دور اكبر بكثير ٠ فتوسد صخورها، وعانق سفوحها ثوار من كل ثورات العالم ، تدربوا على السلاح : سلاح النار ، وسلاح النظرية ، وسلاح الافكار المتوثبة ٠ ومن ارض الجنوب ـ فلسطين ، عادوا الى ثوراتهم وهم اكفا واغنى ٠

كان الجنوب ، في طموح الثورة الفلسطينية والوطنيين اللبنانيين ، البؤرة التي تمتد منها نار القتال الى الجبهات العربية الاخرى ٠ النموذج الطموح لارادة القتال ، ولما يزخر به هذا العالم العربي من امكانات ٠

وكان الجنوب والثورة الفلسطينية ، في اقل الحسابات ، الجذوة التي تبقي نار القضية مشتعلة ، بينما انصرف اخرون ، الى مزاحمة اسرائيل على دور كلب الحراسة للمصالح الامبريالية ٠

وكان للتجربة التي اخذت تنمو وتكبر في الجنوب اعداء كثر ٠ وكانت اسرائيل اشدهم قلقا ، ليس فقط لان الجنوب استمر الجبهة الوحيدة الساخنة على طول الشريط الممتد عبر قارتين : من شرم الشيخ الى شبعا في اقاصي العرقوب ٠ بل ايضا ، والاهم من ذلك ، هو ان في الجنوب نما البديل ٠ كبر وكبرت معه الحقيقة الفلسطينية ، حتى ملأت سمع العالم وبصره٠ وأصبح الوطن الفلسطيني امرا واقعا اعترف به الجميع ، سلبا او ايجابا ، باستثناء اسرائيل، لانه ينفيها ٠

بالنسبة الى اسرائيل ، يمكن التساهل مع اي خطر ، الا ذلك الذي يتجسد

في وطن اسمه فلسطين · يمكن التفاوض على سيناء · يمكن التفاوض على الجولان · هذه وغيرها من الاراضي العربية المحتلة ، اوراق مساومة وضغط لتحقيق المكاسب · اما فلسطين ، كما يقول بيغن ، فهي ترجمة بتصرف لمصطلح « ارض اسرائيل » (معاريف ٢٠ـ٥ـ٧٧) هذا هو اسمها ، وتغيير الاسم ، هو بالضبط هذا الصراع التاريخي الذي لا نزال في اول مراحله ·

« علينا ان نرفض رفضا باتا فكرة اقامة دولة فلسطينية ـ في جزء من الضفة الغربية او في كل الضفة ، مع تعديلات او بدون تعديلات ، مع غزة او بدون غزة ـ ولا يجوز لاسرائيل ان تسير نحو ذلك في أي حال من الاحوال » ·

« ان دولة فلسطينية هي ، في اساسها ، نقيض لدولة اسرائيل · فالتاريخ لا يرحم ، وقد طرح بديلين ·· عندما قامت دولة اسرائيل ، فانها قامت مكان ، وعلى حساب مناطق فلسطينية ، او سكان فلسطينيين ··· قامت ساريد مكان خنيفس ، وشاعر ـ هعماكيم مكان خرطية ، ونهلال مكان معلول[1] ، وتل ـ حنان مكان بلد الشيخ · في الشيخ مونس تقوم الآن جامعة تل ابيب · ووادي الحوارث هو عيمك حيفر · ومكان بدو العزازمة والهزيل وغيرهم في النقب ، اقيمت مستوطنتنا نيريم ، ونيريم يتسحاق · واليوم ، ولو سرنا في هذا الطريق ، وقلنا ان للفلسطينيين الحق في ان تكون لهم دولة مستقلة ـ لانهم ابناء البلد نفسه ، ولهم الحقوق نفسها ، فان ذلك لن ينتهي في الضفة الغربية ·

« ··· ان اقامة دولة فلسطينية ستكون بمثابة وضع حجر الاساس لشيء اخر ··· والقول ان للعرب الفلسطينيين الحق في دولة فلسطينية ، وان للاجئين الذين تركوا دولة اسرائيل خلال حرب ١٩٤٨ ، حقوقا شرعية في العودة الى ديارهم واراضيهم ـ كل هذا يناقض تماما صميم وجود دولة اسرائيل · فاما دولة اسرائيل ، واما دولة فلسطينية » (موشيه دايان ـ هآرتس ١٩ـ١٢ـ٧٥ـ نشرة م·د·ف· ص ٥٤ ـ ٥٥ سنة ١٩٧٦) ·

هذا هو منطق الغزوة الاستيطانية الصهيونية ، التي داهمتها يقظة الشعب الفلسطيني ، قبل ان تذهب جذورها بعيدا في عمق الارض الفلسطينية ·

ففي جنوبي لبنان ، اخذت تكتمل خصائص الشعب المستحق للوطن · والى ذلك ، اخذت تتأكد ، بالملموس ، حقيقة ان الطريق الى فلسطين ، هي نفسها الثورة العربية الاشتراكية الديمقراطية العلمانية (وما احوج العالم العربي كله الى الديمقراطية والعلمانية) ، ذلك ان دحر الغزوة الصهيونية ، والقضاء على المعقل الرئيسي للامبريالية في المنطقة ، يعني اولا فك عقال الجماهير العربية واطلاق امكاناتها ، وتنظيمها وتسليحها بالفكر الثوري والبندقية ، ويعني ثانيا ، وتلقائيا ، هزيمة الحلفاء والعملاء الكبار والصغار ، العلنيين والمقنعين ، المبتذلين و « المحترمين » ·

وفي مواجهة هذه النواة التي بدأت تتشكل في جنوبي لبنـــان ، التقـــى اسرائيليون وعرب · الاولون يريدون قتل البديل ، قتل فلسطين قبل ان تنتقـــل من القوة الى الفعل · والاخرون يريدون قتل بذور الثورة ، قتل الحريـــــة والديمقراطية والعلمانية ، قبل ان تتحول الى نظام عربي ينفي سواه ويقـــوم على انقاضه ·

وظنت الحركة الانفصالية في لبنان ان هذه فرصتها التاريخيـة للافـــادة من شبكة معقدة من التناقضات : التحالف الاستراتيجي مع اسرائيل التي طالما حلمت بمشروع تقسيم المنطقة الى دويلات طائفية عنصرية وسعت الى تحقيقه . واستغلال خلافات ومخاوف الانظمة العربية ، في آن معـا ·

ومن الثورة الواعدة الموعودة الى المؤامرة : سنتان من حرب الانفصـــال ، التي بدأت برفع شعار التقسيم ، ثم تحولت ، بعد ان لاحت لها اسباب النجاح، الى مشروع انفصالي ، يطمح الى السيطرة على كل لبنان ، او معظمه ، ويحوله بمساعدة اسرائيل الى كيان طائفـــي عنصري ، ويشكلان معا، قوة دفـــع لمشاريع مماثلة في العالم العربي ، تزيده تفككا وتناحرا وانقساما ·

والجنوب هو الساحة التي يولد عليها الكيان العنصري الطائفي الجديد ، او يلقى حتفه · وهذا هو سر انتقال زخم الحرب اللبنانية كلها الى الجنوب ، حيث يتبلور حلف المصالح العنصرية الطائفية ، ويحمي المحاولة الانفصاليـة الاخطر، في تاريـخ العرب الحديث · فلقد قرر الاسرائيليون ، منذ ما قبل ١٩٤٨ ، انه لا أمل للكيان الجديد ــ اذا قام ــ بالحياة والاستمرار ، دون ان تتأمن له صلـــة جغرافية ــ بشرية باسرائيل · والجنوب هو هذه الصلة ، هو البوابة التـــي لا بد ان تتدفق منها وسائل الدعم والحماية ·

ولقد اقتنع قادة المحاولة الانفصالية اللبنانية ، بصوابية النظرة الاسرائيليه. خصوصا خلال حرب السنتين في لبنان ، اذ تاكد لهم ، ان المشروع ، ضمـــن الظروف الدولية الراهنة ، يكون اسرائيليا او لا يكون.، فدفع بعضهم الرهان الى نهايتـــه ·

في الاشهر القليلة الماضية ، التي شهدت وقف القتال في مختلف المناطـــق اللبنانية ، كان الجنوب مسرحاً يتم اعداده لاداء الدور الجديد ، عبر الخطوات التاليـــة :

★ التعاون اللامحدود ، ضمن الاستراتيجية والخطة المشتركة ، بين القوات الاسرائيلية ، و « القوات اللبنانية » بقيادة « الميجر » (كما تسميه اجهـــــزة الاعلام الاسرائيلية) سعد حداد · ويتم تجهيز قوات الرائد حداد ، تدريبـــا وتسليحا ، من اسرائيل · وتتحرك هذه القوات ، جنبا الى جنب مع القـــوات

الاسرائيلية ، بين اسرائيل والمناطق اللبنانية التي تسيطر عليها ·

★ الجسور المفتوحة التي تم عبرها نسج علاقات متشعبة : اقتصادية تجارية ، عمل وعمال ، زيارات ، خبرات زراعية وتربوية ، نشاط سياحي ورياضي الخ ···

★ التفريغ السكاني الذي بلغ حتى الآن نسبة تزيد على ٨٠٪ ، وشمل المراكز الكبيرة المكتظة ، كبنت جبيل والنبطية والخيام وغيرها · ولعل التركيز الملحوظ على افراغ المنطقة من سكانها ، يهدف الى اسكانها بعنصر بشري آخر ، تأمينا للصلة الجغرافية ـ البشرية ، المشار اليها سابقا ، اذا سار مشروع الكيان العنصري الطائفي على طريق الانجاز ·

ولقد استطاعت قيادة الحركة الانفصالية ان تعطل مسيرة الحل في لبنان (الوفاق السياسي ، بناء الجيش ، توحيد اجهزة الدولة ومؤسساتها ، حل مشكلة المهجرين الخ ···) بانتظار استكمال الاستعداد في الجنوب ،وبانتظار الانقضاض الاسرائيلي ، لتنقض هي ايضا ، في ظله وبمساعدته ، لتحقيق مشروعها ·

وفي سياق هذه العملية ـ استكمال الصلة الديمغرافية بمركز الكيان العنصري الطائفي الجديد ـ يمكن ادراج محاولة تحطيم الصخرة الوطنية الصلبة التي تشكلها منطقة الشوف في طريق تنفيذ المشروع ، بقتل الزعيم الوطني كمال جنبلاط ، تمهيدا لتفتيت وحدة منطقة الشوف وتماسكها بقيادة زعامة وطنية قادرة · وفي سياق هذه العملية يمكن ايضا ، فهم الدور الذي يعده زعماء الحركة الانفصالية لبلدة الدامور في وضعها الجديد (الربط الجغرافي البشري « جزين ـ دير القمر ـ الدامور) ·

أما اسرائيل ، فهي الرابحة في كل الاحوال · كانت تريد من الجنوب ثلاثة أمور : انهاء الوجود الفلسطيني ، حزام امن ، المشاركة في الثروة المائية · إلا ان الامكانات التي اتاحتها الحرب اللبنانية تبدو اكبر · ومن هنا ، اصبحت اهدافها تتراوح بين : المشروع الانفصالي ، من جهة ، والمحافظة على ما كسبته في الحرب اللبنانية ، من الجهة الاخرى ، وبينهما الهدف الثابت ، الاول بين الاولويات : القضاء على الوجود الفلسطيني المتمثل في حركة المقاومة ·

على حافة هذه اللحظة التاريخية ، يقف الجنوب اليوم ، يتأرجح مدا وجزرا، يقاتل ويصمد ، ينزح ويعود · ولكنه يشعر بانه متروك ليواجه قدره وحيدا ، في وقت يحتاج فيه الى ان يفهمه الآخرون ويحبوه ويساعدوه ·

الجنوب الذي لم يكن في لبنان من هو اكثر منه توقا الى الوطن الديمقراطي العلماني العادل ، لانه مسحوق ومقهور ومعذب ، قوميا وسياسيا واجتماعيا ،

يريدونه جسرا تعبره المؤامرة ، الى مرحلتها الاخيرة ٠

ولان الجنوب يرفض ان تعبر المؤامرة على جسده ، ولان كل الذين كـــان عليها ان يخوضوا مع الجنوب معركته ـ معركتهم ، وان يدعمـــوا صموده ، غابوا وتركوه وحيدا محاصرا من كل الجهات ، تركوا لفلاحيه البائسين المعدمين ان يتخذوا بالنيابة عن الامة العربية كلها ، بشعوبها وقادتها وجيوشها ، القرارات التاريخية والمصيريـــة ٠

ولان الجنوبي يتذكر الآن كل ما كان يجب ان يكون ولم يكن ٠ يمارس النقـد والنقد الذاتي (مقاومة فلسطينية ووطنيين جنوبيين) في أحلك ساعــــــات التراجع : التدريب ، التسليح ، التنظيم ، التحصينات ، الملاجىء ، العلاقـات الثوريـــة الخ ٠

لهذا كله ، ينزف الجنوب اليوم ، ويرحل ٠٠٠ يلملم جروحه واحلامه وقهره وعذابه ، ويرحل ٠٠٠ يحتضن الذكريات والتجارب والمحاولات ، كأغلى مـــا يملك ٠٠٠ ويرحل ٠

ولكن الجنوب لا ينوي ان يحول هذه الذكيات والتجارب والمحاولات الـى
ولكن الجنوب لا ينوي ان يحول هذه الذكريات والتجارب والمحاولات الى تراث ٠٠٠ بكير على التراث ! انها عدة ابنائه وسلاحهم على طـريق العودة ٠ فالجنوبي يرحل ، ولكنه لا يلبث ان يعود ٠

يعود ليصمد في ارضه ، فليس بين الخيارات التي يواجهها ـ وهي ليسـت خيارات ـ اسوأ من النزوح ٠

يعود الجنوب ، بشعبه المناضل ، شمالا لفلسطين ، وجنوبا للبنان ٠ ممتـدا هناك حتى الجليل ، وغارزا هنا حضوره في كل بيروت ، وفي كل لبنان ٠ ذلك ان اهل الجنوب محاصرون بكل اشكال القهر ، محاصرون حتى الثـورة ٠ لا خيار لهم فيها ، ولا فكاك لهم منها ٠ فالعدو القومي يمعن في اذلالهم ، والعدو الطبقي يمعن في اضطهادهم ٠

وبقدر ما تلتحم الحقيقتان الفلسطينية واللبنانية في الجنوب وتصمدان ، بقدر ما تتوهج الحقيقة العربية وتتألق ، وسط هذا الليل العربي البالغ الظلمــــــة والظلـــــم ٠

د. اليـــاس شــوفـــاني

الانتخابات الاسـرائيليـة التـاسعـة:
تـرميـم اســوار الغـيتـو

يقول عالم الاجتماع اليهودي ، جورج تمارين ، الذي هاجر الى اسرائيل ثـم هجرها هربا من اجواء الغيتو الخانقة ، المهيمنة على الحياة في ذلك الكيان كمـا رآه ، وذلك في كتابه **المأزق الاسرائيلي ، مقالات عن دولة الحرب** ، ما يلـي : « ولكي نفهم سلوك الحكم وممارساته ، فلا بد لنا من الاخذ بالاعتبار بعض الاتجاهات الايديولوجية في التاريخ اليهودي ، وكذلك البروفيل النفسي ـ الاجتماعي للطبقة الحاكمة · واما بالنسبة الى مسألة التقاليد التاريخية ، فـلا فلا يمكننا غض النظر عن حقيقة ان الكره للاغيار كان منذ القدم ، احد الاتجاهات المهيمنة على اليهودية في المجالين ـ الاجتماعي والروحي ··· ولا يمكن فهم الواقع الاسرائيلي وردود فعل القادة فيه ، دون الاخذ بالاعتبار حقيقة انهم ، دون استثناء تقريبا ، قد ترعرعوا في مدن اوروبا الشرقية الصغيرة ، حيث ظلت الغيتوات قائمة عمليا الى نهاية القرن التاسع عشر ، في حين كان اليهود ، ليس فقط في الدول الديمقراطية ، وانما ايضا في المدن الكبرى من اوروبا الشرقية ذاتها ، يعيشون في مجتمعات منفتحة ومستنيرة منذ اكثر من جيل واحد » · (تمارين ص ١٣ ، ١٦) ·

وفي الانتخابات العامة للكنيست التاسع ، لم يدع المستوطنون في الكيان الصهيوني مجالا للشك في ان الاغلبية الكبيرة منهم امينة على عهدها ـ عهد الانعزالية الغيتوية · فحين يدلي هؤلاء باصواتهم ، في انتخابات حرة ، لم يطعن احد في صحة تعبيرها عن واقع الاجواء المخيمة على التجمع الاستيطاني

في فلسطين المحتلة ، ويرفعون الارهابي العتيق ، مناحم بيغن الى سدة الحكم . فانهم بذلك انما يرممون اسوار الغيتو ، التي بدا وكانها بدأت تنهار ، ويزيدونها ارتفاعا ، علها تحجب عن انظارهم ما يدور في العالم الكبير خارج حدود الغيتو الضيقة · فهم ، بكل صوت اعطوه الى الفاشية الصهيونية التقليدية ، انما اضافوا لبنة اخرى الى اسوار الغيتو ، تزيدها سماكة وعلوا ، علها تقيهم شر الارواح التي تخنق في الخارج · وحين يسلم هؤلاء مقاليد الحكم في كيانهم

الى مناحم بيغن ، وذلك بعد حرب تشرين وما تلاها من مسارات سياسية ، وكلام عن التسوية ، وخطوات على طريقها ، فانهم بذلك انما يثبتون مرة اخرى ، صحة القول المأثور للكاتب الامريكي الاسود ، جيمس بولدوين : « لا علاج للغيتو الا في محو معالمه » ·

ولسنا هنا بصدد تحليل سوسيولوجي شامل لنتائج الانتخابات للكنيست التاسع ، او محاولة دراسة مفصلة للتطورات الاقتصادية والداخلية التي حدت بالناخب الاسرائيلي الى العزوف عن حزب العمل والالتفاف حول راية منافسيه ، ليكود والقائمة الديمقراطية للتغيير والاحزاب الدينية ، ممن رفعوا شعارات اكثر جنوحا الى اليمين من تلك التي تستتر وراءها ، على استحياء ، حزب العمل « الاشتراكي » · وعلى اي حال ، فقد سبقنا الى تناول الموضوع بعض اصدقائنا ، (انظر شؤون فلسطينية ، عدد ٦٧) ، كما اننا على ثقة من انه ستكون هناك عودة واخرى الى معالجة الامر · وانما نسوق هنا بعض الملاحظات العامة عن الاسباب التي ادت في رأينا الى هذا الانقلاب داخل المؤسسة الحاكمة في اسرائيل ، وما قد يترتب عليه من نتائج ، خاصة ما يتعلق منها بالتسوية السياسية المطروحة ، التي ما زالت تدب في رمال متحركة منذ ان تم الاتفاق على وقف اطلاق النار في حرب تشرين ·

سقوط المعراخ وصعود ليكود

فاجأت الانتخابات الاسرائيلية للكنيست التاسع بنتائجها معظم المراقبين السياسيين · وحتى ليكود نفسه لم يكن يأمل ، ولا في احلامه الوردية جدا ، ان يقفز الى الحكم بهذه القوة · وكان المتوقع ان يخسر المعراخ حوالي العشرة مقاعد ، ولكن فقدان ضعف هذا العدد فاق كل التخمينات ، فهبط بذلك الى المرتبة الثانية بعد ليكود · وهذا الاخير ، بكسبه اربعة مقاعد جديدة ، لم يكتسح الساحة السياسية ، ولكنه قلب التوقعات التي قالت بفقدانه مثل هذا العدد او اكثر · اما « الحركة الديمقراطية للتغيير » (داش) ، فقد بقيت قريبة من التقديرات العامة ، الا انها ، كما يبدو ، سحبت اكثرية اصواتها من حزب العمل،

في حين كانت تخطط للقضم من طرفيها ، عن اليمين من ليوكد ، وعن اليسار من المعراخ · وحافظت الاحزاب الدينية على قوتها تقريبا · ويبدو ان راكاح ، الذي خاض الانتخابات بالتحالف مع قوى اخرى ، كونت « الجبهة الديمقراطية » ، لم يحصل على اصوات يهودية كثيرة ، رغم انضمام احدى فصائل « الفهود السود » ، جناح شارلي بيطون ، الى الجبهة · ومع ذلك ، فان كسب الجبهة مقعدا اضافيا هو انجاز لا يستهان به ، ازاء المد اليميني الذي اجتاح الكيان ، وبالمقارنة مع قوائم اخرى خاضت الانتخابات بشعارات يسارية ، فكان نصيبها الطحن · وليس اكثر دلالة على هذا المد اليميني من ان يحصل الافاق ، فلاطو شارون ، اليهودي الفرنسي الفار من العدالة واللاجيء لتوه الى اسرائيل ، على نسبة من الاصوات (٢٪) تفوق ما حصلت عليه قائمة « شلي » (٦ر١٪) . وهي قائمة الياف وباعيل وبيليه ، من مجلس السلام الاسرائيلي ـ الفلسطيني ·

والكلام عن المد اليميني وحده لا يكفي لتفسير خسارة المعراخ وبروز ليكود · فالمعراخ عموما ، بزعامة شمعون بيرس ، لم يكن يتميز بمواقفه اليسارية بالذات · بل كان في مجالات عدة ، داخلية وخارجية ، لا يكاد يختلف عن خصومه السياسيين ·وقد خاض المعراخ الانتخابات ، وعلى رأس قائمة مرشحيه سلسلة طويلة من الاشخاص الذين لم يرتبط اسمهم بحركة العمال في اسرائيل · واكثر من ذلك ، اذ لم يبق في تلك القائمة احد من رموز الحركة العمالية البارزين · وعلى صعيد التسوية ، كانت مواقف بيرس الصقرية معروفة جدا · وبالنسبة الى الفلسطينيين لم يكن يختلف عن بيغن الا في اسلوب الطرح · وكذلك فلا يصح في تقديرنا عزو نتائج هذه الانتخابات الى عوامل داخلية ، اقتصادية واجتماعية ، وحسب · وليس ادل على ذلك من ان المعراخ حصل في الانتخابات للهستدروت ، الذي يهيمن على الحياة الاقتصادية في الكيان ، على ضعفي عدد الاصوات التي نالها ليكود واكثر · وهذا يشير الى تمسك المستوطنين بالنظام الاقتصادي الذي بناه المعراخ · الا انه لا يجوز الغاء هذا العامل تماما · فلا شك في ان الاوضاع الاقتصادية في الكيان ، من تضخم وارتفاع في الاسعار ، وكذلك علاقات العمل المتدهورة بدليل ازدياد الاضرابات ، قد اثرت في الانتخابات ، غير انها لم تكن العامل الحاسم · وطبيعي ان يقع الحزب الحاكم ضحية موجة التضخم العالمية ، والتي لم تفلت منها اسرائيل · وكذلك فلا يمكن الغاء عامل المعاقبة من اسباب فشل المعراخ · فهذا الاخير ما زال في الحكم منذ قيام الكيان وقد استشرى فيه الفساد، وكثر داخله الشقاق ، ولم يعد بمقدوره التخلص من الشوائب التي علقت به اثناء حكمه الطويل · فعمد كثيرون الى ازاحته عن الحكم على هذا الاساس ·

في تعليله لاسباب فشل حزبه في الانتخابات العامة ، اشار زعيم المعراخ

ومرشحه لرئاسة الحكومة ، شمعون بيرس ، الى سببين رئيسيين ، كلاهما ليس من صنع حكومة العمال ، الا انها سددت الفواتير لحسابهما · وذكر بيرس موجة التضخم العالمية ، وما ترتب عليها من زيادة في الاسعار ، وخاصة في المواد الاستهلاكية في العالم اجمع ، بما فيه اسرائيل · فكان ان دفع ذلك الناخب الاسرائيلي الى معاقبة الحكومة العمالية على اثم لم ترتكبه · واشار بيرس ، وكأنه يعاتب الناخبين على عقوقهم ونكرانهم لجميل حكومته ، الى الجهود التي بذلتها الحكومة ، بقيادة حزب العمل ، لاحراز عمالة كاملة ، مما ادى بطبيعة الحال ، الى هبوط قيمة الليرة الاسرائيلية وارتفاع الاسعار بنسبة عالية · واما السبب الثاني ، فقد رآه بيرس في رياح التقلبات السياسية التي بدأت تهب في الفترة الاخيرة من البيت الابيض الاميركي · وكان بيرس يعني بذلك تصريحات الرئيس الاميركي الجديد ، كارتر ، سواء بالنسبة الى العلاقات الثنائية بين البلدين ، او الى التسوية السياسية في المنطقة · وقال بيرس : « لقد تلقى المعراخ ضربة قاسية ، ولا جدوى من محاولة اخفاء ذلك · ولكن المعراخ حركة كبيرة وباستطاعتها ان تنهض ثانية ··· وهناك مكان لاجراء محاسبة للنفس » · (نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، المجلد السابع ، ص ٣٤٩ـ٣٥٠) ·

وعقب رئيس حكومة اسرائيل السابق ، يتسحاق رابين ، الذي استقال من منصبه عشية الانتخابات ، وبعد زيارته الاخيرة الى واشنطن لاجراء محادثات مع الرئيس الاميركي الجديد ، كارتر ، فقال : « ما حصل في الانتخابات لم يكن متوقعا ، والامر لا يرتبط بهذا الشخص او ذاك في حزب العمل · ان ما حصل هو عملية تصويت احتجاجية . عاطفية في اساسها وعقلانية في جزء منها ، ذلك ان الهدف كان احداث تغيير · وفي دولة ديمقراطية يجب القبول بحكم الناخب »· واكد رابين ان سبب الضربة القاسية جدا التي انزلت بحزب العمل ليس حدثا واحدا ، بل نتيجة تضافر عدة عوامل على امتداد سنين طويلة ، ومن ضمنها الاحداث في السنوات والاشهر الاخيرة · (ن·م·د·ف· ، مجلد ٧ ص ٣٤٩) · وتجدر هنا الاشارة الى تأكيد زعماء حزب العمل ، وخاصة اولئك الذين كانوا في مواقع صنع القرار السياسي ، على احداث السنوات الاخيرة ، والاكيد انهم يقصدون الحدث الاكبر والاهم ــ حرب تشرين وذيولها ·

وبالمقابل ، ولا يحمد السوق الا من كسب ، راح الفائزون في الانتخابات يعللون فوزهم بعودة الناخب الاسرائيلي الى رشده ، ولو بعد زمن طويل ، وبوعيه « للمصلحة الوطنية » المتمثلة في مواقفهم من القضايا السياسية المطروحة . على الصعيدين ــ الداخلي والخارجي · ورأى هؤلاء في نتائج الانتخابات اتجاها واضحا لدى المستوطنين لتغيير الجهاز الحاكم · وادعوا ان تلك النتائج تشير بوضوح الى ان الجمهور الاسرائيلي يثق باحزاب اليمين وبقدرتها على

قيادة السفينة الى شاطىء النجاة ، بعد ان كادت القيادات العمالية تؤدي بها الى الغرق في خضم الانواء السياسية العاتية ٠

وعلق بيغن على نتائج الانتخابات ، فاشار الى ان « الشعب قد لبى دعوته لاعلاء الليكود الى مرتبة الحزب الاول ، وبذلك اثبتت الجماهير ان اسرائيل دولة ديمقراطية وحرة » ٠ (ن٠م٠د٠ف٠ ، مجلد ٧ ، ص ٣٥٠) ٠ وقال بيغن : « لقد حصل اليوم تحول في تاريخ الشعب اليهودي والحركة الصهيونية لا مثيل له منذ ٤٦ سنة ، اي منذ المؤتمر الصهيوني السابع عشر في عام ١٩٣١ ، عندما اقترح زئيف جابوتنسكي تحديد هدف الصهيونية باقامة دولة يهودية في عصرنا » ٠ (معاريف ١٨ـ٥ـ١٩٧٧) ٠ وكلام بيغن عن التحول في « تاريخ الشعب اليهودي » ، وعن تحديد اهداف الصهيونية ، وكذلك الاشارة الى زئيف جابوتنسكي ، انما يحملان دلالة واضحة الى الاصول الفكرية لزعيم اسرائيل الجديد ، والى التوجهات السياسية المتوقعة منه ٠ واذا اخذنا هذا الكلام على عواهنه فانما يعني العزم على الاقلاع في مسار جديد ، يكون ملهمه « المعلم » جابوتنسكي ، مؤسس الصهيونية التنقيحية ، ومنظر الفاشية في تلك الحركة الاستيطانية ٠ وهذ ينطوي على نبذ البراغماتية السياسية التي تميز بها العمل الصهيوني بقيادة الاحزاب العمالية ، ونبش الشعارات التنقيحية التي طرحها جابوتنسكي في حينه واحيائها ٠ وفي مقدمة ذلك شعار « تكامل الارض ووحدة الشعب » ، والانتماء العضوي الى « العالم الحر » ٠

واذا لم يكن مستهجنا من بيغن افتتاحه عهده في الحكم بهذا اللون من التصريحات ، لما عرف به من شوفينية متأصلة ، وليس غريبا عليه ان يطلق مثل هذه الشعارات ، فرحا بفوزه بعد ثماني محاولات فاشلة ، علما بما تزخر به خطاباته في كل مناسبة سياسية من كلام مماثل ، فان ما يحتاج الى بعض التفسير هو التأييد الواسع الذي منحه اياه المستوطنون في الكيان ، ومن ثم الاوساط الصهيونية في شتاتها ، مما اوصله الى تحقيق حلمه الكبير في السلطة ، وفي هذا الظرف بالذات ٠ ولعل في تعليق زعيمة « حركة حقوق المواطن » شولاميت الوني ، تعقيبا على نتائج الانتخابات غداة اعلانها ، ما يفسر ذلك ٠ وقالت الوني : « ان هذا الشعب قد اصبح اقل عقلانية واكثر شوفينية وغيبية ، ولم يعد يحكمه العقل السوي ، واصبح يتأثر كثيرا بالمال » ٠ (هآرتس ١٨ـ٥ـ١٩٧٧) ٠

الواقع ان التجمع الاستيطاني ، الذي تسميه الوني تجاوزا « الشعب » ، لم يكن في اي وقت مضى اكثر عقلانية ، او اقل شوفينية وغيبية ٠ فالفكر الصهيوني التقليدي يتميز عن نظائره ببعد اضافي من العنصرية والغيبية ، بل ويمتاز عنها جميعا بظاهرة التغيب التي واكبت تنفيذ المشروع الصهيوني منذ البداية ٠ فقد

غيبت الصهيونية الشعب الفلسطيني ماديا في البداية ، عندما انكرت وجوده الفعلي على ارضه · ولما لم يعد ذلك ممكنا ، بفعل النضال الفلسطيني ذاتـه ، عمدت الصهيونية الى تغييب الفلسطينيين حضاريا ، فجردتهم من كل مظاهـر التمدن وعزت لنفسها كل ما تم على ارض فلسطين من عمران · هذا ومازال المستوطنون الصهاينة يمعنون في تغييب الفلسطينيين سياسيا الـى يومنـا الحاضر ، رغم اعتراف العالم اجمع بهم وبحقهم في تقرير المصير · ناهيك عن الطعن بالحركة الوطنية الفلسطينية وبشرعية تمثيل منظمة التحرير للشعـب الفلسطيني · ويبدو ان الوني لم تكن تعي هذه الظاهرة الفريدة فـي العمـل الصهيوني ، ولم تكتشف اللاعقلانية والشوفينية بين اترابها من المستوطنين ، الا عندما رفعوا بيغن الى سدة الحكم · ولكنها ، والحق يقال ، صادقة فـي تعبيرها عن الاجواء السائدة بين هؤلاء المستوطنين ، وفي جزعها من كونهـم قد خلعوا القناع عن وجههم البشع ، وكشفوا عوراتهم بشكل لم يعد بالامكان التستر عليه او اخفاؤه بالنمارق والالفاظ · وبهذا ، على حد قولها ، لم يحكموا عقلهم السوي ·

ولخص يهودا بن مئير (المفدال) هذا الانقـلاب في توجـه المستوطنيـن السياسي ، فقال : « الجمهور يريد التغيير ، وهناك توجه قومي لا لبس فيـه · وهذا الامر يجسد ارادة الشعب في الصمود ، فالشعب لا يريد التنـازل » · (ن·م·د·ف· ، مجلد ٧ ، ص ٣٥٠) · وتلخيص بن مئير لاسبـاب هـذا الانقلاب ، بغض النظر عن حكمنا على طبيعته ونتائجه ، صحيح الى حد كبير · وهذا ما وصفته الوني بالشوفينية واللاعقلانية ، وهو وصف دقيق · وعلق عليه موشيه دايان بقوله : « لا شك في ان هذا هو بمثابة هزة ارضية اصابت البنيـة السياسية في اسرائيل وربما الشعب اليهودي كافة · ولكن الامر لا يعتبـر كارثة ولا هو الخلاص » · (المصدر نفسه ، ص ٣٥٠) · اما ارييه اليـاف (شلي) ، من مجلس السلام الاسرائيلي ـ الفلسطيني ، فقال : « نحن قلقـون وجزعون مما حصل اليوم في البلاد ، لقد اتهمنا حزب العمل والمعراخ ، طوال سنين ، بأنهما يجران انفسهما وهذا الشعب نحو اليمين ، وبأنهما ينتحران كحركة قائدة · لقد اشعلنا الضوء الاحمر في كل مكان ، واليوم يحصد حزب العمـل والمعراخ العاصفة التي زرعاها · (المصدر نفسه ، ص ٣٥٠) ·

لم يحصل ، على حد علمنا ، ان جرى الكلام عن نتائج انتخابات سابقة فـي اسرائيل بمصطلحات « الهزة الارضية » او « العاصفة » · كما لم يوصـف اقتراح الناخبين فيها بانه « توجه قومي ، يجسد ارادة الشعب في الصمود » · ولم تذهب ، كما نذكر ، شخصية سياسية هناك ، وعضو في البرلمان ، الى حد اتهام « الشعب » باللاعقلانية والشوفينية والغيبية وفقدان الصواب ، من قبل · ولربما بدا لنا هذا الكلام مبالغا فيه للوهلة الاولى · اذ بالنسبة الينا ، لا يغير في الامر كثيرا سقوط رابين وصعود بيغن ، او ذهاب بيرس ومجيء دايان ، وما

الى ذلك · خاصة والموقف الصهيوني العام من جوهر الصراع في المنطقة وطبيعته ، موحد تقريبا · وهذا التبديل في قيادة المؤسسة الحاكمة في الكيان ، لا ينطوي على انقلاب في النظرة الى لب النزاع ـ القضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني · ومن المؤكد انه لا يحمل في ثناياه توجها جديدا نحو منظمة التحرير ، باهدافها وبرامجها المرحلية · الا ان ذلك كله لا يلغي قطعا ما لهذا التبديل من اثر على المسارات السياسية الجارية في المنطقة · والاهمية الفعلية له تكمن في المسلك الذي ستتخذه السياسة الاسرائيلية ازاء المشاريع المطروحة ، في المرحلة القادمة · وعلى هذا الصعيد ، لا شك في ان حقبة جديدة ، ومختلفة جدا ، قد بدأت بتولي بيغن السلطة في الكيان · وقد أخذت بوادر الاتجاهات الجديدة تبرز ، مع ما يترتب عليها من ردود فعل ·

وفي تقديرنا ان نتائج الانتخابات للكنيست التاسع كانت رد المستوطنين الحقيقي والصادق على حرب تشرين وذيولها · ففي المرة السابقة ، التي اعقبت الحرب مباشرة ، لم يكن هؤلاء قد صحوا بعد من الهزة العنيفة التي انتابتهم ، ولم يجرؤوا حينئذ على الاغراق في التغيير خوفا على مصير الكيان نفسه ، وجزعا من الاقدام على فتح الباب لمزيد من عدم الاستقرار والارباك ، هم في اشد الحاجة للابتعاد عنه كي يتمكنوا من لملمة اوضاعهم المتدهورة ، ومنذ ذلك الحين الى الان ، استطاعت القيادة الاسرائيلية ان تعيد الثقة الى نفوس المستوطنين وتزيل عنهم كابوس القلق على قيام الكيان · وقد لعب المسار الذي اتخذته التسوية السياسية دورا اساسيا في تمكين المؤسسة الصهيونية الحاكمة من انجاز تلك المهمة الصعبة · ولكن الخوض في مفاوضات التسوية ، وما دار حولها من كلام وطرح فيها من مواقف مع ذكر الاسباب التي ادت الى اتخاذها ، والتبريرات التي دعت اليها ، خلقت لدى المستوطنين اجواء سياسية ونفسية جديدة ، وفتحت اعينهم على جوانب اساسية من وجودهم لم يكونوا يعونها جيدا · وكذلك كانت اعادة بناء الجيش الاسرائيلي ، والمعلومات التي نشرها قادته على قوته ازاء الجيوش العربية في دول المواجهة مجتمعة ، حافزا لاولئك المستوطنين للتمسك بمكتسبات حرب حزيران واعتبارها جزءا اساسيا من مقومات الكيان · وهكذا امحت الاثار الايجابية لحرب تشرين ، وحلت محلها الاثار السلبية لمسار التسوية ، التي اوصلت بيغن الى الحكم · كشف مسار التسوية للمستوطنين مدى تعلق كيانهم بالدعم ، الاقتصادي والسياسي والعسكري ، للولايات المتحدة الاميركية ، وخاصة منذ حرب تشرين · وراعهم ما خبروه من ضيق هامش استقلاليتهم وحريتهم في التحرك ذاتيا واتخاذ القرارات السياسية · فعزوا ذلك الى ضعف حكومة العمال ، وعجز رابين عن التعامل مع المتغيرات السياسية · وقد ساعد الشقاق داخل حكومة رابين على تفشي هذه النظرة اليها بين المستوطنين · وفتحت مزايدات بيرس ، في

رفض الرضوخ للاملاءات الاميركية ، وبناء القاعدة المحلية اللازمة لتصليب الموقف الاسرائيلي وجعله قادرا على الصمود في وجه الضغوط التي تمارسها واشنطن على اسرائيل ، المجال واسعا امام المستوطنين لبناء الاوهام الكبيرة حول طاقة الكيان الذاتية · فكان سلوك بيرس تصديقا لادعاءات ليكود · وقد جاء ذلك على خلفية الغيبية المتأصلة في فكر المستوطنين ، والقائمة على الوعي الزائف في جمهورهم الواسع ، مما غرسته فيهم وتعهدته بالعناية المؤسسة الصهيونية الحاكمة · وتحت اوهام الاستقلالية والقدرات الذاتية ، تمرد المستوطنون على ما اكتشفوه من واقع التبعية · وهالهم امكان انقلابهم من شريك صغير للامبريالية الاميركية ، كما تصوروا انفسهم ، الى محمية ضعيفة تعيش بضمانات الدول الكبرى ، وتبقى رهن التقلبات في موازين القوى الدولية · فثاروا على الوضع وجعلوا من حزب العمل كبش المحرقة ، اذ حملوه مسؤولية ذلك · وكأنهم بتنصيب بيغن رئيسا لحكومتهم ينتقمون لانفسهم من ولي نعمتهم ، ظنا منهم أن اكثر ما تخشاه واشنطن هو صعود بيغن الى الحكم في اسرائيل · ولطالما ابتزت قيادة المعراخ واشنطن بالاشارة الى مواقف بيغن المتصلبة والى امكان وصوله الى السلطة ·

وفي بداية مسار التسوية برعاية مهندس المؤامرات البارع ، كيسنجر ، تنحت غولدا مئير عن الحكم ، وقفز اليه رجل امريكا الجديد ، يتسحاق رابين · واستطاع كيسنجر ان يعزل الاتحاد السوفياتي ويبعده عن المشاركة الفعلية في تحديد معالم ذلك المسار · وكذلك جمع كيسنجر الاطراف المعنية على القبول باسلوب الخطوة ـ خطوة ، نحو حل شامل للنزاع في الشرق الاوسط ، كما ادعى · ولكن ذلك المسار تعرقل لاسباب تعود ظاهرا في اكثرها الى عجز القيادة الاسرائيلية ، بزعامة رابين ، عن اتخاذ القرار السياسي الحاسم · وبذلك تمكنت منظمة التحرير الفلسطينية من تحقيق انجازات سياسية هامة ، على الصعيدين ـ العربي والدولي ، خلال العامين ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ · وهذا ما جعل الحرب في لبنان امرا محتوما من اجل الاطاحة بتلك الانجازات · ولكن الثورة الفلسطينية افلتت من الحبل الذي اريد الشد على عنقها · ثم جاءت الانتخابات الاميركية وتغيرت الادارة التي راهن عليها رابين في واشنطن ، وسقط هو نفسه عشية الانتخابات العامة للكنيست التاسع · (راجع شؤون فلسطينية ، « استقالة رابين » ، عدد ٦٧ ، ص ٢٠) ·

واثبت مسار التسوية السياسية ، على مدى اربع سنوات تقريبا · ان الكيان الصهيوني غير مهيأ في المرحلة الحالية لانجاز التسوية المطروحة عربيا ، كما أن الدول العربية المعنية لا يسعها القبول بالمشاريع الاسرائيلية · واسرائيل في وضعها الراهن تنقصها المرونة اللازمة للتعامل ، ولو تكتيكيا ، مع المشاريع المطروحة دوليا ، حتى الاميركية منها · فالكيان الذي قام منذ حوالي ثلاثين عاما ،

في ظروف دولية معينة ، لم يستكمل نموه ويحقق ذاته بحيث يصبح مؤهلا في الظروف الراهنة لاتخاذ القرار الحاسم والنهائي بشأن حدوده البشرية والجغرافية ، وكذلك بالنسبة الى طبيعة علاقاته مع شعوب المنطقة ودول العالم . ولذا عمدت القيادة الصهيونية الى التهرب من سلوك طريق التسوية ، والى المناورة لكسب الوقت ، على امل نشوء اوضاع جديدة ، تكون اكثر ملاءمة لانجاز تسوية بشروط افضل لصالحها . ولكن الوقت لم يعمل دائما لصالح اسرائيل فحسب ، اذ ان منظمة التحرير الفلسطينية ايضا ، احرزت نجاحات سياسية هامة . وهنا وقعت تلك القيادة في مأزق عامل الزمن ودخلت معه في حلقة مفرغة . وقد حمل كثيرون حكومة رابين مسؤولية بروز منظمة التحرير الفلسطينية كالممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني . وبدا للكثيرين ان القيادة الاسرائيلية مرتبكة في تعاملها مع الموضوع الفلسطيني . فلا هي قادرة على شطبه من المعادلة السياسية ، وبالتالي من الخريطة الجغرافية ، ولا هي اثبتت جديتها في قطع الطريق على منظمة التحرير بالتوصل الى حل مع الاردن . وفي نفس الوقت لم تعمل على ايجاد قيادات بديلة في الضفة والقطاع ورعايتها . هذا ولا تنفك تعلن رفضها الاعتراف بمنظمة التحرير والدخول معها في مفاوضات للتسوية . ومقابل الارتباك في مواقف المعراخ من هذا الموضوع ، اذ لم يكن له موقف موحد ، وانما مجموعة مشاريع تمثل اراء شخصيات وكتل داخل الحزب ، وكثيرا ما كانت متضاربة ، كان ليكود واضحا وحازما في رفضه للاعتراف باي حق للفلسطينيين . وبهذا كان يمثل ميول الاكثرية من المستوطنين . فصوت الى جانبه على هذا الاساس من لم يقتنع برفض صقور المعراخ . وهذا لا يعني ان ليكود يمثل جبهة الرفض الاسرائيلية وحده ، فتلك الجبهة اكبر من ليكود بكثير ، ولا بد لها ان تتبلور على هذا الاساس خلال مسيرة التسوية .

وخلال المفاوضات على التسوية ، برزت عدة تساؤلات حول ماهية السلام الذي يدور الكلام عنه ، والشروط التي يطلبها الطرف الاخر ، ومدى استعداد القيادة العمالية تقديم « تنازلات » ، تلبية لمطالبه . ولم يستطع المعراخ ، كونه الحزب الحاكم ، تقديم اجوبة واضحة وصريحة ، او على الاقل مقنعة ، على تلك التساؤلات التي واجهها المستوطن العادي داخل الكيان في حياته اليومية . وفقد المعراخ كذلك الكثير من مصداقيته ، بسبب مواقف رابين المترددة ، والخلافات داخل النخبة فيه حول مشاريع التسوية وشروطها وطبيعتها . وفي الاتفاقات التي تم انجازها ، جرى الانسحاب من مناطق كان يعتبرها كثيرون حيوية لاسرائيل ، ولا يجوز التنازل عنها قبل توقيع سلام شامل ، مثل ابو رديس والمرات . واستغل ليكود ذلك لصالحه في الانتخابات ، خاصة وان الخطوات الاولى للتسوية ، حيث قدمت هذه التنازلات المادية ، لم تفتح الباب واسعا امام

« مسيرة السلام » ، التي كثر الكلام عنها ٠ وبدا للكثيرين ان اسرائيل قد غرر بها بقيادة حزب العمل ، وانها كانت الطرف الذي يعطي بينما الاخر يأخذ ، دونما التزام بتوقيع معاهدة سلام كامل ٠

ولربما تحملت ادارة كارتر القسط الاوفر في افشال المعراخ وسقوطه ٠ والاكيد ان حكومة رابين وقيادة حزب العمل قد سددتا فواتير تصريحات كارتر عن ازمة الشرق الاوسط وتصوراته لحلها ، منذ توليه الحكم في واشنطن ٠ ولا شك في ان الحظر الاميركي على تصدير طائرات « كفير » الى الاكوادور ، والخلافات التي برزت بين واشنطن واسرائيل اثناء محادثات رابين في زيارته الاخيرة للبيت الابيض ، وعجز حكومة رابين عن تسوية تلك الخلافات ، وما تلا ذلك من تصريحات اميركية حول التسوية والوطن الفلسطيني ، قد عصفت برابين من رئاسة الحكومة اولا ، وبالتالي بحزبه من الحكم في الانتخابات ، ولعبت دورا هاما ، ربما خلافا لما كان متوقعا منها ، في رفع ليكود الى المرتبة الاولى في الكنيست ٠ (راجع شؤون فلسطينية ، عدد ٦٧ ، « استقالة رابين » ، ص ٢٠) ٠

وازاء هذه المتغيرات السياسية ،النابعة اصلا من حرب تشرين وما تلاها من مفاوضات للتسوية ، لم يكن الكيان مهيئا لها ، عمد المستوطنون هناك ، باعداد كبيرة ، الى التهرب من مواجهة الواقع بمشاكله المعقدة ، ولجأوا الى الاحتماء بالرفض المتمثل ظاهرا فيما يعلنه ليكود من مواقف ٠

بيغن في السلطة

لربما كان الكلام عن بيغن في السلطة سابقا لاوانه ، فقد تولاها لتوه ، وما زال في بداية طريقه هناك ٠ ومع ذلك فالكتابة عن عهده واضحة على الحائط ، وبحروف جلية ٠

كان طبيعيا ان يعهد رئيس الدولة في الكيان الى بيغن بتشكيل الحكومة ، بعد فوز حزبه في الانتخابات٠٠ وهكذا جرى ، ووصل بيغن الى تحقيق الحلم الذي منى به نفسه لسنين طويلة ٠ وما ان اتضح انه سيكون المرشح الاول حتى راح يتصرف وكأنه رئيس لحكومة قائمة ، ويرى بنفسه المخلص المنتظر لـ « شعب الله المختار » ٠ ولم يهجع الى السكينة في ليلة فرحه ، قبل الاعلان عن نيته تشكيل حكومة « تجمع قومي » ، على غرار تلك التي شارك بها في حرب حزيران ١٩٦٧ ، ولم يستطع تحقيق احلامه منها ٠ ودعا الاحزاب الاخرى ، وخاصة المعراخ للدخول في مفاوضات ائتلافية من اجل تشكيل مثل تلك الحكومة فورا ٠ ولكن سرعان ما جاء رد حزب العمل برفض المشاركة في حكومته برئاسة بيغن ٠ ولم يبق امامه الا تشكيل حكومة ائتلاف مقلص ، تتمتع باغلبية ضئيلة

في الكنيست ، بالاشتراك مع الاحزاب الدينية ، على امل ان يسعفه الحظ بدخول « داش » الى الائتلاف ، لكي تصبح حكومته تستند الى قاعدة متينة في الكنيست٠ ولكن « داش » بعد مفاوضات طويلة ، قررت البقاء في المعارضة ٠ ولدى تقديمها الى الكنيست لنيل الثقة ، خصلت حكومة بيغن على ٦٣ صوتا ، من اصل ١٢٠ ، وما زالت الى الان عند حدها ذلك ٠

ويتكهن البعض بان بيغن لن يعمر طويلا في السلطة ، وانه اذا لم يعتزل الحياة السياسية لاسباب صحية ، فسيضطر الى التخلي عنها بضغط الظروف الموضوعية ٠ ولقد عبر عن ذلك سكرتير الهستدروت السابق ، واحد زعماء « احدوت هعفودا » البارزين ، يتسحاق بن اهرون ، بقوله : « ان الاقتراع شرعي ولكنني لا احترم دوافع الغضب ولا يتسم بالحكمة ٠ وفي هذا الوضع فان الدولة ستواجه اخطارا شديدة ٠ فاما ان تضطر حكومة اليمين الى خيانة برنامجها ، واما ان يسقطها الشعب بسرعة ٠ انا لا اتوقع هزات اجتماعية اصطناعية ولكن البلاد لن تهدأ ٠ فاليمين لا يملك ردودا شافية على المشاكل الاساسية » ٠ (ن٠م٠د٠ف٠ مجلد ٧ ، ص ٣٥١) ٠

وقد يكون بن اهرون صادقا في تقريره لمستقبل حكومة بيغن ، الا انه من المستبعد جدا ان تتحقق افكاره في الواقع الاسرائيلي بانقلاب الكيان الى الدولة الاشتراكية التي ظل ينادي بها منذ زمن طويل ٠ وبن اهرون اختبر قوته السياسية في صراعه داخل حزب العمل ، خاصة في ايام غولدا مئير ، واكتشف عجزه عن احداث التغييرات التي ارادها ، وانكفأ على نفسه بعد ابعاده عن سكرتارية الهستدروت ، وفي الانتخابات الاخيرة اقصي عن عضويته في الكنيست ٠ وبن اهرون يعلم جيدا ضعف الجناح الليبرالي من الصهيونية العمالية ، الذي ينتمي اليه ، بحيث لا امل له بالوصول الى السلطة وتولي الدفة في الكيان ٠ فامكان ان يصل آلون او ايبن الى رئاسة الحكومة ، في المستقبل المنظور ، ضئيل جدا ، وحزب مباي المعهود لم يعد قائما ، وقد افل نجم وريثه ، حزب العمل ٠ وعلى العكس ، فالظاهر ان القوة الصاعدة في الكيان تتمثل في التيار الرأسمالي ، المحلي والمرتبط ، والذي لم يتبلور بعد في حزب واحد وانما لا يزال منتشرا في احزاب عدة ، بفعل التطور التاريخي للاحزاب الصهيونية ٠ وهو موجود بقوة في الليكود ، ومن رموزه هناك عيزر وايزمن ، الرجل القوي في حيروت ، والذي تولى وزارة الدفاع في حكومة بيغن ٠ وفي حزب العمل ، حمل ممثل التكنوقراط ، شمعون بيرس ، الى مركز القيادة ٠ واذا لم تطرأ هزات عنيفة على الكيان ،و خلا المجال لهذا التيار بالتبلور فانه سيتحول الى حزب رأسمالي ، يدفع باسرائيل الصهيونية في اتجاه مشروع استيطاني على غرار روديسيا او جنوب افريقيا ٠ وقد تكون « داش » ، قائمة يدين ، بداية

تبلور مثل هذا الحزب · في حين يبقى النقيض السياسي التيار الصهيوني التقليدي بشقيه ، الديني والقومي « الحضاري » اليوم هو مناحم بيغن ، وهو من البقية الباقية · واما الجناح الليبرالي من هذا الشق فهو عبارة عن مجموعات مفتتة ، لا تملك قاعدة صلبة في جمهور المستوطنين ، من امثال « شلي » و « حقوق المواطن » ، وشخصيات مثل آلون وايبن وهاوزنر وغيرهم ·

ورب قائل ان بيغن في السلطة ، سيجنح الى الاعتدال ، بفعل وجوده في موقع المسؤولية ، خلافا لما كان عليه في المعارضة سابقا · وبهذا سينهج بيغن نفس السبيل الذي سلكه امثاله من قبله ، وهم كثيرون · ولكن كلام بيغن وتصرفه منذ توليه السلطة لا يشيران الى مثل هذا الاتجاه · وعلى العكس فان ما قاله بعد فوزه في الانتخابات ، عن التحول في التاريخ اليهودي وتحديد اهداف الصهيونية من جديد ، واختياره لهذه المناسبة بالذات ، وهو على عتبة الحكم ، للتذكير بمواقفه المعروفة والتأكيد عليها ، انما يحملان دلالة واضحة الى انه بذلك يجدد العهد لناخبيه بالوفاء لشعاراته القديمة والالتزام بها · وفي تقديرنا، ولاسباب موضوعية وذاتية ،لا يسع بيغن التراجع عن خطه التقليدي·ولم التراجع عن ذلك الخط اصلا ، وهو الذي اوصله الى تحقيق امنيته · وانطلاقا من التركيب الفكري والايديولوجي للرجل ، واستنادا الى تصرفاته السابقة في العمل السياسي نقدر ان الانتحار السياسي اسهل على بيغن من خيانة المبادىء التي نادى بها على الدوام ، وبدأب لا يعرف الكلل ، شأنه في ذلك شأن اقرانه من الفاشيين السابقين ·

وعلى اي حال . فقد شكل بيغن حكومته من ليكود والاحزاب الدينية ، وانضم اليها موشيه دايان كوزير للخارجية بعد انشقاقه عن حزب العمل ، واريك شارون كوزير للزراعة ، بعد ان دمج قائمته (شلومتسيون) في ليكود ، وحظيت الحكومة بتأييد فلاطو شارون · وفي جلسة الثقة في الكنيست ، طرح بيغن الخطوط الاساسية لسياسة حكومته · فأكد على وحدة الشعب اليهودي ومصيره، وكذلك عن حقه التاريخي في « ارض اسرائيل » ، الكاملة طبعا ، وشدد على اهمية الهجرة ، خاصة من الاتحاد السوفياتي ، و « الضرورة الحيوية » لتوسيع شبكة الاستيطان في المناطق المحتلة ، التي اسماها « مناطق محررة » · وانتقل بيغن في بيانه الى الكلام عن السلام ، وقال : « ستضع الحكومة مهمة التطلع نحو السلام على رأس اهتماماتها ، وستسعى بشكل فعال وباستمرار لتحقيق سلام دائم في المنطقة » · (نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، مجلد ٧ ، ص ٣٨٧) · وعرض بيغن مشروعه الخاص للسير نحو ذلك « السلام المنشود » فقال : « ستدعو الحكومة جميع جارات اسرائيل ، وكل واحدة على حدة ، مباشرة او بواسطة حكومة صديقة ، لاجراء محادثات مباشرة من اجل التوقيع

على معاهدة سلام بينهما ، دون شروط مسبقة من اي جانب ، ودون اية صيغة حل ابتدعت في الخارج · وتعلن الحكومة استعدادها للمشاركة في مؤتمر جنيف ، في حال دعوته الى الانعقاد من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على اساس القرارين ٢٤٢ ، ٣٣٨ · ولمناسبة انعقاد مؤتمر جنيف واجراء مفاوضات مباشرة ، تعلن الحكومة استعداد اسرائيل لاجراء المفاوضات من اجل التوصل الى سلام حقيقي ، تعاقدي ، عملي ، يؤدي الى عودة الحياة في المنطقة الى طبيعتها · وفي غياب معاهدات سلام ، تكون الاطراف ملزمة بالاتفاقات التي وقعتها الحكومات السابقة · ولقد خول الكنيست الحكومة بموجب قانون ان تطبق قضاء دولة اسرائيل وانظمتها اوادارتها على كل جزء من ارض – اسرائيل بواسطة مرسوم يحدد ذلك · وهذه الصلاحية القانونية والبرلمانية هي ضمن اعتبارات الحكومة ، ولن يتم تطبيقها ما دامت هناك مفاوضات على معاهدات سلام بين اسرائيل وجاراتها · وسيكون الامر مرتبطا باختيار التوقيت الملائم وبالاعتبارات السياسية للحكومة ، وبمناقشة خاصة في الكنيست ، وباقرار منه » · (المصدر السابق ص ٣٨٨) ·

وعلق اربيه الياف على بيان بيغن حول الخطوط الاساسية لحكومته ، فاشار الى ان سياسة الليكود ستؤدي الى صدام مع جميع الاطراف : العرب والاميركيين ومعظم بلاد العالم ، كما انها ستؤدي الى قيام دولة مزدوجة القومية · وخاطب الياف بيغن قائلا : « انكم تحولون الصهيونية الى مسخ غير معروف المعالم · وفي المعسكر العربي الان من نتحدث معه · انهم قلة ، ولكن ثمة بداية واضحة ، وقد تحدثت معهم · والان بالذات يأتي الليكود، ويزداد خطر نشوب حرب اخرى » · (ن·م·د·ف· ، مجلد ٧ ، ص ٣٩٠) · واعقبه مئير فلنر (راكح) فذكر انه بمجرد شطب الغيبيات والعبارات المنمقة في خطاب بيغن ، تبقى فقط الخطوط العامة المؤدية الى الحرب المقبلة · واضاف ان بيغن سيعرض اسرائيل الى كارثة برفضه الانسحاب « شبرا واحدا » · (المصدر نفسه ، ص ٣٩١) ·

ولاشتراك دايان في حكومة بيغن ، كوزير للخارجية ، دلالة واضحة الى المنحى الذي ستتخذه تلك الحكومة بقيادة الثلاثي الجديد،بيغن،دايان،وايزمن،على صعيد التسوية ، والذي يمكن تلخيصه بنقطتين رئيسيتين : أ) فك الاشتباك مع العرب · ب) شطب منظمة التحرير من المعادلة السياسية في المنطقة · وفور توليه منصبه الجديد ، دعا دايان الى « انشاء جبهة موحدة ضد مشروع الادارة الاميركية الخطر ، لدفعنا الى العودة الى حدود ١٩٦٧ مع تعديلات طفيفة ، واقامة دولة فلسطينية في المناطق التي سيتم الجلاء عنها » · واضاف دايان : « اننا متفقون في الرأي ضد مشروع روجرز القديم الذي اخرج الان مرة اخرى من الثلاجة · وستكون امامنا مهلة للانشقاق ، عندما يقترح الاميركيون او العرب علينا مشروعا عمليا اخر ، قد يقبله المعراخ وداش ، ولا يقبله الليكود ··· » (ن·م·د·ف· ، مجلد ٧ ، ص ٣٩٠) ·

وتجدر الاشارة الى ان دايان يتكلم عن مشروع اميركي على اساس مشـروع روجرز المعهود ، في حين ان ما يتناقل من اخبار عن ذلك المشروع ، اذا كـان هناك فعلا شيء من ذلك · فانه منبثق في جوهره من « وثيقة بروكنغز » · واذا افترضنا حسن النية ، واخذنا كلام كارتر على ظاهره ، تبينت لنا خطوط مشروع كارتر العريضة كالتالي : ١) اتفاق سلام شامل، يكون في ماهيته متفقا مـع المفهوم الاسرائيلي للسلام · ٢) تكون شروط هذا الاتفاق اقرب الى المواقـف العربية المطروحة · ٣) كيان فلسطيني ما · وهذا لا يتطابق مع المشروع الـذي حمله بيغن معه الى واشنطن ، والذي اعده موشيه دايان ، ونشـرت بعضـ التفاصيل عنه ، ويمكن تصوره كالتالي : ١) الاحتفاظ بالضفة الغربية كاملة · ٢) انسحاب كبير في سيناء ، قد يصل الى وادي العريش شرقا ، ويسير جنوبا بخط يصل الى شرم الشيخ · ٣) وربما طرحت فكرة نقل القاعدة الاميركيـة الحالية في « ام خشيبة » الى شرم الشيخ على البحر الاحمر · ٤) انسحاب من جنوب هضبة الجولان ، مع الاحتفاظ بالتلال الواقعة غربي القنيطرة والمنطقـة المحيطة بمنابع نهر بانياس والمؤدية الى جبل الشيخ · ٥) دعوة لبنان للاشتراك في مؤتمر جنيف لحسم قضية الجنوب ، خاصة مسألة الوجود الفلسطيني فيه ، ومسألة مياهه · ٦) رفض اشراك منظمة التحرير الفلسطينية فـي مفاوضات التسوية · ٧) حل القضية الفلسطينية بالتفاوض مع الاردن ومن خلاله ·

وعشية سفر بيغن الى واشنطن لاجراء محادثات مع الرئيس الاميركي ، تكهن العديد من المراقبين السياسيين بتفجر الخلاف بين الطرفين وفشل المحادثات · وقد سبق تلك الزيارة نشاط صهيوني مكثف بين واشنطن وتل ابيب ، يبدو انه اثمر بتلافي تفجير الخلاف بين الطرفين والتعايش معه · وقد يكون ذلك ما حصل فعلا · ولكن اذا افترضنا صحة ما تقوله اطراف التسوية العربية عن الموقـف الاميركي ، وقبلنا اعلان بيغن عن نجاح زيارته الى واشنطن ، وعن انه قد توصل الى اتفاق مع الادارة الاميركية على التعايش مع الخلافات القائمة بين الطرفين ، دون السماح لها بالتأثير على العلاقات الثنائية بين البلدين ، وعن قبول واشنطن اقتراح بيغن عقد مؤتمر جنيف دون شروط مسبقة ، اي دون الاعداد الاميركـي لما سيتم التوقيع عليه في جنيف ، فان ذلك يعني بالضرورة تراجع كارتر عـن مواقفه السابقة · والسؤال الذي يطرح نفسه عندئذ هو عن طبيعة ذلك التراجع ، اهو استراتيجي ، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من مضاعفات ، ام انه تكتيكـي يهدف الى ترويض اطراف التسوية ، للوصول بها الى قبول المشروع الاميركي · وهذا ما ستكشفه الفترة القريبة القادمة ·

واخيرا لا بد من الاشارة الى ان فترة الترويض ، اذا كانت هذه نية كارتر ، قد تطول ، وقد تكتنفها بعض المفاجآت ، ولا يستثنى في هذا المجال تصعيـد التوتر العسكري ، الذي قد يؤدي الى صدام مسلح على نطاق واسع ·

سمير كرم

الثابت والمتغير
في مبادئ السياسة الاميركية

اليوم اكثر من اي وقت مضى يتردد بالحاح القول بأن ثمة تغيرا قد طرأ على السياسة الخارجية للولايات المتحدة الاميركية .

وفي اطار الالحاح على هذه المقولة تختلف الاتجاهات ـ افقيا ورأسيا ـ في مدى هذا التغيير الذي طرأ على السياسة الخارجية الاميركية وعمقه .

● اتجاه يذهب الى ان هذا التغيير اساسي يتناول جوهر السياسة الخارجية الاميركية ، اي يسجل تحولا في اهدافها الاستراتيجية العالمية ، او مخططها الاستراتيجي العالمي Global Strategy

واصحاب هذا الاتجاه يذهبون الى ان الولايات المتحدة بصدد مرحلة عودة الى سياسة العزلة Isolationism ، تتخلى فيها عن أهداف الهيمنة الامبريالية ، وتكتفي بحماية مصالحها داخليا ، بعد ان وصلت الى درجة من القوة العسكرية تردع غيرها عن مهاجمتها . ودرجة من القوة الاقتصادية تجعلها قادرة على التطوير الذاتي دون حاجة الى التوسع الخارجي بشقيه ، سواء بحثا عن اسواق شراء المواد الخام الضرورية ، او بحثا عن اسواق بيع السلع الصناعية التي تنتجها . وهذا يعني ـ بالضرورة ـ المشاركة بدور ايجابي في صراعات القوة الدولية .

● اتجاه يقصر هذا التغيير على أساليب الولايات المتحدة الاميركية في ممارسة سياستها الخارجية ، ومعالجة قضايا علاقاتها الدولية . اي انه اتجاه

يعترف بالتغيير في « التكتيكات » ، ويذهب الى ان الولايات المتحدة الاميركية تتجه ـ على نطاق العالم كله ـ نحو التخلي عن أسلوب استخدام « القوة » لتحقيق اهداف سياستها الخارجية . وان تكن هذه الاهداف نفسها لم تتغير ·

وهذا يعني ان الولايات المتحدة بصدد مرحلة جديدة تقدم نفسها فيها الى العالم الخارجي دولة كبرى مؤمنة بالمنافسة السلمية ، او « التعايش السلمي »، غير مستعدة للعودة الى اساليب التدخل العسكري ـ المباشر او غير المباشر ـ التي مارستها طوال القرن الماضي لتحقيق اهداف استراتيجيتها العالمية ·

ويستدل على وجود هذا الاتجاه بعدة قرارات (قد لا تكون قد دخلت حيز التنفيذ حتى الان) منها خفض الوجود العسكري الاميركي في الخارج ، واغلاق العديد من القواعد العسكرية ـ البرية والبحرية والجوية ـ الاميركية فيما وراء البحار · كما يستدل عليه بامتناع الولايات المتحدة الفعلي عن التدخل المباشر في الصراعات الاقليمية التي نشبت في مرحلة ما بعد الانسحاب الاميركي من فيتنام ، مثل انغولا وزائير والقرن الافريقي وحتى في كوريا وفي الشرق الاوسط · وهي صراعات اتخذت ابعادا كانت كافية بالمقاييس السابقة لتبرير تدخل اميركي عسكري ·

● اتجاه يذهب الى ان التغيير الذي طرأ على السياسة الخارجية الاميركية ليس تغييرا كليا وشاملا ، انما هو تغيير يقتصر على مناطق جغرافية محددة على خريطة العالم ·

وهذا الاتجاه بدوره ينقسم الى تيارين : احدهما يذهب الى ان ثمة تغييرا استراتيجيا في السياسة الخارجية الاميركية ازاء مناطق معينة ، وثانيهما يعتبر ان هذا التغيير ، وان اقتصر على مناطق جغرافية محددة ، الا انه يقتصر على اساليب المعالجة ، اي على « التكتيكات » دون « الاستراتيجية » ·
وينطبق هذا الاتجاه في تفسيره لهذا التغيير الاميركي اكثر ما ينطبق على سياسة الولايات المتحدة الاميركية ازاء الشرق الاوسط ، اي الموقف الاميركي تجاه الصراع العربي ـ الاسرائيلي ·

ومن الواضح ان قوى في الشرق الاوسط تتبنى الرأي القائل بأن تغييرا فعليا قد طرأ على سياسة الولايات المتحدة ازاء الصراع ، وانها ترتب على اقتناعها بهذا التغيير تغييرا في سياساتها ومواقفها أزاء الولايات المتحدة يختلف بمقدار تقييمها للتغيير الاول ، اي لمدى التغيير الاميركي الذي تراه · فان بعض القوى ذهب الى حد وضع الثقة كاملة في السياسة الخارجية الاميركية والالقاء في سلتها بكل الثمرات انتظارا لنتائج التغيير ، الذي يراه كاملا واستراتيجيا وحاسما · بينما اخذ بعض الدول موقفا اكثر حذرا ، معتبرا انه

وان كان هناك تغيير اميركي في الموقف من الصراع العربي ـ الاسرائيلي الا انه تغيير جزئي يحتاج لممارسات سياسية تهدف الى دفعه في اتجاه الاتساع والعمق ، سواء باسترضاء الولايات المتحدة والاعتراف بمصالحها وامتداد دورها « المتغير » ، او بالضغط عليها في اتّجاه ادراك حاجتها لتعميق هذا التغيير في سياستها في الشرق الاوسط ٠

واصحاب هذا الاتجاه هم بالتحديد الذين يعتبرون ان حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ هي صاحبة الفضل في ادخال هذا التغيير على السياسة الاميركية ازاء الشرق الاوسط ٠ باعتبار ان الاداء العسكري العربي في تلك الحرب كان بمثابة المنبه ـ ان لم يكن الصدمة ـ الذي ايقظ صانعي السياسة الخارجية الامريكية على « متغيرات » المنطقة ، وجعل هذا « التغيير » ضرورة اميركية ٠

وينطوي هذا الاتجاه على افتراض ، قابل للجدل ، بان الولايات المتحدة لم تكن بحاجة الا لادراك معطيات الصراع في الشرق الاوسط لكي تسرع فورا الى تغيير سياستها ومواقفها في المنطقة ٠ ويذهب بعض اصحاب هذا الاتجاه بهذا المنطق الذاتي والاحادي الجانب الى حد نسبة هذا « التغيير » في السياسة الخارجية الاميركية ، او على الاقل نسبة بعض ملامح هذا التغيير الى اخلاقيات شخصية لدى هذا الرئيس الاميركي او وزير الخارجية الاميركي ذاك ٠٠ مثل « التدين » و « الانتماء الريفي » او «الاخلاص للكلمة » او ٠٠الخ٠

وعلى وجه الاجمال فان هذه الاتجاهات التي يجعلها الاقتناع بمقولة وجود « تغيير » في السياسة الخارجية الاميركية ، ايا كان مداه وعمقه ـ تؤسس على مشاهدات جزئية ، لفترة زمنية محددة ، هي في الحقيقة الفترة القصيرة التي انقضت منذ نهاية الدور العسكري الاميركي في الهند الصينية (اي نهاية عام ١٩٧٣) ٠ وهي ـ كانت ـ الفترة نفسها منذ وقوع وانتهاء الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة ٠ ولهذا السبب صار من الممكن الوقوع في خطأ نسبة بعض الاعراض الناتجة عن الهزيمة الاميركية (او على الاقل هزيمة الدور الاميركي) في فيتنام والهند الصينية الى نشوب حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ونتائجها الايجابية (مع تنحية غير موضوعية في معظم الاحيان لدلالات وآثار نتائجها السلبية) ٠

لا يعني هذا ـ بطبيعة الحال ـ نفي اية آثار احدثتها حرب تشرين العربية ـ الاسرائيلية على الطرف الاميركي عسكريا وسياسيا ٠ فلقد كانت لتلك الحرب ـ بالتأكيد اثارها التي تحتاج الى دراسات مستفيضة ومدققة ، على السياسة الخارجية (بل والدفاعية) الاميركية ٠

الايديولوجيا ·· والاستراتيجية

ولكن لكي يكون فهمنا موضوعيا ودقيقا لطبيعة « التغيير » الذي طرأ على السياسة الخارجية الاميركية ، وما اذا كان استراتيجيا او تكتيكيا ، حقيقيا او زائفا ، مؤقتا او طويل الامد . لا بد ان نميز ما هو حادث منه نتيجة لاحداث الشرق الاوسط ، وما هو حادث نتيجة لاحداث الشرق الاقصى · فلقد كان الدور الاميركي في المنطقتين مختلفا عمقا واتساعا وطبيعة ، كما كانت نتائج صراع الشرق الاقصى (فيتنام وكمبوديا ولاوس) مختلفة جذريا – عمقا واتساعا وطبيعة ايضا – عن نتاج صراع الشرق الاوسط ، بصفة خاصة فيما يهم ويخص الولايات المتحدة الاميركية وسياستها في المنطقتين ·

وعلى اي حال فانه لا يمكن المضي شوطا كبيرا في رحلة استكشاف «التغيير» في السياسة الخارجية الاميركية – عمقه ومداه – دون وجود خريطة نظرية بين ايدينا تبين الثوابت والمتغيرات فى تلك السياسة ، اي تميز بين العوامل والاعتبارات التي تبقي السياسة الخارجية الاميركية « اميركية » ، وبالتالي لا بد ان تبقى في حالة ثبات نسبي ، وتلك التي رغم تغيرها تبقى السياسة الخارجية الاميركية عند ثباتها النسبي ·

وعند هذا الحد ينشأ عدد من الصعوبات او الاشكالات النظرية المجردة ، او بالاحرى المنهجية ·

ان يمكن ان يكون « **الثابت** » في السياسة الخارجية للولايات المتحدة هو « **الايديولوجيا** » التي تتأسس عليها هذه السياسة ، تماما كما تأسست عليها سياسة الولايات المتحدة الداخلية · فهل هناك « ايديولوجيا » للسياسة الخارجية الاميركية ؟ ونحن هنا نطرح السؤال افتراضيا فحسب ، لانه من المؤكد ان هناك « ايديولوجيا » اميركية ، سواء كانت محددة ومكتوبة او ممارسة بحذافيرها ، او كانت ضمنية وغائمة وغير ممارسة بحذافيرها ·

كذلك يمكن ان يكون « **الثابت** » في السياسة الخارجية الاميركية « **استراتيجية** » ، وهو مفهوم ادنى في تعميمه وتجريده من مفهوم « الايديولوجيا » والاعتبارات الايديولوجية اوسع واعلى من الاعتبارات « الاستراتيجية » · فضلا عن ان هناك حقيقة ملموسة هي ان ما نعرفه في الوطن العربي – وحتى في العالم الثالث كله – عن « ايديولوجيا » اميركية نادر للغاية ، ان لم يكن معدوما ، بينما ما يصل الى معارفنا عن « الاستراتيجية » الاميركية كثير الى درجة طوفانية · سواء كان مصدره الادبيات السياسية الاميركية نفسها ، او الادبيات السياسية المناهضة للاستراتيجية الاميركية على اختلاف الوان تلك الادبيات السياسية وظلالها ·

على ان الواقع الراهن للتطورات الدولية يفرض علينا اختيـــار الاهتمــام بالايديولوجيا التي تشكل الخلفية العامة (الثابتة نسبيا) التي ترسم عليها السياسة الخارجية بتغيراتها المختلفة ··· اكثر من الاهتمام بالاستراتيجيــة الاميركية كعامل ثابت نسبيا في تلك السياسة ·

فالمشاهد في الواقع الراهن هو عودة الكتاب النظريين والاستراتيجيين في الولايات المتحدة الاميركية نفسها الى اصطلاح « الايديولوجيا » ، وتراجـــع اصطلاح « الاستراتيجية » كثيرا عن مكانة الصدارة التي احتلتها منذ الحرب العالمية الاولى اي على مدى ستين عاما تقريبا · ولم يكن هذا ليصلح سببا كافيا تدعي من اجله ان الواقع الراهن للتطورات الدولية يفرض علينا اختيـــار الاهتمام بالايديولوجيا ، لولا ان ذلك الاهتمام النظري في الولايات المتحدة نفسها قد ادى الى نتائج عملية هامة ، اكثرها ظهورا للعين المجردة انتخاب الرئيس الاميركي جيمي كارتر ·

كيف ؟

لقد حفلت الفترة الواقعة بين سقوط الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون ـ نتيجة للهزيمة الاميركية في فيتنام ، ونتيجة ـ اكثر دويا ـ لفضيحة ووترغيت ـ وانتخاب جيمي كارتر رئيسا للولايات المتحدة ، ازدهارا واضحا للافكار التــي تتناول الحاجة الى تاكيد الاعتبارات «الايديولوجية » ـ بجوانبها السياسيــة والاخلاقية والحضارية وحتى الدينية ـ في الحياة الاميركية . وكتب الكثير في الصحافة الاميركية ـ حتى الاسبوعية واليومية ـ عن فقدان امريكا الـــروح والاخلاق والشعور بالهوية الحضارية والرسالة الانسانية التي كانت لها ·· باعتبار كل ذلك من اسباب التورط (ثم الهزيمة) في فيتنام ، ومن اسبـــاب تفشي الفضائح من غرار « ووترغيت » ، ثم من اسباب فقدان الولايات المتحدة ثقتها بنفسها وثقة الاخرين بها ايضا ·

وفي هذا الاطار دارت ـ خلال تلك الفترة ـ ولا تزال تدور مناقشات قيمـــة تختلف في توجهها وتركيزها على الجوانب المعيارية والاخلاقية عن كل المناقشات التي اتسمت بها الفترات الانتخابية او فترات الازمات الحادة السابقة · وقــد تمحورت هذه المناقشات في معظمها حول دور الولايات المتحدة في هذا العالم المتغير · وكان السؤال الاساسي المطروح فيها : ماذا ينبغي ان يكون التوجــه الاميركي في العلاقات الدولية بعد ان اتضح في التطورات الاخيرة هبـــوط النفوذ الاميركي على اثر « صدمة فيتنام » و « فضيحة ووترغيت » ؟ بينما كانت اكثر الاجابات وضوحا ـ او اجماعا ـ هي القائلة بان التغيرات الاساسيــة للسياسة الاميركية عن استمرارية الاسس تتمثل في أمرين :

● **انخفاض حدة المخاوف الاميركية التي قامت على اساسها الحرب الباردة، وما يترتب على ذلك من فقدان سياسة « احتواء الشيوعية » لمبرراتها ، او على**

الاقل الكثير من مبرراتها ٠

● ارتفاع درجة اعتراف الاميركيين بانه لن يكون بامكانهم ان يشكلوا العالم ـ او يعيدوا تشكيله ـ على صورتهم ، اي على الصورة الاكثر ملاءمة للمصالح الاميركية ٠ (١)

وهذا يعني ان الاميركيين ، الذين ظلوا يبنون سياستهم الخارجية ، على الاقل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية حقبة الحرب الباردة ، على اساس ان العالم في حاجة الى « ايديولوجيا اقل » ٠ تحولوا الى ادراك بأنهم هم انفسهم في حاجة الى « ايديولوجيا اكثر » ، ان لم يكن الى ايديولوجيا جديدة اصلا ٠ وقد واكب ذلك ضعف الدور العالمي للولايات المتحدة ، وازدياد ادراكها بأن تغيرات الظروف الدولية قد فرضت مشكلات جديدة يستحيل مواجهتها بالاساليب القديمة نفسها ٠

وفي اعتقادنا انه لم يكن من قبيل الصدفة ان صعد الى رياسة الولايات المتحدة في بداية هذا العام (١٩٧٧) اكثر مرشحي الرياسة ترديدا للمقولات « الايديولوجية » ، وخاصة الاخلاقية والمعيارية ٠ وقد حدث ذلك بصورة اكدت عمق شعور الشعب الاميركي بأنه يعاني « فراغا روحيا » خطيرا ٠ ويمكن القول بأن مديري حملة كارتر الانتخابية ادركوا هذه المعاناة ولعبوا على اوتارها ٠ ولا يزال كارتر ـ بعد ان اصبح رئيسا ـ يلعب على الاوتار نفسها ليحافظ على صورة « الرئيس الروحي » ، بالاضافة الى دور « الرئيس التنفيذي » ٠

ولكن هل كانت الولايات المتحدة بدون « ايديولوجيا » خلال الفترة الماضية ؟ هل كانت السياسة الخارجية الاميركية تفتقر الى اساس ايديولوجي ؟ وبعبارة أخرى ، او صياغة ـ اوضح للسؤال نفسه هل كانت مكونات السياسة الخارجية الاميركية ـ طوال الفترة السابقة على العودة الى اكتشاف الحاجة الى « ايديولوجيا » ـ تتألف من متغيرات بلا ثوابت ؟

---

(١) يمكن الرجوع بشأن هذه المناقشات الى عدد كبير للغاية من الكتابات الاميركية اهمها :

Schlesinger, Arther, The Imperial Presidency London. 1974.

— Manning, Bayless, The conduct of Foreign Policy in the Nations Third Century, New York, 1976.

— Brzezinski, Zbignieu, A New Focus for U.S. Foreign Policy, Foreign Affairs, July 1973.

— Lerner, Max, America : Decline and Fall , Foreign Affairs, January 1974.

المرحلة التبشيرية

كما ذكرنا من قبل ، فانه لا سياسة بدون « ايديولوجيا » الا انه ينبغي ان نميز بين « ايديولوجيا » معلنة و « ايديولوجيا » كامنة او فعلية · فقد كانت للولايات المتحدة ايديولوجيتها المعلنة دائما دفاعا عن سياستها الخارجية وممارساتها في العلاقات الدولية · وكانت هذه « الايديولوجيا » هي التي تفسر وتبرر مسلك الولايات المتحدة الدولي بصورة تبدو وكأنها تتخطى المصالح العسكرية والاقتصادية المباشرة والضيقة · والولايات المتحدة في هذا لم تكن تختلف عن اية قوة دولية كبرى اخرى – في مرحلة التوسع بصفة خاصة · فشأن الولايات المتحدة شأن القوى الاستعمارية والامبريالية الاخرى ، كالبرتغال وهولندا وبريطانيا وفرنسا – كانت تستند الى فكرة تبشيرية تمتد عبر تاريخ التوسع الاميركي العالمي · بل لعل الفكرة التبشيرية الاميركية كانت اكثر طموحا من اي فكرة تبشيرية استندت اليها القوى التوسعية الاخرى ، بما فيها البرتغال التي اقنعت طابعا دينيا وحضاريا على تبريرها لاستعمارها في افريقيا · فعلى حين كان كل تبشير استعماري اخر اقليميا ، اي له حدوده الجغرافية – مهما اتسعت هذه الحدود – فان التبشير الاميركي كان ذا طابع عالمي Global ·

فالفكرة التبشيرية التي تمتد عبر التاريخ الاميركي هي ان على الامة الاميركية ان تمنح العالم نموذج مجتمع الرفاهية ، وان انتشار الحضارة الاميركية خارج القارة الاميركية هو المبرر الاسمى للتجربة السياسية الاميركية(٢) فكان من السهل ان تقال عبارات مثل العبارة التي قالها وليام هاريسون – حاكم ولاية انديانا الاميركية – في سنوات الاستقلال الاولى – في تبرير ابادة الهنود الحمر : « ان جزءا من اغنى اجزاء المعمورة لا يمكن ان يظل موطنا لبضعة متوحشين مساكين ، في حين يبدو ان الله قد كرسه لمعيشة عدد ضخم من السكان ، وليكون موطنا للحضارة والعلم والدين الحق » · (٣) ونمت في الاتجاه التبشيري ذاته الفكرة القائلة بان قدر اميركا الواضح ··· هو استخدام طاقاتها الفطرية لبعث الانسانية · (٤) فكان التدخل العسكري الاميركي في الفيلبين وفي كوبا وفي المغرب العربي (٥) في القرن الماضي –

---

(2) Barnet, Richard J. , Intervention and Revolution, London, 1972.

(٣) مذكورة في المصدر نفسه ·

(٤) المصدر نفسه ·

(٥) خلال الفترة من ١٨٠١ الى ١٨٠٥ شنت البحرية الاميركية حربا ضد طرابلس

وفقا للتبريرات الاميركية ـ « استجابة للضرورات الكبرى للانسانيـــة » ، وتحقيقا لواجب « تمدين الشعوب غير القادرة على حكم نفسها » .

قيادة العالم

وعندما خبت نار الروح التبشيرية في التبريرات الايديولوجية للتوسع الاميركي الخارجي ظهرت الايديولوجية الاميركية في صورة مبدأ « **قيادة العالم**» او «ممارسة القيادة المعنوية» (تعبير الرئيس الاميركي وودرو ويلسون) . ومع مزيد من خفوت الطابع التبشيري المباشر اصبحت المبررات الايديولوجية تتمثل في التأكيد على ضرورة قيام الولايات المتحدة مع حلفائها ـ ثم منفردة بعد ذلك ـ بدور **رجل البوليس الدولي**، الذي يحمي الحرية والديمقراطية في ارجاء العالم . وبدا عند نهاية الحرب العالمية الثانية ان النتيجة الاساسية لها هي ان مسؤولية قيادة العالم قد اصبحت ملقـــاة على عاتق الولايات المتحدة دون غيرها . كان من الضروري ان يصبح عدو الولايات المتحدة هو عدو العالم . وان يصبح العالم الذي تقوده الولايات المتحدة هو « **العالم الحر** » ، وما عدا ذلك مناطق محتلة ، او ستار حديدي ... الخ . فعندما انتهت الحرب العالمية الثانية اعلنت الولايات المتحدة رسميا ـ على لسان رئيسها هاري ترومان ـ مفهومها الواضح لدورها ومسؤوليتها في العالم . فهذا الدور يقوم على اساس ان قوة الولايات المتحدة العسكرية ـ وغير العسكرية ـ هي الضمان الاساسي للسلام . وفي هذا الصدد كتب جنرال جورج مارشال رئيس هيئة اركـــان الحرب الاميركية المشتركة في تقرير له عام ١٩٤٥ : « ان **علينا اذا اردنا تحقيق من نجرؤ عليه من الآمال في السلم ، ان نفرض بالقوة ارادتنا في السلام** » . وكتب جيمس فورستال وزير الدفاع الاميركي آنذاك : « **ان حجر الاساس في اية خطة ترمي لتخليصنا من لغة الحرب هو بالضرورة الجبروت العسكري للولايات المتحدة** » . **(٦)** وكان الدبلوماسي الاميركي آفريل هاريمان اوضح تعبيرا عن عنفوان ايديولوجية العداء للشيوعية حين قال في العام نفسه (١٩٤٥) : « **ربما يتعين علينا ان نواجه حربا ايديولوجية شبيهـــة في خطرها وحدتها**

الغرب ومراكش وتونس حاصر فيها الاسطول الاميركي المدن الثـــلاث لغرض منح امتيازات خاصة للاميركيين في المنافسة بينهم وبين التجار الاوروبيين المنافسين . وقد تضمن الجزء الاول من النشيد الرسمي للبحرية الاميركية اشارة الى تلك الحملة على المغرب العربي ، حيث تقول سطوره الاولى « من هضاب مونتيسوما الى سواحل طرابلس، في الجو والبر والبحر ، خضنا معارك الوطن » .

بمواجهة النازية والفاشية » · (٧) ·

وقد تناول هذا المعنى نفسه بالتطوير ، دبلوماسي اميركي اخر شهير من دبلوماسيي بدايات حقبة الحرب الباردة هو جورج كينان ، الذ يكتب في مقاله الشهير في مجلة Foreign Affairs الاميركية (ربيع ١٩٤٧) · تحت عنوان « مصادر السلوك السوفياتي » (وبتوقيع مجهول « × » :

« ان امامنا قوة سياسية ملتزمة التزاما اعمى بالاعتقاد باستحالة اقامة اسلوب حياة مع الولايات المتحدة · وان من المرغوب ومن الضروري ان يجري تخريب الانسجام الداخلي لمجتمعنا وتدمير طريقة حياتنا التقليدية وهدم النفوذ العالمي لدولتنا ، كي تصبح السلطة السوفياتية في امان » ·

صوت العقل

وكان من الطبيعي ان تفرخ « سياسة القوة » التي انتهجت الولايات المتحدة على مدى السنوات منذ منتصف خمسينات القرن التاسع عشر نقيضا لها . اتخذ صورة معارضة قوية ـ نظرية في معظم الاحيان ـ ضد هذه السياسة · فظهرت افكار جون كوينسي ـ آدامز الذي ناهضه استخدام السياسة الخارجية الاميركية كأداة لتطوير الاخرين ، وكان من رأيه ان محاولة « تصدير الحرية » الى البلدان الاخرى ستؤدي الى ان تصبح القوة لا الحرية هي اساس سياسة الولايات المتحدة · وهذه قد تتحول بسياسة القوة الى « دكتاتورة للعالم » ولكنها عندئذ ستكف عن ان تكون قائدة لروحها هي ذاتها ، وعليها من ثم ان تكتفي بأن تكون « بطلة نفسها وحامية ذاتها » ·

وعلى مدى القرن من منتصف التاسع عشر الى منتصف العشرين لم يخفت . ولم يضع وسط قعقعة اسلحة الحروب الاميركية العديدة ـ صوت المعارضين لسياسة القوة الرافضين للتبريرات الايديولوجية التبشيرية لدور اميركا العالمي · وظهرت محاولات عديدة (شبيهة في أوجه كثيرة منها بالمحاولات الجارية الان) للحديث عن « القيم الاميركية » بدلا من « القوة الاميركية » ، وللعودة الى « **الوثائق الاصلية** » مثل وثيقة « اعلان الاستقلال » ووثيقة « **الدستور** » ، بهدف كشف مدى مطابقة الممارسة للنصوص · وكثر الحديث ـ في مواجهة تصعيد التوسع الاميركي العسكري بقوة السلاح خارج القارة الاميركية ـ عن « **قيم الآباء** » و « **مبادىء الاجداد** » و « **آمال جيل المؤسسين** » · (ومن

---

(6) Rogow, Arnold : James Forrestal, New York, 1963.

(٧) المصدر نفسه ·

الامور الملفتة للنظر كثيرا ان هذه الاحاديث والمناقشات النظرية دارت اكثر مما دارت حول السياسة الخارجية الاميركية · ولم تكد تتناول قضية هامة من قضايا الداخل ، مثل القضية العنصرية) ·

الاخلاقية الدولية

وجاءت فترات قويت فيها فرص القوى الرافضة ، للتأثير على مسار السياسة الخارجية الاميركية · وخاصة بعد ان امتد نفوذها الى « الكونغرس » واحيانا الى الكنيسة ، وشكلت تحالفات سياسية قوية من الرافضين لسياسة القوة مثل حلف كيلوغ ـ بريان لتحريم الحرب الذي ظهر في فترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية · وابان الازمة الاقتصادية الطاحنة التي داهمت الغرب في اوائل الثلاثينات كان من ابرز التفسيرات التي قدمت لها انها ليست سوى ميراث تراجيدي ورثته الولايات المتحدة عن سياسة « الحرب لانهاء الحرب » · وظهرت معلومات مذهلة عن تحقيقات برلمانية وبحوث اكاديمية في تلك الفترة حول « **تجارة الموت** » ودور شركات الصناعة الحربية في دفع السياسة الخارجية الاميركية نحو سياسة الحرب وممارسة سياسة القوة · وبدا من العسير في تلك الفترة اظهار الدور العسكري الاميركي في الخارج بأنه يقوم على اسس من « المقدسات الاخلاقية »· وازداد عدد رجال الدين المتحمسين لشن الحملات في مواعظهم ضد سياسة القوة والحرب ، وظهرت بينهم فلسفة اللاعنف كأقوى ما تكون تعبيرا عن معارضة السياسة الخارجية الاميركية كما كانت تمارس في تلك الحقبة ·

وبالفعل اتت هذه الموجة المعارضة بالرئيس الاميركي فرانكلين روزفلت رافعا شعار دعم قوى « الاخلاقية الدولية » (وهو تعبير يكاد يطابق التعبيرات التي يستخدمها الرئيس الاميركي الحالي كارتر) · وكان التيار المؤيد لروزفلت يطالب بالابتعاد عن دور البوليس الدولي الذي ارهق الولايات المتحدة ، وانتهاج سياسة « اميركا اولا » · وذهب روزفلت الى حد التعهد بان الشباب الاميركي لن يذهبوا مرة أخرى ليحاربوا في اوروبا ، و « ان الامة الاميركية حيث تواجه الاختيار بين ارباح التسليح والحرب ، فانها ستجيب ، ويتعين عليها ان نجيب : نختار السلام » ·

مع ذلك فان التطورات اللاحقة ـ ولفترة طويلة امتدت حتى اوائل السبعينات. بل لعلها ممتدة الى الان ـ كانت سلبا لهذه المقولات كليا ··· ابتداء من الحرب العالمية الثانية · الى حرب كوريا ، الى حرب فيتنام وكل الهند الصينية ، حتى التدخل في لبنان عام ١٩٥٨ ، وفي جمهورية الدومينكان

في عام ١٩٦٥ ، وقبلها غزو « خليج الخنازير » في كوبا عام ١٩٦١ ...

مع ذلك من أكثر مسائل السياسة الخارجية اثارة للخلافات السياسية والدستورية – وحتى الفكرية – داخل الولايات المتحدة هي مسألة سلطة دخول الحرب وارسال القوات الاميركية المسلحة الى خارج الاراضي الاميركية . لقد ظلت هذه المسألة في حالة اشتعال مستمر . لم تخب ابدا وانما خفتت احيانا والتهبت احيانا اخرى – وقامت في فترة الحرب الفيتنامية التي دامت اكثر من عشر سنوات . وخلال ذلك كانت هناك اصوات – ابرزها وليام فولبرايت وستيوارت سايمنغتون ومايك مانسفيلد من رجال الكونغرس ، ووالت ويتمان وآرثر شليزنغر من رجال الصحافة والفكر – اتخذت مواقف صريحة ليس فقط ضد الحرب ، وانما بالدرجة الاولى ضد الوضع اللاديمقراطي الذي يعطي رئيس الولايات المتحدة حق ارسال القوات المسلحة الى خارج الاراضي الاميركية ، مدعما بالاعتمادات العسكرية الضخمة . وفيما كانت حرب اميركا في فيتنام تشيع الدمار والمآسي وتستنزف دماء الفيتناميين والاميركيين على السواء ، كان هناك خطان متصارعان في السياسة الاميركية :

● خط يؤيد سلطة الرئاسة (البيت الابيض) على اساس مبادىء السلطة المتفوقة ، السرية ، سرعة القرار ، سيادة رئيس الولايات المتحدة على شئون السياسة الخارجية بالكامل .

● خط يطالب بالحاح بالحد من سلطة الرئيس ، وبضرورة اخذ راي الكونغرس في قرارات السياسة الخارجية ، وخاصة منها ما يتعلق بالحرب . ويرى ان التجربة اثبتت ان الاعتماد على السلطة المتفوقة للرئيس ادى في مرات عديدة الى سوء التقدير وسوء الحكم . وكانت حرب فيتنام اشد الادلة وضوحا بين ايدي اصحاب هذا الخط .

وقد وصل النزاع الدستوري حول سلطة الرئيس وسلطة الكونغرس فيما يتعلق بقرار الحرب الى الحصار الاميركي حتى عند نقاط تفصيلية من تطورات حرب الهند الصينية . وفي بعض الحالات اصدر القضاء احكاما ضد قرارات البيت الابيض ، مثلما حدث في صيف عام ١٩٧٣ عندما قيد القضاء الاعتمادات التي يطلبها الرئيس نيكسون لمواصلة الغارات الاميركية الجوية على كمبوديا . واعتبرها غير دستورية .

وفي الواقع فان جذور المشكلة – وكذلك جذور المناقشة النظرية لها – لم تكن ذات طبيعة دستورية ، وانما كانت متعلقة بالاساس بطبيعة واتجاه السياسة الخارجية الاميركية . « لقد نشأت الازمة في اساسها الاول عن الاعتقاد بان الولايات المتحدة لا بد ان تقوم بدور الحارس على الحرية في كل مكان على كوكب

الارض · كانت السياسة ذات النزعة العالمية Globalist تدعو لاساس زاخر بالرسالة الايديولوجية ، باستعداد للتدخل انفراديا في شؤون الدول الاخرى ، ومقدرة على ارسال قوات مسلحة وفقا للمشيئة الى اركان المعمورة النائية · ومن ثم كانت تدعو الى تركيز السلطة ، والى سرية وسرعة وحرية تصرف الرئيس » (٨) ·

لقد عبر فولبرايت عن هذا المعنى للازمة حين قال ان الاميركيين يحاولون ان يقوموا بانفسهم بكل الاشياء التي كان ويلسون وروزفلت يأملون تحقيقها عن طريق السلطة الجماعية لمنظمة عالمية ولم يتصوروا ابدا قيام الولايات المتحدة بها وحدها · ولم يكن يمكن ان يؤدي هذا الا الى تجاوزات خارجية لاتهامه لها · والى حروب مزمنة، ونفقات باهظة واضفاء طابع عسكري على الحياة الاميركية · ولم يتوقف فولبرايت عند هذا الحد ، بل مضى الى اعلان تحذيره من ان الولايات المتحدة آخذة في التحول الى « **دكتاتورية انتخابية** » ، تمارس بوجه خاص في السياسة الخارجية وفي المجالات الداخلية التي تعتمد بدرجة او بأخرى على المؤسسة العسكرية ·

هزيمتان ··

الا ان الاصوات المعارضة لسياسة القوة والحروب والتدخل العسكري لم تكن تكفي وحدها لتحويل اتجاه السياسة الخارجية الاميركية عن هذا المسار · فقد كان بامكان السلطة الاميركية دائما ـ مدعومة بالقوى الطبقية ذات المصالح الرأسمالية الهائلة المتعلقة بالحروب والصناعات الحربية ، والباحثة دوما عن اسواق جديدة ومجالات متعاظمة للاستثمار الخارجي ـ ان تجد الثغرات الدستورية والسياسية التي تستطيع ان تنفذ منها الى مواصلة تلك السياسة ، وان تجد السبيل الى اغراق الرأي العام الاميركي في طوفان من الدعاية عن حماية مصالح الولايات المتحدة في الخارج ، ان لم يكن الدفاع عن مبادىء الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان · كان لا بد ان تصطدم « **سياسة القوة** » اصطداما مباشرا بالفشل على ارض معاركها ، لكي تحدث هزة حقيقية في المجتمع الاميركي تتجاوز حدود المعارضة الليبرالية او النيبراليه المعارضة الى نطاق التغيير الحقيقي الذي يجبر مخططي ومنفذي هذه السياسة على التراجع عن مواقع القيادة وعن سلطة اتخاذ القرار ·

---

(8) Schlesinger, Arther, The Imperial Presidency, London, 1974. Pan American Union.

فقد تبين ـ موضوعيا ـ ان سياسة القوة لم تساعد على تأكيد امن الولايات المتحدة ، ولم تساعد على زيادة نفوذها وهيبتها في العالم . وانما جرتها الى حروب بعيدة لم تقتصر نفقاتها الباهظة على التكاليف المادية ، بل تجاوزتها الى النفقات المعنوية من صميم ثقة الولايات المتحدة بنفسها وثقة العالم الخارجي بها · وعندما جاءت هزيمة اميركا في فيتنام لم يكن من قبيل المصادفة انها تزامنت مع افتضاح التفسخ الداخلي لنظام الديمقراطية الاميركية · وشاركت الهزيمة والفضيحة معا في الحاق عار لا نظير له بـ « اقوى دولة في العالم »·

كانت الآثار المباشرة لهزيمة السياسة الخارجية (فيتنام) وهزيمة السياسة الداخلية (ووترغيت) متمثلة في الدعوة الى « اعادة تعريف المصالح الاميركية في الخارج » من ناحية ، والعمل على العودة الى الاصول الدستورية في توزيع السلطات في الداخل · وادى هذان الجانبان بدورهما الى سلسلة من عمليات اعادة النظر : في دور وكالة الاستخبارات الاميركية ـ في توزيع القوات المسلحة ـ والقواعد العسكرية الاميركية في الخارج ـ في دور الكونغرس ودور الرئيس في رسم السياسة الخارجية ـ في حجم ومدى التأييد الاميركي للنظم الحليفة ، وخاصة الدكتاتوريات ··· الخ ·

وما كانت تلك الا التفصيلات الجزئية للدعوة الاكثر تجريدا وشمولا الى « ايديوليوجيا » جديدة او على الاقل الى عودته الى « القيم الاميركية » ، وتحت ستار هذه الدعوة ظهرت المحاولات العديدة في السنوات التالية للهزيمتين لوضع تفصيلات « نقطة محورية جديدة للسياسة الخارجية الاميركية » (كان هذا عنوان لدراسته التي نشرها زبغنيو برجنسكي في مجلة « الشؤون الخارجية » الاميركية ، والتي قربته كثيرا الى جيمي كارتر ، الذي استعان به في تحديد ملامح سياسته الخارجية وهو مرشح للرئاسة ، ثم عينه مستشارا لشؤون الامن القومي بعد ان فاز بالرئاسة) ·

على ان من الخطأ الاعتقاد بأن السياسة الاميركية دخلت منعطفا جديدا بصورة فجائية خلال السنوات القليلة التي اعقبت نهاية حرب فيتنام وانكشاف فضيحة « ووترغيت » · انما كان الصراع الايديولوجي حول مسائل السياسة الخارجية يتعرض لتقلبات كبيرة على مدى السنوات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بسبب تعاظم قوة العالم الاشتراكي الاستراتيجية والاقتصادية · وبروز دوره في مناوأة الهيمنة الاميركية التي كانت تحل تدريجيا محل الهيمنة الاستعمارية القديمة البريطانية والفرنسية والهولندية والبجليكية ··· الخ ·

على مدى تلك السنوات ، ومن قبلها ، اضطرت الايديولوجيا الاميركية للتلون بصور مختلفة كأساس للسياسة الخارجية · ولهذا ظهرت « مبادىء » كثيرة حملت اسماء عديد من رؤساء الولايات المتحدة المتعاقبين · وكان كل من هذه «المبادىء» يعبر ـ ليس فقط عن تبرير سلوك معين في سياسة اميركا

الخارجية ـ وانما كان يعبر ايضا عن مرحلة بأكملها في تطور دور اميركا العالمي ، بين القوة والضعف ، بين العدوانية والانسحابية ، بين العالمية والانعزالية ·

ولعل الولايات المتحدة تنفرد عن باق القوى الكبرى في العالم في انها قدمت عددا كبيرا من « المبادىء » لسياستها الخارجية كانت بمثابة علامات على « تحولات » معينة · ولهذا فانه يمكن من خلال تلك « المبادىء » فهم ثوابت ومتغيرات السياسة الخارجية الاميركية ·

« مبدأ مونرو »

وكان اول « مبدأ » في تاريخ السياسة الخارجية الاميركية هو « مبدأ مونرو» الذي اصدره الرئيس الاميركي جيمس مونرو في رسالة الى الكونغرس يوم ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٣ · وقد احتوى هذا « المبدأ » على اربعة عناصر رئيسية : (١) ان القارة الاميركية لن تعود في المستقبل مجالا لقيام مستعمرات اوروبية ، (٢) ان يقوم في القارة الاميركية نظام سياسي يختلف جوهريا عن النظام السياسي القائم في اوروبا · (٣) ان الولايات المتحدة تعتبر اي محاولة من جانب الدول الاوروبية لمد نفوذها في الاميركيتين خطرا على سلامها وامنها · (٤) ان الولايات المتحدة لن تتدخل في المستعمرات الاوروبية القائمة . ولن تشارك في اية حروب اوروبية محضة ·

ويلاحظ ان هذا المبدأ ظل اساسا للسياسة الخارجية الاميركية لمدة تربو على قرن ، فلم يظهر « مبدأ » جديد يحمل اسم رئيس اميركي اخر الا في عام ١٩٤٧ عندما اعلن « مبدأ ترومان » · ويرجع هذا الى ان ذلك القرن بأكمله كان بالنسبة للولايات المتحدة قرن الاهتمام الاميركي اساسا ، وانه لم تكن هناك قوة تعد مناوئة للولايات المتحدة على نطاق عالمي على النحو الذي صارت الاحوال عليه بعد قيام الدولة السوفياتية والمعسكر الاشتراكي · وعلى اساس « مبدأ مونرو » خاضت الولايات المتحدة عدة حروب وصراعات في « نصف الكرة الغربي » · بل ان « مبدأ مونرو » ظل نافذ المفعول الى ما بعد ظهور « مبادىء » اخرى وحددت تغيرات عالمية واسعة النطاق · فقد اعادت الولايات المتحدة تاكيده في « اعلان ليما » الذي صدر في عام ١٩٤٢ بتاسيس « اتحاد عموم اميركا » Pan American Union ، ثم عند توقيع معاهدة « ريو دي جانيرو» في عام ١٩٤٢ التي نصت على ان اي هجوم على واحدة من الدول الاميركية سيعتبر هجوما ضدها جميعا ·

وتأكد مبدأ مونرو في عام ١٩٥٤ عندما اعلن وزير الخارجية الاميركي جون فوستر دالاس في مؤتمر الدول الاميركية في « كاراكاس » ان من بين اهم

اساسيات السياسة الخارجية الاميركية اعتراض الولايات المتحدة على وجود حكومات شيوعية او مؤيدة للشيوعية في القارة الاميركية . باعتبار ان ذلك يشكل انتهاكا لمبدأ مونرو · واكدت الولايات المتحدة ـ عمليا ـ تمسكها بمبدا مونرو في تبريرها لمحاولة الغزو الفاشلة ضد كوبا عام ١٩٦١ · ثم تبرير تدخلها العسكري ضد الثورة التقدمية في جمهورية الدومنيكان عام ١٩٦٥ · ومن المؤكد ـ بالمثل ـ ان « مبدأ مونرو » كان له حضور خاص في « ازمة الصواريخ الكوبية » التي نشأت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي عام ١٩٦٢ ·

لقد كان هذا المبدأ تعبيرا عن مرحلة طويلة من سياسة التوسع · وسندا رئيسيا لسياسة القوة التي مارستها الولايات المتحدة في فترات شهدت تغيرات عديدة حتى في السياسة الخارجية الاميركية نفسها . ولكن ازاء مناطق اخرى من العالم غير نصف الكرة الغربي · ولم يخفت زخم مبدأ مونرو في السياسة الاميركية الا بعد فشل غزو كوبا . وبعد حصول الاتحاد السوفياتي ـ نتيجة لازمة الصواريخ ـ على تعهد اميركي بعدم التعرض للنظام الاشتراكي في كوبا بالهجوم او التهديد · ويمكننا ان نلاحظ انه حتى عندما تدخلت الولايات المتحدة في عام ١٩٧٣ لاسقاط حكومة الرئيس سلفادور الليندي الاشتراكية في تشيلي ، عن طريق وسائل المخابرات المركزي ، فانها لم تلجأ الى تبرير هذا التدخل بالتذكير بمبدأ مونرو · فقد بلغ الوضع في معظم بلدان القارة الاميركية حدا لا تستطيع الولايات المتحدة معه ـ في السبعينات ـ ان تتحدث بأسلوب صاحب الوصاية على هذه الدول ، مهما كان حجم النفوذ السياسي والاقتصادي الاميركي فيها ·

« مبدأ ترومان »

وعندما اعلن « مبدأ ترومان » في عام ١٩٤٧ كان ذلك اول تقنين للتدخل الاميركي في الشؤون الداخلية في دول عالم نصف الكرة الشرقي · كانت احداث الحرب الاهلية في **اليونان** بين الملكيين والانصار (بقيادة الشيوعيين) قد بلغت حدا من التعقيد من شأنه ان يطال منطقة البلقان كلها وتركيا ، واهم من ذلك على الشرق الاوسط ، وبتعيين كلارك كليفورد وكيل وزارة الخارجية آنذاك « **موقع اليونان الاستراتيجي والمصادر الطبيعية العظيمة في الشرق الاوسط** » · **وكانت الحرب الباردة قد بلغت في السنتين التاليتين مباشرة لانتهاء الحرب العالمية الثانية حدا يقربها كثيرا من الحرب الساخنة** · وفي ذلك المناخ تحركت جماعات الضغط الصناعية والعسكرية وتقدمت فعلا بعدة اقتراحات لاصدار « مبدأ » جديد يخول للولايات المتحدة معه التدخل لتأكيد مقدرتها على القيام بدور رجل البوليس الدولي ضد « الارهاب » و « الفوضى » وضد « التدخل

الخارجي » ــ ولم تكن هذه الا مرادفـــات في القاموس السياســي الاميركي للشيوعية ·

وانتهى ترومان ــ من وسط الصيغ العديدة للمبدأ الجديد التي اقترحت عليه ــ الى الصيغة القائلة :

« في هذه اللحظة من تاريخ العالم يجب على كل امة ان تختار بين طريقتين مختلفتين في الحياة ، وكثيرا ما يحدث ان لا يكون هذا الاختيار حرا ·

« تعتمد احدى طريقتي الحياة على ارادة الاغلبية ، وتتميز بمؤسسات حرة . وحكومات تمثلها وانتخابات حرة وضمانات للحرية الفردية ، ولحرية الكلام والديانة ، والتحرر من الاضطهاد السياسي ، وتعتمد الطريقة الاخرى على فرض ارادة الاقلية بالقوة على الاغلبية ، بالارهاب والاضطهاد والسيطرة على الصحافة والاذاعة ، وعلى تزوير الانتخابات والغاء الحريات الشخصية ·

اعتقد ان من واجبات الولايات المتحدة ان تتخذ سياسة دعم الشعوب التــي تقاوم محاولات الاخضاع من قبل الاقليات المسلحة او الضغوط الخارجية » ·

ولم يكن خافيا من هذا النص رغم الحذر الشديد الذي التزم في اختيار عباراته ان الولايات المتحدة تعطي لنفسها دورا قياديا اول في العالم ، وتقدم لهذا تبريرات « اخلاقية » و « ديمقراطية » · وقتها قالت صحيفة « واشنطن بوست » ان ترومان « يطلب من اميركا ان تكون اطلس (الذي يحمــل الكرة الارضية على كتفيه) ويعرض على الامة ان يقودها في لعب هذا الدور العظيم » وكانت « نيويورك تايمز » اكثر وضوحا وصراحة في تفسير « مبدأ ترومان » حيث قالت : « لقد انتهى عصر العزلة والتدخلات العابرة ، ويحل محله الان عهد المسؤولية الاميركية » ·

وبالفعل فان تطبيق « مبدأ ترومان » في اليونان اعطى المثل الاول لسلسلة تدخلات عسكرية اميركية في الخارج ــ في نصف الكرة الشرقي والغربي ــ وقد اغرى اميركا نجاحها في التدخل الاول ، الذي ادى الى اجهاض حركــة الانصار ومحاصرة التيار الثوري الذي كانت تمثله ثم خنقه داخل اليونان ، بان تعاود التدخل بالاسلوب نفسه ، مستخدمة المبررات نفسها · وهكذا عاش « مبدأ ترومان » لفترة طويلة برغم تنوع تجارب النجاح والفشل في تطبيقه ·

ولم يكن من قبيل المصادفات ان قامت الولايات المتحدة بالدور « التاريخي » الذي قامت به في زرع اسرائيل « الديمقراطية » في ارض الوطن العربي في العام نفسه الذي اعلن فيه « مبدا ترومان » · وكان هذا « المبدا » في الواقع ماثلا في تبريرات تأييد ترومان شبه المطلق لاقامة « دولة اسرائيل » والاعتراف الفوري

بها ، ثم اعتبارها « قلعة للحرية والتقدم » في الشرق الاوسط ، وتقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لها ، على الاسس نفسها التي قدمت بها لليونان وتركيا استنادا الى هذا « المبدأ » ·

« مبدأ ايزنهاور »

ومع ذلك فان السياسة الخارجية الاميركية ــ رغم استمرارية اهدافها واستراتيجيتها واساليبها ــ وجدت نفسها في عام ١٩٥٧ في حاجة الى اصدار «مبدأ » جديد يتيح المبررات الاستراتيجية السياسية لمرحلة جديدة من التوسع الاميركي في منطقة الشرق الاوسط كان قد تم التمهيد لها بخنق التيار الثوري في اليونان وبخلق قاعدة **اسرائيل** على ارض **فلسطين** ·

كانت « حرب السويس » عام ١٩٥٦ قد خلقت وضعا جديدا في المنطقة ايقظ روح القومية العربية وثقة العرب بأنفسهم وقدراتهم ، واعطت هزيمة العدوان الثلاثي نموذجا ليس لاقطار الامة العربية وحدها ، بل لكل الاقطار الصغيرة التي تشكل العالم النامي ولحركة التحرر الوطني · ولم يكن باستطاعة الولايات المتحدة ان تقبل هذا الوضع ، رغم معارضتها ــ غير المباشرة ــ للعدوان الثلاثي على مصر لاهداف تتعلق برغبتها في ان تحل في الشرق الاوسط محل القوى الاستعمارية القديمة المتمثلة في بريطانيا وفرنسا · وكان « مبدأ ايزنهاور » الذي اعلن بدوره في رسالة الرئيس الاميركي السنوية الى الكونغرس في بداية العام ١٩٥٧ تعبيرا صريحا عن هذا المعنى ·

فقد اكد « مبدأ ايزنهاور » : (١) «ان الفراغ الحالي في الشرق الاوسط لا بد ان يتم شغله من جانب الولايات المتحدة قبل ان يتم شغله من جانب الاتحـــاد السوفياتي · (٢) ان حالة عدم الاستقرار في الشرق الاوسط تزيد منها وتستغلها احيانا الشيوعية العالمية · (٣) ضرورة زيادة المساعدات الاقتصادية والعسكرية لدول المنطقة لتمكينها من الوقوف بوجه محاولات السيطرة الشيوعية ، (٤) منح الرئيس الاميركي سلطة شاملة « لاستخدام القوات المسلحة الاميركية لضمان وحماية الاستقلال السياسي وحقوق السيادة للدول التي تطلب هذا العون ضد العدوان المسلح الصريح من قبل اية دولة تسيطر عليها الشيوعية العالمية » ·

وهكذا كان « مبدأ ايزنهاور » بمثابة مد نطاق ــ رسميا ــ لمبدأ ترومان ، من جنوب اوروبا الى الشرق الاوسط بالتحديد ، وكما كان « مبدأ مونرو » تمهيدا لحروب تدخل عسكري اميركي في الاميركتين (في نصف الكرة الغربي)، وكان « مبدأ ترومان » تمهيدا لتدخل عسكري في اليونان ، كان « مبدأ ايزنهاور » التمهيـد الـذي اعدتـه السياسـة الخارجيـة الاميركيـة للتدخـل العسـكري

في لبنان (البلد الوحيد في المنطقة الذي ايد وقتذاك هذا « المبدأ ») وكذلك في الاردن ·

مبدأ نيكسون

على مدى السنوات من ١٩٥٨ الى ١٩٧١ ــ اي منذ صدور « مبدأ ايزنهاور » الى ما قبل صدور « مبدأ نيكسون » ــ تعددت عمليات التدخل العسكري وغير العسكري ــ المباشر وغير المباشر ــ من جانب الولايات المتحدة في نصف الكرة · فلم تجد الولايات المتحدة نفسها امام « متغير » يحتاج الى اصدار مبدأ جديد يرسم الخط التبريري للسياسة الخارجية الاميركية · فقد كانت تلك فترة الذروة بالنسبة لتطبيق « سياسة القوة » دون مداورة · وعندما دخلت الولايات المتحدة حرب فيتنام لحسابها الخاص ــ بعد انتهاء تدخلها لحساب فرنسا في الخمسينات ــ لم تصدر « مبدأ » جديدا ، اذ كانت « سياسة القوة » في حالة استمرارية في اطار استراتيجية « **الحروب المحدودة** » او « الحروب الاقليمية » · وكانت هذه السياسة تطبق في مناطق النفوذ الاميركي في خط متواز مع سياسة « توازن القوى » التي كانت بمثابة استراتيجية اميركية ثابتة ايضا في مواجهة القوة العظمى الاخرى في العالم : الاتحاد السوفياتي ·

ولهذا فان اعلان « مبدأ نيكسون » كان استجابة لمتغير واضح في السياسة الاميركية ، نتيجة لتغير واضح في الوضع الاميركي · وفيما كانت « المبادىء » السابقة للرؤساء من مونرو الى ايزنهاور ذات صبغة اقتحامية وعدوانية ·· فان « مبدأ نيكسون » جاء على العكس من ذلك ذا صبغة انسحابية ودفاعية ، اذ لم يكن يمهد لدخول حرب ، بل يمهد للخروج من حرب ، هي الحرب الفيتنامية ·

ففي تقرير الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون الى الكونغرس عن « الوضع العالمي » في بداية عام ١٩٧١ اعلن انه (١) يجب على الاسيويين ان يقرروا مستقبل آسيا ! (٢) ينبغي تقوية النظم المؤيدة للولايات المتحدة لتأخذ على عاتقها دورا رئيسيا في قمع المتمردين ، وتخفيف العبء المنوط بالولايات المتحدة · (٣) ينبغي ان تحافظ الولايات المتحدة على جميع التزاماتها بموجب المعاهدات . (٤) يجب ان يتم تزويد الدولة الحليفة للولايات المتحدة بدرع واق · (٥) في الحالات التي تنطوي على انماط اخرى من العدوان ، ينبغي تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية حين تطلب من اميركا وفقا لالتزامات المعاهدات ·

وقد عرف « مبدأ نيكسون » بعد ذلك ـ ونتيجة لمضمونه ـ باسم « **سياسة الفتنمة** » · وكان الهدف منه احتفاظ الولايات المتحدة على الدور الرئيسي في اسيا ، ولكن باقل تكلفة في الارواح والدولارات الاميركية · ومع ذلك فقد كان هذا « المبدأ » بداية ادراك الولايات المتحدة لحتمية هزيمة سياستها الخارجية في آسيا · كانت اميركا قد بدأت تستشعر رغم استمرارها في دورها العسكري الى عام ١٩٧٣ ـ انها تسير في طريق الهزيمة ، وكان لا بد من غطاء سياسي لهذه الهزيمة يخفي اكبر جانب منها ، ان لم يستطيع اخفاءها بالكامل · وهكذا كان « مبدأ نيكسون » الاقصر عمرا بين « مبادىء » الرؤساء الاميركيين ، ليس فقط لانه كان « مفصلا » على جسم الدور الاميركي في الحرب الفيتنامية ، الذي قتلته الهزيمة العسكرية ، بل ايضا لانه جاء في نهاية حقبة سياسة القوة التي استطاعت ان تحقق ثباتا في وجه متغيرات كثيرة شهدتها الستينات ·· ثم انهارت امام متغير كبير اعترف به الصانع الاول للسياسة الخارجية الاميركية في عهد تبلور هذا التغير (هنري كيسنجر) وهو « **ميزان القوى** » الذي اوجدته الحرب العالمية الثانية ، لصالح الولايات المتحدة لم يعد له وجود ، وحل محله « **توازن** » جديد للقوى تتعدد فيه مراكز القوى الرئيسية العالمية ·

ومع ذلك فان « مبدأ نيكسون » لم يكن يسجل تغيرا في الايديولوجية الاميركية التي املت المبادىء السابقة ، الا في الشكل فقط · فانه لم يكن يقلص التزامات الولايات المتحدة التي تخدم اهداف سياستها الخارجية ، انما كان يرمي الى تحقيق الاهداف نفسها بأرخص الاسعار · انه يضاعف التزامات الولايات المتحدة ضد الاعداء انفسهم الذين توجهت جهود اميركا وسياستها الخارجية كلها ضدهم ، وهم كل من يقف ضد دور مهيمن لاميركا في العالم على الاصعدة الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والثقافية ·

نظريات جديدة ·· قديمة

وقد نفاجأ اذا لمسنا اليوم ـ بعد هزيمتي اميركا (فيتنام ووترغيت) وبعد علو اصوات المطالبين بالعودة الى القيم الاخلاقية الاميركية ـ التي تمكنت من حمل كارتر الى الرئاسة ـ ودلائل عـودة الاهتمام بوجود « ايديولوجيات » اميركية ·· قد نفاجأ اذا لمسنا بعد هذا كله ان مخططي السياسة الاميركيـــة الجديدة لم يستطيعوا ان يخرجوا في نظرياتهم ، التي تحمل في كل عناوينها لفظة « جديدة » ـ سواء لوصف « الايديولوجيا » او « المفاهيم » او « السياسة » او « الاخلاق » ـ عن الاطار العام لمبدأ نيكسون الذي سقط سقوطا كاملا فـي آسيا ·

واذا كانت اهم الوثائق النظرية الجديدة للسياسة الخارجية الاميركية تتمثل

في كتابات زبغنيو برجنسكي (كيسنجر عهد كارتر) فانها لا تخرج عن الدعوة الى خدمة الهيمنة الاميركية عن طريق جهود الاخرين ، عن طريق تجميع طاقات حلفاء اميركا وجمع « اشتراكاتهم » لتنفيذ الاستراتيجية الاميركية ·

فهذا هو المعنى الكامن وراء دعوة اللجنة الثلاثية : الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان ، وتكوين امانة عامة دائمة للتخطيط السياسي المشترك · ثم تنشيط « مشاورات عريضة الاطار تضم دولا خارج حدود مناطق التعـــاون الثلاثي » · ولا يخرج الحديث هنا ايضا عن قيام هذه المشاركة الثلاثية « على اساس رابطة الاهتمامات الامنية » (٩) ·

هذا الحلف الثلاثي من البلدان الرأسمالية المتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا ليس الا بديلا عن التحالفات الثنائية التي سبق ان ارهقت الولايات المتحدة في آسيا عندما ورطتها في الحروب ، وارهقتها ايضا بما حصلت عليه من مساعـدات خارجية باهظة · فان باستطاعة اوروبا الغربية واليابان المشاركة في تحمل الاعباء مع الولايات المتحدة وعنها لتحقيق اهداف الولايات المتحدة نفسها ·

وهكذا نتبين عدم صحة القول بأن حاجة اميركا الى « الايديولوجيا » اخذت صورة انعطاف الى الداخل او عودة الى الدعوة لسياسة العزلة Isolationism وهو قول يفترض حدوث « تغير » اساسي في السياسة الخارجية الاميركيـــة يتناول اهدافها لا أساليبها · صحيح ان مدى وتر حركة الولايات المتحدة على ميزان العلاقات الدولية اصبحت أقل ، ولكنها في كل « متغير » تحاول ان تكيف اساليبها بما يتفق مع هدف « ثابت » · وحينما يتحدث صانعو السياســـة الخارجية الاميركية اليوم عن « تغيير » من وضع التأييد لحكومات دكتاتورية لمجرد انها معادية للاتحاد السوفياتي والشيوعية (مثل كوريا الجنوبية وتايوان، وفيتنام الجنوبية وتشيلي) الى وضع تأييد الجزر الديمقراطية القليلة الباقية في العالم (مثل اليابان وايطاليا واسرائيل) (١٠) ، فان هذا التغير لا يتناول شيئا من ثوابت السياسة الخارجية الاميركيـــة . التي أكدتهـــا ايديولوجيتهـــا التبشيرية ، و« مبادىء » رؤسائها ، والنظريات الجديدة التي يستعان فيهـــا باساتذة العلوم السياسية (كيسنجر وبرجنسكي) بل وبالاجهزة الحاســـبة الالكترونية (الكومبيوترز) ·

(9; Brzezinski, Z , A New Focus for U.S. Foreign Policy, Foreign Affairs, July 1973.

(10) Glazer, Nathan : American Values & American Foreign Policy, Commentary, July 1976.

نـزيـه ابـو نضـال

الوجـه الآخـر للتسـويـة

يرتبط مفهوم التسوية * في ادهان الكثيرين بصيغة حقوقية يتم ابرامها والتوقيع عليها من قبل الاطراف المعنية بما يسمى بمشكلة الشرق الاوسط ، وعبر هذا المفهوم تحتل « جنيف » وضعا في غاية الخطورة والاهمية . بحيث يبدو كل ما عدا « جنيف » هامشيا لا يعبر عن اية اخطار فعلية ·

ان التعامل مع التسوية باعتبارها صيغة حقوقية وخوض الصراع ضدها على هذا الاساس يفتح ثغرة خطيرة لتمرير التسوية بكل ابعادها ودلالاتها ونتائجها ·

من هنا فان علينا ان نميز بحسم بين التسوية كاجراء تفاوضي حقوقي (جنيف) وبين التسوية بمعناها الحقيقي ، اي بتوفير الشروط المادية الواقعية والعملية التي تشكل الشرط الموضوعي لتسوية قد انجزت وتنتظر مراسيم التوقيع ·

ان خوض الصراع ضد التسوية كحلقات متتابعة يجري تنفيذها كل يوم على ارض الواقع هو الصراع الوحيد المجدي للتصدي للتسوية ككل . اما الصراع ضد « جنيف » التفاوض والتوقيع فلا يعني سوى القفز من فوق التسوية الفعلية نحو الفراغ واللاجدوى ·

---

* ان التسوية الوحيدة المطروحة وفي ظل موازين القوى الراهنة هي التسوية الاميركية وعلى هذا الاساس نبني تحليلنا ·

وانطلاقا من هذا المفهوم فاننا نرى ان التسوية قد قطعت بالفعل اشواطا واسعة وتم تنفيذ حلقات اساسية فيها ، ونحن الآن في مواجهة يومية لتنفيذ مزيد من هذه الحلقات · ويسهم النشاط السياسي والدبلوماسي المكثف الذي تقوم به اوساط عربية ودولية متعددة ومن مواقع مختلفة بالتأكيد بشد الانظار بعيدا الى الامام : « جنيف » بينما التسوية تنفذ على الارض مباشرة وفي هذه الايام بالذات · ان توجيه زاوية الرؤية والاهتمام والتصدي لوقائع التسوية العملية هي المهمة الملحة الآن لمن اراد بالفعل ان يتصدى للتسوية لا ان يناطح طواحين الهواء ·

ان التصور الخاطيء لمسألة التسوية ينبع اساسا من التقدير بأن التوقيع الحقوقي على وثيقة التسوية هو الذي سيفتح المجال لتنفيذ الخطوات العملية الخطيرة التي تمثلها عملية التسوية ·· بينما نعتقد نحن بان الخطوات العملية التي نفذت ويجري تنفيذها الآن هي التي تفتح المجال للمراسيم الاجرائية المتعلقة بالصلح والاعتراف الخ ··

ولتأكيد هذه الحقيقة ما علينا سوى ان نجري مقارنة سريعة بين النتائج العملية التي ستعقب التوقيع وبين الحلقات التي تم ويتم تنفيذها فعلا · وقبل اجراء هذه المقارنة لنتأمل هذه المواقف والمقدمات : « ان تعبر الجرارات الاسرائيلية الحدود العربية بدلا من الدبابات ·· هذه هي التسوية » ··

« التسوية في نظري هي ان اذهب لاتسوق من الموسكي والحميدية دون ان يبدو ذلك امرا مستغربا » · هذا ما اعلنته جولدا مائير في مناسبات سابقة اعقبت حرب حزيران ·· ويؤكد موشي ديان رفضه « عقد اي صلح مع زعيم عربي قد ينقضه غدا ضابط مغامر » ·

وبعد حرب تشرين راقبت جولدا مائير بفرح حركة البناء والعمران الجارية في مدن السويس ، واعتبرت ذلك خطوات عملية هامة وذات دلالات كبيرة للتمهيد للتسوية ، وهي بنظرها اهم من عشرات المواثيق والعهود ··

وفي منتصف نيسان من العام الحالي ، مجلس الوزراء الاسرائيلي يراقب بكثير من التقدير الدور المصري في زائير وافريقيا ·

ان مجموع هذه المواقف الاسرائيلية وعشرات غيرها تكشف بوضوح تام جوهر الاستراتيجية الاسرائيلية الثابتة المتعلقة بمفهوم التسوية ، كما تكشف حقيقة الممهدات المادية المطلوبة قبل الوصول الى الصيغ الحقوقية والقانونية ·

ان قطع العلاقات الاقتصادية والسياسية مع المعسكر الاشتراكي واعادة ربطها مع السوق الراسمالية الامبريالية ، وما يتطلبه ذلك من تغييرات في مواقع القوى الطبيعية والسياسية في كل قطر عربي ، يمثل الممهد الرئيسي ماديا

وعمليا ، لصيغة قانونية لتسوية قد تمت بالفعل

وتحت هذا العنوان العريض تندرج العديد من التفصيلات الهامة :

* ضرب حركة التحرر العربي بفصائلها المسلحة والتقدمية والوطنية.

* ضرب المنجزات الديمقراطية التي تحققت في ربع القرن الاخير ، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا .

* الهجمة الامبريالية الصهيونية على المنطقة العربية بما يمثله من موقع استراتيجي واسواق ومواد اولية وايد عاملة .

* ان تقوم بعض الانظمة العربية ومن على ارضية التسوية هذه ومن مواقع التبعية الاقتصادية والسياسية بلعب دور الاداة للامبريالية ومخططاتها في المجالين الافريقي والعربي .

ان نظرة سريعة لوقائع التسوية وتفصيلاتها تكشف لنا بوضوح ما تم انجازه من حلقات التسوية كما تكشف امكانية تنفيذ ما تبقى من حلقات ما لم يواجه بفعل مضاد على كافة جبهات التسوية وضد كافة حلقاتها التي تمت والتي لم تتم بعد .

مما تقدم يبدو واضحا ان امام التسوية كصيغة حقوقية اشواطا طويلة لم تقطعها بعد ، وهذا ما يفسر مهلة الثماني سنوات التي اعطاها الرئيس كارتر قبل ابرام العقد النهائي للتسوية ومن اجل التمهيد لها . وهذا ينسجم مع الاستراتيجية الاميركية في عهد كارتر والتي تحتاج لوقفة قصيرة .

التسوية الاميركية في عهد كارتر

اذا كنا نقول ان التسوية الوحيدة المطروحة عمليا هي التسوية الاميركية فان علينا الآن ان نكشف خطوط هذه التسوية في عهد الادارة الاميركية الجديدة والتي لا تختلف في اهدافها وجوهرها عن المخطط الاميركي السابق وان اختلفت في خطوطها وتفاصيلها واساليبها .

ان اكتشاف السياسة الاميركية الجديدة مرتبط بكشف الطريقة التي جاء بها كارتر الى السلطة وعلاقة ذلك « باللجنة الثلاثية » الاميركية الاوروبية اليابانية . فاذا كان روكفلر هو الذي اسس هذه اللجنة ، واذا كان كيسنجر واحد من ابرز عناصرها المائتين ، فان كارتر وبرجنسكي وفانس بالاضافة الى ستة عشر آخرين من ابرز عناصر الادارة الاميركية الحالية هم اعضاء رئيسيين في هذه اللجنة ، كما نلاحظ ان ابرز اولئك الذين قادوا حملة كارتر

الانتخابية هم بدورهم اعضاء في اللجنة الثلاثية ٠

لقد مثلت قضية الطاقة (النفط اساسا) المحور الرئيسي لعمل هذه اللجنة وكان برجنسكي رئيسا للجنة الطاقة بالاضافة الى كونه رئيسا للجنة الثلاثية ٠

الكارتل العسكري الاميركي بدوره كان ممثلا بقوة في هذه اللجنة ٠ وهذا الكارتل كما هو معروف ، ضد سياسة التعايش والانفتاح ومع الاتجاهات التي تدفع نحو الحرب والعنف في العالم ، وهذا يفسر ما حدث لاحقا من فشل مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتيجية مع الاتحاد السوفياتي ٠ ويلتقي هذا الاتجاه كذلك مع اتجاه الحزب الديمقراطي الاميركي الذي قاد طوال العهود الماضية كل العمليات الحربية الاميركية سواء في كوريا او فيتنام او كوبا او جواتيمالا ٠

ان اهتمام اللجنة الثلاثية بمسألة الطاقة والنفط اساسا باعتباره عصب الاقتصاد العالمي دفع كيسنجر مهندس التعايش والوفاق الى التهديد عام ١٩٧٤ باحتلال منابع النفط ، فماذا عن سياسة كارتر وادارته الجديدة وحزبه الديمقراطي ؟

لقد حددت اولويات السياسة الاميركية مع مجيء الادارة الجديدة على الشكل التالي :

اولا : الاقتصاد الدولي

ثانيا : الامن الدولي

ثالثا : التسوية في الشرق الاوسط

ثم فجأة نجد ان الشرق الاوسط قفز الى المرتبة الاولى من سلم الاهتمامات الاميركية ٠ فهل معنى ذلك ان الولايات المتحدة جادة فعلا في تنفيذ التسوية في المنطقة حتى لو كانت تسويتها هي ؟ وهل الاهتمام الاميركي بحقيقته هو باتجاه التسوية في الشرق الاوسط ام هو اهتمام بالشرق الاوسط نفسه لعلاقاته بأولويات الاهتمام الاميركي : الامن الدولي والاقتصاد الدولي وفي مقدمته الطاقة (النفط) والموقع الاستراتيجي ؟

اذن فالاهتمام الاميركي المستجد مرتبط بالشرق الاوسط لعلاقته بالامن والطاقة وليس لارتباطه بالتسوية ٠ الا ان هذا الاهتمام نفسه سيعالج بالتأكيد مسألة التسوية ولكن فقط على ضوء المخطط الاميركي الاسرائيلي وبما يتصل من هذه المسألة بقضيتي الامن والاقتصاد الدوليين ، وتحديدا بالسعي لبسط النفوذ الاميركي في المنطقة وللسيطرة على منابع النفط سواء عبر الوجود المباشر او غير المباشر او بمحاولة تحريك ادواته في المنطقة باتجاه مواقع النفط

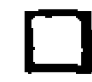
الخارجة عن نفوذه ·

هذه في تقديرنا هي الاتجاهات الرئيسية لمسار السياسة الاميركية الحالية وعلاقتها بالشرق الاوسط وموضوع التسوية ، وهي بدورها تشكل اهم الممهدات المادية المطلوبة قبل التوقيع النهائي ·

من هنا فان كافة الحلول المطروحة ومشاريع التسويات والمواقف والتصريحات المختلفة لا تستهدف في حقيقتها ترتيب الامور وتقريب وجهات النظر لاعداد صيغة التسوية حقوقيا ، لكنها تستهدف التعامل اليومي مع حلقات التسوية لتنفيذها عمليا ، وبعد استكمال كافة الشروط المادية المطلوبة فقط ، ومن على ارضية التسوية الفعلية ستطرح الصيغ القانونية النهائية للتسوية وبما يتفق مع جوهر الاستراتيجية الاميركية ـ الاسرائيلية التي سبق لنا الحديث عنها ·

هل معنى ذلك اننا نستبعد عقد مؤتمر جنيف ؟

نعم ··· اذا كانت جنيف تعني اقرار الصيغة الحقوقية والقانونية للتسوية · اما ان يعقد مؤتمر جنيف لتهيئة المناخ لتنفيذ حلقات او خطوات جديدة من التسوية فهذا محتمل الا ان جنيف هنا ستساوي الخيمة (١٠١) فقط وهذه على اية حال جنيف اخرى ·



ان متابعة التحركات السياسية عبر مساراتها المتشعبة والمتداخلة والمتعارضة من قبل مختلف الاطراف تمكننا من اكتشاف نقاط تقاطع خطيرة تمثل في تقديرنا مراكز مواجهة اساسية لضرب مفصلية حركة التسوية ونقاط ارتكازها الفعلية ·

دور مصر الافريقي

اذا كنا ننطلق في تقديراتنا من ان التسوية قد تمت وتتم على حلقات (الخطوة خطوة ·· الحلول الجزئية ·· الاتفاقات الثنائية الخ ··) فان الوصول الى شروط الحد الادنى لدى مختلف الاطراف يعني امكانية تنفيذ حلقة من حلقات التسوية وهذا ما اسميناه بنقطة التقاطع ·

وفي هذا المجال فاننا نكتشف نقطة تقاطع على الجبهة المصرية ·

« الارض مقابل السلام » ··

هذه هي مقايضة « شيلوك » الذي يرتدي الآن الزي الرسمي للقيادة

الاسرائيلية ٠

والارض هي في مقابل السلام فقط عندما لا تكون الارض تعني شيئا خاصا في البرنامج الاسرائيلي ٠

ارض الضفة الغربية هامة جدا ، والحكومة الاسرائيلية السابقة لا تستطيع المقايضة عليها حتى في مقابل السلام الا بعد استفتاء شعبي ٠

والجولان ايضا خارج لعبة المقايضة والسلام هذه بسبب الحدود الآمنة ، والموانع المحتملة على الهضبة السورية ٠ اما صحراء سيناء التي هي خارج كافة برامج التوسع والحدود الآمنة والعلاقة التاريخية الخ ٠٠ فيمكن عندها فقط الحديث عن الارض والسلام ٠

هذه الامكانية الاسرائيلية لعقد صفقة جديدة (حلقة) على الجبهة المصرية ، تتفق مع الرغبة الاميركية بدعم النظام المصري في وجه حالة التذمر في اوساط الجيش والشعب ٠ فاذا كان مطلوبا من الجيش المصري ان يلعب دورا افريقيا في وجه (التغلغل الشيوعي) فلا بد من اجراء عملية تنفيس في اوساط الجيش الذي سيتساءل عن معنى القتال في زائير ٠ والارض المصرية لا زالت محتلة !؟ « السادات اعلن اشراك الطيران المصري في زائير بعد كتابة هذا التحليل » ٠

مجلس الوزراء الاسرائيلي يقدر تماما هذا الحرج الذي سيصيب النظام المصري ولهذا يبحث هذه المسألة كبند رقم واحد على جدول اعمال اجتماعه الوزاري ٠٠ وهكذا يتقاطع الموقف الاميركي ـ الاسرائيلي مع الاتجاه العام للسياسة المصرية على ارضية التسوية المادية التي تحدثنا عنها ٠ والثمن كما اشار السادات هو اعلان انهاء حالة الحرب ٠

هنا بالضبط يبدو واضحا معنى التسوية والسلام الاسرائيلي بأن يدير الجيش المصري ظهره للعدو الصهيوني متجها نحو الغرب والجنوب لمواجهة الكفر والالحاد والشيوعية ٠ ان اخراج مصر من المعركة على هذه الشاكلة سيعني غياب امكانيات التشدد على الجبهات الاخرى ، مما سيفسح المجال واسعا لانجاز حلقات اخرى على طريق التسوية الكاملة والنهائية ٠

ان حديثنا عن حلقات التسوية وامكانياتها لا يعني للحظة واحدة افتراضنا بنجاح هذه الحلقات ٠٠ ذلك ان قطار التسوية لا يسير في الفراغ وبدون مجابهات مضادة ٠٠ اردنا فقط ان نشير الى النقاط الارتكازية التي تعتمدها حلقات التسوية التالية ولنعرف من اين يأتي الخطر الفعلي والى اين يجب ان تصوب النيران ٠

كلوفيس مقصود

عن الديمقراطية والوحدة

نحن الان في مرحلة من تاريخنا بالغة الخطورة · ولعل هذا القول فيه الكثير من الاجترار لان كل مرحلة من تاريخنا المعاصر جعلتنا نكرر مثل هذا الوصف لطبيعة ما كنا عليه وما نحن عليه · نقول هذا لانه من كثرة ما وصفنا الحقبات الزمنية التي مررنا بها بأنها خطيرة فقدت كلمة « خطورة » او « خطر » معناها الحقيقي وما يجب ان تفرضه الخطورة من مسؤوليات واعباء لا بد من تحملها· ان النفاذ الى هذا الشك الكامن هو نوع من استجداء الكلمة من اجل ان تعود اليها وظيفتها ، بوصفها تختزن الحقائق وتنير سبل الوصول اليها بعد ان تعهرت الكلمة من كثرة سوء الاستعمال ، او من جعلها مطواعة للمآرب الآنية لطبقة حاكمة او مهيمنة ·

ان تقريرنا بان المرحلة التي نمر بها بالغة الخطورة ينطوي على قراءة للتحديات الراهنة التي تواجه الامة العربية ، كون هذه التحديات تستوجب منا ردودا وتجاوبا اوضح واشمل واسلم · الازمة اذا تكمن في الفجوة بين طبيعة التحديات التي تجابه مصيرنا ومستوى التجاوب · انها الفارق بين ما هو كائن وبين ما يمكن ان يكون · هذا ما نعرف به الازمة · الا ان ما هو اخطر في واقعنا الراهن هو ان الازمة ليست عادية بل هي ازمة بالغة الخطورة ، بمعنى ان الازمة ليست فقط الفارق بين ما هو كائن وما يمكن ان يكون ، بل ايضا بين ما هو كائن وما يجب ان يكون ·

لذلك لا بد لنا ان ندرك طبيعة الازمة وخطورتها وعناصرها · فاذا نحن

ادركنا ما نحن فيه من ازمة ووعينا ابعادها ، كان هذا هو المدخل لبدء حلهـا وتجاوزها · من هنا فالتشخيص في هذا المضمار هو مفتاح المعالجة ·

اين نحن والى اين نسير ؟

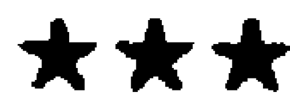
لا بد من اكتشاف اجوبة على اسئلتنا ، لان السؤال بدون جـواب يجعـل المخاض الذي نحن فيه بدون هدف ، ويجعل الحركة بدون امل صيرورة ·

وحتى يطرح مثل هذين السؤالين فيعني ان ما كنا عليه وما نحن فيه جعلنا في حالة من الضياع تستوجب منا عدم الاستسلام الى التيه ، بل تفرض علينـا ضرورة التوجه الى اكتشاف مواقع انطلاقنا حتى نتمكن من ان نسير بخطـوات مدروسة نحو تحقيق اهدافنا ·

نقول هذا لانه في الساحة العربية اليوم لا توجد بالقدر الكافي ـ وفي بعضـ الاحيان لا توجد ـ مقومات الوصول الى القرارات التي من شانها ان تستوعب حصيلة مشاركة الشعوب في تقرير المصير · لان قضايا المصيـر تستوجـب المشاركة على اوسع نطاق حتى يكون القرار الذي نتخذه مستوفيا الشـروط التي تؤمن جدواه وفعاليته ·

هذا يعني ان كل قرار يجب ان يسبقه منهج يجيز لاصحاب الراي الاخـر الاعتراض على الطروحات · فكل نهج يحول دون المخالفة او حـق المعارضة يشجع عند صاحب الرأي او التحليل الارتهان لاخضاع الحقائق من اجل تثبيت القناعات المسبقة عند صانع القرار · في حين ان المنهج الذي يتيـح تعرض صانعي القرارات ـ لمختلف البدائل والاحتمالات بحيث تطرح دون رقابة ذاتية او رسمية ، عندها يجيء القرار مستوعبا لنقائضه ، التحليل الذي اعتمد محصلة لهذه الحقائق ، لا مجرد تقييميه للاراء المسبقة او لمزاجية القائد او القيادة ·

نقول هذا لان الالتزام غير المسلح بالحقائق والتفاصيل ، اي الالتزام المنسلخ عن المنهج الديمقراطي يرشح الفكر الثوري والعمل الثوري لانتكاسات وهزائم يمكن تجنبها والتقليل من احتمالاتها ·



ان كثيرا من انتكاساتنا القومية لم تكن وليـدة فقـدان الالتـزام المبدئي ولا ضالة الاستعداد للانضباط والعمل عند الجماهير والطلائع ، بل كانت نتيجـة محتومة للتفويض غير المشروط الذي تمكنت ان تنتزعه معظم القيادات القومية والثورية في الوطن العربي · فبمقدار ما كانت تندفع الجماهير في العطـاء والبذل ، كانت القيادات تحجب عنها فرص المشاركة الحقيقية ، فينتج عن ذلـك

ان تكون لدى الجماهير طموحات كبيرة وخيبات كبيرة · هذا التأرجح بين الزخم في الاندفاع والتقلص في المشاركة ارهق الجماهير لدرجة كادت ان تفقد ثقلها في الاحداث وان تشكل باستمرار الاداة الضامنة للعلائق الوحدوية في الوطـــن العربي . مما اتاح للتيارات الانعزالية الاقليمية والطائفية والعرقية ان تتجرأ على الجماهير وحركتها وان يبهت المناخ القومي الذي هو في نهاية الامر القيمــة الحقيقية للعرب دوليا وانسانيا ·

★★★

اننـــا اذ نستحضـــر هـــذا الواقـــع المتـردي بشتـــى سلبياتـــه . انما نفعـــل ذلــك ليس مـــن اجـل زرع اليــأس ، بـل مـــن اجـل التحريض · وعندمـــا يكون هدفنـــا التحريض فهـــذا يؤكـد وجـــود طاقات تريد ان تعيد الى حيز الفصل ما ارادت الامبريالية والصهيونية والرجعية ابطـــال مفعوله · ولعلنا في الوطن العربي احوج ما نكون الى تجديد التوجه نحـــو الجماهير ، واعادة نشر المناخ القومي العربي حتى نتمكن جميعا من تجـاوز العوامل التي تقوقعنا في الافاق الضيقة والتي تضعنا في الاطر المحصـــورة والمحاصرة في نفس الوقت ·

قد نتساءل، ما هي علاقة منهج التحليل واشاعة المناخ القومي بما نحن مقبلين عليه في الايام والاسابيع القليلة القادمة ؟ اليست خطورة المرحلة القادمة ، تطرح من المشكلات ما يكفي ، خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية فلماذا الفـــرق في مشاكل جديدة وصياغة هذا الربط بقضايا قد تكون مهمة جدا غير انها لا تبدو ذات علاقة مباشرة او عضوية بما نحن مهتمين به آنيا ومرحليا ·

ان هذا التشكيك بجدوى ربط المرحلة بخلفياتها ومستقبلياتها يسقط قدراتنــا على فهم حقيقة المرحلة · فالمرحلة القريبة القادمة بالغة الخطورة لانها تمســ مستقبلنا بشكل مباشر ، فالقوى الضالعة في المؤامرة على قضايانا المصيريــة وعلى امتنا العربية تراهن على مساهمتنا في ان يجيء الحســم في المرحلــة القادمة وطاقات الامة هي في حالة من التشتت والتبعثر بحيث ترسو المعادلات المستقبلية في المنطقة على اساس موازين القوى الراهنة ، وليس على اساس ما تختزنه الامة العربية من طاقات تغيير لهذه الموازين لصالح حقوقها القوميــة والوطنية المشروعة ·

اذا كيف نتعامل مع المرحلة القادمة ضمن الاوضاع القائمة ؟ اننا لا نتمكـــن من احداث التغيير الجذري المطلوب قبل ان تداهمنا تحديات المرحلة القادمة · من هنا الخطورة البالغة التي اشرنا اليها مرارا · هل يعني هذا ان نتيح لما هو

حاصل في المنطقة ان يستنفد ذاته او هل نتعامل مع هذه المرحلة بهدف تقليل الخسائر او حتى انجاز بعض المكاسب • اسوأ الخيارات هو الغياب المقصود ، لكن الخيارات المتوفرة تتيح امكانيات محدودة • لذلك علينا ان ندخل المرحلة القادمة وأعين الثورة مفتوحة لان المرحلة القادمة لن تنجز مطلقا الحد الادنى مما قد تقبله • الا ان دورها هو انه تفوت على اعدائها فرصة انجاز حتى الحد الادنى مما ترفضه •

ماذا يعني هذا ؟

يعني ان على الثورة الفلسطينية ان تعبر عن الطاقات الثورية الكامنة في الامة العربية • بمعنى اخر ان الثورة الفلسطينية مطالبة بان تتعامل مع المرحلة القادمة من واقع تداخلها مع الطاقات الجماهيرية لا من واقع تعاملها مع الانظمة العربية • هذا لا يعني بالطبع ان تكف الثورة عن التعامل بل بالعكس فان المرحلة القادمة تستوجب منها تكثيفا في التعامل مع الانظمة شرط ان لا تقع في مأزق التصرف كاحد هذه الانظمة •

هذا من شانه ان يقوي المركز التفاوضي للانظمة بحيث تنضبط في الالتزام بالمطالب والمصالح القومية ويضعف من نزوعها نحو التفرد او الانجذاب الى مسالك تمعن في تمزيق وحدة الامة ومصيرها •

لذلك فالثورة الفلسطينية اذ تنسق مع هذه الانظمة فانها في الواقع تشكل اللحمة الحائلة دون ان يحسم مصير المنطقة بما يكرس واقع التردي بدلا من ان تجيء اية تسوية وموازين القوى الجديدة تعبر عن طاقات العرب لا عن واقعهم الراهن :

يتبين لنا اذا ان المرحلة القادمة ليست فقط بالغة الخطورة بل هي ايضا بالغة التعقيد • فمن جهة عرب المواجهة لا بد ان يتحقق المفهوم القومي بحيث تنتظم كل الاقطار العربية في اطار المجابهة • فمجابهة اسرائيل لا يمكن ان تكون مسؤولية القيام بها محصورة في الاقطار المواجهة لها • قد تكون هذه الاقطار هي المعرضة مباشرة لكنها ليست وحدها المعنية مباشرة •• ان تصنيف العرب الى عرب مواجهة وعرب مساندة هو احدى الاخطاء الجسيمة التي افرزها انتشار النهج التقسيمي • ان المناخ القومي الذي ندعو اليه من شانه تعزيز العوامل التي تجعل العرب ــ كل العرب ــ مشدودين لواقع المجابهة المصيرية • ان دور الثورة الفلسطينية في هذا المضمار ، كان ويجب ان يبقى ــ في ان الثورة تصورت نفسها طليعة للطاقات العربية الشاملة وليس كونها ثورة ذاتية • من هنا تصبح المسؤوليات المتوقعة من الاقطار العربية في عملية المجابهة والتصدي مسؤوليات عضوية لا مجرد مسؤوليات تضامنية • فدور الثورة الفلسطينية ،

هو في تحويل العلاقات بين الاقطار العربية من محاورها المتنافسة والمتناقضة الى علاقات قومية مؤسسة ومتهيكلة ·

عندما تتحقق خطوات جادة في هذا المضمار ، يستعيد العرب التزامهم بأولوية القضية الفلسطينية بحيث يصبح سلوكهم مبنيا على كون اسرائيل هي العدو الاول وليست كما هي الحال الان ، اذ يتصرف معظم العرب ضد بعضهم وكان اسرائيل هي العدو الثاني · لعل هذا الوعي لضرورة تنظيم العلاقات العربية واستقامتها هو الذي دفع بقيادة الثورة ان تنشط في وساطاتها بين الدول العربية ـ مثلما حصل بين مصر وليبيا ـ فقد ادركت قيادة الثورة الفلسطينية ان كل تناقض عربي يؤدي الى تصادم هو في نهاية الامر نزيف في قدرة العرب على المجابهات المصيرية · من هنا فان الثورة الفلسطينية تصبح بوصلة الوحدة القومية للعرب اذ انها تدرك ان قضيتها اكثر القضايا تضررا نتيجة التردي في الواقع القومي واكثر القضايا انتفاعا في حال انتظام الواقع القومي واستقامته·

اذا تمكنت الثورة الفلسطينية في المرحلة القادمة ان تنجز للعرب اعادتهم الى المناخ القومي ، فلا بد ان يشهد الواقع العربي تغييرا ان لم يكن في بنيته فعلى الاقل في توجهه العام · بمعنى اخر فاللحمة التي تشكلها الثورة الفلسطينية في الواقع العربي تحمل في طياتها تنظيم الثورة القومية بحيث تصبح اداة اسراع في عملية الثورة التغييرية في الوطن العربي بأسره ·

فالمناخ القومي الذي اشرنا اليه يعيد الى القناعة العربية بكون الثروة المتواجدة في عدد من الاقطار ليست مقصورة على هذه الاقطار · ان مناخ التجزئة في الوطن العربي اوجد في العلاقات بين الاقطار العربية اوضاعا شاذة بحيث ان ملكية الثروة لم تعد للوطن العربي بأسره بل للاقطار المتواجدة فيها · ينطبق هذا بشكل خاص على الدول النفطية العربية التي نتيجة هذا المفهوم القطري الاضيق للثروة ابعدت هذه الاقطار عن العلاقات الاقتصادية الافقية بين العرب وغلبت عليها العلاقات الثنائية العمودية مع الدول الصناعية·

ان المرحلة القادمة تستوجب ترجيحا لمزيد من العلاقات الافقية بين الثروة ومقتضيات الثورة ان لم يكن الحسم في هذا الاتجاه · ان التحدي الاسرائيلي في المرحلة القادمة يكمن في مركزية موقع قراراته في حين ان تعددية مواقع التوجيه والقرار في الوطن العربي تؤدي الى المفارقة الخطيرة التالية : ان اسرائيل اقل في امكانياتها على الحركة واكثر قدرة عليها في حين ان العرب اكثر امكانية على الحركة واقل قدرة عليها · وهذا يعود الى فقدان التنسيق الملزم الذي يوجده المناخ الوحدوي · من هذا المنظور نستطيع ان نكشف حقيقة موازين القوى فى المنطقة بحيث ان التفوق العربي ديمغرافيا تتضاءل فعاليته

بمقدار التفسخ في الارضية التي يتبلور عليها القرار العربي · في حين ان تماسك الجسم السياسي في الكيان الصهيوني يمكنه من تعويض ما يفوته كما ·

يتضح لنا اذا ان اي دخول عربي في المرحلة القادمة البالغة الخطورة يجب ان يتواقت ويتلازم مع خطوات تنسيقية ملزمة تستهدف الوحدة في مراحل لاحقة ·لذلك باستطاعتنا القول ان المرحلة القادمة انتقالية اكثر مما هي حاسمة· وهكذا يجب ان تكون لان اي حسم في المرحلة القادمة دون ان نكون قد استكملنا شروط المناخ القومي ومعطيات العمل العربي الموحد **يعني الزامنا بما هو دون الحد الادنى من التزاماتنا ·**

يستتبع هذا ان خطورة المرحلة القادمة تتضاءل بمقدار ما نسعى الى جعلها مرحلة انتقالية ، وتزداد بمقدار ما ينشأ تساهل عربي في قبول المرحلة بانها قادرة على الحسم لصالح الموازين والمعادلات الراهنة في المنطقة ·

ما هي اذا استراتيجية العرب في المرحلة القادمة ؟ هل هي مجرد تراكم ردود فعل على مسلسل الاستفزازات الاسرائيلية المتزايدة في صفاقتها ؟ ام هي حصيلة معالم ادراك عربي مستجد لضرورة ردع التمادي الاسرائيلي من خلال تنامي توحد العرب وانتظامهم في جبهة متماسكة ، الى جانب متابعة الرد في كل المجالات على ما تقوم به اسرائيل من تحد وخرق للشرعية الدولية وان نقطة انطلاق اية استراتيجية عربية يجب ان تنطوي على نفاذ الى ان الحكم الراهن في اسرائيل يختلف نوعا عن الطغمة الحاكمة في الماضي، بل هو النتيجة المنطقية الواضحة للالتزام الصهيوني · الفرق يكمن في قراءة بيغن للعرب بحيث يتصور ان استعجال تحقيق الهدف الصهيوني ــ توسعا وعدوانا واستيطانا ــ من شانه ان يمعن في تلاشي معالم الوحدة بدلا من دفعها نحو مزيد من الترسخ والتاكيد · في هذا المضمار يعمل بيغن على اقناع حليفته الوحيدة الولايات المتحدة (من موقعه الاستعلائي العنصري) بان التردي العربي ليس ظرفيا او استثنائيا بل هو نمط مستمر وعادي · لذا فان استراتيجية عربية للمرحلة القادمة تستوجب توجها ذاتيا نحو مستوى جديد من التعبئة القومية تغلب على اثرها المعادلات القائمة بحيث يكون توجهنا الذاتي ضامنا لمناعتنا المتزايدة، وبحيث يكون باستطاعتنا اعادة فتح ملف القضية الفلسطينية باسره · هذا بدوره يعني ان طبيعة المجابهة في المرحلة القادمة تشمل مجابهات على مستويات ذاتية ــ بالمعنى القومي ــ ودبلوماسية بمعنى احكام طوق العزلة على اسرائيل وعقائدية بمعنى ان توصل الى مختلف قطاعات العالم ان سلوك اسرائيل الراهن تمليه معطيات الفكر العنصري والفاشي · من هذا المنطلق لا تعود اسرائيل قادرة على الاستمرار في عملية الابتزاز التي اصبحت مدمنة عليها

بحيث تنتزع من المجتمع الدولي ـ وخاصة الاميركي والغـــربي ـ معاملـة استثنائية (لم تعد تلقاها الانظمة العنصرية والفاشية الباقية على قيد الحياة) · تضعها خارج الحساب والعقاب ·

الا ان امكانياتنا في اعادة فتح ملف القضية الفلسطينية متوفرة في مـــدى ما نستطيع ان نخطو خطوات جدية وحدوية شاملة · ولعل اولى مهمات الثورة الفلسطينية في المرحلة الراهنة هي في التصدي المباشر لما تطالب به الولايـــات المتحدة من تعديل في ميثاق منظمة التحرير · ان المطلوب هو تخلي اسرائيل عن قانون العودة بحيث انالنتيجة المنطقية لهذا القانون هو مثابرة التهويد والاستيطان على حساب الخرق المتواصل لحقوق الشعب الفلسطيني في العودة وفي تقرير المصير · واذا كان الميثاق قد حدد هدف الثورة قيام دولة ديمقراطية علمانيـــة في الوطن الفلسطيني فانه لم يستثن اليهود المتواجدين في هذا الوطن · الا ان قانون العودة الصهيوني حصر هذا (الحق) باليهود مكرسا شرعة التمييـــز العنصري بشكل لا سابقة له الا في بعض اوجه التجربة النازية · واذا كان هناك ثمة اعتراض على بنود وردت في الميثاق الوطني الفلسطيني حول اي من اليهود لهم احقية في الوجود الفلسطيني ، فهذا تقرير لواقع تاريخي بحيث ان الذيـــن استوطنوا وجاؤوا معمرين لا يستمد انتماؤهم من حق اساسي · الا ان الميثاق من حيث المواد الاجرائية فيه تجاوز هذا التحديد بالدعوة لقيام النظام العلماني الديمقراطي من هنا فالتصدي العقائدي مطلوب ، لان السلوك الذرائعي المحضـ الذي يسقط مثل هذا التصدي يتيح لاسرائيل الصهيونية ان تعمل ـ كما تعمل ـ وكأننا عوائق بشرية امام صيرورتها بدلا من ان تكون حركة تحرير لشعبنا العربي من مؤسسات عنصريتها ·

لكن الموقف العقائدي لا بد ان يكون موقفا عربيا متكاملا لان عروبة مثـــل هذا الموقف تمكننا من تزويج الموجبات العقائدية مـــع الضرورات الواقعيـة الراهنة وما يفرضه المنهج الذرائعي · اذا لم يتم هذا التزاوج بين مقومـــات التصدي العقائدي والسلوك الذرائعي عندئذ يدخل الشرخ الذي يقيم تناقضـا بين الذرائعية والعقائدية ·

المطلوب فورا هو مؤتمر قمة للاقطار العربية تتحدد من خلالـــه معالـــم استراتيجية المرحلة القادمة وينشأ عنه صيغة تنسيق ملزم لمجابهة العدو الاول ـ اسرائيل · اما اذا اختلفت نظرتنا الى ما هي الاولويات التي تجابهنا ، فان عوامل التجزئة سوف تستمر في التجرؤ على قضايانا المصيرية · ونكـــون قد فوتنا على انفسنا فرصة متوفرة لنا لردع اسرائيل والحد من غطرستهـا ودفعها نحو التآكل الذاتي · اما اذا لم نتمكن من انجاز هذه المهمة البديهيـــة تكون المرحلة القادمة بالغة الخطورة بكل معنى الكلمة ·

وحيث ان الثورة الفلسطينية بابعادها العربية الشاملة لن تتخلى عن التزاماتها التاريخية ، فانها ستعمل جاهدة مع جماهير الامة العربية على التقليل من الخسائر ريثما تستعيد الامة العربية انفاسها الوحدوية من واقع التردي الراهن · ان التقليل من الخسائر قد يكون واجبا مكتوبا على الثوار الحقيقيين في مراحل التردي لكنه بالتاكيد ليس تعبيرا عن طموحاتهم ·

معـــين بســيسو

دفـــاتـــر فلسطينيـــة

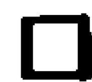
[··· على عشرة دفاتر من ورق لف السجائر كتبت هذه اليوميات ، وتم تهريبها بواسطة احد السجانين من معتقل الواحات الخارجة ·

وهذه اليوميات تتوقف في مارس ١٩٦٣ ، حيث تم الافراج عن اخر دفعة من المعتقلين الفلسطينيين ، وعددهم سبعة ، من السجن الحربي ···]

بيروت ـ اغسطس ـ ١٩٧٧

النزول الى الماء

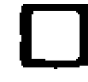
علمتني الزنزانة السفر لمسافات بعيدة ، وعلمتني ايضا الكتابة لمسافات بعيدة · فالسجين دائما يسافر بيده في الماء ويحاول الكتابة بصوته · ثلاثة اشهر لم نر فيها لا جريدة ولا كتابا · احد المعتقلين لتخفيف هول العذاب ، طلب القرآن فأحضروا له التوراة ؟ قالوا : ان الزنزانة نجسة ، والقرآن لا يدخل الزنزانة · هكذا فرضوا علينا نحن المعتقلين الفلسطينيين في السجن الحربي آلهة اسرائيل · وهكذا عاد شمشون الاسرائيلي من جديد · لقد تركناه في غزة كومة من الحجارة فوقها قبة صغيرة ما تزال حتى الان الى جوار المدرسة الوطنية فأعادوه لنا الان سجانا في السجن الحربي ·



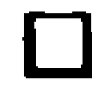
على حائط الزنزانة يكتب المسجونون اسماءهم ، يحفرونها بزر قميص او بمسمار · اول ما يفعله السجين هو ان يكتب اسمه على حائط الزنزانة · انه دائما يكتب اسمه وتاريخ دخوله السجن والوطن الذي جاء منه ، وكبشارة للسجين الذي سيأتي للزنزانة بعده فالسجين دائما قبل خروجه يكتب تاريخ الافراج عنه كأنه يريد ان يقول لابنه او لحفيده السجين القادم :

ـ ما سجن انبنى على سجين

ولا مستشفى انبنت على مريض ···



عليك ان تسافر فباب الزنزانة في السجن الحربي يفتح ثلاثة مرات في اليوم · مرة في السادسة صباحا حينما تمد يدك وتتناول (القروانة) وفوقها الرغيف وبعدها تخرج جردل البول · فمسافة العشرين مترا الى دورة المياه كان ممنوعا على السجين ان يمشيها · فهم لا يريدون ان تتذكر ابدا انك كنت تمشي ذات يوم · انهم في حرب مستمرة ضد ذاكرة القدم · ويفتح باب الزنزانة في الواحدة بعد الظهر على القروانة نفسها وفوقها الرغيف · الكلب البوليسي (لاكي) كان قد أكل قطعة اللحم في حجم رأس الدجاجة · في الشهر الرابع كان (لاكي) يمضغ قطعة اللحم فقط ويبصقها الى جوار القروانة ، وعليك ان تمد يدك وتتناولها وتأكلها امام السجان · كان (لاكي) هدية من (ألمانيا الغربية) ، ضمن برنامج المساعدة الاقتصادية وفي الواقع فقد أكل من اللحم وشرب من المرق أكثر بكثير من الذي قدمته المانيا الغربية لانعاش الفلاحين المصريين · وكما ان الكتابة تجيء في خطوط مستقيمة ، هكذا تعلمنا الكتابة · غير ان الزنزانة تعلمك كتابة جديدة · والزنزانة تفتح للمرة الثالثة قبيل الغروب · القروانة نفسها وفوقها الرغيف ويغلق باب الزنزانة بعدها حتى السادسة صباحا ·



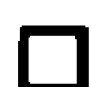
الجاويش (حسن المشرف) في سجن مصر العمومي والمشرف على المعتقلين الفلسطينيين في الدور الارضي ، كان يقشر الموز امام باب كل زنزانة ويبتلعه اصبعا بعد اخر وهو يقول :

ـ هذا موز تعلموا ايها الجواميس ·

اما الجواميس فقد كانت اريحا على خريطة وطنهم ، واوراق الموز كانت

أقماطهم حينما يولدون · ولكن الجاويش (حسن) لا يعرف الجغرافيا · وبدل ان يعلموه كيف يقرأ ويكتب ، علموه كيف يضرب · هذا التعس الذي وضعوا الكرباج في يده . كان له ولد في الجامعة في يده قلم · وحينما تم ترحيلنا من سجن مصر العمومي الى سجن القناطر الخيرية ، بكى الجاويش حسن وقال :

ـ لقد اخبرني ولدي انه يوجد في بلادكم موز ·



على حائط كل زنزانة يحاول السجين ان يرسم سفينة او طائرا · فالسفينة في السجن هي دائما هدية السجين القديم للسجين الجديد :

ـ لن يتمكنوا من قتلك ما دمت تسافر ·

انها وصية السجن الخالدة · والسجان (الجوهري) كان يريد ان يسافر هو الاخر خارج اسوار السجن الحربي · فالسجان يعتبر نفسه سجينا ، وهو سجين بالفعل فطول نهاره وليله في السجن · ولان وصية السجن الخالدة تنطبق عليه ، فلقد كان السجان (الجوهري) يسافر بصوته · في الليل كان يغني لنا ، كان يغني للمعتقلين الفلسطينيين الذين ضربهم وجعل الكلب (لاكي) يعضهم · كان (لاكي) يعضك في صدرك وفي ظهرك ، في كتفيك وفي فخذيك دون ان تسيل قطرة من الدم ، كأنه كان يضع قفازات في أنيابه ، هكذا علموه كيف يعض حتى لا يتمكن السجين من النوم لا على صدره ولا على ظهره ·

ـ انت واقف يا ابن الكلب اقعد ·

ويقعد المعتقل الفلسطيني الذي تعود القعود خارج ارضه ·

ـ انت قاعد يا ابن الكلب قف ·

ويقف المعتقل الفلسطيني الذي تعود الوقوف خارج ارضه ·

هكذا كنا نقعد ونقف طول النهار وجزءا كبيرا من الليل · والسفر كان مستمرا ايضا طول النهار وطول الليل ايضا · مرة واحدة في الاسبوع كانوا يقدمون لنا بيضة عند الفطور · فجأة تتذكر انه يمكن ان يخرج من البيضة شيء ما ، فاذا كنت لا تستطيع ان تحطم قشرة الزنزانة وتخرج ، فهنالك شيء ما يمكن ان يحطم قشرة البيضة ويخرج · لم آكل البيضة ، وكنت اتصور طول الوقت ان منقارا صغيرا سيضرب القشرة ذات يوم · ولقد طال انتظاري ·

في الزنزانة انت لا تريد ديكا يصيح ، ولكنك تريد سفينة تسافر · والسجان

(الجوهري) كان يريد ان يسافر في الليل ، ففي النهار كان عليه ان يضربنا لحساب الاخرين ، وفي الليل كان عليه ان يغني لحسابه الخاص · كان السجان يحب ·

قالوا انك تكتب الاغاني ·

تحس بالفرح ، فحينما يتذكر سجانك ان قلما كان ذات يوم في يدك فلعله ينسى الكرباج ولو لدقائق في يده ·

اعطاني اول سيجارة في اليوم الخمسين وقال لي :

ـ اكتب ·

ـ اكتب ماذا ؟؟

ـ اكتب اغنية لي ·

وكتبت اول اغنية مقابل سيجارة · في الاسبوع الثاني حمل السجان اول رسائلي ، فلقد اعطاني قلما وورقة ، وكتبت الرسالة الاولى وارسلتها معه ، وكانت الى خطيبتي (انتصار) ، وكانت اول مشروع عروس فلسطينية ومصرية تدخل السجن الحربي ·

هكذا تحول السجان الى ساعي بريد في السجن الحربي ·

ـ ايها الكذابون لا يوجد معتقل فلسطيني واحد في مصر ؟؟

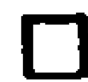
كان الصوت صوت (احمد سعيد) ، وكان يرتفع من اذاعة صوت العرب ،

وكنا نسمعه جميعا في الزنزانة فلقد تمكنا من تهريب راديو ترانزيستور ، كان (احمد سعيد) هو الماركة المفضلة للراديو العربي في ذلك الوقت ، وكان يوجه صوته لهواء ثورة ١٤ تموز في العراق في ذلك الوقت ايضا ·

« خليل عويضة » المشرف العام على التعليم في مدارس اللاجئين في قطاع غزه والمعتقل ايضا لانه رفض ان يعترف بحذاء الشرطي سمكة في بحر غزه ، ودافع عن اصبع الطباشير في يد الطفل الفلسطيني ، صاح وهو يصغي الى صوت احمد سعيد :

ـ انه يكذب ··· يكذب فنحن في السجن الحربي ·

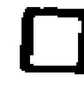
في ذلك الوقت كانت المطبعة تكذب وكان الهواء يكذب ايضا ، ورغم ذلك فلقد أنقذنا الهواء القادم من راديو ثورة ١٤ تموز ·



تسافر ٠

يعوم صوتك في الماء ٠

وانا في السابعة اراد عمي (احمد) ان يعلمني السباحة ٠ كان يملك زورقا صغيرا ووضعني في الزورق وراح يُجدف ٠ وفي وسط البحر امسك بي والقاني في الماء ، وشربت الملح وعرفت للمرة الاولى كيف اقاتل بذراعي وحينما اوشكت على الغرق ، اعادني الى الزورق لكي يلقي بي مرة ثانية الى الماء ٠ وهكذا تعلمت السباحة وانا في السابعة من عمري ٠ كان عمي يعلمني وهو لا يدري كتابة الشعر وانا مدين له حتى الان ، بهذه النيران ، التي تندلع طول الوقت من بين اصابعي . علمني كيف اقاتل ضد الماء وانا في السابعة من عمري ، والان وانا اقاتل معركة الورق والحبر اعرف ما قد فعل بي ٠ انهم يحتقرون الثعالب ولكنهم يشترون فراءها ، ويكابدون كثيرا في سبيل اصطيادها ، يحتقرون القصائد ولكنهم يشترون الشعراء ٠



في العاشرة من عمري اخذتني امي الى العرافة (ام حسن) لكي تطرد الشياطين التي تسكنني ٠ بعد ان وضعت يدها فوق راسي وحدقت في عيني ، صاحت:

ـ لا خوف عليه منها فهي شياطين طيبة ٠



صعود الجبل لا يتم في خط مستقيم وكذلك السفر داخل الزنزانة ٠ فحينما تسافر في مركب لاول مرة فعليك ان تتعلم اخطاء الموانىء واخطاء الجغرافيا ٠

كان سيد درويش هو القصيدة التي قاتلت بها وانا صغير واقاتل بها حتى الان ضد محمد عبد الوهاب ٠ عبثا حاول الدكتور « لويس عوض » ان يقنعني ان (احمد شوقي) كان اعظم من (المتنبي) ٠

اول من نشر لي قصيدة في مصر كان شاعرا مصريا اسمه : عبد الرحمن الخميسي ٠ واول من دافع عن ديوان شعري الاول كان صحفيا مصريا يكتب الشعر اسمه : كامل الشناوي ٠ كان « كامل الشناوي » هو اول من قدمني الى توفيق الحكيم عام ١٩٥٢ في مبنى الاهرام القديم ٠

اخرج كامل الشناوي ديوان « المعركة » من درج مكتبه وقدمه لتوفيق الحكيم وقال :

ـ اسمع ٠

وراح يقرأ قصائد ديوان « المعركة » :

ـ انا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح ٠

كانت القصيدة عن « عباس الاعسر » اول شهيد لحركة انصار السلام المصرية في قناة السويس عام ١٩٥١ ٠ في مطبعة (اورفند) تم طبع ديوان « المعركة » وظهر في السابع والعشرين من يناير ١٩٥٢ ، ظهر بعد حريق القاهرة بيوم واحد ، كان كل شيء يحترق وخرج الديوان يسجل رفضه للدخان ٠

لقد رسمته مجموعة من الرسامين المصريين : حسن التلمساني ، حامد ندا ، فريد كامل ، صلاح جاهين وصدر الديوان عن « دار الفن الحديث » التي كان يشرف عليها : ابراهيم عبد الحليم ٠

بعد ان قرأ توفيق الحكيم الديوان، طلب توقيعي عليه ، كان يتصور انني احمل مسدسا ولكنني كنت لا املك قلما ٠

كنت طالبا في الجامعة الاميركية في القاهرة حينما ظهر ديوان « المعركة » وكتبت عنه « بنت الشاطيء » مقالة في جريدة الاهرام ـ لا ادري كيف ـ ٠ من جريدة الاهرام شقت قصائد الديوان طريقها الى مجلة « الرسالة » ٠ كان « احمد حسن الزيات » يضعها بعد الافتتاحية ، وحينما اغراني عبد الرحمن الخميسي بالذهاب الى مجلة الرسالة لقبض المكافاة ، اصر « احمد حسن الزيات » على ان يرى الشاعر الذي كتب هذه القصائد ٠ كان يظن انني جئت اليه دكتورا من السوربون ، فاذا بي ذلك الطالب في الجامعة الاميركية ٠

ليرحم الله كثيرا الدكتور « زكي مبارك » ـ من يذكره الان في مصر ـ ؟ كان يخلط العرق بالكوكاكولا في بار التوفيقية ويصيح :

ـ لن يهلك الشاعر ما دامت الدموع في عينيه ٠

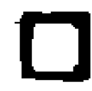
كنت ابكي كثيرا كلما ذبحوا دجاجة في بيتنا ، وكنت أصرخ :

ـ لن ترتكب غلطة اخرى ٠

المؤذن « خليل » كان يصعد بي الى المئذنة وانا في الثامنة من عمري ، لاول مرة ارتفع فيها عن الارض ٠ يائيل دايان الكاتبة الاسرائيلية وابنة الجنرال « موشي دايان » تعتقد ان الارتفاع عن الارض لا يتم الا بواسطة قاذفة قنابل ٠

□

في بيت جدي لابي كانت صورة جدي تحتل صدر الدار ، وكنت اظـــن طول الوقت انه هو الله · وعرفت فيما بعد ان الله لم يصوره احد بعد ، فصورتـه ممنوعة من التداول · الذي صورره كان دائما شخصا معلقا فوق حائط · كنت أحس دائما انه يريد ان يضع قدميه على الارض ويمشي ، لقد تعب من التعليق فوق الحيطان وفوق الاعمدة ، وبدل الشمعدان كنت احس انه يريد حذاء · لقد بدأ الفلسطيني يعرف ان الله الذي رسموه فوق الحائط لا يريد شمعدانا ولكنـه يريد حذاء ·



المطر هو اعظم اصدقائي ، وحينما كان يسقط المطر كان يتسرب الى قفـــل الزنزانة ويفتحها فتخرج · والسفينة دائما تقف امام باب الزنزانة في انتظارك · تسافر الان في القمح ·

حينما تخلط لونين يخرج لون ثالث ، فماذا كان يحدث حينما كان السجـان يخلط بكرباجه مائة صرخة لمعتقل ؟ ·

العذاب دائما يأتي من خارج الزنزانة ، فحينما يبدأون في تعذيب جارك فـي الزنزانة المجاورة ، يبدأ العذاب بالنسبة لك ، انك تنتظر دورك وهم يعرفون كيف يطيلون عذابك في الانتظار ، فقد لا يأتي دورك في هذه الليلة ولكن السنـــة النيران قد بدأت تشتعل في عظمك · كل صرخة تأتي اليك من خارج الزنزانـــة لسان نار · دخان النيران يتسرب من جسد جارك المعتقل · انهم يذبحونه بالنار ويخنقونك بالدخان ·



الدخان يتسرب الى الزنزانة ابرا ومسامير · انهم يدقون الدخـــــان ابـــرا ومسامير في عظامك · لقد ادخلوك في التجربة ويجب ان تتذكر شيئا ما لكـي تتمكن من المقاومة · تدخل كل الاصوات الى زنزانتك مختلطة كأنها صراخ البـــط البري حينما يسقط في الشرك ·

ـ محمد مهدي الجواهري ، لماذا يحوم كل هذا الذباب الازرق فوق اصابـع يديه الان ؟ لقد دخل مصر بدعوة شخصية من الدكتور طه حسين حينما كـان وزيرا للمعارف في عهد الوفد المصري·· الدخان يتحول الى ذباب · صدقي باشا يدخل البرلمان المصري وفي يده ديوان « اصرار » للشاعر المصري كمال عبـــد الحليم ، وهو يصرخ :

ـ الشيوعيون في شوارع القاهرة ؟

في ذلك الوقت كانت القصائد في شوارع القاهرة ٠

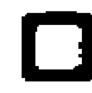
كانت امي تخبىء قطعة كبيرة من اللحم لفؤاد نصار ، عندما كان ياتي في منتصف الليل ٠

ـ انه يتعب كثيرا ٠

ولقد كان فؤاد نصار يتعب كثيرا ، كان اول من وضعني امام الميكروفون في اول اجتماع جماهيري لعصبة التحرر الوطني في سينما السامر في غزه وعرفني على اميل توما واميل حبيبي وقال لي :

ـ تكلم ٠

كانت المرة الاولى التي ارى فيها الشاعر عبد الرحيم محمود ، وجهه كان يشبه التفاحة ٠ كان فلاحا فلسطينيا يكتب بالمحراث ٠ هذا المحراث الفلسطيني ترك لنا جسده لكي نلقي فيه ببعض البذور ٠ ومن الشبابيك المفتوحة دائما في يد عبد الرحيم محمود تعرفت على شاعر العصر الفلسطيني عام ١٩٤٦ : « ابو سلمى » ٠



ـ ان امك تموت ٠

القي بالدفاتر واركض الى البيت ، كانت امي ممددة فوق السرير والى جوارها كان ابي وعمي احمد عاصم وخالاتي الثلاث والطبيب والتصقت بها ورفضت ان اترك الفراش ٠ كانت في حاجة الى شيء ما وكنت احس ان في استطاعتي ان اقدمْ لها هذا الشيء ٠

في الثامنة من عمري تبعت « ثلجة وعبد الرحيم » كانا غجريين يمشيان على الحبل ، ولقد ارضعتني هذه الغجرية التي كانت تمشي على الحبل ، كانت ترضع طفلها وكنت عطشان فلاحظت عيني فأرضعتني ٠ من يومها علمتني وهي لا تدري كيف امشي فوق حبل من النار ٠

في الصباح حدثت المعجزة وعاشت أمي ٠ كان عليها أن تقاوم من اجل شيء ما فقاومت من اجلي وعاشت ٠

السجان يمسح كفه في حائط زنزانتي ، كان على اصابعه دم « فريد ابو وردة » ٠

حمزة البسيوني قائد السجن الحربي يأتي الان ، يأتي في اللحظة المناسبة ، فالصراخ يأتي من الخارج وهو يصرخ من الداخل :

ـ اكتب فقط انك لست شيوعيا ٠

انهم يعطونك القلم الان ، اولئك الذين كسروا اصابعك ، يعطونك الورقة الان اولئك الذين جردوك من ثيابك ٠ اولئك الذين لا يعترفون الا بانياب الكلاب البوليسية اقلاما لهم ٠ كانوا يريدون منك ان تكتب ٠ تتذكر عيني امك ٠ بحر غزه التي تعلمت فيه السباحة وانت في السابعة من عمرك ٠ انك ترى بوضوح وجه « فخري مرقه » ٠ كان يعمل جاويشا في مركز بوليس المجدل فوضع كل بنادق مركز البوليس في صندوق سيارة وهرب وانضم الى فصيل « الشيخ حسن سلامة » ٠

وانا صبي زرت فخري مرقة في سجن عكا ، كان محكوما عليه بالاعدام ثم حكموا عليه بالسجن المؤبد وهرب من السجن وجاء الى غزه عام ١٩٥٧ واحببته كثيرا وكان دائما يقول لي :

ـ الاغنياء لهم الله والبوليس ٠٠٠

والفقراء لهم النجوم والشعراء ٠

ـ اذا كنت لا تريد ان تكتب فتكلم ٠ قل فقط انك لست شيوعيا وسوف تخرج ٠

ولكن كل العالم كان سيسمعني لو قلت هذه الكلمات ٠

مخلص عمرو كان رئيس تحرير مجلة الغد وكانت صوت رابطة المثقفين العرب ٠

عاش اجمل ايامه شيوعيا ، وحينما كان شيوعيا علمني الكثير ٠

حمزة البسيوني يدق صوته كالمسمار في اصابعي ويصيح :

ـ قل انك لست شيوعيا وستخرج ٠

الزنزانة تمتلىء الان بالوجوه ٠ انك لست وحدك ٠ انهم يريدون ان يكسروا صوتك لكي يكسروا عظمك ٠ ويخرج حمزة البسيوني يتبعه الكلب لاكي والكلبة غولدا ٠ لقد اطلقوا عليها اسما اسرائيليا ، اما انيابها فقد كانت انيابا عربية اصيلة مسنونة من المحيط الى الخليج ٠

ـ قل انك لست شيوعيا وستخرج ٠

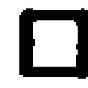
تتذكر الجريدة التي لفوا بها الباذنجان والفلافل ، ومن هول العطش للقراءة

اي شيء مكتوب ، تقرأ الجريدة الملطخة بالزيت ، وتستطيع ان ترى صورة الشاعر السوري شوقي بغدادي والقصيدة التي كتبها واخرجته من السجن :

ـ قد كنت ابنا ضال

يا عصبة الاوحال

وخالد الدجال ٠٠٠



المطر يسقط والدخان الذي كان يتسرب من اصوات المعتقلين ومن عظامهم قد اخذ يتلاشى في الماء ٠

وتبدأ السفينة تنزل الى الماء ٠ بذرة الخشب التي هي نطفة الشجرة تلقح الماء الان ويتمدد البرق كالجسد فوق سطح البحر والمعتقل الذي لا يملك منديلا يصنع بصوته اشرعة تكفي لكي تصنع قميصا لكل البحار ، يصبح الان هو القبطان الذي اخذ يستقر فوق الماء ٠

ـ الشعراء عينهم على القمر ويدهم على الرغيف وفمهم مع السفينة ٠

وينزل الفم الى الماء ، تنزل السفينة ويبدأ السجين يسافر ٠ يبدأ المطر يسقط ٠ الجراد الذي لا يستطيع ان يقضم الماء يحلم بالسمك ٠

ـ لقد نزل الفم الى البحر واصبح سفينة ٠

الدفتر الاول

ولدت في بيت جدي لابي في حي الشجاعية في غزه ٠ كان جدي من اجل مهابته يفرض على اولاده الثلاثة ان يسكنوا معه ، يتباهى بأنه ارسل ابناءه الثلاثة الى جامعة استانبول ٠ اما حينما كان يغضب على عمي الاكبر عاصم ، فقد كان يصرخ :

ـ ارسلتك الى استانبول لتعود بشهادة فعدت بحبل مشنقة ٠

عمي عاصم اول ما وصل استانبول اشترك في اصدار مجلة المنتدى العربي ٠ كان الطلاب العرب يتعلمون لغة السلطان التركي لكي يتآمروا باللغة العربية ضد الاتراك ٠

والقي القبض على عمي عاصم وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ·
أية عائلة ·

امي كانت تهرب الاسلحة عام ١٩٣٧ · وابي ذهب الى المخاضه في نهر الاردن ليعود بعبد القادر الحسيني وهو جريح في سيارته عام ١٩٣٨ · والعم محكوم عليه بالموت شنقا ·

يفلت عمي من حبل المشنقة بمعجزة · من يومها احببته · ـ فيما بعد ـ حينما كان الحاكم الاداري العام في قطاع غزه ـ اللواء عبد الله رفعت ـ يستدعيه لمكتبه لكي ينذره بأنه سيعتقلني اذا لم أكف عن نشاطي ، كان يعود الى البيت ويصرخ :

ـ انك تحطمنا ·

كانت زوجته ـ اخت امي ـ تقف دائما الى جانبي وتصرخ :

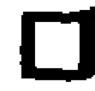
ـ لم يحكموا عليه بالاعدام مثلما حكموا عليك ·

دائما حينما كان يسمع هذه الجملة كانت عيناه تلمعان ويهمس في اذني :

ـ الشيوعية شيء خطر ·

وبالفعل كانت الشيوعية تشكل خطرا دائما وستبقى بالنسبة الى كل اولئك الذين كانوا وما زالوا يحاولون ان يفتحوا بيت فلسطين بالمفتاح الوحيد الذي يملكونه :

ـ الكرباج ·



في رمضان كانوا يحضرون شاعرا لكي يغني لهم سيرة (ابو زيد الهلالي) · كنت اجلس تحت النافذة واصغي للشاعر حتى خيوط الفجر الاولى · وما اكثر ما كنت امي تجدني ممددا تحت النافذة · من يومها احببت الشاعر واحببت ربابته · فيما كنت اهرب الى المقهى وانا في الثالثة عشرة من عمري لاستمع الى الشعراء الجوالين · هذه المخلوقات العجيبة التي كانت تتقمص شخصيات السلاطين والجن والابطال · في اخر الليل كانت الكراسي ترتفع والزجاجات تتطاير · لان (ابو زيد) سجين وانصاره في المقهى لن يتركوه سجينا ويمضون الى بيوتهم · وما اكثر ما ارغموا الشاعر بربابته على اطلاق سراح (ابو زيد) ·

من يومها احببت الشعراء الجوالين الذين كانوا يعتقلون الجن والملـــوك والابطال ويطلقون سراحهم ايضا ٠



كان ابي يأخذني معه دائما في موسم الحصاد وفوق كومة من سنابل القمـــح كان يضع فروة خروف ويغطيني بفروة اخرى وهكذا كنت انام وتحت رأسي سنبلة وفوق رأسي نجمة ٠

في ايام الحصاد كان والدي يدعو اصدقاءه ، يذبح خروفا لهـم ويأكلون ويشربون ويغنون حتى الفجر ٠

كل اصدقاء ابي كانوا من الصيادين وكان يحبهم كثيرا ، وهو اول من وضع البندقية في يدي وانا في الخامسة عشرة من عمري وعلمني على الزنـــاد ٠ واصطدت حجرا وهرب الطائر ٠ ولماذا يقتل الشعراء الطيور ؟ على الشعـراء ان يقتلوا الاسمنت ٠

كان ابي دائما يقول لي وانا امضي اوزع الطيور التي اصطادها علــى الجيران :

ـ كيس الصياد ليس له ، انه يصطاد لجميع الناس ٠

فى وادي (الشريعة) قناة صغيرة من الماء تفصل غزه عن بئر السبع ٠ كان يأخذني ابي معه الى الصيد وعلمني كيف احب الماء الذي تخرج منه الطيور ٠



فى نادي غزه الرياضي كانت بداية علاقتي بعصبة التحرر الوطني : محمـد خاص ، علي عاشور ، فتحي شراب ، فهمي السلفيتي ٠

اما فتحي شراب فقد اصبح يحمل الجنسية البريطانية فيما بعد ، وعصبـة التحرر الوطني التي ارسلته الى ـ براغ ـ عام ١٩٤٩ لكي يدرس فقد عــاد يهاجم عمال براغ الذين قدموا له الرغيف والكتاب ٠

فهمي السلفيتي كان مسؤولا عن العمال الفلسطينيين في المعسكرات البريطانية في لواء غزه ، رغم انه كان يركب دراجة ويتكلم كثيرا عن العمال ، كانــت قدماه تكذبان بالنسبة لي ، وحينما تكذب القدمان تكذب اليدان ويتحول الفم الى لص ٠

علي عاشور عضو اللجنة المركزية لحزب (راكاح) كان اول مسؤول لي في منطقة الرمال في غزة · اعتقله المصريون ثم جاء الاسرائيليون واخذوه معهم في احدى غاراتهم واصبح في حيفا ·

فائق وراد المدرس في كلية غزه كان يشبه دائما قطرة المطر ، وحينما يتحول الفلاح الى مدرس تتحول الاشجار كلها الى اصابع طباشير ·

حينما اصبح عبد العزيز العطي عضوا في عصبة التحرر الوطني كانت فرحتي الكبرى · كان ابن فلاح يمتلك بضعة امتار من الارض في قرية يازور · وحينما اصبح شيوعيا اصبح يمتلك الكرة الارضية ·

فؤاد نصار كان ياتي كل اسبوع الى غزه ، وفي مقر جمعية العمال العرب كنا نجتمع اليه على كراسي القش الصغيرة · كان يقول لنا دائما :

ـ العمال هم الوطن ·

وحينما كان فؤاد نصار يتكلم عن العمال الذين هم الوطن ، كان يعلمنا ان قيامة الارض تقوم حينما يقوم الفلاح · وبدأت رحلة عصبة التحرر الوطني في فلسطين من اجل قيامة الارض ·

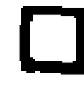
كان فؤاد نصار اول من قدم لي « ابو ذر الغفاري » وقدم لي بعده « عبد الله بن علي » صاحب ثورة الزنج وعلمني كيف احب « ابو سلمى » شاعر ثورة ١٩٣٦ وشاعر الحركة الوطنية الفلسطينية · ورغم مشاكل العمال الذين هم الوطن ، ورغم مشاكل الفلاحين الذين هم القيامة كان يجد متسعا من الوقت ليكلمني عن المتنبي · ابدا كان يرتبط بالشعر ، وحينما ارسلت مرة قصيدة لجريدة الاتحاد وكان فؤاد نصار يشرف عليها في ذلك الوقت ، نشرها المحرر الادبي في بريد القراء ، وهرعت لفؤاد نصار والجريدة في يدي ، والقيت الجريدة فوق الطاولة وانا اصيح :

ـ انظر ماذا فعلوا بي ؟؟

بعد ذلك بعامين في العشرين من ايار ١٩٤٨ كانت عصبة التحرر الوطني بقرار من فؤاد نصار توزع قصيدتي التي كان عقوبتها السجن المؤبد :

احد يمر كذبت لا احد يمر فلا حدود
انا لن ابدل حبل مشنقتي ولا زرد الحديد
لكنه مر الرصاص ، وخلفه مر الجنود
عصبوا عيونهم فما لمحوا القتال ولا الوحوش ···
كم دنشواي على مخالبهم ممزقة تعيش ···

ورفعت صوتك صارخا ، سدوا الطريق على الجيوش
فلاحنا اشحذتها هذي الشراشر للحصاد ...
قد اقبلوا واستبشر الملاك خيرا بالجراد ...
وسيذبحونك بالشراشر فوق اكوام الحصاد ...
كذابة هذي المدافع ... لا تصدق ما تقول ...
لم تحش بالزيتون او بالبرتقال ... او النخيل ...
بل بالحجارة والخيام وبالجبال ... وبالسيول ...
انا لست اقرأ كفك العطشى لاعرف ما المصير
بصمات الاستعمار فوق وجوههم وعلى الظهور
وعلى بنادقهم ، عرفت بها الخيانة والمصير
« اسدود » خندقه الاخير ، وليس خندقه الاخير
قد باع غزة قبل « اسدود » الاجير الى الاجير
ان عشت تبصرهم جيوشا ، من ظهور لا صدور
وانا وانت وكيف اجرؤ ان اقول ...
لولاهم لفرشت بيتك بالزنابق يا « ذهيل »
ولشب توفيق الصغير ومع « راشيل » ومع « راحيل » .



في اكتوبر ١٩٤٨ ذهبت الى قسم الاداب في الجامعة الاميركية في القاهرة . والقاهرة في ذلك الوقت كانت بالنسبة لي هي عبد الرحمن الخميسي ومجلة الرسالة التي كان نشر قصيدة واحدة فيها يجعل لك اسما في الشعر .

حينما وصلت القاهرة كان عبد الرحمن الخميسي مشغولا بكتابة « الف ليلة وليلة الجديدة » . وبعد ذلك شغلته القصص عن الفدائيين المصريين في قناة السويس .

ذات مرة اعطيته قصيدة لنشرها في جريدة المصري ، ولسوء حظ القصيدة غضب مني لانني قلت له انني افضل الف ليلة وليلة القديمة .

في الصباح وفي الصفحة الادبية التي كان يشرف عليها الخميسي ظهر اعلان عن احذية « باتا » ، وقد حل مكان القصيدة . ولكنني في مصر تعرفت على الكاتب المصري « ابراهيم عبد الحليم » وعلى اخيه الشاعر « كمال عبد الحليم » وعلى « صلاح حافظ » وعلى الرسامين « زهدي . وحسن فؤاد . وحسن التلمساني ، واحمد طوغان » وعلى شاعر الشعب « فؤاد حداد » وعلى نائب البرلمان الشاعر عزيز فهمي الذي كان صوته الم الاصوات التي ارتفعت

ضد مشروع تقييد حرية الصحافة والذي كان فؤاد سراج الدين باشا يريــد تقديمه خلال النائب « اسطفان باسيلي » ٠

وجدت نفسي في جريدة « الملايين » الاسبوعية ، كان رئيس التحرير « احمد صادق عزام » وكانت « الملايين » صوت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ٠

اول من قدم لي الشاعرين الفرنسيين « أراغون وايلوار » كان الشاعـــر فؤاد حداد ٠ حسن فؤاد وزهدي الرسامان المصريان قدما لي بيكاسو ٠ وصلاح جاهين قدم لي فونتمارا والخبز والنبيذ لاغنازيو سالوني ٠ هؤلاء الذين قدمـوا لي كل الشعر وكل هذا اللون قدموني لمصر ٠ ولولا عمال مطبعة اورفند الذين دافعوا عن مطبعتهم في وجه المحرقة لما ظهر ديواني الاول « المعركة » ٠

وانا ساظل مدينا لعمال المطابع في مصر الى الابد ٠ ودائما كنت اقـــول للرفاق :

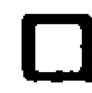
ـ كان عـ‌ال مطبعة اورفند يدافعون عن قصائدي ٠

وسواء كان يدافع عمال المطبعة عن قصائدي ضد حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، فالعمال كما كان يقول فؤاد نصار :

ـ هم الوطن ٠

وانا اضيف :

ـ والوطن هو الشعر ٠



بعد حريق القاهرة اخذ الدخان شكل الحجارة ، وبدأت غارات البوليس ٠ كنت في السنة الدراسية الاخيرة في الجامعة الاميركية في القاهرة ، ولقد بدأ البوليس يبحث عني ٠ لم يكن يتصور ان شاعر ديوان المعركة هو طالب فـــي الجامعة الاميركية ، وهو الذي يردد شعره كل ليلة في مكتبه في جريدة الاهرام: كامل الشناوي ٠ وهو الذي يجوع الان في حجرة فوق مقهى « ايزافيتش » ٠

عشت على البطاطا المسلوقة لمدة اسبوع ، صلاح جاهين اغراني بطلب مقابلة « الحاج امين الحسيني » ، كان يقول لي :

ـ سوف يساعدنا ٠

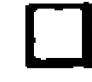
لقد اصبح المطارد صلاح جاهين فلسطينيا هو الاخر ٠

واشترى الحاج امين مائة نسخة من ديوان المعركة ٠

وهكذا في اول عشاء مع صلاح جاهين صرخ :

ـ لقد اكلنا عشر نسخ من الديوان ٠

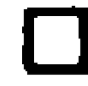
وتبدد ثمن المائة نسخة من ديوان المعركة على مائدة في مقهى شهريار في الجيزة حيث كان يجلس : زكريا الحجاوي ، وبكر الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي والرسام احمد طوغان ٠



حينما كنا نجوع كنا نذهب الى الشاعر المصري « محمد علي ماهر » ، كان يعمل باشكاتبا في مستشفى الاطفال ٠ كان محمد علي ماهر يجمع كل كبد الدجاج ، يقليه في السمن ويقدمه لي ولعبد الرحمن الخميسي ولعبد المنعم عبد العزيز ٠

بعد الشبع ، كان عبد المنعم عبد العزيز يصيح في وجه محمد علي ماهر :

ـ يا سارق اكباد الاطفال ؟



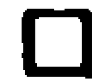
كان الرفاق من الشيوعيين المصريين يحاولون الاتصال بي طيلة عام ، وحينما عثروا علي تناقشنا حول قضية واحدة وكانت القضية تدور حول مستقبل اول لجنة لانصار السلم تؤلف في مدينة غزة ٠

وحملت الرسالة الصعبة الى غزة ٠ في النادي القومي في غزة تم اول لقاء بالمناضل الشيوعي : فايز الوحيدي ٠ لجنة السلام الفلسطينية في ذلك الوقت كانت سيئة الحظ ، فلقد تم القاء القبض على الخلية الشيوعية الرئيسية في غزة : عصبة التحرر الوطني ٠

الضابط فخر بسيسو ـ جاء ليقول لي ـ :

ـ كن حذرا هذه الليلة ٠

ومضيت لكي احذر رفيقين من عصبة التحرر الوطني ٠ (م٠غ٠ب) (ع٠س٠) قابلت الاول فوق قضبان سكة الحديد ، وكان يعمل محاسبا في شركة تجارية ، وقابلت الثاني بين القبور ٠ وهرب الاثنان ٠



كان علي ان اعمل شيئا ما فأصبحت مدرسا في مدرسة الحكومة في

الشجاعية · امام تلك المدرسة بيارة جدي لابي · كنت احس انهم ينشرون لحمي كلما كانوا يقطعون اشجار الزيتون لكي يزرعوا بدلا منها شتلات البرتقال · اصبحت مدرسا للغة الانجليزية ، وكان مدرس اللغة العربية يحاول ان يجامل المدرسين المصريين ويقول لهم :

ـ احمد شوقي شاعر كل العصور ·

وحينما شتم ذلك المدرس المتنبي ذات يوم بصقت في وجهه ، وقدم تقريرا ضدي الى « احمد اسماعيل » ، وكان المشرف في ذلك الوقت على التربية في قطاع غزه ·

ـ ما دام يبصق على احمد شوقي فلا بد ان يكون شيوعيا ·

هكذا قالوا · ولكنني كنت ادافع عن الشعر ·

لم يعد لي خبز في تلك المدرسة التي كانت حولها طفولتي ، تجري مرة كجدول ومرة اخرى تأخذ شكل الرغيف ، ومرة ثالثة تأخذ شكل نواة المشمش التي كنا نجففها ونلعب بها ·



سافرت الى بغداد وكان في جيبي عقد مدرس · اول ليلة سهرت فيها في بغداد كانت مع ناظم حكمت · وبالدينار الوحيد الذي كان معي اشتريت زجاجة نبيذ وتفاحا وديوان شعر ناظم حكمت · في الصباح سافر معي ناظم حكمت الى الديوانية ومنها الى قرية الشامية ، ولقد ظل يسافر معي ·

اكثر من يحترم المدرسين هم الفلاحون · كانت المشكلة اين اقيم ، وناظر المدرسة لم يكن يعرف ماذا سوف يفعل بي ·

تطوع احد المدرسين العراقيين واستضافني تلك الليلة · وحمل البواب حقيبتي الوحيدة ·

دعاني ناظر المدرسة لتناول العشاء معه وبعد العشاء قادني الى البيت الذي قبلني كضيف فيه ·

حينما فتحت الحقيبة وجدت ان شيئا ما قد حدث ونظرت الى المدرسين الثلاثة فكانوا يبتسمون ·

لقد تم تفتيش الحقيبة · « عباس العادلي » يتقدم مني فاتحا ذراعيه وهو يلوح بديوان المعركة :

ـ اهلا بك في العراق ·

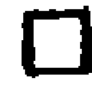
كان ديوان المعركة الذي حملته معي من غزة الى بغداد هو اوراق اعتمادي كفلسطيني الى الشيوعيين العراقيين · لم يرتبط حزب شيوعي بالشعر مثلما ارتبط الحزب الشيوعي العراقي · لقد كان الحزب رئة من الشعر ·

في مدرسة الشامية كنت ادرس باللغة الانجليزية · يطحنون سعف النخل ويعجنونه ويصنعون منه اقراصا يجففونها تحت الشمس ويأكلونها · هؤلاء كانوا تلاميذي ·

لبعضهم كنت اعطي دروسا مجانية خاصة ، وحينما ارسل احد الاقطاعيين ، « الشيخ رابح عطية » احد رجاله ليضربني ، كان ابا لتلميذ كنت اعلمه بالمجان ·

وسقطت الهراوة من يد الاب · كان عامل مضخة للمياه ، وكان اول من قدمت للحزب الشيوعي العراقي · في ذلك الوقت من بداية عام ١٩٥٣ كان الحزب يقاتل ضد الانقسام وضد نوري السعيد ، من اجل وطن حر وشعب سعيد ·

واتصل بي الحزب بعد ثلاثة اشهر من وجودي في الشامية · ولقد تعلمت الكثير من اليد السرية لذلك الحزب ·



كنا نحن المدرسين الاربعة كل مدرسة الشامية الثانوية للبنين والبنات · كانت مدرسة مختلطة وفي قرية في العراق عام ١٩٥٣ · كنت أدرس اللغة الانجليزية وعباس العادلي يدرس الرياضيات وكاظم الشمرتي يدرس اللغة العربية ومدرس رابع نسيت اسمه كان يدرس الجغرافيا والتاريخ ·

وبدأت الايام تمشي في قرية الشامية ، كنا نقدم الدروس المجانية للطلاب وفي المساء كنا نقوم بتصحيح الدفاتر وتحضير الدروس لليوم القادم ، ثم تمتد المناقشة حول ما حدث في فلسطين وحول ما يحدث الان في العراق · حادث لن انساه في حياتي فحينما بدأت مؤامرة نوري السعيد بطرد اليهود من العراق ، كان من بين ا[illegible]د المطرودين شيوعية يهودية عراقية رفضت ركوب الطائرة فضربها عسكر نوري السعيد حتى سقطت فوق سلم الطائرة وجروها فوق وجهها الى داخل الطائرة وهي تصرخ :

ـ هذا وطني ·

ومثلما الطائر تمتلىء حوصلته بالقمح ، يمتلىء صدرك بنسيم الاساطير القادمة من يد الحزب ·

مرة قرأنا قصيدة للجواهري في مديح ولي العهد وكانت صدمة كبيرة بالنسبة

لنا نحن الذين قرأنا الجواهري ، فقررنا في خلية الشامية وبالاجماع : حــرق محمد مهدي الجواهري ·

كومنا دواوينه واشعلنا فيها النار ، وفي التقرير الشهري للحزب كان اول ما كتبته هو قرار اشعال النيران في قصائد الجواهري · وجاء رد الحزب في صورة منشور خاص بالجواهري كان عنوانه « محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الاكبر » ·

هكذا علمني الحزب كيف استخدم النيران وبشكل اخر ·

في ذلك البيت في الشامية كان كل واحد منا يتولى مالية البيت لمدة شهر · في الشهر الذي اصبحت فيه مسؤولا عن البيت كنت اعود ومعي سبعـــة او عشرة طلاب ، وهكذا افلسنا في منتصف الشهر · لم نكن نعرف في ذلك الوقت لا بقالا ولا بائع طيور ·

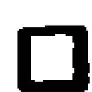
وهكذا جلسنا بعد الظهر ننظر لبعضنا البعض ، وفجأة التمعت عينا عباس العادلي · كان ينظر الى الحمام في ساحة البيت · وبدأنا العمل فورا كاننــا كنا نفكر في موضوع واحد · كل منا انقض على حمامة ولقد فوجيء الحمام ، فلقد كان طول الوقت يمشي بيننا · منذ ذلك الوقت عشنا على اكل الحمام · وربما كنا اول من اكل الحمام في قرية الشامية · بعد ذلك اصبحت عمليــة اصطياد الحمام عملية صعبة جدا فلم يعد يهبط من اعشاشه على سطح بيتنــا وينزل الى صحن الدار · كان علينا ان نستخدم السلم لاصطياده في اعشاشه ، ووضعنا السلم فوق الجدار وكان مخلعا ، صعد عليه عباس العادلي بعد حــوار طويل ، مد عباس يده الى عش حمامة ولكنها زاغت من يده وطارت وهي تخبـط وجهه بجناحها وتبعها الحمام واختل توازن عباس فوق السلم فسقط · وفي الصباح راه الطلاب وهو يعرج ورأوا الكدمات على وجهه ، ولم يكن ايا مــن الطلاب يعرف ان مدرس الرياضيات سقط من علو ثلاثة امتــار وهو يصطاد حمامة ·

بدأت منشورات الحزب وكراساته تظهر في قرية الشامية · كل شهر كانــت تاتي البوسطة وكنت قد اقمت سقفا سريا ثانيا تحت سقف حجرتي لاخفــــي المطبوعات · ومع ظهور مطبوعات الحزب بدأ البوليس السري في الظهـــور ، ولكننا كنا بالنسبة لاهل القرية اربعة من المدرسين المحترمين الذين يقدمـــون الدروس المجانية للطلاب ويسهرون يصححون الدفاتر ·

« فريد ناجي » ـ حتى النار لا يمكن ان تمحو اسمه من يدي ـ كان اعز طلابي وكان مصابا بروماتيزم في القلب · استعار مني رواية « الام » لجوركي ومات ولم يتم قراءة الرواية · وضع ورقة سعفة نخل في منتصف رواية الام

وبعدها توقف قلبه عن الخفقان · وحملناه فوق سيارة وذهبنا لندفنه في مقبرة النجف · لقد رأيتهم وهم يغسلونه ولكنهم لم يستطيعوا ان يغسلوا اسم جوركي فوق جلده · ارت ان ادفن معه كتاب الام ولكنهم رفضوا · ربما خافوا ان يقوم كتاب بعمل انقلاب وهو تحت التراب ·

الخلية الاولى اعطت الخلية الثانية ولكن الامتحانات النهائية قد جاءت وكانت اهم الاحداث في المدرسة ·



بدأ حبر المناشير يفوح في شوارع الشامية وبدأت الرقابة البوليسية تشتد · كان علي ان افعل شيئا ما كي افلت من المصيدة · وجاء مندوب من الحزب وطلب مني السفر معه فورا الى بغداد · وسافرنا في الليل الى النجف ومنها الى بغداد ·

فى بغداد كان قرار الحزب ان اغادر العراق ، لقد*انتهت السنة الدراسية ووزارة المعارف لن تجدد عقدي ، ثم علي ان احمل رسالة معي الى الخارج ·

وكانت رسالة الحزب حقيبة من الخشب امتلأ بطنها بمطبوعات الحزب · ولا ازال اذكر انني اصررت على حمل الحقيبة الخشبية :

ـ اذا قبضوا علي فلا يهم ، اما انت فهم يحتاجون لك كثيرا ·

وسلمني الرفيق الحقيبة ومضيت بها الى فندق الرشيد ·

كانت هدية الحزب الشيوعي العراقي الى الشيوعيين المصريين والشيوعيين الفلسطينيين في قطاع غزة ، وكانت من اجمل الهدايا التي حملتها في حياتي ، وانا مدين بوصول هذه الهدية الى مصر وقطاع غزة الى مدرس فلسطيني من غزة كان يعمل في العراق اسمه (ك·ط) · حينما وصلت الى مطار القاهرة عرفت انني في القائمة السوداء وانطلق ذلك المدرس الى حقيبة الخشب ولقد اخبرته بمحتوياتها حتى يتخذ قراره·ولم يتردد·ضم الحقيبة الخشبية الى حقائبه وانطلق بها خارج المطار ، ولقد قام بالفعل بتسليمها الى الرفيق (غ·ش) الذي طلبت منه تقديم الحقيبة اليه · وهكذا بت تلك الليلة في فندق مطار القاهرة الدولي وفي الصباح تم ترحيلي بالقطار الى غزه ·

حينما بلغ القطار محطة رفح الفلسطينية ، كنت احس بعجلات القطار وهي تكتب فوق القضبان منشورا جديدا للارض ·



قصيـــدة بَـابـل

[مقاطع]

- ١ -

دار المجنون يُسائِلُ : أُين الشمسُ وأُينَ الأفقُ ؟ وماذا
يحمل هذا الآتي :
عنقا او سكينا ؟
يسأل : كيف اظل شرارة خرق ؟

من أين أُتيتَ ، وكيف ، وماذا ؟
أُرضك مملكة التدجين ، وانت عصيٌّ
أتظل عصيا ؟

من اين اتيت ، وكيف ، وماذا ؟
يبدو أن الأَشياءَ قطيعٌ

والافكارَ ذئابٌ فضِّيه ،

قابيل هنا ، هابيل هنالكَ لم يُدْفَنْ
والموتى شَرَكٌ
والاحياء سديمٌ ...
هل تبقى ، تخبز هذا الرمل ، وتحيا
في طحلب هذا البرج ؟
مزيدًا
من جمرٍ أخرَ
من شهواتٍ اخرى ...

صدِّقني ــ أُقدر ان اتقدَّمَ في منشارٍ
يا هذا الجذع اليابس ، لكن
اعمل كي اتقدم في طوفانٍ ...
من يتقدَّم ؟ صاحت

أجراسُ عصورٍ
تتلاطم في حنجرةٍ بحريّهْ
حسنًا ، يا هذا البحر ، ورفْقًا
يا أدوات اللغة القرشيَّهْ .

يبدو ان الأشياءَ قطيعٌ
والافكارَ ذئاب فضيه ،

من أين اتيت ، وكيف ، وماذا ؟

مـتّهمٌ
حتى حين تقول الليل فراشٌ
والشمس امرأةٌ
مـتّهَمٌ
حتى حين تقول الخنشارُ صديقٌ للنهدينِ ،
وحين تقول الحوضُ يحنّ لماءٍ لا يعرفُـهُ
والمـاء يحنّ لحوضٍ لا يعرفُـهُ ،
مـتّهمٌ
حين تقول الفاتح يختمُ حيناً
والخاتمُ يفتح حيناً ،
مـتّهمٌ
حين تقول الحزنُ ربيعٌ
والصفصاف دموعٌ
مـتّهمٌ
حين تُجاهرُ : بابل جرحٌ
يتدفّق من دمه الفقراءُ ، وبابل فقرٌ
يتناسل في دمه الشعراءُ ، وبابل سلطانٌ
والتاج نبيٌّ او تنّينٌ ،
من أين أتيتَ ، وكيف ، وماذا ؟
أتموت ، وأنت جنينٌ ؟

هوذا التاريخ بقايا جثثٍ

والايام تهرول في كثبانٍ الرمل : « تَفيّأْ
حلماً

وانسجْ
لمداك عباءةَ حبٍّ ، واجنحْ ... »
آفاقٌ جانحةٌ ، وصحارَى
تهذي ،
ونساءٌ في العتَباتِ يلدن الحسرةَ : « أهلاً
لكن ، ماذا نفعل ؟ أيدينا ليست أيدينا
نحن المقتولات ، وكل جنوحٍ يحيينا . »

— ٢ —

قال عليٌّ : « هذي بابلُ ... »
بابل قفزٌ
حيث الكون فراغٌ —
مجروراتٌ ومفاعيلُ
شحاذون على الطرقات وشحاذون على الشُّرُفاتِ
يفترشون الغَسَقِ الطالع في الاهداب وفي اللَّهَواتِ
عرشًا يتأرجح في لبلابٍ
ونخيلَ دماءٍ
ألِفُوا ريح الموت وسالوا
في نَهَر العالم جرحًا ...

بابلُ أنتِ الشرُّ وانت الخيرُ
وأنت مدارْ
ودمي وهواؤك طفلانِ
يمحو الثاني درب الاول
يمحو الأوّل درب الثاني ٠

- ٣ -

يبدو أنَّ الاشياءَ قطيعٌ
والأفكارَ ذئابٌ فضّيهْ ،

من أين أتيتَ ، وكيف ، وماذا ؟
قمْ ، يا قيس ترَصَّدْ ليلى
قل للنخلة ان تؤويك ، وأسْلِمْ
عينيك لوسوسة الأحلام ـ
ليلي صورٌ تتفتّح في أشكالٍ مخروطيّهْ
ليلى أقواسٌ ودوائر جنسيّهْ
قَصَبٌ عالٍ للأحزانِ
وبحرٌ أبيضُ للأوهام
قم ، يا قيس ـ الاشياءُ مباركةٌ
والرّغبة قدسيّهْ

قم ، يا قيس ـ التّاريخ ركامٌ
والحاضر وحشٌ
تتلبّسه خِرقٌ وعظامُ ٠

متّهَمٌ

حتى حين تقول الارضُ امرأةً
وسواء قلت العالم عِرسٌ
او قلت العالم قَشٌّ
متّهمٌ .
وسواءٌ جئت الينا شرعًا أو جئتَ سفاحًا
متّهمٌ ـ
[تَهَمي أنّيَ وجــهٌ . تَهَمي أنّيَ حمّى .
تهمي اني اكشفُ عــن جرحي . تهمي
اني أرفض هــــذا العصرَ واكتب لعنته
الكبرى ...]
متّهمٌ
في احلامكَ . في خلجاتكِ ، حين تروح
وحين تجيىءُ ـ
قم ، يا قيسِ ترصّد ليلى ...

من اين اتيت ، وكيف نسيتَ غزالَ الزّمن :
الجنسَ / الحبَّ / الموتَ
الصوفيَّ / وحيدَ القَرنِ ـ
انكرْني

يا هذا النَّيزكُ ، وامنحْني
ضوءًا
واسهرْ ، وتألَّقْ في أنحائي
هوذا : أغمضتُ جفوني باسْمكَ واستسلمتُ الى اعضائي

حيث نعانقُ ما لا نعرف كيف نَراهُ
حيث المعنى زيتٌ والصورة نارٌ
حيث التاريخ كلامُ الهازم صوتُ المهزومينَ ، وحيث مشينا
في أيلولَ ،
وفي كانونَ ،
وفي أيارَ ، مشينا
نَتَلَمَّسُ أقنعةَ التكوين ، ونحضنُ أزمنةً مكسوره
تذكر ؟ لم نسمع
لم نلمح
إلا جَسَد اللّغة المجدورهْ .

قم يا قيسُ ترصَّدْ ليلى
عَيِّدْ عيدَ اللّهبِ الوحشيّ ، اللّغةِ الوحشيّهْ
واقطعْ كلماتك من خيلاء الزّان وأُبَّهةِ المرّان ،
استنفرْ أضرحةَ العشاق ، وقَدِّمْ
للموت حياتك ، وابدأ ـ لا تنتظرِ العنقاءَ ،
تكونُ خطاك لقاحا :

ستكون الماءَ مرارًا
ومرارًا سوف تكون الصخر
مرارًا سوف تكونُ الرّيحَ ،
وتغدو
مَلِكَ الآفاق ، وتغدو
مَلِكَ العربات الضّوئيهْ .

خذني ، يا هذا التيار ، امنحْني
مَدًّا اقصى
هوذا : تغدو فلكا
وتدور كواكبُ في قدميكا ،
هوذا : أغمضتُ جفوني
واستسلمتُ إليكا ٠

– ٤ –

أعلو وأُفكّر في التّشبيهِ وأَنأى
لا أُحتاجُ الى ذُرَوَاتٍ
شغفي أن أتواطأ مع أمواج مع كلماتٍ
لا أملك إلا ان اقتلها
٠٠٠ في عادة وجهي ،

عادةُ وجهي :
لا أعطي لغتي الا للجذر ، وعادةُ صوتي
أن يتفيأ شمسَ الرغبة ــ بابلَ ، عادة صوتي
أن يخلق بابلَ كي يتغيّرَ هذا الزمنُ
ان يخلق بابلَ كي يتبرّأَ هذا الوطنُ /

أخلق بابلَ في الأجناسِ وفي الأنواع وأخلق بابل في الصّلواتِ

وفي الشّهواتِ واخلق بابل في الأرحام وفي الأكفان واخلق
بابل بين الخالق والمخلوقِ وأخلق بابلَ في الاصواتِ وفي
الأسماءِ وفي الاشياءِ
وأظلّ اللّهبَ الضّاربَ في الاشياء
خارجَ هذا الوَرَقِ الرّمْليّ ، أُدشّنُ انحائي
بالضّوء ، برَغبة إن ابقى
خارج هذا الملك ، عصيّا
لا تعرفني غير النّار كأني جنسٌ شمسيٌّ آخرُ ،
يمحو نَصّ الرمل ، يُفتّت كلَّ مثالٍ
ويقيم الرغبة نهجاً
وتكون الصّبوةُ عيداً
. . . في عادة وجهي .

عادةُ وجهي ان يتقصّى
سفَرَ التكوين ، فراغَ البدء ، يراهنَ :
أين يكون المِلْءُ فراغاً ، والآخرُ أوّلَ ؟ أين يكونُ
السجنُ طريقاً تتقمّصُ كلَّ طريق ؟
عادة وجهي أن يبقى
أفقاً ، ويضلّل حتى الرّيحَ . . . ،
لهـذا ،

أحيانًا ،
يطفو وجه الشمس ضباباً
ويكون الضوء استسلم للكلماتِ

احيانا ،
تولد في الكلمات جراحٌ
ويصير الحبر ترابًا
ويكون الجسد استسلم للكلماتِ
احيانا ،
تهجم بابل في طاووسٍ أو جلّادٍ
ويكون التاريخ هشيمًا
والغيم قيانًا
وتكون الاشجار سَبَايَا
أحيانًا ،
بابل قبلُ
وبابل بعدُ
وبابل وجهٌ للاحياءِ وللأمواتِ ...
لهـذا ،
يولد في اسمائي
بَشرٌ
يزدحمون ويقتتلون/خذيهم
دليهم واحتضنيهم
كوني طرقًا لهم وفتوحاتٍ ، يا اسمائي
فانا الابد المتشرِّد خارج أسمائي
أبديًّا
أُعلنُ شرع اللّهَبِ ، الوَلَهِ ، الحُلُمِ ، الأشياءِ .

- ٥ -

صارت كفّايَ زنابقَ ، صارت عينايَ صَلاةْ
أسَّسْتُ خريفاً واستصلحتُ ربيعًا
وجلست مع الشّجرات القدّيساتْ
منتظرًا بابل /
(بابل لا يعرفها أحدٌ/لا يجهلها أحدٌ)
خَلَعَ التاريخ قميصَ النّوم وسارَ وحيدًا
في غابات الذكرى
(بابل لا يذكرها أحدٌ / لا ينساها أحدٌ)
بابلُ هذي أنتِ ، وهذا خطوكِ والطّرقاتُ هي الطّرقاتُ
الرقم يقول ونبض المعدن قال
وقالت لغةٌ والشعر يقولُ :
أين يكون ، الآنَ ، الملِكُ الضِّلِّيلُ ، الحَسَنُ الضِّلِّيلُ ؟
أين يكون أبو تمّامٍ والمتنبّي ؟
ولأيِّ طريقٍ قادَهَمُ المجهولُ ؟
سأراهم يوماً
وأسائِلُ رملاً مَرَّ عليهم :

أدماءُ مَسالِخَ هذي الأنهارُ ؟
أمشانِقُ هذي الأشجارُ ؟

وأقول لرملٍ مرَّ عليهم :
أنتَ رسمتَ خطاهمْ
واليومَ ، أجيء لأرسَم فيك خطايَ ، ولستُ الأحسَنَ
حالاً ،
لكني صرت الأعمقَ ضوءًا

مذ صرتُ الأعمقَ يأسًا .

بابل ، هذي أنتِ وهذا عصركِ والكلماتُ هي الكلماتُ

« حيٌّ ، لكنّك ميّتٌ ، يا أحمدُ » قال عليٌّ
« ستنال الخبزَ ، ولكن
كيف ستحيا والرّملُ محيطٌ ؟ »
« سيقال : « الثّورةُ أنتِ ، ولكن
أتظلّينَ وراء حجابٍ ، يا مريمُ ؟ » قال عليٌّ ـ

بابلَ ، هذي أنتِ ، وهذا خطْوكِ والطرّقاتُ هي الطُّرقاتُ
بابل ، هذي أنتِ ، وهذا عصركِ ، والكلماتُ هي الكلماتُ
لن يدفقَ ماءٌ يغسلُ وحلَ دروبكِ ، حتى . . .
لن يطلعَ فجرٌ يمحو ليلكِ ، حتى . . .
حتى . . .

(مات الكوفيون . ومات البصريون
وفي انفسهم شيءٌ من حتى . . .)

. . . وعليٌّ عاشقكِ المجنونُ يُوَصِّل في خلجاتكِ دربه

ولهذا ، يرسمكِ امرأةً
ويحيطكِ جنسا
ويُزاوِجُ بين الحبِ ، وهذا العصرِ ، ويُعلِنَ : صار
الحبُّ فضاءً ،
واجتاحَتْهُ رياحُ الرِّغبةْ .

قم ، يا قيسُ ترصَّدْ ليلى
قم ، يا قيس ـ التاريخ ركامُ
والحاضر وحشٌ
تتلبَّسُهُ خِرَقٌ وعِظامُ .

- ٦ -

بابلُ جنسٌ
للموت ، وبابل حبٌ
تهبط نجوي
ضِقْتُ عليها / ضَاقتْ
عرفت أن حنيني تعَبٌ / تَعبتْ
عرفت أني أتبخر فوق سريري / تَعبتْ
عرفت أنَ اللَّيلَ فراشة جنسٍ / تعبتْ

بابل تصعد نحوي
قولوا : هذا زمن الرؤيا ، زمنُ الأنقاضِ ، وقولوا :

اهلاً بالأطرافِ ، بكلّ عصيّ
اهلاً بالتيه ، بكل قصيّ

بابل تهبط نحوي
بابل تصعد نحوي …

بابل هذا الخسف مضيءٌ
بابل ، انتِ الطفل وأنتِ الامْ ، وأشهدُ
كيف يصير ترابكِ حُلماً
ويصير أباً
ويصير جنيناً .

- ٧ -

أليوم ، يحاولُ وجه الصخرة أن يتزيّا
في عصفورٍ
أليوم ، سمعتُ الشّمسَ تخاطب طفلاً
أليوم ، رأيت طريقي في خطواتِ شريدٍ :

هل أدخل في ؟
هل أخرج من ؟

واليوم ، أهيّءُ ذاكرتي

للذبح ،
أحس كأني طفلٌ . . .

بابل ، يكفي
أن تجتاحي مُدَنَ الضوء بغير عيونٍ
يكفي زحفك نحو الرغبة في جمجمةٍ أو سيفٍ
يكفي أن يُقْطَعَ رأسٌ
كي يُلْأَمَ جرحٌ /

بابل تنهض ـ جئنا
نمنح فيك العاقلَ ذاكرةَ المجنونِ
ونقودكِ ، دون ملوكٍ أو حرّاسٍ
لغةً للبدء ، هباءً للتكوينِ .

بابل جئنا
نبني ملكًا آخر ، جئنا
نعلن أنَّ الشعرَ يقينٌ
والخَرْقَ نظامٌ .
هوذا نجمٌ
يتوهَّجُ بين كواحلنا
ثقةً بجحيم خطانا
ثقةً بفضاءٍ
يتناسَلُ مِلْءَ حناجرنا ـ

غنّيتُ / أغنّي
جَسَدَ التاريخ ، طيورَ الأزمنةِ المكنونَهْ

وَأَبَحْتُ لكل صعودٍ لغتي
وأبحتُ لكل صباحٍ
أن يتقمَّصَ وجهي ، أن يُنْكِرَني —
هل للتاريخ طريقٌ
خارج نزفِ الرئةِ الملعونَهْ ؟
هل للأرض كتابٌ
لا تكتبه اللّغة المجنونَهْ ؟

(بيروت، اوائل آب ١٩٧٧)

يحي رباح

إلى اللقاء في الموت القادم
(قصة)

زوجتي حامل في شهرها الاخير . هنا في الحرب تفلت منا الايام ، ننسى اسماءها وتواريخها ، اشجار البلوط والسنديان لا يتغير شكلها ، تلتف حول نفسها في حالة مستمرة من الاخضرار والجفاف المتداخلين ، وحين تسقط فوقها القذائف تحترق ، نعم تحترق بنفس السرعة والقابلية في كل الايام ، هنا في الحرب تفلت منا الايام ، ولكن يستطيع كل واحد منا ان يميز بين الليل والنهار ، في الليل نرى وميض انطلاق القذيفة ثم بعد لحظات نرى وميض انفجارها ، في النهار نسمع صوت الانطلاق ثم نسمع صوت الانفجار . وزوجتي حامل في شهرها الاخير ، قال لنا الطبيب في اخر اجازة انها حامل في شهرها الثاني ، عدت من الاجازة الى العرقوب ، قلت لنفسي ‥ لماذا لا اسجل ذلك حتى لا انسى ؟‥‥ سجلت ذلك على جذع بلوطة ، احترقت البلوطة بعد ذلك بتأثير القصف ، لكنني لم انس ، وبقيت مع ذلك اواصل الحساب ، وانا اعرف الان ان زوجتي حامل في شهرها الاخير ٠

ـ ولد ‥ بنت ‥ ماذا تريد ؟

سألني ابو فراس مازحا ، قلت له وانا احدق في عينيه :

ـ ارحب بالقادم مهما يكون ٠

ـ ولد ‥ بنت ‥ ماذا تفضل ؟

هكذا عاد يسألني بالحاح ‥ قلت له ٠

ـ اذا ترك لي الخيار الحر ·· افضل ولدا ·

ـ لماذا ؟

ـ هكذا ·

ـ بل يجب ان تذكر السبب ·

يتصاعد ازيز جهاز اللاسلكي . يختلط الصوت مع نقرشة نقاط المطر الثقيلة التي تتساقط فوق خيمتنا ، اتخلص من الحاحه ، انهم يطلبونه الى مكان بعيد ، لقد سألني ابو فراس ذات مرة :

ـ لماذا تزوجت ؟

قلت له خالطا بين الجد والدعابة ·

ـ لكي اجد من يبكي علي عندما اموت ·

قال لي بغتة :

ـ ولهذا احلم بالزواج من فتاة جميلة ·· انني ·· لا اعرف ·· ولكني افضل ان تبكي علي امرأة جميلة عندما اموت ·

كنا قد تعلمنا هو وانا . ان نختلس لحظات نتحدث فيها عن الفرح والحزن ورائحة الاشياء ، وكنا نتحدث ايضا عن الموت . عندما يكون الانسان مثلنا ·· فدائيا ·· يصبح الموت مباحا ومحظورا في آن واحد . ليس هذا بقرار متعمد . انه شيء تلقائي ، يصبح الواحد منا مثل رجل يعيش طيلة ايامه في مختبر مليء بالسموم القاتلة . سموم بطيئة التأثير وسريعة التأثير . لها الوان متنوعة . يلامسها باصابعه . يختزن الوانها في عينيه . لكنه لا يتذكرها ، اننا نطلق تعابير مضحكة حين تسقط بالقرب منا احدى القذائف دون ان تنفجر . وتدوي الطائرات فوق رؤوسنا مثل طيور خرافية مجنونة ، تصنع في السماءِ خطوطا بيضاء متقاطعة ، منذرة بانها تنوي تمزيق اجسادنا . لكننا نروي لبعضنا حكايات عن اشياء صغيرة ، هو وانا تعلمنا كيف نختلس اللحظات لنتحدث عن الموت ·

قال لي ابو فراس :

ـ ليتهم لا يدفنون الموتى ·

ـ وماذا يفعلون بهم ؟

ـ يتركونهم على وجه الارض ·· العظام تعيش لزمن طويل ·· اليس كذلك ؟··

سترسم عظامنا وهي ملقاة على وجه الارض ، خارطة حقيقية للحلم الذي نريد تحقيقه . كان قد ترك شعر لحيته ينمو ، شفتاه متشققتان كأنه يعاني من العطش ، وشعره الاسود منفوش ومتسخ من كثرة الغبار ، وعيناه حزينتان وعنيدتان ، مثل طائر يختبىء في عبء شجرة كي لا يمسكه احد ، وكانت الطائرات قد قصفت كل مواقعنا دفعة واحدة ، استشهد عدد من الشباب لم نكن بعد قد حددنا ، وتدهورت سيارة لاندروفر الى قاع الوادي ، ومات بغل اسود اللون كنا قد عثرنا عليه هائما في التلال وراء المهربين ، صار يحمل اوعية الماء وصناديق التموين والذخيرة الى قاعدة فوق قمة التل ، واحترقت خيمة . واشتعلت النار في اماكن متعددة في الحرش ، وامتلأ الفراغ بالدخان والغبار ورائحة الدم ، وبدون اتفاق اصغينا الى نشرات الاخبار ... لم يقل احد شيئا .. قلت له وانا يمتلكني احساس بانني الوك كلمات محفوظة باردة .

ـ انهم يخافون حتى من ذكر موتنا .

ـ ....

ـ ان دماءنا تلطخ وجوههم جميعا .

ـ ....

صامت لا ينظر الي . عيناه حزينتان وعنيدتان مثل طائر يختبىء في عب شجرة ، ويده تهرش لحيته النامية . وكنت ابحث في تلافيف الذاكرة المشوشة ، عن جملة معلبة اقولها . افلتت منه الكلمات فجأة كأنه يقذفني بها مثل الحجارة .

ـ من هم الذين نتحدث عنهم ؟

نهضت واقفا ، هذه عادة لم استطع التخلص منها . عندما تجف الكلمات في حلقي ، انهض واقفا على قدمي . واخذ هو يضحك . ضحكات خافتة في البداية ، ثم انفجر في الضحك ، ضاعف هذا من ارتباكي في بادىء الامر . ثم قذفت بنفسي في بحر هياجه الصاخب .

ـ انني اتهم الفرس والرومان والتتار والصليبيين .

ـ وانا اتهم الاتراك والانجليز والفرنسيين والاميركيين والصهاينة

ـ والجواري في قصور الخلفاء .

ـ والقرامطة لانهم اضاعوا وثائق ثورتهم .

ـ والفقراء في بلادنا لان لهم ذاكرة متسامحة .

يبدو اننا كنا نضحك ونبكي ونهتف ونغني ونمارس الجنون ، فلقد كنا في غاية الحزن والغيظ ، ينقشع الدخان والغبار بالتدريج . صوت ابواق سيارات الاسعاف يدوي ، عامل جهاز اللاسلكي يملي برقية بصوت عادي ، وعينين غاضبتين ، المعنويات عالية ٠٠ ، ينهض ابو فراس ، ينطلق بعيدا ٠

ـ الى اين ؟

ـ الى الحرش ٠

ـ ماذا ستفعل ؟

ـ اشم رائحة الاشجار المحترقة عن قرب ٠

يبتعد ، اقاوم رغبتي في اللحاق به ، استلقي على ظهري . انام ٠٠ استغرق في النوم ، احلم بقرية صغيرة على شاطىء البحر ، مطر دافيء وشمس مشرقة ، وانا محمول على نعش ، اناس كثيرون يسيرون وراء النعش ، زوجتي تلبس السواد وتبكي بدموع هادئة . تمسك بيدها طفلا جميلا ٠٠ انه ابني ٠٠ وجهه حزين بدون فجيعة ، وانا في نعش اراقب كل ذلك ، والجنازة الهادئة تنساب تحت اشعة الشمس ونقاط المطر الدافئة . تنساب مثل غناء عذب . واستيقظ ، لكن صورة الحلم تسري في جسدي مثل مخدر لم يفقد تأثيره بعد ٠

ـ انهض ٠٠ اين كنت هاربا ؟

ـ كنت اموت بهدوء في قرية صغيرة على شاطىء البحر ٠

ـ انك متطرف في احلامك ٠

ـ ماذا ؟

ـ تحلم بالبحر وبالسلم ٠٠ يا لك من متطرف ٠

انهض ، القصف والموت منحنا اجازة طويلة مع انفسنا ، اجازة مليئة بالحزن والصراخ والجنون والاحلام المتطرفة . ولا يعرف احد . اذا كان كل ذلك سيتاح لنا في الموت القادم ٠

افترقنا في بداية العام ، تركني عند حافة الارض الجنوبية . وذهب هو الى حافة الارض الشمالية ، بقيت في العرقوب عند سفوح جبل الشيخ ٠ وذهب هو الى منطقة عينطورة عند سفوح جبل صنين ، قال لي وهو يرحل :

ـ حتما سأراك ٠

قلت له :

ـ وانا ايضا ‥ حتما سأراك ․

هو وانا ونحن جميعا ، ننطق الكلمات في مناسبات كهذه بدرجة عالية من التأكيد ، الموت يلازمنا ، نحمله معنا في جعبة الذخيرة ، في المفاصل ، في الدورة الدموية ، في الخطوة الاولى والخطوة اللاحقة ، الموت نحمله معنا ، لكننا لا نسمح له ان ينفصل عنا ، ويقف قبالتنا ، ليطرح علينا تحية الصباح والمساء والاسئلة السمجة ، يتمرد الموت اللعين ، يتمرد بوقاحة في بعض الاحيان ، ينفصل عنا ويقف في المواجهة ، يخرج لسانه ساخرا ، يغرز نظراته اللزجة في عيوننا ، يتصرف بوقاحة وجراة مثل ذئب جائع مهتاج ، وحينئذ ، ليس هناك سوى وسيلة واحدة ، ان نصرخ في وجه الذئب الجائع المهتاج ، ونندفع صوبه ، ونتحد به من جديد ․

ـ حتما ساراك ․

ـ وانا ايضا ‥ حتما ساراك ․

توسعت الحرب ، فيما مضى ، كنا نعرف ان هناك ارضا خارج مدى القذيفة ، لم نكن نذهب اليها قط ، لكن ذلك كان يخلق حالة من المفاضلة النظرية، حالة شبيهة بحرية الاختيار ، في الامكان البقاء داخل المدى او خارج المدى ، الان توسعت الحرب ، شملت كل الارض ، وقبل ان نفترق ، قرأت له رسالة من زوجتي « وضعت ‥ صار لنا طفلة صغيرة ‥ عيناها زرقاوان بلون بحر يافا » ․

يضحك ‥ اقول له :

ـ اضف لون عيني طفلتي الى قائمة التطرف ․

واقرأ له ايضا « هناك فتاة جميلة ‥ في غاية الجمال ، تقبل ان تتزوج من فدائي ‥ وتجيد البكاء » ․

يضحك ويتمتم ․

ماذا ؟

ـ اوشكت ان اصبح مثلك ․

ـ كيف ؟

ـ كنت احلم بالبحر ‥ وسوف احلم بالسلم ․

لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد ، متوسط القامة ، ضامر الجسم ، حواجبه

كثة ، وصوته متوازن ، وعيناه حزينتان دائما ، ويعشق التفاصيل ومنحاز الى الفقراء الى درجة التوجس ، والى حد الغيظ في بعض الاحيان « البعض يفخرون بان سلالتهم تشتهر بطول القامة ، بسواد العيون ، بكثرة الانجاب ·· هل تعرف ·· سلالتنا تشتهر بالفقر ·· هل تصدق ؟·· سلالة قديمة ظلت تعيش في الفقر طوال قرون » ·

ـ انك تبالغ ·

ـ انني اقول الحقيقة ·

ـ ان ذلك يدل على قوة الاحتمال ·

ـ وربما يدل على البلادة ·· لماذا لم يثوروا ؟

في العرقوب ، في الليل ، المسافة بين القمة والقاع ، تصهل خيول قديمة يقولون ان فرسان صلاح الدين الايوبي مروا من هنا ·

ـ اللعنة ··· اللعنة ·

ويبحلق في وجهي بغضب ·

ـ ماذا دهاك ؟

ـ تصور ·· منذ صلاح الدين حتى اليوم ، هناك سلالات في بلادنا لم يمت احد من افرادها في الحرب ·

توسعت الحرب ، هذه حرب حقيقية ، لا يوجد احد خارج مدى القذائف ، ولا توجد طبقات خارج مدى التطاحن ، وانا احلم بموت هادىء في قرية صغيرة على شاطىء البحر ، وهو يحلم بفتاة جميلة يتزوجها وتبكي عليه عندما يموت ، ونحن نحلم بان ترسم عظامنا الملقاة على وجه الارض خارطة طموحنا ، وعلى الحاجز عند مفترق الطرق ، يحيطون بي ·

ـ قف ·

اقف ·

يتقدم احدهم ويصوب مسدسه الى صدري ، يقترب اكثر ، يلامس حديد المسدس لحمي فتسري في القشعريرة ، احاول ان اهرب بنظراتي من عيني قاتلي ، لا استطيع ، انفاسه تختلط مع انفاسي ، عيناه في عيني ، استطيع ان اجزم انه لا يشعر بالسعادة ، ولا بالفخر ، وبالانتصار ، ولا بالرغبة في القتل ، « يا عدوي ماذا يكمن في اعماقك » ·· لا اصرخ ، اراقب حركة اصبعه الذي يلامس الزناد ، تتلاشى المسافة نهائيا ، اتاكد الان بمذاق خاص انني سأموت ، استنجد

بحلمي الجميل ، يفر مني حلمي ، وانجو من الموت ، رهينة مقابل رهينـــة ، انجو ٠٠ استرد حياتي ٠٠ لماذا ؟٠٠ ربما مثل مقامر يسترد نقوده التي خسرها لكي يخسرها ثانية ٠٠ ربما ٠٠ نحن في زمن الانهيارات الكبيرة ، يهتز هـــذا الوعاء الضخم الذي اسمه الارض ، فتقذف بنا من اقصاها الى اقصاها ، انجـو من الموت في حافة الارض الجنوبية ، ونلتقي في حافة الارض الشمالية ٠

ـ خفت عليك ان تموت ٠

ـ ولماذا تخاف ؟

ـ لا اعرف ٠٠ ولكن عندما تتحقق توقعاتنا ٠٠ فان ذلك يؤثر فينا بقوة ٠ ربما نكون قد وصلنا الى الزمن الذي تتحقق فيه توقعاتنا ، دون ان نـرى ذلك ، ربما ، ان الذين يعرفون ويدرسون الطوفانات الكبيرة ، كيف تبدأ وكيف تنتهي ، لا يجيدون السباحة ٠

عرفته اول مرة في احداث ايار ١٩٧٣ ، الاسم ابو فراس ، ضابط شـــاب اعطوه مسدسا مكافأة له على شجاعته ، وكان هو يعد باعطاء اشياء كثيرة ٠

ـ من اين ؟

سالته ونحن نجلس على حافة حفرة عميقة ناتجة عن انفجار قذيفة ٠

ـ انا من قرية تبيع محصول زيتونها للتجار ٠٠ وتجوع ٠

هكذا قال لي وهو يبتسم ٠٠ وسألني ٠

ـ وانت ٠٠ من اين ؟

ـ انا من مدينة يهرب من عسف الرمال الى البحر ، ويهرب من هياج البحر الى الرمال ٠

كانت الاحداث توشك ان تتوقف ، وكان احد الفدائيين قد قتـــل قبـــل بضع ساعات بحادث غريب ، كان موقعه يتعرض لقصف كثيف ، حـــاول ان يتحاشى القذائف بان قفز من الموقع ، ونجا فعلا من ملاحقة القذيفة ، ولكـــن افعى من النوع السام ، افعى كانت كامنة بين العشب لدغته وقتلته على الفور ، وكان الفدائيون يتساءلون « بمن يجب ان نبـــدا اولا ٠٠ بمصـــادر النيـــران المعادية ٠٠ ام بجحور الافاعي ؟ » ٠

التقينا من جديد ، ابو فراس ترك لحيته تنمو بغزارة ، منذ توسعت الحرب ، انتشرت هذه العادة بين المقاتلين ، لا احدى يدري ما هو الدافع الحقيقـــي وراء ذلك ، وابو فراس يقول لي :

ـ قبل ان احلق لحيتي ، سآخذ صورة تذكارية ٠

ثم يواصل الحديث وحشرجة حزن خفيفة تعترض ابتسامته ٠

ـ ربما تكون هذه هي الوثيقة الوحيدة ٠

ثم يسألني :

ـ كيف تركت العرقوب ؟

ـ انه يستعد ليكون الحصان الاول ٠

ينادي صوت على بعد امتار منا ٠

ـ الى اين وصلتما ؟

يقترب منا ، يسلم علينا باندفاع وحرارة ، يقول ابو فراس :

ـ هل تعرفه ٠٠ انه ابو زياد ٠

شاب اسمر البشرة ، هرقلي الجسم ، عيناه صغيرتان وقويتان ٠

ـ قدم الى الجبل ، يريد ان يرى بداية العالم ونهاية العالم من نقطة واحدة ٠

يضحك ابو زياد ٠٠ صوته مشحون برغبات جامحة ، مثل صهيل الخيول ، يقول باندفاع :

ـ صعدت الى اعلى قمة ٠

ـ ماذا رأيت ؟

ـ اليكما هذه القصة ٠٠٠ سألوا رجلا مؤمنا وهو على فراش الموت ٠٠ هل رأيت الله ؟٠٠ قال لهم ٠٠ لا ٠٠ لم اره ٠٠ وسألوا رجلا ملحدا وهو على فراش الموت ٠٠ هل رأيت الله ؟٠٠ فقال لهم ٠٠ نعم رأيته ٠

ـ ماذا تعني ؟

ـ فقط ٠٠ الاجابة عن سؤالك ٠

في تلك الاثناء كان الجبل مثل جزيرة صغيرة في المحيط ، كل شيء هجومي ، وكل شيء مهدد بالغرق ، وكل شيء قريب وبعيد في آن واحد ، يتحدث المقاتلون عن العموميات والتفاصيل بنفس الايقاع ، عن اولادهم ، والقذائف الجاهزة للاطلاق ، والبيوت التي يطالب اصحابها باجرة اكثر لها ، والثلج

الذي يسارع في تميزق قماش خيامهم ، وعن الله الذي يستقر بالقرب من القمم العالية ولكنه ليس مهتما باي شيء ، وعن امكانية احتراق الارض وامكانية التعرض للحصار ٠

في الجبل ، في الضباب ، في دائرة عمل الزلازل القوية ، في فترة التحولات الكبرى ، ليس في وسع احد ان يتأكد من اي شيء ، ولا تتاح الفرصة لاحد أن يمد ساقيه ويطيل الحديث ، كان ابو زياد قد رشقنا بكلماته وسكت هو ، وسكتنا ثلاثتنا ، عيوننا تدور على وجوه بعضنا ، يبحث كل واحد منا في وجه صاحبه عن شيء يريده ٠٠ لكننا لا نجد شيئا ، يصل احد الصحفيين ويسأل موجها الحديث الينا ٠

ـ هل يمكن ان انقل احساس المقاتلين ؟

ـ لم افهم ٠

يقول ابو فراس ، فيوضح الصحفي مادا رقبته التي تبدو مصنوعة من المطاط ٠

ـ اريد ان اعرف حقيقة مشاعرهم ، انت مثلا « يوجه الحديث الى ابو فراس » ما هي حقيقة مشاعرك ؟

عيناه حزينتان وعنيدتان مثل طائر يختبيء في عب شجرة كي لا يمسكه احد ، وينادي احد المقاتلين :

ـ ابو فراس ٠٠ انهم يعدون لنا وجبه ساخنة ٠

يودعنا ابو فراس وينطلق مسرعا ، يرتبك الصحفي ، ينظر الينا محاولا ان يعيد الكرة من جديد ، يأخذني ابو زياد من ذراعي ونذهب ، يقول لي ابو زياد :

ـ هل تعرف ماذا اكتشفت في القمة ؟

ـ ماذا ؟

ـ اننا نشبه بدويا انطلق في الصحراء يبحث عن جرعة ماء ٠٠ فوجد نهرا

ـ ولكن ٠٠٠

يجب الا نغرق في النهر ٠

السيارة تنطلق بنا في طريق طويل كثير الالتواءات ، بين وقت واخر

نهدىء السرعة قليلا ، نصغي الى صوت القذائف ·

ـ هذه منهم ·

ـ هذه منا ·

وبعد قليل نوشك ان نصل الى مفترق الطرق ، ابو زياد يقود السيـــارة ، وابو فراس يحمل في يده جهاز اللاسلكي الصغير ، يقترب القصف اكثر ،ووراءنا على بعد امتار ، ثلاث سيارات محملة بقوة من المقاتلين ، ينادي على الجهاز :

ـ من آدم فراس ·

توقف لحين صدور تعليمات ·

ويشرح لنا ·· « سنسبقهم حتى نعرف اي طريق نسلك » · نصل الـــى مفترق الطرق ، طريق الى الشمال وطريق الى اليمين، نوقف السيارة عنـــد المفترق ، نغادر السيارة نحن الثلاثة ، نتوقف ونراقب الانفجارات ، وميضـــ وانفجار وظلام في لحظة واحدة كأنما انخسفت الارض ، ينقشع الدخان والغبار ويصرخ ابو زياد :

ـ هل حدث لكما شيء ؟

الدم يتدفق من ساقه وذراعه لكنه ما زال واقفا ، وابو فراس منكفىء على الارض بدون حراك ، وسيارتنا تحولت الى حطام ، ينادي علينا بعض المسلحيـن من مكان قريب ، نحمله ، كان جسده ما زال ساخنا ، يسعفون ابو زياد ·· وانا اتحسس جسمه باصابعي ، اتيقن الان انه مات ، تاتي سيارة اسعاف ، احـــاول ان اتماسك في الوسط ، على جانبي جريح ينزف ، وعلى الجانب الاخر جثـــة فقدت حرارتها ، خارج منطقة القصف ، يطلق السائق بوق سيارة الاسعاف ، لا يستجيب احد من ركاب السيارات ، في البدايات لا يحب الناس ان يشاهدوا الموت حتى لا تضعف عزيمتهم ، وفي النهايات لا يحب الناس ان يشاهدوا الموت الذي هربوا منه ، هل نحن في البدايات ام النهايات ، يصل ابو زياد الى حافة الاغماء ، يحرك شفتيه بصعوبة ، يتمتم ·

ـ لا تموتوا كلكم ·

وعندما اخرج من مركز الإسعاف ، لا يتعرف احد الى وجهي ، ربما غيرت الصدمة ملامحي ، ولكن احدهم ينبهني الى ان ملابسي كانت ترشح بالدم ·

خليل بركات

اتفاق شتورة وتحديات الوضع في الجنوب

ما ان توقف القتال في بيروت وبقية المناطق اللبنانية ، حتى انفجر في الجنوب تحت شعار « تحرير ما تبقى من الاراضي اللبنانية التي يحتلها الفلسطينيون الغرباء » انطلاقا من الجنوب · وكان واضحا منذ البداية ، ان القوى الانعزالية اللبنانية التي اخذت على عاتقها تنفيذ المؤامرة محليا ، لم تكن لتستطيع السير في هذا المخطط ، وفتح معركة عسكرية في الجنوب لولا الدعم والمساندة ، بل والحماية التي تتلقاها من العدو الصهيوني· ذلك ان القرى التي يتواجد فيها الانعزاليون على الحدود ، لا يزيد عددها على ست موزعة على طول الشريط الحدودي وبعيدة عن بعضها البعض · ففي الجنوب الغربي تقع « علما الشعب » وعلى بعد حوالي ٢٥ كيلومترا منها تقع « دبل » و « عين ابل » و « رميش » مشكلة مثلثامتكاملا · وعلى بعد حوالي اربعين كيلومترا من هذا المثلث تقع « القليعة » و « برج الملوك » · وهذا التباعد الجغرافي فيما بينها مع عدم وجود خط امدادات داخلي يجعلها من الناحية العسكرية ساقطة ، خاصة وانها واقعة في بحر مناوىء للانعزاليين · ولذلك فتح العدو الصهيوني طرق فلسطين المحتلة لتشكل خط امداد واتصال للانعزاليين في هذه القرى ، الى جانب توفير الدعم والمساندة لحمايتهم عند الضرورة ومدهم بالمساعدات في الحقول التموينية والصحية التي لا غنى عنها في حال الحرب كما هو في حال السلم ان لم يكن اكثر ·

وعلاقة الانعزاليين بالعدو الصهيوني ليست مسألة استنتاج ، ولا هي مستندة الى الاخبار والتعليقات التي تتناقلها الصحف العالمية ، كما انها ليست مستقاة فقط من المشاهد التلفزيونية التي يعرضها تلفزيون العدو من حين لاخر والتي تظهر كيفية حصول التكامل والتعاون الجاري بينه وبين الانعزاليين ، وانما اقترنت هذه العلاقة اخيرا بأدلة رسمية دامغة مصدرها العدو الصهيوني نفسه · ففي ٨-٨-١٩٧٧ اعلن رئيس وزراء العدو مناحيم بيغن امام حشد من اليهود الاميركيين ان « اسرائيل » ساعدت وما زالت تساعد

« المسيحيين » في جنوب لبنان بالسلاح والعتاد والمساعدات الاخرى ، وانها سوف تمضي في هذه السياسة « لدوافع انسانية » خوفا عليهم من الابادة · واضاف ، ان المدفعية الاسرائيلية تقصف الفلسطينيين وحلفاءهم اليساريين ردا على قصف هؤلاء للقرى « المسيحية » · واعلن ان « اسرائيل » سوف تمد الانابيب لايصال مياه الشرب الى القرى المسيحية على الحدود ·

لقد اذيع هذا التصريح من اذاعة العدو الصهيوني نفسه وتناقلته الاذاعات العالمية ووكالات الانباء ، فجاء مغايرا للسياسة التي كان الصهاينة يتبعونها في السابق والتي تقضي بمنع مراسلي الصحف من نقل مثل هذه الانباء عن المساعدات ، كما جاء هذا التصريح بشكل صفعة قوية لزعماء الانعزاليين في « الجبهة اللبنانية » الذين كانوا ينفون كل ما يقال عن تعاونهم مع العدو الصهيوني والذين كانوا يصفون الافلام التلفزيونية التي تظهر تعاونهم مع العدو بانها « صور مركبة ومدسوسة ولا اساس لها من الصحة » . ويكشف خططهم السياسية التكتيكية عندما يتهجمون على « اسرائيل » في محاولة منهم لتغطية تعاونهم معها ·

و « المسيحيون » الذين يقصدهم بيغن هم المسلحون الانعزاليون التابعون « للجبهة اللبنانية » · وقد اختار هذه التسمية في محاولة منه لاخفاء الدور الحقيقي « لاسرائيل » تحت ما يسمى « بدوافع انسانية » ·

واذا كان الانعزاليون غير قادرين وحدهم على دفع الوضع في الجنوب نحو الانفجار ، فان « اسرائيل » هي الاخرى غير قادرة وحدها على القيام بهذا الدور ، ذلك ان فتحها للمعركة في الجنوب يعني اعتداء مباشرا على لبنان ، العضو في الامم المتحدة ، الامر الذي يؤدي الى احراجها دوليا ، ويؤدي الى تحوير الصراع في لبنان ليصبح صراعا مع العدو الاسرائيلي ينتج عنه احراج للانظمة العربية التي سوف تضطر الى اتخاذ موقف ما تجاه هذا العدوان ، ويقوي في الوقت نفسه من موقف المقاومة الفلسطينية · وهذا لن يكون في صالح « اسرائيل » التي تريد ان تستمر المؤامرة على الشكل الذي بدأت فيه منذ ١٣ نيسان ١٩٧٥ والتي اختارت طريق تفجير الاوضاع في لبنان عن طريق الاقتتال الداخلي واشغال العرب به ، كأفضل وسيلة لضرب الثورة الفلسطينية وتصفية ظاهرة الكفاح الشعبي المسلح التي برزت في مطلع سنة ١٩٦٥ والتي تدرك اسرائيل خطورة استمرارها وتصاعدها ·

من اجل ذلك كله اختارت « اسرائيل » طريق التدخل من الخلف واضعة امامها القوى الانعزالية ، لتظ هي صورة الصراع مكتفية هي بدور الداعم والمساند · وتوفير كافة مستلزمات القتال لها وحمايتها عندما تشعر انها اصبحت في وضع خطر ·

الوضع العسكري في الجنوب من منتصف نيسان الماضي وحتى منتصف اب ١٩٧٧ :

استمر التوتر العسكري في الجنوب ، بعد استرداد القوات المشتركة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لبلدة « الطيبة » بتاريخ ٦ نيسان ١٩٧٧ ، وبلدة « الخيام » بتاريخ ٩ نيسان ١٩٧٧ · وعلى الرغم من ان هذه القوات قد اوقفت تقدمها عند مداخل بلدة « مرجعيون » نظرا لان الاوضاع السياسية لم تعد تسمح بمثل هذا التقدم ، وعلى الرغم من ان السياسة التي اتبعها الجانب الوطني ، منذ ذلك الحين ، كانت تقضي بالتزام حالة الدفاع عن النفس ، الا ان الجانب الانعزالي بدعم من « اسرائيل » استمر في توتير

الاجواء وزاد من عمليات القصف المدفعي ، خاصة في محور مرجعيون ٠

ففي محور بنت جبيل ، لم تشهد المنطقة عمليات عسكرية هجومية من اي من الطرفين ٠ وانحصر النشاط العسكري في هذا المحور بالقصف المدفعي من جانب « اسرائيل » والانعزاليين ، باتجاه بلدة « بنت جبيل » ، والقرى المجاورة لها مع رد خفيف من الجانب الوطني عند الضرورة القصوى ٠

الا انه بتاريخ ٢ تموز ١٩٧٧ قامت القوى الانعزالية بارتكاب مجزرة في قرية « يارين » الحدودية ذهب ضحيتها خمسة عشر مواطنا من ابناء البلدة بالاضافة الى خمسة جرحى معظمهم من النساء والشيوخ ٠ وتفاصيل هذه المجزرة ان القوى الانعزالية قدمت الى البلدة من مثلث « دبل » ـ « رميش » ـ « عين ابل » ، على متن ناقلات جنود اعطتها اياها « اسرائيل » ٠وعند وصولها الى البلدة اقدمت على قتل من صادفته في طريقها من دون اشتباك ٠ علما بأن اهالي القرية كانوا قد اتفقوا مع الانعزاليين على تحييدها بحيث تمر دورياتهم من المثلث المذكور الى قرية « علما الشعب » الواقعة في الطرف الغربي من الشريط الحدودي ، دون ان يعترضها احد ، مقابلعدم تعرض الانعزاليين لنبلدة ٠ ولذلك عندما رأى الناس في البلدة ان الدورية الانعزالية قادمة ظنوا انها في طريقها الى « علما الشعب » ولكنهم فوجئوا عندما توقف افرادها في البلدة واقدموا على ارتكاب المجزرة ونسفوا عدة منازل ، بينما هرب شباب البلدة الى خارجها عبر الوديان ، ومن ثم نزح من تبقى من ابنائها بعد المجزرة الى القرى الخلفية ٠

لم تكن الطريقة الغادرة التي اتبعها الانعزاليون مع قرية « يارين » امرا مستغربا ، وانما الامر المستغرب هو عدم اخذ الاحتياطات اللازمة ٠ فاذا كان وضع « يارين » الجغرافي لا يسمح لها بمواجهة الانعزاليين وفتح جبهة قتال ضدهم ، فان المسلحين من ابنائها ، المتواجدين في داخلها كاف لاخذ هذه الاحتياطات وتجنيب البلدة مثل هذه المجزرة التي ذهب ضحيتها مثل هذا العدد دون قتال ٠ علما بان الاجواء التي سبقت ارتكاب هذه المجزرة كانت تنبىء بأن امرا ما يعد لبلدة « يارين » من جانب العدو الصهيوني او من جانب الانعزاليين ، او من الاثنين معا ٠ اذ قبل المجزرة بحوالي خمسة عشر يوما دخلت دورية صهيونية البلدة ليلا ونسفت بعض المنازل فيها واشتبكت مع عدد من ابناء البلدة كانوا يقومون بالحراسات ٠ وعلى اثر ارتكاب المجزرة ، عادت الدورية الانعزالية الى قرى مثلث « دبل » و « عين ابل » و « رميش » بعد ان قصفتها مدفعية الثورة الفلسطينية وجيش لبنان العربي بشدة ، والحقيقة ان انسحاب الانعزاليين من يارين لم يكن نتيجة لهذا القصف ٠ وانما نظرا لان مهمة الانعزاليين انتهت عند قيامهم بالعدوان على البلدة اذ يستحيل عليهم البقاء فيها لسببين :

الاول : عدم قدرة الانعزاليين على توزيع قواتهم ، لان القوات التي بحوزتهم في هذا المحور قليلة من ناحية العدد ٠

والثاني : ان خط المواصلات بين قرى «المثلث» و « يارين » يبلغ طوله حوالي عشرين كيلومترا ، ولا تستطيع القوى الانعزالية تامين الحماية له ، الامر الذي يعرض دورياتهم للخطر عند مرورها على هذا الخط ، فيما لو اتبعت القوات المشتركة اسلوب نصب الكمائن المتنقلة على طول الطريق ٠

بعد مجزرة « يارين » بدأت المخاوف من ان يكون هذا العمل مقدمة لتصعيد الموقف

العسكري من جانب الانعزاليين في هذا المحور ومحاولة السيطرة على قرية « يارون » الحدودية المحاذية لقرية « رميش » التي يسيطر عليها الانعزاليون . والتقدم منها نحو قرية « مارون الراس » الحدودية بحيث تصبح بلدة « بنت جبيل » في وضع خطر لانها تصبح عندئذ مطوقة من الجنوب ومن الغرب ، وواقعة تحت مرمى نيران القنص من الجنوب · الا ان ذلك لم يحصل بسبب ضعف القدرة العسكرية لدى الجانب الانعزالي وظهور خلافات داخل صفوفهم واصرار الاهالي في هاتين القريتين على تحييدهما حتى ولو ادى الامر الى الاصطدام بالقوى الانعزالية في حال اقدامها على احتلالهما ، الى جانب ان القوات المشتركة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية بالاضافة الى جيش لبنان العربي يتمتعون بقوة عسكرية لا يستهان بها لمواجهة الانعزاليين ·

اما في محور « الطيبة ـ مرجعيون » ، فقد كان التوتر العسكري شديدا ، الا انه انحصر في القصف المدفعي من جانب التحالف الانعزالي ـ الصهيوني باتجاه « الطيبة » ، رب « ثلاثين » ، « دير سريان » ، « القنطرة » ، من جهة الغرب ، وباتجاه « الخيام » و « ابل السقي » وغيرهما من القرى من الجهة الشمالية الشرقية ، دون ان يرافق ذلك محاولة تقدم من الجانب الانعزالي ، بينما كانت مواقف الجانب الوطني ملتزمة بسياسة التهدئة والدفاع عن النفس عند الضرورة القصوى ·

ومن جهة اخرى استمر القصف المدفعي الاسرائيلي ـ الانعزالي على بلدة « النبطية » وبعض القرى المجاورة لها طيلة هذه الفترة · وما زالت الحياة الاقتصادية مشلولة شللا تاما في « النبطية » التي هاجر تسعون في المائة من ابنائها الى القرى المجاورة تجنبا للقصف ·

الا انه في الاسبوع الثاني من شهر آب ١٩٧٧ ، اي قبل موعد تنفيذ اتفاق شتورة رسميا في الجنوب زاد التحالف الانعزالي ـ الصهيوني من قصفه المدفعي ، بشكل كثيف وبصورة خاصة على محور « الطيبة » ـ « رب الثلاثين » ومحور « الخيام » ـ « ابل السقي » ـ « بلاط » بالاضافة الى بلدة « النبطية » وبعض القرى المجاورة لها · وفي القطاع الغربي ، حاول الانعزاليون التقدم نحو قرية « يارين » من جهة « علما الشعب » . الا ان محاولتهم تلك باءت بالفشل بعد ان تصدت لهم القوات المشتركة من الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية وجيش لبنان العربي وكبدتهم عددا من الخسائر في الارواح كان من بينها مقتل الضابط فرح قائد القوات الانعزالية في « علما الشعب » ·

اما في منطقة العرقوب ، وهي تمثل القطاع الشرقي بموجب اتفاقية القاهرة حيث يحق للفدائيين بموجب هذه الاتفاقية التمركز فيها واقامة القواعد ، فان الوضع هناك يثير الريبة · فالعدو الصهيوني يمارس عمليا سيطرته على العديد من قرى هذه المنطقة في ظل اجواء من الصمت الرسمي ودون الاعلان عن ذلك من قبله · اذ انه اقدم منذ عدة اشهر على تعبيد طريق بعرض ثمانية امتار تصل الى داخل بلدة « كفرشوبا » كما ان قواته تتمركز في التلال المطلة على البلدة وتقوم بنصب الكمائن بالقرب من الطريق المؤدية اليها ، ويقوم الضباط الصهاينة باستدعاء وفود من قرى « كفرشوبا » و « الهبارية » . و « كفر حمام » و « شبعا » ، ويتحدثون معهم بأسلوب الترغيب والترهيب ، مبدين استعداد « اسرائيل » لمدهم بكل ما يحتاجون اليه شرط التعاون معها ضد « المخربين » الفلسطينيين ، او تعريض قراهم للقصف المدفعي في حال عدم تجاوبهم مع دعواتها · وبالفعل اقدمت « اسرائيل » على قصف قرية « كفر حمام » ، ردا على عدم ذهاب وفد

من القرية للاجتماع بالصهاينة ، ونجم عنهذاالقصف احراق المحاصيل الزراعية · كما اشتد القصف على قرية « راشيا الفخار » في الفترة الاخيرة ·

وفي شهر حزيران ١٩٧٧ حضر الى قرية « كفرشوبا » الرائد سعد حداد قائد القوات الانعزالية في منطقة مرجعيون ، عن طريق الارض المحتلة في فلسطين ، ومعه ٢٥ جنديا قدموا بواسطة سيارات جيب ترافقهم ناقلة جنود ، ودعا اهالي البلدة الى الحضور حيث اجتمع بهم ، ودعاهم الى التعاون معه ضد « الفلسطينيين الغرباء » معلنا استعداده لتقديم كل ما يلزمهم من حاجات تموينية · وغادر البلدة كما دخلها بحماية القوات الصهيونية المطلة على « كفرشوبا » ·

هل ينجح اتفاق شتورة في الجنوب ؟

ما ان اعلن اتفاق شتورة بتاريخ ٢١ تموز ١٩٧٧ بين السلطة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية وسورية ، والذي تضمن انهاء القتال الدائر في الجنوب عن طريق سحب مقاتلي الثورة الفلسطينية من قرى الحدود وتطبيق ما نصت عليه اتفاقية القاهرة بهذا الشان ، مقابل سحب « القوات الانعزالية » من المنطقة ، وارسال قوات من الجيش اللبناني اليها ، ما ان اعلن هذا الاتفاق حتى سارع الانعزاليون ، من خلال التصريحات التي اطلقها عدد من زعمائهم ، الى اعلان التحفظ على الاتفاق ، والنظر اليه بسلبية · فقد علق بشير الجميل قائد « القوات الانعزالية » على اجتماع شتورة بقوله : « انه لا يرى فائدة من هذه اللقاءات ، لانها مسرحية ذات فصول ، ولن تؤدي الى النتائج المطلوبة ، وانه لا جدوى من مثل هذه الطريقة في حسم الازمة » · (النهار ٢٢ـ٧ـ٧٧) ·

اما سليمان فرنجية ، رئيس الجمهورية السابق فقال : « اعتقد ان تاليف اللجان اللبنانية ـ الفلسطينية لا يجدي نفعا ، كذلك كل ما يقال عن صيغ اعدت او طرحت للبحث، لان التجربة الطويلة علمتنا ان لا نثق كثيرا بمثل هذه اللجان » · (النهار ٢١ـ٧ـ٧٧) ·

ورد شربل قسيس رئيس مؤتمر الرهبانيات على سؤال عن رأيه في قول الاخ ابو اياد انه يريد مد يده الى جميع الاطراف في لبنان فقال : « بعد بكير » !! (النهار ٢١ـ٧ـ٧٧)·

وقال شاكر ابو سليمان رئيس الرابطة المارونية : « نقابل بشيء من الحذر التعهد الفلسطيني الجديد بتنفيذ اتفاق القاهرة بعدما سمعنا مرارا مثل هذه التصريحات » · (النهار ٢١ـ٧ـ٧٧) · ·

أما كميل شمعون فقد سئل عن رأيه بعد تنفيذ المرحلة الاولى من الاتفاق فيما اذا كان هذا التنفيذ من شأنه ان يؤدي الى مباشرة التحضير للوفاق السياسي ، فأجاب : « ما جرى حتى الان نعتبره احدى مراحل التنفيذ ، وعندما تكتمل مختلف المراحل نحن حاضرون للوفاق السياسي المطلوب ولغيره ، ولكن يجب الا يغيب عن بالنا موضوع اعادة اهالي الدامور · فما دامت الدامور محتلة ، وما دام الجنوب يحتله ١٥ الف مسلح فلسطيني وعدد كبير من ابناء الجنوب مهجرون من منازلهم ، فاننا نعتبر ان الوضع ما زال على حاله ولن ينتهي الا بازالة هذه الاوضاع الشاذة » · (النهار ٧ـ٨ـ٧٧) ·

من خلال هذه التصريحات التي ادلى بها زعماء الجبهة الانعزالية يتبين ما يلي :

اولا ـ ان الاتفاق المذكور لا يتوافق تماما مع رغبتهم في ضرب الوجود الفلسطيني المسلح على الارض اللبنانية ، وانهم بالتالي يتحفظون عليه ·

ثانيا ـ التركيز على قضية الدامور واعتبارها شرطا للوفاق السياسي بعدما كـــان الشرط هو تطبيق الفلسطينيين للاتفاقات المعقودة معهم · وهذا يعني التهرب من موضوع الوفاق السياسي الذي هو شرط لا بد منه لتحقيق الامن والاستقرار في لبنان ، علمـــا بان حل قضية الدامور وغيرها من قضايا المهجرين الذين يتجاهلهم شمعون ، مرتبطـــة بتحقيق الوفاق السياسي ·

ثالثا ـ ان كميل شمعون يلقي مسؤولية تهجير « عدد كبير من ابناء الجنوب » علـى عاتق « الفلسطينيين الذين يحتلون الجنوب » ، متجاهلا أن هذه المسؤولية تقع على عاتق الانعزاليين الذين نقلوا القتال الى الجنوب بالتعاون مع العدو الصهيوني وهو ما صرح به بيغن رئيس وزراء « اسرائيل » ، عندما اعترف مؤخرا بان « اسرائيل » ساعـــدت الانعزاليين بالسلاح والامور الاخرى وساندتهم بالقصف المدفعي ، وانها سوف تستمــــر بالقيام بهذا الدور « الانساني » ·

من خلال ذلك كله يتبين ، ان هناك احتمالا كبيرا في الا يطبق الانعزاليون اتفـــاق شتورة في الجنوب · لان تطبيق هذا الاتفاق يعني سحب قواتهم من المنطقة وبالتالــــي سحب ورقة الجنوب من ايديهم · في حين ان مخططهم يتطلب الحفاظ على هذه الورقة كوسيلة للابتزاز السياسي ، يضغطون بها محليا وعربيا من اجل مد نفوذهم على كـــل الاراضي اللبنانية كشرط لقبولهم بوحدة لبنان بدلا من التقسيم ، ويدفع بالقوى المحليـــة والعربية الى استرضائهم دوما وتقديم التنازلات لهم ·

ومن جهة اخرى ، فان « اسرائيل » بدورها لا ترضى ان ينجح اتفاق شتورة في الجنوب، لانها عندئذ تفقد الستار الذي من خلفه تتحرك ، وهي تريد ان يبقى الوضع على حاله في الجنــوب ليكون كبسولة تفجير الوضع مجددا في لبنان ، واشغال العـــــرب بالازمــــــة اللبنانية ·

من هنا يتبين ان مصلحة اسرائيل ومصلحة الانعزاليين تتفقان في عدم استقـــرار الوضع في الجنوب ، بينما مصلحة الثورة الفلسطينية انهاء القتال في المنطقة لانـــه يشكل عامل استنزاف لها · كما ان من مصلحة ابناء الجنوب وقف هذا القتال تمهيــدا لعودتهم الى قراهم واستئناف الحياة الاقتصادية ·

ولذلك فانه بدلا من ان تخف حدة القصف المدفعي بعد اعلان اتفاق شتورة ، زاد التحالف الانعزالي ـ الصهيوني من قصفه على قرى الجنوب في الوقت الذي اعلنت فيه الثـــورة الفلسطينية ومعها الحركة الوطنية وجيش لبنان العربي وقف اطلاق النار من جانب واحد وعدم الرد على استفزازات الانعزاليين الامر الذي يساعد على كشف الجانب الانعزالي اكثر فاكثر وتحميله مسؤولية استمرار القتال في الجنوب امام القوى المحلية والعربيـــة ويساهم في تخفيف الضغط السياسي على الثورة الفلسطينية وتحويله نحو القـــــوى الانعزالية التي ترفض تنفيذ الاتفاق ·

ومن الملفت للنظر ان اذاعة الكتائب ، وصحف الانعزاليين ، باتت تتحدث عن الاشتباكات في الجنوب ، بعد اتفاق شتورة ، على انها اشتباكات تجري بين «اهالي » « القليعة » و « عين ابل » و «دبل » و « رميش » وبين « الفلسطينيين واليساريين » بعدما كانت تذكر في الماضي اسم « القوات اللبنانية » · وهذا يحمل في طياته بذور التملص من الاتفاق ، وعدم

تنفيذه · ويبدو ان الجبهة الانعزالية سوف تدعي مستقبلا بانها سحبت قواتها من المنطقة ، وان الاهالي هم وحدهم موجودون هناك . ولهم حق الدفاع عن انفسهم ، وانه « لا يعقل ان يطلب من الاهالي ترك قراهم » · ان الاسابيع القليلة القادمة سوف تجيب اجابة عملية على السؤال ، عندما يوضع اتفاق شتورة على المحك في الجنوب ·

ماهر الشريف

قضية فلسطين ومناقشات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية

قدم لينين والبلاشفة بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية مساعدة كبرى للحركة التحررية لشعوب البلدان العربية ، وذلك بفضحهم للمخططات الامبريالية الرامية الى تقسيم العالم العربي واستعباد شعوبه ، وبنشرهم لوثائق المعاهدات السرية التي ابرمها امبرياليو دول الوفاق فيما بينهم حول اقتسام مناطق النفوذ في الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني انذاك ·

وفي هذا الاطار ، فضحت الدولة السوفياتية الفتية ، ومنذ الاشهر الاولى لولادتها ، دسائس الصهاينة وحماتهم الامبرياليين في فلسطين · ففي ٢٨ كانون الاول ١٩١٩ نشرت المفوضية المؤقتة لشؤون اليهود القومية لدى مفوضية الشعب لشؤون القوميات في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية نداء خاصا اشار باستنكار الى « ان الصهاينة يحاولون ازاحة العرب من فلسطين ويستعدون لانشاء دولة يهودية لهم هناك ··· ان جماهير الشغيلة اليهود ترى في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية وطنها الاشتراكي الذي تدافع عنه في الجبهات مع عمال روسيا وفلاحيها ضد امبرياليه دول الوفاق وجميع عملائها ··· اننا لسنا بحاجة الى اية بلدان اخرى · ولا نبدي اية حقوق قومية لامتلاك فلسطين · ونحن نعترف بهذه الحقوق كاملة لجماهير العرب والبدو الكادحة » · (١)

لقد لعب المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية الذي انعقد في تموز ـ آب ١٩٢٠ دورا هاما في عملية فضح دسائس الامبريالية والصهيونية في فلسطين · وصدر عن هذا المؤتمر ضمن « اطروحات حول المسائل القومية والكولونيالية » (٢) اول نص رسمي للاممية الشيوعية يتعلق بقضية فلسطين ، ارتبط باسم لينين وتضمن ادانة واضحة وصريحة للمشروع الامبريالي الصهيوني ·

لقد اكدت الاطروحة الحادية عشرة من الاطروحات التي اقرها المؤتمر حول المسائل القومية والكولونيالية ، والتي حددت استراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية « حيال الدول والبلدان المتخلفة ، حيث تسود مؤسسات اقطاعية او عشائرية ـ دينية » ، بأن على

قيادة الاممية الشيوعية ان تضع بعين اعتبارها ، خلال النضال الايديولوجي الذي تخوضه في هذه البلدان ، عدة مبادىء رئيسية ومنها : « ضرورة الفضح الدائب امام الجماهير العاملة في جميع البلدان ، وخاصة في البلدان المتخلفة ، لعملية الخداع المنظم الذي تمارسه الدول الامبريالية بمساعدة الطبقات السائدة في البلدان المضطهدة ، والتي تتظاهر بالدعوة لاقامة دول مستقلة سياسيا ، بينما تقيم في الواقع دولا تابعة لها كليا من جميع النواحي الاقتصادية والمالية والعسكرية · وكمثال صارخ على الخداع الذي يمارس على طبقة الكادحين في البلدان المضطهدة ، وذلك بالجهود المشتركة لامبريالية دول الوفاق وبرجوازية هذا البلد او ذاك ، نستطيع أن نشير الى مشروع الصهاينة في فلسطين · ان الصهيونية ، وبحجة اقامة دولة يهودية في هذا البلد ، الذي يشكل اليهود فيه اقلية ضئيلة ، قد قدمت السكان الاصليين من الكادحين العرب ، قربانا للاستغلال الانكليزي » · (٣)

سنحاول خلال هذا البحث التعرض لخلفيات هذا النص ـ الموقف ، وذلك من خلال مراجعة المناقشات التي دارت داخل جلسات المؤتمر ، والتي تعرضت لقضايا الصهيونية وفلسطين ·

لم يتعرض المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية بشكل مباشر لقضايا الصهيونية وفلسطين (٤) ، وانما تم ذلك كنتيجة للصراعات الايديولوجية الحامية التي احتدمت بين ممثلي المجموعات السياسية اليهودية المختلفة التي ساهمت في هذا المؤتمر ، وذلك اثناء النقاشات الموسعة التي دارت حول المسائل القومية والكولونيالية ·

قبل التعرض لمداخلات ممثلي المجموعات السياسية اليهودية التي ساهمت في هذا المؤتمر، نرى من الضروري التعريف بهذه المجموعات واستعراض تاريخ نشأتها ، وظروف اشتراكها في المؤتمر · ولكن قبل ان نفعل ذلك ، سنحاول اعطاء لمحة عامة عن النقاشات التي دارت داخل المؤتمر الثاني للاممية حول المسائل القومية والكولونيالية ·

١ ـ المسائل القومية والكولونيالية على جدول اعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية :

لعب المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية دورا بارزا في عملية تطوير نظرية واستراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية حيال المسائل القومية والكولونيالية ، في ظروف الامبريالية وبدء مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية · وقد نظر المؤتمر الى المسألة القومية والكولونيالية كمسألة ذات طابع عالمي ، تتعلق بدور ومكانة النضال التحرري القومي الذي تخوضه الشعوب المستعمرة والتابعة في العملية الثورية العالمية ·

عندما دعي المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية للانعقاد في صيف العام ١٩٢٠ ، كان يسود العالم بفعل قانون التطور المتفاوت لعملية الثورة العالمية ، وضع متناقض الى ابعد حد ، فمن جهة استطاع النظام السوفياتي الصمود في وجه التدخل الامبريالي والرجعي ووطد مواقعه ، وتصاعدت موجة النضال التحرري للشعوب المستعمرة والتابعة ، ومن جهة اخرى تباطأ وقع تطور الثورة في غرب اوروبا خاصة بعد سلسلة الهزائم التي منيت بها الطبقة العاملة ، والتي كان من ابرزها تهاوي الجمهورية السوفياتية في المجر في آب ١٩١٩ امام ضربات القوى الرجعية الداخلية المدعومة من قبل الامبريالية الانكليزية ·

في ظروف هذا الوضع العالمي المتناقض والتراجع المؤقت الذي فرض على الحركة الثورية في أوروبا ، اولى المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية اهتماما خاصا لبحث قضية

حلفاء الطبقة العاملة في النضال ضد الامبريالية ، ودرس بتعمق في هذا المجال المسألة الزراعية والمسألة القومية والكولونيالية · وقد صاغ لينين شخصيا مسودة الاطروحات الاولية حول هاتين المسألتين ، وساهم بنشاط في اعمال اللجان المكلفة بتحضير مشروع القرار الخاص بكل منهما (٥) ·

ان مبدأ التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين هو مبدأ اساسي من مبادىء اللينينية · ولقد كان ماركس وانجلز قد أكدا على أهمية وضرورة هذا التحالف ، خاصة بعد أن استخلصا نتائج الهزيمة التي منيت بها بروليتاريا اوروبا الغربية في المعارك الثورية التي جرت في العام ١٨٤٨ ، ودروس هزيمة كومونة باريس في العام ١٨٧١ · وقد كانت الافكار الاساسية التي صاغها ماركس وانجلز حول المسألة الفلاحية ، والتي اغفلها طويلا انتهازيو الاممية الثانية ، هي القاعدة التي اعتمد عليها لينين فيما بعد لصياغة البرنامج الزراعي للحزب البلشفي وللاممية الشيوعية ·

لقد احتلت المسألة القومية والكولونيالية اهمية خاصة في اعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، لانها المسألة التي تجسد أساسا مبدأ التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين على الصعيد العالمي ، خاصة وأن الفلاحين يشكلون الغالبية العظمى من سكان المستعمرات والبلدان التابعة ·

لقد كان لينين يرى بأنه لا يمكن القضاء على النظام البرجوازي في البلد الواحد اذا لم يتدعم التحالف الكفاحي بين الطبقة العاملة والفلاحين في هذا البلد · وكذلك الامر على الصعيد العالمي ، فانه لن يكون من الممكن هزيمة الامبريالية العالمية بدون تدعيم التحالف الكفاحي بين البروليتاريا الثورية في البلدان الرأسمالية المتقدمة وحركة التحرر القومي لشعوب المستعمرات والبلدان النامية ، خاصة وان هذه الحركة الاخيرة قد باتت تشكل ، بعد انتصار ثورة اكتوبر وبدء الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، جزءا لا يتجزأ من الثورة الاشتراكية ، العالمية ·

افتتح المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية في ١٩ تموز ١٩٢٠ بمدينة بتروغراد ، ثم انتقل الى مدينة موسكو لمتابعة اعماله خلال الفترة الواقعة بين ٢٣ تموز الى ٧ آب · وقد ساهم في أعمال هذا المؤتمر (٢١٧)مندوبا ، يمثلون (٦٧) منظمة في (٣٧) بلدا (٦) · وبالاختلاف عن المؤتمر التأسيسي الاول الذي انعقد في العام ١٩١٩ ، ساهم في اعمال هذا المؤتمر عدد كبير نسبيا من ممثلي الاحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان المستعمرة والتابعة ، من بينهم مندوبون عن الهند والصين وكوريا وايران وتركيا ··· وقد قيم لينين تقييما كبيرا أهمية اشتراك هذا العدد الكبير من ممثلي الحركات الثورية في المستعمرات والبلدان التابعة · ففي التقرير الذي قدمه في الجلسة الاولى للمؤتمر عن « الوضع العالمي ومهام الاممية الشيوعية الرئيسية » (٧) ، اكد لينين على أن « وحدة البروليتاريا الثورية في البلدان الراسمالية المتقدمة مع الجماهير المستغلة في المستعمرات ··· قد أصبحت حقيقة واقعة في هذا المؤتمر (الذي) يستحق بحق لقب مؤتمر عالمي ··· » (٨) ·

قرر المؤتمر في الجلسة التي عقدها في ٢٤ تموز تشكيل لجنة خاصة برئاسة لينين لبحث المسألة القومية والكولونيالية وتقديم قرار خاص بها · وقد عين « مارينغ » (MARING) ، مندوب الحزب الشيوعي في الهند الهولندية سكرتيرا لهذه اللجنة · وقد اعتمدت اللجنة كقاعدة لعملها « المسودة الاولية للاطروحات حول المسائل القومية والكولونيالية » التي كان لينين قد وضعها استعدادا للمؤتمر ، بالاضافة الى « الاطروحات التكميلية » التي

وضعها المندوب الهندي « روي » (ROY) بطلب من لينين (٩) ، والتي ركزت أساسا على الاوضاع في الهند وعلى ظروف النضال الذي تخوضه الشعوب المضطهدة من قبل الامبريالية الانكليزية في آسيا ٠

اجتمعت اللجنة يوم ٢٥ تموز لمناقشة مسودتي الاطروحات المقدمة من لينين و « روي » ، كما استمعت الى عدة تقارير عن نشاط الحركات الثورية في الهند الهولندية (اندونيسيا) والصين وايران وكوريا وغيرها ٠ بالاضافة الى تقرير خاص عن أوضاع الحركة السوداء في أمريكا ، قدمه المندوب الاميركي « ريد » (REED) (١٠) ٠ وبعد مناقشات طويلة استمرت طوال اليوم ، وافقت اللجنة على المسودة الاولية للاطروحات التي قدمها لينين وذلك بعد ادخال عدد من التعديلات عليها ، كما أقرت مسودة الاطروحات التكميلية المقدمة من « روي » ، بعد ان قام لينين بتصحيح بعض الافكار التي تضمنتها ٠

لقد كانت الاطروحات المقدمة من لينين تنطلق من واقع أن التناقض القائم بين الرأسمالية والاشتراكية هو التناقض الاساسي في المرحلة الجديدة التي افتتحها انتصار ثورة اكتوبر ٠ ان مجمل التطور العالمي ـ قال لينين ـ مشروط الان بنضال الدول الامبريالية ضد روسيا السوفيتية ، «فاذا لم نتخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة فاننا ستكون عاجزين عن معالجة صحيحة ، حتى لو اقتصرت هذه المعالجة على مسألة قومية وكولونيالية واحدة، ولو كانت هذه المسألة تتعلق بأكثر زوايا العالم انعزالا ٠٠ فقط بالانطلاق من هذه الحقيقة تستطيع الاحزاب الشيوعية سواء في البلدان المتقدمة أو المتخلفة أن تطرح وأن تعالج بشكل صحيح القضايا السياسية » ٠ لقد اكد لينين على ان مجمل احداث السياسة العالمية تتجه الان نحو نفس النقطة المركزية ، والتي تتمثل « بالصراع الذي تخوضه البرجوازية العالمية ضد الجمهورية السوفياتية في روسيا التي تلتف حولها الحركات السوفيتية لعمال الدول المتطورة من جهة ، وكافة حركات التحرر القومي في المستعمرات والامم المضطهدة ، (التي اقتنعت بعد تجارب مريرة) بأنه لا خلاص بالنسبة اليها الا بانتصار سلطة السوفيات على الامبريالية العالمية » ٠

انطلاقا من هذه الحقيقة ، تتمثل المهمة العاجلة للاممية الشيوعية بالسعي لتحقيق التحالف الوثيق بين كافة حركات التحرر القومي المعادية للامبريالية وبين روسيا السوفياتية ، وذلك لخوض النضال ضد العدو المشترك : الامبريالية العالمية ٠

لقد طالب لينين في أطروحاته جميع الاحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة بتقديم المساعدة المباشرة ، خلال نشاطها الدعائي والتحريضي ، الى الحركات الثورية للامم التابعة أو التي لا تملك المساواة في الحقوق ، ولشعوب المستعمرات ٠ فبدون تقديم هذه المساعدة المباشرة ، لن يكون « النضال ضد استعباد الامم التابعة وشعوب المستعمرات ، والاعتراف بحقها في الانفصال ، سوى شعارات خادعة ، كما كان الامر بالنسبة لاحزاب الاممية الثانية » ٠

أما الاحزاب الشيوعية في البلدان المتخلفة ، فقد رأى لينين بأن من واجبها دعم نضال حركة التحرر القومي البرجوازية ـ الديمقراطية ، ومحاربة التأثيرات الايديولوجية للقوى الرجعية ، وتقديم مساعدة خاصة للحركة الفلاحية في نضالها ضد الملكية العقارية الكبيرة، والسعي لطبع هذه الحركة بطابع ثوري من خلال تحقيق التحالف الوثيق بينها وبين الحركة العمالية الثورية في أوروبا الغربية ٠

لقد اعتبر لينين بأن على الاممية الشيوعية أن تدعم « الحركات القومية البرجوازية ـ الديمقراطية في المستعمرات » ، ولكن على شرط أن تتجمع في الوقت نفسه « عناصر الاحزاب الشيوعية في كافة البلدان المتخلفة ، وأن تتثقف بروح النضال في سبيل المهام الخاصة ، مهام النضال ضد الحركات البرجوازية ـ الديمقراطية » في المستقبل . وقد رأى لينين بأنه بالامكان اقامة تحالفات مؤقتة بين الاممية الشيوعية وبين البرجوازية ـ الديمقراطية في المستعمرات « شريطة عدم الاندماج معها ، وضمان الحفاظ على استقلالية الحركة البروليتارية في المستعمرات حتى ولو كانت في بداياتها الاولى .. » .

وبالنسبة لحقوق الاقليات القومية داخل البلدان المتعددة القوميات اكد لينين على أنه لا يكفي أن تعترف الاحزاب الشيوعية رسميا بمبدأ المساواة بين القوميات ويضمان حقوق الاقليات القومية ، ولا أن تدين بدعاياتها وتحريضها الخرق الدائم لهذا المبدأ داخل البلدان الرأسمالية ، بل أن عليها « أن تظهر دائما بأن النظام السوفياتي هو وحده القادر على ضمان المساواة بين القوميات ، من خلال تحقيق وحدة العمال اولا وجميع الكادحين ثانيا في النضال ضد البرجوازية » .

لاحظ لينين في نهاية اطروحاته بأن الاضطهاد المتواصل الذي تعاني منه شعوب المستعمرات قد ترك عند الجماهير الكادحة « ليس فقط مشاعر الكراهية ، وانما ايضا مشاعر الريبة تجاه الامم المضطهدة عموما ، وحتى تجاه عمال هذه الامم » . وقد ساعدت خيانة غالبية قادة هؤلاء العمال خلال الحرب العالمية الاولى « الذين دافعوا تحت شعار « الدفاع عن الوطن » عن حق (برجوازيتهم) باضطهاد المستعمرات ونهب البلدان التابعة ماليا ، في تقوية مشاعر الريبة المشروعة هذه » . وقد نصح لينين البروليتاريا الشيوعية الواعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة باعارة انتباه خاص لبقايا مشاعر التعصب القومي عند جماهير البلدان المضطهدة منذ وقت طويل من قبل القوى الامبريالية ، وأن تكون حتى على استعداد لتقديم بعض التنازلات في سبيل التعجيل بالقضاء على بقايا مثل هذه المشاعر .

لقد كانت الاطروحات التكميلية المقدمة من المندوب الهندي روي (١١) تنطلق من الفكرة القائلة « بأن مستقبل الحركة الثورية في أوروبا مشروط تماما بانتصار الحركة الثورية في بلدان الشرق » . وبخصوص هذه البلدان الاخيرة ، فصل « روي » بين نوعين من الحركات: الحركة القومية البرجوازية ـ الديمقراطية « المناضلة في سبيل التحرر السياسي داخل حدود العلاقات البرجوازية » من جهة ، والحركة العمالية ـ الفلاحية « الساعية للقضاء على كافة اشكال الاستثمار » من جهة اخرى . وقد اعتبر المندوب الهندي انطلاقا من هذا الفصل بين الحركتين بأن الدعم الذي قد تقدمه الاممية الشيوعية للحركات البرجوازية الديمقراطية سيؤدي الى « تقوية الوعي القومي عند الجماهير على حساب وعيها الطبقي ». وانطلاقا من هنا ، طالب روي بحذف الفقرة التي تتعرض في اطروحات لينين لواجب الاحزاب الشيوعية بتقديم الدعم لحركات التحرر البرجوازية الديمقراطية في المستعمرات والبلدان التابعة . وبالاعتماد على مثال الهند ، اعتبر « روي » أن على الاممية الشيوعية أن تدعم فقط المحاولات الرامية الى « تأسيس وتطوير الحركة الشيوعية في الهند » ، وأن واجب هذه الحركة هو الاهتمام فقط « بتنظيم الجماهير الشعبية العريضة بهدف خدمة مصالحها الطبقية » .

تصدى لينين لوجهات نظر المندوب الهندي التي « لا أساس لها » (١٢) ، واعتبر بـأن

هذا الاخير قد ذهب بعيدا جدا في تحليله حين اكد على ان « مستقبل الثورة في الغرب مشروط فقط بدرجة تطور قوى الحركة الثورية في البلدان المستعمرة » · وقد نصح لينين الشيوعيين في الهند « بدعم الحركة البرجوازية ـ الديمقراطية ولكن دون الاندماج بها » ، وأكد على ان البلاشفة قد دعموا في الماضي حركة التحرر الليبرالية في المرحلة التي كانت فيها هذه الحركة تتصدى للقيصرية ·

لقد كانت احدى الافكار الخاطئة التي تضمنتها الاطروحات التكميلية للمندوب الهندي هي أنه يكفي لقيام حزب شيوعي جماهيري وقادر على قيادة العملية الثورية ، ان تتواجد جماهير عمالية وفلاحية عريضة · وبالاعتماد على وضع الهند نفسه ، أثبت لينين خطأ هذه الفكرة « فمع انه يتواجد في (هذا البلد) ٥ ملايين عامل ، و ٣٧ مليونا من الفلاحين غير المالكين ، الا ان الشيوعيين الهنود لم ينجحوا حتى الان بتأسيس مثل هذا الحزب في بلدهم » ·

أدخلت اللجنة في ختام أعمالها عدة تعديلات على المسودة الاولية للاطروحات المقدمة من لينين ، كان من اهمها التعديل الذي ينص على ضرورة ابدال مصطلح « برجوازي ـ ديمقراطي » ، بمصطلح « ثوري ـ قومي » ، وذلك في كافة الفقرات التي تدعو الاحزاب الشيوعية لدعم حركات التحرر القومية في المستعمرات والبلدان التابعة · وبعد ادخال هذه التعديلات وافقت اللجنة بالاجماع على مسودتي الاطروحات والاطروحات التكميلية ، التي لم يبق سوى تقديمها واقرارها من قبل المؤتمر ·

خصص المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية يومي ٢٦ و ٢٨ تموز لمناقشة تقرير اللجنة الخاصة بالمسألة القومية والكولونيالية ، حيث تم تكليف لينين شخصيا بتقديم هذا التقرير·

اعلن لينين في بداية تقريره أن اللجنة المكلفة قد وافقت بالاجماع على الاطروحات المقدمة وذلك بعد ادخال عدد من التعديلات عليها (١٢) · ثم انتقل الى تحليل مضمون هذه الاطروحات مركزا بشكل خاص على قضية الحركة البرجوازية الديمقراطية في البلدان المتخلفة التي دلت على وجود تباينات في وجهات النظر حولها ، مما دفع اللجنة الى اتخاذ قرار جماعي بابدال مصطلح « برجوازي ـ ديمقراطي » بمصطلح « ثوري ـ قومي » · وفي تفسيره لمضمون هذا التعديل ، اكد لينين على « اننا كشيوعيين ليس من واجبنا ان ندعم ، ولن ندعم حركات التحرر البرجوازية في البلدان المستعمرة ، الا في حالة كونها حركات ثورية حقا ، وحين لا يعارض ممثلوها نشاطنا الرامي الى تربية وتنظيم الفلاحين والجماهير العريضة من الكادحين بروح ثورية » · ولكن في الوقت نفسه ، حذر لينين مندوبي المؤتمر من اعتماد تقييم خاطيء للمحتوى الاجتماعي للحركات القومية في البلدان المستعمرة والتابعة · ليس هناك من شك ـ قال لينين ـ « بأن كل حركة قومية لا يمكنها ان تكون سوى حركة برجوازية ـ ديمقراطية ، لان الجماهير العريضة من سكان البلدان المتخلفة تتشكل أساسا من الفلاحين الذين يجسدون العلاقات البرجوازية والرأسمالية · وسيكون طوباويا الاعتقاد بأن الاحزاب البروليتارية ، اذا وافقنا على انها ستظهر في هذه البلدان ، تستطيع بدون اقامة علاقات محددة مع الحركة الفلاحية ، بدون دعمها عمليا ، ان تتبع تكتيكا وسياسة شيوعيتين في هذه البلدان المتخلفة » ·

اولى لينين اهتماما خاصا في تقريره لمسألة التطور الاجتماعي المستقبلي للبلدان المتخلفة · وقد اكد على ان مرحلة التطور الرأسمالي ليست بالضرورة مرحلة حتمية

بالنسبة لشعوب البلدان المتخلفة ، خاصة « اذا استطاعت البروليتاريا الثورية أن تنتشر بين هذه الشعوب دعاية متواصلة ··· واذا قدمت لها الحكومات السوفياتية المساعدات بكل السبل المتوفرة لها » ·

بعد أن انتهى لينين من تقديم تقريره ، بدأ مندوبو المؤتمر نقاشهم الموسع حول المسألة القومية والكولونيالية ، وقد أيد معظم المؤتمرين الموضوعات الرئيسية التي تضمنتها الاطروحات المقدمة · غير أن عددا من المندوبين ، خاصة في عداد الوفد الايطالي ، قد اعترض على محتوى هذه الاطروحات · فقد اعتبر المندوب الايطالي « سيراتي » (SERATI) ، الذي حاول قدر جهده اقفال باب المداخلات سريعا ، بأن الاطروحات المقدمة من قبل لينين و « روي » ، ما هي الا « حلول وسطية انتهازية قد تفسر تفسيرات شوفينية وقومية » · وأعلن بأن التحرر الحقيقي للشعوب المضطهدة لن يتحقق الا بعد انتصار الثورة البروليتارية ، وليس عن طريق « اتحاد مؤقت آني للاحزاب الشيوعية مع الاحزاب المسماة بالبرجوازية الثورية » (٤) ، مضيفا بأن الطبقة العاملة لا يمكنها ان تدعم الحركات البرجوازية خاصة في البلدان المتخلفة خوفا من ان تفقد مواقعها وتوجهاتها الطبقية ، «فالجماهير قد تفقد توجهاتها الطبقية بسهولة في البلدان المتخلفة ، حيث لاتملك البروليتاريا وعيا طبقيا قويا » · وطبعا لم تترك افكار المندوب الايطالي هذه ، الموروثة عن تراث « اشتراكية » انتهازيي الاممية الثانية ، أي اثر يذكر داخل المؤتمر ، الذي أقر بالاجماع الاطروحات والاطروحات التكميلية ، بعد امتناع ثلاثة مندوبين عن التصويت (١٥)·

٢ ـ ثلاث مجموعات سياسية يهودية داخل المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية :

لقد ذكرنا سابقا بأن تعرض المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية لقضية فلسطين قد تم نتيجة للصراعات الايديولوجية التي احتدمت بين ممثلي المجموعات السياسية اليهودية التي ساهمت في اعماله ، وذلك اثناء النقاشات الموسعة التي دارت حول المسألة القومية والكولونيالية · سنحاول الان اعطاء لمحة موجزة عن هذه المجموعات ، متعرضين اساسا لتاريخ نشاتها ولظروف مساهمتها في هذا المؤتمر ·

١ ـ البوند (BUND) الشيوعي :

انعقد المؤتمر العمالي اليهودي الاول في مدينة « فيلنا » بروسيا القيصرية في الفترة الواقعة بين ٢٥ الى ٢٧ ايلول ١٨٩٧ ، بعد عدة اسابيع من انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول · وقد تقرر خلال هذا المؤتمر تأسيس « العصبة العامة للعمال اليهود في ليتوانيه وروسيا وبولونيا » ، المعروف تحت اسم « البوند » ·

لقد تشكل البوند في البداية من مجموعة من المثقفين الاشتراكيين اليهود وعناصر شبه بروليتارية من الاوساط الحرفية في المقاطعات الغربية من روسيا · وقد أعلن « أركادي كريمر » (A. KREMER) ، احد قادته في المداخلة التي ألقاها في المؤتمر : « بأن الاتحاد العام لجميع المجموعات الاشتراكية اليهودية لا يهدف فقط للنضال في سبيل المطالب السياسية الروسية العامة ، وانما سيكون له مهمة خاصة أيضا تتجسد بالدفاع عن مصالح العمال اليهود والنضال من أجل انتزاعهم لحقوقهم المدنية ومحاربة القوانين التفريقية المجحفة بحقهم ·· فالعمال اليهود ـ اضاف كريمر ـ لا يعانون فقط من وضعهم كعمال ، وانما ايضا من وضعهم كيهود ·· » (١٦) ·

انتسب البوند في العام ١٨٩٨ للحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي وذلك

خلال انعقاد المؤتمر الاول لهذا الاخير « بصفته منظمة مستقلة تهتم أساسا بالقضايا التي تخص البروليتاريا اليهودية » (١٧) • وقد وافق قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي على منح البوند صفة الاستقلالية بهدف تدعيم وحدة الحركة الاشتراكية الديمقراطية في كافة مناطق روسيا القيصرية •

في المؤتمر الذي عقده في العام ١٨٩٩ ،رفض البوند اعتماد موضوعة « الامة اليهودية »، وقرر تحديد مجال نشاطه الخاص باليهود في مجال النضال ضد القوانين التفريقية التي كانت قد سنتها حكومة القيصر • وقد حذر البوند البروليتاريا اليهودية من خطر الانقياد وراء « الايديولوجية القومية التي تضعف الوعي القومي ••• وتقود الى الشوفينية » • ولكن مع مرور الزمن ، بدأ يظهر داخل البوند اتجاهان رئيسيان تجاه حل المسألة اليهودية : الاتجاه الاول اعتبر التواجد المستقل للحركة العمالية اليهودية كمرحلة انتقالية على طريق الاندماج والمساهمة في الثقافة الروسية ،كجزء لا يتجزأ من البروليتاريا الروسية • أما الاتجاه الثاني فقد كان يرفض فكرة الاندماج معتبرا نفسه جزءا من البروليتاريا « داخل الامبراطورية الروسية » ، وجزءا من المجموعة « القومية » اليهودية في روسيا •

بعد صراع حام استطاع الاتجاه الثاني داخل البوند ان يحسم الامور لصالحه ، وترك الحزب نهائيا فكرة الاندماج • وفي نيسان ١٩٠١ ، عالج المؤتمر الرابع للبوند لاول مرة المسألة اليهودية كمسألة « قومية » ، وطالب بتأسيس دولة فيدرالية تقوم على قاعدة اتحاد القوميات التي تشكلها ، واعتبار اليهود « قومية » من قوميات هذه الدولة الاتحادية ، ولو أنهم لا يمتلكون أرضا خاصة بهم (١٨) • وانطلاقا من هذا التغير الذي طرأ على موقفه ، طالب البوند قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي بالاعتراف به ممثلا وحيدا للبروليتاريا اليهودية وأن يكون له الحرية التامة في معالجة قضايا البروليتاريا اليهودية والدفاع عن مصالحها « الخاصة » • وقد اقر المؤتمر بهذا الخصوص توصية خاصة ، اعتبر فيها « ان الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي هو اتحاد لمنظمات قومية، يمثل البوند داخله احدى هذه المنظمات القومية » (١٩) • وقد كلف المؤتمر اللجنة المركزية المنتخبة بأن تهتم بتنفيذ هذه التوصية عند انعقاد المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي •

سيكون من المفيد ان نلاحظ بأن ظهور هذه الافكار القومية داخل البوند في تلك الفترة ، لم يكن يرجع لعامل الصدفة ، خاصة اذا عرفنا بأن تلك الفترة التي نحن بصددها قد عرفت نشاطا صهيونيا معتبرا داخل التجمعات اليهودية الخاصة « مناطق الاقامة » في روسيا القيصرية • ففي ذلك الوقت بدأت تتشكل الخلايا الاولى للاحزاب الاشتراكية الصهيونية ،وبدأ التحضير للمؤتمر الصهيوني لعامة روسيا الذي انعقد خلال العام ١٩٠٢ • وقد كان لهذا النشاط الصهيوني الملحوظ تأثيره غير المباشر على مواقف البوند ، وذلك على الرغم من ان مؤتمر البوند الرابع قد انتقد بقوة الحركة الصهيونية ووصفها بأنها « رد فعل الطبقات البرجوازية اليهودية على ظاهرة العداء للسامية » •

رفض المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي الذي انعقد في تموز ـ آب ١٩٠٣ ، الطلب الذي تقدم به البوند لاعتباره ممثلا وحيدا للبروليتاريا اليهودية ، على اعتبار ان تحقيق هذا الطلب سيؤدي « الى تقسيم العمال داخل منظمات الحزب حسب

المبدأ القومي والتخلي عن مبدأ المنظمة الطبقية الواحدة للطبقة العاملة المتواجدة فوق الارض الواحدة » (٢٠) · وبعد ان رفض طلبه ، قرر البوند الخروج من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي والعمل بصورة مستقلة تماما ·

خاض لينين في نضاله لخلق حزب مركزي اممي ، نضالا حاميا ضد الافكار القومية الانفصالية للبوند · ففي المقال الذي كتبه عن « وضع البوند داخل الحزب » (٢١) في اكتوبر ١٩٠٣ ، وصف لينين فكرة « القومية اليهودية » التي يدافع عنها البوند بانها « فكرة صهيونية ، خاطئة تماما ورجعية بمضمونها ··· ليس فقط عند اتباعها المنطقيين (الصهاينة) ، وانما ايضا عند اولئك الذين يصرون على توفيقها مع أفكار الاشتراكية الديمقراطية (البونديين) ·· » ·

تابع البوند بعد خروجه عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي سيره على نفس الطريق القومي الانفصالي · ففي مؤتمره السادس الذي انعقد بمدينة « زيوريخ » في العام ١٩٠٥ (٢٢) صاغ الحزب مطلب « الاستقلال الذاتي القومي الثقافي » لليهود داخل الامبراطورية الروسية ، الذي كان يعني بأن يتجسد ارتباط « اليهود المبعثرين بين شعوب الامبراطورية بمجموعتهم القومية الواحدة ، من خلال اتاحة الامكانيات اهم لتطوير لغاتهم القومية وثقافتهم وتعليمهم » · وقد طالب البوند بأن « تتخلى الدولة بأجهزتها الحكومية المركزية والمحلية عن مسؤولياتها تجاه كافة المهام المتعلقة بالقضايا الثقافية (التعليم مثلا) ، على ان تعطى مسؤولية الاشراف على هذه المهام للامة اليهودية نفسها لتديرها من خلال مؤسساتها الخاصة المنفصلة ، المركزية والمحلية المنتخبة بالاقتراع المتساوي المباشر والسري من قبل جميع اليهود » ·

عند انعقاد المؤتمر الرابع للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي في نيسان ١٩٠٦ ، قرر البوند الانضمام من جديد لهذا الحزب · وقد وافق المؤتمر على طلب البوند ، في الوقت الذي اكد فيه مجددا رفضه لمطالبه القومية (٢٣) · واعتبارا من هذا التاريخ ، كان البونديون يقفون دوما الى جانب القوى « التصفوية » داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، في صراعها ضد لينين والبلاشفة · وقد ارتبط البوند بعلاقات وثيقة مع المناشفة ، خاصة خلال المرحلة التي اعقبت العام ١٩١٢ ·

لقد تميز التطور اللاحق للبوند خلال المرحلة التي سبقت انتصار ثورة اكتوبر بتفاقم التناقضات الداخلية لبرنامجه « القومي » ، خاصة وانه كان يدعو لايجاد حل « قومي غير اقليمي » للمسألة اليهودية في الوقت الذي كان يرفض فيه حل الاندماج من جهة ، والحل الصهيوني من جهة اخرى (٢٤) ·

عند اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ظهر داخل البوند اتجاهان متعارضان بخصوص الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه هذه الحرب الامبريالية : اتجاه « دفاعي » اتخذ نفس مواقف معظم القادة الشوفينيين للاممية الثانية ، واتجاه « اممي » تبنى موقف البلاشفة والمجموعات الاشتراكية الثورية الاخرى · غير ان الاتجاه الاول استطاع بعد فترة وجيزة ان يفرض موقفه داخل الحزب بأكمله ·

ساعدت السياسة الثورية الاممية التي انتهجها النظام السوفياتي بعد انتصار ثورة اكتوبر تجاه الاقليات والقوميات التي كانت تقطن اراضي الامبراطورية الروسية ، والخطوات العملية التي اتخذها لمحاربة كافة مظاهر العداء للسامية ، في زيادة تفاقم

الازمة السياسية والايديولوجية داخل البوند ، وخلقت الظروف المساعدة لظهور نـواة لاتجاه شيوعي حقيقي داخله ·

وبالفعل بدأت اعتبارا من ذلك الوقت عملية تمايز سياسي وايديولوجي داخل البونـد استمرت عدة اشهر ، ونتج عنها انقسام الحزب الى تيارين : تيار انتهازي يميني حافظ على ارتباطه بالمناشفة ، وتيار شيوعي تبنى القاعدة السياسية للحزب البلشفي بقيـادة لينين · غير أن هذا الانقسام لم يحصل في نفس الوقت داخل منظمات الحزب ، وانمـا حصل على فترات متباينة · ففي ١ اذار ١٩١٩ ، قررت الاغلبية داخل مؤتمر منظمـة البوند لعموم اوكرانيا تغيير اسم الحزب الى « البوند الشيوعي » ، مما حدا بالاقليـة للخروج من المؤتمر والانشقاق عن الحزب (٢٥) · ومن جهة أخرى ، قررت الاغلبية فـي مؤتمر « غومل » (Gomel) الذي عقدته منظمة البوند لعموم مناطق « روسيا البيضاء» في نوفمبر ١٩١٩ الانضمام الى الحزب الشيوعي الروسي والى الاممية الشيوعية (٢٦) · وقد اتخذت اغلبية اعضاء منظمات البوند في كل من ليتوانيه وبولونيا نفس هذه المواقف تقريبا · وأخيرا قرر المؤتمر الثاني عشر للبوند في عموم روسيا ، الذي انعقد في موسكو في نيسان ١٩٢٠ ، تغيير اسم الحزب نهائيا الى « البوند الشيوعي » ، والانضمام الـى الاممية الشيوعية · وقد جاء في مقررات هذا المؤتمر : « أن الوقت قد حان ليتخلى البونـد عن معارضته الرسمية وأن يعلن عن تضامنه مع سياسة السلطة السوفيتية (خاصة) وأن برنامج الحزب الشيوعي ، الذي هو في الوقت نفسه برنامج السلطة السوفياتية ، يتوافق تماما مع السياسة العملية للبوند » (٢٧) · وقد دعا المؤتمر في ختام اعماله كافة منظمات البوند بأن تقتدي بمثال الحزب في روسيا السوفياتية (٢٨) ·

ب ـ البوعالي تسيون (Poalei Zion) اليساري :

في الوقت الذي كانت فيه توجهات البوند السياسية تتطبع شيئا فشيئا بالافكار القومية، بدأ عدد من مفكري الحركة الصهيونية محاولتهم للجمع بين بعض الافكار الاشتراكيـة والافكار الصهيونية ·

لقد كانت المجموعات اليهودية التي تسعى للجمع بين الصهيونية والاشتراكية تسمـى عموما بمجموعات « البوعالي تسيون » (عمال صهيون) · في المرحلة الاولى (١٨٩٩ ـ ١٩٠٤) ، لم تكن هذه التسمية الفضفاضة تدل على وجود اي ارتباط تنظيمي بين هـذه المجموعات ، ولا حتى عن وجود برنامج سياسي موحد يحدد كيفية الجمع بين الصهيونية والاشتراكية ·

تأسست المجموعة الاولى من مجموعات « البوعالي تسيون » في روسيا القيصرية فـي بدايات القرن العشرين · ومع أن المؤتمر التأسيسي الاول للحزب قد انعقد في آذار ١٩٠٦ ، الا أن « تاريخ الحزب » الرسمي الصادر عن لجنته المركزية يشيـر الـى « ان ولادة البوعالي تسيون في روسيا ترجع الى سنوات ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ · فتحت هذا الاسم ظهرت لاول مرة مجموعة من العمال والمثقفين اليهود في مدينة « مينسك » (MINŠK)» (٢٩) · ومن « مينسك » امتد البوعالي تسيون سريعا الى المدن الكبيرة الاخرى الواقعة فـي حدود « مناطق الاقامة اليهودية » ، مثل اوديسا وفارصوفيا وفيلنا (١٩٠١ ـ ١٩٠٢) · وقد بدأ الحزب اعتبارا من تلك الفترة امتداده خارج حدود الامبراطورية القيصرية ، حيث تأسست مجموعات البوعالي تسيون في كل من : النمسا (١٩٠٣) ، والولايات المتحـدة

الاميركية (١٩٠٣) ، وفلسطين (١٩٠٥) ، وبريطانيا العظمى (١٩٠٥) ، والارجنتين (١٩٠٧) ، وبلغاريا (١٩١٠) ··· وقد اجتمع ممثلو هذه المجموعات في العام ١٩٠٧ ، وأسسوا « الاتحاد العمالي الاشتراكي اليهودي العالمي : بوعالي تسيون » ·

أطلقت مجموعات البوعالي تسيون على أنفسها لقب « منظمات عمالية اشتراكية » ، وذلك بهدف حجب الاهداف الحقيقية لعملية توسع النشاط الصهيوني في صفوف العمال اليهود· أما البوعالي تسيون في روسيا ، فقد اطلق على نفسه لقب : « الحزب العمالي الاشتراكي ــ الديمقراطي اليهودي : بوعالي تسيون » ·

لن يكون في مجال بحثنا هذا ، استعراض تاريخ وسياسات مجموعات البوعالي تسيون في العالم · اهتمامنا سيقتصر على المجموعة الرئيسية بين هذه المجموعات : البوعالي تسيون الروسي بقيادة « بير بوروشوف » (٣٠) (Ber Borochov) ، الذي يعتبر بمثابة الاب الفكري والسياسي للصهيونية الاشتراكية ، والذي كان يصف نفسه « بالصهيوني الاشتراكي الديمقراطي الماركسي » ·

لقد كان بوروشوف ينطلق من القناعة بأنه من الممكن الجمع بين العقيدتين الصهيونية والماركسية والخروج بمحصلة نظرية واحدة لهما (٣١) · ولكن ما هو مضمون « الماركسية » التي أعلن بوروشوف تبنيه لها ؟ · للاجابة على هذا السؤال ، سنحاول تحليل أهم الافكار الواردة في مؤلفه الرئيسي ، المنشور في العام ١٩٠٥ ، تحت عنوان « الطبقة والامة » (٣٢) ، خاصة وانه المؤلف الاساسي الذي يحاول بوروشوف خلاله اثبات مقدرته على تملك النظرية الماركسية واستيعابها ، وقدرته على تطويع مفاهيمها الاساسية ، فيستشهد بمؤلفات « كارل ماركس » ، وخاصة بمؤلفه « رأس المال » اكثر من مرة ، ويردد تعابير « الصراع الطبقي » ،و « القوى الانتاجية » ، و « علاقات الانتاج »···

قبل أن يتعرض للمسألة اليهودية ، شعر بوروشوف بالحاجة لعرض نظريته الخاصة عن المسألة القومية ، والتي كانت تنطلق من فكرة تعميم عوامل التمايزات المختلفة الموجودة بين الامم ، والتي ينبع عنها الشعور بالرغبة في الانفصال وتأسيس الدول القومية المستقلة، وتسميتها بـ « شروط الانتاج » · وبمعنى اخر ، فان « شروط الانتاج » ــ حسب بوروشوف ــ هي بمثابة « الاطار الجغرافي والعرقي والتاريخي » الذي تتطور داخل حدوده القوى الانتاجية لكل أمة من الامم · « ان اهم هذه الشروط الانتاجية ــ كتب بوروشوف ــ هو الارض ··· (فهي) القاعدة التي تقوم فوقها الشروط الانتاجية الاخرى » (٣٣) ·

عندما تتواجد « شروط الانتاج » في وضع « غير طبيعي » ، كما في حالة غياب احد هذه الشروط كالارض مثلا ، تظهر المسألة القومية حينئذ ، كصراع بين الحركة القومية المعبرة عن مصالح القوى الانتاجية الصاعدة والوضع « غير الطبيعي » « لشروط الانتاج » ، « فتتوافق مصالح افراد الامة وتضعف التناقضات الطبقية ويتقوى شعور التعاضد القومي يوما بعد يوم » (٣٤) · ويأخذ الصراع القومي احيانا ــ حسب بوروشوف ــ طابع المنافسة بين عمال الامم المختلفة لاحتلال اماكن العمل ، « فطوال الفترة التاريخية التي تكون خلالها مكانة العمل القومي غير اكيدة ومضمونة ··· فان المسألة القومية تستبق من حيث الاهمية المسألة الطبقية ، والدفاع عن مكانة العمل يشغل العامل اكثر بكثير من النضال الطبقي ·· » ·

اكد بوروشوف في تحليله لمواقف الطبقات الاجتماعية المختلفة من المسألة القومية ، على أن الطبقة العاملة هي الطبقة الوحيدة التي تقف دوما « واقعيا وتقدميا وثوريا » تجاه المسألة القومية ، وأنها الطبقة ذات المصلحة الاكيدة في تواجد « شروط انتاج طبيعية » · « ان الشعور القومي الواقعي هو الشعور الذي لا يكون على حساب الوعي الطبقي ، ولا يمتلكه الا العناصر التقدمية للامة المضطهدة ·· ويتجسد عند الطبقة الاكثر تقدمية بين طبقات الامة ، عند البروليتاريا الثورية المنظمة ، عبر مطالب دقيقة محددة يتضمنها برنامج حد ادنى يرمي الى اقامة مكان (قومي) طبيعي للعمل وللنضال بالنسبة للبروليتاريا ، ويضمن تواجد شروط انتاج طبيعية للامة بمجملها » (٣٥) ·

ان المهمة الرئيسية للطبقة العاملة تكمن اذا ــ حسب بوروشوف ــ في خوض النضال لحل المسألة القومية ، وضمان تواجد « شروط انتاج » طبيعية ، وذلك لتتمكن بعد ذلك من التفرغ لانجاز مهام النضال الاجتماعي والثورة الاشتراكية ، فبعد تحقيق انجاز الهدف القومي « تنتهي مهمة القومية الواقعية (قومية البروليتاريا) ·· ، وعوضا عن التضامن القومي السابق ، التضامن الاجباري المفروض وغير الطبيعي ، تتشكل بنية طبقية سليمة ، تسمح بخوض صراع طبقي حقيقي » (٣٦) ·

انطلق تحليل بوروشوف للمسألة اليهودية في بداية القرن العشرين من اعتبار اليهود « أمة متواجدة في ظل شروط انتاج غير طبيعية » ، خاصة بسبب عدم توفر « الارض القومية » الخاصة بهم · وقد شبه بوروشوف التركيبة الاجتماعية لكل امة من الامم بهرم مركب من طبقات اجتماعية تقوم الواحدة منها فوق الاخرى وذلك حسب بعدها أو قربها من عمليات الانتاج الاساسية : طبقة عريضة من العمال والفلاحين في قاعدة الهرم ، تأتي فوقها طبقة من مستخدمي الخدمات العامة والنقل وفئة الحرفيين وفي قمة الهرم تتواجد فئات المالكين وأصحاب الاعمال والمثقفين ··· وعند تحليله لتركيبة اليهود الاجتماعية ، خاصة داخل حدود الامبراطورية القيصرية (٣٧) ، وجد بوروشوف ان تركيبتهم تبدو وكأنها « هرم معكوس » ، بحيث تتواجد فئات عريضة من الحرفيين ، مسنودة بفئات ضيقة من العمال وخاصة من عمال المرافق « غير الحيوية » التي عليها ايضا ان تسند الثقل الكبير لفئة ضخمة من التجار · وقد اكد بوروشوف على أن هذه التركيبة الاجتماعية « غير الطبيعية » كانت تشكل عائقا امام التطور اللاحق للبروليتاريا اليهودية المركزة في المراحل الاخيرة من عملية الانتاج والمعرضة دوما « للمنافسة القومية » الشديدة على اماكن العمل ، خاصة في أوقات الازمات الاقتصادية ·

اعتبر بوروشوف واقع التركيبة الاجتماعية لليهود في بداية القرن العشرين داخل الامبراطورية القيصرية كواقعة تاريخية ملموسة ، ينبغي الانطلاق منها في ايجاد الحل للمسألة اليهودية ، دون أن يشعر أبدا بالحاجة لتحليل خلفياتها التاريخية (٣٨) · فالحل اذا ــ حسب بوروشوف ــ هو السعي لقلب « الهرم المعكوس » ، واقامة مجتمع يهودي « طبيعي » ، مشابه لمجتمعات الامم الاخرى · وقد كان هذا يعني عمليا بأن يسعى اليهود للحصول على أرض خاصة بهم ، يقيموا فوقها « دولتهم القومية » ، ويضمنوا لانفسهم تواجد « شروط انتاج طبيعية » ، ويتحولوا الى عمال والى فلاحين بهدف قلب « الهرم المعكوس » ، وتغيير طبيعة تركيبتهم الاجتماعية · وهكذا وصل تحليل بوروشوف الى الاستنتاج بأن حل المسألة اليهودية لن يتأتى عن طريق النضال في سبيل « الاستقلال الذاتي القومي الثقافي » كما كان يطالب البوند ، ولا عن طريق الاندماج والنضال الى

جانب القوى الثورية المحلية في سبيل الثورة الاجتماعية ، وانما عن طريق الهجـــرة المنظمة الى المكان الذي يوفر لليهود امكانية تغيير تركيبتهم الاجتماعية ويسمح لهم بالنفاذ الى مرافق الانتاج الاساسية · وطبعا هذا لن يتحقق الا في اطار بلد متخلف ، لا يمتلـــك اقتصادا رأسماليا متطورا ، بحيث تسمح بنيته الاقتصادية للجماهير الغفيرة من المهاجرين اليهود بالنفاذ الى مرافق الانتاج الاساسية ·

انطلاقا من هذا التحليل نادى بوروشوف بضرورة النضال في سبيل تحقيق « الاستقلال الاقليمي للشعب اليهودي في فلسطين » · ولكن لماذا فلسطين بالذات ؟ تهرب بوروشوف من الاجابة بوضوح على هذا السؤال ، ورفض الاعتراف بأن الحل « الماركسي » الـــذي يدعو له ، يحتاج هو أيضا لضمان انجازه الى قاعدة مثالية ترتكز على الدوافع العاطفية والدينية وذلك لحث اليهود على الهجرة والاستيطان · وقد دعا بوروشوف العمال اليهود « ليكونوا في طليعة نضال الجماهير اليهودية » في سبيل تحقيق هذا الحل « الصهيونـــي الاشتراكي » للمسألة اليهودية خاصة وأن تحقيقه سيخدم اساسا مصالحهم الطبقية · ومن هنا ، فان خصوصية نظرية بوروشوف « الماركسية » ، وجوهر اختلافها عـــن نظريــــة « الصهيونية البرجوازية » _ اذا صح التعبير _ تكمن في أنه قد توصل الى الصهيونية آخذا بعين اعتباره مصالح « الطبقة العاملة اليهودية » ، وليس مصالح « الامة اليهودية » بشكل عام (٣٩) ·

تعرض بوروشوف في بعض كتاباته لمواطني فلسطين العرب ، الذين كان يسميهـــم بـ « السكان المولودين في فلسطين » ، واكد على انهم لا يمتلكون اي ثقافة قومية خاصة بهم ، وليس عندهم اي صفات قومية مميزة · ومن هنا « فانهم سيقبلون بأي ثقافـــة مستوردة تكون على مستوى اعلى من ثقافتهم ، وسيكونوا عاجزين عن ابداء اي مقاومـة منظمة ضد التأثيرات الخارجية ، ولن يستطيعوا الدخول في منافسة قوميــــة (علـــى العمل) ·· » (٤٠) ؛

وقد استنتج بوروشوف على أن السكان العرب في فلسطين « سيندمجون اقتصاديــا وثقافيا مع من يضمن النظام في البلاد ، ويعمل على تطوير القوى الانتاجية » (٤١) ·

اجتاز البوعالي تسيون الروسي بعد تأسيسه في بداية القرن مرحلة صعبة ، تميـــزت باحتدام الصراعات الايديولوجية داخله وبحدوث انشقاقات عديدة بين صفوفه ، غيـــر أن الحزب استطاع بفضل المجهود النظري والسياسي لبوروشوف اعادة تنظيم نفسه وتجاوز الازمة التنظيمية التي مر بها · وقد عقد الحزب مؤتمره الاول في مدينة « بولتافــــا » (Poltavea) في آذار ١٩٠٦ ، معتمدا على وثيقة نظرية قدمها بوروشوف تحـــت عنوان : « برنامجنا السياسي » (٤٢) (Notre Plate - Forme) ، تضمنـــت الافكار الرئيسية التي كان قد وضعها الاب الفكري والسياسي للصهيونية الاشتراكية · وفي شهر آب ١٩٠٧ ، عقد الحزب مؤتمره الثاني في مدينة « جراكوفي » (Gracovie) ، وأقر برنامجه السياسي الذي اكد على ان هدف البوعالي تسيون هو تحقيق « الاستقـلال الاقليمي للشعب اليهودي في فلسطين » ، وأن طريق النضال لتحقيق هذا الهدف « هـو النضال الطبقي للبروليتاريا اليهودية في صفوف الاشتراكية الديمقراطية العالمية » (٤٣) ·

وفي العام ١٩٠٧ ، ساهم البوعالي تسيون الروسي بقيادة بوروشوف بنشاط ، فـــي تحضير المؤتمر الاول « للاتحاد العمالي الاشتراكي اليهودي العالمي : بوعالي تسيون » ،

الذي انعقد بمدينة « لاهاي » (La Haye) · وقد أقر المؤتمر بأن اهداف الاتحاد العالمي تتلخص بالنضال « في سبيل قلب النظام الرأسمالي » ، وتحقيق « الحل الاقليمي للمسألة اليهودية عن طريق اقامة مركز يهودي ديمقراطي في فلسطين » (٤٤) · وفي العام ١٩٠٩ ، اضيفت الى كلمة « فلسطين » ، بطريقة لا تدع مجالا للشك في حقيقة النوايا التوسعية للقادة « الاشتراكيين » الصهيونيين ، عبارة « والبلدان المجاورة » (٤٥) ·

لم تشكل مجموعات البوعالي تسيون في البلدان المختلفة,حركة موحدة على الصعيدين الايديولوجي والسياسي ، وذلك على الرغم من تأسيس « الاتحاد العالمي » · ففي روسيا القيصرية تطبع البوعالي تسيون الروسي بطابع العمل السري الثوري الذي لازم نشاطات الحركات الثورية في تلك الفترة ، وكان الحزب يجاهر علنية بانتماءاته الايديولوجية « الماركسية » ·أما في اوروبا الغربية وفي الولايات المتحدة الاميركية ،فقد وقعت مجموعات البوعالي تسيون تحت تأثير افكار التيارات الاصلاحية داخل الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية · ولقد كانت هذه التباينات الايديولوجية والسياسية في صفوف البوعالي تسيون تحمل في طياتها منذ تلك الفترة بذور الانشقاقات التي بدأت تتجذر داخل الحزب ·

عندما وقعت الحرب العالمية الاولى ، ادانت مجموعات البوعالي تسيون في كل من روسيا وبولونيا والنمسا هذه الحرب ، واعتبرتها بمثابة صراع بين الدول الامبريالية هدفه تقاسم مناطق النفوذ ونهب المستعمرات · وقد ساعد الموقف الذي اتخذته هذه «المجموعات من الحرب ، والذي كان يختلف عن المواقف « الاشتراكية ـ الشوفينية » التي اتخذتها بقية مجموعات البوعالي تسيون في العالم ، في تدعيم الاتجاهات اليسارية داخل البوعالي تسيون في روسيا والنمسا وبولونيا ، تلك الاتجاهات التي كانت تسعى للتوفيق بين مبادىء الحزب الصهيونية وبين مواقف الاشتراكية الديمقراطية الثورية بقيادة حزب البلاشفة · وقد جاء انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية ليساهم في تقوية مواقع الاتجاهات اليسارية داخل البوعالي تسيون في هذه البلدان الثلاثة ، الذي عرف ابتداءا من العام ١٩١٨ صراعا ايديولوجيا حاميا داخله تركز حول قضية ارتباط الحزب بالاحزاب الاشتراكية الثورية الاوروبية التي التفت حول الحزب البلشفي ، واسست فيما بعد الاممية الشيوعية ·

وقد نتج عن هذا الصراع الايديولوجي الذي استمر طوال العام ، انشقاق البوعالي تسيون الروسي في بداية ١٩١٩ الى جناحين : جناح يميني التف حول « الحزب العمالي الاشتراكي ـ الديمقراطي اليهودي » ، واخر يساري اسس « الحزب الشيوعي اليهودي : بوعالي تسيون » (٤٦) ·

لقد كانت عملية الاختيار بين احدى الامميتين العماليتين الثانية الاصلاحية ام الثالثة الثورية تبدو ظاهريا وكانها السبب الرئيسي الكامن وراء هذا الانشقاق الذي حصل داخل البوعالي تسيون الروسي · غير أن هذا السبب ومع اهميته ، لم يكن في الحقيقة الا سببا ثانويا بالقياس مع السبب الرئيسي الذي كان يكمن وراء الانشقاق ، والذي تجسد بظهور مفهومين مختلفين للمسألة اليهودية :

المفهوم الاول « اليميني » كان يؤكد على انه طوال فترة الانتقال التاريخية من الرأسمالية الى الاشتراكية ، فان « الحاجة التاريخية » لهجرة « الشعب اليهودي » الى فلسطين ستشمل بالضرورة جميع البلدان ، بما فيها تلك التي عرفت انتصار الثورة

الاشتراكية ، كما في روسيا السوفياتية · وقد اعتقد انصار هذا المفهوم بأن عملية التحويل الاشتراكي للمجتمع في روسيا لن تساهم في حل المسألة اليهودية ، ودعوا العمال اليهود للعمل فقط في سبيل انتصار الاهداف الصهيونية ، في سبيل تصعيد الهجرة الى فلسطين وتسريع عملية اقامة المستوطنات الزراعية اليهودية فيها ·

أما المفهوم الثاني « اليساري » الذي تبناه انصار « الحزب الشيوعي اليهودي » ، فقد كان يدعو العمال اليهود في روسيا للمساهمة الفعالة في عملية البناء الاشتراكي والسعي لتوطيد النظام السوفياتي الى جانب البروليتاريا الروسية ، في نفس الوقت الذي لم يكن يقلل فيه من اهمية العمل في سبيل المهام الصهيونية الخاصة كالهجرة والاستيطان في فلسطين ، ولكن على شرط الا يطغى الاهتمام بهذه المهام كليا على نشاط الحزب ، كما هو الحال بالنسبة للجناح اليميني (٤٧) · وحتى داخل « الحزب الشيوعي اليهودي » كان بالامكان التفريق بين اتجاهين : الاتجاه الاول الغالب كان يتبنى كليا الموقف الذي عرضناه أعلاه ، ويدعو العمال اليهود لتقديم اكبر دعم ممكن للحركة الثورية في روسيا ، لان انتصار هذه الحركة هو الشرط الذي لابد منه لحل المسألة اليهودية ، ويعترف بان المسألة الصهيونية تأتي من حيث الاهمية بعد المسألة الاشتراكية · أما الاتجاه الثاني الانتهازي ، فقد كان يأمل بأن يتبنى الحزب الشيوعي الروسي الحل الصهيوني للمسألة اليهودية ويسمح بالهجرة الجماعية لملايين اليهود الروس الى فلسطين (٤٨) ·

كان للانشقاق الذي حصل داخل البوعالي تسيون الروسي نتائج مشابهة في كل من بولونيا والنمسا · ففي هذين البلدين شكلت المجموعات اليسارية داخل البوعالي تسيون ، بالتعاون مع بعض اعضاء الحزب الذين قدموا من روسيا السوفياتية ، « مكتب التنظيم » ، الذي اضطلع بمهمة توحيد كافة الاتجاهات اليسارية التي كانت تسعى داخل البوعالي تسيون للانضمام الى الاممية الشيوعية · وقد حدد « مكتب التنظيم » التباينات السياسية والايديولوجية بين اليسار واليمين داخل البوعالي تسيون بما يلي :

التيار اليميني « الاصلاحي » كان يطالب « بالاستقلال الذاتي » لليهود في فلسطين على قاعدة الديمقراطية البرجوازية ويدعو لعقد مؤتمر صهيوني عالمي يضم ممثلين عن كافة طبقات « الشعب اليهودي » ، ويسعى لاقامة « وطن قومي » في فلسطين بالتعاون وبدعم من الصهيونية البرجوازية ·

أما التيار اليساري « الثوري » الذي يمثله « مكتب التنظيم » فقد كان يطالب باقامة « ديكتاتورية البروليتاريا اليهودية » في فلسطين ، ويدعو لعقد مؤتمر صهيوني عالمي يضم ممثلين عن البروليتاريا اليهودية فقط ، ويسعى لحل مصاعب البروليتاريا عبر النضال ضد البرجوازية الصهيونية وبدعم من القوى الثورية للبروليتاريا العالمية بقيادة الاممية الشيوعية (٤٩) ·

اعترفت قيادة «الاتحاد العالمي بوعالي تسيون» بـ « الحزب الشيوعي اليهودي » كممثل رسمي للاتحاد في روسيا ، وذلك على الرغم من كافة المحاولات التي بذلتها العناصر اليمينية داخل « الحزب الاشتراكي الديمقراطي اليهودي » لمنع قيادة الاتحاد من الاعتراف بالجناح « الشيوعي الصهيوني » · ومن جهة اخرى ، اقرت قيادة الاتحاد شرعية نشاط « مكتب التنظيم » ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه بعض العناصر داخل قيادة الاتحاد تأمل بأن يساعد نشاط هذا المكتب على زيادة وزن البوعالي تسيون داخل الحركة

الاشتراكية الثورية العالمية وأن يؤدي الى الاعتراف به من قبل الاممية الشيوعية كممثل وحيد للبروليتاريا اليهودية • وقد كانت هذه العناصر تأمل بأن تعترف قيادة الاممية الشيوعية بشرعية الصهيونية وبسلامة « الحل » الذي تتبناه للمسألة اليهودية •

قبل فترة وجيزة من انعقاد المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، تقدم « مكتب التنظيم » للبوعالي تسيون في فيينا بمذكرة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، اعرب فيها عن رغبة « مكتب التنظيم » بالمساهمة في أعمال المؤتمر الثاني للاممية ، وطالب قيادة الاممية بالسعي لتوحيد كافة المجموعات الماركسية في صفوف البروليتاريا اليهودية ، بما فيها المجموعة الماركسية داخل البوعالي تسيون ، والبوند الشيوعي ، والقسم اليهودي داخل الحزب الشيوعي الروسي • كما طالبت المذكرة قيادة الاممية بأن تعترف بـ « مكتب التنظيم » داخل « الاتحاد العالمي » بوعالي تسيون كالفرع اليهودي داخل الاممية الشيوعية (٥٠) •

جـ ـ القسم اليهودي التابع للحزب الشيوعي الروسي :

تشكل القسم اليهودي داخل الحزب الشيوعي لعموم روسيا (JEWSEKTSIA) في اكتوبر العام ١٩١٨ • ولم يكن هذا القسم بمثابة منظمة خاصة بالشيوعيين اليهود ، وانما كان عبارة عن جهاز سياسي تابع لقيادة الحزب المركزية ، هدفه نشر الدعاية والتحريض في صفوف العمال اليهود • وقد كان يطبع نشراته ويوزعها باللغة اليديشية ، التي كانت تتكلمها غالبية السكان اليهود في بلدان اوروبا الشرقية ، وخاصة في كل من روسيا وبولونيا • وقد جاء في التصريح الذي أعطاه « ديمانشتين » (Dimanstein) ، احد اصدقاء هذا القسم للجريدة اليهودية السوفياتية « Der Emes » ، والذي نشر بتاريخ ١٢ ايلول ١٩١٨ : « ان هذه المنظمة اليهودية هي جزء لا يتجزأ من الحزب الشيوعي الروسي ، وليست حزبا شيوعيا جديدا ، وهي ضرورية لوجود مميزات لغوية عند اليهود ، ومن أجل تدعيم الاتصال بينهم وبين العمال الروس ••• » (٥١) •

٣ ـ الصراعات الايديولوجية التي احتدمت بين ممثلي المجموعات السياسية اليهودية اثناء نقاشات المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية :

ساهم في أعمال المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ثلاثة مندوبين يهود هم : « فرومكينا » (Frumkina) عن البوند الشيوعي ، و « ميريجين » (Méréjine) عن القسم اليهودي التابع للحزب الشيوعي في روسيا ، و « كون » (Kohn) عن البوعالي تسيون اليساري (٥٢) • وطبعا لم تثر مساهمة المندوبين الاولين في اعمال المؤتمر اي اشكال سياسي • فالبوند الشيوعي كان قد تبنى مواقف السلطة السوفياتية كاملة تجاه المسألة اليهودية وتمت الموافقة على انضمامه الى الاممية الشيوعية ، اما القسم اليهودي التابع للحزب الشيوعي الروسي فلم يكن ، كما ذكرنا سابقا ، بمثابة منظمة سياسية مستقلة ، وانما كان جزءا لا يتجزأ من المنظمة الام ، الحزب الشيوعي لعموم روسيا • غير أن مساهمة مندوب البوعالي تسيون اليساري في أعمال المؤتمر قد طرحت بعض الاشكالات السياسية، ولم تتم الموافقة على قبوله كعضو استشاري الا بصعوبة • سنتوقف قليلا عند هذه النقطة ، قبل استعراض مداخلات المندوبين اليهود والصراعات الايديولوجية التي احتدمت بين « فرومكينا » و « ميريجين » من جهة ، و « كون » من جهة اخرى •

كانت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قد رفضت مضمون المذكرة التي كان قد تقدم

بها اليها « مكتب التنظيم » بوعالي تسيون في فيينا ، والتي اعرب فيها عن رغبتـــه بالمشاركة في اعمال المؤتمر الثاني للاممية · ومع أن طلبه قد رفض ، الا ان « مكتـــب التنظيم » قرر ايفاد مندوبه « كون » للمساهمة في أعمال المؤتمر ·

وفي موسكو ، رفضت لجنة مراقبة العضوية التي عينها المؤتمر الاعتراف بتمثيليـــة « كون » كمندوب عن البوعالي تسيون ، وحذفت اسمه من قائمة الوفد النمساوي الــذي تطفل عليه · وعلى الرغم من ذلك ، استطاع « كون » الحصول على حق المساهمة فـــي نقاشات المؤتمر كعضو مراقب له صوت استشاري فقط بعد أن تمكن من اثبات تمثيلـــه للحزب الاشتراكي في فلسطين (M.P.S.) (٥٣) الذي كان يتعاطف مـــع الامميـــة الشيوعية ، علما بأنه لم يكن قد زار فلسطين على الاطلاق (٥٤) ·

أثيرت قضية فلسطين والصهيونية في المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية اثنـــاء المداخلة التي القتها مندوبة البوند الشيوعي « فرومكينا » ، كمساهمة منها في النقاشات الموسعـة حول المسائل القومية والكولونيالية في ٢٨ تموز ١٩٢٠ ·

وقد اكدت مندوبة البوند الشيوعي في بداية مداخلتها على ضرورة الاهتمام بمسـألة الاقليات القومية التي تقطن بلدان متعددة القوميـــات ، ونصحت قيادة الاممية الشيوعية بعدم تكرار الخطأ الذي ارتكبته الاممية الثانية حيال هذه المسألة · ودعت كافة الاحزاب الشيوعية لخوض نضال حازم « ضد المفهوم البرجوازي لحق هذه الاكثرية القوميـــة او تلك ، بالتملك القاطع للارض التي تقطنها ، وضد الفكرة التي تتبناهـــا المجموعـــات الاشتراكية القومية التي تعتبر الاكثرية القومية بمثابة المجموعة السائدة المطلقة ، وتعامل الاقليات (القومية) العمالية التي تقطن فوق اراضيها كالاجانب » (٥٥) وقد طالبـــت « فرومكينا » الاحزاب الشيوعية في جميع البلدان المتعددة القوميات بتبني البرنامج الذي وضعه الحزب الشيوعي في روسيا لحل المسألة القومية ، والذي « منح الجماهير العمالية من القوميات المتعددة (في روسيا) الامكانيات الحقيقية للتطور الثقافي » ، وساهـــم بوضع الاسس الكفيلة بتدعيم التعايش الاخوي فيما بينها ، خاصة بعد بنـــاء الاجهـــزة الخاصة المهتمة بالمسائل القومية داخل الحزب وداخل مفوضيات الشعب (جهاز تعليـــم خاص بالاقليات القومية ، مفوضية مختصة بشؤون القوميات ·· الخ) (٥٦) ·

بعد ذلك انتقلت مندوبة البوند الشيوعي ، التي كانت قد عارضت اشتراك منـــدوب البوعالي تسيون في أعمال المؤتمر ، الى اثارة قضية الصهاينة في فلسطين داعية الامميـــة الشيوعية لادانة مشروعهم الاستيطاني في هذا البلد · وبهذا الخصوصـــــ اقترحـــت « فرومكينا » ادخال اضافة تكون بمثابة المثال الملموس على صحة المبدأ السادس مـــن مبادىء الاطروحة الحادية عشرة من « اطروحات حول المسائل القومية والكولونيالية » التي كان لينين قد تقدم بها الى المؤتمر ، والذي دعا فيه قيادة الاممية الشيوعية للقيام بحملـة ايديولوجية واسعة تفضح الخداع الذي تمارسه القوى الامبريالية على الجماهير الكادحة في البلدان المتخلفة ، حين تؤكد عن رغبتها في « اقامة دول مستقلة سياسيا ، بينما هـــي تقيم في الواقع دولا تابعة لها كليا من جميع النواحي الاقتصادية والمالية والعسكرية » · وقد جاء في الاضافة المقترحة من « فرومكينا » ، ما يلي : « بامكاننا ان نورد كمثال علـــى عملية النفاق التي ذهب ضحيتها الجماهير العاملة للامة المضطهدة ، والتي تمارسهـــا دول الوفاق بالاتفاق التام مع برجوازية هذه الامة نفسها، قضية الصهاينةفي فلسطين، الذين، وبحجة اقامة دولة"يهودية مستقلة قد اخضعوا الجماهير العاملة العربية في فلسطين لنير

(اضطهاد) انكلترا ، مع أن اليهود لا يشكلون سوى اقلية ضئيلة في فلسطين » (٥٧) ٠ وقد استطردت المندوبة اليهودية قائلة بانها قد اشارت « لمثال الحركة الصهيونية لانه بمثابة المثال الصارخ على عملية النفاق هذه ٠ ففي فلسطين لا يتعلق الامر باغلبية من السكان اليهود ، وانما بأقلية من السكان تسعى فقط لاخضاع غالبية عمال هذا البلد لاستثمار رأسماليي دول الوفاق » ٠ وطالبت قيادة الاممية الشيوعية بمحاربة هذا النفاق الصهيوني الصارخ ، خاصة « وان الصهاينة ينشطون في جميع البلدان ، ويتلاءمون مع ظروف الجماهير العمالية اليهودية المتخلفة ويساهمون في خلق مجموعات عمالية ذات اتجاهات صهيونية (بوعالي تسيون) ، تحاول في هذه الفترة الاخيرة تملك جملة لفظية شيوعية » ، بينما هم في الواقع « يخدمون بتحريضهم ودعايتهم مصالح الطبقة الرأسمالية » (٥٨) ٠

وبعد ان انتهت مندوبة البوند الشيوعي من القاء مداخلتها ، تحدث « ميريجين » فأعلن بأن الاقسام اليهودية التابعة للحزب الشيوعي في روسيا « متفقة تماما مع وجهة النظر التي عبرت عنها الرفيقة فرومكينا بخصوص الصهيونية وبخصوص الحزب الشيوعي اليهودي بوعالي تسيون » (٥٩) ٠ ومن هنا لم يجد مندوب القسم اليهودي ضرورة للتعقيب على هذه القضايا ، واثر تركيز مداخلته على قضية الدفاع عن حقوق الاقليات القومية القاطنة في البلدان المتعددة القوميات ٠ وقد دعا « ميريجين » المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية الى ادانة المذابح التي تنظمها ضد اليهود قوى الثورة المضادة ، والتي تتحمل مسؤوليتها دول الوفاق ، « فعملاء دول الوفاق وبواقع تواجدهم في صفوف جيوش الثورة المضادة في روسيا واوكرانيا وبولونيا وهنغاريا وغيرها من البلدان يساهمون بشكل مباشر في تنظيم هذه المذابح ، وهذا ما ظهر جليا خلال المذبحة التي نظمها ضد اليهود بمدينة القدس في نيسان الماضي عملاء الحكومة الانكليزية ٠٠ » (٦٠) وقد حث المندوب الشيوعي اليهودي في نهاية مداخلته عمال جميع البلدان بأن يناضلوا بنشاط ، عن طريق الكلمة والفعل ، ضد هذه المذابح وان يبرهنوا على أن ديكتاتورية البروليتاريا هي النظام الوحيد القادر على وضع حد لها ، من خلال القضاء على كافة الحواجز التي تفصل بين القوميات المتعددة ، واقامة اسس التآخي الحقيقي بين الشعوب ٠

في الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر في ٢٨ تموز تحدث « كون » مندوب البوعالي تسيون ، فحذر من المحاولات التي يقوم بها بعض الخطباء ، مثل « فرومكينا » او « ميريجين » لحرف النقاشات عن مجراها الطبيعي ، واكد بأن ما ذكر عن المسألة القومية ، يتعلق بوضع اقليات تعيش في منطقة واحدة ولا يتعرض لوضع الاقليات التي تعيش مشتتة في اكثر من بلد (٦١) (يقصد اليهود) ٠ وطالب الاممية الشيوعية باسم البوعالي تسيون بتوفير « الوسائل الاجتماعية الكفيلة بارضاء الحاجات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لجماهير الاقليات القومية العاجلة » ،مؤكدا على أن «البروليتاريا اليهودية ستكون راضية في حال منحها المؤسسات الاجتماعية الكفيلة بتأمين حاجاتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في اطار الدستور السوفياتي وعلى اساس ان لا يتعارض ذلك مع متطلبات نضال الدولة السوفياتية » (٦٢) ٠

غير ان مداخلة « كون » امام المؤتمر الثاني لم تكن تهدف ابدا للحديث عن الوسائل الكفيلة بتأمين الحقوق المتساوية للجماهير اليهودية التي كانت تقطن فوق اراضي الدولة السوفياتية ، خاصة وان السلطة السوفياتية لم تكن تنتظر تدخل البوعالي تسيون لتضع أسس سياستها الاممية الهادفة الى ضمان المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات

للقوميات المختلفة ومحاربة كافة اوجه مظاهر العداء للسامية ، واتاحة الفرص امـــام الجماهير العمالية اليهودية للمساهمة في عملية البناء الاشتراكي ، من خـــلال اعطائها الامكانيات المادية للخلق والابداع في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية ·

لقد كانت مداخلة مندوب البوعالي تسيون تهدف اساسا لاقناع الاممية الشيوعية بأن الحل « الجذري » للمسألة اليهودية لن يتحقق الا عن طريق نجاح المشروع الصهيوني في فلسطين ، ومطالبتها بالتالي بدعم وتأييد هذا المشروع · وقد استغل « كون » الاضافـــة المقترحة من « فرومكينا » والهادفة الى ادانة المشروع الصهيوني في فلسطين ، ليعرض وجهة نظر حزبه التفصيلية حول هذا الموضوع · فأعلن بأنه يعارض قطعيا اقرار هــــذه الاضافة من قبل المؤتمر ، وذلك على الرغم من اتفاقه التام مع محتوى القسم الاول منها « فالصهيونية البرجوازية التي وضعت نفسها بالضرورة في خدمة الامبريالية الانكليزية ، حتى لا تبدو وكأنها حركة طوباوية يجب ان تحارب بحيوية وفي جميع الظروف · وهذا مـــا يفعله انصار الحزب الشيوعي بوعالي تسيون ·· » (٦٣) · ولكنه لايجد الضرورة لادخال الاضافة المقترحة من « فرومكينا » ضمن الاطروحة الحادية عشر من الاطروحـــات ، لان الاشارة الى قضية « النضال ضد الصهيونية البرجوازية ، ستضطر المؤتمر لاتخاذ قرارات طويلة تدين حركات برجوازية قومية أخرى ، توصف بأنها حركات تحررية ··» (٦٤) · بعد ذلك انتقل « كون » للتعقيب على الفقرة الثانية من الاضافة المقترحة والمتعلقة بقضية ادانة نشاطات البوعالي تسيون الشيوعي « فهذا مايرمي اليه أساسا الاقتـــراح المقـــدم من فرومكينا · وهنا تجدون المثال الحي عن الصراعات التي خنقت ولسنين طويلة الحيــاة السياسية للبروليتاريا اليهودية ·· » ، وأكد على ان مندوبة البوند الشيوعي لا يحق لهــا انتقاد البوعالي تسيون ، خاصة وانها « تمثل الحزب الذي كان يدعم وحتى الامس القريب جميع الحكومات المضادة للثورة في روسيا ·· بينما كنا نحن داخل البوعالي تسيون أوائل الذين وقفوا الى جانب البلاشفة في النضال ضد الثورة المضادة ، وشرعنا قبل كافـــة الاتجاهات البروليتارية اليهودية الاخرى في النضال في سبيل الثورة العالمية ·· » (٦٥)·

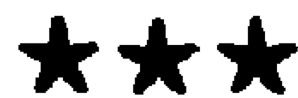
وبخصوص الاوضاع السائدة في فلسطين ، زعم « كون » بأن فرومكينا « تدعم قرارها المقترح ببعض تأكيدات عامة تدل على جهل تام بأوضاع البلاد المعنية »·

وانطلاقا من هذا الزعم انبرى مندوب البوعالي تسيون يعرض ملاحظات حزبه بخصوص الاوضاع السائدة في « بلدان آسيا العربية ، أي في العراق وسوريا والجزيرة العربية » ، تلك البلدان « التي لم يشر اليها بعد ، علما بأنها تقع في محيط السيطرة الامبرياليـــة الانكليزية وهي مدعوة للعب دور هام في المستقبل على جميع الاصعدة »· وأعلن عـــن معارضته لوجهة نظر « فرومكينا » ، « التي تريد ان تظهر لنا الحركة التي استحوذت على الشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى وكأنها حركة تحرر وطني ، (علما) بأن جهود البدو الذين يقودون هذه الحركة المسماة بتحررية تهدف الى ضمان استغلال الجماهيـــر الكادحة ونزع الفلاحين عن اراضيهم ، وهم يجدون في محاولاتهم هذه الدعم الكامل من قبل الامبريالية الانكليزية ·· » (٦٦) · أما بخصوص موقف «شيوعيي البوعالي تسيون » من الاوضاع في فلسطين ، فقد اكد « كون » على ان حزبه « لا يريد بناء دولة يهودية في فلسطين ، او على الاقل لا يريد بناء دولة بدعم من الامبريالية الانكليزية ··· وانمـــا يطالب بضمان حق الهجرة والاستيطان في هذا البلد ، طالما هو موجود بأيدي البرجوازية الانكليزية ، للجماهير اليهودية التي ستهاجر خلال الثورة الاجتماعية من البلدان التي

تقطنها بكثافة ، كما في اوكرانيا وليتوانيه وبشكل خاص في بولونيا ، وسيذهب قسم منها الى فلسطين للعمل في الزراعة مدفوع في ذلك نحو العمل المنتج الاجتماعي المفيد والضروري ··· » ، واعلن بأن تنظيم الهجرة والنشاط الاستيطاني اليهودي في فلسطين لن ينجز الا عبر نضال « الطبقة العاملة اليهودية وعمال البلاد الاصليين وبتضامن البروليتاريا العالمية ، ضد البرجوازية اليهودية وضد البرجوازية العالمية ··· » ، ملقيا بمسؤولية قيادة هذا « النضال » على عاتق « الحزب الاشتراكي في فلسطين المنتمي الى حزبنا والذي يمثل المجموعة البروليتارية الشيوعية الوحيدة التي تخوض النضال الصعب ضد الامبريالية الانكليزية ، ليس فقط في فلسطين بل في المنطقة العربية بأسرها ···» (٦٧)·

انطلاقا من جميع هذه الاعتبارات لاحظ مندوب البوعالي تسيون بأن القرار المقترح من « فرومكينا » والذي يناقشه المؤتمر « يبدو وكأنه يتجاهل وقائع هذه البلدان ويريد دفع المؤتمر الى اتخاذ قرار مثير للسخرية ·· » ، فالوقائع الاجتماعية السائدة في هذه البلاد تدل على ان « العمال اليهود المهاجرين هم بمثابة البروليتاريا الحديثة الوحيدة ، البعيدة عن اي رغبة في التملك والمفعمة بالتالي بروح الوعي الطبقي وبارادة النضال الثوري ، (اما) الجماهير العربية التي تعمل فوق اراضي كبار الملاكين اليهود والافندية العرب وتملك قسما كبيرا من هذه الاراضي ، فلا يمكن اعتبارها الا بمثابة نصف بروليتاريا · وان الطليعة السياسية التي ستدفع هذه الجماهير في خضم المعركة الثورية ··· هو حزبنا الذي زرع نفسه في فلسطين بدعاية ثورية قوية وبوفاء عميق لمبادىء الاممية الشيوعية ·· » (٦٨) ·

وفي نهاية مداخلته ، طالب « كون » مندوبي المؤتمر برفض اقرار القرار المقترح من « فرومكينا » لانه « يتعارض مع جميع هذه الوقائع ، ومع فحوى ونص الاطروحات التي تطالب بتقديم الدعم الكامل للمجموعات الشيوعية البروليتارية حيث وجدت ، في نضالها ضد الحركات الثورية القومية ـ البرجوازية ، ولانه سيضر كثيرا بنشاط الحركة الشيوعية في صفوف البروليتاريا اليهودية في العالم اجمع ، وبشكل خاص بنشاط الحركة الشيوعية في المنطقة العربية » (٦٩) ·



عبرت مداخلة « كون » امام مندوبي المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية تعبيرا صادقا عن طبيعة التناقضات الداخلية الكامنة في مواقف وسياسات التيار « الشيوعي » الصهيوني · فمن جهة وفاء كامل للمبادىء النظرية التي وصفها « بوروشوف » ، ومن جهة اخرى رغبة معلنة بالانخراط في نضال الحركة العمالية الثورية العالمية بقيادة الاممية الشيوعية · وقد كان مندوب البوعالي تسيون يهدف من وراء مداخلته الى اقناع الاممية الشيوعية بسلامة الحل الصهيوني في فلسطين للمسألة اليهودية ، ويسعى الى توفير « الشرعية الثورية » لمثل هذا الحل عن طريق العلاقة التنظيمية التي كان يأمل باقامتها بين حزبه وبين الاممية الشيوعية ، بعد اعتراف هذه الاخيرة بالبوعالي تسيون « ممثلا وحيدا للبروليتاريا اليهودية » (٧٠) ·

وللتوصل الى تحقيق هدفه هذا ، قام « كون » بتزييف الاوضاع السائدة في فلسطين وطبيعة الصراع الدائر بين قوى المعسكرين الامبريالي ـ الصهيوني من جهة ، والوطني التحرري العربي من جهة اخرى · فالبس الحركة الصهيونية لباس « حركة تحرر وطني »

بعد ان نزع هذا اللباس عن حركة التحرر الوطني العربية بحجة ان قياداتها « رجعية ـ اقطاعية » ٠ واكد على ان البروليتاريا اليهودية هي الفئة الوحيدة المؤهلة « بامتلاكها للوعي الطبقي » للعب دور «طليعي في قيادة النضال الاجتماعي في المنطقة » ٠ اما المشروع الاستيطاني ـ الصهيوني فقد صوره وكأنه بمثابة « عمليةسلمية » لاتهدف الى اقامة دولة يهودية في فلسطين على حساب مصالح الجماهير العربية ، وانما ترمي الى تحويل المهاجرين اليهود الى « مزارعين منتجين » يساهمون في تحديث اوضاع البلاد بما يخدم مصالح الجماهير العربية الكادحة ٠

لقد زيف مندوب البوعالي تسيون خلال مداخلته طبيعة الحركة الصهيونية كحركة عنصرية ـ رجعية تهدف الى اخضاع الجماهير الكادحة العربية لخدمة مصالح البرجوازية الكبيرة اليهودية والامبريالية العالمية عن طريق اقامة دولة صهيونية في قلب العالم العربي ٠ وشوه المحتوى الاجتماعي التقدمي والمعادي للامبريالية لحركة التحرر الوطني العربية ، التي كانت تقودها بالفعل « قيادات رجعية ـ اقطاعية » ، ولكن قواها الاجتماعية المحركة والمحددة لطبيعة محتواها كانت اساسا قوى الجماهير العربية الكادحة من العمال والفلاحين٠ وزعم بأن البروليتاريا اليهودية هي وحدها المؤهلة لقيادة النضال الاجتماعي في المنطقة « لتملكها للوعي الطبقي » ، متناسيا حقيقة ان الغالبية العظمى من العمال اليهود ـ ما عدا فئة محدودة جدا من العمال اليهود الثوريين والامميين ـ المنضوية تحت لواء الاحزاب « الاشتراكية ـ الصهيونية » ، كانت تسبق دوما وعيها « القومي » الصهيوني على حساب وعيها الطبقي ، وما الشعارات الشوفينية التي كانت ترفعها (احتلال الارض ، واحتلال العمل) سوى الدليل القاطع على صحة هذه الحقيقة ٠

غير ان مندوب البوعالي تسيون لم يستطع ، وعلى الرغم من تزييفه الفاضح لوقائع الحقائق الملموسة ، خداع مندوبي المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية الذين وافقوا بالاجماع على اقرار الاضافة المقترحة من مندوبة البوند الشيوعي « فرومكينا » ٠ وهكذا قدم لينين والبلاشفة والاممية الشيوعية منذ العام ١٩٢٠ ، سلاحا نظريا فعالا للقوى الوطنية والتقدمية العربية بغية مكافحة الصهيونية والامبريالية ٠

الحواشي :

١ ـ بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥ ، ص ٢٨٤ ٠

٢ ـ بيانات واطروحات ومقررات المؤتمرات العالمية الاربعة الاولى للاممية الشيوعية (١٩١٩ـ١٩٢٣) ، ماسبيرو ، باريس ، ١٩٧٢ ، ص ٥٧ ـ ٦٠ ٠

٣ ـ نفس المصدر ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ٠ كان «فواز طرابلسي» قد ترجم هذا النص عن الانكليزية ونشره ضمن البحث الذي اعده عن «الاممية الشيوعية وقضية فلسطين» في المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات ، كتاب خاص صادر عن مجلة دراسات عربية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٦٧ ٠

٤ ـ لم يتطرق لينين مثلا في مسودة أطروحاته الاولية حول المسائل القومية والكولونيالية لمثال فلسطين ٠ راجع لينين ، المؤلفات الكاملة ، الجزء ٣١ ، باريس ـ موسكو ، ١٩٦١ ـ ص ١٥١ ٠

٥ ـ انظر لينين : المسودة الاولية للاطروحات حول المسائل القومية والكولونيالية ، المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ـ ص ١٥٢ ٠ انظر كذلك : المسودة الاولية للاطروحات حول المسألة الزراعية، المصدر نفسه ، ص ١٥٣ ـ ص ١٦٦ ٠

٦ ـ الاممية الشيوعية ، عرض تاريخي

موجز ، معهد الدراسات الماركسية ــ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، دار التقدم ، موسكو ، ص ٧٥ · (بالاسبانية)·

٧ ــ لينين ، المؤلفات الكاملة ، الجزء ٣١ ، ص ٢٢١ ــ ٢٤١ ·

٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ ·

٩ ــ عندما عرض لينين المسودة الاولية للاطروحات ، رجا «جميع الرفاق، وخاصة اولئك الذين يمتلكون معارف محددة في هذا المجال» ، بان يعبروا عن ارائهم من خلال تقديم تصحيحاتهم وشروحهم الملموسة لمسودته ·

١٠ ــ راجع بهذا الصدد : اندريه بيير (André Pierre) المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، تقرير عن النقاشات مستوحى من جرائد موسكو ، مكتبة الحزب الاشتراكي و«الانسانية» ، باريس ، ١٩٢٠ ، ص ١٨ ــ ص ١٩ ·

١١ ــ انظر : الماركسية واسيا (١٨٥٣ ــ ١٩٦٤) ، منشورات (A. Colin) ، باريس ، ١٩٦٥ ، ص ١٩٧ ــ ١٩٩ وايضا ص ٢١٢ ــ ص ٢١٦ ·

١٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٩٩ ــ ٢٠٠·

١٣ ــ لينين ، تقرير اللجنة القومية والكولونيالية المقدم في ٢٦ تموز ، في المؤلفات الكاملة ، الجزء ٣١ ، ص ٢٤٧ ــ ٢٥٣ ·

١٤ ــ راجع مقتطفات من مداخلة المندوب الايطالي في : الماركسية واسيا ، المصدر المذكور ، ص ٢١٩ ــ ص ٢٢٢ ·

١٥ ــ المندوبان الايطاليان «سيراتي» و«غرازيادي» (Graziadie) بالاضافة الى المندوب الاسباني «بيستانيا» (Pestania)

١٦ ــ اورده س· بارون (S. Baron) في كتابه : اليهودي الروسي في العهدين القيصري والسوفياتي ، منشورات ماكميلان ، نيويورك ، ١٩٦٤ ، ص ١٧٠ · (بالانكليزية) ·

١٧ ــ انظر لينين ، المؤلفات الكاملة ، الجزء ٦ ، ص ٥٦٢ ·

١٨ ــ انظر بيريتزمرهاف (P. Merhav) : اليسار الاسرائيلي ، تاريخ وقضايا واتجاهات الحركة العمالية الاسرائيلية ، منشورات Antropos ، باريس ، ص ٢١ ــ ٢٢ ·

١٩ ــ انظر لينين ، المؤلفات ، الجزء ٦ ، ص ٥٦٢ ·

٢٠ ــ تاريخ الحزب الشيوعي «البلشفي» في الاتحاد السوفياتي ، موجز صادر عن لجنة خاصة باشراف اللجنة المركزية للحزب ، منشورات اللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٩ ، ص ٤٨ · (بالفرنسية) ·

٢١ ــ لينين ، المؤلفات ، الجزء ٧ ، ص ٩٠ ــ ص ١٠١ ·

٢٢ ــ انظر : «البوند : معركة سياسية طويلة» في مجلة «الدفاتر الجديدة» (Les nouveaux Chaiers) رقم ١١ ، خريف ١٩٦٧ ، ص ٤٩ ــ ٥١ ·

٢٣ ــ المصدر السابق ، ص ٥٠

٢٤ ــ هاجم البوند في عدة مقررات اتخذتها مؤتمراته الحل الصهيوني للمسألة اليهودية ، مفندا موضوعات هذا الحل الذي لا أهمية تذكر له « اذا كانت الصهيونية تدعو لهجرة عدد محدود من اليهود الى فلسطين» · أما اذا كانت الصهيونية تطمح الى هجرة «معظم اليهود ، أو القسم الاكبر منهم الى فلسطين» ، فمن الضروري محاربتها «كفكرة طوباوية خطيرة ، لن تفعل سوى أن تحرف الجماهير اليهودية عن النضال

في سبيل حقوقها السياسية والاقتصادية، وستؤدي الى اضعاف مستوى وعيها الطبقي» ٠

ليس هناك من شك بان قادة البوند كانوا صادقين مع أنفسهم في دعواتهم المتكررة لمحاربة الحل الصهيوني ٠ الا ان حسن نياتهم ، خاصة وهم يدعون لحل «قومي» من نوع اخر للمسألة اليهودية داخل الامبراطورية الروسية ، لم يمنع القادة الصهاينة من تجيير الدعوات القومية للبوند لخدمة الحل الصهيوني الذي كانوا يدافعون عنه ٠ ولقد أشاد القادة الصهيونيون بالخدمات غير المباشرة ، التي قدمها لهم البوند خلال نشاطه ٠ فكتب «جابوتنسكي» ، احد اولئك القادة المغرضين برجعيتهم : «انني من أنصار البوند المتحمسين ٠٠ انني اشك بأن يكون للبوند دور هام بخصوص مستقبل روسيا ، ولكن مستقبل اليهود يهمني اكثر بكثير كصهيوني ٠ لقد كان دور البونديين كبيرا في هذا الخصوص، (فنشاطهم) قد سهل لنا مهمة تحقيق الاهداف العريضة للصهيونية ٠ لقد خدم البونديون بشكل مباشر الحركة الصهيونية ، فقد ساعدونا قليلا فقليلا بشكل خاص ، على ايجاد الطريق السليم (لربط العمال اليهود بالحركة الصهيونية)، فالتقدم الكبير الذي أحرزه البوعالي تسيون قد تحقق جزء كبير منه بفضل البوند» ٠

٢٥ ـ انظر م٠ رافيس (M. Rafes) «الحركة الشيوعية اليهودية» من مجلة «الاممية الشيوعية» ، رقم ٩ ، نيسان ١٩٢٠ ، ص ١٣٤٥ ـ ص ١٣٥٤ ٠(الطبعة الفرنسية) ٠

٢٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٥٠ ٠

٢٧ ـ انظر «البوند اليهودي ، السوفياتيات والاممية الشيوعية» في «الاممية الشيوعية» ، رقم ١١ ، حزيران ١٩٢٠ ، ص ١٨٩٩ ٠

٢٨ ـ لم يعمر التواجد المستقل للبوند الشيوعي طويلا ٠ ففي المؤتمر الاستثنائي الذي عقده هذا الحزب في موسكو من ٥ الى ١١ اذار العام ١٩٢١ تقرر الموافقة على مشروع القرار الذي كانت قد تقدمت به قيادة الاممية الشيوعية لحل الحزب والاندماج نهائيا بالحزب الشيوعي لعموم روسيا ٠ راجع بهذا الصدد : «مقررات المؤتمر الاستثنائي للبوند في عامة روسيا» في «الاممية الشيوعية» ، رقم ١٧ ، حزيران ١٩٢١ ، ص ٤١٩٧ ٠

٢٩ ـ راجع الكسندر بياسكوفسكي : «الصهيونية في روسيا القيصرية» ، في «الصهيونية بين الامس واليوم» ، كتاب خاص صادر عن أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ، موسكو ، ١٩٧٦ ، ص ٣١ ٠ (بالفرنسية) ٠

٣٠ ـ ولد بوروشوف بمدينة «بولتافا» في روسيا القيصرية في العام ١٨٨١ ٠ وكان والده المعلم واحدا من مؤيدي مجموعة «عشاق صهيون» المثالية في هذه المدينة ٠ لم تختلف كتاباته الاولى عن كتابات المثقفين الصهيونيين انذاك ، وقد تميز نشاطه السياسي في بدايته بتعاونه الوثيق مع «ب اوسيشكين» أحد قادة الحركة الصهيونية في روسيا الوسطى ، والذي كان أبعد مايكون عن الفكر الاشتراكي ٠ تبنى بوروشوف الفكر الاشتراكي بعد اطلاعه على كتابات المفكر الصهيوني الاشتراكي الاول «ناحمان سيركين» ، وخاصة كتابه «الثورة الاشتراكية والدولة اليهودية» ٠ هاجر «بوروشوف» في العام ١٩٠٧ الى الولايات المتحدة الاميركية ، ولم يرجع الى روسيا الا في العام ١٩١٧ ، ولكن الموت لم يمهله طويلا حيث توفي بعد أشهر قليلة من رجوعه ٠

٣١ ـ لم يعبأ بوروشوف كثيرا بالثمن

المطلوب من الماركسية ان تدفعه لضمان النجاح بالخروج بمحصلة نظرية واحدة للعقيدتين الصهيونية والماركسية ·

٣٢ ـ انظر بير بوروشوف : « الطبقة والامة» ، منشورات انجيل(ANGEL) ، تونس ، ١٩٤٥ · (بالفرنسية) ·

٣٣ ـ المصدر السابق ، ص ٢٦ ·

٣٤ ـ المصدر ذاته ، ص ٦١ ·

٣٥ ـ المصدر ذاته ، ص ٦٣ ·

٣٦ ـ المصدر ذاته ، ص ٦٣

٣٧ ـ للتعرف على الاوضاع الاجتماعية لليهود داخل الامبراطورية القيصرية ، راجع ابراهام ليون : المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة عماد نويهض ، دار الطليعة ، بيروت ، تشرين الثاني ١٩٦٩ ·

٣٨ ـ وهنا تناسى «الماركسي» بوروشوف أن المادية التاريخية هي احدى الركائز الرئيسية للنظرية التي وضعها ماركس ، وأن الماركسي الحقيقي لاينظر للواقعة التاريخية الملموسة الا كنتاج لعملية تطور تاريخي طويل محكوم بالقوانين الموضوعية ·

٣٩ ـ تجدر الملاحظة هنا بأن بوروشوف عندما يتحدث عن «الطبقة العاملة اليهودية» ، فانه لايتحدث عنها كفئة اجتماعية في طور التكون · وانما كطبقة اجتماعية متجانسة ومتواجدة ، وذلك على الرغم من ظروف «الهرم المعكوس» · وقد كان التأكيد على تواجد هذه الطبقة «ذات المصالح الطبقية الواحدة» يشكل ركيزة أساسية من ركائز النظرية التي وضعها بوروشوف ، خاصة وان غياب «الطبقة العاملة اليهودية الواحدة» سيعني عمليا محو كافة التمايزات التي تميز النظرية «الاشتراكية الصهيونية» عن النظرية الصهيونية «البورجوازية» بشكل عام ·

ولكن اذا تساءلنا هل كانت هذه «الطبقة العاملة اليهودية» متواجدة في الواقع ، فان الجواب سيكون النفي · صحيح أنه كان هناك عشرات الالاف من العمال اليهود ، الا انهم لم يشكلوا أبدا فئة اجتماعية متجانسة ولها مصالحها الطبقية المحددة ، بل كانوا جزءا لايتجزأ من الطبقة العاملة الواحدة داخل روسيا القيصرية ·

٤٠ ـ أورده ماريو اوفينبرغ (M. Offenberg) : الشيوعية في فلسطين ، الامة والطبقة في الثورة المعادية للاستعمار · منشورات Meisenheim am Glan Verlag Anton Hain ١٩٧٥ ، ص ٥٤ · (بالالمانية) ·

٤١ ـ المصدر السابق ، ص ٥٤ ·

٤٢ ـ راجع مقتطفات هامة من هذه الوثيقة في ب· مرهاف ، اليسار الاسرائيلي ، المصدر المذكور ، ص ٤٠ ـ ص ٤٣ ·

٤٣ ـ انظر الكسندر بياسكوفسكي ، المقال المذكور ، ص ٣٢ ·

٤٤ ـ المصدر السابق ، ص ٣١ ·

٤٥ ـ المصدر ذاته ، ص ٣٢ ·

٤٦ ـ انظر م· اوفينبرغ ، الشيوعية في فلسطين ، المصدر المذكور ، ص ٦٥ ·

٤٧ ـ المصدر السابق ، ص ٦٥ ـ ٦٦ ·

٤٨ ـ المصدر ذاته ـ ص ٦٦ ـ ٦٧ ·

٤٩ ـ المصدر ذاته ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ·

٥٠ ـ المصدر المصدر ذاته ، ص ٩١ ·

٥١ ـ اورده م· اوفينبرغ ، المصدر ذاته ، ص ١٠٢ ·

٥٢ ــ انظر : المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية · تقرير مختزل ، مطبوعات الاممية الشيوعية ، بتروغراد ، ١٩٢١ · (بالفرنسية) ·

٥٣ ــ راجع بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، المصدر المذكور ، ص ٢٨٦ · انظر كذلك م· اوفيينبرغ ، المصدر المذكور ، ص ٩٥ ــ ٩٦ ·

تأسس حزب العمال الاشتراكي في فلسطين (M.P.S.) في اذار ١٩١٩، من اتحاد اعضاء حزب البوعالي تسيون الذين عارضوا الانضمام الى «اتحاد العمل» الصهيوني اليميني «احدوت هعفودا» مع اعضاء مجموعات اشتراكية صغيرة اخرى · ومن ان ايديولوجية هذا الحزب لم تكن قد تبلورت بعد من الناحية الماركسية ، وكان يشوبها الكثير من بقايا الافكار الاشتراكية ــ الصهيونية ،الا ان تأسيسه كان بمثابة خطوة هامة على طريق قيام الحزب الشيوعي في فلسطين· وقد أيد اعضاء هذا الحزب بحماس ثورة اكتوبر وتوجهوا الى الاممية الشيوعية منذ البداية ·

٥٤ ــ م· اوفيينبرغ ، المصدر السابق ، ص ٩٦ ·

٥٥ ــ انظر النص الكامل للمداخلةالتي القتها «فرومكينا» في : المؤتمر الثاني ·· تقرير مختزل المصدر المذكور ، ص ١٩٨ ــ ٢٠١ ·

٥٦ ــ المصدر السابق ، ص ١٩٩ ــ ٢٠٠ ·

٥٧ ــ المصدر ذاته ، ص ٢٠٠ ــ ٢٠١

٥٨ ــ المصدر ذاته ، ص ٢٠١ ·

٥٩ ــ انظر النص الكامل للمداخلةالتي القاها «ميريجين» في المصدر ذاته ، ص ٢٠٧ ــ ٢١٢ ·

٦٠ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١١ ·

٦١ ــ انظر النص الكامل للمداخلة التي القاها «كون» ، في المصدر ذاته ، ص ٢١٢ــ٢١٨ ·

٦٢ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١٣ ·

٦٣ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١٥ ·

٦٤ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١٥ ·

٦٥ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ ·

٦٦ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١٦ ·

٦٧ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١٧ ·

٦٨ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١٨ ·

٦٩ ــ المصدر ذاته ، ص ٢١٨ ·

٧٠ ــ في سعيها المتواصل للانضمام الى الاممية الشيوعية دخلت قيادة البوعالي تسيون ، بعد المؤتمر الثاني للاممية ، بمفاوضات رسمية مع اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية استمرت حتى صيف العام ١٩٢٢ · وقد انقطعت الاتصالات بين الطرفين بعد أن رفضت قيادة البوعالي تسيون قبول الشروط التي وضعتها اللجنة التنفيذية للاممية والقاضية بتخلي البوعالي تسيون عن ايديولوجية الصهيونية وحل نفسها وانتساب اعضائه للاحزاب الشيوعية المحلية ·

أنت متهم .. قبل ما تعرفه

صدر هذا التحقيق الهام ، الذي تنشر « شؤون فلسطينية » نصه الحرفي ، في جريدة « الصانداي تايمز » الاسبوعية ، تاريخ ٧٧/٦/١٩ · وهو اجرا محاولة تقوم بها الصحافة الانكليزية والغربية عموما ، لكشف انتهاكـات « اسرائيل » الفاضحة لحقوق الانسان ، كما يعبر عنها في تعذيب السجناء والمعتقلين الفلسطينيين ·

وتشير الصحيفة ، الى انها تنشر هذا الملف ، لانها تعتقد ان حقـوق الانسان لا تتجزا ، وهناك ضرورة للفت الراي العام العالمي ، الى ما يجري داخل اسرائيل · « لان العديد من الهيئات الدولية التي ادانت سوء معاملة المعتقلين في عدد كبير من بلاد آسيا وافريقيا واميركا الجنوبية ، تتردد في ادانة اسرائيل » · كما ان « الصانداي تايمز » ، تدين بشدة مواقـف الصحافة الاسرائيلية ــ « الليبرالية » ــ التي كان مـن المفترض بهـا ادانة انتهاكات « اسرائيل » اليومية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بينما هـي تكتفي بنشر بيانات تكذيب ونفي تعذيب المعتقلين في سجون « اسرائيل » ·

هذا الملف ، هو نتيجة تحقيق قام به فريق « انسايت » داخـل الارض المحتلة ، واستمر خمسة اشهر · وهو بهذا المعنى ، بالغ الدلالة ، لانـه يكشف وللمرة الاولى ، وعلى النطاق العالمي الواسع ، قضية محاولة سحق الكرامة الانسانية ، التي يحاولها الحكم العسكري المحتل ·

لقد اثار نشر هذا التحقيق ردود فعل مختلفة ، نشير هنا الى ابرزها :

١ ــ مجموعة كبيرة من رسائل القراء ، وصلت الى الصحف التالية : (الصانداي تايمز ، الهيرالد تريبيون ، لندن تايمز ، الاوبزرفر) ، بعضها يدافع عن « اسرائيل » ، عبر الاشارة الى حالة اليهود في البلاد العربية ، او عبر التاكيد من جديد على فاشية التجمع الاسرائيلي ، كما جاء في رسالة قارىء من تل ابيب : « الارهابيون العرب ليسوا جنودا بل قتلة · اتريدون ان نكون لطفاء معهم ، بينما هم يقتلون النساء والاطفال · نحن مضطرون ان نكون اقوياء · علينا ان نبرهن ذلك للمخربين العرب ، والا دمرونا » ·

وبعضها الآخر من لجان متعاطفة مع الحق العربي ، تؤيد نشر التحقيق • او من مواطنين يهود يؤيدون فيها نشر التحقيق « ان عددا كبيرا من اليهود في اسرائيل ولندن ، ومناطق اخرى من العالم ، كانوا قد احتجوا على هـذه الممارسات ونعتوا بالخونة » •

٢ ـ اثار نشر هذا التحقيق ردود فعل على الصعيد السياسي ، اذ وقع ٢٧ نائبا بريطانيا مذكرة ، تدعو الى مناقشة الموضوع في مجلس العموم • كما اعلن مونمان ، وهو نائب عمالي بريطاني ورئيس الاتحاد الصهيوني ، نيته في اقامة دعوى على الصانداي تايمز امام مجلس الصحافة • امـا الصحافة الاسرائيلية ، فقد اشارت الى هذا التحقيق بشكل عرضي ، وفـي معرض نفي ما جاء فيه • وقد اقترح احـد محـرري « هاآرتس » ابعـاد الصحفيين الاجانب الذين يتكلمون عن المعاملة السيئة التي يتلقاها السجناء العرب •

٣ ـ اما على المستوى « الاسرائيلي » ، فكان هناك ردان :

أ ـ رد صحفي ، نشر في « الصنداي تايمز » و « لندن تايمز » ، يبدي اسفه على عدم شمول التحقيق القضاة الاسرائيليين ، لان القضاء الاسرائيلي مستقل • ثم ينفي ما ورد في التحقيق ، مع مهاجمة المحاميتين فيليسيا لانغر ، وليا تسيميل •

ب ـ سمحت « اسرائيل » لبعض الصحفيين بزيارة سجن غزة ، ومقابلة المعتقلين هناك • وقد اشار المعتقلون ، الى انهم عانوا من سوء المعاملة ، لكنهم لم يشيروا الى كونهم عذبوا بالكهرباء •• وقد اجاب رئيس تحريـر « انسايت » (مجموعة صحفيي الصنداي تايمز الذين قاموا بالتحقيق) الى ان هذا الرد خاطىء • فنحن نعلم انه الآن ، لا يوجد تعذيب في سجن غزة ، ولذلك فاسرائيل هي التي اختارت هذا السجن بالذات ، ولم تعط الصحفيين حرية الاختيار •

في ساعة مبكرة من صباح الرابع والعشرين من شباط (فبراير) سنة ١٩٧٧ تمـت عملية نقل عند جسـر اللنبي ، نقطـة المـرور الرئيسية من الضفة الغربية التي يحتلهـا الاسرائيليون الى الضفة الشرقية للاردن •

فقد تقدمت سيارة جيب عسكرية اسرائيلية الى وسط الجسر وتوقفت هناك • وترجل منها عدة جنود اسرائيليين وتبعهم احد موفدي الصليب الاحمر من القدس ، وهو سويسري شاب يدعى برنار مونغر • ومعا ساعدوا شخصا مزيلا على النزول من سيارة الجيـب ومددوه على نقالة • كان اسمه عمر عبد الكريم • وكان نجارا فلسطينيا من قرية بيـت ساحور ، القائمة تحت بيت لحم مباشرة • كان في الخامسة والثلاثين من عمره ، ولكنه بدا شيخا مسنا •

وعلى الجانب الاردني من الجسر كانت جماعة صغيرة تنتظر عبد الكريم • وكانت هذه الجماعة تتألف من اخيه وضابط ارتباط عسكري اردني وجان كورفوازييه ، رئيس بعثـة

الصليب الاحمر الدولي في عمان · ورفع رجلا الصليب الاحمر . كورفوازييه ومونغـر . النقالة وحملاها الى سيارة اسعاف تابعة للهلال الاحمر الاردني (الذي يعمل في الاردن بالتعاون مع الصليب الاحمر الدولي) ·

وفيما توجه مونغر عائدا الى سيارة الجيب الاسرائيلية ، حاول عبد الكريم بضعـف ان يلوح له بيده مودعا · وعندما سأله احد العسكريين عن اسمه ، لم تكد شـفتاه تتحركان · وحزن شقيق عبد الكريم عندما بدا له أن عبد الكـريم لم يعـرفه · وقـال كورفوازييه لاصدقائه فيما بعد : « اعتقدت انه سيموت » ·

لكن عبد الكريم ظل على قيد الحياة · وعند الظهيرة ادخل الى مستشفى الملك حسين في السلط ، التي تبعد عن الجسر ٢٥ ميلا على الطريق الى عمان · ودون في سـجل الحالات لدى الفحص الاول الذي اجري عليه انه هزيل وضعيف · وكان يشكو آلاما في الصدر ويجد صعوبة في التنفس · وكان مصابا بالتهاب في مجرى البول وظهرت عليه علامات الدوار · وتشير صعوباته في التحرك الى تأكيد شكواه من ان مفاصله ، وبخاصة ركبتيه ، تؤلمه ايضا · ثم اظهرت الصور بالاشعة السينية للصدر ان اضلع عبد الكريم كانت في احدى المراحل قد انكسرت · ولاحظ الطبيب ايضا ان عبد الكريم كان في حالة عصبية شديدة ، ووصف له المهدئات ·

غير ان عبد الكريم استمر يحمل آثار كونه مر في اختبار اليم · وعندما جاءت زوجته نجمة لتزوره حدق فيها ، وسألها : « من انت ؟ » ومر بعض الوقت قبل ان يبدو عليه انه تذكرها ·

وبمعونة المضادات الحيوية والفيتامينات المتعددة وحمية عالية بالبروتينات اسـتعاد عبد الكريم وعيه وعافيته ببطء ، علما بأنه كان بعد ذلك بشهرين ما يزال يمشي بصعوبة بالغة ·

وقال عبد الكريم ان قوات الامن الاسرائيلية كانت قد اعتقلته قبل ذلك بأربعة اشـهر واتهمته بالانتماء الى حركة المقاومة الفلسطينية · وقال انه بعد ذلك تعرض للتعذيب · وكانت اعمال التعذيب التي رواها وحشية ومطولة ومنظمة وفوق ذلك مطبقة بصورة لا تترك ادنى شك – اذا صحت روايته – بأن الاسرائيليين يمارسون التعذيب المنظم ·

كنا ننتظر وصول عبد الكريم · وقد علمنا بقضيته في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٧٧ حين كان ما يزال تحت الحجز الاسرائيلي ·

وقبل اطلاق سراحه كنا قد تحدثنا الى زوجته ومحاميه ورئيس بلدية قريته ·

وكنا طيلة خمسة اشهر نحقق في مزاعم عن قيام اسرائيل بالتعذيب المنظم للسـجناء العرب · وكانت مثل هذه المزاعم مستمرة باصرار منذ نحو عشرة اعوام – منذ الاسابيع الاولى للاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة بعد انتصار اسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ · وقامت الامم المتحدة ومنظمة العفو الدولي Amnesty وعدة افراد ، في اوقات مختلفة ، بتحقيقات تفصيلية في الأدلة واستنكرت الممارسة الاسرائيلية بدرجات متفاوتة · بيد ان جميع التحقيقات السابقة كانت مكشوفة للانتقاد لانها اجريت خـارج اسرائيل والاراضي المحتلة ، دون ان تحاول التثبت من الحقائق في المكان نفسه الذي جرى فيه التعذيب · حتى ان لجنة خاصة من لجان الامم المتحدة قد اعترفت بعدم قدرتها

على « التوصل الى نتيجة حاسمة ، اذ ان هذه لن تكون ممكنة الا بعد استقصاء حر داخل الاراضي المحتلة » ·

وقد عملنا لاجل هذا التحقيق الذي قام به فريق انسايت ، داخل الضفة الغربية وقطاع غزة . فأخذنا التصاريح واستقصينا الروايات هناك وذهبنا الى بلدان عربية مجاورة ، حيثما دعت الضرورة ، لزيادة التثبت من هذه الادعاءات · واستجوبنا ٤٩ عربيا فلسطينيا كانوا تحت حجز قوات الامن الاسرائيلي · وجميع هؤلاء تقريبا ما يزالون يقيمون في الاراضي المحتلة · وادعى ٤٤ منهم ، انهم تعرضوا للتعذيب ·

وقد وافق ٢٢ فلسطينيا من العرب الذين شملهم التحقيق على أن نذكر اسماءهم ، حتى وان كانوا ما يزالون يقيمون تحت الحكم العسكري الاسرائيلي · وفي توصلنا الى الاستنتاجات اعطينا وزنا اكبر لهؤلاء الاشخاص · اما الحالات الباقية حيث طلب الفلسطينيون ان تبقى اسماؤهم مجهولة ، فقد عاملناها بمزيد من الحذر ، علما بأن اتفاقا ثابتا في الروايات يبرز من هذه الحالات ايضا ·

واستنتاجاتنا هي الآتية :

١) ان اجهزة الامن والمخابرات الاسرائيلية اساءت معاملة العرب في السجن ·

٢) كان بعض سوء المعاملة بدائيا فقط : ضرب المعتقلين لفترات طويلة على سبيل المثال · الا ان الاسرائيليين يستخدمون اساليب اكثر تعقيدا وحداثة ايضا ، بما فيها التعذيب بالصدمة الكهربائية والحبس في زنزانات مبنية بناء خاصا · وهذا النوع من الاجهزة ، مقرونا بدرجة التنظيم الواضحة في تطبيقه ، ينقل ممارسة اسرائيل من صعيد الوحشية البسيطة ويضعها بثبات في فئة التعذيب ·

٣) يجري التعذيب في ستة مراكز على الاقل : في سجون المدن المحتلة الرئيسية الاربع، نابلس ورام الله والخليل في الضفة الغربية، وغزة في الجنوب، وفي مركز الاعتقال بالقدس ، المعروف بالمجمع الروسي Russian compound ، وفي مركز المخابرات العسكرية الخاص الذي لا يعرف مكان وجوده ولكن الشهادات تشير الى انه في مكان ما داخل قاعدة التموين العسكرية الشاسعة في صرفند ، قرب مطار اللد على طريق القدس – تل ابيب · وثمة ادلة تشير ايضا الى انه كان هناك ، لفترة من الوقت على الاقل ، معسكر مماثل في مكان ما قرب غزة ·

٤) ان جميع اجهزة الامن الاسرائيلية متورطة في التعذيب: الشين بيث Shin Beth الذي يقدم تقاريره الى مكتب رئيس الوزراء مباشرة ، والمخابرات العسكرية التي تقدم تقاريرها الى وزير الدفاع، وبوليس الحدود، ولاتام Latam ،دائرة المهمات الخاصة، الاسرائيلية ، والجهازان الاخيران يقدمان تقاريرهما الى وزير الشرطة ·

٥) التعذيب منظم بصورة منهجية ثابتة بحيث لا يمكن اعتباره مجرد حفنة من « الشرطة الاوغاد » الذين يتجاوزون الاوامر · فهو تعذيب نظامي · ويبدو انه مجاز على احد الاصعدة كسياسة متعمدة ·

٦) التعذيب يستخدم لثلاث غايات على ما يبدو · الغاية الاولى هي انتزاع المعلومات بالطبع · الدافع الثاني ، الذي يبدو انه شائع كالاول على الاقل ، هو حمل الاشخاص على الاعتراف بجرائم « امنية » ارتكبوها او لم يرتكبوها ويستخدم الاعتراف المنتزع من ثم

كشهادة في المحكمة : فاسرائيل تبرز وجود قلة من السجناء السياسيين لديها ، وهؤلاء هم فقط الذين تمت ادانتهم بصورة قانونية في المحكمة · الهدف الثالث ، على ما يبدو ، هو اقناع العرب في الاراضي المحتلة بأن التصرف الاستسلامي هو السلوك الاقل ايلاما ·

ولذلك قد يكون العرب الاثنان والعشرون الذين نسميهم هنا عرضة لردة فعل في اسرائيل · وكان الاثنان والعشرون يدركون ذلك وقد قبلوا به · ولا نرى وسيلة لحمايتهم الا بالنشر الاعلامي ، ولذا ننشر كملحق لهذا التقرير اسماءهم واسماء قراهم او مدنهم ·

مشكلات التثبت

ان قضية عمر عبد الكريم ، الرجل الذي نقل عبر جسر اللنبي ، هي حالة تصور تصويرا نموذجيا الحالات الاخرى لسببين · فادعاءاته لا تكاد تختلف عن الادعاءات في عشرات الحالات السابقة · كما ان صعوبات التثبت من صحة اقواله لا تختلف ايضا ، كما سنرى لاحقا · اولا روايته ، المسجلة خلال ثماني ساعات من الاستجواب في اواسط نيسان (ابريل) · وينبغي اضافة عبارة « قال » ذهنيا الى كل زعم تال :

اعتقل عمر عبد الكريم في الثالث والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٦ فيما كان يعبر جسر اللنبي باتجاه الشرق ، في طريقه لزيارة زوجة شقيقه في عمان · ونقل بالسيارة الى المجمع الروسي الذي يسميه العرب « المسكوبية » ــ وهو مركز الاعتقال والاستنطاق في القدس الذي يضم شين بيث ولاتام واحيانا بوليس الحدود ·

وكان بين المستنطقين الذين استجوبوه ذلك المساء نفسه اثنان صار يعرفهما باسم « ايدي » و « اورلي » · واتهماه بأنه احد الفدائيين · وعندما انكر ذلك ، ضربوه على اخمص قدميه · وبعد ذلك ، علقاه من رسغيه حوالي ١٥ دقيقة · ثم ارسل الى زنزانة في مجمع السجن الرئيسي بالمسكوبية · وكانت قدماه متورمتين فحبا حبوا الى داخل الزنزانة ·

بقي في المسكوبية سبعة ايام · وفي استنطاقات لاحقة مدد على الارض ، وفيما وقف رجل على ساقيه ، شد رجل آخر ذراعيه الى الوراء · وذات مرة اخرى جرى لوي عصا داخل الصفد الذي يكبل يديه ، مما قطع امداد الدم عن يديه · واستمر ينكر تورطه مع الفدائيين ·

وبعد اسبوع نقل في سيارة شحن مغلقة الى مكان آخر ــ اعتقد انه صرفند ــ ، الى هذا الحد كان يمكن وصف معاملته بأنها « وحشية » وليست تعذيبا · لكن المركز الجديد كانت له غاية اكثر تصميما · فقد كان رأسه كله مغطى بكيس اسود من الكانفاس بصورة متواصلة ، الا خلال جلسات الاستجواب · وكان يتولى التحقيق مستنطقون جدد ، مع ان اورلي كان موجودا ايضا ·

وصارت الكهرباء تستخدم الآن · فقد جرى لصق رصاصتين سوداوين رقيقتين الى عبد الكريم بقماش لاصق · وكان طرفا السلكين مثبتين داخل صندوق اسود ، هو على الارجح محول ، ومن الصندوق ظهر سلك ابيض رقيق ادخل في مقبس بالحائط · وهنا زر على الصندوق يحرك التيار · وقال عبد الكريم : « شعرت كأن عظامي تتكسر · وكان الامر الاكثر ايلاما هو لدى تثبيت السلكين الى خصيتي · ولدى ادارة

التيار كنت اشعر به خلال جسدي كله · وبعد انتهاء الصدمات احسست بالالم في جميع مفاصلي · وكانت كل عضلة تؤلمني وشعرت ان اعصابي باتت مرهقة » ·

ويقول عبد الكريم ان الكهرباء استخدمت في « ثماني او تسع » جلسات · ولكنه استمر يقول بأنه بريء · وبعد ١١ يوما نقل من جديد ، الى سجن الخليل ·

وكان ايدي واورلي ما يزلان معه ، الا ان مزيدا من المستنطقين انضموا اليهما الآن · وخلال اليوم الاول من وجوده في الخليل ركله واحد يدعى « اوزي » في وجهه · وعندما سال الدم من انف عبد الكريم ولطخ جزمته ، اجبره اوزي على لعق الدم عن الجزمة · ويتذكر عبد الكريم الجزمة : « سميكة وذات شبكة مصلبة على النعل كجزمة المغاوير » ·

كما انه يعرف احد المستنطقين باسم ، ابو غزال » · وكان ابو غزال هذا يحمله من شعره ويلوح به حول الغرفة ، وعندما يقتلع الشعر يجبره على اكله · ويقول عبد الكريم : « كان الشعر كله يعلق في حلقي · فشعرت بأنني اريد التقيؤ » · ثم اجبر على شرب مياه مالحة · واخيرا عمد ابو غزال و مستجوب آخر الى ادخال زجاجة عنوة في است عبد الكريم ·

كان ذلك هو اليوم الاول · ويقول انه في اليوم الثاني علق ايضا برسغيه الى بكرة وضرب · « وشعرت بشيء ينكسر في صدري ·· ثم غبت عن الوعي · وحينما استعدت وعيي كنت ممددا على الارض وكانوا يلقون الماء على وجهي ·· »

وفي اليوم الثالث او الرابع جاء اورلي بزوجة عبد الكريم ، نجمة ، الى السجن · « وعندما رأتني في تلك الحال اخذت تصرخ · فأمسك بها اورلي من شعرها ، وشرع يصفع رجهها حتى تفر الدم من انفها وفمها ··· » فقال عبد الكريم انه سيعترف ·

« وقال اورلي : الآن نحن اصدقاء » · واخرج سيجارة وناولني اياها · فأخذت السيجارة ورحت ادخنها وقال : « تكلم الآن » · وهكذا كان علي ان ابدأ بالكذب · لم يكن لدي ما اقول وكان علي ان انقذ زوجتي · فقلت انه كان عندي قنابل وخبأتها في مرحاضي · وعندما قلت ذلك ، قالت زوجتي : « كلا ، انا التي وضعتها هناك » · وفي الواقع ، لم نكن قد فعلنا شيئا ، ولكنها قالت انها فعلت ذلك لتنقذني ، وانا قلت ذلك لانقذها » ·

واقتيد عبد الكريم الى بيته في بيت ساحور حيث قامت شاحنات المجارير بامتصاص المجرور قرب منزله · ولم يجدوا شيئا · وعندما تبين انه كذب ، اقدم ايدي على ضرب رأس عبد الكريم تكرارا على جدار خشن ، فتساقطت قطع الجص التي تكسو الجدار وامره اورلي باستردادها ففعل ·

وظل عبد الكريم يقول لمستجوبيه : « لو كان لدي اي شيء لاعطيتكم اياه » · فلم يصدقوه · وابقي تحت « دوش » بارد ، ثم ادخل في برميل من الماء المثلج ، وعلق من رسغيه مرة اخرى فيما راح المستجوب اورلي يضغط على اعضائه التناسلية ·

يقول عبد الكريم : « لا يستطيع العقل ان يتصور كم هو مؤلم ذلك · كان شديدا الى حد جعلني انسى جميع الآلام الاخرى » ·

وآخر اعتداء يتذكر عبد الكريم انه تعرض له هو حبسه داخل زنزانة صغيرة رش فيها من خلال ثقب الباب غاز من نوع ما · « لم استطع التوقف عن السعال · واخذ الدمع يسيل من عيني والمخاط من انفي · وشعرت بالعالم كله يدور من حولي » · ويتذكر

« قطعة زجاج كالاصبع ، جرى ادخالها اخيرا في كل منخر لتسهيل تنفسي ٠

منذ تلك المرحلة تصير ذكريات عبد الكريم المزعومة مشوشة ومتقطعة ٠ فقد تثبتنا من انه عند نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ، على سبيل المثال ، امضى اسبوعا في مستشفى السجن الاسرائيلي في رام الله ٠ وهو يقول انه لا يتذكر ذلك ٠ ثم في الثاني عشر من كانون الثاني (ديسمبر) تقول زوجته نجمة انها وابنهما البالغ من العمر ١٢ سنة زاراه عندما اعيد الى الخليل ولم يعرف ابنه ٠ ويقول عبد الكريم انه لا يذكر هذه الحادثة ايضا ٠

في حوالي هذا الوقت اخذه الاسرائيليون الى الحدود الاردنية ٠ الا ان الاردنيين رفضوا القبول به لانه لم تتم ترتيبات بشأنه ٠

ويقول عبد الكريم انه يتذكر بصعوبة شيئا من هذا ٠ وعن رحلته الاخيرة الى السلط في شباط (فبراير) بعد توسط الصليب الاحمر الدولي لا يتذكر الشيء الكثير ٠

انها قصة رهيبة ، ولكن ما هو مدى صحتها ؟٠ في طبيعة التعذيب لا يوجد غير فريقين : المعذب والضحية ٠ وكما قالت منظمة العفو الدولي : « المواجهة بين الفرد والقوة اللامحدودة للدولة ٠٠ تجري في المعتزل الاكثر سرية للسلطة السياسية » ٠ وبدون اعتراف الذين يقومون بالتعذيب ، علينا ان نبحث عن اشياء اخرى : تأييد التفاصيل التي يمكن التثبت منها ، او تطابق احدى الروايات مع الروايات الاخرى في ظروف يمكن استبعاد التواطؤ عنها ٠ وبهذه الاختبارات تستحق رواية عبد الكريم التصديق ٠

كنا قد علمنا بقصته ، كما قلنا ، قبل اطلاق سراحه ٠ والمقابلات المستقلة التي اجريناها أدت من ثم الى تأييد صحة روايته ٠

قبل اطلاق سراح عبد الكريم بستة اسابيع كانت زوجته نجمة قد اخبرتنا – في مقابلة في بيت ساحور – كيف انها اعتقلت وأخذت الى سجن الخليل ٠ وقالت ان كلا منهما تعرض للضرب امام الآخر ٠ وصفع وجهها وشدت من شعرها ٠ وبدا زوجها « مضروبا بشدة على وجهه وكانت عيناه متورمتين ٠ وكانت هناك حروق على ظهر يديه وحروق اخرى على وجهه وكأنها احدثت بحديد او بنار كهربائية » ٠ (وارانا عبد الكريم فيما بعد ، بين علامات اخرى على جسده ، آثار جرح مسطحة على ظهر رسغه الايمن ٠ وقال انها جاءت نتيجة استعمال الكهرباء ، غير المخففة بمحول في الخليل ٠ « الصقوا الاسلاك بي ثم وضعوا القابس في المقبس مباشرة ٠ وكان ان اطارني التيار بعيدا عن مكاني فاضطروا الى اعادة وصله بي ٠ وتطايرت شرارات من يدي ٠ اما الاجهزة الاخرى فلم تسبب شررا ») ٠

وأسهمت مقابلات أخرى في تأييد صحة رواية عبد الكريم ٠ ففي الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) قامت محامية عبد الكريم فليسيا لانغر وكاتبها عبد العسلي بزيارته في سجن الخليل ٠ وفيما بعد كتبت لانغر تصف تلك الزيارة :

« جيء به الي وكان يسنده سجناء آخرون لانه لم يكن قادرا على المشي وحده ٠٠٠ كان يبدو في حالة رديئة جدا وكان وجهه شاحبا شحوبا تاما ٠٠٠ وكان طوال الوقت يشير الى اضلعه مدعيا انه لا يستطيع التنفس ٠ وقال لنا احد زملائه السجناء ان اضلعه كسرت اثناء التحقيق ٠٠ وقال لنا عمر انه عذب بالكهرباء وفيما هو يتكلم عن ذلك راح يرتعد

ارتعادا رهيبا ··· وكان جسده قد تشنج ··· ولم يعرف سنه ولا مكان ولادته او عنوانه او اذا كان لديه أولاد · ومرة واحدة فقط خلال زيارتنا له ، اعترف بان زوجته ضربت امامه ، ولكنه بعد ذلك توقف عن الحديث حول ذلك · وبدا لنا انه كان في عالم آخر » ·

وفي مقابلة اخرى قبل اطلاق سراح عبد الكريم بستة اسابيع ، اكد كاتب لانغر ، العسلي ، روايتها ، مضيفا انهما رأيا عبد الكريم يبدأ بالضحك فجأة ويقبل احد حراس السجن · « وقال ان الحارس كان الشخص الوحيد الذي لم يعذبه ··· » (لم يأت العسلي على ذكر وجود حروق على جسم عبد الكريم ، ولكنه ادعى انه رأى « علامات زرقاء واخرى حمراء كالدم قرب اذنه ») ·

كما اننا في اواسط كانون الثاني (يناير) اي قبل اطلاق سراحه بستة اسابيع ايضا ، قابلنا حنا الاطرش ، رئيس بلدية قرية عبد الكريم · وقال لنا آنذاك كيف ان الاسرائيليين أمضوا عدة أيام يفرغون المجارير حول منزل عبد الكريم · وروايته عن هذا الحادث تطابق بوجه عام التفاصيل التي رواها لنا فيما بعد عبد الكريم ـ الذي لم تكن لديه ثمة وسيلة للتواطؤ معه ·

واخبرنا رئيس البلدية ايضا انه في اواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ، بعدما سمع من فليسيا لانغر عن حال عبد الكريم ، ذهب ليقابل الحاكم العسكري الاسرائيلي لمنطقة بيت لحم · « فقال انه لا يصدق القصة ، ولكنه سينظر فيها » · وقال لرئيس البلدية فيما بعد ان عبد الكريم قد نقل الى احد مستشفيات السجون ·

واتصل رئيس البلدية كذلك بالصليب الاحمر الدولي في القدس · « طلبت منهم أن ينظروا في الادعاءات · وفيما بعد اكد لي موفد الصليب الاحمر برنارد مونغر انها صحيحة · واكد صحة رسالة فليسيا لانغر تأكيدا تاما » ·

السياسة التي يتبعها الصليب الاحمر هي الا يدلي ابدا بتعليقات علنية حول اي من الحالات والقضايا · وقال الموفد الرئيسي للصليب الاحمر في القدس ، الفريدو ويتشي ، أنه لا يستطيع ان يؤكد او ينفي تصريح رئيس البلدية · قال : « نحن نقدم تقاريرنا الى السلطات ونطلب منها انّ تتخذ الاجراءات » · وكذلك في عمان ، كان كل ما اكده جان كورنوازييه هو انه التقى بعبد الكريم على جسر اللنبي ·

الا انه تأكد لنا ان موفد الصليب الاحمر في القدس ، مونغر ، تمكن لاول مرة من الوصول الى عبد الكريم في نهاية تشرين الثاني ، بعد اعتقاله بنحو ٥٥ يوما · وكان ان تم نقل عبد الكريم الى مستشفى سجن رام الله آنذاك ـ ربما نتيجة لتدخل مونغر · وهناك جرى تصويره بالاشعة السينية ، ولكنه أعيد بعد اسبوع الى الخليل · وفي ضوء حالته اللاحقة ـ التي وصفها مونغر بأنها « باعثة على الاسى » والتي تشهد عليها السجلات الطبية في السلط ـ يبدو هذا قرارا غريبا · وليس مستغربا ان يحمل عبد الكريم اعز الذكريات عن مونغر ، الذي ساعدت جهوده المتواصلة اخيرا على اطلاق سراحه · يقول عبد الكريم : « لقد انقذ حياتي » ·

عضو في المقاومة الفلسطينية

ولكن اذا كان ثمة تأييد مستقل لصحة بعض نقاط رواية عبد الكريم ، فان هناك

ايضا نقاط ضعف تجعلها تقف دون الدليل القاطع النهائي ·

في الدرجة الاولى ، كان فعلا احد اعضاء المقاومة الفلسطينية · فلسبعة أعوام خلت امضى حكما بالسجن ٢٠ شهرا لحيازته مسدسا · ومحاميته فليسيا لانغر ، رغم كونها يهودية ولاجئة من « الحل النهائي » الهتلري ، هي شيوعية نشيطة ، تندد بها الحكومة الاسرائيلية تنديدا منتظما لاتصالاتها السياسية مع اعداء الدولة الصهيونية ·

ثانيا ، ان الادلة الطبية ليست بائنة · فهي في النهاية ترتكز على آراء وشهادات مدير مستشفى السلط ، الدكتور احمد حمزه · لكن الدكتور حمزه ليس حياديا على الاطلاق · ففي عام ١٩٧٦ ابعده الاسرائيليون عن الضفة الغربية · واحكامه السريرية ايضا مكشوفة للتحدي · فالدكتور حمزه ، اذ وجد ان جراح عبد الكريم « تتفق » مع رواية تعذيبه ، شدد بعض التشديد على اضلعه المكسورة · الا اننا اكتشفنا أن عبد الكريم ، في شباط (فبراير) ١٩٧٦ ، زار مستشفى جبل داود للتجبير في بيت لحم وكان يشكو آلاما في ظهره وصدره · وتشير سجلات المستشفى الى أن صورة بالاشعة السينية تظهر ايضا « ادلة على كسور متعددة في الاضلاع » · ويقول خبراء طبيون في لندن انه حتى لو كسرت اضلع عبد الكريم مجددا فيما بعد ، فان صور الدكتور حمزه بالاشعة السينية قد لا تكون سمحت له بالتمييز بين مجموعتي الكسور ·

ويمكن القول ان الموقف السياسي لفليسيا لانغر ، في بلد يدعي الحرية السياسية ، لا يجب ان تمنع الاخذ بشهادتها · ويمكن القول ايضا ان الكسور القديمة معرضة بصورة اكيدة لعطب جديد نتيجة الضرب · ومع هذا تبقى شكوك · وفي حين اننا تمكنا من التأكد من صحة نقاط كثيرة في روايتيهما ، فان عبد الكريم وزوجته اختلفا حول تفصيل بارز واحد · فقد قال ان زوجته جلبت امامه في الخليل حوالي الخامس والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ـ وتفاصيل شهادته لا تترك مجالا للخطأ · وكانت زوجته قد اخبرتنا ان التاريخ هو الخامس عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ·

ان مد وجزر الادلة نموذجي في ادعاءات التعذيب وهو يوضح الصعوبات الملازمة للبرهان ، غير ان قطعة من الادلة الخارجية في قضية عبد الكريم تشير اشارة قوية الى ان « شيئا ما » يرغب الاسرائيليون في اخفائه قد حدث له فعلا · وهي تأتي من الاسرائيليين انفسهم ·

ففي اليوم الاول ارسل عبد الكريم عبر نهر الاردن الى مستشفى السلط ، اتصل الدكتور حمزه بوكالة رويتر واخبرها عن وضع عبد الكريم · وطلب احد مراسلي رويتر في اسرائيل تفسيرا من السلطات العسكرية في الضفة الغربية ·

فقيل له ان عبد الكريم فدائي ومخرب عربي مدان حكم عليه بالسجن لمدة ١١ عاما · لكنه اصيب بالمرض بعد تمضية ثلاثة اعوام فقط · وقد طلب من الاسرائيليين السماح له بالذهاب الى الاردن للمعالجة الطبية ، وتمت الموافقة على ذلك ·

هذه القصة الاسرائيلية كاذبة · فالسجلات الطبية في بيت لحم تظهر ، كما قلنا ، ان عبد الكريم ، ذهب في شباط ١٩٧٦ اي قبل اطلاق سراحه على جسر اللنبي بسنة كرجل حر ، الى مستشفى بيت لحم للتجبير ، وقام بعدة زيارات اخرى كمريض خارجي قبل اعتقاله · ويؤكد رئيس البلدية حنا الاطرش ان الاعتقال تم في تشرين الاول ١٩٧٦ ·

واخيرا فاننا ننشر (على الصفحة ١٧) صورة عبد الكريم وزوجته المأخوذة في الذكرى الثالثة عشرة لزواجهما · وقد التقطت الصورة في ستوديو فوتو ديفد في بيت لحم ربيع ١٩٧٦ · ويتذكر الستوديو التقاطها ·

ويمكن استبعاد وقوع خطأ في معرفة الشخص · فان قلة من « الفدائيين والمخربين » ينقلون كمرضى وسط تمضيتهم مدة الحكم عليهم بالسجن عبر جسر اللنبي · كما لم يظهر اي تشويش في كلام السلطات العسكرية · الا ان بيت القصيد هو ليس كذب السلطات الاسرائيلية · فالقلق هو ان الضابط الذي كذب اما ان يكون امره رؤساؤه بأن يفعل ذلك — واما انه كذب ببادرة خاصة منه ، مدركا ان رؤساءه لن يعاقبوه اذا اكتشفوا الامر · وبكلام آخر ان ما حدث لعمر عبد الكريم كان جزءا من نظام مجاز رسميا ·

حكم العالم

بعد يوم واحد من تصويت الامم المتحدة على تأسيس دولة اسرائيل في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، كتب حاييم وايزمن ، اول رئيس جمهورية لاسرائيل ، والذي يعتبره الكثيرون الاب المؤسس لها ، يقول : « انا على يقين من ان العالم سيحكم على الدولة اليهودية بناء على ما سوف تفعله مع العرب » · والمعضلة التي تغلفها نبوءته تفضي مباشرة الى الوضع الذي يكشفه تحقيقنا ·

اسرائيل دولة يهودية ، مصممة على ان تبقى كذلك · ومع هذا فهي تحكم ١ر٧ مليون عربي — ولعشرة اعوام كان ١ر٢ مليون من هؤلاء تحت الاحتلال العسكري ·

اما لماذا زادت اسرائيل منذ ١٩٤٨ بصورة ثابتة سيطرتها على العرب واراضيهم فأسباب ذلك تعود الى الرجعة اللامتناهية للسبب والنتيجة ، للاتهام والاتهام المضاد التي يتألف منها تاريخ الشرق الاوسط الحديث · وهذا خارج نطاق تحقيقنا · والحقيقة هي ان معظم الاسرائيليين لا يرون اي خيار غير الاستمرار في الاحتلال العسكري · وبعض الاسرائيليين يريدون ان يفعلوا ذلك بنشاط على اساس الحقوق اليهودية التاريخية في الارض ·

ولان اسرائيل تعتمد الى هذا الحد على ما اعتبره وايزمان حكم العالم ، فانه يتوجب عليها ان تحاول تأمين حكم لصالحها · والنزاع بين هذه الحاجة الدولية والحقيقة الداخلية المتمثلة في الحكم العسكري والمقاومة العربية المعبر عنها احيانا بالارهاب هو ، على ما يخيل الينا ، التفسير الاكثر وضوحا لسبب تحول التعذيب ، ارتكازا على الادلة ، الى ممارسة اسرائيلية مقبول بها ·

بالطبع ، ان كثيرين سيرفضون بحدة ادلتنا على انها غير معقولة اطلاقا · كما ان عددا اكبر من الناس سيجدون في فكرة تحول شعب مضطهد (بفتح الهاء) بدوره الى شعب مضطهد (بكسر الهاء) مفارقة كريهة الى حد المطالبة بأدلة اقوى ربما مما سيكون مطلوبا ضد بلدان اخرى · وسيشير حتى عدد اكبر من الناس الى ان اسرائيل تزعم — وبلا شك تشعر — انها في حرب من اجل حياتها ، وان سجل العرب حول الحريات المدنية رديء ، لكي لا نقول اكثر من ذلك ·

وبيت القصيد ، بالطبع ، هو ان اسرائيل نفسها لا تقبل ، نظريا ، بالتضمينات غير المعبر عنها لحجة هؤلاء ·

فاسرائيل لا تعترف بأن وضعها يسوغ التعذيب · وهي تنكر انكارا تاما ان التعذيب يستعمل ابدا · كما ان اسرائيل لا تبرر اخفاقاتها في الحقوق المدنية بالمقارنات مع النقائص العربية · بل على العكس فهو امر جوهري لروح اسرائيل ولحاجتها الى الدعم الدولي انها جزء من الغرب ـ وبالتالي ان يحكم لها او عليها وفقا للمقاييس الغربية · فاسرائيل تدعي « كحقيقة » ـ كما قال مراقب اسرائيلي رسمي في اجتماع للجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة في آذار (مارس) ١٩٧٣ ـ « ان حقوق الانسان للسكان المدنيين [في الاراضي المحتلة] كانت وما تزال تحترم وتصان على نحو كامل ··· والحقائق تشير الى مجتمع مفتوح ، هادىء ومستريح » ·

وبعد عشرة اعوام من الاحتلال العسكري ، شعرت اسرائيل انها قادرة على القول ، في كتابها الرسمي :

« المناطق المدارة هادئة ومزدهرة اليوم ··· والعرب والاسرائيليون الذين كانوا حتى عام ١٩٦٧ يعيشون في عزلة وتباعد متبادلين يتمتعون اليوم ببدايات تعايش سلمي ومثمر » ·

وبما ان اطروحتنا هي ، على وجه الدقة ، ان الحاجة الدولية الى المحافظة على ذلك المركز تفسر استخدام التعذيب الى حد بعيد ، فمن الضروري ان نبدأ بايجاز استجابة اسرائيل لمشكلات « التعايش » :

لقد مرت ردة الفعل الفلسطينية على احتلال الضفة الغربية في ثلاث مراحل · المرحلة الاولى : مقاومة نشيطة من اواسط ١٩٦٧ الى نهاية ١٩٦٩ · وبنهاية ١٩٦٩ كانت الغارات على المستوطنات الحدودية قد توقفت تقريبا ·

المرحلة الثانية من منتصف ١٩٧٠ حملت معها هدوءا نسبيا · فبعد سحق الفلسطينيين في صراع « ايلول الاسود » بالاردن وموت الرئيس عبد الناصر صار المناضلون الفلسطينيون يتطلعون الى الخارج : الى الالعاب الاولمبية فيميونيخ في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ مثلا ·

اما المرحلة الثالثة فيمكن ردها الى الغارة الاسرائيلية على بيروت في نيسان (ابريل) ١٩٧٣ عندما استولى الاسرائيليون على الالوف من الوثائق · وعلى اساس هذه الوثائق شهدت الضفة الغربية ، وبصورة لها دلالتها منطقة الجليل ، ضمن حدود اسرائيل القديمة، موجات جديدة من الاعتقالات التي شملت مناضلين فدائيين او متعاطفين مشتبه بهم · والاضطرابات التي اشعلتها موجات الاعتقال هذه ـ في شكل اضطرابات مدنية وتظاهرات قام بها طلبة المدارس الثانوية الى حد كبير ـ شهدت مدا وجزرا ولكنها لم تتوقف فعلا قط · ونتيجة للاستيطان الاسرائيلي المتواصل في الضفة الغربية ،والغارات الانتحارية الفلسطينية كالتي شنت على كريات شمونة ومعالوت وبيسان ، ازدادت المشاعر بين الشعبين سوءا ·

اما في غزة فقد اختلف شكل المراحل · فبوجود ٢٠٠ الف لاجىء محشورين حشرا في المخيمات الى جانب ١٠٠ الف من اهالي غزة الاصليين ، فان المنطقة هي احدى اكثر مناطق العالم اكتظاظا بالسكان ـ وبيئة مثالية للعمل الفدائي · وقد استمرت المقاومة النشيطة هناك حتى اواسط ١٩٧١ ، عندما تحولت الى حرب اهلية صغيرة بين الفئات الفلسطينية المتنافسة · وشقت اسرائيل بالبولدوزرات طرقات عريضة عبر المخيمات كخطوة

اولى نحو تهدئتها والسيطرة عليها · وبحلول اواسط ١٩٧٢ كان قد تم سحق الفدائيين ·

ولم تنكر اسرائيل قط ان معركتها ضد المقاومة الفلسطينية انطوت على اجراءات شديدة قاسية · فقد هدمت البيوت (١٦ر٢١٢ منزلا بين تموز ـ يوليـــو ١٩٦٧ وآب ـ اغسطس ١٩٧١ وفقا لسجل مستقل) وابعدت « عملاء تخريب معروفين » (١١٣٠ شخصا الى الاردن منذ ١٩٦٧ وفقا لسجلات البوليس الاردني) · ولكنها تشير الى ان العرب يتمتعـــون بانتخابات بلدية حرة وبمستويات عيش افضل من مستويات عيش العرب في مصر وسوريا ولبنان ، والى انها تستخدم الاجراءات التأديبية بتحفظ ·

بناء على هذه الخلفية واجهت اسرائيل اصعب مشكلة لاية دولة محتلة ، وهي معاملتها للمقاومين والمخربين · ففي ١٩٧٦ ادعت انها حطمت ٩١ شبكة للتخريب واعتقلـت ٨٠٧ اشخاص لهم صلـــة بهـا ·

وحتى قبل انتصارها عام ١٩٦٧ كانت اسرائيل قد اعدت بنية ادارية للاراضي التـــي ستحتلها ـ ونظام محاكم عسكرية · لكن حملات الاعتقال في اواخر ١٩٦٧ واوائل ١٩٦٨ غمرت ذلك النظام · وكان البريطانيون لدى مواجهتهم مشكلات مماثلة ايام الانتداب قد لجأوا الى اقامة معسكرات اعتقال ـواحد قرب تل ابيب ، واخر في الصحراء قرب غزة · (وما يزال العرب واليهود على السواء يسمونها « معسكرات الاعتقال » · وكانت الاوضاع فيها رهيبة على ما يبدو) ·

ان فكرة قيام اسرائيل بالذات ، من بين جميع الشعوب ، بانعـــــاش « معسكـــرات الاعتقال » كانت قد رفضت في مناقشات عاطفية في البرلمان الاسرائيلي · ولم يكن ثمة بديل لجعل سجون اسرائيل والاراضي المحتلة تكتظ بالموقوفين · وفي الاشهر التي تلت حـــرب ١٩٦٧ تجاوز عدد الموقوفين بلا محاكمة الالفين · وبحلول اوائل ١٩٧٠ كان ما يزال عدد الموقوفين بلا محاكمة ١٩٢٣ شخصا ·

الا ان المحاكم العسكرية ادركت الموقوفين بصورة بطيئة · وتدريجيا ادانت المحاكـــم العسكرية تقريبا جميع العرب الذين اعتقلوا في موجات اعتقال جديدة ـ ومعظم الذيـــن ظلوا موقوفين من الايام الاولى ـ بتهم « جرائم امنية » تتراوح بين العضوية في منظمـة غير شرعية وتوزيع المناشير او كتابة الشعارات في الاماكن العامة ، وحيـازة اسلحة او ارتكاب التخريب او جرائم القتـــل ·

وبعد عشرة اعوام من الاعتقال ، لا يوجد لدى اسرائيل (حسب اخر رقم نشر) غير ٣٧ موقوفا بلامحاكمة · لكن نحو ٦٠ بالمئة من جميع السجناء في سجون اسرائيـــــل او المناطق المحتلة هم عرب ادانتهم المحاكم العسكرية بجرائم امنية ـ حوالي ٣٢٠٠ مـــن اصـــل ٥٨٠٠ ·

وهكذا تستطيع اسرائيل ان تظهر للعالم انه ليس لديهـا سجناء سياسيون ـ بلارهابيون مدانون فقط · وكما تساءل سفير اسرائيل في الامم المتحدة ، جاكوب دورون ، في خطاب القاه في تشرين الثاني الماضي : « اي عيب هناك في اجراء محاكمات وادانة الذيـــن وجدوا مذنبين بعدما اخذت العملية القانونية مجراها ؟ » والجواب على هذا السؤال هـو العيب هو عندما يتم الحصول على تلك الادانات بوسيلة التعذيب السري ·

المحاكم العسكرية هي نقطةارتكاز الادعاء بحكم المناطق المحتلة وفقا للقانون · لقـــد

تكلمنا مع ستة محامين ـ اسرائيليين اثنين واربعة فلسطينيين ـ يظهرون بصورة منتظمة في تلك المحاكم للدفاع عن المتهمين بجرائم امنية · واسماؤهم : فيليسيا لانغر ، ليا تسيميل ، وصفي مصري ، انطون جاسر ، الياس خوري وفايز ابو رحمة · والرأي الذي اجمع عليه هؤلاء هو ان المحاكم العسكرية تتواطأ في استخدام اجهزة المخابرات والامن الاسرائيلية للتعذيب وتخفيه عمداً والالية التي تلجأ اليها هذه المحاكم انيقة ، بطريقتها الخاصة ، وتكاد تكون قياسية · فمعظم الادانات في تلك المحاكم ترتكز على اعترافات المتهمين · والمحامون على يقين من ان معظم تلك الاعترافات تنتزع انتزاعاً بالمعاملة السيئة او التعذيب : وبلا استثناء تقريبا ترفض المحاكم ذلك الادعاء بالتعذيب ·

المشتبه به امنيا في الاراضي المحتلة يعتقله عادة الجنود الاسرائيليون أو شرطة الحدود، يرافقهم معظم الاحيان رجل او اكثر يرتدون الثياب المدنية · ومعظم الفلسطينيين الذين تحدثنا اليهم اشاروا الى الرجال الذين يرتدون ثيابا مدنية على انهم اعضاء في شين بيث، جهاز الامن الداخلي لاسرائيل · (وفي الواقع ، علمنا انهم يمكن ان ينتموا كذلك الى المخابرات العسكرية الاسرائيلية) ·

ويمكن ايقاف المشتبه به حتى ١٨ يوما قبل ان يساق امام قاض عسكري · وبامكان القاضي ان يأمر بتوقيفه مدة اخرى تصل الى ستة اشهر · وخلال هذه المدة يصار الى استجواب المشتبه به · وعندما يساق الى المحكمة في النهاية ـ بعد مدة قد تصل الى سنة ـ يكون الادعاء العام مجهزا على الدوام تقريبا بافادة ، موقعة من المشتبه به ، يعترف فيها ببعض الاتهامات الموجهة اليه على الاقل ·

وتقول اسرائيل ان جميع الاعترافات طوعية · هذا الادعاء لا يصدقه المحامون الستة الذين تحدثنا اليهم · فالمحامي وصفي مصري ، وهو في الستين من عمره ومن نابلس وكان قاضيا كبيرا تحت الحكم الاردني ، يقول · « في ٩٠ بالمائة من القضايا التي لدي ، قال لي السجين انه قد ضرب وعذب · ومن الصعب اثبات ذلك بالطبع لانه ليس لديهم شهود يرونهم يتعرضون للضرب · ولكني على يقين من ان الضرب يحدث » ·

يكون للمحاكم العسكرية عادة ثلاثة قضاة عسكريين ـ على ان يكون واحد منهم فقط مؤهلا ، اي له خبرة ستة اعوام في سلك المحاماة ، ليصير قاضيا مدنيا · والانظمة العسكرية التي يطبقونها ترتكز الى حد ما على انظمة وضعها البريطانيون عام ١٩٤٥ ـ لمقاومة الارهاب اليهودي بصورة رئيسية ·

لكن المناورة الحاسمة لا تجري في المحاكم · فالمحاكم تسمح فعلا لمحامي الدفاع بدحض شرعية الاعترافات وصحتها · وعندما يحدث هذا تقام « محاكمة صغيرة » (تسمى بالعبرية زوتا Zuta) ·

فالذي يحدث هو هذا · يقول المتهم للمحكمة انه عومل معاملة سيئة او تعرض للتعذيب· ومن ثم يستدعي الادعاء العام الشرطي او ضابط الجيش الذي اخذ الاعتراف · وتقول المحامية الشابة الاسرائيلية المولد ليا تسيميل ان الضابط يقول للمحكمة : « جلست مع المشتبه به ، وتناولنا القهوة معا ، وناولته سيجارة ، فتكلم بحرية ،وكان كل شيء طبيعيا»· وهذا الضابط يقول الحقيقة دائما تقريبا ·

والحيلة هي ان الشرطي او الضابط قد يكون بالفعل اخذ الافادة · ولكنه لم يقم بالاستجواب · وقال الكثيرون من السجناء الذين استجوبناهم انهم بعد الموافقة على

الادلاء بافادة كانوا ينقلون من المستنطقين الى الشرطة ومعهم ملاحظات بالجرائم التي يعترفون بها · ومن ثم يؤلف الشرطي الجديد الافادة للمحكمة ·

وحاول عدة سجناء ان يغيروا افادتهم ، فاحدهم ، شحاده شحاده منزرام الله ، احتج مثلا بانه لا يستطيع قراءة اعترافه المزعوم لانه مكتوب بالعبرية · (وهذه شكوى شائعة ·) « ترك الشرطي الغرفة ودخل رجلان في ثياب مدنية · فقلت لهما انني اريد ان اعرف ماذا اوقع · فقالا : لا وقت لدينا لكل هذا · وشرعا يضربانني · فقلت : حسنا ، حسنا ، سأوقع » ·

ويكاد يستحيل على المتهمين استدعاء مستنطقيهم الحقيقيين الى المحكمة ، لانهم ينتحلون القابا عربية ، مثل « ابو سامي » و « ابو جميل » و « ابو داود » – او القابا مثل « جاكي » و « داني » و « أري » · وتكون النتيجة هي نفسها حتى ولو نجح المتهمون في ذلك · فقد اخبرتنا ليا تسيميل كيف انها استدعت اخيرا الى المحكمة مستنطقا كان موكلها قد وصفه · « فنظر الى المتهم وقال انه انه لم يره قط في حياته » ·

والتحديات الناجحة لشرعية الاعترافات نادرة . المحامي وصفي مصري محط اعجاب المحامين الاخرين لكونه اقنع المحاكم العسكرية بالغاء الاعترافات في خمس قضايا – من اصل مجموع يقدره « بالالوف » · وقالت ليا تسيميل انها « كادت تنجح مرة » ·

وشرحت ان دورها الحقيقي كان المساومة على الالتماسات · كان احد موكليها الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من مجموعة متسللين قتلتهم بالرصاص دورية اسرائيلية · « قال لي انه قاسى تعذيبا شديدا ويريد الاحتجاج في المحكمة · فعرض الادعاء صفقة : اذا انا امتنعت عن مناقشة اعترافه سيطلب الادعاء عقوبة قصوى مدتها ١٨ سنة · وبما انه كان يمكن ان يحصل على السجن مدى الحياة ، فقد نصحته بالموافقة » ·

وقال لنا محام فلسطيني من غزة ، هو فايز ابو رحمه ، انه قرر الا يقبل اية قضايا امنية اخرى · « اخبرت الاسرائيليين انه طفح كيلي · وقلت لهم انه احرى بهم ان يعودوا الى الاعتقال بلا محاكمة وان ينهوا هذه المهزلة · »

ولذلك فان السؤال هو ماذا يحدث في جلسات الاستنطاق السرية تلك ؟

قصة غسان حرب ··

غسان حرب مفكر وصحفي فلسطيني في السابعة والثلاثين من عمره منرام الله ، التي تبعد عشرة اميال شمالي القدس وليلة الحادي والعشرين – الثاني والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٧٤ كان هو وزوجته ينزلان في بيت حميه هناك · وبعيد منتصف الليل ايقظهم من النوم ستة جنود اسرائيليين ورجلان يرتديان ثيابا مدنية · وامر احد الرجلين المدنيين حرب بان يرتدي ملابسه · فسأله حرب : « ما الامر ؟ » واجاب الرجل : « سترى» وكبلت يدا حرب وعصبت عيناه وحمل في سيارة نقلته الى سجن رام الله ·

والذي حدث لغسان حرب خلال الشهرين التاليين قد سبق ان اثار اهتماما دوليا ، وعندما اثيرت قضيته في الامم المتحدة العام الماضي وصفها سفير اسرائيل هناك ، جاكوب

دورون ، ببساطة على أنها « نموذج لروايات الفظائع التي تنشرها عناصر معينـة ضد الادارة المدنيـــة » ·

والذي عناه دورون هو ان حرب ، شيوعي · لكنه صحيح ان كلا الجانبين ، اسرائيل ومتهميها ، قد شوها قضية حرب ــ ويعود ذلك جزئيا الى كون الشاهد الرئيسي ، اي حرب نفسه ، كان غير موجود · فلمدة سنتين ونصف السنة بعد تلك الزيارة في منتصف الليـل ظل حرب موقوفا بلا محاكمة ·

ولم يطلق سراحه ويعاد الى بيته الا في الثامن عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧· وبعد ذلك بوقت قصير سجلنا لاول مرة روايته هو عن اختباراته · وقد ترك حرب انطباعـا بانه شاهد ممتاز : دقيق ، متحفظ ، يشك في انطباعاته وراغب في العثور على نقاط يمكن التثبت منها · وفيما يلي قصته في الجوهر :

خلال الايام الخمسين الاولى لم يحدث له شيء · تعرض للكم والركل لدى وصولـــه الى السجن وسمع ، وهو ما يزال معصوب العينين ، اخرين يتلقون المعاملة ذاتها · ولكن وبعد ان قضى ثلاث ليال في زنزانة صغيرة مع ستة سجناء اخرين ، نقل الى غرفة اكبـر تضم ٤٠ رجلا · وفيما مرت الايام اخذ الاخرون للاستجواب ــ وكان معظمهم قد اعتقـل في نفس الليلة التي اعتقل فيها هو · وقال انهم كان يعادون « في حال رديئة جدا » بعد ستة ايام او سبعة واحيانا بعد ١٥ يوما « تعرضوا للضرب · وبالامكان رؤية اثـــار الضرب على وجوههم وصدورهم » · والغريب انهم مـع هذا لم يتكلموا كثيرا عـلى مـا يبدو · ولم يأت دور حرب الا في الثاني عشر من حزيران (يونيو) ، اي بعد اعتقالـه بـ ٥١ يومـــا ·

عصبت عيناه من جديد واجبر على التمدد ارضا داخل سيارة جيب كما يعتقد ، فـــي رحلة استمرت ساعتين او ثلاث ساعات · وعندما توقفت سيارة الجيب اخيرا ، واخرج منها حرب وهو ما يزال معصوب العينين ، وضع كيس سميك من القماش فوق رأسه · وبقي حوالي ثلاثين او اربعين دقيقة واقفا ، ورافعا يديه في الهواء ــ « عندمـــا تكون الاوضاع رديئة ربما اعتقد المرء ان الوقت اطول مما هو فعلا » كما اضاف حرب بحذر ــ ادخل الى غرفة ورفعت العصبة عن عينيه ، وخاطبه رجل يرتدي ثيابا مدنية بالعربية :

ــ هـل تعلم اين انت ؟

قال حرب : كلا ·

ــ انت في قصر النهاية ·

وهذا هو اسم سجن في بغداد اشتهر باعمال التعذيب والاعدامات السرية · كـــان يعلم حرب انه ليس في العراق · لكنه ادرك ايضا ما يعنيه قصر النهاية · وادرك مــا عناه مستجوبه ·

وعلم حرب انه اعتقل لانه ، بوصفه شيوعيا صريحا ، كان مشتبها بانه يشترك فـــي المقاومة المسلحة في الضفة الغربية · كان قد انتمى الى الحزب الشيوعي كطالب فـي رام الله ، التي كانت جزءا من الاردن · وكانت الحكومة الاردنية قد حظرت الحزب وجرى اعتقال حرب عام ١٩٥٧ · كان في السابعة عشرة من عمره يومذاك · وامضى مع اعضاء

اخرين في الحزب الاعوام الثمانية التالية في السجن ·

واخيرا اطلق سراحه في عفو عام . وخلال حرب ١٩٦٧ كان حرب يدرس الاقتصاد في جامعة موسكو · وعاد الى رام الله عام ١٩٧٢ ليعمل في صحيفة الفجر العربية الصادرة في القدس · وكان يتكلم ويكتب ضد الاحتلال الاسرائيلي · وقد تكون هذه النشاطات ازعجت الاسرائيليين الا ان ايا منها لم يكن غير قانوني · وكما قال سفير اسرائيل جاكوب دورون : « ما من احد في السجن بسبب معتقداته السياسية » وتسمح اسرائيل للشيوعيين بالترشيح للانتخابات في اسرائيل نفسها ·

اما في الضفة الغربية فان جميع الاحزاب السياسية ونشاطاتها محظورة ويبقى الاسرائيليون الشيوعيين المعروفين تحت المراقبة الدائمة · وكان هذا هو الوضع بصورة خاصة منذ ١٩٧٣ عندما قرر شيوعيو الضفة الغربية ومنظمة التحرير الفلسطينية تشكيل تحالف سموه الجبهة الوطنية الفلسطينية · وبما ان اسرائيل تعتبر منظمة التحرير الفلسطينية منظمة محض ارهابية فانها سرعان ما نظرت الى « الجبهة » على هذا الاساس وفي ليل الحادي والعشرين ـ الثاني والعشرين من نيسان ١٩٧٤ تحركت ضد « الجبهة » وتم اعتقال حرب ·

وفي الامم المتحدة قال السفير دورون فيما بعد ان اسرائيل لم « تعتقل الا الذين توجد ضدهم ادلة بجرائم امنية » · الا ان معظم الذين اعتقلوا آنذاك لم توجه اليهم اية تهمة قط ونحن نعلم عن تسعة رجال ـ احدهم حرب ، وثمانية منهم شيوعيون يعترفون بانتمائهم ـ اخذوا على ما يبدو الى « قصر النهاية » الاسرائيلي · وابعد ثلاثة منهم الى الاردن عام ١٩٧٥ · وسمح لاثنين آخرين بالعودة الى منزليهما في الضفة الغربية عام ١٩٧٦ · واطلق سراح حرب ورجل اخر عام ١٩٧٧ · وما يزال اثنان في السجن · ولم تجر محاكمة اي منهم ، ناهيك بادانتهم ·

ولا يثبت هذا ، بالطبع ، ان ايا منهم لم يرتكب مخالفة · فقد نقل عن لسان الامين العام للحزب الشيوعي الاردني قوله ان رفاقه في الضفة الغربية كانوا ناشطين بالفعل · وتبقى الحقيقة ان حرب ينفي اشتراكه في اي نشاط اجرامي ، ولم يتقدم الاسرائيليون باية ادلة قط ·

ومن الضروري توضيح هذا ، لا لشيء الا لان السفير دورون انكر الادعاءات التالية ووصفها بأنها « محاولة لاثارة الرأي العام ولتغطية الجرائم المرتكبة » · ولذلك فانه يستخدم القول بالجرائم غير المبرهنة لينكر الادعاءات بالتعذيب ·

وتبقى القضية الاساسية : وهي حتى لو كان حرب ورفاقه مذنبين . فكيف عوملوا في « قصر النهاية » الاسرائيلي ؟ ·

محنة في « الخزانة »

حسب رواية حرب ، انتهى اجتماعه الاول مع مستنطقه بصورة مفاجئة · قال له المستنطق : « نعلم انك ضد السلطات · اخبرنا كل ما تعرفه » · فأجاب حرب انه ليست لديه اية معلومات · وقال المستنطق : « حسنا ، لا تريد ان تتكلم » · وأومأ للحراس ، الذين كانوا يرتدون بزات عسكرية ، قائلا : « خذوه » · وفي غرفة اخرى امر حرب بأن

يتعرى والبس « اوفراول » من النوع العسكري والتقطت له صور · ثم اعيد الى مستنطقه · ورأى هذا المستنطق مرات عديدة في الايام الستة عشر التالية ·

« كان بدينا ، اسمر البشرة بعض الشيء ولكنه ليس اسود · وكان شعره اسود ، وليس له شارب ، وكان شعره جعدا بعض الشيء · لا اذكر اذا كان له فرق في شعره ام لا » · ويعتقد حرب ان طوله يبلغ نحو ١٧٠ سنتمترا وهو بين الثانية والثلاثين والاربعين من العمر · « كان يتكلم العربية بلهجة سورية » · ويتذكر حرب انه كان دائما يرتدي سروالا مدنيا وقميصا قصير الكمين ·

في المرة الاولى انهال عليه بالضرب فورا · ويقول حرب : « كان يجلس على طاولة ، وانا كنت جالسا على مقعد خشبي وابتدأ يضربني · ولمدة ١٥ دقيقة ، ٢٠ دقيقة راح يضربني بيده على عرض وجهي » · (ويحذر حرب مرة اخرى من انه قد يكون بالغ في الوقت) · ولم يطرح سوى سؤالا واحدا : « هل تريد ان تتكلم ؟ » وكرر حرب القول انه ليس لديه ما يقوله ·

وفي نهاية تلك الجلسة الاولى اقتيد حرب الى مكان آخر بعدما غطي وجهه من جديد بالكيس · ونزع القيد عن يديه و « الاوفراول » عن جسمه ، وربطت يداه وراء ظهره ، وعاريا الا من الكيس فوق رأسه دفع دفعا الى ما شعر انه مكان ضيق · واغلق الباب · ورغم وجود ثقبي هواء في اعلى الكيس ، خشي حرب الاختناق ، ولذا نزع الكيس عن رأسه بأن زلق رأسه على الجدار ووجد نفسه في زنزانة صغيرة لا نوافذ لها ، ويتسرب الضوء الوحيد اليها من شق تحت الباب · يقول : « كانت في الواقع مجرد خزانة » · ويعتقد ان مساحتها كانت ٦٠ سنتمترا مربعا ، ولا يزيد ارتفاعها عن ١٥٠ سنتمترا · « يبلغ طولي ١٧٨ سنتمترا ولم استطع الوقوف فيها ، كما ان الجلوس لم يكن ممكنا » ·

اشد الامور غرابة كانت ارض الخزانة ، فهي من الاسمنت ، وتبرز منها على مسافات متقاربة ولكنها غير منتظمة مجموعة من النتوءات الحجرية · « كانت مدببة وذات اطراف حادة · وربما بلغ ارتفاعها سنتمترا ونصف او سنتمترين اثنين · ولم يكن بامكاني الوقوف عليها بشكل طبيعي · كان يمكنني ان اقف عليها ولكن بصعوبة والم · فأخذت ارفع احدى الساقين واضع الاخرى ارضا ، ثم ارفع تلك الساق عندما تتعب واضع الاخرى ارضا ، وهكذا ·

ويعتقد حرب انه امضى ثلاث او اربع ساعات في « الخزانة » في المرة الاولى – مع انه يحذر من تقديره للوقت وقد يكون مبالغا · الا ان اطلاقه من المكان لم يجلب له الراحة ·

فقد فتح الباب ·وفك احد الجنود الصفد عن يدي حرب ليدعه يرتدي ثيابه ، ثم كبل يديه امامه · ولان حرب كان قد نزع عن رأسه الكيس ، فقد صفع وعصبت عيناه من جديد ، هذه المرة « بنظارتين من نوع ما ، نظارتين مصنوعتين من قماش اسود » · ثم وضع الكيس فوق رأسه · واقتيد حرب الى داخل ما يعتقد انه فناء مفتوح من اجل المزيد من « المعالجة » ·

« كان هناك ثلاثة او اربعة منهم · قدرت ذلك من اصواتهم · كانوا يضربونني ، ثم قالوا : والآن انزل على ركبتيك ويديك · كانت هناك حجارة صغيرة في الفناء وكان مؤلما جدا ان احبو عليها » · (مؤلما بنوع خاص بالنسبة الى حرب ، لان عنده تشوهات عظمية

تبرز من ركبتيه) · « استمر ذلك ربما نحو ساعة · كنت احبو حول المكان علـى الارض فيما هم يركلونني ويضربونني · وفيما كنت احبو راحوا يركبون علي ، ويجلسون علي كأنني حصان » · وعندما جيء بحرب اخيرا الى مستنطقه من جديد ، قال الرجل : « والآن انظر الى حالتك » · ثم راح يكلم حرب تكرارا فيما اخذ هو ومستنطق آخر يطرحـــان لاسئلة عليه ·

« قالا : هل تعرف هذا الشخص ، ذاك الشخص ··· وكانا يذكران الاسماء · وقـال احدهما انني متهم بتهم عسكرية وقلت لهما : كلا ، كلا · فقال : نعرف انك ناشط في هذا الحقل · فقلت : حسنا ، اذاكنتماتعرفان انني ناشط ، قدما لي بعض الادلة · اعرف ان هذا غير صحيح · واذا كان لديكما بعض الادلة قدماها لي ; فقال : نعرف ، نعرف · واستمر يضربني » ·

كان ذلك هو اليوم الاول · وقال حرب انه في النهاية حبس في زنزانة وسمح له بالنوم· وفي الصباح ابتدأ الروتين من جديد ـ وتكرر ذلك دون تنوع تقريبا خلال الايام الاربعة التالية : « الخزانة » ، الفناء ، الاستجواب ، الزنزانة ـ ولكن لم ينته دائما بالنوم · فالروتين كان يمكن ان يبدأ في اي وقت من النهار او الليل ·

واحيانا خلال انهيالهم عليه بالضرب كان حرب يعرى من ثيابه : « كانوا يأخذونني الى الخارج ، ويأخذون ثيابي ، وكان هناك اربعة اشخاص او خمسة · فيركلنــي احــدهم ، ويتلقاني آخر ، ويعطيني للاول ـ ككرة تركل من والى · وبعد ذلك يجعلونني احبو · كنت لا ازال عاريا حين جلس احدهم على ظهري وراحوا يضحكون » ·

وفي مرة اخرى ، امر حرب بالحبو الى داخل بيت كلب ، مساحته اقل من قدمين ، لم يكن الكلب بداخله ، ولكن حرب استطاع ان يسمعه ينبح بجواره ·

وسمع حرب ايضا اصوات سجناء آخرين : « ذات مرة في المرحلة الاولى اخذوني الى الخزانة في الليل ··· ربما كانت الساعة التاسعة او الثانية عشرة · ثم اخذت الـى الخارج وسمعت بعض الاصوات ، اصوات الم وبكاء واستعطاف ··· (آخ يا راسي) ، (آخ يا بطني) ، (انكم تقتلونني) · وبالطبع لم استطع ان اتبين من هم هؤلاء الاشخاص الذين يئنون ، ولكني سمعت انينهم » ·

ومما لا ريب فيه ان المركز بدا مجهزا بجهاز بشري قادر على « معالجة » اكثر مـن نزيل واحد · وبين الثاني عشر والسادس عشر من حزيران ـ الايام الخمسة التـــي تخللها استجوا. ـكثـ ـ استنطق حرب ستة او سبعة رجال ، جميعهم يرتدون الثياب المدنية · ولم يكن الرجل ذو اللهجة السورية دائما بينهم · كما لم يكن العنف يستخدم على الدوام ـ علما بانه تميز بالشدة كلما استعمل · ويقول حرب انه في احدى المراحل ضرب فلقا بعصا ·

الا ان معاملته خفت بعد تلك الايام الخمسة · وجرى استنطاقه لمدة ١٢ يوما آخر ، لكن الجلسات صارت اكثر استرخاء واستطرادية تنتقل من موضوع الى آخر · ولم يعد يوضع في « الخزانة » او يخرج الى الفناء · يقول حرب : « لا ادري اذا كنت قد اقنعتهم ان لا علاقة لي بالتهم العسكرية » ·

وفي ما يحسب حرب انه كان الثامن والعشرون من حزيران (يونيو) ، نقل وهو

ما يزال معصوب العينين في سيارة من المركز الى سجن ياغور خارج حيفا · وذهب معه خمسة او ستة سجناء آخرين · وفي ياغور ابتدأ حرب الاحتجاز الذي اطلق سراحه منه في كانون الثاني ١٩٧٧ ·

وتنفي اسرائيل ان حرب تعرض للتعذيب · واول دفع تفصيلي لها قدمه السفير دورون في خطاب بالامم المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، بعد استماعه الى تقرير من « لجنة خاصة » تابعة للامم المتحدة حول الاراضي المحتلة جاء على ذكر قضية حرب بين قضايا اخرى ·

كانت المحامية فليسيا لانغر قد رفعت عددا من هذه القضايا الى الامم المتحدة · لـذا هاجم دورون اولا مصداقيتها : « عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الموالي لموسكو » و « داعية ناشطة ضد الدولة ··· مكرسة للافتراء على اسرائيل وتشويه سمعتها » ·

ومضى دورون يقول ان حرب كان قد احتجز للتحقيق معه في « نشاطات تخريبيـة بالنيابة عن منظمة ارهابية » · ولما ان صارت هذه المزاعم عن التعذيب معروفة ، فحصه طبيبان « وجدا انه غير مصاب بشيء على الاطلاق » · وسمح لوفد عـربي مـن مدينـة رام الله بزيارته ايضا · وقال دورون ان هذا الوفد كذلك « كان مقتنعا بأنه لم يعامل معاملة سيئة بأية طريقة » · وفيما يتعلق بجوهر الاتهامات التي ساقها حرب ، قال دورون انـه يمكنه القول ، بعد « تحقيقات غير متحيزة » ابتدأتها السلطات الاسرائيلية نفسها ، ان حرب لم يتعرض لاي تعذيب · « فما من احد يحتجز في السجن معصوب العينين ومكبلا »·

الا ان فرقاء آخرين اشتركوا في تلك التحقيقات كانت لهم ذكريات مختلفة · فقد قامت زوجة حرب ، عفاف ، بزيارته في سجن ياغور يوما واحدا او نحو ذلك بعد مغادرته مركز الاستنطاق · وتقول عفاف انها روعت : « بدا منظره رهيبا · كان شاحبا ومرهقا وقـد خسر الكثير من وزنه » ·

وسبب تقريرها عما رأته وعما قاله لها زوجها اضطرابا في رام الله · فعائلة حـرب معروفة محليا · وكان حرب قد اشتهر بكتاباته وخطبه · ولما رأى حاكم رام الله العسكري ذلك ، امر بنقل حرب من ياغور الى السجن المحلي · ويقول حرب ان الطبيبين الاسرائيليين فحصاه ـ فحصا روتينيا لا مباليا ـ لدى وصوله الى السجن المحلي · وقابله ايضا موفد من الصليب الاحمر الدولي ، وقدم له شكوى رسمية بالتعذيب · وكما قال دورون ، سمح لحرب بأن يقابل وفدا محليا : نائب رئيس بلدية رام الله وشقيق حرب ·

وقد تكلمنا مع الرجلين · وخلافا لما زعمه دورون ، قال الرجلان انهما اعتقدا فعلا ان حرب عومل معاملة سيئة · وقال شقيق حرب انه بدا مريضا ، وهزيلا ، وظهرت عليه بعض آثار سوء المعاملة ، بما فيها آثار جراح · ويتذكر نائب رئيس البلدية آنذاك ، وهو محام يدعى الفريد كيسيك ، فيقول : « قال لنا انه تعرض للتعذيب · وخيل الي ان حاله ليست رديئة بقدر ما سمعت ، ولكنه بدا مريضا واعتقدنا انه عومل معاملة سيئة » ·

وماذا بشأن « التحقيقات غير المتحيزة » التي اجرتها اسرائيل في القضية ؟ في اوائل تموز (يوليو) ، فيما ازداد الاضطراب حول ادعاءات التعذيب التي نشرتها زوجـة حرب اعلن وزير البوليس ، شلومو هيلل ، عن تحقيق ـ تحت اشراف ضابط شرطة ، واحد حرب الى مقر قيادة الشرطة في رام الله لاستجوابه · وقال حرب ان التحقيق كان

سريعاً وسطحيا · ولم تزد كلمات التقرير النهائي عن ٥٠٠ كلمة · (بالمقارنة يبلغ مجموع كلمات تقريرنا نحن عن استجوابنا التفصيلي لحرب ١١٫٠٠٠ كلمة) · واستجوب الشرطي ايضا الستة لآخرين الذين قدموا شكاواهم بواسطة المحامية لانغر · وبحلول اوائل اب كان قد قدم تقريره · ونفى التقرير الادعاءات ·

وقاومت لانغر التقرير · فبالاشتراك مع محام آخر . هو وليد فاهوم . رفعت شكوى الى المحكمة العليا في تل ابيب مدعية ان التحقيق لم يف بالغرض وان وزير البوليس هيلل قصر في اداء واجبه · ومن الناحية الفنية . اذن . لم يكن موسع المحكمة الا ان تتفحص القضية الاجرائية الضيقة · الا ان المحامين كانوا يأملون . بأن تنظر المحكمة في القضية الاوسع للادعاءات نفسها . وهذا ما فعلته المحكمة في نهاية المطاف ·

بيد ان اجراءها كان من القرانة بحيث ان شكا كبيرا على الاقل يجب ان يلقى على النتيجة التي توصلت اليها · فهي لم تستدع اي شاهد · ولم تأخذ افادات اوسع · وقالت المحكمة انها قصرت نفسها على « الاختيار بين الادعاءات المتناقضة للسجناء والمحققين كما قدمت كتابة » · وعلى اساس تقارير طبية « لم تظهر اية علامة من علامات الجراح المسببة عمدا » اختارت ان تصدق المحققين · وفي الثامن عشر من كانون الاول (ديسمبر) رفضت المحكمة الشكوى ضد هيلل ·

اربع قصص مؤيدة

نعلم . كما سبق ان قلنا . بوجود ثمانية فلسطينيين عرب آخرين يبدو انهم كانوا في مركز الاستنطاق الخاص في الوقت نفسه مع حرب · اثنان من هؤلاء ما زالا في السجن . ولكننا تعقبنا وقابلنا اربعة من الستة الذين اطلق سراحهم : محمد ابو غبير . جمال فريتخ ، خلدون عبد الحق ، وحسين حداد ·

كان حداد وحده في المنفى في الاردن · (ومات في عمان في ايار (مايو) ١٩٧٧ · ونحتفظ بشريط سجلنا عليه مقابلة معه) · وما يزال الثلاثة الآخرون ، مثل حرب . يقيمون في الضفة الغربية · ولم توجه الى اي منهم اية تهمة ابدا · وعلى ضوء ما يقوله هؤلاء الاربعة . من المهم ان ننظر في ما اذا كان ثمة تواطؤ في الروايات بينهم وبين حرب · مما لا ريب فيه ان حرب وثلاثة منهم كانوا معا لبضعة ايام في ياغور ، بعد الاستنطاق مباشرة · ولكنهم فرقوا بعد ذلك . واثنان فقط وضعا في السجن نفسه (عبد الحق وفريتخ في نابلس) ولم يكن حداد في ياغور مع الآخرين . ولكنه رأى حرب لبضعة ايام في رام الله حينما اخذ الى هناك لحضور جلسة محاكمة لتمديد مدة اعتقاله · وهذا يطرح الاحتمال النظري بان الرجال الخمسة كان يمكن ان يتآمروا لاختلاق رواية · الا انه لم يكن بالامكان اختلاق قصة الا خلال تلك الايام في ياغور - لكي تنقل الى حداد فيما بعد · وثمة نقطتان اخريان · فان حداد لم تتح له فرصة الاجتماع بالآخرين بعد ابعاده الى الاردن · ثانيا . كنا قد قابلنا اثنين من الذين ما زالوا في الضفة الغربية - هما عبد الحق وابو غبير - دون اي انذار . وقبل اطلاق سراح حرب وفريتخ · وقد استجوبناهما بعد اطلاق سراحهما بأيام قليلة فقط · وفي رأينا ان هذه الافعال ووزن التفاصيل التي تطوع الرجال في روايتها بعد اختباراتهم بنحو ٢٠ شهرا تنم عن حقيقة واقعة وليس عن رواية ملفقة · وفي ما يلي الروايات

☐ محمد ابو غبير ، كندرجي من القدس ، تكلم عن مركز الاستجواب واصفا اياه « بمعسكر عسكري » حيث يرتدي الحراس « بزات عسكرية » وهو ايضا عري من ثيابه ، والتقطت له صور فوتوغرافية واعطي « اوفراول» من قطعة واحدة في الوان التمويه ، وهو ايضا يتحدث عن عصب عينيه « بكيس اسود مصنوع من قماش سميك جدا » له ثقبان في اعلاه · وهو كذلك ظل معصوب العينين طوال الوقت الا في زنزانته او اثنــــاء الاستنطاق · كما انه ، مثل حرب ، وصف « فناء حجريا » وذكر وجود كلاب ·

عندما طلبنا من حرب تقدير شكل ومساحة المركز ، قال انه لا يستطيع ان يفعل ذلك لانه يعتقد انه اقتيد في كل مكان على نحو دائري · وعندما طرح السؤال نفسه علـى غبير ، اجاب : « لا اقدر ان اعرف · فالمشكلة هي انهم كانوا يقودونني بشكل دائري »·

☐ جمال فريتج ، عامل من نابلس ، تحدث عن « بزة سجن » و « كيس من القماش الاسود » فوق رأسه · وتكلم عن حبوه عاريا فوق حصى · واضاف ان عينيه ، خلال تلك المحنة ، كانتا مغطاتين بعصابة اضافية تحت الكيس · وقال انه كان يوضـــع في مـــا سماه « البراد » مرة في اليوم على الاقل · « كان حجمه ٦٠ سنتمترا في ٦٠ سنتمترا وبارتفاع ١٦٠ سنتمترا · وكان الاسمنت على الارض مصنوعا بطريقة تجعله يبدو مثل تلال صغيرة متقاربة بأطراف حادة جدا · وكل طرف منها كالسمار » ·

☐ خلدون عبد الحق ، شريك في شركة بناء بنابلس ، تحدث عن كونه عــري مــن ثيابه ، والتقطت له صور ، واعطي « اوفراول مموه » ليرتديه · وعصبت عيناه « بكيس اسود صنع من القماش » وله « ثقبان في اعلاه ليدخل منهما الهواء » · وتكلم عن فناء ـ سماه « مكانا في العراء » ـ حيث قال انه علق بذراعيه من عقيفة في الجدار · وتذكر خزانة صغيرة ـ « كانت ارضها مغطاة بحجارة حادة جدا فوق الاسمنت » ·

☐ حسني حداد ، صاحب مصنع في بيت لحم عند اعتقاله ، اعطي سترة كاكيـــة وسروالا بدلا من اوفراول · لكن « كيس الكانفاس الاسود » ذا الثقبين لم يتغير · كذلك لم يتغير وجود « حديقة من نوع ما » و « ارضها مرصوفة بالحصى » حيث ركل فيما هو يحبو · ويذكر ايضا زنزانة طولها ٥٠ سنتمترا ، بعرض ٥٠ ســنتمترا وبارتفـــاع ١٥٠ سنتمترا ، وكانت ارضها مفروشة بنتوءات « تشبه ابهامات البشر » لكنها ذات اطراف حادة · وحتى التفاصيل الصغيرة في رواية حرب اكدها حداد · فكلا الرجلين قالا ان غرفة الاستنطاق الاولى كان فيها رسوم بيانية تعليمية تظهر اسلحة على الحائط · وقال كلاهما ان صوتا غريبا ازعج نومهما · فقد تحدث حرب عن « اصوات محركات تحـدث ازيزا » · وتكلم حداد عن « صوت طنين من محرك ، او ربما صوت ازيز » · وعشرات التفاصيل تتطابق في الروايات الخمس ، و منها الصحون البلاستيكية ، وغياب الشوك والملاعق والسكاكين للاكل ، والسطل البلاستيكي للمرحاض ، وانعدام وجود ورق تواليت ·

وكانت هناك تناقضات ايضا · فعبد الحق ، مثلا ، يتذكر الفناء على انه « يشـــبه التراب » وينفي ان تكون فيه حجارة او حصى · وتراوحت المعاملة السيئة المزعومة مــن حيث النوعية وطول مدتها · فقد ادعى فريتج انه تعرض باستمرار تقريبا للضرب والمعاملة السيئة · وقال غبير انه لم يكد يمس · (وربما كان السبب هو ان غبير كان مصابـــا بالسل ، ولدى اعتقاله ، كان مريضا باصابة في بطنه) · ولكننا حين نأخذ الادلة بعين الاعتبار ، نكتشف انه كان يوجد في اسرائيل عام ١٩٧٤ مركز استنطاق يديره الجيش حيث تغطى وجوه المشتبه بهم وتكبل اياديهم باستمرار ويحرمون من النوم والمتطلبـــات

البشرية الاخرى ويتعرضون بصورة منظمة للتعذيب الجسدي والذهني ·

اين يجري كل هذا ؟

اين يوجد مركز الاستنطاق هذا ؟ الجواب الاكثر احتمالا هو انه يقوم وراء سياج من الاسلاك العالية يراه جميع السياح فيما هم يمرون بالسيارات في مرحلة الطريق الاخيرة من القدس الى تل ابيب · فالسياج ، ونقاط التفتيش عند اثنين من المداخل ، وبضعة مبان وضيعة واطئة هي كل ما يظهر للعيان من الاميال العشرة المربعة التي تقوم عليها اكبر مصلحة للمعدات العسكرية ومستودعات التموين ، في صرفند · (ويستخدم الصندوق الوطني اليهودي جزءا من صرفند كذلك لخزن المعدات من اجل بناء الطرقات في مستوطناته الجديدة في اسرائيل والاراضي المحتلة) ·

وتحتلّ صرفند مركزا بارزا في عالم الشياطين الفلسطينية · عشرات الافادات تتكلم عنها ، ومعظم الذين مروا في مركز الاستنطاق يسمونه بصورة آلية صرفند ، الا ان هذا هو مجرد افتراض من جانبهم ، كما سنظهر في استجواباتنا ·

ومع هذا فهناك اسباب تاريخية تشير الى انهم قد يكونون على حق · فقد بنيت صرفند لتكون مستودع المعدات البريطانية الرئيسي في فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية · وحينما احتاجت بريطانيا من ثم الى معسكرين لسجن الموقوفين العرب ابان الاضطرابات التي وقعت في اواخر الثلاثينات ، بني احدهما داخل صرفند · (وكان الآخر في سيناء) · وقد استولى الاسرائيليون على عدد كبير من مباني الانتداب البريطاني القديم ، بحيث ان صرفند كانت الاختيار المنطقي لتضم جيلا جديدا من الموقوفين العرب ·

اذ انه واضح من روايات الموقوفين ان مركز الاستنطاق الجديد والغامض الذي يديره العسكريون وضع قيد العمل بعد حرب ١٩٦٧ · ومرت ثلاثة اعوام اخرى او نحو ذلك قبل ان يصار الى تجديد المباني ــ التي كانت في البداية متداعية ، وكأنها لم تستعمل لبعض الوقت · (ولاحظ عملية التجديد بعض الموقوفين الذين اخذوا الى هناك في فترات مختلفة) · والتأكيد بأن مركز الاستنطاق كان في صرفند يأتي بثقة بالغة من هؤلاء « الخريجين » الاوائل · ومع هذا فان كلا منهم يبدو وكأنه علم ذلك من نزلاء سبق أن كانوا هناك · وواحد فقط ادعى انه رأى شارة كتب عليها « سجن صرفند » ، لكننا نعتقد ان هذا غير محتمل ·

في تلك الايام الاولى لم يكن عصب العيون يطبق بمثل تلك الشدة ، ولمح بضعة موقوفين الاشياء المحيطة بهم · ويتذكر احدهم شجرة اوكاليبتوس · ولكن عصب العيون والعزلة المتواصلين بعد ١٩٧٠ حجبا حتى تلك اللمحات ·

كان ما يزال بامكان الموقوفين ان يسمعوا بالطبع ، مرور طائرات فوقهم ، وتقع صرفند تحت خط طيران متجه الى داخل مطار اللد الواقع على بعد خمسة اميال · ولكن في حين تكلم البعض عن طائرات ثقيلة الوزن تطير على ارتفاع منخفض ــ الامر الذي يشير الى وجود مطار مجاور ــ فان البعض الآخر قال انها كانت تطير عاليا ·

وفي الواقع فان الاسرائيليين نجحوا نجاحا كاملا في عزل الذين جرى استنطاقهم منذ

١٩٦٧ ـ ١٩٧١ . بحيث ان الدليل الوحيد على ان المركز لم ينقل الى موقع آخر بعد ذلك يأتي من سجينين واثقين ـ لكونهما كانا هناك قبل ذلك التاريخ وبعده ـ من انهما وضعا في المكان عينه في المرتين .

ولكن عندما حاولنا ان نقارن تلك التفاصيل الطوبوغرافية القليلة الاولى بتلك التي قدمها حرب وغيره من الدين اعتقلوا في ١٩٧٤ . لم نستطع ان نقرر ما اذا كانت تتعلق بالمكان نفسه . كما لم يكن حرب ورفاقه مستعدين للتأكيد انهم كانوا في صرفند . وتذكر حرب قائلا : « قال آخرون انها كانت صرفند . ولكني لا ادري » . ولان المكان كان حارا جدا هناك فان حرب يميل الى الاعتقاد بأنه كان « في الجزء الجنوبي من اسرائيل » . (ولكنه يقيم في التلال الباردة . وكل السهل الساحلي الاسرائيلي حار في حزيران) . واتفق حسني حداد في الرأي مع حرب . قال : « كنت سائقا وانا اعرف الطرقات » . ويعتقد حداد ان سيارة الجيب . خلال الرحلة من بيته في بيت لحم . تحولت جنوبا قبل الوصول الى صرفند . واضاف انه رأى حركة سيارات سريعة على طريق رئيسية تبعد عنه ١٥٠ ياردة . وهذه على وجه التقريب هي المسافة من الطريق الى المباني الظاهرة للعيان في صرفند . لكن حداد يعتقد ان نسبة عالية من السيارات كانت لها لوحات ارقام رمادية فاتحة . مما يشير الى تسجيلات في غزة . ولذلك اعتقد ان المركز كان في مكان ما بالقرب من قطاع غزة .

قيود على الصليب الاحمر

من عادة اسرائيل ان تستشهد باللجنة الدولية للصليب الاحمر للدفاع عن نفسها . مثال ذلك ان السفير دورون قال في الامم المتحدة في تشرين الثاني الماضي : « في اعقاب سجن كل سجين امني . يصار الى ارسال جميع التفاصيل عنه الى اللجنة الدولية للصليب الاحمر » . وقال ان هذه الفئة من السجون « تتمتع حتى بامتيازات اضافية . وعلى سبيل المثال زيارات يقوم بها ممثلون عن اللجنة الدولية للصليب الاحمر ... وفي تلك المناسبات يسمح لهم بالتكلم مع كل سجين دون شهود » . ولم يذكر السفير دورون نقطتين مهمتين . فالصليب الاحمر كان قادرا بالفعل على زيارة السجناء في الاراضي المحتلة منذ ١٩٦٨ . (تنكر اسرائيل ان تكون معاهدة جنيف تنطبق في هذه الحالة ، ولذا فانها لا تسلم للصليب الاحمر بأية حقوق من هذه الناحية . ولكنها تسمح له بالدخول) . الا ان الاسرائيليين . طوال تلك الاعوام التسعة ، منعوا الصليب الاحمر بصورة متواصلة ثابتة من مقابلة سجناء يخضعون للاستجواب . كما ان دورون لم يقل ما نعلم نحن من مصادر لا يرقى الشك اليها انه صحيح : خلال الاعوام التسعة الماضية ، عندما استطاع ممثلو الصليب الاحمر الوصول الى السجناء ، كانوا يسمعون الرواية تلو الرواية عن سوء المعاملة والتعذيب . وقد وجه الصليب الاحمر مئات من الاشعارات الى الحكومة الاسرائيلية يعلمها بذلك . وبالطبع فان اللجنة الدولية للصليب الاحمر كسبت حقها في العمل بوعدها الحكومات بأن تبقى صامتة . ويتعهد موفدوها ، وجميعهم سويسريون ، بألا يتكلموا عن عملهم ابدا . غير اننا علمنا من مصادر لا يرقى الشك اليها بالمشكلات التي يواجهها الصليب الاحمر في الاراضي المحتلة . فالصليب الاحمر لا يبلغ فورا بالاعتقالات . فعائلات السجناء ومحاموهم هم الذين يتصلون بالصليب الاحمر في كثير من الاحيان ـ وعادة لا يعلمون هم انفسهم اين يوجد السجناء الآن . ويحاول الصليب الاحمر من ثم

تعقب السجناء والوصول اليهم بأسرع وقت ممكن ـ خصوصا اذا كانت ثمة اسس للاشتباه بوجود معاملة سيئة · بيد ان الموفدين يواجهون ثلاث عقبات ·

فهم يستطيعون الدخول الى السجون فقط ، وليس الى مراكز الشرطة او المعسكرات العسكرية · كما لا يحق لهم حتى دخول السجون بلا قيود · وتوجد مجموعات من الزنزانات ملحقة بالسجون لا يستطيع الصليب الاحمر رؤيتها · وبعض هذه الزنزانات يقع خارج السجن نفسه . وملاصق لمكتب الحاكم العسكري المحلي · ولكن خارج نابلس . على سبيل المثال ، فان الزنزانات الخاصة ـ التي تسمى الزنزانات (x) ـ تقوم على الجانب الجنوبي . قرب زنزانات الحبس الانفرادي · وتبقى هذه الزنزانات تحت سيطرة اجهزة الامن . ولا يستطيع الصليب الاحمر الوصول اليها او دخولها · كما لم يستطع الصليب الاحمر . خلال الاعوام الثمانية الاولى من الاحتلال ، زيارة اي سجين في مركز التوقيف واستنطاق المعروف بالسكوبية في القدس · ولا يستطيع الدخول الى مركز الاستنطاق السري حيث احتجز حرب ·

والى ذلك فان الصليب الاحمر يقدم قائمة بالسجناء الذين يريد مقابلتهم بنوع خاص الى سلطات السجن ، قبل زيارة السجن بـ ٤٨ ساعة · ويحدث من ثم احيانا انه يقال لموفدي الصليب الاحمر لدى وصولهم ان السجين الذي يريدون مقابلته قد نقل لتوه الى سجن اخر · وعلى الفور يضيف الموفدون الذين « يخطون » ذلك السجن الرجل الى قائمتهم · واذا قيل لهؤلاء الموفدين بدورهم ان السجين قد نقل من جديد ـ وهي عملية وصفت لنا بأنها « لعبة اوراق » ـ فان قلقهم يزداد بالطبع · وهكذا فان الصليب الاحمر قد لا يصل الى السجناء الا بعد عملية بحث ، ونادرا ما يصل اليه الا بعد انتهاء الاستنطاق ، واحيانا كثيرة لا يصل اليه ابدا · واخبرنا عدة شهود كيف رحب بهم موفدو الصليب الاحمر عندما التقوا بهم اخيرا · ونقل عن لسان احد الموفدين قوله : « كنت ابحث عنك في كل مكان » · ويبدو ان موفدا آخر قال : « الآن وقد وجدتك ، فانك ستكون في امان » · يرفض الصليب الاحمر التصريح بافادات المعاملة السيئة التي يلقاها السجناء · ولكن انطباعنا هو انه في حين يؤتى عموما على ذكر الضرب ، فان نصف السجناء او اقل يدعون تلقيهم معاملة سيئة اكثر تعقيدا · ولا يقرر جميع هؤلاء تقديم شكاوى رسمية · وحتى عندما يصار الى تقديم شكوى رسمية ـ ينقلها الصليب الاحمر من ثم دون تعليق الى السلطات الاسرائيلية ـ فان الصليب الاحمر نادرا ما يعلم اذا ادت الشكوى الى نتيجة ما · وخلال فترة ستة اشهر قد يلاحظ الموفدون ان الشكاوى حول شكل معين من اشكال سوء المعاملة اخذت تتناقص . او قد يكتشفون ان مستنطقا معينا قد نقل من مركزه · وهذا كل شيء ·

ولمدة خمسة اشهر فقط خلال صيف ١٩٦٩ ، افلح الصليب الاحمر في اقناع الاسرائيليين بالسماح لموفديه بمقابلة بعض الذين يخضعون للاستجواب ـ وذلك في السجون فقط ، وليس في المعسكرات العسكرية او مراكز البوليس · لكن السلطات الاسرائيلية غيرت رأيها بعد ذلك · وجاء في تقرير لاحق للجنة الدولية للصليب الاحمر · « حتى وان اعتقد موفدو اللجنة الدولية للصليب الاحمر بانه طرأ بعض التحسن على اوضاع الاستنطاق . فان اللجنة تعتبر ان اجراء الزيارات الذي تفرضه السلطات الاسرائيلية الآن لم يعد يسمح لها بأن تضمن عدم استخدام وسائل استنطاق تتنافى مع القانون الانساني » · كان ذلك في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ · وبعد ستة اعوام . وبعد تقارير نشرت في الصحف الاسرائيلية تقول بأن الصليب الاحمر كان راضيا عن الاوضاع ، ادلت اللجنة الدولية للصليب الاحمر بتصريح اخر من تصريحاتها العلنية النادرة · (يقول الصليب الاحمر انه لا يفعل ذلك الا عندما يشعر ان سياسة الصمت التي ينتهجها تستغل او يساء استعمالها) · وفي الثاني

عشر من كانون الثاني ١٩٧٧ ، قال الصليب الاحمر « ان عددا من المشكلات التي اثارتها اللجنة الدولية للصليب الاحمر لم تحل » · واشار الصليب الاحمر الى انه ما يزال غير مسموح له بزيارة « الذين يخضعون للاستنطاق » ·

تاكيد القوة

ليس الاستنطاق ، بالطبع ، الا احد اهداف سوء المعاملة او التعذيب · فسوء المعاملة قد يردع شعبا متمردا · الا ان الامر يتطلب درجة من العلنية من اجل الوصول الى هذا الهدف ، كتاكيد شبه علني للقوة · هذا هو احد التفسيرات المحتملة لما يجري في المسكوبية بالقدس ·

ان المسكوبية التي تمتد فوق عدة هكتارات في قلب القدس ، شمالي المدينة القديمة مباشرة ، تستمد اسمها من استعمالها الاصلي كمستشفى للحجاج الارثوذكس · ويوجد داخل جدرانها اليوم سجن ، ومستودع تصليح لسيارات الشرطة ، ومضخات بترول ، وصفان اثنان من المباني ذات الطبقة الواحدة · والقسم الاكبر من المسكوبية مفتوح للجمهور : فالمبنى رقم ٢ يصدر رخص قيادة السيارات وبطاقات الهوية · لكن المباني التي تحمل ارقام ٤ و ٦ و ٨ تضم مراكز القدس الرئيسية لاجهزة الامن الاسرائيلية المدنية بما فيها – في المبنى رقم ٤ – القسم المسمى «ميوتيم» وهو دائرة الاقليات · ورئيسها يهودي عراقي يدعى نعيم شابو · وخلافا لبقية الاراضي المستولى عليها ، فان القدس الشرقية لم تكن مجرد محتلة من اسرائيل ولكنها ضمت اليها عمليا – ومعها مواطنوها العرب غير الراغبين الذين يبلغ مجموعهم ٩٠ الف نسمة · ومهمة « ميوتيم » هي « معالجة » « العناصر المخربة » بينهم ·

بعد بضع دقائق من الساعة الثالثة بعد ظهر الخامس عشر من كانون الاول ١٩٧٦ ، دخلت هيدفا ساريد المبنى رقم ٤ · وهيدفا هي سكرتيرة المحامية الاسرائيلية المولد ليا تسيميل ، التي كانت قد تواعدت على لقائها هناك · « بحثت عن السكرتيرة في مكتب الاستقبال ، الا ان احدا لم يكن هناك · ثم سمعت صرخة ، اعتقد انها كلمة « حالا » العربية · وكان باب مكتب آخر يقع في الرواق نفسه نصف مفتوح فنظرت داخل المكتب · كان هناك بضعة رجال – خمسة او ستة او سبعة – مجتمعين حول شخص عرفت انه من موكلينا · كانوا جميعا يتكلمون اليه في نفس الوقت ، ووسط صراخهم به رفع احدهم – وهو رجل رمادي الشعر – ساقه وركل موكلنا في اعضائه التناسلية · فصرخ الموكل وانحنى فوق ركبتيه ، وامسك اعضاءه التناسلية وراح يبكي · واخذت اصرخ في الرجال · فجاؤوا ودفعوني بعيدا واغلقوا الباب وراءهم · ورأيت الرجل الرمادي الشعر وصرخت به : رأيتك تركل ذلك الفتى · اريد رقمك · هذا غير قانوني · فقال : « انا رئيس هذه الدائرة · اسمي نعيم شابو · ماذا تريدين هنا ؟ » ودفعوا بها خارجا ·

ليست هيدفا ساريد الشخص الوحيد الذي يدعي انه شاهد العنف في المسكوبية · فان اميركيا عضوا في جمعية خيرية تقوده اعماله احيانا الى المسكوبية يتذكر انه رأى في ١٩٧٦ رجلا ، بدا واضحا انه يشرف على الاغماء ، يصار الى اخراجه من المبنى رقم ٤ . ويقاد في الهواء الطلق لبضع دقائق ثم يعاد الى الداخل · وفي زيارة اخرى راى رجلا يقاد عبر المسكوبية والدم ينزف من انفه وفمه · كان موكل ليا تسيميل ، الذي

قالت هيدفا ساريد انها رأته يتعرض للركل ، فتى يدعى محمود المغربي · كان في السادسة عشرة من عمره فقط . لكنه سبق ان اعتقل اكثر من عشر مرات ، وبدا واضحا انه يعتبر مثيرا للمتاعب · وقدم المغربي لنا رواية تفصيلية عن الطريقة التي ضرب بها في الجلسة التي قاطعتها هيدفا ساريد · ويؤيد سجين آخر قسما من رواية المغربي ، علما بأن ادعاء هذا الاخير الاضافي بالصدمة الكهربائية يبقى بلا تأكيد · المغربي هو واحد من اصل ٢٤ فلسطينيا قابلناهم كانوا قد استجوبوا في المسكوبية · وقال ٢٢ منهم انهم اسيئت معاملتهم او اكثر من ذلك · الادعاءات المتعلقة بالمسكوبية ، شأنها شأن الادعاءات المتعلقة بسجني رام الله والخليل او مركز الاستجواب السري ، تحدد بصورة ثابتة ومستمرة مجموعة من الايذاءات الجسدية المحدودة والمختصة الى حد كبير بذلك المكان · وهذه الايذاءات تتركز في المسكوبية في الاعتداءات الجنسية · تسعة من الذين قابلناهم تكلموا عن كون اعضائهم التناسلية ضربت او عصرت او لويت · وبشكل ثابت مستمر قالوا ان هذا كان في الغالب يتم من الوراء فيما هم يقفون، عراة وبسيقان منفرجة ، مواجهين الحائط · والامر غير الاعتيادي هو ان « ميوتيم » لا تبذل مجهودا كبيرا ، على ما يبدو ، لتخفي على الاقل هذه الاعتداءات الاكثر شيوعا · وبالفعل يبدو انها تتعمد اظهار قوتها على القدس الشرقية · ففي حين انها تعتقل معظم الذين يوجدون لديها في غارات ليلية ، مثلا ، فان الكثيرين يستدعون برسالة شكلية · وتتحدث الرسالة عن مقابلة ، لكن صيت « ميوتيم » السيء بين الفلسطينيين يجعل الذين يتلقون الرسالة يتوقعون آليا اسوأ الاحتمالات ·

الا ان معظم الذين يستدعون قانعون بأنه لا فائدة من هربهم ، لذا فانهم يحضرون حسب الطلب ، وفي كثير من الاحيان يختفون ببساطة في الاعتقال · ولا يوجه اي اشعار الى عائلاتهم · وبكلام آخر فان اختبار المغربي يبدو ممثلا تمثيلا نموذجيا لما علمت « ميوتيم » « مثيري المتاعب » ان يتوقعوه · لكن للمسكوبية ، كما لمركز الاستجواب السري ، وظائف استنطاق واعتراف كذلك الامر · اذ ان الذي يحدث هناك للذين يشتبه بأن لديهم معلومات او بأنهم ارتكبوا مخالفات اكثر خطورة يبدو اكثر قسوة وفظاظة الى حد كبير · الا اننا في تقييمنا لتلك الادعاءات كنا نعود تكرارا الى تقدير ما تسميه منظمة العفو الدولي « المصداقية والدافع » بالنسبة للشاهد ، وذلك بناء على مقابلات مطولة · فشهادة جوزف عوده ، مثلا ، رهيبة ـ علما بأنها ليست فريدة بحال من الاحوال · وهي تتطابق في شكلها مع الشهادات الاخرى · ويوجد لدينا بعض التأييد لصحة هذه الشهادات · الا ان الناحية الاكثر تأثيرا كانت الطريقة التي اعطى بها عوده تلك الشهادة · تعود ادعاءات عوده الى عام ١٩٦٩ عندما صدر بحق ابنته رسمية ، التي كانت في الحادية والعشرين من عمرها آنذاك ، حكمان بالسجن مدى الحياة « لجرائم امنية » بينها زرع قنبلتين قتلتا ١٤ شخصا · ويقول عوده ان الساعة كانت حوالي الواحدة بعد منتصف ليل الثامن من شباط (فبراير) ١٩٦٩ عندما اقتحم الجنود الاسرائيليون بيته ، الذي كان آنذاك في رام الله ، واعتقلوه هو وبناته الثلاث ـ واحدة في الثالثة والعشرين ، واخرى في السابعة عشرة ، ورسمية · واخذوهم الى المسكوبية · وشهادته تؤكد ما اوضحته الاحكام اللاحقة بالسجن : ان اهتمام الاسرائيليين كان منذ البداية منصبا في الواقع على رسمية · وحسب رواية عوده ، رتب المستنطقون خلال العشرين يوما التي امضاها في المسكوبية سلسلة من المواجهات بين اعضاء العائلة ، كوسيلة للضغط على ما يبدو · وقال انه ابقي مرة في غرفة واحدة فيما كانت رسمية تتعرض للضرب في غرفة مجاورة : « وعندما اعادوني ··· لم يكن بامكان رسمية

الوقوف على قدميها · كانت متمددة على ارض الغرفة ورأيت بقع دم على ثيابها · كان وجهها ازرق اللون واحاط السواد باحدى عينيها · ثم حملها جنديان ، وفي تلسك اللحظة اخذت ابكي واصرخ فعصبوا عيني واعتقد انها اخرجت من الغرفة » · وازداد اغتمام عوده بشكل ظاهر فيما اكمل روايته · واخذ يتنفس بسرعة وصارت العضلات على جانب خده ترتعش وتنتفض · وسألناه : متى رأى رسمية بعد ذلك ، فشرع يبكي · واخيرا قال لترجماننا : « يا ليتني مت بدل ان ارى هذا الشيء ··· انها مســـألة شرف ··· لا بأس . ترجم لهم ، لم لا ؟ ماذا اقول ؟ امسكوا بها على الارض واقحموا فيها عصا » · ولما صار بامكانه ان يواصل حديثه . قال انه ادخل الى غرفة استجواب فوجد رسمية عارية ومكبلة اليدين · واضاف ان احد المستنطقين « طلب مني ان انام معها ، فقلت : لا تفكروا مجرد تفكير بذلك ، فأنا لن افعل ذلك ابدا · وراحوا يضربونني ويضربونها وكان كلانا يصرخ · وكانت رسمية ما تزال تقول : انا لا اعرف شيئا · وباعدوا بين ساقيها واقحموا العصا فيها · وصار الدم يتدفق من فمها ومن وجههـا ومن عجزها · ثم غبت انا عن الوعي » · لقد كتبت منظمة العفو الدولي تقول « ان احد العناصر المهمة التي تقرر ردة فعل منظمة العفو لاية ادلة [حول التعذيب] هو استعداد الحكومة للتحقيق في الادعاءات ولمعاقبة اي مذنبين » · ومن عادة اسرائيل ان تستجيب لادعاءات سوء المعاملة او التعذيب بمجرد رفضها على انها روايـــات مختلقة · بعضها ، وربما حتى الكثير منها . قد يكون مختلقا ـ ولكننا نعتقد انهـــا ليست كلها مختلقة · وقياسا بمعيار منظمة العفو . فان انكارات اسرائيل ليست دائما مقنعة · لقد سبق لنا ان حددنا استجابة اسرائيل الداخلية : اخفاقات المحامـيـــن المتكررة في اقناع محاكمها بقبول الادعاءات ، و « التحقيقات غير المتحيزة » حيـــث اجراءات المحاكم تمنع عمليا اصحاب الشكاوى من رؤية الانكارات الرسمية ناهيـــك تحديها وتفنيدها ، وباختصار : نظام قضائي مائع ومريب عادة . وفي كثير من الاحيان معاد لمحاولات سبر الحقيقة ·

تفسير اسرائيل في الامم المتحدة

على الصعيد الدولي تتمثل استجابة اسرائيل بالتأكيدات التي اعطاها في الامـم المتحدة سفيرها جاكوب دورون في تشرين الثاني الماضي : « بوسع بلادي ان تقــف معتزة الى جانب سجلها ، سجل المحافظة الدقيقة على حكم القانون في المناطـــق المدارة » · وقال ان اسرائيل اظهرت « موقفا ليبراليا ومستنيرا ، بما فيه الاعتـــراف الصريح بأية اخطاء قد تكون ارتكبت وبذل الجهود لاصلاحها ··· » واعترف دورون بتلك الاخطاء : « صحيح انه في حالة او حالتين ، هما استثنائيتان تماما ، استخدمت القوة ضد السجناء للاسف · واحدى هذه الحالات الاستثنائية تسببت ، لسوء الحظ ، في موت احمد شيخ دحدول ··· » ·

تعرض دحدول للضرب حتى الموت من قبل جنود في سيارة عسكرية في آذار (مارس) ١٩٧٦ فيما كانوا يأخذونه الى مركز شرطة طولكرم ، الواقعة ٢٠ ميلا شمالي ـ شرقي تل ابيب · ووصف دورون النتيجة : « ان السلطات الاسرائيلية تطبق حكم القانون تطبيقا شديدا ·· ولا تظهر السلطات او المحاكم اية محاباة · ومنذ ذلك الحين وجد الضابـــط المذكور مذنبا وصدر بحقه حكم بالسجن لمدة طويلة » · حين مات دحدول اعلنت السلطات

الاسرائيلية انه مات بنوبة قلبية · ودحض هذا الزعم الطبيب العربي الذي عالجه · وعلى رغم الضجة الكبيرة التي اثارها موته ، فان الحقيقة لم تبدأ بالظهور الا بعد ذلك بأربعة اشهر عندما قالت السلطات فجأة لمحامية دحدول – فليسيا لانغر مرة اخرى – ان تهمة ستوجه الى احد الضباط · ولم تبرز اسرائيل علنا حتى الآن اية ادلة تشير الى ان محاكمة قد جرت · وزعم انها جرت في محكمة عسكرية · الا ان المحكمة عقدت بصورة سرية · ولم يسمح للسيدة لانغر بارسال مراقب . ناهيك بالاشتراك في المحاكمة · ولم تتخذ حتى الآن اية اجراءات ضد الجنود الذين اقدموا فعلا على ضرب دحدول (علما بأن النائب العام اعلن اخيرا ان تهما ستوجه اليهم) · كما لم تؤخذ اية شهادات ابدا من السجناء العرب الآخرين الذين كانوا في سيارة الشحن مع دحدول · واكتفت السلطات بالاعلان ان ضابطا برتبة رائد قد خفضت رتبته الى نفر وسجن لمدة سنتين · وحتى هذا اليوم ، ترفض اسرائيل تسمية الجندي او تحديد المكان الذي يمضي فيه عقوبته ·

وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦ حصلت عائلة دحدول اخيرا على امر من المحكمة العليا من اجل نسخة طبق الاصل عن المحاكمة · وفي آذار ١٩٧٧ اجابت المحكمة العسكرية بأنها لن تسمح الا للسيدة لانغر بأن ترى نسخة عن وقائع المحاكمة – ولكن بشرط موافقتها على عدم نسخها او كتابة اي شيء حولها · فرفضت السيدة لانغر · وهكذا فان المعركة لرؤية سجل هذا « الاعتراف الصريح » تستمر · وكذلك الادعاءات ·

ملحــق

نمط التعذيب

ان ادعاءات الاربعة والاربعين فلسطينيا الذين قالوا لنا انه اسيئت معاملتهم او عذبوا تغطي جميع مراكز الاستجواب الاسرائيلية الرئيسية الستة ، التي تظهر على الخريطة · وتبرز بعض الانماط العامة : مثال ذلك ان ١٩ شخصا قالوا لنا ان اعضاءهم التناسلية ضربت او اوذيت بطرق اخرى · ولكن من هذه الروايات كان بالامكان ايضا تبين بعض الميول الظاهرة لدى المستنطقين في المراكز المختلفة (وقد تأكدت لنا هذه الصورة من تفحص نحو ٥٠ افادة من مصادر اخرى) ·

فالمستنطقون في المسكوبية بالقدس يميلون الى تفضيل الاعتداء على الاعضاء التناسلية ، الى جانب امتحانات احتمال كحمل كرسي بذراعين ممدودتين او الوقوف على ساق واحدة · وكان اختصاص المركز المعروف باسم صرفند هو عصب عيون السجناء لفترات طويلة من الوقت ، وتهديدهم او الاعتداء عليهم بالكلاب ، وتعليقهم من رسوغهم · ومن رام الله جاءت ادعاءات كثيرة تشير الى التغطيس في الماء البارد لفترات طويلة – اما في دوش ، او في بركة في وسط فناء السجن · ومن الناحية الاخرى ، كادت رام الله تكون وحدها التي لم تسبب ادعاءات تشير الى التعذيب بالصدمة الكهربائية · ومن الخليل جاءت عدة ادعاءات مماثلة لادعاء عمر عبد الكريم – الذي بدأنا تحقيقنا بروايته – المتعلق بالاعتداء الشرجي ·

العرب الذين قدموا اسماءهم

قام فريق « انسايت » بمقابلة ٤٤ فلسطينيا ادعوا سوء المعاملة على ايدي اجهزة الامن الاسرائيلية · ومن هؤلاء وافق ٢٢ شخصا ما يزالون يعيشون في ظل الاحتلال الاسرائيلي على نشر اسمائهم · انهم :

غسان حرب من رام الله ، محمد ابو غبير من القدس الشرقية ، جمال فريتح من نابلس ، خلدون عبد الحق من نابلس ، محمود المغربي من المدينة القديمة في القدس ، (ومنذ ان قابلناه اعيد اعتقاله ويمضي حاليا عقوبة بالسجن ستة اشهر في سجن ديمونا باسرائيل) ، حسن حماد من المدينة القديمة في القدس ، اسحق حليفاوي من القدس الشرقية ، سمير ادقيدك من القدس الشرقية ، عمر سلامه عبد الكريم من بيت ساحور ، جوزف عوده وابنته ليلى في اريحا ، جميل ابو غبير من القدس الشرقية ، فوزي عبد الواحد نجم من مخيم لاجئي المغازي قرب غزة ، زهير الديبي من نابلس . نبلان كريشي طالب في كلية بير زيت قرب رام الله ، شحاده عبد الهادي محمد شلالده من رام الله ، عصام عاطف الحاموري من الخليل ، عبد الكريم طه الشالودي طالب في مركز التدريب المهني التابع للاونروا في قلنديا ، اسعد سينوكرات طالب في كلية بير زيت ، مسعف سليمان اطرش ابو عطوان من دورا ، نايفه عواوده من دورا ، فايز توتنجي من المدينة القديمة في القدس ·

كما ان ثلاثة فلسطينيين وافقوا على تسميتهم وقدموا لنا ادلة مؤيدة مع انهم لم يدعوا التعذيب : حسن المغربي (والد محمود المغربي) من المدينة القديمة في القدس ، طه مصالحه طالب في الجامعة العبرية في القدس الغربية ، خليل رسماوي من بيت ساحور ·

شهادة ستة آخرين

فوزي عبد الواحد نجم

اعتقل في تموز ١٩٧٠ · تحدث عن التعذيب في صرفند ومهاجمة الكلاب له · سجن سنتين ونصف السنة « كارهابي » · اعتقل مرة ثانية في تموز ١٩٧٢ · تحدث عن تعرضه للضرب في سجن غزة · اعترف بنشاط فدائي · اطلق سراحه في تموز ١٩٧٥ ·

زهير الديبي

اعتقل في شباط ١٩٧٠ واستجوب لعشرة ايام في نابلس · قال انه جلد وضرب فلقاء وعصرت اعضاؤه التناسلية ، ورش بالماء البارد من خرطوم · اعترف بتوزيع مناشير · وامضى سبعة اعوام في السجن ·

شحاده شلالده

اعتقل في آب ١٩٦٩ واستجوب لخمسة ايام في المسكوبية · يقول ان « خرطوشة » قلم

الحبر الجاف اقحمت في قضيبه · حكم عليه بالسجن مدى الحياة بتهمة الاشتراك في اغتيال احد المتعاونين مع الاسرائيليين · اطلق سراحـــه في كانون الثـــاني ١٩٧٦ لاصابته بمرض قلبي ·

عبد الشالودي

اعتقل في نيسان ١٩٧٤ ، واحتجز معصوب العينين لمدة ٤٨ ساعة في المسكوبية · يقول ان نعيم شابو ، رئيس دائرة « الاقليات » ، ضربه ، كما تعرض للضرب من السجناء اليهود · اعتقل بلا محاكمة لمدة ١٦ شهرا ·

جميل ابو غبير

اعتقل في شباط ١٩٧٦ واحتجز في المسكوبية · يقول انه ضرب على رأسه وجســـمه واعضائه التناسلية واجبر على التمدد في مياه باردة · واحتاج الى علاج في المستشفى · اطلق سراحه بعد ثمانية ايام · يؤكد تقرير الطبيب بعض الجراح ·

عصام عاطف الحاموري

اعتقل في تشرين اول ١٩٧٦ · يقول ان الاسرائيليين ، خلال احتجازه في ســـجن الخليل ، تآمروا لجعل احد السجناء يغتصبه · اعترف بالتظاهر وبتدمير كنيس ، ولكنه لم توجه اليه اية تهمة · اطلق سراحه بعد ١٥ يوما ·

نقل النص من الانكليزية الى العربية رجا جورج

رسائل

رسالة جيبوتي

استقلال آخر

فلما حسث استقطاب للاهتمام العالمي مثلما جرى منذ بدأت عقارب الساعة تشير الى نهاية الاستعمار الفرنسي لجيبوتي ، الذي انتهى رسميا في الدقيقة الاولى من يوم ٢٧-٦-١٩٧٧ ·

واذا كان المركز الاستراتيجي لهذه الدولة الفتية الواقعة على الضفة الافريقية لباب المندب ، مدخل البحر الاحمر ، يجعل منها محط انظار القوى والدول التي ترتبط مصالحها وتتأثر بالملاحة عبر ذلك الطريق الحيوي ، الذي يتحكم بالملاحة من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي ، عبر قناة السويس والبحر الاحمر ، فان اهمية هذه الميزة قد تتضاعف بعد التحولات الاخيرة في اثيوبيا التي جعلت من منطقة شرق افريقيا ، وتحديدا القرن الافريقي ، منطقة تفجر رئيسية في العالم ·

فبينما يشتد الصراع بين النظام الاثيوبي والثورة الارتيرية وبينه وبين الحركات المعارضة من حزب الشعب الثوري الاثيوبي في اليسار الى الاتحاد الديمقراطي الاثيوبي ، الذي يضم بقايا نظام هيلاسيلاسي الاقطاعي الرجعي ، في اليمين ·· مرورا بانتفاضات القوميات المختلفة : جبهة تحرير اورومو التي تطالب بحقوق الغالا (١٦ مليون نسمة) وجبهة تحرير التجراي ·· الخ · وبينما تتزايد يوما بعد يوم احتمالات الصدام بين اثيوبيا والسودان · وبين اثيوبيا والصومال ·· مع انعكاسات اصرار الولايات المتحدة على الدفاع عن نفوذها ومصالحها في وجه البؤرة المتحالفة مع الاتحاد السوفييتي في اثيوبيا ، التي تزيد من قدرة النفوذ السوفييتي على اجتياح مواقع النفوذ الامريكي ·· بينما يحدث هذا، نجد ان اثيوبيا لا تملك سوى منفذين على البحر الاحمر : أولهما الساحل الارتيري (ميناءي مصوع وعصب) وثانيهما ميناء جيبوتي الذي يرتبط باثيوبيا بواسطة خط حديدي انشأته اثيوبيا اثناء الاستعمار الفرنسي لجيبوتي الذي استمر مدة خمس وعشرين سنة ·· ومع ازدياد العمليات العسكرية في ارتريا اصبح هذا الخط الحديدي الى جيبوتي يمثل البديل الوحيد لتعطل عمليات التصدير والاستيراد عبر الموانيء الارتيرية ·· الى ان نسفت وحدات من جبهة تحرير ساحل الصومال المحتل اجزاء من ذلك الخط قبل شهرين ، بل ونقلت عددا كبيرا من قضبان السكة الحديدية الى مناطق بعيدة مما سيجعل الخط معطلا لستة شهور على الاقل ·

وبقدر ما ضاعفت هذه العملية من حرص اثيوبيا على الدفاع عن نفسها من الاختناق نتيجة عزلها عن العالم بتعطيل استخدامها للموانيء الثلاثة مصوع وعصب وجيبوتي . فان هذه العملية قد جعلت جيبوتي نفسها تشعر بالاختناق الجزئي حيث انها تستورد كل ما يأكله شعبها من الخارج وتستورد جزءا اساسيا من طعام شعبها بواسطة هذا الخط الحديدي من اثيوبيا .. حيث لا زراعة فى جيبوتى سوى بضع مزارع صغيرة جدا لبعض افراد الجالية اليمنية قرب العاصمة. ولا تصنيع فيها سوى مصنعين احدهما للبيبسي كولا ويملكه علي عارف رئيس الوزراء السابق واخر للكوكاكولا ..

وعندما صوت شعب جيبوتي مؤيدا الاستقلال . بدأ تسابق الدول المختلفة لافتتاح قنصليات عامة في جيبوتي تمهيدا لتحويلها الى سفارات . وتقاطر عليها المبعوثون .. السريون منهم والعلنيون .. واخذ المواطنون في جيبوتي يتلفتون حولهم ليفهموا ماذا يجري .. فمدينة جيبوتي التي كانت تعتبر من اغلى مدن العالم بالنسبة لتكاليف المعيشة ، اخذت الاسعار فيها ترتفع اكثر مع هذا الزحف الخارجي المفاجيء .. وبدأت الحكومة المحلية تفكر بالمستقبل .. فليس لجيبوتي اية موارد سوى دخل الميناء ورسوم البضائع التي تنقل من اثيوبيا واليها عبر الخط الحديدي . وكان الخيار غاية في التعقيد :

١ ـ الصومال تعتبر جيبوتي امتدادا تاريخيا وجغرافيا وبشريا لها .. وبالفعل فان غالبية سكان جيبوتي (الذين سماهم الاستعمار الفرنسي بالعيسى) هم صوماليون ..

٢ ـ اثيوبيا لن تفرط بمنفذها على البحر . فهو الوحيد اذا فقدت مينائي مصوع وعصب الارتيريين ، وهو الاساسي حتى اذا استطاعت ان تضمن استخدام هذين الميناءين . ولذلك تبنت بقية سكان جيبوتي وهم من الدناكله (الذين سماهم الاستعمار الفرنسي بالعفر) . والدناكله ينتشرون في ارتيريا واثيوبيا وجيبوتي . لكن التحولات التي حدثت مؤخرا في اثيوبيا قد جعلت الكثير من سكان جيبوتي الدناكله يفكون ارتباطهم باثيوبيا وخاصة بعدما اختار سلطان دنكاليا علي مرح العيش في المنفى بالسعودية .

٣ ـ فرنسا التي استعمرت جيبوتي مئة وخمسا وعشرين سنة حاولت بضراوة ان تربط جيبوتي بعد استقلالها بمنطقة الفرنك الفرنسي وان تضمن عدم استيراد جيبوتي بضائع من اية دولة ما دامت مثيلاتها موجودة في فرنسا ، وهددت بسحب التغطية للفرنك الجيبوتي المرتبط منذ سنين طويلة بالدولار اذا لم تقبل حكومة جيبوتي بهذه الشروط ..

٤ ـ الصراع المفتعل الذي خلقته فرنسا بين العيسى والعفر وكرسته تاريخيا لايمكن ان تمحى اثاره ببساطة . ويكفي ان نذكر هنا بأن ميدانا رئيسيا في العاصمة كان مخصصا للاقتتال بين العفر والعيسى في ساعات محددة وفي يوم محدد من كل اسبوع برعاية السلطات الفرنسية.. وكان مسموحا في يوم الاقتتال الاسبوعي ذاك استعمال السلاح الابيض من قبل الطرفين ..

مشاكل فورية :

وبدأت اجراءات الحكومة المحلية تتوالى اختلف العفر والعيسى حول اعتماد لغة رسمية للبلاد : أتكون لغة العفر ام لغة العيسى ام اللغة الفرنسية .. وجاء الحل باعتماد اللغة العربية التي يتحدثها بعض السكان بصعوبة ، والتي لا يتقنها قراءة وكتابة سوى قلة نادرة من السكان ..

وجاء الخلاف الثاني حول من يكون

قائدا للجيش ·· فللعفر غالبية الضبـاط وللعيسى غالبية الجنود ·· هكذا كـان اللغم الفرنسي متقنا·· وكان الحل الوسط هو تعيين ضابط من الجالية اليمنية قائدا للجيش ·· ولكن هل هناك جيش بالفعل ؟ تلك قضية اخرى ·

وقبل أربعة ايام من اعلان الاستقـلال برزت مشكلة جديدة ·· فجبهة تحـرير ساحل الصومال المحتل أصرت ان تـدخل قواتها التي تتمركز في الصومال الـى جيبوتي وان تشترك في العرض العسكري صبيحة السابع والعشرين من حـزيران (يونيو) فالاستقلال انجاز اسهم مقاتلوها اسهاما رئيسيا في تحقيقه ·· لكن اثيوبيا لا يمكن ان تسمح بمثل هذه البادرة ·· وقررت الحكومة المحلية ايفاد اثنين مـن قادة الجبهة الذين انتخبوا مؤخرا فـي برلمان جيبوتـي لاقناع مقاتلي الجبهـة بالتخلي عن هذه الفكرة ·· لكن احـد المقاتلين اتهم هذين الموفدين بالخيانـة واطلق عليهما النار فأصيبا بجروح خطيرة ثم انتحر بعد ذلك ·

وكان الحل الوسط ان يدخل ثلاثمئة فقط من مقاتلي الجبهة (أي ١٠٪ من مجوع المقاتلين) بدون اسلحة وبملابس مدنية ·· ودخل هؤلاء جيبوتي فعلا وتم وضعهـم جميعا في مبنى مستقل ·· ولكن ما ان مرت ساعات الا وكانوا قد ارتدوا ملابسهم العسكرية واصروا على الاشتراك فـي العرض العسكري ·· واشتركوا فعـلا ·· لكن بدون سلاح ·

ومع تلك الحلول للمشاكل الملحة ، موشر برسم حلول المشاكل الاخرى :

١ ـ الخط الحديدي

كان الخط الحديدي ملكا لشركة ذات أسهم موزعة على النحو التالي :

ـ ٥٠٪ تملكها اثيوبيا ·

ـ ٢٧٪ تملكها الحكومة الفرنسية ·

ـ ٢٣٪ تملكها بنوك وشركات فرنسية ·

وقد تضمنت المعاهدة الاثيوبية الفرنسية بصدده منح اثيوبيا حق السيادة على جزء من يناء جيبوتي ·· وقد ارسلت حـكومة جيبوتي قبيل اعلان الاستقلال تطلـب من الحكومة الاثيوبية المباشرة في التفـاوض لتوقيع أتفاقية جديدة حيث ان جيبوتـي تعتبر المعاهدة الاثيوبية الفرنسية لاغيـة منذ أول لحظة لاعلان الاستقلال، واشترطت حكومة جيبوتي شرطين اساسيين :

١ ـ الغاء حق السيادة الاثيوبية على أي جزء من الميناء ·

٢ ـ اعـادة توزيع الاسهم بحيـث تصبح : ٥١٪ ملكا لحكومة جيبوتي و٤٩٪ ملكا لاثيوبيا ·

٢ ـ المستقبل الاقتصادي :

ان الهياكـل الاقتصادية الاساسيـة مفقودة في جيبوتي ، واذا كانت المملكـة العربية السعودية قد التزمت بدفع ميزانية الدولة لسنة كاملة بدءا من يوم الاستقلال، فان هذا الالتزام يدخل في اطار المسكنات لا الحلول ·

ذكر الرئيـس حسن جوليد رئيـس جمهورية جيبوتي ، وكـذلك السيد احمد ديني رئيس البرلمان ومفكر الحزب الحاكم، ان حل المشكلـة الاقتصادية كما تـراه الحكومة الجديدة يكمن في جعل جيبوتـي بلدا مفتوحا بحيث يتحول بسرعة الـى هونغ كونغ جديدة بنفس مستوى الاولى··

ولكن بغض النظر عن صواب هذا الحل اقتصاديا ، هل يمكن فصل المستقبـل الاقتصادي عن واقع جيبوتي في قلب بؤرة تفجر حقيقية ، تحف بها صراعات ومصالح دولية عديدة ؟··

٣ ـ المستقبل السياسي :

لقد تم اعلان الاستقلال ·· ولكن هل تحقق شيء من الاستقلال ؟ نعم لقد ارتفع علم ، وانتخب رئيس ، وستمضي البلاد فترة انتقالية مدتها ستة أشهر تعقبها انتخابات جديدة لبرلمان جديد ومن ثم حكومة جديدة ··

الحكومة الحالية تمثل عمليا حزبا واحدا هو حزب الرابطة الشعبية الافريقية لاستقلال جيبوتي . فماذا عن الاحزاب الاخرى ·· وماذا عن جبهات التحرير التي كانت والتي لا زال مقاتلوها ينظرون الى العاصمة عبر حزام الاسلاك الشائكة التيأحاطها به الاستعمار الفرنسي، والذي لا زال يحيط بالعاصمة بعد استقلالها ؟··

ولنقترب اكثر ··

ـ ليس هناك جيش ·· واذا تم تجنيد ما يكفي من أبناء جيبوتي الذين يبلغ تعدادهم ربع مليون نسمة . فمن أين السلاح الكافي والمتطور ؟

ـ لا زالت هناك قوات فرنسية في جيبوتي وستبقى الى اجل غير محدد ·· حاملة الطائرات كليمنصو تربض في قلب الميناء ومعها عدة مدمرات وقطع بحرية فرنسية . والجنود الفرنسيون يملأون شوارع العاصمة عصر كل يوم ··

واكثر من ذلك : في الايام التي تلت اعلان الاستقلال كان الحرس الذين يتولون حراسة القصر الجمهوري (مقر المندوب السامي الفرنسي سابقا) هم من الدرك الفرنسيين ··

ـ لا زال المستشارون الفرنسيونيديرون معظم المصالح والوزارات ·· وهذه مجرد أمثلة :

ـ رفض الفرنسيون دخول السيد رامغولام رئيس وزراء موريشيوس . لحضور احتفالات الاستقلال رغم انه رئيس منظمة الوحدة الافريقية في ذلك الوقت . الامر الذي اضطره للعودة فورا بطائرته·

ـ حاول الفرنسيون منع وزير الشؤون الدينية الموريتاني من دخول البلاد للتهنئة بالاستقلال ، ثم جرى تهريبه بواسطة بعض الموظفين المحليين ··

ـ جرت محاولات عديدة من قبل المستشارين الفرنسيين لاستبعاد وفد منظمة التحرير الفلسطينية ، ورغم تدخلات رئيس الجمهورية ورئيس البرلمان ووزراء كثيرون فقد استمرت هذه المحاولات حتى اللحظة الاخيرة ··

ولنتعمق قليلا لاستشراف المستقبل :

في العاصمة مدرسة واحدة ·· وفي البلاد طبيبان اجنبيان ·· وكما ذكرنا فان جيبوتي تستورد كل شيء عدا البيبسي كولا والكوكاكولا ·· والاسعار خيالية والموارد محدودة للغاية : الميناء وخط السكة الحديدية ولا ثالث لهما ·· ولذلك تنتشر السرقة والدعارة انتشارا يندر مثيله في بلد اخر ، وتنتشر معها الامراض تحت راية الفقر الشامل والجهل شبه المطلق والافتقار الشديد للكوادر حتى في ابسط المجالات ··

فهل ينفصل المستقبل السياسي عن المستقبل الاقتصادي ؟

لقد حصلت جيبوتي على عضوية منظمة الوحدة الافريقية ، ولا عائق امام رغبتها في عضوية جامعة الدول العربية والامم المتحدة ·· وتنتظر الجمهورية الفتية مساعدات عاجلة من الدول العربية بشكل خاص ·· الا ان السؤال المطروح يظل قائما : ماذا عن المستقبل ·· سياسيا واقتصاديا ··

هل تصمد جيبوتي امام الصراعات التي تشتد في القرن الافريقي ؟ وأين سيكون

موقعها من هذه الصراعات ٠٠

هل تشهد جيبوتي استقرارا داخليـــا - نسبيا ولو لفتـــرة قصيرة ترسي فيهـــا القواعد الاساسية لانطلاقتها نحو تحقيق الاستقلال الذي اعلنته ؟

نقطة اخرى هامة ٠٠

لقد اغلقت الشركات الاسرائيلية مكاتبها في جيبوتي قبيـــل اعـــلان الاستقلال ٠٠ والمعروف ان شركة « زيم » كانت ذات نشاط واسع جدا في جيبوتي ، كـــما ان السفن الاسرائيلية ظلت منذ انفتاح البحر الاحمر امام ملاحتها عام ١٩٥٧ تعتـمد على ميناء جيبوتي اعتمادا رئيسيا٠٠ فهل يسلم العدو الصهيوني ببساطة بفقـــدان وجوده ومصالحه في جيبوتي ؟٠٠

لا زالت بعض البضائع الاسرائيلية في اسواق جيبوتي ، بل وكان اول ما شهدته وانا ادلف من مبنى مطار جيبوتي الـــى المدينة قبل اربعة ايـــام من الاستقـــلال البرتقال الفلسطيني بصناديق اسرائيلية٠٠ فهل الامر مجرد بقايا عهد ما قبل اعـــلان الاستقلال ؟٠٠ لو كان الامر كذلك فما هو تفسير وجود اكثـــر من اسرائيلي فـــي العاصمة بعد الاستقلال ؟ بل ما هو تفسير الحاح صحفي اسرائيلي على طلب موعد من السيد احمد ديني رئيس البرلـــــان لسؤاله عن علاقة جيبوتي بعد استقلالهـــا باسرائيل ؟ رغم ان السيد ديني قد رد هاتفيا بانه لالزوم للمقابلة ما دام محورها هذا السؤال ٠ فجيبوتي ستكون عضوا في جامعة الدول العربية ، وبالتالي لن تكون لها علاقات باسرائيل ٠٠

بل ان السيد احمد ديني عندما اعلـن استقلال جيبوتي في جلسة البرلمان التـي عقدت قبيل منتصف الليل مساء ٢٦-٦-٧٧ قد حدد بوضوح الموقف من القضيـة الفلسطينية اذ قال : « نحن نقف هنا عنـد باب المندب ، لكن عيوننا تنظر هناك الى فلسطين ، وسنظل مع شعبها في نضالـه حتى تتحرر » ٠

كانت هذه هي الاشارة الوحيدة المحددة في خطاب اعلان الاستقلال الى موقـــف جيبوتي من القضايا العالمية ٠٠

ومع هذا فان التقـــدير الاولي هو ان اسرائيل ستبذل محاولات مضنية لاستعادة مواقعها في جيبوتي ٠٠ وليس مستحيـــلا بالنسبة لها ان تتعاون مع جهات مختلفـة لخلق واقع جديد في جيبوتي يحقق لهـــا هذا ٠ فالتناقضات كثيرة ، والازمات التي تلوح في الافق خطيرة للغاية ، ومستقبل الجمهورية الفتية تتقاذفه رياح الصراعات المعقدة في المنطقة ٠ والكرة في مرمـــى العرب ٠

خير الدين عبد الرحمن

محادثات بيجن - كارتر

عقد رئيس وزراء اسرائيل مناحيم بيجن مؤتمرا صحفيا بعد انتهاء مباحثاته مع الرئيس كارتر يوم الاربعاء الموافق ٢٠-٧-٧٧ ملخصه التالي :

«اكد بيجن استعداد اسرائيل للمشاركة في مؤتمر جنيف ، على اساس حضور كل من الدول المعنية وهي اسرائيل ، مصر سوريا ، الاردن ، لبنان (اذا وافقت) ، واكد بأن المؤتمر سيعقد بدون اي شروط او التزامات مسبقة من قبل أي من الاطراف المعنية ، وان المباحثات في جنيف ستكون مفتوحة وبدون أية شروط .

وهاجم فكرة الكيان الفلسطيني في الضفة الغربية بشدة ، واكد بأنه سيكون قاعدة عدوانية سوفياتية و « خطرا مميتا » على اسرائيل ، وستكون هذه بداية النهاية لاسرائيل .

كما رفض أية شروط مسبقة من الرئيس السادات . واكد بأن القدس ستبقى عاصمة لاسرائيل وستبقى متحدة .

وركز على ان هدف المفاوضات هو توقيع معاهدة سلام بين اسرائيل والدول العربية المجاورة وذلك عن طريق لجان مشتركة (مصرية اسرائيلية . سورية اسرائيلية ، اردنية اسرائيلية ، لبنانية اسرائيلية) واكد بأن معاهدة السلام معناها انهاء حالة الحرب وتحديد الحدود واقامة العلاقات الدبلوماسية والعلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية مع الدول العربية . واكد بأنه لا يمكن القبول بمشاركة منظمة التحرير في مؤتمر جنيف لانها بناء على ميثاقها تهدف الى « تدمير اسرائيل » وذكر بأنه يعرف نوايا منظمة التحرير وهدفها « قتل النساء والاطفال وشعب اسرائيل » ولذلك لا يمكن القبول بها كطرف مفاوض . واذا أصرت الدول العربية على حضور منظمة التحرير لمؤتمر جنيف ، فعندها تقترح اسرائيل بديلين آخرين : اولا : ان تقوم أمريكا بانشاء لجان مشتركة مماثلة للجان المشتركة في رودس عام ١٩٤٩ للوصول الى اتفاقيات . ثانيا : او ان تقام « مباحثات بالوكالة » عن طريق الوفد الامريكي كوسيط بين الوفد الاسرائيلي والوفود العربية .

وانهى بيجن ، بأن على الطرف الآخر ان يقرر ما يريد ، ويجب البدء فورا في المفاوضات لتحقيق معاهدات سلام » .

وخلال الاسئلة والاجوبة ، ذكر بيجن التالي :

. رفض التحدث حول الانسحاب من الاراضي المحتلة والدخول في أية تفاصيل حول القضايا المتعلقة بالمشكلة واكد بأن كل ذلك يجب ان يبحث في جنيف وبأن الرئيس كارتر لم يضغط عليه اطلاقا واكد بأن هناك تفاهما كاملا وعلاقات طيبة وبأنه يعتبر كارتر صديقا .

كما رفض وجود ممثلين عن منظمة التحرير مع وفد الاردن ، ولكنه لا يعارض وجود فلسطينيين عرب مع وفد الاردن

بدون ان تكون لهم علاقة بمنظمة التحرير، وطلب التزام الصمت من الجميع وعدم بحث الموضوعات المختلفة لغاية انعقاد مؤتمر جنيف · واكد ان جميع الاطراف تريد الذهاب الى جنيف ، وهناك يتم بحث كل الموضوعات بدون شروط او التزامات مسبقة ·

ردود الفعل الامريكية :

ذكر الرئيس كارتر بعد انتهاء مباحثاته مع بيجن بأنه متفائل وبأن جميع الاطراف متشوقة لحضور مؤتمر جنيف ، وانه يجب ان يتم التفاوض بشأن الاراضي ، واما موضوع الفلسطينيين فهو معقد ·

واشارت التقارير الصحفية الى ان هناك تفاهما واتفاقا بين كارتر وبيجن ، والظاهر ان كارتر اتفق مع بيجن حول عدم حضور منظمة التحرير لمؤتمر جنيف ، وصرح الرئيس كارتر في مؤتمره الصحفي بتاريخ ٢٧ـ٧ـ٧٧ بان تمثيل الفلسطينيين مشكله وعقبة رئيسية (واشنطن بوست) كما صرح وزير الخارجية الاميركيه فانس بتاريخ ٢٩ـ٧ـ٧٧ بأنه لا يمكن التعامل مع منظمة التحرير ما دامت لا تعترف باسرائيل · وفي مقال للصحفي اليهودي ستيفن روزنفلد (واشنطن بوست ٢٩ـ٧ـ٧٧) قال بأن الدول العربية المعنية قررت التخلي عن منظمة التحرير والتفاهم مع اسرائيل عن طريق الاردن ، وان المنظمة قد انتهت سياسيا ، واما الصحفي الامريكي ادوارد شيان فكتب (واشنطن بوست بتاريخ ٢٧ـ٧ـ٧٧) ينتقد سياسة الرئيس كارتر التي ادت الى تقوية موقف مناحيم بيجن في امريكا ، واكد بانه بدون حل قضية الفلسطينيين لا يمكن احلال سلام في المنطقة ، واشارت معظم الصحف الى ان بيجن نجح في اعادة العلاقات الجيدة بين امريكا واسرائيل واعادة التفاهم والتعاون ، كما نجح في تثبيت موقف اسرائيل على انه موقف سلام واستعداد للتفاهم ، وقد ساهم في بلورة هذه الصورة عدد من الصحفيين والصحف الامريكية المؤيدة لاسرائيل والتي حاولت ان تظهر بيجن بمظهر السلام ·

كما جاءت معظم ردود الفعل الامريكية وخاصة من بعض اعضاء الكونجرس الامريكي مؤيدة لاقتراحات بيجن ، وصرح عدد من زعماء الكونجرس الامريكي بأن مقترحات بيجن ايجابية وبانها خطوة نحو السلام ، والان على العرب التحرك نحو السلام ·

التحرك الاعلامي العربي :

قامت الجمعيات والمنظمات الامريكية الصديقة والعربية الامريكية بتحرك اعلامي واسع للدفاع عن وجهة النظر العربية ، ومن هذا التحرك :

١ ــ عقدت لجنة حقوق الانسان في الارض المحتلة مؤتمرا صحفيا بتاريخ ١٨ـ٧ـ٧٧ تحدث فيه الدكتور جيمس زغبي (نائب رئيس جمعية الخريجين العرب) والدكتور نصير عاروري وطالبوا الرئيس كارتر بالدفاع عن حقوق الانسان في الارض المحتلة ، كما طالبوا بيجن باطلاق سراح المعتقلين العرب بدون محاكمة ، كما ناشدوا الشعب الامريكي بالتحرك للدفاع عن حقوق شعب فلسطين في الارض المحتلة ·

٢ ــ قامت المنظمات والجمعيات الصديقة بمسيرة شارك فيها ما يزيد عن ٥٠٠ شخص بتاريخ ١٩ـ٧ـ٧٧ ورفع المتظاهرون لافتات تطالب بالدفاع عن حقوق الانسان في الاراضي المحتلة وتحقيق الحرية والسلام لشعب فلسطين ، وتتهم بيجن بالارهاب واضطهاد العرب ، كما عقد المشرفون على المسيرة مؤتمرا صحفيا عرضوا وجهة نظرهم دفاعا عن قضية فلسطين ·

٣ ــ كما عقد متحدث باسم منظمة

التحرير الفلسطينية مؤتمرا صحفيا في واشنطن بتاريخ ١٩ـ٧ـ٧٧ ناشد فيه الشعب الامريكي بمساندة شعب فلسطين والعمل من أجل تحقيق السلام المبني على الحرية والعدل لشعب فلسطين ، وطالب بايقاف المساعدات العسكرية الضخمة لاسرائيل والتي تستخدم للقتل والارهاب في المنطقة · كما دعى الى انهاء الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية بسرعة ·

نبيل حاتم

رسالة لندن

يهود بريطانيا وحكومة جديدة في اسرائيل

متابعة ومراقبة ردود فعل الاوساط الصهيونية البريطانية – ويهود بريطانيا – على نتائج الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة التي اوصلت « الليكود » اليميني المتطرف وزعيمه الارهابي بيغن الى الحكم ، أمر بالغ الاهمية والدقة بسبب ما قد يتركه من اثار ليس على العلاقات بين اسرائيل والحركة الصهيونية واليهود في بريطانيا وحسب ، بل على « تناغم وتناسق وتشابك وتماسك » العلاقات في داخل الحركة الصهيونية ذاتها في ارجاء العالم ·

ولذلك أسبابه :

١ ـ المعروف ان الدعم الذي تقدمه « الجالية اليهودية البريطانية » ـ افرادها جميعا ، بالطبع ، مواطنون بريطانيون ـ يعد من ابرز واهم اشكال الدعم الذي يقدمه يهود العالم الى اسرائيل · وفيما لو اعتبر المال بمثابة المقياس الوحيد للدعم ، فان المحصلة تضع يهود اميركا في المقدمة · فيهود بريطانيا ليسوا بثراء يهود اميركا، فضلا عن ان طبيعة العلاقة بين يهود بريطانيا ودولة اسرائيل مختلفة عن العلاقة بينها وبين يهود اميركا ، حيث ان الوقائع التاريخية تؤكد قيام العلاقات الوطيدة بين الجالية اليهودية البريطانية وبين يهود اسرائيل حتى قبل قيام هذه الاخيرة· فالدعم المعنوي والسياسي الذي يقدمه يهود بريطانيا الى اسرائيل هو من اهم اشكال الدعم ، ان لم يكن الاهم ·

٢ ـ يهود بريطانيا يتأثرون ، مثل غيرهم من المواطنين في هذا البلد، بالازمة الاقتصادية التي تعاني منها البلاد · وستزداد درجة معاناة هؤلاء ـ اي اليهود ـ عندما يدركون ان الاموال التي تقتطع من اجورهم تذهب الى حكومة اسرائيلية اصدرت حكما على نفسها بالعزلة الدولية بسبب السياسة « قصيرة النظر » التي يتبناها حزب « الليكود » ·

٣ ـ يهود بريطانيا ـ مثل غيرهم من البريطانيين ـ يتوزعون على مختلف طبقات الشعب · ومتوسطو الدخل منهم ـ وهم الاغلبية ، ينتمي معظمهم الى حزب العمال البريطاني والى الحركات النقابية ـ يشكلون المصدر الاساسي للدعم المطلوب ·

وليس فقط العدد القليل من الاثرياء اليهود ·

٤ ـ ان ابرز زعماء الحركة الصهيونية والجالية اليهودية في بريطانيا هم من زعماء الحركة العمالية والنقابية البريطانية · « اريك مونمان » عضو في مجلس العموم وعضو بارز في حزب العمال الحاكم ورئيس وسكرتير عدد من الهيئات والمؤسسات الصهيونية في بريطانيا · « أيان ميكاردو » عضو في مجلس العموم ايضا ، وهو عضو في اللجنة التنفيذية لحزب العمال التي ترأسها حتى عام ١٩٧١ وترأس لجنة الشؤون الخارجية للحزب بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٠ وهو عضو فعال فيها الان ، فضلا عن زعامته لـ«يسار» حزب العمال الحاكم · « ادموند ديل » ، عضو بارز اخر في الحزب وهو وزير التجارة الخارجية في حكومة جيمس كالاهان · « هارولد ليفر » ، يعتبر من ابرز الادمغة الاقتصادية في بريطانيا ، وهو المستشار الدائم لرئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية · هؤلاء جميعا ، وغيرهم ايضا ، كانوا رواد ارساء العلاقات التاريخية بين بريطانيا واسرائيل تحت مظلة ارساء العلاقات بين الحركة العمالية والنقابية البريطانية وبين حركة الكيبوتزات و « الهيستدروت » (اتحاد نقابات العمال الاسرائيلي) اللذين نقدم قياداتها بمثابة « رواد الاشتراكية في الشرق المتخلف » ·

فقدان التوازن وملامح « التغيير »

ان عرضا سريعا لبعض الملاحظات التي يمكن ربط الواحدة منها بالاخرى ، والتي تكونت من مراقبة ردود الفعل في صفوف الجالية اليهودية البريطانية ، قد يعزز القول بان العلاقة بين اسرائيل وبين هذه الجالية معرضة للتغير في ضوء نتائج الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة · فيهود بريطانيا تعودوا على وجود حكومة تحالف العمال (المعراخ) في الحكم منذ قيام الدولة في عام ١٩٤٨ · ويهود العالم ، من ناحيتهم تعودوا على ترديد اسماء مثل « بن غوريون واشكول ومئير ودايان ورابين وبيريز » ، اما اسم « بيغن » ، فيعتقد ان يستغرق اليهود في بريطانيا خاصة ، بعض الوقت قبل ان يألفوه ·

اولا : صحيفة « الجويش كرونيكل » الاسبوعية ، وهي من أبرز الصحف الصهيونية في العالم واقدمها (تأسست في أواخر القرن الماضي وخاضت معارك التفرقة العنصرية ضد اليهود آنذاك) . تبدو المادة التي تنشر فيها منذ الاعلان عن نتائج الانتخابات في اسرائيل قد فقدت « توازنها » بقدر يوحي وكأنها مقدمة على الدخول في عملية « تغيير » مواقفها من حكومة اسرائيل الجديدة ·

☐ رغم ان الصحيفة لا تزال تنشر المقال نصف الشهري الذي يكتبه موشي دايان (مقالات هذا الاخير بعد فوز « الليكود » تبرر جميعها قبوله لمنصب في حكومة بيغن وتشرح اهمية ذلك) ، فان « الحذر » واضح في معظم المواد الاخرى المنشورة ·

☐ خبران هامان . ويحملان دلالة بالغة ، نشرتهما « الجويش كرونيكل » مؤخرا على صدر صفحتها الاولى بالخط السميك ·

الاول تحت عنوان : « كلا » لكاتز · ويقول الخبر ان « الدكتور زبغنيو برجنسكي ، مستشار الرئيس الاميركي كارتر لشؤون الامن القومي ، اعرب عن عدم رغبته لقاء صموئيل كاتز ، موفد بيغن الى واشنطن لتوضيح سياسة الليكود » · ويستطرد : « والمعلوم ان برجنسكي غير راض بشأن بعض التصريحات التي اعلن عنها مناحيم بيغن » ·

الخبر الثاني ، تحت عنوان : « صورة خاطئة » . ويقول الخبر ان « وزارة الخارجية الاسرائيلية بعثت بتعليمات عاجلة الى سفاراتها في العواصم الغربية تطالب المسؤولين فيها بضرورة الرد على « الهجوم العنيف » الذي تشنه اجهزة الاعلام الغربية على الليكود ». ويستطرد: « ايغال الون بعث بتعميم سياسي وزع على الدبلوماسيين الاسرائيليين يطلب منهم بمقتضاه ان يوضحوا ان هذا الهجوم هو « تحريف » لنظرة الليكود المستقبلية » .

لاول مرة ، منذ قيام دولة اسرائيل على الاقل ، تعفي « الجويش كرونيكل » نفسها من مهمة الدفاع عن رئيس حكومة في اسرائيل .

□ في سلسلة من المقالات الافتتاحية (لا تزال مستمرة) بدأتها « الجويش كرونيكل » منذ الاعلان عن الانتخابات الاسرائيلية يجري تركيز على النقاط التالية : (١) اطراء العملية الانتخابية الديمقراطية في اسرائيل . (٢) تركيز الناخبين على الوضع الاقتصادي المهترىء في اسرائيل ورغبتهم في الحصول على « حكومة نظيفة » . (٣) التركيز على ضرورة الحفاظ على الود في العلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل . (٤) الدعوة الى التهدئة ومطالبة اميركا والغرب بالتريث ريثما يتم تشكيل الحكومة (٥) الاشارة الى انتهازية حركة « غوش امونيم » التي تحاول انتهاز فرصة تشكيل الحكومة بزعامة بيغن لتنفيذ خططها بانشاء مستوطنات في الضفة الغربية – على حد تعبير « الجوش كرونيكل » – « هذا عمل اخرق وخطر » . (٦) الاعلان عن الرغبة بضرورة اللجوء الى «المساومة» لتشكيل حكومة قوية . (٧) تحذير «منظري اليمين » من عواقب « تحطيم الانجازات الصناعية التي حققها تحالف العمال » خلال السنوات السابقة « ومن ازالة السمة الاشتراكية عن الكيبوتزات » ، والمطالبة بمقاومة هذا الاغراء « لانه سوف يعرض اسرائيل لدمار لا يمكن اصلاحه ». (٨) لفت نظر اليمين بأن يواجه التحدي عن طريق استكشاف « اشكال اقتصادية واجتماعية جديدة تعيد الى اسرائيل قلبها وتعيد الحماس الى قلوب مؤيديها » . (٩) الاشارة الى اهمية مشاركة يهود العالم في مشروع بناء اسرائيل « التي كانت عنصرا اساسيا في تطوير الدولة ». (١٠) الاشارة الى تسرب الاوهام حول دولة اسرائيل الى نفوس يهود العالم خلال العام الاخير « بسبب الفضائح والفساد والرشوة وغياب القيادة الوطنية الحازمة وفقدان الاحساس بالهدف القومي » . (١١) التركيز على ان الروابط بين اسرائيل « والدياسبورا » (اليهود في خارج اسرائيل) ستكون « اسهل ، او اكثر صعوبة عما كانت عليه في السابق ، بقدر يتساوى مع قدرة الحكومة الجديدة على توحيد شعب اسرائيل في موقف موحد ازاء السياستين الداخلية والخارجية » . (١٢) الرد على بيغن الذي يقترح تعيين وزير « لشؤون العلاقات مع الدياسبورا » بالقول ان عمل هذا الوزير لن يكون تمثيل اسرائيل لدى الدياسبورا وحسب ، « بل نقل وجهات نظر يهود العالم الى حكومة اسرائيل ، حيث يتطلب هذا المنصب تفهما بالغا وانفتاحا كبيرا وحساسية مرهفة واستعداد الحكومة المسبق على قبول معارضة بعض اجزاء من يهود العالم لسياسات الحكومة في اسرائيل » .

اراء وتحذيرات متناقضة

ثانيا : فيما يلي عينة من ردود الفعل لدى افراد او ممثلي هيئات ومؤسسات مختلفة ازاء نتائج الانتخابات الاسرائيلية وعرضها يخدم من دون شك ما نحاول ان نؤكده من ملامح « التغيير والتناقض »

في ان معا في اوساط « الجالية اليهودية » من ناحية وفي صفوف زعماء الحركة الصهيونية من ناحية اخرى ·

☐ قارىء « صهيوني » اسمه « سيدني هامبرغر » ، وهو انكليزي يسكن في لندن يقول في رسالة بعث بها الى « الجويش كرونيكل » انه لم ينتم في يوم من الايام « الى حركة غير الحركة الصهيونية » ، وهو بالتالي كان دائما « من مؤيدي » الحركة الصهيونية الاقليمية » (اي التي تحتل ارضا كي تحتفظ بها) · ويعرب القارىء الصهيوني عن مخاوفه ازاء ردود الفعل الصاخبة والساخطة على فوز الليكود ، ويذكر انه يخشى ان يخفف من يدعون بـ « اصدقاء » (على حد تعبيره) اسرائيل من حماسهم وتأييدهم لاسرائيل في المستقبل · ويضيف ان رسالة يهود بريطانيا يجب ان تكون واضحة امام الملأ وهي : « كنا ، وسنبقى دائما صهاينة · وسنواصل تقديم الدعم لاسرائيل بغض النظر عن الحكومة التي يختارها الشعب » ·

☐ « ميلفن بينجامين » رئيس فرع بريطانيا لحزب « حيروت » يتهم – في رسالة له نشرت في العدد التالي من « الجويش اويزرفر » – زعماء الحركة الصهيونية « الذين كانوا يدافعون عن اسرائيل في الماضي » بسبب لجوئهم الى الصمت في هذه الاونة « حيث ان اسرائيل في حاجة ماسة الى هؤلاء الان » · ويذكر ان بعض الاوساط الصهيونية « اصيبت بخيبة امل وهلع » ازاء نتائج الانتخابات· ويطالب « المتقاعسين » ان يتخلوا عن مراكزهم القيادية في الحركة الصهيونية البريطانية «لاولئك الذين يؤمنون باسرائيل – مهما كان لونها – وبالصهيونية وبالهدف الصهيوني العظيم » ·

« الانتداب » الاميركي

☐ صهيوني اخر ، ولكنه اميركي ، مر في لندن في طريقه من اميركا الى اسرائيل ادلى بتصريحات تتعلق بوضع يهود اميركا · يقول هذا الصهيوني ، واسمه « جاك تورشزمند » وهو عضو في اللجنة التنفيذية « للمنظمة الصهيونية العالمية » والرئيس المشارك « لاتحاد العالم لعموم الصهاينة » ، « ان حكومة كارتر تسعى الى شق صفوف الجالية اليهودية في اميركا » · ويذكر ان يهود اميركا لا يهتمون لموقف الحكومة الاميركية من الليكود ، « فقد ارسل معهم هؤلاء برقيات تهنئة الى بيغن » · ويحذر الصهيوني الاميركي من مغبة المواجهة بين الحكومة الاميركية وحكومة بيغن ، ويقول انه لو حدثت مثل هذه المواجهة «فان يهود اميركا سيتخذون موقفا مماثلا لموقف يهود بريطانيا في الايام الاخيرة من الانتداب البريطاني » · ويزيد ان معلوماته التي حصل عليها من كبار موظفي الخارجية الاميركية تفيد ان هؤلاء « يفضلون التعامل مع حكومة اسرائيلية تتمتع ببرنامج واضح » · وان صحيفة المال والاعمال « وول ستريت جورنال » ذكرت في افتتاحية لها ان مشاكل اسرائيل الاساسية هي مشاكل داخلية واقتصادية « ويمكن ان تكون حكومة بزعامة بيغن اكثر قدرة على حل هذه المشاكل من الحكومات السابقة » ·

☐ البروفسور « امانويل غاتمان » ، اسرائيلي صهيوني ، والرئيس السابق لكلية العلوم السياسية في الجامعة العبرية والذي يشغل منصب « الاستاذ الزائر » في « مدرسة لندن للاقتصاد » (ال·اس·اي·) ، يقول ان هزيمة حزب العمال الاسرائيلي نتيجة لعملية طويلة من التطور السوسيولوجي · ويصف الامر بانه «ثورة

سياسية حقيقية ، لان عصر ربط حزب العمال وزعمائه بالهدف الصهيوني قد وصل الى نهايته » ·

☐ صهيوني بريطاني ، لعل ما قاله يشكل واحدا من أهم التعليقات · انه « ايان ميكاردو » زعيم حزب العمال البارز وصاحب السمعة العالية فيأوساط الحركة النقابية البريطانية · يقول : « ان تحالف الليكود مع الاحزاب الدينية هو بمثابة الكارثة لاسرائيل » · وكان ميكاردو يتحدث امام جمعية اصدقاء اسرائيل التابعة لحزب العمال ـ فرع منطقة كامبدن (وهي منطقة عمالية فقيرة) ـ · ورغم اعلانه عن ضرورة مواصلة تقديم الدعم لدولة اسرائيل ، الا انه اعرب عن «قلقه» ازاء بروز « اتجاهات غامضة تنتج عن مثل هذا التحالف » · وفي ختام كلمته وجه ميكادو الدعوة الى اعضاء حزب العمال البريطاني وافراد الجالية اليهودية بأن يقدموا الان « اكثر من اي وقت مضى الدعم كل الدعم للحركة العمالية الاسرائيلية » ·

هذه فقط بعض الملاحظات القليلة حول ردود فعل الاوساط الصهيونية البريطانية على وصول الليكود الى الحكم فياسرائيل وهي ـ بسبب قلتها وندرتها ـ لا يمكن اعتبارها حقائق ثابتة ومواقف حاسمة تتضمن وجهات نظر «نقيضين» قد يدخلان مرحلة في المواجهة التي ستؤثر من دون شك ، على طبيعة وشكل العلاقات في داخل الحركة الصهيونية البريطانية، وبين هذه وبين اسرائيل في ظل بيغن · ولكن ، من ناحية اخرى ، ان هذه الملاحظات ـ رغم قلتها وندرتها ـ يمكن اعتبارها مؤشرات للامح بداية مرحلة من انتشار الخلاف داخل الحركة الصهيونية التي دخلت منذ اوائل عام ١٩٦٨ في دائرة الخلاف ·

مصطفى كركوتي

رسالة باريس

التعذيب

على اثر الاضراب الذي اعلنه المعتقلون الفلسطينيون في سجن عسقلان، انشئت في باريس « لجنة الاعلام حول السجناء والمعتقلين الفلسطينيين في سجون اسرائيل » · كان اول نشاط للجنة ، هو نشر اعلان في صحيفة « الموند » الباريسية ٦ـ٧٧/٣/٧ · يشرح وضع المعتقلين في عسقلان ، ويناشد الراي العام العالمي التدخل لفضح الارهاب الاسرائيلي · وقد وقع البيان مجموعة من المحامين المعروفين ، والقضاة ، واساتذة الجامعة والكتاب والاطباء · كما بدات اللجنة باصدار نشرة بالفرنسية عن اوضاع المعتقلين · ودعت اللجنة ، المحامية الاسرائيلية ليا تسيميل ، التي كانت تقدم شهادة عن انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان في جنيف ، الى باريس · حيث عقدت ندوة في المركز الدولي للطلاب يومي ٢٧ و٧٧/٥/٢٨ · وقد القت المحامية ليا تسيميل الشهادة التالية :

اود ، في هذه الامسية ، ان اقدم وصفا سريعا لما يحصل لمعتقل منذ لحظة توقيفه حتى اخلاء سبيله · سأتحدث بشكل اساسي عن الارض المحتلة ، واقدم وصفا للصلاحيات التي يتمتع بها المسؤولون العسكريون في الضفة الغربية ، وقطاع غزه والجولان ·

في كل مدينة كبيرة من مدن الضفة الغربية ، يوجد مبنى ، يعود غالبا الى فترة الانتداب البريطاني وهو بمثابة سوبر ماركت للقمع · وهناك يوجد كل شيء · البوليس ، الحكومة العسكرية ، مركز المخابرات ، السجن ، المحكمة ، مركز التوقيف ·

الحاكم العسكري الاسرائيلي ، هو الذي يقرر عمليا ، في جميع شؤون الحياة في الارض المحتلة · من منع التجمعات الى القضايا الثقافية · وكمثال على ذلك ، فقد تلقت جامعة بيرزيت في الضفة الغربية المحتلة ، رسالة من الحاكم العسكري ، يطالب باعطائه لائحة مسبقة باسماء الهيئة التعليمية للعام الدراسي القادم · وهذه اللائحة ، يجب ان تخضع لموافقة الحاكم العسكري · السبب ، ان عددا من الطلاب الفلسطينيين من الارض المحتلة عام ١٩٤٨ ـ الذين يعتبرون مواطنين اسرائيليين ، يتلقون دروسهم في جامعة بيرزيت ، وبعضهم بدأ يدرس فيها · وتعتبر الحكومة العسكرية ان هؤلاء الطلاب راديكاليون ويقومون بالتحريض السياسي ·

يبت الحاكم العسكري ، في جميع ما يتعلق بالحياة الاقتصادية في الارض المحتلة ، فهو الذي يعطي اجازة العمل ، وحق القيام بمشروع اقتصادي ، وادارة الاستثمار ···

تسمح هذه السلطة المطلقة للحاكم العسكري بممارسة الضغط على الناس ، في سبيل اجبارهم على التعاون السياسي مع سلطات الاحتلال · هناك مثل واضح على ما اقول : هناك رجل من رام الله اسمه عبد النور جنحو · اصبح صاحب ملايين منذ سنوات بسبب علاقاته مع الحاكم العسكري · ويسميه اهل رام الله حاكم المدينة الحقيقي · قدم جنحو هذا ترشيحه للانتخابات البلدية في نيسان ١٩٧٦ · لكنه فشل · ولم ينتخب · في اليوم التالي ، قتل بمسدسه المرخص ، رجلا يعتبره مسؤولا عن فشله الانتخابي · ورغم ان هذه الجريمة شخصية ، فلم يحاكم جنحو امام المحكمة المدنية ، بل امام المحكمة العسكرية · وبعد محاكمة دامت ثمانية اشهر ، صدر عفو عنه · لقد رأيت عددا كبيرا من المعتقلين ، لكنني لم ار معتقلا بهذا الشكل · يرتدي بذلة كاملة ، وربطة عنق · جهاز تلفزيون خاص في زنزانته · وفيما انا متوجهة بالطائرة من تل ابيب الى باريس كان جنحو يجلس في نفس الطائرة ·

يستطيع الحاكم العسكري ان يغلق جميع المدارس والمؤسسات التعليمية بقرار · كما بامكانه اقفال الحوانيت ساعة يشاء · او اجبار اصحاب المؤسسات على العمل عندما لا يريدون ذلك · والطريقة سهلة نسبيا · عندما يعلن اضراب عام ، تذهب قوات من الجيش من بيت الى بيت ، وتاتي بالتجار الاثرياء ، امام محلاتهم المقفلة ، وتخيرهم ، بين فتح محلاتهم او اغلاقها بالشمع الاحمر الى الابد ·

ولدى الحاكم العسكري ، امكانية فرض الاقامة الجبرية · او الابعاد الى مدينة اخرى· اشهر الحالات هي حالة ريموند طويل · التي فرض عليها الاقامة الجبرية في منزلها مع منع كامل من مغادرته مدة اربعة اشهر ونصف · يقف شرطي امام منزلها ، ويسجل اسماء الذين يدخلون اليه · قطع خط الهاتف · ولم تعرف ريموند طويل ، سبب هذه الاقامة الجبرية الطويلة الا بعد فترة · فقد اشتركت في احدى التظاهرات التي نظمتها مجموعة

اسرائيلية يسارية للتنديد بتخريب الاراضي الزراعية في منطقة عقربة في الضفة الغربية ·

وهناك ايضا ما يسمى بالتوقيف الاداري ، الذي يستخدم منذ عشرات السنين في اسرائيل · اي التوقيف في السجن دون محاكمة او تهمة · هدف التوقيف الاداري هو ضرب القيادات الشعبية · والواقع ، ان معظم الذين يطبق التوقيف الاداري ضدهم ، هم من القيادات السياسية او الشعبية او المثقفين · هناك حالة المغني الشعبي مصطفى الكرد، الذي كان يتلقى وبشكل دوري الدعوات من الحكومة العسكرية للتعاون معها · لكن امام رفضه المتواصل ، قامت سلطات الاحتلال بتوقيفه اداريا لمدة اربعة اشهر · وهناك اناس موقوفون اداريا منذ عدة سنوات ، ولا يزالون معتقلين دون محاكمة ·

يقدم السجان ، عادة ، لمعظم الموقوفين الاداريين عرضا باطلاق سراحهم مقابل الالتزام بمغادرة البلاد نهائيا · اما الذين يرفضون الصفقة ، فتتم عملية ابعادهم بقرار ابعاد · لقد تم ابعاد الدكتور أحمد حمزة النتشي بقرار ، قبل موعد الانتخابات البلدية في نيسان ٧٦ ، رغم انه كان احد المرشحين ·

هناك خالد زواوي ، الذي اخذ بالقوة من السجن الى مكتب الحاكم العسكري ، حيث ضرب واجبر على توقيع طلب هجرة ادارية · وقد تمكنا من ايقاف هذا الاجراء عبر تقديم طلب الى المحكمة · لكن هناك العديد من الحالات ، التي يبعد فيها الناس بهذا الاسلوب· يحق لاي جندي اسرائيلي · ان يوقف اي مواطن من المناطق المحتلة ، دون ابراز سبب او مذكرة قضائية · يحق له حجز كل شيء دون مبرر · وهناك سلطة تستعملها الحكومة العسكرية ، وهي تدعى **العقاب الجماعي** · واحد اوجهها الاكثر انتشارا هي عملية نسف المنازل ·

تنسف بيوت معظم المعتقلين ، الذين وجدت اسلحة في حوزتهم ، ايا كان عدد العائلات التي تقيم في المبنى · اعتقل شاب من منطقة الخليل ، ويدعى عزمي الاطرش · جاء الجنود بعد يومين من اعتقاله · وسألوا عن مكان اقامته · اشار السكان الى بيت قديم جدا ونصف مهدم · لم ير الجنود فائدة من نسف هذا المنزل القديم · لكنهم علموا ، ان للاطرش شقيقا يسكن منزلا جميلا · ذهبوا الى منزل شقيقه ونسفوه ، بعد ان اعطوا سكانه مهلة عشر دقائق ·

ساحاول الان ان اصف ما يجري للانسان منذ لحظة اعتقاله · وكما اشرت ، فان اي جندي اسرائيلي يستطيع اعتقال ابناء الارض المحتلة · لكن هناك مسألة القدس الشرقية · فقد الحقت القدس بعد حرب ١٩٦٧ بدولة اسرائيل · ومن المفترض بالتالي ، ان تطبق القوانين الاسرائيلية فيها ، اي لا يمكن اعتقال اي انسان دون مذكرة توقيف رسمية · وعندما اسأل زبائني المعتقلين ، عن مذكرة التوقيف هذه ، فغالبا ما يأتيني هذا الجواب · « لم اتجرأ حتى على السؤال » ·

لا تقوم الشرطة بالتحقيق · فالتحقيق الحقيقي ، يتم على مستويين : الاول ، وتقوم به اجهزة الامن اي المخابرات · والثاني ، الاستعلامات العسكرية ، اي ما تسمونه هنا بالمكتب الثاني للمخابرات العسكرية ·

تهتم اجهزة المخابرات العسكرية ، بالناس الذين تسللوا الى اسرائيل من الخارج ·

وتهتم المخابرات بالناس الاخرين · يؤدي هذا الوضع الى وجود قاعة صغيرة للمخابرات داخل جميع مراكز الشرطة في الارض المحتلة · وفيها ، يتواجد عمــلاء الاستخبـارات الاسرائيليين ، الذين يلقبون باسماء مثل ابو داوود ، ابو سلام ، ابو جوني ··

لن ادخل الآن في تفاصيل الاستجواب والتحقيق · لكن استطيع ان اقول ، ان النـاس يتعرضون لتعذيب حقيقي · ويتحملون الاهانات والعنف والوحشية · ساقدم نموذجيـن عن هذا التعذيب ·

النموذج الاول ، هو نموذج ابراهيم ، من منطقة الخليل · وهو راع عمره حوالي سبعين عاما · ويقيم في منزل صغير على اطراف القرية · عام ١٩٦٧ ، حين انسحب الجيـش الاردني من الضفة الغربية ، كان ابراهيم في الحقل يرعى قطيعه · جاءه ثلاثة جنـود اردنيين وطلبوا منه اخفاء سلاحهم حتى موعد عودتهم · اخذ البنادق وخبأها في حائـط منزله · في اذار ١٩٧٦ ، اي بعد تسع سنوات ، وشي به ، واعتقل · ابى الرجل ان يعترف (يقال في فلسطين ان الخليلي عنيد) رغم ان التهمة ليست خطيرة · تعرض لتعذيـب وحشي · تمرير التيار في اليدين والرجلين والاذنين ، ثم بدأت الدماء تسيل من انفه ، فيما تابع المحققون ضرب رأسه على الطاولة · ثم اجبره المحقق ـ الذي يقوم بتعذيبه على بلـع دمه قائلا : « لن نسمح لك بتلويث مكاتب الحكومة الاسرائيلية » · من البديهي ، انه وقع على ورقة اعترافه بعد ذلك · وعندما اقتيد الى المحكمة ، استطاع الدفاع ان يبرهن ، على ان هذا الاعتراف انتزع تحت التعذيب · لكن وكالعادة ، قررت المحكمة عدم وجود التعذيب. وان الحديث عن التعذيب هو جزء من « المخيلة الشرقية » ·

النموذج الثاني ، هو بدر انور المصري ، وهو عضو في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين· اعتقل واقتيد الى احد مراكز التحقق من الشخصية ـ يتكلم الجميع عن هذا المركز ، ولكن لا احد يعلم اين يقع · ويبدو ان موقعه هو قرب معسكر في منطقة تل ابيب ·

ترك بدر انور المصري في عزلة تامة داخل زنزانة لمدة شهرين ، وكان يستجوب طوال هذه الفترة يوميا · عذب بالكهرباء ، عبر تمرير التيار الكهربائي في الكرسي التي اجلسوه عليها خلال التحقيق · شنق من رجليه . ورأسه مغطى ، بينما كان جنود لم يتمـكن من رؤيتهم ينهالون عليه ضربا ·

هناك طريقة تعذيب اخرى . ترد في شهادات الكثير من المعتقلين · انها ظاهرة الكلاب · يدخل المحقق غرفة التعذيب برفقة كلاب كبيرة ومخيفة · واذا بدت علامات التردد على وجه المتهم ، او اذا لم يظهر حماسا كافيا للاعتراف ، تهاجمه الكلاب · لقد تمكن الدفاع ، ولو بعد فترة طويلة ، من الحصول على شهادة طبيب قام بمعاينة السجين تؤكد وجود اثـار نهشات عميقة جدا في جسده وهي ناجمة عن عضات الكلاب · لكن السجين يشير ، الى ان اقسى تعذيب تعرض له ، كانت طريقة تجويعه · يرمون له كسرة خبز واحدة في اليوم . وعليه ان يرجوهم من اجل جرعة ماء ·

سجين اخر . اسمه سلامة . من القدس · اجريت له عملية تنويم مغناطيسيـة ، كـي يعترف بنشاطاته · واعتقد ان طرق التعذيب والاستجواب تواصل تطورها ·

بعد انتهاء الاستجواب ، يأخذ المحقق اعترافات المعتقلين مكتوبة · تكتب الاعترافـات دائما باللغة العبرية · اي ، ان على السجين التوقيع على نص بلغة لا يفهمها · وتعتبـر هده الاعترافات بمثابة شهادة · وتكون عادة ، في محاكمات الامن ، الاثبات الوحيـد ·

يظهر جليا ، من طريقة تحرير هذه الاعترافات ، انها حررت من قبل المحققين انفسهم · اليس « مضحكا » ان يقول المتهم : « انا عضو في منظمة تخريبية » · « او انا عضو في منظمة معادية » ·

سوف ادخل الان ، في بعض التفاصيل · فانا اعتقد ان فهم الية لائحة الاتهام ، امر بالغ الاهمية · فاللائحة تتضمن عادة عدة اتهامات · مثلا : رمى احدهم قنبلة يدوية · فيتهم بالتدريب على استعمال القنبلة . ثم الاتصال بعميل العدو الذي اعطاه القنبلة ، ويتهم ايضا بحيازة القنبلة ، واستخدامها · هناك حتى الان اربع تهم · يضاف اليها ، تهمة الانتماء الى منظمة غير شرعية ، كما يمكن اتهامه بالتآمر على امن الدولة · وكونه رمى القنبلة ، فقد ادى بالتالي ، خدمات لمنظمة عدوة · نحن امام كتاب اتهام ، ولسنا امام لائحة اتهام ·

بعد ذلك هناك المحاكمة · القاضي عسكري امضى حياته في القضاء العسكري ، ولكنه ليس بالضرورة قاضيا حقوقيا · اذ يكفي ان يكون قد انجز دراسة الحقوق كي يصبح قاضيا · ولديه مساعدون · وهم ضباط في الجيش ، ليس لهم اية كفاءة حقوقية ، وفي غالب الاحيان ، يؤتى بهؤلاء من المراكز نفسها ، حيث يمارسون القمع بوصفهم سلطة عسكرية ، ويتابعون داخل المحكمة دورهم السابق ·

عادة ، تكون الاحكام قاسية جدا · وتصاغ باسلوب بطولي · مثلا : شاب في التاسعة عشرة من العمر ، اتهم بانه عضو في منظمة فلسطينية · اشار الحكم الصادر عن المحكمة ، انه « كان عضوا في منظمة من المجرمين والمخربين ، هدفها اسالة دم الابرياء من النساء والاطفال ، ورغم انه لم يشارك شخصيا في سفك الدماء ، فهو بمجرد انضمامه الى هذه المنظمة يتحمل مسؤولية اعمالها الاجرامية » ·

الرجل المسن الذي اشرنا اليه سابقا ، حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات ·

يمكننا ان نشير الى نموذج مجموعة من شباب القدس · والقدس الشرقية تغلي ، لم تعد مكانا يستطيع فيه السياح التجول بحرية ، والاندهاش امام عظمة القدس تحت الاحتلال · فاذا اراد السائح الذهاب الى حائط المبكى ، عليه ان يمر امام عشرات الجنود الاسرائيليين المدججين بالسلاح البالغ الحداثة ، الذي طوره الاميركيون لمواجهة التظاهرات · هذا التبدل في حالة القدس ، نجم عن الدور الذي يلعبه اطفال المدينة المحتلة· انهم لا يقومون بالاعمال الكبيرة ، يرمون الحجارة · ترمى الحجارة على السياح في بعض الاحيان ، وعلى رجال الشرطة والجنود في اغلب الاحيان · ينجحون في تحطيم زجاج سيارة عسكرية ، او سيارة احد الضباط · يحرقون الدواليب ، ويكتبون الشعارات على الحيطان · ومنذ فترة قصيرة ، بدأوا باستخدام الزجاجات · ليست بالضبط زجاجات مولوتوف · كل يضع ما في مخيلته · ومنذ فترة وجيزة ، عبئت زجاجات الكوكاكولا بالبنزين ورميت ·

في الماضي ، كانوا يحاكمونهم امام قاضي الاطفال ، لان اعمارهم تتراوح بين ١٥ و ١٦ سنة · اما الان ، فقد اصبحوا يحاكمون امام المحكمة العسكرية · وعوضا عن احكام تتراوح بين عام وثلاثة اعوام مع فرض غرامات كبيرة ، كما يحصل في المحاكم المدنية · هناك شبان سيقوا امام المحكمة العسكرية مع لائحة اتهام تتضمن عشر تهم ، والحقيقة انهما

القيا زجاجتين : الاولى على جندي لكنها لم تنفجر ، والثانية على سيارة ، ولم تنفجر ايضا . والواقع انهما لم يستخدما اية وسيلة لاحراق الزجاجتين اللتين ملئتا بالبنزين . وقد حكم عليهما في ايار ١٩٧٧ بالسجن لمدة ثمانية اعوام .

عندما تجري التظاهرات . تقام محاكمات عسكرية في منتصف الليل . يقاد المعتقلون امام هذه المحاكم ، دون ان يسمح لهم بتدبير امر الدفاع عن انفسهم ، ويحكم عليهم بغرامات باهظة جدا . ولا توجد امكانية لاستئناف الاحكام الصادرة عن المحاكم العسكرية.

بعد انتهاء المحاكمة يصل المعتقل الى السجن . هنا يبدأ العقاب الحقيقي . العقاب ليس بمعنى سلب حرية المعتقل ، بل بمعنى العذاب اليومي الدائم .

هناك جدل واسع حول عدد السجناء الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية . الارقام متضاربة ، لان الحكومة الاسرائيلية تريد ابقاء الرقم سرا . توافق الحكومة على ان عدد السجناء هو حوالي ٣٠٠٠ سجين . انا اعتقد ان العدد الحقيقي يتراوح بين ٣٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ سجين .

هناك نوعان من السجون . السجون المختلطة ، حيث يتواجد سجناء يهود اسرائيليون، وسجناء فلسطينيون . وهناك السجون الخاصة بالعرب . من المستحيل عمليا المقارنة بين شروط هذين النوعين من السجون . فسجن عسقلان ـ واظنكم سمعتم به ، هو نموذج السجن الخاص بالفلسطينيين ، في السجون الهولندية تخصص ١٦ م٢ لكل سجين . اما في سجن نابلس فالمساحة المخصصة للسجين هي ١٫٥ م٢ . لقد تبنى

المعتقلون في السجون الاخرى جميع مطالب سجناء عسقلان . ليس هناك اسرة . ينام الانسان على الارض مباشرة او على صفيحة رقيقة جدا من المطاط . وبشكل عام . يرفض المعتقلون السياسيون العمل ، لانه يحمل طبيعة عسكرية . فلقد فرض على معتقلي سجن الرملة صناعة شبكات التمويه للجيش الاسرائيلي ، ولم يكن نضال سجناء الرملة ضد هذا العمل سهلا ، ولكن في نهاية المطاف نال السجناء مطلبهم بعد ان دفعوا ثمن هذا النصر . فالقصاص عندما ترفض القيام بهذا العمل هو البقاء في الزنزانة طوال الوقت . وليس هناك امكانية للخروج من الزنازين المكتظة سوى ساعة واحدة في النهار ، وهي ساعة النزهة داخل باحة مسقوفة .

يعيش المعتقلون حياة مزرية . يقضون حاجاتهم في الغرفة نفسها حيث ينامون ، وحيث تكون فرشهم او ما يستعملونه بدل الفراش ملتصقة ببعضها . الواحد قرب الاخر وفي مواجهة الاخر . الشروط الصحية والمادية داخل هذه السجون بالغة السوء . وجميع المعتقلين يشكون من الروماتيزم والقرحة . وانواع اخرى من الامراض .

يحق للسجناء قراءة جريدة واحدة ، من وقت الى اخر ، وهي الجريدة اليومية التي تصدرها الهستدروت باللغة العربية . جميع مطالب السجناء للحصول على ادبيات سياسية او لها علاقة بالسياسة مرفوضة بشكل قاطع . حتى جريدة « الجيروزاليم بوست » الصهيونية ، التي تصدر باللغة الانجليزية يمنع ادخالها الى السجن .

اما العناية الصحية فهي دون مستوى النقد . فمنذ مدة قصيرة ، وصل احد زبائني من المعتقلين الى مستوصف السجن (وهذا امتياز لا يحصل عليه المعتقل دائما) . قال له الطبيب . « لا ارى لماذا يجب ان اعالجك . فلو كانت صحتك جيدة بما فيه الكفاية ،

فسترمي صاروخا على القدس » . يطبع هذا النوع من المواقف والملاحظـــات علاقـــات السلطات الطبية مع المعتقلين .

اعلن سجناء « شطة » في شكواهم ، ان مدير السجن عنصري الى درجة انه لا يمكـــن التعايش معه في نفس السجن . يضرب السجناء ويحتقرهم ، يمنع دخول المحامين الـــى السجن ويعلن دائما . يمكنكم تقديم شكوى الى المحكمة العليا . (هناك قانون اسرائيلي يعطي الناس حق اقامة دعوى على مؤسسات الدولة) . فهناك مبدئيا امكانية اقامة دعوى على ادارة السجن امام المحكمة العليا . اما موقف مدير السجن فهو تشجيع السجناء على اقامة الدعاوى ، لان كلفتها هي ١٠٠ ليرة . سوف تستعمل اسرائيل نصفها من اجل شراء طائرات جديدة ".

لا اريد . ان اتابع وصف الحالة السيئة في السجون . اريد الان ان اتكلم عن النواحي الايجابية غير المعروفة عادة . رغم القمع ومحاولات اثارة النعرات بين المعتقلين ، فالحياة السياسية داخل السجون الاسرائيلية لا تزال ناشطة . فالمعتقلـون ، يتابعـــون حياتهـم التنظيمية والسياسية داخل السجن ، حيث تجري مناقشات بين مختلف التيارات . وقـــد تمكن المعتقلون من تنظيم طريقة تعليم ذاتي ، في ثلاثة سجون على الاقل .

ففي سجن بئر السبع . حيث حوالي ٦٠٠ معتقل فلسطيني . تضم الباروكة الواحدة بين ٨٠ الى ٩٥ معتقلا . يبقون داخل الباروكات طوال النهار . ما عدا ساعة مخصصة يوميا للنزهة . داخل ملعب محاط بالاسلاك الشائكة . رغم الاكتظاظ ، والطعام السيء . فقـــد استطاع المعتقلون تنظيم انفسهم بشكل جيد . يستيقظون باكرا في الصبـــاح ويقومـــون بالرياضة البدنية داخل الزنزانة . ثم يقسمون الى مجموعات دراسية . الاساتذة هم مـــن المعتقلون انفسهم ، الدين يقومون بالاضافة الى ذلك بكتابة النصوص المدرسية ، لانهم لا يستطيعوا طلبها من الخارج .

يشكو المعتقلون في بئر السبع من وجود اشخاص اصيبوا بالجنون تحت التعذيب .

يوسف اسماعيل عودة ، بقي في التوقيف الاداري من عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٧٥ ، عمره ٢٥ سنة . وهو من منطقة الخليل . كان مطاردا من السلطات الاسرائيلية لفترة طويلة . اختبأ في المغاور والجبال . ثم اصيب بالجنون . عقدت عائلته اتفاقا مع الحكومة العسكرية يقضي بتسليمه شرط اطلاق سراحه بعد ذلك . باعتباره مصابا بالجنون . لكن ، حكم عليه بالسجن مدة ٢٥ سنة . وضع مع باقي المعتقلين ، الذين طالبوا بنقله الى المستشفى . نقل الى مستشفى سجن الرملة . حيث وضع في السجن الانفرادي ، ساءت حالته . طالـــب المعتقلون باعادته الى الزنزانة . لانهم يعتنون به على الاقل .

ان احد امثلة كثافة النضال السياسي في السجون ، هي لائحة النضالات والاضرابات في سجن الرملة منذ عام ١٩٦٧ :

اب ١٩٧٥ ، اضراب عن العمل ، لان احد الحراس قام بضرب المعتقل مالك بسيسو . بعد يومين اضطرت ادارة السجن الى الاعتذار .

اذار ١٩٧٦ . اضراب عن الطعام ، بسبب ضرب وتعذيب احد المعتقلين .

شباط ١٩٧٦ . ثلاثة اضرابات عن الطعام . تضامنا مع المطران كبوجي .

٣٠ اذار ٧٦ ، اضراب بمناسبة يوم الارض · تضامنا مع تظاهرات ابناء الجليل ضد مصادرة الاراضي ·

١٥ ايار ٧٦ ، اضراب · استنكارا ليوم انشاء « اسرائيل » ·

٢ تشرين الثاني ٧٦ ، اضراب ، استنكارا لوعد بلفور ·

حزيران ٧٦ ، اضراب ، بسبب وفاة احد المعتقلين · سبب الوفاة : الاهمال الطبي من قبل ادارة السجن ·

٩ حزيران ٧٦ ، اضراب عام ضد المؤامرة في لبنان ، وبيان سياسي موحد صادر عن جميع المعتقلين ·

١٧ تموز ٧٦ ، اضراب عن الطعام ، تضامنا مع المقاومة في لبنان ·

٢٤ اب ٧٦ ، اضراب من اجل تل الزعتر ·

تشرين الثاني ٧٦ ، اضراب في ذكرى مشروع تقسيم فلسطين ·

كانون الاول ٧٦ ، اضراب من اجل فك العزلة عن المعتقل الياباني في اللد عام ١٩٧٢ ، والذي اصيب بالجنون نتيجة التعذيب · وقد طالب المعتقلون باخراجه من السجن الانفرادي ، والسماح لهم بالاعتناء به · وقد تطور هذا الاضراب ، من اضراب عن العمل في اليوم الاول الى اضراب عن الطعام ·

٢١ كانون الاول ٧٦ ، اضراب تضامنا مع معتقلي سجن عسقلان المضربين عن الطعام

وبعد ثلاثة ايام ، اضراب جديد عن الطعام للسبب نفسه ·

٢-٥ كانون الثاني ٧٧ ، اضراب عن الطعام تضامنا مع معتقلي عسقلان ·

١٥ اذار ٧٧ ، اضراب عن الطعام تضامنا مع معتقلي عسقلان ·

لقد قام المعتقلون باضراب عن العمل لمدة خمسة اشهر ونصف ابتداء من اذار ١٩٧٦ ضد نظام العمل الجديد الذي يجبرهم على العمل مدة ثماني ساعات متواصلة · خلال هذا الاضراب ، منعت عنهم الزيارات والرسائل والنزهة اليومية ·

هذه النضالات جرت في سجن واحد هو سجن الرملة · وفي جميع السجون الاخرى هناك نضالات سياسية ، وقد برز هذا بشكل واضح في اضراب جميع السجون تضامنا مع سجن عسقلان ·

ماذا يحصل عندما يخرج احد المعتقلين ؟ لا اعرف · فنحن حتى الان لم نر سجناء يخرجون ·

نقلته الى العربية جاكلين فرهود

مراجعات

اللواء حسن البدري : الحرب في ارض السلام

المؤسسة العربية للدراسات والنشر · دار الوطن العربي ١٩٧٦

ربما يعتقد بعض القراء العرب ان تاليف كتاب عن الجولة العسكرية العربية ـ الاسرائيلية الاولى التي جرت بين اواخر عام ١٩٤٧ واوائل عام ١٩٤٩ .

والتي اشتهرت باسم حرب ١٩٤٨ ، هو أمر ليست له اهمية وضع كتاب اودراسة عن حرب ١٩٧٣ أو عن المرحلة الراهنة والتوقعات المقبلة الخاصة بها ، على اعتبار ان حرب ١٩٤٨ اصبحت « قديمة ومعروفة وتنتمي الى الماضي البعيد ، الذي غطت عليه احداث ثلاث حروب اخرى في أعوام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وحرب الاستنزاف المصرية عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠ · وللسبب نفسه قد تحجم اليوم العديد من دور النشر العربية عن نشر كتاب عن الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى · ولهذا السبب بالذات تتولد اهمية كتاب اللواء حسن البدري ، الذي سبق له ان وضع الكتابين الرسميين للجيش المصري عن الجولتين الثانية والثالثة (١٩٥٦ و ١٩٦٧) ، عن الجولة الاولى فى هذه المرحلة التاريخية التي اعقبت الجولة الرابعة عام ١٩٧٣ ·

فقد صدرت في اسرائيل واوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، عشرات من الكتب والدراسات والمقالات عن الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى منذ انتهائها. وما زالت تصدر حتى الآن . على حين ان عدد الكتب او الدراسات العربية التي نشرت عن هذه الحرب ، واشتملت على قدر ملائم من الموضوعية والدراسة العلمية يعد قليلا للغاية . اذ ان معظم ما صدر من هذه الكتب والدراسات يتضمن اساسا وجهة نظر بعض الشخصيات العربية السياسية والعسكرية التي شاركت في الحرب المذكورة والدفاع عن مواقفها وتقديم المبررات لها ، وبعضها صدر عن شخصيات اجنبية شاركت في الحرب مع الجانب العربي مثل الجنرال « جلوب باشا » · ومن هذه الزاوية فأن كتاب « البدري » يحتل اهمية خاصة ضمن مجموعة الكتب التي صدرت عن الحرب العربية ـ لاسرائيلية الاولى ، نظرا لانه يتضمن تسجيلا شبه كامل لمختلف مراحل هذه الحرب ابتداء من صدور قرار التقسيم في ٢٩ـ١١ـ١٩٤٧ وحتى احتلال القوات الاسرائيلية « لام الرشرش » على خليج العقبة في ١٠ـ٣ـ١٩٤٩ عشية توقيع الهدنة مع الاردن ، بكل ما حدث خلالها من معارك وعمليات حربية بتفصيل كبير ، خاصة على الجبهةالمصرية في جنوب فلسطين ، مع اشارات عابرة الى ابرز الاحداث والتطورات السياسية

الدولية والعربية التي رافقت كل مرحلة واثرت على استراتيجيتها العسكرية بصورة مباشرة وغير مباشرة .

وفي تقديرنا ان الفكر والرأي العام العربيين في حاجة دائمة الى دراسة واعادة دراسة احداث وتطورات الجولة العربية ـ الاسرائيلية الاولى ، حتى يتعمق لديهما الوعي التاريخي اللازم بالصراع العربي ـ الاسرائيلي استراتيجيا وعسكريا وسياسيا ، ومن ثم يتعمق ادراكهما للجولات التالية ، وقدرة عقلية وعلمية اكثر على مواجهة المرحلة الراهنة ومستقبل هذا الصراع ، ذلك لانه بدون الوعي الحقيقي بالتاريخ يصبح العقل العربي ، ومن ثم الرأي العام المؤثر والفعال على اصحاب القرارات الاستراتيجية السياسية والعسكرية ،فريسة لاوهام ولا عقلانية المواقف الجزئية .

ان تذكر حرب ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ ، التي تشكلت نتيجة لها دولة الكيان الصهيوني « اسرائيل » فوق الارض المحتلة في فلسطين ، ودراستها بتعمق ، وتعميم الخبرات السياسية والاستراتيجية المستفادة منها ، رغم ما تحمله عملية التذكر والدراسة من شعور عميق بالمرارة ، انما تمثل ضرورة لا غنى عنها لتطوير الوعي القومي العربي ، خاصة بالنسبة للاجيال الحديثة التي لم تعاصر هذا الحدث المحوري في تاريخ امتنا .

والكتاب يتضمن خمسة ابواب ، ينقسم كل منها الى فصلين او ثلاثة فصول . ويتناول الباب الاول ، وعنوانه « جذور القضية » ، خلفية الصراع في الفصل الاول منه ، مرجعا اياها الى قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة في ٢٩ـ١١ـ١٩٤٧ باعتباره السبب المباشر لبدء الصراع المسلح بين العرب الذين رفضوا القرار الجائر واليهود الذين قبلوه كحد ادنى لمطالبهم الاصلية . موضحا ان نجاح الحركة الصهيونية في الحصول على هذا القرار يرجع الى نشاطها السياسي خلال فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها كي تكسب تأييد الولايات المتحدة الاميركية من خلال اقناعها بانها ستكون وكيلتها الاحتكارية وعميلتها الامبريالية في المنطقة ، وكذلك تحصل على دعم الاتحاد السوفييتي لها من خلال اقامة حزب شيوعي في فلسطين ليكون جسرا بين الحركة الصهيونية والدعوة الماركسية ومن ثم يبسط الاتحاد السوفييتي « نفوذه على المنطقة التي كانت حلم القياصرة لعدة قرون » ' ثم تناول مسألة المستعمرات والتوسع التدريجي الصهيوني في فلسطين و « الخطة د » التي وضعتها قيادة الهاجاناه للاستيلاء على المناطق الحيوية عشية دخول القوات النظامية العربية ، وموقف الدول العربية المختلفة من الصراع والتناقضات التي كانت قائمة بين بعضها البعض بهذا الصدد .

وفي الفصل الثاني عرض المؤلف جغرافية فلسطين لتوضيح طبيعة مسرح العمليات الحربية وتأثيرها عليه ، وفي الفصل الثالث تناول مراحل الحرب بصورة موجزة والسمات العامة لها ، وقد قسمها الى فترة حرب غير معلنة تمتد من ١ـ١٢ـ٤٧ حتى ١٤ـ٥ـ٤٨ وفترة حرب معلنة تمتد من ١٥ـ٥ـ٤٨ حتى ١٣ـ٣ـ٤٩ وقسم كل فترة منهما الى مرحلتين ، وابرز ما في هذا الفصل هو التحديد الرقمي لمدد القتال الفعلي وفترات الهدنات ، وعرض آراء مختلف الكتاب العرب والاسرائيليين والاجانب بالنسبة لتحديد مراحل الحرب ، والعوامل التي اخذوا بها في تحديدها . وكذلك توضيحه للسمات الاستراتيجية العامة لكل مرحلة من مراحل الحرب ، وان كنا نرى ان تحديد هذه السمات في ذلك الفصل يستبق عرض

الاحداث ذاتها دون مناسبة منطقية تفرض ذلك على البحث ، وكان يجب ذكرها في ختام التحليل العام الذي يعقب عرض العمليات والمعارك وتطورات الحرب بمختلف مراحلها ، حتى لا يضيق القارىء بها ، ومنعا لبعض التكرار الذي اضطر اليه المؤلف بعد ذلك اثر عرضه لكل مرحلة ، وهذا يشكل ابرز العيوب المتعلقة بشكل ومنهج الكتاب ، كان يجدر تجنبه ·

وفي الباب الثاني ، الذي يحمل عنوان « الاطراف المتصارعة » ، تناول المؤلف بالتحليل قوات واهداف الطرفين وميزان القوى بينهما ، وهو من اهم الابواب الوثائقية في الكتاب التي تسهل على الباحث في هذه الجولة عملية حصرقوات الطرفين وتقييم قدراتها القتالية من حيث التسليح والتدريب والخبرة والقيادة والتنظيم · وتتأكد خلال هذا الباب الحقيقة التي طالما رددناها من قبل وهي ان العرب لم يحققوا من الناحية العلية اي تفوق كمي في حروبهم مع اسرائيل ، باستثناء المرحلة الاولى من حرب ١٩٧٣ ، اذ ان الارقام المفصلة توضح ان جيوش كل من مصر والاردن والعراق وسوريا ولبنان والسعودية والسودان واليمن ، التي دخلت فلسطين يوم ١٥ــ٥ــ١٩٤٨ ، كانت ١٤٩٢٦ رجلا موزعين على ١٤ كتيبة مشاة وبعض الوحدات القليلة المعاونة من المدفعية والدبابات الخفيفة ، على حين كان لدى « الهاجاناه » و « البالماخ » ١٠ الوية من المشاة بضم ٣٢ كتيبة ، بخلاف وحدات الدفاع الاقليمي الثابت عن المستعمرات ، وقدر اجمالي عدد المقاتلين بنحو ٦٧ الف ، اي نسبة التفوق البشري ٤ر٤ الى ١ لصالح اسرائيل ، وبالنسبة لعدد كتائب المشاة كانت نسبة التفوق ٣ر٢ الى ١ · هذا مع ملاحظة ان ارقام القوات الاسرائيلية فيها كثير من الاضطراب وعدم الدقة بالنسبة لعدد الافراد ، اذ ان رقم ٦٧ الف ينتمي في الواقع الى تقدير الاستخبارات البريطانية في تموز (يوليو) ١٩٤٦ ، على حين اورد المؤلف رقما آخر بالنسبة لعامي ٤٧ ــ ٤٨ نحو ١٠٦ الف مقاتل ، ولكنه عاد واخذ بتقدير ٦٧ الف مقاتل فقط في جدولميزان القوى · والمسألة في حاجة الى تدقيق اكبر · وعلى اي حال فان ذلك لا يغير من حقيقة التفوق الكمي الاسرائيلي وانما يزيد من نسبتها فقط · ورغم تزايد قوة الجيوش العربية بعد ذلك ، وبالذات الجيش المصري والعراقي ، بحيث بلغت في بداية المرحلة الرابعة ، من الحرب يوم ٩ــ٧ــ٤٨ نحو ٣١ الف رجل موزعين على ٢٤ كتيبة مشاة، فقد قدرت القوات الاسرائيلية بنحو ١٠٦ الف رجل موزعين على ١٢ لواء تضم ٤٢ كتيبة ، اي ان نسبة التفوق البشري اصبحت ٤ر٣ الى ١ ونسبة تفوق عدد التشكيلات بلغت ٧ر١ الى ١ لصالح اسرائيل ·

واذا ما اضفنا الى القوات العربية النظامية نحو ٧ آلاف من القوات شبه النظامية يبلغ اجمالي المقاتلين العرب في ١٥ــ٥ــ٤٨ نحو ٢١ الف رجل مقابل ٦٧ الف مقاتل اسرائيلي (وفقا للتقدير المتحفظ) ، وهذا يعني كما اوضح المؤلف ان يهود فلسطين البالغ عددهم وقتئذ نحو ٦٢٩ الف نسمة قد دفعوا الى القتال نسبة ١١٪ من رصيدهم البشري ، على حين قدمت الدول العربية التيشاركت في القتال نسبة ٠٥ر٠٪ من اجمالي عدد سكانها البالغ حوالي ٤٠ مليون نسمة ، الامر الذي يكشف لنا مدى خطورة وهم الاستناد المطمئن الى التفوق البشري العربي كعنصر حاسم في الصراع المسلح ضد اسرائيل ، وهوالوهم الذي وظفه الاعلام الصهيوني لصالحه دائما لجذب عطف ودعم الرأي العام الدولي واظهار اسرائيل بمظهر الحمل الصغير في مواجهة الكثرة الهائلة من

الوحوش العربية !

ورغم ان المؤلف اورد فصلا صغيرا عن مقارنة اسلحة ومعدات الطرفين ، الا انه في الواقع لم يورد تفاصيل نوعية او كمية هذه الاسلحة لدى كل طرف كي يتكامل تقدير ميزان القوى ، واكتفى بتوضيح تخلف مستوى تدريب وقيادة وتنظيم القوات العربية بصفة عامة ، مع الاشارة لارتفاع القدرات الاسرائيلية المماثلة نتيجة للخبرة التي توفرت للواء اليهودي خلال الحرب العالمية الثانية الذي دربه البريطانيون ٠

ثم تناول المؤلف في الباب الثالث فترة الحرب غير المعلنة في فصلين عن مرحلتي هذه الفترة ، الاولى اخذ العرب فيها المبادرة والثانية انتقلت فيها المبادرة للجانب الاسرائيلي ، وعموما كان القرار السياسي والاستراتيجي الاسرائيلي هو الذي يحدد طبيعة كل مرحلة على ضوء اعتبارات تتعلق بالموقف الدولي والمحلي تجاه سلطات الانتداب البريطاني واقتصاد القوى لحين تبلور الموقف العربي الخ ٠٠ وكانت اهداف الهجمات العربية والعمليات الاسرائيلية يتركز اساسا حول طرق المواصلات التي تربط المدن والاحياء والمستعمرات الاسرائيلية بعضها ببعض وبمراكز امدادها ، ثم انتقلت في المرحلة التي سبقت جلاء القوات البريطانية ودخول الجيوش العربية الى عمليات اسرائيلية تهدف الى تهجير العرب من عديد من المناطق والاستيلاء على مدن ومواقع حيوية عدة ، خاصة على الشواطىء والموانيء ، بغض النظر عن تبعيتها للقسم اليهودي وفقا لقرار التقسيم ٠ ،

وقد حققت القيادة الاسرائيلية في نهاية المرحلة الثانية من هذه الفترة اهداف الخطة « د » واصبحت تسيطر على خمس مساحة فلسطين بعد ان كانت تسيطر في بدايتها على مجرد $\frac{1}{20}$ من المساحة ، ورغم هذا النجاح فكانت القيادات العربية خاصة السياسية منها ، تقلل الى حد كبير من قيمة القوات الاسرائيلية في بداية مرحلة الحرب المعلنة وتعتبر « ان العملية لا تعدو نزهة الى تل ابيب » كما يقول المؤلف !

وفي الباب الرابع عرض للمرحلة الثالثة من الحرب ، التي دخلت فيها الجيوش النظامية العربية لتحاول السيطرة على القسم المخصص للعرب في قرار التقسيم ، حيث تمت العمليات الهجومية الاولى بدون قيادة عربية واحدة او خطة موحدة بالمعنى الحقيقي ، واستمرت لمدة ٢٧ يوما خاضت فيها الجيوش العربية ١٩ معركة بدون تنسيق او تعاون استراتيجي ومن ثم ضعفت قدرتها على الاستفادة من ميزة العمل على الخطوط الخارجية ، التي يتيحها لها الواقع الجغرافي لفلسطين ، ورغم ذلك تحرج موقف القوات الاسرائيلية للغاية في نهاية هذه الفترة ، التي لم ينقذها منه سوى صدور قرار مجلس الامن بفرض الهدنة الاولى وقبول الدول العربية لها ، وامكن للجيوش العربية ان تحرر نحو الفي كلم مربع من ارض فلسطين عند سريان الهدنة الاولى ٠ والشيء الذي لم يوضحه المؤلف بخصوص هذه المرحلة ان الجيوش العربية دخلت الحرب بموافقة ضمنية من بريطانيا ، التي اتفقت مع الملك عبد الله على عدم تخطي قواته القسم العربي من فلسطين ، وعمل مندوبها في مجلس الامن على تأخير صدور قرار مجلس الامن بوقف اطلاق النار عدة ايام في مواجهة معارضة المندوب الاميركي بصدد السيطرة على فلسطين والشرق الاوسط عامة . الذي بدأت ملامحه تتضح وتتزايد في اعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وفاقم منه انتقال ولاء الحركة الصهيونية في فلسطين والعالم الى الولايات المتحدة الاميركية بالكامل منذ مؤتمر « بلتيمور » عام

١٩٤٢ . ولذلك كانت الحرب العربية ضد الكيان الصهيوني المسمى اسرائيل تجري وفق « لعبة الامم » في حقيقة الامر ،وتؤثر فيها بصورة مباشرة وبطريقة غير عادية القرارات الدولية المختلفة ، وفاقـم من تأثير ذلك التأثير الخارجي الكبير للغاية علىمجريات المسرح المحلي للصراع المسلح العربي ـ الاسرائيلي ، التبعية شبه الكاملة للنظم العربية السائدة ،والمشتركة في القتال ، لدول المعسكر الغربي الامبريالي ، الامر الذي جعل هذه الدول قادرة على التحكم في ميزان القوى العسكري المحلي ، والتأثير الفعال والمباشر على القرارات السياسية والاستراتيجية العربية المتعلقة بالحرب . وفي الوقت نفسه جعل الدول العربية ذات قدرة محدودة للغاية في المناورة السياسية والاستراتيجية العليا ، بحكم انها كانت تناور داخل الدائرة الضيقة للتناقض البريطاني ـ الاميركي ، وهي مسلمة مسبقا بانفراد الغرب الامبريالي بالهيمنة والانفراد الكامل باوراق اللعبة الدولية في المنطقة العربية ، من خلال تأكيدها المستمر ، قولا وفعلا ، على

«طهارتها» السياسية من « رجس »التعاون على اي نحو كان مع دول المعسكر الشرقي الاشتراكي ' في الوقت الذي كانت فيه اسرائيل تستفيد قدر الامكان،سياسيا وعسكريا وبشريا (من حيث هجرة اليهود في اوروبا الشرقية) من دول هذا المعسكر مستخدمة في ذلك كل رصيد الدعاية الصهيونية المتعلقة بالاضطهاد النازي لليهود كعنصر تأثير معنوي وايديولوجي له فاعليته لدى هذه الدول ، لدفعها على الاقل للوقوف على الحياد ، او لتقديم بعض المساعدات العسكرية في بعض الحالات التي كانت تنجح فيها العناصر الصهيونية الموجودة في اجهزة الدولة في تحقيق مثل هذه المساعدات (حالة تشيكوسلوفاكيا في المراحل الاولى من

الحرب) ، وذلك حتى لا توصد بنفسها باب كل امكانية دولية تستطيع الاستفادة منها ولو جزئيا دون ما ضرورة تفرض عليها ذلك ، او من باب تصور وهمي يتعلق بالتزام « خلقي » تجاه دول الغرب الامبريالي ، كما كان يفعل قادة العرب الى حد انهم كانوا يعلنون براءة الولايات المتحدة من قرار انشاء اسرائيل التي اعتبروها اداة صنعها المعسكر الشرقي لنشر « الشيوعية » في البلاد العربية ، كما عبر ذلك بوضوح « النقراشي باشا » رئيس الوزارة المصرية في خطابه امام البرلمان المصري يوم ١١ـ٥ـ١٩٤٨ خلال الجلسة السرية التي عقد لبحث التدخل العسكري العربي الوشيك فيفلسطين حيث قال « ليست هناك مخالفة للامم المتحدة لاننا نعمل على قتل رأس الحية التي تمتد من هذه العصابة الصهيونية لنشر الاضطراب والشيوعية في البلاد العربية .

ويجب علينا الا نقف مكتوفي الايدي نتفرج ، اذ ليست هناك دولة يهودية ، فان مجلس الامن لم يقرر هذه الدولة ،كما ان الولايات المتحدة تخلت عن قرار التقسيم » (اورد المؤلف نص الخطاب في صفحة ٤٣) واوضح المؤلف في عديد من المواضيع تناقض المواقف والاهداف السياسية للدول العربيةالمشتركةفي الحرب، خاصة الاردن ومصر والعراق والسعودية، وتأثير ذلك على الاستراتيجيتين العليا والعسكرية العربيتين ، من حيث انعدام التنسيق وانفراد كل جبهة بعملياتها ومواقفها السياسية والاستراتيجية تجاه العدو ، خاصة في المرحلة الاخيرة من الحرب ، التي بدأت في ١٦ـ١٠ـ٤٨ على الجبهة المصرية وانتهت بحصار«الفالوجا» واحتلال « بئر السبع » وانسحاب القوات المصرية من « اسدود » و « المجدل »وعزل الجبهة المصرية عن الجبهة الاردنية ، واجبار جيش الانقاذ على الانسحاب من الجليل الاعلى .

وفي الباب الخامس والاخير بعنـوان « قبض الريح » تناول المؤلف في فصلين، اولهما بعنوان « نقطة التحول » وثانيهما بعنوان « بداية النهاية والنهاية » ،تعرض المؤلف لتفاصيل معارك وعمليات واحداث المرحلة من ١٩ـ٧ـ٤٨ حتى ١٣ـ٣ـ١٩٤٩ بحيث اشتمل على تسجيل عام لتطـورات المرحلة ولكنه يختلف عن تسجيل المراحل السابقة من حيث دقة الشرح فـي عديـد من المواضيع ، كما كان يحدث بالنسبـة لمعارك المراحل الاولى ، فضلا عن غمـوض موازين القوى في عديد من المعـارك بالنسبة للقوة النارية الفعلية للطرفين ، واغفال الخسائر في عديد من العمليـات والمعارك ، وبالذات بالنسبة للهجوميـن الاسرائيليين الكبيرين في منتصـف تشرين الاول (اكتوبر) واواخر كانـون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، وحصـار « الفالوجا » ، اذ ذكر حجم القوات التي خرجت من الحصار دون أن يذكر شيئـا عن خسائرها او عن تفاصيل اوضاعهـا الدفاعية وتوزيع المهام القتالية المختلفةبين تشكيلات الحامية المحاصرة او تفاصيـل بعض معاركها الهامة خاصة في « عـراق المنشية » . ولم يذكر المؤلف شيئـا تقريبا عن ما كان يجري في مصر وقتئذ من تعاقدات على الاسلحة بواسطة عملاء الملك فاروق وكبار ضباط الجيش ،والتي عرفت فيما بعد بقضية الاسلحة الفاسدة . وتاثير ذلك على معنويات القـوات المسلحة وقتئذ الا في عبارات قليلـة وعامة ، مع اشارة وحيدة لانفجـار سبطانة احد المدافع اثناء اطلاقه . وفـي الوقت نفسه لم يذكر المؤلف شيئا مفصلا عن تزايد القوة الناريـة والبشريـة الاسرائيلية عن هذه الفترة ، وافتقـد التحليل الاستراتيجي لخطط وعمليـات القوات الاسرائيلية لبعض القسمـات الهامة له مثل تطبيق مبادىء نظريـة «ليدل هارت» عن «الاقتراب غير المباشر» ومناورة « الخرشوفة » وتوضيح متكامل لنظرية القتال الخاصة بهـا ، واهمية العمليات الليلية بالنسبة لها الخ .وكذلك كان تحليل العمليات من الجانب المصري ناقصا ولم يوضح مستوى التطور الـذي وصلت اليه القدرات القتالية المصرية خلال الحرب من حيث التسليح والتدريب والقيادة والتنظيم ، وثبوت المقدرة الدفاعية اكثر من الهجومية والعوامل المؤثرة فيهـما ، وآراء القادة الاسرائيليين انفسهـم في الاشادة ببعض هذه القدرات الخ . ويبدو ان هذا القسم من الكتاب علـى اهميتـه قد كتب على عجالة نسبية ، او ان المؤلف شعر أن حجم الكتاب قد اتسع اكثـر مما يجب . وعموما فان الكتاب كان فـي حاجة الى اعادة ترتيب وتنسيق واستخدام افضل للمادة المعلومات المتوفرة لديه ، مع ربط اوثق واكثر عمقا ودقة بالعوامـل السياسية والاستراتيجية العامة ومتابعـة اكثر دقة لموازين القوى بكافة جوانبهـا . ورغم ذلك كله يبقى للكتاب اهميته كمرجع هـام في المكتبة العسكرية العربية ، ويعد افضل الكتب التي ظهرت حتى الآن عـن الجولة العربية ـ الاسرائيلية الاولى .

محمود عزمي

سحر خليفة : الصبار

مطبوعات جاليليو ـ القدس ١٩٧٦

صدرت في الارض المحتلة (الضفة الغربية) رواية للكاتبة الفلسطينية سحر خليفة ، بعنوان (الصبار) ·

ولعلها الرواية الاولى التي تصدر في الضفة الغربية بعد الاحتلال اذا اخذنا بعين الاعتبار معظم الشروط الفنية العامة والخاصة التي يجب ان تتوفر في عمل فني ما ··

ان ادبا فلسطينيا جديدا وشابا قد ظهر في زمن الثورة ، وفي سياقها ما زال ينمو ويشكل رافدا لثقافتنا الوطنية ، وشاهدا على عصره وعلى تجربة الشعب الفلسطيني ·

ومعظم هذا الانتاج قد ظهر في الاراضي المحتلة منذ عام ٤٨ ، وكذلك في التجمعات الفلسطينية خارج ارض الوطن (في المنفى) ·

اما في الضفة الغربية ، فما اقل ما يصلنا من نتاج ثقافي ، خاصة بعد عام ٦٧ · وقبل ذلك ، ومنذ مطلع الستينات ، كانت تصدر في القدس مجلة باسم (الافق الجديد) لعبت دورا بارزا في حياة الادب الفلسطيني والاردني ، وابرزت المحاولات الاولى لمعظم الكتاب الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في الضفة الغربية انذاك · ومنهم على سبيل المثال : محمود شقير ، خليل السواحري ، محمد القيسي نمر سرحان ، امين شنار ، عبد اللطيف عقل ، ماجد ابو شرار ، ومحمد خالد البطراوي ، وكاتب هذه السطور ·

أما بعد عام ٦٧ فقد توقفت الحركة الثقافية في الضفة الغربية فترة من الزمن نتيجة لخروج او ابعاد معظم الفعاليات الادبية ·

ومن الاسماء التي لم تتوقف عن الكتابة الكاتب والناقد التقدمي محمد البطراوي، والشاعر عبد اللطيف عقل ، وقد علمت انهما يسهمان هذه الايام في تحرير مجلة ثقافية جديدة (البيادر) ·

من هنا ، تأتي اهمية العثور على عمل روائي ظهر وكتب في ظروف الاحتلال · وحاول ان يكون شهادة على قسوته· قبل ان اتعرض للرواية ، اود ان اشير الى انني سأقفز عن تلك المقدمة المليئة بالادعاء والتي لا تخدم الرواية كثيرا والتي كتبتها معلمة او كاتبة في كلية بيرزيت وذكرت انها من دراسة قدمت للمؤتمر التاسع للخريجين العرب في امريكا ·

تحكي الرواية ، بشكل عام ، عن هموم البرجوازية وعجزها عن انجاز مهمة التصدي للاحتلال ، وعن المثقفين الثوريين الذين ينسلخون عن هذه الطبقة ، وينخرطون في صفوف تنظيمات المقاومة المسلحة · وفي اطار ذلك ، تتعرض الى قضية العمال العرب الذين يعملون في المصانع الاسرائيلية . كما تحاول رسم صورة لواقع المعتقلين في سجون نابلس ·

تبدأ الرواية بعودة اسامة الكرمي الى نابلس بتصريح (لم شمل) بعد غياب خمس سنوات قضاها في بلاد البترول ،

وعاني خلالها من جور وقسوة ورعب الانظمة العربية ، فقرر العودة الى نابلس ليمارس العمل الثوري .

ولا بد من الاشادة هنا بمدخل الرواية الذي تقدم به الكاتبة في الفصول الاولى تجربة التفتيش على الجسر .. التحقيق ، الرعب الخفي ، المزاوجة ما بين هموم اسامة الكرمي وهموم الاخرين. والتعاطف الحاد مع تلك الفتاة التي وجدوا شيفرة سرية تحت باروكة شعرها .

يعود اسامة الكرمي الى نابلس فيجد نفسه غريبا عنها . (الناس لا تبدو عليهم شقاوة العيش ، يلبسون على الموضة ، يمشون بخطوات اسرع ، ويشترون بدون مساومة ، كثرت النقود.. كثرت الاعمال . استطالت السوالف وقصرت التنانير . وامتلأت ارداف الخادمات . الاحتلال ما زال احتلالا ، والكرامة المسحوقة ما زالت ملغاة ، لكن شيئا ما قد تغير . فالخادمات ما عدن خادمات ، والسلم الطبقي مال) .

وعندما يلتقي اسامة الكرمي بأمه ويبكي على صدرها، يقول :

بكيت على الناس يا امي .. بكيت على البلد .

بعد ذلك نتعرف على اسرة الكرمي .. نتعرف على عمه الوجيه الذي تضررت مصالحه وخسر مزرعته الكبيرة بعد أن هجرها العمال وفضلوا العمل في المصانع الاسرائيلية ، وظل يحتفظ بتلك العنجهية التي يتمتع بها كبار الملاك والاثرياء في الوقت الذي تتفسخ فيه طبقتهم ويزداد عجزهم امام معضلات الاحتلال .

ونتعرف ايضا على ابن عمه عادل ، ذلك الشاب البرجماتي الذي لا يبحث الا عن مصالحه الشخصية، ولا يلتقي بقضية الوطن الا عن طريق الصدفة .

ثم ابنة عمه نوار التي يحلم بان تكون زوجة له ، والتي تمثل حالة انتقالية ضعيفة ، وتظل لفترة طويلة اسيرة لقوة الاشياء في محيطها البرجوازي المتداعي .

ومن خلال عادل الكرمي ، وشبكة علاقاته ، تقدم الكاتبة عددا اخر من الشخصيات اغلبها من العمال العرب الذين يعملون في المصانع الاسرائيلية ومن ابرز هؤلاء (ابو صابر) ابن البلد الطيب الذي تأكل الالة يده اثناء عمله في المصنع وتجعل منه عاطلا ، ولا يستطيع الحصول على تعويض لان الضمان الاجتماعي لا يشمل العمال العرب ، فيقعد في البيت عالة على الاصدقاء والجيران ، وعلى ما تحصل عليه زوجته (ام صابر) لقاء الخدمة في بيوت الاخرين .

تبقى اخيرا شخصية باسم الكرمي الفتي الذي ينتمي الى الجيل الجديد والذي ينسلخ عن طبقته في وقت مبكر ويلتحق بالخلايا السرية للمقاومة . وشخصية (لينة) الطالبة الثورية التي تتعرض للاعتقال بسبب نشاطها الثوري .

ولعل الكاتبة رمزت في هاتين الشخصيتين الى الجيل الجديد الذي يشبه اشجار الصبار في صلابته وقوة احتماله وتنوع اساليب واشكال نضالة وتعدد اسلحته .

ان شخصية باسم بشكل خاص مرسومة بدقة ، وهي شخصية غنية،وتكاد تكون الشخصية الوحيدة التي يحس القارىء بحيويتها ، وهي متطورة اكثر من الشخصيات الاخرى التي يظهر بوضوح قلق حياتها الداخلية ، وضعف نموها .

لا اريد ان اخوض كثيرا في التفاصيل حول الشخصيات والمضمون والشكل

الفني ، وانما ساحاول تسجيل بعض الملاحظات :

اولا : هناك تفاوت كبير في المستوى

بين فصل واخر ، ليس بالمضمون فحسب وانما في البنية الفنية وفي عملية القص وفي اللغة والمفردات ٠

ففي بعض الفصول تحتفظ الكاتبة بمستوى عال من الحيوية الفنية والايقاع الجميل للغة ، وفي الحوار الفني ، كما في الفصول الاولى مثلا ٠

وفي فصول اخرى يهبط مستوى السرد والقص ، ويظهر بشكل جلي بؤس اللغة ورداءة محتواها ، واقترابها من لغة الصحافة ٠

ويمكن ذكر بعض الفقرات على سبيل المثال لا الحصر :

(لم يجبه زهدي بل استمر صامتا كمدفعية الحدود اللبنانية ص ١٥١)

(صحن شوربة فريكة احلى من افخاذ سعاد حسني ص ١٣٤) ٠

(واخذ ينعف الملابس من الخزانة ٠٠ ص ١٨٠)

(صوته يخرق طبلتي اذنيه بدون رحمة ص ١٩٥) ٠

(وزعقت سيارات الاسعاف المدللة ص ١٢٢) ٠

ثانيا : قدمت الكاتبة اسامة الكرمي كفدائي يائس ٠ ورمزت احيانا للفعل الثوري باليأس ، عندما يطعن اسامة الكرمي ضابطا صهيونيا في احد شوارع نابلس (تشجيع الجريمة لا يدل علىروح انسانية هذا صحيح ، ولكن ماذا بقي في هذا الصدد؟) ٠

٠٠ هل تعتبر الكاتبة ان طعن ضابط صهيوني عمل ارهابي وجريمة ارتكبست في حالة يأس ؟

اما الموقف الاخر الانتحاري الذي قدمت به اسامة الكرمي فهو الهجوم على قافلة العمال العرب الذين يتجهون الى اسرائيل للعمل حيث تنتهي حياته بالهجوم المضاد الذي تشنه القوات الاسرائيلية ٠

ان اسامة الكرمي رمز سلبي تشير به الى العفوية في ممارسة الكفاح المسلح٠ الم تجد الكاتبة من نماذج ثورية وايجابية تعبر عن تلك المرحلة التي رافقت ولادة الكفاح المسلح في الضفة غير هذا النموذج ؟

ثالثا : اكتنف الغموض موقفالكاتبة من قضايا عدة ، ابرزها قضية العمال العرب في المصانع الاسرائيلية ٠

لقد زعمت المقدمة ان الكاتبة من خلال طرح هذه القضية ساهمت في تسليط الاضواء على مفاهيم وطنية جديدة تختلف كلياعن المفاهيم الكلاسيكية المألوفة التي تعتمد على استثارة العواطف ٠ اين هي تلك المفاهيم ؟ هل هي مع او ضد العمل في المصانع الاسرائيلية ؟

كذلك اكتنف الغموض موقفها من العلاقة بين المعتقلين داخل السجن ،انها علاقة يسودها الرعب والصرامة ، ورئيس المجموعة التي ترمز له بضمير الثورة (يدعي بانه ضمير الثورة ،لكنه بارد القلب يا عالم : ويا خوفي ان يصبح كبقية الحكام هو يأمر ونحن ننفذ ،ويعيد التاريخ نفسه متخذا اسماء حسنى براقة٠ ديمقراطية ٠ اشتراكية ٠ بروليتارية ٠ ثم يرفع ستالين منجله ويحصد رقاب الملايين ٠٠ الخ ص ١٤٨) ٠

من هو ضمير الثورة هذا ، والى ماذا يرمز ، ولماذا هذا الجو الارهابي الذي

يسود داخل المعتقل والعلاقات غيـــر الانسانية التي يمارسها الرفاق علـــى بعضهم البعض (ابو سالم نفسه حوكم بتهمة اغتراف كمية اكبر من الحساء . عقدوا له مجلسا تأديبيا وطلبوا مـــن الفدائي السوري ان يقوم بمعاقبته ،تردد الاخر ، فنال الاثنان علقة محترمة اثناء احتفال جنوني قرعت خلاله السطـــول وخشخشت طاولات الزهر ، حكومة داخل حكومة ص ١٤٨) .

واكتنف الغموض ايضا قضية الطفلة الاسرائيلية التي يحملها عادل بيـــن ذراعيه بعد مقتل والدها الضابـــط الصهيوني (ذكرى رأس الاسرائيليـــة الملقى على كتفه تفتح افاقا للعالم الضيق رغم كل الحدود ص ١٨٥) ماذا يعنـي ذلـك ؟

ورغم هذه الملاحظات ، تبقى الروايـة عملا جميلا وممتعا ، وتجربة تقترب مـن الاكتمال ، وشهادة حارة على قســـوة الاحتلال ، وتبشيرا بالقوى الواعـــدة التي تمتلك الوعي الوطني والطبقي .

يحيى خلف

الدكتور محمد ربيع : مؤتمر جنيف واحتمالات السلام

• مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ،
القاهرة ، ابريل (نيسان) ١٩٧٧ .

لا تزال المكتبة العربية تعاني بصفة عامة من نقص شديد او فقر مدقع في « الكتاب السياسي » الذي يعالج ويحلل مشكلة او مسألة او ازمة سياسية مثارة او ساخنة عندما يطرح كتاب ما حولها . وعادة لا يجد القارىء العربي ما يشبع حاجته الى المعلومات حول هذه المشكلة الا من مقالات الصحف اليومية ، بكل خصائصها المعروفة من تبسيط يصل غالبا الى حد مبالغ فيه ، وبعض الابواب في الصحف الاسبوعية « الجامعة » التي تكتب في السينما الى جانب السياسة ، الى جانب الازياء .

وغياب الكتاب السياسي – بالمعنى المقصود والمحدد هنا – له اسباب موضوعية في الحياة العربية السياسية والثقافية وهي تتلخص اساسا في سببين: الاول هو غياب الحرية السياسية ، وحرية الفكر ، فالكتاب السياسي لا يوجد ولا يذيع الا في اجواء تتيح تعدد الاراء ، وتعارضها ، واحتدام النقاش حولها ، وما يترتب على ذلك من اختلاف المواقف والسياسات تجاه كل قضية مثارة . والسبب الثاني هو قلة او ندرة المحللين السياسيين المتخصصين الذين يتابعون مثل هذه القضايا ، ويستطيعون ان يدلوا فيها برأي ، ويقدموا وجهة نظر تقبل النقاش ، والاخذ والرد .

لذلك ، ولاسباب اخرى ، كان واجبا ان يرحب المثقفون السياسيون العرب باتجاه مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بمؤسسة الاهرام القاهرية الى اصدار سلسلة شبه منتظمة زمنيا تغطي وتلاحق بالتحليل والعرض المشاكل السياسية المثارة . وقد صدر من هذه السلسلة في الفترة الاخيرة مجموعة الكتيبات او الكتب التالية : « استراتيجية اسرائيل بعد حرب اكتوبر » للواء مصطفى الجمل ، « الاتجاهات الجديدة في مجلس الشعب » اشراف السيد يسين، « الانتخابات الاميركية وازمة الشرق الاوسط » للدكتور سعد الدين ابراهيم ، « الصهيونية والعنصرية» لاحمد يوسف القرعي ، « قرارات الحرب في السياسة الاسرائيلية » للدكتور السيد عليوه ، و « التضامن العربي – الافريقي » لنبية الاصفهاني ، واخيرا وليس اخرا « مؤتمر جنيف واحتمالات السلام » للدكتور محمد ربيع .

كل كتيب من هذه المجموعة صدر في مناسبة خاصة ، ليسد حاجة ونقصا عند القارىء ، ويقدم له وجهة نظر في المسالة المطروحة . وهو نفس ما فعله الدكتور ربيع في كتيبه المذكور ، والهام . وهو يكتسب اهميته من عدة اسباب : منها قلة ما كتب – وقدم الى القارىء العادي – بشكل تحليلي مناسب ومبسط ، ومنها اهمية الموضوع المثار والذي يسمعه المواطن العربي صباح ومساء كل يوم ، حتى تحولت كلمة جنيف عنده الى لغز ، غير مفهوم وغير واضح ، مما زاد كمية « الاسئلة الحائرة » عنده حول هذا

« الجنيف » الذي صور له منذ مدة على انه قاب قوسين او ادنى ، وان قطوفه دانية ، وثمراته كثيرة ، وخيره وفير • وما علينا الا الانتظار • وزادت الحيرة ، واصبح المواطن العربي ، خاصة في مصر يتلهف الى دليل يهديه الى جنيف ، ويجيب

على الاسئلة التي تؤرقه كل يوم ، ويقول له : متى يهبط جنيف من عليائه ؟

وقد تميزت محاولة الدكتور محمد ربيع بقدر كبير من العمق ، والاستنارة ، والنظرة الشاملة • ولا يقلل من ذلك الاختلاف معه بدرجة او اخرى حول هذه النقطة او تلك ، وربما يكون هذا الاختلاف أهم واجدى من الاتفاق •

منذ البداية ، وفي المقدمة حرص المؤلف على ان يكون واضحا امام القارىء ، فهو ينطلق من « افتراض اساسي يقول بحتمية المفاوضات » وبناء عليه يحاول « المساهمة في بلورة موقف عربي من تلك المفاوضات، يضمن تقليل الخسائر العربية التي ستترتب على نجاحها او فشلها الى ادنى حد ممكن • ولذلك ستحاول هذه الدراسة استكشاف افاق الحل الممكن ، وتحديد الاطار العام للموقف العربي من المفاوضات • وتقديم بعض الاقتراحات التي نعتقد بقدرتها على التأثير على كل من الموقف الامريكي والموقف الاسرائيلي اثناء المفاوضات وبعدها • وبناء على تقييم هذه الدراسة لاحتمالات الحل السلمي المقترح وموازين القوى الدولية فى الشرق الاوسط سوف نحاول طرح بدائل عمل عربية للتعامل مع قضية النزاع العربي الاسرائيلي •

« ومهما كانت الاسباب التي تدعو بعض القوى العربية للتفاوض مع اسرائيل ، فان ضمان نجاح الجهود العربية ، حربا او سلما ، آنيا ام مستقبلا ، تفرض عليهم تجنب الصدامات المسلحة والحروب الاعلامية • اذ ان تعميق الخلافات العربية من المؤكد ان يؤدي الى اضاعة الجهود ، وتبديد الموارد وابعاد العرب عن تحقيق هدفي الوحدة والتحرير •

« وفي اعتقادنا يبقى الحلم الفلسطيني في اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على كامل التراب الفلسطيني هو الحل القادر على توفير امكانيات السلام الدائم في المنطقة • وهذا الحلم وان بدا فلسطينيا في المظهر ، فانه أمل عربي في الحقيقة والجوهر • وهو أمل لن يتحقق طالما فشل العرب في تحقيق دولة الوحدة او نواتها كقوة عربية قادرة على تحرير الاراضي العربية المحتلة وانهاء الوجود الصهيوني الذي يعمل على تكريس التجزئة وفرض التخلف على الامة العربية » •

وقد تمكن المؤلف من بلورة وتوضيح بعض النقاط التي تحددها ، ولم يوفق الى ذلك بالشكل الملائم في نقاط اخرى ، فضلا عن ان بعض القضايا التي طرحها تملك درجة من « الوضوح الذاتي » لا تحتمل أي تردد في القطع والحسم برأي محدد فيها ، في ضوء المعطيات القائمة وفي ضوء السوابق التاريخية والاحتمالات المستقبلية •

والعيب الاساسي هنا هو ان الدكتور ربيع لم يحسم في مسالة احتمالات السلام واحتمالات التسوية ولم نستطع ان نعرف ما اذا كان يرى ان مؤتمر جنيف سينجح ام سيفشل ، وما معيار النجاح اذا حدث وما معيار الفشل اذا وقع ؟ تلك قضية حاول ان يدور حولها ، ويلف ، دون ان يحددها بشكل مباشر ، وصريح • بينما هذه القضية هي جوهر الخلاف واساسه بين قوى « الرفض » وقوى « القبول » « العربي » بين « المعتدلين » و « المتشددين » وبشكل أعم بين من يرون انه لا جدوى من جنيف ، من انتظاره ، والرهان عليه ، وعقده ، وحضوره ، وبين من يرون انه الطريق الوحيد المتاح امام العرب لتحقيق

·الحل « الممكن » الوحيد في هذه المرحلة

وهذا العيب الاساسي في كتيب الدكتور ربيع يرجع ، في تقديري ، الى عيب اساسي في المنهج · انه ليس كتابا حول جنيف واحتمالات السلام ، ولكنه كتاب عن « الموقف الراهن واحتمالات السلام » ولما كانت « جنيف » ــ الوصول اليها والخروج منها ــ محورا اساسيا في الموقف الراهن ، فقد استهوت المؤلف الى وضعها في العنوان دون ان يجيب بشكل مباشر ، على كل الاسئلة المتعلقة بها ، بل انه يثير في ذهن القارىء العادي عندما ينتهي من قراءته اسئلة اكبر واخطر واكثر من تلك التي كان يحملها عند بدء القراءة ·

وتلك هي القيمة الحقيقية لكتيب الدكتور محمد ربيع · وهل الكتابة السياسية (وهي ليست الفكر السياسي او الفلسفة السياسية ولا النظرية السياسية) شيء اخر غير العرض والتحليل الذي يثير اسئلة جديدة لم تطرح من قبل في ذهن القارىء العادي ، مما يكسبه القدرة على فهم واقعه السياسي ، ويدفعه الى اتخاذ موقف محدد ازاء القضايا المطروحة والمثارة في هذا الواقع ·

ونصيب كتيب الدكتور ربيع من ذلك نصيب كبير ، خاصة حينما نقارنه بذلك السيل اليومي الذي تكتبه الصحف العربية اليومية عامة حول جنيف · وهو سيل لا وظيفة له الا ان يزيد المواطن جهلا بحقيقة مؤتمر جنيف هذا ، الذي كاد ان يتحول عند المواطن العربي العادي ــ وهو غالبا غير مسيس ــ الى طلسم ، او شيء خرافي ، او على الاقل « تابو » ·

ومع ذلك ، فان كثيرا من القضايا لم تبلور وتحدد بالشكل المطلوب ، ذلك ان القضايا المصيرية لا تعرف التردد ، ولا « امساك العصا من الوسط » ، ولا سبيل لمجابهتها الا بموقف فكري حاسم ، لا يعتمد الا الحقيقة رصيدا ، ولا يعتمد الا المصلحة العربية هدفا ·

يتصدى الكاتب للتيار السائد والقائل بأن جنيف ات ، وسينجح ، وسيحقق الحد الادنى من المطالب العربية ، المتمثل في استعادة كل الاراضي العربية المحتلة ، واقرار حقوق شعب فلسطين بما فيها حقه في دولة مستقلة · هنا ، يقول الدكتور : لا · يقولها صريحة احيانا ، ملتوية احيانا اخرى ، ولكنها واضحة ، مهما قالها بنعومة واستحياء · ويمكن ان نرتب النتائج التي يخلص اليها ، على النحو التالي :

● « ان الحل الممكن ضمن الظروف الحالية هو حل يقوم طرف ثالث بمحاولة فرضه على اطراف النزاع الرئيسيين ، او على الطرف الذي يتخذ موقفا يحول دون التوصل الى اتفاق ينهي النزاع · ولما كانت الولايات المتحدة تملك القدرة ــ ولو نظريا ــ على فرض الحل الذي تراه مناسبا على اسرائيل ، وان اسرائيل هي الطرف الذي يرفض تنفيذ قرارات الامم المتحدة التي حددت الاطار العام للحل المقترح ، فان اميركا تعتبر ــ وبشكل خاص ــ من وجهة النظر العربية ــ القوة الثالثة القادرة والمسؤولة عن فرض الحل المقترح على اسرائيل » (ص ٣٥) ·

● « ان ظروف الحل المقبول عربيا لا وجود لها في الوقت الحاضر ، وان العرب يملكون القدرة على خلقها ، فلا بد من توجه عربي كامل وجاد للعمل من اجل خلق الشروط الكافية والضرورية لتحقيق الحل المقبول عربيا ·· » (ص ٣٨) ·

● « ان حصول العرب على حل مرض ومقبول لقضية النزاع في الشرق الاوسط لا زال ضمن الممكن اذا توفرت الشروط الكافية والضرورية لتحقيقه· وفي اعتقادنا ، يملك العرب من الاسلحة

الاقتصادية والعسكرية والسياسية ما يكفي لخلق ظروف الحل المقترح لو احسن استخدامها توقيتا وتوجيها ·· ان ثبات عدم فاعلية او محدودية اثر الاساليب التي اتبعها العرب في السابق يفرض عليهم اليوم ان يعيدوا ترتيب الاولويات وان يحسنوا استخدام ما لديهم من اسلحة على ضوء التجربة السابقة · كما ان عليهم ان يعالجوا قضية النزاع في الشرق الاوسط على اساس اهميتها ومكانتها الدولية اخذين بعين الاعتبار مصالح القوى العظمى في المنطقة ، وما يمكن ان تجنيه تلك القوى من فوائد او تتجنبه من خسائر نتيجة لقيامها بدور معين في المفاوضات المقبلة » (ص ٣٥ ـ ٣٦) ·

● « اذا كانت وحدة الموقف العربي ووضوحه هما الضمانة الوحيدة لتدعيم ذلك الموقف على المستوى الشعبي ، فان قدرته على كسب تأييد الاتحاد السوفييتي ووقوفه الى جانبه وممارسة ضغوط كافية على كل من اسرائيل وامريكا هما الضمانة الوحيدة لوصوله الى تحقيق هدفه ·· على الموقف العربي أن يفاوض ويساوم ويناور من أجل حمل الاتحاد السوفييتي على اتخاذ الموقف المطلوب عربيا والالتزام به دوليا خدمة لمصالح الطرفين وتدعيما لمكانتهما الدولية » (ص ٤٠ ـ ٤١) ·

● « ان تجربة العرب مع الولايات المتحدة تثبت ـ مع الاسف ـ ان تأييد امريكا ودعمها الكامل لاسرائيل هو العنصر الثابت في سياسة امريكا في الشرق الاوسط ، وما عدا ذلك فهو عابر متغير · ومهما قيل عن رغبة امريكا وحاجتها الى تبني سياسة متوازنة في الشرق الاوسط ، فان تلك الرغبة تلاشت بعد تبلور ازمة الطاقة في السنوات الثلاث الماضية · اذ اصبحت الحكومة الاميركية غير ميالة لتفهم وجهة النظر العربية والتجاوب مع مطالبها ·· ولذلك من المتوقع ان تتجه السياسة الامريكية مستقبلا الى محاولة تعميق الخلافات العربية واثارة النزاعات الداخلية وحصر اهمية النفط العربي واضعاف نفوذ الدول العربية المصدرة له » (ص ٤١ ـ ٤٣) ·

● « أن التخوف من امكانية سوء استخدام الامة العربية لامكانياتها في معركة المفاوضات المقبلة مع اسرائيل ينبع من دراسة تراث العرب وتجاوبهم مع الاعداء على مدى تاريخهم الطويل · اذ بينما تميز تاريخ صراع العرب مع الاعداء بعدم القدرة على ربط العمل السياسي بالعمل العسكري، اتجه الى تبسيط الامور المعقدة والى الاستهانة بقدرات الاعداء وعدم اعطائها ما تستحق من اهمية ودراسة · ولذلك كان من السهل على الاعداء خداع العرب وتفريق صفوفهم بالاشاعات واثارة النزاعات الداخلية وقتل امالهم وتطلعاتهم بالوعود الكاذبة (ص ٥١) ·

● « ولما كنا نعتقد ونأمل ان يكون الموقف الامريكي مرفوضا من وجهة النظر العربية فان خلق ظروف تحقيق الحل المقترح ستتطلب جهودا عربية جبارة قد لا يكون بامكان العرب توفيرها في ظل الاوضاع الراهنة · اذ ستحتاج عملية خلق الظروف الى رسم خطة عمل استراتيجية محكمة ، تتصف ببعد النظر وشمولية النظرة وتعي الابعاد المختلفة لتطورات النزاع العربي الاسرائيلي المحتملة على العلاقات الدولية ، وتحقق تعاون العرب في مختلف المجالات وعلى كافة الاصعدة » (ص ٨٠) ·

● « أن فشل محاولات العرب للاقتراب من فلسطين تشير بوضوح الى انه سيكون من الصعب نجاح الجهود الحالية وذلك لان العرب لا زالوا يستخدمون نفس اساليب العمل السابقة التي اثبتت عدم قدرتها على تنفيذ المهام التي انيطت بها » (ص ٩٩) ·

● « مفاوضات جنيف .. تشير معظم الدلائل الى انهـــا ستصل الى طريـــق مسدود » (ص ٦٩) .

● « ان قدرة الجيوش العربية على هزيمة اسرائيل لم تعد من الامور المشكوك فيها » (ص ٨٣) .

● « ان الحل العسكري ممكن ، وانه في متناول يد العرب وان ردود الفعـــل عليه مهما كانت سلبية او عدائية مـــن المتوقع ان تخدم في المدى الطويل الاهداف العربية في تحرير الاراضي المحتلة واقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على أرض فلسطين » (ص ٨٩) .

● « ان العمل على الجبهة العسكرية ليس مطلبا لفرض الحل العسكري علـى اسرائيل فقط ، وانما مطلب لنجاح اي جهد عربي من اجل التوصل الى حـل سياسي او سلمي لشكلة النزاع في الشرق الاوسط ، اذ ان تصعيـــد الاستعدادات العسكرية على طول خطوط المواجهة مـع اسرائيل في كل من مصر والاردن وسوريا ولبنان . واتجاه دول المواجهة الى تنسيق سياستها العسكريـــة مع سياسات دول المساندة من المؤكد ان يفرض على كل من اسرائيل وامريكا ضرورة التروي قبـــل اتخاذ قرارها النهائي برفض الحل السلمي الذي افترضته المجموعة الدولية » (ص ١٥٠) .

هذا هو الاطار العـــام لافكار واراء الدكتور محمد ربيع في كتيبه عن « مؤتمر جنيف واحتمالات السلام » وارجو ان لا اكون قد اجتزأت هذه الافكار من سياقها العام ، وقدمت فيها واخرت لتبدو معبرة عن ارائي الشخصيـــة ، وليس عن رأي صاحبها .

ومن هذا الاطار العام يتضح ان المؤلف قد اتبع اسلوبا وصفيا وتحليليا بالنسبة لازمة الشرق الاوسط في وضعها الراهن ، واستنبط من هذا الوصف « ما يجب » عمله عربيا ، حتى يحقق العرب « الحـل العربي » . وهو يرى امكانيـــة ذلك . والسؤال الهام هنا يدور حول عنصـــر الزمن ، متى يستجمع العرب قواهم مـــن أجل تحقيق هذا « الحل العربي » ، واذا كان جنيف بابا مسدودا نحـــو السلام ، فمتى يعرف العرب ذلك ، ومتى يتخذون عدتهم العسكرية للخطوة التالية ؟ هـــذا هو السؤال الاكثر الحاحا اليوم فـــي الساحة العربية .

عبد العال الباقوري

المقاومة الفلسطينية

بعد فشل اللجنة الرباعية في انجاز مهمتها بايجاد صيغة متفق عليها لتطبيق نهائي لاتفاق القاهرة ، ساد جو من الجمود في العلاقات الفلسطينية ـ اللبنانية حاولت المقاومة ان تكسر جليده بنشاط مكثف قام به هاني الحسن الممثل الشخصي لياسر عرفات ، واتصل خلاله بالرئيس الياس سركيس وبالبطريرك بطرس خريش وبالسفير البابوي .. برونيارا ، وبعدد آخر من القوى السياسية اللبنانية . وقام في نفس الوقت باتصالات بقيت سرية مع اطراف من « الجبهة اللبنانية » . وكان الهدف من هذا النشاط الفلسطيني مع القوى السياسية اللبنانية ، ابراز استعداد المقاومة لايجاد حل لقضية الجنوب وطرح اقتراحات محددة لوقف الاقتتال فيه ، بالاضافة الى خلق اجواء ملائمة لاتصالات وحوارات فلسطينية مع كافة الاوساط اللبنانية والمسيحية منها بشكل خاص .

كانت المقاومة تدرك ان الجمود السياسي مع بقاء المشاكل معلقة يشكل خطرا عليها وعلى لبنان ، وكانت تريد من الاتصالات التي كلف بها هاني الحسن ان تتغلب على جو الجمود فحسب ، بانتظار ان يؤدي التحريك الاولي للحوار الى مناسبة يعود فيها الحوار الى سابق عهده ، فاتحا الطريق امام حلول فعلية لحل المشاكل المعلقة .

وحين شارفت مهمة هاني الحسن على الانتهاء ، طورت المقاومة اتصالاتها السياسية ، اذ بدأ صلاح خلف (ابو اياد عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ، باتصالات جديدة مع المسؤولين السوريين ومع الرئيس سركيس ، وبهدف الوصول الى اتفاق يحقق ما عجزت عنه اللجنة الرباعية ، وكان التركيز ان يتم انجاز الاتفاق الجديد من خلال سوريا ، وقبل بدء زيارة سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي للدول العربية واسرائيل .

وفي الوقت نفسه كان فؤاد بطرس وزير الخارجية اللبناني قد انجز زيارات عربية شملت دمشق والسعودية والكويت ثم دمشق مرة ثانية ، وكان واضحا من هذه الزيارات انها تريد استيعاب المواقف العربية المعنية مباشرة بالازمة اللبنانية استعدادا لحوار نهائي يجري مع دمشق ، ومع المقاومة الفلسطينية من خلال دمشق ، لبلورة اتفاق

جديد يحسم الخلافات القائمة في العلاقات اللبنانية الفلسطينية ·

وقد اجرى ابو اياد اثناء جولة بطرس العربية عدة جولات من المباحثات مع الرئيس حافظ الاسد ، تم فيها الوصول الى اقتراح محدد للحل ، اتفق على ان تتولى سوريا عرض الحل على المسؤولين اللبنانيين ، وفي ١٥ـ٧ كان بطرس في دمشق يناقش الحل المقترح مع المسؤولين السوريين ، وكان ابو اياد يزور الرئيس سركيس ليطلعه على نتائج مباحثاته في دمشق ·

اتفاق شتورا

انتهت زيارة بطرس الى دمشق في ١٦ـ٧ ، واعلن على اثرها « ان اجتماعاتي في دمشق لا بد ان تسفر عن تسهيل في تحريك الامور بحيث نتوصل الى الحلول المرجوة » · وفي اليوم التالي كان ابو اياد وابو صالح يجتمعان في دمشق مع الرئيس الاسد ، ويصدر بعد الاجتماع بيان يقول ان « اجراءات عملية سيعلن عنها في وقت لاحق » · وفي ١٨ـ٧ اعلنت كل وسائل الاعلام في البلدين ان محادثات دمشق اسفرت عن موافقة الجميع على المشروع السوري لحل الخلافات اللبنانية ـ الفلسطينية ، وقد احيطت نصوص الاتفاق بسرية بالغة ، ولم تنشر في الصحف سوى نتف بسيطة عن بعض نقاط الاتفاق ، ويمكن استنادا الى مصادر مطلعة تلخيص ابرز ما في الاتفاق بما يلي :

١ ـ تلتزم المقاومة الفلسطينية ان تنفذ اتفاق القاهرة في جنوب لبنان تنفيذا كاملا ، وهذا يعني بالنسبة لها : ان تتواجد في منطقة العرقوب بحرية كاملة من حيث العدد والسلاح ، ان تتواجد في القطاع الاوسط بنقاط ارتكاز (وليس بقواعد) مع ما يستتبع ذلك من تخفيض لعدد قواتها · ان تواجد في القطاع الغربي (صور) داخل المخيمات فقط ، ويطبق على هذه المخيمات في المستقبل ما يطبق عليها في بيروت لجهة تواجد الكفاح المسلح والميليشيا وانواع الاسلحة ·

وبالمقابل تقوم السلطة اللبنانية بارسال قوات الى منطقة الجنوب تحل محل القوات الفلسطينية في المواقع التي تنسحب منها ، وفق جدول زمني تتفق عليه لجنة تنسيق لبنانية ـ فلسطينية تجتمع بمشاركة سوريا ·

٢ ـ بالنسبة لحماية المخيمات (وهي النقطة التي فشلت بسببها اللجنة العربية الرباعية) جرى الاتفاق على ان يكون لقوات الردع دور في تأمين الحماية لها ، على أن يتواجد الكفاح المسلح داخل المخيمات مسؤولا عن الامن اليومي فيها· اما الامن خارج المخيمات فتتولاه لجان ارتباط ثلاثية ·

ولم ترد في هذا الجانب اي اشارة لوضوع الميليشيا ·

٣ ـ يتم تجميع الاسلحة الثقيلة ، ويجري اخراج ما هو زائد (حسب نصوص الاتفاق) وتسليمه الى قوات الردع ، ويجمع السلاح الثقيل المسموح به في اماكن محددة داخل المخيمات ، ويكون لقوات الردع حق مداهمة مخازن الاسلحة غير الشرعية ·

وقد قوبل هذا الاتفاق بارتياح وترحاب من قبل الكثير من الاوساط ،ففي ١٩ـ٧ اعلنت الحركة الوطنية اللبنانية ترحيبها به ، وذلك بعد أن استمعت الى تقرير من ابو اياد عن نتائج مباحثاته بدمشق · واعلن التجمع الاسلامي موقفا مماثلا ، بينما بدأت بعض اوساط « الجبهة اللبنانية » حملة مضادة ، فقال دوري شمعون انه يعارض اي اجتماع

مع الفلسطينيين وانه لا يرى جدية في العمل لتطبيق اتفاق القاهرة ٠

وكان لا بد بعد الوصول الى الاتفاق عبر سوريا ، من الاجتماع رسميا في لبنان لوضع الصيغة التنفيذية للاتفاق، وهذا ما حصل يوم ٢١ـ٧ عندما اجتمعت اللجنة الثلاثية في شتورا (لبنان ـ سوريا ـ المقاومة) ، وتوصلت الى ما سمي باتفاق شتورا ٠

بدأت اجتماعات شتورا في جو احتفالي ، وباهتمام رسمي لبناني واضح ، وكان لمشاركة قائد الجيش اللبناني ورئيس الاركان السوري وقائد قوات الردع العربية بالاضافة الى وفد فلسطيني برئاسة ابو اياد اثر في اعطاء اهمية خاصة للقاء وما قد يسفر عنه من اتفاقات عملية ، واضاف ابو اياد للقاء لمسة دراماتيكية حين اعلن قبل بدايته ان المقاومة الفلسطينية قررت ايقاف اطلاق النار في الجنوب من طرف واحد ٠

وتم بنتيجة الاجتماع اقرار خطة دمشق ، ووضع اسس للتنفيذ ، وتشكيل لجنة رئيسية تتولى ذلك ، وتشكيل لجنتين فرعيتين ، واحدة للجنوب وثانية للمخيمات ، تتوليان وضع النقاط التفصيلية ، على ان تكون هذه اللجان كلها لبنانية ـ فلسطينية ، وتعمل باشراف قوات الردع ٠

وفور اعلان ذلك ، عقدت منظمات المقاومة الفلسطينية اجتماعا موسعا ، واعلنت كلها مباركتها للاتفاق والاستعداد للمشاركة في عمل اللجان الفرعية ٠

في ٢٢ـ٧ اجتمعت اللجنتان الفرعيتان وكان الاتجاه الغالب في مناقشاتهما ان يبدأ تنفيذ الاتفاق في جنوب لبنان ، وان يلي ذلك التنفيذ في المخيمات داخل بيروت والمدن اللبنانية الاخرى ٠

لجنة الجنوب اتفقت على ان يتم التنفيذ هناك خلال مدة اقصاها ٢٨ يوما (١٤ يوما للعرقوب ، ٢١ يوما الاوسط، ٢٨ يوما صور) ، ويتم اثناء ذلك ، انسحاب قوات المقاومة الى المواقع المتفق عليها ، وسحب الاسلحة الفائضة ، على ان تتولى السلطة اللبنانية : فتح الطرق، وتأمين الحماية لها وحرية التنقل للمقاومة عليها ، ومنع اي طرف لبناني من التعامل مع اسرائيل عبر البوابات المفتوحة في الحدود ٠ والجدير بالذكر ان الجانب الفلسطيني في هذه اللجنة ابدى استعداده للبدء بالتنفيذ فورا ، ولكن الجانب اللبناني هو الذي طلب التريث بالتنفيذ ، لاسباب تتعلق بتحضير القوة اللبنانية التي ستتوجه الى الجنوب كما تتعلق بخلافات القوى السياسية اللبنانية ، وبالضغوط الاسرائيلية ضد الحل المقترح ٠

اما لجنة المخيمات ، فقد اقرت مبدأ تمركز قوات الردع على حدود المخيمات، ولكنها اختلفت حول حجم كل مخيم وحدوده ، واتفق على ان تقوم لجنة خاصة بدراسة الموضوع على الطبيعة وتم ذلك في الايام اللاحقة ٠

وبانتهاء اعمال هذه اللجان ، كان لا بد من عقد اجتماع آخر في شتورا للجنة الرئيسية يجري فيه اقرار صيغة الاتفاقات التنفيذية وتحديد موعد للبدء بها ٠

بدأ اجتماع شتورا الثاني في ٢٥ـ٧ ، ووافق على الخطط التنفيذية التي اقرتها اللجان ، ولكن الجانب اللبناني طلب تأجيل بدء التنفيذ في الجنوب ، والبدء بالتنفيذ في المخيمات ، ووضعت لذلك خطة تستمر ١٥ يوما وتبدأ في ٣٠ تموز٠ وكان لهذا التغيير فيتنفيذ البرنامج اسبابه اللبنانية ، وهي اسباب اوضحها الدكتور

سليم الحص رئيس الحكومة اللبنانيـــة بقوله ان « اجتماعات اللجنة الثلاثية هي لمعالجة جانب من جوانب مشكلة الجنوب نهذه المشكلة تعالج من ثـلاثة جوانب : اتفاق القاهرة ، واعادة بناء الجيش ، والوفاق السياسي اللبناني ، الحل النهائي هو وجود الجيش ، وبناء الجيش لا يبلغ مرحلة الحسم الا بالوفاق السياسي » ·

وقد جرت بعد اجتماع شتورا الثانـي عدة لقاءات لتثبيت الاتفاق ، كان مـن بينها لقاء بين ابو اياد والاسد بدمشق، ولقاء آخر بين ابو اياد وسركيس فـي بيروت ، ولقاء ثالث بين ابو اياد والمقدم سامي الخطيب جرى فيه تعيين ضبـــاط الارتباط الذين سيشرفون على التنفيـذ، وافرجت دمشق ، كجزء من الاتفاق كما يبدو ، عن ٩٢ معتقلا فلسطينيا (٢٩ـ٧) ووعدت بالافراج عن ٥٠ آخرين · ولـم يعكر صفو هذا الجو سوى اعلان دوري شمعون انه لا يؤيد اجراء اي وفـــاق لبناني قبل تنفيذ اتفاق القاهرة في كـل المناطق (بما فيها الجنوب) ، وطالـب باستدعاء قوات دولية للجنوب ، واعلن ان استقدام هذه القوات يلغي مبـــرر اتفاق القاهرة ·

وصباح ٣٠ـ٧ تم تنفيذ اتفاق شتورا بهدوء كامل ، وتمركزت ٨ حواجز جديدة لقوات الردع حول مخيمات صبـــرا وشاتيلا وبرج البراجنة ، واعلن ان ذلك هو المرحلة الاولى من الخطة التفصيلية لتنفيذ اتفاق القاهرة ، وتوج هـــذا التنفيذ الناجح بزيارة ياسر عرفـــات للرئيس الياس سركيس في القصـــر الجمهوري (١ـ٨) ، حيث خرج من اللقاء ليعلن موقفا سياسيا ذا دلالة خاصة ، وذلك حين قال « لنفتح صفحة جديدة من العلاقات مع الشعب اللبناني بكل فئاته وطوائفه » كاسرا بذلك جو القطيعة الذي ساد طوال سنتين القتال بين المقاومـة الفلسطينية واطراف « الجبهة اللبنانية »·

وفي السادس من آب اعلن تنفيذ جزء من القسم الثاني من خطة اتفاق شتورا ، حيث تم جمع السلاح الزائد عن المقرر في المخيمات ، وفي ١٠ـ٨ ، اعلن ان هذا الجزء من الخطة قد نفذ باكمله ، وتــم اغلاق ٧١ مكتبا للمقاومة فـي بيـروت والمناطق ، وتم تركيز معظم مخافر قوى الامن اللبناني على تخوم المخيمات ،وبقي تنفيذ المرحلة الثالثة في الجنـــــوب معلقـــا ·

زيارة فانس :

بدأت جولة سايروس فانس وزيـــــر الخارجية الاميركي في المنطقة يوم ٣١ـ٧، ولكنها بدأت بالنسبة للمقاومـــــــــة الفلسطينية قبل ذلك ، وبالتحديد بعـــد اجتماع الملك حسين والرئيس انـــــور السادات ، وحديث الرئيس السادات عن ضرورة اقامة علاقة واضحة بين المقاومة والاردن· فعلى اثر ذلك قام عرفات بزيارة لدمشق والقاهرة وجدة (١٤ـ٧) ، وخطب بعد ذلك (١٥ـ٧) قائلا ان « الضفـــة الغربية هي للمقاتلين الاحرار الذيـــن سيحررونهـــا وليست للمســاومين · · سمعنا قبل ايام بوضوح من يدعي انـــه يريد ضم الضفة الغربية اليه ·· فزيدوا من قبضة اياديكم على البندقية » ·

وزاد من خطورة هذا الوضع حديث الرئيس السادات (٢٤ـ٧) عن بدائـــل لمؤتمر جنيف « اذا تعقدت قضية تمثيل الفلسطينيين » ، وهي « بدائـل » اشـــار اليها مناحيم بيغن في نفس اليوم ايضا في ختام زيارته الاولى لواشنطن واعلانه هناك عن مشروع لتسوية ازمة الشرق الاوسط عرضه على الرئيس الاميركـــي كارتر · وتلا ذلـــــك خطـاب للرئيس السادات اعلن فيه امكانية اقامة علاقـات كاملة مع اسرائيل خلال ٥ سنوات ،بينما

كان الرئيس حافظ الاسد يعلن بعد ايام، رفضه لمشروع بيغن ، وتحذيره من الاستجابة لطلب التبادل التجاري والسياحي مع اسرائيل ٠

وما ان بدأت زيارة فانس حتى اعلنت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير (١ـ٨) في بيان رسمي رفضها لمهمة فانس والمشاريع التي يحملها ، ونبهت الى « خطورة المحاولات الرامية الى تجزئة القضية العربية ، وفرض ما يسمى بالسلام الاسرائيلي على المنطقة » ، ودعت الى « اجتماع عربي على مستوى عال لتحديد موقف موحد » ، واعلنت ان المنظمة « لن تقف مكتوفة الايدي امام اية محاولات للالتفاف على قضية استقلالنا الكامل فوق ترابنا الوطني » ٠

وكان من الواضح ان مشروع فانس للتسوية بلغ حداً من الانحياز لاسرائيل بحيث ان الرئيس السادات لم يستطع قبوله ، وكان ذلك يعني مباشرة عدم التمكن من عقد مؤتمر جنيف في الموعد المقترح له يوم ١٠ تشرين الاول ،ويعني بالتالي اعلان فشل سياسة التوجه الى التسوية من خلال الولايات المتحدة الاميركية ٠ وخوفا من مواجهة هذه النتيجة ، اتفق السادات وفانس ، وكمحاولة لاستمرار عملية التفاوض ،على تشكيل « فريق عمل » من وزراء الخارجية العرب ووزير خارجية اسرائيل ، يجتمع في نيويورك تحت اشراف فانس للتحضير لمؤتمر جنيف مع ما يعنيه ذلك من استبعاد لمنظمة التحرير وقد تم اعلان هذا الاتفاق بينما كان الرئيس الاسد مجتمعا في دمشق مع عرفات ٠ وعلى الفور صدر عنهما بيان مشترك يطالب بـ « تصعيد اليقظة العربية ضد المخططات المعادية » (٢ـ٨) وعلى الفور ايضا قام عرفات بجولة عربية زار فيها السعودية (٣ـ٨) والقاهرة (٤ـ٨) حيث اجتمع الى اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصري وطالب بتعديل ورقة العمل المصرية التي قدمت الى فانس واضافة بند يتعلق بعودة اللاجئين اليها ٠ وعاد عرفات من جولته الى بيروت يوم ٥ـ٨ ٠

في هذه الاثناء كان فانس قد زار بيروت ودمشق وعمان ، حيث اعلن الرئيس الاسد رفضه لاقتراح « فريق العمل » ، وحين رفضت الاقتراح عمان ايضا ، تراجع فرانس عن الاقتراح واعلن الاتفاق على اتصالات ثنائية تجري في نيويورك بينه وبين وزراء الخارجية ،وفي نطاق مشاورات الامم المتحدة ، وصدرت عند هذا الحد من المحادثات العربية مع فانس ثلاثة مواقف فلسطينية ٠

١ ـ حذر عرفات في اجتماع لقيادة المقاومة من مهمة فانس لانها « تستهدف تمزيق الامة العربية وتكريس الاحتلال الصهيوني وتصفية القضية الفلسطينية » ٠

٢ ـ اعلن ابو اياد في مقابلة مع « فلسطين الثورة » ، ان ما يحمله فانس هو مجرد طي للقضية الفلسطينية ، واننا « لا نقبل ان نكون محافظة ضمن المملكة الهاشمية » كما « لا نقبل اشتراطات الحدود المفتوحة » ٠

٣ ـ اعلن خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطني ان « موقف اميركا منحاز لاسرائيل وما زال يتجاهل دور منظمة التحرير الفلسطينية » ، كما اعلن ان المجلس المركزي الفلسطيني (٥٥ عضوا) سيجتمع يوم ١٦ آب بدمشق لبحث التطورات (اجل الموعد الى ٢٥ آب) ٠

في هذه الاثناء كان فانس قد وصل الى السعودية ، وكانت مهمته قد احيطت بجو من الفشل الواضح ، لولا ان برز موقف مفاجىء وملفت للنظر متيرا الكثير من الجدل واللغط ، وذلك حين اعلن كارتر « ان الفلسطينيين قد يقبلون تعديل القرار ٢٤٢ » ٠ وبعد

لحظات اعلن هودنج كارتر المرافق لسايروس فانس في السعودية ان سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي ابلغ فانس ان منظمة التحرير على استعداد لبحث تعديل القرار ٢٤٢ ، وانه يتوقع صدور بيان عنها بهذا الخصوص بعد اجتماع المجلس المركزي في دمشق (٨ـ٨) وصدرت تعقيبا على ذلك ثلاثة مواقف : بيان للجبهة الديمقراطية يحذر من خطة اميركية تطرح قضية التعديل لكسب تنازلات عربية جديدة ، ونفي من مكتب منظمة التحرير في عمان ، وتصريح ادلى به محمود اللبدي المكلف بالاتصال بالصحافيين الاجانب قال فيه « ان تعديل القرار ٢٤٢ لا يساوي القبول به٠٠ والمنظمة ستقبل تعديل القرار بحيث يعترف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني » ٠

وفي اليوم التالي (٩ـ٨) توالت التعليقات الفلسطينية ، فاعلن ابو اياد في الكويت بعد اجتماع مع وزير خارجيتها ان « المنظمة قد تفكر بالاعتراف بالقرار ٢٤٢ اذا تم تعديله ٠٠ وهذا يحتاج الى موافقة المجلس الوطني الفلسطيني » ٠ واعلنت وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » ان المقاومة تطالب بتعديل جذري للقرار ٢٤٢ على اساس قرارات الامم المتحدة ، اي بقرار جديد لقاء كتابته على نمط قرار الجمعية العامة رقم ٣٢٣٦ ٠ واعلن بسام ابو شريف باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ان « الكلام عن تعديل القرار ٢٤٢ ليس الا جزءا من محاولة انتزاع اعتراف فلسطيني بالكيان الصهيوني »٠

واخيرا ٠٠ اعلن فاروق القدومي (ابو اللطف) ان ٠٠ لا تغيير في موقف المنظمة من القرار ٢٤٢ ، وسنرحب بقرار جديد يؤكد حقوق الشعب الفلسطيني الوطنية ، ولا اعتراف باسرائيل ٠

وقد توالت كل هذه التعليقات فيما كان فانس يجري محادثاته مع المسؤولين الاسرائيليين ، ويعلن بعد انتهاء هذه المحادثات ، ان بلاده « لن تشجع اي محاولة لتغيير القرار ٢٤٢ » ، مثيرابذلك مفاجاة لا تقل عن مفاجئة اعلان رئيسه كارتر عن استعداد الفلسطينيين لقبول التعديل ٠

ومرة اخرى قامت المقاومة بنشاط سياسي عربي ، اذ اجتمع عرفات مع الاسد في دمشق (١١ـ٨) لاستعراض نتائج جولة فانس ، وتوجه قدومي الى القاهرة لترؤس اجتماعات لجنة التنسيق المصرية ـ الفلسطينية ، وقال بعد اجتماعها الاول ان المقاومة ترفض تعديل القرار ٢٤٢ وتطالب بقرار جديد (١٢ـ٨) ثم يعلن في ١٤ـ٨ ان قرارا جديدا سيقدم الى مجلس الامن ، وان منظمة التحرير لن تعترف باسرائيل ٠٠ واخيرا اعلنت اللجنة التنفيذية للمنظمة في بيان رسمي ان موقفها من القرار ٢٤٢ لا زال متمسكا برفضه انسجاما مع قرارات المجلس الوطني الفلسطيني ، بسبب تجاهلهللقضية الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ،داعية الى ضرورة التمسك باليقظة والحذر ٠

وقد ترافقت هذه التطورات السياسية الفلسطينية ، مع ثلاثة احداث هامة :

اولا : سلسلة من العمليات الفدائية المؤثرة والنشطة داخل اسرائيل والاراضي المحتلة ، رافقت زيارة فانس من بدايتها حتى انتهائها ٠

ثانيا : قرارات حكومة بيغن بانشاء مستوطنات جديدة ، والبدء بتطبيق التشريعات الاسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠

ثالثا : مرور ذكرى سقوط مخيم تل الزعتر (١٢ـ٨) ، واحياء المقاومة لهذه

الذكرى بتواضع حاول ان يراعي حساسيات الوضع اللبناني ، وكان ابرز ما فيه افتتاح ياسر عرفات لمؤسسة تل الزعتر ، وبيت اطفال الصمود الذي يضم ابناء شهداء المخيم ·

بلال الحسن

المناطق المحتلة

مع فوز حزب الليكود في الانتخابات الاسرائيلية ، وتربعه على سدة الحكم في اسرائيل ، دخلت المناطق العربية المحتلة مرحلة جديدة تحت الاحتلال وشهدت في بداية هذه المرحلة جملة موضوعات من بينها ، استمرار النضال الوطني في المناطق المحتلة وفي الضفة الغربية بالذات باشكال مختلفة · وارتفاع وتيرة التوتر بين رؤساء البلديات العرب وجهاز الحكم العسكري ، مع ارتفاع ايقاع حركة الاستيطان سواء على صعيد التنفيذ او المشاريع ، وكذلك الانهماك في اعمال التنقيب عن البترول في الاراضي المصرية المحتلة ، في غمرة الاسراف في الحديث عن احتمال التوصل الى تسوية للصراع العربي الاسرائيلي ·

الملامح الاساسية لسياسة العهد الجديد:
بعد مضي عشر سنوات على الاحتلال ، تظهر للمرة الاولى سياسة تجاه المناطق العربية المحتلة تتسم بوضوح اكثر ، ففي عهد حكم المعراخ كانت السياسة الاسرائيلية تجاه تلك المناطق اسيرة نظرات عدة بفضل تعدد وجهات النظر داخل حزب العمل . والتباين الكبير في المنطلقات بين حليفيه في الحكم المفدال ومبام · وقد تمحورت سياسة اسرائيل خلال تلك الفترة حول القواسم المشتركة بين تلك التيارات ، معتمدة على ثلاثة مبادىء ·

١ ـ عدم العودة الى حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧ ·

٢ ـ اعتبار القدس العربية مدينة محررة ·

٣ ـ الاستيطان في جميع المناطق المحتلة ·

واذا ما استثنينا المبدأ الثاني ، نجد اختلافا واسعا في وجهات النظر بالنسبة للمبدأين الآخرين ، فقد اخذت نظرة فريق تجاه مبدأ عدم العودة الى حدود الرابع من حزيران ، ترى انه من الضروري بقاء السيطرة الاسرائيلية « الى الابد » فوق مرتفعات الجولان واجزاء كبيرة من الضفة الغربية وقطاع غزة وشمال سيناء وشرم الشيخ ، بينما رأى الفريق الثاني فيهذا المبدأ امكانية حدوث انسحابات اسرائيلية « واسعة » · وبالنسبة للاعمال الاستيطانية ، اعتبرها الفريق الاول حقائق

قائمة لا تراجع عنها ، بينما راى فيها الفريق الثاني ورقة ضغط على الطرف العربي لاحداث تنازلات · وبسبب هذا التباين في الرؤيا لازم الغموض موقف حزب العمل تجاه مصير المناطق العربية المحتلة ·

وبمجيء الليكود اصبحت السياسة الاسرائيلية تجاه المناطق العربية تعتمد على مرتكزين : الاول ، اعتبار الاراضي الفلسطينية المحتلة في عام ١٩٦٧ ، الضفة الغربية وقطاع غزة ، اراضي محررة ، وجزءا لا يتجزأ من « ارض اسرائيل » ، والاراضي المصرية والسورية ، وسيناء وهضبة الجولان ، اراضي محتفظ بها يمكن التنازل عن اجزاء كبيرة منها في حال التوصل الى تسوية سلمية مع كلمن مصر وسوريا · اي ان الليكود اخذ عن حزب العمل مبدأي الاستيطان في الاراضي العربية المحتلة ، وعدم العودة الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ ، الا انه فصل بشكل واضح مسالة مصير المناطق الفلسطينية ، عن مصير المناطق السورية والمصرية ، وفي هذه النقطة بالذات يكمن الاختلاف الاساسي بين

الخطوط السياسية العامة التي سار على منوالها حكم التجمع العمالي ، وبين سياسة الليكود الاخذة بالتبلور · ولا شك ان عملية الفصل هذه تنطوي على خطورة كبيرة، بيد انها تبقى رهن عاملين. مدى شهوة التوسع الاسرائيلي في الاراضي غير الفلسطينية ، ومدى قوة ورهن حركة التحرر العربي ·

ركز الليكود منذ ظهور نتائج الانتخابات على عملية الفصل هذه ، حين توجه بعض قادة العهد الجديد الى مستوطنة « الون موريه » في الضفة الغربية التي اقامها جوش إيمونيم بالقرب من قرية كفر قدوم ، بمناسبة الاحتفال بـ « ادخال التوراة » الى

كنيس المستوطنة · وكشف مناحيم بيجن في كلمة له هناك عن سياسة حكومته تجاه الضفة الغربية بقوله : « ان جميع الخيارات مفتوحة امام سكان يهودا والسامرة ، واذا ما ارادوا فبامكانهم ان يصبحوا مواطنين في دولة اسرائيل » ·

واضاف بحماس « في شهر ايار من هذا العام تغير اسم المناطق من مناطق محتلة الى مناطق محررة ، هذه هي ارض اسرائيل المحررة ، ونحن ندعو المتطوعين الشباب في البلاد وفي الشتات للمجيء للاستيطان هنا » واكمل اريك شارون الذي اصبح فيما بعد وزيرا للزراعة ومسؤولا عن الاستيطان في المناطق المحتلة صورة السياسة الاسرائيلية بقوله : «انني اؤمن باننا سنتصرف تجاه العرب بتعقل ولكن مع الشدة ، بحيث يصبح بامكان اليهودي الذهاب الى نابلس دونما خوف، وبوسع الجنود التجول في القصبة دونما خوف او حاجة للقيام بعملية عسكرية مدروسة من اجل ذلك » واضاف : « من هنا ادعو للبدء باستيطان واسع وسريع في السامرة ، بحيث تصبح فيها مستوطنات زراعية ومدنية وصناعية ·اننا نستطيع تحويل هذه المنطقة الى اكبرمنطقة ماهولة بالسكان في اسرائيل ، واذا اردنا فقط فالنجاح حليفنا ، وستبقى اسرائيل الى الابد » · ولم يفت زبولون هامر (المفدال) القول بان العهد الجديد « سيبنى ويطور يهودا والسامرة كما اردنا وحلمنا » (انظر يديعوت احرونوت ٢٠-٥-٧٧) ·

ومن الجدير بالذكر ان مناحيم بيجن لا يرى في اصرار اسرائيل على عدم الانسحاب من الضفة الغربية ، مناقضا لقرار مجلس الامن ٢٤٢ ، واشار الى ذلك امام اللجنة التنفيذية الصهيونية بقوله ان « قرار مجلس الامن ٢٤٢ لا يتناقض مع عدم استعدادنا للانسحاب

من يهودا والسامرة » (عل همشمار ٢٤ـ٦ـ٧٧) ·

ولا يختلف وزير خارجيته موشيه ديان عنه كثيرا ، فهو يرى ضرورة الفصل بين مصير الضفة الغربية وقطاع غزة ، والمناطق السورية والمصرية المحتلة ،ولكن يتسم موقفه بغموض اكثر · فبالنسبة للضفة الغربية يرى ان « اتفاق السلام بين اسرائيل والدول العربية ، لن يتمبواسطة تقسيم اقليمي للضفة الغربية ، بل بواسطة خلق شكل من الحياة المشتركة في الضفة ، دون تطبيق السيادة الاسرائيلية من ناحية ، ودون ضم اي جزء منها او من قطاع غزة الى الاردن او اية دولة عربية من ناحية اخرى » (عل همشمار ٢٣ـ٦ـ٧٧) ·

واوضح في مناسبة اخرى ما اسماه بالمصالح الاسرائيلية الثابتة في الضفة الغربية ، وحددها بثلاث :

١ ـ حق اليهود في شراء الاراضي وبناء مستوطنات ومدن دون التعرض للعرب او طردهم ، بل العيش الى جانبهم·

٢ ـ اقامة شبكة من القواعد الامنية في الضفة ·

٣ ـ عدم السماح بخلق وضع يضطر فيه اليهودي عند زيارته للخليل للحصول على تأشيرة دخول (انظر هارتس ٨ـ٦ـ٧٧) ·

ويمكن القول ، كتلخيص لما سبق ، بان سياسة العهد الجديد تعتمد على توجه جدي نحو فصل مصير المناطق الفلسطينية المحتلة منذ ١٩٦٧ ، عن مصير المناطق المصرية والسورية · وهنالك اجماع على السيطرة على الارض من خلال الاستيطان والتهويد ، دون وجود خطة واضحة متفق عليها بالنسبة لمصير السكان الفلسطينيين ·

النشاط الاستيطاني : مع تربع الليكود

على مقاليد الحكم في اسرائيل حدث تطوران اساسيان في النشاط الاستيطاني ، الاول يتمثل في توقفجوش ايمونيم عن اقامة المستوطنات بدون اذن من الحكومة ، والاخر ، دخول الاستيطان في سياق جديد ناجم بالاساس عن النظرة الجديدة ، والتي تتسم بوضوح اكثر تجاه مصير المناطق المحتلة ·

فيما يتعلق بنشاط جوش ايمونيم الذي تبلور كحركة استيطانية غير رسمية في عام ١٩٧٤ ، واخذ يقيم مستوطنات في ارجاء مختلفة من المناطق العربية المحتلة، لاعتقاده بان الحكومة تتلكا في اقامة المستوطنات ، واصطدم مرات عديدة مع السلطات، فقد اصبحالآن خاضعا لقرارات الحكومة وسياستها ، اعتقادا من زعمائه بتطابق وجهة نظرهم مع وجهة نظر الليكود تجاه القضية الاساسية التي كرس جوش ايمونيم نفسه من اجلها · ولذا فقد اتخذ جوش ايمونيم في مؤتمر عقده بعد فوز الليكود في الانتخابات قرارا ينص على ضرورة « توسيع وتيرة الاستيطان ، ولكن هذه المرة ، بالتعاون بدون حدود مع الحكومة الجديدة برئاسة الليكود ،والبدء بالعمل في مجالات اخرى ، مثل ، على سبيل المثال ، اقامة نوى استيطانية في قرى التطوير والاستيطان بها ·· » وقال زعماء التنظيم « لن تقام بعد الآن مستوطنات بدون موافقة الحكومة وبدون تنسيق كامل معها · لن ننشط ضدالحكومة بل معها ، ولن تتكرر صورة جنود وهم يقومون باخلاء المستوطنين » (يديعوت احرونوت ١٠ـ٦ـ٧٧) ·

اعطى هذا التعاون اولى ثماره،وكرس الوحدة بين جوش ايمونيم والليكود ، عندما اقدمت الحكومة الاسرائيلية في اواخر شهر تموز الماضي ، وعقب انتهاء زيارة مناحيم بيجن لواشنطن ، بالاعلان عن اعترافها بـ « شرعية ثلاث مستوطنات ، كان جوش ايمونيم اقامها

ابان حكم التجمع العمالي الذي اعتبرها « غير شرعية » دون التعرض لها !·ومن الجدير بالذكر ان اريك شارون المسؤول عن النشاط الاستيطاني في المناطق المحتلة في حكومة الليكود ، كان في السابق قد احتج ضد كلمة « غير شرعية » ، واعاد الى الاذهان أن المشروع الصهيوني برمته هو شبيه بهذه المستوطنات « غير الشرعية » ·

والمستوطنات الثلاث هي ، معاليه ادوميم وعفرة بالقرب من رام الله والون موريه بالقرب من كفر قدوم · وبذلك وضع الليكود حدا للصراع بين ما يسمى بالاستيطان الشرعي وغير الشرعي ، باعترافه بتلك المستوطنات واحتضانه واحتوائه لجوش ايمونيم ·

كشفت المصادر الاسرائيلية عن وجود خطط ومشاريع استيطانية تستهدف تكريس الاحتلال والانتقال الى التهويد الفعلي للضفة الغربية · ومن ابرز تلك الخطط واخطرها ، وقد تطرقت اليها جميع الصحف الاسرائيلية (انظر معاريف ٣-٧-٧٧) خطة تحمل اسم « خطة الاستيطان الديني والقروي في أرض اسرائيل » اعدها طاقم من الليكود قبل نصف عام برئاسة عضو الكنيست يجال كوهين ، واعتبرها الليكود في حينه من صلب برنامجه الانتخابي · وقد عادت هذه الخطة وقدمت الى وزير الزراعة اريك شارون · وستقام بموجبها في الضفة الغربية خلال الاربع سنوات القادمة ، ست مدن جديدة ، ثلاث مدن في المنطقة الشمالية من الضفة ، في منطقة مسحه ، وبيت صيرا ، وفي المنطقة الواقعة شرقي الطيبة ما بين قلقيلية وطولكرم · ويبلغ عدد سكان كل منها ٣٠ الف نسمة · وستقام الى جانبها ثلاث مستوطنات مدنية عدد سكان كل منها ثلاثة الاف نسمة وفي المنطقة الجنوبية من الضفة ، ستقام ثلاث مدن ، في جبعون وتكوع ومعاليه ادوميم ، عدد سكان كل منها ١٥ الف نسمة ، وستقام الى جانبها ثلاث مستوطنات مدنية عدد سكان كل واحدة ثلاثة الاف نسمة ، وهي ! عفرة ، والون شبوت ومعاليه ادوميم · اما كريات اربع، الواقعة على مقربة من الخليل ، فستصبح وفق الخطة قادرة على استيعاب ستة الاف نسمة · وبذلك تطمح الخطة الى بناء خمسين الف وحدة سكنية ، تستوعب ١٥٠ الف مستوطن ، في الضفة الغربية ، خلال الاعوام الاربعة القادمة ·

ولم تغفل الخطة بناء طرق جديدة تربط الضفة الغربية باسرائيل ، فقد اوصت باقامة خمس طرق رئيسية سريعة تخترق ارجاء الضفة وتربطها بالمدن الرئيسية في اسرائيل ·

ليست هذه الخطة وحيدة ، فهنالك خطط اخرى ، يتركز الجهد الاستيطاني فيها على الضفة الغربية ، من بينها خطة لجوش ايمونيم ، وقدمت الى رئيس الحكومة مناحيم بيجن تعتمد على « اقامة ١٦ نقطة استيطانية في يهودا والسامرة، بما في ذلك النقاط الاستيطانية الاربع التي تحتاج الى دعم آخر : معاليه ادوميم ، عفرة ، الون موريه ، مسحه » (هآرتس ٣-٧-٧٧) ·

وهنالك خطة اخرى تعتمد على اقامة ٢٩ مستوطنة خلال العام القادم « وستقام بموجب الخطة التي تبلورت في قسم الاستيطان عشر مستوطنات دائمة ،وعشر مستوطنات اخرى للقوة الطلائعية للنواة المستوطنية ، اما بالنسبة للمستوطنات التسع الباقية فسيجري العمل لتمهيد الاراضي استعدادا لاقامة المزارع ومنازل المستوطنين » اما نصيب المناطق المحتلة من هذه المستوطنات فهو ١٦ مستوطنة ،في* مشارف رفح وهضبة الجولان وغورالاردن والمنطقة الواقعة بين ايلات وشرم الشيخ (انظر عل همشمار ٢٦-٦-٧) ·

الى جانب ذلك ، هنالك « توصيــة » استيطانية من يسرائيل جليلي الرئيس السابق للجنة الوزاريـــة لشـــؤون الاستيطان ، وجهها الى المسؤولين عـــن الاستيطان فيحكومة الليكود وكأنهم بحاجة الى توصية يدعوهم كما ذكرت عــــل همشمار (٢٠-٦-٧٧) الى اقامـــــة مستوطنة مدنية في معاليه ادوميـــم تضم خمسة الاف وحدة سكنية ، ولم يفتـه بعد تقديم التوصية التطرق الى النشـــاط الاستيطاني خلال فترة الثلاث سنوات من حكم رابين ، فقال « خلال هذه الفتـــرة اقيمت ٥٢ مستوطنة ، من بينها ٣٢ خارج الخط الاخضر : ٩ في هضبة الجولان ، ٩ في غور الاردن ، ٣ في غوش عتسيون، ٩ في منطقة رفح و ٣ مستوطناتمدينية في اماكن اخرى » ٠

ومن الملاحظ في هذه الخطط ، تعددها وتركيزها على اقامة مدن ، وتطرق اريك شارون حول اهمية اقامة المدن بقوله كمـا ورد في معاريف (١٩-٦-٧٧) ان «الذي سيحدد بمقدار لا بأس به مصيرنا يتمثـل في مدى معرفتنا في برمجة وتنفيذ خطـــة

استيطانية واسعة النطاق ، لا تضــــم مستوطنات فقط ، بل مدن ايضا ٠ فالمدينة التي تضم خمسين الف مواطن ، لا يمكـ زحزحتها » ٠

وكتمهيد لتثبيت التوجه الجديد فـــي السياسة الاسرائيلية الهادف الى فصـل مصير المناطق الفلسطينية عن مصيـــر المناطق العربية الاخرى المحتلة كتب ديـان مقالا حول الاستيطان ، ركز فيه علـــى استيطان الضفة الغربية ، جاء فيـــه (يديعوت احرونوت ١٠-٦-٧٧) « ٠٠٠ انني اعتبر يهودا والسامرة وطننا القديم، واود ، بقدر ما يتعلق الامر بنا، ان لا نعتبر غرباء هناك ٠ يجب على اليهـــود امتلاك قطع من الاراضي في هذه البلاد . واقامة منازل ومستوطنات فيها (بتخطيـط وتوجيه من جانب الحكومة) انني لا اسعى لارث سكان البلاد بيد انني ارغب فـــي العثور ، بكل ما املك من قوى ، على حل للصراع القائم بيننا وبين الفلسطينيين ، يمكننا من العيش معهم وبالقرب منهم ،ولا نحكمْ على انفسنا ، بايدينا ، بالاغتراب عن وطننا » ٠

ومن ناحية اخرى ، ووسط الاعلان عن اضفاء صفة الشرعية على ثلاث مستوطنات في الضفة الغربية ، تم الاحتفال فـــي السابع والعشرين من تموز بوضع حجـر الاساس لمستوطنة جديدة تحمل اسم «شلمي يوسف » في مشارف رفح واشـــارت معاريف (٢٨-٧-٧٧) الى عدم حضـور رسميين اسرائيليين الاحتفال ، واضافت ان وزير الزراعة اريك شارون ، الـــذي كان قد اعلن انه سيحضر الاحتفال ،اكتفى بارسال تهنئة الى المستوطنين ٠ وحضـر حفل وضع حجر الاساس رئيس قســم الاستيطان في الوكالة اليهودية رعنـــان فايس الذي دعيت المستوطنة على اسم ابيه ، وقال في هذه المناسبة ان « شلمـى يوسف » تعتبر المستوطنة الاولى في نطاق « المشروع الجنوبي » الذي يهدف الـــى اقامة ١٢٠ مستوطنة زراعية في النقـــب حتى نهاية هذا القرن ٠

ويبدو ان المسؤولين الاسرائيليـــين ارادوا بتغيبهم عن الاحتفال ، تخفيف وقع ذلك على المسؤولين الاميركيين ، الذيـــن استقبلوا الاعلان عن اضفاء الصفـــة الشرعية على المستوطنات بعدم الرضى ، خاصة وان الاعلان جاء عشية زيارة وزير الخارجية الاميركية للمنطقة ٠

حظر الصلاة في مسجد ، وعـــودة الاشباح الى ديــر ابو مشعـــــل : ـ من يتتبع النشاط الاستيطاني في المناطق العربية المحتلة ، تستوقفـه حادثتان ، الاولى حظر الصلاة في مسجد في القدس، والاخرى اطلاق النار من قبل عناصـــر

مجهولة ! في قرية دير ابو مشعل بهدف استيطانها · وهاتان الحادثتان تنمان قبل كل شيء عن مدى الهوس الاستيطاني السائد في اسرائيل ، ففي القدس صدر حكم يحظر الصلاة في مسجد تم بناؤه بدون رخصة في حي رأس العمود في القدس العربية ، يحمل اسم مسجد بلال· وكان من المقرر الاحتفال بتدشينه يوم الاسراء والمعراج · ونقلت هآرتس (١-٧-٧٧) عن اوساط بلدية القدس ان المبنى الذي اشيد بسرعة من حجارة مطعمة بالرخام ليس قانونيا ، واضافتان رجال الشرطة قاموا بزيارة المبنى «ومنعوا المصلين العرب من اداء الصلاة داخله »·

اما حادثة قرية دير ابو مشعل ، فتتلخص في عودة المجموعة الاسرائيلية التي تصفها وسائل الاعلام الاسرائيلية بالمجهولة (تحدثنا عنها في العدد السابق من شؤون فلسطينية) الى زيارة القرية تحت جنح الظلام ، بعد غياب استمر اكثر من شهر ، واخذت تقوم بتحطيم زجاج النوافذ ، وتهدد السكان من خلال مكبرات الصوت ، وتطالبهم بالتخلي عن اراضيهم وترك قريتهم · وقد استخدم افراد المجموعة هذه المرة الاسلحة النارية وسط القرية ، الامر الذي دفع السكان للتوجه ثانية الى الحاكم العسكري وطرح قضيتهم امامه ! وافادت علهمشمار (٢٢-٦-٧٧) ان التحقيق الذي اجراه الحاكم العسكري اظهر انه « حدث بالفعل اطلاق النار في القرية ، الا ان قوات الامن لم تنجح بعد في اعتقال المشتبه بهم » !

ردود الفعل في الضفة الغربية على نجاح الليكود : تناقلت وسائل الاعلام الاسرائيلية ردود الفعل في الضفةالغربية من خلال تعقيب رؤساء البلديات وبعض « الوجهاء » على نجاح الليكود في الانتخابات الاسرائيلية ، وانعكاسه على الصراع العربي الاسرائيلي ·

من ابرز ردود الفعل التي ركزت على التمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية واهدافها هي تلك التي صدرت عن مدينتي نابلس ورام الله اللتين تعتبران مركزا للانتفاضة الوطنية ضد الاحتلال · فقد علق رئيس بلدية نابلس بسام الشكعةعلى انتصار الليكود بقوله : « نحن لا نملك الا التمسك بحقوقنا الشرعية العادلة وبوحدة شعبنا ضمن اطار م·ت·ف، مؤمنين بان الرأي العام العالمي يقف معنا في قضيتنا العادلة » · وبنفس الروح قال رئيس بلدية رام الله كريم خلف « نحن اصحاب حق في هذه المنطقة ، ودعاة سلام واسترجاع حقوقنا الضائعة بقيادة م·ت·ف·ونتيجة هذه الانتخابات تعتبر دليلا قاطعا على ان اسرائيل ليس لديها اية نية في اقامة السلام العادل في المنطقة » (الاتحاد ٢٠-٥-٧٧) ·

وحول احتمالات التغيير الناجمة عن نجاح الليكود ، انقسمت الاراء ،فهنالك فريق يرى انه لن يتأتى عن ذلك تغييرات جوهرية ، مثل رئيس بلدية طولكرم حلمي حنون لاعتقاده بان الليكود ليس اخطر من التجمع العمالي ، وآخر يعتقد بحدوث مثل هذه التغيرات ، وينقسم الى قسمين ، الاول يتصور حدوث ضغوطات اميركية ودولية على الحكم الجديد في اسرائيل ، مثل فهد قواسمه رئيس بلدية الخليل الذي يعتقد « بحدوث وضع معقد اكثر ، فهنالك دول كثيرة في غرب اوروبا قد تريد ظهرها لاسرائيل ، اذا ما تبنت سياسة مناحيم بيجن ، وفي الوقت نفسه ستتعاظم مقاومة سياسة الليكود داخل اسرائيل نفسها · واعتقد شخصيا ان رئيس الولايات المتحدة لن يدع مناحيم بيجن يتصرف كما يخطر في باله في الضفة الغربية · ويبدو لي انه شخصيا ، ليس موافقا على الاحتلال الاسرائيلي ، ويريد وضع حد له سواء بضغط عربي او بدونه»

معربا عن اعتقاده بان اسرائيل لا تستطيع الصمود امام الضغوطات الاميركية ٠

والثاني يعتقد بحدوث تغييرات ، ولا يستبعد ان تكون هذه التغييرات هي اندلاع الحرب ، مثل بسام الشكعه رئيس بلدية نابلس الذي « لا يستبعد ان يؤدي نجاح الليكود الى حرب في الشرق الاوسط » ومثل كريم خلف رئيس بلدية رام الله الذي يرى « فيما يخص المستقبل اتوقع اياما عصيبة ٠ انني اشتم رائحة غبار الحريق٠ لن يكون هنالك مفر من الحرب ، ويحتمل ان لا تؤدي الى نتائج مأمولة ، الا ان استئناف المواجهة بين اسرائيل والدول العربية سيشحذ القضية الفلسطينية ، ويزيد من التأييد العالمي للفلسطينيين ، لا ارى طريقا آخر » ٠

اما الشيخ محمد الجعبري رئيس بلدية الخليل سابقا ، والذي يكيف نفسه مع اي عهد ، فله وجهة نظر تختلف عن وجهات نظر الجميع ، اذ يقول « لا يجب التسرع باستنتاجات حول بيجن وسياسته ،وينبغي الانتظار حتى يؤسس حكمه ، ويبلور خطا

واضحا في شؤون الخارجية والامن » ! (انظر معاريف ١٩ـ٥ـ٧٧) ٠

توتر العلاقات بين الحكم العسكري والبلديات : اتسمت العلاقات بين معظم رؤساء البلديات ، وخاصة اولئك الذين يجاهرون بتأييد م٠ت٠ف٠ وبين جهاز الحكم العسكري بالتوتر ٠ ومرد ذلك ان الحكم العسكري بات يخشى تنامي التأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية وسط رئاسة البلديات في الضفة الغربية ، على حساب التأييد لاسرائيل ولاطراف اخرى يرتاح لها ٠ ومن مؤشرات توتر العلاقات :

١ ـ الامر الذي اصدره الحاكم العسكري لمدينة نابلس في الجزء الأخير من شهر نيسان باحضار رئيس البلدية بسام الشكعة الى مقره بالقوة بواسطة سيارة تابعة للجيش الاسرائيلي ، متهما اياه بمساعدة « المحرضين » على الاضرابات والتظاهرات اثناء زيارة الحاخام كهانا لنابلس للاحتفال بتدشين المستوطنة التي يعتزم اقامتها في ضواحي المدينة ٠

٢ ـ تصدي الحكم العسكري لطلب بعض رؤساء البلديات بفصل مدنهم عن شركة الكهرباء الاسرائيلية ، والاعتماد على مولدات كهربائية خاصة بدلا عنها ٠ وقد اشارت الصحف الاسرائيلية ان جهاز الحكم العسكري لن يمكن رئيسي بلديتي الخليل ونابلس من فصل مدينتيهما عن شركة الكهرباء الاسرائيلية ٠

٣ـ منع رؤساء البلديات من دخول بلدة قباطيا ، فقد توجه رؤساء بلديات نابلس والخليل وطولكرم والبيرة واريحا وحلحول ودورا وجنين الى قرية قباطيا بغرض المصالحة بين عائلتين متخاصمتين هناك ٠ وصادف قدوم هؤلاء الى البلدة ، يوم ذكرى الاربعين لاستشهاد شاب وامرأة من البلدة على يد قوات الاحتلال ٠ ورأى جهاز الحكم العسكري في ذلك ذريعة لمنع رؤساء المدن من دخول البلدة ، معتبرا ان اللقاء في قباطيا وفق ما ذكرت هآرتس (١٦ـ٦ـ٧٧) « حمل طابعا سياسيا وحسب القانون يجب الحصول على تصديق خاص من جانب السلطات لمؤتمرات كهذه » ٠

٤ ـ افتعال ضجة حول التبرعات العربية حيث اخذ الحكم العسكري يشيع عن احتمال وقوف م٠ت٠ف٠ وراء التبرعات التي يحصل عليها بعض رؤساء البلديات من امارات الخليج العربي وبعض الدول العربية الاخرى ، بهدف ارغام من يحصلون على التبرعات توظيفها في مشاريع يريدها الطرف الذي يدفع او الذي يقف وراءه ٠

كما وبرج في الوقت نفسه على السماح لبعض الرؤساء بالتوجه الى الدول العربية، وفرض قيود على رؤساء آخرين ، في محاولة منه لارغامهم على التقرب منه ·

٥ – زيارة عيزر فايتسمان للخليل ونابلس · عند اواخر شهر حزيران قام عيزر فايتسمان وزير الدفاع بزيارة للخليل ونابلس · وافصحت هذه الزيارة عن التأزم القائم بين جهاز الحكم العسكري ورؤساء البلديات ، وانعكس ذلك في امرين : (١) عدم قيام الوزير بالاجتماع برئيس البلدية في مقره في البلدية ، بل فضل عقد الاجتماع في مقر الحاكم العسكري للمدينة خلافا للعادة التي سار عليها وزراء الدفاع السابقون (٢) عدم اقتصار الاجتماع على رئيس البلدية والاعضاء ، بل توجيه الدعوة الى «وجهاء» اخرين للجلوس جنبا الى جنب مع رئيس المدينة ، كما حدث في الخليل ونابلس · واعتبر الكاتب الاسرائيلي تسفي برئيل (دافار ٢٤–٧–٧٧) ذلك بمثابة « اتجاه جديد للحكم العسكري يستهدف تقليص صلاحيات رؤساء البلديات في الضفة » واوضح ان الانطباع السائد هو أن الحكم العسكري يعمل على تشجيع وتنمية زعامة جديدة منافسة لرؤساء البلديات ، تتشكل من عناصر من رؤساء الغرف التجارية وبعض الوجهاء والمسؤولين في جهاز التعليم ، وذلك « بفرض بناء شبكة جديدة من مراكز القوى تستهدف بشكل او بآخر قضم مكانة رؤساء المدن » ·

معاناة المعتقلين الفلسطينيين :

لا تزال اوضاع وظروف المعتقلين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية تسير من سيء الى اسوأ ، وتسبب اضرابات هنا وهناك ، ترافقها ردود فعل اسرائيلية ، مبتكرة ومشينة ، كتعرية المعتقلين من ملابسهم في الساحة العامة امام مقر الحاكم العسكري، بغرض اذلالهم واشباع شهوة جلاديهم الذين يعيدون الى الاذهان صورة السجانين النازيين الالمان وهم يستمرئون تعذيب معتقليهم ·

فقد حدثت مؤخرا سلسلة من الاضرابات في المعتقلات الاسرائيلية ، ففي معتقل رام الله ، وبسبب الاوضاع المزرية في السجن ، حيث الاكتظاظ في الغرف وسوء التغذية والمعاملة ، اعلن المعتقلون الاضراب عن العمل والطعام في اواخر شهر حزيران ، وردت ادارة السجن على ذلك باعمال مشينة ، حين استدعت جنود حرس الحدود الذين دخلوا السجن وهم « مدججين بالهراوات والخوذ الفولاذية ، وقاموا برش السجناء بالغاز الخانق ، ثم اخرجوهم الى ساحة السجن، حيث اعتدوا عليهم بالضرب المبرح مما ادى الى جرح عدد منهم ، ولم يكتفوا بهذا ،بل قاموا بتعرية السجناء من ملابسهم تماما ، واخرجوهم الى ساحة عمارة الحاكم العسكري ليهينوا كرامتهم باضحاك الجندات عليهم ، واعطائهم اوامر مهينة مثل ارفع رجلك وازحف واركض » كما جاء في الاتحاد (١–٧–٧٧)

وحدث اضراب آخر في سجن نفيه ترتسا في الرملة الخاص بالمعتقلات الفلسطينيات اللواتي قمن باضراب استمر ١٥ يوما ، احتجاجا على الاوضاع الصعبة في المعتقل ، كما واعلن اكثر من ١٥٠ معتقلا من سجن الخليل الاضراب ، وامتنعوا عن مقابلة اقاربهم ، احتجاجا على سوء التغذية والنقص في البطانيات كما ذكرت هآرتس (٤–٧–٧٧) · ومن الجدير بالذكر ان الحاكم العسكري لمدينة الخليل رفض طلبا تقدمت به بلدية الخليل ، ابدت فيه استعدادها لتزويد المعتقلين بالبطانيات وما يحتاجونه من مساعدات للتخفيف عنهم ·

ومن ناحية اخرى نشطت الهيئات

النسائية ، وقريبات المعتقلين بالقيـــام بتظاهرات ضد ظروف واوضاع المعتقلين. ففي مدينة نابلس ، اعتصم العشرات من نساء وامهات المعتقلين ، كما ذكـــرت الاتحاد (١٠ـ٦ـ٧٧) في مبنى بلديـــة المدينة احتجاجا على استمرار الاعتقالات الادارية بدون توجيه اي تهمة للمعتقلين او تقديمهم الى المحكمـــة ، وطالبت المعتصمات باطلاق سراح جميع المعتقليـن الاداريين او تقديمهم الى المحكمة ·

اما في رام الله فقد ادت الاعمـــال المشينة التي ارتكبتها سلطات الاحتـــلال ضد المعتقلين في السجن الى تظاهـــرة نسائية في المدينة طالبن فيها بـ « وقف المعاملة الوحشية ، وتخفيف الاكتظاظ واطلاق سراح المعتقلين الاداريين، وتحسين الطعام ، والاهتمام بصحة السجناء المرضى وادخال الكتب الى السجن » ·

وقد اتسعت دائرة النضال وشملـــت جميع سكان الضفة الغربية ، فقـــــد حددت العناصر الوطنية في الضفة الغربية يوم الثاني من تموز « يـــوم السجين » ودعت الاهالي من خلال مناشير وزعتهـا في جميع ارجاء الضفة للوقوف دقيقـــة صمت احتجاجا على اوضاع المعتقلين ، وتعاطفا مع مطالبهم · واعترفت هآرتس (٣ـ٧ـ٧٧) باستجابة سكان الضفة لهـذا النداء ·

عبد الحفيظ محارب

اســـرائيليات

الموقف من العرب

اعلنت حكومة ليكود الاسرائيلية عنـد تأسيسها ، في خطوطها الاساسية انها :

● « تضع رغبتها في السلام فـــي مقدمة همومها ، وتسعى بشكـــل فعال ، للوصول الى سلام دائم في المنطقة ·

● « تعلن عن استعدادها للاشتراك في مؤتمر جنيف عند دعوتها من قبـــل الولايات المتحدة والاتحـــاد السوفييتي ، علـــى اساس القــــرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ الصادرين عن الامم المتحدة ·

● « تدعو جارات اسرائيل ، كلهـا وكل واحدة منها على انفراد ، مباشرة ، او بواسطة دولـــة صديقة ، لاجــــراء مفاوضات من اجل توقيع معاهدة ســلام بينها ، دون شروط مسبقة من اي طرف كان ، ودون صيغة حل تعد من الخارج · وكل طرف من الاطراف له الحق في عرض اي اقتراح مرفقا لرؤيته ، وسيكون كـل موضوع قابلا للتفاوض ·

● « استعـــدادا لمؤتمـر جنيـــف ، ولمفاوضات مباشرة ، تعلن الحكومة عن استعداد اسرائيل لان تجري مفاوضـــات للوصول الى سلام حقيقي ، معقول وفعلي

يؤدي الى حياة طبيعية في المنطقة .

● « في غياب معاهدة سلام ، تلـزم الاتفاقات التي وقعتها الحكومة السابقة جميع الاطراف » .

ولو دققنا في هذه الخطوط لحكومـــة ليكود ، لوجدنا ان ثمة شبها كبيرا بيـن تقنية صياغتهـــا ، وبين التقنية التـــي استعملتها الحكومات المراخية السابقة ، بكل ما يتعلق بموقفها من العرب ، ومـن قضية السلام والحلول المطروحة للنزاع العربي الاسرائيلي ، وهي تقنية الغموض والمجاز في طرحها .

والاختلاف الوحيد الذي يميز هـــذه الاخيرة عن سابقاتها ، هو عدم الاختلاف في الرأيبين المشاركين الائتلافيين بالنسبة « للتنازلات » الاقليمية من أجل السلام ، سواء كان ذلك في سيناء والجولان ، او في الضفة الغربية وقطاع غزة وان كـــان « بالتالي » كما صرح شمعون بيـــرس « لا يوجد فرق بين المراخ والليكود » (معولام هزيه ٢٠ـ٧ـ٧٧) . ولهذا فان معظم رجال العمل ايضا سيؤيدون بيغـن وحكومتــه ، وبحماس شـــديد في تنفيذ سياسة ارض اسرائيل الكاملة ، والضم والاستيطان على الاقل ، حتى الان أدى ذلك الى حروب لا نهاية لها » اذ ان الفرق بين الليكود والمراخ ليس قضية تناقض ، بل هو قضية حجم » (معولام هزيه ٢٠ـ٧ـ٧٧) ، ولكنهما من « حيث المبدأ » كمــا صرح بيغن اثر فوزه في الانتخابـــات « فثمة اجماع قومي » (المصدر نفسه) .

فرجال ليكود لم يكونوا بالنسبـــــة للسياسة الاسرائيلية الخارجية وموقفهم من العرب بشكل عام ، سوى معراخيين اكثر تطرفا ، ورجال المراخ لم يكونوا سوى ليكوديين معتدلين . وكل الجـــدل السياسي الذي كان قائما ولا يزال بين المراخ والليكود ، حين كانت هذه الاخيرة في المعارضة وهي الان في الحكم ، ابتداء من مشروع روجرز، مرورا بمهمة كيسنجر والحلول الجزئيـــة واتفاقي سيناء الاول والثاني ، وانتهاء « بمشروع الســلام » الذي حمله بيغن الى كارتر ، انما يتعلق بالمحافظة على السلام مع امريكا ، وليس باحلال السلام بين اسرائيل والعــــالم العربي .

فحكومات المراخ هي التي اصرت على احتلال سيناء والجولان وقطاع غـــزة والضفة الغربية ، وهي التي رفضـــت « تخطيط الخرائط » ، والتقدم بخطة سلام تشكل قاعدة للمفاوضات من أجل السلام ، وهي التي كانت تصر دائما على « عـدم الانسحاب الى الحدود السابقـــة » . و « تفضيل شرم الشيخ بدون سلام على سلام بدون شرم الشيخ » على حد تعبير ديان ، وعلى ان هضبة الجولان جزء لا يتجزأ من اسرائيل » (معاريف ٢٧ـ٩ـ٧٤) على حد تعبير اسحق رابين ، وان اسرائيل « لن تتخلى عن هضبة الجولان حتى في اطار سلام بينها وبين ســوريا » (المصدر نفسه) . هذا ناهيك عن موقفها المعروف من الضفة الغربية وقطاع غزة .

فمناحيم بيغن وموشيه ديان ، عضوا حكومة « التجمع الوطني » بعد عـــام ١٩٦٧ ، لا يختلفان في مواقفهما اطلاقا . عن مناحيم بيغن وموشيه ديان رئيـــس الحكومـــة الليكوديـــة الجديـــدة ووزيـــر خارجيتها ، الا بقدر اختــلاف الظروف ، وتفردهما في تسيير زمام الامور والمبادرة . والادعاء الوحيد ضدهما من المعـــراخ ورجاله في المعارضة كما لسنا حتى الان، يتعلق بخطر المواجهة الاسرائيليـــة ـ الامريكية ، وتقويض السلام القائم بينهما نتيجة للتكتيك الذي ستتبعه الحكومـــة الجديدة .

ولهذا فان « معظم رجال المعـــراخ سيؤيدون بيغن وحكومته ، وبحماس شديد

في تنفيذ سياسة ارض اسرائيل الكاملة ، والضم ، والاستيطان ، على الاقل ، حتى وان ادى الامر الى حروب لا نهاية لها » (هعولام هزيه ٢٠ـ٧ـ٧٧) ·

الموقف من العرب :

المفاوضات المباشرة ـ ومعاهدة السلام ·

في مقال له في صحيفة معاريف في ١٦ـ٨ـ٧٤ ، كتب مناحيم بيغن في زاويته الاسبوعية ، معلقا على التسوية الجزئية ، متهما حكومة اسحق رابين بأجراء التنازلات امام المطالب المصرية، في المفاوضات الجارية بواسطة كيسنجر ومطالبا الحكومة بوقف هذه المفاوضات والعودة الى « البديل الوحيد » ، وهو المطالبة الايجابية المقبولة بمفاوضات مباشرة لابرام معاهدة سلام » · وتساءل لماذا لا تعود حكومة اسرائيل الى « هذا البديل ، بدل انسحاب دون سلام» وفقا للمبادىء الاساسية التي عملت بموجبها حكومة التجمع الوطني حتى آب عام ١٩٧٠ ، والتي ترتكز على :

« ١ ـ المطالبة باحلال سلام حقيقي بين اسرائيل والدول العربية ·

٢ ـ التعبير عن سلام كهذا بواسطة محادثات مباشرة ·

٣ ـ الحدود بين اسرائيل وجيرانها العرب تثبت في معاهدة سلام ·

٤ ـ في غياب معاهدة سلام يستمر الوضع كما كان عليه عند وقف اطلاق النار » ·

وذلك لان « المفاوضات الثلاثين التي جرت بين القدس وواشنطن والقاهرة ،لم تكن مفاوضات حرة منذ بدايتها ومن اساسها ، بل جرت تحت ضغط دائم » (المصدر نفسه) ·

وكان بيغن ، قد اكد على اهمية المحادثات المباشرة مع العرب ، وابرام معاهدة سلام دون شروط مسبقة ، في مؤتمر حركة حيروت عام ١٩٧٤ ، مؤكدا على التمسك بمبدأين اساسيين وهما ان « تنتهي حالة الحرب بمعاهدة سلام فقط » ، وانه « بدون سلام لا يمكن ان يكون هناك انسحاب ابدا » او التخلي عن هذين المبدأين و « الدخول في ترتيبات مؤقتة تعني انسحابات اسرائيلية بلا سلام » واضاف ان سياسة حزبه البديلة هي « معاهدة سلام ومفاوضات مباشرة لتوقيع معاهدة سلام كما هي القاعدة بين الشعوب » (معاريف يديعوت احرونوت ١٣ـ١ـ٧٤) ·

وفي مؤتمر حيروت الذي عقدته الحركة في مستوطنة قريات اربع في الضفة الغربية في ١٢ـ١ـ١٩٧٥ قال بيغن « ماذا تعني تلك التسويات المؤقتة ؟ ان الانسحابات بلا سلام هي خراب اي فرصة للسلام » واضاف مقترحا على الحكومة الاسرائيلية ان « تتوجه الى الدول العربية باقتراح للموافقة على هدنة تامة لمدة ثلاثسنوات، تبذل الجهود خلالها لاحلال السلام بين الشعبين بواسطة التوقيع على معاهدة سلام وتحديد الحدود » (معاريف ١٣ـ١ـ٧٥) ، و « قد تبنى المؤتمر هذه المقترحات وعرضها على الحكومة » (المصدر نفسه) ·

وفسر بيغن اقتراحه هذا مرة اخرى، في مقالة له في صحيفة معاريف ٣١ـ٨ـ٧٥ بقوله : « لقد اقترحت في مؤتمر حيروت ، ان المفاوضات على معاهدة سلام مع الدول العربية المجاورة من خلال اعتراف متبادل باستقلال وسيادة جميع الدول التي تكون طرفا في هذه المفاوضات ، اي ان تقترح الحكومة على العرب هدنة كاملة لفترة اولية ،

واعتراف متبادل بالاستقلال والسيادة السياسية ، ومفاوضات مباشرة دون شروط مسبقة لانهاء حالة الحرب بمعاهدة سلام نهائية » (معاريف ٣١ـ١ـ٧٥) .

٠٠ وان تعقد المفاوضات في القدس وعواصم الدول العربية المجاورة او في مكان آخر محايد ، مثل جنيف او لوزان او سان ريمو » (معاريف ٢١ـ٨ـ٧٥).

وفي مؤتمر حيروت لعام ١٩٧٧ ، قال بيغن « ان حكومة ليكود ستأخذالمبادرات نحو السلام ، وستقوم بذلك ليس من خلال الجمعية العمومية للامم المتحدة ، حيث تعادينا الاكثرية ، ولكننا سنتوجه الى دولة صديقة لديها علاقاتدبلوماسية طبيعية مع اسرائيل وجيرانها ، وسنقدم اقتراحاتنا لهم (للعرب) لبدءمفاوضات من اجل توقيع معاهدة سلام ، ويجب ان تكون هذه المفاوضات مباشرة ، بلا شروط مسبقة ، **وحرة من اي معادلات اجنبية للتسوية** » (معاريف ١٣ـ١ـ٧٧) .

وفسر بيغن معنى ـ بلا شروط مسبقة ، بأنه « كما اننا لا نطلب من العرب ان يقبلوا اقتراحاتنا قبل بدء المفاوضات ، فانهم لن يطلبوا منا ان نقبل اقتراحاتهم قبل حضور مؤتمر سلام ، وهذا المؤتمر سيلتئم في عواصم دولنا بالتتابع او في مكان محايد مثل جنيف » . (المصدر نفسه)

وهذه المقترحات ، هي نفسها التي تضمنتها الخطوط الاساسية لحكومة ليكود الراهنة ، والتي تضمنها خطاب بيغن امام الكنيست بعد توليه رئاسة الحكومة في ٢٠ـ٦ـ٧٧ حيث ناشد الحكام العرب ان يجتمعوا به « سواء كان ذلك في عواصمنا ، او على اي ارض محايدة ٠٠ كي نبحث في احلال سلام حقيقي بينهم وبين اسرائيل » . (هآرتس معاريف ٢١ـ٦ـ٧٧) .

وان كان بيغن يعمد الى استبعاد الولايات المتحدة عن هذه المفاوضات وممارسة ضغطها على اسرائيل بالتلميح، فان وزير خارجيته موشيه ديان ، الذي تطرق الى ذلك في الكثير من تصريحاته، يقول ذلك بوضوح اكثر . ففي رده على سؤال موجه اليه في مقابلة له مع طلاب مدرسة الضباط للفرق المقاتلة عام ١٩٧٢ ، اذا ما كانت زيارة نيكسون ومساعديه الى الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية ستؤدي الى ممارسة ضغط امريكي على اسرائيل للانسحاب من الاراضي المحتلة ، اجاب ديان بانه لا يدري اذا ما اتفقوا او وصلوا الى استنتاج ما من خلال عدم اتفاقهم ـ **والامر يتعلق في الاساس بالولايات المتحدة ـ ان لا يفرضوا الحل علينا** ، وان لا يفعلوا ما فعلوه عام ١٩٥٧ ، بعد معركة سيناء ، عندما اتفقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على انسحابنا من سيناء » ، واضاف انه « اذا لم يكن هذه المرة اتفاق كهذا ، فهذا لصالحنا ، حتى وان كانوا قد اعتمدوا على وثيقة سياسية مشتركة لقرار مجلس الامن ٢٤٢ ، **وغير المرغوب فيه بالنسبة لنا** » . واضاف « ولهذا فان كان في اساس النتائج لمؤتمر القمة ، عدم التدخل وعدم فرض حل علينا ، واستمرار وقف اطلاق النار ، واستئناف المفاوضات بالسبل الدبلوماسية بيننا وبين جيراننا، عندها تكون الحصيلة في رأيي ايجابية بالنسبة لنا » . (بمحانيه ٧ـ٦ـ٧٢) .

وفي رده على سؤال آخر عن توقعاته بالنسبة للمستقبل « في حالة الضغط على اسرائيل من الولايات المتحدة ؟ » أجاب ديان وبكل وضوح انه « اذا ارادت الولايات المتحدة ان تضغط علينا بكل ثقلها ، يتوجب علينا ان ننصاع لمطالبها » (المصدر نفسه) ، ولو كان علينا ان

نختار بين الوضع الذي تعطينا فيه الولايات المتحدة ، وتساعدنا ، وتبيعنا، سواء كان ذلك في الحقل الاقتصادي او العسكري او السياسي ، ونتيجة لذلك اكون مكبلا جدا جدا بالاستجابة لمطالبها .. وبين وضع نكون فيه احرارا جدا جدا ، ولكن نتيجة لذلك لا تعطينا الولايات المتحدة شيئا ، لا مساعدات اقتصادية . ولا معدات عسكرية ، ولا مساندة سياسية . لكنت افضل **استعبادنا** الذى هو في الحقيقة يعطينا حرية اكثرية من **الحرية** هذه ، التي تكسرنا في النهاية وتخلق لدينا وضعنا **مستعبدا**

(المصدر نفسه) ·

ومن هنا نرى ان الاساس الذي تقوم عليه سياسة بيغن وديان ، هو انه وقبل كل شيء ، لا بد وان تبادر لانتزاع المبادرة لخطوات « السلام » ، بينما كل شيء مفتوح للمفاوضات المباشرة ، ونقل هذه المفاوضات من طاولة المحادثات بين اسرائيل والولايات المتحدة ، الى طاولة المباحثات بين اسرائيل والعرب ، وبهذا تمنع خطر الصدام مع الولايات المتحدة . ما دامت اسرائيل لا تصل الى تفاهم مع العرب ، هذه الطريقة تساعد الولايات المتحدة على التحرر من وعودها التي قطعتها على نفسها بالنسبة للعرب بما فيها عقد مؤتمر جنيف في تشرين الاول من هذا العام ، بينما تحافظ على دور الوسيط الذي يعطي النصائح للطرفين ، دون ان تضطر الى ممارسة الضغط على اسرائيل من أجل تنازلات سياسية واقليمية ، تضطر معها اسرائيل للانصياع بالتالي الى مطالبها ·

وهذا هو التغيير الاساسي الذيتسعى الحكومة الليكودية الجديدة اليه في تعاملها مع اية مفاوضات مقبلة مع العرب وليس كما كان في المفاوضات السابقة ابان حكم جولدا مئير واسحق رابين ·

حين كانت جميع المفاوضات تتم عبر الولايات المتحدة ·

اما بالنسبة « لمعاهدة السلام » ، وهذا هو التعريف السياسي المتداول والمتفق عليه ، ولا يمكن استبداله بتعريفات اخرى ، كـ « حل شامل » او « اتفاق نهائي » ، حتى ولا « اتفاقية سلام » وهذا هو التعريف الذي استعمله الرئيس كارتر · وبهذا يعرف مناحيم بيغن ، وهو رجل القانون ، انه من الصعب عليه محاورة الرئيس كارتر في هذا التعريف، وخاصة انه لم ينفك عن استعماله هو نفسه منذ عام ١٩٦٧ ، حين كان في حكومة « التجمع الوطني » وفي المعارضة. ولهذا قرر بيغن انه من الافضل له **الاستمرار في تبنيه** ، ما دام الرئيس كارتر قد استعمله بنفسه وقبل نجاح الليكود في الانتخابات وهذا ، ما لم يكن يتوقعه بيغن . ولكن بيغن يعرف جيدا ايضا ، انه لكي يتم التوصل الى معاهدة سلام من الناحية الاستراتيجية ، لا بد من الايمان بفرص هذا الهدف لتحقيقه. اي لا بد من الايمان بأن العرب سيكونون مستعدين لقبول **طلبات الحد الادنى الاسرائيلي** . والعكس بالعكس ، اي قبول اسرائيل لطلبات الحد الادنى العربية . فمن الصعب علينا اذن ان نعتقد أن مناحيم بيغن وطاقمه الوزاري الذي اعد معه « مشروع السلام » ، قد تبنوا هذا الايمان ، اذ انهم يعرفون جيدا ان العرب لا يزالون بعيدين عن المفهوم الاسرائيلي لماهية السلام ، كما هو معروف لديهم جيدا كم هي بعيدة اسرائيل من الناحية الاقليمية . عما قد يعتبره العرب **اساسا** لاتفاقية سلام ، وقد عبر عن ذلك ديان بكل وضوح حين قال : « خطة للسلام ، نقترح ، قاعدة للتفاوض ، نقترح ، ولكنها غير مقبولة من العرب ، ولا اعتقد ان العرب مستعدون لابرام معاهدة سلام معنا على اساس هذه الخطة » (بمحانيه

٧_٦_١٩٧٢) واضاف ديان « اما خطة تكون مقبولة من العرب كي يصلوا على اساسها الى سلام معنا ـ ولا ادخل في تفاصيل اي سلام سيكون ـ فانها خطة غير مقبولة من اسرائيل » (المصدر نفسه)

واضاف موضحا : « واذا كنا نريد ان **نعرف وبشكل واضح ما نريده ، فقد قالت اسرائيل انها لن تنزل من هضبة الجولان ، وانها تعتبر نهر الاردن حدا امينا ، وانها لن تعود الى الاوضاع السابقة ، وانها باقية في شرم الشيخ . اما ان نعرض خطة يقبلها العرب ، فهذه خطة استسلام وليست خطة سلام** » (المصدر نفسه) .

وفي رده على سؤال « لماذا لا نستطيع الوصول الآن الى حل سلمي ؟ » اجاب

ديان « لانه لا يمكن ان نصل الى حل سلمي ، او اتفاقية سلام (وليس **معاهدة سلام**) دون الاتفاق على الحدود ، وانا انتمي لاولئك الذين يعتقدون باننا لا يتوجب علينا ان نعود الى الحدود القديمة لا للحدود السورية ، ولا للحدود المصرية ولا الاردنية . ولهذا لا يوجد حل سلمي » (بمحانيه ٢٤_٨_١٩٧١) .

ثم يضيف ديان « ولهذا بالذات يمكن الوصول الى **حل جزئي** . ولا ادري اذا ما كان هذا الحل سيعقد مع مصر أم لا، ولكنه مبدئيا . ممكن » (المصدر نفسه).

هذا عام ١٩٧١ . فماذا عن « مشروع السلام » الذي حمله بيغن الى كارتر ، ثم حمله كارتر الى فانس لينقله الى الدول العربية ، والذي يقوم على اساس الاجماع القومي في اسرائيل على عدم العودة الى حدود عام ١٩٦٧ وعدم الانسحاب من الضفة الغربية » ؟ **الفرص** « لمعاهدة السلام » التي ينشدها بيغن لم تتبدل . وشروط الحد الادنى الاسرائيلية لم تتغير .

اذن ما الذي يريده بيغن ، من اصراره على المطالبة « بمعاهدة سلام حقيقي ودائم » ؟ ثم لماذا المفاوضات المباشرة مع كل دولة عربية من دول المواجهة بمفردها ؟ وما هو البديل ؟

ان بيغن يعرف جيدا وكذلك ديان ، انهما لا بد وان يصلا الى النتيجة الحتمية . وهي **حلول وسط** اضافية ،حيث تكون الاولى في سلم الاولويات هي مصر .

فمن الناحية المدنية يبدو ، اذن ، ان بيغن يوافق ديان ، على ان لا بديل الآن سوى الحلول الوسط ، ما دامت اسرائيل لا تستطيع الوصول الى معاهدة سلام مع العرب ضمن شروطها ، ولكنه قرر ان يتبع تكتيكا مغايرا ، فلماذا عليه هو ان يخالف الرئيس كارتر ويصرح بأن معاهدة سلام هي غير عملية ؟ اذ ان قولا كهذا سيفسر من قبل الولايات المتحدة على انه تهرب ، وهو احوج ما يكون الى كسر الصورة المتطرفة لحكومته لدى الحكم والرأي العام الاميركي .

ولذلك عليه ان « يخلق وضعا يجعل الامريكيين يقولون ذلك بانفسهم ، كما ويجعلهم هم يقترحون الحلول الوسط، كبديل في هذه الحالة » (هآرتس ١٥_٧_٧٧) . وما على اسرائيل عندها ، الا ان تتنازل لطلبات الولايات المتحدة ،وتوافق على السير في هذا الطريق الذي رسمته هي بنفسها .

وهكذا يظل الهدف الاساسي ، حلا وسطا ، ومع **مصر** بالذات اولا ، الا ان الطريق اليه تغيرت ، واصبحت اكثر انسجاما مع الولايات المتحدة .

المسألة الاقليمية :

في خطاب له امام اللجنة التنفيذية الصهيونية في « مبنى الامة » في ٢٣_٦_٧٧ صرح بيغن ان « ثمة اجماعا

قوميا كاملا لدى الشعب اليهودي ضد الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، واقامةدولة فلسطينية » ٠ واضاف « اننا لن نعود الى حدود ما قبل الرابع من حزيران ١٩٦٧ ، ولا نستطيع باي شكل من الاشكال العودة الى هذه الحدود ولن نفعل ذلك ، ولن نسمح تحت اي ظرفمن الظروف ان تقوم في الضفة الغربية وقطاع غزة دولة تدعى فلسطينية » ٠ وقال ان « القرار ٢٤٢ ينص وفقا للقانون الدولي على انالاطراف نفسها تحدد الحدود الآمنة والمعترف بها ، بواسطة مفاوضات بينها، دون شروط مسبقة ، وبدون اي طلب انذاري وبدون اي صيغة حل من الخارج » ٠

ولو استعرضنا كل مقالات بيغن السياسية التي نشرها في زاويته نصف الشهرية في صحيفة معاريف ، وخاصة تلك التي تبحث في الاوضاع السياسية ونقده للمباحثات التي كانت جارية بواسطة وزير الخارجية الاميركية د٠ هنري كيسنجر والتسويات الجزئية بعد اتفاقية سيناء الاولى اثر حرب تشرين ١٩٧٣ ، لوجدنا انها جميعها كانت تتركز حول رفضه للمفاوضات عبر الولايات المتحدة ، والانسحابات الجزئية دون معاهدة سلام نهائية وان «الانسحابات المؤقتة هي خراب اي فرصة للسلام » (معاريف يديعوت احرونوت ١٣ـ١ـ٧٥) الا انه لم يعرض في اي منها اي تصور لنوعية هذا الانسحاب الذي تكون اسرائيل مستعدة له ، في حالة توقيع معاهدة السلام التي يريدها ، كما خلت جميع الخطوط الاساسية لحركة حيروت لانتخابات الكنيست الاسرائيلي من ذلك ، اللهم من رفض الحركة للعودة الى خطوط ما قبل الرابع منحزيران ١٩٦٧ وعدم الانسحاب كلية من الضفة الغربية وقطاع غزة والتمسك بمبدأ ارض اسرائيل الكاملة ٠

اذ ان بيغن يؤمن ان « المؤسسة السياسية لا ينبغي ان تكون دكان بضائع قديمة » ، فيما يتعلق بالمفاوضات القائمة على التنازلات المتبادلة الى ان « يتوصل الاطراف الى تسوية اساسها التنازل » لان « هذه الطريقة تقود الى نتائج سلبية وخطيرة » ٠ (معاريف ٢٩ـ٨ـ٧٥) كما ويؤمن بانه لا ينبغي على الحكومة ان تطرح شروطا معينة ثم تتنازل عنها ، فاذا ما قالت « هذه الحكومة لا معينه » فلا بد لها ان تتوقف عندها وتتمسك بها ٠ وان « لا تضعف مقاومتها اذا ما مورس عليها ضغط معين » (المصدر نفسه) لان « مسألة المصداقية بالنسبة للحكومة في المفاوضات مسألة مهمة جدا » (المصدر نفسه) ٠

وحتى في الخطوط الاساسية لحزب الليكود الذي فاز على اساسها بالانتخابات للكنيست التاسع ، وتسلمه زمام الحكم في اسرائيل ، بل والخطوط الاساسية التي اعدها مع الاحزاب الائتلافية المشاركة لعرضها على الكنيست والتي نشرت في صيغتها الاولى في صحيفة معاريف ويديعوت احرونوت في ١٩ـ٦ـ٧٧ ، لم تأت ، ولو بالاشارة على استعداد الحكومة لتنازلات اقليمية مقابل السلام اللهم الا عبارة « كل شيء قابل للتفاوض بدون شروط مسبقة » ٠ ولم يكن هناك من تغيير بارز في الخطوط الاساسية هذه الا في اللحظة الاخيرة وقبل عرضها على الكنيست لمنحها الثقة٠ فقد جاء في البند السادس لهذه الخطوط حسب النص السابق ان « الحكومة تعلن عن استعدادها للاشتراك في مؤتمر جنيف اذا ما دعيت من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي » الا أن الحكومة عادت واضافت جملة « على اساس القرارين ٢٤٢ ، ٣٣٨ » ٠ ولكن لم يكن في هذا التعديل من جديد ايضا كما قال بيجال يادين لانه « لا يتضمن اي اعلان

عن قبول مضمون هذين القرارين لمجلس الامن ، وانما موافقة على الذهاب الى مؤتمر جنيف اذا ما دعيت على اساس هذين القرارين » (معاريف ٢٠ـ٦ـ٧٦)

وان كان بيغن وديان قد اكثرا من الحديث ، قبل سفر الاول الى الولايات المتحدة عن « خطة السلام » التي يحملها معه ، والتي تبلورت في اجتماع الطاقم الوزاري بيغن ديان ووايزمن ، والتي سربتها الصحف عشية اجتماع بيغن بكارتر ، حيث تضمنت ما يختص بمصر وسوريا بالبندين « انسحاب كبير من سيناء وانسحاب محدود من الجولان » فلم يكن ذلك الا لتجميل الصورة المتطرفة لحكومة ليكود لدى الحكم والرأي العام الاميركي .

ولان بيغن لم يضع اي تصور لهذا « الانسحاب الكبير والمحدود » بل وتبدو هذه العبارة جديدة في القاموس البيغيني ، فلا بد وان يكون قداستعارها من القاموس الدياني ، المليء بها منذ عام ١٩٦٧ .

اذ ان « وزارة الخارجية قامت باعداد مقترحات لرئيس الحكومة مناحيم بيغن بمناسبة سفره الى الولايات المتحدة .. ومن بين هذه المقترحات افكار مختلفة وقديمة لموشيه ديان » (ر٠٦٠١ ٣ـ٧ـ٧٧) وقد اكد ذلك موشيه ديان نفسه في مقابلة له مع صحيفة « التايمز » اللندنية بان لديه « افكار جديدة عن امكانية العمل من اجل التقدم بعملية السلام » . واضاف « ولو لم يكن لي افكار كهذه لما كنت اقبل اقتراح السيد بيغن ان اشغل منصب وزير الخارجية في حكومته » (يديعوت احرونوت معاريف ١٠ـ٦ـ٧٧) وفي موضوع العلاقات مع مصر قال « علينا ان نعمل ما في وسعنا لاضعاف الحوافز الحربية في القاهرة ، وخلق حياة طبيعية في المنطقة » . فاذا ما كان هنالك مليونا مصري يعيشون في مدن القناة ، فهذا يشكل بالنسبة لنا حداً امنا في مواجهة الحرب ، اكثر مما كان يشكله خط بارليف» (المصدر نفسه) .

ولكن ما الذي « تعنيه الحياة الطبيعية في المنطقة » بالنسبة لمفاهيم ديان ، انها تعطي نفس المفهوم لما كان يردده دائما بأن الحل يجب ان يكون هكذا : « ان يستطيع الطرفان العيش سوية في ظله » (بمحانيه ٢٤ـ٨ـ١٩٧١) ، وحين سئل « ماذا يعني هذا بالنسبة لاسرائيل ومصر وماذا يعني بالنسبة لاسرائيل والاردن » (المصدر نفسه) اجاب : « في رأيي ان مصر تستطيع العيش ونحن نجلس في شرم الشيخ ، فشرم الشيخ لا يشكل ممرا لاي مكان حيوي بالنسبة لمصر . فعندما تكون هناك سيادة اسرائيلية على شرم الشيخ ، فان مصر تستطيع العيش معنا في ظل هذه الحقيقة، ، انا شخصيا لا اعتقد ان مصر تستطيع العيش في نفس الدرجة مع وجودنا على ضفة القنال ، هذا هو مثل فقط » واضاف « ولهذا فانني اعتقد ان الحد الدائم الذي نكون مستعدين له ، ليس بالضرورة ان يمر في قناة السويس ، والحدود الدائمة التي على مصر ان تكون مستعدة لها ، يجب ان تضم شرم الشيخ تحت سيادتنا » (المصدر نفسه) .

واضاف « ولكنهم عندما تبدأ المفاوضات من جديد ، فانهم سيقترحون علينا الحيل التي قدموها لنا في السابق، مثل مناطق مجردة من السلاح ، وقوات دولية في شرم الشيخ .. اننا لا نستطيع العيش على ضمانات دول كبرى اجنبية، انها عملية مزيفة ، ولذلك علينا ان نوضح للجميع . انه لحماية دولة اسرائيل ، ثمة قوات لنا ، تملك المدرعات والطائرات وكل المعدات اللازمة لذلك » . واضاف « ولقد اثبتنا جدية توجهنا

لمشاكل الامن السياسية للدولة ، فعندما كان الحديث عن شرم الشيخ ، شققنا الطريق اليه قبل كل شيء ، وهكذا فعلنا في كل مكان آخر · لقد جلبنا المياه وبنينا المستوطنات ، وعملنا على تحويل مناطق كاملة لمناطق يهودية اضافية تابعة لدولة اسرائيل » ·

اما بالنسبة لهضبة الجولان فاضاف انه يجب ان يكون واضحا للجميع بانه « لن يكون جولان سوري » « معاريف ١٠ـ٩ـ١٩٧٣) ·

وهكذا فاننا نرى ديان يعمل ويصرح دائما بادراك كامل وهادف ، لتثبيت حقائق من شانها ، ان تمكنه في النهاية من تجسيد خارطة الحدود الامنة ، وقد بدا عمله في هذا الاتجاه جليا في المباحثات الوزارية بعد مرور ٦ سنوات على الاحتلال « لوضع خطة عمل للاربع سنوات المقبلة » عشية حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، اذ قال ديان : « لقد مرت ٦ سنوات منذ حرب الايام الستة ، ونحن نتكلم الآن عن الاربع سنوات القادمة ، هذه هي فترة زمنية كاملة والسؤال المهم ، ما الذي سنفعله في هذه السنوات الاربع القادمة » ؟ واضاف « صحيح اننا لا نحارب طيلة الوقت ، ولكننا تعودنا ان نخوض حرب ٦ ايام كل ١٠ سنوات» (معاريف ١٠ـ٩ـ٧٣) ثم تساءل ديان « ما الذي يريده العرب منا بالضبط ؟ »واجاب على السؤال الذي طرحه بنفسه « انهم يريدون منا ان ننسحب للحدود السابقة » اما بالنسبة لحدودنا الآمنة ، فانهم يقترحون نصوصا مختلفة ، ولكن تجربتنا ترتكز على مبدأين مهمين :

١ ـ الاساس الامني ·

٢ ـ اساس العمل والخلق » (معاريف ١٠ـ٩ـ٧٣) ·

واذا ما نظرنا الى سلسلة المستوطنات التي ،سمتها اسرائيل في سيناء وجولان، و « المشروع الهيكلي » الذي وضعته للاستيطان ، والذي عرض على وزير الزراعة في الحكومة الليكودية الجديدة ارئيل شارون ، فقال عنه انه « يجب ان يكون هدفا قوميا اساسيا » (يديعوت احرونوت ٢٤ـ٦ـ٧٧) والذي يبحث في اقامة « سلسلة مستوطنات فردية ومدينية وصناعية من الجولان وحتى شرم الشيخ بحيث يشكل خطا دفاعيا لمليوني مستوطن » (المصدر نفسه) ·

واذا ما اعتبرنا ان تمسك اسرائيل بسيطرتها على مصادر المياه ـ بل واطماعها في مصادر اضافية ـ والتي ضمها شارون الى ضمن « المشاكل الامنية » اذ ان « الاستهلاك السنوي للمياه في اسرائيل يبلغ مليارد ونصف م٣ وان ثلثي هذه الكمية اي مليارد م٣ ، هي مياه مصدرها من خارج الخط الاخضر في الجولان والضفة الغربية ·» (المصدر نفسه) · ولهذا « فلا بد وان تكون احدى العناصر الهامة في ادعاءات حكومة ليكود خلال المباحثات علىالخطوط والحدود » (المصدر نفسه) ·

نتوصل الى ان حكومة ليكود ستفسر هذه الانسحابات الكبيرة في سيناء والانسحابات المحدودة في الجولان للتوقيع على « حدودها » السياسية والامنية ، اي خطوط خارطة السلام بالنسبة لاسرائيل والتي يسميها ديان « حدود دولة اليهود » (معاريف ٢٤ـ٨ـ٧٣) ·

١ ـ في الجولان ـ الشريط الاستيطاني ما هو قائم وما هو ضمن مشروع فاخمان بالاضافة الى مصادر المياه ·

٢ ـ سيناء ـ مشارف رفح وشرم الشيخ وسيطرة في وسط سيناء كي يمنح اسرائيل ما يسميه ديان « سيطرة

رادارية » ، اي منطقة انذارية لمنع احتمال حرب جوية وبرية تشنها مصر ضد مراكز السكان ·

هذا بالاضافة الى :

٣ ـ من الشرق ـ نهر الاردن والاودية مع امتداد نهر اليرموك ·

وبهذا نستطيع اختصار « حدود دولة اليهود » هذه بانها تمر من جبل الشيخ الى شرم الشيخ ·

·· ومن الفلسطينيين

جاء في الخطوط الاساسية لحكومة ليكود ، فيما يتعلق بالموقف من الشعب الفلسطيني والاراضي الفلسطينية المحتلة انه :

● « للشعب اليهودي حق تاريخي وابدي في « ارض اسرائيل » ، وغير قابل للنقض ·

● « الحكومة تخطط وتقيم وتدعم الاستيطان المديني والفردي على ارض الوطن وفقا لاهداف الدولة الصهيونية ومتطلبات امنها ·

● « تضع الحكومة ، حركة الهجرة اليهودية الى اسرائيل على رأس قضايا الامة ·

● « يخول الكنيست الحكومة بتطبيق قانون الدولة وحكمها وادارتها على كل منطقة تابعة « لارض اسرائيل » · هذه الصلاحية البرلمانية تكون خاضعة لاعتبارات الحكومة الدائمة ، ولن تنفذها ما دام ثمة مفاوضات تجري على معاهدة سلام بين اسرائيل وجاراتها ، ويكون الامر مرتبطا باختيار الوقت الملائم وبالاعتبار السياسي للحكومة ، وببحث خاص في الكنيست وبموافقته ·

● « المساواة في الحقوق لكل المواطنين والسكان ، دون فرق في الدين او العرق او القومية او الجنس او الطائفة » ·

وبعكس ما رأينا في حديثنا عن موقف حكومة الليكود الاسرائيلية الجديدة من العرب بشكل عام ، وعن سياستها المستقبلية من الناحية السياسية والاقليمية والتي تتسم بالغموض والثورية الى حد ما ، وبالتعب على الوسائل والحيل الدبلوماسية ، بين ما هو مرغوب فيه وما هو ممكن ، مما يترك المجال لاحتمالات الصواب والخطأ ، فان موقف الحكومة الحالية وسياستها المستقبلية فيما يتعلق بالشعب الفلسطيني ومستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة واضح وصريح ، ولا مجال للاحتمالات فيه ، لكونه ينبثق من « الاجماع القومي لدى الشعب اليهودي وجميع الاحزاب في اسرائيل ـ عدا الحزب الشيوعي راكاح ـ ، على عدم الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة، واعتبارهما ارضا محررة من الاحتلال الاجنبي ، وجزءا لا يتجزأ من اسرائيل، وعدم قيام كيان فلسطيني عليها » على حد تعبير سفن وديان وشارون ووايزمن ل ووفقا لتصريحات رؤساء الحكومات المراخية السابقة ، جولدا مئير ورابين وبيرس منذ حرب ١٩٦٧ وعلى طول صفحات الصحف الاسرائيلية وعرضها ، وفي مختلف المواقف ، اذ لا خلاف بالتالي بين المراخ والليكود ، او سائر الاحزاب الاسرائيلية الاخرى ـ سوى ـ راكاح ـ على حد تعبير مناحيم بيغن، على هذه « المسألة الوطنية » ·

ولهذا ، فان هذا الموقف ، هو موقف ثابت من حيث الجوهر ، ولا يتحول ،وأي تفسير وتحليل له غير ما يعنيه بحرفيته، وكما هو مطروح علنا ، هو تفسير خاطيء من اساسه ·

اسرائيل لن تتراجع · لن تتنازل · لن تنسحب من أي شبر من الاراضي

الفلسطينية المحتلة ، ولن تعترف حتى بمجرد وجود شعب فلسطيني · ولن تسمح باقامة دولة فلسطينية حتى في الضفة الشرقية للاردن والتي لا تزال تعتبرها هي الاخرى « جزءا لا يتجزأ من ارض اسرائيل » وان كان الانجليز قد « انتزعوها لكي يقيموا عليها المملكة الاردنية الهاشمية » ، الا مكرهة ، ولن يكرهها على ذلك الا العرب ، ولا طريق الى اكراهها الا القوة ·· القوة العربية وبكل اشكالها مجتمعة وفي آن واحد ·

اما بالنسبة لاسرائيل ، فهي ليست في حاجة الا لبعض الوقت فقط ، لازدراد الاراضي التي احتلتها ، جيدا ، الى ان تصبح جزءا عضويا من جلدها ولحمها وخلاياها · بمنح « سكانها » العرب « حقوقا » متساوية مع « المواطنين » اليهود ــ ، ثم تطبيق القانون الاسرائيلي عليهم ، ومن ثم استكمال استيطانها ، وبالتالي تهويدها، ولا حاجة لاصدار قرار حكومي بضمها ، اذ « هي جزء لا يتجزأ من اسرائيل » على حد تعبير بيغن وحكومته ، ولكي تبقى حدود اسرائيل المغير كاملة ، مجرد خطوط وقف اطلاق نار مع شرقي الاردن ، وهو « الجزء الذي اقتطع من ارض اسرائيل الكاملة » وفقا للنظرية الصهيونية وخاصة الجابوتينسكية والبيغنية منها ·· ولم يحن الوقت بعد لوضع الحدود النهائية « للدولة اليهودية » ·

ولسنا في حاجة لاستعراض كل الادعاءات البيغنية والصهيونية التوراتية ، التي لم ننفك عن سماعها منذ المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ في بازل ، وانتهاء في « المؤتمر الصهيوني البيغني الكارتري » في البيت الابيض في ١٩ ــ ٢٠ ــ ٧ ــ ١٩٧٧ عن « الحق التاريخي لليهود على ارض اسرائيل » في فلسطين . والذي تضمنه حصر الارث الالهي لهم · اذ يبدو ان مناحيم بيغن نفسه ، اصبح لا يرى ــ وقد يكون بالاتفاق مع كارتر الذي يقرأ التوراة ، ويقرأ القانون الدولي ايضا ــ في هذه الادعاءات الارثية ، ما يمنحه الوقت الكافي لاتمام عمله ، وخاصة أن القوانين الدولية المتعامل بها داخل الامم المتحدة ــ هي قوانين « لاسامية » ولا تعترف بقوانين حصر الارث التي يتعامل بها اله اسرائيل ــ وخاصة في قراراتها التي تتعلق بالقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨ والصادرة عنها ·

ولهذا ، فقد عمد مناحيم بيغن الى طرح النظريات الجيو ــ سياسية التي تتبناها حركة « ارض اسرائيل الكاملة »، الى جانب النظريات « الجيو ــ توراتية »، بالاضافة الى القوانين الدولية ، بعد ان اكتشف انها تورث الشعب اليهودي فلسطين كلها ، وفقا « لحصر الارث » للدولة العثمانية الميتة · وان كانت هذه القوانين تهضم الشعب اليهودي حقه ، بايجاد شريك له ، غير معترف ببنوته ، ومنحه نصف « الارث الالهي » ، للمملكة الهاشمية ، في شرق الاردن ·

وقد انتدب بيغن لهذه المهمة ، بعد توليه زمام الحكم مباشرة ، احد زملائه السابقين في قيادة « اتسل » ، واحد مؤسسي حركة « ارض اسرائيل الكاملة» ومنظرها الاول ، الارهابي المعروف شموئيل كاتس ، لوضع خطة اعلامية واسعة ، لشرح هذه النظريات والقوانين، على اوسع نطاق ، تمهيدا لتنفيذ سياسته المستقبلية تجاه الفلسطينيين شعبا وكيانا وارضا ·

اما نظريات شموئيل كاتس الجيو ــ سياسية التي يتبناها ، والتي كان ينشرها في مقالاته بعد تأسيس حركة « ارض اسرائيل الكاملة » ، لتدعيم مواقفه ، ومن ثم في كتابه « ارض الصراع » ، فتعتمد على الفلسفة

الجيو ـ سياسية ، للالماني كارل هاوسهوفر ، القائلة بان « الجغرافية هي التي توجه حركة التاريخ ، وليس الاقتصاد » حيث يصبح الاشخاص ادوات لمعطيات جغرافية ، من خلال الفصل بين نوعين من الشعوب : شعوب « ثابتة » وهي التي توصلت الى اشباع ، وشعوب « متحركة » ، وهي التي تحتاج الى « مناطق عيش » .

ومن بين ادعاءات شموئيل كاتس التي يصر عليها ويكررها باستمرار كما لخصتها مجلة « هعولام هزيه » (٢٢ـ٦ـ٧٧) بعد ترشيحه لمنصب المستشار السياسي لرئيس الحكومة مناحيم بيغن، هي انه « لا يوجد ثمة شعب اسمه شعب فلسطين ، ولا شيء اسمه لاجئون فلسطينيون » ، وانما « رعاع همج ملونون من مجموعة اسماء نكرة، وعديمة الشكل ، بعضها ينتمي لاناس حقيقيين احياء ، وبعضها منتحل من اساسه ، او تنتمي لاناس ماتوا منذ امد بعيد ، وشرذمة منها تنتمي لاناس لا مأوى لهم بعد خروجهم او خروج ابائهم من ارض اسرائيل عام ١٩٤٨ ، « اكثرية هذه الشرذمة ، تنتمي لاناس هم اليوم ـ وليس مهما ما اصلهم ـ يعيشون ويعملون كمواطنين غير مدرجين ، يتلقون غذاء وعناية طيبة على حساب دافعي الضرائب في العالم ، وكلهم يمشون في « صرة » واحدة ، في لوائح الامم المتحدة الرسمية تحت اسم لاجئين عرب ، ويوصفون زيادة على ذلك ـ مما يثير الغضب ، ضحايا العدوان اليهودي » . (هعولام هزيه ٢٢ـ٦ـ٧٧) .

وليدعم شموئيل كاتس نظريته هذه ، فانه يذهب الى نفي وجود امة اسمها عربية اذ « لا يوجد ثمة امة اسمها امة عربية ، واذا ما وجدت امة كهذه فهي من خلق خيال لورنس رجل العرب ، الذي الصق ، اعتباطا ، كيان قومية تابعة للبدو الرحل ، على خليط من الفلاحين ، واختلق الكيان العربي ، اثناء الحملة البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي في اتجاه دمشق في الحرب العالمية الاولى » . (المصدر نفسه)

وبعد ان « يثبت » مستشار بيغن السياسي ، الهوية اليهودية لفلسطين ، يخلص الى نتيجة بالنسبة لسكانها العرب والشعب العربي الفلسطيني بانه: « لم تكن امة كهذه ، فالادعاء بروابط تاريخية ، وبحقوق تاريخية ، وبملكية ما يسمى « الشعب العربي » ، او ما يسمى الكيان الفلسطيني ، هي كذبة اختلقت في ايامنا » .

ولا تتوقف نظريات شموئيل كاتس عند هذا الحد بل ويدعي ان «ارض اسرائيل» ويعني فلسطين وشرق الاردن ، « كانت خالية من السكان في انتظار اهلها اليهود المشتتين » بينما يسمي العرب « الغزاة من الصحراء » ، وانه لا توجد « اية دلالة ثابتة في كتب التاريخ كلها ، لاية علاقة تاريخية للعرب في ارض اسرائيل هذه ، او اية اشارة الى انه كان ذات مرة ثمة قومية اسمها « عربية فلسطينية »، او انه كان للشعب العربي عامة عبر التاريخ بلاد اسمها فلسطين » (المصدر نفسه) .

بل ويتوصل مستشار رئيس الحكومة الاسرائيلية ، شموئيل كاتس ، في كتابه ارض « الصراع » ، الى ان « ارض اسرائيل لم تكن في يوم من الايام حتى مقدسة للمسلمين » وانما يمكن ان نسميها « مقدسة للديانتين اليهودية والنصرانية فقط ، وقطعا ليست مقدسة للاسلام » وان « ارض اسرائيل ليس لها اي معنى في دين المسلمين ، وما البراق، الا شهادة للعالم ، على اعتراف الاسلام

بالهوية اليهودية لهذا المكان المقدس » (المصدر نفسه) ٠

وبقي أن نعرف ان شموئيل كاتس هذا ، هو واحد من الطاقم الاسرائيلي ، الذي يرسم السياسة الاسـرائيلية الجديدة ـ القديمة . واحد مرافقي مناحيم بيغـن في لقائه مع الرئيس كارتر بل وقد تأخر الاجتماع مع الرئيس كارتر ومستشاريه اكثر من ساعتين عن الوقت المحدد له، لان الحاضرين كانوا يستمعون الـى محاضرة عن الفلسطينيين لمستشار رئيس الحكومة شموئيل كاتس (معاريف ٢٠ـ٧ ـ٧٧) رغم ان الرئيس كارتر « يقـرأ التوراة ، ويعرف ان ارض اسرائيـل تابعة للشعب اليهودي » (ر١٠٠١ ٢٣ـ٥ـ ٧٧) على حد تعبير مناحيم بيغن ، وان الاسم « فلسطين » ما هو الا ترجمـة اجنبية لارض اسرائيل (بيغـن ر١٠٠١ ٢٣ـ٦ـ٧٧) ٠

اما مناحيم بيغن ، فقد تولى بدوره، وبوصفه رجل قانون سابق ، الناحيـة القانونية لاثبات حق الشعب اليهـودي القانوني . وملكيته المطلقة في فلسطين، وفقا للقوانين الدولية ٠ اذ كان « قـد عكف منذ تولي الرئيس كارتر للسلطة ، على قراءة جميع المواد السياسيـة السابقة المتعلقة في هذا الموضـوع » (معاريف ٢٤ـ٦ـ٧٧) ٠ اذ « يبدو ان مناحيم بيغن مستعد في اسوأ الحـالات الموافقة على المفهوم الذي يعتمد علـى القانون الدولي ، والذي فسره **يوجيـن روسطوف** ، رجل القانون الذي شغـل منصبا كبيرا في حكم الرئيس الأميركي جونسون » (المصدر نفسه) ٠

ويعتمد تفسير روسطـوف على ان « الاردن واسرائيل همـا الدولتـان **الوريثتان للامبراطورية العثمانية داخل** المنطقة الاصلية للانتـداب الانجليزي » (المصدر نفسه) اي ان المشكلـة الفلسطينية ليست هي لب المشكلة ، كما « يفترض كارتر وبيتجزنسكي ، وبـول وآخرون » ، لان « الاصطلاح فلسطين ، يتعلق بمنطقة الانتداب الانجليزي كمـا عرف في الاصل ، من الناحية القانونيـة والتاريخية » (المصدر نفسه) ٠

ولهذا فان « قرار مجلس الامن رقـم ٢٤٢ ، يلزم الاردن واسرائيل ، ولا احد غيرهما ، بأن تحددا بينهما حدودا آمنـة ومعترفا بها ، وعلى هذا الاساس فقـط تتوصلان الى سـلام بينهما » (معاريف ٢٤ـ٦ـ٧٧) ٠

ولهذا ايضا فان « الاردن ، وبعـد ان خلق الامر الواقع ، وصفا جديدا في هذه المنطقة ، حيث يوجد في كل ضفـة للاردن دولة ذات سيادة ، فـان الاردن والذي يشكل الفلسطينيون غالبيةسكانه، لا يستطيع ، وليس له الحق ، فـي ان يطالب لنفسه بأية مناطق في الضفـة الغربية » (المصدر نفسه) ٠

ويبدو ان رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ومستشاره شموئيل كاتس، استطاعا فعلا اقناع الرئيس الاميركـي كارتر ومستشاريه بذلك ، الى الحد الذي اعلن فيه وزير الخارجية الاميركيـة سايروس فانس ، في رده على سـؤال صحفي قبل بدئه جولته الشرق اوسطية، عمن هو « صاحب الحق في الضفـة الغربية » ، أجاب فانس ان « هذا سؤال مفتوح ٠ اعني السؤال عن صاحـب الحق في الضفة الغربيـة » (ر١٠٠١ ٢٠ـ٧ـ٧٧) ٠

وفي رده على سؤال آخر اجاب انه « من الجائز ان لا يوجد طرف من الاطراف له حق في الضفة الغربية في هذه المرحلة » (المصدر نفسـه) ٠

وهذا الجواب « يدعم من الناحيـة القانونية ادعاء رئيس الحكومة بيغن ،

بان مصطلح « اراضي محتلة » لا ينطبق على اسرائيل بالنسبة لليهودية والسامرة (الضفة الغربية)(المصدر نفسه) على حد زعم المعلق السياسي للاذاعة الاسرائيلية يتسحاق ايتان ، وقد اضاف ايتان « فاذا كانت مسالة السيادة على هذه المنطقة غير واضحة ، واذا كان هذا السؤال مفتوحا ، وان كل شيء مطروح للتفاوض ، فان موقف اسرائيل من سيادتها على الضفة الغربية ، لا يختلف عن موقف المملكة الاردنية الهاشمية من سيادتها على الضفة الغربية التي استمرت حتى حزيران ١٩٦٧ » (المصدر نفسه) · فالشعب اليهودي « حرر ارض اسرائيل من السلطة الاجنبية الانجليزية والاحتلال الهاشمي ، ولم يغتصبها من احد » على حد تعبير مناحيم بيغن في مطار نيويورك (معاريف ١٩ـ٧ـ٧٧) ·

اما الفلسطينيون فليس لهم اية علاقة في هذا الجدل القانوني طبعا ، ولا حق لهم اطلاقا في فلسطين ، بل وحتى مسالة حق الاقامة ، في فلسطين هي مسالة مطروحة لاعتبارات وحسن اخلاق الدولة الصهيونية ، اذ انه « من الناحية القانونية ، وفقا للقانون الدولي ، ليس للفلسطينيين او الاردنيين ، اية مكانة خاصة في منطقتي اليهودية والسامرة (الضفة الغربية) والتي هي جزء لا يتجزأ من ارض اسرائيل المحررة من الاحتلال البريطاني والغزاة الهاشميين » (بيغن في معاريف ٢٦ـ١٢ـ٧٥) ·

وبناء على ذلك فقد « اكد بيغن للرئيس كارتر ، ان اسرائيل لا تستطيع ان تهب حتى ولا موطىء قدم فلسطيني من اي نوع ، سواء سمي ذلك « وطن » او سمي « كيان » (معاريف ١٩ـ٧ـ٧٧) ، بل ويجب ان نخرج هؤلاء الفلسطينيين « خارج المجتمع الانساني » (ر١٠٠١٠ـ٨ـ٧٧) على حد تعبير مناحيم بيغن وامام وزير خارجية الرئيس كارتر سايروس فانس ·

واضح جدا ·

لا شعب فلسطيني

لا وطن فلسطيني

لا دولة فلسطينية ·

وهي نفس لاءات موشيه ديان التي قالها لسيروس فانس ، خلال جولته الشرق اوسطية ·

هذا هو الاتجاه الرسمي لحكومة اسرائيل ، في اي مفاوضات سواء كانت تلك مع العرب او مع امريكا ، فيما يتعلق بالشعب الفلسطيني وكيانه وارضه، وسواء كان ذلك في اروقة جنيف او خارجها ·

والحبل على الجرار ·

فربما وجد العرب انفسهم ايضا ،مضطرين لحمل القرآن والعهد الجديد ، وكتب التاريخ والقوانين الدولية معهم ، لاثبات كونهم « شعبا عربيا » اولا ، وانهم ليسوا مجرد « غزاة صحراويين » ، وليس لهم اية روابط او حقوق تاريخية وقانونية في الارض العربية ثانيا ، وثالثا فانهم قد يجدون انفسهم ايضا خارج « حصر الارث » الاسرائيلي ـ الاميركي، وفقا للقوانين الدولية ، بعد موت الامبراطورية العثمانية ، والانتداب الفرنسي ايضا ·

توفيق فياض

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ١ـ٦ـ٧٧ / ٢٨ـ٧ـ٧٧

الرقم	تاريخ العملية		موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية		خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة			المصدر ـ البلاغ العسكري	
	اليوم	الساعة				قتيل	جريح		شهيد	جريح	مفقود	رقم	تاريخ
١	٢٩ـ٥ـ٧٧	٢١ر٠٠	الطريق العسكري الواصل ما بين الناصرة ومناطق الخليل	تفجير	الغام مضادة للاليات	١		١ ـ تدمير الشاحنة ٢ ـ اتلاف جميع حمولتها ٣ ـ قتل سائقها الصهيوني				٥٦ـ٧٧	١ـ٥ـ٧٧
٢	٣١ـ٥ـ٧٧	٢٢ر٣٠	هي ، محانية دافيد ، مدينة حيفا معسكر تجميع وصيانة الاليات المدرعة	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	١ ـ احراق وتدمير ورشة عسكرية تدميرا كاملا ٠ ٢ ـ اصابة عدد غير محدد من جنود العدو العاملين بالورشة ٠				٥٧ـ٧٧	٢ـ٦ـ٧٧
٣	١٢ـ٦ـ٧٧	١ر١٥ صباحا	احد المحلات التجارية شارع دافيد ـ تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة			ـ تدمير المحل التجاري تدميرا تاما ٠٠ واتلاف جميع محتوياته ٠ ـ اصابة المحلات التجارية باضرار ـ تحطيم زجاج جميع الابنية المجاورة ٠				٥٨ـ٧٧	١٣ـ٦ـ٧٧
٤	١٢ـ٦ـ٧٧	١٧ر١٥	القدس ـ احد الحواجز الصهيونية المقامة بين وادي الجوز والشيخ جراح ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة			اكتشفت العبوات قبل الموعد المحدد لانفجارها				٥٩ـ٧٧	١٣ـ٦ـ٧٧
٥	١٢ـ٦ـ٧٧	٢٢ر١٥	عكا ـ بناية سكنية اقامها العدو في شارع بن عامي	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	١ ـ اضرار مادية بالغة داخل البناية ٢ ـ تساقط معظم زجاجها ٠				٦٠ـ٧٧	١٣ـ٦ـ٧٧
٦	٤ـ٦ـ٧٧	٨ر٥ صباحا	القدس ـ محطة الباصات المركزية التابعة لشركة ايجد ٠	تفجير	عبوات ناسفة وموقوتة	١	غير محدد	ـ مقتل خبير المتفجرات الصهيوني ـ اصابة عدد من رجال حرس الحدود المتواجدين بالقرب من الباص ٠ ـ تدمير جزء كبير من الباص				٦١ـ٧٧	٥ـ٦ـ٧٧
٧	٢٦ـ٦ـ٧٧	١٠ر٠٠ صباحا	القدس ـ سوق محني يهودا	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	٢	٧	ـ تحطم واجهة احد المحلات التجارية				٦٢ـ٧٧	٢٨ـ٦ـ٧٧
٨	٢٦ـ٦ـ٧٧	٢٢ر٤٥	طريق حزما ـ بيت حنانيا	هجوم	اسلحة رشاشة			ـ اصابة السيارة الصهيونية				٦٣ـ٧٧	٢٨ـ٦ـ٧٧
٩	٢١ـ٦ـ٧٧	٢٠ر٢٥	بنك لؤمي ساحة الساعة ـ نابلس	القاء قنبلة حارقة	قنبلة حارقة			ـ اندلاع النيران داخل البنك ـ احداث اضرار مادية كبيرة بداخله				٦٤ـ٧٧	٢٨ـ٦ـ٧٧
١٠	٦ـ٧ـ٧٧	١٠ر٢٥ صباحا	بتاح تكفا ـ السوق المركزي شرقي تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة		٣٢	ـ اصابة ٣٢ مستوطنا بينهم ٧ اصاباتهم خطرة ٠ ـ تدمير المحل التجاري واتلاف محتوياته ـ اصابة المحلات المجاورة ببعض الخسائر ـ تدمير ثلاثة محلات تجارية في الطابق الارضي ٠				٦٥ـ٧٧	٧ـ٧ـ٧٧
١١	١١ـ٧ـ٧٧	٢٣ر٣٠	جبعتايم ـ شمال مدينة تل ابيب الطابق الارضي لاحد البنايات ٠	تفجير	عبوات ناسفة حارقة موقوتة	غير محدد	غير محدد	ـ تدمير واحراق الطوابق الثلاثة في المبنى ٠ ـ تحطيم معظم زجاج الابنية المجاورة ـ اصابة عدد غير محدد من العدو بين قتيل وجريح ٠				٦٦ـ٧٧	١٢ـ٧ـ٧٧
١٢	١٥ـ٧ـ٧٧	٢٠ر١٠	القدس ـ ميدان جيش العدو القريب من باب يافا ٠	تفجير	شحنات ناسفة مشركة موقوتة من قنبلة مورتر وت٠ن٠ت	غير محدد	غير محدد	١ ـ اصابة السيارة باضرار بالغة ٢ ـ قتل وجرح جميع افراد العدو المتواجدين بداخلها ٠				٦٧ـ٧٧	١٧ـ٧ـ٧٧
١٣	١٩ـ٧ـ٧٧	١٦ر٢٥	الطريق الرئيسية المؤدية الى مستوطنة رفديم القريبة من مدينة العريش ٠	زرع الغام	الغام مضادة للاليات	غير محدد	غير محدد	ـ تدمير السيارة تدميرا تاما ٠ ـ قتل وجرح جميع من فيها وعددهم (٦) افراد ٠				٦٨ـ٧٧	٢٠ـ٧ـ٧٧

الرقم	تاريخ العملية		موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية		خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة			المصدر ـ البلاغ العسكري	
	اليوم	الساعة				قتيل	جريح		شهيد	جريح	مفقود	رقم	تاريخ
١٤	٢٠ـ٧ـ٧٧	٥٠ر٢٤	احد المقاهي في مركز اورن التجاري ـ بئر السبع .	هجوم	قنابل يدوية	قتل وجرح ما يزيد عن ١٠ من افراد العدو		ـ قتل وجرح ما يزيد عن (١٠) من افراد العدو . ـ اصابة المقهى الصهيوني باضرار بالغة ـ تحطم واجهات بعض المحلات التجارية المجاورة				٦٩ـ٧٧	٢٠ـ٧ـ٧٧
١٥	١٩ـ٧ـ٧٧	٠٠ر١٧	الطريق الرئيسي المؤدي الى مستوطنة كفار يوفال ـ شمال فلسطين .	زرع لغم ارضي	لغم ارضي	٢		ـ تدمير الجرافة تدميرا تاما . ـ مقتل سائقها ومساعدة .				٧٠ـ٧٧	٢١ـ٧ـ٧٧
١٦	٢٠ـ٧ـ٧٧	٢٠ر١٤	« السوبر ماركت » الواقع في الشارع الرئيسي بمدينة نهاريا .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بين قتيل وجريح . ـ اصابة المتجر باضرار بالغة وتحطم جزء من محتوياته ـ تحطم زجاج بعض المحلات والابنية المجاورة .				٧١ـ٧٧	٢١ـ٧ـ٧٧
١٧	٢٠ـ٧ـ٧٧	٢٥ر١٢ صباحا	القدس ـ حديقة الحيوانات الواقعة في حي موشيرم .	تفجير	شحنة ناسفة موقوتة مؤلفة من قذيفة مورتر ومادة ت.ن.ت.			ـ اصابة اثنين من المستوطنين الصهاينة احدهم جراحه خطرة				٧٢ـ٧٧	٢١ـ٧ـ٧٧
١٨	٢١ـ٧ـ٧٧	٣٠ر١١ ظهرا	الباص رقم (٩) التابع لشركة ايجد والعامل على خطوط القدس ـ شارع الملك جورج .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة			ـ احداث اضرار مادية كبيرة داخل الباص ـ اصابة ما يزيد عن عشرة من افراد العدو بين قتيل وجريح				٧٣ـ٧٧	٢١ـ٧ـ٧٧
١٩	٢٧ـ٧ـ٧٧	٥٥ر٩ صباحا	تل ابيب ـ سوق الكرمل ـ ملهى شتين ومحل لبيع الملبوسات .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	ـ تحطم زجاج معظم المحلات المجاورة ـ احراق محل للملبوسات . ١ ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو بين قتيل وجريح				٧٤ـ٧٧	٢٧ـ٧ـ٧٧
٢٠	٢٧ـ٧ـ٧٧	٢٠ر٢٠	القدس ـ شارع شمالي ـ سينما اوريون	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	٢ ـ اتلاف محتويات احد المحلات المجاورة ٣ ـ احراق عدد من السيارات واصابة عدد اخر .				٧٥ـ٧٧	٢٨ـ٧ـ٧٧
٢١	٢٨ـ٧ـ٧٧	٥٠ر١٠ صباحا	بئر السبع ـ السوق المركزي	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	تفيد المعلومات الاولية ان خسائر العدو البشرية كبيرة جدا .				٧٦ـ٧٧ـ١	٢٨ـ٧ـ٧٧
٢٢	٢٨ـ٧ـ٧٧	٥٠ر١٠ صباحا	بئر السبع ـ السوق المركزي	تفجير	٤٠٠ غرام من مادة ت.ن.ت ومواد متفجرة وساعة توقيت	غير محدد	غير محدد	ـ اصابة اعداد كبيرة من افراد العدو المتواجدين داخل السوق بين قتيل وجريح ـ تدمير المطعم الصهيوني واتلاف جميع محتوياته . ـ اصابة المحلات المجاورة باضرار .				٧٦ـ٧٧ـ٢	٢٩ـ٧ـ٧٧

(١٠) اعترف العدو في نشرة اخبار الساعة السابعة من يوم الخميس ٧ـ٧ـ١٩٧٧ بوقوع انفجار في سوق الخضار في مدينة بيتاح تكفا لكنه اعلن عن وفاة امراة واحدة .

(رصد اذاعة اسرائيل ، الخميس ٧ـ٧ـ١٩٧٧ العدد رقم (١٢٣٨))

(١١) اعترف العدو بان انفجارا ضخما وقع وتسبب في نسف الشقة الواقعة في منزل سكني في شارع فايتسمان في جفعتايم . وادعت اذاعة العدو ان العملية نفذت على صعيد تصفية الحسابات مع اصحاب محلات « بوتيك » للالبسة في نفس المبنى . وقالت الاذاعة ان الانفجار قد دمر ثلاثة حوانيت تدميرا كاملا ،كما ادى جهاز التفجير الذي كان يحتوي على مواد حارقة الى نشوب حريق هائل ـ (الساعة السابعة ٠٠ر٧) رصد اذاعة اسرائيل الثلاثاء ١٢ـ٧ـ١٩٧٧ ـ العدد رقم ١٢٤٢) .

(١٤) اعترف العدو باصابة خمسة اشخاص من جراء قنبلة انفجرت في بئر السبع كما تسبب الانفجار باضرار بالغة لثمانية حوانيت ، وقد ادعى العدو بان الانفجار مسالة صراع مجرمين في العالم السفلي .

(رصد اذاعة اسرائيل ٢٠ـ٧ـ١٩٧٧، (رصد اذاعة اسرائيل ، الساعة ٠٠ر٢٠ السبت ٣٠ـ٧ـ١٩٧٧) العدد رقم (١٢٥٨) .

(٢١ ، ٢٢) اعترف العدو في نشرته العبرية بان عبوة ناسفة انفجرت في مكان لبيع الفلافل في سوق بئر السبع جرح من جراء ذلك ٢٩ شخصا ، اصابة احدهم خطيرة ، واصابة ثلاثة متوسطة ، وقد وقع الانفجار في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والخمسين صباحا .

(رصد اذاعة اسرائيل) الساعة ٠٠ر١٣ ـ الجمعة ٢٩ـ٧ـ١٩٧٧) العدد ١٢٥٧) . العدد رقم (١٢٤٩) الساعة ٠٠ر٧) .

(٧،١٠،١٩،٢٠) اعترف العدو بانه قبض على الخلية التي قام اعضاؤها بحادث التفجير في سوق الكرمل تل ابيب، كما ادعى بانه قبض على خلية ثانية كانت مسؤولة عن حادث الانفجار في سوق الخضر في بيتاح تكفا قبل وقت قصير واعترف ايضا بان الخليتين قامتا بوضع عبوات ناسفة في ثلاثة اوتوبيسات وكذلك في شارع « محني يهودا » وفي شارع « شمالي » ، وفي « ساحة تساهل» وتتالف الخليتان من ثمانية اعضاء من الجبهة الديمقراطية .

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center: *Editor*, Mahmoud Darwish: *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent, Europe L L 100 elsewhere L L 125: *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 65. *Address :* P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon ; Tel. 351261 : Cables : MARABHATH.

السعـــر: ٥ ل.ل. في لبـــنان
٦ ل.س. في سوريـــا
٦٥٠ فلسـاً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ في سائر الاقطار العربية
٨٥٠ درهماً في ج.ع.ل.

